الجزء الثاني

قوت القلوب

في معاملة المحبوب
ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

حققه، وقدم له، وعلق حواشيه
د. محمود إبراهيم محمد الرضواني

مكتبة
دار التراث

قوت القلوب

في معاملة المحبوب
ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

حققه ، وقدم له ، وعلق حواشيه
د. محمود إبراهيم محمد الرضواني
دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الثاني

مكتبة دار التراث

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثانى والثلاثون (١)

فيه شرح مقامات اليقين وأحوال الموقنين

أصولُ مقامات اليقين التى تُرَدُّ إليها فروعُ أحوال المتقين تسعة؛ أوّلُها: التوبة، والصبر، والشكر، والرجاء، والخوف، والزهد، والتوكل، والرضا، والمحبة؛ وهذه محبة الخصوص، وهى محبة المحبوب.

ذكر فروض التوبة، وشرح فضائلها، ووصف التوابين [وهو المقام الأول من مقامات اليقين]

قال الله تعالى فى البيان الأوّل من خطاب العموم: ﴿وَتُوبُوا إِلَى الله جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، معناه: ارجعوا إليه من هوى نفوسكم، ومن وقوفكم مع شهواتكم، عسى أن تظفروا ببُغيتكم فى المعاد، وكى تبقوا ببقاء الله عزّ وجلّ فى نعيم لا زوال له ولا نفاد، ولكى تفوزوا وتسعدوا بدخول الجنة، وتنجوا من النار، فهذا هو الفلاح.

وقال فى البيان الثانى من مخاطبته الخصوص: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَصُوحًا عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾ [التحريم: ٨]، فنَصُوحًا: من النُّصح، جاء على وزن فَعُول، للمبالغة فى النُّصح. وقد قُرِئَت «نُصوحًا»(٢) بضم النون، فتكون حينئذ مصدر نَصحت له

(١) من هنا تبدأ مخطوطة (خ). وعليها أعتمد فى إثبات الزيادات.

(٢) وهى قراءة أبى بكر بن عاصم، وخارجة عن نافع. انظر: السبعة فى القراءات، لابن مجاهد، ص٦٤١.

نُصْحًا ونُصُوحًا. فمعناه: خالصة لله تعالى. وقيل: اشتقاقه من النِّصاح، وهو الخيط، أى مجرّدة لا تتعلق بشىء ولا يتعلق بها شىء. وهو الاستقامة على الطاعة من غير تَفلُّت إلى خطيئة، ولا عودة إلى ذنْب، ولا رَوَغان عن المحجة إلى معصية[١] كما تروغ الثعالبُ. وأن لا يحدِّث نفسه بعودٍ إلى ذنب متى قدر عليه، وأن يترك الذنب لأجلِ الله تعالى خالصًا لوجهه، كما ارتكبه لأجل هواه، مُجْمعًا عليه بقَلْبه وشَهْوته. فمتى أتى اللهَ عزّ وجلّ بقلبٍ سليم من الهوى، وعملٍ خالصٍ مستقيمٍ على السنّة، فقد خُتم له بحُسنِ الخاتمة، فحينئذ أدركته الحُسنى السابقة، وهذا هو التوبة النصوح، وهذا العبد هو التوّابُ المتطهِّرُ الحبيب، وهذا إخبار عمَّن سبقت له مِن الله الحسنى، ومَن تَدَارَكَهُ نعمةٌ من ربّه، رَحِمَهُ بها مِنْ ناره[٢] السُّوأى، وهو وَصْفٌ لمن قصدَهُ بخطابِه، إذ يقول سبحانه فى كتابه: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وكما قال رسول الله ﷺ: «التّائبُ حبيبُ اللهِ، والتّائب مِن الذّنب كمَن لا ذَنبَ لَه».

وسُئِل الحسن عن التوبة النصوح؛ فقال: هى نَدَمٌ بالقلبِ، واستغفارٌ باللسانِ، وتركٌ بالجوارح، وإضمارٌ أن لا يعود إليه.

وقال أبو محمّدٍ سهل، رحمه الله: ليس مِن الأشياءِ أَوْجَب على هذا الخلقِ من التوبة، ولا عقوبة أشد عليهم من فَقْد علم التوبة، وقد جَهِلَ الناسُ عِلْمَ التوبة. وقال: مَن يقول إنّ التوبة ليست بفرضٍ فهو كافر، ومن رضِى بقوله فهو كافر. وقال: التائبُ؛ الذى يتوب من غفلته فى الطاعات فى كل طرفة ونَفَسٍ.

وقد جعل علىٌّ كرّم الله وجهه تَرْكَ التوبةِ مقامًا فى العمى، وقرنَهُ باتباع الظنّ، ونسيانِ الذكر، فقال فى الحديث الطويل: ومن عَمِىَ نَسِىَ الذِّكر، واتّبع الظنَّ، وطلب المغفرةَ بلا توبةٍ ولا استكانة.

---

(١) فى (ط): «وهو الاستقامة على الطاعة من غير روغان إلى معصية كما تروغ الثعالب» وأثبت ما فى (خ).

(٢) فى (ط): «تلوث» وأثبت ما فى (خ).

فقوتُ[١] التوبةِ الذى لا بدّ للتائب منه، ولا يكون محقًّا صادقًا إلا به: الإقرارُ بالذنب، والاعترافُ بالظلم، ومقتُ النفسِ على الهوى، وحلُّ الإصرار الذى كان عقده على أعمال السيئات، وإطابةُ الغذاء بغاية ما يقدر عليه؛ لأن الطُّعمة أساس الصالحين، ثم الندمُ على ما فات مِن الجنايات.

وحقيقةُ الندمِ إن كان حقًّا، إذ لكلِّ حقٍّ حقيقةٌ: أن لا يعاود إلى مثل ما وقعَ الندمُ عليه، ثم اعتقادُ الاستقامة على الأمر[٢]، ومُجانَبةُ النّهى. وحقيقةُ الاستقامة أن لا يقابل ما يَسْتقبل[٣] من عمره بمثل ما وقع الاعوجاجُ به، وأن يتّبع سبيلَ مَنْ أنابَ إلى الله، وأن لا يصحب جاهلاً فيُرديه. ثم الاشتغالُ بإصلاح ما أفسد فى أيام بطالته؛ ليكونَ من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوا، فإنّ الله عزّ وجلّ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدِينَ، كما لا يُضيعُ أَجْرَ المحسنين. ثم الاستبدالُ بالصّالحات من السّيئاتِ والصّالحات مِن الحسنات، ليكونَ ممَّن تُبدَّلُ سيئاتُه حسنات لتحقُّقه بالتوبة وحسن الإنابة؛ لأنّ التبديل يكونُ فى الدنيا، يبدِّل بالأعمالِ السُّوأى أعمالاً حسنى، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. فإذا غيَّر ما بهم من سيّئٍ حسنًا بدَّل سيئاتِهم حسناتٍ.

ثم الندمُ، ودوامُ الحزن. وحقيقةُ الندم والحزنِ على الفوت أن لا يُفرِّطَ ولا يَنى فى وقت دَرَكِه، ولا يرجع ولا ينثنى فى حين استبداله، فيفوِّت نفسه وقتًا ثانيًا، إذ كان يعمل فى دَرَك ما فات، ولا يفوِّت ما أدرك فى حال تيقُّظه، فتكون يقظته شبيهًا بما مضى من غفلته، إذ كان فى درك ما فات شبيهًا بما مضى من غفلته، إذ لا يُدرَك الفوتُ بالفوت، ولا يُنال النعيمُ بالنعيم، ليكون كما وصف الله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِم خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] قيل: الاعتراف والندم.

(١) فى (ط): «ففرض التوبة» وأثبت ما (خ).
(٢) فى (خ): «على الطاعة».
(٣) فى (ط): «ما استقبل».

وقال أبو سليمان الداراني: لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على فَوت ما مضى منه فى غير الطّاعة، لكان خليقًا أن يحزنه ذلك إلى الممات. فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله؟!

وقال أبو محمّد سهلُ بن عبد الله: التّائبُ لا يقلُّه شيءٌ، يكون قلبه متعلقًا بالعرش حتى يفارق النفس، ولا عيشَ له إلا الضَّرُورةَ للقِوَامِ.

ويغتمُّ على ما مضى، والجدُّ فى الأمر، ومباينة النهى فيما بقى. ولا يتم له ذلك إلا باستعمال علم اليقين فى كل شىء، ثم المتابعة بأعمال الصالحات ليكون ممّن قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢] أى: يدفعون ما سلف من السيئات بما يعملون من الحسنات.

وكذلك قال النبى ﷺ فى حديث أبى ذر: «فإذا عَمِلْتَ سيّئةً فاعْمل بعدَها حسنةً، السرُّ بالسرِّ، والعلانيةُ بالعلانية». وفى وصيّة مُعاذ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها».

وليدخل فى الصالحين، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

ثم المسارعةُ إلى الخيرات إذا قدر عليها، ليدرك بها ما ضيِّع وفات؛ ليكون من الصالحين. وفى هذا المقام يصلح لمولاه فيحفظه ويتولاه، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وجمل(١) ما على العبد فى التوبة وما تعلق بها عشر خصال؛ أولها: فُرض عليه أن لا يعصى الله تعالى. والثانية: إن ابتُلى بمعصية لا يصرُّ عليها. والخصلة الثالثة: التوبةُ إلى الله تعالى منها. والرابعةُ: النَّدمُ على ما فَرَط منه. والخامسة: عقدُ الاستقامةِ على الطّاعة إلى الموت. والسّادسة: خوفُ العقوبة. والسّابعةُ: رجاءُ المغفرةِ. والثامنةُ: الاعترافُ بالذنبِ(٢). والتاسعة: اعتقادُ أنّ الله تعالى قدّر

(١) فى (خ): «فيشتمل».
(٢) فى (خ): «بالظلم».

ذلك عليه، وأنه عَدْلٌ منه. والعاشرة: المتابعةُ بالعملِ الصّالح[(١)] ليعمل فى الكفارات، لقوله ﷺ: «وأتبع السيئةَ الحسنة تمحها».

وفى جميع هذه الخصال جملُ آثارٍ رُويناها عن الصّحابة والتّابعين يكثُر ذكرها[(٢)]. ويقال: إنّ ملكَ الموت إذا ظهر للعبد أعْلمه أنه قد بقى من عمرك ساعة، وأنّك لا تستأخر عنها طرفة عين، قال: فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا من أوّلها إلى آخرها لخرج منها على أن يُضَمَّ إلى تلك الساعة ساعةٌ أخرى؛ ليُستعتب فيها أو يستبدل بها، فلا يجد إلى ذلك سبيلاً. وهذا تأويل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قيل: التوبةُ، وقيل: الزيادةُ فى العمر، وقيل: حسنُ الخاتمة. حيل بينهم وبين ذلك ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤] أى: بنظرائهم وأهل فرقتهم. قال: فإذا كلُّ ساعة تمضى على العبد فهى بمنزلة هذه الساعة، قيمتها الدنيا كلها، إذا عرف قيمة ذلك، فلذلك قيل: ليس لما بقى من عمر العبد قيمة إذا عَرَفَ وجهَ التقديرِ من الله تعالى بالتصريف والحكمة.

وقيل فى معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠] قال: الوقت القريب أن يقول العبد عند كشف الغطاء: يا ملك الموت أخِّرنى يومًا أعبد فيه ربى، وأعتب فيه ذنبى، وأتزوَّد صالحًا لنفسى، فيقول: فَنِيَت الأيامُ فلا يوم. فيقول: أخِّرنى ساعة، فيقول: فَنِيت الساعاتُ فلا ساعة. قال: فتبلغ الروح الحلقوم فيؤخذ بكَظْمه عند الغَرغَرَة، فيُغْلَق بابُ التوبةِ ويُحجَب عنه، وتنقطع الأعمال، وتذهب الأوقات، ويبقى عددُ الأنفاس[(٣)] يشهد فيها المعاينة عند كَشْف الغطاء، فيحتدُّ بصرُهُ، فإذا كان فى آخر نفَسٍ زَهِقَتْ نفسُه، فيُدرِكُهُ ما سَبَق له من السّعادة، فتخرُج رُوحه على التوحيد، فذلك حسن الخاتمة، أو يدرِكُهُ ما سبق له من الشِّقْوَة فتخرُج روحه على الشك،

(١) فى (خ): «بالأعمال الصّالحة».
(٢) فى (خ): «عددها».
(٣) فى (ط): «وتتصاعد الأنفاس».

فهذا الذى قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء:١٨]. فهذا سوءُ الخاتمة نعوذ بالله منه، وقيل: هذا هو المنافق، ويقال: المدمنُ على المعاصى المصرُّ عليها.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]. قيل: قبل الموت، وقبل ظهور آيات الآخرة، وقبل الغرغرة، أى: تغرغر النفس فى الحلقوم؛ لأنه تعالى قد حكم أن التوبة بعد ظهورِ أعلام الآخرة لا تُقبل.

ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ يأتى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنى: من قبل معاينة الآيات ﴿أَوْ كَسَبَتْ فى إِيمانها خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨] قيل: التوبة هى كسب الإيمان وأصول الخيرات. وقيل: الأعمال الصالحة هى مزيد الإيمان وعلامة الإيقان.

وقد قيل: ﴿ثمَّ يَتوبُون مِن قَرِيبٍ﴾ أى: عن قريب عهد بالخطيئة لا يتمادى فيها ولا يتباعد عن التوبة. وتوبته من قريب أن يعقب الذنب عملاً صالحًا، ولا يُردفه ذنبًا آخر، وأن يخرج من السيئة إلى الحسنة، ولا يدخل فى سيئة أخرى.

وقيل: أول مَنْ يسأل الرجعة من هذه الأمة مَنْ لم يكن أدى زكاة ماله، أو لم يكن حجّ بيت ربه، فذلك تأويل قول الله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحينَ﴾ [المنافقون:١٠]. وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول: هذه الآية من أشد شىء على أهل التوحيد، هذا لقوله تعالى فى أوّلها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله﴾ [المنافقون:٩]. وقد قيل: لا يَسألُ عَبْدٌ الرَّجْعةَ عند الموتِ وله عند الله عزّ وجلّ مثقالُ ذرةٍ من خير.

وَرُوينا بمعناه: «مَنْ كان له فى الآخرة مثقال ذرة من خير لو أن له الدنيا بما فيها من أوّلها إلى آخرها لم يحبَّ أن يعودَ إلى الدنيا».

وقال بعض العارفين: إنّ لله تعالى إلى عبده سِرَّين يُسِرُّهُما إليه يوجدُه ذلك

بإلهام يلهمه؛ أحدهما: إذا وُلد وخرج من بطن أمه يقول له: عبدى قد أخرجتُك إلى الدنيا طاهرًا نظيفًا، واستودعتُك عمرك ائتمنتُك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقانى كما أخرجتك. وسرٌّ عند خروج روحه يقول: عبدى، ماذا صنعتَ فى أمانتى عندك؟ هل حفظتَها حتى تلقانى على العهد والرعاية فألقاك بالوفاء والجزاء؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟ فهذا داخل فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون:٨]، وفى قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

عمرُ العبد أمانة عنده؛ إن حفظه فقد أدّى الأمانة وإن ضيّعه فقد خان الله، وإن الله لا يحبّ الخائنين. وفى خبر ابن عباس رضى الله عنه: من ضيّع فرائضَ الله عزّ وجلّ خرج من أمانة الله، وعند التوبة النصوح تكفيرُ السيئاتِ ودخولُ الجنات.

وكان بعضهم يقول: قد علمتُ متى يغفرُ اللهُ لى. قيل: ومتى؟ قال: إذا تاب علىَّ. وقال آخر: أنا مِنْ أن أُحرمَ التوبةَ أخوفُ منى من أن أُحرم المغفرةَ. وقال الله تعالى، ومَنْ أَصْدَقُ من الله حَديثًا: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]. وقال تعالى فى مثله: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

وقال بعض العلماء: لا تَصِحُّ التوبةُ لعبدٍ حتى ينسى شهواتِه، ويكونَ ذاكرًا للحُزن لا يُفارقُ(١) قَلْبَهُ، ذاهبًا عن الذّنب لا يخالجُ سرَّه. وقال بعض علماء الشام: لا يكونُ المُريدُ تائبًا حتى لا يكتب عليه صاحِبُ الشِّمال معصيةً عِشْرِينَ سنة.

وقال بعضُ السّلف: من علامة صدق التائب فى توبته أن يستبدلَ بحلاوةِ الهوى حلاوةَ الطّاعةِ، وبفَرحِ رُكوبِ الذّنبِ الحزنَ عليه، والسُّرورَ بحُسنِ الإنابةِ. وقال بعض العلماء فى معناه: لا يكون العبد تائبًا حتى يُدخل مرارةَ مخالفةِ النَّفس مكان حلاوةِ موافقتها.

---

(١) فى (ط): «لا يفارقه».

وحُدِّثنا فى الإسرائيليّات: إن الله عزّ وجلّ قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبولَ توبةِ عبدٍ بعد أن اجتهدَ سنين فى العبادة ولم يرَ قبولَ توبته، فقال له: وعزّتى وجلالى لو شَفَع فيه أهلُ السمواتِ والأرضِ ما قَبِلْتُ توبتَهُ وحلاوةُ ذلكَ الذّنبِ الذى تابَ منه فى قلبِه.

ومن بَقِيت حلاوةُ المعصيةِ فى قلبه أو نظر إليها إذا ذكرها بفكرِه خِيف عليه العَوْدُ فيها إلا بشدة مجاهدةٍ، وكراهةٍ لها، ونفى خاطرِها عن سره اذا ذكرها بالخوف والإشفاق منها.

وقال أبو محمد سَهل: أولُ ما يُؤمر به المبتدئ المريدُ التوبةُ، وهو تحويلُ الحركات المذمومة إلى حركات محمودة، ويُلزم نفسه الخلوة والصمت، ولا تَصِحُّ له توبةٌ إلا بأكلِ الحلال، ولا يقدر على الحلال حتى يؤدى حقّ الله تعالى فى الخلق، وحقّ الله تعالى فى نفسه، ولا يصحّ له هذا حتّى يتبرأ من حركته وسكونه إلا بالله تعالى، وحتّى لا يأمن الاستدراجَ بأعمال الصالحات وحقيقةُ التوبة: أن يدعَ مَا لَهُ حتّى لا يدخل فيما عليه، ولا يكون يسوِّف أبدًا، إنَّما يُلزِم نَفسَهُ الحالَ فى الوقت.

وحدَّثونا عن سَرِىٍّ السَّقَطى أنّه قال: من شرط التوبة أنّه ينبغى للتائب المنيبِ أن يبدأ بمباينةِ أهل المعاصى، ثمّ بنفسه التى كان يعصى الله تعالى لها ولا يُنيلها إلا ما لا بدَّ منه، ثم الاعتزامُ على أن لا يعودَ فى معصية أبدًا، ويُلقى عن الناس مؤونَتَهُ، ويدَعَ كلَّ ما يضطره إلى جَرِيرَةٍ، ولا يتبع هوًى، ويتَّبع مَن مضى من السّلف.

وينبغى لأهلِ التوبة أن يحاسبوا نفوسَهُم فى كلّ طرفة، ويدَعُوا كلَّ شهوةٍ ويتركُوا الفضولَ، وهى ستة أشياء: تَرْكُ فضولِ الكلام، وتركُ فضول النظر، وترك فضولِ المشى، وتركُ فضولِ الطعام، والشرابِ، واللباسِ قال: ولا يقوى على تركِ الشُّبُهات إلاّ من ترك الشهوات.

وسُئل يحيى بنُ معاذ، رحمه الله: كيف يصنع التائب؟ فقال: هو من عمره بين يومين؛ يوم مضى، ويوم بقى. فيصلحهما بثلاث: أما ما مَضَى فبالنّدم

والاستغفار. وأما ما بقى فبتَرْكِ التخليط وأهله، ولزومِ المريدينَ، ومجالسةِ الذّاكرين. والثالثة لزومُ تصفيةِ الغذاء، والدُّؤوبُ على العمل.

ومن علامة صدق التوبة: رِقّةُ القلب، وغزارةُ الدمع. وفى الخبر: «جالسوا التّوابين فإنّهم أرقّ شىءٍ أفئدةً».

ومن التحقُّق بالتوبة أن يستعظمَ ذنوبَه، فإنّه يقال: إنّ الذنبَ كلّما استعظمه العبدُ صَغُرَ عند الله تعالى. ويقال: إنّ استصغارَ الذّنب كبيرةٌ.

كما جاء فى الخبر: «المؤمنُ: الذى يرى ذنبه كالجبل فوقَه يخافُ أن يقَعَ عليه، والمنافقُ: الذى يرى ذنبَهُ كذُبابٍ مرّ على أنفه فأطارَه». وقد رُوِينا فى خبر مرسل: «ليتَّقِ أحدُكُم أن يُؤخذَ عند أدنى ذُنوبِه فى نفسه».

وقال بعضهم: الذنبُ الذى لا يُغفر قولُ العبدِ: ليتَ كلَّ شىءٍ عملتُه مثلُ هذا، فهذا كما قال بلالُ بنُ سعدٍ: لا تنظر إلى صِغَرِ الخَطِيئة، ولكن انظرْ إلى مَنْ عَصَيْتَ.

وقد حُدِّثنا عن الله تعالى أنه أوحى إلى بعض أوليائه: «لا تنظر إلى قلّة الهداية، وانظرْ إلى عَظَمة مُهْدِيها. ولا تنظرْ إلى صغَر الخطيئة وانظرْ إلى كِبرياء من واجَهْتَه بها». فإنما عَظُمَت الذنوبُ عن تعظيمِ المُواجَه بها، وكبُرت فى القلوب لمشاهدة ذى الكبرياءِ، ومخالفةِ أمرِه إليها، فلم يصغُرْ ذنبٌ عند ذلك، وكانت الصغائرُ عند الخائفين كبائرَ، وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ [الحج: ٣٠]، ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] قيل: الحرماتُ تَعْظُم فى قلبِه فلا ينتهكُها.

ومن هذا قول الصحابة للتابعين: «إنكم لتعملونَ أعمالاً هى أدقُّ فى أعينكم من الشَّعَرِ كنّا نعدُّها فى عهد النبى ﷺ من المُوبقات». ليسوا يَعْنونَ أنّ الكبائر التى كانت على عهد النبى ﷺ صارت بعده صغائر، ولكن كانوا يستعظمونَ الصّغائرَ لعظمةِ الله تعالى فى قلوبهم لعظيم نور الإيمان، ولم يكن ذلك فى قلوب مَن بعدَهُم.

وأوحى الله تعالى إلى بعض أوليائه: كم من ذنبٍ رأيتُه منك قد أهلكتُ بدونه أمةً من الأمم؟! وقد رُوينا عن أبان بن إسماعيل عن أنس عن النبى ﷺ: «إنّ اللهَ تعالى أَهْلَكَ أمةً من الأمم كانوا يعبثون بذُكُورِهم».

فأما نسيانه الذنوبَ وذكرُها، فقد اختلف قولُ العارفين فى ذلك، فقال بعضهم: حقيقةُ التوبةِ أن تَنْصِبَ ذنبكَ بين عينيك. وقال آخر: حقيقةُ التوبة أن تنسى ذنبك. وهذان طريقان لطائفتين، وحالان لأهل مقامين.

فأمّا ذكرُ الذنوبِ؛ فطريقُ المريدين وحالُ الخائفين، يستخرج منهم بتذكرها الحزنَ الدائم، والخوفَ اللازم.

وأما نسيانُ الذنوب شغلاً عنها بالأذكار، وما يَستقْبِلُ من مزيدِ الأعمال، فطريقُ العارفين وحال المحبين. ووِجْهة هؤلاء شَهادَةُ التوحيدِ، وهى مَقامٌ فى التعرُّف. ووِجهةُ الأوّلين مشاهدَةُ التوقيفِ والتحديد؛ وهى مقامٌ فى التعريف.

ففى أىّ المقامين أُقيم عبدٌ قام بشهادة وِجهته وعَمِلَ بحكم حالته. ومَقامُ شهادةِ التوحيد أفضلُ عند العارفين من مقام مشاهَدَةِ التعريفِ، وإن كانت هذه أوسعَ وأكثرَ إلا أنّها فى أصحاب اليمين، وفى عُموم المقرَّبين. وشهادةُ التوحيد أضيقُ وأقلُّ، وأهلُها أعلى وأفضلُ، وهى فى المقرَّبين وخصوصِ العارفين.

وقد يعترض المريدُ بقصّة داود عليه السلام فى تذكُّره ونَوْحه على خطيئته، فإنّ الأنبياء لا يُقاس عليهم؛ لمجاوزتهم حدودَ من دونهم، وقد يُقلَّبُون فى أحوالِ المريدين، ويُسْلَك بِهم سُبُلَ المتعلمين؛ وذلك لأجل الأمّة، ليكون طريقًا للعالمين.

واعلم أنه لا يُؤمَن على ضعيفِ اليقين قَوِىِّ النفس عند تذكّر الذنوب نَظَرُ القلبِ إليها بشهوة، أو ميلِ نفسٍ معها بحلاوة، فيكونُ ذلك سببَ فتنته؛ فيفسدُ من حيث صلَح. كما لا يُؤمَن على معتادِ خطيئةٍ بالنَّظرِ إلى سَبَبِها حَرَكَةُ النفس إليها، وإن كان الأفضلُ الاتفاق معها ما لم يكن الاتفاقُ معصيةً، لمجاهدة النَّفس بالصبر عنها، إلا أنّ ذلك غَرَرٌ[1]، وفيه خطر، فتركُ الاجتماع وقطعُ الأسباب

(١) فى (ط): «غرور».

حينئذ أسلمُ، وما كان أسلَمَ للمُريدِ فهو أفضلُ، وفى نسيان الذنوب الذكرُ لما يَستقبل، والانكماشُ على ما يفوت من الوقت خوفَ فَوْتٍ ثانٍ[١].

وقد كان بعض أهل المعرفة[٢] يكره للمريد أن يكونَ وَسْواسُه[٣] الجنّةَ، أو تَذكُّرَ ما فيها من النعيم واللباس والأزواج. وقال: واستُحبَّ للمريدِ أن يكون وسواسُه ذكرَ الله تعالى، وخواطرُهُ وهممُهُ متعلقةً بالله تعالى لا سواه. قال: لأنّ المريد حديثُ عهدٍ بتوبة غيرُ معتادٍ لطول الاستقامة والعصمة؛ فإذا تذكَّر نعيمَ الجنةِ لم آمن عليه لضَعْفِ قلبهِ أن يشتهى مثلَهُ مما يشاهد فى الدنيا من اللّباس والطيبات والنّساء؛ لأنّ هذا عاجل، وذاك آجل، فتطلب نفسُه مثلَ ما تذكّرتْ من نعيم الآخرة معجَّلاً فى الدنيا. قال: فإذا كان همَّه اللهُ تعالى كان أبعدَ له من زينةِ الدنيا وشهَواتها، ولم يجترِ العدوُّ[٤] بتمثيل ذلك له من العاجل، إلى أن يَقْوَى يقينُه، وتنتقل عادته، وتدوم عصمتُه.

وقد اختلف أهلُ العلم أيضًا فى عبدٍ تركَ ذنبًا وعمِلَ فى الاستقامة، ونفسُه تنازعه إليه، وهو يجاهدُها. وفى آخر: تركَ الذنبَ وانكمشَ فى الإصلاح، فلم تكن نفسه تطالبه، فلا تنازعه إلى الذنب، ولم يكن على قلبه منه ثِقَلٌ ولا مجاهدة. أيُّ هذين أفضلُ؟

فقال بعض علماء أهل الشام: الذى تنازعه نفسه إلى الذنب وهو يجاهدها أفضل؛ لأنّ عليه منازعة، وله فضلُ مجاهدة.

ومال إلى هذا القول أحمدُ بنُ أبى الحوارى، وأصحابُ أبى سليمان الدّارانىّ.

وقال علماءُ البصرة: الذى سكنَت نفسُه عن المنازَعَة بشاهدٍ من شواهد اليقين والطُّمَأنينة فلم يَبْقَ فيه فضلٌ لعودٍ ولا طَلَبٌ لمعتادٍ أفضلُ.

---

(١) فى (ط): «فوت الثانى» وأثبت ما فى (ك) و(خ).

(٢) فى (خ): «العارفين».

(٣) فى (خ): «وساوسه».

(٤) يجتر العدو: أى يتجرأ عليه.

ومال إلى هذا رياح بنُ عمرو القيسى[١]، وهو من كِبار علماءِ البَصْريين. وقال: لو فَتَرا لكان هذا أقربَ إلى السّلامة ولم يُؤمَن على الأول الرجوعُ[٢]. وهذا كما قال.

وقد اختلف العلماء أيضًا فى عبدين: سُئل أحدهُما شيئًا من بَذْلِ ماله فى سبيل الله، فأبت نفسُه عليه، وثَقُل عليها ذلك، فجاهَدَها وأخرج مالَهُ. وسُئِلَ آخرُ بَذْلَ مالِهِ فبذَلَهُ مع السّؤالِ طَوعًا من غير مُنازعةِ نَفْسٍ، ولا ثِقَلٍ عليها، ولا مجاهدةٍ منه لها، أيهما أفضل؟

فقال قوم: المجاهِدُ لنفسِه أفضلُ؛ لأنّه اجتمعَ له الإكراهُ والمجاهدةُ، فحصل له عملان. وذهب إلى هذا القولِ ابنُ عطاء وأصحابُه. وقال آخرون: الذى سمَحَت نفسه بالبذل طوعًا من غير إكراه ولا اعتراض أفضلُ. قال: لأنّ مقام هذا فى سخاوَةِ النّفس والتحققِ بالزُّهد أفضلُ من جميعِ أعمالِ الأوّل من الإكراه والمجاهدة، ومن بَذْلِ ماله على ذلك؛ ولأنّ الأول وإن غلَب نفسَه فى هذه الكَرَّة لا يأمَنُ غَلَبَتها لهُ فى كَرَّةٍ ثانية أو ثالثة، إذ ليس السَّخاءُ من مقامها؛ لأنها كانَتْ محمولةً عليه. وإلى هذا ذهب الجُنيد رحمه الله، وهو عندى كما قال، واللفظ لنا.

وسئل أبو محمّد سهل عن الرجل يتوبُ من الشيء ويتركُه، ثم يَخْطِرُ ذلك الشيءُ بقلبِه أو يراه أو يسمع به، فيجدُ حلاوةً؟ فقال: الحلاوةُ طبعُ البشريةِ، ولا بدّ من الطبع، وليس له حيلةٌ إلا أن يرفعَ قلبَه إلى مولاه بالشكوى، ويُنكره بقلبه، ويُلزِم نفسَه الإنكارَ ولا يفارقُه، ويدعو اللهَ تعالى أن يُنسِيَهُ ذِكْرَ ذلك، ويشغَلَه بغيره من ذكرِه وطاعته. وقال: فإن هو غَفَل عن الإنكار طرفةَ عينٍ آخاف عليه أن لا يَسْلَمَ، وتعمل الحَلاوةُ فى قلبه، ولكن مع وجدان الحلاوة يُلزم قلبَه الإنكارَ والحزنَ، فإنه لا يضرُّه.

وهذا عندى هكذا؛ لأنّ التوبةَ تَصحّ[٣] مع بقاءِ الشهوة، ويكونُ العبدُ مرادًا

(١) رياح له ترجمة فى الحلية (٦/ ١٩٢ ـ ١٩٧).

(٢) فى (ط): «لو فتر هذا لكان هذا . . . على الآخر الرجوع» وأثبت ما فى (خ) و(ك). وفترا: على التثنية.

(٣) فى (ط): «لا تصح» وأثبت ما فى (خ).

بالمجاهدة، وهذا حالُ المريدين. ومحوُ الشهواتِ من القلبِ بدوام التَّولِّى وصفُ العارفين.

وربّما تعلَّق بالذنب ذنوبٌ كثيرة هى أعظمُ منه؛ مثلُ الإصرارِ عليه، والاغتباطِ به، وتسويفِ التوبة بعده، ووَجْدِ حلاوةِ الظَّفَرِ بمثاله، أو وَجْدِ الحزنِ والكراهةِ على فوته، والسرورِ بعمله أو حَمْلِ غيرِه عليه إن كان ذنبًا بين اثنين، أو إنفاقِ مالِ الله سبحانه وتعالى فيه، فهو كفرُ النّعمةِ به. وقد قيل: من أنفق دِرهمًا فى حَرام فهو مسرف.

ومن ذلك: أن يستصغرَ الذنبَ ويحتقرَهُ فيكون أعظمَ من اجتراحِه، أو يتهاونَ بستر الله تعالى عليه ويستخفَّ بحلم الله تعالى عنه، فيكون ذلك من الاغترار والأمن، أو يجهل نعمةَ الله تعالى عليه فى ستره وإظهارِ ضدِّه، كما قال فى الدعاء المأثور الذى يُمْدَحُ اللهُ سبحانه وتعالى به: «يا مَنْ أظهَرَ الجميلَ، وسترَ علىَّ القبيحَ، ولم يؤاخذ بالجَريرة، ولم يَهتِك السِّتر». ويقال: كلُّ عاصٍ تحت كَنَف الرحمن، فإذا رفع يَدَهُ عنه انهتك سترُه.

ومن ذلك: المجاهرةُ بالذنب والصّول به والتّظاهرُ، وهذا من الطغيان، وفى الخبر: «كلُّ الناسِ معافًى إلا المجاهِرين، يبيت أحدُهم على الذّنب قد ستره الله تعالى عليه، فيصبحُ فيكشفُ سِتْرَ الله تعالى ويتحدثُ بذنبه».

وربّما سَنَّ العاصى بالذنب سنّةً اتُّبِعَ عليها، فتبقى سيئاتُ ذنبه عليه ما دام يُعمل به. وقد قيل: طُوبى لمن إذا مات ماتَتْ ذُنوبُه معه ولم يُؤاخَذ بها بعده! وطوبى لمن لم يَعُدَّ[1] ذَنْبَه غَيْرُه. وقال بعضهم: لا تُذنبْ، فإن كان لا بُدَّ فلا تحملْ غيرَك على الذنب فتكسب ذَنبين. وقد جعل اللهُ تعالى هذا المعنى وصفًا من أوصاف المنافقين فى قوله تعالى: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ**﴾ [التوبة: ٦٧]. فمن حمل أخاه على ذنب معه فقد أمر بالمنكر ونهى عن المعروف.

---

(١) فى (ط): «لم يعدد».

وقال بعض السّلف: ما انتهك المرءُ من أخيه حرمةً أعظمَ من أن يساعده على معصيته ثم يُهوِّنَها عليه.

وقد يعيشُ العبدُ أربعين سنةً ثم يموت فتبقى ذنوبُه بعده مائة سنة، يُعاقَب عليها فى قبره إذا كان قد سنّها سُنَنًا[1] واتُّبِع عليها، إلى أن تندرسَ أو يموتَ من كان يعمل بها، ثمّ تسقُطُ عنه ويستريحُ منها.

ويقال: أعظمُ الذنوبِ مَنْ ظَلم مَنْ لا يعرفُهُ ولم يرَهُ من المتقدمين؛ مثلُ أن يتكلم فيمن سلَف من أهل الدين وأئمةِ المتقين.

فهذه المعانى كلّها تدخل على الذّنب الواحدِ وهى أعظمُ منه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وآثَارَهُمْ﴾ [يس:١٢] قيل: سننُهُم التى عُمِل بها بعدَهُم.

وفى الخبر: «مَنْ سنَّ سنَّة سيئةً، فعَمِل بها مَنْ بَعْدَه، كان عليه مثلُ وِزر مَنْ عَمِل بها لا يَنقُصُ من أوزارِهم شيئًا».

وكان ابنُ عباس رضى الله عنهما يقول: ويلٌ للعالِم من الأتباعِ، يزلُّ زلَّةً فيرجعُ عنها، ويحتملُها الناسُ فيذهبون بها فى الآفاق. وقال بعضُ أهل الأدب: مَثَلُ زَلَّةِ العالِمِ مثلُ انكسارِ السّفينةِ تَغرقُ ويغرق الخَلقُ معها.

وفى الخبر الإسرائيلى: إنّ عالِمًا كان يُضِلُّ الناسَ بالبِدَعِ، ثم أدركَتْهُ توبةٌ، فرجع إلى الله تعالى، وعمِل فى الإصلاح دهرًا، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له: إنّ ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك بالغًا ما بلَغ، ولكن كيف بمَن أضللتَ من عبادى فأدخلتَهُمُ النارَ؟!

فأما استحلالُ المعصية أو إحلالُها للغير، فليس من هذه الأبواب فى شىء، إنّما ذلك خروجٌ عن المِلَّة، وتبديلٌ للشريعة، وهو الكفر بالله تعالى، كما روى عن النبى ﷺ: «ما آمن بالقرآن مَن استحلَّ محارمَه». وقد سمّى الله تعالى عَمَلَة السُّوءِ جَهَلَةً فقال تعالى: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الأنعام:٥٤]. وقال

(١) فى (ط): «سننًا».

تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]. وقال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١].

ويقال: إنّ العرشَ يهتزّ ويغضبُ الرّبُّ تعالى لثلاثة أعمال: لقتلِ النّفس بغيرِ نفس، وإتيانِ الذَّكَرِ الذَّكَرَ، وركوبِ الأنثى الأنثى. وفى خبر: «لو اغتسل اللّوطى بالبحار لم يطهِّره إلا التوبة».

ولو لم يكن فى يسير المعصية من الشّؤم إلا حرمانُ الطّاعة وفقدُ حلاوة الخدْمة ومقتُ المولى لكان هذا من أعظم العقوبات. كما قال وُهَيبُ بنُ الوَرْدِ وقد سُئل: هل يجد العاصى حلاوةَ الطاعة؟ قال: لا، ولا من هَمَّ بمعصية. ولذلك سمّى الله تعالى «يحيى» سيِّدًا؛ لأنّه لم يهمَّ بمعصية، فصار علامةَ السَّيِّد بقدر سُودَده[1] مَن لا يَهُمُّ بالمعاصى، فصار مَن لا يهمّ بالمعاصى سيِّدًا. وفى خبر: «مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَة ـ وفى بعضها: مَنْ نَظر إلى عِطْفَيْه ـ فاخْتالَ أعرضَ اللهُ تعالى عنه وإن كان عندَه حَبِيبًا». كيف، وفى المخالفة وجودُ البعدِ والوَحشةِ والانقطاع من المعاملة!

ورُوينا فى خبر: «إنّ آدم، عليه السلام، لمّا أكل من الشَّجرة تَطايَرَت الحُلَلُ عن جسده وبدَتْ عَورتُهُ، قال: فاستحيا التاجُ والإكليلُ من وجهه أن يَرتفعا عنه، فجاءَهُ جبريلُ، عليه السلام، فأخذ التاجَ عن رأسِه، وحَلَّ ميكائيلُ الإكليلَ عن جبينه، ونوديا من فوق العرش: اهبطا من جوارى، فإنّه لا يجاورنى من عَصانى. فالتفتَ ادمُ إلى حوّاءَ باكيًا، وقال: هذا أولُ شؤم المعصية، أُخرجنا من جِوار الحبيب».

ورُوينا أن سُليمان نبيّ الله ﷺ لما عُوقب على خطيئتِه من أجل التّمثال الذى عُبِدَ فى داره أربعين يومًا، وقيل: إن المرأة سألته أن يحكم لأبيها على خصمه فقال: نعم ولم يفعل، وقيل: بل أحبَّ بقلبه أن يكون الحُكْمُ لأبيها على خَصمه لمكانها ـ فسُلب ملكُه أربعين يومًا، فهرب تائهًا على وجهِهِ، وكان يسأل بكفه فلا يُطعَم، فإذا قال: أطعمونى فإنى سليمان بن داود شُجَّ وضُرِب. ولقد بلغنى أنه

(١) فى (ط): «بقدر سودد». والسُّودَد: الشرف، وقد يهمز، يقال: السُّؤدُد.

استطعم من بيت فطُرِد وبَزقت امرأةٌ في وجهه. وفي رواية قال: فأَخرجت إليه عجوز جَرَّة فيها بَوْلٌ فصبَّتْهُ على رأسِه. إلى أن أُخْرِجَ له الخَاتمُ من بَطْنِ الحوت، فلبسه بعد انقضاء الأربعين، وهى أيام العقوبة. قال: فجاءت الطّيرُ فعكفتْ عليه، وجاءت الجِنُّ والشّياطين والوُحوش فاجتمعت حولَه، فلمّا عرفه الصّيادون عقرُوا بين يديه، واعتذروا إليه مما كانوا طردُوه وشجُّوه، فقال: لا ألومُكُم فيما صَنعتم قَبْلُ، ولا أحمَدُكم فيما تَصْنعون الآن، هذا أمرٌ من السماء فلا بُدّ منه.

ولقد بلغني أنّه كان في مسيرِه والريحُ تحمله في جنوده، إذ نظر إلى قَميصهِ نَظرَةً، وكان عليه قميصٌ جديد، فكأنه أعجبه، فوضعته الريحُ بالأرض، فقال لها: لِمَ فعلتِ ولم آمركِ؟ قالت: إنّما نطيعك إذا أطعتَ اللهَ تعالى.

وقد قال بعض العلماء في معنى هذا: مَن خَاف اللهَ تعالى خَافَهُ كُلُّ شيء، ومن خافَ غيرَ الله تعالى أخافَهُ اللهُ تعالى من كلِّ شيء. فكذلك أيضًا: من أطاعَ اللهَ تعالى سخَّر له كلَّ شيء، ومن عصاه سخَّره لكلِّ شيء، أو سلّط عليه كلَّ شيء.

ولو لم يكن في الإصرارِ على المعصية مِن الشُّؤم إلا أنّ كلَّ ما يصيبُ العبدَ يكون له عقوبة، إن كان سَعَةً عوقب بذلك ولم يأمن بها الاستدراج، وإن كان ضِيقًا كان عقوبةً له.

وفي الخبر: «إن العبد ليُحرَمُ الرزقَ بالذنبِ يُصِيبُه».

وقد قيل: الرِّزقُ من الحرام من قلّة التوفيقِ للأعمال الصّالحة. وكان ابنُ مسعودٍ رضى الله عنه يقول: إني لأحسَبُ أنَّ العبدَ ينسَى العِلْمَ بالذَّنبِ يُصِيبُهُ.

ولو لم يكن من بركة التّوبة والعِلم والاستقامة على الطّاعة إلا أنَّ كلَّ ما يصيب العبدَ فهو خير له، إن كان سَعَةً فهو رِزْق[1] منَّ الله تعالى به عليه، ولطفٌ له منه؛ وإن كان ضِيقًا فهو اختبارٌ من الله تعالى وخِيرَةٌ للعبد، ويجد حلاوةَ ذلك ولذّته، لأنّه في سبيله، وقد أصابه وهو مقيم على طاعته.

(١) في (ط): «رفق».

ولو لم يكن من شُؤم النّاس ووَجْدِ النّقصِ لمخالطتهم إلا أنّ المعصية معهم أشدُّ، وهى بهم أعظمُ لتعلُّق المظالمِ فى أمر الدّنيا وشأنِ الدِّين، وكلُّ مَنْ قلَّت معارفه قلَّتْ معهم خَطاياهُ. وقال بعضُ السّلف: ليست اللّعنةُ سوادًا فى الوجهِ ونقصًا فى المال، إنّما اللعنةُ أن لا يخرجَ من ذنب إلا وقع فى مثله أو شرٍّ منه، وذلك أنّ اللعنةَ هى الطّردُ والبعد، فإذا طُرد من الطّاعة فلم تُيَسَّر له[1] وبُعِّدَ عن القُرُبات فلم يُوَفَّق لها، فقد لُعِن.

وقد قيل فى معنى الخبر الذى رويناه آنفًا: «إنّ العبدَ ليُحرَمُ الرِّزقَ بالذَّنب يُصيبُه» قيل. أن يُحرَمَ الحلالَ، ولا يُوفَّق له بوقوعه فى المعصية. وقيل: يُحرَمُ مجالسةَ العلماء، ولا ينشرح قلبُه لصُحبة أهل الخير. وقيل: يَمقُتُه الصّالحون وأهلُ العلم بالله تعالى، فيُعرضون عنه. وقيل: يُحرَمُ العلمَ الذى لا صَلاحَ للعملِ إلا به؛ لأجل إقامته على الجهْل، ولا تنكشف له الشُّبهاتُ بإقامته على الشّهوات، بل تلتبسُ عليه الأمور فيتحيَّر فيها بغيرِ عِصْمةٍ من الله تعالى، ولا يُوفَّق للأصوبِ والأفضل.

وقد كان الفُضَيلُ يقول: ما أنكرتَ مِن تغيُّر الزمان وجفاء الإخوان، فذنُوبُكَ أوْرَثَتْكَ[2] ذلك.

ويقال: نسيانُ القُرآن بعد حفظه مِن أشدِّ العقوبات، والمنعُ من تلاوتِه وضيقُ الصّدرِ بقراءتِه والاشتغالُ عنه بضدِّه عقوبةُ الإصرارِ.

وقال بعضُ صُوفية أهلِ الشّام: نظرتُ إلى غُلام نصْرانىٍّ حَسَنِ الوَجْه، فوقفت أنظر إليه، فمرَّ بى ابن الجلاَّء الدِّمَشْقىُّ، فأخذَ بيدى، فاستحْيَيْتُ منه، فقلتُ: يا أبا عبد الله، سبحان الله! تعجَّبتُ من هذه الصّورة الحسنة، وهذه الصَّنعة المُحْكمة، كيف خُلقت للنّار! فغمزَ يدى وقال: لتجدَنّ عقوبتَهُ بعدَ حين. قال: فعُوقِبْتُ بَعْدَ ثلاثينَ سَنَةً.

---

(١) فى (خ): «فإذا طرد من الطاعات ولم يتيسر له».

(٢) فى (خ): «ورثتك».

وقال بعضهم: إنّى لأعرِف عقوبةَ ذَنْبى فى سُوءِ خُلُق حمارى. وقال آخر: أعرِفُ العُقوبةَ حتَّى فى فأرِ بيتى[١].

وحدَّثُونا عن منصورِ الفقيه قال: رأيت أبا عبد الله السّكرى فى النّوم فقلتُ: ما فعلَ اللهُ بك؟ قال: أوقفنى بين يديه فى العَرق حتّى سقَط لحمُ خدِّى. قلت: ولِمَ ذاك؟ قال: نظرتُ إلى غُلامٍ مُقبلاً ومُدبرًا.

والعقوبةُ موضوعُها الشِّدة والمشقّة. فعقوبةُ كلِّ عبدٍ من حيثُ يشتدّ عليه؛ فأهلُ الدّنيا يُعاقبون بحِرْمان رزقِ الدنيا؛ من تعذُّر الإكساب وإتلاف الأموال، وأهلُ الآخِرة يُعاقبون بحرمان رزق الآخرة من قِلّة التوفيقِ للأعمالِ الصالحات، وتعذُّر فتوحِ العلومِ الصّادقة، ذلك تقدير العزيزِ العليم. وكان أبو سُليمان الدّارانىُّ يقول: الاحتلامُ عقوبة. وقال: لا تفوت أحدًا صلاةٌ فى جماعةٍ إلا بذنب يُحْدِثُهُ.

فدقائقُ العقوباتِ على قَدْرِ ترافُع[٢] الدّرجات.

وقد جاء فى الأخبار: ما أنكرتم من زمانكم فبما غيَّرتم من أعمالكم. وفى الخبر: «يقولُ اللهُ عزّ وجلّ: إنّ أدنى ما أصنعُ بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتى أن أحرمَه لذيذَ مناجاتى». فهذه عقوبةُ أهل المعاملات.

ولو ظهر تغيُّرُ القلبِ عند المعصية على وجه العاصى لاسودَّ وجهه، ولكنَّ اللهَ تعالى سلَّم بحلمه وسِتْرِه، فغطَّى ذلك فى القلب مع تأثيره فيه، وحجابه لصاحبه، وقسوتِه عن الذِّكر، وعن طلب الخير والبر، والمسارعةِ إلى الخير، وهو من أكبرِ العُقوبات.

ويقال: إن العبدَ إذا عصى أظلم قلبُهُ ظُلمةً يثور على العَقْل[٣] منها دخانٌ يشهده الإيمان، فهو مكانُ حزن العبد الذى تسوءُه سيئتُه، ويكون ذلك الدّخَان حجابًا له عن العلم والبيان، كما تحجب السّحابةُ الشمسَ فلا تُرى، ويكون غُلْقًا يجده فى نفسه للخَلْقِ، فإذا تاب العبدُ وأصلحَ انكشفَ الحجابُ، فيظهر الإيمانُ

(١) فى (ط): «نار بيتى» والصواب ما فى (خ)، وفى (ك): «فى تسليط فارتى علىّ».
(٢) فى (خ): «جلائل».
(٣) فى (ط): «على القلب» وأثبت ما فى (ك) و (خ).

فيأمرُ بالعلم، كما تبرز الشمسُ من تحت الحجاب. ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] قيل: هو الذنبُ على الذنب حتى يَسودَّ القلبُ، ويصير الإيمانُ تحت الحجاب، فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، وعندها يُنكَّس أعلاه أسفلَهُ إذا استكمل سَوادُه. فَثَمَّ مَرَدَ على النِّفاق، فحينئذ أملس فيه[١]، واطمأنَّ به وثَبَتَ، إلى أن ينظرَ الله تعالى إليه، فَيتعطَّفَ بفضله عليه.

وقد كان الحسنُ رضى الله عنه يقول: إنّ بين العبد وبين ربه عزّ وجلّ حدًا من المعاصى معلومًا، إذا بَلغَهُ العبدُ طُبِع على قلبه، فلم يُوفِّقْه بعدها لِخَيْرٍ.

وفى حديث ابن عمر: «الطّابَعُ معلّق بقائمةِ العرش، فإذا انتُهكت الحرمات، واستُحِلَّت المحارمُ، أرسل اللهُ تعالى الطابَعَ فطُبِع على القلوب بما فيها».

وفى حديث مجاهد: «القلبُ مثلُ الكفّ المفتوحة، فكلّما أذنب ذنبًا انقبضت أصبَعٌ، حتى تنقبض الأصابع كلُّها، فيُشَدُّ على القَلْب، فذلك هو القُفْل».

ويقال: لكلّ ذنب نباتٌ يَنْبُتُ على القلب، فإذا كثُرت الذّنوب قام النباتُ حولَ القلب مثلَ الكُمِّ للثّمرة، فانضمَّ على القلب، فذلك هو الغلاف. ويقال: إنّه الكِنانُ؛ واحِدُ الأكِنَّةِ التى ذكر الله تعالى: أنّ القلبَ لا يسمعُ معها ولا يَفْقه.

وقد حدثنى بعض هذه الطّائفة عن أبى عمروِ بنِ عُلْوَانَ فى قصّة تطول، قال فيها: فكنتُ قائمًا أصلِّى ذات يومٍ، فخامرَ قلبى هوًى[٢] طاولته بفكْرى، حتّى تولَّد منه شهوة الرجل، قال: فوقعتُ إلى الأرض، واسودَّ جسدى كلُّه، فاستترت فى البيت ثلاثةَ أيّام فلم أخرج، وقد كنتُ أعالج غسلَه فى الحمام بالصابون والألوان الغاسلة فلا يزداد إلا سوادًا، قال: ثم انكشف عنى بعد ثلاث، فرجعتُ إلى لونى البياض، قال: فلقيتُ أبا القاسم الجنيدَ رحمه الله، وكانَ وجَّه إلىَّ

---

(١) فى (ط): «فحينئذ مرد على النفاق فأملس فيه». ومرد على النفاق: أقدم عليه حتى بلغ فيه الغاية. وأملس فيه: أسرع.

(٢) فى (ط): «هواء».

فأشخَصنى مِن الرِّقَّة، فلمّا أتيتُهُ قال لى: أما استحييتَ من الله تعالى؛ كنتَ قائمًا بين يديه، فسامَرَتْ نفسُكَ شهوةً، حتّى استولتْ عليك بِرقّة، فأخرجَتْكَ من بين يَدَى الله تعالى، ولولا أنِّى دعوتُ الله عزّ وجلّ لكَ وتبتُ إليه عنكَ لَلقيتَ اللهَ تعالى بذلك اللون. قال: فعجبتُ كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرِّقَّة، ولم يطَّلع عليه إلا الله عزّ وجلّ.

فذكرتُ هذه الحكاية[١] لبعض العلماء، فقال: كان هذا رفقًا من الله تعالى به وخِيَرَةً له، إذ لم يَسودَّ قلبه، وظهر السَّوادُ على جسده، ولو بطَنَ فى قلبه لأهْلكه[٢]. ثم قال: ما من ذنبٍ يرتكبُهُ العبدُ يصرُّ عليه إلا اسودَّ القلبُ منه مثلَ سواد الجسم الذى ذكره، لا يجلوه إلا التوبة. ولكن ليس كلّ عبد يُصْنَعُ له صُنعَ ابن عُلوَان، ولا يجد من يَلْطُفُ له به مثل أبى القاسم الجنيد رحمه الله.

ولكلّ ذنبٍ عقوبة إلا أن يعفو الله. والعقوبةُ ليست على قدرِ الذنب، ولا من حيث يعلم العبد، لكنّها على تقدير المشيئة، وعن سابِق عِلْم الرُّبوبية، فربّما كانت فى قلب وهى من أمراض القلوب، وربّما كانت فى الجسد، وقد تكون فى الأموال والأهل، وقد تكون فى سُقوط الجاه والمنزلة من عيون علماء الإسلام والمؤمنين، وقد تكون مؤجَّلة فى الآخرة؛ وهذه أعظم العقوبات، وهى لأهل الكبائر من الموبقات الذين ماتوا عن غير توبة، ولأهل الإصرارِ والغِرَّةِ والاستكبار؛ لأنهّا إذا كانت فى الدنيا كانت يسيرة على قدر الدنيا، وإذا تأخرت كانت عظيمة على قَدْرِ الآخرة. [واعلم أن العلل فى الأجسام قد تكون كفارات للذنوب][٣]. وفى الخبر: «إذا أرادَ الله تعالى بعبدٍ خيرًا عجّل له عقوبةَ ذنبِه، وإذا أراد به شرًا أخَّره حتّى يوافى به الآخرة».

واعلم أنَّ الغمَّ على ما يفوتُ من الدنيا والهمَّ بالحرص عليها من العُقُوباتِ،

---

(١) فى (ط): «الحكايات».

(٢) فى (ط): «لأهلك».

(٣) ما بين المعكوفتين من (ك). والملاحظ أن نسخة (ك) هنا فيها بعض الاختصار والتقديم والتأخير فى النصوص، لذلك كان اعتمادى عليها ضئيلاً فى ضبط النص، بجوار نسخة (خ).

والفرحَ والسُّرورَ بما نال من الدّنيا مع ما لا يبالى ما خرج من دينه من العقوبات.

وقد تكون عقوبةُ الذّنْبِ ذنبًا مثله أو أعظمَ منه، كما يكون ثوابُ الطّاعة طاعةً مثلَها أو أفضلَ منها. وقد يكون دوامُ العوافى واتّساعُ الغِنى من عُقوباتِ الذُّنوب إذا كانا سَبَبَيْن إلى المعاصى. وفى أحد الوجوه من معنى قوله تعالى: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:١٥٢] قال: الغِنَى والعافية. فهُما أمّهاتُ المعاصِى إذا كانا لها سببَينِ ومُطَرِّقَيْنِ إليها. فقد صارَ الفقْرُ والمرضُ رحمةً من الله تعالى إذا كانا سببًا العِصْمة»[١].

واعلم أن الحلم لا يرفع العقوبة ولكن يؤخِّرها، ومن شأن الحليم أن لا يعجِّل بالعقوبة وقد يعاقب بعد حين.

ورُوينا فى معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤] أى: الرُّخْص والرَّغَد، حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة، قيل: بعد ستينَ سنة. وفى الخبر: «من الذّنوب ذنوب لا يكفِّرها إلا الهمُّ بطلب المعيشة». وفى لفظ آخر: «لا يكفّرها إلا الهمومُ». فالأحزانُ والاهتمامُ بالمباحات من حاجات الدنيا للفقراء كفّاراتٌ، وهو على ما يفوتُ من قُربات الآخرة للمؤمنين دَرَجاتٌ، وهو على حبِّ الدنيا والجمعِ منها والحرص عليها عُقوباتٌ.

وقال بعض السّلف: كفى به ذنبًا لا يُستغفَرُ منه حبُّ الدنيا. وقال آخر: لو لم يكن للعبد من الذنوب إلا أنّه يَغْتَمُّ بمصائب الدنيا بما يَفوتُهُ منها ما لا يَغتمُّ بِفَوْتِ نصيبِه من الآخرة والتزوُّدِ لها[٢].

وفى حديث عائشة رضى الله عنها: «إذا كثُرت ذنوبُ العبد، ولم يكن له من الأعمال ما يكفِّرها، أدخلَ اللهُ عزّ وجلّ عليه الغمومَ والهمومَ، فتكونُ كفّارةً لذنوبه».

(١) هذه الفقرة برمتها كانت مضطربة بالمطبوعة فأثبتها من نسخة (خ) مع زيادات ليست بالمطبوعة، وسيتكرر مثل ذلك كثيرًا.

(٢) فى (ط) وردت هذه الجملة كالآتى: «إلا أنه يقيم بمصائب الدنيا بما لا يقيم بما لا يفوته فيها من نصيب الآخرة والتزود لها» والصواب ما أثبت من (خ).

ويقال: إنّ الهمَّ الذى يَعْرض للقلب فى وقت لا يعرف العبدُ سببَه[1] هو كفّاراتُ الهمِّ بالخطايا. ويقال: هو حزنُ العقل عند تذكره الوقوفَ والمحاسبةَ لأجل جنايات الجسد، فيلزم العقلَ ذلك الهمُّ، فيظهر على العبد منه كأنه لا يعرف سبب غمِّه.

ومن أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه: لولا ما سبقَ لك فى علمى من عنايتى بك لجعلتُ نفسى عندك أبخلَ الباخلين، لكثرة تَردادِك إلىَّ بطولِ سؤالك لى، وتأخيرى إجابتَكَ، ولكن من عنايتى بك أن جعلتُ نفسى فى قلبك أنّى أرحمُ الراحمين وأحكمُ الحاكمين، وقد سبق لك عندى منزلةٌ لم تكن تنالُها بشىءٍ من علمك إلا بحزنك على يوسف، فأردتُّ أن أبلِّغك تلك المنزلة.

وكذلك ما رُوينا أن جبريل عليه السلام لما دخل على يوسف عليه السلام فى السِّجن قال له: كيفَ تركتَ الشّيخ الكئيب؟ قال: قد حزن عليك حزنَ مائة ثَكْلَى. قال: فماذا له عند الله تعالى؟ قال: أجرُ مائة شهيد.

وفى خبر رويناه عن السلف: ما من عبدٍ يعصى إلا استأذن مكانُه من الأرض أن يخسف به، واستأذن سقفُه من السماء أن يسقط عليه كِسَفًا، فيقول الله عزّ وجلّ للأرض والسماء: كُفَّا عن عبدى وأمهلاه، فإنكما لم تخلقاه، ولو خلقتُماه لَرحمتُماه، لعله يتوب إلىَّ فأغفر له، لعله يستبدلُ صالحًا فأبدله حسنات. فذلك معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوات وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ﴾ أى: من معاصى العباد ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ أى: عن معاصيهم ﴿غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١] لمساوئهم.

وقيل فى تفسير ذلك: إنّ الله عزّ وجلّ إذا نظر إلى معاصى العباد غَضِب، فترجفُ الأرض وتضطرب السماء، فتنزل ملائكةُ السماءِ فتمسك أطرافَ الأرضين، وتصعد ملائكة الأرضين فتمسك أطراف[2] السموات، ولا يزالون

(١) فى (ط): «سبب ذلك».

(٢) فى (ط): «على أطراف».

يقرؤون: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ حتى يسكن غضبه سبحانه وتعالى، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوات﴾ الآية.

وقال بعض العلماء: إذا ضُرِبَ الناقوسُ فى الأرض، ودُعى بدعوة الجاهلية، اشتدَّ غضب الربِّ سبحانه وتعالى، فإذا نظر إلى صِبيان المكاتب، ورأى عُمّار المساجد ـ وقيل: إذا نظر إلى المتحابين فى الله أو المتزاورين له، وسَمِع أصواتَ المؤذِّنين ـ حَلُمَ وغفَر، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

فإذا[1] أَتْبَعَ العبدُ الذنبَ بالذنب، ولم يجعل بين الذَّنبين توبةً، خِيفَ عليه الهَلَكَة؛ لأنّ هذا حال المصرِّ، ولأنّه قد شرَد عن مولاه بتَرْكِ رجوعه إليه، ودوام مقامه مع النفس على هواه، وهذا مقامُ المقتِ فى البعد، وأفضلُ ما يعمَلُه العبد قطعُ شهواتِ النفس أحلى ما يكون عنده الهوى، إذ ليس لشهواتها آخِرٌ يُنتظر، كما ليس لبدايتها أوّلٌ يُرتَسم، فإن لم يقطع ذلك لم يكن له نهاية، فإن شُغل بما يستأنف من مزيد الطاعة، ووجد حلاوةَ العبادة، وإلا أخذ نفسه بالصبر والمجاهدة، فهذا طريقُ الصّادقين من المريدين.

وقيل فى قوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف:١٢٨] أى: استعينوا به على الطّاعة، واصبروا على المجاهدة فى المعصية.

وقال علىٌّ كرمّ الله وجهه: أعمالُ البرِّ كلُّها إلى جنب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كتَفْلة إلى جنب البحر، والأمرُ بالمعروف والنهىُ عن المنكر إلى جنب الجهاد فى سبيلِ الله تعالى كتَفْلة فى جَنب بحرٍ، والجهادُ فى سبيل الله تعالى إلى مُجاهدةِ النفس عن هواها فى اجتناب النهى كتَفْلة فى جنب بحرٍ لُجِّيٍّ. وعلى هذا معنى الخبر الوارد: «رجعتُم من الجِهادِ الأصْغرِ إلى الجهادِ الأكبر، مجاهدةُ النّفس».

وكان سهلُ بن عبد الله يقول: الصبرُ تصديقُ الصِّدق، وأفضلُ منازل الطّاعة صبرٌ على معصيةٍ، ثمّ الصّبر على الطّاعة.

(١) قبله فى (ك) عنوان رئيسى: «بقية شرح مقام التوبة ووصف التائبين».

وقد رُوِينا فى الإسرائيليات: أَنَّ رجلاً تزوّج امرأةً فى بلدة، وأرسل عبده يحملها إليه، فراودته نفسُهُ(١) وطالبته بها، فجاهدها واستعصم بالله، قال: فنبَّأه الله تعالى، فكان نبيًا فى بنى إسرائيل.

وفى بعض قَصص مُوسى عليه السلام أنّه قال للخَضْر عليه السّلام: بأىّ شىءٍ أطلعك الله تعالى على عِلم الغيب؟ فقال: بترك المعاصى لأجلِ الله تعالى.

فالجزاءُ مِن الله تعالى يجعله غايةَ العطاءِ، لا على قَدْر العمل، لكن إذا عَمِل له عبدٌ شيئًا لأجلهِ أعطاه أجره بغير حساب.

ثم أن لا يتخذ التائبُ عادةً من ذنب فيتعذَّر بها توبتُه، فإنّ العادة جندٌ من جنود الله تعالى، لولاها لكان الناسُ كلُّهم تائبين، ولولا الابتلاءُ لكان التائبونَ مستقيمين. ثمّ أن يعمل فى قطع معتادٍ، إن كان، ثم ليصبر على مجاهدةِ النّفس فى هوًى إن بُلى به.

فهذه الخصالُ من أفضلِ أعمال المريدين وأزكاها، ومعها تُلهَم النفس المطمئنة رُشدها وتقواها، وبها تخرج من وصف الأمّارة بالسّوء إلى وصفِ المطمئنة؛ إلى أخلاقِ الإيمان والقرآن.

وهذا أحد المعانى فى الخبر الذى رُوى: «أفضلُ الأعمالِ ما أكْرِهتُم عليه النّفوس»؛ لأنّ النفْس تكره خلافَ الهوى، والهوى هو ضدُّ الحقِ، والله تعالى يحب الحقَّ، فصار إجْبارُ النّفْس على خلاف الهوى وعلى وفاق الحق، لأنّ محبة الحق من أفضل الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف:٨] الآية. واستثنى من أهل الخُسْر الذين تواصَوْا بالحقِّ وتواصوا بالصّبر، وهذا أوّل اليقين.

وحُدِّثت عن بعض أهل الاعتبار أنّه كان يمشى فى الوَحْل، فكان يتّقى، ويشمِّر ثيابه عن ساقيه، ويمشى فى جوانب الطريق، إلى أن زَلَقَتْ رِجْلُه فى الوحل، فأدْخلَ رِجلَيْه فى وسط الوحل، وجعل يمشى فى المحجَّة. قال: فبكى.

(١) فى (خ): «فراودته عن نفسه».

فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: هذا مَثَلُ العبدِ لا يزال يتوقَّى الذنوبَ ويُجانِبُها حتى يقعَ فى ذنبٍ منها وذنبين، فعندها يخوضُ الذّنوبَ خوضًا.

وعلى العبد أن يتوب من الغفلة التى هى كائنة، فإذا عرف هذا لم تنقطع أبدًا توبتُه. وقد جعل الله تعالى أهلَ الغفلةِ فى الدنيا هم أهلُ الخُسران فى العُقبى، فقال عزّ من قائل: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لا جَرَمَ أَنَّهُم فِى الآخِرَةِ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٨ـ ١٠٩]، ولكنْ غفلةٌ دونَ غفلةٍ، وخسرانٌ دون خسران، ولا تستحقرنَّ الغفلةَ فإنّها أوّل المعاصى. وهى عند الموقنين أصلُ الكبائر.

وقد جعل علىٌّ، كرم الله وجهه، الغفلةَ إحدى مقاماتِ الكفر، وقرنها بالعَمى والشك، وأمال صاحبَها عن الرُّشد، ووصفها بالحَسْرة، فقال فى الحديث الذى يُروى من طريق أهل البيت: «فقام عمار بن ياسر فقال: يا أميرَ المؤمنين، أخبرنا عن الكفر على ما بُنى؟ فقال: على أربعِ دعائم: على الجفاء، والعمى، والغفلة، والشك. فمَنْ جفا احتقر الحقَّ، وجهَر بالباطل، ومقت العلماء. ومن عمى نسى الذكر. ومن غفل حاد عن الرشد وغرَّته الأمانىُّ؛ فأخذته الحسرةُ والنّدامةُ وبدا له مِنَ اللهِ ما لم يكن يحتسِب، ومَنْ شكّ تاه فى الضّلالة».

وقال بعضُ العلماء: مَنْ صدق فى تركِ شهوةٍ، وجاهد نفسَه لله تعالى سبعَ مراتٍ، لم يُبتلَ بها. وقال آخر: من تاب عن ذنب، واستقام سَبْع سنين، لم يرجع إليه أبدًا. وقال بعض العلماء: كفّارة الذنب المعتادِ أن تَقْدرَ عليه عدد ما أتيته، ثم لا تقع فيه، فيكون كلُّ تركٍ كفارةً لفعل. وهذا حالُ الأقوياء من التوّابين، وليس هو طريقَ الضعفاء من المريدين، بل حالُ الضعفاء الهربُ والبُعد.

ومَنْ حدَّث نفسه بمعصيةٍ فى عدمها لم يملك نفسه عند وجودها. فليعمل المريدُ فى قطع وساوسِ النفس بالخطايا وإلا وقع فيها؛ لأنّ الخواطر تَقْوَى فتكونُ وسوسةً، فإذا كثرت الوساوس صارت طرقًا للعدوّ بالتَّزيينِ والتَّسويلِ. فأضرُّ شىء على التائب تمكينُه خاطرَ السُّوء من قلبه بالإصغاء إليه، فإنّه يَدبُّ فى هلكته، وكلُّ سبب يدعو إلى معصيةٍ أو يذكّر بمعصية فهو معصية. وكلُّ سببٍ يؤول إلى ذنبٍ

ويؤدى إليه فهو ذنب، وإن كان مباحًا، وقطعُهُ طاعةٌ. وهذا من دقائق الأعمال. وكان يقال: من أتى عليه أربعون، وهو العمر، وكان مقيمًا على الذنب، لم يكد يتب منه إلا القليلُ من المتدارِكين. وقد رُوى فى الخبر: «المؤمنُ كلُّ مُفتَنٍ توابٍ، وإنّ للمؤمن ذنبًا قد اعتاده الفَيْنة بعد الفينة» يعنى حينًا بعد حين.

وفى الحديث: «كلُّ بنى آدم خطّاء وخيرُ الخطائين المستغفرُون». وفى الخبر الآخر: «المؤمنُ واهٍ راقعٌ، فخَيرُهم مَن ماتَ على رُقْعه»، أى: واه بالذنوب، راقع بالتوبة والاستغفار. وقد وصف الله تعالى المؤمنين بترك متابعة الذنوب، وترادفِ[1] السيئةِ بالحسنة فى قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢]. وقد جَعَل هذا من وصف العاملين الذين صبروا، فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصص: ٥٤]، فجعل تعالى لهم صبريْن: عن الذّنب؛ وعلى التوبة، فآتاهم به أجرين.

وقد اشترط اللهُ تعالى على التائبين من المؤمنين ثلاثَ شرائط، وشرط على التائبين من المنافقين أربعةً؛ لأنهم اعتلّوا بالخَلْق فى الأعمال، فأشركوهم بالخالق فى الإخلاص، فزاد عليهم الشرطَ تشديدًا لشدَّة دخولِهم فى المقت، واعتلَّ غيرهم بوصفه، فخفّف عنهم شرطين، فقال عزّ وجلّ: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ [البقرة: ١٦٠]، قوله تعالى: ﴿تابوا﴾ أى: رجعوا إلى الحق من أهوائهم، ﴿وأصلحوا﴾ يعنى: ما أفسدوا بنفوسهم، ﴿وبينوا﴾ فيها وجهان؛ أحدُهما: بيّنوا ما كانوا كتَمُوا من الحقّ وأخفوا من حقيقة العلم، وهذا لمن عصى بكَتْم العلم ولَبْسِ الحقِّ بالباطل. وقيل: بيّنوا توبتهم، حتّى تبيّن ذلك فيهم فظهرت أحكام التوبة عليهم. وقال فى الشّرطين الآخرين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٥ـ ١٤٦]؛ لأنهم كانوا يعتصمون بالنّاس وبالأموال، وكانوا يراؤون بالأعمال، فلذلك اشترط عليهم الاعتصام بالله، والإخلاص لله عزّ وجلّ،

(١) فى (خ): «بتَرْديف السّيئة».

فينبغي أن تكون توبةُ كلِّ عبد عن ضدِّ معاصيه؛ قليلاً بقليل، أو كثيرًا بكثير. ويكونَ التائبُ على ضد ما كان أفسد، ليكون كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]. ولا يكونُ العبد تائبًا حتى يكون مصلحًا، ولا يكون مُصلحًا حتى [يكونَ][1] يعملُ الصالحات، ثم يدخل في الصالحين. وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦]. وهذا وصفٌ للتوَّاب، وهو المتحقق بالتوبة، والحبيبُ لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، أي: يتولى الرّاجعين إليه من أهوائهم، المتطهرين له من المكاره. وكما قال رسول الله ﷺ: «التائب حبيب الله».

وسئل أبو محمد سهل: متى يكون العبدُ التائب حبيب الله تعالى؟ فقال: حتى يكون كما قال الله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ [التوبة:١١٢] الآية. ثم قال: الحبيبُ لا يَدْخلُ في شيءٍ لا يحبه الحَبيب. وقال: لا تصحّ التوبةُ حتى يتوبَ من الحسنات.

وقد قال غيره من العارفين: العامّةُ يتوبون من سيئاتهم، والصّوفية يتوبون من حسناتهم. يعني من تقصيرهم في أدائها لِعَظيمِ ما يشهدون من حقِّ الملك العزيز سبحانه وتعالى المقابَل بها، ومن نظرِهم إليها أو نظرهم إلى نُفوسهم بها، وهي مِنَّة[2] الله تعالى إليهم واصلة.

وكان سهل يقول: التوبةُ من أفضل الأعمال؛ لأن الأعمال لا تصحّ إلا بها، ولا تصحّ التوبة إلا بترك كثيرٍ من الحلال مخافةَ أن يُخْرِجَهم إلى غيره.

والاستغفارُ قوتُ التوّابين، ومفزعُ الخطّائين. قال الله تعالى وهو أصدقُ القائلين: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود:٥٢]. وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة:٧٤]، فابتدأ التوبةَ بالاستغفار، وعقَّب الاستغفارَ بالتوبة، فالاستغفار مع الذنب سؤالُ السِّترِ من الله تعالى، ومغفرةُ اللهِ تعالى لعبده

---

(١) زيادة من (خ).

(٢) في (خ): «وهي منه إليهم».

فى حال ذنبه سترُه عليه وحلمُه عنه. ويقال: ما من ذنب ستره الله تعالى على عبده فى الدّنيا إلا غفرَهُ له فى الآخرة، إن الله تعالى أكرمُ من أن يكشف ذنبًا كان قد ستره. وما من ذنب كشفَهُ الله فى الدنيا إلا جعل ذلك عقوبةَ عبدِهِ فى الآخرةِ، فالله أكرمُ من أن يثنى عقوبته على عبده. ورُوى عن عليٍّ وابنِ عباس رضى الله عنهما، نحوُ ذلك، وقد أسنداه من طريقٍ.

والاستغفارُ بعد التوبةِ، وهو سؤالُ العبدِ مولاه العفوَ عن المؤاخذةِ، ومغفرةُ الله تعالى لعبدِهِ بعد التوبة تكفيرُهُ لسيئاته وتجاوزُه عنها بالعفو الكريم، وهو تبديلُ السيئاتِ حسناتٍ، كما جاء فى الخبر: إن تفسير قول العبد: يا كريمَ العفوِ، قال: هو إن عفا برحمته عن السيئات ثم بدّلها بكرمه حسناتٍ.

وقد أحكم اللهُ تعالى ذلك بقوله: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾ أى وحَّدوا الله تعالى، ثم استقاموا على التوحيد فلم يشركوا، وقيل: استقاموا على السنّة فلم يُحدثوا، وقيل: استقاموا على التوبة، فلم يَروغوا معها، أن لا تخافوا عقابَ الذّنوب فقد كفَّرها عنكم بالتوحيد، ولا تحزنوا على ما فاتكم من الأعمال فقد تداركها الله تعالى لكم بالتوبة، وبلَّغكم منازلَ المحسنين بالاستقامة. ثم قال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فى السابق ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ أى: نليكم ونَقرُب منكم ﴿فِى الْحَيَاةِ الدُّنيا وفِى الآخِرَةِ﴾ بالتثبيتِ لكم على الإيمان ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ﴾ أى: أجسامكم من النعيم المقيم، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣١] أى: ما تمنّون بقلوبكم من النّظر إلى الملك الرحيم.

وفى الخبر: «التائبُ من الذّنب كمَن لا ذَنْبَ له، والمستغفرُ من الذَّنب وهو مصرٌّ عليه كالمستهزئِ بآياتِ الله تعالى». وكان بعضهم يقول: أستغفرُ اللهَ من قولى أستغفرُ الله باللسانِ عن غيرِ تَوْبةٍ ونَدَمٍ بالقلب. وفى خبر: «الاستغفارُ باللسان من غيرِ توبةٍ وندمٍ بالقلب توبة الكذّابين».

وكانت رابعةُ العَدَوِيَّة تقول: استغفارُنا هذا يحتاجُ إلى استغفار.

فكم من توبةٍ تحتاج إلى توبةٍ فى تصحيحها، وإخلاصِها[١] من النَّظرِ إليها، والسكونِ والإدلالِ بها. فمَنْ عقَّبَ السيئاتِ بحسناتٍ، وخلَطَ الصَّالحاتِ بالطالحاتِ، طُمع له فى النجاة، ورُجى له الاستقامةُ قبلَ الوفاة. قال الله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٢]، أى يعطف عليهم وينظر إليهم، وقيل: خلطوا عملاً صالحًا: هو الاعتراف بالذنوب والتّوبة المستأنَفَة، وآخر سيئًا: ما سلف من الغَفلة والجَهالة. وقد كان ابن عباس يقول: غفورٌ لمن تاب، رحيمٌ حيث رخّص فى التوبة.

فلم يَرُدَّ اللهُ سبحانه المخلصين إلا إلى ما ردَّ إليه المنافقين؛ وهو التوبة، وكذلك ردَّ إليها المشركين، إذ لا طريق للكلِّ إلا منها، ولا وصول إلى المحبة والرّضا إلا بها، فقال فى شأن الكافرين: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٥]، كما قال فى وصف المنافقين: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ أى: مع الإصرار، ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٦] أى بالاستغفار. وأحكمَ ذلك وفصَّله بما شرط له، فقال: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ أى: من الشرك ﴿وَآمَنَ﴾ بالتوحيد ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أدّى الفرائض واجتنب المحارمَ ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:٨٢] كان على السنَّةِ، وقيل: استقام على التوبة. فهذه صِفاتُ المؤمنين[٢].

وقد قَرَنَ اللهُ تعالى الاستغفارَ للعباد ببقاء الرسول ﷺ فى الأمة، ورفعَ العذاب عنهم بوجوده، فضلاً منه ونعمةً؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣]. وكان بعض السلف يقول: كان لنا أمانان ذهب أحدهما وبقى الآخر، فإن ذهب الآخر هلكنا. يعنى الذى ذهب الرسولُ ﷺ، والذى بقى الاستغفارُ.

---

(١) فى (ط): «والإخلاص» وأثبت ما فى (خ).

(٢) هذه الفقرة يختلف ترتيب بعض عباراتها عن المخطوط، فأثبت ترتيب المخطوط لها لأنه أدق.

وسئل سهل رحمه الله عن الاستغفار الذى يكفِّر الذنوب، فقال: أوّل الاستغفار الاستجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة. فالاستجابة أعمالُ الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة إقبالُه على مولاه وترك الخلق. ثم يستغفرُ من تقصيرِه الذى هو فيه، ومن الجهل بالنعمة وتَرْكِ الشكر؛ فعند ذلك يُغفَر له، ويكون عنده مأواه، ثم يُنقل إلى الانفرادِ، ثم الثبات، ثم البيان، ثم القُرب، ثم المعرفة، ثم المناجاة، ثم المصافاة، ثم الموالاة، ثم محادثة السر وهو الخُلّة، ولا يستقر هذا فى قلب عبدٍ حتّى يكون العلمُ غذاءَه، والذكرُ قوامَه، والرِّضا زادَه، والتفويضُ مرادَهُ، والتوكُّلُ صاحبَه. ثم ينظر الله تعالى إليه فيرفعُه إلى العرش، فيكونُ مقامُه مقامَ حملةِ العرش.

وكان يقول: العبدُ لا بدّ له من مولاه على كلِّ حال، وأحسنُ حاله أن يرجع إليه فى كلّ شىء، إذا عصى يقول: يا رب استر علىّ، فإذا فرَغَ من المعصيةِ قال: يا ربّ تُبْ علىّ، فإذا تاب قال: يا ربّ ارزقنى العِصْمةَ، فإذا عمل قال: يا ربّ تقبَّل منِّى.

ومن أحسن ما يتَعقَّبُ الذّنبَ من الأعمال بعد التوبة وحلِّ الإصرار مما يُرجى به كفّارةُ الخطيئةِ ثمانيةُ أعمالٍ: أربعة من أعمال الجوارح؛ وأربعة من أعمال القلوب.

فأعمال الجوارح: أن يصلى العبدُ ركعتين، ثم يستغفر؛ سبعين مرة، ويقول: سبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمده؛ مائةَ مرّةٍ، ثم يتصدق بصدقة، ويصوم يومًا.

وأعمالُ القلوب: هى اعتقادُ التوبة منه، وحبُّ الإقلاع عنه، وخوفُ العقاب عليه، ورجاءُ المغفرة له. ثم يحتسب على الله تعالى بحسن ظنّه وصدقِ يقينه كفّارةَ ذنبِه.

فهذه الأعمالُ قد وردت بها الآثارُ أنّها المكفِّرة للزلل والعِثار. وقد يُشترط فى بعضها، فيتوضأ فيُسبغُ الوضوءُ، ويدخل المسجد فيصلّى ركعتين، وفى بعض الأخبار: فيصلّى أربع ركعات.

قال: ويقال: إذا أذنبَ العبدُ أمر صاحبُ اليمين صاحبَ الشمال، وهو أمير

عليه، أن يرفع القلمَ عنه ستَّ ساعات، فإن تابَ واستغفر لم يكتبها عليه، وإن لم يستغفر كتبها. ويقال: صدقة الليل تكفِّرُ ذنوبَ النّهار، وصدقةُ السرّ تكفِّر ذنوبَ الليل. وفى بعض الأخبار: إذا عَمِلْتَ سيئةً فأتبعها حسنةً تكفِّرها، السرُّ بالسرّ، والعلانيةُ بالعلانية.

وفى أخبار متفرقة جمعناها: ما من يومٍ طلَع فجرُه ولا ليلةٍ غابَ شفقُها إلا وملَكان يتجاوبان بأربعة أصوات، يقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يُخلقوا، ويقول الآخر: ويا ليتهم إذ خُلقوا علِمُوا لماذا خُلقوا، فيقول الآخر: وَيا ليتهم إذ علموا لماذا خُلقوا عملوا بما علموا ـ وفى بعضها: تجالَسُوا فتذاكَرُوا ما علِموا ـ فيقول الآخر: ويا ليتهم إذًا لم يعملوا بما علِموا تابوا ممّا عملوا.

فأول ما يجبُ لله عزّ وجلّ على عبدِه أن لا يعصيَهُ بنعَمِه، لئلا تكون معصيتُه كفرانًا لنعمته، وجوارحُ العبد وما لَهُ من نِعَم الله تعالى عليه؛ لأنّ قِوام الإنسانِ بجوارحه، وثباتَ جوارحِهِ بالحركة، ومنافعَ الحركة بالعافية، فإذا عصاه بالنّعمة فقد بدَّلها كُفرًا؛ كما قال تعالى: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم:٢٨] قيل: استعانوا بها على معاصيه، ثم توعَّد على التّبديل بالعقاب الشديد، فقال: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:٢١١] على تبديل النعمة بالمعصية، معجَّلاً فى الدنيا، ويكون مؤجَّلاً فى الآخرة.

وقد يكون العقاب فى أسباب الدنيا، وقد يكون فى حرمان أسباب الآخرة، لأنّها مآله ومثواه، وقد يكون فيهما معًا، وقد تكون نفس المعصية بالنعمة عقوبةً، والجهلُ بالنعمة وتضييعُ الشكر عليها، واستصغارُها والسكونُ إليها، والتطاولُ والتفاخرُ والتكابر بها، كلُّ هذه الأسباب عقوباتٍ، ثم يُفترضُ على العبد إذا عصاه الرجوعُ إلى مولاه، وهو التوبة عقيب وقوفِهِ مع نفسه، وهو موافقةُ الهوى بالخطيئة، فتأخيره بالتوبة وإصراره على الذنب ذنبان مضافان إلى الخطيئة.

فإذا تاب من ذنبه، وأحكم التوبةَ منه، اعتقد الاستقامةَ على الطاعة، ودوامَ الافتقار إلى الله تعالى فى العصمة، ثم يتوب أبدًا من الصغائر إلى الهمِّ والتمنِّى،

ومن الخوف والطمع فى المخلوق؛ وهى ذنوب الخصوص، إلى الطَّرفة والنَّفَس والسُّكونِ إلى شىءٍ، والرَّاحةِ بشىء؛ وهذه ذنوب المقربين، حتّى لا يبقى على العبد فيما يعلم مخالفةٌ، وحتى يشهد له العلمُ بالوفاء، فتبقى حينئذ ذنوبُهُ من مطالعةِ علمِ الله تعالى فيه بما استأثر[1] به عنه من علْمِ غَيْبةٍ يُكاشفه به، ومن معنى نفس العبودية، وكونِ الخلْقة عن تسلُّط الرُّبوبية بوَصفها وكبرها، فيكون هذا الخوف مثوبةً لمّا فرَغَ من علمِ نفسه إلى ما لا يمكن ذكْرُهُ، ولا يُعرف نشرُه من ذنوب المقرَّبين التى هى صالحاتُ أصحاب اليمين، لفَقْدِ مُشاهداتِها، والجهلِ بمعرفة مقاماتِها عند العموم، فيكون حالُ هذا المقرَّب الإشفاقَ من البعد فى كلّ طرفة ونفَسٍ إلى وقت اللقاءِ، والخَوْفَ من الإعراض، والحجْبَ فى كلٍّ حركة، وهم فى هذه الدار إلى دار البقاء.

وقد رُوينا فى خبر غريب: إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى يعقوب عليه السلام: أتدرى لِمَ فرَّقتُ بينك وبين يوسف؟ قال: لا. قال: لقولك لإخوته: إنّى أخاف أن يأكله الذئب، لِمَ خفتَ عليه الذئب ولم ترجنى له؟ ولم نظرتَ إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حِفظى له؟

فهذا معنى قول يوسف للساقى: اذكرنى عند ربك. قال الله تعالى: **﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾** [يوسف:٤٢]. فهذا مما يُعتب على الخصوص من خفىٍّ سكونهم، ولمح نظرهم إلى ما سوى الله تعالى.

وإنّما حُرِم بعض التابعين ذلك المزيد، ولم يجدوا حلاوَة التوبة، لتهاونهم بحال الرّعاية، وتسامحِهم بتركِ حسن القيام بشاهدِ المراقبة، وذلك يكون من قلّة إحكام أمر التوبة، ولو قاموا بحكم التوبة من الذّنب الواحد، وأحكموا حال توّابٍ من الصّادقين فى التوبة، لم يعدَموا من الله تعالى المزيد؛ لأنهم محسنون، فَهُم فى تجديد. قال الله تعالى: **﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾** [البقرة:٥٨]. فإذا رأيتَك[2] مستقيمًا

---

(١) فى (ط): «لما استأثر».

(٢) كذا فى الأصل، وفى (ط): «رآك».

على التوبة، عاملاً بالصالحات، ولم تَجدْك على مَزيد من ميراث بوَجْد حلاوة، أو حُسن خليقة، أو عُزوف[١] زُهد، أو خاصيّة مَعْرِفَة[٢]، فارجع إلى باب المراقبة، أو موقفِ الرعاية، فتَفقَّدْهما، وأحكم حالهما، فمن قِبَلِهما أُتيتَ.

وقال بعض العلماء: من تاب من تسعةٍ وتسعين ذنبًا، ولم يتب من ذنب واحدٍ، لم يكن عندنا من التائبين.

فلا تغفلنَّ عن التفقُّد، وتجديدِ التّوبة أدبارَ الصلوات، فإنما دخل الخُسران على العمال من حيث لا يعلمون من تركهم التفقدَ، ومحاسبةِ النفس، وبمسامحتها مما يعملون.

واعلم أنّ حقيقةَ [توبةِ][٣] كلِّ ذنب عشرةُ أعمال، ولا يكون العبد توَّابًا يحبُّه الله تعالى ولا تكون توبته نصوحًا التى شرَطها اللهُ تعالى وفسَّر بها التَّوبةَ[٤] إلا أن يُحكِم العبدُ عشْرَ توباتٍ من كلِّ ذنب؛ أوّلها: تركُ العودِ إلى فعل الذّنب. ثم يتوبُ من القولِ به. ثم يتوب من الاجتماع مع سبب الذنب. ثم التوبة من السَّعى فى مثله. ثم التوبة من النظر إليه. ثم التوبة من الاستماع إلى القائلين به. ثم التوبة من الهِمّة. ثم التوبة من التّقصير فى حقّ التوبة. ثم التوبة من أن لا يكون أراد وجهَ الله تعالى خالصًا بجميع ما تركه لأجلِه. ثم التوبةُ من النظر إلى التوبة والسّكون إليها والإدلال بها. ثم يشهد بعد ذلك كُلِّه تقصيرَه عن القيامِ بحقّ الرّبوبية لعظيم ما يشهد بالمزيد من الإشراف على التوحيد من كبير جَلالِ الله تعالى وعِظَمِ كِبريائه، فتكون توبته بعد ذلك من تقصيره عن القيام بحقيقة مشاهدته[٥]، ويكون استغفاره لَمَّا ضعف قلبُه ونقصَ همُّه عن معاينة مشاهدةٍ لعلوِّ مقامه، ودوامِ مزيدِه وإعلامه.

---

(١) فى (ط): «عروض».

(٢) فى (ط): «معروفة».

(٣) ساقطة من (ط).

(٤) فى (ط): «النبوة» وهو تحريف.

(٥) فى (خ): «بحقيقة شهادته».

ولا نهاية لتوبة العارف، ولا لغاية وصفه لما هو عليه عاكفٌ، ولا وصفٌ يَحْتمل ذكرَ دقيقِ بلائه. ولا يكبُر عن التوبة نبىٌّ؛ فمَن دونه، ولكلٍّ مقامٍ توبةٌ، ولكل حالٍ من مقامٍ توبةٌ، ولكل مشاهدةٍ ومكاشفةٍ توبةٌ.

فهذا حال التائب المنيب الذى هو من الله تعالى مقرَّب، وعنده حبيب، وهذا مقام مُفتَنٍ توّاب؛ أى مختبَر بالأشياء، مبتلًى بها، توّابٍ إلى الله تعالى منها، لينظر مولاهُ أينظرُ بقلبه إليه أو إليها، أو يعتكف بهمّته[١] عليه أو عليها، أو يطمئنّ بوجودها إليه أو إليها، أو يطلب إياه هَربًا منها أو إيّاها. فعليه من كلٍّ مشاهدة لسواه ذنبٌ، وعليه فى كلٍّ سكونٍ إلى سواه عَتْبٌ، كما له فى كل شهادةٍ علمٌ، ومن كلٍّ إظهارٍ فى الكون حُكمٌ. فذنوبُه لا تُحصى، وتوباتُه إلى الله تعالى لا تُستقصى.

فهذه حقيقة التوبة النصوح، وصاحبها مسلمٌ وجهَه لله تعالى، محسنٌ من نفسه مستريح، ودينه عند الله تعالى مستقيم، ومقامه وحاله من الله تعالى سليم. وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحبّ كلَّ مُفتَن توّاب».

واعلم أن الذّنوبَ على سبعة ضُروب؛ بعضها أعظم من بعض، كلُّ ضرب منها مراتبُ، فى كلٍّ مرتبة من المذنبين طبقةٌ؛ منها معاصٍ يعتلُّ بها العبدُ من معانى صِفات الرّبوبية مثل: الكِبرِ، والفخرِ، والجَبَريّة، وحبِّ الحمدِ، والمدح، ووصف العزّ والغنى؛ فهذه مهلكات، وفيها من العموم طبقاتٌ.

ومعاصٍ تكون من معانى أخلاق الشياطين، مثل: الحسد، والبغى والحيلة، والخداع، والأمر بالفساد، فهذه موبقة، وفيها من أهل الدنيا طبقاتٌ.

ومعاصٍ تكونُ من ضدِّ السّنّة، وهو ما خالفها إلى بِدعة والأحداث المبتدَعة، وهى كبائر، منها ما يُذهبُ الإيمانَ ويُنبت النفاقَ.

وستٌّ من كبائر البدع؛ وهى تنقل عن الملّة؛ وهى: القدَريّةُ، والمرجئة، والرّافضية، والإباضيّة، والجهميّة، والشّاطحون من المغالطين؛ وهمُ الذين لا

(١) فى (خ): «بهمّة».

يقولون بخَلْق ولا رسمٍ ولا حكم، يُسْقِطُون الأحكامَ، وَيتعَدَّونَ الحدودَ، ويُجاوِزُونَ العِلْم(١)، فهم زنادقةُ هذه الأمة.

ومعاصٍ متعلقة بالخلق من طريق المظالم فى الدين، والإلحاد بهم عن طريق المؤمنين، وهو ما أضلَّ به عن الهدى، وأزاغ به عن السُّنن، وحرَّفهُ من الكتاب، وتأوّلهُ من السنّة، ثم أظهر ذلك ودعا إليه، فقُبل منه واتُّبع عليه. وقد قال بعضُ العلماء: لا توبةَ لهذه المعاصى. كما قال بعضُهم فى القاتل: لا توبة له، للإخبار بثبوت الوعيد، وحقّ القول عليه.

والضرب الخامس من المعاصى: ما تعلّق بمظالم العباد فى أمر الدنيا، مثل: ضرب الأبشار(٢)، وشتمِ الأعراض، وأخذ الأموال، والكذب والبهتان. فهذه موبقات، ولا بُدّ فيها من القَصاص للموافقة بين يدى الحاكم العادل، والقطع منه بقضاءٍ فاصل، إلا أن يقع استحلال، أو يستوهبَهُ الله عزّ وجلّ من أربابها فى المآل بكرمه، ويعوِّض المظلومين عليها من جنّاته(٣) بجوده. وقد جاء فى الخبر: «الدّواوين ثلاثة: ديوان يُغفر، وديوان لا يُغفر، وديوان لا يُترك. فأمّا الديوان الذى يُغفر، فذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى. وأمّا الديوان الذى لا يُغفر فالشِّرك بالله تعالى. وأمّا الديوان الذى لا يُترك فمظالم العباد» أى لا يُترك المطالبة به، والمؤاخذة عليه.

والضّرب السّادس من الذنوب: ما كان بين العبد وبين مولاه من نفسه إلى نفسه، متعلّق بالشهوات، والجرى فى العادات، وهذه أخفُّها، وإلى العفو أقربُها. وهذه على ضربين: كبائر، وصغائر. فالكبائر: ما نُصَّ عليه بالوعيد، وما وجبت فيه الحدود. والصغائر: دون ذلك إلى نظرة، وخَطْرة. والتوبةُ النصوح تأتى على جميع ذلك؛ بعموم قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُم وَعَفَا عَنْكُم﴾ [البقرة:١٨٧]،

---

(١) عبارة المطبوعة: «وهم الذين لا يقولون بخلق ولا رسم ولا حكم فى تعدى الحدود ومجاوزة العلم» وأثبت عبارة (خ).

(٢) فى (ط): «ضرب الإنسان» وهو تحريف، صوابه من (خ).

(٣) فى (ط): «من جنابه» والصواب ما أثبت من (خ).

وبإخباره عزّ وجلّ عن حكمه، إذ يقول: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة:١١٨]، وبظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج:١٠]، ومثله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠] هكذا قراءة أهل الشام؛ بنصب «الفَاء والتَّاء»، ولأنّ البِغْيَةَ (١) من التوبة ـ إذا كانت ـ غفرانُ الذّنب والزحزحةُ عن النار.

ونحن لا نرى أبديّة الوعيد على أهل الكبائر، بل نجعلُهم فى مشيئة الله، ونجوِّز لهم عفوَ الله تعالى عنهم فى أصحاب الجنة، كما جاء فى الخبر فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء:٩٣] أى: إن جازاه.

وكما رُوِينا عن النبى ﷺ: «مَنْ وَعدَهُ الله تعالى على عملٍ ثوابًا فهو منجزُه له، ومن وعَدَهُ على عملٍ عقابًا فهو فيه بالخِيار؛ إن شاء عذّبه وإن شاء عَفا عنه».

وكما قال ابنُ عباس رضى الله عنه: يغفر لمن يشاء الذنبَ العظيم، ويعذّب من يشاء على الذنب الصّغير.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، فلم يجد للمغفرة ذنبًا غير الشرك، وتركَ المسلمين مع سائر الذنوب إلى مشيئته.

فقد يحتجُّ محتجٌّ بالخبر المأثور فى ترك قَبول توبةِ المبتدع، فإنّ الله تعالى احتجزَ التوبةَ على كلّ صاحب بدعة. فهذا مخصوصٌ لمن لم يتب ممّن حُكم عليه بدَرَك الشقاء. ألا ترى أنّه لم يقل: إنّ الله تعالى احتجزَ قبولَ التوبة عمّن تاب؛ إنّما أخبر عن حُكم الله تعالى فيمن لم يتب بأن الله تعالى حجب التوبة عنه.

فهكذا نقول أيضًا: إن القاتل إذا كان قد سبق له سوءُ الخاتمة بأنه يموت على غير توحيد، وكذلك المبتدعُ إذا جُعل اسمه فى أصحاب النار، ثم كان القتلُ

(١) البغية: أى الأمنية.

والبدعةُ علامةَ ذلك وسببَه، أنّهما جميعًا ممنوعان من التّوبة، فإنّها محتجزة عنهما. وكذلك القول فيمن حقّت عليه كلمة العذاب بسَبق سوءِ الخاتمة، فلو أنَّه تاب سبعين توبةً لم تنقذْه من النار، وليست توبته بأكثر من قوله ﷺ: «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة، حتّى يقولَ الناسُ إنه من أهلها، ولا يبقى بينه وبينها إلا شبرٌ، ثم يدركه الشّقاء ـ وفى لفظ آخر: ثم يَسبق عليه الكتاب ـ فيعمل بعمل أهلِ النار فيدخلها»، فقد دخلت التوبات فى صالح أعماله من الحسناتِ، ثم أحبطها عنه فى جملة عمله بسبق الكتاب بالشقاء له.

وأمّا مَنْ لم يسبق له سوءُ الخاتمة ووُهبت له التّوبة النّصوح، ولم يدركه الشقاء، فإنّها لم تُحتجز عنه، وإن الله تعالى يعفو عنه بما وهب له من التوبة، كقوله تعالى فى المنافقين: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٦]. وليس النفاق دون البدعة[1]، ولا كلُّ المنافقين تاب عليهم، ولا جميعهم خُتم لهم به. وعموم قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقوله: ﴿عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٢]، مع قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة:١١٨]، فهذا عامٌّ فيمن تابَ، والخبر مخصوصٌ فيمن لم يتب[2].

ثم إن الناسَ فى التوبة على أربعة أقسام؛ فى كلّ قسم طائفة، لكلّ طائفة مقام، منهم: تائب من الذنب، مستقيم على التوبة والإنابة، لا يحدّث نفسه بالعود إلى معصية أيام حياته، مستبدل بعمل سيئاته صالح حسناته؛ فهذا هو السابق بالخيرات، وهذه هى التّوبة النّصوح. ونفسُ هذا هى المطمئنة المرضيَّة. والخبر المروىّ فى مثل هذا: «سيرُوا، سبَق المفرَدون المستهتِرون[3] بذكرِ الله، وضع الذكرُ أوزارَهم، فوردوا القيامة خفافًا».

والذى يلى هذا فى القرب: عبدٌ؛ عقدهُ التوبةُ، ونيّته الاستقامة، لا يسعى فى

---

(١) فى (خ): «وليست البدعة فوق النفاق».

(٢) كان هناك اضطراب فى المطبوعة فى هذه الفقرة قوّمته من المخطوطة (خ).

(٣) المستهترون: المولعون بالشىء.

ذنب، ولا يقصده، ولا ينحوه، ولا يهتمّ به، وقد يُبتلى بدخول الخطايا عليه عن غير قصد منه، ويُمتحن بالهمِّ واللَّمم، فهذا من صفات المؤمنين يُرجى له الاستقامة لأنّه فى طريقها، وهو ممّن قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وداخل فى وصف المتقين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآية. ونفس هذا هى اللوّامة، التى أقسم الله تعالى بها، وهو من المقتصدين. وهذه الذّنوب تدخل على النفوس من معانى صفاتها، وغرائز جبلاتها، وأوائل إنشائها[1] من نبات الأرض، وتركيب الأطوار فى الأرحام خلقًا من بعد خلق، ومن اختلاط الأمشاج بعضها ببعض، ولذلك عقّبه تعالى بقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] الآية. فلذلك نهى عن تزكية النفس المنشأة من الأرض والمركّبة فى الأرحام بالأمشاج للاعوجاج، فقال تعالى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، أى فهذا وصفها عن بدء إنشائها، وكذلك وصف مشيج خليقته بالابتلاء فى قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

وشرح هذا يطول ويخرج إلى علم تركيبات النفوس ومجبول فطرتها. وقد ذكرنا أصوله فى بعض الأبواب من هذا الكتاب.

وفى مثل هذا العبد معنى الخبر الذى جاء: «المؤمن مُفتَن توّاب»، و«المؤمن كالسنبلة تفىء أحيانًا وتميل أحيانًا». فإزراءُ هذا العبد على نفسه، ومَقْتُه لها عن معرفته بها، وتركُ نظرِه إليها، وسكونُه إلى خير إن ظهر عليها ـ يكون من كفارات ذنوبه، لأنّه مِنْ تدبُّر الخطاب فى قوله تعالى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

والعبد الثالث: هو الذى يقرُبُ من هذا الثانى فى الحال، عبدٌ يذنب ثم يتوب، ثم يعود إلى الذنب، ثم يحزن عليه بقصدٍ له وسعى فيه، وإيثارِه إيّاه على الطاعة،

(١) فى (ط): «وأنسابها» وأثبت ما فى (ك) و (خ) وهو الصواب.

إلا أنه يسوِّف بالتوبة، ويحدِّث نفسه بالاستقامة، ويحبُّ منازل التوابين، ويرتاح قلبه إلى مقامات الصدِّيقين، ولم يأْنِ حينه، ولا ظهر مقامه؛ لأنّ الهوى يحركه، والعادةَ تجذبه، والغفلةَ تغمره، إلا أنّه يتوب خلال الذّنوب، ويعاود لتقدُّم المعتاد.

فتوبةُ هذا قُوتٌ من وَقْت إلى وقت، ومثله تُرجى له الاستقامة لمحاسن عمله، وتكفيرها لسالف سيئته. وقد يُخاف عليه الانقلاب لمداومة خطئه، ونفْسُ هذا هى المسوّلة، وهو ممّن خلَط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، عسى الله أن يتوب عليه فيستقيم فيلحق بالسابقين، فهذا بين حالين: بين أن يغلب عليه وصف النفس فيحق عليه ما سَبَق من القَول، وبين أن ينظرَ إليه مولاه نظرةً تَجْبُر له كلَّ كسر، وتُغنى له كلَّ فقر، فيتداركه بِمنَّةٍ سابقة، فتُلحِقهُ بمنازل المقرَّبين؛ لأنه قد سلك طريقهم بفضله ورحمته ونيته الآخرة.

والعبد الرابع: أسوأ العبيد حالاً، وأعظمهم على نفسه وبالاً، وأقلُّهم من الله نوالاً، عبدٌ يذنب ثم يتبع الذنب مثله أو أعظم منه، ويقيم على الإصرار ويحدِّث نفسه به متى قدَر عليه، ولا ينوى توبةً، ولا يعقد استقامةً، ولا يرجو وعدًا بحسن ظنّه، ولا يخاف وعيدًا لتمكُّن أمْنِه، فهذا هو حقيقة الإصرار، ومقامٌ بين العتوِّ والاستكبار. وفى مثل هذا جاء الخبر: «هلك المصرُّون قُدْمًا إلى النار».

ونفسُ هذا هى الأمّارة، ورُوحه أبدًا من الخير فرّارة، ويُخاف على مثله سوءُ الخاتمة؛ لأنّه فى مقدماتها، وسالك طريقتها، ولا يبعد منه سوءُ القضاء، ودَرَكُ الشقاء، ولمثل هذا قيل: «مَن سوَّف اللهَ تعالى بالتوّبة أكذبَهُ»، وإنّ اللعنةَ خروجٌ مِن ذنب إلى أعظمَ منه، وهذه الطائفةُ فى عموم المسلمين، وهم فى مشيئةِ الله من الفاسقين، كما قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ﴾ [التوبة:١٠٦] أى: مؤخَّرون لحكمه، إمّا يعذّبهم بالإصرار، وإمّا يتوب عليهم بما سبق من حسن الاختيار.

نعوذ بالله تعالى من عذابه، ونسأله مِنَ فَضلِ فَضْلِه وثَوابِهِ ما يُقرِّبنا إليه[1].

آخرُ شرح مقامِ التّوبة.

---

(١) عبارة (ط): «ونسأله نعيمًا من ثوابه. وهذا آخر كتاب التوبة» وأثبت ما فى (خ).

شرح مقام الصبر، ووصف الصابرين[١]
وهو المقام الثانى من مقامات اليقين

قد جعل الله عزّ وجلّ الصابرين أئمةً للمتقين، وتمّم كلمته الحسنى عليهم فى الدِّين، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال رسول الله ﷺ: «إن فى الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا».

وقال المسيح عليه السلام: «إنكم لا تدركون ما تحبون إلاّ بصبْركم على ما تكرهون».

وقال بعض الصحابة: ماذا[٢] جعل الله تعالى من الشِّفاءِ والفَضل فى التُّقى والصبر. وقال ابن مسعود: الصبر نصف الإيمان.

وقد جعل علىٌّ كرم الله وجهه الصَّبرَ ركنًا من أركان الإيمان، وقرنه بالجهاد والعدل والإيقان، فقال: بُنى الإسلام على أربع دعائم؛ على اليقين، والصبر، والجهاد والعدل[٣]. وقال علىٌّ كرم الله وجهه أيضًا: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، لا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له.

ورفع رسول الله ﷺ الصبرَ فى العلوِّ والفضل إلى مقام اليقين وقَرَنه به. وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. وأخبر النبى ﷺ أنّ مَنْ أُوتى نصيبه منهما لم يسأل ما فاته، وأخبر أن بالصّبرِ كمالَ العملِ والأجر، فقال فى حديث يرويه شَهْرُ بن

(١) فى (ك): «كتاب شرح مقام الصبر وأوصاف الصّابرين».
(٢) «ماذا»: كذا فى الأصل والمطبوعة، ولعلها: «قد جعل».
(٣) انظر كلام الإمام على فى: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، ص١٠٧.

حَوشبَ الأشعرى عن أبى أمامة الباهلىّ عن النبى ﷺ قال: «منْ أقلِّ ما أُوتيتم اليقينُ وعزيمةُ الصبر، ومَنْ أُعطى حظَّه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار. ولأن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحبُّ إلىَّ من أن يوافينى كلُّ امرئ منكم بمثل عمل جميعكم، ولكنى أخاف أن تُفتحَ عليكم الدُّنيا بعدى فينكر بعضُكم بعضًا، وينكركم أهلُ السماء عند ذلك. فمن صبر واحتسَب ظَفرَ بكمال ثوابِه. ثم قرأ: ﴿ما عندَكم ينفَدُ وما عندَ الله باقٍ ولَنَجزِيَنَّ الَّذينَ صبَرُوا أجْرَهُم بأحْسَنِ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٦]».

وفى حديث ابن المنكدر عن جابر قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: الصبر والسماحة». وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿أُولَئكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص:٥٤]. وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]. فضاعف أجر الصابرين على كلّ عمل، ثم رفع جزاء الصبر فوق كلّ جزاء، فجعله بلا نهاية ولا حدٍّ، فدلَّ ذلك أنه أفضل المقامات. وجمع للصّابرين ثلاثًا، فرَّقها على جُمل أهل العبادات: الصّلاة، والرّحمة، والهدى بعد البِشارة فى الآخرة والعُقبى.

وكان عمر رضى الله عنه يقول: «نعْمَ العدْلان، ونعمت العلاوةُ للصابرين». يعنى بالعِدلَين: الصّلاةَ والرحمةَ. وبالعلاوة: الهدى. والعِلاوةُ: ما يُعلَى به فوق الحِملَين على البعير، فيكون كعِدل ثالث.

وقد أخبر الله تعالى أنّه مع الصّابرين، ومن كان الله تعالى معه غلب، كما أن من كان معه علا، فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد:٣٥]. واشترط الصبر لإمداده لجنده، ولنصره بأيده، فى قوله تعالى: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٥].

وكان سهل يقول: الصّبر تصديقُ الصّدقِ، وأفضلُ منازلِ الطّاعةِ الصّبرُ عَن

المعصية، ثم الصّبر على الطاعة. وقال فى معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿**اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا**﴾ [الأعراف:١٢٨] أى: استعينوا بالله على أمرِ الله، واصبروا على أدب الله. وقال: لم يَمدح اللهُ تعالى أحدًا إلا من صبَرَ للبلاء والشِّدة، فبذلك يثنى عليه. وكان يقول: الصّالحون فى المؤمنين قليل، والصّادقون فى الصّالحين قليل، والصّابرون فى الصادقين قليل. فجعل الصّبرَ خاصيّة الصدقِ، وجعل الصابرين خُصوص الصادقين.

وكذلك الله تعالى ـ وهو أصدق القائلين ـ قد رفع الصّابرين على الصّادقين فى ترتيب المقامات، فجعل الصبر مقامًا فى الصدق، إن كانت الأوصاف المنسوقة نعتًا واحدًا للمسلمين، وكانت «الواو» للمدح، وإن كانت مقامات «فالواو» للترتيب، فقد جعلَ الله الصابرين فوق الصادقين والقانتين، أعنى فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...**﴾ [الأحزاب:٣٥] الآية.

وفى حديث عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما: «لما دخل رسولُ الله ﷺ على الأنصار فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا، فقال عمر رضى الله عنه: نعم يا رسول الله. قال: وما علامة إيمانكم؟ قال: نشكر فى الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى القضاء. فقال: مؤمنون وربِّ الكعبة».

والصبر ينقد لى عملين؛ أحدهما: لا صَلاحَ للدِّين إلا به، والثانى: هو أصل فساد الـ . ثم يتنوّع الصبر؛ فيكون صابرًا على الذى فيه صلاح الدين فيكمُلُ به إيمانه، ويكون صابرًا عن الذى فيه فساد الدِّين فيحسُن به يقينه.

ورُوينا فى معنى هذا عن علىٍّ رضى الله عنه: أنه لما دخل البصرة، واستقام له الأمرُ، دخل جامعَها فجعل يخرج القُصّاص، ويقول: القَصَص بدعةٌ. فانتهى إلى حلقة شابٍّ يتكلم على جماعةٍ، فاستمع إليه، فأعجبَه كلامُهُ، فقال: يا فتى، أسألكَ عن شيئين، فإن خرجتَ منهما تركتُكَ تتكلم على الناس، وإلا أخرجتُكَ كما أخرجتُ أصحابك. فقال: سل يا أمير المؤمنين. فقال: أخبرنى ما صلاح الدين وما فساده؟ قال: صلاحُه الورعُ، وفسادُهُ الطمع. قال: صدقتَ، تكلَّم

فمثلك يَصْلُح أن يتكلم على الناس. يقال: إن هذا الشاب هو إمامنا فى هذا العلم، وهو إمام الأئمة الحسنُ بن يَسَار، مولى الأنصار، البَصْرىُّ.

وكان ميمون بن مهران يقول: الإيمان والتصديق والمعرفة والصّبر واحد. وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: ذِرْوَةُ الإيمانِ الصبرُ للحُكْم، والرّضا بالقدر.

واعلم أنّ الورع أولُ الزهد، وهو أول باب من أبواب الآخرة. والطّمعُ أوّل الرغبة، وهو باب كبير من أبواب الدنيا، واستشعارُ الطمع من حبّ الدنيا، وحبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة.

ويقال: أولُ معصية عُصِى الله تعالى بها الطمعُ؛ وهو أن آدم عليه السلام طمِع فى الخلود، فأكل من الشجرة التى نُهى عنها، وإبليس طمِع فى إخراج آدم عليه السلام من الجَنّة فوسوس إليه، فاتفقا فى اسم المعصية لربِّهما تعالى بالطمع، ثم افترقا فى المطمُوع فيه وفى الحُكم، فتُدُورك آدم عليه السلام بحسن سابقته من الله تعالى، وهلك إبليس بما سَبَق عليه من الشِّقوة.

والطَّمعُ هو تصديقُ الظَّن؛ ولذلك وصف الله تعالى به عدوه فى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ**﴾ [سبأ: ٢٠]. والظنّ ضد اليقين، ولا يغنى من الحق شيئًا. وقال الله تعالى فى وصف المشركين: ﴿**إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ**﴾ [الجاثية: ٣٢]. فمن صبر عن الطَّمع فى الخَلق أخرجه الصَّبرُ إلى الورع، ومن صَبَرَ على الوَرَع فى الدِّين أدخله الصبر فى الزّهد، ومن طَمِع فى تصديق الظنّ الكاذب أدخله الطمع فى حبّ الدنيا، ومن استشعر حبَّ الدنيا أخرجه حبُّها من حقيقة الدِّين.

وقد قال بعض العلماء: ما كنا نعدُّ إيمانَ من لم يُؤذَ فيحتمل الأذى ويصبر عليه إيمانًا. وقد فعل الله تعالى ذلك بالمؤمنين اختبارًا(١)، وأخبر أن ذلك ليس منه عذابًا، وإنما هو فتنةٌ لمن أراد فتنته وبلاءَهُ من الناس، فصار ذلك فتنةً عليهم وابتلاءً لهم، وصار رحمةً للمؤذَى وخيرًا فى قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا**

(١) فى (خ): «اختيارًا».

بالله فَإِذَا أُوذِىَ فى الله جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ الله﴾ [العنكبوت: ١٠] يعنى فتنةَ الناس به كعذابِ الله تعالى له، أى: ليس ذلك عذابًا منى إنما هو رحمةٌ باطنة، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ * كَلاَّ﴾ [الفجر: ١٦ ـ ١٧]، أى: لم أهنك بالفقر، كما لم أكرم الآخر بالإكرام والتنعيم. وعلى معنى هذا خاطب نبيه ﷺ بالصبر الذى أمره به، فقال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ [ص: ١٧] فسلاّه به وفضّله عليه.

وقد رُوينا فى خبر: «يُؤتى بأشكر أهلِ الأرض فيجزيه الله تعالى جزاء الشاكرين. ويُؤتى بأصبر أهلِ الأرض فيقال له: أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر؟ فيقول: نعم يا ربّ. فيقول الله تعالى: كَلا، أنعمتُ عليه فشكر، وابتليتكَ فصبرتَ، لأُضْعِفَنَّ لك الأجرَ عليه. فيُعطَى أضعافَ جزاءِ الشاكرين».

وكتب ابن أبى نَجِيح يعزِّى بعضَ الخلفاء، فقال فى كتابه: إن أحقَّ من عرَفَ حقَّ اللهِ فيما أَخَذ منه مَنْ عَظَّمَ حَقَّ الله تعالى عنده فيما أبقى. واعلم أن الماضى قبلَك هو الباقى لك، والباقى بعدك هو المأجور فيك. واعلم: أن أجر الصابرين فيما يُصابون فيه أعظمُ من النِّعمة عليهم فيما يُعافَون به.

وفى الأخبار: ما من عبدٍ إلا يُعطَى أجره بحساب وحَدٍّ، إلا الصّابرين فإنّهم يُجازَفُون مُجازَفَةً (١) بغير ميزان ولا حدٍّ.

وجاء فى الخبر: «إن أبوابَ الجنةِ مِصْراعانِ يأتى عليها زحامٌ كثير، إلا بابَ الصّبر فإنّه مصراع واحد لا يدخل منه إلا الصابرون أهلُ البلاءِ فى الدنيا، واحدٌ بعد واحد». وقد قال الله تعالى فى جزاء المخلصين: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ٤١]. وقال تعالى فى جزاء الصّابرين: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. قيل فى التفسير: يُغرف لهم غَرْفًا؛ والمعنى فى ذلك: أن الصبر أشق شىء على النفس وأكرهه، وأمرُّه على الطبع وأصعبه، فيه الألمُ

(١) الجَزْفُ: الأخذُ بكَثْرة.

والكظمُ، وعنه الذلُّ والحِلم، ومنه التواضعُ والكتم، وفيه الأدبُ وحُسن الخلق، وبه يكون كفُّ الأذى عن الخلق واحتمالُ الأذى من الخلق؛ وهذه من عزائم الأمور التى يضيق منها أكثر الصدور، وفيه إكراه النفوس وحملها على الشِّدة والبؤس. وقد جاء: «أفضل الأعمال ما أُكرهت عليه النفوس». ولأجل ذلك اشترط الله تعالى على المتّقين والصّادقين الصّبر فى الشدائد والمكاره، وحقق بالصبر صدقهم وتقواهم، وأكمل به وصفهم وأعمال برِّهم، فقال تعالى: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولئكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٧].

فمعنى الصّبر: حبسُ النفس عن السعى فى هواها، وحبسها أيضًا عن مجاهَدَتِها لِمَرْضاةِ مولاها بمثل ما يُوجِب المجاهدة على قدر ما يُبتلَى به العبدُ؛ لأن المجاهدة على قدر البلاء، والحَبْسَ عن نحو الشَّرودِ، وحبسُها على دوام الطاعة، وصبرُها عن شدَّةِ الطَّبْع الذى يُظهِر سوءَ الأدبِ بين يدى الربّ سبحانه وتعالى، وصبرُها على حُسن الأدب فى المعاملة.

ثم يتفرّع الصبر إلى معانٍ شتى من: الصّبرِ عن تفاوت الأهواء، والصبرِ على الثبات فى خدمة المولى. فمن ذلك ما توجب المجاهدةُ صَرْفَ الهمّة عنه، وتطهيرَ القلب منه من خَطَرات الهوى ونزَعَات الأعداءِ وتزيينِ الدُّنيا. ومن الآفات ما يوجب الصبرُ كفَّ الجوارح عنها، وحبسَ النّفسِ عن المشى فيها.

ومن الصّبر: حبس النفس على الحقّ وعكوفها عليه بمعاملة اللّسان والقلب والجسم؛ وبذلك وصفَ الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ، واشترط لصلاح أعمالهم الصبرَ، وأخبر أنّ الناس كلَّهم فى خُسران إلا من كان من أهل الحق والصبر، وعظَّم انصَّبرَ فأفرده بإعادة التواصى به.

ومن الصَّبر: حبسُ النفس على عبادة الخالق سبحانه وتعالى، وصبرُها على القَناعة، وعلى مَنع الرَّازق.

ومن الصبر: كفُّ الأذى عن الخلق؛ وهو مقامُ العادلين، يدخل فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَانِ**﴾ [النحل: ٩٠]. ثم احتمالُ الأذى عن

الخلق؛ وهو مقام المحسنين، يدخل فى قوله: ﴿والإحْسان﴾.

ومن الصبر: الصبرُ على الإنفاق وإعطاءُ أهلِ الحقوق حقوقَهُم؛ الأقرب فالأقرب، وهذا مقام المنفقين، يدخل فى قوله تعالى: ﴿وَإِيتاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ والْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. ومنه الصبرُ عن الفحشاء، وهو الأمر الفاحش فى العلم والإيمان. والصبرُ عن المنكر، وهو ما أنكره العلماء. والصبرُ عن البغى، وهو التطاول والغلوُّ ومجاوزة الحدّ بالكبر والإسراف فى أمور الدنيا. فهذه الآية كلّها جامعة لمعنى الصبر، وهى قطبُ القرآن؛ ثلاث منها، وهى الأُوَل: الصبر على: العدل، والإحسان، والإعطاء. وثلاث منها: الصبر عن: الفَحْشاء، والمنكر، والبغى. وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول: أجمعُ آية فى كتاب الله عزّ وجلّ لأمرٍ ونَهْيٍ هذه الآية.

وقال الله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ العَامِلينَ * الَّذينَ صَبَرُوا﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩]، فما أنعمَ أجرَهم حتّى وصفهم بالصبر، وما أكرم رزقَهُم ووصْفَهم حتّى مدحهم بالصبر.

والصَّبر يُحتاجُ إليه قبل العلم؛ ومعه؛ وبعده. يحتاج فى أول العمل أن يصبر على تصحيح النيّة، وعزم العقود والوفاء بها حتى تصحّ الأعمال؛ لأن النبىّ عليه السلام قال: «إنّما الأعمالُ بالنّيات، ولكلّ امرئ ما نوى». وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وحقيقة النيّة الإخلاصُ، ولأن الله تعالى قدّم الصبر على العمل، فقال تعالى: ﴿إلاَّ الَّذينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]. والصبر الثانى: فى العمل حتى يتم ويعمل، لقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ العَامِلينَ * الَّذينَ صَبَرُوا﴾. والصَّبرُ بعد العمل هو الصبرُ على كتمه، وترك التظاهُر به، والنظر إليه، ليخلص من السُّمعة والعُجب فيكمل ثوابُه كما خلص من الرياء، كما قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، وقال تعالى فى مثله: ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال بعض السلف: لا يتمُّ المعروف إلا بثلاث: تعجيله، وتصغيره، وكَتْمه.

ومن الصبر: حبسُ النفس عن المكافأة، والصبر على الأذى توكلاً على المولى عزّ وجلّ. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٢]، وهذا صبر الخصوص. وقد قال بعض أهل المعرفة: لا يثبت للعبد مقام فى التوكل حتّى يُؤذَى ويصْبر على الأذى. وقد ذكر الله تعالى ذلك فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ [الأحزاب:٤٨]، وفى قوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً * وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل:٩ ـ ١٠]. وهذا هو أوّل الرضا.

والمقام الثانى من الرضا: هو الصبر على الأحكام، وهو صبر أهل البلاء الأمثل فالأمثل بالأنبياء، لقوله ﷺ: «نحن معاشرَ الأنبياء أشدّ الناس بلاء، ثم الأمثل فالأمثل». ولقوله تعالى فى المجمَل: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:٧]. ثم فسّره فى الكلام المفسّر فقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

ومن الصبر: حبس النفس على التقوى؛ والتقوى: اسم جامع لكلّ خير. فالصبر معنًى داخل فى كل برٍّ، فإذا جمعهما العبد فهو من المحسنين، وما على المحسنين من سبيل. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦] أى: إن تصبروا على الأذى عن المكافأة، وتتقوا عند الابتلاء والمكاره، ولا تجاوزوا، فإنه أفضل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤١]، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣].

فالأوّلُ: أعنى المكافأةَ والانتصار بالحق من العدل، والعدل حسن.

والثانى: أعنى العفوَ والصبرَ من الفضل وهو الإحسان، وهذا مجازُ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٨]. فاستماع القول هو العدل، واتّباع الأحسن هو العفو(١)، وفيه المدْحُ بالهداية والعقل، وهذا هو مقام المخبتين. قيل: هم الذين لا يَظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا. فالمدح بالوصف لأهل هذا المقام هو الإخبات، وهو الخشوع والطمأنينة بحسن الجزاء من الله سبحانه وتعالى فى الآخرة، لقرب اللقاء وسرعة فناء الدنيا ـ أمدح، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥].

والتقوى والصبر معنيان أحدهما منوط بالآخر لا يتم كل واحد منهما إلا بصاحبه، فمن كانت التقوى مقامه كان الصبر حاله، فصار الصبرُ أفضلَ الأحوال من حيث كانت التقوى أعلى المقامات، إذ الأتقى هو الأكرم عند الله تعالى، والأكرمُ على الله تعالى هو الأفضل. وقد شرَّف الله تعالى الصبرَ بأن أضافه إليه بعد الأمرِ به فقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ [النحل:١٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:٧]، وإن كان كل شىء به، وكلّ عمل صالح له. ولا يصف الله تعالى عبدًا ولا يثنى عليه حتى يبتليه، فإن صبر وخرج من البلاء سليمًا مدحه ووصفه، وإلا بيَّن له كذبه ودَعواه. وقيل لسفيان الثورى رضى الله عنه: ما أفضلُ الأعمالِ؟ قال: الصبر عند الابتلاء.

وقال بعض العلماء: وأى شىء أفضل من الصبر، وقد ذكره الله تعالى فى كتابه فى نيّف وتسعين موضعًا؟! ولا نعلم شيئًا ذكره الله تعالى هذا العدد إلا الصبر، فلا يطمعنّ طامع فى مدح الله له وحسن ثنائه عليه قبل أن يبتليه فيصبر له، ولا يطمعنّ أحد فى حقيقة الإيمان وحُسنِ اليقين قبل أن يمدحه الله تعالى

(١) عبارة (ط): «فاستماع القول هو العدل والعدل حسن وهو الانتصار والعفو أحسن» وأثبت عبارة (خ) فهى أصح وأدق.

ويثنى عليه. ولو أظهر اللهُ تعالى على جوارحه سائر الأعمال، ثم لم يمدحه بوصف ولم يثن عليه بخير ـ لم يُؤمَن عليه سوءُ الخاتمة. وذلك أن من أخلاق الله تعالى أنه إذا أحبَّ عبدًا ورضى عمله مدَحه ووصفه. فمن ابتلاه بكراهةٍ ومشقّة، أو بهوًى وشهوة، فصبر لذلك أو صبر عن ذلك؛ فإن الله تعالى يمدحه ويثنى عليه بكرمه وجوده، فيدخلُ هذا العبد فى أسماء الموصوفين، ويصير واحدًا من الممدوحين، فعندها يثبِّت قدمه من الزلل، ويختم له بما سَبَق من صالح العمل.

ومن الصّبر: صبرٌ على العوافى أن لا يجريها فى المخالفة، والصبر على الغنى أن لا يبذله فى الهوى، والصّبر على النعمة أن لا يستعين بها على معصية. فحاجة المؤمن إلى الصبر فى هذه المعانى، ومطالبته بالصبر عليها، كحاجته ومطالبته بالصبر على المكاره والفقر، وعلى الشدائد والضرّ. ويقال: إنّ البلاء والفقرَ يصبر عليهما المؤمن، والعَوافى لا يصبر فيها إلا صدِّيق. وكان سَهْل يقول: الصّبر على العافية أشدُّ من الصبر على البلاء. وكذلك قالت الصحابة رضى الله عنهم لما فُتحت الدّنيا فنالوا من العيش واتسعوا: ابتُلينا بفتنة الضرّاء فصبرنا، وابتُلينا بفتنة السرّاء فلم نصبر. فعظَّموا الاختبار بالسرّاء وهو ما سرَّ على الاختبار بالضراء وهو ما ضرَّ. وقد قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ**﴾ [آل عمران: ١٣٤] فمدحهم بوصف واحد فى الحالين المختلفين؛ لحسن يقينهم، وسخاوة نفوسهم، وحقيقة زهدهم. ومن هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ**﴾ [المنافقون: ٩]؛ لأنّ فيهما ما يسرُّ فيشغل عن الذكر. ثم قال عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾ [التغابن: ١٤]؛ لأن فى الأزواج والأولاد ما يُفرَح به، فيوافق فيه الهوى، ويخالف بوجودهما المولى، فصارا عدوّين فى العُقبى لما يؤول إليه من شأنهما.

ومن هذا الخبرُ الذى رُوى عن النبى ﷺ لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر فى قميصه، فنزل عن المنبر واحتضنه، ثم قال: «صدق الله: ﴿**إِنَّما أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ**

فتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]» أى لما رأيتُ ابنى هذا لم أملك نفسى أن أخذته. ففى هذا عبرة لأولى الأبصار. ورُوى عنه فى الحديث أيضًا: «الولد مَحْزَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ». فهذه مصادر الحزن والبخل والجبن، أى يحمل حبُّ الأولاد والأموال على ذلك.

فمن صبر على السرّاء؛ وهى العوافى، والغنى، والأولاد، وغير ذلك، وأخذَ الأشياءَ من حقّها ووضعها فى حقّها، فهو من الصابرين الشاكرين، لا يزيد عليه أهل البلاء والفقر إلا بحقيقة الرضا والشكر. وقد جمع الله تعالى بين ما سَرَّ وضَرَّ وجعلهما من وصف المتّقين، ومدحهم بالإحسان معهما، فقال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤].

ومن الصبر: كتمانُ المصائب والأوجاع، وتركُ الاستراحة إلى الشكوى بهما، فذلك هو الصبر الجميل. قيل: هو الذى لا شكوى فيه ولا إظهارَ. وروينا عن ابن عباس رضى الله عنهما: الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه: صبرٌ على أداء الفرائض لله تعالى، وصبرٌ عن محارم الله تعالى، وصبرٌ فى المصيبة عند الصدمة الأولى. فمن صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة. ومن صبر على محارم الله تعالى فله ستمائة درجة. ومن صبر فى المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة.

وهذا يحتاج إلى تفسير. لم يفضل ابن عباس الصبر على المصيبة لأنه أفضل من الصبر عن المحارم وعلى الفرائض، بل لأنّ الصبر على ذَيْنِك من أحوال المسلمين، والصّبرُ على المصيبة من مقامات اليقين، وإنّما فُضِّل المقامُ فى اليقين على مَقام الإسلام.

ومن ذلك ما روى من دعاء النبى ﷺ: «أسألك من اليقين ما تهوّن به علىَّ مصائب الدنيا».

فأحسنُ الناس صبرًا عند المصائب أكثرُهم يقينًا، وأكثرُ الناسِ جزعًا وسُخطًا فى المصائب أقلّهم يقينًا.

ومثل هذا الخبر الذى رُويناه عن سَلَمة بن وِرْدان، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ: «مَنْ ترك المِراء وهو مُحِقٌّ بُنى له بيت فى أعلى الجنة، ومن ترك المِراء وهو مُبْطِلٌ بُنى له فى وسط الجنة، ومن ترك الكذبَ بُنى له فى رَبَض الجَنّة». فقد علمت أنّ تركَ الكذب وتركَ المراءِ مُبطلاً أفرضُ وأوجبُ، فينبغى أن يكونا أفضل. ولكن المعنى فيه أنّ الكذبَ والمراء بالباطل يتركه المسلمون. فأمّا المراء والعبدُ مُحِقٌّ صادق، ثم لا يمارى زهدًا فى التظاهر ورغبةً فى الصمت والسّلامة، فلا يصبر على هذا إلا الموقنون وهم خصوص المؤمنين؛ فمقامه من اليقين، والزهد وإيثار الخمول والصمت على الكلام والشهوة به أفضلُ، وهو من اليقين. فصار هذا المؤمن بمقامه أفضلَ من عُموم المؤمنين الذين يتركون الكذب والمماراة، وإنْ كانا أفرضَ وأوجبَ. فهذا بيان ذلك ومعناه.

ومن الصبر: إخفاءُ أعمال البرّ، ومنع النفسِ الفكاهةَ والتمتع بذكرها، وإخفاءُ المعروف والصدقات، فإنّ كَتْمَهُ من الأدب، مع السلامة فى الإعلان، وبُرء الساحة فى الإخبار، ولكن إخفاؤه أفضل وأزكى وأحبُّ إلى الله تعالى، بل هى من كنوز البرِّ، أعنى هذه الثلاثة: إخفاء الأوجاع، والمصائب، والصدقة. أى من الذخائر النفيسة عند الله تبارك وتعالى.

ومن الصبر: صونُ الفقر وإخفاؤه، والصبرُ على بلاء الله تعالى فى طوارق الفاقات. وهذا حال الزاهدين الراضين.

وأفضلُ الصبر: الصبرُ على الله تعالى بالمجالسة له، والإصغاءِ إليه، وعكوفِ الهمِّ عليه، وقوّة الوجد به. وهذا خصوصٌ للمقربين، أو حياء منه، أو حبًا له، أو تسليمًا، أو تفويضًا إليه؛ وهو السكون تحت جريان الأقدار وشهودُها من الإنعام، ومن حُسن تدبير الأقسام فى شهود المسألة، والحكمة فيها، والقصد بالابتلاء بها، وهو داخل فى قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:٧]. وفى قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وغيرُه من الأئمة: أصبحتُ وما لى سرور إلا فى مواضع القَدَر. ورُوى أيضًا: إلا انتظارُ القضاء. ويقال: من علامة

اليقين تسليمُ القضاء بحُسْن الصّبر والرضا؛ وهو مقام العارفين.

وقال سهل فى تأويل قول على رضى الله عنه: إن الله تعالى يحبّ كلَّ عبدٍ نُوَمَة. قال: هو السّاكن تحت جريانِ الأحكام. يعنى من غير كراهة ولا اعتراض.

فأما اشتراطُ الصّبر فى المصيبة عند الصدمة الأولى فى قول النبى ﷺ: «إنّما الصّبر عند الصّدمة الأولى» فلأنه يقال: إنّ كلّ شيء يبدو صغيرًا ثم يكبر إلا المصيبة، فإنّها تبدو كبيرة ثم تصغر. فاشترط لعِظَم الثّواب لها عند أوّل كِبَرها قبل صغرها، وهى فى صدمة القلب أوّل ما يبغته الشىء، فينظر إلى نظر الله تعالى فيستحى، فيُحسن الصبر، كما قال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ، وهذا مقام المتوكِّلين على الله تعالى.

والصّبرُ أيضًا عن إظهار الكرامات، وعن الإخبار بكشف القدرة والآيات - داخلٌ فى حسن الأدب من المعاملات؛ وهو من معنى الحياء من الله تعالى، وهذا طريق المحبين لله تعالى، وهو حقيقة الزهد.

ومن فضائل الصبر: حَبْسُ النفس عن حب المدح والحمد والرياسة. وقد رُوينا عن رسول الله ﷺ حديثًا مقطوعًا: «الصبر فى ثلاث: الصّبرُ عن تزكية النفس، والصبرُ عن شكوى المصيبة، والصبرُ على الرضا بقضاء الله تعالى على خيره وشرّه».

ومن الصبر: حبسُ النفس على[1] الخمول والتواضع والذِّلّة؛ إيثارًا للآخرة على الدنيا، وهربًا إلى الله تعالى، وتحققًا بوصف العبودية، وتركِ المنازعةِ والتشبه بمعانى أوصاف الربوبية؛ تسليمًا للإلهية، واستسلامًا للأحَدِيَّة[2]، فلا يخرجنَّك قلةُ الصبرِ عن ذلك إلى الطلب لشىء منه، فتزلَّ قدمٌ بعد ثبوتها، نعوذ بالله من ذلك.

ومن الصبر: صبر على العيال فى الكسب لهم والإنفاق عليهم، والاحتمال للأذى منهم، فإن فى العيال طُرُقاتٍ إلى الله تعالى؛ أدناها: الاهتمام بهم،

---

(١) فى (ط): «عن».

(٢) الأحَدِيّة: أى إفراد الله الواحد بالوحدانية.

وأعلاها: الرضا عن الله تعالى والتوكل عليه فيهم، وأوسطها: الإنفاق وحبس النفس عليهم.

واعلم أن أكثر معاصي العباد في شيئين: قلّة الصبر عمّا يحبون، أو قلّة الصبر على ما يكرهون. وقد قرن الله تعالى الكراهةَ بالخير، والمحبةَ بالشر، في قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]. وحدُّ الصبر وهو أولُه فريضةٌ بمثل أوّل الإخلاص.

والصبر أيضًا حيلة من لا حيلة له، لأن الأمر إذا كان بيد غيرك لم يكن إلا الصبر عليه، ولأنّ الشيء إذا كان لا يأتيك إلا قليلاً قليلاً وأنت محتاج إليه لم يكن إلا الصبر عليه، وإلا انقطع ذلك القليل.

وأصل قلّة الصبر ضعفُ اليقين بحسن جزاء من صبرت له؛ لأنّه لو قَوِيَ يقينه كان الآجلُ من الوعد عاجلاً، إذا كان الواعد صادقًا، فيحسن صبرُهُ لقُوّة الثقة بالعطاء.

ولا يصبر العبدُ إلا بأحد معنيين: مشاهدة العِوَض، وهو أدناهما، وهذا حال المؤمنين ومقام أصحاب اليمين. أو النظرُ إلى المعوِّض، وهو حال الموقنين ومقام المقرَّبين. فمن شهد العِوضَ غَنِيَ بالصبر، ومن نظر إلى المعوِّض حمله النظر.

وقد جعل بعضُ العارفين الصبرَ على ثلاثة معان، وأنه في أهل مقامات ثلاث، فقال: أوّله ترك الشكوى، قال: وهذه درجة التائبين. والثانية: الرضا بالمقدور، وهذه درجة الزاهدين. والثالثة: المحبة لما يصنع به مولاه، وهذه درجةُ الصادقين.

وقد نوَّع القدماءُ من السلف الصبرَ على ثلاثة أنواع. فرُوينا عن الحسن وغيره: الصبرُ على ثلاثة معان: صبر عن المعصية وهو أفضلها، وصبر على الطاعة، وصبر في المصائب.

وهذا داخلٌ في جمل ما فرَّقناه من معاني الصبر. ومجمل ذلك: أنّ الصبر فرض وفضل، يُعرف ذلك بمَعْرفة الأحكام. فما كان أمرًا أو إيجابًا فالصبرُ عليه أو عنه فرض. وما كان حثًا وندبًا فالصبر عليه أو عنه فضل.

والتصبرُ غير الصّبر، وهو مجاهدة النفس وحملها على الصبر، وترغيبها فيه. وهو التعمُّل للصبر، والتصنُّع للصبور بمنزلة التزهُّد، وهو أن يعمل فى أسباب الزهد ليحصِّل الزهد. والصّبرُ [والزُّهْدُ](١) هو التحقّق بالوصف، وذلك هو المقام. ولا يُخرجُ العبدَ من الصبرِ كراهةُ النفس، ولا وجدانُ المرارةِ والألم، بل يكون مع ذلك صابرًا؛ لأنّ هذا وصف البشرية لما ينافى طبعها، ولكن يكون حاله الكظم عن الشكوى ونفى السّخط لحكم المولى؛ لأن عدم ذلك وفقده هو الرضا وحقيقة التوكل، وهذان من أعلى مقامات اليقين.

وفقدُ مراتب اليقين لا يُخرج عن حدّ الصبر. والذى يُخرجُ عن حدِّ الصبر ضدُّه؛ وهو الجزع، ومجاوزة الحدّ من العلم، وإظهار التَّسَخُّط، وكثرة الشكوى، وظهور الذمِّ والتبرُّم.

ومن رياضة النفس على التصبُّر، وهو مقام المتصبِّرين وحالُ ضعفاء المريدين: أن النفس الأمّارةَ إذا جنحت بك إلى فضول الشهوات أو نازعتْكَ إلى مطالبة متقدَّم العادات أن تمنعها حاجتَها من كل شىء، فيشغلها منعُ الحاجة ووجودُ الفاقة ممّا لا بُدّ منه عن طلب فُضول الشهوات، فإذا رُضْتها بالمنع، ومنعتها محبوبَها بالتصبُّر عن الحلال، انقادت لك بالصبر عن فضول الشهوات، فتكونُ تاركةً لشهوةٍ بعِوَضٍ عاجل من مباحٍ، وتكون صابرة عن فضول شهوة لما منعتها من منال الفاقة، وتاركة للهوى طمعًا فى نوال الحاجة من الغذاء. وهذا من أكبر أبواب الرياضات للنفوس الطامحات، وفيه فضلُ الأقوياء من المتصبِّرين؛ الذين لم تستجب لهم نفوسهم بالصبر والصلاة، ولم تَنقَدْ بالجُوع والظماء.

فأمّا الضعفاء من أهل الطبقة الثالثة؛ لا من الأوّلين أهل الصوم والصلاة، ولا من هؤلاء، فإنهم لا يصبرون على تصبُّر النفس عن الحاجة، كما لا تصبر نفوسهم عن الشّهوة. فرياضةُ هؤلاء لنفوسهم أن يقطعوها من كلِّ حرام معناهُ من الحلال، ومن كلِّ شهوة مهلكةٍ وصفُها من شهوةٍ مقتصدة، لتسكن نفوسهم بذلك فى حبسها عن المحرَّمات، وتنقطع شهوتها عمًّا وراء ذلك من الموبقات، فبهذا

(١) زيادة من (خ).

تطمئنُّ نفوسُ الضعفاء.

وقد اختلف النّاس فى الصّبر والشُّكر، أيّهما أفضل؟ وليس يمكن التّرجيح بين مقامين؛ لأن فى [ذلك من][(١)] كلِّ مقام طبقةً متفاوتين. والمحققون من أهل المعرفة يقولون: إنه لا يجتمع عَبدانِ فى مَقامٍ بالسَّواء، بل لا بدّ من أن يكون أحدُهما أعلى بِعلْمٍ أو عمل أو وَجْدٍ أو مشاهدة، وإن كان الصّوب[(٢)] والقصد والأصل واحدًا، وأعلى التفاوت مشاهداتُ الوجه، وقد قال الله تعالى ومَنْ أَصدقُ من الله حديثًا: ﴿ولِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُو مُولِّيهَا﴾ [البقرة:١٤٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٨٤]. قيل: أقصد وأقرب طريقًا.

وظاهرُ الكتاب والسنّة يدلان على تفضيل الصبر، لقوله تعالى: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص:٥٤]. فالشاكر يُؤتَى أجره مرةً، فأشبهَ مقامُ الصَّبر مقامَ الخوف، وأشبهَ مقامُ الشكرِ مقامَ الرّجاء. وقد قال الله تعالى: ﴿ولِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]. وقد اتفق أهلُ المعرفة على تفضيل الخوف على الرجاء، من حيث اتفقوا على فَضْل العلم على العمل. فالصبرُ حالُ مَنْ مَقَامُهُ الخوف[(٣)]، يَقرُبُ حالُ الصّابر فى الفضل من مقامِه. والشُّكرُ حالُ مَنْ مقامُه الرّجاء، كذلك يَقرُب حالُ الشّاكر مِن مَقامه.

ومن السّنة قوله ﷺ فى الخبر الذى ذكرناه من قبل: «مِن أقلِّ ما أُوتيتمُ اليقينُ وعزيمةُ الصَّبرِ، ومَنْ أُعطِيَ حظَّه منهما لم يبال ما فاته». وذكر الحديث المتقدم، فقرن الصّبر باليقين الذى لا شىء أعزَّ منه ولا أجلَّ، وارتفاعُ الأعمال وعلوُّ العلوم به[(٤)].

(١) زيادة من (خ).
(٢) فى (ط): «الصواب».
(٣) فى (ط): «من مقام الخوف».
(٤) فى (ط): «وعلو اليقين به».

وفى مناجاة أيوب عليه السلام: إن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه: يا أيوب إنى آليتُ على نفسى لا نشرتُ للصّابرين ديوانَ توبيخٍ، ولا نَظَرُوا إلى حدِّ الصِّراط، ولا روَّعهم نَقْصُ الميزانِ، دارُهُم دارُ السَّلامِ.

• بيان آخر من تفضيل الصبر:

الصبر: حال البلاء، والشكرُ: حالُ النعمة. والبلاءُ أفضل؛ لأنه على النفس أشقّ، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. فالشاكر يُوفَّى أجره بحساب، لأنّ «إنما» تحقيق للوصف ونفى ما عداه.

• بيان آخر من فضل الصبر:

قد رفع على كرّم الله وجهه الصبّر على أربع مقامات اليقين، وجعلها دعائمه التى بها يستبين، وجعله فيه فوقها، فقال فى حديثه الطويل الذى وصف فيه شُعبَ الإيمان: والصبر على أربع دعائم: على الشوق، والشفقة، والزهد، والترقُّب. فمن أشفق من النار رَجَع عن المحرَّمات، ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشّهوات، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن ارتقبَ الموتَ سارعَ إلى الخيرات.

فجعل هذه المقامات أركان الصبر، لأنها تُوجَدُ عنه، وتحتاج إليه فى جميعها، وجعل الزهدَ أحدَ أركانه.

وقد جعل الله تعالى الصبرَ حال التقوى، ورفع للمتقين فى الإكرام درجات، فقال عزّ وعلا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. و«أكرم» و«أتقى» فوق أن يقال: كِرامُكُم المتقون، لأنّ «أكرم» و«أتقى» يدلّ على تفاوتٍ، فمن كان أتقى كان أكرم عند الله سبحانه وتعالى، ومن كان أصبر على ما يوجب التقوى كان أتقى.

واعلم أنّ الصبرَ سببُ دخول الجنة، وسببُ النجاة من النار؛ لأنه جاء فى الخبر: «حُفَّت الجنةُ بالمكاره، وحُفَّتُ النّارُ بالشّهوات». فيحتاج المؤمنُ إلى صبرٍ[1]

(١) فى (ط): «الصبر».

على المكاره ليدخل الجنة، ويحتاج إلى صبرٍ[١] عن الشهوات لينجو من النار.

فأما تفصيل التفضيل فعلى ثلاثة أوجه؛ أحدها: أن المقامات أعلى من الأحوال، وقد يكون الصبر والشكر حالين، وقد يكونان مقامين. فمن كان مقامُه الصبرَ كان حالُه الشُّكْر عليه، فهو أفضل لأنه صاحب مقام، ومن كان مقامُه الشُّكْرَ كان حالُه الصَّبرَ عليه، فحالُه مزيدٌ لمقامه، فقد صار الصبرُ مزيدًا للشّاكر فى مقامه.

الوجه الثانى من التّفضيل: المقرَّبون أعلى من أصحاب اليمين، فالصّابرون من المقرَّبين أفضلُ من الشاكرين من أصحاب اليمين، والشّاكرون من المقربين أفضلُ من الصابرين من أصحاب اليمين.

فإن قيل: فإن كان الشّاكر والصّابر من المقرَّبين فأيّهما أفضل؟ قيل: فقد قلنا: إنّ اثنين لا يتفقان فى مقام من كل وجه، لانفراد الوجه بمعانى لطائفِ اللطيف، بمثل ما انفردت الوجوه بلطيف الصَّنعة، مع تشابُهِ الصّفات واستواء الأدوات، فأفضلهما حينئذ أعرفهما، لأنّه أحبُّهما إلى الله تعالى، وأقربهما منه، وأحسنهما يقينًا؛ لأنّ اليقين أعزُّ ما أنزل الله تعالى.

• وجه آخر من بيان التفضيل:

نقول: إنّ الصبر عمّا يوجب الشكر أفضل، وإنّ الشُّكر على ما يوجب الصبر أفضلُ. فهذا[٢] يختلف باختلاف الأحوال. تفسيره: أن الصّبرَ عن حظِّ النفس وعن التنعُّم والترفُّه أفضلُ، إن كان عبدًا حالُه النعمة. فالصبرُ عن النعيم والغنى مقامٌ فى المعرفة، وهو أفضل لأن فيه الزهد المجمَع على تفضيله. ونقول: إنّ الشّكر على الفقر والبلاءِ والمصائب أفضلُ، إن كان عبدًا حالُه الجهد والبلاء. فالشّكر عليه مقامٌ له فى المعرفة، فهو حينئذ أفضل، لأن فيه الرضا المتفق على فضله.

---

(١) فى (ط): «الصبر».

(٢) من (خ)، وفى (ط): «فقد».

● نوع آخر من الاستدلال على فضل الصابر وتفضيل الصبر جملة:

الصّابر العارف أفضلُ من الشّاكر العارف، لأنَّ الصَّبر حالُ الفقر، والشّكر حالُ الغنى. فمن فضَّل الشكرَ على الصبر فى المعنى فكأنه قد فضّل الغنى على الفقر، وليس هذا مذهب أحد من القدماء، إنما هذه طريقة علماء الدنيا، طرّقوا لنفوسهم بذلك، وطرّقوا الخلق إلى نفوسهم من ذلك؛ لأنَّ من فضَّل الغنى على الفقر فقد فضَّل الرّغبةَ على الزهد، والعزَّ على الذلّ، والكبرَ على التواضع؛ وفى هذا تفضيل الراغبين والأغنياء على الزّاهدين والفقراء. ويخرج ذلك إلى تفضيل أبناء الدنيا على أبناء الآخرة.

وإنّما فضّلنا الصّبر على الشّكر فى الجملة والمعنى؛ لأنّ الصّبر حالُ مَن مقامُه البلاء، وأهلُ البلاءِ هم الأمثلُ فالأمثلُ بالأنبياء، ولأن الصبر أبعدُ من أهواء النفوس، وأقربُ إلى الضرّ والبؤس، وأشدُّ فى مكاره النفوس، وأنفرُ لطباعها، وأشدُّ مباينةً لما يلائمها، فإذا سكنت معه ووُجد عندها، كان أعجزَ لوصفها، وأعجبَ فى طمأنينتها، فمُدحت بالسّكون والطمأنينة، وكانت راضيةً مَرْضية. وأيضًا فإن الله تعالى أمر بالصبر، وبالغ فيه بالمصابرة، ووكّدهما بالمرابطة، فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا**﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. قيل فى أحد الوجوه: ورَابِطوا عليهما. فهذه ثلاثة أوامر فى مكان واحد بمعنى الصبر. فهذا يدل على تعظيمه للصبر ومحبته تعالى له، فمَن وُجد منه ذلك كان أشدَّ تعظيمًا لشعائر الله، عزّ وجلّ، ومن عظَّم شعائر الله فهو أتقى لله تعالى، ومن كان أتقى لله كان أكرم على الله؛ لقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ [الحج: ٣٢]. ثم قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣].

والصّبر أيضًا مقام أولى العَزم من الرّسل الذين أُمر النبى ﷺ بالقدوة بهم، وباهى الله تعالى بهم عبده، فقال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وأيضًا فإن العزائم فى الدين أَوْلى من الرُّخَص. رُوينا عن

سُفيان الثَّورى رضى الله عنه عن حبيب بن أبى ثابت قال: سئل مسلم البطين: أيُّما أفضل الصّبر أم الشّكر؟ فقال: الصّبر، والشُّكر والعافيةُ أحبُّ إلينا. وقد قيل فى معنى قوله تعالى: ﴿الَّذين يَستَمعُونَ القَولَ فَيَتَّبعُونَ أَحْسَنَه﴾ [الزمر:١٨]. قيل: شدائدُه وعزائمه؛ لأنَّ إباحةَ حلال الدنيا حسنٌ، والزهدَ فيه أحسن. وقد جعل الله تعالى الصّبرَ من العزائم فى قوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦].

وقد شرَّكَ اللهُ تعالى عبادَه فى الشّكر وأفرد عزّ وجلّ لنفسه تعالى الصّبر. فينبغى أن يكون المفْرَد للفَرْد أعلى من المشترَك بالعبد، فقال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤]. وقال تعالى على لسان نبيّه ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله عزّ وجل». ولم يشرِّك فى الصبر من خلقه أحدًا، فقال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:٧]. وقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور:٤٨].

واعلم أن الشّكرَ داخل فى الصبر، والصبرَ جامع للشكر؛ لأنّ مَن صبر أن لا يعصى الله بنعمهِ فقد شكرَها، ومن أطاع الله فصبَّر نفسه على طاعته فقد شكر نعمته.

وقد سئل الجنيد رحمه الله عن غنى شاكر وفقير صابر، أيِّهما أفضل؟ فقال: ليس مدحُ الغنىّ للوُجود، ولا مدحُ الفقير للعدمِ، إنّما المدحُ فى الاثنين قيامهما بشُروطِ ما عليهما. فشَرْطُ الغنىّ تَصحبه فيما عليه أشياءُ تلائم صفتَهُ وتُمتِّعُها وتُلذُّها. والفقيرُ تَصحبه فيما عليه أشياءُ تُؤلم صفته وتَقْبضُها وتُزعجها. فإذا كان الاثنان قائمَيْن لله تعالى بشُروطِ ما عليهما، كان الذى آلَمَ صفتَه وأزعجَهَا أتمَّ حالاً ممّن متّع صفتَهَ ونعَّمها.

هذا نقلُ كلامِ الجُنيد رحمه الله تعالى. وكان أبو العباس بن عطاء قد خالفه فى ذلك، فيقال: إنّ الجُنيدَ دعا عليه فلحقَه ما أصابه من البلاء، منه قتلُ أولادهِ، وإتلافُ ماله، وزوالُ عقله أربعَ عشرةَ سنة. فكان يقول: دعوةُ الجنيد أصابتنى. ورجع عن قوله فى تفضيل الغنى على الفقر، فصار يفضِّل الفقيرَ ويشرِّفه.

وأيضًا فقد رُوينا فى الخبر: أعرفُكُم بنفسه أعرفكم بما ابتلاه به منها، وما ابتلاها به منه، فأعظمُ ما ابتلانا به محبّتُنا لها، وابتلاها بعداوتنا. فمَن أفضلُ ممّن صبر على مجاهدة عدوّه، على أنه مع ذلك عدوٌّ لله تعالى، منازِعٌ لصفات الربوبية؟ ومَن أشدُّ بلاءً ممَّن أُبتلى بعداوتِك وابتُليتَ بمحبته، وأنتَ فى ذلك تتركُ محبّته لمحبةِ الله تعالى، وتصبر على عداوته بدوام مجاهدته لمرضاة الله تعالى؟ فهذا أعدلُ العدل وأفضلُ الفضل، ولا سبيل إلى ذلك إلا بفضل أَثَرَةٍ من الله تعالى، وحسن عنايته، ودوامِ نظره، إذ لا توفيق ولا قوّة ولا صبر إلا به سبحانه وتعالى.

فأما المسألة التى سُئِلَ عنها بعض العلماء: عن عبدين ابتُلى أحدهما فصبر، وأُنعِم على الآخر فشكر. فقال: كلاهما سواء، قال: لأنّ الله تعالى أثنى على عبدين أحدهما صابر والآخر شاكر بثناء واحد، فقال تعالى فى وصف أيوب عليه السلام: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤]، وقال فى وصف سليمان عليه السلام: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

ففى قوله هذا ـ رحمه الله ـ غفلةٌ عن لطائفِ الأفهام، وذَهابٌ عن حقيقة تدبّر الكلام. إذ عندنا بين ثَناءِ الله عزّ وجلّ على أيوب فى الفضل على ثَنائِه على سليمان عليهما السلام ثَلاثَةَ عَشَر معنًى، وشرَّكَ سليمان عليه السلام بعد ذلك فى وصفين آخرين، وأفرَدَ أيوب عليه السلام بفضل ثناء ثلاثةَ عشر معنى.

أوّلُ ذلك: قوله عزّ وجلّ فى أول مدحه: ﴿وَاذْكُرْ﴾ فهذه كلمة مباهاة، باهى بأيّوبَ عند رسوله المصطفى ﷺ وشرّفه وفضّله بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ﴾ يا محمد، فأمره بذكره والاقتداء به، كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]. قيل: هم أهل الشّدائد والبلاء، منهم أيوبُ عليه السلام، قُرِضُوا بالمقاريض، ونُشِروا بالمناشير، وكانوا سبعين نبيًا. وقيل: هم إبراهيمُ وإسحاق ويعقوب؛ وهؤلاء آباء الأنبياء وأفاضلهم، لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [مريم:٤١]، ولقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ

ويَعْقُوبَ أُولِى الأَيْدِى والأَبْصَارِ﴾ [ص:٤٥]، يعنى أصحاب القوّةِ والتَّمْكين وأهلَ البصائرِ واليقين. ثم رفَعَ أيوبَ إلى مقامهم، فضمّه إليهم، وجعله سلوةً له ﷺ، ثم ذكَّره إياه وذكَّره به.

ثمّ قال تعالى: **﴿عَبْدَنا﴾** فأضافه إليه عزّ وجلّ إضافةَ تخصيصٍ وتقريبٍ، ولم يُدخل بينه وبينه لام الملك، فيقول: عبدًا لنا، فألحقه بنظرائه من أهل البلاء فى قوله تعالى: **﴿وَاذْكُرْ عِبادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ﴾** [ص:٤٥]، وهم أهلُ الابتلاء الذين باهَى بهمُ الأنبياءَ، وجعل من ذرّياتهم الأصفياء. فأضافَ أيوبَ إليهم فى حسن الثناء، وفى لفظ التّذكِرة به فى الثناء.

ثم قال: **﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾** فأفرده بنفسه لنفسه، وانفرد له فى الخطاب بوصْفه. وقال: **﴿مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** [الأنبياء:٨٣]، فوصفه بمواجهةِ التملُّق له، ولطيفِ المناجاةِ، وظهَرَ له بوصْفِ الرَّحمة فاستراح إليه به، فناداه فشكا إليه واستغاثَ به، فأشبه مقامُهُ مَقَامَ موسى ويونس عليهما السلام، فى قول أحدهما: **﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾** [الأعراف:١٤٣]، وفى قول الآخر: **﴿لا إلهَ إلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالمين﴾** [الأنبياء:٨٧]. وهذا خِطابُ المشاهدةِ، ونَظرُ المواجهة.

ثم وصفه بالاستجابةِ لَهُ، وأَهَّلَهُ لكَشْفِ الضُّرِّ عنه، فجعل كلامه سببًا لتنفيذ قدرته، ومكانًا لمجارى حكمتِهِ، ومفتاحًا لفتح إجابتِهِ.

ثم قال بعد ذلك كله: **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾** [ص:٤٣] فزاد على سليمان فى الوصف، إذ كان بين من وُهِب لأهله وبين من وُهِب لَه أهلُه فضلٌ فى المدح؛ لأنه قال فى وصف سليمان: **﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾** [ص:٣٠]، فأشبهَ فَضْلُ أيوب فى ذلك على سليمانَ كفَضْل موسى على هارون؛ لأنه قال عزّ وجلّ فى مدح موسى عليه السلام وتفضيله على هارون: **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هارُونَ نَبِيًّا﴾** [مريم:٥٣]. وكذلك قال فى مدح داود: **﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾**. فوهب لموسى أخاه، كما وهب لداودَ ابنه. وأشبهَ مقامُ أيوب فى المباهاة والتّذكِرة

به مقامَ داود عليه السلام، لأنه قال تعالى فى وصف داود لنبيّه ﷺ: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ [ص:١٧]. وكذلك قال تعالى فى نعت أيوب: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ [ص:٤١]. فقد شبه أيوبَ بداوُد وموسى عليهما السلام فى المعنى، ورفعَهُ إليهما فى المقام، وهما فى نفوسنا أفضلُ مِن سُليمان، عليهم السلام، فأشبه أن يكون حالُ أيوب أعْلَى من حالِ سليمان، ويَعْلَمُ الله تعالى المقدَّم، ولكن هكذا أُلْقِى فى قلوبنا، والله أعلم.

ثم قال تعالى بعد ذلك كله: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ فذكَر نفسه ووصفه عند عَبْدِهِ تشريفًا له وتعظيمًا، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٤٣]، فجعله إمامًا للعقلاء، وقدوةً لأهل الصبر والبلاء، وتذكرةً وسَلْوة من الكُروب للأصفياء.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ ، فذكَر نفسه سبحانه وتعالى ذِكرًا ثانيًا لعبدِهِ، ووصل اسمه باسمه؛ حبًا له وقُربًا منه؛ لأن النون والألف فى «وجدنا» اسمه تبارك وتعالى، والهاء: اسم عبده أيوب ﷺ. ثم قال: ﴿صَابِرًا﴾ ، فوصفه بالصبر، فأظهر مكانه فى القوة وخلَّقه بخُلُقه.

ثم قال تعالى فى آخر أوصافه: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤]؛ فهذان أوّلُ وصْفِ سُليمان وآخرُه، ههنا شرَّكَه فى الثناء، وزاد أيوبَ بما تقدم من المدح والوصف الذى لا يقوم له شىء. فمن قولِه عزّ وجلّ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ إلى قوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ عظيمٌ من الفرقان عند أهل الفهم والتبيان.

وجعل فى أوّل وَصْف سليمانَ بأنّه وَهَبَهُ لأبيه داود عليهما السلام، فصار حسنةً من حسناتِ داودَ عليه السلام، واشتمل قوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ على أوّل وَصْفه وأوسطِه، وهو آخر وصف أيوب عليه السلام. وعلى جميع الأنبياء الصّلاة والسلام.

وقد روينا فى الخبر عن رسول الله ﷺ: «آخرُ الأنبياء دخولاً الجنةَ سليمانُ بن

داودَ عليهما السلام لمكانِ ملكه، وآخرُ أصحابى دخولاً الجنةَ عبدُ الرّحمن بن عوف لمكانِ غناه».

وفى لفظ آخر: «يدخلُ سُليمانُ بن داود الجنةَ بعدَ الأنبياءِ بأربعين خريفًا».

وقد جاء فى الآثار: «إن أوّل مَن يدخل الجنةَ أهلُ البلاء، وإنّ أبوابَ الجنةِ كلَّها مصراعان إلا بابَ الصّبر فإنّه مصراعٌ واحدٌ، وأوّل مَن يَدْخُله [مِنْ] أهل البلاءِ إمامُهُم أيوبُ عليه السلام»[1].

فقد زاد أيوبُ على سليمان عليهما السلام بعُموم هذه الأخبار؛ لأنّه سيدُ أهل البلاء، وتذكرةٌ وعبرة لأولى النُّهى، وإمام أهل الصّبر والضُّرِّ والابتلاء. ولم نقصد بما ذكرناه التفضيل بين الأنبياء؛ لأنّا قد نُهينا عن ذلك، فيما رُوينا عن نبيّنا محمد ﷺ أنه قال: «لا تفضِّلوا بين الأنبياء»، ولكنّ اللهَ تعالى قد أخبرنا أن بعضَهُم مفضَّل على بعض فى قوله: ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ**﴾ [الإسراء: ٥٥]. إنّما أظهرنا فضلَ الثناءِ المستودَع فى الكتاب، فاستنبطنا باطنَ الوصفِ المكرّر فى الخطاب فى قصة أيوب على قصة سليمان عليهما السلام، بما ظهر لنا من فَهْمِ فصل الخطاب وتدبّر معانى الكلام، وعلمِ الله تعالى المقدَّم، وهو عزّ وجلّ أعلمُ وأحكمُ.

وقد نُدِبْنَا إلى الاستنباط فى قول الرسول عليه السلام: «اقرؤوا القرآن والتمسوا غرائبه». ولأنّ فى ذلك عِزًا[2] لأهلِ الصّبر والبلاء، وتقويةً لقلوبهم، وتعريفًا لسوابغ نعم الله تعالى عليهم، وإظهارًا لبواطن النعم، وتنبيهًا على لطائفِ الكَلِم، وتزهيدًا فى الدنيا والنّفس، وترغيبًا فى الآخرة والصبر، وتفضيلاً لطريق أهل البلاء الذين هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء.

فجاء من ذلك تفضيلُ المبتلَى الصابرِ على بلائه رِضًا بحُكم مولاه، وتسليمًا لمُرِّ قَضائِهِ[3]، على المنعَمِ عليه، الشاكرِ على نعمائه، إذِ النّعمُ ملائمةٌ للطبع، موافقةٌ

(١) جاء هذا الخبر بالمطبوعة مخالفًا لما فى المخطوط فى الترتيب، فأثبت نص (خ).

(٢) فى (ط): «عزاء».

(٣) فى (ط): «وتسليمًا لمرضاته».

للنفس، لا يُحتاج معها إلى كدِّ النفس بالصبر عليها، [ولا مُجاهدتها][1]، ولا حَمْلها على المشقة فيها بالرّضا بها. والبلاءُ مباينٌ للطبع، نافرة منه النفس، يُحتاج إلى حملٍ عليه ومشقة فيه، وما كرهته النفسُ فهو خير وأفضل، ولا سبيل إليه إلا بسكينة من الله تعالى، وتصبُّرٍ عليه بقوةٍ به عزّ وجلّ وعنايةً منه: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ**﴾ [النحل: ١٢٧].

وهذا آخر شرح مقامات الصبر.

* * *

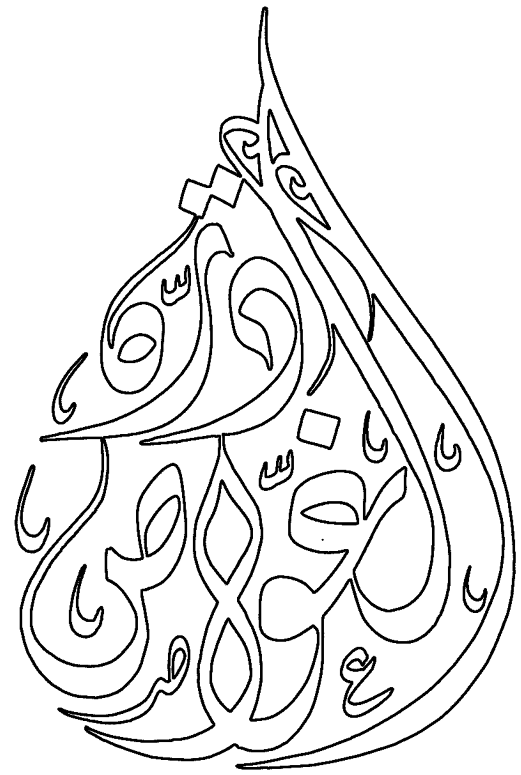

(١) زيادة من (خ).

شرح مقام الشكر، ووصف الشاكرين
وهو المقام الثالث من مقامات اليقين

قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، فقرن الشّكر بالإيمان، ورفعَ بوجودِهما العذابَ. وقال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]. وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «الطّاعم الشّاكر بمنزلة الصّائم الصّابر». وقال ابن مسعود رضى الله عنه: الشّكر نصف الإيمان.

وقد أمر الله تعالى بالشّكر وقَرَنه بالذّكر فى قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لى وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقد عظّم الذّكر بقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فصارَ الشّكرُ أكبرَ لاقترانه به، ورضِىَ الله تعالى بالشكر مجازاةً من عباده لفَرط كرمِه، لأنّ قولَه تعالى: ﴿فَاذْكُرُونى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لى﴾ خروج من لفظِ المجازاة لتحقيق الأمر وتعظيمِ الشكر، لأنّ «الفاء» للشرط والجزاء، و«الكاف» المتقدمة للتمثيل. فقوله تعالى: ﴿فاذكرونى﴾ متصل بقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ... فَاذْكُرُونى... وَاشْكُرُوا لى﴾ [البقرة: ١٥١ـ ١٥٢]. والمعنى: كمَثَلِ ما أرسلتُ فيكم رسولاً منكم فاشكروا لى. والعرب تكتفى من «مثل» بالكاف، كما اكتفت من «سوف» بالسين، فى قوله تعالى: ﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾ [النساء: ١٦٢]، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٢]. وهذا تفضيل للشكر عظيم لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى.

وقد رُوينا فى أخبار أيوب عليه السّلام: إن الله تعالى أوحى إليه: إنّى رضيتُ بالشكر مكافأةً من أوليائى ـ فى كلام طويل. وفى أحد الوجوه من قوله عزّ وجلّ: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، قال: طريقَ الشّكر. فلولا أنّ الشكر طريقٌ قريبٌ يوصِّل إلى الله تعالى لما عوَّل العدو على قطعه، ولولا أن الشّاكرَ حبيبُ ربّ العالمين ما نَقَصَهُ إبليس اللعين فى قوله تعالى: ﴿وَلاَ

﴿تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]. وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فيه، واستثنى فى خمسة أشياء: فى الإغناء، والإجابة، والرّزق، والمغفرة، والتوبة. فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]. وقال تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٢]، ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٤٠]. وقال عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾ [التوبة: ٢٧]. وختم بالمزيد عند الشكر من غير استثناء فقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

فالشّاكر على مزيد، والشكور فى نهاية المزيد؛ وهو الذى يكثُرُ شكرُه على القليل من العطاء، ويتكرر منه الشكر والثناء على الشىء الواحد من النعم. وهذا خُلُق من أخلاق الربوبية؛ لأنّه سماه باسم من أسمائه. والمزيدُ هو إلى المنعم يجعله ما شاء. فأفضلُ المزيدِ حسنُ اليقين ومشاهدةُ الأوصاف. وأوّلُ المزيد شهودُ النّعم أنها من المنعِم بها من غير حولٍ ولا قوّة إلا به عزّ وجلّ. وأوسطُ المزيدِ دوامُ الحال، ومتابعةُ الخدمة والاستعمال. وقد يكون المزيدُ أخلاقًا، وقد يكون علومًا، وقد يكون فى الآخرة، وتثبيتًا عند فراق العاجلة.

وقد جعل الله تعالى الشكرَ مفتاح كلام أهل الجنة وختامَ تمنّيهم فى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤]. وقال تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]. فلولا أنه أحب الأعمال إليه ما بقّاه عليهم لديه.

ورُوينا فى مناجاة أيوب عليه السّلام: إنّ الله تعالى أوحى إليه فى صفة الصابرين: دارُهُم دارُ السّلام، إذا دخلُوها ألهمتْهُمُ الشُّكرَ وهو خيرُ الكلام، وعند الشّكر أستزيدُهم، وبالنَّظرِ إلىَّ أزيدُهُم. وهذا غاية الفضل.

فأوّلُ الشّكرِ معرفةُ النِّعَم أنّها من المولى وحدَه لا شريك له فيها، ولا ظهير له عليها، إذ قد نفى ذلك عن نفسه؛ لأنه هو الأوّلُ فى كلِّ شىء، لا شىءَ معه ولا ظهير له فى شىء، إذ قد جعل الضرَّاءَ والسرَّاء منه وإليه، جاريَيْنِ على عباده، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فيهِمَا منْ شرْك وَمَا لَهُ منْهُم منْ ظَهير﴾ [سبأ:٢٢]. الشرك: الخلط. والظّهير: المعين. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم منْ نِعْمَة فَمن الله ثُمَّ إذَا مَسَّكُمُ الضرُّ فَإلَيْه تَجْئَرُونَ﴾ [النحل:٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَإن يَمْسَسْكَ اللهُ بضرٍّ فَلا كَاشفَ لَهُ إلاّ هُوَ وَإنْ يَمْسَسْكَ بخَيْر فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىء قَدير﴾ [الأنعام:١٧]. وقال تعالى فى جُمَل النّعم بعد إضافتها إليه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فى السَّمَوات وَمَا فى الأَرْضِ جَميعًا منْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نعَمَهُ ظَاهرَةً وَبَاطنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

فالأسبابُ مع صحّتها، والأواسطُ مع ثبوتها؛ إنما هى حكمةُ [المنعم][1] وأحكامُه. وظرُوفُ العطاء وآثارُ المعطى لا تؤثر فى الحكم بها والجعلِ لها حُكمًا ولا جَعْلاً، يعنى لا تحكمُ ولا تَجعل، لأنّها محكومات فكيف تحكم! ومجعولات فكيف تجعل! لا حاكم إلا الله وحدَه ﴿ولا يُشْرِكُ فى حُكْمه أحدًا﴾ [الكهف:٢٦]، وهذا الحرف فى مقرأ أهل الشام أبلغُ وأوْكدُ، لأنّه يخرجُ على الأمرِ، لأنهم قرؤوه: بالتاء وجزم الكاف: (ولا تُشْرِكْ فى حُكْمه أحدًا)[2]. فالأسبابُ أحكامُ حقٍّ وأواسطُ حكمِه، فمشاهدةُ المنعمِ فى النّعمة، وظهورُ المعطى عند العطاء حتى تَرى النعمةَ عندَه منه، والعطاءَ عنه ـ هو شُكرُ القلب، لأن الشكر عند الشاكرين معرفةُ القلب ووصفُهُ، لا وصفُ اللسان.

وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك، وأمرَ باقتناء الشّكر[3]، واتخاذِه مالاً فى الآخرة، عِوضًا من اقتناءِ الأموال فى الدنيا، فقال فى حديث ثوبان وعمر بن

---

(١) زيادة من (خ).

(٢) هذه قراءة ابن عامر، والباقون «ولا يُشركُ»، انظر: السبعة فى القراءات، ص٣٩٠.

(٣) فى (خ): «بالاقتناء للشكر».

الخطاب رضى الله عنهما، حين نزل فى الكُنوز ما نزلَ سأله عمر: أىُّ المالِ نتخذُ؟ فقال: «ليتخذنّ أحدُكم لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا».

ورُوينا فى أخبار موسى عليه السّلام وداود عليه السلام: يا ربّ كيفَ أشكركَ وأنا لا أستطيع أن أشكركَ إلا بنعمة ثانية من نِعمك؟! وفى لفظ آخر: وشكرى لك نعمةٌ أُخرى منك تُوجب علىَّ الشّكر لك. فأوحى الله تعالى إليه: إذا عَرَفْت هذا فقد شكرتنى. وفى خبر آخر: إذا عَرَفت أن النّعم منى فقد رضيتُ منك بذلك شكرًا.

وشكرُ اللسان حسنُ الثناء على اللهِ تعالى، وكثرةُ الحمدِ والمدحِ له، وإظهارُ إنعامِه وإكرامِه، ونشرُ أياديه وإحسانه. وأن لا يشكو المالكَ إلى المملوك، ولا المعبودَ الجليل إلى العبدِ الذليل.

وفى الخبر: أن النبى ﷺ قال لرجل: «كيف أصبحت؟ قال: بخير. فأعاد عليه النبى عليه السلام السؤال ثانية: كيف أنتَ؟ فقال: بخير. فأعاد عليه الثالثة: كيف أنت؟ فقال: بخير أحمد اللهَ تعالى وأشكرُه. فقال: هذا الذى أردتُ مِنك». يعنى إظهارَ الحمدِ والشكرِ والثناء.

وإنّما كان السلف يَتَساءلُون عن أحوالهم إذا التقوا، ليستخرجوا بذلك حمدًا لله تعالى وشكرَه، فيكونوا شركاءَهُ فى ذلك، لأنهم سببُ ذكره لله تعالى. فمَن علمتَ أنّه يشكو مولاه ويتكرَّه عندكَ قضاءه إذا سألته عن حاله فلا تسأله، فتكون أنت سبب شكواه، وشريكه فى جهله. وما أقبحَ بالعبدِ أن يشكوَ المولى الذى ليس كمثله شىء والذى بيده ملكوتُ كلِّ شىء إلى عبدٍ مملوك لا يقدر على شىء.

ومن الشكر أن يشكرَ اللهَ تعالى على اليسير، لأنّ القليلَ من الحبيب كثير، ولأنّ الله تعالى حكيم، فمنعُهُ حكمةٌ وقُدْرةٌ. فإذا عَرفَ وجهَ الحكمة فى المنع مع القُدرة على العطاء علِم أنّه منعَهُ ليُعْطِيَهُ. فثَمَّ صارَ المنعُ عطاءً، وكان اليسيرُ منه كثيرًا. ويعلم أنّ الذل والصّبر عند المنع عزٌّ وشرف، وهو أفضل وأنفس عند العلماء من التعزّز بالعبيدِ والشّرَفِ بهم، وأن الطمع والتذلّل إليهم والاستشراف

إلى عبد مملوكٍ مثلكَ ذلٌّ ذليل، وحسنُ الذلّ للعزيز كحسن الذلّ للحبيب، وقبح الذلّ للذليل كقبح الذلّ للعدو. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت:١٧]. وقال تعالى في معناه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٤]. والعبادةُ هي الخدمة والطاعة بذلٍّ.

ولا يَحسُنُ للعبدِ المقبل أن يُظهرَ فقرَه وفاقتَه إلى غيرِ مولاه الذي يلي تدبيرَهُ ويتولاه، لأنه عليمٌ خبير بحاله، يسمعه ويراه، فهو أعلم بما يُصلحه منه. وقد قال الله تعالى في معناه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٢٧].

فعلى الموقنِ أن يشكرَ في القَبْض والمنع، كما يشكر في العطاء والبسط. ثم يشهدُ الشاكرُ بقلبه شهادةَ يقين، ويعلم أن وصفَه وصفُ العبودية، وحكمَهُ أحكامُ العبيد، محكوم عليه بأحكام الربوبية، وأنه لا يستحقُّ على الله شيئًا، وأن الله عزّ وجلّ يستحقّ عليه كلَّ شيء. فالعبدُ خلقُه وصَنعته، والربُّ صانعُه ومالكُه. فإذا شهد العبدُ هذه المُشاهَدَة رأى لله عز وجل عليه كلَّ شيء، فرضِيَ منه بأدنى شيء، ولم يرَ لَهُ على الله تعالى شيئًا، فلم يقنع لله تعالى منه بشيء، ولم يطالب مولاه بشيء.

فكثرةُ الذكرِ، وحسنُ الثناء، وجميلُ النَّشر للنعماء، وتعديدُ النعم والآلاء، هو شكر اللسان؛ لأنّ معنى الشكر في اللغة: هو الكشفُ والإظهار. يقال: كثَر وشكَر بمعنًى، إذا كشَف عن ثغرِه وأظهره، فيكون إظهارُ الشكرِ وكشفُه باللسان ما ذكرناه، كما جاء في الخبر: «ليس شيءٌ من الأذكارِ يُضاعَف ما يُضاعَفُ الحَمْدُ». وفي الحديث: «من قال: سبحان الله، فله عشرُ حَسَنات، ومن قال: لا إله إلا الله، فله عشرون حسنة، ومن قال: الحمد لله، كُتبت له ثلاثون حسنة».

ليس أن الحمدَ أعلى من التوحيد، ولكن لفضلِ مقام الشُّكْرِ(١)، ولأنّ الله تعالى افتتح بِهِ كلامَه في كتابه. وفي الخبر: «الحمد رداءُ الرحمنِ عزّ وجلّ». وفي

(١) في (ط): «الشاكر».

الخبر: «أفضلُ الذّكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله رب العالمين».

ويكون أيضًا ظهورُ الشكر وغلبتُهُ فى القلب شكرَ القلب، ويكون شكرُ الله تعالى لعبده كشفَهُ له ما ستره عنه، وإظهارَهُ له ما حَجَبه منه من العلوم والقدر، وهو المزيد، فيفيدُه ذلك حسنَ معرفةٍ به سبحانه وتعالى، وعلوَّ مشاهدةٍ منه[1]، وكلُّه يرجع إلى معنى الكشف والإظهار.

وأما شُكرُ الجوارحِ للمنعم الْمُفْضِل سبحانه وتعالى فهو أن لا يعصيَهُ بنعمةٍ من نعمه، وأن يستعينَ بنعمته على طاعته، ولا يستعين بها على معاصيه، فيكونَ قد كفرَها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم:٢٨]. قيل: استعانوا بنعمه على معاصيه. فالخلق لا يقدرُون على تبديلِ نعمة الله عزّ وجلّ، ولكن معناه: بدّلوا شكرَ نعمةِ الله كفرًا، وهذا من المضمَرِ لظهورِ دليله عليه؛ لأنه أمرهم بالطّاعة بالنعم فخالفوه فعصَوْه بها، فكان ذلك تبديلَهم لما أُمروا. ومثله قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢]، المعنى: شكرُ رزقكُم تجعلونه تكذيبكُم برُسُلِ الله تعالى. وهذا من المحذوف أيضًا، وهى فى قراءة النبى ﷺ مُظهرَةٌ مفسَّرةٌ. رُوينا عنه عليه السلام: «أنّه قرأ (وتجعلون شُكْرَكم)، فهذا ظاهر. وبمعناه: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:٢١١]، أى: يعاقب من كفر بالنعمة فضيّع شكرها بمعصيته بها، يُعاقبه بزَوالها. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]. قيل: إن كفرتم النعمةَ فقد يكونُ العذابُ فى الدنيا تبديلَ النّعمة عقوبات، وتغييرها هوانًا ومذلاّت، وقد يكون العذابُ مؤجلاً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:٦٥]. قال: طالَبَهُم على النِّعم بالشّكر فلم يكن عندهم، فأغْرَمَهُم ثمنَ النِّعمة فحبَسَهُم فى جهنم. وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]. ثم قال: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام:١٢٠]، ففيه تنبيهٌ لذوى الألباب الذين وصَّل لهمُ القولَ ليتذكروا أن يذرُوا

---

(١) فى (ط): «حسن معرفته به سبحانه وتعالى، وعلو مشاهدته منه».

ظاهرَ الإثمِ شُكرًا لظاهرِ النعم، ويذروا باطنَ الإثم شكرًا لباطن النعم. وظاهرُ النعم عَوافى الأجساد ووجود الكفايات من الأموال، وظاهرُ الإثمِ أعمالُ الجوارح من معانى حظوظ النفس. وباطنُ النِّعَم معافاةُ القلوبِ وسلامة العقود، وباطنُ الإثم أعمالُ القلوب السيئة، مثل: الإصرارِ، وسوءِ الظن، ونيّات السوء.

وقال مطرِّف بن عبد الله: لأنْ أُعافَى فأشكر أحبُّ إلىَّ من أن أُبتلَى فأصبر. لأنّ مقامَ العوافى أقربُ إلى السلامة، فلذلك اختار حالَ الشُّكرِ على الصّبر، لأنَّ الصَّبرَ حالُ أهلِ البلاء.

وقد رُوينا عن الحسن البصرى معنى ذلك: الخَيْرُ الذى لا شرَّ فيه: العافيةُ مع الشُّكرِ، والصَّبرُ عند المصيبة. فكَمْ مِن مُنعَم عليه غيرُ شاكرٍ، وكم من مبتلًى غيرُ صابر؟!

وقد روينا عن النبى ﷺ معنى هذا فى قوله: «وعافيتُكَ أحبُّ إلىّ».

وقال لعلى رضى الله عنه حين سمعه يقول فى مرضه: اللهم إنى أسألك الصبر، قال: «لقد سألت اللهَ تعالى البلاءَ فسَلْه العافية».

ومن الشّكر الأعمالُ الصالحة. وبالعمل فسّر الله تعالى وفسَّر رسوله ﷺ الشكرَ للمُنعم، فقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبا:١٣]. وقال رسول الله ﷺ لما عُوتِب فى اجتهاده وقيامه حتّى تورَّمت قدماه: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا». فأخبر أن المجاهدةَ وحسنَ المعاملة شكرُ المستعمِل وجزاءُ المنعم. وقد قال بعض العلماء: شكرُ القلبِ المعرفةُ بأن النِّعم من المنعمِ لا غير. وشكرُ العملِ كلّما وهبَ الله عزّ وجلّ لك عملاً أحدثتَ له عملاً ثانيًا شكرًا منك للعملِ الأوّل. وعلى هذا يتصل الشّكر بدوامِ المعامَلة.

وأوّلُ الشكرِ عند العارفين أن لا تعصيه بنعمةٍ من نِعمةٍ فتجعلَها فى طاعة الهوى. فأما شكرُ الشاكرين فهو أن تطيعه بكلّ نعمة فتجعلها فى سبيل المولى. وهذا شكر جملةِ العبد.

وحقيقةُ الشُّكر التقوى، وهو اسم يستوعبُ جُمَلَ العبادة التى أمر الله تعالى بها

عباده فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِين من قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. ثم عبّر حقيقة عن الشكر بتقواه، وأخبر سبحانه وتعالى أنّ التقوى هو الشكر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وفى الشكر مقامان عن مشاهدتين: أعلاهما مقامُ شكُورٍ، وهو الذى يشكرُ على المكارِه والبلاء والشّدائد واللأْواء، ولا يكون كذلك حتى يشهدَ ذلك نعمًا توجب عليه الشكر لِصِدْقِ يقينه وحقيقة زهده. وهذا مقامٌ فى الرضا، وحالٌ من المحبة. وبهذا الوصف ذكر الله تعالى نبيَّه نوحًا عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، فى التفسير: إنه كان يشكر الله تعالى على كل حال من خيرٍ أو شرٍّ، أو نفع أو ضرّ. ورُوينا فى الخبر: «ينادى منادٍ يومَ القيامة: لِيَقُم الحمَّادون، فيقوم زمرةٌ، فيُنصَب لهم لواء، فيدخلون الجنة. قيل: ومن الحمادون؟ قال: الذين يشكرُون الله تعالى على كل حال». وفى لفظ آخر: «على السرّاء والضرّاء».

وقد قال بعضُ العلماءِ فى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] قال: ظاهِرةً: العوافى والغنى، وباطنةً: البَلْوى والفقر. فهذه نعم الآخرة، كما قال رسول الله ﷺ: «لا عيش إلا عيش الآخرة».

والمقام الثانى من الشكر: أن ينظر العبدُ إلى من هو دونه ممّن فُضِّل هو عليه فى أمور الدنيا وأحوال الدين، فيعظِّم نعمة الله تعالى عليه، بسلامة قلبه ودينه وعافيته مما أُبتلى الآخرُ به، ويعظِّم نعمةَ الدنيا عليه لما آتاه الله تعالى وكفاه فيما أحوج الآخرَ وألجأه إليه، فيشكر على ذلك. ثم ينظر إلى مَنْ هو فوقه فى الدين، ممن فُضِّل عليه بعلم الإيمان وبحسن يقين، فيمقت نفسه ويُزرى عليها، وينافس فى مثل ما رأى من أحوال مَنْ هو فوقه فيرغب فيها. فإذا كان كذلك كان من الشاكرين، ودخل تحت اسم الممدوحين.

وقد روينا معنى ذلك فى حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ نظرَ فى

الدنيا إلى مَنْ هو دونه ونظرَ فى الدِّين إلى من هو فَوقه كتبه اللهُ تعالى صابرًا شاكرًا. ومن نظر فى الدنيا إلى من هو فوقه ونظر فى الدِّين إلى من هو دونه لم يكتبه اللهُ صابرًا ولا شاكرًا». وقد شرحنا هذا فى مقام الرضا فكرهنا إعادته ههنا.

وكلُّ وصفٍ يكون العبدُ شاكرًا به يكون الشكرُ مقامًا له فيه، فإنْ كفَر النعمةَ يلزمه بضده؛ لأَن الكُفر ضد الشكر.

ومن كبائر النعم ثلاثٌ، من جَهِلَها أضاعَ الشكر عليها، ومعرفتُها شكرُ العارفين:

أولها: استتارُ الله تعالى بقدرته وعزته عن الأبصار، ولو ظهر للعباد لكانت معاصيهم كفرًا؛ لأَنّهم لم يكونوا ينقصون من المعاصى المكتوبةِ عليهم جَناح بَعُوضة، ولأنّه تبارك وتعالى كان يظهر بوصفٍ لا يمتنعون معه عن المعاصى، ووراء هذا سرائرُ الغيوب، إلا أنّهم كانوا يَكفُرون بالمواجهة لانتهاك حُرْمَة المشاهدة، وأيضًا لما كان لهم فى الإيمان به من عظيم الدّرجات ما لهم الآن، لأنّهم حينئذ يؤمنون بالشهادة، وهم اليوم يؤمنون بالغيب، فرُفِعَت لهم الدرجاتُ بحسن اليقين، ولذلك مدحهم الله تعالى ووصفهم.

والنعمة الثانية: إخفاءُ القَدَر والآياتِ عن عموم الخلق، لأنها من سرٍّ الغيب وصلاحِ العبيد واستقامةِ الدّنيا والدين. ولو ظهرت لهم لكانت خطَايَاهُم الصغائرُ كبائرَ مع معاينةِ الآيات، ولَمَا ضُوعفَت لهم على أعمالهم الحسناتُ كمضاعفتها الآنَ للإيمان بالغيب.

والنعمة الثالثة: تَغْيِيبُ الآجالِ عنهم، إذ لو علموا بها لما كانوا يزدادون ولا يَنْتقصون من أعمالهم الخير والشرّ ذرّةً، فكان مع علمهم بالأجل أشدَّ مطالبة لهم، وأوقعَ للحجة عليهم، فأخفى ذلك عنهم معذرةً لهم من حيث لا يعلمون، ولطفًا بهم، ونظرًا لهم من حيث لا يحتسبون.

ثم بعد ذلك من لطائف النعم شمولُ سترِهِ لهم، وحَجْبُ بعضهم من بعض، وسترُهم عند العلماءِ والصّالحين، ولولا ذلك لما نظروا إليهم. ثم حَجْبُ الصّالحين

والأولياء عنهم، ولو أظهر عليهم آيات يُعرَفون بها حتى يكون الجاهلون على يقين من ولاية الله تعالى لهم وقربِهم منه؛ لبطل ثواب المحسنين إليهم، ولَحرُمَ قبولُ إحسانِهم عليهم، ولحبطت أعمالُ المسيئين إليهم. ففى حجْب ذلك وستره ما عمل العاملون لهم فى الخيرِ والشرِّ على الرَّجاءِ وحسنِ الظنِّ بالغيبِ من وراء حجاب اليقين، وتأخَّرت عقوباتُ المؤذين لهم عن المعاجلة، لما ستَرَ عليهم من عظيم شأنهم عند الله تعالى وجليل قدرهم. ففى ستر هذا نِعَمٌ عظيمة على الصالحين فى نفوسهم؛ من سلامة دينهم وقلّة فتنتهم، ونِعمٌ جليلةٌ على المنتهكين لحرمتهم المصغِّرين لشعائر الله تعالى من أجلهم إذ كانوا أساؤوا إليهم من وراء حجاب. فهذا هو لطفٌ خفىٌّ من لطف المنعِم اللطيف الوهَّاب.

كما جاء فى الخبر: «يقول الله عزّ وجلّ: من آذى وليًا من أوليائى فقد بارزنى بالمحاربة، ثُمَّ أنا الثائر لولِّيى لا أكِلُ نصرتَه إلى غيرى». فيكون مَثَلُ ذَلك مَثَلُ من آذى نبيًا وهو لا يعلم بنبوّته قبل أن يخبره أنه رسول الله، وأن الله سبحانه نَبَّأه، فلا يكون وِزرُه وِزْرَ من انتهك حرمة نبىٍّ قد أعلمه أنه نبى الله تعالى؛ لعظيم حرمته.

ورُوينا عن جعفر الصّادق رضى الله عنه وغيره من السّلفَ فى معنى هذه النعم التى أوجبنا الشكر فى إخفائها قال: إن الله تعالى خبَّأ ثلاثًا فى ثلاث: رضاه فى طاعته، فلا تَحْقِروا منها شيئًا لعلّ رضاه فيه. وخبَّأ غضبه فى معاصيه، فلا تحتقروا منها شيئًا لعلّ غضبه فيه. وخبَّأ ولايته فى عباده المؤمنين، فلا تَحْقِروا منهم أحدًا فلعلّه ولىٌّ لله تعالى[1].

وللشاكرين طريقان، أحدهما أعلى من الآخر. أوّلهما: شكر الرّاجين، وهو حسن المعاملة لما أمَّلوه ورجَوْه من ظواهر النعم، فعملوا رجاء إتمامها، فكان حالُهم المسارعةَ والمسابقة إلى الأعمال الصالحة، شكرًا لما ابتدأهم به وخصّهم دون سائر خلقه. وأعلاهما: شكرُ الخائفين، وهو خوفُ سوءِ الخاتمة، والإشفاقُ من دَرَكِ الشَّقاء بحكم السابقة، نعوذ بالله تعالى منه. فكان خوفُهُم دليلاً على اغتباطهم

(١) كان فى المطبوعة ثمت اختلاف فى ترتيب الفقرات، فأثبت ما فى المخطوط.

بموهبة الإيمان، وكان اغتباطُهم يدلُّ على عظيمِ قَدْر الإسلام فى قلوبهم ونفيس مكانه عندهم، فعظمت النعمةُ به عليهم، فمعرفتُهُم بذلك هو شكرُهم، فصار الخوفُ والإشفاقُ طريقًا لهم فى الشكر للرّازق.

وقد جعل الله تعالى ذلك نِعْمةً، وكلُّ نعمة تقتضى شكرًا فى قوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: ٢٣]. قال بعض المفسرين: أنعمَ اللهُ عليهما بالخَوْف، وهذا أحد وجهَى الكلام. ولو لم يشكر العبدُ مولاه إلا أنّه تبارك وتعالى على هذه الأوصاف والأخلاق التى هى صفاتُه وأخلاقه من نهايةِ الكرمِ والجُودِ الذى لا غاية له، ومن غاية التفضُّلِ والحِلم الذى لا نهاية له. فلمّا كان تبارك وتعالى بهذه الأخلاق المرجوّة، والصفات الحسنى، وجَبَ أن يشكرَهُ العبيدُ لأجله تعالى لا لأجل نعمِه وأفعاله. وهذا ذكْرُ المحبين، إذ لو كان الله تعالى على غيرِ هذه الصفاتِ والأخلاقِ التى عَرَفَه بها العارفون، فلا بدّ لهم منه أىَّ شىء كان يصنع العبادُ، وأىّ حيلةٍ كانت لهم، فله الحمدُ كلُّه، وله الشُّكرُ كلُّه، كما هو مستحقه وأهله بحمدِه لنفسه. ولا ينبغى ذَلكَ إلا له سبحانَه وتعالى، كما ينبغى لكَرَمِ وجهه وعزّ جلالَه، إذ كان لم يَزَلْ على ما هو الآن، ولا يَزال أبدًا على ما كان من الأوصاف الكاملاتِ، والنعوت التامّات، والأسماء الحسنى، والأمثال العُلَى.

ومعرفةُ هذا هو شُكرُ العارفين، ومشاهدتُه هو مقام المقرَّبين. فشكرُ هؤلاء لله تعالى لأجلِ الله تعالى، ودعاء هؤلاء التحميدُ والتقديس، وأعمالُهم الإجلالُ والتعظيم للأجلِّ العظيم، وسؤالُهم تجلِّى الصفاتِ والنصيب من مشاهدة معانى الذات. ووصفُ هذا لا يُوصَفُ، وشرحُهُ بالمعقول لا يُعرف، وهذا داخلٌ فى مشاهَدَة قولِه لمن شهِدَ سرَّ الكلامِ، إذ يقول عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وعن هذه المشاهدة اغتبطَ موسى عليه السلام بالرّبوبية، وأنِس بالتّقريب، وَانبسط بالتمكين، فقال: لى ما ليس لك. فقال الله تعالى: وما هو؟ فقال: لى مثلُكَ، وليس لك مثل نفسِك. فقال عزّ وجلّ: صدقتَ. يعنى: لى أنتَ على هذه الأوصاف التى هى غاية الطالبين، ولا مزيد عليها للراغبين، وليس

لك كأنت، إذ ليس كمثلك شىءٌ، وأن لا إله إلا أنت.

فمن غامض النِّعم الشكرُ على هذه المعانى ما زوَى عنك وصرَفه من فُضول الدنيا، فإنه أقلُّ للشُّغل والاهتمام، وأيسرُ للحساب. ثمَّ ابتلى به غيرَك من الدّنيا مما شَغله به عَنه وقطعه دونه. ففى صَرْف الدّنيا عنك وابتلاء غيرِك بها نعمتان عليهما شكران. وكذلك إذا رأيتَ مبتلًى فى دينه بصفات المنافقين، أو مبتلًى بنفسه بأخلاق المتكبِّرين، أو مُنْهَمِكًا[1] فيما عليه من أفعال الفاسقين، عددتَ جميعَ ذلك نعمًا من الله تعالى عليك، إذ لم يجعلك كذلك، لأنّك قد كنت أنت ذاك لولا فضل الله عليك ورحمته، فتحسب كلَّ ما وَجَّه إلى غيرِك من الشرّ أو صَرَفه عنه من الخير نعمًا عليك، بمثل ما وجَّهَ إليك من الخير وصرَفَ عنك من الشرّ؛ لأن النُّفوس كنفس واحدة فى الأمر بالسوء، والمشيئة والقدرة واحدة، فقد رحمك بما صَرَف عنك من السُّوء، فذلك من فَضْل نِعَمِ الله تعالى عليك. فمعرفتُه بذلك شكرٌ منك لله تعالى.

وأكثرُ عقوباتِ الخلق من قلّة الشكر على النعم. وأصلُ قلّة الشُّكر الجهلُ بالنعمة، وسببُ الجهل بالنعمة قصورُ العلم بالله تعالى، وطولُ الغفلة عن المنعم، وتركُ التفكّر فى نعمه والذكرِ لآلائه ومنّنه سبحانه وتعالى. وقد أمر بذلك فى قوله تعالى: **﴿فاذْكُرُوا آلاءَ الله لَعَلَّكُمْ تُفْلحُونَ﴾** [الأعراف: ٦٩] قيل: نعمُهُ.

وقال فى المفسِّر: **﴿واذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَليكُمْ وما أَنْزلَ عَليكُمْ من الكتاب والحكْمة يَعظُكُمْ به﴾** [البقرة: ٢٣١]. وبمعناه قوله تعالى: **﴿وَلتُكْملُوا العدَّةَ وَلتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى مَا هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [البقرة: ١٨٥]. يعنى: على نعمة الهداية، وتوفيق الطاعة.

فإذا جَهِل العبدُ النعمةَ لم يعرفها، وإذا لم يعرفها لم يشكر عليها، وإذا لم يشكر عليها انقطَع مزيدُه، ومن انقطع عنه المزيدُ فهو فى نقصان ما ادّعى.

وأيضًا: فإنّ مَن لم يشكر النعم لجهله بها لم يُؤمَن عليه كفرها، فإن كفرها

(١) فى (ط): «أو منهما» وهو خطأ ظاهر.

أدركه العذابُ الشديدُ للوعيد، إلا أن تداركه نعمة من ربّه.

وأصولُ نِعَم المرَافق للأحراث أربعة؛ أولّها: النّطفة التى أثمرَتْ[1] من خِزَانة الأرحام جميعَ البهائمِ والأنام، ثُمّ: الحرثُ الذى أخرج من خِزَانة الأرض جميعَ الثمر، ثمّ: الماءُ الذى لنا منه شراب ومنه شجر، ثمّ: النار التى فيها ضِياءٌ ومصالحُ الأطعمة، وبها لأهل البصائر تذكرةٌ. وهذه النّعم هى التى ذكرها المنعِم فى آخر سورة الواقعة، وأضافها إلى نفسه عزّ وجلّ، ولم يجعل فيها شريكًا معه، وفتح للعباد العمَّال أبوابها.

ومن أفضل النّعم وأجلّها نعمةُ الإيمان به سبحانه وتعالى، ثُمّ نعمةُ الرَّسولِ ﷺ، ثم نعمةُ القرآن، ثمّ أن جعلنا من خيرِ أمّة أُخرجت للناس. وقبل ذلك وهو أول نعمة عقلْناها أن جعلنا موجودِين دون سائرِ المعدومات، ثمَّ جعلَنا حيوانًا دون سائرِ المواتِ، ثم جعلَنَا بَشَرًا دون سائرِ الحيوان، ثمّ جعلنا ذكورًا دون الإناث، ثم صوّرنا فى أحسن تقويم، ثم عوافى القلوب من الزّيغ عن السنَّة ومن الميلِ إلى دواعى النفس الأمّارة، ثمّ صِحّةُ الأجسام، ثم كشف الستر، ثم حسنُ الكفاية لحاجة، ثم صنوفُ ما أظهر من الأزواج للأقوات، ثم تسخيرُ الصَّنعة لنا ممّا بين السّماء والأرض؛ فهذه أمهات النِّعم، فكلّما كثُرت هذه المعانى وحسُنت كثُر الشّكر عليهما لعظيم النّعم بها. ﴿وإنْ تَعُدُّوا نعْمَةَ الله لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وكان أبو محمد سهل رحمه الله يقول: خُصَّ بمعرفةِ النّعم وبمعرفةِ عظيمِ حلمِ الله تعالى وسترِه الصدِّيقون.

وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين وأحسن الواصفين: ﴿وإنْ تَعُدُّوا نعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا إنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، فتمّت النعمة بوصفَيْه الَّذَيْن هو لهما أهل من المغفرة والرحمة. ثم قال أيضًا فى مثله: ﴿إنَّ الإنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فكان أعظمَ للنعمة وأوسعَ فى الكرم والمنّة على وصفى الإنسان اللّذَين هو أهل لهما من الظلم والكفر، فهو سبحانه وتعالى أهلُ التقوى وأهلُ

(١) فى (ط): «أخرجت».

المغفرة، والعبدُ أهلٌ لما وَصَفَه به مولاه عزّ وجل إلى أن يجود عليه بقديمِ ما به تولاه. فبنعمته أطاعه العاملون، ومن نعمته جازاهم، وبنعمته عصاه الجاهلون، ومن نعمته ستر وحلُم عنهم.

ومن النّعم: إظهارُ الجميل وسترُ القبيح، فلا ندرى أىُّ النعمتين أعظم: جميلُ ما أظهر، أو قبيحُ ما ستر. وقد يمدح الله تعالى الوصفَيْن معًا فى الدعاء المأثور: «يا من أظهرَ الجميلَ وسترَ القبيح».

ومن النعمة: الصّحةُ والفراغ، وهما أوّل نعيم الدنيا، وأصولُ أعمال الآخرة، وبهما تكون المغابَنات، كما قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصّحةُ والفراغُ».

وكان الفُضَيل بنُ عِياض يقول: عليكم بمداوَمةِ الشكر على النّعم، فقَلَّ نِعمةٌ زالت عن قوم فعادَت إليهم. وقال بعضُ السَّلَف: النّعم وَحْشيةٌ فقيِّدُوها بالشّكر.

وقد رُوى فى خَبَر: «ما عظُمَت نِعمة الله تعالى على عَبْدٍ إلاَّ كثُرت حَوائجُ النّاسِ إليه، فمَن تهاوَنَ بِهم عرّضَ تلك النعمةَ للزّوال».

وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد:١١]، قيل: لا يغيّر نعمَهُ عليهم حتّى يغيِّروها بتضييع الشّكر، فيعاقبُهم بالتّغيير. والوجه الآخر: لا يغير ما بهم من عُقوبة حتّى يغيِّروا معاصِيَهم بالتّوبة. فذكَر بذلك السَّببَ الأوّلَ من حُكمه، ثم ذكَر السّبب الثانى من حكمته، وهو مسبِّبُ الأسباب بحكمته ومشيئته.

ويقال: إنّ تحت كلِّ شَعْرةٍ من جسم العبد نعمةً، وبكلِّ عِرق فى جسدهِ نعمتانِ فى تسكينه وتحريكه، وفى كل عظمٍ أربعُ نِعَم، وبكل مَفْصِل سبعُ نِعم، وفى جسمِ الإنسانِ ثلاثمائةٌ وستّون مَفصلاً، ومثل ذلك من العظام. وفى كل طرفَةِ نِعْمتانِ، وبكلّ نَفَسٍ نعمتان، وفى كل دقيقة تأتى عليه من عُمُره نِعَمٌ لا تُحصى، والدقيقةُ جزءٌ من اثنى عَشر جُزءًا من شَعيرة، والشّعيرة جزءٌ من اثنى عشر جُزءًا من ساعةٍ، والأنفاسُ أربعةٌ وعشرون ألفَ نفَسٍ فى اليوم والليلة.

وفى أخبارِ موسى عليه السّلام: يا ربِّ كيف لا أشكرُكَ ولكَ فى كلِّ شعرة من جسدى نعمتان، أن لَيَّنْتَ أصلَها، وأن طَمَّنت[1] رأسَها.

وقد رُوينا فى الأثر: «من لم يعرفْ نِعم الله تعالى عليه إلا فى مَطْعمه ومَشْربه فقد قَلَّ علمُهُ وحضر عذابُه»، هذا مع سوابغ العَوافى والكفايات والوقايات. ويقال: إن فى باطن الجسم من النّعم سبعةَ أضعافِ النعم التى فى ظاهره، وإنّ فى القَلب مِنَ النِّعم أضعافَ ما فى الجسم كلِّه مِن النّعم. وإنّ نِعم الإيمان بالله تعالى والعلم واليقين أضعافُ نِعمِ الأجسام والقُلوب؛ فهذه كلُّها نِعَمٌ مضاعفة على نِعَم مترادفة لا يحصيها إلا مَن أَنعمَ بها، ولا يعلمها إلا من خلقها، ﴿**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤]، سوى نِعَمِ المطعمِ والمشربِ والملبس والمنكح من دخول ذلك وخروجه، وكثرة تكرّره وتزايده، بأن أدخل مهناه وأخرج أذاه، وبأن طيَّب مدخله ويسَّر مخرجه وبقَّى منفعته، وما أحال من صورته وغيَّر من صفته للتَّزهيد والذّلة والاعتبار والتذكرة؛ وتلك أيضًا نِعم.

ويُقال: إن الرغيفَ لا يستدير حتى يُعمل فيه ثلاثمائةٌ وستّون صنعةً منَ السّماء والأرض وما بينهما من الأجسام والأعراض والأفلاك والرياح والليل والنهار وبنى آدم وصنائعهم والبهائم ومعادن الأرض. أوّلها: ميكائيل الذى يكيل الماءَ مِن الخزائن فيُفرغُه على السّحاب، ثم السّحاب التى تحمله فيرسله، ثم الرّياح التى تحمل السّحاب، والرعد والبرق، والملكان اللذان يَسوقان السّحاب، وآخرها الخَبَّاز. فإذا استدار رغيفًا طلبَهُ سبعةُ آلافِ صانعٍ، كلُّ صانع أصلٌ من أُصول الصّنائع. فهذه كلُّها نِعَمٌ فى حُضور رغيفٍ، فكيف بما زاد عليه ممّا وراءه.

فعلى العبدِ فى كلِّ نعمةٍ شكرٌ، إنْ طُولِبَ بشكرِ نعمةٍ واحدة على حقيقتها هلك إلا أن تغمّده رحمةٌ من ربه، فتغمرُه لتمامِ النعمة. وروينا «أنّ رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إنى أسألك تمام النعمة، فقال: هل تدرى ما تمام النعمة؟ قال: لا. قال: دخول الجنة».

---

(١) طمّنت: سكّنت.

وقيل لبعضِ الحكماء: ما النعيم؟ قال: الغنَى، فإنى رأيت الفقير لا عَيْشَ له. قيل: زدنا. قال: العافيةُ، فإنى رأيتُ السَّقِيم لا عَيْش له. قيل: زدنا. قال: الأمْنُ، فإنى رأيتُ الخائف لا عيشَ له. قيل: زدنا. قال: الشبابُ، فإنى رأيت الهَرِمَ لا عيش له. قيل: زدنا. قال: لا أجد مَزيدًا.

وبعض ما ذكره هو أحد الوجوه فى قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] قيل: الشّباب. وقيل: الفراغ. وقيل: الأمن والصّحة. وفى قوله تعالى: ﴿وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] قيل: العَوافى والغِنى. وبمعناه فى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] قيل: ظاهرة العوافى، وباطنة البلاوى، لأنها سبب نعيم الآخرة ومزيدها، لقوله تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقد جاء فى الخبر: «من أصبح معافًى فى بدنه، آمنًا فى سِربه، عنده قوتُ يومه، فكأنّما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها».

وأُنشِدتُ فى معناه لبعضِ أهلِ القناعة:

إذَا القُوتُ تأتَّى لَكَ　　وَالصِّحَّةُ والأَمْنُ
وَأَصْبَحْتَ أَخَا حُزْنٍ　　فَلا فَارَقَكَ الحُزنُ

وأنشدونا لآخرَ فى نحوه:

كِنٌّ وَفِلْقَةُ خُبْزٍ　　وَكُوزُ مَاءٍ وَأَمْنُ
أَلَذُّ مِن كُلِّ عَيْشٍ　　يَحْوِيه سَحْبٌ وَسَجْنُ

وحدثونا أنَّ عابدًا عبدَ الله تعالى سبعين عامًا، فأرسل الله تعالى إليه مَلَكًا يبشِّرُه بدخولِه الجنةَ برَحمةِ الله تعالى، فهَجَس فى نفسه: بل بعملى، فاطّلع الله تعالى على ذلك منه، فأوحى إلى عِرْقٍ ساكنٍ من عروقه أن تحرَّكْ عليه. قال: فاضطربَ لذلك وقَلِق وانقطَعَتْ عبادتُه، وذهبت أعماله شُغلاً منه بنفسه، ثم أوحى الله تعالى إلى العِرق أن اسْكُن فسكن، فرجع العبدُ إلى عبادتِه، فأوحى الله

تعالى إليه: إنّما قيمةُ عبادتك عِرقٌ واحد سكَن من عُروقك، فاعترَفَ.

وروينا معناه عن رسول الله ﷺ بوصف آخر: «إنّ رجلاً عبدَ الله سبعين عامًا، قال: فيأمر الله عزّ وجلّ به إلى الجنة برحمته، فيقول: بل بعملى. فيقول الله عزّ وجلّ: أدخلُوا عبدى الجنةَ بعمله، قال: فيمكثُ فى الجنَّة سبعين عامًا، فيأمر الله تعالى به أن يُخرَج. ويقال له: قد استوفيت ثواب عَمَلك. قال: فيُسْقَط فى يديه ويندم، فينظر أقوى شىءٍ كان فى نفسه بينه وبين ربه، فإذا هو الرجاء وحسن الظن، فيقول: يا ربّ اتركنى فى الجنة برحمتك لا بعملى. قال: فيقول الله عزّ وجلّ: دعوا عبدِى فى جنّتى برحمتى».

وحُدِّثتُ عن رجلٍ شكا إلى بعضِ أهل المدينة فقرَه، وأظهر لذلك غمَّه، فقال له الرجل: أيسرُّك أنّك أعمى ولك عشرة آلاف. قال: لا. قال: فيسرُّك أنك أخرس ولك عشرة آلاف. قال: لا. قال: فيسرُّك أنّك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرة آلاف. قال: لا. قال: فيسرّك أنك مجنون ولك عشرة آلاف. قال: لا. قال: أفَما تستحى أن تشكوَ مولاك وله عندك عُروضٌ بخمسين ألفًا.

وهذا كما قال؛ لأنّ فى الإنسان قيمَ هذهِ الأشياء من الجوارح وزيادةً من المال، لأنّها دِياتُ جوارحِهِ لو قُطعت.

وحدثنى بعض الشيوخ فى معناه: أنّ بعض القرّاء المقرَّبين اشتدّ به الفقرُ حتى أحزنه وضاق به ذَرعًا. قال: فرأى فى المنام كأنّ قائلاً يقول له: تودُّ أنّا أنسيناكَ سورةَ الأنعامِ وأنّ لك ألف دينار، قال: لا. قال: فسورة هود، قال: لا. قال: فسورة يوسف، قال: لا. قال: فمعك قِيَمُ مائةِ ألفٍ وأنت تشكو الفقْرَ، فأصبح وقد سُرِّىَ عنه همُّهُ.

وهكذا جاء فى الخبر: «تغنَّوْا بالقرآن ـ أى استغنوا به ـ ومن لم يستغن بآيات الله تعالى فلا أغناه الله عزّ وجلّ، وإنّ القرآن هو الغِنى الذى لا فَقْرَ معه ولا غِنى بعده، ومن آتاه اللهُ القرآنَ فظنَّ أنّ أحدًا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله تعالى». وفى لفظ آخر: «فقد استخفّ بما أنزل الله عزّ وجلّ». وفى الحديث المشهور: «من لم يتغنَّ بالقرآن فليس مِنّا». وفى الخبر المجمل: «كفى باليقين غنًى» والقرآنُ هو

حقُّ اليقين. وروينا عن بعض السلف: يقول الله عزّ وجلّ: إنّ عبدًا أغنيته عن ثلاث فقد أتممت عليه نعمتى: عن سلطانٍ يأتيه، وطبيب يداويه، وعمّا فى يد أخيه.

وروينا فى مناجاة أيوب عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إليه: ما من عبد لى من الآدميين إلا ومعه مَلَكان، فإذا شكر على نعمائى قال الملكان: اللهم زِدْهُ نعَمًا على نعمه، فإنّك أهلُ الشّكر والحمد. فكن من الشّاكرين قريبًا، وزدهم شكرًا، وزدهم من النّعماء. وكفى بالشّاكرين يا أيوبُ علوُّ الرتبة عندى وعند ملائكتى، فأنا أشكُر شكرَهُم، وملائكتى تدعو لهم، والبقاعُ تحبّهم، والآثار تبكى عليهم. فكن لى يا أيوبُ شاكرًا، ولآلائى ذاكرًا، ولا تذكرنى حتّى أذكرك، ولا تشكرنى حتّى أشكرَ أعمالك، أنا أوفّق أوليائى لصالح الأعمال، وأشكرُهم على ما وفّقتُهم، واقْتَضَيْتُهُم الشكرَ ورضيتُ به مكافأةً، فرضيتُ بالقليل عن الكثير، وتقبّلتُ القليلَ وجازيتُ عليه بالجزيل. وشرُّ العبيدِ عندى من لم يشكرنى إلا فى وقت حاجته، ولم يتضرّع بين يدىَّ إلا فى وقت عقوبته. وذكَر الكلامَ.

وقد جعلَ الله تعالى الشّاكرين بوصف: الصّالحين، والمقرَّبين، والعالِمين؛ وهذه الأوصاف الثلاث من أعالى مقامات الموقنين، فقال عزّ وجل: **﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾** [سبأ:١٣]. كما قال الله تعالى: **﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾** [ص:٢٤]. وكما قال فى وصف المقرَّبين: **﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾** [الواقعة: ١٣ ـ ١٤]. وكما قال عزّ وجلّ: **﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾** [الكهف:٢٢].

وفى حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: «سلوا اللهَ العافيةَ، وما أُعطى عبدٌ أفضلَ من العافيةِ إلا اليقين». ففضّل العافيةَ على كلِّ عطاء، ورفع اليقينَ فوق العافية؛ لأنّ بالعافية يتمّ نعيمُ الدنيا، واليقينُ معه وجود نعيم الآخرة؛ فلليقين فضلٌ على العافية كفضلِ الدوام على الانتقال. والعافيةُ: سلامةُ الأبدانِ من الأسقام والعلل. واليقين: سلامة الأديان من الزيغ والأهواء.

فهاتان نعمتان تستوعبان عظيمَ الشّكر من العبد، كما استوعب القلب والجسم جسيم النّعم من الملك.

ومن أقوى المعانى فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩] قيل: سالم من الشّكّ والشّرك. والسّالم: الصحيح المعافى. وبوجود عافيةِ اليقين فى القلوب عدمُ الشّكّ والنّفاق، وهى أمراض القلوب. كما قال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] قيل: شَكٌّ ونفاقٌ، وعافيةُ القلبِ أيضًا من الكبائر، كما قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] يعنى الرياء.

ويقال: ما من مصيبةٍ إلا ولله تعالى فيها خمسُ نِعم؛ أوّلها: أنّها لم تكن فى الدِّين، ويقال: كل مصيبة فى غير الدِّين فهى طريق من الدِّين. والثانية: أنّها لم تكن أكبر منها. والثالثة: أنَّها كانت مكتوبة عليه لا محالة فقد نَفِدَت واستراح منها. والرابعة: أنّها عُجِّلَت فى الدنيا ولم تُؤجَّل فى الآخرة فتَعظُمُ على مقدار عذابِ الآخرة. والخامسة: أنّ ثوابها خير منها، فإن المصيبةَ إذا كانت فى أمرِ الدنيا فإنّها طريق إلى الآخرة.

وعندنا فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] قيل: ظلومٌ بالتسخُّط، كفَّارٌ بالمعاصى وبالنِّعم.

وحُدِّثت أنّ العباس رضى الله عنه لما توفى قعد ابنُه عبدُ الله رضى الله للتّعزية، فدخل الناس أفواجًا يعزُّونه، فكان فيمن دخل أعرابى فأنشده:

اصْبِرْ نكُنْ بِكَ صَابِرِينَ، فَإِنّما ... صَبْرُ الرَّعِيّةِ بَعْدَ صَبْرِ الرّاسِ
خيرٌ مِنَ العبّاسِ أجرُكَ بعدَهُ ... واللهُ خَيْرٌ مِنْكَ للْعَبّاسِ

فقال ابن عباس: ما عزّانى أحد تعزية الأعرابى، واستحسنَ ذلك.

وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] قيل: هو الذى يشكُو المصائبَ، وينسى النّعم، ولو علم أنّ مع كلِّ مصيبةٍ عشرَ نِعم بحذائِها وزيادة،

قلَّت شكواه وبدَّلها شكرًا.

ثم إنّ المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام، كلّها نعم من الله تعالى: إمّا أن تكون درجة، وهذا للمقرّبين والمحسنين. وإمّا أن تكون كفّارة، وهذا لخُصوص أصحاب اليمين وللأبرار. أو تكونَ عقُوبةً، وهذا للكافة من المسلمين. فتعجيلُ العقوبةِ فى الدّنيا رحمة ونعمة، ومعرفةُ هذه النعم طريقُ الشاكرين.

ومن أفضل النعم عند العلماء نعمةُ الإيمانِ، ثم دوامُه، لأنّ دوامَ الشىء نعمة ثانية، لأنه بحكم ثانٍ عن مشيئة ثانية، لأنّ الإرادةَ منه تعالى بحكم الإظهار لا تُوجب دوامَ المظهَر، فكأن الشىء يظهر بإرادته ثم يتلاشى كأن لم يكن، إلا أن يحكم سبحانه وتعالى حكمًا ثانيًا بنعمة ثانية بالثبات والدّوام، إذ لَوْ لم يُرد دَوام السّموات والأرضِ ما داما ولو لم يُرد دَوام ثباتِ الجبال ما ثبتت، كذلك لو لم يُرد دَوامَ الإيمان وثباته فى القلوب بعد الكَتْب، لظهر بالكتب ثم انمحى ورجع القلب إلى الكفر، لكنّه أنعم نعمًا لا تُحصى بدوامه وثباته فى القلب. ومنه قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]، أى: يمحو ما لا يشاء ثبوته ويُثبت ما يحبّ.

ولا يستطيع العبدُ شكرَ نِعمةِ الإيمان ومعرفةِ بداية التفضّل به وقديمِ الإحسان من غير قَدَمٍ من العبد ولا استحقاقٍ، بل بِفَضْلِ اللهِ وبرحمته. وهذا أحدُ الوجوه فى قوله تعالى: ﴿كَلا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس:٢٣]، أى: لا يَقْضِى العبدُ أبدًا شكرَ ما أمره الله تعالى من نعمة الإسلام، التى هى أُصولُ النّعم فى الدنيا والآخرة، وهى سببُ النجاةِ من النار، ومفتاحُ دخول الجنة، ولا أوّل للعبد فيها ولا شفيع كان له إلى الله تعالى بها، ثم دوام ذلك وثباته مع الطَرْف والأنفاس بمددٍ منه نِعَمٌ مترادفة.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَتَبَ فى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢]، أى: قوّاهم بمدد يثبّته ويقوّيه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وفى الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]. ومن ذلك

قوله ﷺ: «يا مُقلّبَ القلوب ـ أى عن الإيمان، ومقلبها فى الشّك والشّرك ـ ثبّت قلبى على طاعتك». ومعرفةُ هذه النّعمة اللطيفة العظيمة تستخرج من القلب خوفَ سوءِ الخاتمة، لمشاهدة سرعةِ تقليب القلب بالمشيئة، وذلك مزيد شكرها، وهذا داخلٌ فى معنى قوله ﷺ: «أحبّوا اللهَ تعالى لما أَسْدى إِليكم من نِعَمه»، ولما يَغذُوكُم به أيضًا.

فمن أفضل ما غذّانا به نعمةُ الإيمان له والمعرفة به، وغذاؤه لنا منه دوامُ ذلك، ومددُهُ بروحٍ منه، وتثبيتُنا عليه فى تصريفِ الأحوال، إذ هو أصلُ الأعمال التى هى مكانُ النّوال. فلو قلّب قلوبَنا عن التوحيد كما يُقلّب جوارحَنا فى الذنوب، ولو قلّب قلوبنا فى الشّك والضلال كما يُقَلِّب نيّاتنا فى الأعمال، أىَّ شىءٍ كنّا نصنع؟ وعلى أىِّ شىءٍ كنّا نعوِّل؟ وبأىّ شىء كنّا نطمئن ونرجو؟ فهذا من كبائر النعم، ومعرفتُه هو من شكر نعمة الإيمان، والجهلُ بهذا غفلةٌ عن نعمة الإيمان يُوجب العقوبة. وادعاء الإيمان أنّه عن كَسْب معقول، أو استطاعةِ بقوّةٍ وحول، هو كفرُ نعمةِ الإيمان، وأخافُ على مَنْ توهَّم ذلك أن يُسْلَب الإيمان، لأنّه بدَّل شكرَ نعمةِ الله بِفَضْلِه كُفرًا.

وقد جعل الله تعالى الخيراتِ من كسب الإيمان، وليس لنا فيما يُكسبُنا الخيرات مكانٌ، بل اللهُ تعالى منَّ علينا أن هدانا للإيمان، وجعله سببًا يكسبُ لنا بإحسانه الإحسانَ، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨] قيل: التوبة. وقيل: الصّالحات كلُّها كسب الإيمان.

ومن النّعم بعد الإيمانِ توفيقُنا للحسنى، وتيسيرُنا لليسرى. ثمّ صرفُ الكفرِ وأخلاقِ الكَفَرة وأعمالِهم. ثم تزيينُ الإيمان وتحبيبُه إلينا، وتكريهُ الفسوقِ والعصيان، فضلاً منه ونعمةً، إلى ما لا يُحصى من نِعمه. فشكرُ ذلك لا يقام به إلا بما وَهَب أيضًا وأنعمَ به من المعرفة بذلك، والمعونة عليه.

والحياءُ من تتابع النّعم هو من الشّكرِ. والمعرفةُ بالتقصير عن الشّكر شكرٌ. والاعتذارُ من قلّة الشّكر شكر. والمعرفةُ بعظيم الحِلْم وكثيفِ السّتر شكرٌ.

والاعترافُ بما أَعطَى من حُسن الثناء وجميلِ النّشر أنّه من النّعم، من غير استحقاق من العبد، بل هو مضاف إلى نِعمه، هو من الشكر. وحسنُ التواضع بالنّعم والتذلّل فيها شكرٌ. وشكرُ الخَلْقِ بالدعاء لهم، وحسن الثناء عليهم؛ لأنهم ظروف العطاء، وأسبابُ المعطى، تخلُّقًا بأخلاق المولى جلّ وعلا، هو من الشّكر. وقلةُ الاعتراض، وحسنُ الأدب بين يدى المنعم شكر. وتلقِّى النّعم بحسن القبول، وتكبيرُ صَغيرها وتعظيمُ حقيرها، من الشكر؛ لأنّ طائفةً هلكت باستصغار الأشياء، واستحقار وجود المنافع بها جهلاً بحكمة الله تعالى، واستصغارًا لِنعَمِه، فكان ذلك كفرًا بالنّعم.

ومن النّاس من يقول: إنّ الصبرَ أفضلُ من الشكر، وليس يمكن التفضيل بينهما عند أهل التّحصيل؛ من قِبل أنّ الشكرَ مقامٌ لجملةٍ من الموقنين، والترجيحُ بين جماعةٍ على جماعة لا يصحّ؛ مِن قِبَل تفاوتِهم فى اليَقين فى المشاهدات؛ لأن بعضَ الصّابرين أفضلُ من بعض الشاكرين، لفضل معرفته وحسن صبرِه، وخُصوصُ الشاكرينَ أفضلُ من عُموم الصّابرين؛ لحسن يقينه وعلوّ مشاهدته.

ولكن تفضيل ذَلك مِن طريقِ الأحوال والمقامات أنّا نقول، والله أعلم: إنّ الصّبرَ عن النعيم أفضلُ، لأنّ فيه الزهدَ والخوفَ؛ وهما أعلى المقامات. وأنّ الشّكرَ على المكارهِ أفضلُ؛ لأن فيه البلاءَ والرِّضا. وأنّ الصّبرَ على الشدائد والضرّاء أفضلُ من الشكر على النّعم والسرّاء، من قِبَل أنه أشقُّ على النفس. وأنّ الصّبرَ مع حال الغِنى والمقدرة أن يعصى بذلك أفضلُ من الشكر على النِّعم، مِن قبل أنّ الصّبر عن المعاصى بالنّعم أفضلُ من الطّاعة بها لمن جاهد نفسه فيها، فإذا شكر على ما يَصبر عليه فقد صار البلاءُ عنده نعمةً، وهذا أفضل لأنّها مشاهدُ المقرّبين. وإذا صَبر عمّا يشكر عليه من النّعم كان أفضلَ؛ لأنها حال الزّاهدين[1].

وقد قال رسول الله ﷺ: «نحن معاشرَ الأنبياء أشدُّ الناسِ بلاءً، ثم الأمثلَ فالأمثلَ». يعنى الأقرب شبهًا بنا فالأقرب. فرفع أهلَ البلاء إليه ووصف نفسه به، وجعلهم الأمثل فالأمثل منه. فمن كان برسول الله ﷺ أمثل كان هو الأفضل.

---

(١) فى (ط): «حال المجاهدة» وأثبت ما فى (خ).

وقد كان النبى ﷺ شاكرًا على شدة بلائه، كذلك الشّاكر من الصّابرين يكون أفضل لشكرِه على البلاء، إذْ هو الأَمثلُ والأقربُ إلى وَصْفِ الأنبياء[(١)].

وكلُّ مقامٍ من مقامات المقرَّبين يحتاج إلى صبر وشكر، وأحدهما لا يتمّ إلا بالآخر، لأن الصبر يحتاج إلى شكر عليه ليكمُل، والشّكرُ يحتاج إلى صبرٍ عليه ليستوجب المزيد. وقد قرن الله تعالى بينهما ووصف المؤمنين بهما، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١]، فذكر الشّكرَ بلفظ المبالغة فى الوصف على وزن «فَعول»، كما ذكر الصبر على وزن «فعّال»، وهو وصف للمبالغة أيضًا، ولذلك اقتُسم الإيمانُ نصفين، كما جاء فى الخبر: «الصبرُ نصف الإيمان، والشكرُ نصف الإيمانِ، واليقين الإيمان كله». لأنّ اليقين أصلُهُما، وهما ثمرتاه عنه يُوجَدَان، لأن الشاكر أيقن بالنعمة أنّها من المنعِم، وأيقن بإنجاز ما وعده من المزيد فشكَر. كما أيقن الصّابرُ بمسّه بالبلاء، لأنه هو المبتلَى، وأيقن بثواب المبلِى وحسن ثنائه على الصابرين فصبر[(٢)]؛ فهما حالا الموقن، إذ لا يخلو فى أدنى وقت من أحدِ اثْنين: بليّة، وتحية. إذ فى كلِّ شىء له آيةٌ؛ فحالُه فى البليّةِ الصبرُ، وحالُه فى التحيةِ الشكرُ، والله يحبّ الصابرين، ويحبّ الشاكرين.

وهذا آخرُ شرحِ مقام الشّكر، والحمد لله ربّ العالمين.

***

---

(١) فى (ط): «إذ هو الأقرب والأمثل بالأنبياء» وأثبت ما فى (خ).

(٢) فى (خ): «لأنه هو المُبْلِى، فأيقن بثواب الصابرين، وحسن ثواب المبتلى» وهى مختصرة فى (ك).

شرح مقام الرجاء، ووصف الراجين
وهو المقام الرابع من مقامات اليقين

قال الله تعالى: ﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى: ١٩]. وقال: جلّت قدرته: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وروينا فى قراءة النبى ﷺ: «ولا يُبالى إنّه هُو الغفور الرحيم».

وفى الأخبار المشهورة: «فقبض قبضةً، فقال: هؤلاء فى الجنة ولا أبالى». المعنى، والله أعلم: أن رحمتى وسعت كل شىء، فليس يضيق هؤلاء عنها، ولا أبالى بدخولهم فيها، ويكون هؤلاء أيضًا فى الجنة، ولا أبالى بأعمالهم السيئة كلِّها.

وقال سبحانه وتعالى فى وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. وقال عزّ وجلّ فى وصف المتوكلين: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]. وقال تعالى مخبرًا عن الملائكة الحافّين حولَ عرشه: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِى الأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

وأخبر عزّ وجلّ أن النار أعدها لأعدائه وأنه خوّف بها أولياءه، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ [الزمر: ١٦]. ومثله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]. وقال: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِى كَذَّبَ

وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٦]. وقال تعالى فى عفوه عن الظالمين: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

ورُوينا أنّ النبى ﷺ لم يَزَل يسأل فى أمته، حتّى قيل له: «أما ترضَى وقد أنزلتُ عليك هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ ؟».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] قال: «لا يرضى محمد ﷺ أن يدخل واحدٌ من أمته النار».

وكان أبو جعفر محمدُ بن علىٍّ رضى الله عنه يقول: أنتم أهل العراقِ تقولون: أرجى آيةٍ فى كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية. ونحن أهلَ البيت نقول: أرجى آيةٍ فى كتابِ الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ، وعده ربه عزّ وجلّ أن يرضيَهُ فى أمته.

ورُوينا فى حديث أبى بُردَة عن أبيه عن أبى موسى: «أمّتى أمةٌ مرحومةٌ لا عذابَ عليها فى الآخرة، جُعل عقابُها فى الدّنيا الزلازلَ والفتنَ، فإذا كان يوم القيامة دُفع إلى كلِّ رجل من أمّتى رجلٌ مِن أهل الكتاب، فيقال: هذا فداؤك من النار». وروينا فى لفظ آخر: «يأتى كلُّ رجلٍ من هذه الأمة بيهودى أو نصرانى إلى جهنم، فيقول: هذا فدائى من النّار، فيُلقى فيها». وفى الخبر: «إنّ الحمَّى من فَيح جهنم، وهى حظّ المؤمنين من النّار».

ورُوينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨]: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبيّه ﷺ: «تريد أن أجعلَ حسابَ أمتك إليك؟ فقال: لا يا ربّ، أنت خيرٌ لهم منّى. قال: إذًا لا نُخزيك فيهم».

وقال سُفيان الثورى رضى الله عنه: ما أُحِبُّ أن يُجعل حسابى إلى أبوىَّ؛ لأنّى أعلمُ أنَّ الله تبارك وتعالى أرحمُ بى منهما.

وروينا فى خبر سَلَمة بن وَردان عن أنس بن مالك، أنّ رسول الله ﷺ سأل

ربّه تعالى فى ذنوب أمته فقال: «يا ربّ اجعلْ حِسابَهُم إلىَّ، لئلا يطّلع على مساوِيهم غيرى، فأوحى الله تعالى إليه: هُم أمَّتُك وهُمْ عبادى، وأنا أرحم بهم منِك، لا أجعل حسابَهُم إلى غيرى، لئلا ينظر إلى مساويهم أنت ولا غيرك».

وقد روينا عنه ﷺ أنه قال: «حياتى خيرٌ لكم، وموتى خيرٌ لكم. أمّا حياتى فإنى أبيِّن لكم السُّنَن، وأشرِّع الشرائع. وأمّا موتى فأعمالكم تُعرض علىّ، فما رأيتُ منها حسنًا حمدتُ الله عزّ وجلّ، وما رأيت منها سيئًا استغفرتُ الله عزّ وجلّ لكم».

وروينا فى الأثر: «إذا تاب العبدُ من ذنوبه أنسى اللهُ عزّ وجلّ ملائكتَه وبقاعَ الأرض معاصيَه، وبدّلها حسناتٍ، حتّى يَرِد القيامة وليس شىء يشهد عليه». وكذلك يقال: إنّ المؤمنَ إذا عصاه ستَره الله تعالى عن أبصار الملائكة، كيلا تراه فتشهد عليه.

وقال رسول الله ﷺ ذات يوم: «يا كريمَ العفو. فقال له جبريل عليه السلام: تدرى ما تفسير يا كريم العفو؟ هو أنّه عفا عن السيئات برحمته، ثم بدّلها حسنات بكرمه».

وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يقول: «اللّهم إنّى أسألك تمام النعمة. فقال: هل تدرى ما تمام النعمة، قال: لا. قال: دخول الجنة».

وقد أخبرنا الله تعالى أنّه قد أتمّ نعمته علينا برضاه الإسلام لنا؛ فهذا دليل على دخول الجنة، فقال عزّ وجل: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة:٣]. وقد اشتركنا فى ذلك مع رسول الله ﷺ، فنحن نرجو المغفرة لذنوبنا بفضله، فقال عزّ من قائل: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ**﴾ [الفتح:٢].

وفى خبر على رضى الله عنه: «من أذنب ذنبًا فستره الله تعالى عليه فى الدنيا، فالله تبارك وتعالى أكرمُ من أن يكشف سِتره فى الآخرة، ومن أذنب ذنبًا فعُوقب عليه فى الدنيا، فالله تعالى أعدلُ من أن يثنى عقوبته على عبده فى الآخرة». وفى

لفظ آخر: «لا يُذنب عبدٌ فى الدّنيا فيستُرُه الله تعالى عليه إلا غفرَهُ له فى الآخرة».

وعن بعض السّلف: كلٌّ عاصٍ فإنّه يعصى تحت كَنَف الرّحمن. والكنف من الإنسان: حضنُه ما بين يديه وصدره. قال: فمن ألقَى عليه كنَفَه ستر عورتَه، ومن رفع عنه كنفَه افتُضح. ويقال: إنّ من فُضح فى الدّنيا بذنب فهو كفّارته ولا يُفضح به فى الآخرة. وفى الخبر: «إذا أذنب العبدُ فاستغفر الله، يقول الله سبحانه وتعالى لملائكته: انظروا إلى عبدى أذنب ذنبًا؛ فعلم أنّ له ربًا يغفر الذنب ويأخذُ بالذنب، أُشهدُكم أنّى قد غفرت له».

وحُدِّثت عن مُحمّد بن مُصعب قال: كتب إلىَّ أسودُ بن سالم بخطّه: إنّ العبدَ إذا كان مسرفًا على نفسه، يرفع يديه يدعو يقول: يا ربّ، فإذا قال: يا ربّ، حجبت الملائكة صوته. فإذا قال الثانية: يا ربّ، حجبت الملائكة صوته. فإذا قال الثالثة: يا ربّ. حجبت الملائكة صوته. فإذا قال الرابعة، يقول الله تعالى: حتّى متى تحجبوا صوتَ عبدى عنى. قد علم عبدى أنّه ليس له ربٌّ يغفر الذنوب غيرى، أُشهدكم أنّى قد غفرت له.

وفى الحديث: «إذا أذنب العبدُ حتى تبلغ ذنوبه عَنان السماء غفرتُها له ما استغفرنى ورجانى». وفى حديث آخر: «لو لَقِيَنى عبدى بقُراب الأرضِ ذُنوبًا لقيته بقُرابها مغفرة ما لم يشرك بى شيئًا». وفى الخبر: «إنّ المَلَك ليرفعُ القلمَ عن العبدِ إذا أذنب ستَّ ساعات، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه، وإلا كتبها سيئة». وفى لفظ آخر: «فإذا كَتَبها عليه وعمِل حسنة قال لصاحب الشمال وهو أميرٌ عليه: ألقِ هذه السيئةَ حتى أُلقِى من حسناته واحدة من تضعيف العشرة، وأرفع تسع حسنات، فيلقى عنه هذه السيئة».

ويقال: إنّ الله تعالى جعل فى قلب صاحب اليمين من الرحمة للعبد أضعافَ ما جعل فى قلب صاحب الشمال، مع أنه أمّره عليه، فإذا عمل العبد حسنةً فَرِح بها مَلَك اليمين ـ ويقال: فَرِح بها الملائكة ـ فتُكتَبُ للعبدِ بفَرَحِهِم الحسناتُ.

ورُوينا فى حديث أنس بن مالك الطويل: «إذا أذنب العبد ذنبًا كُتب عليه،

فقال الأعرابى: فإن تاب. قال: مُحى من صحيفته. قال: فإن عاد. قال رسول الله ﷺ: يُكتب عليه. قال الأعرابى: فإن تاب. قال: محى من صحيفته. قال: إلى متى يا رسول الله؟ قال: إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله تعالى، وإنّ الله لا يَملُّ من المغفرة حتى يملّ العبدُ من الاستغفار. فإذا همَّ العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنةً قبل أن يعملها، فإذا عملها كتبها عشر حسنات، ثم ضاعفها الله عزّ وجلّ إلى سَبعمائةِ ضِعف. وإذا همَّ بخطيئة لم تُكتب عليه، فإن عملها كُتبت خطيئة واحدة، ووراءها حسنُ عفو الله تعالى».

وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: «يا رسول الله، إنّى لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه، ولا أصلى إلا الخمس لا أزيد عليهنّ، وليس لله تبارك وتعالى فى مالى صدقةٌ ولا حجٌّ، ولا أتطوّع، أين أنا إذا متّ؟ فقال النبى ﷺ: فى الجنة. قال: يا رسول الله، معك؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: نعم معى، إن حفظْتَ قلبَك من اثنين: الغلِّ والحسد، ولسانَك من اثنين: الغيبة والكذب، وعينَك من اثنين: النظر إلى ما حرَّم الله تعالى وأن تزدرى بهما مسلمًا، دخلتَ معى الجنةَ على راحتى هاتين».

وروينا فى الخبر الطويل عن أنس رضى الله عنه: «أن الأعرابى قال: يا رسولَ الله، من يلى حساب الخلق؟ قال: الله عزّ وجلّ. قال: هو بنفسه؟ قال: نعم. قال: فتبسَّم الأعرابى. فقال النبى ﷺ: ممّ ضحكت يا أعرابى؟ فقال: إنّ الكريم إذا قَدَرَ عَفا، وإذا حاسَب سامح، فقال النبى ﷺ: صدق، ألا ولا كريمَ أكرمُ مِن اللهِ عزّ وجلّ؛ هو أكرمُ الأكرمين. ثم قال ﷺ: فَقُهَ الأعرابى».

وفيه أيضًا: «إنّ الله تبارك وتعالى شرّف الكعبةَ وعظّمها، ولو أنّ عبدًا هدمها حجرًا حجرًا ثم أحرقها ما بلَغ جُرمَ من استخفَّ بولىٍّ من أولياء الله تعالى. فقال الأعرابى: مَنْ أولياءُ الله؟ فقال: المؤمنون كلُّهم أولياء الله تعالى، أَمَا سمعْتَ اللهَ تعالى يقول: ﴿**اللهُ وَلِىُّ الَّذينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِن الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ**﴾ [البقرة: ٢٥٧]؟»

وفى الخبر المفرَد عن النّبى ﷺ: «المؤمنُ أفضلُ من الكعبة، والمؤمن طيِّب

طاهرٌ، والمؤمن أكرمُ على الله تعالى من الملائكة».

وفى الخبر المشهور، عن عبد الله بن عمرو وأبى هريرة رضى الله عنهما، وكعب الأحبار «أنه ﷺ نظر إلى الكعبة فقال: ما أشرفَكِ وما أعظمَكِ. ولَلْمُؤمن أعظمُ حرمةً عند الله منك». وقد أمر اللهُ سبحانه وتعالى أنبياءه بتطهيرِ بيته لأوليائه إجلالاً لهم، فشرَّفَ البيتَ بهم. وفى الخبر عن الله تعالى: «مَنْ أهان لى وليًا فقد بارزَنى بالمحاربة، وأنا الثائرُ لوليى فى الدنيا والآخرة».

وفى أخبار يعقوب عليه السلام: أن الله تعالى أوحى إليه: تَدْرى لمَ فرّقتُ بينك وبينَ يوسف عليه السلام هذه المدة؟ قال: لا. قال: لقولك لإخوته: أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون، لِمَ خِفتَ الذئب عليه ولم ترجُنى له؟ ولِمَ نظرتَ إلى غفلةِ إخوته ولم تنظر إلى حِفظى له؟ ومِنْ سَبْقِ عنايتى بك أنّى جعلتُ نفسى عندك أرحمَ الراحمين، فرجوتنى، ولولا ذلك لكنتُ أجعل نفسى عندك أبخلَ الباخلين.

فالرجاءُ هو اسم لقوّةِ الطَّمَعِ فى الشىء، بمنزلة الخوف اسم لقوّة الحذر من الشىء. ولذلك أقام الله تعالى الطمعَ مقامَ الرّجاء فى التسمية، وأقام الحذَرَ مقام الخوف، فقال علت كلمته: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦]، وقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر:٩]، وهو وصفٌ من أوصاف المؤمنين، وخُلُق من أخلاق الإيمان لا يصحّ إلا به، كما لا يصحّ الإيمانُ إلا بالخوف. فالرّجاءُ بمنزلة أحد جناحى الطير لا يطير إلا بجناحيه، كذلك لا يؤمن مَن لا يرجو مَن آمَن به ويخافه، وهو أيضًا مقامٌ من حسن الظن بالله تعالى، وجميلِ التأميل له.

فلذلك أوصى رسول الله ﷺ فقال: «لا يَمُوتَنَّ أحدُكم إلا وهو حَسَنُ الظَّنِّ بالله تعالى»؛ لأنّه قال عن الله تعالى: «أنا عند ظَنِّ عبدى بى، فليظنّ بى ما شاء». وكان ابنُ مسعود رضى الله عنه يحلف بالله تعالى: «ما أحسنَ عبدٌ بالله تعالى ظنَّه إلا أعطاه الله تعالى ذلك»، لأنّ الخير كلّه بيده. أى فإذا أعطاه حُسنَ

الظّن بالله تعالى فقد أعطاه ما يظنّه، لأن الذى حسَّن ظنَّه به هو الذى أراد أن يُحقِّقَه له.

ورُوينا عن يوسف بن أسباط قال: سمعتُ سفيانَ الثّورى رضى الله عنه يقول فى قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، قال: أى أحسنوا بالله تعالى الظنّ. وكذلك دخل رسولُ الله ﷺ على الرجل وهو فى سياق الموت، فقال: «كيف تجدك؟ فقال: أجدنى أخاف ذنوبى، وأرجو رحمةَ ربّى. فقال ﷺ: ما اجتمعا فى قلبِ عبدٍ فى هذا الموطن إلا أعطاه الله تعالى ما رجا، وأمَّنه مما يخاف».

ولذلك قال علىٌّ كرَّم الله وجهه للرجل الذى أطار الخوفُ عقلَه حتى أخرجه إلى القنوط، فقال له: يا هذا إياسُكَ من رحمةِ الله تعالى أعظمُ من ذنبك. صدق رضى الله عنه، لأنّ الإياسَ من رَوْحِ الله تعالى الذى يستريحُ إليه المكروبُ من الذّنوب، والقُنوطَ من رحمةِ الله تعالى التى يرجوها المبتلَى بالذنوب، أعظمُ من ذنوبه، وهو أشدّ من جميع ذنوبه، لأنّه قطع بهواه على صفاتِ الله تعالى المرجوّة، وحكَمَ على كَرَمِ اللهِ بصفتهِ المذمومة، فكان ذلك من أكبرِ الكبائر، وإن كانت ذُنوبُه كبائر. وهكذا جاء فى التفسير: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُم إِلى التَّهْلُكَة﴾ [البقرة:١٩٥] قال: هو العبدُ يذنب الكبائر فيُلْقى بيدِه ولا يتوب، ويقول: قد هلكتُ لا ينفعنى عمل، فنُهوا عن ذلك.

إلا أنّ الرجاء مقامٌ جليل وحالٌ شريف نبيل لا يصلح إلا للكرماء من أهل العلم والحياء. وهو حال يحول عليهم بعد مقامِ الخوف، يُروِّحون به من الكَرْب، ويستريحون إليه من مقارفة الذنب. ومَن لم يعرف الخوفَ لم يعرف الرجاء، ومن لم يقم فى مقامِ الخوف لم يُرفَع إلى مقامات أهل الرجاء على صحةٍ وصفاء.

ورجاءُ كلِّ عبدٍ من حقيقة[١] خَوفه ومكاشفتَه عن أخلاقٍ مرجوّةٍ من معنى ما كان كُوشِفَ به من صِفاتٍ مَخوفة؛ فإن كان أُقيم مقامَ المخوفاتِ من المخلوقاتِ

(١) فى (ط): «من حيث».

مثْل: الذنوب؛ والعيوب؛ والأسباب، رُفِع من حيثُ تلك المقاماتِ إلى مقامات الرّجاء؛ بتحقيق الوعد، وغفران الذنب، وتشويقِ الجنان وما فيها من الأوصاف الحسان؛ وهذه مُوَاجهاتُ أصحابِ اليمين. وإن كان أُقيم مقامَ مَخاوفِ الصفاتِ عن مشاهدةِ معانى الذّات، مثل: سابقِ العلم، وسوء الخاتمة، وخفىِّ المكرِ، وباطن الاستدراج، وبطش القُدرة، وحُكم الكِبْر والجبروت، رُفع من حيث هذه المقامات إلى مقام المحبة والرضا، فَرَجا مِن معانى الأخلاق وأسماءِ الكرم والإحسانِ والفضلِ والعطف واللُّطف والامتنان.

وليس يصحّ أن نخبر بكل ما نعلم من شهادة أهل الرجاء فى مقامات الرجاء، من قِبَل أنّه لا يصلُح لعمومِ المؤمنين، وهو يُفْسِد من لم يُرْزَقه أشدَّ الفساد، فليس يصلُحُ إلا لِخُصوصِهِ، ولا يُجِدُّ (١) بِهِ، ولا يستجيبُ له، ولا يُستَخرج إلا من المحبِّينَ، ولا محبة إلا بعد نصح القلب من الخوف. وأكثرُ النُّفوس لا يصلح إلا على الخوف، كعبيد السوء لا يستقيمون إلا بالسّوط والعصا، ثم يُواجَهُون بالسّيوف صَلْتًا.

ومن علامة صحة الرجاء فى العبد كونُ الخوفِ باطنًا فى رجائه، لأنّه لما تحقق برجاء شيءٍ خاف فَوْتَه لعظَم المرجوِّ فى قلبه، وشدّة اغتباطه به، فهو لا ينفكّ فى حال رجائه من خوف فَوت الرجاء. والرّجاءُ هو ترويحاتُ الخائفين، ولذلك سمّت العربُ الرّجاءَ خوفًا، لأنّهما وصفانِ لا ينفَكُّ أحدُهما عن الآخر. ومن مذهبهم: أنّ الشيء إذا كان لازمًا لشيء، أو وصفًا له، أو سببًا منه، أن يُعبِّروا عنه به، فقالوا: «ما لك لا ترجو كذا»، وهم يريدون: ما لك لا تخاف؟ وعلى هذه اللغة جاء قولُ الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]، أجمعوا على تفسيره: ما لكم لا تخافون لله عَظَمة؟ وهو أيضًا أحدُ وجهَى تفسيرِ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ١١٠]، أى: يخاف من لقائه.

وَمَثَلُ الخَوْفِ من الرجاء مَثَلُ اليومِ من الليلة، لما لَمْ ينفكّ أحدُهما عن الآخر

---

(٢) لا يُجِدُّ ويَجِدُّ: أى يجتهد فى الأمر.

جاز أن يُعبَّر عن المدّة بأحدهما، فيقال: ثلاثة أيام، وثلاث ليال. ومنه قول الله تعالى مخبرًا عن قصّة واحدة، فقال عزّ وجلّ: ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، ثم قال تعالى: ﴿ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]. فلمّا لم يكن اليوم ينفكّ عن ليلته، والليلةُ لا تنفكّ عن يومها، أخبر عن أحدهما بالآخر؛ لأنّ أحدَهُما [مُتّصلٌ بصاحِبِه، فَصارا كشَيءٍ واحدٍ، كيفَ! وأنّ اللَيلَ والنّهارَ أحدُهُما][(١)] لِبْسَةُ الآخرِ[(٢)]، مندرجٌ فيه، ولا يظهر إلَا أحدُهُما بحكمة الله تعالى وقدرته، لتفاوتِ أحكامه فيهما، وافتراقِ إنعامه بهما، فإذا ظهر النهارُ اندرج الليلُ فيه بقدرته تعالى، وإذا ظهر الليلُ استتر النهارُ بحكمة الله تعالى، وهو حقيقةُ إيلاجه أحدَهما فى الآخر، وتحقيقُ تكويرِهِ أحدَهُما على صاحِبه. فكذلك حقيقةُ الرَّجاء والخَوف فى معانى الملكوت، إذا ظهر الخوف كان العبد خائفًا، وظهرتْ عليه أحكامُ الخوفِ عن مشاهدة التجلِّى بوَصْفِ مخوف، فسُمِّى العبدُ خائفًا لغلبته عليه، وبَطَنَ الرَّجاءُ فى خَوفه، فإذا ظهر الرَّجاء كانَ العبدُ راجيًا، وظهرت منه أحكام الرجاء عن مشاهدَةَ تجلِّى الرُّبوبيةِ بوَصْفِ مرجوٍّ، فوُصِفَ العبدُ به لأنّه هو الأغلبُ عليه، وبَطَنَ الخَوْفُ فى رَجائه؛ لأنّهما وَصفانِ للإيمان كالجناحين للطير.

فالمؤمنُ بين الخوف والرّجاء كالطائرِ بين جناحيه، وكَلسانِ الميزان بين كِفَّتَيْه. ومنه قول مُطرِّف: لو وُزن خوف المؤمنِ ورجاؤه لاعتدلا. فهذا أصلٌ فى معرفة حقيقة الرّجاء وصِدقِ الطّمع فى المرجوِّ.

فَلِلمؤمنينَ فى اعتدال الخوف والرجاء مقامان؛ أعلاهما: مقام المقرَّبين، وهو ما حال عليهم من مَقام مشاهدةِ الصفات المخُوفة والأخلاق المرجوَّة. والثانى: مقامُ أصحاب اليمين، وهو ما عرفوه من بدائع الأحكام وتفاوُتِ الأقسام. من ذلك أنّه أنعم سبحانه وتعالى على الخَلق بفضله عن كَرَمه اختيارًا لا إجْبارًا، فلما أعلمهم ذلك رجَوْا تَمام النِّعمة من حيث ابتداؤها. ومن هَهنا طمع السَّحرةُ فى المغفرة لَمَّا

(١) الجملة ساقطة من (ط) وهى ثابتة فى (خ) و (ك).
(٢) فى (ط): «لأن أحدهما يشبه الآخر».

ابتدؤوا بالإيمان فقالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطَايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١] أي: من حيث جعلنا أوَّلَ المؤمنين من هذا المكان نرجُو أن يغفر لنا بأن جعلنا مؤمنينَ به، فرجَوْه منه. وقد ذمّ الله تعالى عبدًا أوجده نعمةً ثم سلبها، فأيس من عودها عليه، فقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩]. ثم استثنى عباده الصابرين عليه، الصالحين له، فقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١].

وروى أنَّ لقمان عليه السلام قال لابنه: خَفِ اللهَ تعالى خوفًا لا تأمن فيه مكره، وارْجُه رجاءً أشدَّ من خوْفك. قال: وكيفَ أستطيعُ ذلك وإنّما لى قلبٌ واحد؟ قال: أمَا عَلِمْتَ أنّ المؤمن كذى قلبين: يخاف بأحدهما، ويرجو بالآخر؟ والمعنى: أن الخوفَ والرجاء وصفُ الإيمانِ لا يخلو منهما قلبُ مؤمن، فصار كذى قلبين حينئذ.

ثم إنَّ الخَلْقَ خُلقوا على أربع طبقات، فى كل طبقةٍ طائفةٌ. فمنهم من يعيش مؤمنًا ويموت مؤمنًا. فمن ههنا رجاؤهم لأنفسهم ولغيرهم من المؤمنين، إذ قد أعطاهم فرجوا أن يُتمَّ عليهم نعمته، وأن لا يسلبَهُم بفضله ما به بدأهم. ومن الناس من يعيش مؤمنًا، ويموت كافرًا، فهذا موضع خَوفهم عليهم وعلى غيرهم، لمكان علمهم بهذا الحُكم، ولغيبِ حُكم الله تعالى بعلمه السابق فيهم. ومن النّاس من يعيش كافرًا ويموت مؤمنًا، ومنهم من يعيش كافرًا ويموت كافرًا. فهذان الحكمان أوجبا رجاءَهُم الثّانى للمُشْرِك إذا رأوه، فلم يَقْطَعوا[1] بظاهرِه أيضًا خوفَ هذا الرجاءِ خَوْفًا ثانيًا أن يموت على تِلكَ الحالةِ، وأن يكون ذلك هو حقيقة عند الله تعالى.

فعَلِمَ المؤمنُ بهذهِ الأحكامِ الأربعةِ، وَوَزَنَ خَوْفَهُ ورَجاءَهُ معًا[2]، فاعتدلَ حالُه بذلك لاعتدالِ إيمانه به، وحكَم على الخَلْقِ بالظّاهر، ووكَل إلى علاّم الغيوب

(١) فى (ط): «فلم يقنطوا».

(٢) فى (ط): «ورثه الخوف والرجاء معًا».

السرائرَ، ولم يقطع على عبد بظاهرِه من الشرّ بل يرجو له ما بَطَنَ عند الله تعالى من الخير، ولم يشهدْ لنفسه ولا لغيرِه بظاهرِ الخَيْر بل يخاف أن يكون قد استسرَّ عند اللهِ تعالى باطنُ شرٍّ، إلا أن حالَ التمام أن يخاف العبدُ على نفسه، ويرجو لغيره؛ لأنّ ذلك هو وجد المؤمنين من قِبَل أنّهم متعبِّدُون بحسن الظن، فهم يُحسنون الظنَّ بالناس، ويخرجون لهم المعاذيرَ بسلامةِ الصُّدور، وتسليمِ ما غاب إلى من إليه تصيرُ الأمور. ثم هم فى ذلك يسيئون الظنّ بنفوسهم لمعرفتهم بصفاتِها، ويُوقعون الملاومَ عليها، ولا يحتجون لها لباطنِ الإشفاق منهم عليهم، ولخوفِ التزكية منهم لهم.

فمن قُلِب عليه هذان المعنيان فقد مُكر به حتى يُحسن الظنّ بنفسه، ويسىء ظنّه بغيرِه، فيكون خائفًا على الناس، راجيًا لنفسه، عاذرًا لنفسه، محتجًا لها، لائمًا للناس، ذامًا لهم؛ فهذه أخلاق المنافقين.

ثم إنّ للرّاجى حالاً من مقامه، ولحاله علامةٌ من رجائه، فمن علامةِ الرجاء عن مشاهدةِ المرجوِّ دوامُ المعاملة وحسنُ التقرّبِ إليه، وكثرةُ التحبُّب[1] بالنوافل، لحسن ظنّه به وجميلِ أملِه منه، وأنه يتقبَّلُ صالحَ ما أمَرَ به تفضُّلاً منه من حيثُ كرمُهُ، لا من حيثُ الواجبُ عليه، ولا الاستحقاق منّا. وأنّه أيضًا يكفّر سيءَ ما عملَه إحسانًا منه، ورحمةً من حيثُ لُطفُهُ بنا وعطفُهُ علينا، لأخلاقه السَّنيَّة وألطافه الخفيَّة، لا من حيثُ اللزومُ له، بل من حيثُ حسنُ الظَّنِّ به.

كما قال سفيان الثورى رضى الله عنه: من أذْنَب ذنبًا، فعلم أنّ الله تعالى قدّره عليه، ورجا غُفرانَه، غفر الله عزّ وجلّ له ذنْبَهَ. قال: لأنّ الله تعالى عيَّر قومًا فقال تعالى: ﴿وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذى ظَنَنْتُمْ بربِّكُمْ أَرْداكُم﴾ [فصلت: ٢٣]. وقال سبحانه وتعالى فى مثله: ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]، أى: هَلْكى. ففى دليل خطابه عزّ وجلّ: أنّ من ظَنَّ حسنًا كان من أهل النجاة. وقد جاء فى الأثر: «مَنْ أذنب ذَنبًا فأحزَنَه ذلك غُفِر له ذنبه وإن لم يستغفر».

(١) فى (ط): «التقرب».

ومقامُ الرجاءِ كسائر مقامات اليقين، منها فَرْضٌ وفَضْلٌ. فعلى العبد فرضٌ أن يرجو مولاه وخالقه ومعبوده ورازِقَهُ، من حيثُ كرمُه وفضلُه، لا من حيثُ نظرُه إلى صفاتِ نفسه ولؤمِه. وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول: مَن سأل الله تبارك وتعالى شيئًا فنظر إلى نفسه وإلى أعماله لا يرى الإجابة حتى يكون ناظرًا إلى اللهِ تبارك وتعالى وحدَه، وإلى لُطفه وكرمه، ويكون موقنًا بالإجابة. ولعمرى إن من سأل الله تعالى ورَغِب إليه فى شيءٍ ورجاه ناظرًا إلى نفسِه وعملِه، فإنّه غير مخلصٍ فى الرّجاء له سبحانَهُ وتعالى لشِرْكه فى النّظر إليه. وإذا لم يكن مخلصًا لم يكن موقنًا، ولا يَقْبل الله تعالى عَملاً ولا دعاءً إلا من مُوقنٍ بالإجابة مُخلصٍ. فإذا شهد التوحيدَ، ونظر إلى الوحدانية، فقد أخلص وأيقنَ. وهكذا جاء فى الخبر: «إذا دَعَوتُم فكونوا مُوقِنين بالإجابة، فإن الله تعالى لا يقبل إلا من مُوقنٍ ومِن دَاعٍ دعا بِنِيَّةٍ[1] من قلبه، لأنَّ مَن استعملَهُ اللهُ تعالى بالدّعاء له فَقَدْ فتحَ له بابًا من العبادة.

وفى الخبر: «الدعاء نصف العبادة». ولا يقبلُ اللهُ تعالى من الدّعاء إلا النّاخلة. بمعنى المنخول، وهو الخالص. فأقلُّ ما يعطيه مِن دُعائِه أن يكونَ ذلك حسنةً منه يضعِّفُه له عشرًا إلى سبعمائة ضعف. وأعلاه: أن يدّخر له عنده فى الآخرة ما هو خير له من جميع الدنيا وما فيها ممّا لم يَخْطُر على قلبه قطّ، ويكون ذلك حسنُ نظرٍ من الله تعالى له واختيارٌ. وأوسطُ ذلك: أن يصرفَ عنه من البلاء الذى هو لو كانَ عَلِمَهُ كان صَرْفُه أهمَّ عليه وأحبَّ إليه مما سأل فيه. وقد رُوينا عن رسول الله ﷺ: «ما من داعٍ دعا مُوقنًا بالإجابة فى غير مَعصية ولا قطيعة رحم إلا أعطاهُ اللهُ تعالى إحدى ثلاث: إما أن يجيب دعوتَه فيما سأل، أو يصرف عنه من السُّوء مثلَه، أو يدّخر له فى الآخرة ما هو خيرٌ له».

وفى أخبار موسى عليه السلام: «يا ربِّ أىّ خلقك أنت عليه أشدُّ تسخُّطًا؟ فقال تعالى: مَن لم يرضَ بقضائى، ومَن يستخيرنى فى أمره فإذا قضيتُ له كره ذلك». وفى الخبر الآخر أنّه قال: «يا ربِّ، أىّ الأشياء أحبُّ إليك، وأيّها أبغض؟

(١) فى (ط): «دعاء بينًا».

فقال سبحانه وتعالى: أحب الأشياء إلىّ الرضا بقضائى، وأبغضها إلىّ أن تُطرِىَ نفسك».

وروينا عن نبيّنا ﷺ أنه قال للرجل الذى قال: أوصنى، فقال: «لا تتهم اللهَ تعالى فى شىءٍ قضاهُ عليك». وفى الخبر الآخر: «إنّه نظر إلى السماء وضحك ﷺ، فسُئل عن ذلك، فقال: عجبتُ لقضاءِ الله تعالى للمؤمنِ، فى كلٍّ قضائه له خير. إن قضى له بالسرّاء رضى فكان خيرًا له. وإن قضى عليه بالضرّاء رضى به فكان خيرًا له».

ومن حسنِ الظنِّ بالله تعالى لطفُ التملُّقِ له سبحانه وتعالى، وهو من قوّة الطمع فيه. وفى الخبر: «حسنُ الظنِّ بالله عزّ وجلّ من حسن عبادة الله عزّ وجلّ». كما رُوينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٣٧] أنّ الكلمات هى قوله عليه السلام: يا ربّ هذا الذنبُ الذى أصبتُه كان من قِبَلِ نَفسى، أو من شىء سبقَ فى عِلمك قبل أن تخلقنى قضيتَهُ علىَّ؟ فقال: بل شىءٌ سبق فى عِلمى كتبتُه عليك. قال: يا ربّ فكما قضيته علىَّ فاغفرْهُ لى. قال: فهى الكلمات التى لقّاهُ اللهُ تعالى إياها.

ورُوينا عن النبى ﷺ: «يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة: ما منعكَ إذ رأيتَ المنكر أن تنكره؟ قال: فإن لقّن اللهُ تعالى العبدَ حجّته قال: يا ربّ رجوتُكَ وخفتُ النّاس. قال: لقد غفرت له». وفى الخبر المشهور: «أن رجلاً كان يداينُ الناسَ، فيسمحُ لهم ويتجاوزُ عن المعسر، فلقى الله تعالى ولم يعمل خيرًا قط، فقال الله سبحانه وتعالى: نحن أحقُّ بذلك منك. قال: فغفر له برجائه وظنّه».

ثم يتفاوت الرّاجونَ فى فضائل الرجاء، فالمقرّبونَ منهم رجَوُا النصيبَ الأعلى من القُرب والمجالسة والتجلّى بمعانى الصفات ممّا عرفوه؛ وهذا عن علمهم به. وأصحابُ اليمين من الرّاجين رجَوا النصيبَ الأوفرَ من مزيده، والفضلَ الأجزل من عطائه، يقينًا بما وعد.

ومن الرجاء: انشراحُ الصدرِ بأعمال البرّ، وسرعةُ السبْق والمبادرة بها خوفَ

فوتها ورجاءَ قبولها. ثم مهاجرةُ السّوء ومجاهدةُ النفس رجاءَ انتجاز الموعود، وتقربًا إلى الرحيم الودود. ومنه قول أصدق القائلين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ﴾ [البقرة:٢١٨]. وفسّر رسول الله ﷺ المهاجرةَ والمجاهدَة فقال: «المهاجرُ من هجر السوءَ، والمجاهدُ من جاهد نفسه فى الله عزَّ وجلَّ».

ومن الرجاء: كثرةُ التلاوةِ لكلامِ اللهِ سُبحانه(١)، وإقامُ الصَّلاةِ التى هى خِدمةُ المعبودِ، وبذلُ المالِ سرًا وعلانيةً وقليلاً وكثيرًا، وأن لا يشتغل عن ذلك بتجارة الدّنيا، كما وصف الله سبحانه وتعالى المحقّقين من الرّاجين، إذ يقول عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر:٢٩].

ومن الرجاء: القنوتُ فى ساعات الليل؛ وهو طولُ القيام للتهجّد، والدعاءُ عند تجافى الجنوب عن المضاجع، لما وقر فى [الصُّدور و](٢) القلوب من المخاوف. ولذلك وصف الله الراجين بهذا فى قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]. فسمَّى أهلَ الرجاءِ والحذر وأهلَ التهجّد آناء الليل علماءَ، وحصَلَ من دليلِ الكلام أنّ من لم يخف ولم يَرْجُ غيرُ عالم؛ لنَفْيهِ المساواةَ بينهما. وهذا ممّا حُذِف خبره اكتفاءً بأحد وصفَيْه إذ فى الكلام دليلٌ عليه.

فالرجاءُ هو أوّل مقامٍ من اليقين عند المقرَّبين، وهو ظاهرُ أوصافِ الصدِّيقين، ولا يكمُلُ فى قلب عبدٍ ولا يتحقّق به صاحبه حتى تجتمعَ فيه هذه الأوصاف: الإيمانُ بالله تعالى، والمهاجرُ إليه سبحانه وتعالى، والمجاهدةُ فيه، وتلاوةُ القرآن، وإقامُ الصلاة، والإنفاقُ فى سبيل الله تعالى، ثم السجودُ آناءَ الليل، والقيامُ والحذرُ مع ذلك كله. فهذه جملُ صفاتِ الرّاجين، وهو أوّل أحوال الموقنين. ثم

(١) قوله «ومن الرجاء . . . سبحانه» ساقط من (ط) وهو ثابت فى (خ) و(ك).
(٢) زيادة من (خ).

تتزايد الأعمالُ فى ذلك ظاهرًا وباطنًا بالجوارح والقُلوب عن تزايُدِ الأنوار والعلوم ومكاشفاتِ الغيوب بالأوصافِ الموجودة.

وفصْلُ الخطاب: أنَّ الخوفَ والرجاء طريقان إلى مقامَين؛ فالخوفُ طريقُ العلماء إلى مقام العلم. والرجاءُ طريقُ العُمّال إلى مقام العَمَل. وقد وصف الله عزّ وجلّ الراجين مع الأعمال الصالحة لقوّة رجائهم بالخوف تكملةً لصدق الرجاء، وتتمةً لعظيم الغِبطة به، فقال تعالى وتقدّس: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وقال عزّ وجلّ مُخبرًا عنهم فى حال وفائهم وأعمال برّهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ [الطور: ٢٦ ـ ٢٧]. وقال عزّ وجلّ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ [الإنسان: ٧]، من قِبَلِ أنَّ الخوف مرتبط بالرّجاء، فمن تحقق بالرجاء صارعَهُ الخوفُ أن يقطع به دون ما رجا.

وقال أهلُ العربيةِ فى معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ [الجاثية: ١٤]: أى للذين لا يخافون عقوباتِ الله تعالى. فإذا كان هذا أمرُه بالمغفرة لمن لا يرجو، فكيف يكون غفرُه وفضلُه على من يرجو؟ وبعضُهم يقول فى معنى قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]: أى تخافون منه ما لا يخافون.

فلولا أنّهما عند العلماءِ كشىء واحد ما فُسِّر أحدُهما بالآخر.

ومن الرّجاء: الأنسُ بالله تعالى فى الخلوات، ومن الأنس به الأنسُ بالعلماء، والتقرّبُ من الأولياء، وارتفاعُ الوحشة بمجالسة أهل الخير، وسعةُ الصَّدر والرّوح عندهم.

ومن الرجاء: سقوطُ ثقلِ المعاونَةِ على البرِّ والتَّقوى لوجود حلاوةِ الأعمال والمسارعة إليها، والحثِّ لأهلها عليها، والحزنِ على فَوتها، والفرح بدَرْكها. ومن ذلك الخبر المأثور: «مَنْ سرَّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن». والخبر المأثور: «خيار أمّتى الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساءوا استغفروا». لأنّ المؤمنَ على يقينٍ من أمره وبصيرةٍ من دينه.

والخوفُ والرجاءُ وصفُ الموقنِ بالله تعالى، فهو إذا عمل حسنة أيقن بثوابها؛ لصدق الوعد وكرم المُوعِد، وإذا عمل سيئة أيقن بالكراهة لها وخاف المقتَ عليها؛ لخوفِ الوعيد وعَظمة المتوعِّد، من قِبَلِ أنّ دخولَه فى الطّاعة دخولٌ فى محبةِ الله تعالى ومرضاته لما دلّ العلمُ عليه؛ فهذا رضا الله سبحانه وتعالى فى الدنيا فكيف لا يسرُّه رضاه؟ ومن قِبَلِ أنّ دخوله فى المعصية دخولٌ فى غضبِ الله تعالى ومكارهه بما دلّ العلم عليه، فذلك الذى يسوءُه، لأنّ مقتَ الله تعالى اليوم معاصيه، وسَخَطَهُ غدًا تعذيبه. ومن هذا قول الله عزّ وجلّ، وهو أصدق القائلين: ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]، قال: لما نظروا إلى أنفسهم بتشويه خَلقهِم فى النار مقتُوها، فنُودوا: لَمقْتُ الله لكُم فى الدنيا على معاصيه أكبرُ من مَقْتِكم أنفسكم اليوم فى العذاب، كذلك رِضاهُ اليومَ بطاعته، كما رِضاهُم غدًا بالنّعيم فى جنّتِه[١]؛ وهذا وصف عبد مراد مكاشف بعلم اليقين.

ومن هذا حديث زيد الخيل إذ قال للنبى ﷺ: «جئتك أسألُك عن علامةِ الله تعالى فيمن يريد، وعلامته فيمَنْ لا يريد. فقال: كيف أصبحتَ؟ فقال: أصبحت أحبّ الخير وأهله، وإذَا قَدَرْتُ على شىءٍ منه سارعتُ إليه وأيقنتُ بثوابه، وإذا فاتنى شىءٌ منه حزِنْتُ عليه وحَنَنْتُ إليه. فقال ﷺ: هذه علامةُ الله تعالى فِيمَنْ يُريد، ولو أرادكَ للأخرى هيّأكَ لها، ثم لم يبالِ فى أىّ أَوْديتِها هَلَكْتَ».

ومن الرجاء: التلذُّذُ بدوامِ حسن الإقبال، والتنعّمُ بمناجاةِ ذى الجلال، وحسنُ الإصغاءِ إلى محادثة القريب، والتلطُّفُ فى التملُّق للحبيب، وحسنُ الظنّ به فى العفو الجميل ومنال الفضل الجزيل. وقال بعض العارفين: للتوحيد نورٌ وللشِّرك نارٌ. ونور التوحيد أحرقُ لسيئاتِ الموحِّد من نار الشِّرك لحسنات المشرك.

ولما احتُضِر سُليمانُ التَّيمىُّ قال لابنه: يا بُنىَّ، حدِّثنى بالرُّخَص واذْكُر لى الرَّجاء، حتّى ألقى الله تعالى على حُسْنِ الظَّنّ به. وكذلك لما حضر سُفيان الثّورى رضى الله عنه الوفاةُ جعل العلماءُ حوله يُرجُّونَه. وحُدِّثنا عن أحمد بن حنبل

(١) كان ثَمَّ تقديم وتأخير فى (ط) أصلحته من (خ).

رضى الله عنه أنّه قال لابنه عند الموت: اذْكُر لىَ الأخبارَ التى فيها الرّجاءُ وحسنُ الظنّ.

فلولا أنّ الرجاء وحسنَ الظنّ من فواضل المقامات ما طلبَهُ العلماءُ فى آخر الأوقات عند فِراق العُمْر ولقاءِ المولى، لتكون الخاتمةُ به، وهم يسألون اللهَ حُسْنَ الخاتمةِ طُولَ الحياةِ. ولذلك قيل: إنّ الخوفَ أفضلُ ما دام حيًا، فإذا حضر الموت فالرّجاء أفضل.

وقد كان يحيى بن مُعاذ رحمه الله تعالى يقول فى مقامات الرجاء: إذا كانَ تَوْحيدُ ساعةٍ يُحبط ذنوبَ خمسين سنة، فتوحيدُ خمسين سنةٍ ماذا سيصنع بالذنوب؟

وقال أبو محمد سَهْلٌ رضى الله عنه: لا يصحُّ الخوفُ إلا لأهل الرّجاء. وقال مرّة: العلماءُ مقطوعون إلا الخائفين، والخائفُونَ مقطوعون إلا الراجين. وكان يجعل الرّجاءَ مقامًا فى المحبة. وهو عند العلماء أوّلُ مقامات المحبة، ثم يعلو فى الحبِّ على قَدْر ارتفاعه فى الرّجاء وحسن الظن. وقَدْ رُوينا عن النبى ﷺ أحاديثُ فى الرّجاء لا يصلح ذِكرها لعموم الناس، ولكن نذكر من ذلك ما ظهر: «خلقَ اللهُ تعالى لِجَهنَّم من فَضْل رَحْمته سَوْطًا يَسُوقُ اللهُ عزّ وجلّ به عبادَه إلى الجنة». وخبر آخر: «يقول الله تعالى: إنّما خلقتُ الخلقَ ليَرْبَحُوا علىَّ ولم أخلقهم لأربحَ عليهم». وفى حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «ما خلق اللهُ تعالى شيئًا إلا جعل له ما يغلبه، وجعل رحمتَهُ تَغْلب غضبَه». والخبر المشهور: «إن الله تعالى كتب على نفسه قبل أن يخلق الخَلْقَ: إنّ رحمتى تَغْلب غضبى». والأخبار المشهورة عن معاذ بن جبل، وأنس بن مالك، رضى الله عنهما: «مَنْ قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، و «مَنْ كان آخرُ كلامه قولَ: لا إله إلا اللهُ لم تمسَّه النار»، و «مَنْ لقى اللهَ تعالى لا يُشرك به شيئًا حُرِّمت عليه النار»، و «لا يدخل النّارَ مَنْ فى قَلْبه وزنُ ذَرَّة من إيمان». وقد قال فى خبر آخر: «لو يعلمُ الكافرُ سَعَةَ رحمه الله تعالى ما أيِسَ من رحمته أحد».

وقال الله تعالى فى حسن عفوه عن أكبر الكبائر بعد ظهور الآيات: ﴿ثُمَّ

اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذلكَ﴾ [النساء: ١٥٣]. وقال في خطاب لطيف لأوليائه يعرِّفهم نفاذَ أحكامه فيهم وجريانَ مشيئته عليهم: **﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [البقرة: ٢٠٩]، عزيز لا يُوصل إليه إلا به، حكيم حكَم بمشيئته على عباده، ثم يغفر الذنوبَ جميعًا فلا يُبالي، كما أجرى على مَن فَضَّله على العالمين مقالةَ الكافرين فلم يضرَّهُم مع تفضيله لهم، إذ قالوا لموسى عليه السلام: **﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾**، **﴿قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** [الأعراف: ١٣٨، ١٤٠].

وبهذا المعنى عارض عليٌّ كرّم الله وجهه رأسَ الجالوت لما قال له: لم تلبثوا بعد نبيِّكم عليه السلام إلا ثلاثين سنة حتّى ضرب بعضُكم رقابَ بعض بالسّيف. فقال عليٌّ كرّم الله وجهه: أنتم لم تجفَّ أقدامُكم من ماء البحر حتى قلتم لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة.

ورُوينا عن رسول الله ﷺ: «إذا حدَّثتمُ النّاس عن ربّهم فلا تحدِّثوهم بما يُفزِّعُهم ويُنفرهم». وقال في حديث آخر: «بشِّروا ولا تنفِّروا، ويسِّروا ولا تعسِّروا». ولمّا وَعَظَهم النبي ﷺ فقال: «لو تعلمون ما أعلمُ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، ولخرجتم [إلى الصُّعدَاتِ تَلْدِمُون صُدورَكم، وتجأرون إلى ربكم][(١)]. فهبط جبريل عليه السلام فقال: إن الله تعالى يقول: لِمَ تُقنِّط عبادي؟ فخرج إليهم رسول الله ﷺ فرجّاهم وشوّقهم».

ولما تلا الرسول ﷺ هذه الآية: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾** [الحج: ١] قال: «أتدرون أيَّ يوم هذا؟ يومٌ يقال لآدم عليه السلام: قم فابعَثْ نصيب النار من ذريتك. فقال: كم؟ قيل: من كلِّ ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. قال: [فأُبْلِس القومُ، وجعلوا][(٢)] يبكون يومهم ذلك، وتركوا الأشغال والعمل. فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: ما

(١) ساقطة من (ط). تلدمون صدوركم: اللَّدْم: الضربُ بشيء ثقيل يُسمع وقعُه.
(٢) ساقطة من (ط). أُبلس القوم: أخذهم الذهول والدّهشة.

بالُكم؟ أنتم فى الأُمم مثل شعرة بيضاء فى جلد ثور أسود». والخبر المشهور: «لو لم تُذنبوا لخلقَ اللهُ تعالى خلقًا يُذنبون ليغفر لهم». وفى لفظ آخر: «لذهب بكم، وجاء بقوم يذنبون فيغفر لهم»، إنّه هو الغفور الرحيم؛ أى: أن وصفه سبحانه وتعالى المغفرةُ والرحمةُ، فلا بدّ أن يخلق مقتضى وصفه حتى يحقّ وصفُهُ عليه هذا. كما تقول فى علم المعرفة: إن له سبحانه وتعالى من كلّ اسمٍ وصفًا، ومن كل وصفٍ فعلاً. وفى هذا سرّ المعرفة، ومنه معرفة الخصوص.

وحُكى لنا معناه عن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه، قال: خلا لى الطواف ذاتَ ليلة، وكانت ليلة مطيرة مظلمة، فوقفت فى الملتزَمِ عند الباب، فقلت: يا ربِّ اعصمنى حتّى لا أعصيك أبدًا. فهتف بى هاتف من البيت: يا إبراهيمُ أنت تسألنى العصمة، وكلُّ عبادى المؤمنين يطلبون ذلك، فإذا عصمتُهم فعلى مَنْ أتفضَّلُ، ولمن أغفر؟

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول: لو لم يذنب المؤمنُ لكان يطير طيرًا، ولكنَّ اللهَ تعالى قمعَه بالذنوب.

وفى الخبر مثله: «لو لم تُذْنبوا لخَشِيتُ عليكم ما هو شرٌّ من الذنُّوب. قيل: وما هو؟ قال: العُجْب».

ولعمرى إن العُجْبَ من صفات النفس المتكبرة، وهو يحبط الأعمال، وهو من كبائر أعمال القلوب، والذنوبُ من أخلاق النفس الشهوانية.

ولأن يُبتلَى العبدُ الشهوانىُّ بعشر شهوات من شهوات النفس خيرٌ له من أن يُبتلى بصفةٍ من صفات النفس مثل: الكِبْر، والعُجْب، والبَغى، والحسد، وحبّ المدح، وطَلب الذكر؛ لأنّ هذه منها: معانى صفات الربوبية، ومنها: أخلاق الأبالِسَة، وبها هَلَك إبليسُ. وشهواتُ النّفْس من وصْفِ الخِلْقة، وبها عصى آدم ربَّه فاجتباه بعدها وتابَ عليه وهدى.

وقد قال بشر بن الحارث: سكونُ النفسِ إلى المدح أضرُّ عليها من المعاصى.

ورأى يوسف بنُ الحسينِ مخنّثًا فأعرض عنه إزراءً عليه، فالتفت إليه المخنَّثُ

وقال: وأنت أيضًا يكفيك ما بك. ففزع من قوله، فقال: وأى شىء تعلم بى؟ قال: لأنّ عندكَ أنّك خيرٌ منى. فاعترفَ يوسف بقوله، فتاب واستغفر.

وكان بعض الرّاجين من العارفين إذا تلا هذه الآية؛ آيةَ الدَّيْن التى فى سورة البقرة، يُسَرُّ بذلك ويستبشر لها ويعظُم رجاؤه عندَها. فقيل له: إنّها ليس فيها رجاء، ولا ما يوجب الاستبشار. فقال: بلى! فيها رجاءٌ عظيم. قيل: وكيف ذلك؟ فقال: إنّ الدنيا كلّها قليل، ورزق الإنسان فيها قليل من قليل، وهذا الدَّين مِن رزقه قليلٌ مِن قَلِيلٍ من قليلٍ[1]. ثم إن الله تبارك وتعالى احتاط لى فى ذلك ودقّق النظر لى؛ بأن وكَّد دَيْنى بالشُّهود والكتاب، وأنزل فيه أطولَ آيةٍ فى كتابه، ولو فاتنى ذلك لم أبال به، فكيف يكون فعلُه بى فى الآخرة التى لا عِوَض لى من نفسى فيها؟!

وكذلك كان بعض الرّاجين يفهم من قوله تعالى إذا تلا: ﴿**وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾ [الزمر:٤٧] يرجو من ذلك بوادِى الجودِ والكرمِ والإحسان مما لم يَحْتَسِبْهُ فى الدنيا قطّ. وقد كان الجُنيد رحمه الله يقول: إن بدت عينٌ من الكَرَمِ ألحقتِ المسيئين بالمحسنين.

وعلى ذلك جاء فى الخبر: «ليغفرنّ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ مغفرةً ما خطَرت قطّ على قلب أحد، حتى أنّ إبليس ليتطاولَ رجاء أن تصيبَهُ». وفى الخبر: «إن لله تعالى تسعًا وتسعين رحمةً، أظهر منها فى الدنيا رحمةً واحدةً، بها يتراحَمُ الخلائقُ، فتحنُّ الوالدةُ إلى ولدها، وتعطفُ البهيمةُ على ولدها. فإذا كان يومُ القيامة ضمّ هذه الرحمة إلى تلك التسع والتسعين، ثم بسطها على جميع خلقه. وكلُّ رحمةٍ منها طباقُ السموات والأرضين. قال: فلا يهلك على الله تعالى إلا هالك». وقد قال بعض العلماء: إنّ الله تعالى إذا غفر لعبد فى موقف القيامة ذنبًا غفر ذلك الذّنب لكلٍّ من عَمِله.

وقال النبى ﷺ: «اعملوا وأبْشِرُوا، واعلموا أنّ أحدًا لن يُنجيه عمله». وفى

(١) قوله «من قليل من قليل»: زيادة من (خ).

الحديث الآخر: «ما منكم من أحد يدخله عملُه الجنةَ، ولا يُنجيه من النّار. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمّدنى اللهُ تعالى برحمةٍ وفضل». وروى عنه ﷺ: «إنى اختبأت شفاعتى لأهلِ الكبائر من أمتى». وفى لفظ آخر: «أترونها للمصفَّين المتّقين؟ بل هى للمخطئين المتلوّثين». وقال ﷺ لمعاذ وأبى موسى رضى الله عنهما، وقد بعثهما واليين على اليمن، فأوصاهما فيما أمرهما به، فقال: «يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا».

فعلْم المؤمنين بكرَمِ الله تعالى، وخفىٍّ لطفه، ولطيفِ منّه، لا يقعُدُهم عن تأميلِهِ، ولا يَقْصُر بهم عن رجائه، ولا حُسْن ظنِّهم به، ولا يُقَوِّى عليهم الخوفَ فيُخرجهم إلى الإياس من رحمته، لأجل علمهم بجبريتّه وكبريائه من قِبَل أنَّ المهيوبَ هو المحبوبُ، فمحبتُهُ تؤنسُهُم وترجِّيهم، وهيبتُهُ تُزْعِجُهم وتُخيفُهم. فخوفُهم بالمهابة فى لذَاذَةٍ، ونعيمُهم بالحبّ فى مهابةٍ. فهم فى مقامِ الخوف والمحبّة معتدلون، وبقوّة الله والعلمِ بها متمكّنون، وفى مشاهدة المخُوف والمحبوب مستقيمون.

وهذا المقامُ هو وصف العارفين من الموقنين؛ وهم أهلُ كمالِ الإيمان، وصفوةُ خصوصِ ذوى الإيقان. إذ قد عرفوا أنَّ الله تبارك وتَعالى كاملٌ فى صفاته، لا يعتريه نقصان فى وصف دون وصف، وإنّما الرحمة بِسَعة العلم، كما العلم بِسعة القدرة، لما شهدوا من وصفه بما سمعوا من كلامه أنّه كان عليمًا قديرًا، كما قال تعالى: ﴿ربَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شىء رَحْمَةً وَعلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وكذلك فهموا من قوله تعالى: ﴿ورَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْء﴾، فدخلت جهنم وغيرها فى توسعة الرحمة من حيث كُنَّ شيئًا، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَسأَكْتُبُهَا للَّذين يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] معناه: خصوص الرحمة وَصَفْوَها[١] لا كُنهَها، إذ لا نهايةَ للرّحمة؛ لأنّها صفة الراحم الذى لا حدّ له، ولأنّه لم يَخرُج من رحمته شىءٌ، كما لم يَخْرُج من حكمتِهِ وقدرته شىءٌ؛ لأنّ جهنم والنّارَ الكبرى وغيرَهما لَسْنَ[٢] كُنْه عذابِهِ، ولا

(١) فى (ط): «وصفها».
(٢) فى (ط): «ليس».

كليّةَ تعذيبه. فمن ظنَّ ذلك به لم يعرفْهُ، ولأنّه إنَّما[١] أظهر من عذابه مقدار طاقة الخلق، كما أنه أظهر من ملكه ونعمه مقدار مصالح الخلق، ولا يصلح للخلق ولا يطيقون إظهاره أكثر ممّا أظهر من النعيم والعذاب، بل لا ينبغى لهم أن يعرفوا فوق ما أبدى؛ لأن نهايةَ تعذيبِه وتنعيمه من نهاية ملكه الذى هو قائم به، وملكُهُ عن غاية قدرتِه وسلطانه ولا نهاية لذلك، ولا يُطيقُ الخَلْقُ كلُّه إظهارَ ذلك. وذلك أيضًا عن تعالِى صفاته، وبهاء أسمائه المتناهيات، ولا سبيل إلى كَشْفِ ذلك من الغيوب. فسبحان من لا نهايةَ لقدرتِه، ولا حدَّ لعظمته، ولا أمدَ لسلطانه.

وكذلك شَهِدُوا ما سمعُوا من قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقال: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١]. فعلموا أنّ المغفرة على سعة الحلم، كما أنّ الحلمَ بسعة العلم. فلما رأوا عظيمَ حلمِه رجوا عظيم مغفرتِه، ولما شهدوا كثيف سترِه أمَّلوا جميلَ عفوه. وكذلك يقال: إنّ حَمَلَةَ العرش يتجاوبون بأصواتٍ: سبحانكَ على حلمِكَ بعد علمك. سبحانك على عَفوِك بعد قُدْرَتك.

فللرّاجين من العارفين فُهومٌ من السمع للكلام نحو علوٍّ نظرهم عن سموِّ علومِهم بمعانى الصفات.

فكلُّ صاحبِ مقام يشهدُ من مقامه، ويسمعُ من حيثُ شهادتُه، فأعلاهم شهادةً الصدِّيقون، ثم الشّهداء، ثم الصالحون، ثم خصوصُ المؤمنين. فبه تبارك وتعالى استدلّوا عليه، ومنه نظروا إليه. هم دَرَجاتٌ عندَ الله، واللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعملون. وكان سهلٌ رضى الله عنه يقول: المحْسِنُ يعيشُ فى سَعَةِ الرّحمة، والمسىءُ يعيش فى سعة الحلم.

فصفاتُهُ تبارك وتعالى كاملات، فمن شهد ترجيحَ بعضها على بعض دخلَ عليه النقصُ من مشاهدتِه، لقصورِ علمِه عن تمام علم مَن فَوْقه من الشهداء، ولأجلِ مقامِه المرادِ به دونَ طريق الصّدّيقين من الأقوياء. فعاد ذلك على العبد فصار ذلك

(١) فى (ط): «لما».

مَقامًا له فى القرب والبعد، تعالى وصفُ المشهودِ عن النُّقصان والحدّ.

وَمَثَلُ الرَّجاء من الخوف مَثَلُ الرُّخصة فى الدِّين من العزائم. وقد قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يحبّ أن يُؤخَذ برخصه كما يحبّ أن يُؤخَذ بعزائمه». وفى لفظ آخر أبلغ من هذا وأوكد: «إنّ الله يحب أن تُقبل رُخَصُهُ كما يكره أن تُؤتَى معاصيه».

ورُوى عن النبى ﷺ: «إنّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق». ولا تبغِّض إلى نفسك عبادةَ الله تعالى، وخيرُ الدِّين أيسرُه. وقال: «هلك المتعمّقون، هَلَك المتنطّعون». وقال عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْت بالحنيفية السّهْلة السّمْحة». وقال ﷺ: «أُحِبُّ أن يعلمَ أهلُ الكتاب أنَّ فى ديننا سماحة». وقال الله عزّ وجلّ، ومَنْ أحسنُ من اللهِ قيلاً: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧]. واستجاب للمؤمنين فى قولهم: ﴿ربَّنا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْرًا كَما حَمَلْتَه عَلَى الَّذين مِنْ قَبْلنا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فقال عزّ وجلّ: قد فعلت.

فهذه العلومُ هى أسبابُ قوّةِ الرَّجاءِ فى أولى الألباب. كيف وقد جاء ما يغلب حُكمَ الرجاءِ من غيرِ اغترارٍ، ما رُوى عن الله تعالى: «أنا إلى الرحمة والعفوِ أقربُ منِّى إلى العقوبةِ». وفى الخبر: «إذا حدَّثتمُ النّاس عن ربّهم فلا تحدِّثُوهم بما يُفزِّعُهُم ويشُقُّ عليهم». وفى كلام لعلى رضى الله عنه: إنّما العالِم الذى لا يُقنِّطُ النّاسَ من رحمة الله تعالى، ولا يُؤمِّنُهُم مكْرَ الله تعالى.

وروى فى أخبار داود عليه السلام أن الله سبحانه وتعالى [نظر إليه مُنتبذًا وحْدانيًا فقال:](١) ما لك وَحْدانيًا؟ قال: عاديتُ الخلقَ فيك. قال: أما علِمْتَ أن محبتى أن تَعْطِف على عِبادى، وتأخذ عليهم بالفضل، هنالك أكتُبُكَ من أوليائى وأحبّائى، ولا تنظر إلى عبيدى نظرةَ جفاءٍ ولا قسوة، فإذا أنتَ قَدْ أَبْطلتَ أجْرَك. فاحفظ عنى ثلاثًا: خالِصْ حبِيبى مخالصةً، وخالِق أهلَ الدنيا مُخالقةً، ودينك فقلِّدْنيه.

---

(١) ساقطة من (ط).

وأَوْحى الله تعالى إلى داود وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: أحبَّنى، وأحبَّ من يحبُّنى، وحبِّبنى إلى خلقى. قال: يا ربّ، هذا أحبُّك وأحبُّ من يحبّك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ فقال عزّ وجلّ: اذكرنى بالحسن الجميل واذكر آلائى وإحسانى، وذكِّرهم ذلك، فإنّهم لا يعرفون منى إلا الجميل.

وروى عن يزيد الرّقاشى عن أنسٍ أنَّ النبى ﷺ قال: «ألاَ أُخبرُكُم عن أقوامٍ ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياءُ والشهداءُ بمنازِلهم من الله تعالى، على منابرَ من نور يُعرفون عليها؟ قالوا: مَنْ هم؟ قال: الذين يحبِّبون عبادَ الله إلى الله تعالى، ويحبِّبون الله عزّ وجلّ إلى عباده، ويمشون فى الأرض نصحاء. فقلنا: هذا حبَّبوا اللهَ إلى عباده، فكيف يحبِّبون عبادَ الله إلى الله؟ قال: يأمرونهم بما يحب الله، وينهونهم عما حرّم الله، فإذا أطاعوهم أحبَّهم الله».

ورُؤى أبان بن عياش فى النوم بعد موته، وكان من أكثر الناس حديثًا بالرخص وأبواب الرجاء، فقال: أوقفنى ربى عزّ وجلّ بين يديه فقال: ما حملك على أن حدَّثتَ عنّى بما حدَّثتَ به من الرُّخص؟ قال: فقلت: يا ربِّ، أردتُ أن أحبِّبك إلى خلقك. قال: قد غفرتُ لك.

وحُدِّثت عن مالك بن دينار أنّه لقى أبانًا فقال: إلى كم تحدِّث الناسَ بالرخص؟ فقال: يا أبا يحيى، إنّى لأرجو أن ترى من عفوِ الله تعالى يوم القيامة ما تخرِّق له كِساءك هذا من الفرَح.

وفى حديث رِبعىِّ بنِ خِراش عن أخيه، وكان من خيار التابعين، وهو ممّن تكلم بعد الموت، قال: لما مات أخى سُجِّىَ بثوبه وألقيناه على نَعْشه، فكشَفَ الثوبَ عن وجهه، واستوى قاعدًا، وقال: إنّى لقيتُ ربى عزّ وجلّ فحيَّانى برَوْح ورَيحان وربٍّ غيرِ غضبان، وإنى رأيتُ الأمرَ أيسرَ مما تظنُّون ولا تغتروا، فإنّ محمدًا ﷺ ينتظرنى وأصحابُه حتى أرجع إليهم. قال: ثم طرح نفسه، فكأنّها كانت حصاةً وقعَتْ فى طِستٍ، فحملناه فدفناه.

وقال بكر بن سليمان: دخلنا على مالك رحمه الله تعالى فى العَشيَّة التى قُبض فيها، فقلنا: كيف تجدك؟ قال: ما أدرى ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون غدًا من

عفوِ الله تعالى ما لم يكن لكم فى حساب. قال: فما بَرِحنا حتى أغمَضْناهُ ودفناه.

ورُؤى يحيى بن أكثم فى النوم فقيل: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: أوقفنى بين يديه، وقال: يا شيخ السَّوءِ فعلتَ وفعلتَ، قال: فأخذنى من الرّعب والفزع ما يعلم الله تعالى، ثم قلتُ: يا ربِّ ما هكذا حُدِّثْتُ عنك. فقال: وما حُدِّثْتَ عنى؟ فقلت: حدّثنا عبد الرَّزّاق عن مَعْمَر عن الزُّهرى عن أنسِ بن مالك عن نبيّك ﷺ عنك أنّك قُلتَ، تباركتَ وتعاليتَ: «أنا عند ظنِّ عبدى بى فليظنَّ بى ما شاء»، وقد كنتُ أظنّ بك أن لا تعذّبنى. فقال عزّ وجلّ: صدقَ نَبِيِّى، وصدق أنس، وصدق الزُّهرى، وصدق مَعمر، وصدق عبد الرّزّاق، وصَدَقْتَ. قال: فغُلِفتُ وخُلِعَ علىّ، وأُلبِسْتُ، ومشَى بين يَدىَّ الوِلدانُ إلى الجنّةِ. فقلت: يا لها مِن فَرْحة.

وفى الخبر: «أنَّ رجلاً من بنى إسرائيل كان يشدّد على النّاس ويُقنِّطهم من رحمة الله تعالى، فيقول الله تعالى له يوم القيامة: اليومَ أؤيسك من رحمتى كما كنتَ تُقنِّط عبادى منها».

وفى الحديث: «أنَّ رجلين تواخيا فى الله تعالى من بنى إسرائيل، فكان أحدُهما عابدًا، والآخرُ مسرفًا على نفسه، فكان هذا العابد ينهاهُ ويزجُره، فيقول له: دعنى وربى، أَبُعِثْتَ علىَّ رقيبًا؟ حتّى رآه ذاتَ يومٍ على كبيرةٍ، فغضب، فقال: لا يغفرُ اللهُ لك. قال: فيقول الله تعالى له يوم القيامة: أتستطيع أن تحظُر رحمتِى على عبادى؟ اذهب فقد غفرتُ لك، ثم قال للعابد: وأنتَ فقد أوجبتُ لك النار. قال: فوالذى نفسى بيده لقد تكلّم بكلمةٍ أهلكَتْ دنياهُ وآخرته».

وروينا فى معناه: أن لِصًا كان يقطع الطريق أربعين سنة فى بنى إسرائيل، فمرّ عليه عيسى عليه السلام وخَلْفَهُ عابدٌ من عُبَّاد بنى إسرائيل من الحواريين، فقال اللصّ فى نفسه: هذا نبىُّ الله يمرّ وإلى جنبه حَوارِيّه، لو نزلتُ فكنت معهما ثالثًا. قال: فنزل، فجعل يريد أن يدنو من الحوارى ويزدرى نفسه تعظيمًا للحوارى، ويقول فى نفسه: مِثلى لا يمشى إلى جنب هذا العابد. قال: وأحسّ به الحوارىُّ، فقال فى نفسه: هذا يمشى إلى جانبى. قال: فضمَّ نفسه، وتقدّم إلى

عيسى عليه السلام فمشى إلى جانبه، فبقى اللصّ خَلْفه. قال: فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: قل لهما يستأنفان العمل، فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما. أمّا الحَوارىُّ فقد أحبطتُ حسناته لعُجْبه بنفسه. وأما الآخرُ فقد أحبطت سيئاته بما ازدرى على نفسِه. قال: فأخبرهُما بذلك، وضمَّ اللصَّ إليه فى سِياحتِه، وجعله من حَوارِيِّيه.

ورُوينا عن مسروق بن الأجدع: أن نبيًا من الأنبياء كان ساجدًا، فوطئ بعضُ العُتاة على عنقه حتى أَلْزقَ الحصى بجبهته، قال: فرفع النبىّ عليه السلام رأسَه مُغضبًا فقال: اذهب فلن يغفرَ اللهُ لك. قال: فأوحى الله تعالى إليه: تتألَّى علىَّ فى عبادى، فإنِّى قد غفرتُ له.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يقنتُ يدعو على المشركين ويلعنهم فى صلاته، فنزلت: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَو يَكْبِتَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٧ ـ ١٢٨]. قال: فترك الدعاء عليهم. قال: فهدى الله تعالى عامة أولئك إلى الإسلام.

والأخبارُ فيما يوجب الرّجاءَ وحسنَ الظنّ أكثرُ من أن تُجمع، ولم نقصد جمعها، وإنّما دلَّلنا بقليلٍ على كثيرٍ، ونبَّهنا عقولَ ذوى التبصير. وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٧]، [فنبَّهَ العبدَ مع اغترارِه على][1] كرمه، وذكَّره مع جهله حسنَ تسويتِه إيّاه وتعديلَه يدلُّ على نِعْمَتِه.

ورُوينا عن الضّحّاك: «إن العبد ليدنو من ربّه تبارك وتعالى عند العرض، فيقول: عبدى، أتُحصى عملَك؟ فيقول: إلهى كيف أُحصيه من دونك وأنت الحافظُ للأشياء؟ فيذكِّره اللهُ تعالى جميعَ ذنوبه فى الدّنيا فى ساعاتها. فيقول: أنت عبدى مقرٌّ بما عرَّفتُك وذكَّرتك؟ فيقول: نعم سيدى. فيقول الله سبحانه: أنا الذى سترتُها عليك فى الدنيا، فلم أجعل للذنوب رائحةً تُوجَد منك، ولم أجعل

(١) ما بين المعكفتين ساقط من (ط).

فى وجهك شَيْنَها، وأنا أغفرها لك اليوم على ما كان منك بإيمانك بى وتصديقك المرسلين».

وروينا عن محمد بن الحنفية عن أبيه علىٍّ كرّم الله وجهه قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿فاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] قال: «يا جبريل، وما الصّفحُ الجميل؟ قال: يا محمّد، إذا عفوتَ عمّن ظلمَك فلا تعاتبه. ثم قال رسول الله ﷺ: يا جبريلُ، فالله مع كرمه تعالى أوْلى أن لا يعاتب من عفا عنه. قال: فبكى جبريل وبكى النبىّ ﷺ. فبعث الله عزّ وجلّ إليهما ميكائيل فقال: إنّ ربّكما يقرئكما السلام، ويقول لكما: كيف أعاتبُ من عفوتُ عنه، هذا ما لا يُشبه كرمى».

ومن الرجاء: شدّةُ الشّوق إلى ما شوَّق إليه الكريم، وسرعةُ التنافس فى كلٍّ نفَس ندب إليه الرّحيم.

فأما الرّجاء الذى يَتَوهَّمَهُ جهَلةُ النّاسِ من الإقامة فى المعاصى، والانهماك فى الخطايا، وهو يرجو المغفرة وينتظر الكرامة، فليس هذا برجاء عند العلماء؛ لأنّ الرجاءَ مقامٌ من اليقين، وليس هذا وصفُ الموقنين. لكنّ هذا اسمه اغترارٌ بالله تعالى، وغفلة عن الله تعالى، وجهلٌ بأحكام الله تعالى. وقد تهدّد الله تعالى قومًا ظنّوا مثل هذا، وأصرّوا على حبّ الدنيا والرضا بها، وتمنّوا المغفرة على ذلك، فسماهم خَلْفًا، والخَلْف: الردىءُ من النّاس، وتوعَّدهم بشديدِ البأس فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩].

والأخبارُ فى حقيقة الرجاء تزيد المغترّين اغترارًا، وتزيد المستدرَجين بالستر والنعيم خسارًا. وهى مزيدٌ للتّوابين الصادقين، وقُرّة عينٍ للمحبّين المخلصين، وسرورٌ لأهلِ الكرَمِ والحياء، ورَوْحٌ وارتياحٌ لذوى العصمة والوفاء، يَنصَعُ به كَرَمُهم، ويشتد(١) عنده حياؤهم، ويُروَّح به كروبُهُم، وترتاح إليه عقولُهم، فهؤلاء

(١) فى (ط): «ينتفع به ويشتد» وأثبت ما فى (خ) و(ك).

يُستخرج منهم الرجاءُ وحسنُ الظنّ من العبادات ما لا يستخرجه[١] الخوف، إذ المخاوفُ تقطع عن أكثر المعاملات، فصار الرجاءُ طريقًا لأهله وصاروا واجدِينَ به[٢].

كما قال عمر رضى الله عنه: رَحِمَ اللهُ صُهيبًا، لو لم يخف الله تعالى لم يعصه. أى يترك المعاصى للرجاء لا للخوف، فصار الرجاءُ طريقه. فهؤلاء هم الرّاجون حقًّا، وهذه علامتهم. ولمثل هذا ذكرنا الأسبابَ التى تُوجب الرّجاءَ، وتُولِّد حُسْنَ الظنّ فى قلوبِ أهل الصفاء، المعْصُومِينَ من الهَوى، الموفَّقِينَ لحُسْنِ خِدْمةِ المولى[٣].

ومن الرّجاء: تحسينُ الأخلاق مع الخَلْق، وجميلُ الصّبر عليهم، وحسنُ الصفح، ولطيفُ المداراة لهم، تقربًّا إلى الله عزّ وجلّ بذلك، وتخلُّقًا بأخلاقه، رجاءَ ثوابِه وطمعًا فى تنجيز وعده، واتباعًا لسنّة رسوله ﷺ.

ومن الرّجاء : تركُ الأهواء الرديئة، والشهوات المطغية، ويحتسب فى ذلك على الله نفيسَ الذّخائر العالية. فقد روينا عن حَميدٍ عن أنسٍ قال: مُقابلُ عرشِ الرحمن غرفةٌ يُرسَل إليها جبريل عليه السلام، فإذا انتهى إليها خرّ لله ساجدًا، ثم يقول: يا ربّ لمن خلقت هذه، لأىّ نبىّ، لأىّ صدِّيق، لأىّ شهيد؟ قال: فيرد عليه عزّ وجلّ: لمن آثر هوايَ على هواه.

ومن الرجاء: افتعالُ الطّاعات وحسنُ الموافقات، يَنوى بها ويَسأل مولاه الكريم عظيمَ الرّغائب وجليلَ المواهبِ لما وَهَب له من حُسْنِ الظّنّ به. كما روى عن النبى ﷺ: «إذا سألتم الله تعالى فأعظموا الرّغبةَ وسلوه الفِرْدوس الأعلى، فإن الله عزّ وجلّ لا يتعاظمُهُ شىءٌ». وفى حديث آخر: «فأكثِروا، وسلوا الدَّرجاتِ العُلى، فإنما تسألُونَ جوَادًا كريمًا».

وفى الآثار: «أن رجلين كانا من العابدِين، متساويين فى العبادة، فإذا أُدْخِلا

(١) فى (ط): «ما لا يستروحه».

(٢) فى (ط): «رائجين به».

(٣) قوله «المعصومين . . . المولى»: ساقط من (ط).

الجنةَ رُفع أحدُهما فى الدرجات العُلى على صاحبه. فيقول الآخر: يا ربِّ، ما كان هذا فى الدنيا بأكثر عبادةً لك منى، فرفعتَهُ علىَّ فى عليِّين. فيقول الله سبحانه وتعالى: إنّه كان يسألنى فى الدنيا الدرجاتِ العلى، وكنتَ أنت تسألُنى النّجاةَ من النارِ. فأعطيتُ كلَّ عبدٍ سُؤلَه».

وروينا فى الخبر عن رسول الله ﷺ: «أن رجلاً يخرج من النار، فيُوقَف بين يدى الله تعالى، فيقول له: كيف وجدتَ مكانَك؟ فيقول: يا ربِّ شرَّ مكان. فيقول: ردّوه إلى مكانه. قال: فيمشى ويلتفت إلى ورائه، فيقول الله عزّ وجلّ: إلى أىّ شيءٍ تلتفت؟ فيقول له: يا ربّ، قد رجوتُ أن لا تعيدنى إليها بعد إذ أخرجتنى منها، فيقول تعالى: اذهبُوا به إلى الجنّة». فقد صار الرجاء طريقه إلى الجنة، كما كان الخوف طريق صاحبه فى الدنيا إليها. كما روينا: «إن الآخر سعى مبادرًا إلى النّار، لما قال: ردّوه. فقيل له فى ذلك. فقال: لقد ذقتُ من وبال معصيتك فى الدنيا ما خفت من عذابه فى الآخرة. فقيل: اصرفوه إلى الجنة». أو قال[1]: «خِفْتُ أن أعصيَهُ فى الآخرة كما عصيتُه فى الدنيا. فقال: اذهبوا به إلى الجنة».

وقد قال الله سبحانه فى وصف قوم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٧]. فطرّق لأوليائه إلى القُرب والوسيلة الرجاءَ، كما طرّق الخوفَ منهُ إليها. وهذا أحدُ الوجهينِ فى الآيةِ لمن لم يجعله وصفًا للأصنام، لأنّها قُرئت بالتاء (تَدْعُون)، قرأها طلحةُ بن مُصرِف. فكذلك ندب المؤمنين إلى طلب القرب منه فى قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥].

فهذه جملةُ أحكامِ الرّجاء وأوصاف الرّاجين. فمن تحقّق بجميعها فقد استحقّ درجاتِ أهل الرجاء، وهو عند الله تعالى من المقرّبين، ومن كان فيه وصف من هذه الأوصاف فله مقامٌ من الرجاء.

---

(١) من هنا إلى آخر الفقرة من (خ).

واعلم أن مقامات اليقين لا يُزيل بعضُها بعضًا، ولكن يندرج بعضُها فى بعض. فمن غلَب عليه حالٌ منها عَن وَجْدِ مشاهدته وُصِفَ بما غَلَب عليه، واستجَنّ[1] بما سوى ذلك من المقامات فيه. ومن عمل بشرط مقامٍ منها فقام بحكم الله تعالى فيه نُقل إلى ما سواه، وكان المقام الأول له علمًا، والثانى الذى أُقيم فيه له وَجْدًا. فكتم الوجدَ لأنّه سرُّه، وعبَّر عن العلم لأنّه قد جاوزه فصار له علانية.

ومقامُ الرّجاء هو جندٌ من جنود الله عزّ وجلّ، يستخرج من بعض العباد ما لا يستخرج غيره، لأنّ بعض القلوب تلين وتستجيب عن مشاهدة الكرم والإحسان، وتقبل وتطمئن بمعاملة النّعم والإحسان ما لا يُوجَد ذلك منها عند التّخويف والترهيب، بل قد يقطعها ذلك ويوحشُها، إذ قد جعل الرجاءَ طريقَها فوَجدت فيه قلوبها.

ومَثَلُ الرّجاء فى الأحوال مَثَلُ العَوافى والغِنَى فى الإنسان من الناس، من يقبل قلبه ويجتمع همّه عندهُما، ويُوجَدُ نشاطه وتحسن معاملته بِهِما. كما روينا عن الله سبحانه وتعالى: «إنّ مِن عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك. ومن عبادى من لا يصلحه إلا الصّحة ولو أسقمتُه لأفسده ذلك. إنى أدبِّر عبادى بعلمِى، إنّى بهم خبير». فكذلك من عباده من لا يصلحه إلا الرجاء، ولا يستقيم قلبه إلا عليه، ولا تحسن معاملته إلا بوُجودِ حُسن الظنّ، فهو طريقه إليه، ومقامه منه، ومنهُ علمه به، وعنده يجد قلبه معه، إلا أنه وإن كان طريقًا يُخرِج إلى الله عزّ وجلّ فإنّ الخوف أقربُ منه، وما كان أقربَ فهو أعلى، كالغِنى والعوافى طريقان إلى الله تعالى إلا أن الفقرَ والبلاءَ عندى أقربُ منهما وأعلى. واللهُ غالب على أمره. وقد رُوينا عن معمر عن الحسن أنّه قال: إنّما عَمِل الناسُ على قَدْر ظُنونهم بربهم، فأما المؤمنُ فأحسن بالله الظنّ وأحسن العمل، وأما الكافرُ والمنافق فأساء بالله الظنّ، ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ.

* * *

(١) استجنَّ: أى أخفى.

شرح مقام الخوف، ووصف الخائفين
وهو المقام الخامس من مقامات اليقين

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. فرفع العلم على العقل، وجعله مقامًا فيه. وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، فجعل الخشيةَ مقامًا فى العلم حقّقه بها، والخشيةُ حال من مقام الخوف، والخوف اسم لحقيقة التقوى، والتقوى معنى جامع للعبادة، وهى وصيةُ[١] الله تعالى للأوّلين والآخرين.

يَنْظِم هذين المعنيين قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ [النساء:١٣١]. وهذه الآية قطبُ القرآن: مدارُه عليها.

والتقوى سبب أضافه الله تعالى إليه تشريفًا له، ومعنًى وصله به، وأكرمَ عبادَه عليه تعظيمًا له، فقال [فى هَذَيْن المعنيين][٢]: ﴿لَن يَنالَ اللهَ لُحومُها وَلا دماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُم﴾ [الحج:٣٧]، وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وفى الخبر: «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين لميقات يوم معلومٍ ناداهم بصوتٍ يُسمع أقصاهم كما يُسمع أدناهم، يقول: يا أيّها الناسُ، إنّى قد أنصَتُّ لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، فأنصتُوا إلىَّ اليومَ، فإنّما هى أعمالُكُم تُرَدّ عليكم. أيّها الناس، إنّى جعلتُ نسبًا وجعلتُم نسبًا، فوضعتم نسبى ورفعتم نسبكم؛ قلت: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وأبيتُم إلا فلان ابن [فُلان][٣]، وفلان أغنى من

---

(١) فى (ط): «وهى رحمة».

(٢) زيادة من (خ).

(٣) زيادة من (خ).

فلان. فاليوم أضعُ نسبكُم وأرفعُ نَسَبى. أين المتّقون؟ قال: فيُنصب للقوم لواءٌ، فيتبع القومُ لواءَهم إلى منازلِهم، فيُدْخِلُهم الجنةَ بغير حساب».

والخوفُ حالٌ مَن مَقامُهُ العلم. وقَد جمع الله تعالى للخائفين ما فرَّقه على المؤمنين وهو: الهدى، والرحمة، والعلم، والرضوان، وهذه جملُ مقاماتِ أهلِ الجنان، فقال تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، وقال جلّ ذكره: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة:٨].

وفى خبر موسى عليه السلام: «وأمّا الخائفون فلهم الرفيقُ الأعلى، لا يُشاركون فيه». فأفردَهم من غيرِ مشاركة بالرفيق الأعلى، كما حقّقهم اليوم بشهادةَ التصديق؛ وهذا مقامٌ من النبوّة، فهُم مع الأنبياء فى المزيّة من قِبَلِ أنّهم ورثةَ الأنبياء؛ لأنّهم هُمُ العلماء، قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ ، ثم قال تعالى فى وصف منازلهم: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، بمعنى رفقًا، عبَّر عن جماعتهم بالواحد لأنهم كانوا كأنّهم واحد، وقد يكون «رَفِيقًا» مقامًا فى الجنّة من علوِّ عليين، لقول الرسول ﷺ عند الموت، وقد خُيِّر بين البقاء فى الدنيا وبين القُدوم على الله تعالى فقال: «أسألك الرفيقَ الأعلى». وفى خبر موسى عليه السلام: «فأولئك لهم الرفيقُ الأعلى». فدلّ أنهم مع الأنبياء بتفسير النبى ﷺ لذلك. وشُرِّف مقامُهُم فوق كلِّ مقام لطلبِ رسول الله ﷺ ذلك.

فالخوفُ اسمٌ جامع لحقيقة الإيمان، وهو عِلْمٌ لوجودِ الإيقان، وهو سبب اجتنابِ كلّ نهى، ومفتاحُ كلِّ أمرٍ، وليس شىءٌ يحرق شهوات النفوس ويزيل آثارَ آفاتها إلا مقامُ الخوف. وقال أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: كمالُ الإيمان بالعلم، وكمالُ العلمِ بالخوف. وقال مرة: العِلمُ كسْبُ الإيمان، والخوفُ كسب المعرفة. وقال أبو الفَيض المِصْرىّ: لا يُسقَى المحبُّ كأسَ المحبةِ إلا من بعد أن يُنْضِجَ الخَوفُ قلبَه. وقال: خوفُ النارِ عند خوفِ الفراق بمنزلة قطرةٍ قُطِرَت فى

بحرٍ لُجِّىٍّ.

فكلٌّ مؤمن بالله تعالى خائف منه، ولكن خوفه على قدرِ قُربه. فخوفُ الإسلامِ اعتقادُ العزة والجبرية لله تعالى، وتسليم القدرةِ والسّطوة له، والتصديقُ لما أخبر به من عذابه، وما تهدّد به من عقابه. وقال الفُضيل بن عِياض: إذا قيل لك: تخاف اللهَ، فاسكت؛ لأنّك إن قُلتَ: لا، كفرتَ، وإن قلتَ: نعم، فليس وصفُكَ وصفَ من يخاف. وشكا واعظٌ إلى بعض الحكماء فقال: ألا تَرى إلى هؤلاء أعظهُم وأذكِّرهم فلا يرقُّون؟ فقال: وكيف ينتفعُ بالموعظةِ من لم يكن فى قلبه لله تعالى مخافة. وقد قال الله تعالى فى تصديق ذلك: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾ [الأعلى: ١٠ - ١١]، أى: يتجنب التذكرة الشقىُّ. فجعل مَنْ عَدِم الخوفَ شقيًا وحَرَمه التّذكرَةَ.

فخوفُ عموم المؤمنين بظاهر القلب عن ظاهر العلم بالعَقد. وخوفُ خُصوصِهم، وهم الموقنون، بباطن القلب عن باطن العلمِ بالوَجْد. فأما خوفُ اليقين فهو للصديقين من شهداء العارفين عن مشاهدة ما أُمِرَ به من الصفات المخوفة. وقد جاء فى خبر: «إذا دخلَ العبدُ فى قبره لم يبق شىء كان يخافه دون اللهِ عزّ وجلّ إلا مُثّل له يُفزعه ويُرعبه إلى يوم القيامة».

فأولُ خوفِ اليقين الموصوف الذى هو نعت الموصوفين من المؤمنين المحاسبةُ للنَّفس فى كلٍّ وقت، والمراقبةُ للربّ فى كلٍّ حينٍ، والورعُ عن الإقدامِ على الشبهات من كلّ شىءٍ من العلوم بغير يقينٍ بها، ومن الأعمالِ بغير فقه فيها. وفى خبر موسى عليه السلام: وأمّا الورعونَ فإنّه لا يبقى أحدٌ إلا ناقشته بالحساب، وفتشته عمّا فى يديه، إلا الورعين فإنى أستحييهم وأجلُّهم أن أُوقفهم للحساب.

فالورعُ حالٌ من الخوف، ثم كفُّ الجوارح عن الشبهات وفضولِ الحلال من كلّ شىء؛ بخشوع قلب، ووجود إخبات. وقال علىٌّ كرّم الله وجهه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشّهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرَّمات.

ثم سَجْنُ اللسان، وخَزْنُ الكلامِ أن لا يُدخِلَ فى دين الله عزّ وجلّ ولا فى

العلم ما لم يَشْرَعْه الله تعالى فى كتابه، أو لم يذكرْه رسوله ﷺ فى سنته، أو لم ينطق به الأئمةُ من السلف فى سِيَرِهم ممّا لم يكن أصلُه موجودًا فى الكتاب والسنة، وتسميتُه واضحة فى العلم، فيجتنب ذلك كله ولا يَقْفُ ما ليس له به علم خوفًا من المساءلة عنه، ولا يُدخِلُ فيه لدقيقِ هوًى يَدْخلُ عليه، ولا لعظيمِ حظّ دنيا يَدْخل فيه.

وأن ينصح نفسَه لله تعالى؛ لأنه أوْلى الخلق، ثم ينصح الخلقَ فى الله تعالى، فيبتدئ بالنصح فى أمور الدين والآخرة، ثم يَعْقُبه فى أسباب الدنيا، لأنّ أمورَ الدِّينِ والآخرة أهمُّ، والغشُّ فى الدين أعظم، والتزوّد للمنقلَب آثرُ.

رُوينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ غشَّ أمتى فعليه لعنةُ الله. قيل: وما غشُّ أمّتك يا رسول الله؟ قال: أن يبتدعَ لهم بِدعة فيُتبع عليها؛ فإذا فعل ذلك فقد غشّهم».

وثمرةُ الخوفِ العلمُ بالله عزّ وجلّ؛ والحياءُ من الله عزّ وجلّ، وهو أعلى مَثوبات[١] أهلِ المَزيد. يستبينُ أحكامُ ذلك بِمَعْنيين[٢]؛ هما: جملةُ العبد أن يحفظ رأسَه وما حواهُ من السمعِ والبصر واللسان، وأن يحفظ بطنَه وما وعَاهُ، وهو: القلبُ، والفرجُ، واليدُ، والرِّجْلُ. وهذا خوف العموم وهو أول الحياء.

فأمّا خوفُ الخصوص: فهو أن لا يجمع ما لا يأكل، ولا يبنى ما لا يسكن، ولا يُكاثر فيما عنه ينتقل، ولا يغفُل ولا يفرِّط عمّا إليه يرتحل. وهذا هو الزهد، وهو حياءُ مزيدِ أهل الحياء من مُقَرَّبى المؤمنين[٣]. وقد جاء معنى ما ذكرناه فى حديثين؛ أحدهما عامّ، والآخر خاصّ.

وكلُّ مَن لم يستعمل قلبَه فى بدايتِه، ويجعل الخوفَ حشْوَ إرادتِه، لم يُنجبْ فى خاتمته، ولم يكن إمامًا للمتقين عند علوّ معرفته.

---

(١) فى (ط): «سريرات» وأثبت ما فى (ك) و(خ).

(٢) فى (ط): «فى معنيين»، وفى (ك) «من معنيين» وأثبت ما فى (خ).

(٣) فى (ط): «من تقوى أصحاب اليمين» وأثبت ما فى (خ) و(ك).

وأعلى الخوفِ أن يكون قلبُه مُعلَّقًا بخوف الخاتمة، لا يَسْكُن إلى عِلْمٍ ولا عملٍ، ولا يقطع على النّجاة بشيءٍ من العلوم وإن علَت، ولا بِسببِ من الأعمال[1] وإن جلَّت، لعدم علمه بتحقيق الخواتم، فقد قيل: «إنّما يُوزن من الأعمالِ خواتيمُها».

وعن النبي ﷺ: «إن العبدَ لَيعملُ بعملِ أهلِ الجَنّة خمسينَ سنة، حتى يقال إنّه من أهلِ الجنة ـ وفي خبر: حتّى ما يبقى بينَهُ وبينَ الجَنَّةِ إلا شبرٌ ـ ثمّ يَسبق عليه الكتابُ فيُخْتَم له بعملِ أهلِ النّار». ولا يتأتّى في هذا المقدار من الوقت شيءٌ من عمل الجسم بالجوارح، إنّما هو من أعمال القلوب بمشاهدة العقول، وهو شِرْك التوحيد الذي لم يكن متحققًا به، وشكٌّ في اليقينِ الذي لم يكن في الحياة الدنيا مشاهدًا له. فظهر له بيان ذلك عند كشفِ الغطاء، فغلبَ عليه وصفه، وبدت فيه حاله، كما يظهَرُ له أعماله السّيئة فيستَحْلِيها قلبه، أو ينطق بها لسانه، أو يخامرُها وَجْدُه، فتكون هي خاتمتُه التي تخرج عليها رُوحُه، وذلك في سابقته التي سبقت له من الكتاب، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ٣٧]، تكون عند مفارقة الرّوح من الجسد ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

وقد جاء في خبر: «حتى لا يبقى بينه وبين الجَنَّة إلا فُوَاقَ ناقة، فيُختم له بعملِ أهل النار». وهذا يكون عند بلوغ الروح التّراقي، وتكون النفسُ قد خرجت من جميع الجسد، واجتمعت في القلب إلى الحلقوم، فهذا هو «شِبر». و«فُواقُ ناقةٍ»: هو ما بين الحَلْبتين. وقيل: هو شَوْط من عَدْوها بَين سَيْرَيْن.

وهذا من تقلُّبات القلوب عند حقيقةِ وِجْهة التوحيد إلى وِجْهة الضّلال والشّك[2] عندما يبدو له من زوال عقل الدّنيا وذَهاب عِلم المعقولِ، فيبدُو له من الله ما لم يكن يَحْتسب.

---

(١) في (ط): «ولا لسبب من أعماله» وأثبت ما في (ك) و(خ).

(٢) في (ك) و (ط): «والشرك» وأثبت ما في (خ).

وأكثرُ ما يقع سوءُ الخاتمة لثلاث طوائفَ من الناس:

[الطائفة الأولى]: أهل البِدع والزّيغ فى الدِّين، لأنّ إيمانهم مرتبطٌ بالمعقول، فأوّلُ آية تظهر لهم من قدرةِ الله تعالى أن يَطيح عقلُه عند شهودها، فيذهب إيمانُه ولا يثبتُ لمعاينتها، كما تحترق الفتيلة فيسقط المصباح.

والطائفة الثانية: أهلُ الكِبر والإنكار لآيات الله عزّ وجلّ، وكراماته لأوليائه فى الحياة الدنيا؛ لأنّهم لم يكن لهم يقين يحملُ القدرةَ، ويمدُّه الإيمان، فَيَعْتَوِرهُم الشّكُّ ويقوى عليهم لفقدِ اليقين.

والطائفة الثالثة ، ثلاثةُ أصناف: متفرقون متفاوتون فى سوء الخاتمة، وجميعُهُم دون تَيْنك الطائفتَيْن فى سُوء الخاتّمةِ. لأنّ سوءَ الختم على مقامات أيضًا كمقامات اليقينِ والشِّرك فى عمر الحياة، منهم: المدِّعى المتظاهر الذى لمْ يزَل إلى نفسه وعمله ناظرًا، والفاسقُ المعلِن والمصرُّ المدمن، تتّصل بهم المعاصى إلى آخر العمر، ويدوم تقلُّبهم فيها إلى كَشْف الغِطاء، فإذا رأوا الآيات تابوا إلى الله تعالى بقُلوبهم، وقد انقطعت أعمال الجوارح، فليس يتأتّى منهم؛ فلا تُقبل تَوْبتُهم، ولا تُقال عَثْرتُهم، ولا تُرحَم عَبرتُهم، وهم من أهل هذه الآية: ﴿**ولَيْسَت التَّوْبَةُ لِلَّذينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حتَّى إذا حَضَرَ أحدَهُمُ الموتُ قالَ إنِّى تُبْتَ الآنَ**﴾ [النساء:١٨]، وهم مقصودون بقوله عزّ وجلّ: ﴿**وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ**﴾ [سبأ:٥٤]، وهم معنيّون بمعنى قوله تعالى: ﴿**فلَمَّا رَأَوْا بَأسَنا قَالُوا آمَنَّا بالله وَحْدَه**﴾ [غافر:٨٤]، فنصوص الآية للكفّار، ومعناها ومقامٌ منها لأهل الكبائر وذَوِى الإصرار من الفاسقين الزّائغين، من حيثُ اشتركوا فى سُوء الخاتمة. ثم تفاوتوا فى مقامات منها تُظهر لهم شهواتِ معاصيهم، ويعاد عليهم تذكُّرها لخلوِّ قلبهم من الذّكر والخوفِ، حتى يُختم لهم بشهادتها. فهذه الأسباب تجلبُ الخوف، وتقطع قلوب ذوى الألباب.

وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول: المريدُ يخافُ أن يُبتلَى بالمعاصى، والعارفُ يخاف أن يُبتلَى بالكفر. وكذلك قال أبو يزيد رحمه الله تعالى قبلَه: إذا

توجّهتُ إلى المسجد كان فى وسطى زُنّار[١]، أخاف أن يُذهَب بى إلى البِيَعة وبيت النار، حتى أدخل المسجدَ فيُقطع عنى الزُّنّار، فهذا لى فى كلّ يومٍ خمس مرات[٢].

هذا لعلمهم بسرعة تقلُّب القلوب فى قدرة علاّم الغيوب.

وقد رُوينا معنى ذلك عن عيسى عليه السلام أنّه قال: يا معشر الحواريّين، أنتم تخافون المعاصى، ونحن معشرَ الأنبياءِ نخافُ الكفر.

ورُوينا فى أخبار الأنبياء أن نبيًا شكَا إلى الله تعالى الجوعَ والقَمْلَ والعُرى سنينَ، وكان لباسه الصُّوف. فأوحى الله تعالى إليه: عَبدى، أما رضيتَ أن عَصمتُ قلبَكَ أن تكفر بى حتّى تسألنى الدنيا. فأخذ الترابَ فوضعَهُ على رأسه وقال: بلى قد رضِيتُ يا ربّ، فاعصمنى من الكفر. فلم يَذكر له نعمتَهُ عليه بنبوّته، وعرَّضَه للكفر، وجوّز دخولَه عليه بعدَ النبوّة، فاعترف ذلك النبى عليه السلام بذلك ورضى به واستعصم.

وقد كان عبد الواحد بن زيد[٣]، إمامُ الزّاهدين قبلهُما، يقول: ما صدقَ خائفٌ قطّ ظنّ أنّه لا يدخل النار، وما ظنّ أنّه يدخل النّار إلا خاف أن لا يخرج منها أبدًا.

وقد قال الحسن البَصْرىّ رحمه الله تعالى، إمامُ العلماءِ قَبْلَهم: «يخرجُ من النّار رجل بعد ألف عام، ويا ليتنى ذلك الرجل!»، هذا لشدّة خوفه من الخلود فى الأبديّة. قال: «فبعد أن أُخْرج منها بوقتٍ لا أبالى».

والعدوُّ يدخل على العارفين من طريق الإلحاد فى التّوحيد، والتّشبيه فى اليقين، والوسوسة فى صفات الذات. ويدخل على المريدين من طريق الآفات والشّهوات. من قِبَل أنّ العدو يدخل على كلّ عبد من معنى همِّه، فيشكّكه فى اليقين، كما يُزيِّن له الشّهوات. فلذلك كان خوفُ العارفينَ أعظمَ، فأرواحُ

---

(١) الزّنّار: حزام للنصارى يوضع على الوَسَط. والبيعة: الكنيسة. وبيت النار: متعبد المجوس.

(٢) ما ذكره أبو اليزيد يكاد يكون من شطحاته؛ لأن مثل هذا الخوف قد يفسد اليقين والإيمان بالله، والعياذ بالله، فهو لم يثبت مثل هذا الخوف عن إمام الخائفين وسيد المرسلين ﷺ.

(٣) هو أبو عبيد البصرى، توفى سنة ١٧٧هـ. مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور، ١٥/٢٤٩.

الصدّيقين[١] معلَّقة بالسّابقَة، فإذا سبَق لهم من الكلمة هناك مشاهدتُهم، ومن ثَمَّ فزعُهُم، لا يدرون أسبقَ لهم قدمَ صدق عند ربّهم، فيُختم لهم بمَقْعد صدق، فيكونون ممّن قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]، أو يخافون أن يكونوا قد حقَّت عليهم الكلمة، فيكونون ممّن قال فيهم الرسول ﷺ: «يقول الله سبحانه وتعالى: هؤلاء في النّار ولا أبالي»، فلا ينفعهُم شفاعةُ شافع، ولا ينقذهم من النارِ دافعٌ، كما قال مولاهم الحق: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر:١٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة:١٣]. فهذه الآية ومعناها تخويفٌ لأولى الأبصار.

وقال عالمنا[٢] رحمه الله فى قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة:٤١]: عموم، أى فيما نَهَيْتُ عنه. وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] أى: فى السابقة، وهذا خصوص.

وقد نوَّع بعضُ العارفين خوفَ المؤمنين على مقامَين، فقال: قلوب الأبرار معلّقة بالخاتِمة، يقولون: ليتَ شِعْرى ماذا يُختَم لنا به؟ وقلوب المقرَّبين معلّقة بالسّابقة، يقولون: ليت شعْرى ماذا سبَق لنا منه؟ وهذان المقامان عن مشاهدتَين؛ إحداهما أعلى وأنفذُ من الأخرى لحالين؛ أحدهما: أتمُّ وأكمل، فهذا كما قيل: ذنوبُ المقرَّبين حسناتُ الأبرار. أى ما يرغب فيه الأبرار فهو عندهم فضائل قد زهد فيه المقربون فهو عندهم حجاب.

ومَن حقَّت عليه كلمةُ العذاب، وسبق له من مولاه الختمُ بسوء الاكتساب، لم ينفعه شىءٌ، فهو يعمل فى بطالة لا أجرَ له ولا عاقبةً، من قِبَلِ أنّ سوءَ الخاتمة قد تكون فى وَسط العُمر، فلا يُنتظَر بها آخره يوافق معصيةً تكونُ سببها كعند الخاتمة، إذ هما فى سَبْق العلمِ سواء؛ فالخاتمةُ حينئذٍ فاتحة، والوقتان واحدٌ، فينظر إليه

(١) من (خ) فقط. أما (ك) و(ط) فالعبارة: «فأرواحهم معلقة».
(٢) يقصد «أبا محمد سهل التسترى».

نظرةَ بُعْد، فهو يزدادُ بأعماله بُعدًا[١]، فإذا انقطعت الآجال وانتهت الأعمال تناهى فى الإبعاد فحلَّ فى دار البُعد. وقد روينا فى الخبر: «والله لا يقبلُ اللهُ تعالى من مُبتدعٍ عملاً». إنّه ردّ على الله تعالى سننه فردَّ عليه عمله، كلّما ازداد اجتهادًا ازداد من الله تعالى بعدًا، كما قال الحكيم:

مَنْ غَصَّ دَاوَى بِشُرْبِ الماءِ غَصّتَه فكيفَ يَصنَعُ مَن قَدْ غَصَّ بالماءِ؟

بل كيفَ يصنعُ مَنْ أَقْصاهُ مالكُه؟ فليس يَنفَعُـهُ طِبُّ الأطبّـاءِ

وعن مشاهدةِ هذا المعنى كان خوفُ الحسن البصرى رحمه الله تعالى وحزنُه، لعلمه بأنّه عزّ وجلّ لا يبالى ما فعل، فخاف أن يقع بوصف الجبريّة فى ترك المبالاة، وأن يجعله نكالاً لأصحابه، وموعظةً لأهل طبقته. يقال: إنّه ما ضَحِك أربعين سنة. وكنتَ إذا رأيتَهُ قاعدًا كأنّه أسير قُدِّم ليُضرب عنقه، وإذا تكلم كأنّه يعاين الآخرةَ فيخبرُ عن مشاهدتها، وإذا سكت كأنّ النارَ تَسعَّر بين عينيه. وعُوتب فى شدّة حُزنه فقال: ما يُؤْمِنُنِى أن يكون قد اطّلع علىَّ فى بعض ما يكره فمقتنى، فقال: اذهب فلا غفرتُ لك، فأنا أعمل فى غير معملٍ. فنحن أحقُّ بهذا من الحَسَنِ رحمه الله.

ولكن ليس الخوفُ يكون لكثرةِ الذنوب، فلو كان كذلك لكنّا أكثرَ خوفًا منه؛ إنّما يكون لصفاءِ القلب منها، وشدّة التعظيمِ لله تعالى. وقد بُشّر العلاءُ بن زِياد العدوىّ بالجنّة، وكان من العُبّادِ، فغلّق عليه بابَهُ سبعًا، ولم يذُق طعامًا، وجعل يبكى، ويقول: أنا أنا. . فى قصة طويلة. حتى دخل عليه الحسن فجعل يَعْذُلُه فى شدّة خوفه وكثرة بكائه. وقال: يا أخى من أهل الجنة إن شاء الله تعالى، أقاتلُ نَفْسك؟ فما ظنُّك برجلٍ يَعذُله الحسَنُ فى الخوف؟

وقد كان مَنْ فوقهم من عِلْيَةِ الصّحابة يتمنّون أنّهم لم يُخلَقوا بشرًا، وقد بُشِّروا بالجنّة يقينًا فى غير خبر. من ذلك قول أبى بكر رضى الله عنه: ليتنى مثلُك يا طيرُ، وإنّى لم أُخلق بشرًا. وقول عمر رضى الله عنه: وَدِدت أنّى كنتُ كَبشًا

(١) هذه الجملة والتى قبلها كانتا مقدمتين فى المطبوعة، وأثبت ترتيب (خ).

ذبحني أهلي لضَيْفهم. وأبو ذر رضى الله عنه يقول: وددتُ أنِّى شجرةٌ تُعضَد. وطلحة والزّبير رضى الله عنهما يقولان: وددنا أنّا لم نُخْلَق. وعثمانُ رضى الله عنه يقول: وددت أنّى إذا مت لا أُبعَث. وعائشة رضى الله عنها تقول: وددت أنى كنت نَسْيًا مَنْسيًا. وابن مسعود رضى الله عنه يقول: ليتنى أنِّى أكونُ رمادًا. وفى رواية عنه: ليتنى كنتُ بَعْرَةً، ليتنى لم أك شيئًا. فى طبقة يكثُر عددُهم، ونحن فى ارتكاب الكبائر نُحدِّث نفوسَنا بالدَّرجاتِ العُلى، والقُربِ من سِدْرَةِ المنتهى، ونسينا أن أبانا آدمَ صلوات الله عليه أُخرج من الجَنّة بعد أن دخلها بذنب واحد، ونحن لم نرها بعدُ، فإنّما نضرب فى حديدٍ بارد.

ورُوينا فى خبرٍ: «أنَّ رجلاً من أهل الصُّفَّة استُشْهد، فقالت أمُّه: هنيئًا لك، عصفورٌ من عصافير الجنة، هاجرتَ إلى رسولِ الله ﷺ، وقُتلتَ فى سبيل الله تعالى. فقال النبى ﷺ: وما يدريك؟! فلعلّه كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضرُّه». وفى حديث آخر بمثل هذه القصة: «أنه دخل على بعضِ أصحابه وهو عليل، فسمِع أمّه تقول: هنيئًا لك الجنة. فقال: مَن هذهِ المتألِّية على الله عزّ وجلّ؟ فقال الرجل: هى أمى يا رسول الله. فقال: وما يدريكِ؟! لعلّ فلانًا كان يتكلم بما لا يعنيه، ويَبخل بما لا يُغنيه».

وروينا بمثل معنى هذا أنّ النبى ﷺ صلَّى على طفل منفوس، ففى رواية: أنه سُمع يقول فى دعائه: «اللّهم قِهِ عذابَ القبرِ، وعذابَ جهنّم». وفى رواية ثانية: «أنه سَمِع قائلة تقول: هنيئًا لك، عصفورٌ من عصافير الجنة. فغضِب وقال: «ما يُدريك أنَّه كذلك، والله إنّى رسولُ الله وما أدرى ما يُصنع بى. إن الله عزّ وجلّ خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النارَ وخلق لها أهلاً، لا يُزاد فيهم ولا يُنقص منهم». وقد قاله رسول الله ﷺ فى جنازة عثمانَ بنِ مظعون، وكان من المهاجرين الأُوَل، ولمّا استُشْهِد قالت أم سلمة رضى الله عنها ذلك. وكانت تقول: واللهِ لا أزكِّى أحدًا بعد عثمان رضى الله عنه.

وأعجب من ذلك أنّا روينا عن محمد بن [خَوْلة][1] الحنفيّة رضى الله عنه أنّه

(١) زيادة من (خ).

قال: والله لا أزكّى أحدًا غير رسولِ الله ﷺ، ولا أبى الذى وَلَدنى. قال: فثارت[1] الشّيعة. فأخذ يذكر من فضائل علىّ كرّم الله وجهه ومناقبه.

فهذه المعانى أحرقت قلوبَ الخائفين. ولعلّ ذكرَ البُعدِ فى الإبعاد الذى شيَّب الحبيب القريب، فى قوله ﷺ: «شيَّبتنى هودٌ وأخواتها؛ سورةُ الواقعة، وإذا الشّمس كُوّرت، وعَمّ يتساءلون»؛ لأنّ فى سورة هود ﴿أَلاَ بُعْدًا لثَمُودَ﴾ [الآية:٦٨]، ﴿أَلاَ بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [الآية:٦٠]، ﴿أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [الآية:٩٥]. وفى سورة الواقعة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الآية:٢]، يعنى وقعت السّابقة ممّن سبقت له السّابقة، وحقّت الحاقة لِمن حقّت عليه الحاقة، ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ [الآية:٣] خفضت قومًا فى الآخرة كانوا مرفوعين فى الدنيا، حين ظهرت الحقائقُ وكُشفت عواقبُ الخلائق. وأمّا سورة التكوير، ففيها خواتم المصير، وهى صفة القيامة لمن أيقن، وفيها تُجلّى معانى الغضب لمن عاين آخرِ ذلك: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [الآيات:١٢ ـ ١٤] هذا فصل الخطاب، أى عند تسعير النيران، واقتراب الجنان، حينئذ يتبين للنفس ما أحضرت من شرٍّ يصلح له الجحيم، أو خيرٍ يصلح له النعيم، وتعلم إذ ذاك من أىّ أهل الدارين تكون، وفى أىّ منزلين تحلّ. فكم من قلوب قد تقطّعت حسراتٍ على الإبعاد من الجنان بعد اقترابها؟ وكم من نفوسٍ تصاعدت زفراتِ عن يقينها بمعاينة النيران أنّها تصيبها؟ وكم من أبصارِ ذليلة خاشعةِ لمشاهدةِ الأهوال؟ وكم من عقول طائشة لمعاينة الزّلزال؟

وحُدثنا عن أبى محمد سهلٍ رحمه الله تعالى قال: رأيتُ كأنّى أُدْخلتُ الجَنَّةَ فلقيتُ فيها ثلاثمائةِ نبىٍّ، فسألتهم: ما أخوفَ ما كنتم تخافون فى الدنيا؟ فقالوا لى: سوءُ الخاتمة.

فالخاتمةُ هى من مكر الله تعالى الذى لا يُوصَف ولا يُفطَن له، ولا عليه يُوقَف، ولا نهاية لمكره، لأنّ مشيئته وأحكامه لا غاية لها.

(١) فى (ط): «فتكلمت» وأثبت ما فى (خ).

ومن ذلك الخبر المشهور: «أنّ النبى ﷺ وجبريلَ بكيا خوفًا من الله تعالى. فأوحى الله إليهما: لم تبكيان وقد أمّنْتُكُما؟ فقالا: ومن يأمنُ مكرك؟».

فلولا أنهما عَلِما أن مكرَهُ لا نهاية له، لأنّ حكمه لا غاية له، لم يقولا: ومن يأمن مكْرَك، مع قوله: «قد أمَّنتكما»، ولكان قد انتهى مكرُهُ بقوله، ولكانا قد وقفا على آخر مكره، ولكن خافا من بقيَّة المكرِ الذى هو غيب عنهما، وعَلِما أنّهما لا يقفان على غَيْب الله تعالى، إذ هو علاّم الغيوب، فلا نهاية للعلاّم فى علم، ولا غاية للغُيوب بوصفٍ. فلم يحكم عليهما القول، لعنايته بهما، وفضل نظرِه إليهما، ولأنّهما على مزيدٍ من معرفة الصفات، إذ المكر عن الوصف وإظهار القول لا يقضى على باطن الوصف، فكأنما خافا أن يكون قوله تعالى: «قد أمَّنتكما مكرى» مكرًا منه أيضًا بالقول، على وصفٍ مخصوصٍ عن حكمةٍ قد استأثر بعلمها، يختبر بذلك حالهما، وينظر كيف يعملان، تعبّدًا منه لهما بِهِ، إذِ الابتلاءُ وصفُه من قِبَلِ أن المبتلى اسمُه، فلا يترك مقتضى وصفه لتحقق اسمه، ولا تُبدَّل سنَّته التى قد خلَت فى عباده، كما اختبر خليله عليه السلام لَمَّا هوى به المنجنيق فى الهواء، فقال: حسبى اللهُ ربى. فعارضه جبريل عليه السلام، فقال: ألك حاجة؟ قال: لا. وفاءً بقوله: «حسبى الله» فصدَّق القول بالعمل. فقال الله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى﴾ [النجم:٣٧] أى بقوله: حسبى الله.

ولأنّ الله تعالى لا يدخل تحت الأحكام، ولا يلزمه ما حكم به على الأنام، ولا يُختبر صدقه سبحانه وتعالى، ولا يجوز أن يُوصف بضدّ الصدق، وإن بدَّل الكلم هو بتبديل منه، لأنّ كلامَه قائم به، فله أن يبدِّل به ما شاء، وهو الصّادق فى الكلامين، العادل فى الحكْمَين، الحاكم فى الحالين؛ لأنّه حاكمٌ عليه، ولا حُكْم يلزمه فيه؛ لأنّه قد جاوز العلومَ والعقولَ التى هى أماكن للحدود من الأمر والنهى، وفات الرُّسومَ والمعقولَ التى هى أواسط الأحكام والأقدار.

وفى مشاهدة ما ذكرناه علمٌ دقيق من علوم التوحيد، ومقام رفيعٌ من أحوال التوحيد؛ وبمثل هذا المعنى وصف صفيَّه موسى فى قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه:٦٧] بعد قوله تعالى: ﴿لاَ تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ

وأرَى﴾ [طه:٤٦]. فلم يأمن موسى أن يكون قد أسرَّ عنه فى غيبه، واستثنى(١) فى نفسه سبحانه ما لم يُظهِرْه له فى القول، لمعرفة موسى عليه السلام بخفىّ المكر وباطن الوصف، ولعلمه أنّه لم يُعطِه الحكمَ، إذ هو محكوم عليه مقهور، فخاف خوفًا ثانيًا حتّى أمَّنه أمنًا ثانيًا بحكم ثانٍ، فقال: **﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعلَى﴾** [طه:٦٨]، فاطمأن إلى القائل، ولم يسكن إلى الإظهار الأوّل، لعلمه بسعة علمه أنه هو علام الغُيوب التى لا نهاية لها؛ ولأنّ القولَ أحكام، والحاكم لا تحكم عليه الأحكام، كما لا تَعودُ عليه الأحكامُ، وإنّما تُفصَّل الأحكام من الحاكم العلاّم، ثم تعود على المحكومات أبدًا.

ولأنه جلّت قدرته لا يلزمه ما ألزَم الخلقَ الذين هم تحت الحكم، ولا يدخل تحت معيار العقل والعلم، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا عند من عرفه فأجله وعظَّمه عن معارف مَنْ جَهِله. ومن هذا قول عيسى عليه السلام: **﴿إِنْ كُنتُ قُلتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِى نَفْسِى ولا أَعْلَمُ ما فِى نَفْسِكَ﴾** لما قال له: **﴿أأَنتَ قُلْتَ للنّاسِ اتَّخذُونى وأُمِّىَ إلهَيْنِ منْ دُونِ الله﴾** [المائدة:١١٦]. ومثل هذا قوله فى يوم القيامة: **﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وإِنْ تَغفِرْ لَهُمْ فإِنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾** [المائدة:١١٨]، فجعلهم فى مشيئته لعزّته وحكمته.

ولا يصلح أن يُكْشَف حقيقةُ ما فصّلناه فى كتاب، ولا ينبغى أن يُرسَم ما رمزناه من الخطاب، خشيةَ الإنكار، وكراهةَ تفاوت علم أهل المعقول والمعيار، إلا أن يُسأل عنه من أُقيم فيه وأُريد به من ذوىْ القوّة والأبصار، فيُنقل من قلب إلى قلب، فحينئذ يتلوه شاهدٌ منه، أو يكشفه علاّم الغيوب فى سرائر القلوب بوحى الإلهام، ويقذفه بنور الهدى للإعلام. واللهُ الموفّق مَن شاء مِن العباد لما شاء من الحيطة بشىءٍ من عِلْمه إذا شاءَ بتَولّيه(٢)، وهو الفتّاح العليم، إذا فتح القلبَ علّمه، وإذا نوّرَه باليقين ألهمه.

---

(١) كذا فى (ك)، وفى (خ): «واستأثر لنفسه».

(٢) فى (ط): «الحيطة بالعلم» وأثبت ما فى (ك).

ومن خوف العارفين علمُهُم بأنّ الله تعالى يخوِّف عباده بمَنْ شاءَ مِن عباده الأعلين يجعلهم نكالاً للأدنين، ويخوِّف العموم من خلقه بالتنكيل ببعض الخصوص من عباده، حكمةً له وحُكمًا منه. فعند الخائفينَ فى علمهم أن الله تعالى قد أخرجَ طائفةً من الصّالحين نكالاً خوَّفَ بهم المؤمنين، ونكَّل بِطائفةٍ من الشّهداء خوَّف بهم الصالحين، وأخرج جماعةً من الصّدّيقين خوَّف بهم الشهداء. والله تعالى أعلم بما وراء ذلك. وقد أخرجَ جماعةً من الملائكة وعَظ بهم النبيّين، وخوَّف بهم الملائكة المقرّبين.

فصار من أهلِ كلّ مقام عبرةً لمن دُونهم، وموعظةً لمن فوقَهم، وتخويفًا وتهدُّدًا لأولى الأبصار، وهذا داخل فى بعض تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥]. قال بعض أهل التفسير فى أخبار بلعم بن باعوراء: إنّه أُوتى النبوّةَ. والمشهور أنَّه أُوتى الاسمَ الأكبرَ، فكان سببَ هلاكِه، وهو مقتضى وصفٍ من أوصافه وهو تَرْكُ المبالاةِ بما أظهرَ من العُلوم والأعمال، فلم يسكن عند ذلك أحدٌ من أهل المقامات فى مقام، ولا نظر أحدٌ من أهل الأحوال إلى حال، ولا أمِنَ مكرَ الله تعالى عالمٌ به فى كل حال. كيف وقد سمعوه تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج:٢٨]، فأجْهلُ الناسِ مَن أمِنَ غيرَ مأمونٍ، وأعلَمُهُم مَن خافَ فى الأمنِ، حتّى يخرج من دار الخوف إلى مقام أمين؛ فَهذا خوفٌ لا يقوم له شىءٌ، وكَرْبٌ لا يوازيه مقامٌ ولا عملٌ، لولا أن الله تعالى عدّله بالرجاء لأُخرجَ إلى القنوط، ولولا أنّه روَّحه برَوْحِ الأُنس بحُسن الظّنّ لأُدخل فى الإياس. ولكن إذا كان هو المعدِّل وهو المروِّح، كيف لا يعتدلُ الخوف والرّجاءُ؟ [ولِمَ][1] لا يمتزج الكربُ بالرَّوح؟

والرِّضا حكمةٌ بالغة، وحُكمٌ نافذٌ لعلمٍ سابقٍ وقَدَرٍ جارٍ، ما شاء الله لا قوّة إلا بالله[2].

---

(١) زيادة من (خ).

(٢) فى (ك): «بالله العلىّ العظيم».

وفي شهودِ ما ذكرناه علمٌ عن مشاهدة توحيد لمن أشهده، فأقلُّ ما يفيد علمُ هذا الخائفين تركُ النّظرِ إلى أعمالهم، ورفعُ السّكون إلى علومهم، وصدقُ الافتقار في كل حال، ودوامُ الانقطاع بكل همٍّ، والإزراءُ على النّفس في كل وصف. وهذه مقاماتٌ لقومٍ، فيكون هذا الخوف سببَ نجاتهم من هذه الوقائع، إذ قد جعل الله تعالى التخويف أمَنةً من الأخذ بالمفاجأة، وسببًا للرأفة والرّحمة لمن ألبسه إيّاه، وهو أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [النحل: ٤٥]، ثم قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٧].

وليس يصلحُ أيضًا أن يُكشف سرُّ المخاوف من الخاتمة والسّابقة، لأن ذلك يكون عن حقائق معاني الصفات التي ظهرتْ عن حقيقة الذات، فأظهرت بدائعَ الأفعال وغرائبَ المآلِ، وأعادت الأحكامَ على مَنْ أظهر بها، وجُعل لها ممّن حقّت عليه الكلمات، وجُعِلَتْ نصيبَهُ من معاني هذه السّريرة من الصفات، فيؤدي ذلك منّا إلى كشف باطن الأوصاف. وهذا غير مأمورٍ به ولا مأذونٍ فيه، لأنه لا يجب فلم يُؤمر به، ولأنّه لم يُبَح فلم يُؤذَن فيه. وهو من سرِّ القدر، وقد نهى عن إفشائه في غير خبر، ولو لم يطّلع الأولياءُ عليه لما قيل: فلا تُفْشوه.

فإن أقام الله تعالى عبدًا مقامَ هذه المشاهدة، أغناه بالمعاينة عن الخبر، وآنسهُ بالمحادثةِ عن الأثر، وذلك هو العلم النافعُ الذي يكون العلاّم معلِّمَهُ، وذلك هو الأثرُ اللازم الذي يكون الجاعل مُؤثره. ومن يتق اللهَ يجعل له مَخْرجًا، ويرزقْهُ من حيثُ لا يَحْتسب. ومن يتوكّل على الله فهو حَسْبُه. فالكَتْبُ الذي لا يُمحى ما كان مِن نوره، والعينُ التي لا تخفى لأنّها بحضوره، والنور الذي لا يُطْفأ لأنّه من رَوْحه، والرّوحُ الذي لا كرب فيه لأنّه من ريحانه، والمددُ الذي لا ينقطع إذ هو من روحه. وقد كتب وأيَّد، وكلُّ كَتْبٍ بيدِ مخلوقٍ فغيرُ محفوظ وقد يضيع، وكلُّ أيدٍ[1] بغير رَوْحه فمقطوعٌ، وما كَتَبهُ الصّانع بصُنعهِ في قلبِ حفيظٍ فمثبَتٌ عتيدٌ.

---

(١) قوله «أيد»: أي تأييد وإمداد.

وقد رُوينا عن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿في لَوْحٍ مَحْفُوظ﴾ [البروج: ٢٢] قال: قلب المؤمن. وقال آخر في قوله: ﴿والبَيْتِ المَعْمُورِ﴾: قلب العارف.

وقال بعض أهل المعرفة: ﴿في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾: قلوب المقرَّبين رُفعت إلى وصف الخالق عن ذِكر المخلوقين، ﴿ويُذْكَرَ فيها اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]: بالتوحيد على تجريدِ الوَحْدانيّة عن شهادة الأحديّة.

وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله تعالى يقول: الصّدر هو الكرسي، والقَلْبُ هو العرش. واللهُ تبارك وتعالى واضعٌ عليه عظمَتَهُ وجلاله، وهو مشهود به بلطفه وقُربه. فصدرُ المؤمن أولُه صمديّة، وآخره روحانية، وأوسطه رُبوبيّة، فهو صمديٌّ روحانيٌّ ربانيٌّ، وقلبه أوله قُدرة، وآخره بِرٌّ، وأوسطه لُطف. فإذا كان كذلك، فهو مشكاة فيها مِصباح يُرى به الزّجاج كأنها كوكبٌ دُريٌّ، يَشهد به الأخْرى، فهو مرآة حِينئذٍ يرى، فيرى به الوجه، ويجده عنده كما يراهُ به من وراء مرآةِ المُشاهدةِ من قلبَ مُوقنٍ بعين يقين.

ولا يحلّ للعلماء أيضًا كشفُ علاماتِ سوءِ الخاتمة فيمن رأوها فيه من العمال، لأنّ لها علاماتٍ جليّةً عند المكاشفين بها، وأدلةً خفيّةً عند العارفين المشرَّف بهم عليها، ولكنها من سرٍّ المعبود في العبد، خبيئةً وخَبْأةً في خزائن النفوس لم يطّلع عليها إلا الأفراد، وقد ستر ذلك وغطّاه بسعةِ رحمته وحلمه وكثيفِ ستره وفضله وسيُخرج ذلك الخبءَ ﴿يَوْمَ تُبلَى السّرائرُ﴾ عند غضبه وعظيم سطوته ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوّةٍ﴾ من عمل ﴿ولا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩ - ١٠] من علم. لا قوّة له فينتصر بها؛ لأنّ النُّصرةَ عزةٌ وهو ذليل، ولا ناصر؛ لأنّ الناصر هو الخاذل، والمقوِّي هو المضعف. فما أسوأ حالَ من لا ينصرُ نفسه، وليست له من مولاه صحبة، ولو صَحِبَهُ لنصرَهُ، ولو نَصرَه لأعزّه، ولو ولِيَهُ لهرَب منه عدوُّه، كما قال: ﴿وينْصُرَكَ اللهُ نَصرًا عزيزًا﴾ [الفتح: ٣]، وقال تعالى: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصرَ أَنْفُسِهِمْ ولاَ هُمْ مِنّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

وقال تعالى فى ذكر مَن كَفاهُ فنصرَهُ، ووَلِيَهُ فآزره: ﴿والله أَعْلَمُ بأَعْدائكم وكَفَى بالله وَليًا وكَفى بالله نَصيرًا﴾ [النساء:٤٥]. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذى يَعْلَمُ السِّرَّ فى السَّموات والأَرْضِ إنّه كانَ غَفُورًا رَّحيمًا﴾ [الفرقان:٦]. فمن حكمته غَفْرُه، ومن رَحْمَته سَتْرُه. وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فى السَّموات وَالأَرْضِ ويَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلنُونَ﴾ [النمل:٢٥]، يوم تُبلى السّرائر بِكَشْفِ الضمائر[1].

فهذه المشاهداتُ تُوجِبُ حقائقَ المخاوفِ لمن كان عارفًا بها، وهى من سرِّ المَلِكِ وخَبْءِ[2] الملكوت.

على أنّ للعبد عند الموت علامات، ليس تَخْفَى على العارف بسوءِ الخاتمة بها، لمشاهدتهِ لها. وللأحياء علاماتٌ عند المكاشفين على الاطلاع يعرفون بها سُوءَ الخاتمةِ منهم. وهذا علمٌ مخصوصٌ به مَن أقيم مقامَ مقاماتِ المكاشفات عن مشاهدة حقيقة من ذات، وهو سرُّ علاّمِ الغيوبِ عند مَن أطلعَهُ عليه مِن أهلِ القُلوب. لأنّ الكشف يتنوَّع أنواعًا من المعانى. فمنه كشف معانى الآخرة، ومنه كشف بواطن الدنيا، ومنه الاطلاع على حقائق الأشياء المستورة بظواهر الأحكام المأثورة. فهذا من سرّ الملكوت، ومن معانى كشوف الجبروت. وقد جاء فى خبر: «القَدَرُ سرُّ الله فلا تُفشوه»؛ فهذا خطاب لمن كُوشف به، وفى خبر آخر: «سترُ الله فلا تكشفوه»؛ فهذا خطاب لمن لم يُكاشَف به، وهذا نهى عن السؤال عنه، وهو داخل فى قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِه عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦] أى: لا تتبع نفسك علم ما لم تُكلَّف، ولا تسأل عمّا لم يُجعل من علمك، ولم يُوكَل إليك. ولأنه إذا عَلِمه لم ينفعه علمه شيئًا، وإنّما ينفعه علمُ الأحكام والأسباب لأنّها طرقات. وبمثل مخاطبة المؤمنين خاطبَ أنبياءه عليهم السّلام فى هذا المعنى، فى قوله تعالى لنوح عليه السلام حين قال: إنّ ابنى من أهلى، وإنّ وعدَك الحقّ، لأنه

---

(١) توجد بعض الزيادات فى هذه الفقرة من (خ).

(٢) فى (ط): «وخباء» وأثبت ما فى (خ) و(ك).

قد كان وعده نجاة أهله، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦]، أى: دعاؤك ومسألتك لى ما لم أجعله من علمك ولم أكِلْه إليك عملٌ غير صالح، فأزجرُكَ أن تكون من الجاهلين بذلك، فعندها استغفر ربه واسترحمه، واستعاذَ به أن يسأله ما ليس من علمه، وما لم يجعل له برسمِهِ[١].

وإن العبد عند موته فى آخر ساعةٍ من عمره يُكشَف له عند كشف الغطاءِ عن بصره أوجهٌ كثيرة قد اتُّخذَت آلهة من دون الله، أو أُشرِك بها مع الله تعالى؛ وكلُّها تزيين وغرور. فإن وقف القلبُ مع أحدها، أو زُيِّن له بعضها فاستهواه، أو قُلِّب قلبه فى شىء فأغواه[٢] عند آخرِ أنفاسه، خُتم له بذلك، فخرجت روحه على الشكِّ أو الشرِّك، وهذا هو سوءُ الختْم[٣] بما سَبَق له من الحُكْم، وَحاق به للقَدَر الحَتْمِ. وهو نصيب العبد من الكتاب فى السّابقة عند خلق الأرواح، معدومةً لها فى الأشباح المُرَافقةِ لها فى الآباد والآزال قبل إظهارِ الأكوار والأدوار، فشَهِدَتْها الأرواحُ هناك غرورًا، ووقفت معها إذ زُوِّرَت لها زَوْرًا رُسومُ القلوب فى التخطيط، قبل خلق الأجسام بها المُحِيطِ، وقبل حجبها بكشف هياكل الصّورةِ عند ظهورها فى المواجِد، وقبل إقامتها بشَواهد العقل لكن بحُكم الأوليّة به لفعل أُبْدِيَتْ، وبمعنى القَيومِيَّة وُجِدَتْ، وبوَصْفِ الجامع جُمِعَتْ، ثمّ فُرّقت ههنا، فظهرت الآنَ عند الفراق لمّا كانت أُشْهِدَت فى التلاق، واعترفت فى الآخر بما كانت نطقت وعَمِلَتْ فى الأوّل. فخرجت الروح على ما شَهِدَتْ، وشَهِدَتْ[٤] هَهنا ما كانت قبلهما أُشْهِدَت، فرجعَتْ بشَهادتها الآنَ إلى المآلِ، إذ قامت اليوم

(١) من قوله «فازجرك» إلى هنا زيادة من (خ). ومن هذا الموضع تكثر زيادات نسخة (خ) زيادة كبيرة ومتعددة يصعب الإشارة إليها فى كل موضع أو وضعها بين معكفات؛ لأنها من صلب النص ومهمة له، ولولا الطمس الذى أصاب هذه النسخة لاعتمدتها كاملة دون الرجوع إلى المطبوعة؛ لأنها جيدة متقنة وبها زيادات مهمة. وانظر ما ذكرته عنها فى المقدمة.

(٢) فى (ط): «فى شىء منها».

(٣) فى (ط): «سوء الخاتمة، وهو نصيب العبد» وما بينهما من (خ).

(٤) من هنا إلى آخر الفقرة من (خ).

بحدٍّ شاهدِها فيما كان. واللهُ غالب على أمرِه ولكن أكثر الناسِ لا يَعْلمون.

فهذا كان خبرَ السَّابقة التى أدركت الأرواحَ المرافقة لها فى الأجسام لمَّا جُمعَتْ عند الخاتمة، فَخرجَتْ[1] ممَّا به وَلجَتْ، ودَرجَتْ فيما عنه خرجَتْ. ومن ذلك جاء فى الأثر: «يأخذُ مَلَكُ الأرحام النّطفةَ فى يده، فيقول: يا ربِّ، أذكرٌ أم أنثى، أسَوِيٌّ أم مُعْوجٌّ، ما رِزقُه، ما عِلمُه، ما أثرُه، ما خُلُقه، ما أجَلُه؟ فيقول الله تعالى ما شاء، ويُطيع المَلَك بقَوْله، ويصورُ اللهُ على يدِه كيف يشاء. فإذا فَرغَ مِن صُورته قال المَلَكُ: يا ربّ، أنفخُ فيه بالسَّعادة أو بالشقاوة؟ فيقول المَلكُ ما شاء، وينفخُ المَلَكُ بما قال». فلذلك خرجت الرُّوحُ بمعنى ما به دَخلَتْ.

﴿فأمَّا إنْ كانَ مِنَ المُقَرَّبينَ * فَرَوْحٌ ورَيْحانٌ وجَنَّةُ نَعيمٍ * وأمَّا إنْ كانَ مِن أَصْحَابِ اليَمينِ * فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أصْحَابِ اليَمينِ﴾ فسلام من كلّ هلاكٍ لسلامته من الإشراك ﴿وأمَّا إنْ كانَ مِنَ المُكذِّبينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَميمٍ * وتَصْلِيَةُ جَحيمٍ * إنَّ هذَا لَهُو حَقُّ اليَقِينِ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩٥].

﴿الحَاقَّةُ * ما الحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٢] إذَا وَقعَتِ الواقِعة بمن حقت عليه الكلمة، وفى جميع ذلك قُدرةٌ وحكمةٌ بالغة.

﴿كما بَدأكُمْ تعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وفَرِيقًا حَقَّ عَلَيهِمُ الضَّلالَة﴾ [الأعراف: ٢٩ - ٣٠].

﴿كمَا بَدَأنَا أوَّلَ خَلْقٍ نُعيدهُ وَعْدًا عَلَيْنا﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿ولو شِئْنا لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداهَا ولَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣].

﴿فَانْتقَمْنا مِنَ الَّذين أجْرَمُوا وكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصرُ المُؤْمنين﴾ [الروم: ٤٧].

﴿إنَّ الَّذينَ سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا الحُسْنَى أُولئكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

﴿إنَّ الَّذينَ حقَّتْ عَلَيهِم كَلِمَةُ ربِّكَ لا يُؤْمنُونَ﴾ [يونس: ٩٦].

---

(١) من هنا وحتى قوله «فهذه آى المخاوف» توجد زيادت كثيرة من (خ) تتخلل الكلام.

﴿ولَقَدْ ذَرَأنا لجهَنَّمَ كَثيرًا منَ الجنِّ والإنْسِ﴾.

ثم وصفهم فقال: ﴿لَهُم قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] عن الله، إلى آخر الآية.

﴿ولَقَدْ كتَبْنَا فى الزَّبُورِ من بَعْدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عِبادىَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] يعنى: أرض الجنة التى وعد الرّحمنُ عبادَه بالغيب.

﴿الحمْدُ لله الَّذى صدَقَنا وَعْدَهُ وأَوْرَثَنا الأرْضَ﴾ الآية [الزمر: ٧٤]، هذا تأويله الذى يؤول بعدَه.

﴿ولَهُم أعْمالٌ مِنْ دُونِ ذَلكَ﴾ [المؤمنون: ٦٣] يعنى: غير التى كانوا عملوها سيعملوها فيما بعد عند آخر العمر.

﴿وبَدا لَهُم مِن اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] عند المعاينة، عملوا أعمالاً حسبوها حسناتٍ فرأوها عند المحاسبة سيئات.

فهذه(١) آىُ المخاوفِ، وهى من المُحكمات، ليس فيها أمرٌ ولا زجرٌ، وردت فى السَّوابق الأُولِ، والخواتم الأُخَر. وجاءت بالخَبر عن قديم الخَبرِ، فيها سرائرُ الغيوبِ، وغرائبُ الفهوم، ومخاوفُ القُلوب، وزواجرُ النّفوسِ، وبصائرُ العقولِ، لمن كانَ له قَلْبٌ. وهى من آى المطَّلِع لأهلِ الإشرافِ على شُرفاتِ العَرْشِ والأعرافِ.

وقد كثُرت الأخبارُ فيمن عَبَدَ اللهَ واجتهد أكثرَ عُمْرِه، ثم أُحْبِط ذلك بعُجْب ساعة، أو بكلمة كِبْر، أو بإزرائه على غَيره. وجاءت الأخبارُ بأعمالٍ تُرفع إلى السّماء، ويُبنى بها الدّرجاتُ العُلى، ثم ينظُر اللهُ تعالى إلى صاحبِها نظرةَ بُعْدٍ، أو يمقُتُهُ، فتَنهدِمُ الدّرجات، وتسقُطُ المنازل(٢).

وقال بعضُ العارفينَ: لو علمتُ أحدًا على التوحيدِ خَمْسينَ سنةً، ثم حالتْ

---

(١) هذه الفقرة والتى بعدها ليس منها فى (ط) سوى سطر واحد، والباقى من (خ).

(٢) إلى هنا ينتهى النقل عن (خ).

بينى وبينه أُسْطوانةٌ، فمات، لم أقطع له بالتّوحيدِ لأنّى لا أدرى ما ظهر من التقليب.

وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول: خوفُ الصدِّيقينَ من سُوء الخاتمة عند كلِّ حركة، وكل خَطْرة وهَمَّة، يخافون البعدَ من الله تعالى، وهم الذين مدح اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وقال: لا يصحّ خوفُه حتى يخافَ من الحسناتِ كما يخاف من السيئات. وقال أيضًا: أعلى الخوفِ أن يخاف سابقَ علمِ الله تعالى فيه، ويحذر أن يكون منه حدثٌ خلافَ السنّةِ يجرهُ إلى الكفر. وقال: خوف التعظيم ميزان خوف السابقة.

وكان بعض العارفين يقول: لو كانت الشّهادة على بابِ الدار، والموتُ على الإسلامِ عند بابِ الحجرة، لاخترتُ الموتَ على الإسلام دون[1] الشهادة. قيل: ولم؟ قال: لأنّى لا أدرى ما يَعْرِض لقلبى من المشاهَدَةِ فيما بين بابِ الحجرةِ وبابِ الدار فيغيره عَن[2] التوحيد.

وروينا عن زُهير بن نعيم البانى قال: ما أكثر همّى ذُنوبى، إنّما أخافُ ما هو أعظم علىَّ من الذنوب؛ وهو أن أُسلَب التوحيدَ وأموتُ على غيرِه.

وروى ابن المبارك عن أبى لُهَيعة عن بكْر بن سَوَادَة قال: كان رجلٌ يعتزل الناسَ أينما كان يكون وحدَه، فجاء أبو الدرداء فقال: أنشدك الله تعالى، ما يحملك على أن تعتزل الناس؟ قال: إنّى أخشى أن أُسلَب دِينى وأنا لا أشعر. قال: أَتَرى فى الحىّ مائةً يخافون ما تخاف؟ فلم يزل يُنقص حتّى بلغ عشرةً. قال: فحَدَّثتُ بذلكَ رَجُلاً من أهْلِ الشّام، فقال: ذلك شُرَحْبِيل بن السِّمط، هو من أصحاب النبى ﷺ.

وقد كان أبو الدرداء يحلفُ بالله تعالى ويقول: «ما أحدٌ أَمِن على إيمانه أن يُسْلَبه عند الموتِ إلا سُلِبَه». وفى بعضها عنه: «أن يُسْلَيه[3] عند الموت». وقال

(١) «الإسلام دون» من (خ). ويعنى بالشهادة الاستشهاد فى سبيل الله.

(٢) فى (ط): «فيغير التوحيد» وأثبت ما فى (ك).

(٣) معنى قوله «يُسليه»: أى ينساه ويذهل عنه. ومن هذا الموضع اعتمدت نص المخطوط (خ).

مرّة: «فما سُلِبه عبدٌ فوجَد له نقدًا». فهذا على أمرين؛ أحدُهُما: أن يخفى ذلك عليه فلا يعلم بسَلْبِ إيمانه؛ لخفيٍّ مكرِ الله به. والثانى: أن يُظْلِمَ قلبُه ويسودَّ لطولِ الغفلة وكثافة الرَّيْن، فلا يُبالى بفقده، إذ قد هيَّأ قلبَه على قِلَّة المبالاة، وتركِ الاكتراث لذلك، فيهون عليه فَقْدُ الإيمان ويسهل، لِمُرودِ قلبه على العصيان، وامْلساسه به.

وقد كان بعض علمائنا يقول: مَن أُعْطى التّوحيد أُعْطِيه بكمالِهِ ومَن مُنِعَهُ مُنِعه بكماله، إذ كان التوحيدُ فى نفسه لا يتبعَّض. ولمّا احتُضِر سفيان الثّورى رضى الله عنه جعل يبكى ويجزع، فقيل له: يا أبا عبد الله، عليك بالرّجاء، فإنّ عفوَ الله أعظمُ من ذنوبك. فقال: وَعلى ذنوبى أبكى. لو علمتُ أنّى أموت على التوحيد لم أبالِ أن ألْقَى الله تعالى بأمثال الجبال من الخطايا. وقال مرّة: ذُنوبى أهونُ من هذه، ورفَع حبَّةً من الأرض، إنّما أخاف أن أُسلَبَ التوحيدَ فى آخر الوقت. وقد كان رحمه الله أحدَ الخائفين، كان يبول الدَّمَ من شدّة الخوف. وكان يَمْرَضُ المرَضَاتِ من المخافة. وعُرِض بولُه على بعض أطبّاء الكتابيّين، فقال: هذا بولُ راهبٍ من الرُّهبان. وكان يلتفت إلى حمّاد بن سَلَمة، فيقول: يا أبا سَلَمة، ترجو لمثلى العَفْوَ، أوْ: يُغفَر لمثلى؟ فيقول له حمّاد: نعم أرجو لك.

وقد كان بعض السَّلَف يقول: لو أنّى أعلمُ أنّه يُختَمُ لى بالسَّعادةِ كان أَحبَّ إلىَّ مِمَّا طَلَعت عليه الشّمس فى حياتى أجعله فى سبيل الله.

وقال بعضُ أهل المعرفة فى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ المَوْتَ والحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُم﴾ [تبارك: ٢]، قال: يَبْلوكُم بتقليب القُلُوب فى حالِ الحياةِ بخواطر الذُّنوب، وفى حال الموتِ بإلحاد عن التّوحيد. فمن خرجت رُوحه على التوحيدِ، وجازت البَلاوِى كلّها إلى المُبلى، فهو المؤمن، وذلك هو البلاء الحسن، كما قال تعالى: ﴿وليُبْلِىَ المُؤْمِنِينَ منهُ بَلاءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧].

وحدثنى بعضُ إخوانى عن بعض الصّادقين، وكان خائفًا: أنّه أوصى بعض إخْوانِهِ، فقال: إذا حضرتنى الوفاةُ فاقعد عند رأسِى، فإذا عاينتُ فانظر إلىَّ، فإن

رأيتنى مِتُّ على التوحيد فاعْمد إلى جميع ما أملكه فاشترِ به لَوْزًا وسُكّرًا وانْثُره على صبيانِ أهل المدينة، وقل: هذا عُرسُ المنفلت الحاذقِ. وإنْ رأيتنى متُّ على غير التوحيد، فأعْلِم النّاسَ: أنِّى متُّ على غير الإسلام، لئلا يغترُّوا بشهود جنازَتى؛ ليحضر جنازتى مَن أحبَّ على بصيرةٍ، لئلا يلحقُنى الرِّياء بعد الوفاة، فأكون قد خدعتهم حيًا وميْتًا. فقلتُ: ومن أين أعلم أنّك قد متَّ على التوحيد؟ قال: ضَعْ إصْبَعكَ فى كفِّى، فإن أمْسكتُها فَشَدَدْتُ عليها، فاعلم أنّى قد متُّ على التوحيد، وإن أَرْسلتُها ونبذتُها، فاعلم أن حالى سيّئة. ففعلتُ ذلك، فقبض على إصْبعى، وشدَّدها، فلم أخْرِجْها من كفِّه إلا بعد مَوْته. قال: فنفَّذتُ وصيّتَهُ كما أمَر، ولم أحدِّث بذلك إلا خُصوصَ إخْوانى من العُلَماء.

وذلك أنَّ العبد مهما عمل فى حياته من سُوءٍ، أُعيد ذكرُهُ عليه عند فِراقِ الحياةِ، وقُلِّب قلبُه فيه، وأُشْهِد وَجْدُه إيّاهُ عند آخر ساعةٍ من وفاته، فإن استحلى ذلك بقلبه، أو استهواهُ نَفْسُه، وَقَفَ معه، وسكنَ إليه. فإذا وقَف معه حُسِبَ عليه، وجُعل عملاً من أعماله إلا أنّه من أعمال القُلُوب فى الوَقْت، وقد تَقَدَّم سَعْيُهُ فيه وهَواهُ قبلَ الوقتِ، وكانَ ذلك سَبَبًا فأتْبعَ سَببًا، وإن قلَّ، فكان هو الخاتمة. وكذلك ما عَمِل من خيرٍ أُعيد عليه، فإن عقدَ عليه بقَلْبه، أو أحبَّ وقفَ معه، فحُسِب عملاً له، وكان ذلك حُسن خاتمته. فسبحان متيحِ الأسبابِ وجاعلِها أبوابًا، ومُقيِّضِ القُرناءِ وجاعِلِهم حجابًا.

وكذلك جاء الخبر فى المجالسين والأصحاب: «أنّ المُحتضِر يُعرَض عليه جُلَساؤه وأصحابُه عند الموتِ، فإن كانوا من أهلِ الخير، معاونِين على البرّ والتقوى، سرَّه ذلك واغْتبط به، وإن كانوا من أهل الشرِّ، ساءه ذلك ويُذمُّ عليه». وجاء ذلك أيضًا فى البرزخ، وهو فى القبر، يُعرض عليه جلساؤه بُكرةً وعشيَّةً، كما ذُكر فى حال القَبْض من أهل الخير والشرّ. وكذلك الأمرُ فى ضدِّ هذا؛ أنّه أيضًا يُعرَض على قَلْبِه عند احتضارِه ما عَمِل من خيرٍ ذُكِّر به وأُشهِدَهُ، حتّى يعتقدَهُ، ويَجدَ بِه، ويموتَ فيه، ويستحليَه بقلبه، ويُباشرَ سرَّه، ويجولَ فيه همُّهُ، فيقفَ مَعه، ويطمئنَّ به، فيُحْسَبُ ذلك عملاً له، وكان هو حُسنَ الخاتمة به.

ولا يأمن العبدُ أن يكونَ سببَ هلاكه سُنّةٌ سنَّها، أو أثَرٌ آثرَهُ في حياته، فيَلْحق به وِزْرُ ذلك أبدًا ما بَقِي مَن يَعْمَل به؛ لأنّه مِن بقيّة آثاره، وأسباب سَمعه. ولذلك كانوا يقولون: طوبى لِمَنْ إذا مات ماتَتْ ذُنوبُهُ معه، فإنّ العبدَ يموتُ وتبقى سيئاتُهُ بعدَهُ مَحْمُولةً عليه ما عُمِل بها، أو بقى أثَرٌ منها.

فعِلْمُ هذه المعانى من الغُيوبِ، وشهادتُها ببصائرِ القُلوبِ مِمَّن سَمِع عِلْمَ اليقين كما رَسَمْناه، أو شهادةَ عِلم اليقين مِن الإيمان بما بيَّنّاهُ، فيه ذكرى لمن كان له قلبٌ مُذكِّرٌ ذاكرٌ بشهادة مَذْكورٍ حاضرٍ، أو ألقى السَّمعَ فتلقَّى المحادثةَ لَمَّا أصغَى إلى السِّرِّ فوَعى، وتَعيَها أُذُنٌ وَاعيةٌ، وهو شهيدٌ حاضرٌ لا يغيب عمّا سَمِع، بل شهد بالحقّ من حيث عَلِمَهُ، إلاَّ مَنْ شَهِدَ بالحقِّ وهُمْ يَعْلَمُونَ. فكذلك وَصْفُ علماء الموُقنين المخْصُوصِينَ بِعِلم اليَقين، مُشاهِدين بعين الحقِّ إلى الحقِّ المبين. فلمّا تقرَّر عِلمُ هذا لشهادتِهِ حكَم بالخوفِ، وكانوا خائفين من سَبْق علم الله فيهم، فَلَمْ ينظرُوا معها إلى محاسنِ أعمالِهم التى أجراها عليهم لحقيقة معرفتهم بربهم. وهذا الخوف يكونُ ثوابَ عمَلِهم، ومَثُوبات عِلمهم بما يعملون، هَداهُم به إلى سبيله الذى لا يعلمون، ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]، فَمَنْ أحسنَ فالله معهُ، وبه أحسنَ الحسناتِ، ومَن أساء فقد تخلَّى منه وخُلِّيَ بَيْنَهُ وبين النّفس الأمَّارة بالسّيئات. ومن جاهَدَ فيه هواهُ وفَّقَهُ لكَشْفِ سبيلهِ إليه وهَدَاهُ. فلمّا سلِمُوا من مطالبةِ ما يعملون، وصحُّوا على العلمِ، أُظْهِر لهم خوفُ عِلْمِ الله فيهم، الذى كان عِلمُهم حجابَهُ، وتركُ عمَلِهم به غَلَّق بابَهُ فانفتح لهم من غَيْبِ الملكوت ما استَتر، فشهِدوا الباطنَ بنُورِهِ غالبًا على ما أمر، ومُسْتَوْليًا بوصْفه على جميع ما أظهر، لأنّه هو الفتّاحُ العليم، إذا فتح البابَ ورفَع الحجابَ علَّمَ، وإن غلَّقَهُ وأسْبَل السِّتْر أبهَمَ، فكان بما فتح وكشف لهم من ذلك نعمةً منه عليهم، عقَدَ لهم به مقامًا منه فى القُرْب، صاروا عنه مقرَّبين، بعد أن كانوا مَيْمنيين، فرُفعوا إلى رَوْحٍ ورَيحانٍ بعد كَوْنهم فى حَرُورٍ ودُخانٍ. وأُمِدُّوا منه برَوْحٍ وحَنانٍ بعد أن كانوا فى سلامةٍ وسلام عن تسليم منه وإسلام.

ودُون هذه المخاوف لأصحاب اليمين خَوفُ الجنايات والاكتساب، وخوفُ الوعيدِ وسوءِ العقاب، وخوفُ التقصير عن الأمر بتسبيب الأسباب، وخوفُ مجاوزة الحدّ، وخوفُ سلبِ المزيد، وخَوْفُ حجابِ اليقظة من القلب بالغفلة، وخوفُ قطعِ اليقين من العقل بالوَسْوسة، وخَوفُ حدوثِ الفَتْرة بعد الشَّره عن المعاملة، وخوفُ ظهور الصِّفَة بعد انتهاء الشّهوات والآفة، وخَوفُ وَهْنِ العَزْمِ بعد القوّةِ من الاستقامة، وخوفُ الفتنِ بعد العصْمة، وخوفُ نَكْث العهد بالخيانة[١]، وخوفُ حلِّ العَقْدِ من الديانة، وخوفُ قلَّةَ الوفاء بترك المفاضلة بالصّفاء، وخوفُ الوقوع فى الفتنة بتسبيب (. . .)[٢] قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر:٢٧]، وخوفُ الشَّهوةِ بعَوْد جَرَى العادة[٣]، وخوفُ الرّجوعِ عن قصد الإرادة، وخوفُ الاعْوجاجِ عن الاستقامة، وخوفُ استذلالِ المهانة بعد الكرامةِ، وخوفُ الحَوَر بعد الكَوَر، وهو الرُّجوع عن المَحجَّة بعد إيقاع الحكم عليه إلى طريق الهوى، وخوفُ اطلاعِ الله عليهم عند ما سَلَف من ذنوبهم، ونظرِه إليهم على قبيح أعمالهم، فيُعْرِض عنهم ويَمْقُتهم.

هذه كلُّها مخاوفُ المريدين، وطرُقاتُ الطالبين، وبعضُها أعلى من بعض، وفيها ما هو أشدُّ من بعض. ويقال: إنَّ العرشَ جوهرة يتلألأ ملِءَ الكونِ، فلا يكون العبدُ على حالٍ من أحوالِهِ إلا انطبعَ مثالُه فى العَرْش على الصّورةِ التى يكون عليها، والصّفة التى يتقلّب فيها، فإذا كان يوم القيامة، ووقف على ربِّه للمحاسبة، كُشِف له صورتُه من العرش، فرأى نفسَه على هيئته التى كان عليها فى وقت معصيته، فذكر فعلَهُ بمشاهدته نفسَه، فيأخذُهُ من الحياءِ والخوفِ ما يَجلُّ عن الوصْف. هذا بعد نشرِ الحسابِ، وشهودِ الكتابِ، مُبالغةً مِن الله فى الحكمةِ والقُدرة.

قال بعضُ العارفين: إنَّ اللهَ سبحانه إذا أعطى عبدًا معرفةً، ثم لم يشكره

(١) فى (ك): «وخوف نكوث العهد بعد التوبة».
(٢) كلمة مطموسة فى الأصل، لم يبق منها شىء.
(٣) فى (ك): «وخوف عودة العادة بالشهوة».

عليها، ولم يحسن معاملته بها، لم يَسْلُبْه إيّاها، بل بقّاها عليه، ليحاسبَهُ على قَدْرِها، ولكن يرفعُ منه البركةَ، ويَقْطعُ عنه المزيد، فَمَثَلُ عَيْشِ هذا فى الدُّنيا كمَثَلِ البخيل الغنىّ؛ يعيش عيشَ الفقراء ويُحاسَب حسابَ الأغنياء، كذلك العالِم يحيى حياةَ الجهّال، ويحاسب غدًا محاسبةَ العلماء. وقد ذَمَّ اللهُ عبدًا أَوجدَهُ نعمةً استعمله بها صالحًا، بعد أن كان قد ابتلاه بهواهُ، ففَخَر الآن بعمله، ونَسِىَ ما قدّمت يداه، ولم يخَفْ أن يعيدَهُ فيما قد كان جَناهُ، فى قوله: ﴿ولَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ليَقُولَنَّ ذَهَب السَّيِّئاتُ عنّى إنّه لَفرِحٌ فَخُورٌ﴾ ثم قال عقيبه: ﴿إلا الَّذينَ صَبَرُوا﴾ يعنى عن السيئات ﴿وعَمِلُوا الصَّالحات﴾ أى فليسوا بوصْفِ هذا، بل ﴿أُولئكَ لهم مَغْفِرةٌ﴾ لذنُوبهم السَّالفة ﴿وأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١٠ ـ ١١] إذ لم يفخروا بأَعْمالهم، فينظروا إليها، فيُدِلُّوا بها، فيُعْرِض عنها، فتحبط وهم لا يشعُرُون. وذلك أن الله تعالى أقام حُبوطَ الأعمالِ والعبدُ لا يشعُر مقامَ ما يُسِرُّه من المكْر الذى لا يعلم به العَبْدُ، فجمع بَيْنَهما، إذ المَمْكُورُ به لا يَشْعُر، كذلك المحبَط عملُه لا يعلم، فقال: ﴿ومَكَرْنا مكْرًا وهُم لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]. كما قال: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُم وأَنْتُم لا تَشْعُرونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وفرَّق بين المكْرِ والفِتْنة، وهى الاختْبارُ بأَسبابِ الأقدارِ، فقال تعالى: ﴿بَل هِىَ فِتْنةٌ ولَكنَّ أَكثَرَهُم لا يَعْلَمُون﴾ [الزمر: ٤٩]، فَدَلَّ أنّ القليلَ الذين يعلمون هُم العالِمُونَ بمعانى الاختيار، وبلاوى الاختبارِ، فما بينهما الاستدراجُ؛ وهو حقيقة المكْرِ، فلا يُفْطَن به منهم، لأنّه جاء بلفظ التّدرُّجِ، وهو مأخوذٌ من الدَّرَج التى يُصْعَد فيها مِرقاةً بعد مِرقاة، فيُسْتَدْرَجُ العبدُ المدرّجُ بتدريجِ النِّعمِ التى بها يَعْصِى درجةً بعد درجةٍ، كى لا يَفْطن. ومن وصْف المُسْتدرَجين قوله: ﴿فلمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا به﴾ ، وكذا ما وُعظُوا به من التّوبة إلى الله تعالى والإقبال عليه، ﴿فَتَحنا عَلَيْهم أَبْوابَ كُلِّ شىء﴾ [الأنعام: ٤٤] مَحْبوبةٍ من النِّعم والعَوافى، تَعْصُونه بها. ﴿وَعَصَيْتُم مِن بَعْد مَا أَرَاكُم ما تُحِبُّونَ﴾ يعنى (. . .)[1] ﴿مِنكم مَن يُرِيدُ الدُّنيا﴾

(١) كلمة مطموسة غير واضحة.

بالآخرة ﴿ومنكُم من يُريدُ الآخرةَ﴾ [آل عمران:١٥٢] بعمل الدنيا. وهو كقوله فى مقام المَخصُوصين مِن المَفْتُونينَ بعد الاستقامَة: ﴿لأسْقَيْناهُم ماءً غدَقًا * لنَفْتنَهُم فيه﴾ [الجن:١٦ ـ ١٧]. ﴿حتَّى إذَا فَرِحُوا بما أُوتُوا﴾ هو التّدريج بالمَدارج التى بها دُرِّجوا من النِّعم قبل الاستقامَة، ﴿أخَذْنَاهُم بغْتَةً﴾ فجاءهُم الأمرُ فجأة أغفلَ ما كانُوا وأسَرَّهُ ﴿فَإذَا هُمْ مُبْلسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]، مُختَبرُون باهتُونَ. قيل: كُلمَّا أحْدثوا ذَنْبًا أحْدثنا لَهُم نِعمةً، وكلّما ذكرُوا شَهوةً أنسيناهمُ التّوبة، حتى أخَذَهُم أخذةً رابيةً فى وَقْتِ فَرَحِهم، فأبْكاهُم بعْد ضَحكهم، إنَّ أخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ.

وأُنْشِدتُ فى بَغْتَاتِ الأمر لأهل الغَفْلَة عن الذِّكر:

لا يَغُرَّنْكَ عِشاءٌ ساكِنٌ ... قَدْ يُوافِى بالمَنِيَّاتِ الفَلَقْ
ضَحِكُوا، والدَّهرُ عنهم صَامتٌ ... ثُمَّ أبْكاهُم دمًا حين نَطَقْ

والاستدراجُ قبل الاستقامة لعموم التّاركين للتذكير، النّاسين للأمر، الآمنين للتّحذير. والتَّفْتِيرُ بعد الاستقامةِ هو للخُصوص، عقوبة الإعْراضِ عن الذِّكْر، والانقطاع بالأسباب عن المذْكُور.

ومِن المخاوف خوفُ النّفاقِ، قد كان السّلفُ الصّالحُ من الصَّحابةِ والتّابعين، رضى الله عنهم، يخافون ذلك النّفاق، ويُشفقون أن يكون فيهم شعبةٌ منه أو دَقيقةٌ من حيث لا يعلمون. هذا لأنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ثلاثٌ مَن كُنّ فيه فهو منافق». وفى حديث عبد الله بن مسعود: «أربَعٌ». ورُويناها: «خَمْسٌ»، من ثلاث أحاديث جمعناها فكانت خمس خصال، مَن كُنَّ فيه فهو منافقٌ خالصٌ، وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم. وفى لفظ آخر: «أربع مَن كُنَّ فقد أُولج النفاقُ من قَرنه إلى قَدَمه، ومن كانت فيه واحدةٌ منهنّ ففيه شعبةٌ من نفاقٍ حتّى يدَعها: مَن إذا حدّث كَذَب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا ائْتُمِن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَر».

ولمّا حضرتْ عمرو بن العاص الوفاةُ قال لبنيه: «أنكحوا فلانًا ابنتى من بعدى، قال: فجعل بعضُنا ينظر إلى بعضٍ تعجُّبًا، إذ لم يكن الرجل كُفْأً لها. فقال: إنّى

كنتُ قد وعدتُه أن أزوّجه ابنتى، وأخاف أن ألقى الله بثلث النِّفاق». وقد كانوا يقولون: الكذِبُ بابٌ منَ النّفاق.

ومن عزائمِ الأخبارِ وشدائدها خبران، وردا بأربعة أخلاقٍ أنها لا تُوجدُ فى مؤمنٍ. أحدهما: قوله ﷺ: «يُجْبَلُ المؤمن على كلّ خُلُق إلاّ الخيانة». وبمعناه: الكذِب مجانبُ الإيمان. وقد يدخل الكذبُ فى الأفعال والأحوال دخولَه فى المقال، وليس يَعْرى من الكذِب اليوم إلا الصِّدّيقون دون الصّادقين. والخبر الآخر: قوله عليه الصلاة والسلام: «خَصْلَتَانِ لا تَجتمعانِ فى مُؤمنٍ: البُخْل وسوء الخُلق». وليس يَعْرَى من البُخل على مذهب أهل المعرفة فى هذا الوقت إلا الأبدال. فقد سُئل بعضُهم عن البخل، فقال: هو أن تتملَّك الشىءَ فتدّعى ملكَه لتمنع الغيرَ عنه أن يأخذَ منك. وقال بعضُ العارفين: البخيلُ من لم يُؤثر بالشىءِ مع الحاجةِ إليه.

فوجودُ بعضِ هذه الأخلاق الدَّنِيَّة، وهى من صِفات النّفس، وجبِلَّة الطبع، وآفاتِ العقل، مُوجبُ الخوفِ من النفاق، فإنّ هذه علامةُ نَقْصِ الإيمان، أو فَقْدِ اليقين، إذ العلاماتُ قد توجد، والدلائلُ فى الحال قد تُشْهد، ويتأخر حُكمُهَا ووقوعُ حقائقِها إلى المآل.

وقد كان حذيفة، رضى الله عنه، يقول: إن كان الرجل ليتكلّم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ يصير بها منافقًا حتى يلقى الله تعالى، وإنِّى لأَسْمعها من أحدكم فى اليوم عشر مراتٍ. وفى لفظ الخبر الآخر: إنّ أحدَكم ليتكلم بها المجلسَ الواحدَ خمس مراتٍ. وكان يقول: المنافقون اليوم أكثرُ منهم على عهد رسول الله ﷺ. ومرّةً يقول: النِّفاق اليوم شرٌّ منْه على عهد النبى ﷺ، كانوا إذْ ذاك يُسِرُّونَهُ، وهم اليوم يُعلنونَهُ.

وهذا كما قال. لأنّ إعلانَ المعاصى والجِهارَ بها أعظمُ من التَّسَتُّر والتَّخفِّى، لأنّها إذا أُسِرَّت لم تضرَّ إلا صاحبَها، وإذا أُعلنَت ضرَّت العامة، ونَكأتْ فى الإسلام، وأوهَنَتْ شأنَ الدِّين. وقد أحْكمنا ذكر هذا المعنى فى مقام التَّوبة.

وكان حُذَيفة يقول: تأتى على القَلْبِ ساعةٌ يمتلئ بالإيمان حتى لا يكون

للنِّفاق فيه مَغرزُ إبرَة. وتأتى عليه ساعةٌ يمتلئ بالنّفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مَغرز إبرةٍ». يعنى بهذا: عند قوّة صفات النّفس بالهوى وامتلائها بالشهوة يَغيبُ الإيمانُ، ويحتجب احتجابَ الشّمسِ تحتَ السّحاب الرُّكام، فيرتفع حكمُهُ من إظهار أحكامه الموجبة لمقتضاهُ من الورَع، أو الزُّهد، أو المراقبة، أو المخافة؛ كما يرتفع حكم شعاع الشمس إذا حُجِبَ بكثيفِ السَّحاب عن الأرضِ، ولا يقع منها ضوءٌ. وعلى هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «لا يزنى الزّانى [حين يزنى] وهو مُؤمن، ولا يسرِقُ السَّارق [حين يَسْرِق] وهو مؤمن، ولا يَشرب الخمر ولا ينتهبُ نَهبةً وهو مُؤمن». وقال فى الخبر الآخر: «إنَّ الإيمانَ كالقميص تَلبَسُهُ أحيانًا، وتَخلعُهُ أحيانًا».

وقد يكون امتلاءُ القلب بالنفاق بدلاً من امتلائه بالإيمان فى وقت وقوع المعصية مقدَّر بعلَّته، لأنّه يَرفع اليقين. وعدمُ اليقين هو مكانٌ لوجود النّفاق، أو فى وقت إنكارِهِ القُدرةَ من قَدرِ الله، وحين تكذيبه آيةً من آياته. فوجودُ ذلك نقصُ الإيمان، وبنقصِ الإيمان دُخولُ النفاق، فإنْ بَغَتَ الموتُ فى هذه الساعة التى يمتلئ القلب فيها نفاقًا حتّى لا يكونَ للإيمانِ فيه مَغْرِزُ إبرةٍ، أليس يكون ذلك خاتِمَتَهُ بالنِّفاق؟ وكذلك إنْ فَجَأه الأَمْرُ بَغْتَةً عند أَحَد الخِصَالِ الخَمْسِ: من الفجور فى خِصامه، والغَدْرِ فى عهده، أو الخيانةِ فى أمانتهِ، أليس ذلكَ يَصِيرُ فى آخرِ عُمْرِهِ من سُوءِ خاتِمَتِه؟

وقد يتخوَّفُ الخصوصُ إذا جُعِلُوا سببًا لبلاء أن يلحقهم منه ذَنْبٌ، وإن لم يكن لهم فيه قَصْدٌ، ولا عليهم منه حُكم؛ من ذلك قولُ مريمَ الصِّدِّيقة: **﴿يا لَيْتَنى متُّ قَبْلَ هذا﴾** [مريم:٢٣]، لمّا جُعلت محنةً للأُمَّة. وعلى ذلك قول عيسى عليه السَّلام، لَمَّا سُئِل الشفاعةَ للأُمَم: إنّى لستُ هناك، إنّى أخاف، لأنّى قد عُبِدتُ من دون الله. ومن ذلك قولُ الله له: **﴿أأنتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخذُونى وأُمِّىَ إلَهَيْن من دُون الله﴾** ، وقد علم أنّه لم يَقُلْهُ، فَلمَّا عرَض له بالقول فزِع، فخاف أن يكونَ قالَهُ، أو أنّ اللهَ يُؤاخذُه به، إذ جعلَهُ سببًا، فقال: **﴿إنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾** [المائدة:١١٦]، فردَّ الغيْبَ والسّريرة إلى حقيقة سابقِ علمه فيه، فلِعِلْمِ العالمين بالله

أنَّ الله يتحكَّم فى خَلْقه كيف شاء من غير سَبَبٍ منهم، لم يأمَنُوا مَكْرَهُ بذلك.

ومن أعْجب ما أُضِيفَ على العبد فعلُه مما لا يفعلُهُ؛ إلا أنَّه أُجْرِىَ عليه وجُعِلَ مكانه فيه، وهذا سرُّ إحدى الروايات فى شأنِ هاروتَ وماروتَ، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمان من أحَدٍ﴾ ، وقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ منهُما ما يُفَرِّقُونَ به﴾ [البقرة:١٠٢]، فهما لا يُعَلِّمانِ السِّحْرَ قَصْدًا، وإنّما تَهيج عليهما ريحُ الاغتلام ممَّا كانا ابْتُليا بها، فيُعاقَبُونَ بهَيَج صفاتِهِم فى وَقْتٍ، فيَذْكُران الاسْمَ، فَيُطفئ عنهم ريحَ الاغتلام، ويَخمد الطَّبع، ويوافق ذلك مجىءُ السَّحَرة، فَيَسْمعون الاسْمَ، وهو يصلح للسِّحْر، فيعلمون به علْمَ السِّحر، فذلك من المَلَكَيْنِ دواءٌ لهما من البلوى، وهو عملُ السَّحَرَةِ من عِلْمِ السِّحْرِ، فهو لَهُم من أعْظَم الأدواء. ولا يمكن كشفُ هذه القِصّة، وإظْهار سَببها، إلا أنّها حكمةٌ من اللهِ عجيبةٌ، وقدرة لطيفةٌ.

وكان أصحابُ رسول الله ﷺ يقولون: «إنكم لَتعْملونَ أعمالاً هى أدقُّ فى أعينكم من الشَّعَرِ، كنّا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر». وفى لَفْظٍ آخر: «مِن المُوبقات». وقد كان الحسَنُ ـ رحمه الله ـ مع فَضْله وعلمه وزهده وورعِهِ، يقول: لو أنِّى أعلمُ أنى برىء من النِّفاق كان أحَبَّ إلىَّ ممَّا طَلَعت عليه الشمس. وقال له قائل: يا أبا سعيد، إنّ ناسًا يقُولُونَ: لا نفاقَ اليومَ، فقال: يا ابن أخى، لَوْ خرج المنافقُونَ مِن هذه المدينة ـ يعنى البصرة ـ لاستَوْحَشْتُم. وقال مرّةً، وقد رُوينا عن غيره أيضًا: لو نَبَتَ للمنافقين أذنابٌ ما قَدَر المؤمنون أن يطأوا على الأرض. وكان يقول: كانوا يعدُّون اختلافَ السِّرِّ والعلانية، واختلافَ الظاهرِ والباطنِ، واختلافَ اللسان والقلب، نِفاقًا. وقال مرّة: كانوا يعدُّون اختلافَ القولِ والعمل، والمدخلِ والمخرجِ، نِفاقًا.

من ذلك أنّ رجلاً قال لابن عمر رضى الله عنهما: إنّا ندخل على هؤلاء الأمراء ونصدِّقهم بما يقولون، ويعلم الله من قلوبنا خلافَ ذلك. أو قال: إنما ندخل عليهم فنمدحهم، فإذا خرجنا تكلّمنا فيهم. قال ابن عمر: كنّا نعدّ هذا نفاقًا على عهد رسولِ الله ﷺ. ورويناه من طريق آخر: أنّه سمِع رجلاً يَسُبُّ

الحجاجَ ويذمُّهُ. فقال له: أرأيْتَ لو كان الحجّاجُ حاضرًا لكُنتَ تتكلّم بما تكلّمتَ به؟ قال: لا. قال ابن عمر: أمّا نحنُ فقد كُنّا نعدُّ هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ.

ولعَمْرى، لقد ثبتَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يكون بعدى أمراءٌ، مَن دخل عليهم، فصدَّقهم بكَذِبِهم، وأعانَهُم على ظُلْمهم، فليس منى ولستُ منه، ولن يَرِدَ عليَّ الحوضَ، ولكن من كَرِهَ وأنكر». قال: وكان نَفَرٌ قعودٌ على باب حذيفةَ ينتظرونَهُ، فجعلوا يتكلمون فى شىء من شأنه، فلمّا خرجَ، سكتُوا حياءً منه. فقال: تكلّموا فيما كنتُم تقولون. فسكتوا. فقال: كنا نعدُّ مثل هذا على عهد رسول الله ﷺ نفاقًا.

وقيل: مَن أَمِنَ النّفاقَ فهو منافقٌ. وجاء رجلٌ إلى حُذيفةَ باكيًا، قال: هلكتُ. قال: ما لَكَ؟ قال: إنّى أخافُ النِّفاقَ. فقال له: لو كُنتَ مُنافقًا لم تَخَفِ النِّفاقَ، إنّ المنافقَ قد أمِنَ النفاقَ.

فجعل خوفَ النفاقِ أمَنةً منه، وحَسَبَ الأمنَ منْه علَمًا لوجودِه منه.

وكان بعضُهم يقول: علامةُ المنافق أن يكره من الناس ما يأتى مثلَهُ. وسُئل وهبٌ: مَن المنافقُ؟ قال: الذى يحبُّ المدحَ ويكرهُ الذّمَّ. وقد رويناه مسندًا من طريق أهل البيت: «من علامةِ المنافقِ أن يحبَّ أن يُحمد فى جميعِ أُمورِهِ».

وقيل: مِن النفاقِ مَن إذا مُدِح بما ليس فيه أعجبَهُ ذلك. ورويناه مسندًا: «من النفاق أن يحبَّ على شىء من الجور، أو يُبغض على شىء من الحق».

وعلاماتُ النّفاقِ أكثرُ من أن تُحصى، هى سبعون علامةً، وكذلك قيل: الرِّياء سبعون بابًا. وفيما ذكرناه بلاغٌ وكفايةٌ لمن يريده، فخاف وحَذِرَ.

ولا يَعْرَى من النِّفاق من المؤمنين إلا طبقاتٌ ثلاثٌ: الصِّدّيقون، والشّهداءُ، والصّالحون. وهؤلاء الذين ضمّهم اللهُ إلى الأنبياء، ووصفَهم بكمالِ النّعمةِ عليهم، وعافاهم من الخِبْرَةِ بالبَلْوى، ووَقاهُم آفةَ الأهواءِ؛ لكمالِ إيمانهم، وصفاءِ يقينهم، وحقيقةِ معرفتهم.

ودَقَائقُ النفاق، وخفايا الشِّرْكِ عن نُقصان التَّوحيد، وضَعْفُ اليقين، وترادُف الشّهوات، وتزايُد العادات، وعن قُوّة النَّفْس، وتظاهر صفاتها، فهذه أوجبت المخَاوِفَ على المؤمنين؛ خَشيةَ مقتِ اللهِ، وخوفَ حُبوطِ الأعمالِ من حيث لا يَشعُرون.

وقد كان ابنُ مسعود رضى الله عنه يقول: إنّ الرجلَ ليَخرجُ من منزله ومعه دينُه، فيرجعُ إلى منزلهِ وليس معه من دينِه شيءٌ. يلقى الرَّجُلَ فيقول: إنّك لذَيْتَ وذَيْتَ، ويلقى الآخرَ فيقول: إنّك لأنتَ وأنتَ، ولعله لا يَخْلى منهم بشيءٍ، وقد أَسْخطَ اللهَ عليه.

يعنى به: التزْكِيةَ بما لا يعلم، والمدحَ لمن يستحقُّ الذّمَّ، لاختلافِ قلبِه ولسانه، وهو المداهَنَةُ، ولاحتلاب أسباب الدنيا، وفيه الحِرْصُ والطمع. ففى هذا مقتٌ من اللهِ، وإعراضٌ. وفيه قَسوةٌ للقَلْب، ومن الخيرِ انقباضٌ.

ومن أعلى المخاوفِ خوفُ سَلْبِ الإيمان الذى هو عندك وديعةٌ فى خزانة المؤمنِ، يُظهره كيف شاء، ويُبديه ويُعيده إلى الغيب متى شاء، ويُخفيه، ذاك من صفةِ المكْرِ، وحُكْمِ الماكِرِ، وكثافة السِّتْرِ، ولُطْف الساترِ. لا يَدْرى، أَهبَةٌ وهبَهُ لكَ، فيُبْقيه عليك، لكرمه وفَضْله؟ أم وديعةٌ عاريةٌ أوْدَعكَ إياهُ، وأعاركَهُ فتأخُذُهُ؟ إذًا لا محالةَ بحِكْمته وعَدْله، وقد أخفى عنك حقيقة ذلك واستأثر بعاقبته.

وكان يحيى يقول: ينبغى أن يَشْغَلَكَ خَوفُ قوتٍ تأكله لا تَدْرى أَحَلالٌ هو أم حرامٌ عن تمنِّى الفُضولِ، وينبغى أن يشغلك خوفُ ذَهابِ الإيمانِ عن تمنِّى درجاتِ الأبدالِ. فإذا لم تُعطَها استَقْلَلْتَ ما قَدْ أُعْطيتَ، وأنتَ قد أُعطيتَ خيرَ شيءٍ فى خزائنِ اللهِ: الإيمانَ به.

ولعمرى إنّ الخوفَ على فَقْدِ الإيمانِ علامةُ الغِبْطَةِ بوجوده.

وقال بعض العارفين: إنّما قُطِع بالقول عند الوُصول. وقال آخرُ: وا خَطراهُ! كما قال أبو الدّرداءُ، وحَلَفَ: «ما أحدٌ أمنَ أن يُسْلَبَ إيمانَه إلا سُلبه». فكذلك الأمرُ فى تقليباتِ القُلوب فى معانى الشِّركِ وتلويحات الشَّكِّ، إن وافق ذلك وقْتَ

الوَفاة كان ذلك خاتمتَهُ؛ لأنّها آخرُ عمله، وآخرُ ساعةٍ من عُمْره. وخاتَمُ الشىء آخِرُهُ، ومن ذلك قوله: ﴿وخَاتَمِ النبيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] أى: آخرُهم، ليس بعده نَبىٌّ. ومثله: ﴿خَاتَمُهُ مسْكٌ﴾[1] و ﴿خِتَامُهُ﴾ [المطففين: ٢٦] أيضًا، أى: آخر الكأسِ، بدلٌ من الثُّقْلِ يكونُ مِسكًا.

ومن المخاوفِ خوفُ قَطع المزيدِ من عِلْمِ الإيمانِ، مع تَبْقِيَةِ المعرفة المبتدأة، يكون مُسْتَدْرَجًا بها، ممنوعًا من المزيد منها، وقد لا يكونُ بها مدرَّجًا، إلا أن توقيفَ المزيد عنه هو لعلّةٍ واقفة من الهَوَى فيه، وقد يُقسِّى قَلْبَهُ، ويُجْدِى عَبَثَهُ. وذلك من النُّقْصانِ الذى يعرفُه أَهلُ التَّمامِ؛ لأنّ عينَ الوجه من المُلْك للدنيا، وعينَ القَلْبِ من الملكوت للآخرة، فيمنعُهُ ما ينفعُهُ عنده، ويعطيه ما يَغُرُّه به، ويَفْتَتِنُ عند الخَلْقِ؛ كمن أُعطى العَصْفَ المأكول.

وقال مجاهد: إنّ الرَّجُلَ لَتبكى عيناهُ وقلبُهُ أَقْسى من الحجر. وقال مالك بن دينار: قرأتُ فى التوراة: إذا استكمل العبدُ النِّفاق مُلِّكَ عينيه، فيبكى متى شاء.

وقد كانوا يستعيذُون بالله من بُكاءِ النِّفاقِ؛ وهو أن يُفْتَح للعَبْد أبوابُ البكاء، ويُغْلَق عنه بابُ الصِّدْقِ والذُّلِّ والخُشوعِ، قال الله سبحانه: ﴿وجَاءُوا أَبَاهُم عشاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦]. وكان السَّلَف أيضًا يقولون: استَعِيذُوا بالله من خُشوعِ النِّفَاقِ. قيل: وما هو؟ قال: أن تبكى العينُ والقَلْبُ قاسٍ.

وحقيقةُ البكاءِ هو بُكاءُ القَلْب؛ الهمُّ اللازمُ، والحزنُ الدائمُ، والوَجْدُ القائمُ، والكَمَدُ الملائم. فَلأَنْ يُعطَى العبدُ ذَرَّةً من بُكاءِ القَلْب، وبكاء العمل أيضًا ـ بحُسنِ المعاملة ودوامِ المجاهدة ـ مع فَقْدِ بُكاءِ العينِ، أحمدُ عاقبةً له من أن يُعْطَى أحمالاً من بُكاءٍ فى عَيْنِه مع قَسْوةِ قَلبٍ.

وفى خبرٍ أن النبى ﷺ «قرأ سورة التكاثر، فبكوا إلا عبد الرحمن. فقال بعضهم: لم يبكِ عبدُ الرحمن. فقال النبى ﷺ: إن لم تَبكِ عَيناه فقد بكَى قلبُه». وفى خبر آخر: قال ﷺ: «إن بُكاء عثمان فى ساقَيْه» يعنى: طول القيام

(١) قراءة الكسائى وحده. انظر: السبعة فى القراءات، ص ٦٧٦. وانظر: القرطبى ١٩/ ٢٦٥.

بحقّ التلاوةِ فى ليل التَّمامِ.

فرِقَّةُ القَلْبِ عند أهل المعرفةِ هو خشوعُهُ وانكسارُهُ وذِلَّتُهُ وإخباتُه، فمن أعطاه هذا فى قلبه لم يضرّه ما منعه من بُكاءِ عينه، وإن رُجح له بفيضِ العينِ فهو فَضلٌ، ومَنْ أعطاهُ بكاءَ عينٍ وحَرَمَهُ خُشوعَ قَلْبٍ وخُضُوعَهُ وإخباتَه، فقد مُكر به، وهذا حقيقته مَنْعٌ. لأنَّا رُوينا فى الأخبار: «إذا كان فى آخر الزمان سكنَتِ الشّياطينُ عيونَ النّاسِ، فلا يريد الباكى أن يَبكى إلا بكى». وقال بعضُ السَّلف: أقربهم دَمْعةً أسرعهم إلى فَخْرة.

وجملةُ بُكاءِ العين إنّما هو فى علم العقل، فأما علمُ التوحيد بمشاهدة القُدْرة فلا بُكاءَ فيه، لأنّه يظهر لشاهد التوحيد وعين اليقين، فيَحْمِلُه القُدرةَ، فيفيضُ[1] الدُّموع بانتشاقِ القُوّةِ، ولا يتصاعد إلى الدِّماغِ، فيعتصرُ رُطوبتَه، ويَسْتنزلُ الدَّمْعَةَ فى مَفيضِها من العينِ.

فإنّما بكاءُ القلبِ من الإيمان والمعرفةِ والفهم والتصديقِ، وبكاءُ العين فى علوم العقل من الدُّموع بتصاعد الحُسُوسِ. أُنشدتُ لبعضهم فى معناه:

إنّ العيــونَ إذَا تَعـذَّرَ صَــوبُها غاضَتْ، فَصارَتْ فى القُلوبِ دماءُ
وكذاك نيرانُ القُلوب إذا الْتَظت حرَّى، نَشَفْنَ من العيـونِ المـاءُ

فعلى هذا المعنى يكون الطبعُ إذا جَمَدَ، ونُورُ القلب إذا وُجِدَ؛ كما يقول:

إنّ النّفوسَ إذَا تلاشى وَصْفُها غاضَتْ فصارَتْ فى الحَشَا أنوارا
وكــذاك أنوارُ القُلُـوبِ إذا عَلَتْ وَجْــدًا طَفَيْنَ من النُّفـوس النّارا

وقد وصف الله الباكين من العلماء فى السُّجود لمزيدِ اليقين بالخشوعِ، فى قوله عزّ وجل: ﴿**وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾ [الإسراء: ١٠٩].

فإذا زاد بالبُكاءِ كِبرًا وَفخرًا ورغبةً فى الدُّنيا وحِرْصًا، علِمنا بذلك عَدَمَ الخشوع من القلب، وكان تَصَنُّعًا وتعجُّبًا وعُجبًا بخفايا آفاتِ النّفوس.

---

(١) كذا فى (خ)، وهى فى (ط): «فيحمله على علم القدرة، فيفيض»، وفى (خ) يمكن أن تقرأ «فيغيض» بالغين.

فأعلى المخاوف خوفُ السَّوابقِ والخواتمِ، كما كان بعض العارفين يقول: ما بكائى وغَمِّى من ذُنوبى وشهواتى؛ لأنّها أخلاقِى وصفاتِى، لا تليق إلا بى، إنّما حزنى وحسرتى كيف كان هذا قِسْمِى منه، ونصيبى حين قَسّم الأَقْسامَ، وفرّقَ العطاء بين العبادِ، فكيف كان قِسْمِى منه البُعْد؟!

فهذا الذى ذكرناه هو جُملُ خوف العلماءِ الذين هم ورثةُ الأنبياء، وهم أبدالُ النبيّين، وأئمةُ المتّقين، أُولو القُوّةِ والتّمكين.

وسُئِل أبو محمّد رحمه الله: هل يُعطِى اللهُ أحدًا من المؤمنين من الخوفِ زِنَةَ مثقالٍ؟ فقال: من المؤمنين من يُعطَى من الخوفِ وَزْنَ جَبَلِ أُحُد. قيل: فكيفَ يكون حالهم؟ يأكُلون وينامون ويَنكحُون؟ قال: نعم يفعلون ذلك، والمشاهدةُ لا تفارقهم، والمأوَى يُظِلُّهم. قيل: فأين الخوفُ؟ قال: يحمله حجابُ القُدرة بلطيف الحِكْمةِ، ويسترُ القلبَ تحت الحجابِ فى التصريف بصفاتِ البشرية، فيكون مَثَلُ هذا العبد مثَل المرسلين.

وهذا كما قال؛ لأنّ شهادة التوحيد بالتصريفِ والحكمة يقيمهُ القيامَ بالأحكامِ، وذلك أن نورَ الإيمانِ فى القلبِ عظيمٌ، لو ظهرَ للقلبِ لأحرقَ الجِسم وما اتَّصلَ به من الملكِ، إلا أنّه مَستورٌ بالفضل، مغطًّى بالعلم، لإيقاعِ الأحكام، وإيجاب التصريف فيها بالقِيامِ، كساهِ فى صلاتِه بسياحة قَلْبه، وتيهه بوَجْده، وحدودُ الصَّلاةِ تجرى على أركانه بعادته من غير قَصْده، فأنوارُ الخوفِ من معانى القُدْرة والصفات؛ لأنّ الأنوارَ محجوبةٌ بالأسماء، والأسماءَ محجوبةٌ بالأفعال، والأفعالَ محتجبةٌ بالحركاتِ، فتظهر الحركةُ بالقُدْرَةِ وهى غَيبٌ مِن ورَائها. كذلك يظهر التصريف بالحكمة عن نورِ الإيمان، وأنوارُ الإيمانِ مستورةٌ من ورَائه، فيعتدل القَلْبُ بمشاهدة الأفعالِ، ويستقيمُ بالقيام عن تجلى وصفِ فاعلٍ بالمعنى الذى (. . .) به قام بالأحكام، فلا يتنافى ذلك ولا يتضادُّ (. . .) بقيوميةِ بجريان الحُكْمِ عليه من الحاكم؛ لأنّ له فى كلٍّ مشاهدةً، بمعنى شهيده، محكومًا عليه، مُتحكِّمًا فيه حكم حاكم لا يتهاوَن مشهودهُ عن شهادَة شاهده، مُنتظمًا على حكمه الأحكام من وصف يليق بمعنى ما ظهر من الشهيد، فيجد ذَلك المعنى الذى أوجده به من

لُطفٍ ورحمةٍ وفَضْلٍ ونعمةٍ وصُنْعٍ وحكمةٍ وأُنْسٍ وقُرْبة. فلا تتفاوَت مشاهدةُ العارفِ إذ أنّه فى كلِّ مشهودٍ يُظْهِر شهادةً؛ بمعنى ما يشهد من فعلٍ أو حركةٍ وصفةٍ، فيجد بكل مَوْجودٍ، بمعنى وجوده الذى أوجد (. . .)[1] الذى لاقَ بما أشهدَهُ منه فلا يتعاظم ذلك عليه ولا يَؤودُه، وقد قال سبحانه: ﴿لو أنْزَلْنا هَذَا القُرآنَ على جَبَلٍ لَرأيتَهُ خَاشعًا مُتصَدِّعًا﴾ [الحشر:٢١]، وقال: ﴿نزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ * على قَلْبكَ﴾ [الشعراء:١٩٣ـ ١٩٤] فثبت له تثبيت شاهدِه على معنى ما أشهدَهُ منه، بما أوجَدَهُ به من الوصف الذى له به تجلّى، غير الوصفِ الذى للجبل به تجلَّى، إذ تَجلِّيه لمحمّد ﷺ على صورته المحمّديّة الآدميّة ليس كتجلِّيه للكرسى الوسيع، ولا للعرشِ الرَّفيع من صفاتِ العظمةِ والجلالِ والقُدْرة، إذ هو سبحانه ذو الجلالِ بالهَيْبةِ والسَّطوةِ والإكرامِ، بالصُّورةِ والصِّفةِ. ولا يصلحُ الزِّيادةُ على هذا لضَعْفِ العقولِ عن الصَّبر عليه.

وقال بعض العارفين: لو كُشِف وجهُ المؤمنِ للخَلْق عند الله تعالى لَعبدُوه من دونِ الله تعالى. ولو ظهر نورُ قلبِه للدنيا لم يثبت له شىءٌ على وَجْهِ الأرضِ.

فسبحانَ من سَتَر القدرةَ ومعانيها بالحكمةِ وأسبابِها حِلْمًا منه ورَحْمةً، وتَطْرِيقًا للخَلْقِ إليه للمنفعةِ.

وفى قراءة أُبيٍّ بن كَعْبٍ: (مثلُ نُورِ المُؤْمِن)[2]، فلولا أنّ نورَه مِن نوره ما استجازَ إبدالَ حرفٍ بغَيْرِ معناه.

وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول: الخوفُ مباينةُ النَّهْى، والخشيةُ الورَعُ،

(١) فى مواضع النقط السابقة طمس بالمخطوط لا يتبين معه الكلام، وهو قدر كلمة أو كلمتين.

(٢) هذه القراءة فى تفسير القرطبى (١٢/ ٢٦٠) فى سورة النور. وفيه: «واختلف المتأوّلون فى عود الضمير فى «نوره» على من يعود. فقال كعب الأحبار، وابن جبير: هو عائد على محمد ﷺ؛ أى: مَثَل نور محمد ﷺ. وقال أُبَىّ بن كعب والضحاك: هو عائد على المؤمنين. وقال الحسن: هو عائد على القرآن والإيمان. وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله: ﴿والأرض﴾. قال ابن عطية: وهذه الأقوال فيها عود الضمير على مَن لم يجرِ له ذكر. وفيها مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثَّل. . .
ونقل الطبرى فيها نقولاً كثيرة فى تأويل هذا الحرف من القرآن، فراجعه ثَمَّ (١٢/ ٢٥٩ ـ ٢٦١).

والإشفاقُ هو الزهدُ. وكان يقول: دخولُ الخوفِ على الجاهلِ يدعُوه إلى العِلمِ، ودخوله على العالم يدعُوه إلى الزهد، ودخولُه على العامِلِ يدعُوه إلى الإخلاص.

فصار الخُوفُ يصلح للكافّة؛ إذ دخولُه على العامِّ يُخرِجُهُ من الحرامِ، ودخولُهُ على الخاصِّ يُدْخِلُه في الورع والزهد[١].

وقال أيضًا: الإخلاصُ فريضةٌ لا تُنال إلا بالخوف، ولا يُنالُ الخوفُ إلا بالزُّهد[٢]. لأنَّ مَن خافَ ترك، فصار الخوف أوَّلَ العبادةِ لأنّه ينبت الإخلاص، وكان ثَمرتُهُ الزّهادة، لأنها تقتضي الخروج من الحرام.

وقال أبو محمد: مَنْ أحبَّ أن يرى خوفَ اللهِ في قَلْبِهِ فلا يأكل إلا حَلالاً. ولا يَصِحّ[٣] علمُ الرَّجاءِ إلا للخائف.

يعني:[٤] ليعتدل شَهَادتاهُ بتَقدمَةِ الخَوْفِ، فيكون بِشهاداته قائمًا، فإخلاءُ قَلْبِهِ من الخَوْفِ وانفرادُهُ بحالِ الرّجاء يُخرجُه إلى الأَمْرِ والاغْترارِ، فدخَل في أعمالِ الهوَى، لفقد حالِ الخوفِ أوَّلاً.

وكان يقول: الخوف ذَكَرٌ، والمحبّةُ أُنثى، ألاَ ترى أنّ أكثر النُّسَّاكِ[٥] يدّعونَ المحبّة.

يريد بهذا أنّ فضلَ الخوفِ على الرّجاء كفضل الذَّكر على الأُنْثى. وهو كما قال؛ لأنّ الخوفَ حالُ العُلماء، والرَّجاءُ وصفُ العمّال، ففضلُهُ عليه كفَضْلِ العِلْمِ على العَمَلِ. وفي الخبر: «فَضْلُ العالِم على العابدِ كفضْلِ القَمر على الكوَاكبِ».

وحَدَّثَ مُصْعبُ بن سعْدٍ عن أبيهِ عن رسول الله ﷺ: «فَضْلٌ من عِلْمٍ أحبُّ

(١) عبارة (ط): «إذ دخوله على العامة يخرجهم من الحرام، ودخوله على الخاصة يدخلهم في الورع والزهد».

(٢) جاءت هذه العبارة في غير موضعها في (ط)، وأثبتها كما في (خ).

(٣) في (ط): «ولا يصلح» وأثبت ما في (خ).

(٤) من أول هنا إلى آخر الفقرة ساقط من المطبوعة، وهو من (خ).

(٥) في (ط) و(هـ): «النّساء» وأرجح أنها خطأ لأن الفعل جاء بعدها «يدعون»، ولو كان اللفظ «النساء» لقال: يدّعين. وأثبت ما في (خ).

إليَّ مِن فَضْلٍ مِن عَمَلٍ. وخيرُ دينِكم الورعُ». فالورعُ بابٌ من الخوفِ؛ لأنه يكون عن معناه[(١)].

وكان الحسن يقول: ما عُبِدَ اللهُ بشيء أفضل من طُولِ الحُزنِ والخوفِ. وقال بعضُ السّلف: حَسْبُك من الخوفِ اجتنابُ المعاصي. وكان الثّوريّ يقول: ما أحبُّ أني عَرَفْتُ الأمرَ حَقَّ معرفتِه، إذًا لطاش عَقْلي.

فالخوف عند العلماء على غير ما تصوَّر في أوهام العُموم[(٢)]، وبخلاف ما يعدُّونه من القلق والاحتراقِ أو الولَه والانزعاج؛ لأنّ هذه خطراتٌ ومواجيدُ وأحوالٌ للوَالِهين، وليست من حقيقةِ العلم في شيءٍ، بمنزلة مواجيدِ بعضِ الصوفية من أهلِ المعرفةِ الصَّادِقين[(٣)] في أحوال المحبّةِ من احْتراقِهم ووَلَهِهم.

والخوفُ عند العلماء إنما هو اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة. فإذا أُعطى عبدٌ حقيقةَ العلمِ، وصِدْقَ اليقين، سُمِّي هذا خائفًا.

فلذلك كان النبيُّ ﷺ من أخوفِ الخلق؛ لأنّه كان على حقيقةِ العِلْم، ومن أشدِّهم حبًا لله تعالى؛ لأنه كان في نهاية القُرب، وقد كان حاله السكينةَ والوقارَ في المقامين معًا، والتمكينَ والتثبيتَ في الأحوال كلها. ولم يكن حالُه[(٤)] القَلَق والانزعاج، ولا الولَه [والقوَة][(٥)] والاستهتار. قد أُعطى ﷺ أضعافَ عقولِ الخليقة، وأُوقِف على يمينٍ من الحقيقةِ، وبانت له كلُّ دقيقة، فألْبَس أحوال الخَلْقِ وعلومَهُم، ووسّع قلبه لهم، وشرَحَ صدرَه للصبر عليهم، فكان ﷺ مع الأعرابي كأنّه أعرابي، ومع الصّبي بمعناه، ومع المرأة في نحوها، يقاربُهم في علومهم، ويخاطبهم بعقولهم، ويَظْهَرُ منه مثلُ وَجْدهم؛ ليعطيَهُم نصيبَهُم من الأُنس به، ويوفِّيهم حقوقَهُم من الدَّرَك منه، ولئلا تَعْظُم هيبتُهُ في صدورِهم فينقطعون عن

---

(١) هذه الفقرة والتي بعدها زيادة من (خ).

(٢) في (ط): «العامّة».

(٣) في (ط): «من العارفين».

(٤) في (ط): «وصفه».

(٥) زيادة من (خ).

السؤال له، والأُنسِ به، حكمةً منه لا يفطنُون لها، ورحمةً منه قد جُبل عليها؛ قد أُلبسِ مواجيدَهم لِبسةً، وأُدخل ذلك عليه صِبغةً بغير تكلُّف ولا تصنُّع. ذلك تعليم(١) الحكيم العليم. فلذلك وصفه عزّ وجلّ بخُلقه، وتعجب من وصفه، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] قيل: على أخلاق الربوبية. وقُرئت بالإضافة إلى عظيم، فيكون العظيم اسم الله سبحانه.

على أنّ لَه ـ كما ذكرنا آنفًا ـ من وصف العارف من كل مشاهدة وجْدًا، وبكل موجود مشاهدةً، بمعناه من معانى (. . .) ليعتدل حاله، ويتمَّ وجدُهُ وشهادتُهُ. وكذلك الا (. . .)(٢) تبعنَاهُ على ما ذكرناه، ثم الصدّيقون من العلماء [الذين هم] أمثالُ الأنبياء والأبدالِ منهم، لا يُظهر أحدهم من حاله ونصيبه شيئًا؛ لقوّة التمكين، وفَضْلِ العقل. ولا يبخسُ من نصيب الخَلْقِ منه شيئًا؛ لحقيقة الحكمة والعَدْل، ولا يتظاهر أحدهم بشىءٍ؛ لتحقُّقه بالزُّهدِ والتّواضع والفضل، ولا يظهر عليه شىءٌ؛ لمكانه من القوةِ ورسوخِ العِلم وثُبُوتِ الحكمة. هم كما يَظْهرون به، ومن وراء ما يُظْهِرُون. هذه سنّة الأولياء العارفين، ومنهاجُ الأصفياء المُمكّنين من أهل البلاءِ الذين هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء.

وقال بعض الحكماء: ما أَلْبس اللهُ عَبْدًا لِبسةً أحسَنَ من خشوعٍ فى سكينة، هى لِبسةُ النبيين، وحِليةُ الصِّدِّيقين. وكان بعض أهل المعرفة يقول: مَن طالبَ الخَلق بعلمه، وخاطبهم بعقله، فقد بخَسَهُم حقوقَهم منه، ولم يقُم بحقٍّ الله فيهم. وقال بعض العلماء: لا يكونُ إمامًا من حدَّث الناس بكل علمه، وأظهر لهم نصيبه. وكان يحيى بن معاذ يقول: لا تُخْرج أحدًا من طريقِه، ولا تخاطبه بغير عِلْمِه، فتتعب ولا ينتفع. ولكن اغرِف له من نهرِه، واسْقه بكأسه.

وسُئل بعض العلماء عن العارف، هل يستوحشُ من الخلق؟ قال: لا يستوحش ولكن قد يكون نفورًا. قيل: فهل يُسْتَوحَشُ مِنه؟ قال: العارف لا يُسْتوحش منه، ولكن قد يُهاب.

---

(١) فى (ط): «تعلم ذلك من».

(٢) فى هذا الموضع والذى قبله طمس بالأصل بمقدار كلمة أو بعض كلمة.

وممّا يدلُّك أن الخوفَ اسمٌ لحقيقة العلم بالله، أن فى إحدى القراءتين من قراءة أُبىٍّ بن كعب، أو عبد الله، فى معنى قوله: ﴿فَخَشينا أن يُرْهقَهُما﴾ [الكهف: ٨٠]: (فَخَاف ربُّكَ أنْ يُرهقهما)(١). قال الفَرَّاء: معناه: فعلم ربُّك. وقال: الخوفُ والظَّنُّ يُذهَب بهما مذهب العِلْمِ.

ومن معنى هذا أيضًا سُمِّى الحياءُ بمعنى الخشية وهى الخوف، فجعل الحياء اسمَ الخشية، ولذلك قُرِئَ هذا الحرفُ: (إنَّما يَخْشَى اللهُ مِن عبادهِ العُلماءَ) سمعتُه من بَعْضِ العلماء بالقرآنِ والفَسْرِ(٢)، فقال: إنما معناه: إنما يستحى اللهُ من العلماء من عبادِهِ؛ لأن الله سبحانه حَيِىٌّ كريم، يقابل الحياءَ لَهُ بالحياءِ منه، كرمًا وفَضْلاً.

وكذلك فَسَّروا قوله عز وجَلّ: ﴿وتَخْشَى النَّاسَ﴾ [الأحزاب:٣٧] بمعنى تَسْتَحْيِيهم كقوله فى المفسَّر: ﴿فيَسْتَحْيِى منكُمْ﴾ [الأحزاب:٥٣] لأنّ رسول الله ﷺ لم يكن يخاف الناس فى الله، كيف وقد أخبر الله تعالى عن الرُّسلِ بترك خشية الخَلْقِ، وتوحيد الخوفِ له فى قوله: ﴿الَّذينَ يُبلِّغُونَ رِسَالات الله ويَخْشَوْنَهُ ولا يَخْشَوْنَ أحَدًا إلاَّ الله﴾ [الأحزاب:٣٩] فقد دخَل فيهم، وهو أعْلاهُم.

• بيان آخر فى معنى الخوف:

والخوفُ أيضًا من أسماء المعانى، فوجُودُه بانتفاء ضدِّه. فإذا عُدم مِن القلب الأمنُ من كلّ وجهٍ من أحوالِ الدنيا وأمورِ الآخرة، فلم يأمن مكرَ الله تعالى فى كلِّ الأحوال، فى تصريفِ أحكام الدنيا، وتقليبِ حركات القلوبِ والنُّفوس، وجواذبِ الشّهوات، وإثارة طبائعِ العادات، ولم يَسْكن إلى عُرْف ولا اعتياد، ولا يقطع بسلامته وبراءته فى شىءٍ، كان هذا خوفًا، وسُمِّى العبدُ بفقدِ الأمنِ من جميعِ ذلك خائفًا.

---

(١) القراءة لأبى بن كعب، وهى فى: معانى القرآن، للفرّاء، ٢/ ١٥٧.

(٢) يقصد الآية ٢٨ من سورة فاطر. وهذه القراءة نسبها الزمخشرى إلى عمر بن عبد العزيز وأبى حنيفة، وقال: «الخشيةُ فى هذه القراءة استعارة، والمعنى: إنما يجلُّهم ويُعظِّمهم...». انظر: الكشاف ٣/ ٦١١، والقرطبى ١٤/ ٣٤٤. والفسر: علم التفسير.

فهذا مستعملٌ فاشٍ فى كلام العرب ومذهبهم. يقول أحدهم: أخاف من كذا؛ إذا لم يأمنه. أو: أخاف أن يكون ذا؛ إذا تحقَّقَ علْمَه.

وقيل لبعض العلماء: ما بال العارفِ يخاف فى كلّ حال؟ فقال: لعلمه أن الله تعالى قد يأخذ فى جميع الأحوال، فكذلك لا يأمن فى حالٍ ولا يسكُن إلى حالٍ[١].

ثم إن للخائفين بعد هذا طُرقًا وَوَجهًا من قِبَلِ الخوف المقْلق، والإشفاق المزعج، والوَجَل المحرق[٢]: هى مُجاورَاتٌ للطُّرق السَّابلة[٣]، التى هى محاجُّ للأئمةِ المختارةِ الفاضلة، وفيها مَتاوهُ ومَهالكُ تنكَّب[٤] عنها العلماءُ السّادة والصفوةُ المختارة. إلا أنه قد سُلك ببعض الزهّاد والعُبّاد فيها، وأُريد بعضُ العارفين بها، ليستْ بِمُفضَّلَة، كلُّ ذلك عند العلماء ولا بمُتَنافَسٍ فيها مَغْبوطٍ عليها عند العارفين؛ لأنّها قد تُخرج من طرقاتِ المسالكِ إلى مَفاوِز المهالكً. وإنّما أُريد ببعضهم التعريفُ لها، والاطّلاعُ عليها. ومنهم من أُريد منه التّيه والولَه فيها، إلا أنّها أَشْهر فى أسماعِ العامة، وأَعجب وأهولُ عند العُموم.

• ذكر تفصيل هذه المخاوف:

اعلم أنّ للخوف سبعَ مفائضَ تفيض إليها من القلب، فإلى أىِّ مفيضٍ فاض من القلب إليه أتلف صاحبَهُ به، إلا ما يستثنيه.

قد يفيض الخوفُ من القلبِ إلى المرارةِ وهى أرقّ صفاتِ الأَدَمة، وهى باطن البَشَرة، فيحرقها، فيُقتل العبدُ، وهؤلاء هم الذين يموتون من الغَشْى والصَّعْق وبدَاوَتِ الوَجْد، وهم ضُعفاء العمّال.

وقد يطير الخوفُ من القلب إلى الدِّماغ، فيُحرق العقلَ، فيتيه العبدُ، فيذهب الحال، ويسقط المقام.

---

(١) من قوله «فكذلك» إلى هنا ساقط من المطبوعة، وهو من (خ).

(٢) فى (خ): «الإزعاج المحرق والإشفاق الموله».

(٣) السّابلة: الطريق المسلوك.

(٤) فى (ط): «نقلت» وأثبت ما فى (خ).

وقد يَحُلُّ الخوفُ السَّحْرَ، وهو الرئة، فيَنْقبُها، فيذهَب الأكلُ والشُّرب، حتى يَسِلَّ الجسمُ، وينشف الدم، وهذا لأهلِ الجُوعِ والطيِّ والاصْفرار.

وقد يسكن الخوفُ الكبدَ، فيُورث الكَمَدَ اللازمَ والحزْنَ الدَّائم، ويُحدث الفكرَ الطويلَ والسَّهر الذّاهبَ. وفى هذا المقام يذهب النومُ، ويدومُ السّهر، وهذا من أفضلها. وفى هذا الخوف العِلمُ والمشاهدَةُ، وهو من خوفِ العاملين.

وقد يقدحُ الخوفُ فى الفرائص. والفريصةُ: هى اللحمةُ التى تكون على الكَتِف، يقال للحْمَتَى الكتفين: الفرِيصتان؛ وجَمْعها: الفرائص. ومنه الخبر: «أن رسول الله ﷺ كان يعجبُه الفريصتانِ من اللحم»، وهو أرقُّ لحم الحيوان وأعذبُه. فمن هذا الخوف يكون الاضطرابُ والارتعاشُ واختلافُ الحركةِ.

وقد يبدو الخوفُ من القلب، فيغشى العقلَ فيَمْحى سلطانه لقهْر سلطانِ القُدرة، مَحْوَ الشمسِ ـ إذا برزَت ـ ضوءَ القمر البادى، الذى يَبْدُو أعْلى السّرِّ من خزائنِ الملكوت، فيضعُف لحملِه العقلُ، فيضطّربُ لضَعْفِهِ الجسمُ، فلا يتمكَّن العبدُ من القرارِ لضَعفِ صفته.

وذلك أن أجزاءَ الإنسان وإن كانت متفرقةً فى البنيان للحكمة والإتقان، فهى كشيءٍ واحد يجمعها لطيفُ القدرة بإظهار المشيئة. فأسفلُ البنية منوط بأعلاها، فإذا اضطرب أعلاها مال أسفلها، وإذا وصل الداء أو الدواء إلى عضو منها تداعى له سائرها. ألا[1] ترى أن القَلْبَ مَلِكُ الجسدِ، كالشمس مَلِكُ الفلَك، إلا أن المعدة مركَّبة عليه، وهى تحته فى البنية، وهو أحد أركانها الأربعة، مع الكبد والطحالِ والرئة. فإذا وصل إليها شىءٌ من عِلل الطبائع سرى ذلك إلى القلبِ فأعلَّه واضطربَ له، كما يَسْرى إلى أركانه الثلاثة.

وهذه الطائفة أشبهُ بالفضل، وأدخلُ فى وصف العلم. وقد سُلك فى هذا الطريق أكابرُ العلماء وأفاضلُ أهلِ القلوب، وقد كان هؤلاء فى التابعين كثيرًا، منهم: الرّبيعُ بن خيثم، وأُويسٌ القَرَنى، وزُرارةُ بن أوْفى، ونُظراؤهم من الأخيار

(١) من هنا إلى آخر الفقرة لا يوجد فى المطبوعة، وهو من (خ).

رضى الله عنهم[١]. ولم ينكر هذا عِليةُ الصحابة ممَّن عرَفه، مثل: عمر، وابنِ مسعود، وحُذَيفة، رضى الله عنهم.

وقد كان عمر رضى الله عنه يُغشى عليه، حتى يضطرب مثل البعير، ويسقط من ذى قيام.

وقد كان الغَشْىُ يَتَغَشَّى سعيدَ بنَ جذِيم، وكان من الزُّهاد ومن أصحابِ رسول الله ﷺ، ومن أمراءِ الأجناد، بعثه عمر رضى الله عنه واليًا على أهل الشام، وكان يوصف له من زهده وشدة فاقته ما يعاتبُهُ عمر فى ذلك. وبعث إليه مَرَّةً بأربعمائة دينار ـ وفى رواية ألف دينار ـ وعَزَم عليه ليستنفقها على أهله، فَفَرَّق ذلك على الغُزاة، فى قصة طويلة. فكتب أهل الشام إلى عمر يذكرُون شأنه، وما كان يتغشَّاه من الوجد فى مجلسه، فخَشَوْا عليه من دَخْلٍ[٢] فى عقله، ولم يعرف ذلك أهلُ الشام. فسأله عمرُ لَمَّا لقيه عن الذى يصيبه إذا تحدَّث، فأخبره بما يجده فى قلبه من معنى مشاهدته ووَجْدِه، وهو من مواجيدِ الصُّوفية من أهل الأحوال. فعرف عمر ذلك وعذره، وما زاده ذلك عنده إلا خيرًا، فكان يكرمه ويعرفُ له فضْلَه وعلمه. وكتبَ إلى أهلِ الشّام أن لا تُعنِّفُوه فى أمرِه، ودَعوه[٣].

وقد كان أقوى الأقوياءِ، وهادى الهداةِ، رسولُ رب العالمين ﷺ يُغْشَى عليه عند نزولِ الوحى، إذا لبسه لِبْسةً أزال ترتيبَ العقلِ منه، ورفع مكانَ الكونِ عنه، حتّى يَغُطَّ، ويتربَّد وجهُهُ، وينحدر منه مثلُ الجُمانِ من العرَقِ فى اليوم الشّاتى، إلا أن هذا كان يصيبه ﷺ فى ضَرْبٍ من الوَحْى إذا تَغَشَّاه متّصلاً، أو ينزل عليه روحُ القدس فى رُوحِهِ مُواصِلاً، واستبطن باطنَ قَلْبه؛ لأن الوحى على أربعة أضرب: ضربان متّصلان؛ هذا أحدهما. وضربان منفصلان. ومن كلٍّ واحدٍ

(١) بعده فى نسخة (هـ): «وقد كان ذلك سنة أهل البيت جعفر بن محمد، وكان يسقط من مقامه، وربما لحقه ذلك فى الصّلاةِ فيخر مغشيًا عليه، ولم ينكروا عليه». وهذا لا موضع له ولا يستقيم به الكلام.

(٢) الدخل: ما داخل الإنسان من داء أو فساد فى عقل أو جسم.

(٣) هذا الخبر فيه زيادات وتصويبات فى المخطوط عن المطبوعة لم أشر إليها تفصيلاً، واكتفى بهذه الإشارة، حتى لا يتشتت ذهن القارئ فى متابعة الخبر.

يلحق العلماءَ بالله تعالى أهلَ القُلوب النَّاظِرة والشّهادةِ الحاضرة وَصْفٌ. إلا أن ذلك فى أهل مقامات ثلاثٍ من المقرّبين: فى مقامٍ من شاهد التّوحيد. ومقامٍ فى مَحبّةٍ بتجلّى وَصْفٍ. ومقامٍ من الشّفَقِ والخشية لعبدٍ هاربٍ مَطْلُوبٍ.

وكلُّ ضُروبِ الوحْى بعد هذه الأربعة؛ وهى عَشرَةٌ لأهل هذه المقامات الثّلاث منه نصيبُ شَهادةٍ، أو وَجْدٍ، أو حالٍ، أو خاطرٍ، أو مقامٍ وهمَّةٍ، أو مُواصلةٍ. إلا ضربين من أنواعِ الوحى فإنهما ممتنعٌ ومخصوصٌ بهما الأنبياءُ؛ منها ظهور مَلَك فى صورته، ومنها سَمْعُ كلام اللهِ بصفته.

وشَرْحُ هذا وتفصيله يطولُ ليس هذا موضعه، ولا العقول تَحْمِلُهُ أو تَسعُه، إذ لا يعرفه علمَ يقينٍ إلا مَن سَلَك طريقَه، ولا يَشْهَدُ شُهود تحقيق إلا مَن ذاق حقيقتَهُ، فمن آمن به تصديقَ تَسْليمٍ فله منه نَصِيبٌ.

وقد نظر رسولُ الله ﷺ إلى جبريل فى صُورتهِ بالأبْطح فَصَعِق. وفى خبر حمزةَ الزّيّات عن حُمران بن أعين: «أن رسولَ الله ﷺ قرأ آيةً فى سورة الحاقّة فَصَعِقَ». وقال الله أصدق القائلين: ﴿وخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فمن هذه المعانى مَواجيدُ العارفين، ومن هذه الشَّهادَة شهادةُ الموحِّدين. ثم يرجعون إلى أخلاقٍ سَنِيَّةٍ، وأحوالٍ مكّيّةٍ عَلِيَّةٍ، وسُبلٍ معروفةٍ، وشرْعةٍ مألوفةٍ.

وقد يفيضُ الخوفُ من القلْب إلى النَّفس فيحرقُ الشّهوات، ويمحو العادات، ويُخمد الطبعَ، ويُطفئ شُعَلَ الهَوى. وهذا أحْمدُ المخاوفِ وأعْلاها عند أهلِ المعارفِ. وهؤلاء أفضلُ الخائفينَ وأرْفعُهم مَقامًا؛ وهو خوف الأنبياءِ والصدّيقينَ وخُصوصِ الشّهداء. وليس فوقَ هذا وَصْفٌ يُغْبَط عليه الخائف، ولا يَفْرَح به عارفٌ. فإن جاوزَ الخوفُ هذه الأوصافَ فقد خرج من حَدّه وجاوز قَدْرَه؛ لأنّه إذا أحرقَ الشّهواتِ، ومَحا الأهواء، قَوِىَ فلم يترك شهوةً ولا هوًى.

ثمَّ إنْ لم يُعْصَم العبدُ من مجاوزةِ حدِّ الخوف خرج به الخوفُ إلى أحدِ ثلاثةِ معانٍ:

خيرُها: أن يسرى إلى النفس فيحرقَها، فيتلفُ العبدُ، فتكونُ له شهادة. وليس

هذا بأرفع مقامات الخائفين فى باب العلوم والمشاهدات عن مُكاشفة معانى تجلِّى الصفات. إلا أنّه قد قال بعض العلماء: ما شهداءُ بدر بأعظم أجرًا ممَّنْ ماتَ وَجْدًا. وهذه صفاتُ ضِعاف المريدين؛ إذ لعُلماءِ الموقنين بكُلِّ شَهادَة من اليَقين أجرُ شَهيد، وبكلِّ معاينة قُدْرةٍ من مُقْتَدرٍ ليلةُ قَدْرٍ، وعن كلِّ قصدِ مَحَجَّةٍ بتعظيمِ عَظيمٍ حُجَّةٌ، وبكُلِّ عِمارةِ قلبٍ بحالِ مَحبَّةٍ عُمْرةٌ.

وأوْسَطُها: أن يعلو الخوفُ إلى الدِّماغِ فيُذيبهُ، فيَنْحَلَّ عُقْدةُ العقلِ لذَوْبه، فَتَضْطَرب الطّبائعُ لانحلال عُقدةِ العَقْلِ؛ لأنه مركَّبٌ عليها تركيبَ القِدْرِ على الأثافىِّ إنْ زلَّت أُثْفيَةٌ سقطَت القِدْرُ. ثم تختلط المزاجات لاضطراب العَقْلِ، فتحترق طبيعةُ الصَّفراء، فتَحُولُ سَوْداءَ، فيكون من هذا الوَسْواسُ والهَذَيانُ والتَّوَه والولَه؛ لاختلاط الأمْزِجَة. وذلك أن الدّماغ جامد، وهو مكانُ العقلِ، وهو معقودٌ به، ومركّبٌ على الطبائع الأرْبعة [بالنّفوس الحسّية] نتائجُهُ، فإذا اضطربت المِزاجاتُ اشْتَعَلَتْ، فتلَهَّب شُعلها إلى المُخِّ فأحْرقَهُ وأذابَهُ، فَحَلَّ معقدَ العَقْلِ الذى مكانه الدِّماغ، وسلطانُه صِقالُ القلب الظاهر؛ كصِقال نُورِ الحدَقَةِ للنّاظر. وهو بمنزلة الشمس الطالعة، محلُّها الفَلَك العُلْوىُّ، وشعاعُها على الأَرْض؛ كذلك العَقْلُ محلُّهُ الرأسُ، وسلطانُهُ ساطعٌ فى القلب، والحواسُّ الخَمْس أعراضٌ مُتَّصلةٌ به، وذاك من حكمة الحكيمِ المدبِّر القدير، أنَّ كلَّ صَنْعَةٍ فى المُلْك فمثلُها فى صَنْعة الملكوتِ، فأنوارُ القُلُوبِ وأحوالُها فى التَّقْليب كأدوات الأجْسامِ وأعْراضِها فى التَّصريفِ. ففى هذا المقامِ الطَّيْشُ والهَيَمانُ، وهذا مكْروه عند العُلماء، وليس تَحْمَدُ عاقِبتَهُ الحكماءُ.

وقد أصاب ذلك بعضَ المحبين فى مقامِ المحبَّة، فانطبق عليهم، فوَلِهُوا بوَجْدِه، ومنهم مَن فرَّع ذلك عن قَلْبه، فسُرِّى عنه، فأفاق منه، فنطقُوا بعلم وَصْفه.

وقد كان أبو محمّد يقول لأهل التقلُّل الطّاوين المتَقَشِّفينَ: احفظوا عُقولكم، فإنّه لم يكُن ولىٌّ ناقصَ العَقْلِ.

وحدثنى بعضُ إخوانى، قال: كنَّا حولَ أبى الحسنِ بن سالم، رحمهُ اللهُ، فدخل شابٌّ عُريانٌ، فوقفَ على الحلْقةِ يهْذِى، فزجرناهُ نطردُهُ، فقال لنا الشيخُ:

دعُوه، لا تَزْبُروه، حتى يَقضىَ ما فى نَفْسه. قال: فكان يتكلّم بوَساوِسَ من معانى التّوحيد، وبِهَذَيانٍ مختلط من عُلومِ المعارف، إلى أن فَتَر وسَكَن ثُمَّ انصرف. فقال لنا أبو الحسن: لا بارَكَ اللهُ فى عُلماءِ السُّوء. ثم قال: لم يكن من أصحابنا أحسنُ عقلاً ولا أكثرُ تعبُّدًا واجتهادًا من هذا الشّابِّ، وكنتُ أنهاهُ عن العَسَفِ بنفسه والحملِ عليها، وآمرُهُ بأكل الدَّسَم والحلاوة، فكان مستقيمَ الأمر. ففارقَنا، وذهبَ إلى أهلِ عَبَّادَان، فقالُوا له: إنَّ ابنَ سالمٍ قد ركَنَ إلى الدُّنيا، وتركَ العِبادةَ والاجْتهادَ، وأَمَرُوه بالجُوع الدائمِ والطَّيِّ، وتركِ أكلِ الدَّسَم والحلاوة، حتى احترق دماغُهُ، وزال عَقْلُه، فذهب الحالُ وتطلُّب العبادة. فقَال: ثم جعَل يتكلّم وقته ذاك فى الرِّفق بالنَّفس، وحُسنِ الرِّياضية، والتّفقّد لها بحسنِ التّدبيرِ والسِّياسة؛ من التفقُّد بالدّسم والحلاوة، والتوسط ما بين الجوع والشِّبَع، أو كما قال (. . .)[1] المغنى.

وقد رأيتُ مَن كانَ سببُ زوالِ عقله مجاهدةَ النفسِ ومجاوزةَ الحدِّ فى المجاهدةِ، والإفراطَ فى الجوعِ الشديدِ بهذه المثابَة. والتوسّطُ والاقتصادُ أفضلُ الطرقات، وهو من علامةِ التوفيق والسَّدَاد. وكان بعضُ الحكماء يقول: عليكُم عَيْشًا وسَطًا، لا ذاهبًا فرُوطًا، ولا نازلاً سَقُوطًا.

وقد أمر به رسولُ الله ﷺ فى قوله: «سدِّدُوا وقارِبُوا، وعليكم بالقَصْد، فإنّ هذا الدينَ متينٌ فأَوْغِلْ فيه برفْقٍ. ولا تبغِّض إلى نَفْسك عبادةَ الله، فإن المُنْبَتَّ لا أَرْضًا قطع ولا ظَهْرًا أَبْقى. وإنّ لكل شِرَّةٍ ـ يعنى عبادةً وجِدَّة ـ فَتْرةً، فمن كانَت فَتْرتُه إلى سُنَّتى فَقَدْ هُدى».

وفى أخبارٍ كثيرة نَهى عنها المتقشفين من مُريدى المهاجرين من التبتُّلِ، والمبالغةِ فى التقشُّف، والسَّهرِ الدّائم، والصّومِ اللازم، ومن تَرْكِ أكْلِ اللحم، وغشْيانِ النِّساء، ونحوِه. نهى عن ذلك ابنَ مظعون، وابنَ عمرَ، وغيرَهُما، وأمرهم بالاقتصاد والتوسّط فى الحالِ، والعِبرةُ بعاقبته فى المآل. وكذلك كانتْ سنَّتُه فى نفسه ﷺ، وسيرتُه فى أصحابِه.

---

(١) طمس بالأصل مقدار كلمتين.

والمعنى الثالث من مَذْموم الخوف، وهو شرُّها فى مُجاوزة الخوف: هو أن يعظُم الخوفُ ويَقْوى، فيذهب الرَّجاءُ، إذا لم يُواجَه بعلمِ الأَخْلاقِ من الجُود والكَرَم والإفضال وقديمِ الإحسانِ وخفِيِّ الامتنان بخُلُق المتفضِّل المنّان. فهذه المعانى بها تعديلُ المقامِ من فَضْلِ الاهتمامِ، وتَرْويح الحالِ من كُروبِ الأَثْقال، فلا يُساعدهُ القدَرُ بِذلك، فيُخرجُهُ وَجْدُه إلى القُنوط من رحمةِ الله، ويعطفُ به همُّه على الإياس من رَوْحِ الله، وتُوقِفُهُ شَهادَتُه على الهَرَبِ من قُدْرةِ الله.

دخلَتْ عليهم هذه المشاهدَةُ من قِبَلِ المُواجهةِ بالإنصاف، والعدل بمعيار العَقْلِ، وإتلاف الجِدِّ، فَجاوزَت بِهِم العلمَ بأخلاقه المرجوّة من الكَرَم وخَفِىِّ الألطاف، فتعدَّتْ بهم الحُدودَ من قِبَل قوّةِ نظرِهم إلى الاكْتساب، وتمكَّنَ بحُكمِ شهادَةَ الأسبابِ، ورجوعِهِم إلى نُفُوسِهم فى الحَوْل والاستطاعَة، وإثباتهم لتحقيق الوعيد عليهم خاصَّةً لا مَحالةَ، والحُكْمِ على الحاكم الراحمِ بعُقولهم وعُلومهم، من غَيرِ تفويض منهم إلى مشيئة ولا استْسلام لقُدْرَة، ولا تأميل لأحد معانى صفاته الحُسْنَى التى تَعُمُّ جميعَ صفاتِهم السُّوأى، فظهرت سيئاتُهم الثوانى أمامَهُم، فَحجَبَتهم عن قَديم إحسانِ المُحْسنِ الأوّل، ولم يَعْلَموا أنهم بإحسانه إليهم أساءوا، وبسَبْق علمه فيهم تَعدَّوْا، وأن قَلَمَهُ لم يكن بأيديهم إذ جرى بما عليهم، ولا لَوْحَهُ كان فى حَجورِهم إذ استْطِر فيه ما اختطَّ لهُم، وإذ بتأليفه جَمَعَهُم على مَساوِئهم، وبإرادته لأخلاقِهم صبرَ على أفعالِهم، وأنّ قَهْرَ قدرتهِ وسُلطانِ جَبْرِهِ أظهر منهم من خِزَانَتِه ما فيهم.

يَدلُّك على صحة ما ذكرناه أن أكثر هذه المخاوفِ كانت فى البصريين وأهل عبّادان والعَسكريين، فكان مذهبهم القَدَر، فوقعوا فى غايةِ الخطر، وقالوا باللُّطف وتقديم الاستطاعةِ وتفويض المشيئة. وكذلك قول العمرية: أصحاب عمرو بن عبيد. والعبّادية: شيعة عبّاد. والفوطية والعطوية: أصحاب هشام الفوطى، وابن عطاء الغزالى. ومنهم التَّيْمِيَّة؛ نفَوا نصف القَدَر. ومنهم المنازلية؛ أصحاب المنزلة بين المنزلتين، والقولِ بمقدور قادرِيْن، وفعلٍ من فاعِلين، فابتُلُوا بالاعتماد على الأسباب، وبالنّظر إلى أوّليةِ الاكتساب، فحجَبَهم ذلك عن المقدِّر الوهّاب، ثم لم

يرفع عنهمُ الحجاب فا. . .[١]، وَارْتجَّ عليهم البابُ، فهرب هؤلاء من الأمن والاغترار، فوقعوا فى أعظم منه، بأن أضافوا إليهم الأقْدار، فأخرجهم إلى القنوط والإياسِ، وأدخلهم فى المعقولِ والوَسْواسِ، فصاروا فى كبائر المعاصى من خوفهم من صغائرها، ولم يُجعل لهم نورٌ يكْشِفُ ظُلَمًا. فمَثَلهُم مَثَلُ الخَوارِجِ، خرجُوا على الأئمة بالسَّيْفِ لإنكار المنكر؛ فوقعوا فى أنكر المُنكر، من تكْفير الأئمّةِ، وتضليل الأُمّة، وإنكارهم السّلطانَ، وتكفيرهم بالصّغائر أهلَ الإيمان. وهذا من أبدعِ البِدَع، وهؤلاء كلابُ أهل النّار.

ومَثَلُهم أيضًا مَثَلُ المُعْتزِلة، هربوا من طريق المرجئة: أنّ الموحِّدين لا يدخلون النار، فحقّقوا الوعيدَ على أهلِ التوحيدِ، وخلّدُوا الفاسقين فى النّار، فجاوزُوا حدَّ المُرْجئة، وزادوا علَيهم بما استَحْسَنُوا من الهوَى، كما جاوزَت المرْجِئةُ طريقَ أهلِ السُّنَّة، فأسْكَنُوا الفجّارَ منازلَ الأبرارِ؛ بما أُوتوا من الهوى[٢]. وكان أبو محمّد رحمه الله يقول: أهلُ البِدع كُلُّهم يرون الخُروجَ على السُّلْطان، ويُكفِّرُونَ الأئمة، ويَرَوْنَ السَّيفَ على الأمّة. وفى الخبر: «الخوارجُ كلابُ أهل النّار».

فهذه أضرُّ الوجوهِ فى مُجاوزة الخوف عن قَدْره، وهو من التعدّى لحدودِ الله وأمْرِه، قَدْ جعَل اللهُ لكُلِّ شيءٍ قَدْرًا، ورسَمَ عَن كلِّ مَحَبَّةٍ أمرًا. فمَنْ جاوزَ هذه المخاوفَ فهؤلاء غلاةُ المُخوِّفينَ، ومن أرقائى بما يهوى انتحل الباطلَ (. . .) النِّحل منَ المُبْطلِين، ومَن تأوّل على المقياسِ اتّبعَ [ما يمليه] وسواسُ جَهْلٍ، وهؤلاء متأوِّلو الجاهلين. وقد أخبر الرّسُول ﷺ بعُدول الحاملين الرّاشدين من حملة العلم فى كلِّ خلَفٍ صالح من أئمة المسلمين، من أهلِ الآثار رُواة الأخبار، أبدالِ النبيِّين، وخلائفِ الصِّدِّيقين، أخبر أنّهم ينفُون عن العلمِ والحقيقة تحريف هؤلاء الغواة من المُبتدعةِ فى الطريقةِ، الناكِبين عن المحجّةِ، المفارِقين للجماعة بالشُّذُوذِ

---

(١) طمس بقية الكلمة فى الأصل. وكذا فى الموضع التالى.

(٢) أشار أبو طالب فى الفقرتين السابقتين إلى مذاهب علماء الكلام وفرق الرافضة إشارة سريعة، ثم لفظهم، وجعلهم من أهل البدع. ويطول الكتاب لو ذهبنا وفصّلنا مذاهبهم أو عرَّفنا بهم، ولكن انظر على سبيل المثال كتاب «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» للأشعرى، وانظر غيره من كتب النحل لتعرف تلك المذاهب الضالة، وبخاصة ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية.

والفُرقة، فقال ﷺ: «يحمل هذا العلمَ من كل خَلَفٍ عُدولُه، ينفُون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين».

فالمجاوزَةُ لقَدْر الشّىء كالتّقْصيرِ عنه، ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لكُلِّ شَىء قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿ومَن يَتعَدَّ حُدودَ الله فقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١]. وكان علىٌّ، عليه السَّلام، يقول: عليكم بالنَّمَطِ الأَوْسَط، الذى يرجع إليه الغالى، ويرتفع عنه الدّانى.

وهذا قولٌ فصْل، غيرُ شطط ولا هَزْل، وهو طريقُ أهلِ السُّنّة، ومذهب أُولى المعرفة. فصدْقُ الرَّجاءِ واعتدالُ الخوفِ من حقيقة العلم. والمؤمن حقًا هو المعتدلُ بين الخوفِ والرَّجاء، كما جاء فى الآثار: «لو وُزن خوفُ المؤمنِ ورجاؤه لاعْتدلا». وكما أَوْصَى لقمانُ الحكيمُ ابنَهُ فقال: «يا بُنىَّ، خفِ اللهَ خوفًا لا تيأسَ فيه من رحمته، وارْجُهُ رجاءً لا تأمَنُ فيه مكرَه». وفى لفظ آخر: «وارجُه رجاءً أشدَّ من خوْفك. قال: وكيف أستطيع ذلك، وإنّما لى قلبٌ واحدٌ؟ قال: أمَا علمتَ أن المؤمنَ ذو وَصْفين عن مشاهدتين؟»؛ لأنّ المؤمنَ الأول والشاهدَ الأعلى ذُو وصفٍ مَخُوف مثل: البَطْش، والسَّطوة، والعِزّة، والنّقمة. فإذا شهد العبدُ ما آمن به منَ هذه الصِّفات خاف، إذْ عرفهُ بها، وبجلاله يشاهدها. والمعروف ـ أيضًا ـ هو المألوف ذو أخلاقٍ مرجوَّة من الكرَمِ والرِّفْق والرحمة واللُّطْف. فإذا شَهِدَ القلبُ ما آمنَ به من هذه الأخلاق رَجا مَن شَهِدَهُ بها، فصار العبدُ لوصفيْه الرجاء والخوف عن معانى شهادتيه المخُوفة والمرجُوَّة عن وصفَىْ مَخوفِه ومرجُوِّه، وصار كذى قلبين، كأنه يَرْجو بِقَلْب ويخاف بآخر، وإنّما هما شهادتان فى قلبٍ واحد، لأنهما مقامانِ لقَلْب واحدٍ عن شُهُود مخوف، ومرجوٍّ واحد معروف. فهذا تفسير قولِ لقمان، وهو وصف المؤمن المعتدل بشهادة الإيقان، معتدلٌ بين خوفه ورجائه، كاعتدال الطائر بين جناحيه، وتقويم اللِّسان[١] بين كفّتيه.

فالخوفُ المُتْلفُ للنَّفس بالموت، أو المزيلُ للعقل بالفَوْت، خيرٌ من هذا الوصف الذى هو القُنوط؛ لأن هذا مُزيلٌ للعِلْم، ومُسْقط للمقامِ، مُوقعٌ فى كبائر الآثام، إذ الذنوب قد لا تكون كبائر، والقنوطُ بنفسه كبيرةٌ، فصار شرًا منها.

---

(١) يعنى: لسان الميزان.

على أن هذين الحَالين من الخوف المُتْلف ليس فيهما عِلْمٌ ولا مشاهَدة على الكشْف، وإنّما هو قوّةُ وَجْد يصطلم الخائف مرارته، فتوجد إتلاف النفس، وتشويش الحِسّ، كأحدِ الأسباب المُتْلفة، وكبعض الآفاتِ المشوِّشة مثل: مَحْوِ العَقْلِ منَ عَبْد، وتيهه بالوَلَه فى النِّيّة من فَقْد، بمنزلة خوف الكرُّوبيِّين خاصّةً من الأمْلاك، أهلِ الكَرْب والقلق؛ لأنهم مواجهون بِصفاتِ الفَرَقِ، ولا يُنقلُون فى المقامات التى يُعَدّلُون بها كمُقَرَّبى الرُّوحانيِّين.

بلغنى أن منهم جيلاً يخرج كلَّ يومٍ من تَحْتِ الكُرْسى بِعدَد البَشَرِ، قد أقلقه الشوق، وحَفَزَه الكَربُ، يريدُ النظرَ إلى وَجه العَلىِّ الأعلى، فيحرقُه شُعاعُ سُبُحات الوجه، فيحترقون احتراقَ الفَراشِ من المصباحِ. ثم يعود مِثلُهم من الغَدِ، فهذا دَأْبُهم، وهو يعيدُ إبادتَهم بعد إبْدائهم، وطريقُ إتلافهم بإعادتهم إلى عنصر أنسابهم، كذلك يكونون إلى يوم القيامةِ؛ كلُّ مَلَكٍ منهم لو جُمع السَّمواتُ والأَرضُون فى كفِّه ثم قبضها لَغابتا فيه.

ولعمرى إنّ سائرَ الملائكة لا يُنقَلونَ فى المقاماتِ كمقرَّبى المؤمنين، إنّما لكلِّ مَلَكٍ مقَامٌ معلومٌ لا ينتقل إلى غيره، إنّما يُمَدُّون من ذلك المقامِ بمَدد لا نهاية له إلى يومِ القيامَة بأكثر ممّا يزاد جُملة البَشَرِ، وبأقوى مما يُمَدُّ به أُولى التأييد والنَّصْر. ولكن أولئك تَحملُ خوفَهم قُواهُم، ويَثْبُت بمشاهَدَة صفة المخُوفِ خوفُهُم وصفاتُهُم، فلا يؤودُهم ولا يُثقلهُم؛ لأنهم يُمَدُّون بالقُوى، إذ المرادُ بهم البقاء، ومعصُومُون من المَوْتِ والتّلفِ بحفظ الآجال إلى آخر وَقْتهم.

على أنَّ منهم من يَطيش عَقلُه، ويُولَّه قلبه. ومنهم من يسيح فى تِيهِه. ومنهم من يتيه فلا يردُّ وجهَه شىءٌ إلى يوم القيامَة. ومنهم من يفزعُ الفزعة فلا يرتدُّ إليه طرْفُه، ولا يرجعُ إلى الحشر عقلُه. ومنهم مَن يصيح الصيحة، ويَصْعق الصّعقة، فلا يزال فى صيحةٍ واحدة وصرخةٍ إلى نَفْخ الصُّورِ. وكثيرٌ منهم يُصْعَقُون عند سمعِ كلام الجبّار سُبحانه: ﴿حتَّى إذا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهم﴾ سألوا الرُّوحانيين من المقرَّبين ذوى الحُجُب القَريبةِ والرُّتب العَليّة، منهم جبريل وميكائل وإسرافيل: ﴿ماذَا قال ربُّكُم﴾ ؟ فهؤلاء الحاضرون من الناظرين، والمُمكَّنُون من الشَّاهِدين،

حَجَبَةُ القُدْسِ، أولو المحبّةِ والأُنْسِ ﴿قَالُوا الحَقَّ وهُو العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

فمثَلُ هؤلاء الخائفين من المؤمنين، الذين قال الله تعالى: ﴿أُولئكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات:٤١] ومَثَلُ الأقوياء من العلماء أولى البصائر والمتمكِّنين مَثَلُ الصَّابرين الّذين يُؤتَوْن أُجورَهُم بغير حِسابٍ، ولا يوقفون مع السَّبب والأسباب. وكان السلف يقولون: يكفى من الخوف ما اجتُنب معه المحارم، وأُدِّى فيه الفرائض. وقال ابن معاذٍ: حسبى من الخوف ما منع الذُّنوب.

فعلماءُ الموقنين يُنقَلون فى مقاماتِ اليقين بمقتضى أحكامها من مقامِ خوفٍ إلى مقام رجاء كلَّما لاح لائح من خوفٍ وغرامَةٍ، بما أُشهد طَلْعَ طالعٍ من غَيْم، فيمدُّهم [بمواجيد]. فإذا عملُوا فى هذه المقاماتِ بما يَقْتضيهم، رُفِعُوا إلى ما فَوقها من شَهادةِ الوَحْدانية بنور الأَحَدِيّة، فجاوز المقامَين، وعلا فى عُلُوِّ الشهادتَيْن إلى أعلى عِلِّيين.

وعُموم المؤمنين يُنقَلون من مقام رجاءٍ إلى مقامِ رجاء أعلى منه، بوجودِ الأعمالِ المرجُوّة. ومن حالِ خوفٍ إلى حَال خوفِ أشْرفَ منه، بإيجاد أفعالِ مخُوفةٍ، ثم يُنقل أهل الأحوال من مقامات الإشفاقِ إلى حال الاشتياقِ، ومن أحوال الوَجَلِ والاحْتراقِ إلى مقام التملُّق والوِفاق، ومن حال الهرب والفراق إلى وصف الطمأنينة والتّلاق، ومن حال الفَزَع والنّفار إلى مقامِ الأنس والقرار، ومن الإبعاد والتهويل إلى المحبة والتأميل. فهذا مكان فَضْلهم على من وقَف فى مقامه من العموم فلم يُجاوزْه، ومن استتر بحاله وقام فى ظلّه، فلم يقطَعْه إلى ظلٍّ فوقَه مَمْدُودٍ، يعلو بعلوِّ شهادته، ومِرَّةِ[1] استواء قوته إلى الرحيم الودود. فمَثَلُ الخائفين من المؤمنين مَثَلُ الكَرّوبيِّين من الملائكة. ومَثَلُ الرَّاجينَ من المحبِّين كمثَل الرُّوحانيين من المقرَّبين.

وأصلُ الرّجاءِ وتفضيله؛ أنّ عند العلماء بالله تعالى من عظيم الرجاء لأخلاقه المرجُوَّة ما يُضاهى عظيمَ الخوفِ لأوصافِهِ المخُوفَةِ، فيُعدِّل البِنية فيهم، ويحكم بين

(١) المِرَّة: قوّة الخَلْق وشدّتُه. ومزاج من أمزجة البدن.

المقامَيْن بالسَّويّة لهم، فلا يبدو على قلوبهم بادٍ من الخوف عن مشاهَدَة وَصْفٍ من صفاتِ الخوف تُكْرِبُهُم إلا ظَهَر شاهدٌ وراءَهُ من عظيم الرَّجاء، أشهد خُلُقًا من الأخلاقِ اللطيفةِ يروِّحُهُم، ولا يطرأ على قُلوبهم طارئ من الخوف يَهْرُبونَ منه إلا بَدا عليهم بادٍ من الرجاء، يأنسُون به إليه، فَتَعْتَدِلُ صفاتهم، ويَسْتَوى مقاماتُهُم عن مُعاينةِ مَعْنَيين من معانى صفاته، لاستواء كمال ذاته، فيكونُ قلوبُهُم كلسانِ الميزانِ بين كفتيه، بين الخَوْفِ والرجاء، ويكُونُون كالطّائرِ بين جناحَيْه مُقوّمًا، عن شُهودِ النِّقم والآلاء، بوجودِ وصْفٍ شديد، وعيانِ خَلْقٍ لطيفٍ ودود، اقتَضى الوصْفُ حُسنَ القَبْضِ والعَسْف، وإظهارَ البلاءِ والعُنْف، وأوجبَ الخَلقُ ظهورَ الأُنسِ والإلْفِ، وبدوَّ النَّعماءِ واللُّطْف، فالعارفُ كما قالَ القائل:

فكأنَّهُ رَمَضانُ من إخْبابِهِ[1] وكأنَّه فى بسْطِهِ شــوَّالُ

أو كما قيل فى الأحوال:

كالخيزرانِ بعيدًا مِنْك مكْسرُهُ وقـد يُرى ليِّنًا فى كفٍّ لاويهِ

أو كقوله فى المقال والفَعال:

يُكلِّمنـا فَيُطمِعُنـا فنَـدْنُوا وإن رُمْنا فى الخَلَواتِ جادا

فاعتبروا يا أولى الأبصار بوصْفِ العارفِ فى الحالَين، شهادَةَ المعروفِ بالوصْفَين: أعرفُكم بربِّه أعرفكم بنُفسه، فالصورةُ الآدمية مرآةُ الصِّفة العزّية. ثم يتسع القلبُ فيحملُ الخوفَ والرجاءَ، ويستولى الرجاءُ على الخوف ويُغبطان معًا فى سعَةِ القلب وقوَّته، ويغيبان بنوره فى قدرته، لأنّ القلبَ قوىٌّ بِقَوِىٍّ، وواسِعٌ بواسِعٍ، وقادرٌ بمُقْتدر. وينفرد الهمُّ عن المعنيين، فيقفُ بمشاهدة منفرد، فيحكم عليه ما بِهِ أُفرد، ومن هذا قول الرسول ﷺ: «بكَ أجُولُ، وبكَ أصُول، وبك أقُولُ». ومن ذلك قوله، فى عُلوِّ شَهادته ونفاذ علْمه، من كونه بشاهده: «أعوذُ بكَ منك». ومنه الأثر المشتهر عن الله عز وجلّ: «لم تَسَعْنى أرضى ولا سَمائى، وَوَسَعَنى قلبُ عَبدى المؤمن. السَّاكن اللّيِّن الوادع». ومن ذلك قول المحقِّ الفاضلِ:

(١) إخبابه: سرعته.

* ألاَ كلُّ شىءٍ ما خَلا اللهَ باطلُ *

فهذا نطقٌ عن وَجْدٍ فى مقام البقاء بتَبْقِية ما أبقى بعد فَقْدِ حال الفناء بإفناء ما يفنى، هنالك سمع قول الباقى المُفْنِى: ﴿كلُّ مَنْ عَلَيْها فَانٍ * ويَبْقَى وَجْهُ ربِّك﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

ولا يصلُحُ تفصيلُ ما أجملناه، ولا شرحَ ما رمَزْناه.

إلا أنّ الخائفَ بوَصْفِ ما غَلَب عليه من الحال عمَّا قَوِى عليه من الشهادة يندرج الرجاء فى مقامه، فيكون الرجاء له شهودًا، والخوفُ منه وجودًا. ويُوصفُ الرّاجى بما قوى عليه من الحال عن غلبة شهادته، وينطوى الخوفُ فى مقامه، فيصير الخوف له علْمًا، والرّجاء له وَجْدًا، ولاَ كُنْهَ للمُخَوِّفِ تعالى فيتناهَى الخوفُ، ولا نهاية للمَرْجوِّ فينقضى منه الرجاء.

فأمّا الشهيد الموقنُ العالِم المقرَّب فبالحالين جميعًا يُوصَف مع اعتدالهما، وبالوصفين جميعًا يُعرف مع استوائهما، ثم يغلب عليه الوصفُ التّام والحالُ الكامل بين القيام بشَهادة التوحيد، والتحقُّق بحقِّ المعرفة لمُوجب المزيد؛ فإذا عُرف به اندرج فيه، فيقال: صدِّيق؛ لأنه قد تَحقَّق بالصِّدْق فى جميع معانيه، فأغنى عن أن يُقال: مُخْلِص. ثم يُقال: عارفٌ؛ لأنه قد رسخَ فى العلم رُسوخَ الجبلِ، فكفى أن يُقال: صادق. ثم يُقال: مقرَّبٌ؛ قد أُشْهِد القُربَ، فاقتربَ، ولم يَحْتج أن يُقال: عاملٌ. وهذه أسماء الكمالِ، وصفَاتُ التمامِ، لا يفتقر إلى ذكرِ حالٍ، ولا يُوصف بصفة مقالٍ، كما يُقال فى غيره من ذكرِ الأحوالِ: خائفٌ أو راجٍ؛ لوجودهما فيه بالكفاء، واعتدالِهما عنده بالسَّواء؛ لأنَّ الخوفَ والرَّجاءَ قد فاضا عليه، ثم غاضا فيه. فإذا قلتَ: عارفٌ، أو مقرَّب، أو صدِّيق، فقد دخل فيه حالُ محبٍّ، ووَصْفُ خائفٍ، ومقامُ راجٍ، ونَعْتُ عالمٍ، وسَمْتُ عاملٍ لا محالةَ، مثالُ ذلك تعالِى الأنسابِ واندراجُها فى عوالى الأحساب، أنك إذا قُلتَ: فلان هاشمىّ، استغنيتَ أن تقول: عربىٌّ، أو قُرَشىٌّ؛ لأنّ كلَّ هاشمىٍّ عربىٌّ قرشىٌّ لا محالة. ثُمَّ تَصِفُه بعد ذلك بوصف التَّمام والكمال أيضًا، كما ذكرنا من نهاية

الأوصاف فى قولنا: عارفٌ، فيندرجُ الأنسابُ فيه، فتقول: فلان حَسَنىٌّ، فاكتفيت أن تقول: قرشىٌّ أو عَلَوىٌّ أو هاشمىٌّ، وإن كان قُرشيًا هاشميًا عَلَويًا، لا شكّ أنه قد عُرِف أن كل حَسَنى فهو قرشىّ هاشمىٌّ عَلَوىٌّ لا محالة.

فأما أن تقول: فلانٌ عربىٌّ أو قرشىٌّ أو هاشمىٌّ، فهو مقصور على ما وَسَمته به، لأنه قد يكون عَلَويًا، وهو الغاية فى الحسب، ثم لا يكون حَسَنيًا فينقص رُتبةً، وقد يكون هاشميًا غير علوىٍّ فينقص منزلةً، وقد يكون قرشيًا غير هاشمى فينحطّ درجةً، وقد يكون عربيًا غير قرشىٍّ فتنزل مَرتبته، فيلزمه وصْفُ ما عَرفْته حَسْب، فإذا قلتَ: حَسَنى، دخلتِ الأحسابُ كُلُّها فيه، وعَيْبٌ أن تصفه بما دونها. كذلك قولنا: عارف، أو مؤمن، أو مقرَّبٌ، أو صِدِّيق، هم اسم التمام والكمال فى السمات التى عُرِفت بها كلُّ المقامات، تدخل الأحوال والصفات والسِّمات، فاكتفينا أن نقول: هو مؤمن، أو صالح، أو عارفٌ، أو محبٌّ، أو خائف، أو راجٍ، كما رتّبْنا فى الأحساب من قولنا: هو حَسَنىٌّ، دخل فيه كلُّ حَسَبٍ رفيع، وكُفينا أن نقول: هو هاشمىٌّ أو قرشىٌّ أو عَلَوىٌّ، إذ جميعُ ذلك داخلٌ فيه؛ لأنّ العارفَ لا يُوسَم بحالٍ دون حال، إذ قد غاصَتْ فيه الأحوال، ولا يُوسَمُ بمقامٍ دونَ مقامٍ، إذ قد استوعبَ كلَّ مقامٍ بحقيقة معناه، عارفٌ بالمعروف الذى هو بكلِّ نهايةٍ وفَضْلٍ موصوفٌ وغُموضٌ، غريبةٌ عند غيرِ أبناء جنسه أن ينكروه. فإن تعرَّفَ إليهم أو عرَّفوه بِهِم فليس بعارفٍ.

وقال بعضُ العارفين فى صفة العارف: أن يعرِف كلَّ شىء، ولا يتعرَّف إلى شىء. وقيل: يظهر ولا يُرَى، ويُرَى ويتوارى. كذلك حقيقتُه: أن يَعْرف ولا يُعرفَ، ويُشرفَ وليس عليه يُشْرَف، يخرج من الدّار بِكْرًا بَتُولاً، لم تقتضَّه معرفةُ الوهمِ والعقولِ عن شاهدِ وصفٍ من شواهد الرُّبوبية، وبمعنى خُلُقٍ من أخلاقِ الفَرْدانيّة؛ لأنّه رُوحانىّ ربَّانىٌّ، فهو كما قال:

تَوارَيْتُ من دَهْرِى بظلِّ جناحه ... فصرْتُ أرى دَهْرِى وليس يرانى
ولو سُئِل الأيامُ عنِّى لَمَا دَرَتْ ... وأيْنَ مكانى، ما عَرَفْنَ مكانى

وثلاثُ مقاماتٍ لا يُقاسُ عليها، ولا يُتمثَّل بها، فمن قاسَ عليها أخطأ، ومن

تمثّل بها ادّعى: مقام النبوّة، ومقام المعرفة، ومقام محبوب. ولا يصح هذا المقام إلا بعين يقينٍ فى شاهد قيُّوميّة التوحيد، بعد أن لا يبقى من النّفسِ بقيةٌ فى شهادة الحقِّ المبينِ، ولا يُدَّخر فيها خَبِيَّةٌ من شاهد خَلْقٍ، ولا يبقى من الخلقِ رؤيةٌ فى شاهد التوحيدِ، عندها كان العارف رُوحانيًا مؤثِّرًا برُوحه فى ارتقاء النَّفس باليقين، وصار ربَّانيًا بقيُّومِيَّة ربِّه عند شُهودِ الحقِّ المبين، فهذا وصفُ التمكين، وحالُ القوىِّ المكين، والمقدَّم المطاعِ الأمين.

وهذه جُمل طرائق الخائفين، وضوابطُ صفات العارفين؛ لأنهم متفاوتون فى القُرْبِ والاقتراب، متعالون فى التقرّب والتقريب، مترافعون فى التعرُّف والتعريف، متزايدُونَ فى معانى التخوُّف والتخويف، مُتناهُون بأسباب التألُّفَ والتّأليف. فالموقنون من الشّهداء، وهُمُ المقرَّبُون من الصِّدِّيقين، بشهادتهم قائمون، لهم من القُربِ الاقترابُ، ومن التقرُّبِ التقريبُ، ومن التعريفِ التعرُّفُ، ومن الإيلاف التأليفُ، ومن الإيناسِ الأُنْسُ، ومن التحبُّبِ الحبُّ؛ لأنَّ مقامَهُم من القرِيب العالى الطريقُ الأعلى الأقربُ، والوِجهةُ العليا، والشهادةُ الدُّنيا، وهم السّابقون.

ولأهل مقامات اليمين أولُ القُرْبِ والتقرُّبِ، وبدايةُ الحُبِّ والتحبُّبِ، ولهم من الإلْف التألُّفُ، ومن العُرْفِ التعريفُ، ومن الأُنس التأنيسُ؛ وهؤلاء الأبرارُ سالكو الطرقاتِ، فمزيدهم منها المقامات.

وقد كان أبو سليمان الدّارانىّ يقول: إذا غَلَبَ الرّجاءُ على الخوفِ فسدَ القلبُ.

فهذا، لعمرى، يحتاج إلى تفصيل: إنّما أراد به قلوبَ الرّاجين، إذا أفْرطَ رجاؤها على خوفها تغيَّرت، وخرج من مقام التعديل، فينقص لقصوره عن معيار ما كان عليه من السرّاء، فالتقصير فيه بتكوين المشاهدة، فيكون وَجْدُه لتكوين شاهده، حتى ينبسط فيما كان انقبض، ويتسع لما كان ضيّقًا، من تحمله بالناس بعد المزايلة، وفى ذلك نقصانه؛ لخرُوجه عن حد صفة المسلم المتمكن بالعلم الراسخ، ومن غير تمكين بالمعرفة (. . .) قوته عنها، فضعف وخار لبلوى التقصير، فى قوله: ﴿وإنّى عَلَيْه لَقَوِىٌّ أمِينٌ﴾ [النمل:٣٩]، قوىٌّ على ثقل حمله، أمين على

(. . .) وقيل: أمينٌ على المرأة، لا أكشف لها عورة (. . .) على غرْسها.

ولا تصلح حقيقة الرجاء إلا لعالم (. . .) روحًا فى يد، اعتدل سمعه وبصره بما استوت (. . .) بصيرتُهُ ومعرفتُهُ؛ لأنّ مثلَ الرّجاءِ مَثَلُ المَحبةِ لا يَصْلُحُ إلا لأهلِ الكرمِ والفَضْل: ﴿**ويؤْتِ كلَّ ذى فَضْلٍ فَضْلَهُ**﴾ [هود:٣]. ومَثَلُ الخوف مَثَلُ البطْش والسّطوةِ يصلُح للكافَّة، لأنّ فيه الكفَّ والزَّجْرَ والعَدْلَ: ﴿**إنَّ اللهَ يأمرُ بالعَدْلِ**﴾ [النحل:٩٠]، وفيه تفصيل يأتى (. . .)[١] يَصْلُح أن يُعْنَى بفسادِ القلبِ عند غلبةِ الرّجاء قلوبُ جهلة الخائفين؛ لأنّه من غيرِ مقامهم، وفى غيرِ طريقهم، وعلى غيرِ معيارِ مشاهدتهم، فيُخرجُهم ذلك إلى الأَمنِ ويُدخلُهم فى الاغترارِ والظّنّ، إذ صلاحُ قلوبِ الخائفين بالخوفِ اللازم، والحزنِ الدائم، والهمّ المقيم، والحالِ الواجد البهيم، وإذا غَلَب عليهم حالُ الرَّجاءِ، فَترُوا عن جِدّهم، ونَوْا فى اجتهادهم، ووهَنُوا فى عَزْمِهم.

وقد كان صالحٌ المُرِّىُّ يقول: ما كان يُخاف على عطاء السلمى إلا من شدّةِ خوفِه. أى: لأنه أفرطَ فيه. قال ابن مرزوق: نسى عطاءٌ القرآنَ من الخوف. فلذلك قال الله تعالى: ﴿**وَلَيُبَدِّلَنَّهُم من بَعْدِ خَوْفِهِم أمْنًا يَعْبُدونَنى لا يُشْرِكُونَ بى شَيْئًا**﴾ [النور:٥٥]، فالقرآنُ أصلُ العباداتِ، وقد قال فى مثله: ﴿**فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هَذا البَيْتِ * الَّذى أَطْعَمَهُم مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُم مِنْ خَوْف**﴾ [قريش:٣ ـ ٤]. لأنّ «عطاءً» كان قد زاد عليه الخوفُ، حتى خافَ العلماءُ أن يَدخلَهُ القُنوط، فيُخرجه من فضيلةِ الخوف. وذلك لأنّه لم يخرج أربعين سنةً إلى صلاة جماعة ولا جُمعة[٢]. وكان صالح المرّىّ يقول له: يا شيخ قد خدعَكَ الشّيطانُ، لو شَرِبتَ جرعةً من شربةِ سَوِيقٍ تَقْوَى بها على وضوئك وصلواتك؛ [لأنه] كان أقلع عن الأكل، وفقَدَ النّومَ، فإذا هجم عليه فَزَعٌ جعل (. . .)[٣] وينظر وجهَهُ فى المرآةِ يخاف أن يكون

(١) عدة مواضع تالفة فى الأصل، لا يتبين فيها الكلام.

(٢) هذا الخوف ليس من السنة، بل هو من تلبيس إبليس. وترجمة صالح المرى فى: الحلية ٦/ ٢١٥ ـ ٢٢٦)، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٨٦ ـ ٨٨.

(٣) طمس فى الأصل مقدار كلمة.

قد مُسِخ. وقد قتله الخوف من فزعةٍ فزعها فمات، فكان كبعض مَن [جعل حاله] من فتون الخائفين. ولم يكن رحمه الله يُذكر بكثير عِلْمٍ كنُظرائه: مالك بن دينار، وعبد الواحد، وفَرْقَدٍ.

وكان أبو الدرداء يقول: تمام التقوى أن يتقى اللهَ العبدُ فى مثقال ذرَّةٍ. حتى يتركَ بعضَ ما يَرَى أنّه حلالٌ خشيةَ أن يكون حرامًا، حاجزًا بينه وبين الحرامِ؛ لأنّ الله سبحانه قد بيَّن للعبادِ ما يتّقون فى قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]. فلا يحقرَنَّ ذرَّةً من الشرِّ أن يتّقيَها، ولا ذرّةً من الخيْرِ أن يفعلها.

وروينا فى أخبار الأنبياء، أن سليمان ﷺ كان يقول: أُوتينا ما أُوتى الناسُ وما لم يُؤتَوْا، وعُلِّمنا ما عُلِّم الناسُ وما لم يُعلَّموا، فلم نجد شيئًا أفضل من ثلاثِ كلماتٍ: العدلُ فى الرِّضا والغضب، والقصدُ فى الغنى والفقر، وخشيةُ اللهِ فى السِّرِّ والعلانية.

فهذه الثلاث فيها حكمةٌ بالغة، ونعمةٌ كاملة، ورحمةٌ خاصيَّةٌ؛ لأنها وصف الخائفِ العالِم، الذى قد استوى خوفُهُ ورَجاؤه، وقام بشهادة حُكمِ مولاه، لأنّه ذكرَ الأوقات التى تتغيّر فيها الصفات فى غَضبه ورضاه، فإذا عدَل فيهما دلَّ على تقْواه، وعلى اختلافِ حالٍ من فقرٍ وغنًى، فإذا اقتصد فيهما كان على خلافِ هواه، وعلى تفاوُت سرٍّ وعلانيةٍ، فإذا ساوى فيهما دلَّ على يقينه بالآخرةِ ومثواه، وعلى ذلك (. . .)[1] المؤمنين من قوله عزّ وجلّ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] قيل: (. . .) الناظرين، فيكون الباء فى هذا الوجه بمعنى (. . .) الذى هو علامة الخوف إذا وُجد فى (. . .) حقيقة الإيمان، وعلم صدق العمل على (. . .) فى أصل الورع بحقيقة الإخلاصِ به من (. . .) غير اللهِ فهو مُراء.

وممّا يدلّ على باطنِ الخوفِ كثرةُ الاستغفار فى كلِّ حال، والخوفُ من يسير الأعمالِ، لقوله: «اتَّقُوا المُحقَّرات، فإنّها تجتمع على الرَّجُل حتّى تُهلكَه». وبمعناه

(١) تلف فى الأصل فى هذا الموضع والمواضع التى تليه.

حديثُ أبى هريرة: «ما رأيتُ أكثرَ استغفاراً من رسول الله ﷺ». وقال الرّاوى عنه: ما رأيتُ أكثرَ استغفارًا من أبى هريرةَ. قال: «وكُنّا نعدُّ لرسولِ الله ﷺ فى المجلسِ الواحدِ مائةً مرة من الاستغفار؛ يقول: اللهُمَّ اغفر لى، وتُب علىَّ، إنّك التَّوابُ الغَفُور».

ومَن نُقل عَنْه المخافةُ من حقير الأمر الذى لعلَّهُ، والله أعلم، زنَةَ ذرّةٍ من الشَّرِّ أكثرُ من أن يُحصَى. من ذلك أنَّا رُوينا أن رجلاً قال لعطاء السُّلَمى: ما هذا الخوف كلّه؟ قال: لعظيم. قلت: وما هو؟ قال: اصطدت حمامًا لجارٍ لى منذ أربعين سنةً، فأنا أبكى منذ ذلك. أمَا إنّى قد تصدَّقت بثمنه مراتٍ.

وفوق هذا ما رُويناه عن من لا أدرى: كُرز بن وَبْرة، أو ضَيغم الرّابئى، قال: ذنب أذنبتُه، أنا أبكى عليه منذ أربعين سنةً. قلت: ما هو؟ قال: زارنى أخٌ لى، فاشتريتُ له سَمَكًا بدانق، فأراد أن يغسل يده، فأخذتُ قطعةَ طينٍ من حائطِ جارى، فغسلتُ به يَدَه.

وقال آخر: تكلمتُ بكلمةٍ، أنا أبكى عليها منذ كذا. قيل: وما هى؟ قال: رأيت درهمًا فى يد رجل فقلت هذا الدرهم سقَط منى، ولعلّه لم يُضْرب بجرجان.

وبمعناه قول الآخر، قال: تكلّمتُ بكلمة أنا خائف منها كذا وكذا سنة. قلت للسماء [أنّها قد] أمطرت، فلم يكن ذلك.

وقال ثابت نحوَه. قُلتُ: ليس (. . .)[1] فرجعتُ إلى نفسى، فقلت: وما أنت وهذا؟ ومَن وكَل (. . .) فتعبّد الرّجلُ بهذه الكلمة دهرًا. وكان يعنى نفسه تعريضًا.

قال بعضُهم: وُصِفت لنا امرأةٌ من العوابدِ، فأتينا منزلها، فإذا هى قد غَلَّقت بابها، لا يدخل عليها أحدٌ. فسألنا عنها، فقيل لنا: هى تبكى فى جوف بيتٍ قد غَلَّقت عليها الباب منذ ثلاثة أيامٍ لا ندرى ما شأنها. قال: فسألناها بعد وقت. فقالت: قتلتُ نملةً.

هذا لأنّه قيل: إن الأبرار لا يؤذون الذّرَّ، ولا يقتلون النمل. ونهى رسولُ الله

(١) تلف فى هذا الموضع والذى يليه، قدر كلمتين.

ﷺ عن قتل النَّملة، والنَّحلة، والهُدهد، والصُّرَد.

وقال مُضَرُ بنُ جريرٍ: دخلتُ على أبى الحجاج الجرجانى فكَلَّمْتُه فلم يُكلِّمْنى. فقلت: أنت فى حَرَجٍ، إن كان عندك علم إلا عَلَّمْتَنِى. فقال لى: عصيتَ اللهَ بمعصيةٍ؟ قلتُ: نعم. قال: كُتِبَتْ ورُفِعَتْ إلى الله؟ قلتُ: نعم. قال: علمتَ أنه غفرها؟ قلتُ: لا. قال: فما قعودُك وسكونك؟! اذهَب، فابْكِ على نفسك أيّامَ الحياةِ، حتّى تعلم ما حالُك عندَه فى هذه المعصية. قال: فبكى مُضر على هذه ثلاثين سنةً.

واعلم أنَّ كُلَّ وقتٍ من الدنيا هو وقتُك من الآخرةِ، فى البرزخ، وفى دار القرار، فأىُّ وقت كرِهتَ الموتَ أن يبغتكَ فيه على حالٍ ما فاتْركه، فإنّه ريبةٌ، كما جعل رسول الله ﷺ علمَ الشرّ ريبةً، فقال: «الخيرُ طمأنينة، والشرُّ ريبةٌ». وقال: «اترك ما يُريبك إلى ما لا يُريبك» يعنى: ما تشكُّ فيه، وما ترتابُ به، وما لا يكون خيرًا صرفًا، [تصرّف] القلبُ بالعلم إليه. وأىُّ حال أَحْبَبْتَ أن تموتَ عليه فدُمْ على ذلك. وقد قال بعضهم: كل حالٍ أحببت الموتَ عليه فَديمَهُ، ولا تبالِ متى مُتّ. وقال آخر: اصبحْ تائبًا، وامْسِ تائبًا، واستغفر، وخَفْ بين ذلك، ولا تبالِ متى كان الأمرُ.

وكان الحسنُ يقول: إن المؤمنين عجَّلوا الخوف فى الدنيا، فآمنهم اللهُ تعالى يومَ القيامة. وإن المنافقين عجَّلوا الأمن فى الدّنيا، فأخافهم اللهُ يومَ القيامة.

وفى خبر علىٍّ الطويل؛ الذى وصف فيه الفقيه كُلَّ الفقيه، فجعله الخائفَ الحزين، فقال: إذا كان يومُ القيامة نادَى منادٍ: يا أيّها الناسَ إنّ أقربكم اليومَ من الله مجلسًا أشدُّكم له خوفًا، وإنّ أكرَمَكُم عليه أتقاكم. ثم يقول الله عز وجل: لا أجمعُ عليكم حُزنَ الدنيا وحُزْنَ الآخرة، فيأمر لهم بكراسىَّ يجلسون عليها، فيُقبل عليهم الجبّارُ جلَّ جلالُهُ، وهو عنهم راضٍ، وقد أحسنَ ثوابهم. قال فيه: ألاَ أُنبئكمُ بالفقيه كلِّ الفقيه؟ مَن لم يقنِّط الناس من رحمة الله، ولا يؤمِّنْهم مكرَ اللهِ، ولا يرخِّص لهم فى معصيةِ الله. ثم ذكرَهُ.

وأكثرُ خوفِ العلماء المنظورِ إليهم المقتدَى بهم من خَصلَتَيْن؛ إحداهما:

التقليدُ. والأخرى: الاقتداء بهم. فالتقليدُ يقع فى المقال، والاقتداء بالأفعال.

كان ابن عباس يقول: ويلٌ للعالِم من الأتباع، يزلُّ الزَّلَّة فَتُحمل عنه فى الآفاقِ. وقال آخر: زلّةُ العالِم مثل انكسارِ السَّفينةِ تغرق، ويغرق الخَلْق. وقيل: زلّة العالِم مثل كُسوفِ الشَّمْس [تَضْبَحُ](1) الناسَ: يا غافلين الصّلاة.

وقال أبو الجلْد، وكان من قَرأَة الكُتبِ السَّالفةِ، وعارِفيهم بالسِّير المتقدمة، وبأشراط السَّاعة المتأخرة، فكان يقول: يلحق البلاءُ بأهل الصّلاة خصوصًا، لا يُراد غيرُهم، حتى إن الرّجل لَيرجعُ يهوديًا أو نصرانيًا.

وكذلك روينا عن بعضهم: لَيودُّ أحدكم أن يكون يهوديًا أو نَصرانيًا أو مُشْركًا، وهو لا يعلم. مطابق معناه الخبر المسند: «تكونُ فتنةٌ يُصبح الرجلُ مؤمنًا ويُمسى كافرًا، يبيعُ أحدُهُم دينَه بعرَضٍ من الدنيا يسيرٍ».

وروى الأعمشُ عن خَيْثمة عن عبدِ الله بن عمرو: «يأتى على النّاسِ زمانٌ يجتمعون فى المساجد يُصلُّون وما فيهم مُؤمن». والخبرُ الآخر: «يأتى على النّاسِ زمانٌ يُضِلُّ فيه أحدُهُم دينَهُ ولا يعرفُه، يُسْلَب فيه عقولُ رجالٍ. وفى آخر الزمان: تكون خُصومةُ النّاسِ فى ربِّهم، يُصبح أحدُهم على دينٍ، ويمسى على غَيرِه».

فهذا ونحوه، فِيمَن يُدْعى إلى التوحيد والإسلام، من أشدّ ما رُوى عن السَّلف، ومن أعظم ما يُتوقع على الخَلَف. وقد كان ابن عباس يتأول هذه الآية فى أهل القبلة: ﴿فأصَّدَّقَ وأكُن مِّنَ الصَّالحينَ﴾ [المنافقون: ١٠] فيمن لم يزكِّ ولم يحجَّ، ذاك لقوله تعالى فى أولها: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا﴾ [المنافقون: ٩]. وكان يقول: هؤلاء ممّن يسألُ الرجعةَ، وهى أشدُّ ما نزل فى أهل التوحيد، ولم يكن يجعل للقاتل توبةً، وكان يخلّده فى النّار، لظاهر القرآن.

فأما وجودُ شعبةٍ من نفاقٍ، ودَخيلةٍ من شِرْكٍ، وولَيجةٍ من رِبا، فأكثر من أن يُحصَى، وأكثرُ وقوعِ هذه المخاوف فى أهل البدعِ خاصَّةً، أو فيمن لا يعرف ما

(١) تضبح: كذا قرأتها، إذ أن نقطة الباء غير واضحة. وضبحت الخيل: أسمعت من أفواهها صوتًا ليس بصهيل ولا حمحمة. وضبحت النارُ الشيءَ: غيّرته. والله أعلم بتأويل النص.

البدعةُ من السُّنّة، أو لا يعلم ماهيَّةَ السُّنّة منَ الحَدَث المحدَث مع قول الصحابة، وفيه مسندٌ: «إياكم ومُحدثاتِ الأمور، فإنّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ». فيدخل عليهم ذلك لجهلهم بسنة السَّلف، وإن لم يعتقد ذلك جادًا، ولكن هو نقصانٌ من توفيق (. . .)[1] وعُدولٌ به عن سواءِ الطريق، فمن أفضلِ طرائقِ الخوفِ ما سرى من القلبِ إلى النّفسِ، فأطفأ شُعْلَةَ الشّهوةِ، وأخمد نارَ الهوى، فسقطتْ مع ذلك أثقالُ المجاهدةِ، وخَفَّت عنده مؤنةُ المكابدة، ووُجدتْ معه حلاوةُ الطّاعة لعدم وجودِ حلاوة المعصيةِ، واجتمع الهَمُّ بالحقِّ عند زوال التَّشَتُّت بالهوى والخلْقِ، وسكنَت النَّفْسُ بالطمأنينةِ لمعاينةِ القلبِ للشّهادة، وظهَر نعيمُ الزُّهدِ والرِّضا لباطنِ الصّدقِ والإخلاص، ثم سكن الخوفُ فى القلب بعد ذلك، ولم يجاوزْهُ فيتعدّى الحدَّ إلى بعض المفائض التى ذكرناها، بل كان منه الحزنُ الدائمُ، والهَمُّ اللازم، والخشوع القائم، والتقوى المقيم، والقلبُ السّليم، والفكر العليم. وهذا هو وصف القلب المنكسر، وحالُ العبدِ المتحيِّر، الذى يُوجَدُ عنده الجبّار فيَجْبُره بعد كَسْرِه، فصلَحِ له بعد أن عطّل من غيرِه، وصار مزيدُ العالِم الخائفِ من الله تعالى كشوفَ اليقين وتنقيلَه فيه إلى شهاداتِ الموقنين، ومقامات المقرَّبين، فكان القريبُ لديه مَوجودًا، وصار الحبيبُ عنده مشهودًا، أو الطالبُ له مطلوبًا؛ لأنّه من المنكسرةِ قلوبُهم من أجلِه، فقد جبَرها بعد كسرِها بفضله، وبأنّه صار عندَه من أهلِه، فأهَّلَهُ لبرِّه وفَضْله.

واعلم أن الذى قطع الخَلْقَ عن هذا حلاوةُ الهوى، ولا يخرجها إلا أحدُ كأسين: تجرُّع مرارةِ الخوف، فيغلب حلاوةَ الهوى، فيخرجه. أو غَلَبةُ حلاوةِ المحبةِ، فيستغرق حلاوةَ الهوى، فيَغمُرُهُ. فإن عَدِم أحدَ هذَين فهو من المذبْذَبين بين ذلك، لا إلى الخائفين، ولا مع المحبِّين، بل من المتردِّدين.

وروينا أن عليًا، رضى الله عنه، قال لبعض الخائفين، وقد تاه عقله، فأخرجه الخوف إلى القنوط: ما أصارَكَ إلى ما أرى؟ فقال: ذُنوبى العظيمةُ. فقال: ويحكَ، إنّ رحمةَ الله تعالى أعظمُ من ذُنوبك. فقال: إنّ ذنوبى أعظمُ من أن

---

(١) تلف فى الأصل بمقدار نصف سطر أو يزيد قليلاً.

يكفِّرها شىء. فقال: إنّ قنوطَك من رحمةِ الله تعالى أعظمُ من ذُنوبك.

والخوفُ جندٌ من جنودِ الله تعالى، قد يستخرجُ من قلوب المريدينَ والعابدينَ ما لا يستخرجُه الرّجاءُ، فتستجيبُ له القلوبُ المرادَةُ به بِنهاياتِ الزُّهد، وحقائقِ التّوبة، وشدّةِ المراقبةِ. وقد يَفْعلُ اللهُ تعالى جميعَ ذلك بأهل الرجاءِ والمحبَّةِ فى مقاماتِ الرجاء، يستخرجُ منهم الكرم والحياء.

والخَوفُ اسمٌ جامع لمقامات المُتَّقِين. ثم يشتمل على أهْلِ طبقاتٍ خَمس، فى كل طبقةٍ ثلاثُ مَقاماتٍ:

فالمقام الأوّل من الخوف: هو التقوى؛ وفى هذا المقام: المتّقون، والصّالحون، والعاملون.

والمقام الثانى من الخوف: هو الحذَرُ؛ وفى هذا المقام: الزّاهِدون، والورَعون، والخاشِعُون.

والمقام الثالث: هو الخشية؛ وفى هذا طبقاتُ العالِمين، والعابدين، والمحسنين.

والمقام الرابع: هو الوَجَل؛ وهذا: للذّاكِرين، والمُخْبِتين، والعارفين.

والمقام الخامس: هو الإشفاق، وهو: للصّدّيقين؛ وهم الشّهداء، والمحبّون، وخصوص المقرَّبين.

وخوفُ هؤلاء عن معرفةِ الصّفات لأجل الموصوفِ، لا عن مشاهدة الاكتساب لأجل العقوبات. كما جاء فى الخبر: «أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود خِفْنى كما تخافُ السَّبُعَ الضّارى»، فالسَّبُعُ إنّما يُخاف لوَصْفِه بالبَطْش والسّطوة، ولما أُلبس وَجْهه من الكبر والهيبة، لا لأجل ذنب كان من الإنسان إليه. ولذلك مثَّل النبى ﷺ للرجل الذى أوصاه بالحياء، مثَّل له بالرجل الصّالح كما فى قوله: «استحى من اللهِ كما تستحيى مِن الرّجلِ الصّالحِ».

فكما تستحى من الصّالح لوصفه، لأنه يقتضى الحياء (...) لأنه صاحب سوطٍ وعصًى، أو يُستحى منه لأنه (...) وبينه، بل لوصفِه الموجب عليك منه

(. . .) ألطف، فهو بابٌ من الخوف؛ لأنه يمنع (. . .)(١) ويمتنع، ولذلك جَمعَ بينهما النبى ﷺ فى حديث عن الذنوب، فقال: «ويتركُ الذُّنوبَ خشيةً أو حياءً»، يعنى فيمن أدْمَن الاختلاف إلى المساجد. وكذلك قال ﷺ فى وصف أهل الحياء: «أنْ تحفظَ الرأسَ وما وَعَى، والبَطْنَ وما حوَى».

فهذا يكونُ عن وصفِ المخافة، وكذلك فسَّروا قولَه عز وجَلَّ: ﴿ولولا دَفعُ الله النّاسَ بَعْضَهم ببَعْض﴾ [البقرة:٢٥١]، قيل: بالمخافَة والحياء. ومثلُه فى تأويل قوله تعالى: ﴿وتَخْشَى النَّاسَ﴾ [الأحزاب:٣٧] قيل: تستحيى منهم؛ لأنه ﷺ لم يكن يخاف فى الله أحدًا.

ولذلك قال بعض السلف: لو لم يكن فى اجتماعِ الإخوان ومؤاخاة الأخِ إلا أنَّ حيَاءَه منه يمنعه من مَعَاصِى الله لكان فيه خيرٌ كثير.

ولكن لخائفى المحبِّين من الرَّجاءِ أيضًا عُظْمُه، لما أشهدَهُم من لطفِهِ وكرمِهِ، وأوجدَهم من عَطْفِهِ، وتخصيصِ نِعَمِه، ولهم الأوفر من النّصيبِ على معنى خوفِهم الألطفِ من الحبيبِ المهيب، ما لا يَسع العمومَ وصفُه، ولا يدركون بعقولهم كُنهَهُ، ولا يصلح لهم كشفُه، فطلبهُم برَجائهم، وحُسنُ ظنّهم بمأمولهمْ، ولا يصفه إلا هم، ولا يعرفه سِواهم.

جُمل ذلك أنصبةُ القُربِ، ونعيمُ الأنس، وصفو الحبِّ، ورَوحُ اللقاء، وسرورُ التملّق، وحلاوةُ المناجاة، وخالصُ المصافاة، وفرح الخدمة، وارتياح المحادثة، وراحة الخَلْوة، وريحان المقاسمة، ولطفُ المجالسة، وسرارُ المناغاة، وسرُّ الملاحظة. فلهم منه تجلِّى معانى صفات وظهورُ محاسنِ أوصافِ ما لا يُعْلم: ﴿فلا تَعْلَمُ نَفسٌ ما أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّة أعْيُن﴾ [السجدة:١٧].

ولأصحابِ اليمين إظهارُ نعيمِ الأفعال، ومواهبِ العطاء والإفضال. وقد كان يحيى بن معاذ يقول: من عَبَدَ اللهَ بالخوف دُون الرجاء غَرِق فى بحار الأفكار. ومن عَبَد اللهَ بالرّجاء دون الخوفِ تاهَ فى مفاوزِ الاغترار. ومن عبَدَه بالخوف

(١) مواضع تالفة بالأصل قدر نصف سطر فى كل موضع.

والرجاء معًا استقام فى محجَّة الأذكار.

وقال مكحول النسفى فى معناه، إلا أنّه أفرط فيه: من عَبَدَ اللهَ بالخوف فهو حَرُورِىٌّ (١). ومن عبدَهُ بالرّجاء فهو مُرجِىٌّ (٢)، ومن عَبَدَهُ بالمحبَّة فهو جَهْمِىٌّ (٣). أى يَتجهَّمُ عليه بالمقال، وتجاوَزَ الحدَّ فى الأفعال. قال: ومن عبدَهُ بالخوف والرّجاء والمحبة فهو مُوحِّد.

شبّه هذه المقاماتِ من معانى المقالات للمبالغة من طريق المعنى، لا على التحقيق. أى لأنه إذا انفرد بحالٍ منها لا بدّ من أن يخرج عن معيارِ عِلْمٍ أو عن سُنَّة أو معروف أو معتادٍ مألوف، فإذا جمعها فقد استقام على العِلم والسُّنَّة، وهو وصفُ العالِم العارِف، الظّاهرىّ الباطنىّ.

آخر كتاب الخوف.

* * *

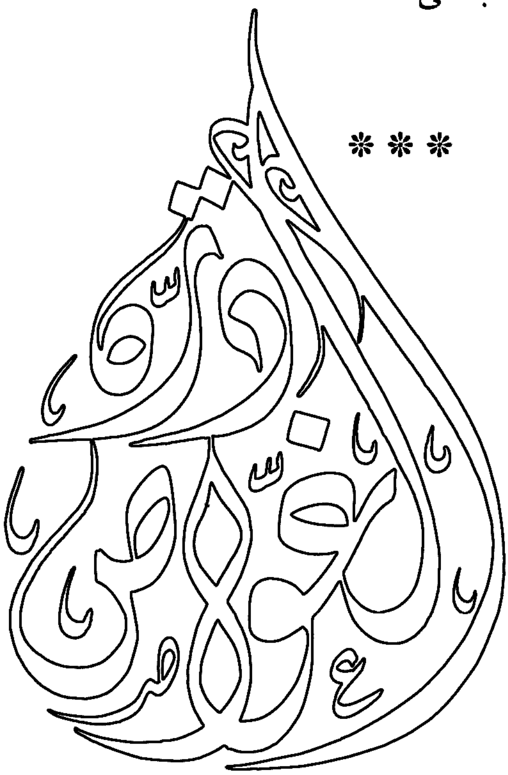

(١) الحرورى: نسبة إلى الحَروريّة، وهم الخوارج الذين خرجوا على سيدنا علىّ، وسمّوا حرورية لنزولهم بحروراء فى أول أمرهم.

(٢) مُرجى: نسبة إلى المرجئة.

(٣) جهمى: نسبة إلى الجهمية. وهذه كلها فرق كلامية ضالة، تولّى الشيخ ابن تيمية هدم آراء هذه الفرق فى كُتُبه.

شرح مقام الزهد ، ووصف أحوال الزاهدين
وهو المقام السادس من مقامات اليقين

قد سمّى اللهُ تعالى أهلَ الزهدِ علماء بقوله تعالى، إذ وصف قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِه فى زِينَتِه﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ﴾ [القصص:٧٩ ـ ٨٠] قيل: هم الزّاهدون فى الدنيا. وقال عزّ وجلّ: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص:٥٤] جاء فى التفسير: صبروا على الزهد فى الدنيا. وقال جلّ وعلا: ﴿والملائكةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِما صَبَرْتُم﴾ [الرعد:٢٣ ـ ٢٤] قيل: على الفقر.

ويشهد للصبر عن الدنيا فى هاتين الآيتين قوله عزّ وجلّ، فى وصف العلماءِ الزاهدين، لما قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ﴾ قال عقيب ذلك فى بقية ثنائه عليهم: ﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ أى عن زينة الدنيا التى خرج فيها قارون، فَهُم الزّاهدون الصابرون عنها. ثم قال فى مدحهم بوصف آخر: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾. فقد حصل للزاهد أجران: بصَبْرِه على الفَقْرِ، وبوُجودِ زُهدِه، وللفقير المُعْدِم أجرٌ واحدٌ على الغنىِّ، لوجود فقرِه، وعدم زهدِه. فلَحِقَ بمقامِ الخوفِ الذى أُعطى به الخائفُ جنّتين. ففُضِّل بالأخرى على مقامِ الرّجاء، إذِ الخوفُ مقتضى العلم بالله، لقوله تعالى: ﴿إِنّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِه العُلَماءُ﴾ [فاطر:٢٨]. لذلك قال المسيح عليه السّلام: «خشيةُ اللهِ وحُبُّ الفِردوس يباعدان من زهرةِ الدنيا، ويُورثان الصّبرَ على المشقة». فجعل الخشيةَ لله تعالى والحبَّ له يدلان على الزّهدِ فى الدّنيا، ويُورثانه، ويسهِّلان الصّبرَ على شدائدها، إيثارًا لمحبةِ الله تعالى على محبةِ نفوسهم فيها، وخيفةً من الله أن يحاسبهم على التكاثُرِ منها.

ولذلك صار الورَع الذى انتهت الفضائلُ إليه، وكثُرت الأخبارُ فيه، لا يُوصَل

إليه إلا بعد الزُّهد فى الدّنيا؛ لأنّه إذا لم يَزْهد فى شىءٍ لم يُمكنْه أن يَرِعَ عنه. فإذا أُعطى الزُّهد فيه، وعُوِّض من الرّغبة بَدَلاً منه، سَهُلَ عليه الورَعُ عنه، فتركه زهدًا فى الدنيا، ورغبةً فيما وعدَ اللهُ، وخِيفةً من المطالبةِ به، وحُبًّا لموافقةِ محبةِ الله بتركه.

ألم تَسمع إلى حسان بنِ أبى سِنان، وكان من أخيار التابعين بإحسان، إذ يقول: ما رأيتُ شيئًا أيسرَ علىّ من الورَع. قيل: وكيف، ونحن نظن أنه من أشدّ الأعمال؟ فقال: إذا حاكَ فى صدرى شىءٌ تركتُه. وقال مرّةً: إذا رابنى أمرٌ تركتُهُ. فلمّا وُهب له الزّهد فيه، وعُوِّض عنه؛ رغبةً فى الله به، هانَ عليه الوَرَعُ[1].

وعلى ذلك تأويل الخبَرَين عن النبى ﷺ، أنه قال فى أحدهما: «يدخل فقراءُ أمتى الجنّةَ قبل أغنيائهم بأربعينَ خَرِيفًا». وقال فى الخبر الآخر: «يدخل فقراءُ المؤمنين الجنَّةَ قبل الأغنياءِ بخَمْسمائة عامٍ»: بأنّ الفقير الزاهد يدخُل الجنَّة قبل الغنىِّ الصالح بخمسمائة عام، وهؤلاء خصوصُ الفقراءِ من الموقنين. وأنّ الفقير من المؤمنين غير الزاهد يدخل الجنَّة قبل الأغنياء بأربعين خريفًا، لأجل فَقْرِه فقط، وهم عمومُ الفقراء. فصار الأغنياء مَفْضُولين فى حالَين جميعًا، وأنَّ جُملةَ الفقراء يدخلون الجنَّةَ قبلهم، لمكان غِناهم فى الدنيا، وأنّ عمومَ الأغنياءِ من أبناء الدّنيا موقوفون للحساب، ومطالبون بالإنفاق والإكساب، بالخبر الثالث: «اطّلعتُ فى الجنة فرأيتُ أكثرَ أهلها الفقراء، واطّلعْتُ فى النّار فرأيتُ أكثرَ أهلها الأغنياء». وفى اللفظ الآخر: «فقلتُ: أين الأغنياءُ؟ قيل: حبَسَهم الجَدُّ».

وفى الخبر الآخر: «يحاسبون و (. . .) على أموالهم». وفى الخبر الرابع: «فيقول الفقراء: هل أَعْطيتُمُونا من الدنيا ما تحاسِبوننا عليه؟ فيُقال لهم: صدَق عِبادى، أدخلوهم الجنة بِغَيْر حساب. قال: ويعتذر اللهُ ربّكم عز وجلّ، كما يعتذرُ أحدُكم إلى صاحبه، فيقول: عبادى، إنى لم أمنعكم الدنيا (. . .) لهوانكم علىّ، ولكن لتستوفوا (. . .) فهذه جنّتى تَنعَّمُوا فيها بغير حساب (. . .)[2] واسْرحُوا

(١) الفقرة فى الإتحاف ٩/ ٣٧٧.

(٢) مواضع تالفة بالأصل.

فيها كيف شئتم. قال: قد جاء بعدهم الأغنياء بخمسمائة عام، والآخرون موقوفون للحساب».

وفى الحديث الخامس: «فيقال للأغنياء: أنتم كنتم خُزّانىّ فى (. . .) مطالبتى. فإيّاكم أُطالب، ولكم أحاسب».

وفى الخبر السادس: قال: «فيدخلون الفقراء فينضم إليهم رجلٌ من الأغنياء. فيقال: إنه ليس منهم، فَيُرَدُّ إلى الحساب. قال: فيَوَدُّ لو أنّه عاش فى الدنيا فقيرًا من أوّلها إلى انقضائها».

وفى الخبر السابع: «إنّ الرجّل من الأغنياء لَينظر إلى منازله فى الجنّة، وإنّه فى المَوْقف يُحاسَب ويُمحَّص، حتى يسيل منه من العرق ما لو ورَد عليه مائة من الإبل لَصدَرتْ عنه رِواءً».

وقد سمَّى اللهُ الفقراءَ الزاهدين مُحْسنينَ، ووضعَ عنهم السبيلَ يوم الدين، فقال سبحانه: ﴿ولا علَى الَّذينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حرَجٌ﴾، ثم قال: ﴿ما علَى المُحْسنينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

ثم أوقع الحجةَ والمطالبةَ على الأغنياءِ، وسمّاهُم ظالمين، ووصفهم بأوصاف النِّساء، وجعلَهم من المخلَّفين، فقال فى المعنَيين من الآيتين: ﴿إنَّما السَّبيلُ علَى الَّذين يَسْتَأذنُونَكَ وَهُم أغْنياءُ رَضُوا بأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوالفِ﴾ [التوبة: ٩٣] يعنى: النساء؛ لأنّ هذا جمع التأنيث. وقال: ﴿إنَّما السَّبيلُ علَى الّذين يَظْلمُونَ النَّاسَ ويَبْغُونَ فى الأَرْضِ بِغَيْرِ الحقِّ﴾ [الشورى: ٤٢] يعنى: بِطَلَب العُلوِّ فيها ضدَّ الفقراء الصادقين، الذين قال فى ذكرهم: ﴿نَجْعَلُها للَّذينَ لا يُريدُونَ عُلُوًا فى الأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣]. وعلى هذا المعنى جاء تأويل قوله تعالى: ﴿إنَّا جعَلْنَا مَا علَى الأَرْضِ زِينَةً لها لِنَبْلُوَهُم أيُّهُم أحْسَنُ عَملاً﴾ [الكهف: ٧] قيل: أزهَدُ فى الدنيا. فصار الإحسانُ الذى هو وَصفُ اليقينِ مقامًا للزّاهدين، كما فسَّره الرّسولُ الأمين ﷺ لما سُئلَ: ما الإِحسانُ؟ قال: «أن تعبدَ اللهَ كأنّك تراه» يعنى على اليقين، وهو

المشاهدةُ للحقّ المبين.

ولعمرى إنّ الزّهد حال الموقن؛ لأنه مقتضى يقينه، وهم أهل الهداية من المتّقين، الذين خُصُّوا باليقين: ﴿ذَلكَ الكتَابُ﴾ المستبينُ ﴿لا رَيْبَ فيه هُدًى للْمُتَّقينَ * الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ ويُقيمُونَ الصَّلاةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُم يُنفقُونَ﴾ [البقرة: ٢ ـ ٣]، فهذا زهدٌ منهم فى الإمساك؛ [لأنهم] مخصوصون بالرّزق الحسَنِ، الذى علامته الإنفاق، وهُم الموقنونَ بالآخرة، فلذلك آثروها على العاجلة، فقال فى آخر وصفِهم: ﴿وبالآخِرَة هُمْ يُوقنُونَ * أُولئكَ عَلَى هُدًى من ربِّهم﴾ أى: بصيرة منه، وعلى طريق قاصد إليه ﴿وأُولئكَ هُمُ المُفْلحُونَ﴾ [البقرة: ٤ ـ ٥] أى الظّافرون ببُغْيَتهم منه، الفائزون غدًا من طُول الحساب، والسَّابقون إلى طُوبى وحُسنِ مآب.

وكذلك قال فى حُسن رِزقهم فى الدُّنيا الذى ينفقون منه: ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ منَّا رزْقًا حَسَنًا فَهُو يُنفقُ منْهُ سراً وجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ [النحل: ٧٥] يعنى: مع الآخَر الذى لا يَقْدِر على شىءٍ، وهو الإنفاق من الرّزق الذى بُلى به، وسُلّط عليه، فلم يُرزق منه الإنفاق، وكان رِزْقُهُ مِن رزقه الإمْساكَ فى الدنيا والتعذيب به فيها، وعليه فى الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بهَا﴾ [التوبة: ٥٥]. فنعوذ بالله من المالِ المسلَّط.

فإن كان لا بُدَّ من مالٍ فمُسَخَّرٌ لك، لا مُسَلَّطٌ عليك، بل تكون أنتَ المسَلَّط عليه لا المسخَّرَ له. فإنْ كان المال هو المسخَّرُ لك، فهذا من حسن التوفيقِ للأغْنياءِ، وهو طريقهم للفضل بما سلكتم فيه، فبِهِ فُضِّلوا إن وُفِّقوا للإنفاقِ(١).

وقد يحتج متوهِّم لفَضْل الأغنياء المُمْسكين لفضول الغنى على الفقراء عنده بقوله تعالى مخبرًا عن الفقراء: ﴿تَوَلَّوْا وأَعْيُنهُم تَفيضُ منَ الدَّمْعِ حَزَنًا ألاَّ يَجدُوا ما يُنْفقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، ولا يعلم أنّ هذا عِند أهل التدبُّر للقرآنِ مَزيدًا للفقراء،

---

(١) من قوله: «وقد سمى الله الفقراء» فى الصفحة السابقة وحتى هنا معظمهُ فى الإتحاف ٩/ ٣١٦ ـ ٣١٧ نقلاً عن نسختنا تلك.

لتمام حالهم لمّا كانوا مُحْسنين، كما قال سبحانه: ﴿تَمامًا علَى الَّذى أحْسَنَ﴾ [الأنعام:١٥٤]، وكما قال أيضًا: ﴿وسَنَزيدُ المُحْسنين﴾ [البقرة:٥٨]، فكان مزيدهم الحزنَ والإشفاقَ، وخوفَ التقصير لمشاهَدَة عِظَم حق الرُّبُوبيةِ عليهم، حتى كأنّهم مُسيئونَ، حتى بشَّرهم الله تعالى بأنهم مُحْسِنُون، لمّا قال عزّ وجلّ: ﴿مَا علَى المُحْسنينَ منْ سَبيل﴾ [التوبة:٩١]؛ لأنه ضمَّهم إليهم فى الوصف، وعطفهم عليهم فى المعنى. وأيضًا فلم يكن بكاؤهم على فوت الدنيا، ولا على طلب الغنى، والله تعالى يمدحهم بصبرهم عن الدنيا، ويذم الدنيا إليهم، بل كان حزنُهُم على طلبِ المزيدِ من الفَقْرِ، ليجدوا الإنفاق، فيخرجوه، فيفتَقِرُوا منه، فيزدادُوا فقرًا من الدنيا ببذله إلى فقرهم. فعلى كثرةِ الإنفاق، وحقيقةِ الفقرِ من الدُّنيا، كان حُزنهم.

فهذا فضل يأتى للفقر لا على الجمع والادخار. والموضع الأعلى الذى فُضِّل به الفقراء من هذه الآية، عند أهل الاستنباط والتفكّر والدّراية: هو مشاركتهم لرسول الله ﷺ فى حاله، ووصف اللهُ تعالى رسولَه ﷺ بمثل حالهم فى قوله تعالى: ﴿قُلْتَ لا أَجدُ مَا أَحْملُكُمْ عَلَيْه﴾، ثم نعتهم بمثله لأنهم هم الأمثل فالأمثل به، فقال تعالى: ﴿ألاَّ يَجدُوا مَا يُنْفقُونَ﴾ [التوبة:٩٢] فمن كان برسول الله ﷺ أمثل فهو الأفضل. كيف وقد روينا عن النبى ﷺ: «تحية المؤمن فى الدنيا الفقر» فجعل الفقر تحيةً له من ذى التّحيّات المباركات، مع الخبر المشهور: «الفقرُ على المؤمن أزينُ من العذار الحَسَن على خَدِّ الفرَسِ الجَواد».

فأمّا ابنُ مسعود فإنّه صيّر الفقرَ حقيقةَ الإيمان، حتى يَحلَّ بذرْوَته، إذ عَبَّر عن ذرْوة الإيمان به، فقال: «لا يبلغ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى يَحلَّ بذرْوته، وحتى يكونَ الفقرُ أحبَّ إليه من الغنى، والتّواضعُ أحبَّ إليه من الشّرف، والذّلُّ أحبَّ إليه من العزِّ». وفى رواية أخرى: «حتى يكون مادحُهُ وذامُّهُ عنده سواء».

فهذا هو تفسيرُ حقيقةِ الفَقرِ فى النّفس[١]، وهو يستوعِبُ كُلِّيَةَ الزُّهدِ فى الدّنيا. واعْلمْ أنّ الثلاثَ الأُخَر التى قَرَنها بالفَقْر هُنَّ من إخباتِ الفقيرِ، إذا كان صادقًا

(١) فى الإتحاف ٩/ ٣٧٧: «الزهد فى النفس»، وعنه أصلحت عدّة مواضع كانت تالفة بالأصل.

زاهدًا كان ذَليلاً فى نفسه، متواضعًا بنفسه، لا يكْترث بِمدحٍ ولا ذَمٍّ؛ لسقوطِ نفسه عندَه، واطِّراحِ الخلقِ عَنْه. فهذا عِلْمُ وُجودِ اليقينِ، الذى ضدّه علامةُ النّفاق فيما فسَّره وهب بن مُنبِّه، عندما سئل: ما علامةُ المنافق؟ فقال: أن يكرهَ الذَّمَّ، ويحبَّ المدحَ. وقال غيرهُ غير هذا، وهو أسهلُ منهُ: من علامةِ النِّفاق، أن يُمدحَ العبدُ بما ليس فيه، فيُعجبه ذلك.

وأشدُّ مِن هذا منعُ رسولِ الله ﷺ حصولَ الإيمان، ومنْعُهُ الحياءَ الذى هو مقتضى الإيمان إلا بعد تمكُّن الزّهدِ، ووجودِ الورَعِ الذى هو مقدمةُ الزّهد، فى الخبر الذى رُويناهُ من طريقِ أهلِ البيت أسندَهُ جعفرُ الصّادِق عن آبائه الأخيارِ إلى الرسول المختار ﷺ، قال فيه: «الإيمانُ والحياءُ يطوفانِ فى القُلوبِ فى كلِّ ليلةٍ، فإذا صادفا قلبًا فيه الزُّهدُ والورعُ أقاما فيه، وإلا ارتحلا».

فكأنّه أراد بهذا محضَ الإيمان وخالصَه، الذى هو يقينُ المعاينة، والحياءُ الذى هو نظرُ المشاهدة. إنّ وجودَ ذلك على حقيقةٍ فى مكان الزّهد فيما آمن بفنائه، لوجود مكان الرّغبةِ فيما آمن ببقائه، إذا تفكَّرَ فى ذلك تفكُّرَ أولى الألباب فيما شهدوه من بيان الآيات فى الخطاب، من قول المتفضّل الوهاب: ﴿**كذَلك يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ لَعلَّكُم تَتفكَّرُونَ * فى الدُّنيا**﴾ وفنَائها ﴿**وَالآخرَةَ**﴾ [البقرة: ٢١٩ ـ ٢٢٠] وبَقائها. أى: فتُؤْثرون ما يَبْقى إذْ وصَفَهُ الباقى بوصْفِه، على ما يَفْنى حين وصفَهُ المُغنِى بصِفاتِكم إذ يقول: ﴿**ما عنْدَكُم يَنْفَدُ**﴾ أى لأنكم تَفْنَون عنه ﴿**وما عندَ الله بَاقٍ**﴾ [النحل: ٩٦] لمّا خصّه بمعنى وصفِ البقاء، تشريفًا وتعظيمًا وتفْضيلاً[١] مع قولِه: ﴿**واللهُ خَيرٌ وأبْقَى**﴾ [طه: ٧٣]. ثم قال فى وَصْفها بصفته تعالى: ﴿**والآخرةُ خَيْرٌ وأبْقَى**﴾ [الأعلى: ١٧]. ولذلك كان أبو الدرداء يقول: لئن حلفتم لى (. . .)[٢] أنّه أزهدُكُم فى الدنيا، لأحلفَنَّ لكم أنه خيرُكم.

وأمّا وهب بن منبه فقد جعل الزهدَ من استكمالِ العقلِ، فقال: لا يستكمل

---

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣١٩، فقد أكثر من النقل.

(٢) تلف فى الأصل.

العبدُ العقلَ حتَّى يكونَ فيه هذه الخصال: يكونَ الفقرُ أحبَّ إليه من الغِنى، والذّلُّ أحبَّ إليه منَ العزِّ، والتواضعُ أحبَّ إليه من الشَّرف.

فهذا عَقْلُ العالِمين بالله، وهم عقلاءُ الموقنين، وهو عَقْلُ هِدايةِ الآخرَة، المنوطُ بمعرفةِ الآخرةِ، لا عقْلَ الوَلِه على الدنيا، المرتبط بالعكوف على الخلق، لقوةِ مشاهدةِ الحقِّ بعين اليقين، ولضَعفِ شاهدِ المعقولِ باستجلاب حظوظِ النّفس من الفُضولِ. فلذلك جعلَ ابنُ مسعود هذه الثلاث من حقيقةِ الإيمان وذِرْوَته.

ولعمرى إنّ كمالَ الإيمان وأعلاه هُو بكمالِ العقل ونُهاهُ، كقوله: ﴿**إنَّ فى ذلك لآياتٍ لأُولى النُّهَى**﴾ [طه: ٥٤] فهو جمعُ: نُهْيَة، وهى من أسماء العقلِ؛ لأنّه ينتهى به، ويتناهى فى الوصف إليه. فالعقلُ مكانُ الإيمانِ، مَثَلُهُ كالفَتيلة مكان المصباحِ. فإذا تحَقَّقَ الإيمانُ وكمُلَ، زِيد فى تحقيقِ العقلِ وتكميلِهِ، وكان معه الزّهدُ بحقيقتِهِ.

ولذلك كان أبو محمّد يقول للمتقشفين من الغُبارِ[1]: احفظوا عقولَكُم، فإنّه لم يكُن ولىٌّ لله ناقص العقل.

والفقرُ اختيارُ رسول الله ﷺ، عن حُسن اختيارِ الله لَهُ، لمّا خَيَّره: «من أنْ يعطيَه مُلْكًا كمُلكِ سُليمان عليه السّلام». وفى الخبر الآخر: «بين أن يُجْرِىَ له الأوديةُ مالاً، ويجعل له الجبالَ ذهبًا وفضّة، ولا ينقصه ذلك من درجته عند الله شيئًا»، فاختار بحُسن توفيقِ الله وعصمته له الأحَبَّ إلى الله، والأخْير عند الله، إذ قد ضمن له إن أعْطاهُ لا ينقُصُه، فلم يبقَ إلا مَحبَّةُ الله، فكانت آثرَ عندَهُ من تَرْكِ نقيصَتِه، فقال: «لا حاجةَ لى بذلك، بل أجوعُ يومًا وأشبعُ يومًا، أحمدُكَ إذا شبعتُ وأتضرّع إليك إذا جُعْتُ».

والفقْرُ شِعارُ النبيِّين، وطريقُ عِلْيَة الصّحابةِ، والأصْفياءِ من التّابعين.

وقد رُوينا فى الخبر الآخر: «آخرُ الأنبياءِ دُخولاً الجنةَ سليمانُ، لمكان ملكه.

(١) الغُبار: كذا بالأصل، والمقصود منها: الذين يزهدون فى الشىء اليسير، فإنه يحذرهم من ترك كل ما يقوم به البدن والعقل، حتى لا تذهب عقولهم.

وآخر أصحابى دُخُولاً الجنةَ عبدُ الرحمن بنُ عوف، لأجلِ غناه». وفى الخبر الآخر: «رأيته يدخل الجنَّةَ زحْفًا».

وقال سعيد بن جُبير: إنّما فَضَّل اللهُ الأنبياءَ بما أعطاهم من العلمِ به، والنّصرِ، وما زهِدوا فى الدنيا، مع القيامِ به، والصّبر عليه، فجعلَ العلمَ باللهِ معيارًا على النّبوة، به تَفاضل الأنبياء، وهو علمُ اليقين الكاشفُ لعين اليقين، المتجلّى به وصفُ الوحدانيَّةِ. وجعل سببَ ذلك الزّهدَ.

وكذلك أقام علىٌّ، عليه السلام، الزهدَ مقامَ اليقينِ، الذى ما نزل من السّماءِ أعزَّ منه؛ ذلك لأنّ الزّهدَ مقتضاه، ولأنَّ اليقينَ موجبُهُ، فهُو عنده ـ فى قوله، وقد ذكرَ شُعبَ الإيمانِ، فقال: على أربعٍ ـ على اليقينِ. وقد رُويناه أنّه فَسَّرَ بالزّهدِ اليقينَ، فقال: «اليقينُ على أربعِ شُعَبٍ» فقال فيه: «ومَن زَهِد فى الدنيا هانَتْ عليه المصائبُ». وتهوينُ المصائبِ موجبُ اليقين، كما الزّهدُ مقتضى اليقين.

ألم تسمع إلى دُعاء الرّسول ﷺ: «وارزُقْنا مِنَ اليقين ما تُهوِّنُ به علينا مَصائبَ الدُّنيا»، فلما هانتْ عليه الدّنيا، لنظرِهِ إليها بعين اليقين، وهى العينُ التى يراها بها عبادُه الصالحون، هان عليه مصائبها. كما علَّم رسولُ الله ﷺ الرّجلَ، فقال: «قل: اللهُمَّ أرِنى الدّنيا كما يراها الرَّجلُ الصَّالحُ من عِبادِك». فلم يرِ مصائبَها بفضائلَ شَهِدها نِعَمًا لرجوعه إليها فى المآل، ورآها مُلْكًا لمولاها، فلم يغترَّ بها فى الحال، إذ سمِعَه سبحانه يقول: ﴿قَالُوا إِنَّا لله وإِنّا إِلَيْه رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، مع قوله: ﴿وما عِندَ الله خَيْرٌ وأَبْقَى للَّذِينَ آمَنُوا وعَلَى ربِّهِم يَتَوكَّلُونَ﴾(١) [الشورى:٣٦].

ولا نعلم فى الأمّة أفضلَ من طائفتين: المهاجرينَ، وأهلِ الصُّفَّة. وجميعًا مدحَ اللهُ بالفقْرِ، فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَراءِ المُهاجِرينَ﴾ [الحشر:٨]. وقال: ﴿لِلفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ الله﴾ [البقرة:٢٧٣]. فقدّم وصْفَهم بالفقْر على أعمالهم بالهِجْرة والحَصْر. واللهُ سبحانه وتعالى لا يمدح من يُحبّ إلا بما يُحِبّ، ولا

(١) كتبت هذه الآية خطأ فى الأصل.

يصفه حتى يحبّه.

ورُوينا فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وجَعَلْنَا مِنْهُم أئمَّةً يَهْدُونَ بأمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] قيل: عن الدُّنيا. ويقال: عن الشَّهوات. وفى الخبر بمعناه: «العلماءُ أمناءُ الرُّسلِ ما لم يَدْخُلوا فى الدّنيا». وفى لفظ آخر: «ما لم يخالطُوا السّلطانَ، فإذا فعلوا ذلك فاحذرُوهم على دينكم». وجاء فى الأثر: «لا تزال لا إله إلا اللهُ تدفع عن العبادِ سَخَطَ اللهِ، ما لم يُبالوا ما نقَصَ من دُنياهم بسلامة دِينهم، فإذا فعلوا ذلك، وقالوا: لا إله إلا اللهُ، قال اللهُ: كذبْتُم، لَسْتُم بها صادِقين». وفى الخبر الآخر: «فإذا قالوها رُدّتْ عَليهم».

وفى الخبر الغريب من طريقِ أهلِ البيت: «إذا أحبَّ اللهُ عبدًا ابتلاه، فإذا أحبَّه الحبَّ البالغ اقتناه. قيل: وما اقتناه؟ قال: لم يترك له أهلاً ولا مالاً». وفى لفظ آخر: «أماتَ عيالَهُ وأَبْقاه». وفى الأخبار عن الكتب السَّالفة: «إنّ اللهَ تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: احذر أن أمقتكَ، فتَسقط من عَيْنى، فأصُبَّ عليك الدّنيا صبًّا».

وقال بعضُ أهلِ العلمِ والفَهْم فى تأويل قوله تعالى: ﴿ومِنهُم مَنْ أغْرَقْنا﴾ [العنكبوت: ٤٠] قال: فى بحر الدنيا.

وكان لقمان عليه السلام يقول: «الدنيا بحرٌ عميقٌ، قد غَرِقَ فيه خَلْقٌ كثيرٌ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله، وشِراعَها التوكل على اللهِ».

ورُوينا فى أخبار مُوسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه: «لا تركن إلى حُبِّ الدّنيا، فإنّك لا تلقانى بكبيرةٍ أعظم منهُ».

وفى أخبار إبراهيم الخليل ﷺ فى قصةٍ طويلة، قال فى آخرها: «إنّ اللهَ قال له: لو بِخَلِيلِكَ أنزلتَ حاجتكَ لقضاها لكَ، يعنى نفسَه تعالى، ولم يُعنِّك». وكان قد احتاج فذهب إلى خليلٍ له يستمنحه شيئًا، فتوارى عنه، فرجع إبراهيم منكسرًا. فلما قال له ذلك، قال: إلهى، علمتُ مقتك للدّنيا، فخفتُ أن أسألك شيئًا منها فتمقتنى. فأوحى اللهُ إليه: أمَا علمتَ أن الحاجةَ فى الدنيا ليست من الدنيا». ورويناه مرةً: «أن القُوتَ ليس هو من الدنيا».

وقد جاء ما معناه عن نبينا ﷺ: «من نظر إلى زهرةِ الدنيا أصبح ممقوتًا فى ملكوت السّماء، ومن صبرَ على القُوت نزل الفردوسَ حيثُ أحبَّ». فدلّ ذلك: أن القوتَ ليس من الدنيا لأنّه استثناه منها بمدحه على الصبر عليه بعد ذمِّها. وكذلك روينا الخبرَ فى القُوت: «لا يعذِّبُ اللهُ مؤمنًا جعل رِزقه فى الدنيا قُوتًا». وفى الخبر الآخر: «طُوبى لمن هُدى إلى الإسْلامِ، وجُعل رِزْقُهُ كَفافًا، وصبرَ عليه». وفى لفظ آخر «ورَضِى به». وكان ذلك من دعاء رسول الله ﷺ، لنفسه ولأهل بيته فى الدنيا: «اللهمّ اجعلْ رِزْقَ محمّدٍ وأهلِ بيتهِ فى الدنيا كَفافًا».

واختُلِف فى الكفاف. فمنهم مَن قال: هو قوتُ يومٍ بيوم، بلا سَرفٍ. ومنهم من قال: هو جوعُ يومٍ، وشبعُ يومٍ. وكذلك جاءت الأخبار الواردة، وتواترت الآثارُ الكثيرةُ فى وصف المصطفى رسول الله ﷺ، وحالِ أهلِ بيته وأزواجه، أن كان يأتى عليهم الهلالُ بعد الهلالِ، ثلاثةُ أهلَّة، لا يُوقَد فى بيوت أزواجه نارٌ، ولا يُرى دخانٌ، لخبزٍ ولا طبيخ. قال عروةُ: «فقلت لعائشة: يا أُمَّه، فما كان تَعيُّشُكُم؟! قالت: الأسودان: الماء والتمر. وكان لنا جيرانٌ من الأنصارِ يُرسلون إلينا باللَّبن فى الحينِ بعدَ الحينِ».

وفى الخبر: «ما شَبِعَ رسولُ الله ﷺ وأهلُ بيته من خبز بُرٍّ ثلاثةَ أيامٍ، حتّى لِحَق بالله». ومن قولِ رسولِ الله ﷺ: «ما أصبح عندَ آلِ محمدٍ صاعُ بُرٍّ، ولا صاعُ تمرٍ، ولا صاعُ شعيرٍ، وإنّ عنده لِتسعَ نِسْوةٍ».

وفى الخبر: «أن أعرابيًا جاءه، فأرسل إلى جميعِ بيوتِ أزواجهِ فى شىءٍ يُطعمُهُ، فلم يُوجَد عندهنّ شىءٌ». وفى لفظ آخر: «فوجد كِسْرةً، فجزّأها له لُقمًا، فأكل الأعرابى. ثم قال: إنّك لرجلٌ صالح».

وفى خبر ابن عبّاس وعائشة رضى الله عنهما: «قُبض رسولُ الله ﷺ ولم يترك دينارًا، ولا درْهمًا، ولا شاةً، ولا بعيرًا، ولا أوصى بشىء. وتركَ دِرْعَه مَرهونةً عند يهودىٍّ بثلاثين صاعًا من شعيرٍ».

هذا لهوانِ الدّنيا على اللهِ، وبُغضِ اللهِ لها، كما قال ﷺ: «لو كانت الدنيا تَزِنُ

عندَ الله جناحَ بَعُوضةٍ ما سقَى كافِرًا منها شَربةً من ماءٍ».

ومرَّ ﷺ بشاة ميّتة، وفى خبر آخر: بجَدْى أجربَ ميِّت شائلة برجلها، فقال: «أترون هذه هيِّنَةً على أهلها؟ فقالوا: نعم، من هَوَانها عليهم ألقَوْها. فقال: والله، لَلدُّنيا أهونُ على الله من هذه على أهلها».

وفى حديث عمرَ رضى الله عنه؛ لمّا دخل على رسول الله ﷺ وهو نائم على سريرٍ من جَريدٍ مَرْمول[1] بشريط، فقعد وقَد أثّر حبَار[2] الشَّريط بجنبه. قال: «فأدرتُ عَينى فى بيتِ رسول الله ﷺ، فما رأيتُ إلا قَدْرَ صاعَيْن من شعيرٍ مَصْبوب فى زاويةِ البيتِ، وأُهُب فى ناحية منه غير مدبوغة. قال: فلم أملك عينى، فبكيتُ. فقال: ما يبكيك يا ابنَ الخطّاب؟ فقلت: كسْرَى وقيصرَ فى فُرشِ الحريرِ والدِّيباج، وفى نعيمِ الدنيا، وأنتَ رسولُ الله وخيرتُهُ من خَلْقه على ما أرى. قال: أفى شكٍّ أنت يا عُمرُ؟! أمَا ترضى أن تكونَ لهم الدنيا ولنا الآخرةُ. فقلتُ: رضيتُ». وفى لفظ آخر: «قومٌ عُجِّلت لهم طيباتُهم فى الدّنيا».

فدلّ قوله ﷺ: «أفى شكٍّ أنتَ» على أنّ القلّة والزهدَ من اليقين، لأنّه ضدّ الشّكّ، فمن شكّ فى ذلك، أو رغِبَ عنه، فهو ليس بمُوقن.

ولعمرى لقد جاء بمعناه: «إنّ الدّنيا مُرَفْرَفَةٌ بين السّماء والأرضِ، لا ينظر اللهُ إليها منذُ خلَقَها إلى أن يُفْنيها، تقول: يا ربّ، لِمَ تُبغضُنى؟ لِمَ تَمْقتنى؟ فيقول تعالى: اسكُتى يا لاَ شَىء». وفى لفظ آخر: «أنتِ وأهلُكِ إلى النّار».

وفى الحديث الآخر زيادة: «إنّها تُبعث يومَ القيامةِ، فيقول تعالى: ميِّزُوا ما كان منها لى، وألْقوا سائرَها فى النّار. فتقول: يا رب، اجعلنى اليوم لأدنى عبادِك فى الجنة منزلةً. فيقول: اسكتى يا لا شيء، أنا لم أرْضكِ لهم فى الدّنيا، أأرْضَاكِ لهم اليومَ عِندى فى دارِ كَرامتى؟».

وكذلك الخبر الآخر المشهور، يُنبىء عن وَصْفِها اليومَ: «الدّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ

---

(١) جريد مرْمول: أى منسوج.

(٢) حَبار: أثر. وفى الإتحاف ٩/ ٣٦٤: أثر حبال الشريط.

ما فيها، إلا ذكرُ الله، أو عالمٌ أو متعلِّم». فهذا يدلُّ أن هذه الثلاث ليس من الدنيا، لأنها طرقاتُ الآخرة. وكأنّه تفسير قوله فى الخبر: «ميِّزوا منها ما كان لى»، فهو الذى له تعالى، أى يُتقرَّب به إليه، ويُستدل به عليه، ويُتطرق منه إلى دارِ السّلام عنده؛ لأنه هو الخير، والدّنيا شرّ. وقد قال ابنُ عمر فى تَلْبيته: «والشرُّ ليس إليك»، أى لا يُتعرَّف به إليك. والآخرةُ ضدّ الدُّنيا.

وفى الخبر «أن عائشة رضى الله عنها لبستْ دِرعًا جديدًا، فنظرتْ إلى عِطْفِها، فزجَرها أبو بكر زجْرةً فَزِعت لها، وقال: ما تنظرين؟ إنّ الله تعالى ليس بناظرٍ إليك. قالت: لِمَ؟ قال: العبدُ إذا أُعجب بشىءٍ من الدّنيا مَقتَهُ ربُّه، حتى يفارقَ تلك الزِّينةَ. قال: فنزعتْهُ، فتصدَّقت به. فقال: عسى أن يكفِّر عنك بذلك».

كذلك فعلَ رسولُ الله ﷺ امتثالاً لأمرِ الله لّما مرَّ بعِشارٍ حُفَّلٍ، وهى المجتمعُ اللبن فى ضَرْعها، إذ كانت أحبَّ أموالِ العربِ إليهم وأهمها وأكرمها (. . .)[1] الله تعالى بتعطيلها عند تكوير شمسها فقال: ﴿إِذَا الشَّمسُ كُوِّرَتْ﴾ حتى قال: ﴿وإذا العِشارُ عُطِّلَت... علمَتْ نفسٌ ما أحْضَرتْ﴾ [التكوير: ١ ـ ١٤] [يعنى ما قدّمت لنفسها غدًا] من مثاقيل الذَّرِّ من الخير والشَّرِّ. قال: فأَعْرضَ عنها رسولُ الله ﷺ، أعنى: عن العشار الحوامل. فقالوا: يا رسولَ الله، هى كرائمُ أموالِنا أعرضتَ عنها. فقال: «إن اللهَ أمرنى بذلك، ثم قرأ: ﴿ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى ما مَتَّعْنا به أَزْوَاجًا مِنهُم زَهْرَةَ﴾ إلى قوله: ﴿ورِزْقُ ربِّكَ خَيْرٌ وأبْقَى﴾ [طه: ١٣١]». قيل: القناعة. وقيل: الكَفاف، وهو قوتُ يومٍ بيوم. ويقال: الحلال.

وبمعناه روينا فى الإسرائيليات: «أنّ عيسى عليه السلام مرَّ فى الحواريّين على شجرة خَضِرَةٍ نَضِرَةٍ، تحتها غَدير، فنظروا إليها. قال: وأعْرضَ هو فلم ينظُر، فلمّا جاوَزُوها قال: بحقٍّ أقول: لقد نقصَ من عُقولكم بمقدارِ نظرِكم إلى الدُّنيا. قال: ومرُّوا بميتَةِ حمارٍ قد أنتَن ريحهُ، فغطُّوا أنوفَهُم، وأفَّفُوا، فنظر إليه، ولم يُغَطِّ أنفَه ولا أَفَّفَ. فقالوا: ما أنتَنَ ريحَهُ! فقال: ما أشدَّ بياضَ أسنانه».

---

(١) تالف بالأصل، وسيجىء الخبر مرة أخرى بلفظ مختلف.

وقال مرّة: «هذه دنياكُم التى تَحْرِصُون عليها». فجعل الدنيا جيفةً مُنْتَنَةً، يعلِّمُهم بقوله «ما أشدَّ بياضَ أسنانه» تَرْكَ الغيبة، وأن لا يذمُّوا أشياءَ، بل يذكُرُوا من الشيءِ أحسنَ شيءٍ فيه. فلمّا ذكروا ما قَبُح من الصِّحة وعابُوه وهو النَّتن، ذكرَ هُو أحسنَ شيءٍ فيها وهو بياضُ الأسنانِ.

فهذا ـ كما روى عنه ـ من الأدب فى تَرْك عادة السُّوء خشيةَ الاعتياد، وإن جازَ ذَلك فى المذْمومِ: أنه مرَّ بخنزيرٍ، فاقتربَ الخنزيرُ منه، فقال له: مُرْ بسلام، فقيل له: تقول هذا للخنزير؟! فقال: أكره أن أعوِّد لسانى الفُحْشَ.

وقد رُوينا فى تأويلِ قوله: ﴿وما الحَياةُ الدُّنيا فى الآخِرَة إلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، قال بعضُ [أهل] اللغة: متاعٌ مثل: جِيفة. سمعتُ عن الأصمعىِّ أنَّ بعضَ العربِ يقول: متَعَ اللحمُ، إذا راحَ وتغيَّر. وعلى معنى ذلك فى الكلام السّائر قولُه فى ضرب المثَل للدنيا: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًا﴾ معناه: يتغيَّر. يُقال: هاجَ الشّجرُ والزّرعُ: إذا تغيَّر واصفَرَّ وفَسدَ ﴿ثُمَّ يَجْعلُه حُطَامًا﴾ [الزمر:٢١] أى مُحطَّمًا ومُنْحطمًا ومُنْهَشمًا كله بمعنى: منكسر يابس، يُداسُ ويُوطَئُ بالأقدام. ومنه قال: ﴿وما أدْراكَ ما الحُطَمَةُ﴾ [الهمزة:٥] لأنّها تَهْشِمُ الإنسانَ وتكْسِره، وتَرْكُسُه[1] وتطأهُ فى النّار الموقَدَة.

ويقال: ليس عملٌ من أعمالِ البرِّ يجمَعُ الطاعاتِ كلّها إلا الزّهدُ فى الدنيا. وعن الصحابة تابَعْنا الأعمالَ كلَّها بعضها على إثرِ بَعْضٍ، فلم نَرَ أبلغَ من أمرِ الآخرة من زَهادَةٍ فى الدنيا. وقال بعضُ الصحابة[2] للصّدر الأوّل من التابعين، لمّا رأوا شدّةَ اجتهادِهم فى العبادة: أنتُم أكثرُ أعمالاً واجْتهادًا من أصحابِ رسول الله ﷺ، وهم كانوا خيرًا منكم. قيل: ولِم ذاك؟ قال: كانُوا أزهدَ منكم فى الدُّنيا.

وكذلك قال أبو الدرداء، لمّا وصفَ الأبدالَ، فذكَر قلوبَهُم ومواجيدَهم، وعِلمَ اليقين منهم، وأحوالَ الصّديقين فيهم، فقال له صاحبه: واللهِ ما سمعتُ صفةً

---

(١) الركْس: ردُّ الشيء مقلوبًا.

(٢) هو عبد الله بن مسعود، كما فى الإتحاف ٩/ ٣٣٤.

أحسنَ من هذه، ولا أعجبَ إليَّ منها، فكيف لى أنْ أكون من أهلِها؟! فقال: يا ابنَ أخى، ما بينك وبين أن تكون من أوْسَطِهم، أو فى أوسطها، حالاً إلا أن تزهدَ فى الدنيا، فبقدر زُهدكَ فيها، وبُغضكَ لها، يدخل حبُّ الآخرةِ والرغبةُ والرَّوحُ فى قَلْبك، وبقَدْر ذلك يحبُّك ربُّك. وحدَّث الحديث بطوله فى صفات أخلاق الأبدال.

وفى وصية لقمان لابْنه: واعلم أنَّ أعونَ الأشياءِ على الدين زَهادةٌ فى الدنيا. ويُقال: مَن زهد فى الدنيا أربعين يومًا أجرى الله ينابيعَ الحكمة فى قلبه، وأنطق بها لسانَهُ. وهذا وَصفٌ من صِفاتِ الأبدالِ الذين هم خلائفُ الأنبياء، وهم الصِّدِّيقُون والشّهداء والملحقون بهم، المرفوعون إلى الرفيق الأعلى، وحَسُن أولئك رَفيقا. ذلك الفضلُ من الله. وقد جاء فى خبرٍ: «إذا رأيتمُ العبد قد أُعطى صَمْتًا وزُهْدًا فى الدّنيا فاقتربوا منه، فإنّه يُلَقّى الحكمةَ». وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]. فهذا الخير الكثير، فهو ظاهرُ عطاء الزّاهدين وأوّله، فكيف بباطن عطائِهم ونهايتِه؟

فأعلى الأحوال عند الله شنآنُ الدّنيا، وحبُّ الآخرة، كما روينا عن رسولِ الله ﷺ، لمّا سُئل: أىّ النّاسِ خير؟ قال: «كلُّ مَخْمُومِ القلبِ، صدوقِ اللسان. قلنا: يا رسول الله، وما مخمومُ القلبِ؟ قال: التّقىّ النّقىّ، الذى لا غِلّ فيه ولا غِش ولا بَغى ولا حَسد. قيل: يا رسول الله، فمَنْ على أثَرِه؟ قال: الذى يَشْنأ الدّنيا، ويحبّ الآخرة».

والشىءُ يُعرف بضدّه، كما يُعرف بمثله، فضدُّ الشنآن: المحبّة، وضدُّ الزهد: الرّغبة. ففى تدبُّر كَلمه: «إنّ شرَّ النّاسِ الذى يحبُّ الدُّنيا». وإنّ الرّاغبَ فيها هو المحبُّ لها، والاقتناءُ لها، والاستكثارُ منها، والتزيُّن والتفاخُرُ فيها، والإعجابُ بها، كلُّ ذلك علامةُ الحبِّ لها. كيف وقد رُوينا: «إنْ أردتَ أن يحبَّكَ اللهُ فازهد فى الدّنيا». فجعل الزّهدَ سببَ محبةِ اللهِ التى لا مِثْلَ لها.

فينبغى أن يكون الزهدُ من أفضلِ الأحوالِ، إذْ كانت المحبّةُ من أعلى المقامات،

وصار الزَّاهدُ حبيبَ الله. ففى دليله: أنّ من رَغب فى الدنيا فقد تعرَّض لبُغْض الله، الذى لا شيءَ أعظمُ منه، وأنّ الرّاغبَ فى الدنيا مبغوضٌ عند الله.

ورُوينا فى الآثار جُملُ هذه الأخبار: «مَنْ أصبح وهمُّهُ الدُّنيا شتَّتَ اللهُ عليه أمَره، وفرَّقَ عليه ضَيْعتَهُ، وجعل فَقْرَهُ بين عَيْنيه، ولم يأْته من الدُّنيا إلاَّ ما قَد قُدِّر له. ومَن أصبح وهمُّه الآخرة جمع اللهُ له همَّه، وحَفِظ عليه ضَيْعتَهُ، وجعل غِناه فى قلبِه، وأَتَتْهُ الدّنيا وهى راغمة».

وقال اللهُ تعالى فى معناه: ﴿**مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرَة نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِه ومَنْ كان يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنيا نُؤْتِه منْها ومَا لَهُ فِى الآخرَةِ من نَّصِيب**﴾ [الشورى: ٢٠]. فمعنى ﴿**نَزِد له فى حَرْثه**﴾: أى لا يُحاسبه بما يعطيه منها، بعد أن لا يريدها، وأن لا تكون من همِّه، فما أُدخل عليه منها يخرج منه العبد بغير محاسبة. فهذا مجازُ الزيادة عندى؛ لأنّ الرّزق لا يُزاد فيه ذَرّة على ما قُسم له أولَ مَرّة. ولذلك شرط له بقوله: «وأَتَتْه الدّنيا وهى راغمة»، وإن لم يردها، فجعل ذلك له مَجْعَل المجازاة على زهدِه فيها، وجرى مَجْرَى المُكافأة، لخروج هَمِّه منها.

وقد كان الحسن وغيرُه يقولون: أهِنِ الدّنيا تهنأ بها، فأهْنأُ ما تكونُ إذا تهاوَنْتَ بها. ومرَّةً يُقال: أهِنْ نفْسك، فأهنأ ما تكونُ بها إذا أهنتها. وقال الحسن: ما أعزَّ أحدٌ نفسَه إلا أهانَ دِينه، وحلفَ بالله: ما أعزّ عبدٌ الدِّينارَ والدّرهمَ إلا أذلَّ دينَهُ. وقال مرّة: إلا أذلَّه. ومرّة يجعل بعضُ العقلاء ذلك فى النفس، فيقول: من أراد أن يُعِزَّ نفسَهُ فليُذِلَّ دِرْهَمَهُ، وما أعزّ أحدٌ درهَمهُ إلا أهانَ نفسه.

وهذا بابٌ. وقد كان المسيح ابن مريم عليه السلام، يقول: «إليكِ عنّى يا خِنْزيرة».

قال: وكذلك قولُ السّلفِ لها إذا فُتحت عليهم: إنّا قد عرَفْنا ربَّنا. أى: قد عَرَفْناهُ بالاختبار بها، والمكرِ منه، والتفْتين بالتّوسعَةِ فيها، لينظر كيف نعملُ فيها، أَنُقْبلُ إليه بها، أو نُعرض عنه بالإقبال علَيها؟ وكقوله: ﴿**لأَسْقَيْناهُم مَّاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُم فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذابًا صَعَدًا**﴾ [الجن: ١٦ـ ١٧]. وقال فى

مثله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أى: بها وفيها ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧] أزهدُ فى الدنيا، وأتركُ لها، وأحسنُ صبرًا عليها عنها.

وكان أبو محمد يقول: يُجعل أعمالُ البرِّ كلّها فى موازين الزُّهاد، ويكون ثوابُ زهدهم زيادةً لهم. وقال مرّةً: العُبَّاد فى موازين العُلَماء، والعلماء فى موازين الزّهاد يوم القيامة، فلا يطمعنّ طامع فى محبّة الله له وهو محبٌّ للدُّنيا؛ لأنّ اللهَ تعالى يمقتها ويُبْغضها، ويقول: أنتِ وأهلُكِ إلى النّار.

وفى الزّبور: «إنّ الله تعالى قال لآدم عليه السّلام: تدرى لِمَ ابتليتُكَ بالخطيئة؟ قال: لا. قال: جعلتُ معصيتك سببًا لعمارَةِ الدّنيا. فإذا عُمِّرتَ بالمعصية ينبغى أن تَخْرَبَ بالزُّهد فيها». فإن الزهد فى الدنيا أصل كلِّ طاعة. كما روينا فى تأويله: «حبُّ الدّنيا رأسُ كُلِّ خطيئة». فمثَلُ الدنيا مثَلُ إبليس، جعله الله للبُعد واللعنة، ليبتليه ويبتلى به، ويهلكَه ويُهلك به؛ لذلك قيل: «الدّنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها، إلا ذكْرَ الله وما والاه». وفى لفظ آخر: «وما آوى إليه». أى: مُبَعَّدةٌ عن قُربِ الله وخاصيَّةِ رَحمته، كطرْد إبليس وإبلاسه. وقد أُشهد ذلك بعضُ المكاشفين، فقال: رأيتُ الدّنيا فى صورة جيفةٍ، ورأيتُ إبليس فى صورة كَلْب، وهو جاثم عليها، ومنادٍ من فوق: أنت كلبٌ من كلابى، وهذه جيفة من خَلْقى، وقد جعلتُها نصيبكَ منّى، فمن نازعكَ شيئًا منها فقد سلَّطتُكَ عليه.

فجاء من هذا أنها مكانه، فمن تمكّن فى شىء منها سُلِّط العدو بالمكانة منه بقدر ما أصاب منها، فصار أبناؤها يقعون على العدو، يَبْتَزُّون نصيبه منها الذى جُعِل له، فبسط عليهم بسُلطانه الذى سُلِّط به على مَنْ نازعَه ما فى يده، وتولاه بقُربه، إلا المتوكّلين من المؤمنين، ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يولّيهم بقُربِهم منه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠] فى التوحيدِ بالإلحاد، يشاركُهم فى الأموالِ والأولاد ويجلبِ عليهم بخيله ورَجِله، ويَعِدهُمُ الغُرورَ، ويُمنّيهم الزُّور، كما فرض لهم من النّصيب لمن اتّبعه فى نصيبه نصيبًا مفروضًا، ذلك تقديرُ العزيزِ العليم.

وقد كُوشف بها بعضُ الأولياء فى صورة امرأة، ورأى أكُفَّ الخلق ممدودةً إليها، وهى تجعل فى أيديهم شيئًا. قال لى: فقلتُ له: يا أبا الخير، ما هُو؟ قال: شىء يُلتَذُّ. قال: وطائفة تمر عليها مكتوفى الأيدى لا ينظرون إليها، قال: فليس تعطيهم شيئًا.

وقد قيل: الدّنيا لئيمة، إن أكرمْتَها أهانتك، وإن أهنْتها أكرمتك. فاللئيم إن نظرتَ إليه ورفعته أعرض عنك ووضعَ منك، والكريمُ بضدّ ذلك. وقال أبو سليمان الدّارانىّ: الدّنيا لئيمة، والآخرة كريمة، فإذا كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزاحمُها للؤمها. وإذا كانت الدنيا فى القلب لم تجئ الآخرةُ تزاحمها لكَرَمِها. معناه: أنَّ يَسيرَ دُخولِ الدنيا يُخرج كثيرَ دخولِ الآخرة، وكثيرٌ من شأن الآخرةِ لا يُخرج يسيرًا من الدنيا، وإنّ كثيرًا من أمر الآخرةِ قد يزيله قليل من أمر الدنيا، وإنّ قليلاً من أمر الدّنيا لا يزيله الكثير من الآخرة. هذا لعِزّة شأن الآخرة، وقلّة النصيب منها، وعِظم البلوى بها.

وقد قال مُوَرِّقٌ العِجْلىّ: رأيتُ الدُّنيا فى صورةِ عجوزٍ شَمطاء دَندانيّة سَمِجة، عليها ألوان المُصبّغات، وأنواعُ الزِّينة. فقلتُ: أعوذ بالله منك. فقالت: إن أردتَ أن يُعيذك اللهُ منّى فابغَضِ الدِّرهمَ. وفى لفظ آخر: واللهِ! لا يُعيذك الله منِّى حتى تُبغِض الدّينارَ والدِّرهمَ.

وكان بعضُ السلف يقول: الدّنيا دَنيَّة، وأدنى منها قلبُ مَن يحبُّها. وقال آخر: الدّنيا قليلٌ، وأقلُّ منها من يظلم على شىءٍ منها. وروى عن على كرّم الله وجهه: «الدنيا جيفة، فمن أرادَها فليصبر على مُزاحمة الكلاب». وفى أخبار موسى عليه السّلام: «إن لم تَلْقَ الفقيرَ بمثل ما تلقى الغنىَّ، فاجعل كل علم علَّمتكَ تحت التراب. وإذا رأيتَ الفَقْر مقبلاً، فقل مرحبًا بشِعار الصالحين. وإذا رأيتَ الغِنَى مُقبلاً، فقل ذنبٌ عُجِّلَت عقوبته».

وفى أخبار داود عليه السَّلام: «إنّى خلقتُ مُحمّدًا لأجلى، وخلقتُ آدمَ لأجل محمّد، وخلقتُ ما خلقتُ لأجل ولد آدم، فمن اشتغلَ منهم بما خَلَقْتُه لأجله حجبتُه عنّى، ومن اشتغل منهم بى سقتُ إليه ما خلقتُه لأجله.

وكان أبو محمد يقول: الصدِّيقون فى بدايتهم طلبوا الدنيا من الله فَمَنعَهُم، فلمّا تمكَّنوا من أحوالهم عرضَها عليهم فامتنعوا منها. فالحالُ الأول موضعُ العصمة، أن منعَهم منها لضَعفهم؛ لئلا يهلكوا بقَبُولها، فلمّا تمكّنَ منهم ومكّنهم عنده ردَّها عليهم؛ لأنهم قد صَلَحوا للأخذ: ﴿**آخذينَ ما آتاهُمْ ربُّهُم إنَّهُم كانُوا قَبْلَ ذلكَ مُحْسنينَ**﴾ [الذاريات: ١٦]، فلمّا ذاقوا حلاوةَ الزُّهدِ، ووجدُوا نعيمَ الحُبِّ، لم يكن للدنيا عندهم وَزْنٌ، ولا فى قُلُوبهم قَدْر، فأعرضوا عنها لمّا عرَضها عليهم بحُسن إقبالهم عليه[١].

وقال يزيدُ بنُ مَيسرة، وكان من علماء أهل الشام: كان أشياخنا يسمُّون الدّنيا خنزيرة، فكانت إذا أقبلتْ على أحدِهم دنيا، قال لها: إليكِ عنّا يا خنزيرة، لا حاجةَ لنا بك، إنّا قد عَرَفنا إلهنا. أى: قد عرَفْناه بالمَقْت لك، فوافقناه فى ذلك. وعرفناه، أيضًا، بالألوهية فتولَّهت قلوبنا به، وتألَّهت هِمَمُنا إليه، فطلبناه، وأعرضنا عمّا سواه. وعرفناه بالابتلاء بكِ لينظر كيف نعمل فى الزّهد فيك، والأمرَة له عليك، ولِنَنظُرَ إليه بنظره، فنعرض عنكِ لإعْراضِه، ونقبل عليهِ بحُسْن إقبالِه علينا، أو ننظر إليكِ، فنعرض عنه، ونقبل عليك، فيكون ذلك سببَ إعراضِه عنا، ومكانًا لمقته لنا.

وكذلك كان الحسنُ، رحمه الله، يصف أشياخه الذين تأدَّب بهم، كان أحدهم يُعرَض عليه المال الحلال، فيُقال: خُذه فاستْغنِ به، وتوسَّعْ فيه. فيقول: لا حاجةَ لى فيه، أخاف أن يُفسد علىَّ قلبى. وقال مرَّة: والله، إن كان الرجل من أصحاب محمّد ﷺ ليَيبس جلدهُ على عَظْمه، ما بينهما شَحْم ولا لحم، يُدعى إلى الدنيا حَلالاً فما يقبل منها قليلاً ولا كثيرًا، يقول: أخاف أن يُفسد علىَّ قلبى.

فهذا لمن كان له قلبٌ صالحٌ راعاه، وخاف تغيُّرَهُ، ومن كان قَلْبُه فاسدًا وبالدنيا واجدًا كيف يستبينُ له غيرُهُ؟! وقد كان عَوْنُ بنُ عبد الله المسعودى يقول: الدنيا والآخرةُ فى قلبِ العبد ككِفَّتى الميزان، ترجحُ إحداهُما فتخفُّ الأخرى. فهذا

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٧٧.

وصفُ قلبٍ هو باليقين مِعيارٌ فيه، يكون لكثرةِ التَّفقُّد حسنَ الاعتبارِ، فيبين لصاحبه النقصان من الزِّيادة.

وقد كان [عون بن عبيد الله][1] المسعوديُّ يحكى عن طريقة السَّلف، فقال: إنّ مَن كان قبلكُم، كانوا إنَّما يَجعلون لدُنياهم ما فضَل من آخرتِهم، وإنّكم تجعلون لآخرتِكم ما فَضلَ عن دنياكم.

أى: لرُجحان كفّة الآخرة فى قُلوبهِم، وغَلَبةِ أمرِها عليهم، ولقُوّة يقينهِم، يقدِّمون شأنها، فيَبْتَدِرُون بأن يَنقلوا مِن دارٍ عنها يرتحلون إلى دارٍ فيها يُقيمون أحسنَ ما يدّخرون، ويقدّمون لدارِ الحياةِ والبقاءِ المؤبَّد من محلّ الموتِ والفناء المؤقّت المجدَّد أجودَ ما يفعلون، إذ دارُهم أمامهم وحياتُهم بعد موتهم؛ لأنّهم خُلقوا للآخرة لا للدنيا، للبقاء لا للفناء، ثم يجعلون ما فضَلَ مِن عيشهِم لدنياهم؛ لأنّه متاعٌ فى الحال، وبلاغٌ إلى وَقْتٍ وحِينٍ. وهذا علامةُ حسنِ اليقين، وهو يقينُ الزّهدِ، الذى صار الزُّهادُ به زاهدين، فيها الرّغبة والحرص، لا يقين الإيمانِ الذى صار به المسلمون مؤمنين، بنَفْى الشِّرك[2] بالصحابة والولد.

وكان بعضهم يقول فى دعائه: اللهمّ اجعلها بَلاغًا لا مَتاعًا. كأنّه يتأوّل ما قيل: «الدّنيا بلاغٌ للمُؤْمن» أى بُلْغَةٌ يتبلّغ بها إلى الآخرةِ، «ومتاعٌ للكافر» أى مُتعَة وتمتُّع فى عاجلته. وقد كان عونُ بن عبد الله بهذه المنزلةِ، أوصى بضَيْعة له تُباع عند موته ويُتصدَّق بها، فقيل له: تَدَع عيالك؟! فقال: أقدم هذا لنفسى وأؤخِّرُ اللهَ لعيالى. وجاءته مرّة خمسون ألفًا، فقيل له: اعتَقِدْها[3] لولدك. قال: أعتقدُها لنفسى، وأعتقدُ اللهَ لولدى. وكذلك فعل عمرُ بن عبدِ العزيز، فرَّق ماله عند موته. فقيل له: لو خلَّفته لأولادك. فقال: أجعلُ مالى لنفسى، وأجعلُ اللهَ تعالى وأُخلِّفه لولَدى.

وسئل الحسنُ رحمه اللهُ عن الرجلِ يُوسَّع عليه فى رزقه، هل له أن يتّسع فى

---

(١) من الإتحاف ٩/٣٧٨.

(٢) فى المخطوط: «الشك»، وأثبت ما فى الإتحاف؛ لأنه أدق، والفقرة فيه كاملة والتى بعدها.

(٣) اعتقدها: أى اقتنيها وأبقيها.

الشّهوات؟ فقال: لا واللهِ. إذًا لو كان له الدنيا لم يكن ينبغى أن يأخذ من مالِه إلا الحاجة والكِفاية، فى غير سرَفٍ ولا تبذير، ويقدِّم فُضولَ ذلك لآخرتِه، ويجعله ذخيرةً له لغدِه.

وكان السّلف الصالح يقولون: اتخذوا الدّنيا ظِئرًا[1]، والآخرةَ أُمًّا. أما ترى الصبى يُلْقَى على ظئره، فإذا عَرَفَ أُمَّه ألْقَى نفسه عليها، وترك ظِئرَه. الآخرةُ أُمُّكم يوشك أن تُلقَوْن عليها، وتفارقون الظِّئر. وقال جابر: ليس قومٌ أكرمَ على الله من الفقراء؛ لأنّه لم يكن من الخلق أكرمَ من الأنبياء، فجعلهم فقراء. ولَمَّا استُخْلف عمرُ بنُ عبد العزيز بكى، وقال لأبى قِلابَةَ: هل تخشى علىَّ؟ قال: كيف حبُّكَ للدرهمِ؟ قال: لا أحبُّه. قال: فلا تخف، فإنّ اللهَ سيُعينك.

وقد ضربَ رسولُ الله ﷺ مَثَلَ الدنيا بما يخرج من نَجْوِ ابن آدم، بقوله للأعرابى: «أرأيتم ما تأكلون وتشربون، تُنظِّفُون وتُطَيِّبون وتَبَرَّزُون؟ قال: بلى. قال: فإلى أى شىء يصير؟ قال: إلى ما قد علَمتَ يا رسول الله. قال: أليس يقعدُ أحدكُم خلْفَ بيتِه، فيجعل يده على أنفِه من نَتْنِ ريحه؟ قال: نعم. قال: فإن اللهَ جعلَ الدنيا مثَلاً لما يخرج من ابن آدم».

وقال بعضُ أهل الفَسْرِ فى تأويل قوله عزّ وجلّ: ﴿**وفى أنفُسكم أفلا تُبصِرُونَ**﴾ [الذاريات: ٢١]، قال: مواضعُ الغائط والبَوْلِ. أى تعتبروا به مآلَ الدنيا، وقُبحَ عاقبتها، فتعبروها إلى الآخرةِ. وقد كان الحسنُ يقول: لَما أُهبط آدمُ إلى الدنيا، كان أوّل شىء عمِلَ فيها أنّه أحدث. ورُوينا عن ابن عباس رضى الله عنه: أنّه عليه السلام نظر إلى ما خرجَ منه، فآذاه ريحُهُ، فاغتمَّ لذلك. فقال له جبريل عليه السّلام: هذه رائحة خطيئتك.

فشهد العقلاءُ عن اللهِ الدنيا فى صورةِ كنيفٍ، فلم يدخلوا فيها إلا ضرورةً، وكلمّا استغنيتَ عن دخولك الكنيفَ كان أجود. ورآها بعضُهم جيفةً، فلم ينالوا منها إلا بُلْغَةً لا متعةً، وكلّما تقلَّلت من الجيفة كان خيرًا، فالشهادة أسلمته لأهلِ

---

(١) الظِّئر: التى تعطف على ولَدِ غيرها. والمرضعة له فى الناس.

الاعتبار. والآخرُ رآها فى صورة حمّام، يدخل فيه للحاجة. فخذ منه ما ينقِّى الدَّرن، ويذكِّر النّار، وهذا خير، لينقى فيه. كما قيل: نعم البيت الحمّام. ذُكر بذلك، فإذا قارب أن يأخذ منك فانتبذ منه الشُّهود. والرّابعُ: لأهل البصائر، صورَّها فى معنى الحُمَّاض[1]، ليس بقوت إنما يُراد شهوةً لوقت، فخُذ منه قبل أن يأخذ منك، فإذا أحسستَ بأخذه منك فاقطعْهُ عنك مثل الضّرس الذى يقطعك عن الأكل. وليس فِداءُ هذه الشهادات إلا التّمادى فيها، والغفلة عن الآخرة لأهل الشّهوات، وقد قال سبحانه وتعالى للرسول ﷺ فى الأخذ من الأغنياء ما فى أيديهم: ﴿خُذْ مِن أَمْوَالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم﴾ يعنى من فُحشِ الأموال ﴿وتُزَكِّيهم﴾ [التوبة:١٠٣] أى: تزيدهم من خير الآخرةِ. فولا أنّهم دُنِّسُوا بالمال ما طُهِّرُوا بالأخذ، ولولا أنّهم نقصوا فى المآل ما زيدوا بالإخراج فى الحال. وقال الرسول ﷺ: «أُمِرْتُ أن آخذَها من أغنيائكم، وأجعلَها فى فُقرائكم».

فصار الفقراءُ اليوم طُهْرةَ الأغنياء ومَزيدهم، وكانوا غدًا رفيعَ درَجاتِهم وعُلُوَّهَم. فالمطهِّر المزكِّى بوَصْفه أفضل من المُطهَّر المزكَّى بوصف غيره، كذلك الفقيرُ الزاهدُ مستغنًى بالطّهرَة عن الزّكاةِ، وبالصّفوةِ عن التّطهير؛ لأنَّ منْ كانَ على طَهارةٍ لم يحتج إلى فَضْلِ وُضوءِ الصلاةِ، بل قام مُصليًا، وإنّما يتوضأ من لم يكن على طهارةٍ، كذلك يتزكى بالمال من احتاج إلى زكاة، ولم يكن مُزَكًّى من المالِ. فالزّاهد قد زكّاهُ الله بطُهْرةِ الحال إذ لم يُدنَّس بالمال فيُطَهَّر بإخراجه، ولم ينقص بوَجده فيزيد بفقده. فصار الفقْرُ أفضلَ بعينه، فلذلك فَضَلَ الزّاهد به. وكان الغَنىُّ مفضَّلاً بمعناهُ وهو إخراجُ غِناهُ، لا بنفسه، فلمَّا صار فقيرًا من جَمْعه ببذله فُضِّل بالفقرِ منه حين أشبه الفقيرَ بوَصْفه، فصار فضلُه من معنى ما فُضِّلَ الفَقيرُ به، وهو الزّهد فى ماله لمفارقته.

وقال وهبُ بن منبِّه: قرأتُ فى بعضِ الكتبِ: ابنَ آدم، تريدنى اتركُ الدّنيا، فإنّك إن تُرد الدّنيا طال عناؤك فيها. وفى بعض الكتب: ابن آدم، أنا بُدُّكَ اللازمُ، فلا تُؤثر علىَّ ما منه بُدٌّ. وصدق الصادقُ: إنّ لابن آدمَ من جسمه المتّصل برُوحه

---

(١) الحُمّاض: عُشبة تنفع للعطش.

بُدٌّ، إذ يخلعه وينسلخ منه انسلاخَ النهارِ من الليل، فيكون له منه بدٌّ، فتبقَى رُوحه، وهى رسْمُ العُبوديّة، وتخطيط الكونيّةِ، وظرفُ العطاء، وموضعُ جريان الأحكام. ولا بد له من معبوده وخالقه ورازقه ومُحْييه ومُميته ومُبْديه ومُعيده، فكيف لا يكون له بُدٌّ من الأهلِ والولدِ والجسدِ والمالِ المُنفَصِل، وله بدٌّ من جسمه المتّصل؟

ويُقال: إنّ الله تعالى أوحى إلى الدنيا: اُخْدُمى مَنْ خدَمَنى، وأَتْعبى مَنْ خدَمَك. وقَال بعضُ السَّلَف، وقد رويناه من طريقٍ مُسندًا: «إنّ الله تعالى أوحى إلى الدّنيا: تمرَّرِى لأوليائى حتّى تكون رغبتهم فيما عِندى، واحْلَوْلى لأعدائى حتى يكرهوا لِقائى». وفى حديث عائشة رضى الله عنها: «مَن أحَبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءه. ومن كَرِه لقاءَ الله كره اللهُ لقاءَه».

فلو لم يكن من فضل الفقير الزّاهد المنعَم عليه بالقلّة والذِّلة والخُمول والمسْكَنة إلا حُبُّه للقاء الله، وقلّة كراهيته لِفراق ما هو فيه من حاله، وفَقْد تأسُّفه على ما يُفارقُه مّما يملكه، حتى إنّ الأغنياءَ يَغْبطُون الفقيرَ على موتِه، إذ لا يخلِّف شيئًا، ويَوَدُّونَ فى حين وَقْتِه أن يكونوا مثله، ولا يجدون إليه سبيلاً، ولذلك قيل: لا تغبط الأحياءَ إلا بما تَغبط به الفقراءَ الأمواتَ عند الموت. وإنّما يُغبَطُ الميّتُ بخاتمة الفَقْرِ، وبما قدَّم من الباقيات الصّالحاتِ، فكل حالٍ يُغبطُ به صاحبه عند الموتِ لقُرْب البَقاءِ فالْزَمْها، وكل حالٍ من غنًى ورغبةٍ تكره أن يبغتك الموت عليها ليس (. . .) ففارقها. فهذا من البقاء (. . .) والغفلة للغرَّة بالنفس، كما أنشد بعضهم:

إذا أعجبتْكَ حالُ امرئٍ فكُنْها يكن. . . . .
لا تَقضينَّ على غائبٍ فيفرح جهلاً بما ليس. . . . .[1]

فهذه الآثار ونحوها قاصمةٌ لظهور أبناء الدنيا، مُسخنة لعين محبِّيها، وأضدادُها من الأخبارِ الحُسنى فى فضل الزهد، وشرف الفقر، رافعةٌ لرُءوسِ الفقراءِ الصّادقين، وقرّةُ عين الزّاهدين.

(١) عدة مواضع تالفة بالأصل المخطوط.

وأصلُ الرغبةِ فى الدنيا مِن ضَعف اليقين؛ لأنَّ العبدَ لو قوى يقينه، نظر بنوره إلى الآجل، فغاب فى نظرِه العاجل، فزهد فيما غاب، وأحبَّ الحاضرَ، فآثر ما هو أعْودُ عليه، وأبقى وأنفع له، ولمولاه أرضَى، وقدَّم ما يَفنى وينقطع إلى ما يدوم ويتصل. وهذا هو صورةُ الزهدِ، وشهادةُ الموقن؛ لأنَّ الحاضرَ لا يحبّ ما غاب وانتقل، ألم تر إلى وصفه عز وجلّ إبراهيم عليه السلام فى قوله: ﴿لا أُحِبُّ الآفلين﴾ [الأنعام:٧٦] بعد قوله: ﴿وَليكُونَ منَ الْمُوقنينَ﴾ [الأنعام:٧٥] فالموقن مأمور باتباع ملّة إبراهيم، لقوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهيمَ﴾ [الحج:٧٨] أى: عليكم ملّة أبيكم إبراهيم، واتبعوا ملته.

وليس يُشْهَدُ الوعْدُ والوعيدُ الآجلُ بنورِ العقل، إنّما يُشهَدُ بنورِ اليقين.

على أنّا نقول: إن أصولَ الأنوارِ أربعة. والقلبُ موجَّهٌ جهات أربعة إلى المُلك والملكوت، وإلى العزّة والجبروت: فبِنُور العقل يُشْهَد المُلْكُ وهو الدنيا، وبنور الإيمان يُشْهَد الملكوتُ وهو الآخرة، وبنور اليقين يُشهَد العزّةُ وهى الصّفات، وبنُور المعرفةِ يُشْهَدُ الجبَروتُ وهو الوَحْدانية. والجبّارُ تعالى فوقَ القَلْب، محيطٌ به، يكاشفُه بما شاء، فيغلب عليه وَجْدُ ما أَشْهَده، وهو أمرُه المتنزّل منه، ﴿واللهُ غَالبٌ علَى أمْره﴾ [يوسف:٢١]، ﴿يَتنزَّل الأمْرُ بيْنَهُنَّ لتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ علَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ وأنَّ اللهَ قَدْ أحَاطَ بكُلِّ شَيْءٍ علْمًا﴾ [الطلاق:١٢].

وضَعفُ اليقينِ قد يدخل فى كل شىء، وقوةَ اليقين تحتاج إليه فى كل أمْرٍ وعملٍ، وإلاّ فهو دنيا يُهتدَى إليه بنور العقْلِ، فمن لم يُعْطَ نورَ اليقين لم يَرَ المُلْكَ الكبيرَ، فاستهواه المُلْكُ الصغيرُ، فأحبَّ لا شىء، إذْ لم يَرَ شيئًا، فلم يكُن قيمتُه فى العُلُوِّ، ولا عندهُ الأعْلَى، إلا كَلا شَىء.

• ذكر ماهية الزهد(١)، أى شىء هو:

ليس يمكن لعبدٍ أن يعرفَ الزهدَ حتى يعرفَ الدّنيا أىَّ شىءٍ هىَ، فقد قال الناس فى الزهد أشياءَ كثيرةً. فمن جُمَل ما قالوا، أنّ سفيانَ الثورىّ وغيره،

(١) كل ما ذكره عن تعريف الزهد ليس فى المطبوعة، ونقله صاحب الإتحاف ٩/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

رحمهم الله، قالوا: الزُّهد فى الدنيا هو قِصَرُ الأملِ، وانتظارُ الموت. وكان بشرُ ابن الحارث، رحمه الله، يقول: الزّهدُ فى الدّنيا هو الزهدُ فى الناس، وفى ملاقاتهم، إذ الرغبة هى فيهم وفيما عندهم.

وقالت طائفة: الزُّهدُ هو بُغْضُ المحَمْدةِ، وأن لا تحب أن تُمدَح على شىءٍ من أعمالك. وقال آخرون: الدُّنيا هى الأكل واللباس والمال، والزهدُ هو تَرْكُ فضولِ هذه الأشياء. وقال آخرون: حقيقةُ الدنيا هو حبُّ الشرفِ والعلُوِّ، وطلبُ العزِّ والرّياسةِ.

فينبغى أن يكون الزهدُ عند هؤلاء حُبَّ الخمول والذِّلّة وطلبَ الخضوعِ والضَّعَة.

وقالت طائفة من الصّوفية: الدُّنيا هى ما دنا من النفس بحظّ الطبع، والزهدُ عندهم مفارقةُ حظوظ النفسِ فى كلِّ شىء. وقال بعض العارفين: الدنيا هى النّفسُ، فبقدر ما تزهد فى هواها أىَّ شىء كان، فذلك نصيبُكَ من الزّهد.

وكان سُفيان يقول: الزُّهد فى الدُّنيا هو الصّبر على الحقّ فى كلِّ شىء. وأمّا حاتمُ الأصم فإنّه سُئل: ما الزّهدُ؟ فقال: رأسُ الزهد الثقةُ باللهِ، ووسطُه الصَّبر، وآخرُه الإخلاصُ.

فأدخل فيه التوكل، وجعله أوّلَه؛ لأنّه لا يَزهدُ حتى يثقَ بالله فى الرّزق، ويتوكل عليه فيه. وجعل الصبرَ حالاً منه، أراد الثباتَ عليه، لئلا يملَّ ويخرجَ[1] فيرجعَ إلى الرغبةِ والدنيا. وجعل نهايتَه الإخلاصَ، فهذا إخلاصُ الصّادقين، أن تُريد بذلك وجهَ الله تعالى وحده، وابتغاءَ مرضاته، لا تطلُّعًا إلى عِوَضٍ، ولا تطلُّبًا شيئًا من غيره سبحانه.

وكذلك جعل أحمدُ بن حنبل الإخلاصَ هو الزهدَ، فقيَّده به؛ لأنّه إذا بلغ حقيقةَ الإخلاصِ لله وحدَه فقد زهد فيما سواه. فاتفقا بمعنًى تقاربا فيه؛ أحدهما: فسَّر الزُّهدَ بالإخلاص؛ وجعله نهايته، وهو حاتم. وأحمد عبَّر عن الإخلاص بالزهد؛ لأنّه حقيقته. فحُدِّثت عنه رحمه الله أنه سُئل: ما السببُ الذى ذُكر به

(١) فى الإتحاف ٩/ ٣٤٥: «لئلا يميل أو يخرج».

القوم بعد وفاتهم، وأُثنى عليهم به؟ فقال: هو الصّدقُ. قيل له: فما الصّدقُ؟ قال: هو الإخلاص. قيل: فما الإخلاصُ يا أبا عبد الله؟ قال: هو الزّهدُ فى الدّنيا.

وأما أيوبُ السَّجتيانى، فإنه سُئل عن الزّهد ما هو؟ فقال: أن تقعدَ فى بيتك، فإن كان قعودُك لله رضًا وإلا خرَجْتَ. تُنْفق درهَمك، فإن كان لله رضًا وإلا أمْسَكْتَ. تُمسك مالك، فإن كان لله رضًا وإلا أخرجته. تَسْكتُ، فإن كان سكوتُك لله رضًا وإلا تكَلَّمتَ. تتكلّم، فإن كان كلامُك لله رضًا وإلا سكتَّ. هذا هو الزهد، وإلا فلا تلعبوا.

وهذا مقامُ المحاسبةِ للنّفس، وحالُ المراقبِ للرّبّ، ووصفُ المراعى للوقْت. فجعل الدّنيا هى تركُ موافقةِ رضا الله تعالى فى كلِّ شىءٍ، إذ جعل الزهد فيها هو اتِّباعُ مرضاتِهِ فى الأشياء.

وقاربَهُ مجاهدٌ فى هذا المعنى، فجعل الزهدَ أيضًا حالَ الرّضا، والإيثارَ للمولى فى كلِّ الأحوالِ، قال: قلتُ لمجاهد: ما الزّهدُ؟ قال: الأثَرة لله على ما سواه. إذا أتاه شىءٌ من الدنيا استعمل الخوفَ والحياءَ، فيؤدى إلى كل ذى حقٍّ حقَّه، فهو أيضًا من المتزهّدين، ولم يَلحق بدرجةِ الزّاهدين. والزّاهد الرّاضى عن الله فى السَّراء والضّراء، والعافيةِ والبلاءِ، لا يكون فى حالٍ أوزَنَ من حال، فإذا كان كذلك فى جميع الأحوالِ شيئًا واحدًا، لم يفضِّل حالةً على حالةٍ، واستحقَّ الحبَّ من الله.

يعنى: لأنّه لا يَفْضُل فى حال دون حال، فلذلك لم يفضِّل حالاً على حالٍ؛ لأنّه لا يكون فى حالٍ أنقص فيَتِمّ بحالٍ، إذ قلبُهُ قد استوى مع الله، فاعتدل فى كل حالٍ، فهو لا يتلّون بحالٍ، بل ثابتٌ كذلك لا يزال.

ثم قال: فمَنْ أحبَّه اللهُ حبَّبهُ اللهُ إلى خلْقه، ومن بَغَضه بغَّضه إلى عباده، قد سباهُ الحبُّ، وشغفهُ الشّوقُ، فهو داخلٌ مع الخَلقِ، منفصلٌ منهم، غير مضَيِّعٍ لما ألزمَهُ اللهُ من حُقوقِهِم، فأنّى لإبليس أن يطمع فى هذا، ومعه من اللهِ عصمةٌ وتأييد، فلولا القَدَر لرفعهُ إليه من حبِّه له.

فهذه صفةُ العارفِ المتمكنِ الدَّاخلِ مع الخَلْقِ بجسمه، الخارجِ بقلبه، الناظرِ إليهم بعَينه، المبصرِ إلى الغيب بيقينه، المتكلِّم للعبادِ بعلمهم، المعاملِ لهم بأخلاقِهم، المنفردِ عنهم بحاله، المستثيرِ ذوقَهُم بعلمه، المنقطعِ إلى ربه بِهَمِّه. نظر إلى مولاه مِن نظرِه إليه بما تولاَّه، متوحِّدٌ له بوَصْفِه مَن حيثُ اتّخذ له وَاحِدُهُ بوَجْهه، وتخلّق له بخلقه؛ لما ألبسه من نوره، فحجبَهُ به عن خَلْقه. فهو ظاهرىٌّ باطنىٌّ، نَبَوىٌّ رَبانىٌّ خالِقىٌّ، ينظر بعينِ التعديلِ، ظاهرهُ حكمةٌ، وباطنهُ قُدرةٌ. فهذا مقام زائدٌ على حالِ الزهدِ، وهى صفاتٌ.

فهذه الصفاتُ يتحقق الموصوفُ بها بعد حقيقةِ زهده فى الدّنيا، فهى ثمرةُ حبّ الله تعالى له عن فَرْع بُغْضِه للدّنيا، عن أصلِ معرفتِه بمقتِ اللهِ لها. كما قال: من أراد أن يحبَّه الله فليزهد فى الدنيا.

وقال: من زهد فى الدّنيا عَرَّفَهُ اللهُ داءَها ودواءَها، وأخرجه منها سالمًا إلى دار السَّلام. ومن حَرَص عليها توَهَهُ اللهُ فيها، ولم يُبالِ فى أى أَوْدِيتها تُهْلِكُهُ.

فهذه جُمَلُ أقوالِ النّاسِ فى الزّهدِ ومعناه فى أربعين مقالة. ونحن بنعمة الله وحَمْدِه غير محتاجين إلى أقوالهم، بما بيّن اللهُ تعالى، وأغنى بكتابه المبين، الذى جعل فيه الشّفاءَ والغنى، فهو هُدًى للمُتَّقين. وقد قال الرسولُ ﷺ: «هُو الحَبْلُ المَتينُ، والصِّراط المستقيمُ، من طلبَ الهُدى فى غيره أضلَّه الله».

وقال اللهُ الحقُّ المبين: ﴿وما اخْتَلَفْتُمْ فيه منْ شَىْءٍ فَحُكْمُهُ إلى الله﴾ [الشورى: ١٠]، وقال عزّ وعلا: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذينَ آمَنُوا لمَا اخْتَلَفُوا فيه منَ الْحَقِّ بإذْنه﴾ [البقرة: ٢١٣]. فقد ذكر الله جلّ اسمه فى كتابه: أن الدنيا سبعة أشياء، وهو قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ للنَّاس حُبُّ الشَّهَوَات منَ النِّسَاء وَالْبَنينَ والْقَنَاطير الْمُقَنْطَرَة منَ الذَّهَب وَالْفضَّة وَالْخَيْل الْمُسَوَّمَة وَالأَنْعَام وَالْحَرْث﴾، ثم قال تعالى فى آخرها: ﴿ذَلكَ مَتَاعُ الْحَيَاة الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤]، فَوصَف حُبَّ الشهوات بالتزيُّن، ثُمَّ نسّق الأوصافَ السبعة على الحبّ لها، ثم أشار لها بقوله تعالى: ﴿ذَلكَ﴾ فذا إشارة إلى الكافِ، والكافُ كنايةٌ عن المذكور المتقدّم المنسوقِ، واللامُ بين «ذا،

والكاف» للتّمكين والتوكيد. فحصل مِن تدبُّر الخطاب أنّ هذه السبعة جملةُ الدنيا، وأنّ هذه الدنيا هى هذه الأوصافُ السبعة، وما تفرَّع من الشهوات رُدَّ إلى أصلٍ من هذه الجُمل. فمن أحبَّ جميعها فقد أحبَّ جملةَ الدنيا نهايةَ الحبِّ، ومن أحبّ أصلاً منها أو فرعًا من أصل فقد أحبّ بعض الدنيا. فعلمنا بنَصِّ الكلام: أنّ الشهوةَ دنيا، وفهمنا من دليله: أنّ الحاجاتِ ليست بدنيا، لأنّها تقع ضرورات، فإذا لم تكن الحاجة دنيا دلّ أنها لا تسمَّى شهوة، وإن كانت قد تُشْتَهى؛ لأن الشّهوة ـ كما قُلْنا ـ دنيا، ولتفرقةِ الأسماء لإيقاع الأحكام عليها. واستند ذلك إلى ما رويناه آنفًا من قول الله تعالى لإبراهيم الخليل ﷺ: «أمَا علِمتَ أن الحاجةَ فى الدُّنيا ليست من الدُّنيا». ثم سمعناه تعالى قد ردّ هذه السبعة الأوصاف فى مكان آخر إلى خمسة معان، فقال جلّ من قائل: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وَزِينَةٌ وتَفاخُرٌ بَيْنَكُم وتَكاثُرٌ**﴾ [الحديد: ٢٠]، فهذه الخمسة هى وصف من أحبَّ تلك السبعة. ثم اختصر الخمسة فى معنيين منها هما جامعانِ للسبعة، فقال: ﴿**إنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ**﴾ [محمد:٣٦]، ثم ردّ الاثنين إلى وصف واحد وعبَّر عنه بمعنيين، فصارت الدّنيا تَرجِعُ إلى شيئين جامعَيْن مختصرَيْن، يصلح أن يكون كلّ واحد منهما هو الدنيا. فالوصف الواحد الذى ردّ الاثنين إليه ـ اللذان هما اللعب واللهو ـ هو الهوى، اندرجت السبعة فيه، فقال عزّ وجلّ: ﴿**وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]، فصارت الدنيا طاعةَ النفسِ للهوى، بدليلِ قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾ [النازعات:٣٧ ـ ٣٩]. فلمّا كانت الجنةُ ضدَّ الجحيمِ كان الهوى هو الدنيا؛ لأنّ النهيَ عنه ضدّ الإيثار له. فمن نهى نفسه عن الهوى، فإنه لم يُؤثِر الدنيا، وإذا لم يؤثر الدنيا فهذا هو الزهد، كانت له الجنّة، التى هى ضدّ الجحيم، التى هى لم يَنْهَ نفسَه عن الهوى بإيثاره الدّنيا، فصارت الدنيا هى طاعةَ الهوى وإيثارَه فى كلِّ شىء، فينبغى أن يكون الزّهد مخالفةَ الهوى من كلّ شىء.

وأما المعنى الآخر الذى عبّر به عن هذا الوصفِ، الذى هو الهوى، فجعله دُنيا

أيضًا، فهو حُبّ البقاء لمتعة النفس. استنبطنا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء:٧٧]. فالقتالُ هو فِراقُ الحياةِ الدنيا؛ لأنّه المشيُ بالسّيف إلى السّيفِ، والفناءُ بين السّيفين، فقالوا: هلا بقَّيْتنا إلى وقتٍ آخر، وهو أجلُنا بالموت لا بالقتل. وهذا هو حبّ البقاء، ففُسِّر حبُّ البقاء بأنه هو الدنيا، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء:٧٧]. فانكشف الناس، وافتضح المنافقون، وابتُلى هنالك المؤمنون عند فَرْضِ القتالِ، وظهر المحبّون الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنّهم بنيانٌ مَرْصوص. وعندها رَبِح الّذين هم لأنفسهم وأموالهم بائعون، وخسِر الذين هم للحياة الدّنيا بالآخرة مُشترون، لما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرى من الْمُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١]. فلما اشتراها باعوها، وقال فى المشترِينَ الخاسرين: ﴿اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾ [البقرة:٨٦]، يعنى: رغبوا فى البقاء الأدنى لما اشتروه ببيْع البقاء الآخر الأعلى الأبقى إذ باعوه. فمن اشترى ثلاثين سنة وأربعين سنة بألف ألف وبأبد الأبد، فما رَبِحَتْ تجارته ولا هُدى سبيله. فهذه تجارةُ مَنْ رَغِب فى حياةٍ دَنِيَّةٍ، فاشتراها ببقاء الأبدِ، فَصار بائعًا للحياة العالية، بما استبدل به من اشتراء الحياةِ الدّانية. فهذا يُشبه ما رغبوا فيه من آلةِ الدَّار، كما قال خالقها: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يأخُذُون عَرَضَ هذَا الأَدْنَى﴾ [الأعراف:١٦٩]، فهؤلاء خُلوف السُّوءِ، الذين رغبوا فى العرض الأدنى إذ زهدوا فى الملكِ الأعلى لمّا طلبوا الحياة الدّنيا، بعد الخَلْفِ الصالح الذين زَهِدُوا فى الحياةِ الدُّنيا حين رَغِبوا فى الحياة العليا.

فهذا تدبُّرُ قولهِ تعالى: ﴿اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى باعوا الحياة العليا بما اشتروه من الدّنيا، ليس كتجار الآخرة من المتقين؛ الذى باع حياةَ نفسه، وفرّق مجموعَ مالِه، فاشتراه اللهُ تعالى منه، وعوّضه داره، وأسكنه عنده جوارَهُ، فقد ربِحَت تجارته، واهتدى سبيله؛ لما باع حياةَ عشرين سنة وثلاثين سنة بحياة أبد الأبد؛ فهذا ربح تُجَّار الآخرة الزاهدين فى الدنيا، وذلك خُسُر تجّار الدنيا الرّاغبين فى

الهوى. فشتان بين التّجارتين، وفُرْقان بين الرِّبحَيْن. فما أعظمَ حسرةَ الفَوت على مَن خسر ما ربحه الزاهدون بعد الموت، وقد كان الناس مستورين بإظهار الزّهد فى البقاء، ومظنونًا بهم حبُّ الباقى الأعلى، حتى نزلت: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً**﴾ [النساء:٧٧] الآية. وحتّى نزل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ**﴾ كانوا قالوا: إنّا نحبّ ربنا ولو علمنا فى أىّ شىء محبّته لفعلناه، فلذلك قال تعالى: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا**﴾ [الصف: ٢ ـ ٤].

ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه: ما كنتُ أحسب أن فينا أحدًا يريد الدنيا، حتى نزلت: ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ**﴾ [آل عمران:١٥٢]. وكذلك قال له رسول الله ﷺ حين نزلت: ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ**﴾ [النساء:٦٦]، قال ابن مسعود: قال لى رسول الله ﷺ: «أنتَ منهم»؛ أى من القليل الذى كان يفعلُ ذلك.

فإذا كان حبّ البقاء هو الدنيا، فينبغى أن يكون حبّ لقاء الباقى هو الزهد، فصار الزهد فى الدنيا هو الزهد فى البقاء، وصار الرغبة فى البقاء مثل اتباعِ الهوى الذى هو الدنيا. فمن زهد فى الحياة الفانية للمتعة بها، وفى ماله المجموع بالجهاد للنّفس، والإنفاق فى سبيل الله؛ فقد زَهد فى الدنيا. ومن زَهد فى الدنيا أحبّه الله تعالى، كما قال رسولُ الله ﷺ. ولذلك صار الجهادُ أفضلَ الأعمال؛ لأنه حقيقةُ الزّهدِ فى الدنيا؛ ولأنّ اللهَ تعالى يحبّ من زَهد فيها كأنّه قتل نَفْسَه فيها، فاستعجل الخروجَ إليه منها ليَرْضى، إذ كانت النفس ضدّ السَّلام، وكانت الدنيا ضدّ دار السَّلام، ثم كان مخالفةُ الهوى أفضلَ الجهاد؛ لأنّه هو حقيقةُ الرغبة فى الدنيا. وقد عبَّر به رسولُ الله ﷺ عن الزُّهدِ فى الدنيا، إذ قال فى الحديث الأول: «ازْهَد فى الدّنيا يحبُّك اللهُ تعالى». ثم قال فى الخبر الثانى بمعناه: «اجتنبِ

المحارمَ يحبّك اللهُ تعالى». فصار اجتنابُها زهدًا في الهوى، وهو عاجل حُظوظ النفسِ، فهو زُهْدٌ في الدنيا، فالزاهدُ في هوى نفسهِ حبيبُ ربه تعالى، والراغبُ في حبِّ البقاء لنفسه منافقٌ في دينِ ربّه تعالى. ومنه الخبر الذى جاء: «من مات ولم يغزُ، ولم يحدِّث نفسَه بغزْوٍ، ماتَ على شُعْبةٍ من نِفاق». وبه كشفَ اللهُ تعالى الكاذبين ووصفهم بمرض القلوب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ يعنى نفاقًا ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ تهدُّدٌ ووعيد، أى: وَلِيَهُم العذابُ وقَرُب منهم، ثم قال: يقولون: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أى: يظهر منهم طاعة وقول معروف ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾ حقّت الحقائق كذبوا ونكثوا ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أى: فى الوفاء ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠ ـ ٢١]. وهذا من الكلام المضْمَر، فلذلك أشكل.

والبقاءُ والحياةُ اسمان لمعنًى، ولذلك جعل الله تعالى الدنيا وصفًا للحياة، فتكون الدنيا هى الحياة، ونعتُها بالدنيا نعتُ مؤنثٍ؛ لدُخول الهاء فى الاسم التى هى إحدى علامات التأنيث، فصارت الحياةُ هى الدنيا، وصار قوله «الدنيا» نعتها بالدناءة. ولو كان الاسم مذكرًا مثل البقاء نَعَته بمذكر، فقال: الأدنى. وقد قال فى مثله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فالأدنى تذكير الدنيا، والدّنيا تأنيث أدنى، كالأَعْيَنَ والأقْنَى والأشْعَث؛ تذكيرُ: عَيْناء وقَنْواء وشَعْثاء.

والعَرَضُ اسم لما يعرض ويقلُّ بقاؤه. فمن أحبّ ذلك فقد أحبّ الدنيا بحبّه الأدنى، وهذا يرجع إلى أصل حبّ الحياة؛ لأنّه إنما يريد العرَض الأدْنى، لأجل الحياة، فصار حبُّ البقاء الذى لأجله يريد عرض الأدنى هو الدنيا، وصار حبُّ العَرَض لأجل البقاء هو من الدنيا، فجاء من هذا الذى ذكرناه: أنه حقيقةَ الدّنيا حبُّ البقاءِ لطاعة الهوى، وموافقة الهوى فى حبِّ العَرَض لأجل البقاء، فدخل أحدُ هذين فى الآخر؛ لأن حبَّ البقاء لأجل المتعة هو مِن الهوى، الذى هو صفةُ النّفسِ الأمّارةِ بالسّوء، وطاعة الهوى الذى هو عيش النفس إنّما يكون حبَّ

البقاء؛ لأنّ العبدَ لو أيقن بالموت ساعته لآثر الحقَّ على الهوى، ولو أيس من البقاءِ لَمَا رَغب فى العرَض الأدنى. فصار حبُّ البقاء من الهوى، وصار إيثار الهوى إنما هو لحبّ البقاء، فكان ذلك هو حقيقةَ الدنيا، فصار أقصرُ الناسِ أملاً للبقاء أزهدَهم فى الدنيا، حتى لا يدَّخر شيئًا لغد؛ لأنّه عنده غير باقٍ إلى غد. وصار أرغبُ الناسِ فى الدّنيا أطولَهم أملاً؛ لأنّ رغبته اشتدت فيها، وحرصَه كثُرَ عليها، لامتدادِ أملِه للحياةِ فيها، إذ لو قصَّر أمله لغدٍ لاختار الفقرَ حينئذ، واختيارُ الفقرِ هو الزّهد.

يشهد لمعنى ما ذكرناه الخبرُ الذى رُويناه، قال: «أخوفُ ما أخاف على أمتى: الهَوى، وطولُ الأملِ. أما الهوى فيصدُّ عن الحق، وأما طولُ الأملِ فيُنسى الآخرة». فتدبَّرت هذين الوصفين، فإذا بهما عُمرَت الدُّنيا، وتفهَّمْتُ التدبّرَ، فإذا أحد الوصفين قائم بصاحبه، فلولا الهوى ما وُجد طول الأمل، الذى هو يُنسى الآخرة، ويُمدُّ فى سُوء المعاملة. ولطول الأمل قُدِّم الهوى على الحقِّ، وقُدِّم فعله. واعتبرتُ التفهُّم فإذا بفقدهما، أعنى الهوى وطولَ الأمل، وُجدَ الزهدُ فى الدنيا، وفى الزّهد فى الدنيا خرابُها، كما فى طول الأمل والهوى عمرانُها. وحبُّ البقاء أصلُ كلِّ هوى، كما حبُّ الدنيا رأسُ كل خطيئة، وهو كان سبب إخراج آدم عليه السّلام من الجنّة دار السّلام إلى دار العِلَلِ والأسقام، وهو مُستَتَرٌ عدوِّه إبليس فيما أسرَّ؛ ليقسمَه من نفسه من العوض على زُعمِه له؛ إنْ طَلَب البقاءَ إلى يومِ اللقاءِ، فأُبلِس بذلك، وأُعطى أملَه. وحُبُّ البقاء هو الذى أكفرَ بَرْصِبصاء العابد، لمّا سجد لإبليس طلبَ الخلاءَ من بعد الأخْذ حبًا للبقاء، فأمَّل النَّجاةَ ليَبقى.

● بيان آخر من الزهد، أى شىء هو:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]، فهذه تسمية لهم بالزهد؛ لتحقّقهم بالمعنى، نحتاج أن نكشفه، ليكونَ مَنْ يتحقق بمعنى ذلك زاهدًا.

قوله تعالى ﴿وَشَرَوْهُ﴾: باعوه. العرب تقول: شَرَيتُ، بمعنى بِعتُ؛ لأنهم

يقولون: ابتعت، بمعنى: اشتريت. فلما باعوه، وخرج من أيديهم، صاروا زاهدين. كذلك العبد إذا باع نفسه وماله من الله تعالى، وخرج من هواه إلى سبيل مولاه، فهو من الزاهدين. وكذلك قال المولى عزّ وعلا: **﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرى من الْمُؤْمنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾** [التوبة:١١١]. كما قال عزّ من قائل: **﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾** [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]. فإذا كان العِوضُ واحدًا وهو الجنةُ، ذُكر فى المعنيين، كان بيعُ النفسِ والمال وإخراجُهُما لله تعالى بمعنى النهى عن الهوى فيهما، الذى هو الحياة الدنيا، وهو اقتناؤه للنَّفسِ، وحبسُ النفس عليه، أعنى: المالَ. فاستبدالُ ذلك بضدِّه من إخراج الهوى من النفس، وإدخال الفقر على المالِ؛ هو الزهدُ فى الدنيا، إذ ليس ذلك من أمر النفس الأمّارةِ بالسُّوء؛ لأنّ هذا نهايةُ الخير، فصار نهيًا لها عَن الهوى، الذى هو اقتناءُ المالِ للجمعِ والمنع لِمُنْعَةِ النَّفْس به؛ وهذا هو الدنيا بوصفِ النفس الأمّارةِ بالسّوء؛ لأنّ هذا حينئذ سوء كلُّه. فمن كان بهذا الوصفِ فنفسه غيرُ مرحومة؛ لأمرها بالسّوء، وإذا لم تكن مرحومةً، لم يكن صاحبُها بائعها، وإذا لم يبعْها لم تكن مشتراةً، فلا يكون صاحبُ هذه النفس إلا جامعًا للمال، مانعًا له، راغبًا فى الدنيا محبًا لها، وهذا هو المال المسلَّط على صاحبه، وذا هو العبدُ المسخَّر بماله، الذى لا يقدر على شيء، وهو الإنفاق. وليس هذا صفةُ المؤمن؛ لأنه لا يأْتمر لأمرِ الإيمان ليبيع ماله ونفسه، كقوله فى وَصفِه: **﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ منه سِرًا وجَهْرًا﴾** [النحل:٧٥]، فصار المسَخَّرُ لنفسه وهواه، المبتلَى بماله ودنياه، رزقُه سيئ؛ لأنّه لم يُبسَطْ للإنفاق فيه، بل قُبض عنه بالإمساك، فقد وقَع فى النهى؛ لأنّه ألقى بيده إلى التّهْلكة، إذ تَركَ النفقةَ كما قال سبحانه: **﴿وأَنْفقُوا فى سَبيلِ الله ولا تُلْقُوا بأَيديكُم إلى التَّهْلُكَة﴾** [البقرة:١٩٥] ـ هو تركُ النفقة فى سبيل الله؛ فتدبَّر هذا من دليل قوله: **﴿قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُم به إيمانُكُم إنْ كُنتُمْ مُؤْمنين﴾** [البقرة:٩٣] أى الزّاهدين، قدْ أَمَرهم بإخراج المالِ والنفسِ؛ أى الهوى، لدُخولِ اليقين على إيمانِ التَّصْديقِ.

• وصف آخر من البيان والتفصيل:

لما حقق الله تعالى الزهد بفناء النفس، وإخراج المال فى ذكر المبيع والمشترى، فى قوله تعالى: ﴿يُقَاتِلُونَ فى سَبيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، وكان الزهد هو تركَ طاعةِ الهوى، وبيع النفسِ بنهيها عنه من الموالى، وكان العوضُ من ذلك الجنةَ، صَار الزاهدُ هو الخائفَ مقامَ ربِّه، البائعَ نفسَه طوعًا، قبل أن تَخْرج نفسُه من الدار كُرْهًا، وكان اللهُ تبارك وتعالى هو الحبيبَ له القريب منه، فصار العبد محبًا له، فجعله من المقرَّبين عنده تعالى.

وإذا كانت الدنيا هى طاعة الهوى، وحبَّ الحياة الدنيّة لمتعةِ النّفس الشهوانية، كان الراغبُ فى ذلك آمنًا لمكرِ الله تعالى، مشتريًا للحياة الدنيا، بائعًا بذلك الحياةَ العليا، فلم يكن محبًا لله، وكان من المبعَدينَ عنه بسُوء اختيارِه، وحقَّ عليه الخُسران والجحيمُ فى الآخرة؛ لأنّه ضدُّ الزاهد المقرَّبِ الظافرِ بدار القرب فى جوار الحبيب القريب.

فصار المريدُ بعاجلِ حظوظِ النفسِ فى الحياةِ الدّنيا، الطّالب لزينتها، الحريصُ على جمعِ المالِ فيها، بمنزلةِ الراكبِ بها، المطمئنٍّ إليها، لطولِ غَفْلته عن معادِه إلى آخرته، ومَن دامتْ غفْلَتُه عظُمَتْ فى الآخرةِ حسرتُه وخسارتُه، ألم تَسْمع إلى قولِه تعالى: ﴿وأُولئكَ هُمُ الغَافلُونَ * لا جَرَمَ أَنَّهم فى الآخرَةِ هُمُ الخَاسرُونَ﴾ [النحل: ١٠٨ ـ ١٠٩]، مع قوله: ﴿وأَنْذِرْهُم يَوْمَ الحَسْرَةِ إذ قُضِىَ الأَمْرُ وَهُمْ فى غَفْلَة﴾ [مريم: ٣٩].

فهذه صفاتُ الجاهلين، وأخلاقُ نفوسِ المُشْركين، لفقدِ حقيقةِ العلمِ، ووُجْدِ عدمِ اليقين. وبمعنى ما ذكرناه ذكرَهُم خالقُهم، فمَنْ دخَل فى بعضِ مداخلهم، ووقَع به التهدُّدُ والوَعيدُ والتخويفُ الشديدُ لهم، فى قوله مخبرًا عنهم: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَها نُوَفِّ إليْهِمْ أعْمَالَهُمْ فيهَا﴾ [هود: ١٥] الآية، وقوله تعالى: ﴿ورَضُوا بالحَياةِ الدُّنيا واطمأَنُّوا بِها والَّذِينَ هُمْ عَن آياتنا غَافلُونَ﴾ [يونس: ٧].

• **ذكر بيان حقيقة الزهد وتفصيل أحكامه ووصف الزاهد**(١):

اعلم أن الزهد يكون بمعنيين: إن كان الشيء موجودًا، فالزهد فيه إخراجه وخروج القلب منه، ولا يصحّ الزهد فيه مع تَبْقِيَته للنّفس؛ لأن ذلك دليل الرغبة فيه؛ وهذا زُهدُ الأغنياء. وإن لم يكن الشيءُ موجودًا، وكان العُدْمُ هو الحال، فالزهدُ هو الغِبْطَةُ به، والرِّضا بالفقدِ؛ وهذا هو زهدُ الفقراء.

وكذلك القولُ فى الزّهدِ فى القدرة على ترك الهوى، لا يصحّ إلا مع وجود الابتلاءِ به، فمتى قَدرَ عليه، فصبَرَ عنه بمجاهدةِ نَفْسٍ، أو مُدافعةِ وَقْتٍ، أو قَطْعِ سببٍ، فذلك زهدُهُ، فإمّا أن يريد أن يزهدَ فيه، أو يَهُمَّ بتركهِ، أو فليس ذلك زهدًا فيه، بل نيات وإرادات من غير حقيقة، ألم ترَ أن إخوة يوسف عليهم السلام همُّوا بالزُّهدِ فيه، بقولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾ ولم يسمِّهم اللهُ تعالى زاهدين. وتكلّموا بالزّهد فيه بقولهم: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٨ ـ ٩] ولم يُسَمُّوا فيه زاهدين. وأرادوا الزهد فيه بقولهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢] ولم يتحققوا بالزهد فيه. وعزموا على الزهد فيه وأجمعوا عليه ولم يسمِّهم الله تعالى زاهدين مع قوله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥]؛ لأنّ هذا كلّه من أسباب الزهد ومقدّماته، قد يلتبس ويشكل على من لا يعرف حقيقة الزهد، فيظنّه زهدًا وليس هو زهدًا؛ لأنّه فى أيديهم بَعْدُ، فلمّا خرجَ من أيديهم، واعتاضُوا منه سواه، حقَّ زُهدهم فيه، فقال تعالى مخبرًا عن حقيقتهم: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أى باعوه ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

وكذلك الثّوبُ تهمُّ ببيعه، وتريد بيعَه، ويغلب عليك بيعه، ولا تكون زاهدًا، ولكن تكون موصوفًا بالإرادة للزهد، حتى تبيعه، وتعتاض منه، فحينئذ حَقَّ زهدُك فيه.

ففى تدبُّرِ خطابه: أنّ مَن أخرجَ الشيءَ من يده طوعًا ونفسه تتبعُه، فله مقامٌ فى

(١) معظم هذا الفصل فى الإتحاف ٣٧٨/٩.

الزُّهد بالمجاهدة. ومَن أَمْسَك الشيءَ، فأظهَرتْ نفسُه الزُّهدَ فيه بالإرادة والهمَّة، فذلك تأميلٌ وتمنٍّ، يدخل فى باب نيّاتِ الخيرِ، لا فى المسارَعة إلى الخيرات، ولا المسابقة فى القُرُبات، بالسّعى لها، والمنافسةِ فيها، كما قال: ﴿وَمَنْ أرادَ الآخِرَةَ﴾ ثم اشترط لحقيقة الإرادة: ﴿وسَعَى لَهَا﴾ [الإسراء:١٩]. وقال فى المنافسة: ﴿وفى ذَلكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنافسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]. واشترط لها المعاملة، بقوله: ﴿لمثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾ [الصافات:٦١].

ولا مقامَ فى المنافسة لمن لم يُتْبع الإرادةَ بالسَّعى والمعاملة، ولا مَقامَ فى الزُّهد لمن لم يُردفِ الإرادةَ بإخراج المزْهُود؛ لأنَّ الإمساكَ علامةُ الرغبة، والرغبةُ ضد الزّهد، فكيف يوصف بالشىء وضدّه فى حال قائمة. فالمُمْسكُ للشىء المتوهّم للزُّهد فيه بإظهار نفسِه ذلك بأحد وصْفَيْن: إمّا أن لا يعرف الزّهدَ، أو لا يعرف خفىَّ شَهْوةِ النّفس، ولَطيفِ تمنِّيها من معدنِ حُسن ظَنّها بوَصْفها هذا، إن لم يُموِّه على الرّاغبين فهو يكذب على وَجْده؛ لأجلِ خفىّ الرغبة فيهم. والمخرجُ للشىء عن يده، والمخرجُ لقلبه منه، هو المتحقّق بالزُّهد فيه؛ وهذا هو الذى وصف الله تعالى به إخوةَ يوسف. والمُمسكُ للشىء، المغتبطُ به، الذى همُّه فيه، وقلبُه عاكفٌ عليه، هو المتحقق بالرغبة فيه. وهذا وصف عزيز مصر فى يوسف لمّا اشتراه، فحققه الله تبارك وتعالى بالرغبة فيه، لاقتنائه له، فقال مخبرًا عنه بعدما اشتراه: ﴿أَكْرِمى مَثْواهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف:٢١]، كذلك قال: ﴿أستَخْلصْهُ لنَفْسى﴾ [يوسف:٥٤] لمّا تحقّق به. وكذلك وصف امرأة فرعون فى رغبتها فى موسى عليه السّلام، بقولها: ﴿قُرَّةُ عينٍ لى ولكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنا أو نَتَّخذَهُ ولدًا﴾ [القصص:٩].

فكذلك كلُّ مَن أمَّل شيئًا، وادَّخره لنفسه، لا يكون زاهدًا فيه حتى يُخرجَه عن يدِه وقَلْبه، إذْ لم يكن ذلك وصفُ إخوةِ يوسف الزّاهدين فيه إلا بعد أن أخرجوهُ استَصْغارًا له، وتعوَّضُوا منه(١).

(١) فى الإتحاف ٩/٣٧٨: «وتعوضًا منه».

• بيان آخر مستنبط من الكتاب:

اعلم أنّ زُهْدَ إخوةِ يوسف عليهم السّلام فى أخيه قد كان يقاربُ زهدهم فى يوسف عليه السلام؛ لأنّه كان نظيرَه عند أبيه، وقد كانوا همُّوا بالزُّهْد فيه أيضًا؛ ليخلُوَ لهُم وجهُ أبيهم منهما. ألم تسمعْ إلى قولهم ليوسف: ﴿وأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أبينا منّا﴾ [يوسف:٨]. وكذلك جاء فى الخبر: «إنّهم أرادُوا أن يلقوا أخاه معه فى الجُبِّ، حتى أَلْقى نفسه على يهوذا، فشَفَع فيه، فرحمه ومنعهم منه، وكان شديدًا منهم، منيعًا مهيبًا فيهم. وقد قيل: إنّه استوهبه منهم، وقال: دعوه يكون فيه سلوة للشيخِ الكبير، لا تفجعوه بهما ولا تُفقدوه إياهما معًا، فوهبوه له.

ثم إن الله تعالى لم يقل مع إرادتهم لذلك وهمِّهم به: وكانُوا فيهما من الزّاهدين، من قِبَل أنّهم لم يتحققوا بالزهد فيه، كالزّهد فى أخيه؛ لأنّه كان فى أيديهم لم يخرجوه. فكذلك أنتَ إذا كان الشىء موجودًا عندك، وأنت ممسكه لنفسك، ثم توهمتَ أنك زاهدٌ فيه لخواطر الإرادة أو لإرادة الزَّهادة، فقد كذَبْتَ على نفسك، بتَسْميتكَ إياها زاهدًا، أو كَذَبَتْك نفسُك بوَجْدها جهلاً منها بالعلم زُهدًا، أو كذَب وَجْدُكَ على العِلم جهلاً منك بربك عزّ وجلّ، أو موَّهت على مَن لا يعرف الزُّهد؛ وهذا زهدٌ منك فى الزهد، ورغبة منك أيضًا فى الدنيا، حتى تُخرج الشىء الذى تظنّ أنك زَهدْتَ فيه، وتعتاض منه محبةَ الله تعالى، وطلبَ مرضاته تبارك وتعالى، أو ما عنده من ثوابه. فحينئذ يصحّ زهدك فيه على العلم، وعند العلماء، فتكون زاهدًا صادقًا. فهناك حين وصفك الزُّهدُ بالزُّهدِ، وسمّاك الزاهدون زاهدًا.

فأما إذا لم يكن الشىء موجودًا لك، فإن زهدك فيما لا تملك لا يصحّ، من قِبَلِ أنَّ هِبةَ ما لا تملكُهُ غير جائزٍ، والزّهدُ فى معـدومٍ باطل، وكذلك التصرّفُ فيما لغيرك غير جائزٍ؛ فلذلك لم يصحّ زُهدُكَ فيه. ولعلّه لو كان موجودًا تغيَّر قلبك به وتقلَّب فيه، إذ ليس الخبر كالمعاينة؛ لأنّ الخبر قد يشتبه ويُوهم، والمعاينة تكشف الحقيقةَ، وتحكمُ على الخِلْقةِ، ولأنَّ النفسَ ذاتَ بدَوات، لما طُبعت عليه من الشهوات، والملل والتقليبات، وحبِّ المتعة بالوجود، وادّخار المحصولِ،

وبالرفاهية، فلا تجعل ظنًا معدومًا كيقينٍ موجودٍ، إذ لو كان كيف كان الأمر، ولكن قد يكون لك مقام من الزهد فى المعدوم، بقيامك بشرطه؛ وهو أن لا تحب وجودَ الشيء، ولا تأسى على فقده، أو تكون مغتبطًا بعَدمك، مسرورًا بفَقْرِك. يعلم اللهُ تعالى ذلك من غيبكَ، ويطَّلع على سرِّك أنك لا تفرح بوجوده لو وجدتَه، وتُخرجه إن دخل عليك، وإنّ قلبك قانع بالله سبحانه وتعالى، راضٍ عن الله تعالى، بحالك التى هى العدم من الدنيا، غيرُ محبٍّ للاستبدال بها من الغنى، بصدق يقينك بفضيلة الزهد. فإذا كنتَ بهذا الوصف، حُسِبَ لَك جميعُ ذلك زهدًا، وكان لك بأخْذِ هذه المعانى ثوابَ الزاهدين، وإن لم تكن للدنيا مِن الواجدين، ولا لإخراجها من الفاعلين. وهذا زهد الفقراء الصادقين، وهو التحقّق بالفقْرِ.

وقد قال بعضهم: حقيقةُ الفَقير: أن يكون مغتبطًا بفقره، خائفًا أن يُسْلَب الفقر؛ كما يكون الغنىُّ مغتبطًا بغناه، يخاف الفقر. وقد كان مالك بن دِينار رحمه الله تعالى يقول: إذا قيل له: إنّك زاهد، قال: إنّما الزاهدُ عمر بن عبد العزيز؛ جاءته الدُّنيا وملكها فزَهِد فيها، أما أنا ففى أى شىء زهدت؟

وعمر ـ رحمة الله عليه ـ لم يتخلَّ عن الدنيا، ولا أخذ ما نُهِى[(١)] عنه، ولكن جَعْلُ عَدْلِه، ووَضْعُ الأشياءِ فى حقّها، وأخْذُها من وجوهها ـ سمّاه زاهدًا. وكذلك كان وهْبٌ، وغيره، يقول: مَنْ أخذ المال من حقِّه، ووضعه فى حقه، فهو أزهد فى الدنيا مِمَّن أخرجها بجهل، وتخلَّى عنها بغيرِ عِلْم.

وقد يصحّ الزهد للعارفِ فى الشىء مع وَجْدِه عنده، إذا لم يَقْتَنِه لِمُنْعَةِ النَّفس، ولم يتملَّكه ويَسْكُن إليه، بل كان موقوفًا فى خِزانةِ الله التى هى يَدُه، منتظرًا لِحُكم الله فيه، وصحّةُ ذلك استواءُ وُجوده وعدمه، والمسارعةُ إذا رأى حُكمًا لله تعالى أن يُنَفِّذَهُ ويكُون كأنه لغيره من عَيْلَتِه أو إخوانه أو سبيل من سُبُل الله تعالى[(٢)].

---

(١) فى الأصل: «ولا آخر نهى» ولعلّها محرّفة.

(٢) هذه الفقرة فى الإتحاف ٩/ ٣٧٨.

وقد يصحُّ الزّهدُ مع الوُجود، لمَن دون العارف من المريدين، إذا أمسك الشيءَ لأوقات حاجته، واستعانَ به على آخرته، أو يكفُّ نفسه عن الرَّغبة والطَّمع، ويقطع به حاجته عن الشَّرهِ والضَّرع[1]، ويكون سببًا لقطع التشرُّف، وحَسْم النّفس عن التّصنُّع والتكلُّف.

وقد يكون هذا المقام للخُصوص من العلماء بهذه النيّات زائدًا على مقامات من الزّهدِ للمُريدين. ومن دعاء السَّلفِ الصّالح: اللهُمَّ أعنِّى على دِينى بدُنيا، وعلى آخرتى بتَقْوى.

قال عبد الرحمن بن مهدى: خرجَ محمد بن يُوسف الأصفهانيّ إلى مكَّة ومعه مائةُ دينار، وليس معه إلا كساء، أوْ بَتٌّ[2]، وما رأيتُ مثله. وكذلك قال يحيى ابن سعيد القَطّان: ما رأيتُ مثلَ محمد بنِ يوسف، وقدَّمه على الثَّورىِّ.

ولمّا قَدِمَ عبدُ الجليلِ الزّاهد إلى «واسط»، اجتمع إليه أهل العراق يسألونه عن الزّهد. فقال: اصبروا حتّى أبيع دِقاقَ تَمرٍ حملتُه من البَصْرة، وأتَفرّغُ لكم للمسائل. فكان يَتَّجرُ، فيجعل ثُلثًا لأهله وعياله، وثُلثًا لإخوانه الفقراء، وثلثًا يردُّهُ فى تجارته. وكذلك كان حال جماعةٍ من زاهدِى السَّلف. فلم يكن ذلك يُنَقِّصُهُم عند العلماء، وكان مزيدًا فى حالهِم، وطريقًا لهم إلى مقامِهم من الزُّهد، وهو وصفُ الأقوياءِ من الزّهّاد[3] الصّحابةِ النُّجباء.

• بيان آخر مستنبط من السنة فى ماهية الزهد:

الزُّهدُ ـ أيضًا ـ تقليلُ الدنيا وتقريبُها، واحتقارُها بالقلب واستصغارها، من ذلك الخبرُ الذى جاء فى ساعة يومِ الجمعة، أنَّ النبى ﷺ قال: «هى فى آخرِ ساعة»، قال: وجعل يُزهِّدُها، أى: يقلّلها، أى: يُقرِّب وقتها، ويُدنيه من الغُروب.

---

(١) فى الإتحاف: «ويقمع به طبعه عن الشره».

(٢) البَتُّ: الطيلسان من حرير أو غيره.

(٣) إلى هنا ينتهى نقل الإتحاف ٩/ ٣٧٩.

والمعنى الآخر؛ فى الخبر الثانى، من قول النبى ﷺ لعلىٍّ رضى الله عنه، لمّا نزلت آية الأمر بالصّدقة لمناجاةِ الرسول ﷺ، فقال له: «كم ترى أن نجعلَ عليهم من الصّدقة مقدمةً للمناجاة؟» فقال: شعيرةً من ذهَب. قال: «إنّك لزهيد» أى: مقلِّل مصغِّر للدنيا «ولكن نجعل عليهم دينارًا». فبالغ فى المحبةِ بالمال، ليستبين به مَن كان ذا رغبةٍ فى العلم أن يبذلَه فيه.

كما جعَل بَذْلَ المالِ للأغنياءِ محنةً فى طلبِ العلم، فاختُبروا به، أَيَبْتذِلُوه للعلم كما اختُبروا فى بذلِ النّفسِ للجهادِ فى سَبيلِ الله. إذ العلمُ فى سُبُلِ الله، والنفقةُ فيه مضاعفةٌ، كالنفقةِ فى الجهاد. لذلك قيل: لا يُدْرَكُ العلمُ براحةِ الجِسم.

و «شَعيرةٌ»، فى قول على رضى الله عنه، لا يُتَبيَّن بها كَثرةُ الإنفاق، ولا قوةُ الرّغبةِ فى العلم، ببَذْلِ ما لَهُ قيمةٌ وقَدْرٌ لقلّتها. وقوله «زهيد»: كأنه مَعْدولٌ من زاهد؛ للمُبالغةِ فى الوصْف بالزّهد. كما عُدل: شَهيدٌ من شاهد، ومجيدٌ من ماجدٍ، وعَلِيمٌ وقدير ورحيم، من: عالم وقادر وراحم، للمبالغة فى العِلم والقدرة والرحمة.

• ذكر وصف الزاهد، وفضل الزهد:

قوتُ الزّهدِ الذى لا بدَّ منه، وبه تظهرُ صفةُ الزاهدِ، وينفصل به عن[١] الرّاغبِ؛ هو أن لا يفرح بعاجلٍ موجودٍ من حظّ النفسِ، ولا يحزن على مفقودٍ من ذلك، وأن يأخذَ الحاجةَ من كلِّ شىءٍ عند الحاجة إلى الشىءِ، ولا يتناول عند الحاجةِ إلا سدَّ الفاقةِ، ولا يطلبُ الشىءَ قبلَ الحاجةِ.

وأولُ الزهد دخولُ غمِّ الآخرةِ فى القلبِ، ثم وجودُ حلاوةِ المعاملةِ لله تعالى. ولا يَدْخل غمُّ الآخرةِ حتى يخرج همُّ الدنيا. ولا تدخلُ حلاوةُ المعاملةِ حتى تخرجَ حلاوةُ الهوى. وكلُّ من تابَ من ذنب[٢]، ولم يجد حلاوةَ الطاعة، لم يُؤمَن عليه الرجوعُ فيه. وكلُّ مَن تركَ الدّنيا، ولم يذُق حلاوةَ الزُّهدِ، رجعَ فيها.

(١) فى الإتحاف ٩/ ٣٧٣: «ويفضل به على».

(٢) فى الإتحاف: «وكل من ترك المعصية».

وكلُّ مَن وجد حلاوةَ الطاعة، ولم يجد حلاوةَ المعرفة، لم يَدُم عليها. وكلُّ مَن وجدَ حلاوةَ الزُّهدِ ولم يذُق حلاوةَ اليقينِ، لم يُؤمَن عليه دخولُ النَّفْسِ(١)، ورَغِبَ فى الدنيا ولو بعد حين، فتدبّروا.

وخالصُ الزُّهدِ إخراجُ الموجودِ من الدُّنيا من القَلْب، ثُمَّ إخراجُ ما خرجَ من القَلْب عن اليد، وهو عَدَمُ الموجودِ على الاستصغار له، والاحتقار، والتقالُل لهوانِ الدُّنيا عنده، وصغرها فى عينه، فبهذا يتمُّ الزهد. ثمّ ينسى زُهدَه فى زُهده، فيكون حينئذ زاهدًا فى زهده، لرغبته فى مُزهِّدِه، وبهذا يكمُلُ الزهدُ، وهذا لُبُّه وحقيقتُه، وهو أعزُّ الأحوالِ فى مقاماتِ اليقينِ، وهو الزُّهدُ فى النفسِ، لا الزُّهدُ لأجلِ النّفس، ولا للرغبةِ فى الزّهدِ للزّهدِ؛ وهذه مُشاهدةُ الصدِّيقين، وزُهد المقربين، عن وَجْدِ عينِ اليقين.

ودون هذا مقاماتُ إخراجِ المرغوبِ فيه عن اليد مع نظرِه إليه، وعلى مجاهدة النفس فيه؛ وهو زهدُ المؤمنين، وذلك العملُ بالزّهد، إذ كان الزّهدُ عن الإيمان، والإيمانُ قولٌ وعملٌ. وكذلك الزّهد عَقْدٌ وعملٌ، فعقدُه: خُروجُ حبِّ الدنيا من القلبِ بدخول حبِّ الآخرةِ فى القلب، والعملُ بالزهد: إخراجُ المحبوبِ من اليد فى سبيلِ الله تعالى، مُعتاضًا منه ما عندَهُ سبحانه وتعالى من وجههِ الكريم جلّ وتعالى، أو قُرْبَ جوارِه فى دارِه.

فإن لم تكن الدنيا موجودةً، فإن تَرْكَ الأسفِ عليها، وقلّةَ الحرصِ فيها، وتَرْكَ الطلبِ والتمنِّى لها، وسُكونَ القلبِ مع العدَم، ورضاهُ بيسيرِ القِسم؛ يُحسب للعبدِ زهدًا؛ لأنّ ذلك حالُ الفقيرِ. فإذا قام بحكمهِ لم يجب عليه أكثرُ من القيامِ به.

والورَعُ: هو من الزّهدِ، كما الزُّهد من الإيمانِ، والحياءُ والإيمانُ فى قَرَنٍ واحد، كما جاء فى الخبر: «إذا نُزِع أحدهما تبِعه الآخر».

وروينا فى ذلك حديثًا من طريق أهل البيت: «الزهدُ والوَرَعُ يجولان فى القلبِ

---

(١) فى الإتحاف: «التفتين».

كلَّ ليلة، فإن صادفا قلبًا فيه الإيمان والحياء أقاما فيه، وإلا ارتحلا».

والقناعةُ بابٌ من الزّهد أيضًا، والرضا باليسير من الأشياءِ حالٌ من الزهد، والتقلّلُ فى الأشياءِ مفتاحُ الزهد. وقال إبراهيمُ بن أدهمَ رحمه الله: قد حُجبتْ قلوبُنا بثلاثة أغطية، فلن يُكشفَ للعبد اليقينُ حتى تُرفعَ هذه الحجبُ: الفرحُ بالموجود، والحزنُ على المفقود، والسُّرورُ بالمدحِ. فإذا فرحتَ بالموجود فأنت حريصٌ؛ والحريصُ مَحرومٌ، وإذا حَزِنْتَ على المفقود فأنت ساخطٌ، والساخطُ معذّب، وإذا سُرِرْتَ بالمدْح فأنتَ مُعجَبٌ، والعُجبُ يُحبْط العمل. وقال الله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ يعنى من الدنيا ﴿وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] أى منها. وهذان الوصفان هما أتمُّ حالٍ فى الزهد، من أُعطى أحدُهما تبعه الآخرُ، لأنّ الذى لا يَأْسى على ما فاته من الدنيا، هو الذى لا يَفرح بما أتاه منها؛ لأنّه مثله. والذى لا يفرح بما أتاه منها، هو الّذى لا يحزن على ما فاته، إذْ هو نَحوه. والأسى على المفقودِ يكون بعده الفرح بالموجودِ، وهذان الوَصفان هما ثَمرةُ النّفس، بما أُمر به من سَتْرِ النَّصيب فى الكتاب المبين، ومشاهَدة التّوْفيَة للنَّصيبِ لا محالة مع الزُّهدِ، لقوله تعالى: ﴿أُولئكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِنَ الكتابِ﴾ [الأعراف: ٣٧]. ثم أحكمَهُ وفرغ منه، لقوله تعالى: ﴿وإنّا لَمُوَفّوهُم نَصِيبَهُم غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩]. كذلك كان أَوّلُ الـ . . .(١) قَبلَ الفَوْتِ وتَرْكِ الوَجْد بالفرح على ما لا يفوت. فأوّلُ الكلام قولُه: ﴿ما أَصَابَ من مُصِيبةٍ فى الأَرْضِ﴾ فهذا المنفصلُ عن النفس ﴿ولا فِى أَنْفُسِكُم﴾ وهذا المتّصلُ بالجسم ﴿إلاَّ فى كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَنْ نَبْرأَها﴾ [الحديد: ٢٢]، فخلق النَّفْسَ والمصيبةَ معًا، ثُمّ عقَّبَه بقوله: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا﴾ على الفَوْتِ، فيقطعكُم الحُزن على المغيَّب، ﴿ولاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتاكُمْ﴾ بما قد كُتب فى الكتابِ، فيشغلك السَّببُ عن وَلىِّ الأسبابِ.

وهذا وصفُ عَبْدٍ غير متملك لملك، وسيما عبد قائم بحكم ربٍّ، ونعتُ عبد مُوقنٍ مُحبٍّ، قد شغلته مشاهدةُ الآخرةِ عن التفرغ لِمُتْعةِ الدُّنيا، وقد فرَّغته معاينةً

(١) بقية الكلمة مطموس.

الغَيْبِ عن الاشتغالِ بما يَفْنى. وفى أحدِ الوُجوه من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّه هُو أَغْنَى وأَقْنَى﴾ [النجم:٤٨] قيل: أَغْنى الفقراءِ أهلَ الآخرةِ باللهِ، وأغناهم عن الدنيا باليقين، كما جاء فى الخبر: «كفى باليقين غنًى بالآخرة». وأقنى الأغنياءِ أهلُ الدّنيا من الدُّنيا. أى: جعل لهم قِنْيةً ومدَّخرًا وعُدَّةً، كما وصف فى ذمّه من قوله تعالى: ﴿جَمَعَ مالاً وعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة:٢] أى: قال: هذا عُدّةٌ لكذا، وهذا عُدّةٌ لكذا، فتهدَّدهُ بالويل، فحصل من ذلك أنّ الزَّاهدَ فى القِنْيَة والمالِ عُدَّتُهُ اللهُ تعالى، هو كَنْزُهُ وذُخْرُه فى المآل، ومأواه وظلُّه فى كل حالٍ، فطُوبى له وحسن مآب.

وروينا عن رسولِ الله ﷺ: «كفى باليقين غنًى، وكفى بالعبادة شُغْلاً، وكَفى بالموتِ واعظًا». وفى بعضها: «وكفَى بالخشيةِ عِلْمًا».

وهذا جملةُ وَصْفِ الزاهدِ الموقنِ، الذى هُو للموتِ مُرْتَقِبٌ، وعن الدار مُرْتحل، وللمهاد مُستوطنٌ. مع الخبر المشتهر: «ليس الغِنى عن كثرةِ العَرَض، إنّما الغِنى غنى النّفس».

وقد جعل النبى ﷺ الزُّهدَ فى الدنيا عَلَمًا لحقيقة الإيمان، وقَرَنَهُ بمشاهَدَة الإيقان، فى قوله عليه الصلاة والسّلام لحارثَةَ: «عَرَفْتَ فَالْزَم، عبدٌ نَوَّر اللهُ قَلْبَهُ» لَمَّا قال: «أنا مؤمن حقًا». قال: «وما حقيقةُ إيمانكَ؟»، فابتدأ بالزُّهد فقال: «عزَفَتْ نَفْسى عن الدُّنيا، فاستوى عندى حجرها وذهبُها». ثم ذكر المشاهَدَة بعد الزُّهد، فكانت عُدَّتَهُ. فكما المُشاهَدَةُ بعد الزَّهادة، كذلك حقيقةُ الإيمان بعد الزُّهد، وهذا إيمان الموقنين، وهو تحقيق التصديق، فقال: «وكأنى بالجنة والنار، وكأنى بعَرْشِ ربى بارزًا».

وأشدّ من هذا الخبر الذى جعَلَ فيه النبيُّ ﷺ الزهدَ من علامةِ شرحِ الصَّدْرِ بالنّور، وهو نورُ التّصديق الذى هو عمومُ وصفِ المؤمنين؛ لأنه هو فى التّحقّق بالإسلام. ففسّر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام:١٢٥] قيل: يا رسولَ اللهِ، ما هذا الشّرْحُ؟ قال: «إنَّ النّورَ إذا دخل القلبَ

انشرح له الصدرُ وانفتح. قيل: يا رسول الله، هل لذلك من علامة؟ قال: نعم، التجافى عن دارِ الغُرور، والإنابةُ إلى دارِ الخُلود، والاستعدادُ للموتِ قبل نزولهِ».
فهذا هو الزهدُ جعلَهُ شَرْطًا لحقيقةِ الإسلام.

وأشدُّ من هذين الخبرين الخبرُ الثالث الذى فسَّر فيه النبىُّ ﷺ الحياءَ من الله تعالى بالزُّهد فى الدنيا، فقال: «استحيوا من الله تعالى حقّ الحياء. قُلنا: إنّا لنستحى. فقال: تبنونَ ما لا تَسْكُنون، وتَجْمعون ما لا تأكلون». وبمعَنى هذا تَمَّمَ إيمانَ الوفدِ الذين سألهم: «ما أنتم؟» فقالوا: مؤمنون. قال: «وما علامةُ إيمانكم؟». فذكروا الصَّبرَ على البلاء، والشُّكرَ عند الرخاء، والرِّضا بمواقعِ القَضاء، وتركَ الشماتة بالمصيبة إذا نزلَتْ بالأعداء. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنْ كُنتم كذلك فلا تَجْمَعُوا ما لا تأكُلونَ، ولا تَبْنُوا ما لا تَسْكُنون، ولا تَنافَسُوا فيما عنه تَرْحَلُون». فهذا هو الزهد جعله تكْمِلةَ إيمانهم، وعلوَّ مقامهم، وتمامًا على إحسانهم.

وأعظمُ من هذه كلّها الخبرُ الرابع، الذى جعل فيه رسول الله ﷺ الزهدَ من شرط إخلاص التوحيد، فى حديث رويناه عن ابن المنكدر عن جابر قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: من جاء بلا إله إلا الله، لا يخلط معها غيرَها، وجبتْ له الجنة. فقام إليه علىٌّ كرّم الله وجهه فقال: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، ما لا يخلط بها غيرها، صِفْهُ لنا، فسِّره لنا. فقال: حبُّ الدنيا، وطلبًا لها، واتباعًا لها. وقومٌ يقُولونَ قولَ الأنبياء، ويعملون أعمالَ الجبابرةِ. فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شىء من هذا، وجبتْ له الجنة».

فلذلك كان على رضى الله عنه يجعل الزهدَ مقامًا فى الصبر، ويجعل الصبرَ عمدةَ الإيمان، وفَسَّر بذلك مقام اليقينِ الذين شرَح فيه شُعَبَهُ فى حديثين رويناهما عنه.

أوّلهما: قوله فى الحديث الطويل، الذى رواه عِكرمة، وعُتبة بن حميد، والحارث الأعور، وقبيصةُ بن جابر الأسدى، فى مبانى الإيمان، أنه قال: «الإيمانُ على أربع دعائم؛ على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد». ثم قال فيه: «والصبرُ

منها على أربع شعب؛ على الشّوق، والشّفق، والزّهادة، والترقُّب. فمَن اشتاق إلى الجنةِ سَلا عن الشّهواتِ، ومَن أشفق من النار رَجَع عن المحرّماتِ، ومَن زَهد فى الدنيا هانتْ عليه المصيبات، ومَن ترقَّب الموتَ سارعَ فى الخيراتِ». فأقامَ الزّهدَ مقامَ اليقين، إذ هو مقتضاهُ، كما فسَّر رسولُ الله ﷺ اليقينَ بموجبِ الزّهد، فى قوله: «وارزُقْنا من اليقينِ ما تُهوِّن به علينا مصائبَ الدنيا». فلمّا أوجبَ اليقينُ الزّهدَ فى الدنيا، اقتضى الزهدُ تهوينَ مصائبها، وتيسيرَ شأنها، وتسهيلَ أمرِها، فصغُرت بعد كبَرِها، وهانتْ بعد صُعُوبة حالها، فاستبدل بها الرغبةَ فى الآخرةِ، فسارع إليها بقَدْرِ هَرَبِهِ من الدّنيا، ونافَس فيها بقَدْر عُزوفهِ عن ضدِّها. عندها تحقّق بإرادة الآخرة، وسعى لها سعْيَها، لمّا ركَبَ طريقَها، فصار ابنَ سبيلها، فوجب حقُّهُ على الرَّاغبين فى الدّنيا، كما وجب حقُّ ابنِ السبيل الذى ركِبَ الطَّرِيقَ، فتَدَبَّرْ.

والخبرُ الآخرُ الذى ذكرناه عن عَلىٍّ ـ عليه السلام ـ فى الصّبر، الذى جعلَهُ عمودَ الإيمانِ، ينهدمُ بعدمه، هو قولُهُ: «الصّبر من الإيمانِ بمنزلة الرأس من الجسدِ، لا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له». فالصبر حالٌ من أحوال الزّهد؛ لأنّ مَنْ كان مقامُهُ الزّهدَ، كان حالُه الصبرَ عليه، وحَبْسَ النفسِ فيه.

وروينا فى خبر مقطوعٍ: «السّخاء من اليقين، ولا يدخلُ النَّارَ موقنٌ. والبخلُ من الشّكِّ، ولا يدخلُ الجَنَّةَ مَن شَكَّ»(١). فكان هذا الحديث مُفسِّرًا للخبر المجمل: «السَّخىُّ قريبٌ من اللهِ، قريبٌ من النّاسِ، قريبٌ من الجنّة، بعيدٌ من النّار. والبخيلُ بعيدٌ من اللهِ، بعيدٌ من الناس، قريبٌ من النّار». بأىّ معنًى كان السّخىُّ قريبًا؛ لأنّ السّخاءَ من اليقين، فالسخىُّ مُوقِنٌ، فصار من المقرَّبين. وبأىّ معنًى كان البخيلُ بعيدًا من اللهِ، بعيدًا من النّاس، قريبًا من النّارِ، أى بالشّكِّ؛ لأنه ضدّ اليقين، فصار من المُبعَدين.

فالسّخاءُ أيضًا وصْفُ الزاهدِ، لا يكون الزّاهدُ إلا سَخيًا؛ لأنه لما زَهد فى الدّنيا

(١) الإتحاف ٩/ ٣٢٩.

سَخَت نفسه بها، وطابت عنها للاستبدال بها، والتعويض عنها. وقد يكونُ السّخاءُ سببًا للزّهُد، إذا سَخَت نفسه عن الشىء زهدَتْ فيه، كما إذا زَهد فى شىءٍ أخرجه إلى غيره، وهُو السَّخاءُ، فصار السّخَاءُ ثَمرةَ الزُّهْد.

والبُخلُ وصفُ الراغب، لا يكون الحريصُ إلا بخيلاً، ولا يكون البخيلُ زاهدًا؛ لأنّ الزُّهد يدعو إلى إخراج الشىء، والبخلُ يدعُو إلى إمْساكه، فَنَفْسُ الزُّهدِ سَخاءٌ، وعَيْنُ البُخل رغبةٌ، فلذلك ذُمَّ البخلُ؛ لأنه رغبةٌ فى الدّنيا. ثم إن الحرصَ علامةُ البخل؛ لأنه دليلُ الرغبةِ، والقناعةُ علامةُ السّخاءِ؛ لأنها بابُ الزّهد، فلذلك قيل: سَخاءُ النّفسِ عما فى أيدى الناس أفضلُ من سخاءِ البذل.

ثم يفترقان فى الحكم بعد اجتماعهما فى المعنى. فَمَن جاد بملكه لله كان زاهدًا فيه لوجهِ الله، ووقَعَ أجرُه على الله ومَن جادَ بمالهِ لأجلِ الناسِ، كان أيضًا زاهدًا فى ذلك، مَوْصوفًا بالسَّخاء، لكن ذلك لنفسه، ولأجل هواه، فهو موصوفٌ بظاهر المروءة، وبمعنى الفتوّة ولا أجر له عند الله تعالى؛ إذْ لم يكن من عُمّال الله، فبطل فى الآخرَة أجرُه، لأنه عمل لأجل نفسه، لا لوجه ربِّه، وحصل شُكْرُهُ وذِكْرُهُ فى الدنيا تعويضًا له من حرث الآخرة، لأنَّ هذا حرثُ الدنيا، فلم يكن له فى الآخرةِ نصيبٌ، إذ لم يُؤتَ ذلك زكاةً يُريد بها وجهَ الله، فيُضعَّف له فى الآخرة أضعافًا كثيرة[1]، وهذا هو الرِّبا الذى أربى فى أموالِ الناس، لأنّه عُمِل لأجلِ الناس، فهى نصيبُه مما كَسب، وذهبَ خلاقُه فى الآخرةِ، إذ لم يَحْتسب لفناء الدنيا وما فيها[2]؛ لأنه عمل لأجلهم وطلب ما عندهم من الذكر فيهم، والثناء منهم، والباقياتُ الصّالحاتُ ما يُراد به الثانى، يبقى ببقائه لصالح[3] أوليائه.

وكان ابنُ المبارك[4] ـ رحمه الله ـ يقول: ما رأيتُ بين الفُتُوّة والقِراءَة فرْقًا إلا فى شىءٍ واحدٍ: ما حَظَرتِ القِراءةُ شيئًا إلا قَبَّحَتْهُ الفتوّة، وإنما يفترقان فى أنّ

(١) عبارة الإتحاف ٩/ ٣٢٤: «فلم يكن له فى الآخرة أضعاف كثيرة».

(٢) فى الإتحاف: «إذ لم يحتسبه لفناء الدنيا واهلها».

(٣) فى الإتحاف: «لصالحى».

(٤) فى الإتحاف: « ابن مالك».

القِراءةَ يُراد بها وجهُ الله تعالى، والفتوةَ يُراد بها وجوهُ النّاسِ ومدْحُهُم.

وقد كان أستاذُنا سفيان الثَّوْرى يقول: «مَنْ لم يُحسن يَتَفَتَّى لم يُحسن يَتقَرَّى». أى مَن لم يعرف أحكام التَّفَتِّى، فيقوم بها، ويصبر عليها، ويراعى حسنَ الأدبِ فيها، حتّى يستحق وَصْفَ فتى، لم يحكم أوصاف التَّقرِّى، ولم يقم بحُسنِ الرعايةِ فيها، حتى يُوصف بأنّه قارئ.

ثم إنّ العبدَ قد يجاهدُ نَفْسَهُ على الزُّهدِ، كما يجاهدُها على مُخالفة الهوى، وكما يجاهدها فى الصَّبر على مُرِّ الحقِّ؛ بأن يُخرجَ المرغوبَ، ويُنفقَ المحبوبَ، ويتَصَبَّر على كراهةِ النَّفْسِ لذَوْقِ ذلك، ولقلَّة عادته بجريَانه عليه، كما يَتصبَّر على ذَوقِ مرارةِ الدّواءِ خشيةَ أن يقتله الداءُ، فيكون له مقامٌ فى الزّهد، ينالُ به البرَّ، ويستوجبُ مَدْحًا من البَرِّ. وقد قال بعضُ البَصْريين من أهلِ المعرفة: إنّ مَن أكْرهَ نفسَهُ على إخراجِ المحْبُوبِ من ماله، وحملَ عليها بالزّهد فيه، حتى بذَلَهُ على تكرُّهٍ من النفس، إنّ هذا أفضلُ ممَّن سَخَت له نفْسُه ببذلِ ماله طوْعًا من غيرِ كراهةٍ، ولا وَجْد ثِقَلٍ. قالوا: لفَضْلِ المجاهدةِ فيه، ولكراهةِ النفسِ وإكراهها. المعنى للقائل، والعِبارَةُ لنا.

والمتزهِّدُ غيرُ الزّاهدِ، وهو الذى يتصنَّعُ الزهدَ، ويعملُ فى أسبابه؛ من التقَلُّلِ، ورَثاثَة الحالِ فى كل شىء. فمثَلُهُ مَثَلُ المتَصبِّرِ من الصَّابرِ الذى يحملُ على نفسهِ بالصَّبرِ وتَصَابُرِها على العِلْم والبِرِّ، فيكون له مقام من الصَّبْر.

وصفوةُ الزُّهد تقريبُ الأجَلِ وتقصيرُ الأملِ؛ لأنَّ فِيهما تَرْكَ الادّخارِ، وتحسينَ الأعمالِ لقُربِ المُرادِ، فلا يُلْهيهِ التَّكاثُرُ، فيُبغِّضُه زيارةَ المقابرِ؛ لخوفِ بَعْثَرةِ القُبورِ، وتَحْصيلَها فى الصُّدورِ.

وحقيقةُ الزُّهْدِ مخالفَةُ هَوى النَّفس فى كل شىءٍ، وهو ما لا يوافقُ العِلْم.

وكان ابن عيينة يقول: حدُّ الزّهد: أن يكون شاكرًا عند الرخاء، صابرًا عند البلاء. فهذا صَيَّرَ الشَّاكرَ على النِّعمةِ والصَّابرَ على البلاء زاهدًا، وجمع له الزهدَ باجتماعِ الشُّكر والصّبر، وهذا زُهد عمومِ المؤمنين.

وكان بشرُ بنُ الحارثِ يقول: الزُّهدُ فى الدُّنيا هو الزّهد فى الناسِ. لأنّه كان يقول: حبُّ لقاءِ الناسِ هو من الدنيا. فهذا جعلَ الرغبةَ همُ الناس، لأنه المرغوب فيه عندهُم، ويتسبَّبُ إليه بِهِم، لذلك صار الزُّهد فَقْدَهم. وكذلك قال بعضُ الحكماء: إذا طلب الزّاهدُ الناس فاهْرَبْ مِنه، وإذا هَرَبَ من النّاسِ فاطْلُبْه. وهذا هو حالُ الزّاهدِ العابدِ المشغولِ بنفسه.

فأمّا الزّاهدُ المُعْبِدُ، العارفُ المعرِفُ، إنْ طلبهم لِمَطْلُوبِه بما بِه طَلَبَ من التَّزهيدِ والتَّعريفِ لهم، والتنبيهِ والتّفضُّلِ عليهم؛ لأجلِ مولاه، فهو نذيرٌ مِن الله تعالى لهم، ورسولٌ من رسله أبدالُ مُرْسَلِيه إليهم، لِمَا خصَّه به من غرائبِ أنبائه، فجعلَهُ خَلَفًا من بعضِ أَنبيائِهِ، فهو أفْضَلُ إذا وُضع لذلك، وقامَ به. وهذا مقامٌ فى العلم أعلى من الزُّهد.

وقيل ليحيى بن معاذ رحمه الله: متى يكونُ الرَّجُلُ زاهدًا؟ فقال: إذا بلَغ حِرصُه فى تَرْكِ الدُّنيا حِرصَ الطالبِ لها، كان زاهدًا.

وقال قاسم الجُوعىُّ: الزُّهدُ فى الدّنيا هو الزُّهد فى الجَوْف؛ بقَدْر ما تَملكُ من بَطْنك كذلك تَمْلكُ من الزُّهْد. فكأنَّ الدنيا عنده الشِّبَعُ، وأَكْلُ الشَّهوات، وتَرْكُ المَطْعُوم من غير الحاجات عن فُضول الكفايات.

وكان الفضيلُ بن عياض يقول: الزُّهدُ هو القناعَةُ. فكانت الدنيا عنده الحرصَ والشّرَهَ والضَّراعَةَ[1]. وقال الثورىُّ: الزّهد هو قِصَرُ الأمل، وانتظارُ الموتِ. فصَارت الدنيا عنده طولَ الأمل، ونِسْيانَ قُربِ الأجل.

وكان الدَّارانىُّ أبو سليمان يقول: الدنيا كلُّ ما شغل عن الله. فكان الزّهدُ عنده دوامَ التفرغِ للهِ عز وجلّ بحُسنِ الإقبال عليه. وقد قال: إِنَّما الزّاهدُ مَنْ تخلّى عن الدّنيا، واشتغل بالعبادةِ والنَّصَبِ.

فَأمّا مَن تركَها وتَبَطَّل، فإنّما طلبَ الرّاحةَ لنفسه، فهذا لعَمْرى، وإن طلب الرّاحة لقَلْبِه وجسمه مع الزهد، فذلك هو مقتضاه، وعاجلُ نصيبِه من اللهِ تعالى

(١) الضّراعة: الذّلّ والاستكانة. وقوله: «فكانت...» من كلام أبى طالب.

فى الدّنيا، وأولُ بُشْرَاه؛ لأنّ اللهَ سبحانه جعل الرّاحةَ فى الزُّهد نَعيمًا للزّاهدين، تعويضًا منه لهم، لما تركوا منها له، بما طيَّب من نُفوسِهم، وروَّح قُلوبهم عن نعيمِ الدنيا، والرّاحةِ بها، بوجودِ حلاوةِ الزّهد فيها، كما جعل العزَّ فى قلوبِ المنقطعين إليه، عِوَضًا من الاتصالِ بالخَلْق، لمّا حبَّبَ إليهم من الخُمول والوَحْدَة، تعويضًا ممّا ابتلى به طالبى العزِّ والرِّياسة. فلا يُخرجُهم دُخولُ الرّاحةِ عليهم بالزّهد من دَرَك درجاتِ الزهد، كما لا يُفْقِدُهم وجودٌ عن الانقطاعِ إلى الله تعالى، يحقِّقُهُم بالذُّلِّ لَهُ، وفيه وَلاءٌ لأوليائه وأحبابه لأَجْله، إذ ذَانكَ مَجْعُولان فى الزُّهد فى الدّنيا، والانقطاعِ بالرّغبةِ إلى المولى. كما جعَلَ ذَوْقَ حلاوة الطَّيّبات فى حواسٍّ المَذاقِ للتَّنعُّم بنعمةِ اللهِ بها. ثم لم يُخْرِجْهُم ذلك من الزُّهد فى الدّنيا لأجلِ ذوقها، إذ لم يطلبوها، ويحرِصُوا عليها، ويشغَلُوا قُلوبَهُم بها، ويعملوا لأجلها، ألم تسمعْ إلى الخبرِ الذى رُويناه عن الله تعالى فى معنى ما ذكرناه، يقولُ اللهُ تعالى للعبد يوم القيامة: «يا ابنَ آدمَ، أمَّا زُهدُك فى الدّنيا فقد تعجَّلْتَ به الرّاحةَ لقلبكَ وبدَنكَ، وأمّا انقطاعُك إلىَّ فتعزَّزْتَ بى، فماذا عملْتَ فى حقِّى عليك؟ قال: وما هُو يا ربِّ؟ قال: هَلْ واليتَ فىَّ وَلِيًا، أو عاديتَ فىَّ عدوًا؟».

وقد كان داود الطّائى يقول: كلُّ ما شغَلك عن الله تعالى؛ من أهلٍ أو مالٍ، فهو عليكَ شؤمٌ. وقال أبو سليمان: من تزوَّجَ، أو كَتَب الحديثَ، أو طلبَ معاشًا، فقد ركَنَ إلى الدّنيا. وقرأ قوله عز وجلّ: ﴿**إلاَّ مَنْ أتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء:٨٩]، فقال: هو القلبُ الذى ليس فيه غيرُ الله.

فهذا زهدُ الصِّدِّيقين. وإنّما تكون هذه الثلاثُ دنيا لمن أراد بهنَّ الدّنيا لعاجل متعة النَّفسِ بها، فأمَّا من أرادَ بها الآخرةَ، فهى طرقات له إلى الآخرة. وقال مرَّة أبو سليمان: إنما زَهدُوا فى الدّنيا لتَفْرُغ قلوبُهم من هُمومها للآخرة، فإذا رُزق العبدُ فَرَاغَ القلبِ مع وُجُودِ هَذِه الثّلاثِ التى ذكرنا، كُنَّ له قُرباتٍ إلى المذكور بها.

وقد كان رحمه الله ذا عيال، ولكن لم يكن يشغله ذلك عن أوقاته مع اللهِ، لا يدخلون عليه فى مَقامه، فيُخرجونه من المقام.

وقد قال أويس القَرَنىُّ قَبْله: إذا خرجَ العبدُ يطلب ذهبَ الزّهدُ. وقال مرّة لبعض من سأله عن الزّهد: فى أى شىء خَرجْتَ؟ فقال: أطلب المعاشَ. فقال له: فأين الزّهدُ؟

يعنى أن الزهد عنده: أن يقتطعَ العبدُ بدوامِ الشُّغلِ عن التفرُّغِ لطلب ما سوى الله، وأن لا يشغله عن ذكرِ الله ذكرُ ما قطَع عن الله. ولم يكن الزُّهْدُ يصحُّ عنده إلا بحقيقةِ التوكّل. وكان التوكّل عنده ترْكَ الطلبِ شُغْلاً بما يَرِد عليه من المَطْلُوب، فلا يبقى فيه فراغُ المرغوبِ. فهذا غاية الزهد، وهو طريقُ طائفةٍ من الأبدالِ، اقتُطِعُوا عن الخلق، وأُريدوا بهذه الحال، كما قال بعضُ الزّاهدين لبعضِ العارفين: لم يبق علىَّ من الدنيا إلا مصُّ النّوى. فهذا يرى هذا بعيدًا عن الرّغبة. فقال: يا هذا، نظرُك إلى مَصِّ النَّوى لزُهْدك هو نفسُه من الدّنيا. فهو يريد منه نسيانَ ذلك، بالزُّهد فى زُهْده، على تَرْكِ النّظر إلى مَوْضعِه، لما يستغرقه فى الجرَيان عليه، فلا يَبقى فيه همَّة بغير مُجريه، ويكون بحكم المُجرِى فيه. فهذا مقامٌ فوقَ الزُّهدِ، مُتَّصِل بغيرِه من القُرْب المصطلم[(١)].

وقد روينا عن رسول الله ﷺ قال: «تفرَّغوا من هُمومِ الدّنيا ما استطعتم». وخبر ابن مسعود: «لا تتّخذوا الضَّيْعَةَ، فترغَبُوا فى الدنيا».

والضَّيعةُ، أيضًا: اسمٌ للاشْتغال بالمعاشِ من غير الحَرْث والزَّرْع، وغير ذلك من الرِّياش. يُقال: أقبل على ضَيْعَتك إلى صناعتك. وفلانٌ فى ضَيَعة أهله، أى: فى جوارهم. كما قال: «من جَعَلَ الهم همًا واحدًا همَّ آخرته، جمعَ اللهُ عليه ضيعتَهُ، وجعل غِناه فى قلبه». وقال فى ضدّه: «من تفرَّقَتْ به الهمومُ، فرَّق الله عليه ضَيْعَتَه، وجعلَ فقْرَه بين عَيْنيه».

وقد كان إمامُنا أبو محمّد سهل، رحمه الله، يقول: أوّلُ الزهدِ التوكّلُ، وأوسطُه إظهارُ القدرةِ. وقال: لا يزهد العبدُ زهدًا حقيقيًا لا رجعةَ بعده إلا بعد مشاهدةِ قُدَرِه. فأوّلُ القُدْرةِ سَمْعُ آيات ربِّه الكبرى، فهى الحكمةُ التى مَن أُوتيها

(١) المصطلم: من اصطلم: أى استأصل أو قطع.

﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كثيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] قيل: هو الفهمُ فى كتابِ الله، الذى هو إبانةٌ عن معانى صفاته، وتبيانُهُ من حكمةِ قدرتهِ. ثُمَّ بعد ذلك من معنى ما قال: ﴿لقَدْ رأى من آيات ربِّه الكُبْرَى﴾ [النجم:١٨]، فالسّمع يقتضى النّظر، كما قال السَّامِعُ المُكلَّمُ، بعد أن سمعَ حلاوةَ الكلامِ: ﴿أرِنى أنظُرْ إليك﴾ [الأعراف:١٤٣]. فإذا سمع المتزهِّد المتعبِّدُ كلامَ المزهِّد، إذا يقول: ﴿ومِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْه فى النَّار ابْتغاءَ حلْيَة أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مثْلُه﴾ [الرعد:١٧]، فالحِلْيَةُ: الذّهبُ والفِضّةُ، وهما قِيَمُ الأشياءِ، ومقاديرُ النفوسِ، اللذان مَلَكا القُلوبَ، ونكّسا الرؤوسَ. والمتاعُ: ما سِواهما من مَعادِنِ الأرْضِ.

فإذا شهِدَ العبدُ الذّهبَ، الذى هو سببُ الدنيا، ولأجله أَشْرَكَ مَن أشْرَكَ، وبحبائله ارتبَكَ مَن ارتبَكَ، ولوُقوعِ حلاوتهِ فى القلوبِ وَقَعَ مَنْ وقَع فهلك. فإذا شهِد جوهرَ الذّهبِ والفضّةِ زَبَدًا طافيًا على وجهِ الماء، لا نفعَ فيه، ولا غُنيةَ به، ولا قِنْيَةَ يَنْبَغى لَه، زَهِدَ فيه حينئذ زُهْدًا صادقًا. فكان زهدُه معاينةً لا خبرًا، وكان من المؤمنين حقًا، الذين وصفَهم الحقُّ بالحقِّ فى قوله عزّ وجلّ: ﴿إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهم وإذَا تُلِيَتْ عَلَيهِمْ آياتُهُ زادَتْهُم إيمانًا﴾ [الأنفال:٢].

فالزُّهد مَزيدُ الإيمان، وتَزيينُه فى القلوبِ بالإيقان، فذلك علامة تَحبُّبه، كما ﴿حَبَّبَ إليكُمُ الإيمانَ وزيَّنَهُ فى قُلوبِكُم﴾ [الحجرات:٧]، أى: بالزُّهد. شهِدَ له قولُه تعالى[1]: «ما تزيَّنَ المتزيِّنونَ لى بمثلِ الزّهد فى الدّنيا». هى زِينةُ المتقين عَليهم منها شِعَارٌ يُعْرفون به. فإذا تحقّق العبدُ بتحبيبِ الإيمانِ إليه، تخلَّق بزينَتِه فى قلبه، عندها تحقّق أيضًا بتكريه الفسوق؛ وهو الخروجُ عن الأمر، وبتكريه العصيانِ؛ وهو الدخولُ فى النّهى. كما روينا: «حُبُّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خَطيئة». فصار بُغضُها أصلَ كلِّ قُربة. كما تحقّق بتكريهِ الكُفرِ إليه؛ لأنّ اللهَ تعالى ضَمَّ تكريهَ المعاصى إلى تكريهِ الكُفر، لمن يُحبَّبُ إليه الإيمانَ بالوَرَع والتّقوى، وزيَّنه فى قلبه بالزّهد

(١) يقصد الحديث القدسى.

والتوكّل، الذى هو علامةُ المؤمنين حقًا، ثم قال: ﴿وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] بعد وصْفِهم بالمزيدِ والوَجَلِ والإنفاق، فحقق بالزّهد والتوكّل وصْفَهُم، لمّا أعطاهم حقيقةَ الإيمان، الذى هو مُوجبُ الزهدِ، والمشاهَدةُ مزيدُهُ، كما قال فى الخبر، لمّا قال: «أصبحتُ مؤمنًا حقًا. قال: فما حقيقة إيمانك؟ قال: عَزَفَتْ نَفْسى عن الدُّنيا، فاستوى عندى ذَهَبها وحجرها» فهذا الزّهد «وكأنّى بعَرْشِ ربّى بارزًا» فذكر المشاهدَةَ مزيدًا على الزهد الذى أحسن اللهُ إليه به، فهذا كما قال: ﴿تَمامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] أى مزيدًا من الله آخر على ما كان أحسن به إليه، فوصفه الرسولُ ﷺ بالمعرفة، وأمره بلُزوم ما عَرَفَ من الزُّهد والمشاهدة، فقال: «عَرَفْت فالْزَمْ»، وقال: «عبدٌ نوّر اللهُ قَلْبَه بالإيمان».

فهذا صفة قلبِ المؤمنِ الأجردِ، فيه سراجٌ يُزهر، كذلك رويناه فى الخبر الآخر، الذى وصف به القلوبَ الأربعةَ، فهذا كان أفضلها وأعلاها: «قلبٌ أجردُ من الدّنيا، فيه سراجٌ يُزْهِر من اليقين». قال الرسول ﷺ: «فكذلك قلبُ المؤمن». فكان هذا تفسير قوله: ﴿وأيَّدَهُم بروحٍ منْهُ﴾، فسَّر به تزيينَ الإيمان فى القلوبِ باليقينِ، الذى هو أصلُ الزّهدِ، كما الزّهْدُ سببُ المحبّةِ، وكما قال تعالى: ﴿كَتَبَ فى قُلُوبِهمُ الإيمانَ﴾ ثم رفعَهم فى الإيمان مقامًا، فقال: ﴿وأيَّدهُم برُوحٍ منْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أى من الإيمان، وهو اليقين. كذلك قال: ﴿حبَّبَ إليكُمُ الإيمانَ﴾ فهذا بالكَتْبِ، ثم قال: ﴿وزَيَّنَهُ فى قُلُوبِكُم﴾ [الحجرات: ٧] فهذا بتأييد الرُّوحِ. فهو مفسِّر له، فتدبّر.

فالزُّهدُ داخل فى التوكّلِ، فقال عزّ وجلّ: ﴿فاتّخذْهُ وَكيلاً * واصْبِرْ على ما يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٩ ـ ١٠]. فالتوكّلُ يُوجب الصّبرَ للوكيلِ وعلى حُكمه، كما قال تعالى: ﴿ولربِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]. وقال لما فى معناه: ﴿وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠] عن الفتنة، وتَصْبرون على البُعد منها والزُّهد فيها. وقال: ﴿إنَّما أمْوَالُكُم وَأَوْلادُكُم فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. وقال صاحبُ الأمر: «إنّما بَقِى من الدُّنيا بلاءٌ وفِتْنَةٌ. والموتُ مِحنةٌ لكُلّ مؤمن».

فقد سمعَ الزّاهدُ المزهِّدُ كلامَ الله لَمّا عَقلَه، وعقَلَ عن الله أمثالَه، لَمّا عَلمَهُ، كما قال: ﴿وما يَعْقلُها إلاَّ العَالمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال: ﴿إنَّ فى ذَلكَ لآيات للعَالمينَ﴾ [الروم:٢٢]. فلمّا سمعِ كلامَ الله أبْلَغَهُ مأمنهُ فى المقامِ الأمين، فى جنات وعُيون، واستحق وَصْفَ الله بالإيمان، إذْ تَلا القرآن بحقيقةِ الإيمان، فقال: ﴿الّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكتابَ يَتْلُونَهُ حقَّ تلاوته أُولئكَ يُؤْمنُونَ به﴾ [البقرة:١٢١].

كذلك إنّ هذا الزّبَدَ تشبيهٌ من الله تعالى لِمَثَلٍ ضَرَبَهُ للحقِّ والباطل، فالمَثَلُ هو الماءُ والزَّبدُ، فمثَّل الحقَّ فى نفعه وبقائه بالماء التى تحت الزَّبد، ومثَّل الباطلَ فى ذَهابه وقلَّة نَفْعه بالزَّبدِ الذى يكون فوق الماء طَافيًا تُفرِّقه الرِّياحُ، وتَنسفهُ الشّمسُ، إذْ لا حقيقةَ له، ولا بقاء. ثُمَّ شبَّه الذّهبَ لذَهابه عن الحقيقةِ بالزَّبد، تشبيهَ مماثلة لا تشبيهَ مجازٍ، لقوله: ﴿زَبدٌ مثْلُهُ﴾ والمماثلَة مُسْتقصاةٌ، ثم قال: ﴿كَذَلكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ * للَّذينَ اسْتَجابُوا لربِّهمُ الحُسْنَى﴾ [الرعد:١٧ـ ١٨]، أى الجنة والبقاء. وقال تعالى: ﴿للَّذينَ لا يُؤْمنُونَ بالآخرَة مَثَلُ السَّوْء﴾ [النحل:٦٠]، هم المريدون للحياة الدنيا وزينتها، الرّاضون المطمئنون بها، ليس لهم فى الآخرة نصيبٌ، بتوفيةِ أجورِهم من الدّنيا، وقد تأوّل ذلك بعضُ السَّلفِ المفسِّرين فى أهل القِبلة من أبنا الدنيا الراغبين.

فكان الذَّهبُ والفضّةُ عند الزّاهدين، لنظرهم بعينِ القُدرة، زبدًا طافيًا تفرِّقهُ الأهواء، فيكون متجافيًا فوقَ الماء. وهما من معادنِ الجبال، فصارت الجبالُ عندهم أمواجًا ثابتةً بإثبَات، وساكنةً بإسكانٍ، ﴿تَحْسَبُها جَامدَةً وهىَ تَمرُّ مَرَّ السَّحَاب صُنْعَ الله الّذى أَتْقَنَ كُلَّ شَىء﴾ [النمل:٨٨]. وصارت الأرضُ بحرًا عجّاجًا، تضطربُ بالأمواج، فيظهر بَيْنَهما من المُدُن والقفار ما جعل سُبُلاً فجاجًا، ممّا قَدَّرَهُ فى الأقطار؛ بالاستواء والاعوجاج، من كل شىءٍ موزونٍ بمقدار. والخلائق فيها كالحيتان فى البحر، وكالغُثاء على السَّيل، إذا عاشوا مشَوْا فى مناكبها، وأكلوا من رزقه، وإن ماتوا غرقوا فى قعرها وردُّوا إلى حقّه: ﴿والنَّازعات غَرْقًا﴾ [النازعات:١]، ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخلُوا نَارًا﴾ [نوح:٢٥]، ﴿ ثم رُدُّوا إلى اللـه مَوْلاَهُمُ

الحقِّ﴾ [الأنعام:٦٢]، ثم سترَ حقيقةَ هذا العيانِ عن نظر الأعيان، لظهور حكمته، ونفاذِ أحكامه، ولباطن قدرته، ونَشْرِ أعلامه بلطيف صُنْعه، لشُهود نعمته، والقيامِ بشكره، ولتصريف تدبيره، والائتمار لأمره، إنّ ربّى لَطيف لما يَشاءُ، فاجتمعَ الفَرْقُ، وارتتقَ الفَتْقُ، وغابَ كلُّ مُتَفَرِّقٍ بالاسم الباطنِ المفرِّق، وظهر كلُّ مُجتَمِعٍ بالاسم الظاهر المجمّع، وكان عرشُه على الماء ليبلوكُم. فهذا مشاهَدَةُ أبناءِ الآخرةِ، هى أعلى من زهدهم فى الدنيا.

فافترق الجمعُ، وافتتقَ الرَّتْقُ، وظهَر من الماءِ كلُّ شىءٍ ظاهرٍ، واتسع الفضاء، واستتر الغطاءُ، ووُجِد التفصيل، وحُكِم الحسبان بالتحصيل: ﴿كانَتا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُما وجَعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَىءٍ حَىٍّ أفلا يُؤْمنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠]. هذه مُشاهدة أبناء الدنيا، هى أعظم عليهم إذا تيقَّظُوا من رَغبتهم: ﴿وجَاءتْ سَكْرَةُ الموْتِ بالحَقِّ ذلكَ ما كُنتَ منهُ تَحيدُ﴾ [ق:١٩]، ﴿لَقَدْ كُنْتَ فى غَفْلَةٍ من هذا فكَشَفْنَا عنكَ غطاءَكَ فَبَصرُكَ اليَوْمَ حَديدٌ﴾ [ق:٢٢]. حينئذ حقَّ قوله تعالَى: ﴿والنَّازعات غَرْقًا﴾ [النازعات:١]، ﴿والسَّابحات سَبْحًا﴾ [النازعات:٣]، هَذه أَرواحُ المنافقين، تَغرقُ فى البحرِ الأسفلِ، وتَسبحُ سَبْحًا إلى فَوْقٍ. ﴿والنَّاشطات نَشْطًا﴾ [النازعات:٢]، ﴿فالسَّابقَات سَبْقًا﴾ [النازعات:٤]، هذا وَصْفُ الرُّوحانيِّين، تنشط أرواحُهم كالأنشوطَة، فلا تجد لها ألَمًا، وتَسبقُ إلى العَلىِّ الأعْلَى؛ إذْ نصبَ لها عَلَمًا. هنالك تَعْظُمُ الحسرةُ عند الموت، إذْ قُضِى الأمرُ وهُم فى غَفْلَةٍ. هذه مُشاهدةُ العموم عند الموتِ، فيُعظمه عَليهم بالفَوْتِ.

وقد فَرَغَ الخصوصُ من نَصيبهم بمُشاهدته، فهم ناظرونَ إلى مُستقبلِ المزيدِ، مشغولون به عن العبيد، قائمون بشَهادة الحقِّ لهم، مُتصرِّفُونَ بإشهاده إيّاهم، ظاهرًا وباطنًا، ولطيفًا مُستَترًا، ومعروفًا ومُنكرًا ﴿واللهُ غَالبٌ علَى أمْرِه ولَكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١]، فما غَلَب عليه لم يُظهَر، وما غَلَبه عليهم إيَّاهم قَهر. قال رسولُ الله ﷺ: «أَصدقُ كلمةٍ قَالها الشّاعرُ: ألا كُلُّ شَىءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ».

وقال الحقّ، والحق يقول: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوات ومنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢]. وكان ابنُ عباسٍ رضى الله عنه يقولُ: «لو فسَّرتُ لكم هذه الآية لكَفَرْتُم. قيل: وكيف؟! قال: كنتم تُنكرونها، وإنكاركم لها كُفْرانُها». وفى لفظ آخر: «لو فسَّرتُ الآيةَ التى فى سورة النِّساء الصغرى، لَرجمتُمُونى بالحجارة». ومعناه: أى لَكَفَّرتُمونى، لأنهم لا يقتلون إلاّ كافرًا عندهم.

وروينا عنه فى قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية:١٣] قال: «فى كلِّ حَرفٍ اسم من أسمائه تعالى، وكان اسم كُلِّ شيءٍ عن اسمه، كما أنَّ فِعْلَ كلِّ فاعلٍ عن فعله، إذ كل فِعْلٍ مقتضى وَصْفٍ من أوصافه؛ لأنَّ كُلَّ صِفَةٍ من صفاته مُوجبةُ فعلٍ من أفعاله، باطنًا بِقُدرتهِ لباطِنِينَ من معرفتهِ، وظاهرًا بحكمتهِ لظاهِرِينَ عن الإيمان به.

وكان أبو محمد، رحمهُ اللهُ، يقوله بمعناه، فى تأويل قوله: «ما نزلَ من السَّماءِ أعزُّ من اليقينِ به» يقول: هو اللهُ اسم من أسمائه تعالى، فغابَتْ السَّبعُ، والسّبع السُّفلى، والعُلَى من المُلك الأدنى فى الملكوت الأعلى، لما طوى نفس الهوى، وغابَ العرشُ والثَّرى فى طىِّ الطَّىِّ، إذ أَطْلَقَ العقْلَ من عِقال البَلْوى، وغاصَ الملكوتُ فى عِزَّةِ الجبروتِ، فكان ذلك حُجبَ العَلىِّ الأعلى، إذ طوى طىَّ النفسِ والعقلِ، وقام شاهدُ الحقِ بعين اليقينِ، وحضر الأزلىُّ الأولىُّ، إذا غاب الحدثان الثانى، وظهر الباطنُ الآخرِ، حين بطن الظاهرُ الساترُ، فصار العبدُ شهيدًا، إذ الشهيد له موجود، وحضَرَ العارفُ واجدًا، حين كان لمحـ...[1] فاقدًا، عندها فهم قول رسول الله ﷺ: «ألا كل شىء ما خلا الله باطل» مصدّقًا لقوله: «أعوذ بك منك»...[2] كان العبد سميعًا لقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٦ ـ ٢٧]، وهناك أراه الآياتِ فى الآفاق، فتبين الحقَّ بقول الحق:

---

(١) بقية الكلمة تالف بالأصل.

(٢) تلف بالأصل قدر كلمة.

﴿سَنُرِيهِمْ آياتنا فى الآفاقِ وفى أَنْفُسِهِم حتَّى يَتَبيَّنَ لَهُم أنَّه الحقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بربِّكَ أنَّه عَلى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿ألاَ إِنَّه بكُلِّ شيءٍ مُحيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

فهذه شهادةُ أهل الله تعالى، غابتْ فيها الشهاداتُ الأولى التى هى مشاهدةُ زاهدى العُبّاد. وإظهارُ هذه الشهادةِ لا يَحِلُّ إلا لشهيدٍ مَشهود، وواجدٍ بموجودٍ ذى وُجودٍ، وقد قال الحكيم من الشاهدين:

لقَدْ عزَّت معانِيه فغـابتْ عن الأَبْصـارِ إلا للشَّهِيدِ
فليس يراهُ مفتـونٌ بخَلْقٍ وحُصِّنَ برؤيةِ القلبِ الفريدِ

وقد قال: لو كانت الأشياءُ بعقلِه لطلب لمعناهُ مَعَانيها. فسبحان مَن حقّقها بما أثبت، لِما سترَ من الحقيقةِ، وأرادَ من الثَّبْتِ.

فهذا هَمْسُ مهموسٍ، برَمْزِ مرموزٍ، يُنسخ من قلبٍ إلى قلبٍ، ويُكْتَتَب بِهَمٍّ من هَمٍّ، وقال الرسولُ ﷺ: «إنّ اللهَ كرِه لكم البيانَ، كلَّ البيانِ»، وقال: «أُمرنا معاشرَ الأنبياء أن نكلِّم الناسَ بقدر عقولهم، وبُعثت بالمداراة كما بُعثت بالرِّسالة». ذلك ليوفِّيهم منه نصيبَهُم، وليقومَ بشاهدِ حُكمِ الله فيهم، كما قال بعضُهم: مَن خاطب العامَّة بعقله، وحادثهم بعلمه، فقد بخَسهم حقوقَهُم منه، ولم يَقُم بحقِّ الله فيهم. فتباركَ اللهُ أحسنُ القائلين: ﴿إنَّ الَّذين يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنا﴾ إلى قوله: ﴿من بَعْدِ ما بيَّنَّاهُ للنَّاسِ فى الكتَابِ﴾ [البقرة: ١٥٩]، فشرحُ هذه المعانى المرموزَة، التى أخفينا فيما أظهرنا، لم تُبَيَّن فى الكتابِ، وإنّما هو سَرِيرةٌ فى قُلوب أُولى الألباب، الذين آتاهُمُ الحِكمةَ وفصْلَ الخطاب. وهو من سرِّ الغيبِ، وإظهارُ سرِّ الملكوت معصيةٌ، إذِ اللهُ سبحانه لم يأمر به، ولم يمتحن فيه.

فسبحان من نفذَ بصرهُ الأبصارَ، ويقلِّبُ الليلَ والنّهار، وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار، يُبصِرُ ما لا يُبصَرُ، كما يَقْدر على ما لا يُقْدَر، خصَّ الشاهدين الّذين عنده فى ظِلّه، بمعنًى من شهادتِه، كما أعطاهم حَيطةً بشىءٍ من علمه، فأحاط عِلْمُهُم بما شاء، لمّا أحاط لهم ما شاء. ولذلك قال صاحبُ السِّرِّ الذى عنده حقيقة الخبر، للرجل الذى قال: «اللهم أرنى الدنيا كما تراها». فقال: «لا تقل هكذا، فإنَّ الله

لا يرى الدنيا كما تراها. ولكن قُل: أرنى الدّنيا كما يراها الصّالح من عِبادك». فَهذا على نَحوِ ما أمر الآخرَ به، إذ قال له: أَوْصنى. قال: «استحى من اللهِ كما تَسْتحى من رَجُلٍ صالح».

فهذا الذى يُمكنُه معرفتَه، إذ كان حقيقةُ الحقِّ ممتنعةً، وكُنْهُ صفاتِه الموجبة للحياء وغيرِه محتجبةً، فَردَّه إلى ما يعلم، وخاطَبه بما يَعْقِل، وهذا الذى يحتاجُ إليه، وهذا داخل فى مخاطبةِ الخلْقِ بقدر عقولهم ومُداراتهم على نحو عُلومهِم. كذلك العلماءُ مقتفون على أثرِه، مُرتسِمُون برَسْمِه وخبره.

فسبحانَ من أقامَ معايشَ الخليقةِ بهذا الزَّبد الذّاهبِ، إذ غيَّر به الحقيقة. قال: فالحبيب يرى العرَضَ بالعارض المعترض فى القلوب، فهُم من الدِّينار والدِّرْهم يأكلون ويلبسون، وهو عينٌ قائمة كعَصى موسى، تلقَّف ما يأفكون، تَنْقُلُه من يدٍ إلى يدٍ، وتقلِّبُه من قَلْب إلى قلبٍ.

فهذا، الذى ذكرناه، تفسيرُ ما أجمله شيخنا أبو محمد رحمه الله من أن الزُّهدَ لا يقعُ على حقيقةٍ إلا بعدَ معاينةِ قُدرةٍ من المَلكوتِ، فيحتاج هذا الزّاهد أن يشهد المزهودَ لمنزلة الزَّبَد، إن لم يبلغ نظرهُ شهادة الشاهد للآخر، فيكون من أهل السّمع والشهادة، فينسى لحقيقة ذكرِه معارفَه والعادَةَ، ويصير عند الله شهيدًا، له أجرُه نصيبًا من قُربِه، ونورُهُ شعاعًا من سُبُحات وجهه، كما قال الشهيدُ الأعلى: ﴿والشُّهَداءُ عِنْدَ ربِّهِم لَهُمْ أجْرُهُم ونُورُهُم﴾ [الحديد: ١٩].

فكيف يكون شاهدًا مَنْ لم يشهد على شاهدته؟ أم كيف يكون زاهدًا مَنْ لم يقُم بشهادته؟ بل كيف يشهد وصْفَ الأوَّليةِ بغير نُورها لحضورِها؟ أم كيف يقومُ بشهادته مَنْ لم يشهد قيُّوميَّتَهُ؟ بل كيف يرى قَيُّوميَّتَهُ بغيرِ نور وَحْدانيته؟ وكيف يعاينُ قُدرته من هو محجوبٌ بصفاته، ومشغولٌ بنفسه وهوَاه بجريان طبعهِ وعاداتهِ؟

فإن لم يقرب فى هذا المكان، كما قال سبحانه: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وهُو شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فيسمع من مكانٍ قريب، لا كمَنَ قال: ﴿أُولئكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ

بَعيد﴾ [فصلت:٤٤] ـ لم يكن من أهل البيان والفكر، كقول الحقّ المبين: ﴿كَذلكَ يُبيِّنُ اللهُ لكُمُ الآيات لعلَّكُم تتفكَّرونَ * فى الدُّنيا والآخرَة﴾ [البقرة:٢١٩ ـ ٢٢٠]، فتؤثرون الدائمَ الباقى الذى عند الباقى على الزَّائلِ الفانى الذى عند العبيد الأُبّاق، فتُزهَّدونَ فيه إذا آثرتم عليه غيره، وعوِّضْتُم بدلاً منه ما عنده؛ لأنّ ما يكون آخره فناء يشبه أوّل أمرِه، وأولُه لم يكن ما يكون آخره بقاء، فكأنّه لم يزل، فأشبه أوّلُه آخره فى البقاء. لذلك قال العليمُ الحكيم: ﴿والآخرَةُ خَيْرٌ وأبْقَى﴾ [الأعلى:١٧]، فوَصفَها بالخيريّة لبقائها فى المآل، ومَنحَها وصْفَين من صفاته ليرغَب فيها الأبدالَ، كما قال: ﴿واللهُ خيرٌ وأبْقَى﴾ [طه:٧٣]. ولذلك قال: ﴿ما عنْدَكُم يَنْفَدُ وما عنْدَ الله باقٍ﴾ [النحل:٩٦]. فأضاف الدنيا إلينا ليذلَّنا بها؛ لأنَّا أهلُ الفناء، وليزهِّدنا فيها زهدنا فى أنفسنا الأمَّارة بالسوء. وأضاف الآخرةَ إلى الآخرِ الأعلى؛ ليعزَّها به، ويشوِّقنا إليها؛ لأنّه أهلُ البقاء، فخصّ بها أهلَه، إذ منحها البقاء.

فإذا شهِدَ العبدُ بعينِ قَلْبه ويقينِ إيمانه ما صدَّق به، ممَّا عَلمَه بفَهْم سَمْعه وإدْراكِ خبرِه، أنّ ما يَفْنى آخرُهُ كأنّه لم يكن، وما يبقى آخرُهُ كأنه لم يزَلْ، كان من المتفكِّرينَ فى مثل هذه الآى، المشاهدين لها، وممّن تلاها حقَّ تلاوتها، فآمن حقيقةَ الإيمانِ بها، حينئذ زَهدَ فى الدُّنيا حقيقةَ الزُّهد، ورَغبَ فى الآخرة حقَّ الرَّغبة، وكانَ من أُولى الأيْدى والأبصار؛ أى من ذوى القُوَى فى الدِّين، والبَصائر فى اليقين، فلمّا أبصرَ بقُواهُ عبرَ الدُّنيا إلى الله، فكانَ زادُهُ تَقْواهُ، وصار الفردُ الأحدُ ظلَّه ومأواهُ، كما قال تعالى: ﴿ومنْ كلِّ شىء خَلَقْنَا زَوْجَيْن لعَلَّكُم تذَكَّرُون * فَفرُّوا إلَى الله﴾ [الذاريات:٤٩ ـ ٥٠] أى من الأشكال القاطعة عنه. وكما قال: ﴿فاعتَبرُوا يا أُولى الأبْصَار﴾ [الحشر:٢] فعَبَر لَمَّا أبصَر، وحَذر لمّا ذكرَ، وقطَع عنه ما خَشى أن يَقْطَعَهُ عنه، وباعَدَ منه ما خافَ أن يُبعدَهُ منه، عندها كان ممَّن أخذَ ﴿الكتَابَ بقُوَّة﴾ [مريم:١٢] قيل: بعَملٍ به، وقيل: بيقينٍ فيه، ويُقال: بجدٍّ واجتهادٍ وكان من المحسنين، الذين يتمسَّكُون بالكتاب، وأقَامُوا الصَّلاةَ. وتلا رسولُ الله ﷺ: ﴿الَّذينَ يَذْكُرونَ اللهَ قيامًا وقُعُودًا وعَلَى جُنُوبهم﴾ الآية [آل عمران:١٩١]،

فقال: وَيْلٌ لمنْ قرأها ولم يتفكَّر فيها. وَيلٌ لمن تَلاها ومسحَ بها سَبَلَتَهُ[١]. وذلك أن السَّموات والأرضَ عَبَّر بهما عمّا وراءهما من دَرجات الجِنانِ، ودَرَكات النِّيران، وهو الملكوتُ الذى أُرِىَ إبراهيمُ، فكان بمشاهدته من الموقنين، وهو المُلْكُ الباطنُ، والملْكُ الكبير، فكُشِف هذان ـ أعنى السّماوات والأَرضين ـ لأهلِ الفكر والذّكْر واليقينِ، وما علا وسفُل، وأحاط بهما من العَرْشِ الأعلى، والثَّرى، والأسفل، كأنّ السّماء هى الجنَّة، ونجومها منازل الأولياء فيها، وأسافلها مساكن أهلها منها، وكأنَّ الأرْضَ هى النّارُ، وتُخُومُها منازلُ أهلِها، وأسافِلُها مساكنُ أهلها منها، ﴿يَوْمَ تُبَدَّل الأرضُ غَيْرَ الأرْضِ﴾ [إبراهيم:٤٨] لتكون جهنّم مكانها، ﴿وإذا البحارُ سُجِّرتْ﴾ [التكوير ٦] سعيرًا بلظّى فى أوديةِ النّار، والسّماواتُ تُبدَّلُ جِنانًا تصير موضعها، ﴿وبَرَزُوا لله﴾ [إبراهيم:٤٨] (. . .) الشهيدُ أنه قائم بين الجنة فى تصرفه وتقلبه فى (. . .)[٢] بين يدى الملك الجبّار، هذا يقين أولى الأبصار.

ثم كشف ذلك له ما وراءه من العزّة والجبروت، فجاوزت الأفكارُ بأبصارها الملكَ والملكوتَ، لمّا شُرحت الصدورُ بنورِ النُّورِ، فرُفعت إلى الأُفقِ الأعلى، فنفَذت أبصارُ المتفكِّرين بقُوى يقينها إلى مشاهدة الجلال والجمال، بعد انكشاف الحُجُب المَلَكيَّة، والأستار الملكوتية، وهو ما قدَّمنا ذكره آنفًا، ممَّا لم يظهر كشْفُهُ كنحو ما نبَّه اللهُ العبادَ بما يَشْهدون إلى ما وراءَه ممّا به أيقنوا. فيجْعَلُ ما يبصرون بَابًا إلى ما لا يُبصرون، ويجعَلُ ما يَعْلَمُون مفتاحًا لما لا يعلمون. أقامهم مقامَ العلماء الرَّبّانيين، وأنزلهم منازلَ الشُّهداء الرُّوحانيّين، بِما اسْتُحْفظُوا مِنْ كتاب الله، وكانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ: ﴿كَفَى باللهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبيْنَكُم وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتابِ﴾ [الرعد:٤٣].

ولعموم المؤمنين فى الدنيا مشاهدةٌ قريبةٌ دون هذه، من طريقِ علمِ العقلِ، يشهدون أنّها عقوبة، كما قيل: ما فُتحت الدّنيا على عَبْدٍ إلا مكْرًا به، ولا زُويَت عنه إلا نَظَرًا له». كما روينا فى أخبار داود عليه السلام: «إنّ الله تعالى أوحى

(١) السَّبَلة: طرف الشارب من الشعر، ومقدَّم اللحية.

(٢) تلف بالأصل قدر كلمة أو كلمتين فى الموضعين.

إليه: تدرى لم ابتليتُ آدم بأكل الشَّجْرة؟ لأنّى جعلتُ معصيته سببًا لعمارة الدنيا». فينبغى فى دليل الخطاب أن تكون الطاعة سببًا لخرابها بالزهد فيها. فصحّ بذلك الخبر المشهور عن عيسى عليه السلام، وقد رويناه مسندًا من طريق: «حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة»، لأنه كان أساسها، فينبغى فى دليله أن يصير بُغضُها رأسَ كل طاعة، ولكن لا يسع ذلك العامّة، لأنهم مُرادون بالعمارة، وصلح ذلك لنفرٍ من الخاصّة؛ لأنّ نقصانَ عَدَدِهم من الكافّة لا ينقُضُ عِمارةَ الدنيا، إذ المراد عِمارتها بأهلِها من أهل الهَوى والشّهوات.

فقد روينا فى أخبار آدم ﷺ: أنّه لمّا أكلَ من الشّجرة تحركت معدته لخروج الثّفل، ولم يكن ذلك مجعولاً فى شىءٍ من أطعمة الجنة إلا فى هذه الشجرة، ولذلك نُهِىَ عن أكلها. قال: فجعل يدور فى الجنّة. فأمر اللهُ مَلَكًا يخاطبُهُ، فقال: قل له: أى شىء تريد؟ فقال له آدم: أريد أن أضع ما فى بطنى من الأذى. فقيل للمَلَك: قل له: فى أى مكانٍ تضعه؟ أعلى الفرش؟ أم على السُّرر؟ أم على الأنهار؟ أم تحت ظلال الأشجار؟ هل ترى هاهنا موضعًا يصلح لذلك؟! ولكن اهبط إلى الدنيا. قال: فتلطّفَ اللهُ له بهذا المعنى، فأُهبط إلى الأرْضِ. فكان أوَّلَ ما صنع فى الأرض أنّه أحدثَ، فصارتِ الدنيا كنيفَ العقلاء، وسجنَ الأقوياء. ثم هى بعدُ للغافلينَ بستانٌ، وللمسلمين مارِسْتان، كلُّ مَن فيها عليل، لكن يتفاوتون بمعنيين: عِلَّة دون علّة، وسُقْم بجارحةٍ دون جارحةٍ، فمن صحَّ وعُوفىَ، فخرج من المارِستان (. . .) فخاف وآوى إلى ظلِّ رحمةٍ وجنانٍ. فهذا من المقرَّبين بزهده، المُخْرَجين إلى أُنْسِ النُّور من وحشةِ ظلمة فقده.

فلمّا شهدها العقلاءُ كنيفًا، جعلوا لا يدخلون فيها إلا حاجةً أو ضرورةً، فكلما أُغنوا من ذلك كان أحبَّ إليهم. فهذه شهادة عقلية، دون الشهادة الأولى اليقينية.

وقد نغَّص الله فاكهة الدنيا وغيَّرها بحشو العَجَم والثِّفْل؛ ليزهِّد فيها، وأخبر أنها مقطوعة ممنوعة؛ ليرغِّب فى الدائم الموهوب، بتدبُّر العلمِ من لطيف الفهم (. . .)[١]

---

(١) تلف بالأصل فى الموضعين قدر ثلاث كلمات.

وكان بعضُ العلماء يقول: ما سطع لى زينةٌ من زُخرف الدّنيا إلا كُشِف لى باطنه، فظهر لى عزوفٌ عنه.

فهذه عنايةُ الله بمن ولَيَهُ من أوليائه المقرَّبين منه. فمن شهِدَ الدنيا بأوّلِ وصْفِها، لم يغتر بآخرِه. ومن عرَفَها بباطنِ حقيقتِها لم يُعجب بظاهرِها. ومن كُوشِفَ بعاقبتِها لم يستهوِه زُخْرُفها، ولم يَستمِلْهُ رونقُها.

وكان عيسى عليه السلام يمثِّل عُلماءَ الدّنيا بالكُنُف، على معنى صُورةِ الدّنيا؛ لأنّهم علماؤها، وعقلاءُ ظاهرها، غافلون عن الآخرة، وغائبون عن شهادةِ الباقيةِ الناجزة، كما قال خالقهم: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنيا وهُمْ عنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾ [الروم:٧] ـ فيقول: «ويلكُم علماءَ السَّوءِ، مثَلكُم مثَلُ قَناة حَشٍّ؛ ظاهرها جَصٌّ، وباطنها نتنٌ. ويلكُم علماءَ السَّوءِ، إنّما أنتُم مثَلُ قبورٍ مَشيدة، ظاهرُها مَشيدٌ، وباطنها عظامُ الموتى. يا علماءَ الدّنيا، إنّما أنتم مَثَلُ شجرةِ الدِّفْلَى، نَوْرُها حَسَنٌ، وطعْمُها مرٌّ، أوْ سُمٌّ يقتل. يا علماءَ الدنيا، مثلُكُم مَثَلُ صخرةٍ فى فمِ النَّهر، لا هى تشربُ الماءَ، ولا تترك الماءَ يخلصُ إلى الزَّرْعِ فينتفع به، كذلك أنتُم قعدتُم على طريقِ الآخرةِ، لا تسلكون، ولا تَتْركُون السَّالكين». إلى غير ذلك، ممّا يصفهم به على مثال صفات الدنيا.

وقد كان مالكُ بن دينار يقول: اتقّوا السَّحّارة، فإنها تسْحَرُ قُلوبَ العلماء. يعنى: الدّنيا. وروينا معناه مسندًا: «إنّى قد تركتكم على المحجَّة البَيْضاء، ليلُها كنهارِها. وإنّى لا أخافُ عليكم الفقرَ، ولا العَيْلَةَ بَعْدى، وإنما أخافُ عليكم دُنيا تُفتح لكم، تأخذُ أعناقكُم، فتُهلِككُم كما أهلَكَت مَن قَبْلكم. ألا فاتَّقُوا الدّنيا، واتّقُوا النِّساءَ». هذا مختصر من ثلاثة أحاديث بأسانيدَ متفرِّقة.

فمثَلُ بنى آدم الغافلِ، المغترِّ بها، الجاهلِ بعاقبتها، مَثَلُ دُودِ القزِّ، لا يزال ينسجُ على نفسه بجَهْله، وعدم معرفته بعاقبته، حتى يصيدَ نفسه، فيَرُومَ الخروجَ فلا يجد له مَخْلصًا، فيموتُ فى نَسْجِه، فصار عملُه ونَسْجُه وكَدْحُه لغيره منعَّمًا به، وماتَ هو به. كذلك من جمعَ مالاً لذُرّيّتِه، يُغنيهم فى الدّنيا بفَقْرِه فى

الآخرة، ويُنجيهم به من الذُّلِّ بذُلِّ نفسه، وهلكته فى عاقبته، فصار نعيمُهُ لهم، وشقاؤه عليه، ترفَّهُوا فيه بعدَه، وهلَكَ هُو به بَعْدَهم. ومَن حَرصَ على الدُّنيا بالباطل فقد قتلَ نفسه. وقد قيل: بُعدًا وسُحقًا لقتيلِ الدّنيا، لا يُقاد له منها.

فإن قوى حِرْصُه عليها، واشتدَّ عِشْقُه لها، قتلَ غيرهُ؛ لغلبة هَواه، وقلّة مبالاته لِمَن صحبه ووَالاهُ، واطّراحِه لأحكامِ مَوْلاهُ، قال الله تعالى: ﴿لا تَأكُلُوا أمْوالَكُم بَيْنَكُم بالباطِلِ إلاَّ أَنْ تَكُونَ تجارةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُم ولا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم﴾ [النساء: ٢٩]. وقال فى قتْلِ غيرِه بصَدِّه إيّاهُ عن سبيلِ الله: ﴿إنَّ كثيرًا مِنَ الأَحْبارِ والرُّهْبانِ لَيَأكُلُون أَمْوَالَ النّاسِ بالباطِلِ ويَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله﴾ [التوبة: ٣٤].

وقد روينا فى أخبار عيسى عليه السلام: أنّه مرَّ فى سياحته ـ ومَعَهُ طائفةٌ من الحَوَاريّين ـ بذَهَبٍ مَصْبوب فى أرضٍ، فوقَفَ عليه، ثم قال: هذا القاتُول، فاحْذَرُوه. ثم جازَ وأصحابُه، فتخلفَ ثلاثةٌ لأجْلِ الذَّهب، فأقام اثنان عليه، ودفَعا إلى واحدٍ شيئًا منه يشْترى لهم من طيبات الدنيا من أقْرب الأمصارِ إليهم. فوسْوسَ إليهما العدوُّ: تَرْضَيانِ أن يكونَ هذا المالُ بينكم أثلاثًا؟ اقْتُلُوا هذا، فيكون المالُ بينكم نِصفين. فأجْمعا على قَتْله إذا رجعَ إليهما. قال: وجاءَ الشيطانُ إلى الثالثِ، فوسْوسَ إليه: أرضيتَ لنفسك أن تأخذَ ثُلُثَ المال؟ اقتلْهُما، فيكونَ المالُ كلُّه لك. قال: فاشترى سمًا، فجعله فى الطعام. فلما جاءَهما بهِ وثَبا عليه فقتَلاه، ثم قعدَا يأكُلانِ الطعامَ، فلما فَرغا مَاتا. فرجع عيسى، عليه السلام، من سياحته، فنظرَ إليهم حول الذَّهب صَرْعَى، والذَّهَبُ بحاله. فعجب أصحابُه، وقالوا: ما شأنُ هؤلاء؟ فأخبَرهُم بهذه القصة.

وقيل لابنِ المبارك: مَنِ النّاسُ؟ قال: العلماءُ؟ قيل: فمَنِ الملوكُ؟ قال: الزّاهدون.

وروينا عن ابن المسيب عن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ زهد فى الدنيا أدخل الله تبارك وتعالى الحكمة قَلْبَه، وأنطق بها لسانه، وبصَّرَه داء الدنيا ودواءها، وأخرجه منها سالمًا إلى دار السلام».

فبِنُورِ الحِكْمةِ أَبْصَرْتَ داءَ الدّنيا، وعَرَفْتَ دَواءَهَا، فوضَعْتَ الدواءَ على معاقِرِ

الدَّاء فبرأ، ولا تَرى ذلكَ قبلَ نور الحكْمة، وبالزُّهد في الدّنيا إذْ خرجْتَ منها وُرِّثتَ الحكمةَ، فأُخرجْتَ من ظُلُمات الهَوَى إلى نور التَّقْوَى، إذ لا يُبصر العبدُ عيبَ ما هو فيه، ولا يعرف قُبْحَهُ حتى يُفارقَهُ إلى هاديه.

وفي الخبر: «الدّنيا دارُ مَن لا دَار له، ولها يَجْمعُ من لا عَقْلَ له». وكان الحسن البصري رحمهُ الله يقول: رأيتُ سَبْعين بَدْريًا، كانوا ـ والله ـ فيما أحلَّ الله لهم أَزْهَدَ منكم فيما حَرَّم الله عليكم. وعنه في أخبارٍ: كانُوا بالبلاءِ والشِّدَّة تصيبهم أشدَّ فَرَحًا منكم بالخَصْب والرَّخاء. لو رأيتُمُوهم قلتُم: مَجانين، ولو رَأَوا خيارَكم قالوا: ما لهؤلاءِ من خَلاقٍ. ولو رأوا شِرارَكم قالوا: ما يؤمنُ هؤلاء بيومِ الحساب. قال: وكان أحدُهم يُعرَضُ له المالُ الحلال فلا يأخذه، ويقول: لا حاجةَ لي به، أخاف أن يُفسدَ عليَّ قَلْبي.

فمن كان له قلبٌ حفظَهُ من فَساده، وخافَ من تَغيُّره وإبعاده، وعملِ في أسباب صلاحه وإرشاده. ومن لم يكن له قَلْب، فهو يتقلّب في ظُلمات الهوى، فربما انقلبَ على وجهه؛ خَسر الدّنيا والآخرة، أو يكون من أهل الرّضا بالدنيا، وأهلِ الغفلة عن آياتِ الله تعالى، فيكون قد رضِي بلا شيء، وآثرهُ على من لَيس كمثْله شَيء، كوصْف من أخبر الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:٧]، فيستحق الإعْراضِ من الحبيبِ، ويستوجبُ المقتَ من القريبِ، كمَثَل مَن أمر الله تعالى بالإعراض عنهم، وتركَ القَبُولَ منهم، إذ يقول عزَّ من قائلٍ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذلكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم:٢٩ ـ ٣٠]. وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨] أي: مجاوزًا لما نُهي عنه، مقصِّرًا عمّا أُمر به. وقيل: مُقْدمًا إلى الهلاك.

وقد نهَى اللهُ تعالى رَسُولَه أن يوسّع نظرَه إلى أهلِ الدنيا، مقتًا لهم، وأخبر أن ما أظهره من زَهْرة الدنيا فتنةً لهم، وأعْلمه أن القناعةَ والزُّهدَ خيرٌ وأبقى. تنتظم هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ

﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٣١]. قيل: القناعة. وقيل: قوتُ يومٍ بيوم. ويقال: الزّهد فى الدنيا، وهذا الوجه أشبه بكتاب الله تعالى، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ يعنى: رزقه فى الآخرة بالزهد فى العرض الأدنى. وقال أيضًا فى مثله: ﴿بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [هود:٨٦] يعنى: القناعة. وقيل: الحلال، أى: خيرٌ من التكاثرِ والتّظاهُرِ بالأعراض والأطلال، إذ هو أحمدُ عاقبةً فى المآل.

وفى خبر: أنَّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ بعِشارٍ من النُّوق حُفَّل، وهى الحواملُ، وكانَتْ من أنْفَسِ أموالهم، وأحبِّه إليهم، وهى الرّاحلةُ من الإبل، التى ضرب رسول الله ﷺ المثل للخيار القليل، مَع وُجودِ الكَثْرةِ من النّاس، فقال: «النّاسُ كإبلٍ مائة لا تكادُ تجد فيها راحِلةً»[1]؛ لأنّها تجمع الظَّهْرَ واللَّحْمَ واللَّبَنَ والولَد والوَبَرَ، ضربه مثلاً لخيارِ الناس. أى: النّاس كثيرُ، كالإبل الغَرْسِ الكليلة، والراحلة التى تجمع هذه الخمس من الإبل الحمولة قليلٌ، فكذلك المؤمنُ الحاملُ للخصالِ الخمس عزيزٌ قليلٌ فى هذا الوقت بين الجُمْلة والكثرة، مِمَّنَ جمعَ الزُّهدَ، والعِلمَ، والعملَ، والخوفَ، والورعَ.

قال: فلمّا مرَّ رسول الله ﷺ بالعِشَارِ الحَوامل أعرضَ عنها. فقيل له: يا رسولَ الله هذه أنفسُ أموالنا، لم تنظُر إليها. فقال: نُهيتُ عن ذلك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ فهذا أوّلُ الخطابِ ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٣١] أى: الزّهد فيها أحسن من زينتها، ليواطئ قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:٧]، قيل: أزهَدُ فى الدّنيا، أَتْرَكُ لزينتها.

وكذلك لمّا تزيَّنت أمُّ سلمة، رضى الله عنها، بخبوصٍ من ذهب، جعلَتْهُ فى أُذُنها. قالت: فلمّا دخلَ رسولُ الله ﷺ رفعتُ قناعى عن أذنى، رجاءَ أن ينظُر إلى زِينتى. قالت: فأعرضَ، ولم ينظر. فقلتُ: يا رسول الله، إنما تزيَّنْتُ لك.

---

(١) مرّ هذا الحديث من قبل باختلاف يسير، وهو فى الإتحاف ٩/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

فقال: «عن زينَتك أُعرِض، ما ضرَّك لو جعَلْته من فضّة، ثم لطَّخته بزعفران، فكان كأنَّه ذَهَب». فأمرها بفعلٍ من لا يُحبُّ الدنيا لعَيْنها، وإنّما يَدخُلُ فيها لظاهرِ مَرافقها؛ لأنَّ الفضّةَ والزّعفرانَ، وإن أشْبَهَت الذَّهبَ فى اللون، فإنّما هو متَاعٌ فى الوقت، لا أنَّ لها قيمةَ الذّهب وقَدْرَه، ولا وُجودَ حلاوته بالرَّغْبَة فى قنْيَته. فكذلك حالُ الزّاهدِ فى حلاوةِ الدّنيا لعَيْنها، يستعمل الدُّنيا فيما قرُب ودنا، ويُبدِّلُ دَقيقًا منها ذا قيمةٍ بيسيرٍ دُونَه. وكما قال فى الخبر الذى ذكر فيه: «أنّ الدّنيا تُفتح على أُمّتى، فيتنافَسُون فيها، وتُهْلكُهم كما أهْلَكَت مَنْ كَان قَبْلهم». قال فى آخره: «فليتَ أُمتى لا يَتحلَّوْنَ بالذَّهب».

وكان أبو هريرة، رضى الله عنه، يقول: إنّى لا أُحلِّى بِنْتى الذَّهَبَ؛ أخافُ عليها الدُّنيا. ولمّا نظَر رسول الله ﷺ إلى المرأة وعليها طوق من ذهب، قال: «أيسرُّكِ أن يُطَوِّقك اللهُ بطَوْقٍ من نار؟» قالت: لا. قال: فانْزَعِى هذا». وقال للأُخْرى فى السِّوارَيْنِ: «أيسرُّكِ أن يُسوِّرَك اللهُ بسوارَيْنِ من نارٍ؟ قالتْ: لا. قال: فما هذا فى يَدِكِ؟ قال: فَرَمَتْ بهما، فلا يُدْرَى مَنْ أَخَذَهُما».

ونظَر ﷺ إلى فاطمة، رضى الله عنها، وفى عُنُقها عِقْدٌ من خرزٍ فيه شىءٌ من ذَهَب، وعلى بابها سِتْر، فرجع ولم يَدخل، وقال: «ما لى وللدنيا». فنَزَعَتْ ذلك، فأَرْسَلَت به إلى بَعْضِ الفقراء.

ورأى ﷺ فى يدَى الحسن أو الحسين قُلْبَيْن من فضَّة، قد زيَّنَتْهُ بِهِما فاطمةُ، فنَزَعَهُما، وأمر بلالاً أن يتصدَّقَ بثَمنه على أهلِ الصُّفَّة.

ودخَلَ على عائشة، فرأى على بابِها سِترًا فيه صُورةٌ، فهتكَهُ، وقال: «إنّى إذا رأيتُه ذكَرْتُ الدّنيا». وأهْدَتْ لها امرأةٌ فِراشًا، ففرشَتْهُ لرسول الله ﷺ، وكان فِراشُهُ عباءةً مطويَّةً، فلمّا اضطجعَ عليه أنكر لِينَهُ وتوطئتَهُ ووَطْأَهُ، فسألَها، فأخبرتْهُ، فقال: «رُدِّى العباءةَ».

وفى هذا أخبار يكثُر رَسْمُها، ولم نقصد جَمْعها، وفيما ذكرنا كفايةٌ وبلاغٌ لمن وُفِّق العملَ به. كلُّ ذلك يحثُّ به ﷺ على الزهد، ويدلُّ به على القِلّة والفقْر، وليَسُنّ بذلك سُنَنًا من أقوالِه وأفعالِه، ليُتَّبع عليها، ويُقْتَفى أَثَره فيها، رحمةً من

اللهِ، وذكرى لأُولى الألبابِ، ومحجةً وسُنَّةً للقاصدين إلى الله من الأحبابِ.

وفى خبرٍ عن حُذيفة: «من آثرَ الدنيا على الآخرة؛ ابتلاه الله بثلاث: همًا لا يفارق قلبَهُ أبدًا، وفقرًا لا يستغنى أبدًا، وحرصًا لا يَقْنَعُ أبدًا». وروينا حديثًا مرسلاً عن علىٍّ بن معبدٍ عن علىّ بن أبى طلحة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يَستكْمِل العبدُ الإيمانَ حتى يكون أن لا يُعْرَفَ أحبَّ إليه من أن يُعْرَفَ، وحتى يكون قِلّةُ الشىء أحبَّ إليه من كَثْرته».

وروينا عن عيسى عليه الصلاة والسلام: «الدُّنيا قنطرةٌ خُلقَت، يُعْبَرُ عليها إلى الآخرة، فاعْبُروها ولا تَعْمُروها». وقال له رجل: احْمِلْنى مَعَك فى سياحتك. فقال: «أخْرِج مالَكَ والْحَقْنى». قال: لا أستطيع. فقال عيسى عليه السلام بِشدّة: «ما يَدْخُلُ الغَنىُّ الجنة». أو قال: «بعَجَب».

وقال له الحواريّون: يا نبىّ الله، لو أمرتنا أن نبْنىَ بيتًا نعبدُ اللهَ فيه. فقال: اذهبوا، فابنُوا بيتًا على الماءِ. قالوا: كيفَ يستقيم بنيان على الماء؟! قال: فكيف تستقيم عبادةٌ على حبِّ الدّنيا. ورويناه بمعنى آخر: أنّهم قالوا له: نريد أن نبنى بيتًا نجتمعُ فيه نَتَعَبَّدُ ونتَدارسُ، فاخترْ لنا مَوضعًا نبنى فيه. فقال: «تعالوا»، فمشَوا معه، فوقفَ على قنطرةٍ، فقال: «ابنُوا ههنا». فقالوا: أنبنى على قنطرةٍ وهى مَدْرَجَةُ النّاسِ، لا يَدعُونا فيها. فقال: «كذلك الدّنيا، مَدْرجَةُ الموتى، وأنتم تَبْنُون عليها، ولا يدعُونكُم فيها». وقال عليه السلام: «لا يبلغ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى لا يُحِبَّ أن يُحْمدَ بعبادة الله، وحتى يَسْتوى عنده ذامُّه ومادحُه». وقال مرةً: «الإخلاصُ أن لا تُحِبَّ مَحْمدةَ النّاسِ ولا تكره مَذَمَّتَهُم».

وقد كان بشرُ بن الحارث يقول: لا تَحْسُنُ التَّقوى إلا بزُهد. وقال مرة: العبادةُ لا تليق بالأغنياء، مَثَل العبادةِ على الغَنىِّ مَثَلُ روضةٍ على مَزْبَلَة، ومَثَلُ العبادة على الفَقير مثل عِقْد جوهرٍ فى جِيدِ الحسناء. وقد استنبطنا معنى ذلك من كتابِ الله تعالى، بوَصف الفقراء للعبادة فى قوله عزّ اسمه: ﴿**لِلْفُقَراءِ الذين أُحْصِرُوا**﴾ [البقرة: ٢٧٣]، ثم قال فى وَصْفِهم: ﴿**تَراهمُ رُكَّعًا سُجَّدًا**﴾ [الفتح: ٢٩]، فحَسُنَت لبسةُ الصلاةِ عليهم لِحُسْنِ سِيماهم بالفقْر، وجَهَّلَ من لم يعرفهم وحسبَهُم أغنياءَ،

للعفّة والحياء، فلولا أنّ الغنى نقصٌ لحالهم لم يُجَهِّل مَنْ وَسَمَهُم به، إذ جَهِلَ سيماهُم بالفَقْرِ، الذى هو كمالُ حالِهم، تمامًا على الّذى أحسن به من العبادة إليهم. فَتَدَبَّرُوا. وروينا فى وصيّة لقمانَ لابنه، وهو يحذِّرُهُ مداخلَ العدُوِّ، قال: «وإذا جاءك من قِبَلِ الفقر فأخبِرْهُ: أنَّ الغَنِىَّ من أطاعَ اللهَ، والفقيرَ مَن انتهكَ مَعْصيتَهُ. وإذا شهَّى إليك الغِنَى فأخبِرْهُ: أنّه لا يَحْسُنُ جَمْعُ الغنى والقِراءَة».

وقال بعضُ السّلفِ: أبى أهلُ العلمِ بالله أن يَسْمعُوا الحكمةَ والموعظةَ إلا من الزّاهدينَ فى الدّنيا. وقالوا: ليس أهلُ الدنيا لذلك أهْلٌ، ولا يليق بهم. وفَعَلَهُ رجاءُ بن حَيْوة، عالمُ أهلِ الشّام، ولم يستحى فى اللهِ وَجْهَ مُوجِّهٍ وَاجَهَهُ. بلغنا أنَّه كان يجلسُ إلى رجلٍ زاهد ببيتِ المقْدسِ، فيستمع إليه، فجاء يومًا إلى مجلسه، وقد اجتمعَ الناسُ، فجلسَ وراءهُم، وهو يحسبُ أنّه فيهم، فلمّا أبطأَ تكلّم شيخٌ فى المجلسِ، وهو مؤذنُ مسجدِ بيتِ المقدس، لا بأسَ به، فأنكر رجاءُ ابنُ حَيْوة صوتَه، فقال: من هذا المتكلم؟ فقال الشيخُ: أنا رحمكَ الله. فقال له: اسكتْ عافَاكَ اللهُ، فإنّا نُهِينا أن نسمعَ الزُّهدَ إلا من أهلِه، أو قال: إلا من الزهَّاد.

وقال نحوه سَلْمانُ الفارسى لعُمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى جعْلٍ توهَّمه عليه، وذلك أنه حُمل إليه أبرادٌ؛ فكَسا الصحابة بُردًا بُردًا. فلمّا كان يومُ الجمعةِ خرج عمرُ فى بُرْدَين يَخطب. فلمّا قال فى وَعْظه: ألا اسْمَعُوا. قال: فقامَ سَلْمانُ فقال: واللهِ لا نَسْمَعُ، قال: ولِمَ؟ قال: لأنَّك كَسَوْتَنا بُردًا بُردًا، وخَرَجْتَ علينا فى حلّة. فقال: رَحمك الله، إنى غَسَلْتُ ثَوْبى ولم يكن لى غيرُه، فاستعرتُ هذا، وهو بردُ عبد الله بن عمر. فقال: قلِ الآنَ حتّى نَسْمَع.

فمعنى قوله: لا نسمع، أى: لا يلتبس فى قُلُوبِنا، ولا ننتفع بِسَمْعِه، إذ كنتَ غير مستعمل له.

وهذا أبو عبد الله أحمدُ بن حنبل، رحمه الله، مع موضعه من الله، وإنّه من أئمة المسلمين، لما سُئل عن الصِّدْق، ما هو؟ قال: هو الإخلاصُ. قيل: ما الإخلاصُ؟ قال: هو الزُّهد. فقيل: يا أبا عبد الله، أى شىء الزهد؟ فسكَت. فقال: سَلُوا الزهَّادَ، سَلُوا بِشْرًا. وقال أبو طالب الورّاق: دخلتُ عليه فى جماعة من أصحابِ الحديث، كنتُ قد نَسَخْتُ لهم كتابَ الزُّهدِ، الذى جمعه، لأقرأهُ

لهم عليه، ففُرِشَ لنا فى الدّار حصيرٌ جديدٌ، ونزل إلينا من غُرْفة له، فلمّا قعدَ وأخذَ الأصلَ بيدِه أطبقَهُ، ثم قال: يا أبا طالب، الزّهدُ لا يُقرأ إلّا على الزُّهدِ. وكَشَطَ الحصيرَ الجديدَ من تَحْتنا، وقعَدْنا على التُّراب.

وقال الثّورى والفُضيل: جُعِلَ الشّرُّ كلُّه فى بيت، وجُعِلَ مفْتاحَهُ الرَّغبةُ فى الدُّنيا. وجُعل الخيرُ كلُّه فى بيت، وجُعِل مفتاحَهُ الزّّهْدُ. وكان السّلفُ يقولون: كفَى به ذَنْبًا، لا يُسْتَغفَرُ منه حُبُّ الدنيا. وأشدُّ من ذلك ما رَواه سُفيان عن يحيى ابن سُليم الطّائفى، رفعه إلى رسولِ الله ﷺ: «لو أنّ عَبْدًا عَبدَ اللهَ تعالى عبادةَ أهلِ السموات والأرضِ ولقيه مُحبًا للدّنيا، لأقامهُ الله تعالى فى الموقف غدًا مقامًا شَهَرهُ به بين الخلائقِ، فنُودى عليه: ألا إنّ فلانَ ابنَ فلانٍ قد أحبّ ما أبْغَضَ اللهُ».

وقال يحيى بن جابرِ الطّائى: قال عَمرو بن الأسود العَنْسى: لا ألبسُ مَشْهُورًا أبدًا، ولا أنام بليلٍ على دِثارٍ أبدًا، ولا أركب على مأثُورٍ[1] أبدًا، ولا أملأ جَوْفى من طعامٍ أبدًا. فقال عمرُ رضى الله عنه: مَنْ سرّه أن ينظر إلى هَدْى رسولِ الله ﷺ فلينظر إلى عَمرو بن الأسود. وقد صدق رضى الله عنه؛ لأنّا رُوينا فى أخبارِ زُهْدِ رسولِ الله ﷺ: كنتَ إذا نظرتَ إلى قميصِ رسولِ الله ﷺ حسبتَهُ قميص زيَّات. يعنى بقّالًا[2].

---

(١) المأثور: ألليِّن السّهل.

(٢) لعله يقصد الخبر الضعيف الذى أخرجه فى الشمائل عن أنس بن مالك قال: «كان رسول ﷺ يكثر دَهْنَ رأسِه، وتسريح لحيته، ويكثر القِناعَ، حتى كأن ثوبه ثَوبَ زيَّات». وهو ضعيف، وقال عنه ابن كثير: فيه غرابة ونكارة. وعلى ضعفه ونكارته، فقد فسَّره العلماء بما يليق برسول الله ﷺ وسنته. فالقِناع المذكور فى الخبر: خرقة تُلْقى على الرأس تحت العمامة بعد استعمال الدّهن وقاية للعمامة من أثر الدّهن. والمراد بالثوب فى الحديث هو هذا القناع الذى يتقى به رسول الله ﷺ أثر الدّهن أن يصيب العمامة أو القميص، كما ذهب إلى ذلك العلماء. فإن النبى ﷺ كان أنظف الناس ثوبًا، وأحسنهم هيئة، وأجملهم سَمْتًا، وأطيبهم رائحة. وقد ثبت أنه ﷺ رأى رجلاً عليه ثياب وسخة، فقال: «أما كان يجد هذا ما يغسلِ به ثوبه». انظر: جمع الوسائل فى شرح الشمائل، للشيخ على بن سلطان محمد القارئ ١/١٠٢ ـ ١٠٣. وانظر: مختصر الشمائل المحمدية، اختصره وحققه الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى.

قلت: وبهذا وغيره يتضح لنا عدم مناسبة ألفاظ الشيخ أبى طالب ـ غفر الله له وسامحه ـ لصفة رسول الله ﷺ، إذ خانته الألفاظ فى التعبير. كما أن نظافة الثوب من الإيمان، ولا تتنافى إطلاقًا مع الزهد والتقشف، كما يظن جهلة الصوفية والزهاد.

وكذلك قال عمرُ بنُ عبدِ العزيز، رضى الله عنه، لما حدّثه أبو سَلاَم الحَبَشى عن رسول الله ﷺ: «يدخل فقراءُ أُمّتى الجنّةَ قبل أغنيائهم. قيل: مَن هُم؟ قال: الشُّعْثُ رءوسًا، الدُّنْسُ ثيابًا، الذين لا يُفْتح لَهُم السُّدَد، ولا يُنكَحُونَ المتنعِّمات». فبكى عمر حتى اخْضلّ لحيتُهُ، وقال: لستُ منهم، قد فُتحت لى السُّدَد، يعنى: الأبواب، ونكَحْتُ المنعَّمات، يعنى أُمَّ البنين بنتَ عبد الملك بن مروان. ولكن لا جرمَ، واللهِ لا أدْهِن رأسى حتى يَشْعَثَ، ولا أَغْسِلُ ثَوْبى حتى يَدْنَس(١). فعَدَّ الخصلتين من أربعٍ، تأسِّيًا بالفَقْر.

وروينا عن عيسى ابن مريم عليه السلام، فيما أوحى الله إليه: «يا ابنَ مريم، ابك أيّامَ الحياة بكاءَ من ودّعَ الدنيا، وارتفعتْ رغبتُهُ إلى ما عند الله، اكتفِ بالبُلْغَة من الدّنيا، ليَكْفكَ منها الجَشَبُ الخَشِنُ، بحقٍّ أقولُ لك: ما أنتَ إلا بيَوْمك وساَعتك، مكتوبٌ عليكَ ما أخذتَ مِن الدنيا، وفيما أنفقتَهُ، فاعمل على حساب هذا، فإنّك مسئُولٌ عنه. لو رأَتْ عيناكَ ما أعدَدْتُ للصّالحينَ لزَهقَتْ نَفْسُكَ». وكان عيسى عليه السلام يقول: «حلاوةُ الدّنيا مَرارةُ الآخرة، وجودةُ الثياب خُيَلاءُ القَلْب وكبره، وملءُ البَطْنِ جِمامُ النَّفْسِ واجتماعُها. بحقٍّ أقولُ لكم: كما لا يَلَذُّ مَرِيضٌ بطَيِّبِ الطَّعامِ، كذلك لا يَجدُ حلاوةَ العبادةِ من أحبَّ الدّنيا».

فمن الزُّهد فى الدّنيا: تركُ المَلْبَسِ النّاعمِ المنظور إليه المرتفعِ، واجتنابُ النُّزهات من لطائفِ الطّعام، والتّفتق فى الشّهوات التى يَرْغَبُ فيها المتنعِّمُونَ، وتركُ الزِّينةِ والمفاخرِ من الآلةِ والأثاثِ الذى يتنافسُ فيه المُترَفُون.

ومن الزُّهْد أن يكونَ الشّىءُ الواحدُ يُستعمل فى أشياءَ كثيرةٍ، وكذلك كان سيرةُ السّلفِ فى الأثاث، وهو من التقلُّلِ، كما أنَّ أبناءَ الدنيا يستعملون للشىءِ الواحدِ أشياءَ كثيرةً، وهو وصفٌ من التكاثُر، وذلك من أبوابِ الدّنيا.

كما كان السّلف يقولون: أول النُّسُك الزِّىُّ. وقال بعض العلماء: من رقَّ ثوبُه رقَّ دينُه. وقال ابن مسعود رضى الله عنه: لا يُشْبِه الزِّىُّ الزِّىَّ حتى يُشْبِه القَلْبُ القَلْبَ. فتدبّر قوله: إذا رأيت اثنين زِيُّهما واحد، وشمائلُهما واحدٌ فى اللّبسة

(١) أيضًا مثل هذه الأخبار فيها من الضعف والنكارة ما فيها. راجع التعليق السابق. كما أن دلالة دنس الثياب هنا تختلف عن دلالتها لدينا، وهى مبالغة فى ترك مظاهر الترف والترفيه.

والآداب، فاعلم أنّ قلْبَ أحدهما على قلْب الآخر فى المجانسة، أو يقاربُه فى الحالِ والهِمَّة. وإن كان أحدُهُما ظاهِرُه ظاهِرَ أبناء الآخرة، فإن باطنَهُ باطنُ أبناء الدّنيا، قد اتفقا من جِهَةٍ، أو دخَلا من باب[1]. كما قال مَلِكٌ، ورأى غرابًا ينتقل مع حمامةٍ فى كل مكانٍ، فتعجَّب، وقال: كلُّ طَيْرٍ وشَكْلُهُ، وليس هذا شكلٌ كهذا، ثم مَشَيا، فإذا هما عَرْجَانِ، فقال: من هذه الجهةِ اتَّفقا.

وحُدّثنا عن المَرُّوزِىِّ، قال: قلتُ لأبى عبد الله: إذا رأى الرجلُ الذى دُعى إلى دَعْوةِ فِرَاشِ دِيباجٍ أو إناءِ فضَّةٍ ونحوه، أترى أن يخرُجَ؟ قال: نعم. قد خرَجَ حذيفةُ لما رأى شيئًا من زىِّ الأعاجم، وقال: من تزيًّا بزىِّ قَوْمٍ فهو منهم. وخرجَ أبو أيوب لمّا رأى البيتَ مُستَّرًا. وخرج أُبَىٌّ مِن نحوِ هذا.

وفى الخبر: «البَذَاذَةُ من الإيمان». سُئِل عن ذلك أبو عبد الله، فقال: التَّقاربُ فى اللّباس. وقد جاء بلفظ آخر معناه: «إنّ الله يُحبُّ المتبذِّلَ، الّذى لا يُبالى ما لَبِسَ». والابتذال: هو التقارُبُ والدُّنُوُّ فى كلِّ شىءٍ من المستعْمَل المبتَذل، كالملبوسِ منه. يقال: من البذَاذَة؛ إذا لم يُبالِ ما لبِس، أو استعملَ ممّا فيه ضَعَةٌ ودُنُوٌّ. وفى الخبر المفسر: «من ترك ثوبَ جمالٍ وهو يقدر عليه، تواضعًا لله تعالى، خيَّره الله تعالى من حُلَلِ الإيمان أيها شاء». وفى لفظ آخر: «من تركَ زينةً لله تعالى، ووضع ثيابًا حسنةً تواضعًا لله تعالى وابتغاءَ وجهه، كان حقًّا على الله تعالى أن يدَّخرَ له من عَبقرىِّ الجنةِ، فى تَخَاتِ الياقوت». ولما أتى رسولُ الله ﷺ أهلَ قباء، أَتوْه بشَرْبَةٍ من لَبَنٍ مَشُوبةٍ بعَسلٍ، فوضع القدَحَ من يدِه، وقال: «أما إنّى لَسْتُ أحرِّمُه، ولكنّى أتركُه تواضعًا لله تعالى». وأُتى عمرُ رضى الله عنه بشَرْبة من ماء بارد وعسلٍ، فى يوم صائفٍ، فقال: «اعزلُوا عنّى حِسابها».

وأوحى اللهُ تعالى إلى نبىٍّ من أنبيائه: «قل لأوليائى: لا تَلْبسوا مَلابسَ أعدائى، ولا تدخلوا مداخِلَ أعدائى، فتكونوا أعْدائى، كما هُم أعدائى». ولما خطَب بِشرُ بن مَروان على مِنبرِ الكوفة، قال رافع بن خُدَيج: انظروا إلى أميرِكم يعِظُ الناسَ وعليه ثيابُ الفُسّاقِ. قلتُ: وما كان عليه؟ قال: ثيابٌ رِقاق.

---

(١) من أول الفقرة إلى هنا فى الإتحاف ٩/ ٣٥٧.

ولمّا جاء عبد الله بن عامر القُرشيّ إلى أبى ذر رضى الله عنه فى بزّته، فجعل يتكلم فى الزهد، فوضع أبو ذرٍّ راحتَهُ على فِيه، وجعل يَضْرِط به. فغَضِبَ ابنُ عامرٍ، فأتى ابنَ عمر رضى الله عنهما، فقال: ألم ترَ ما لقيتُ من أخيك أبى ذرٍّ؟ قال: وما ذاك؟ قال: جعلتُ أقول فى الزُّهد، فأخذ يهزأ بى. فقال ابنُ عمر: أنتَ صنعتَ بنفسك، تأتى أبا ذر فى هذه البزّة، وتتكلم فى الزهد؟

وقال علىٌّ كرّم الله وجهه: إنّ اللهَ تعالى أخذَ على أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوالِ الناس، لِيقْتدى بِهم الغَنىُّ، ولا يَزرى بالفقير فقره. وقد عُوتب عمرُ رضى الله عنه فى لباسه، وكان يلبس الخشن من القطن، قيمة قميصه ثلاثةُ دراهم إلى خمسةِ دراهم، ويقطع ما فضَل عن أطرافِ أصابعهِ، وقال: هذا أدنى إلى التّواضع، وأجدرُ أن يَقْتدى بى المسلم.

وأتت برودٌ من اليمن إلى عمر رضى الله عنه، فقسمها على أصحابِ رسولِ الله ﷺ بُردًا بُردًا، ثم صعد المنبر يوم الجمعة، فخطب النّاس فى حلّة منها، والحلّةُ عند العرب ثَوْبان من جنْسٍ واحدٍ، وكان ذلك من أحسن زيّهم. فقال: ألاَ اسْمعوا ألاَ اسمْعوا. ثم وعَظ، فقام سَلْمان فقال: والله لا نسمع، والله لا نَسمع. قال: وما ذاك؟ قال: لأنّك قد أعطيتنا ثَوْبًا ثوبًا، ورُحْتَ فى حُلّة، فقد تفضَّلْت علينا بالدنيا. فتبسم، ثم قال: عجلْتَ يا أبا عبد الله، رحمك الله، إنى كنتُ غسلْتُ ثَوبى الخَلق، فاستعرتُ بُردَ عبدِ الله بن عمر، فلبستُه مع بردى، فقال سلمان: قل الآن، حتى نَسْمَع.

ونهى رسول الله ﷺ عن التنعُّم وقال: «ألاَ إنّ عباد الله تعالى ليسوا بالمتنعّمين».

ورُوِى فُضالة بن عبد، وهو والى مصر، أشعثَ حافيًا. فقيل له: أنت الأميرُ، وأنت هكذا؟ فقال: نهانا رسولُ الله ﷺ عن الإرفاه، وأمرنا أن نحتفى[1] أحيانًا.

وقال علىٌّ لعمر، رضى الله عنهما: إن أردتَ أن تلحق بصاحِبَيْكَ، فارفع

---

(١) الإرفاه: منْ الرفاهية. ونحتفى: أى نمشى بلا خُفّ ولا نعل.

القميصَ، وانكس الإزارَ، واخصف النّعلَ، وكُلْ دُون الشِّبَع.

وكذلك فى وصيةِ رسول الله ﷺ لعائشة: «إن أردتِ اللحوقَ بى، فليكن عيشُكِ عيشَ المساكين، وإيّاك ومجالسةَ الأغنياء، ولا تنزعى ثوبًا حتى تَرْقَعيه». قال: كانت لَتُقَسِّم مائةَ أَلْف فى مجلسها قبل أن تقوم، وإنّ دِرْعَها لَمَرْقُوعٍ، أو هى ترقع دِرْعَها حينئذٍ، ثم تُفطِرُ تلْكَ الليلةَ على الخَلِّ والزَّيْت.

وروينا أنَّ عمر[١] رضى الله عنه خطَبَ الناس، فقال: أنشد اللهَ رجُلاً عَلِمَ فىَّ عَيْبًا إلاَّ أخْبَرنى به. فقام شابٌّ فى المجلس، فقال: يا أميرَ المؤمنين فيك عيبانِ اثْنانِ. قال: ما هُما رحمكَ الله؟ قال: تُذيل بين البُرْدين، وتجمعُ بين الأُدْمَين. قال: فما أذال بين البُردين، ولاجَمع بين الأُدْمَين، حتى لَقىَ اللهَ عزَّ وجلَّ.

هكذا حدَّثناهُ الشَّيخ: «تُذيل»، بالذّال. ففيه يبدو معنَيان؛ أشهرُهُما: أن تجمعَ بين ذَيْلَى ثَوبِكَ، فيتفق ذيلُ البُرْدِ الأَعْلَى مع ذيْلِ البُرْدِ الأسفل لطُوله. أى: ولا يَسَعُ ذلك الجملة؛ لأن ثياب أهل الصفَّة كانت قصارًا، طولُها أربعةُ أَذْرع، ولا يمكن التذييل فى هذا القَدر، لأنَّ الثوبَ الأَعلى لا يطولُ حتى يُذال، فيُجمع ذيلاهما معًا.

وأغرب الوجهين: أن معنى تُذيل: أن تضع ثوبين معًا، أى تتركهما موضوعين، لذلك العَرَبُ تقول: أذِل هذا، وأشِل هذا، أى ضَع وارفع. ومن هذا ما روى عن مالكٍ رحمهُ اللهُ أنّه قال: إنَّ من إذالةِ العِلْمِ أن يُجيب العالِمُ فى كلِّ ما يُسئل عنه. ورويناه مرّة: من إذالة العلم أن يُسئل عن كلّ شىء. أى من وَضْعه أن يُسئل عن كلِّ شىء، أى ينبغى أن يُرفع عن بعضِ الأشياء أن يُسئل عنها. وعلى الرّواية الأخرى: من إذاله العلم، أى من وَضْعه أيضًا، أن يبذل العلم لغيره. . .[٢] بل ينبغى أن يسكت عن بعضِ الأشياء، توقيرًا للعلم وتعظيمًا. وهذا كان يشبه وصْفَ مالكٍ فى تعزيزهِ العلم، وكثرة سُكوته عن كثير مِمّا كان يُسئل عنه.

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٧٩.

(٢) تلف بالأصل قدر كلمتين.

وأنا أحسبُ أنّ الكلمةَ، واللهُ أعلمُ، بالدّال، أى: «يديل بين البُرْدَيْن»، أى: يُبدِّل بُردًا ببُرْدٍ، دُولَة هذا، ودُولة ذا. وأراد أن يكون له واحد، لا يُديله آخر.

وقد كان عمر رضى الله عنه يقول: «اخلَوْلَقُوا، واخْشوشِنوا، وتَمَعْدَدُوا، وإيّاكم وزىَّ العجم كسرى وقيصر. واقطعوا الركب، وانْزُوا على الخيل نَزْوًا، وعليكم بالمعدِّيَةِ الأولى سنَّة أَبيكُمْ إسماعيل»[1].

وروينا عن رسول الله ﷺ أشدَّ من هذا، أنه قال: «شرارُ أمتى الذين غُذّوا بالنَّعيم، الذين يأكلون ألوانَ الطعامِ، ويلبسونَ ألوانَ الثيابِ، ويَتشَدَّقُونَ فى الكَلامِ».

ولما قَدِم عميرُ بن سَعد أميرُ حِمص، على عُمَر رضى الله عنه، قال له: ما مَعكَ من الدُّنيا يا عمير؟ قال: معى عَصَاى أتوكَّأُ عليها، وأقتلُ بها حَيَّةً إن لقيتُها. ومعى جِرابى، أحملُ فيه طَعامى، ومعى قَصْعَتى آكلُ فيها، وأغسلُ فيها رَأسى وثَوبى، ومعى مِطْهَرتى، أحملُ فيها شَرابى، ووُضوءًا للصَّلاة، يعنى السّطيحة. فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تَبَعٌ لما معى. فقال له عمر: صَدَقْتَ رحمك الله.

وكان عمر رضى الله عنه قد كتبَ إلى أهل حِمْص: أن عدُّوا لى فُقَرَاءَكُم أَقْسِم فيهم مالاً، فسمُّوا له فى الكتاب نفرًا، وذكروا فيهم سَعِيدَ بنَ جذِيم أميرهم، ويقال: بل عُمَير بن سَعْد. فقال عمر: من سَعِيد بن جذِيم؟ فقالوا: أميرنا يا أمير المؤمنين. قال: أوَ فقِيرٌ هو؟ قالوا: نَعَم، ما فينا أهلَ بيتٍ أفقرُ منه. قال: فأين عطاؤه؟ قالوا: يُخرجه كلَّه، لا يترك لنفسه ولا لأهله شيئًا منه. فوجَّه إليه عمر رضى الله عنه ألف دينار، وفى إحدى الروايات أربعمائةَ دينار، وسأله أن ينفقها على نفسه وأهله. فلما وصلتْ إليه دخل على زوجته، وهو يَبْكى، فقالتْ له: ما شأنُك؟ ماتَ أميرُ المؤمنين؟ قال: أعظمُ من ذلك. قالت: فُتق فتق فى المسلمين؟ قال: أشدُّ من ذلك. قالت: فما هو؟ قال: أتتنى الدنيا، قد كنتُ مع رسول الله

(١) نقله صاحب الإتحاف ٩/ ٣٥٨ وخرّجه. ومعنى تمعددوا: أى اتبعوا معد بن عدنان فى الفصاحة. وقيل: تشبهوا بعيشه فى الغلظ والتقشّف، فكونوا مثله ودعوا التنعم. فهو حثّ على التواضع ونهى عن الإفراط فى الترفه والتنعم.

ﷺ فلم تُفتح الدنيا علىَّ، وكنتُ فى أيام أبى بكر رضى الله عنه فلم تُفتح الدنيا علىّ، وخُلِّفت إلى أيامِ عمر رضى الله عنه، ألاَ وشرُّ أيامى أيامُ عمر. ثم حدَّثها، فقالت: نَفْسى فِداؤك، فاصنع بها ما بَدَا لك. فقال: أَو تُساعديينى على ما أريد؟ قالت: نعم. قال: أعْطِينى خَلِق ذلك البرد، قال: فجعل يُمَزِّقُه، ويَصرُّها فيه صُرَرًا ما بين العشرةِ والخمسةِ والثلاثةِ حتى أفناها، ثم جعلها فى مخلاة، وتأبَّطها وخرج، فاعترض جيشًا من المسلمين يُريدون الغَزْوَ، فجعل يدفعُ إليهم صُرّةً صُرّةً، على نحو ما يرى من حالهم، ثم رجعَ ولم يترك لأهله منها دِينارًا.

فهذه كانت شمائل جُملةِ أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسانٍ، رضى الله تعالى عنهم.

وروينا فى حديث عياض بن غَنم، عن النبى ﷺ، فى وَصْفِ الأخيار: «إنّ من خِيارِ أُمَّتى، فيما أنبأنى الملأُ الأعْلى، قَومًا يضحكون جَهْرًا من سَعَةِ رحمة الله، ويبكُونَ سرًا من خَوف عذابه، مؤونَتُهم على النّاسِ خفيفة، وعلى أنْفُسِهم ثَقِيلةٌ، يَلْبَسُون الخلْقَانَ، ويَتَّبِعُونَ الرُّهْبانَ، أَجسامُهُم فى الأرْضِ، وقُلوبُهم فى الآخِرَةِ، وأفئدتُهم عند العَرْشِ».

وفى رواية أخرى: «تُفْتَح عليهم الدُّنيا، فيزهَدُوا فى حَلالها، ويَتَبَلَّغُوا باليَسير مِنها، ليسُوا مِن الدُّنيا، وليستِ الدُّنيا منهم فى شىءٍ».

وفى حديث أبى الدرداء، رضى الله عنه، لما وَصَفَ الأبدالَ، قال: فقلتُ له: كيف لى أن أكونَ بهذا الوَصْفِ؟ وأنَّى لى أن أكون مِثْلَهُم؟ فقال: يا ابن أخى، ما بينك وبين أن تكونَ فى أوّل ذلكَ وأوسطه إلا أن تزهَدَ فى الدُّنيا، فتُعاين الآخرةَ بَقلْبِكَ فتعمل لها.

وجاء رسول الله ﷺ من سَفَرٍ فدخل على فاطمة، وكانت أولَ من يدخُلُ عليها مِن أهلِه، إذا جاء منَ سَفَرٍ، فَرأى على بابِها سترًا، وفى يديها قُلبين من فضّة، فرجَعَ، فدخَل عليها أبو رافع وهى تبكى، فأخبرته برُجوعِ رسول الله ﷺ وقالت: لأمرٍ ما رجع، فقال: أنا أسأله ما ردَّه؟ فسألَهُ، فقال: من أَجْلِ السِّتر والسِّوارين، فأخبرها بذلك، فهتكت السِّتر، ونزعت السِّوارين فأرسلت بهما بلالاً

إلى رسول الله ﷺ، وقالت: قد تصدَّقتُ بهما فَضَعْهُما حيثُ ترى، فقال: «اذهب فبِعْهُما، وادْفعهُ إلى أهلِ الصُّفَّة». فباع القُلْبين بدِرْهَمَينْ ونصف، وتصدّق به عليهم، فدخل عليها وقال: «بأبى أنتِ وأمّى، قد أحسنتِ؛ أنتِ منى».

وفى الخبر: «ما مِن عَبْدٍ لبسَ ثوبَ شُهْرةٍ إلا أعرضَ اللهُ تعالى عنه حتى ينزعَه، وإن كان عندَه حَبيبًا».

وقال سُفيان الثّورى وغيرُه: البس من الثّياب ما لا يُشَهِّركَ عند العلماء، ولا يُحقِّركَ عند الجُهّالِ. وكان يقول: إنَّ الفقيرَ ليَمرُّ بى، وأنا أصلّى، فأدعُه يجوز. ويمرُّ بعضُ هؤلاءِ الأغنياءِ من أبناءِ الدنيا وعليه هذه البَزَّة فأمقتُه، فلا أدعه يجوز.

وقال بعضهم: ما رأيتُ الغنيَّ فى مجلسٍ قطّ أذلّ منه فى مجلس الثورى رحمه الله تعالى، ولا رأيت الفقيرَ أعزَّ منه فى مجلس الثورى. وقال آخر: كنا إذا جلسنا إلى سُفيان تَمَنَّينا أنَّا كُنّا فُقراء، لِمَا نَرى من إقبالهِ عليهم واعظامه لهم. وكذلك كانوا يقولون فى وصف العالم: إنما العالمُ هو الذى يقومُ الفقيرُ من عِنْده غَنيًا، والغِنى من عنده فقيرًا. أو: لا يَسْتحى الفقيرُ مِن فَقْرِه، ويُزْرِى الغَنىُّ بغناه على نَفْسِه. وقال بعضُهم: قَوَّمتُ ثَوْبَىْ سُفْيانَ ونَعْلَيْه بدِرهم وأربعة دوانيق.

فهكذا كان علماء الآخرة الزّاهِدُونَ فى الدُّنيا، فَخَلَف من بَعْدِهم خَلْفٌ يأخُذُونَ عَرَضَ هذا الأَدْنى.

وكان ابنُ شُبْرمَة يقول: خيرُ الثّيابِ ما خَدَمَنى، وشَرُّها ما خَدَمْتُه. وقَال بعضُ السَّلَف: الْبس من الثِّيابِ ما يَخْلطكَ بالسُّوقَة، ولا تَلْبَس مِنها ما يُشَهِّرُكَ فيُنظَرُ إليكَ. وبعضهم يقول: شرُّ الثِّيابِ ما يَرْفَعُ الناسُ رُءوسَهم فَينظرونَ إلى صاحبه. قال: وعددْنا فى قميص عمر رضى الله أربعةَ عشر رقعةً بعضُها من أدَمٍ. وقيل: رأينا فى إزارهِ رِقاعًا مُطبقةً بعضُها على بَعْضٍ، وقَدْ شُلَّت بخُيوطٍ. وكان إذا قام تخلَّل الرَّمْلُ من بين تِلك الخيوطِ وهو يرمى الجَمْرة.

وكانوا يقولون: كثرةُ الثّيابِ على ظهْرِ ابنِ آدمَ عقوبةٌ من الله له. وقال أبو سليمان الدّارانى: الثّيابُ ثلاثةٌ: ثوبٌ لله تعالى، وثَوْبٌ للنَّفْس، وثوبٌ للنَّاسِ.

فالثّوبُ الذى للَّه، ما سترَ العوْرةَ، وأُدِّيت فيه الفريضةُ. والذى للنَّفس ما طَلَبْتَ لينه ونقاءَهُ. والذى للنّاسِ ما طَلَبْتَ جَوْهرَهُ وحُسْنَه؛ وهو شرُّها. ثم قال: وقد يكونُ الثَّوْبُ الواحد لله وللنَّفس.

وقد كان بعضُ العلماء يكره أن يكون على الرُّجلِ من الثّياب ما يجاوز قيمةَ أربعين درهمًا. وبعضهم يقول: إلى المائة، ويَعدُّه سَرَفًا فيما جاوزها. وكان جمهور العلماء وخِيارُ التابعين قيمةُ ثيابهم ما بين العشرين إلى الثّلاثين. وكان المتقدِّمون مِن الصَّحابةِ أثمانُ أُزُرِهم اثنا عشر درهمًا، وكانوا يلْبَسُون ثوْبين قيمة نيّفٍ وعشرينَ إلى الأربعين.

وقال الأحنفُ: ما كَذَبْتُ كذبَةً منذ علمتُ أن الكذبَ يَضُرُّ أهلَهُ إلاّ مرةً واحدةً، فإن عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه نظر إلى إزارى من العَيْبَةِ[1]، فَجَسَّهُ فوجدَهُ ناعمًا، فقال: بكم أخذتَ هذا؟ ففزِعْتُ منه، فقلتُ: بعشرين. فقال: كثير، فَهلا بعشرَةٍ، وقدّمْتَ عَشَرةً لغدٍ ليوم فَقْرك وقيامتكَ. قال: وكنتُ قد اشتريتُه بثلاثين، فحذَفْتُ عَشْرًا هيبةً منه.

ثم ذكرَ هذا فى قصّة الوفد الذين قَدِم معهم على عمر رضى الله عنه، من قومه، قال: فلمّا قاربُوا دخولَ المدينة، نزعوا ثيابَ سَفَرِهم وبذْلَتهم، ولبس كلُّ واحدٍ ثوْبين جَديدَيْن، أو غَسيلَين، او قال: أبْيَضَيْن. قال: وَفعلتُ مثلَ ذلك. قال: فلمّا دخَلْنا آطامَ المدينة نريدُ الدخولَ على عُمر رضى الله عنه، جعلَ أهلُ المدينة يرمقُونَنا بأبصارهم ويُعرضُون، وجعلوا يَلْحظُونَنا وتَنْبوا أعينُهم عنّا، فسمعتُهم يقولون: أبناءُ دنيا. قال: فعرفْتُ أنَّ القومَ لَيْسُوا بأهلِ دُنيا، وأنّهم أهلُ الآخرة. فعطفتُ رأسَ راحلتى، ونَزَعْتُ ثوبىَّ وردَدْتُهما إلى العَيْبَةِ، ثم أخرجتُ ما كنتُ خلعتُه من ثِيابِ سَفَرى وبذْلَتى، فلبستُه، ثم دخَلْنا على عُمرَ رضى الله عنه، قال: فجعلَ الناسُ تَنْبُوا أعينُهم عن أصحابى، وينظُرون إلىَّ من بينهم، كأنّهم يَغْبطُوننى. قال: فلمّا نظر إليهم عمر رضى الله عنه، وكان أوَّلَ يومٍ رأيتُه، فإذا رجلٌ عليه خلَقٌ مرْقُوعٌ، وعلى كتفه دِرَّةٌ، فلمّا قَفلْنا من بعيد، أخذ كفًا من

(١) العيبة: وعاء من أدَم يجعل فيه الثياب.

حصًى، فحَصَبَنا، قال: ثم لحظنى بعينه، فقال: هذا، نعم، فأدنانى وقرَّبنى من بينهم، وقال: من أنت لله درُّكَ؟ أو قال: أبوكَ؟! فقلتُ: أنا الأحنفُ بن قيس التميميّ. فقال: أنت سيِّدُ قومكَ. قال: وأعْجَبهُ هيْئتى، فقام، واتّكأ علَى يَدِى، فجعل يُسائلنى عن الطَّريقِ، وعن الرِّكاب، وكيف كُنَّا نسيرُ بها إلى أن وافى رَحْلنَا، وموضعَ مُناخِنا، فرمقَ عَيْبتى، فرأى طرفَ الثَّوْبِ خارجًا، فَلَمَسَهُ. وذكر أوّلَ الخبرِ الذى ذكَرْناه أوّلاً (١).

واشترى رسولُ الله ﷺ ثوبًا بأربعةِ دراهم. وكان قيمةُ ثوبَيْه عشرةً إلى دينار. وكان طولُ إزاره أربعةَ أذْرُع ونِصف. وفى خبرٍ: سبعة أشْبارٍ. واشترى سراويلَ بثلاثة دراهم. وكان كُمّ قميصه إلى أطراف أصابعه. وقيل مرّةً: إلى الرُّسغ، فإذا تَشنَّجَ وقَصُرَ صار إلى نِصْفِ الذّراع، وإذا امتدَّ فإلى أطرافِ الأناملِ. وكان ذيلُه إلى أنصافِ ساقَيْه، وكذلك الإزارُ إلى عَضَلةِ السّاق.

وكان رسولُ الله ﷺ يلبس شَمْلَتين بَيضاوَيْن من صُوفٍ، ومرةً سَوْداوين من شَعَرٍ، وكان ذلك يُسَمَّى حُلَّة، لأنّها ثوبين من جنس واحدٍ، وربما لبس ﷺ بُرْدَين يمانيين، أو سَحُولَيْن من هذه الغلاظ؛ من قرية «سَحُول» وهى فى اليمن، وفيهما كفِّن مع الثّالثة مثلهما. وربما كانت البردة مُخطَّطَةً بتَلْوين الأصْباغِ، كبُرودِ أهلِ اليَمن اليوم، وربَّما كانت خضراء كلّهَا من خَيطٍ واحد. وربّما كانت شملتُهُ بيضاءَ لا شيةَ فيها غير خيطِها الأبْيض. وقد تكون لها صَنِيفَتانِ سَوْدَاوانِ، أو خَضْراوان، أو حَمْراوان.

وقد لبس ﷺ يومًا واحدًا ثوب سيراء من سندسٍ قيمته مائتا درهم. كان المقوقسُ ملك الأسكندرية أهداهُ إليه؛ فأراد أن يكْرِمَهُ بلُبْسه مع قَبولِ هديته، فلَبِسَهُ وخَطَبَ فيه فجعل الناسُ يَلْمَسُونَهُ ويعجبون منه. وقد لبس نحوهُ من قَميصٍ مغمَّد بحريرٍ أهداهُ إليه ملك الحَبَشة النَّجاشيّ، فخطب فيه مرةً واحدةً، ثم نزعَهُ، وأرسلَ به إلى رجُلٍ من المشركينَ وصلَه بهِ، ثم حرَّم لبس الحرير والديباج بعد ذلك. فقد يكون لُبسه إيّاه توْكيدًا للتّحْريم بعدَه كما لبس خاتَمًا من ذَهَبٍ يومًا

(١) فى الإتحاف ٩/ ٣٥٧، ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

واحدًا، ثم نزعَه فحرَّم لُبْسَهُ على الرِّجال. وكما قال لعائشة رضى الله عنها فى شأن بريرة: «اشْترطى لأهلِها الولاء». فلمّا اشْتَرطَتْه، صَعدَ المنبر فَحرَّمه. فهذا يكون مؤكدًا للتحريم. فهذه حكمةٌ من الحكيم، وتعليمٌ من العليم. وكما أباح المتعة ثلاثًا، ثم حرمها لتوكيد أمر النكاح.

وقد يحتجُّ بمثل هذا علماءُ الدّنيا، ويطرِّقون به لنفوسهم، ويدعون الناسَ منهُ إليهم، ويُظْهِرون الدعوةَ إلى الله تعالى علانية تأوُّلاً بمُتَشَابه الحديث، كما تأوّل أهلُ الزَّيغ مُتشابهَ القرآن على أهوائِهم ابتغاءَ الفتنة وطَلَبًا للدُّنيا، لأنَّ حديثَ رسولِ الله ﷺ على معانى كلام الله تعالى فيه: ناسخٌ ومنسوخٌ، ومُحْكَمٌ ومُتَشابه، وخَاصٌّ وعامٌّ. فعَدَلَ علماءُ الدّنيا وأهلُ الأهواء عن المحكَم السّائر من فعْلِ رسولِ الله ﷺ وقوله إلى ما ذكرناه، كما عدلَت المرْجئةُ عَن كُلِّ آيةِ مُحْكَمة قُرِن فيها العملُ بالإيمان، وجُعل العملُ شرطًا لصحة الإيمان، إلى آيَة مُشْتَبهَة ذُكر فيها القولُ مجرَّدًا، وهى قولُه تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ﴾ [المائدة: ٨٥]، فتعلَّقُوا بِها، لقُربها من آرائِهم، ونَبَذُوا المحكَم ظِهريًا.

وقد صلّى رسول الله ﷺ فى خَميصة لها عَلَم، فلما سلَّم قال: «شَغَلَنى النَّظَرُ إلى هذه، اذْهَبُوا بها إلى أَبى جَهْم، وائْتُونى بِأنبِجَانِيَّتِه» يعنى كساءهُ. فاختار لُبس الكساءِ على الثَّوبِ النّاعم. وفى هذا حجّة على من كان إذَا أعجبَهُ الشىءُ واستحسنه كَسَرَه وأحْرقه. وفيه شاهدٌ ومحجَّةٌ لمن أَخرْج عن يده ما يَسْتَحْسِنُه، ويخافُ فتنته؛ لحُصول الزُّهد بالإخراج، ولانتفاع الغير به. وفيه حجّةٌ على من ادّعى الزُّهْدَ بلُبْس النَّاعم، وأنّ ذلك لا يضرُّ الزّاهدَ، ولا يُخرجه عن حقيقة الزُّهد. وفيه إبطالٌ لمن ادّعى أنَّ النَّظرَ إلى الزِّينة لا يَشْغَلُهُ، أو أنَّ الرَّوْنَقَ والفتْنَةَ لا تَدْخُلُ عليه؛ إذا لا يَقْدر أن يقولَ: إنَّه غيرُ مقامِ الرَّسول ﷺ. فاعتبروا يا ذَوى البَصائرِ والعُقول تَمْويهَ الرَّاغِبينَ بالزُّهدِ مع استعمالِ الفُضُول.

وفرشتْ له عائشةُ رضى الله عنها ذاتَ ليلة فراشًا جديدًا، وكان ينام على عَباءة مَثْنِيَّةٍ، فما زالَ يتقلَّبُ لَيْلَتَهُ، فلمّا أصبحَ، وأعْلَمَتْهُ بذلك، قال ﷺ: «أعيدى

العَباءةَ الخَلقة، ونحِّي هذَا الفراشَ عَنّى، قد أسْهَرنى الليلةَ».

وكذلك أَتَتْهُ دَنانيرُ خمسةٌ أو ستّةٌ عشاءً، فبيَّتها، فسهرَ ليْلَته، حتى أخْرجها من آخرِ الليل. قالت عائشة رضى الله عنها: فنام حينئذٍ حتى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ. ثم قال: «ما ظَنُّ محمّدٍ بربِّهِ لو لَقِيَ اللهَ وهذهِ عِندهِ».

وحديث الحسن رضى الله عنه: أن النبى ﷺ لم يكن يبيِّت مالاً ولا يُقيِّلُه. يعنى: أنّه إن جاءه ليلاً أو عشاءً لم يبيِّته، وإن جاء غُدوةً لم ينتظر به القائلة.

وكذلك كان علىٌّ، رضى الله عنه، على سُنَّته وأثرِه فى هذا، لم يكن يجمع الأموالَ فى بيتِ المالِ، بل يفرّقُها فى الشَّهر مرّات، ويتعاهَدُ بيت المالِ فى كلّ جُمعة، فيفرِغُهُ من المالِ ثم يكنسُه ويرشُّهُ، ويصلّى فيه ركعتين، ويقول: يا صفراءُ ويا بيْضاءُ غُرِّى غيرى، ويُنشدُ:

هـذا جَنَاى وخِيارُهُ فِيـه إِذ كلُّ جانٍ يدُهُ إلى فِيه

وكان ﷺ قد احتذى نَعْلين جَديدتَيْن، فأعجبه حُسنهما، فخرَّ ساجدًا، وقال: «أعجبنى حُسنهما، فتواضعتُ لربِّى عزَّ وجلَّ، خشيةَ أن يَمقُتَنى»، ثم خرج بهما فدفَعهما إلى أوّلِ مسكينٍ رآه. وأمرَ عليًا فاحتذى له نَعْلَين سِبْتِيَّتين. قال: فرأيتُهُ وقَدْ لَبِسَهُما، يعنى جَرْدَاوين، أى معطوفَتين.

وهذا مِثلُ الحديثِ الآخرِ فى إخراجِ الخميصة زُهدًا فيها، وإخراجِ النَّعلِ ولم يَقْطَعْها، فيكون فَسادًا، إذ هو ﷺ يَنْهى عن إضاعةِ المالِ. إلا أن فيه شاهدًا لمن إذَا استَحْسَن شيئًا خافَ المقتَ عليه، إلا أنّه لا يَبْلُغ به إتلافَهُ، فيكونُ إفسادًا.

وفيه دليلٌ على دُخولِ التغيير والرَّدِّ إلى الصِّفَةِ بالمناظرِ الحسنةِ، خِلافًا لمنِ ادّعى البَرَاءة من ذلك، كما ذكَرْناه آنفًا.

وفيه شاهدٌ آخر لمن تطَرَّق بالحُسن من الأشياءِ إلى الله تعالى، وشهد الحُسْنَ الأعلى بها، وكانت المحاسن طَرِيقًا إلى الحَسن الجميل، لأنّه ﷺ لمّا قال: أعْجَبَنى حُسنهما، خرَّ ساجدًا، فكان ذلك اقترابًا له من القريبِ، وتقربًا به وتطرُّقًا إلى الحبيبِ، وقد قال: ﴿**واسْجُدْ واقْتَرِبْ**﴾ [العلق:١٩]. وكَنَحو قَوله تعالى: ﴿**انظُرُوا**

إلى ثَمَرِه إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِه إنَّ فى ذَلكُم لآياتٍ لقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، ففيه قرينةُ إيمانٍ للمؤمنِ البجير(١)، وعبرةٌ للعالم الخبير، لقوله: ﴿ومِنْ كلِّ شىءٍ خلَقْنا زَوْجَيْنِ لعلَّكُم تذكَّرُونَ * فَفِرُّوا إلى الله﴾ [الذاريات: ٤٩ ـ ٥٠].

فهذا طريقُ الواجدينَ بالله، المُستَهترِين بذكرِ الله(٢)، وهم السَّابقونَ إلى الله بالهِمَمِ العالية، المقرَّبون عند الله بالأسرارِ الطّاهرة، كما قال ﷺ: «سَبَقَ المُفْرِدُون المُستهتَرون بذِكرِ الله، وضعَ الذّكْرُ أوزارَهُم فوردُوا القيامةَ خفافًا».

وروينا فى خبرٍ: «أن شِراكَ نَعْله العَربىّ ﷺ كان قد أخلَق، فأبدَلَه بسَيْرٍ جديدٍ، فصلّى فيه، فلمّا سلَّم قال: أعيدُوا الشِّراك الخَلَقَ وانْزَعُوا هذا الجديدَ، فإنّى نظَرتُ إليه فى الصّلاة».

ولبس مرّةً ﷺ خاتمًا، فنظَر إليه وهو على المنبر نَظْرةً فرمَى به وقال: «شغَلَنى هَذا عَنْكُم، نَظْرَةٌ إليه ونَظْرةٌ إليكُم». قال: فلا يُدْرَى مَن أخذَهُ.

وقد يحتجّ بهذا مُحتجٌّ، لما كَرِهْناهُ من إتلافِ المنظور إليه، وليس فيه حجّةٌ له؛ لأنَّه ﷺ لم يتلفه إذ لم يَرْمِ به فى برٍّ ولا بَحْرٍ ولا مَضغَهُ ولا أفْسَدَهُ، وإنّما نَزَعَهُ وَرمى به بين المسلمين، ووَهَبه لمَن أخذه، فجازَ ذلك عن وَجْدٍ فى الوقت وَجدَهُ، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال رسول ﷺ: «مَن أحبنى فَلْيَستَنَّ بِسُنَّتى».

وفى الخبرِ المشْهُورِ: «عليكُم بسُنَّتِى، وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِين المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيها بالنَّواجذ».

وقد كان أبو محمد سهل، رحمه الله، يقول: من علامة حبِّ الله حبُّ النّبى ﷺ، ومن علامةِ حُبِّ النبى ﷺ حبُّ السُّنّة، ومن علامةِ حبِّ السُّنّة الزُّهدُ فى

(١) البجير: أى العظيم البطن، ويقصد به الذى يشتهى الطعام والفاكهة، فإنه يستمتع بالنظر إلى الثمار.

(٢) المستهترون بذكر الله: المولعون به.

الدّنيا، فإنَّ القوَم كانُوا زاهدين. وقال مرّةً: ومن علامةِ حُبِّ السُّنّةِ بُغْضُ الدّنيا، وعلامةُ بُغْضِها أنْ لا تأخُذَ منها إلا زادًا أو بُلْغةً.

وقال ﷺ: «إنَّ أقْربَ الناسِ منّى مجلسًا يومَ القيامةِ مَن كان على مِثْلِ ما أنا علَيه اليومَ من الدُّنيا». فلذلك كان أبو ذر يقول لأصحابه: أنا أحبُّكُم إلى رسولِ الله ﷺ، وأقربُكُم منه غدًا مَجْلسًا، قالوا: كيفَ ذَاكَ؟ قال: لأنِّى اليومَ على مِثْلِ ما فارقْتُهُ عليه ﷺ، وكلُّكُم قد غيَّرتُم. هذا لِزُهْدِه.

وكان مالكُ بن دينار فى التّابعين بَدلاً عن أبى ذَرٍّ فى الزُّهْد؛ لأنَّه زادَ على أصحابِه فى التَّقَشُّف والزُّهْد بلُبْسِ الخَشن، وأكْلِ الجَشِب، وترك الادّخار، وبَذَاذة الحَال، ولم يكن يُغلقُ بابَه، إنَّما يشدُّهُ بشَريطٍ، وقال: لولا الكلابُ لَمَا شَدَدْتُهُ بالشَّريط. وإنّما قدّرناه بَدَلاً عنه؛ لحكايةٍ رُويناها عن بعضِ السَّلفِ الصّالحِ، قال: رأيتُ النبىَّ ﷺ فى المنامِ، فقلتُ: يا رسول الله أينَ بُدَلاءُ أمّتك؟ فأوْمَأ بيده نحوَ الشامِ. فقلتُ: يا رسول الله، أمَا بِالعَراقِ منهم أَحَدٌ؟ فقال: بلى، الحَسَنُ، ومحمدُ بن واسعٍ، وحسّانُ بنُ أبى سِنَان، ومالكُ بنُ دينار، الذى يسيرُ فى النّاس بمثلِ زُهْدِ أبى ذرٍّ فى زمانه. وهؤلاء من خِيارِ التّابعين، وهُم من أبدالِ الصدّيقين والعارفين. وأمّا الحَسَنُ، فإنَّ مالكَ بنَ دينارٍ كان يقول: أيّها النّاسُ، مُعَلِّمى ـ وَالله ـ الحَسَنُ. به تأدَّب، ومنه تَعَلَّم، ولم يُفارِقْه حتَّى ماتَ، فهو بَدَل عنه. والحَسَنُ كان بَدَلاً عن صاحبِ السِّرِّ حُذَيفَةَ بنِ اليَمانِ. وهؤلاء أئمتُنا فى هذا العلمِ، بأنوارِهم نَستضىء، ومِن مِشْكاتِهم نُضِىء، وعن جوهرهم (. . .)[1] أن نكونَ خلفاء عن سَلَف، ومتعرِّفين ممّن كان [عليه هؤلاء السلف. ثم يجىء][2] الأخيرُ بعدَهُم: أبو محمدٍ سهل بن عبد الله، لم يكن فى عصرِه مثلُه، وكان بدلاً عنهم، وخلَفًا منهم. ثمَّ اللهُ أعلم حيث يجعل رسالاته، ولا حول ولا قوة إلا به. ورُوينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللهم اجعل رزقَ آل محمدٍ قُوتًا»، ومرة يقول: «كفافًا».

(١) تلف بالأصل قدر ثلاث كلمات.

(٢) ما بين المعكفتين أثبته اجتهادًا مكان التلف الذى بالأصل.

ولمّا ولِىَ [يزيد بن معاوية، لقى عبد الله بنُ عمر](١) الحسينَ بنَ علىٍّ عليهم السَّلام بمكة، وقتَ خُروجه إلى الكوفة، فقال له: لا تخرج، ولا تطْلُب هذا الأمرَ، فإنَّ الله عز وجلّ يزوى عنكم الدِّينار، وأنتم أهلُ البيت، اختار الله لكمُ الآخرةَ. وكذلك قال له ابنُ عبّاس رضى الله عنهما. فقال: قد جاءنى ثلاثمائة كتابٍ يستحثوننى على القُدوم. فعانقه ابن عباس رضى الله عنهما، وقال: أستودعك الله من قتيلٍ.

ويشهد لهذا الخبر الذى رُويناه فى تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خيرٌ من أَلْف شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]، أنَّ رسُولَ الله ﷺ أُرى بنى فلان يصعدُون على منبره، يَخْطُبون رَجُلاً رجُلاً، فى نيّفٍ وثمانين سنة، فساءَه ذلك وكرهَه، كأنّه أحبَّ أن يكون ذلك فى غيرهم، فَنزلَتْ: ﴿ليلةُ القَدْرِ خيرٌ من ألْف شَهر﴾ ، وهى نيّفٌ وثمَانُون سَنَة، جعلتُها لكَ ولأهلِ بيْتِك فى الآخرة، فهى خيرٌ لهم من ألْفِ شهرٍ مُدّة مُلك بنى فلان، فرضى بذلك وسرَّه، وكان فيه عزاءٌ وسَلْوَةٌ، وكذلك كان الأمر، والله غالبٌ على أمْرِه، وكان أمرُ الله قدرًا مَقْدُوراً.

ورُوينا فى خبر: «ما من أحَدٍ يومَ القيامة غَنِىٍّ أو فقيرٍ، إلا ودَّ أنّ رزْقَه كان فى الدُّنيا قُوتًا». وفى الأثر: «اللهمّ من أحَبّنى وأجابَ دَعْوتى فأقْلِل مَالَه وولَدَهُ. ومن بَغَضِنى ولم يُجب دَعْوَتى، فأكْثِر مالَه وولَده وأَوْطِئْ عَقِبيه» يعنى كثرة الأتباع. وكانت هذه دعوةَ الصحابةِ على من ظَلَمهم أوْ مَقَتُوه.

ولمّا كَتَب أبو الدّرداء إلى سَلْمان الفارسى رضى الله عنهم أجمعين؛ من [الأرض] المقدّسةِ إلى المدائنِ، يدعوهُ إلى بَيْتِ المَقْدس أن يكونَ معه فيه، ويُخْبره أنّه قد رُزق بعده مالاً وولدًا، وقد اشترى خادمًا. فأجابَهُ سَلْمَانُ: أمّا بَعْد، فإنَّك ذَكرْتَ أنّك رُزِقْتَ مالاً وولدًا، فلا تَفرح بذلك، إن يكثُرْ مالُك يكثُر حسابُك، وإن يكثُر عيالك يكثُر شياطِينُك، وإن تُخْدَم يقلُّ عونُ اللهِ لكَ، فإنّى سمعتُ النّبى

(١) هذا الموضع كان تالفًا بالأصل، فأتممته من التاريخ، انظر الخبر بلفظ قريب منه فى البداية والنهاية ١/ ٤٩٧ نشرة هجر.

ﷺ يقول: «لا يزال العبدُ من الله وعَونِه ما لم يُخْدَم، فإذا خُدِم وقع عليه الحساب». ولكن افرح بأن يكثُر عمَلُكَ، ويعظُم حِلْمُك، وتُباهى بعَبادة ربِّك. وكَتَبْتَ تدعونى إلى الأرضِ المقدَّسةِ. إنّ الأرضَ لا تقدِّس أحدًا، إنّما المؤمنُ يقدِّسه عملُه، والسَّلام.

فهذا كلامُ عالمٍ ربّانىٍّ، من أهْلِ بيتِ النُّبوةِ، قد أُوتى عِلْمَ الأوّلِ والآخرِ، وهو «منّا أهلَ البَيْتِ»، كذلك رُويناه.

ورُوينا فى الأثرِ مُجملاً لُمتَجمِّلين: «ما أحدٌ أُعطى من الدنيا شيئًا إلا نَقَصَ من دَرجتِه فى الجنّة، وإنْ كان على الله كَريمًا». وبمعناه قد رويناه جملةً فى شأن الدُّنيا والآخرة: «نقصَانُ الدُّنيا زيادةُ الآخرة، وزيادةُ الدّنيا نُقْصانُ الآخرة». فإنَّ الدّنيا والآخرةَ مثلُ كِفَّتى الميزان، رجحانُ أَحَدِهما بنُقصانِ الأُخْرى. وإنّهما كالمَشْرِق والمغْرِب، من استقبل أحدَهُما استدبَر الآخرَ.

فهذه جُمَلٌ، تُغنى عن التفصيل وعن بعض ما رُويناهُ فى حقيقةِ الفقر، مرتّبًا على الغايةِ فيه، والنّهايةِ منه، وإن كان يحتاج إلى شرح وتفصيل، لاختلاف أحوالِ الفقراء، وتفاوُت مقاماتِ أهلِ المعرفة فى الزُّهد مع الموجود.

حُدِّثْناهُ فى أخْبارِ موسى عليه الصّلاة والسّلام، أنّه وصفَ الزُّهدَ لبنى إسرائيل، فقام إليه رجُلٌ منهم فقال: يا نبىّ الله، أنا منهم؟ قال: أنت إذا تَغدَّيْتَ تجد ما تتعشّى؟ قال: نعم. قال: اجلس لستَ منهم. ثم قام إليه آخر فقال: يا نبىّ اللهِ، أنا منهم؟ قال: أنتَ إذا تغدَّيتَ تجد ما تَتَعشى؟ قال: لا. قال: فَلَك ما تبيع؟ قال: نعم. قال: اجلس فَلَسْتَ منهم. وقام غيرُه فقال: يا نبى الله، أنا منهم؟ قال: إذا تغدَّيتَ تجد ما تتعشى؟ قال: لا. قال: فلك ما تبيع؟ قال: لا. قال: فلك من يُقْرِضُكَ؟ قال: نَعَم. قال: اجلس لَسْتَ منهم. ثم قام آخر، فقال: أنا منهم؟ فقال له مثل ذلك، إلى أن قال: فلكَ من يُقرضُك؟ قال: لا، ولا أملك من الدنيا إلا هذه الشملة من الصُّوف ولقد آذانى فيه الدّوابُّ، وأنا أستحى من ربّى عز وجلّ أن أنزعها فأُفَلِّيها وأتَعَرَّى بين يديه. قال: اجلس أَنتَ مِنهم[1].

(١) الخبر فى الإتحاف ٩/ ٣٨٠.

هذا الذى أراده موسى عليه الصلاة والسّلام من الزهد هو حقيقته، وهو زهد أولى العزم من الزهاد. وهذه الحال من عزائم الأُمور، وهذا الخبر من أشدّ ما رُويناه فى الفقر، وهو مشهور منَ الإسرائيليات. وقد روينا بمعناه خبرًا غريبًا عن نبينا ﷺ مثله فى الشدّة فى شأن الفقر، نذكره بعد تفصيل هذا الخبر، نسنده لأجل غرابته.

فأمّا تفصيلُ مقاماتِ الفَقْر فى الخبر الذى ذكرناهُ عن موسى عليه الصلاة والسلام، فهو المقام الأعلى من التحقّق بالفقر، ذاك أنَّ الزَّهدَ فى حالِ الفقْرِ مقاماتٌ:

فالمقام الأوّلُ: هو أن لا يجدَ الفقيرُ مَعْلُومًا غير ما حمل فى جَوْفه، وعلى ظَهْرِه، وهذا هو حالُ الفقيرِ الأول، الذى قال له موسى عليه السلام: لستَ منهم. يعنى من أُولى العَزْم من الزُّهادِ، إذ لم يكن حالُه حالَ عزيمةِ الزّهد، لأجلِ وَجْد العِوَضِ المعتاض به، وهو فضْل ما يبيعُه من العِوَض، فقامَ له مقامَ المعلومِ من النَّقْد.

والمقامُ الثانى من الفَقْر فى الزُّهْد: هو فَقْدُ العِوَضِ الذى هو عَرَضٌ من النّاس، وهذا حال الثانى.

والمقامُ الثّالث: هو أن يَعْدَم الأَعْراضَ والأَعْواضَ، وليس هو حقيقةُ الفقرِ؛ لأجل بقاءِ الأسبابِ التى تقوم مقامَ الأعواضِ، وهو الجاه الذى يستقرض به فيُقْرَض، وهو أيضًا سَبَبٌ به يُعرَف، ولأجل معْرِفته أُقْرِضَ، فهذا قد بقى له سَبَبٌ يَتَسَبَّبُ به، ومكانٌ يأوِى إليه دونَ الله، وعدّةٌ يَعْتَدُّها مع الله، وسُكونٌ يطمئنُّ إليه غيرَ الله، ويُشَاهدُ الذى يُنظَرُ إليه به، ويُعْرَف فيُعْطَى عليه، فهذا يَحْجُبه عن حقيقة الفَقْرِ، وينقُصُهُ من عزيمةِ الزُّهدِ. فحسَب مُوسى عليه الصّلاة والسّلام وُجودَ الجاه له رغبةً منه هى دونَ الله تعالى حتى يكونَ بالوصْف الذى وصفَ اللهُ به أولياءَهُ فى الغاية من قوله: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ﴾ فهذا مَثَلُ فَقْد المعلومِ الذى تقومُ به الأشياءُ، وهو بمعنى حالِ الأوّلِ. ثم قال: ﴿وضَاقَتْ عَلَيْهِم

أَنْفُسُهُمْ﴾ فلم يبق له عِوضٌ يقوم مقامَ المعلومِ الذى له قيمةٌ شيءٍ يَبيعُه، وهذا بمعنى حالِ الثانى. ثم قال: ﴿**وَظَنُّوا أَلاَّ مَلْجأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ**﴾ فهذا سقوطُ الأَعْواض بعد فقْدِ الأعراضِ، وعدمِ الجاهِ الذى هو سببُ الاسْتِقْراض، فلم يبق له جاهٌ يعوِّل عليه، ولا مَعْرِفَةٌ مِن الخَلْقِ، ولا سَبَبٌ بينه وبينهم ينظرُ به إليهم، ولم يبقَ بينه وبين الله إلى الله مأوًى يَسْكن فيه، ولا ظلٌّ يَسْتَظِلُّ به، ولا مَلْجأ يَسْتَنِد عليه، حينئذٍ قال اللهُ بعد بلوغِ الغاية: ﴿**ثُمَّ تابَ عَلَيْهم لِيَتُوبُوا**﴾ [التوبة:١١٨] بأن عطف عليهم لينْعَطِفُوا عليه، ونظر إليهم لينظروا به إليه، حينئذٍ كان من الله تعالى فى شىء.

فهذا وصف الثالث الذى قال له موسى، عليه الصلاة والسّلام: «أنتَ منهم». إذ قد تحقَّق بالفقْرِ، وبلَغ عزيمةَ الأمرِ، فلم يجد دون الله سببًا منفصلاً من مالٍ، ولا معنًى متصلاً من حالٍ، وهو الجاهُ والمنزلةُ الذى تقوم مقَامَ الأعراضِ فتسبَّبت به إلى الأسباب. ألم تسمع إلى الخبر الذى رويناه [عن] اثنتين: السؤال عن المال والجاه، إنّ العبدَ ليُسأل عن جاهه، كما يُسألُ عن ماله. فهذا وصف فقير فقير ونعت غريب، فكما روى عنه ﷺ أنه قال: (. . .)[1] جاءك، فقل له: كل فقير فقير».

فهذا العبد غريب عن الدار فى وطنه، غريب الوجد من سكَنه، غريب العلم من دمَنه، غريب الحال من أُمَّته، غريب فى غربته، غريبٌ مَنْ تَغرُّ به، غريب بمَغْربه، لا يَعْرِفُهُ أبناءُ جِنْسه، ولا يألفه أولو أُنسه، ولا يسكن إلى مسكنه (. . .) وجِنْسه، متفردٌ من تَهَمُّسه، متوحِّدٌ بأنيسه من أُنْسه، قد طُمسَت نفسه فى رَمْسه، وشُغل بيومه عن غده وأَمْسه. فهذا من وحْشِ المَلَك فى داره وأُنْسه لزوّاره، وقد قَرّتْ عينُه بقَراره، وفَرَّ من إيلافه وفرَّاره، وصفَت رُوحُهُ من أقذاره، فهو موضِعُ نظرِه، ومَعْقِلُ خَبرِه، وغَيْثُ بلادِه، ورَوْحُ عِبادِه، ومن خَالصِ وِدادِه. قد زهدَ فى

---

(١) هذا الموضع والذى يليه تالف بالأصل، أحيانًا كلمة، وأحيانًا أكثر، وبرغم نقل الإتحاف كثيرًا منه إلا أنه اختصر بعض هذا الكلام فلم أجد التالف، انظر: ٩/ ٣٨٠.

زُهْدِه، وعَدِمِ وُجودُهُ بوَجْدِه، وفَنِيَتْ نَفْسُه عَنِ جُهْدِه، وبقيت رُوحُه بِموجودِه[١].

وكذلك روينا أنَّ داود نبى الله عليه السلام سأل عن المعرفة وكأنّه تشوَّق إليها، فأوحى إليه: «أنتَ لا بدَّ لك من سَبَدٍ ولَبَدٍ، ومَن عَرَفَنى لم يسكن إلى سَبَدٍ ولَبَد». السَّبَد: أَعْلاه من الرِّياش، واللَّبد: ما كان أسفل من قُماش.

وأما الخبرُ الذى رويناه عن نبينا ﷺ بمعناه، فحدّثنى عبدُ الكريمِ بن أحمد، قال: حدّثنى جعفرُ بن محمّد، قال: حدثنا الخوّاصُ عبدُ الله بن الحسن، قال: حدّثنى سَعْدُون بن سَهل بن عبد الرحمن المكىّ، عن المغيرة بن قيس، عن شَهْر ابن حوشب الأشْعَرِىّ، عن أبى أمامةَ، قال: أتَيْنا على أهلِ ماء فى سَفَرٍ لنا مع رسولِ الله ﷺ، وأسود مَوْلًى لهم ميِّتٌ بالأمسِ ليس له ثوْبٌ يكفِّنُونَهُ فيه، وما عندَهُم غاسل يُحْسِنُ غَسْلَه، قد قُطِع به لا يَدْرُون كيفَ يأتون. فهجمنا عليهم من الغد ظهرًا، وقد أرْوَحَ، وتَرك القومُ خباءهم وخَرَجُوا كراهيةً لجواره، فكان أوّلَ منَ نَزَل منّا رسولُ الله ﷺ، فمشى حتى دخَل علَيه، فجاءَه القومُ يَعْتَذِرون إليه من تَرْكِهم إيَّاه، فانطلقَ النبىُّ ﷺ حتى قام على بئْرٍ لهم عاديّة، فتَفَل فيها فاستحالَتْ عَذْبًا فاسْتَقَيْنا، وأمَر عليًا وأُسامة رضى الله عنهما فغَسَّلاهُ، وكفَّنه رسولُ الله ﷺ فى بردة له ما زادَه عليها، ثم صلّى عليه، ووَلِىَ إدخالَه فى قبره علىٌّ وأسامةُ رضى الله عنهما، فلمّا فَرَغَ النبىّ ﷺ قال لأصحابه: «إنّه يُبعثُ يومَ القيامةِ ووجهُهُ كالقَمر ليلةَ البَدْرِ، ولولا خَصلةٌ كانت فيه لبُعث ووَجهُه كالشَّمس الضَّاحية». فقُلْنا: وما هِى يا رسولَ الله؟ قال: «إن كان لصوَّامًا قوَّامًا كثيرَ الذِّكرِ لله عز وجلّ، غيْرَ أنّه كانَ إذا جاءَ الشِّتاءُ ادّخر حُلّة الصَّيف لصَيْفه، وإذا جاءه الصَيفُ ادّخرحلّةَ الشِّتاء لشتائه من قَابل». ثم قال: «من أقَلِّ ما أُوتيتم اليقينُ وعزيمةُ الصَّبْرِ، ومن أُعطى حظَّه منهما لم يُبال ما فاتَهُ من قِيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ، ولأنْ تَصْبِروا على مِثل ما أنتم علَيه أحبُّ إلىَّ من أن يوافينى كلُّ امرئ منكم بمثل عَمَلِ جميعِكُم، ولكنى أخاف أن تُفتح عليكم الدنيا بَعْدى، فيُنكر بَعْضُكُم بَعْضًا ويُنكركُم أهلُ السّماءِ عند ذلك، فمن صبَر واحتَسَب ظفَر بكَمالِ

(١) فى الإتحاف: «بموجده».

ثوابه. ثم قرأ: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل:٩٦]».

فلأجل معنى هذا الخبر بكى الصِّدِّيقُ أبو بكر، وسلْمَان الفارسيّ صاحب علم الأول والآخر، فيما رُويناه عنهما رضى الله عنهما (. . .)[1] عن زيد بن أرقم، قال: كنا مع أبى بكر الصّديق رضى الله عنه، فدعا بشراب، فأُتى بماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى، حتَّى أبْكَى أصحابه، فسكَتُوا وما سكَت، ثم مَسَحَ عَيْنَيه. فقلنا: يا خليفةَ رسولِ الله، ما هاجَكَ على البكاء؟ فقال: إنى كنتُ مع رسولِ الله ﷺ فرأيتُه يدفع [عن نفسه] ويقول: «إليكِ عنّى» وما أرى أحدًا معه. فقلتُ: يا رسولَ الله تدفعُ عن نفسك شيئًا ولا أرى معك أحدًا. قال: «هذه الدنيا مُثِّلَت لى، فقلتُ لها: إلَيكِ عنِّى. فقالت: أمَا إن سلمتَ منى، فلن ينفلتَ منّى مَن بَعْدك»، فخِفْتُ أن تلحقنى.

وأبو عبد الرحمن الحبلى عن عامر بن عبد الله وحُميد الطويل عن مؤرّق العِجلى، قالوا: دُخِل على سَلْمَان عند موتِه، فجزِعَ وبكَى. قالوا: ما أجزعك وأبكاك أبا عبد الله، وقد كانت لكَ سابِقةٌ فى الخير، وشهِدْتَ مع رسُولِ الله ﷺ مغازىَ حسنةً وفتوحًا عظامًا؟ فَقَال: إنّ حبيبَنا حين فارقنا عَهِد إلينا ـ وفى الحديث الآخر: عهِدَ عهْدَهُ إلينا رسولُ الله ﷺ لم نَحفظْهُ ـ قال: «ليكن بَلاغُ أحدِكم مِن الدنيا ـ وقال فى الآخر: يكفى المؤمنُ من الدُّنيا ـ كزادِ الرَّاكبِ»، فهذا الذى أجْزَعَنِى. قال: فجُمع مالُ سلمان فكان قيمته خمسة عشر درهمًا.

وفى حديث حُميد عن مؤرق، فقلنا: ما يُبكيكَ يا أبا عبد الله؟ قال: ما أبكِى صبابةً إليكم، ولا ضنًا بِصُحْبتكم، ولكنّى أبكى لعهدِ عَهِدَهُ إلينا رسولُ الله ﷺ، فلم نأخذ به، قال: «ليكن بلاغكم من الدّنيا كزاد الرّاكبِ»، فلم نرضَ بذلك حتى جَمَعْنا ما تَرَوْنَ. قال: فقلَّبنا أَبْصَارَنا فى البيْتِ فلم نرَ إلا إكافًا وقُرطاطًا. والقُرطاط: البرذَعَة التى تكون تحت الإكاف. قال: فبلغ قيمة ما ترك خمسة عشر دِرْهمًا.

(١) تلف بالأصل قدر كلمتين.

وكذلك بكى خباب بنُ الأرتِّ وأبو هاشم بن عتبة بن ربيعة على هذه الوصية بمعناه عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة، قال: عاد ناسٌ خبّابَ بن الأرتّ عند موته، فقالوا: أبشر أبا عبد الله، تَرِدُ على محمّد ﷺ الحوضَ. فقال: كيف بهذا وهذا، وأشار إلى أسفل البيت وأعلاه، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «إنّما يكفى أحدَكم من الدّنيا مثلُ زادِ الرّاكبِ».

وأبو وائل عن سمرة بن سهم (. . .)[1] بن سعد قال: نزلتُ على أبى هاشم ابن عتبة بن ربيعة وهو مَعِينٌ [2]، فأتاه معاويةُ بن أبى سفيان يَعودُه. فبكى أبو هاشم. فقال معاوية: ما يبكيك؟ أى حال: أوَجَعٌ صَيّرك، أم حِرصٌ على الدنيا فقد ذهَب صفْوُها؟ فقال: كلٌّ لاَ، ولكنّ رسولَ الله ﷺ عهد إلينا عهْدًا، وَددت أنّى كنت تبعتُه، فقال: «لعلّكَ أن تُدْرِكَ أموالاً تَعتم عينَ أقوامٍ، وإنّما يكفيك من ذَلك خادمٌ ومَرْكَبٌ فى سبيلِ الله». فأدركتُ فجَمَعْتُ.

كذلك بكى سعيدُ بن عـامرِ بن جذيم أميرُ أهلِ حمص، لمّا بعثَ إليه عمرُ رضى الله عنه بألف دينارٍ يُنْفِقُها على نَفْسه وأهْله، بعد أن ذُكر له فَقْرُه وشدّةُ حاجتهِ، فسُئل عن بُكائه، فقال: أَتَتْنى الفتنةُ، وجَعل يَستَرجِعُ حين رأى المَالَ دنانيرَ، وكان حَسْبُه دَرَاهم، وجعل يقول: دخلتْ عليَّ الفتنةُ فى بيتى، ألا وشرُّ أيامى أيّامُ عُمَرَ، ثم جعل يُفرِّقها صُرُرًا، حتى أنفدَها، فقالت له امرأتُه: لو حبَسْت منها شيئًا نستعينُ به. فقال: إنّى سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لو أنَّ امرأة من نساءِ الجنةِ أشْرَقَت إلى الأرْضِ لملأت الأرضَ من رِيح المسك، ولأذْهَبَ ضوءَ القمرِ والشّمس نورُ وجهها». وقال مرة: «لأشْرَقَتْ لها الأرضُ كما تُشرق الشمسُ لأهل الدنيا، ولَنصيفُها الذى على رأسها خيرٌ من الدُّنيا وما فِيها». والله ما كنتُ لاختارك عَلَيْهنّ، فَسكَتَتْ.

ورواه مالكُ بنُ دينار عن شَهْر بن حوشب قال فيه: فجعلَ يُصَلِّى ويَبْكى تلك الليلةَ حتى أصبحَ. ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يدخُلُ فقراءُ المسلمِينَ

---

(١) تلف قدر كلمة.

(٢) معين: أى أصابته عين حاسدة فأمرضته.

الجنةَ قبلَ الأغنياء بِخَمْسين عامًا، حتَّى إنَّ الرَّجُلَ مِنَ [الأغنياء][(١)] يكونُ فى غمارهم، فيُؤخَذ بيده، فيُستخرج». قال سعيدُ بن عامر: فأرادَ عمرُ أن يجعلَنى ذلك الرّجلَ، فما يسرّنى أنّى ذلك الرّجل، وأنّ لى الدُّنيا بما فيها.

ورواه عبدُ الرَّحمن بنُ سابطٍ، فقال فيه: ما أنا [بمتأخرٍ][(١)] عن الأَمْرِ الأوَّل بعد إذ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجىء فُقراءُ المسلمين يَزِفُّون كما يَزِفُّ الحمامُ، فيُقال لهم: قِفُوا للحساب، فيقولون: والله ما تركنا شيئًا نُحاسب عليه. فيقولُ الله تعالى: صَدَقَ عبادى، فيدخلون الجنة قبلَ الناسِ بسَبْعين عامًا». وزاد غيرُه: فوالله ما يَسُرّنى أنّى أُخِّرت عن الرعيل الأول وأنّ لى الدّنيا وما فيها.

وكذلك قالت زينبُ بنتُ جحشٍ رضى الله عنها، لمّا أرسلَ إليها عمرُ رضى الله عنه قِسْمها من مالِ البحرين. قال عبدُ لله بن رافع: فلمّا جاءَ الرَّسولُ، قالت: ما هَذا؟ قال: أرسلَ به إليكم عمرُ رضى الله عنه. قَالت: غفر اللهُ له، لقد كان عندى أقْوى على قِسْمه هذا منِّى. قال: فإنّ هذا كلّه لك، وكان آلافًا كثيرةً، فقالت: سبحانَ الله! ضَعُه، اطْرَحُوا عليه ثوْبًا، ثم قالت: أَدْخِل يدَكَ فاقبض منه قبضةً قبضةً، اذْهَبوا بها إلى بنى فلانٍ، ثم جعلَت تَقْبض من تحتِ الثَّوب، تُرسِله إلى الأيتامِ والمساكين، حتى أنفدَتْه، ثم رفعتْ يديها، فقالت: اللهمَّ لا يُدْرِكنى عَطَاءُ عمرَ رضى الله عنه بعدَها، فكانت أوّلَ أزواجِ النّبى ﷺ لُحوقًا به. وقد كان رسول الله ﷺ أخبر أزواجَهُ بذلك، وهُنّ مُجتمعات عنده، فقال: «أسْرَعُكُنّ لُحوقًا بى من أَزْواجى أَطْوَلُكنَّ باعًا بالنَّفقة». فلم يكن منهنّ أجودُ بالعطاءِ وأسخى بالمالِ من زَينب، فأسرعت به لُحوقًا.

ثم بعدها عائشةُ فى الجُودِ والسَّخاء والزُّهد والعَطاء. ذكرهُ محمدُ بن المنكدر عن أم دُرّة، قالت: بعثَ إليها ابنُ الزبير بمالٍ فى غِرارَتَيْن. قالت: أراه ثمانين ومائة ألف، فَدَعت بطَبَق، وهى يومئذ صائمة، فجعلت تُقَسِّمه بين الناسِ فأمسَتْ وما عِندها من ذلك درهم. فلمّا أَمْسَتْ قالت: يا جارية، هَلُمّى فِطْرِى، فجاءتها بخبزٍ وزيت. فقالت لها أم درّة: أما استطعتِ مِمّا قَسّمْتِ اليَوْمَ أن تشترين لنا

---

(١) ما بين المعكفات اجتهاد منى، لتلف الأصل.

بِدِرْهمٍ لحمًا نُفطر عليه. قالت: لا تُعنِّفينى، لو كنتِ ذكَّرْتنى لَفَعَلْتُ.

وروى هشام بن عُروة عن أبيه أنّ معاويةَ بعث إلى عائشة مرَّةً بمائة ألف. قال: فوالله ما غابت الشَّمسُ من ذلك اليومِ حتَّى فرّقتها. فقالت مولاةٌ لها: لو اشتريتِ لنا من هذه الدّراهم بدرهمٍ لحمًا. فقالت: لو قُلتِ لى قبل أن أُفرِّقَها لَفَعَلْتُ.

وقال تميمُ عن عِروة بن الزُّبير: لقد رأيتُ عائشةَ تَتَصَدَّقُ بسبعينَ ألفًا وإنها لترَقَع جانبَ دِرْعِها. ورواه حجّاج عن عطاء، قال: بعث معاويةُ إلى عائشة بطَوْقٍ من ذَهَبٍ فيه جوهرٌ قُوِّم بمائة ألف، فقَسَّمته بين أزواجِ النّبى ﷺ.

وقال أبو راشد التنوخى: سمعتُ [أنه] إذا دَخَلَتْ إلى أحدهم الدنيا، قال: إليكِ إليكِ يا خنزيرةُ، اسْتأخِرِى عنَّا، لا حاجةَ لنا فيك، إنا نعرف إلَهنا.

هذا كله خشيةَ الفتنة بها، إذ الفتنةُ بالمال لا تُحْصى، لا يَعْرِفها إلا البُصراءُ. وجُمَلُ الفتنة بها: أخذُها مِن غَيْر حِلِّها، أو وَضْعُها فى غيرِ أهْلِها، أو منعُها من حقِّها. وجُمَلُ حبِّها والحرصُ عليها: الظلمُ على شىءٍ منها، أو الجمعُ والإمساكُ لها، والحسدُ والفَخْرُ بها، وأنه لا يُعطى الفقراءُ منها. فتدبروا فُروعَ هذه الفِتَن.

وروينا عن عيسى ابنِ مريم عليه الصّلاة والسلام: «أنَّه طلبَ أن يرى الدنيا، فرآها فى صُورة عجوز هيماء، عليهَا من كل زينة، فقال لها: يا امرأة، كم تَزوَّجْتِ؟ قالت: ما أحْصَيْتُهُم عَدَدًا. فقال: كم ممن تَزَوَّجْتِيهم ماتَ عنْك؟ قالت: بل كلُّهم قَتَلْتُ. فقال: عجبًا من أزْواجك الباقين كيفَ لا يَعْتَبِرُون بأزواجِك الماضين هَلَكَتكِ لهم واحدًا واحدًا، ولا يكونُوا منك على حَذَر».

وقد كُوشف بهذه الصُّورة بعضُ أبدال هذه الأُمّة، فقال: رأيتُ الدنيا فى صورة عجوز كبيرة عليها حُلِىٌّ ومُصبَّغات. قال: فقلتُ: أعوذُ بالله منك. قالت: لا والله لا يُعيذُكَ اللهُ منِّى حتى تَبْغَض الدِّينارَ والدّرهم.

ورواه حُميدُ بن هلال عن علاء بن زياد، وكان من البُدَلاء، قال: رأيتُ الناسَ فى النّوم يتبعون شيئًا فاتَّبَعْتُه، فإذا عجوزٌ كبيرةٌ عَوْراءُ هَيْماء، وإذا عليها من كل حِلْيةٍ وزِينَةٍ. فقلتُ: من أنتِ؟ قالت: أنا الدُّنيا. قلتُ: أسأل اللهَ أن يُبغِّضك

إلىَّ. قالت: نعَم، إن أبغضتَ الدِّرهم. الهيماء: مكسَّرة الأسنان.

وممّا رُويناهُ من دعاءِ أهلِ البَيْت عن زيدِ بن على رضى الله عنهما: «اللهمّ إنّى أسألُكَ سُلُوًا عن الدنيا، وبُغْضًا لها ولأهْلِها، فإنَّ خيرَها زَهيدٌ، وشرَّها شديدٌ، وجمعها يَبيدُ، وما فاتَ منها حَسْرَةٌ، وما أُصيبَ منها فتنةٌ. أسألُكَ اللهمَّ منها العصْمةَ، وأن لا تَجْعَلْنا كمَن رَضِىَ بها، واطمأنَّ إليها، فإنّ مَن أَمِنها خانَتْهُ، ومَن اطمأنَّ إليها فَجَعَتْهُ».

وأُنْشِدتُ لبَعْض الزَّاهدين فيها:

خَفِّض هداكَ اللهُ مِنْ حَالِكَا ... وافْرَحْ بما قَدَّمْتَ مِن مالِكا

ما يَنبغى أنْ كُنْتَ ذَا فِطْنَةٍ ... أن تَخْطُرَ الدُّنيا علَى بالكا

لا تأمَنِ الدُّنيـــا على غِـرَّةٍ ... كم غَــدَرَتْ قَبْلُ بأشْكالكا

كم مضَى فى النّاس مِن هالكٍ ... وهَـالكٍ حتّى يُرَى مَهـالكـا

فانظر سَبِيـلاً سَلَكُـــوه ولا ... تَحْسِـب بأنّى لسْتُ له سَالِكـا

أصبحـتِ الدُّنيـا لنـا عِبرةً ... والحمــــدُ للهِ على ذَالِكـا

اجتمـع النّـاسُ عَلَى ذَمِّهـا ... ومـا أرَى مِنهم لَهـا تارِكا

وكان فتح الموصلى يقول: الدُّنيا ناوُوس خَرِب، والمؤمن نَظيفٌ كريمٌ لا يُطيف نفسَهُ إلى التّطلع فى النَّواويس. أى [مقابر] يجتمع فيها عظامُ مَوتى المجوسِ، فشبَّه مُحبِّى الدُّنيا الذين جَمَعَهُم حبُّها على مُعانَقَتِها وكُرْهِ فُراقها فى عدمِ اليقِين بمَوْتى المشركين. وكان فتح الموصلى يدخل على أهله بعد عِشاءِ الآخرةِ، فيجدهم جِياعًا عُراةً ليس لهم ما يَتَعَشَّوْن به، ولا ما ينامون فيه، وهم فى ظُلْمة بلا مِصْباحٍ، وربّما لم يجد عندَهم ما يَشْرَبُونه. وكان ليلتَهُ يبكى من الفَرَح والسُّرور، ويقول: بأىّ يَد كانت منّى؟ بأى شىء فعلتُ فى هذا الذى تصنَعُهُ بأوليائك وبأنبيائك؟ وربّما بَقِى هو وأهلُه أيّامًا على هذه الحال.

وكذلك رُوينا بمعناه عن الله سبحانه لمّا بَعَثَ مُوسى عليه السلام إلى فرعونَ،

كان فيما قال له: «اسْمَعْ كَلامى واحفَظ وصيّتى، لا يُعجبنَّكُما زينتَهُ ولا ما مُتِّع به، يعنى فرعون، ولا تمدان إلى ذلك أعينكما، فإنها زهرة الدّنيا، وزينةُ المترفين. ولو شئتُ أن أزيّنكما بزينةٍ من الدنيا لا تقوم لها الدنيا وما فيها، ولكنى أرغب بكُما عن ذلك، وأذودهُ عنكما، كذلك أفعل بأوليائى، وقديمًا خِرْتُ لهم فى أمورِ الدنيا. إنّى لأَذُودهم عن نعيمها ورخابها كما يذودُ الرّاعى الشّفيقُ غنَمَهُ عن مراتعِ الهَلَكة. وإنّى لأجنِّبنَّهم رخاءَها وسَرّاءها كما يُجنِّب الرّاعى الشّفيقُ إبلَه عن مبارك العُرِم[1]. وَما ذَاك لهوانهم علَىَّ، ولكن ليَسْتَكْمِلُوا نَصيبَهُم من كَرَامَتى ألمًا مُوفَّرًا لم تُكْمِلْهُ الدنيا، ولم يُنقصهُ الهوَى (. . .)[2] إنه لم يتَزَيَّن لى العُبَّادُ بزينةٍ هى أبلغ عندى من الزُّهْدِ فى الدنيا، فإنها زينةُ الأبرارِ عندى، وأحسنُ ما تزيّن به العُبّاد، وهى زينةُ المتقين، عليهم منها لباسٌ يُعرَفون به من السّكينة والخشوع والتحوُّل والسُّجود، أولئك هم أوليائى حقًا حقًا. فإذا لقيتَهُم فاخفِضْ لهم جناحَك، وذلِّل لهم قلْبَكَ ولِسانَكَ.

وبذلك جاءت الأخبارُ عن نبيِّنا ﷺ فى وصْفِ أولياء الله وأحبّائه فى الدّنيا، وذكر حُسْنِ بلاءِ الله فى صَرْفها عَنْهُم، إذ جعلَهُم فى سجْنه الكريمِ، ولم يجعل الدّنيا جنّتهم، وابْتَلاهم فِيها، وعصَمَهم مِنها، ووفَّر لهم نَصيبَهم، وأجْزل عطاءَهم من دارِه دارِ السَّلام فى مُسْتَقرِّهم ومَثْواهم بمنزل المقامِ، طوبى لهم وحسن مآب، وهنيئًا مرِيئًا لأهله أُولى الألباب.

فمن جُمَلِ ما جَمعناه ممّا رُويناه مُتَفرّقًا، ممّا فيه غُنيةٌ وكفايةٌ لذَوى الأبْصارِ، وبه تفكُّرٌ وهدايةٌ لأُولى الأفكارِ، ما نَذْكرهُ مختصرًا من حديث حُذيفة رضى الله عنه، وهو إمامُنا فى هذا العلمِ، وهو صاحبُ السِّرِّ، قال: إنَّ أَقَرَّ أيّامى لعَيْنىّ يومٌ أَرْجعُ إلى أهلى وهم يشْكُون الحاجةَ، والذى نفسُ حذيفةَ بيده لَسَمعْتَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ عزّ وجل ليتعاهد عبدَهُ المؤمنَ، كما يتعاهد الوالدُ ولدَه بالخَيْر. وإنّ اللهَ ليَحْمى عبدَهُ المؤمنَ من الدّنيا، كما يحمى المريضَ أهلُه مِنَ الطَّعام».

(١) العُرِم: يقصد الأماكن الصلبة الوعرة.

(٢) تلف بالأصل قدر كلمتين.

وقال فيه رافعُ بن خَديج عن رسولِ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ إذَا أحبَّ عبدًا حَماهُ الدّنيا كما يُحمى السقيمُ الماءَ».

ويُصَدِّق قولَ الصّادق ما سَلَفَ من سيرةِ اللهِ وسُنَّتِه التى قد خلَت فى أوليائه الصّادقين: أنَّ نبيًا من الأنبياء مرّ بساحِلِ بحرٍ، فإذا رجلٌ يصطادُ حيتانًا فقال: بِسم الله، فألقى شبكَتَهُ فلم يَخْرج فيها حُوتٌ واحدٌ. ثم مرَّ بآخرَ يقول: بسم الشيطان، فخرج فيها من الحيتانِ حتى جعلَ الرَّجُل يتقاعس من كَثْرتها. فقال النبىُّ عليه السّلام: ربِّ، هذَا الّذى دَعاكَ ولم يُشرِكْ بكَ شَيئًا ابتليْتَهُ، بأن لم تُخرج فى شبكتِه شيئًا، وهذا الذى دَعا غيرَكَ ابتليتَهُ، فخرجَ فى شبكته ما لا يُحصى من كَثْرته، وقد علِمْتُ أنَّ ذلك بيدك، فَأنَّى هذَا؟ فقال عزّ وجل: اكْشفُوا لِعبدِى عن مَنْزِلَتِهِما عِندى، فلمّا رأى ما أعدَّ اللهُ لهذا من الكرامةِ، وما أعدَّ لهذا من الهَوانِ، قال: رضيتُ يا ربِّ.

وكذلك رُوينا أنَّ موسى ﷺ ذكَر ما يَصنعُ اللهُ بالمؤمنِ من البلاءِ ويَزْوِى عنه من الدنيا، وما يصنعُ بالكافرِ ويُعطيه من الدّنيا. فأمرَ اللهُ عز وجل بجهنم تَجلَّى له عنها حتَّى نظرَ إليها، فقال: ما يَنْفَعُ الكافرَ ما كان فيه من الدُّنيا حين يكونَ إلى هذا مصيرُهُ. وأمَرَ بالجنَّة تَجَلَّى له عَنها حتى نظَر إليها، ثم قال: ما يضرُّ المؤمنَ ما كانَ فيه من الدُّنيا إذا كان إلى هذا مصيرُهُ.

مع الخبر الآخر: «التقى مَلَكان، فقال أحدُهما لصاحبه: إلى أينَ؟ فقال: أُمرْتُ بِسَوْقِ حوت اشْتَهاهُ فلانٌ الكافرُ، عُجِّل له شهوتُهُ فى الدُّنيا. وقال الآخر: أُمِرتُ بدَفْقِ زَيْتٍ اشْتهاهُ فلانٌ العابد، يُزْوَى عنه اليومَ، ويُعْطاهُ غدًا».

إلى الخبرِ الأعظم فى مُجمل الدّنيا: «إنّها تجىءُ يومَ القيامةِ فى صُورةٍ قَبيحةٍ فتقول: يا رَبِّ أنا الدنيا فاجعَلْنى لأدْنى أهلِ الجنة منزلةً. فيقول لها تعالى: أنتِ أقلُّ من ذَلك، أنتِ أحقرُ مِن ذلك، أنتِ وأهلُكِ إلى النار». ورُويناه بلفظٍ آخر: «ميِّزوا ما فيها لى، وألْقوا سائرها إلى النّار». قال فى كتابه: ﴿**وما عندَ الله خَيْرٌ وأبْقَى لِلّذينَ آمنُوا وعَلى ربِّهِم يتوكَّلُون**﴾ [الشورى:٣٦]. هو ما يُراد به وجهُه من

عِلْمٍ نافعٍ يَقينٍ، وعملٍ صالحٍ مستقيمٍ، ﴿والله خَيْرٌ وأبْقَى﴾ [طه: ٧٣]، ﴿والآخِرةُ خَيْرٌ وأبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، ﴿والبَاقياتُ الصَّالحَاتُ خَيْرٌ عندَ ربِّك﴾ [الكهف: ٤٦].
كما جاء مُفَسَّرًا بمعناه: «الدُّنيا مَلْعُونةٌ مَلْعُونٌ ما فيها، إلا ذِكرُ اللهِ وما والاهُ، وما آوَى إليه، أو عالمٌ أو متعلِّمٌ».

فأقلُّ ما يُفيدُ هذه الأخبارُ ـ من بعْدِ التفكُّرِ فيها والاعتبارِ لأولى الأيدى والأبصارِ ـ أن لا يحزنَ العبدُ بضيقِ ماله[١]، ولا يَغْتَمَّ على مُصابٍ منها أصابه، ولا يفرحَ ولا يعجبَ بما وُسِّع عليه فيها، بل يخافُ ويُشْفق من ذلك، ولا يُزرى على الفُقراء، ولا يحتَقِر المساكينَ، ويتمنَّى ويطلبُ منازلَ الزَّاهدين، هذا أولُ نصيبِ المؤمنِ من عِلْمِ اليقينِ، إن لم يُعْطَ درجاتِ الصَّادقين، ولم يُرفع إلى مقاماتِ الصِّدِّيقينَ، ولم يَتحقَّق بكَشْفِ عينِ اليَقين.

رُوينا عن مالكِ بنِ دينار عن أنسِ بنِ مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من أصبحَ حَزينًا على الدُّنيا أصبحَ ساخطًا على ربِّه. ومن أصبحَ يَشْكُو مُصيبةً نزلَتْ به فإنَّما يشكُو ربَّه. ومن تَضَعْضَعَ أو تواضعَ لغنيٍّ لينالَ من فَضْلِ ما فى يَدَيْه أحبطَ اللهُ ثُلُثَى عَمَلِه».

ورواهُ فرقدٌ السَّبَخى عن أنسٍ عن النبى ﷺ مُجملاً: «مِن أَصْبَحَ هَمُّهُ غيرَ اللهِ، فليس مِن اللهِ»، مُفَسَّرًا فى غيرِهِ: «همَّ آخرتِه لا دُنْياه».

ورواه يزيدُ بن أبان عن أنَس مَشْروحًا فى ذكر الدنيا، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ كانت نِيَّتُه طَلَبَ الدّنيا، شتَّتَ اللهُ عليه أمْرَهُ، وجعلَ فَقْرَهُ بين عينَيْه، ولم يُؤْتِه من الدُّنيا إلا ما كَتَبَ له. ومن كانت نِيَّتُه طَلَبَ الآخرةِ، جمعَ اللهُ شَمْلَهُ، وجَعَلَ غِنَاهُ فى قلبِه، وأَتَتْهُ الدُّنيا وهى رَاغِمة».

ورواه الرَّبِيعُ بن صَبِيح، فقال فيه: «من كانت الآخرةُ همَّهُ، جعل اللهُ غناه فى قَلْبِه» ثم ذكره، وقال: «من كانت الدنيا همَّهُ، فرَّق اللهُ شَمْلَه، وجعلَ فقرَه بين عينيهِ، ولم يَأْتِه من الدُّنيا إلا ما قُدِّر لَهُ». وزاد فيه الحسنُ عن أنسٍ قال: قال

(١) فى الأصل: «باله»، ولعل الصواب ما أثبت.

رسولُ الله ﷺ: «إنَّ العبدَ إذا كان همُّه الدّنيا وَسَدمُه[١]، أفْشَى اللهُ عليه ضَيْعَتَهُ، وجعل فقْرَهُ بين عينيه، ولا يُصْبحُ إلاّ فَقيرًا، ولا يُمسى إلا فَقيرًا. وإنَّ العبدَ إذا كانت الآخرةُ همَّه وسدَمَهُ، جمعَ اللهُ له ضَيْعَتَهُ، وجعلَ غِناهُ فى قَلْبِه، ولا يُصبح إلا غَنيًا ولا يُمسى إلا غَنيًا».

وفى حديث أبى موسى الأشعرى، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «من أحبَّ دُنياه أضرَّ بآخرته، ومن أحبَّ آخرتَهُ أضرّ بدُنياه، فآثروا ما يَبْقَى على ما يَفْنى». ورواه ابن مَسعودٍ فقال فيه: «من أراد الآخرةَ أضرَّ بدنياه، ومن أرادَ الدُّنيا أضرَّ بالآخرة».

فإذا كانت إرادةُ الدنيا تضرُّ بالآخرةِ، فكيفَ بالسَّعى لها والحرصِ عليها؟ وإذا كان إرادةُ الآخرةِ تضرُّ بالدنيا، فكيف بمن أحبَّ الآخرةَ وسعَى لها وعملَ فى أسبابِها، وحَرَصَ عليها، وأحبَّ أبناءها وأهلَها، وبذَلَ نَفْسَه ومالَه لأولياءِ اللهِ وأحبابِهِ فيها؟ أىُّ دُنيا تبقى له، وأى إضرار بدُنياه لا يضر بهِ؟ فتدبّره.

وفى حديث الحسن: «مرّ رسولُ الله ﷺ بمَزْبَلَةٍ، فقال: مَنْ سرَّهُ أن ينظرَ إلى الدُّنيا بحذَافيرِها، فلينظر إلى هذه المزبلة: «ثم قال: لو أن الدنيا تَعْدل عندَ الله جَناحَ ذبُابةٍ ما أَعْطَى منها كافرًا شيئًا». ثم ذكر الموتَ وغمَّهُ وكمدَهُ وعلَزه[٢]، فقال: «ثلاثمائة ضربةٍ بالسَّيف».

وكذلك فعل الحسنُ رضى الله عنه: أنّه مرّ على مَزْبَلَةٍ فاحتبسَ عندها، فكأنَّ أصحابَهُ تَأَذَّوْا بذلك، فقال: هذه دُنياكم التى تَحْرِصُون عليها. وكان بشرُ بن كَعْب رضى الله عنه يقول: انطلقُوا حتّى أُريكُم الدّنيا، فيذهب بهم إلى السُّوق، وهى مَزْبَلَة، فيقول: انظروا إلى ثمارِهم ودَجاجِهم وعَسَلِهم وسَمْنِهم. قال الحسنُ رحمه الله: قد رأيتُهم يُطيِّبونه بالأفاويهِ والطِّيبِ ثم يَرْمُونَ به حيثُ رأَيتُم.

وقد قَالَهُ رسولُ الله ﷺ للضّحاك بن سُفيان الكِلابى، وضربه مَثلاً، فقال:

---

(١) السَّدَم: هو الولوع بالشىء واللهج به.

(٢) العلَز: هَلَعٌ يُصيب المحتضر والمريض.

«ألستَ تُؤتَى بطعامكَ وشَرابِكَ قد صلُح وقُزِّح(١)، ثم تَشربُ عليه من اللّبَنِ والماء؟ قَال: بلَى. قال: فإلَى مَا يصيرُ؟ قال: إلى ما علمتَ يا رسولَ الله. قال رسولُ الله ﷺ: فإنَّ اللهَ ضربَ مَثَلَ الدّنيا لِما يصيرُ إليه طعامُ ابنِ آدم».

ورواه يحيى السَّعْدىُّ عن أُبَىٍّ بن كَعْب عن رسولِ الله ﷺ، قال: «إنَّ اللهَ ضربَ الدّنيا لَمطْعَمِ ابنِ آدم مَثَلاً، وضربَ مَطعَمَ ابنِ آدم للدّنيا مَثَلاً، وإن قَزَّحَهُ ومَلَّحَهُ، فانظر ما يَخرجُ مِن ابنِ آدم».

وقال رجلٌ لابن عُمر: إنّى أُريدُ أن أسألكَ عَن شَىءٍ، وإنّى أستَحْيِيكَ. قال: فلا تَستَحِى، سَلْ. قال: إذا قَضى أحدُنا حاجتَهُ، قام ينظرُ إلى ذلك منه. قال: نَعَم، إنّ المَلَكَ يقول: هذا ما بَخِلْتَ به انظُر إلى ما صار.

فهذه مشاهدةُ أُولى الألبابِ الذين فَهِمُوا عن اللهِ باطنَ الخطابِ، من قوله تعالى: ﴿وفى أنْفُسِكُمْ أفلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] قيل: مجارى الطعام والشَّراب إلى ما يؤُول، فيزهدون فى أوّله، إذ قد كُوشِفُوا بآخرِه، إنَّ فى ذلك لذِكْرى لِمَن كانَ لَه قَلْب.

ولذلك كان رسولُ الله ﷺ يقول ـ إذا عُوتِب عَلَى تَبَذُّله ونومه على الأرض ـ: «ما لى وللدّنيا، ما أنا والدّنيا، ما مَثَلِى ومَثَلُ الدّنيا إلا كراكبٍ سارَ فى يومٍ صائِفٍ، فاستظَلَّ تَحْتَ شَجرةٍ ساعةً مِن نهارٍ، ثم راحَ وتَركَهَا».

وقال الله تعالى، بمعنى السَّير إليه: ﴿يا أيُّها الإنسانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلى ربِّكَ كَدْحًا فمُلاقيه﴾ [الانشقاق: ٦].

وفى ألفاظِ أخبارٍ جمعناها من أواخرِ أحاديثَ عن جماعةٍ من الصّحابة: عتبة ابن عامر، وأبو سعيد الخُدرىّ، وعَمرو بن عوف، وغيرهم، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال فى خطبته، وقد شكَوْا إليه الفقْرَ والجوعَ والحاجةَ: «إنّى والله ما أخافُ عليكُم أن تشركوا بَعْدى، ولكنّى أخافُ عليكم ما يُخرجُ اللهُ لكم من زَهْرَةِ الدُّنيا. والله ما الفقْرُ أَخْشَى عليكم، ولكنّى أخشى عليكم أن تُبسَط الدّنيا عليكُم كما بُسِطَتْ

(١) قُزِّح: أى جُعل فيه التوابل.

على مَن كان قَبْلكُم، فتَنَافَسُوها كما تنافسُوها، فتُهْلِكَكُم كما أهْلكَتْهُم».

وفى حديث عبد الله بن يزيد، رضى الله عنه، قال: «فاستقبل ﷺ مطْلِعَ الشمسِ، ومدّ يَدَيْه، وقال: تَطَالَعت عَليكم الدّنيا ـ أى أقبلت ـ يَغْدُو أحدُكمُ فى حُلَّة، ويرُوح فى أُخْرى، وتَسْتُرون بُيوتكُم كما تُسْتَرُ الكَعْبَةُ».

وفى حديث أبى ذرٍّ: فقام أعرابى فقال: يا رسول الله، أهلكتنا الضَّبُعُ ـ يعنى: السَّنَة المجدبة ـ فقال: غيرُ ذَلكَ أَخْوفَنى عليكم، إذا صُبَّت عليكم الدنيا صبًا، فَيا لَيْتَ أُمَّتى لا يَتحلَّوْن الذّهَبَ»(١).

وفى حديث عمر رضى الله عنه: «جاء قوم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، خَرَجنا من بلادنا بها أموالُنا وديارُنا، وقَدِمْنا بلادًا لا دِيارَ لَنا بها ولا أَمْوالَ، وَاسَانا إخوانُنا الأَنْصار، فَلو دَعَوْتَ اللهَ لنا، فإنَّ منَّا لَمَن يمرُّ به اليَوْمان والليلة ما يذوق أكْلاً، فقال ﷺ: لن تزالُوا هكَذا ما دُمتُ بين أظْهرِكم، فإذا خرجتُ من بين أَظْهُرِكم حُطَّت عليكم الدّنيا كحِطاطِ الوَالدةِ على وَلَدِها، فالتزمْتُكُم والْتَزَمتُموها».

فلذلك كان عامرُ بن عبد القيس إذا عُوتب فى تقلُّله من الدّنيا، يُقال له: يا عامرُ، رَضِيتَ بالقَليل! فيقول: بل أنتم، واللهِ، رَضِيتُم بالقَلِيلِ.

وكان غيرُه يقول، إذا قيلَ له: أنت أَزْهَدُ النّاسِ، فقال: أنتم أزهدُ مِنّى. قيل: كيف؟ قال: أنا زهِدْتُ فى قليلٍ يَفْنى، وأنتم تَزْهَدُونَ فى كثيرٍ يبقى.

فهذا، لعمرى، زُهْد الموقنين بالآخرةِ الباقية، رضوا بالقليلِ البُلْغَة، واعتاضُوا منه الكثير، بَقيّةُ الله خيرٌ لَهم. وكذلك زُهْدُ أولى المعْقُول، رضُوا بالحياة الدّنيا، واطمأَنُّوا بها، وجعَلُوها عِوَضًا مّما آمَنُوا به من النَّعيم الذى ليس له انْقضاء، فبَنُوا البُنيان، وأحْكَمُوا المساكنَ، وجمعُوا الجُموعَ، كأنّهم فيها باقُون، وعنها لا يَرْحَلُون. وكان السّلفُ الصّالحُ يقولون: الزُّهدُ فى الدنيا مُريحٌ للقلبِ والبدنِ، والحِرْصُ على الدّنيا يُكثِرُ الهمَّ والحُزْنَ، ويكُدُّ القَلْبَ والبَدَن، فَطُوبى لمن وُفِّق،

(١) كان ثمت تلف فى مواضع من هذا الحديث أتممته من المسند ٥/ ٣٦٨.

وبُصرٍ بحُسْنِ الفطْنة والبَصَر، وويَلٌ لمن خُذلَ وفُتن برَونَق ما يراهُ به غُبن. وفى الخبرِ: «الدُّنيا دَارُ مَن لا دَارَ لَه، ومَالُ من لا مَال لَه، ولها يَجْمعُ من لا عَقْلَ لَهُ». وأنشدنى بعضُ الأشياخ لبَعْض التّاركين للدّنيا:

الدّنيـا لِمَنْ هى فى يَدَيْهِ عَـذَابًا كُلَّمـا كثُـرَت لَدَيْهِ
تُهِينُ المُكْرِمينَ لهـا بِرَغْمٍ وتُكْرِمُ كلَّ مَن هَانَتْ عَلَيْـه
إذا اسْتَغْنَيْتَ عَن شَىءٍ فدَعْه وخُـذْ مـا أنتَ مُحتاجٌ إلَيـه

وقد كان الحسنُ رضى الله عنه يقول: أهِينُوا الدُّنيا، فوالله لأهْنأ ما تكُونُ حين تُهِينها. وكان يحلف بالله: ما أعزَّ عبدٌ الدّنيا إلا أذلَّ دِينَه، وما أعزَّ دِينَهُ إلا هانَتْ عليه الدُّنيا. وبعضهم يقول: مَن أكْرمَ الدّنيا [اليومَ] أهانَتْه غدًا، ومن أهانها اليومَ أكْرَمَتْه غدًا. ويُعبِّرُ عن هذا بالنّفس أيضًا، فيقال: من هَانَتْ عليه نَفْسُه كَرُم عندَ اللهِ، وأكرَمَ دِينَهُ أيضًا. ومن أعزَّ نَفْسَه أذلَّ دِينَهُ، وهانَ عندَ الله أيضًا.

وقد كثُرت الأخبارُ فى هذا المعنى، وأُنْشِدْتُ فى مَعْناه:

مُكرِمُ الدُّنيا مُهـانٌ مُسْتَذَلٌّ فى القِيامَهْ
والذى هانَتْ علَيـه ، فَلَهُ ثَمَّ كَرامـهْ
كم كريمٌ بين قومٍ مَـــا لَهُ ثَمَّ كَرَامـهْ
وفَقيرٌ وحقيرٌ قد حَوَى تلكَ الكَرامَـهْ

وقال عمّارُ بن طَلْحة، وكان من العابدين، فى وصْفِ الدُّنيا:

أرَى الدّنيا تُعذِّب من هَوِيها وتُـورثُ قَلْبَــه نقَمًا وداءَ
فإنْ عادَيتَها نُجِّيتَ مِنْهـا وإنْ صَافَيْتَهـا تَلْقَى البلاءَ

وقد أُنشدناه على غير هذه القافية:

. . . . وتُورث قَلبَه همًا وتِيهـا
فإن عانَقْتَها تَلْقَى البَلايا وإنْ فَارقْتَها نُعِّمت فيها

وكان الحسنُ يقول: كان المتمسكُون من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، ومَن أخذَ

عنهم من التَّابعين، يكْرهونَ أن يتّخذُوا الأموالَ والعقارَ، لئلا يركنُوا إلى الدُّنيا. وكان ما جاءَهُم من رِزْقٍ أخذُوا الكَفَافَ منه، وقد [تركُوا الفَضْلَ][1] ليَوْمِ فَقْرِهم. ثم كانت حوَائجُهُم بعد ذلكَ فى دِينهم، ومَطْلَبُهم بَيْنهم وبين ربِّهم. وقال أبو قَبيل المعافرىُّ: نزل بأبى (. . .) أضْيافٌ، فألقى إليهم فِراشَهُ ولحافه، وقال: (. . .)[2] لنا دارٌ أُخْرى غير هذهِ، قد نقلنا حُرَّ متاعِنا إليها، وتركنا فى هذه الحاجَةَ.

فهذا، لعمرى، فعْلُ العارفينَ عن اللهِ قولَه تعالى: ﴿**إنَّما هَذه الحياةُ الدُّنيا مَتاعٌ وإنَّ الآخرةَ هى دَارُ القَرَار**﴾ [غافر:٣٩]. وهو عملُ مَن سَمِع منه قولَه: ﴿**اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لغَدٍ**﴾ [الحشر:١٨]، وفَهِم خِطابَهُ إذ يقول: ﴿**وتَزَوَّدُوا فإنَّ خيرَ الزّادِ التَّقوى**﴾ [البقرة:١٩٧]. فكان هذا شأنَ المتزوِّدِ لسَفَرِه المُرتحِل، وحالَ المُتَحوِّلِ من مَنزلِه المُنْتَقِل. وروى أن عمر رضى الله عنه كان يتمثل بهذا البيت:

حَلالُها حَسْرَةٌ يُفضى إلى نَدَمٍ وفى المحارِمِ منها السُّمُّ مَذْرُورُ

وبمعناه كان محمد بن معاويةَ يتمثل:

حَرامُكِ يا دُنْيا يقودُ إلى لظًى وذُو اللُّبِّ أيضًا مُشْفِقٌ من حَلالكِ

وكتب عمرُ بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عامله عدىّ بن أرطأة: أما بعد، فإنّ الدُّنيا عَدوَّةُ أولياء الله، وعدوّةُ أعدائه. فأمّا أولياءُ الله فغمَّتهم، وأما أعداءُ الله فغدَّتهم. فهذا كما قال بَعْضُهم فى وصْفِ حالِ العَبْد:

عِشْ مُعْسِرًا إن شِئتَ أو مُوسِرًا لا بُدَّ فى الدُّنيـا مِنَ الغَـمِّ
وكُلّمَـا زَادَكَ من نعْمَـةٍ زادَ الّـذى زادَكَ فـى الهَـمِّ

وكان الحسنُ رحمه اللهُ إذا تَلا هذه الآيَةَ: ﴿**فَلا تَغُرَّنَّكُم الحَياةُ الدُّنيا ولا يَغُرَّنَّكُم باللهِ الغَرُورُ**﴾ [فاطر:٥] قال: «مَنْ قالَ هذا؟ الذى خلَقها، وهو أعلمُ بها،

---

(١) اجتهادًا منى؛ لتلف الموضع.

(٢) تلف قدر كلمتين فى هذا الموضع والذى قبله.

فإيّاكم وما يَشْغَل من الدُّنيا عَن الآخرَة، فإنّ الدُّنيا كثيرةُ الأشغال، لا يفتح رَجُلٌ على نفسه بابَ شُغْلٍ إلا أوشك ذلك البابُ أن يَفْتحَ عليه عَشْرةَ أبواب».

وهذا كما قال، فَيسيرُ الدّنيا يقطع عن كثيرِ الآخرة، والتّفرُّغُ لقليلِها يشغلُ عن الشُّغلِ بكثيرِ الآخرة. وهى مُتشعِّبةٌ ذاتُ شُعَبٍ، يُتشعّب بصاحبِها فى أودية العطَب، فمثَلُها مَثَلُ رَجُلٍ وقَعَ فى دخلة شَوْك فعَلقَت بأثوابه، إن خلَّص كُمَّه عَلِق الشَّوكُ بذَيلِه، وإن خلّص ذيْلَه تَعلَّق الشَّوْكُ بصَدْرِه، وإن نَزَع من صدره دخل شوكٌ فى رِجْلِه، فأيسَ الخلاص من ذلك إلا الخروجَ من جميعِه؛ أن يخلعَ منها ثَوْبه، ويَبرُزَ إلى مَحجّةِ الطّريق، كما قال الحكيم:

* إنّ السَّلاَمَةَ فيها تَرك ما فيها *

وقال الآخرُ فى ضدِّه:

تَبْغى النَّجاةَ ولم تَقْصِد مَسالِكَها ... إنّ السَّفِينةَ لا تَجْرِى على اليَبَسِ

الزّاهِدُ فى الدُّنيا مَسْجُونٌ مُضيَّقٌ عليه مُطبَقٌ، وليس كلُّ مَن أرادَ وصَلَ إلى المَسْجُونِ، وكُلَّما كان السِّجْنُ أضيقَ عليه وأشدَّ كان الوصولُ إلى الزَّاهد أبعدَ وأشقَّ. فلذلك كان خيارُ أولياء[1] الله مَحجُوبين عن النّاسِ لا يصلُ إليهم أى إنسانٍ إلا من تَوَصَّل أو توسَّل على قَدْرِ تَضايُقِ السُّجون. معناه رسَمْتُه حفْظًا، وذلكَ موجودٌ فى الخبر: «الدُّنيا سِجْنُ المؤمنِ وَسَنَتُه، فإذا فارقَ الدُّنيا فارَقَ السِّجْنَ» والسَّنة: الجدْب والمجاعة. رواه ابن عمرو، وزاد فيه: «الدنيا جَنّةُ الكافرِ، وسجنُ المؤْمنِ. ومَثَلُ المؤمنِ حين تخرُجُ نفسه كمثَلِ رجُلٍ كانَ فى سِجْنٍ فأُخْرِجَ منه، فجعل يتقلَّبُ فى الأرْضِ، ويسيحُ فيها». وهذا مشهودٌ من عُمومِ الخبرِ فى الجنازة التى مُرَّ بها على رسولِ الله ﷺ، فقال: «عبدُ الله دُعى فأجابَ، مُسْتَرِيحٌ ومُستراح منه. قيل: ما ذاك؟ قال: عبدُ الله المؤمنُ استراحَ من الدُّنيا وهُمومها ونَصَبِها وأحْزَانِها، وأَفْضَى إلى رَحْمةِ الله. وعبدُ الله الرّجلُ السّوءُ يَسْتَرِيحُ منه العبادُ والبلادُ والشجرُ والدّوابُّ».

(١) فى الإتحاف ٩/ ٣٨١: «ولذلك صار أولياء».

وبمعناه قال السّلفُ: مثَلُ المؤمنِ حين يخرجُ من الدُّنيا مَثَلُ الجنينِ إذا خَرَجَ من بطْنِ أمّه، يخرج من ضيقٍ وكَرْب وغَمٍّ إلى سَعَةٍ ورَوْحٍ وتفسُّحٍ، يتقلّبُ كيفَ شاءَ. وقد رُئى جماعةٌ من التّابعين والصّحابة بعد موْتهم؛ منهم: عمرُ بن الخطاب، رضى الله عنه، ومنهم: داودُ الطائى، وغيرهما. فسُئلوا عن حالهم، فقالوا: ما استَرحْنا إلا الآن، خرَجْنا من غَمِّ الدُّنيا وحَزنها إلى رَوْحِ الآخرةِ ونَعيمها.

وقد كان من دعاءِ الرَّسُولِ ﷺ: «أسألكَ الرّاحةَ بعْدَ الموتِ، والعَفْوَ عندَ الحِسابِ».

ومن أول غمٍّ الدنيا على المولودِ بكاؤُه ساعةَ يُولَد، فهو دَليلٌ على حُزْنه، وإن كان قد صارَ فيما هُو أوسعُ عليه وأَرْوَحُ، ولكن ذلك من نكدِ الدّنيا، كما قال:

لما يُؤذِنُ الدّنيا بنا مِن غُمُومها ... يكون بُكاءُ الطّفلِ ساعةَ يُولَدُ
وإلا فما يُبكيه مِنها وإنّها ... لأوْسَعُ مِمَّا كـانَ فيه وأَرْغَـدُ

وكان الفضْلُ رضى الله عنه يمثِّل حالَ المؤمنِ فى الدّنيا معَ اللهِ بالطِّفْل مع أمّه يقول: إنّ اللهَ تعالى يحمى عبدَه المؤمن الدّنيا، ويَزْويها عنه، ويعلّله عنها، ويمرِّرُها عليه، مرّةً بالجوع، ومرّة بالعُرى، ومرّة بالحاجة والغَمِّ، ومرّة بالكُروب والأَذى، كما تصنع الوالدةُ الشفيقةُ بِولدها؛ تعلِّله، مرَّة تَسقِيه صَبْرًا، ومرّةً حُظَظًا، ومرّة تُجرِّعه ألوانَ الأشربةِ والأغذية، وهو يَبكى، تُريد بذلك ما هو خير له من حيث لا يعلم. معناهُ نقلتُه حفظًا. وفى الرواية: «حُضَض» بالضاد، وصوابه بالظاء المعجمة، ذَكَرَهُ لى الذّهبى[١] عن أصحاب الأصمعى.

وكذلك قال المسيح ابن مريم عليه السلام: «معشرَ الحواريّين، كُلُوا خبزَ الشَّعير، ونباتَ الأرضِ، والماءَ القُرَاحَ، فإنّكم لا تقُومُون بشُكْرِه. واعلموا أنّ حلاوةَ الدنيا مرارةُ الآخرةِ، وأن مرارةَ الدنيا حلاوةُ الآخرة». وكذلك رُويناه عن الله سبحانه، أنّه أَوحى إلى الدّنيا: «تمررّى لأَوليائى؛ حتّى تكونَ رغبتُهم فيما

---

(١) حظظًا: دواء مرًا.

عندى، واحلَوْلى لأعدائى؛ حتى يَرْضَوْا بك بدلاً منّى». وهذا مفهومٌ من قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيكُمْ يا بَنِى آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾ [يس: ٦٠]، العبادة: الطّاعة والاستجابة. ثم قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيَّته أَوْلياءَ مِنْ دُونى وهُمْ لكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ للظَّالمينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠].

كان بعضُ السّلف يقول: كفَى به ذنبًا أنّ اللهَ تعالى يُزَهِّدُنا فى الدُّنيا ونحن نرغبُ فيها. والآخرُ يقولُ: كفَى من الذُّنُوب التى لا نستغفر منها ولا نتوبُ حبُّنا للدنيا [ولأسبابها]. والأكثرُ يقولون: خيرًا مِنَ الدّنيا ما لا يُبتلى به، وخيرُ ما ابْتُليتم به منها ما خرَجَ من أيديكم. فكذلك الأَمْرُ، فإنّ الورعَ أن لا يكتسب الشُّبهةَ ليُنفقها فى الطاعة. فإنّ اجتنابَ الشُّبهاتِ أدْنى إلى الورَعِ والزُّهد، وأَفْضَلُ فِى القُربةِ مِن اكْتِسابها وإنفاقها فى الطاعات، فكيف إذا أنفقتَ الشُّبهاتِ فى الشَّهوات، ذلك هو الخُسْرانُ المُبين. فإنّ الأجودَ لِمَن اكْتسبَ مالاً، أو لمالٍ قد كان جَمَعَهُ، إخراجُه فى (. . .) ليجمع إمساكه ومنعه. وقد كان إبراهيم [بن أدهم] إذا ذُكر السَّلف من الصّحابةِ يقولُ: [كثيرٌ منهم قد] أقبلت عليهم الدُّنيا فهربُوا مِنها [وأدبروا عنها][1].

وقال عمر رضى الله عنه ـ من قَبْله ـ لما أُتى بمالٍ [كثير من البحرين أُلقى] بين يديه صُبرًا وكُومًا، ونظر إلى [الصفراء والثّوب ثم بكى]. قيل له: تبكى وتنتحب؟ فقيل له: هذا يومُ فَرَحٍ [وقد وسّع اللهُ فيه،] والله ما وُجدَ هذا فى قومٍ وتطلَّبه قومٌ إلا كَثُرت بينهم العداوةُ والبَغْضاءُ، واقْتَتلوا عليه بالسَّيف. ثم قال: اللهُمَّ إنّى قد عَلمْتُ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يُحبُّ أنْ يُصيبَ مالاً فينفقَه فى سَبيلك، وعلى عبادك، فزَوَيْتَ عنه ذلك نَظَرًا منك له واختْيارًا، اللهُمْ إنِّى أعوذُ بك أن يكون هذا مكْرًا منكَ بعُمر، ثم تلا قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُم به من مَالٍ وبَنينَ * نُسارِعُ لَهُم فى الخَيْراتِ بل لا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦].

أَلاَ ترى أَنَّ صَرْفَ ذلك على الزُّهدِ فيه كان أَحَبَّ إلى الله وأزلفَ عنده من

(١) هذه عدّة مواضع تالفة، بعضها اجتهدت فيها ووضعتها بين معكوفتين.

توجيهه مع إنفاقه فى طاعته؟

وكذلك قال سَلْمان لصاحبه لمّا نظَر إلى أكْداسِ الطّعام على شطٍّ دِجلةَ، فسُرَّ بذلك وأعْجبهُ، قال له سَلْمان: لا يَعْجبَنَّك هذا، فإنّ إلى جَنْب كل حبَّة منه حسابٌ. ألم يكن هذا فى خَزائنِ الله ومحمَّدٌ ﷺ حىٌّ يتلوَّى مِن الجُوعِ، لا يجدُ ما يملأ بطْنَه هو وأهْلَ بيته، يُصبحُون ويُمْسونَ ما لهم غَداء ولا عَشاء؟! أو كما قال. فقُلْتُ: بلَى قَدْ كانَ هُو فى خزائن الله. قال: فإنا قد ابْتُلينا به، أو فُتحتْ علينا الدّنيا. ولعَمْرِى لقد حَقَّق اللهُ لرسولِه فى الدّنيا سُؤْلَه، وأعْطاهُ عِوَضًا مِنها من الآخرةِ مأمُولَهُ.

ورُوينا فى حديث عن أبى أمامة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عَرَضَ عَلَيّ ربى عز وجل أن يجعل لى بطحاء مكةَ ذَهبًا. فقلتُ: لا يا ربّ، ولكنّى أشبعُ يومًا، وأجوعُ ثلاثًا، فإذا جُعتُ تَضرَّعْتُ إليك وذَكَرْتُك، وإذا شَبعْتُ حَمدتُك وشكرْتُكَ». فتدبر قوله؛ إذ جَعل الجوعَ سببَ تضرُّعه وذكْرِه، فهو أفضلُ من الشِّبع لحمدِه وشكْرِه، لقول الذّاكرِ الأكبرِ: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وفى الخبر الآخر: «بعَثَ اللهُ تعالى إلى النّبىّ ﷺ رسولاً: إنِّى أُعطيكَ من الدّنيا ما لم أُعطِ أَحَدًا قَبْلَك، ولا أُعطيه أحدًا بعدكَ، لا ينقُصُ ذلك ممّا لَك عندى شَيْئًا. قال: لا، بل تَجْمَعُها لى فى الآخِرَةِ».

فتفكّر ذلك، إنّ رضا الجامعِ المانعِ ومَحبّتَه فيما منعَ اليومَ وجَمْعَه غدًا، فَلذلك قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] أى مِن الآخرةِ، لمّا بلَغ رِضاه فى الزُّهد فى الدّنيا. وقال فى حُسْنِ اختيارِه له تَعْويضًا بما هو خيرٌ له، إذ اختار ما يحبّ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠]. وقال رسولُ الله ﷺ: «مَوْضِعُ سَوْطٍ فى الجَنّةِ خيرٌ من الدُّنيا وما فِيها». وقال عليه الصلاة والسلام: «شِبْرٌ فى الجنةِ خيرٌ من الدّنيا وما فيها». وقال عليه الصلاة والسلام: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كجلد أَرنب». وقال: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يَغْمِس أحدُكُم إصْبَعَهُ فى اليَمِّ،

فلْيَنْظُر بما يَرجِعُ إليه». وقال اللهُ أجودُ الأجْودين: ﴿إنَّا أعْطَيْناكَ الكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] فهو الخيرُ الكثيرُ الكبيرُ. والكوثر: الذى لا يُحْصَر له عَدَدٌ، ولا يفنيه دَهْرٌ، ولا يُوصف كثرة ولا خطر . . .(١)

وفيما رُويناهُ من كلامِ الحَسَنِ فى حال الزّاهدِ ووصْفِ المؤمنِ، قال أبو عبيدة، وقد سمع الحسن، رحمه الله، يقول: إنّ المُؤمنَ عَمِلَ لله تعالى أيَّامًا يَسيرةً، فَوالله ما ندم أن يكون أصابَ من نعيمها ورَخائها، ولكن راقَت الدُّنيا له فاستهانها وهَضمها لآخرته، وتَزَوَّدَ منها فَلَمْ تكُن الدُّنيا فى نفسه بدَارٍ، ولم يرغب فى نعيمها، ولم يَفْرحْ برخَائها، ولم يتعاظَم فى نفسه شىءٌ من البلاءِ إن نَزل بهِ مع احتسابهِ للأجْرِ عند الله، ولم يَحْتَسب نوالَ الدّنيا حتى مضَى راغِبًا راهبًا، فهنيئًا هنيئًا؛ فأَمَّنَ اللهُ بِذلكَ رَوْعَتَه، وسَتَرَ عَوْرَتَه، ويَسَّر حسابَه(٢).

وقال فى مَوَاعظِه: امرؤٌ كَسَب طَيِّبًا، وأنْفَق قصدًا، وقدَّم فَضْلاً ليوم فَقْره وفاقته، وجِّهوا هذه الفضولَ حيث وجَّهها اللهُ، وضَعُوها مَوَاضعَها، فإنّ الذين كانوا من قَبلكم كانوا يأخذُون من الدّنيا بَلاغًا، ويبتاعُون بالفَضْلِ أنفسَهم من اللهِ تعالى.

وقال الحسن رضى الله عنه(٣): أقوام كانت الدنيا عندهم وديعةً، فأدَّوْها إلى مَنِ ائْتَمَنَهُم عَلَيها، ثُمَّ راحُوا خفافًا. إنَّ الدُّنيا دارُ عملٍ، مَن صَحبها بالبُغْض لها والزّهد فيها سَعد بها، ونفعَتْهُ صُحبَتُها. ومَن صحبِها بالرَّغبة فيها والمحبةِ لها، شَقِى بها وأَجْحَفَتْ بحَظِّه من الله، ثم أسْلَمَتْهُ إلى ما لا صَبْرَ له عليه، ولا طاقَةَ لَه به من عذابِ الله. فأمْرُها متغيِّر، ومتاعُها قليلٌ، والفَناءُ عليها مكتوب. إنَّ المؤمنَ عبدٌ كيِّسٌ أَبْصَرَ فتفكَّرَ واعتَبر، عمَدَ إلى الدّنيا فَهدَمَها، فبَنَى بها آخرتَهُ، ولم يهدم آخرتَه لدُنياه.

---

(١) طمس بالأصل قدر نصف سطر.

(٢) كلام الحسن البصرى طمس أكثره فى المخطوط، وأثبت المطموس من الحلية ٢/ ١٤٦، والخبر فيه بسنده ونصه.

(٣) الحلية ٢/ ١٤٠.

ثم قال: الدُّنيا قد آذنت بالزّوال، لَعَّابةٌ بأَهْلها على كلِّ حال، فارْفُضِ الدّنيا، وسمِّح عنها نفسك، وقدِّم الفَضْل، صاحِبْها بجَسدك، وفارِقْها بقَلْبك وهمِّك [ولتعتبر بما](١) ما قد رأيتَ ممّا سلف بين يديْك ممَّن خلا من أهلها، وليَزِدْكَ إعجابُ أهلها بها كراهيةً لها، وقِلّةَ طُمأنينةٍ فيها، حَذرًا منها وفَرارًا، فإنّ الصّالحين كذلك كانوا.

ثم قال: إنّ المؤمنَ فى الدّنيا كالغَريب، لا يجزع من ذُلِّها، ولا يُنافِسُ فى عزّها، لأَهْلها حالٌ، وله حَالٌ أُخْرى قد أَهَمَّتْهُ، النّاسُ منه فى راحةٍ، وهم مِنه فى شُغْلٍ.

فاعْلَم يقينًا أنَّ أصْحابَ رسولِ الله ﷺ كلَّهم كانوا فاضِلين، وكان أفضلُهم أزهدَهم فى الدّنيا مع [ما لهم] فى الصحبةِ والسابقة، أَلَم تسمع إلى الخبرِ المشهور من حديث جُبَير بن نُفَير عن عَوفِ بن مالك: «أنه أُرِىَ الجنةَ فى المنام، فذكَر منها سَرْجًا أخْضَر فيه قُبّة، وَصفَهَا، قال: فقلتُ: لِمَنْ هذه القبّةُ؟ قال: قيل لى: لعبد الرّحمن بن عوف. قال: فانتَظَرْتُهُ حتى خرجَ، فقال: يا عوفُ هذا الّذى أعطانا اللهُ فى القرآن، ولو أَشْرَفْتَ على هذه القبة لَرأيتَ ما لم تر عينُكَ، ولم تَسْمعْ أذُنُكَ، ولم يَخطُر على قلبِك مثلُه، أعدَّهُ اللهُ لأبى الدَّرْداء، لأنّه كان يدفَعُ الدّنيا بالرَّاحَتَيْن والنَّحْر.

وكذلك كانت الصحابة تَقول للتّابعينَ إذا رأَوْا اجْتهادَهم وكثرةَ أعمالِهم: أنتم أكثرُ أعمالاً وأشدُّ اجْتهادًا، وهم كانُوا خيرًا منكم. قالوا: بِمَ ذلك؟ قال: كانوا أزهدَ فى الدّنيا منكم. وكان الصحابةُ يقولون: تابَعْنا الأعمالَ بعضَها على إثْر بَعْض، فلم نرَ أبلغَ فى طَلَبِ الآخرةِ من زَهادَةٍ فى الدّنيا. وقد رُوِينا معناه مُسندًا: «ما عُبِدَ اللهُ بعبادةٍ أفضلَ ـ أو قال: أحبَّ إليه ـ من الزُّهد فِى الدنيا».

وكذلك كان أوّلُ هذه الأمّة من الصَّحابة أشدَّ زُهدًا، وبه كانُوا أفضل، ثم فَضَل بعدَهُم التّابِعُون لهم بإحسانٍ؛ لأنّهم كانُوا أحسنَ عَملاً بالزّهدِ فى الدّنيا،

---

(١) موضعها تالف، فأتممتها اجتهادًا. وكذلك الموضع التالى.

وهم أوْسَطُ الأمةِ، والقرْنُ الثّانى، ثمّ كثُر الرّاغِبونَ بعد التّابعين، منهم الزاهدون، وهم آخرُ الأمّةِ إلى وقتنا هذا.

وهذا من الخبر الذى رُويناهُ عن سُفْيان عن عوف عن سعد بن أبى الحسن، رَفَعَهُ، قال: «قال رجلٌ: يا رسولَ الله، رأيتُ فى مَنامى [أكْوَامًا من] ذَهبٍ مرّ عليه قومٌ يسيرٌ، فسلكوا فى [جَنَبَيها ولم] يَعْرِضُوا له، ثم جازُوا ولم يَعْرِضوا له، ثم جاء بعدَهم قومٌ أكثرَ منهم، فمنهم مَن أخذَ ومنهم من ترَك. ثمَّ جاء بَعْدَهم قومٌ أكثرَ منهم، فلمّا رأوه ابتدرُوه [فما ترَكُوا منه](١) شيئًا، ثم استَيْقظتُ. فقال رسول الله ﷺ: «أُريتَ مَثَلَ أُمّتى فى الدّنيا، أولَّها وأوْسطها وآخرَها».

فخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ ضَيَّعُوا سنّةَ السَّلفِ، واتَّبَعُوا شهوةَ النَّفْسِ.

وقد ذكر إبراهيمُ الخوّاص محدّثى الزّمان بتَمْويهِهِم فى الزُّهد على الرّاغبين، فقال: وقوم ادَّعُوا الزُّهدَ، ولبسوا الفاخرَ من اللّباسِ، يُموِّهون ذلك على النّاس، ليُهدَى إليهم مثلُ لباسِهم، ولئلا يُنظَرَ إليهم بالعينِ التى يُنظر بها إلى الفقراء، فيُحْتَقَرُون، فيُعْطَوْا كما يُعْطَى المساكين، ويحتجّونَ لأنفسهم باتّباع العِلْم، وأنّهم على السُّنَّة، وأنَّ الأشياء داخلة عليهم، وهم خارجونَ منها، وإنّما يأخذون بعلَّةِ غيرهم، هذا إذا طُولبوا بالحقائق، وأُلْجِئُوا إلى المضايق. وكلُّ هؤلاءِ أكَلَةُ الدّنيا بالدين، لم يُعْنَوْا بتَصْفيةِ أسرارهم ولا بتهذيبِ أخلاقِ نُفوسهم، فظهرتْ عليهم صِفاتُهم فغَلَبَتْهم، فادَّعَوها حالاً لهم، مائلون إلى الدنيا، متَّبِعُون لِلْهَوى(٢).

وكان الخواصُ رحمه الله لا يلبس أكْثرَ من قطعتين مِئزَرَيْنِ، أو قميص ومئزر تحته، ويعطف ذيل قميصه على رأسه، أو يَحُلُّهُ من وسطِهِ فيُغطِّى به رأسَه. وكذلك يُستَحبُّ للفَقير، وهو حدُّ اللباس من الحاجةِ.

وقد كان يحيى بنُ معاذ الرّازى يصفُ الزّاهدين من العارفين ـ لعَمرى ـ والمتحقِّقينَ بالحالِ، والمسْتَحقِّين لاسْمِ الزُّهدِ ومعناه، فى نُتَفِ من كلامه نذكرها،

(١) ما بين المعكفات اجتهاد منى؛ لتلف فى الأصل.

(٢) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٧٢.

هى من أحوالِ أهلِ المعْرفةِ، زادُوا بِها على مقامِ الزّاهدين المُوقنين. فكان يقول فى وَصْفِهم: الزّهدُ مع الغِنى أفضلُ من الزُّهدِ مع الفَقْر، يَزهدُ الرجُلُ وفى قَصْرِه أمثالُ التّصاويرِ من النّساءِ، لو نظرَ الزّاهدُ الفقيرُ إلى وَصِيفةٍ منهنّ غُشِى عليه.

وقد كان مالك بن دينار، أيضًا من قَبْله، يقول بمعناه: الناسُ يقولون: مالكٌ زاهدٌ، إنّما الزّاهد مثلُ عمرَ بن عبدِ العزيز، زَهِد فى الدّنيا مع الملك لَها والقدرةِ عليها.

وقال يحيى: إذا زَهِدَ حُجب عن العامّة، وإذا عَرَف حُجِب عن الزهّاد. وقال: إذا حُجِب العارفُ لعِزّته اصْطِيد، وبالطُّعْمةِ يُدْعَى إلى طعامٍ فيُجيب، فيظفرون به بذلك. وكذلك اصْطِيد أبوه آدم بالطُّعمة مِن الشّجرة.

وكان يقول: لا يُمكن للعابدِ والزّاهد أن يستترا عن الخلْق. والعارفُ مستورٌ كأنّه رجلٌ من النّاس، وهو أفضلُ مَن تَحمِلُهُ الأرضُ، لا يعرفُه إلا مِثلُه، ولا يَصْبِر على مُعاشَرته إلا شكْلُه.

وقال: حبُّك للدُّنيا حبُّ بلاء، وحُبّك للآخرةِ حُبُّ بلْوى. ومن رضى باختياره دَامَ فَرحُهُ؛ لأنّ العارِفَ من أخذَ الآخرةَ بيمينِه، والدّنيا بشماله، وأقبلَ على الله بقَلْبه، لا يُلْهِيه عنه شىء، وما دام يخاف مِن وُقُوع الدُّنيا عليه فإنّه لم يصل بعد[1].

وقعد إليه مرّة رجلٌ من الزُّهاد، فجعل يحدّثُه الزّاهدُ بأحاديث فى فضْلِ القلّة والفَقْر، ويحيى ينظر فى وجهه كالمتعجِّب، فلمّا قام، قال: لو لم يُعَلِّلُوا المساكينَ بمثل هذه الأحاديثِ لتفقأت مَرَاراتُهم من الغمِّ، وكانوا لا يَصْبرون على الفقر، هيهاتَ لم يتقدّم القومُ عند اللهِ بفَقْرٍ ولا غنًى، ولكن بالعلم والمعرفة.

قيل له: فما عبادةُ العارفِ؟ قال: أمرهم مع الله إلى القلوب. الدّنيا دارُ سيرٍ إلى اللهِ تعالى، فإن لم يسر بأعمال جوارحه فهو سائرٌ بقلبه، خطوُ القَدم ذراع،

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣، ٣٨١.

وخطوُ القلبِ ألف فرسخ(١).

قال: دميت قلوبُ القوم حتى لا نالوا (. . .) قيل: أفليس لهم رحمة؟ قال: هم أرحم الخلق، ولكنهم شُغلوا بالله ما شغلهم عن صنعته، ومَن خَلْق لله (. . .).

وقال: كيف يُحبُّه العلماءُ الخَوَنَةُ المحبُّون للدنيا، وعقولُهُم لم تَجْمَع الزّهد فى الدنيا؟ وإنّما يصل إلى حبِّه مَن قد خَرَقَ سُتُورَ الآخرة إليه، فكيف الدنيا؟! سلُوا هؤلاء عن الأحكام والرّوايات ودعوهم مما لا يعلمون، فإنّ التماسَكَ العطْرَ فى حوانيتِ الصّيادلةِ جهْل، إنما هو الشُّغْلُ بالله عن الدنيا والآخرةِ معًا.

وقال: طلَبُوا العُبُوديّةَ فى الزُّهدِ فلم يجدُوها. الزّاهدُ ألجّ مَن يُرى، يثبتُ على تركِ الشىء أربعين سنةً، ولكنّه كلما كان ألجّ كان أصدق بما لم يُوافق نفسُه مولاه فى الأخذِ، فلا سبيل له إليه إلا بالتّرك حتّى يترك أخلاقَ العبيدِ الكزَّةِ الصّعبة، ويتخلّق معه بأخلاق الأحرارِ، أَخلاقٍ سماويَّةٍ من الحبِّ والموافقةِ والرّضا والمعرفة. فإنّه لا يُوجد صِدقُ العبودية إلا فى منازلِ المحبّة والمعرفة.

وكان يفسِّر قولَ المسيح ﷺ: «يا عبيدَ الدنيا؛ لا أنتم عبيدٌ أتقياء» قال: يعنى الزُّهاد، «ولا أحرارٌ أقْوياء» قال: يعنى العارفين.

وقال: كلُّ من وافَق نفسَه فى أخذِ الدّنيا والتنعُّم بها، لم يجعل له السبيلَ إلى نفسه إلا بالتركِ لها، وبالجهْدِ والتَّعذيبِ لنفسه فيها، حتى تنقاد له نفسه، وتوافق مولاها.

وقال: خُض بِحارَ المعرفة إليه، لتستهين جُهْدَ الزُّهدِ والعبادةِ فى جَنْب ما تُدفع إليه، مما لا قِوامَ للعقلِ عليه، من البَهاء مع العبادةِ، والكِفايةِ مع الزُّهدِ، والبَصيرةِ مع العلم، والجوائز السَّنيَّة مع المعرفة.

وحكَى مرّةً، فقال: الْتَقَى أحمدُ بن حرب، وابنُ خَضْرويه(٢)، وأبو حامدٍ،

(١) كان ثمة تلف فى هذا الخبر بالأصل أتممته من الإتحاف ٩/٣٨١، ولم أهتد إلى بقية المواضع الأخرى.

(٢) ترجمته فى: طبقات الصوفية، ص١٠٣.

فقالوا لأحمد بن حرب: إن جاءتك الدّنيا فما أنت صانعٌ بها؟ قال: كنت أُرْضِي بها خُصمائى لئلا تلحقنى تَبِعَةٌ يومَ القيامة.

قالوا لأحمد بن خَضْرَويه. فما كنت صانعًا بالدّنيا لو جُعِلَت لَك؟ قال: كنتُ أَجْعَلُها كلّها لقمةً، وأضعها فى فم مُؤمنٍ، فاستريح منها.

قالوا لأبى حامد: فما كنتَ تَصنَع بها أنت؟ قال: كنتُ أجعلها لطُلاَّب الآخرةِ، لئلا يحتاجون إلى طلاب الدّار، فأحوزَ ثوابَ ذلك.

فقال يحيى: أمّا ابنُ حَرْب، فأنطقه لسانُ العُصَاة، ودرجتُه درجةُ التوَّابين. وأمّا ابنُ خَضْرَويه، فأنطقه لسانُ المحبّة، ودرجتُهُ درجةُ المشتاقين. وأمّا أبو حامد، فأنطقه لسانُ الشَّفَقَةِ، ودرجته درجةُ الزّاهدين.

قيل ليحيى بعد ذلك: ما كنتَ أنتَ صانعًا بها؟ قال: وما حُكْمُ العبدِ فى مالِ سيِّده، أنتظرُ قَضاءَهُ فيها فأصرِفُها فيه، فهو أعرفُ بالتَّدْبير[(١)].

وكان يقول: الزّاهدُ عيشُه إلى يوم واحد، والعارف أسقط الأملَ أصلاً؛ لأنَّ حياتَهُ بيدِ غيره. وقال: الزاهد يُسْعِطُك الخلَّ والخردل، والعارفُ ينثرُ عليكَ المسْكَ والعنبر.

وقال: مَن صَدَقَ فى التَّرك عُذِر فى الأَخْذ. يعنى: الدُّنيا.

وقال: الصُّوفُ لباسُ العجَمِ من المتزَهِّدينَ، ما رأيتُه على أحدٍ استَبْرعَ عقله.

وقال: نفورُ العارفين من الزّاهدينَ أكثرُ من نُفورِ الزَّاهِدينَ من الرّاغبين.

وكان يقول: الدُّنيا كلها لا تَعْدل عند ربِّها جَنَاحَ بَعُوضة، فكم مقدار ما تركتَ منها يَنْبَغى لك أن تَضعها على طبَق، وتقولُ: ما صنعتُ شيئًا؛ لأنَّه لو عَرَفَ قدْرَ المزْهُودِ من المعرفةِ لم يذكر الزُّهدَ.

وقال: ترى الزّاهدَ إذا دخَلَ فى الزُّهدِ جوَّع نفسه، وباع شيأه كلَّه مِن الخوفِ من الدنيا لا يشكُّ، حتى إذا قَوِىَ يقينُهُ، ورأى الأمرَ كائنًا وجودُهُ بغيرِ الأسبابِ،

(١) الخبر برمته فى: الإتحاف ٩/ ٣٨١ ـ ٣٨٢.

عَرَف من بَعْد، ونَدِمَ على كثير ممّا كان باعَ من كُتُبٍ أو متاعٍ.

وقال: الزّاهِدُ كلُّه غُصْنٌ من أغصَان شجرة المعرفةِ.

وقال: إنّما يتركون ويحزنون ليفرح، ويأخُذون ويفرحون ليفرح، فما عليهم تركُوا أو أخَذُوا، أو حزِنوا أو فرِحُوا، إذ كان فرحُه موجودًا لهم فى الحالتَيْن. فقيل له: هو يَفْرح؟ قال: نعم، أليس فى الخبرِ: «للهُ أفرحُ بتوبةِ عبدِهِ مِن رجُلٍ أضلَّ بعيرَه»؟ الحديث(١).

وقال: يا زاهد، إن كنتَ تعجبُ ممَّن تركَ الجنَّةَ فى جَنْب دُنياه، فالعارفُ أشَدُّ تعَجُبًا حينَ شَغَلتْكَ الجنَّةُ عن خالقِها، وكلُّ حالةٍ تَفخرُ بها فى سَيْرِكَ إليه إلا كسَرَها عليكَ الوصولُ؛ ليكونَ فَخرُكَ بهِ لا بغيره.

وجملةُ الأمر أنّ ابنَ معاذٍ لم يكن يتكلَّمُ بلسانِ الزُّهدِ، ولم يكُن عملُهُ يَصْلُح للمُريدينَ ولا للسَّالكينَ؛ لأنه لم يكُن من علماءِ الطّريقِ. وقد هَلَكَ بمِثْلِ هذا فريقٌ توهَّمُوا مقَامَ المعْرِفةِ، وتَظَنَّنُوا(٢) حالَ العارفِ، حتَّى فاتهم بذلك مقامُ الزُّهْدِ، ولم يُدْرِكُوا حالَ العارفِينَ.

فأولَى الأشياءِ بالعاقلِ مُراعاتُهُ لِمَا هو حاصلٌ، ومعرفتُهُ بقَدْرِ حالِهِ، وإعمالُه نَفْسَهُ فى سدِّ اختلالِه.

واعلَم أنّه ليس شىءٌ يَستَبِينُ به نُقصَانُ مَرْتَبةِ العبدِ، ولا يُغيِّر قَلْبُه حقيقةَ النُّقصَانِ والتغيير بعد حُبِّ رُكوبِ المعاصى [إلا] حبُّ الدّنيا، وشدَّةُ الحرصِ عليها، ودَوامُ الطَّلبِ لها، فإنّها معيارٌ راجحٌ على القَلْبِ بالنقْصِ البيِّن فى كلِّ المقامَات. وقد تدخُل بعضُ المعاصى على العبدِ ولا ينقُصُ بِها، وقد يَفْتَر عن جميعِ الطاعات، ولا يَسْقُطُ بها عن مقامه، إذا لم يُخْرِجْهُ ذلك من حالِ الزُّهد. فإن أُشْرِبَ قَلْبَه حُبَّ الدُّنيا حتَّى استَهْوَتْه نَقَص هنا كلُّ حالٍ، وكلُّ المَقامات. فلذلك كان حبُّ الدنيا رأسَ كل ضلالة، وأَصْلَ كل خَطيّة. وصارَت الدُّنيا أُمَّ

---

(١) هذه الأخبار معظمها فى الإتحاف ٩/ ٣٨٢، وأتممت التالف منها.

(٢) كذا فى الإتحاف ٩/ ٣٨٢. وفى الأصل لدى: «وتطيَّبوا».

الخطايا، وحبُّها رأس المعاصى، وقَدْ يَصِحُّ الزُّهد مع حبّ بعضِ المعاصِى، أو معَ الإقامة على بعض الكبائرِ، وقد يَصِحُّ أيضًا وُجودُ كلِّ مقَامٍ مِن المقامات من تلك ويَصْفُو القلبُ بَعْدَهُ، إلا ثلاث مقامات: الخَوْفُ، والحُزْنُ، والحياءُ. فإنّ هذه إذَا صَدَقتْ نَفَتْ وُجُودَ المعاصِى من حيثُ يعلَمُ العبدُ.

ثُمَّ لا يَصِحُّ مَقامٌ من المقامات على حقيقَتِه، ولا يصفو القَلْبُ نهايةَ صفائه مع حبِّ الدُّنيا أصلاً. فصار حبُّ الدُّنيا أضرَّ على العبْد، وأبْيَنَ تغيُّرًا لقَلْبه، وأنقصَ لحالهِ من جميعِ الأشياءِ. فلو لم يكُن مِن شُؤْمِ الدُّنيا وعظيم البَلْوى بها إلا هذا لكان عظيمًا.

وإنّ فى قصّة ثَعْلَبَةَ بنِ حاطب[1] عِبْرةً لأُولى الألبابِ الذين كُشِف عن قُلُوبهم الحجابُ. فَقيرٌ من فُقَراء الصُّفّة الصالحين، أنصارىٌّ، ومن المهاجرينَ، أخْرَجَهُ حبُّ الدُّنيا إلى النِّفاق، وأدْخَلَهُ فى العناد والشِّقاق، وغَضِبَ اللهُ ورسولُهُ عليه، فلم يَقْبَل تَوبتَهُ، ولا رَحِم عَبْرتَهُ، ولا أقالَ عَثْرتَهُ، وكان سببَ ذلك حبُّ الدُّنيا، وإيثارُ حالِ الغِنَى على الفَقر. نَذْكرهُ ليعتبر معتبرٌ، ويتذكر متذكِّرٌ، ويزدجرَ به مُزْدجرٌ.

---

(١) قال الزبيدى فى الإتحاف ٨/ ٢٢٥: «وهما رجلان من الصحابة: أحدهما: ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف ... الأوسى الأنصارى. ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق فى البدريين. وكذا ذكره الكلبى، وزاد: أنّه قتل بأُحد. والثانى: ثعلبة بن حاطب ـ أو أبى حاطب ـ الأنصارى، ذكره ابن إسحاق فيمن بنى مسجد الضّرار».

وقال الحافظ ابن حجر فى الإصابة: «وفى كون صاحب القصة ـ إن صح الخبر، ولا أظنه يصحّ ـ هو البدرى المذكور نظر».

وقال الزبيدى تعقيبًا على ذلك (الإتحاف ٨/ ٢٢٧): «وقد تأكدت المغايرة بينهما بقول ابن الكلبى: إن البدرى استشهد بأُحُد.

ويقوى ذلك أيضًا أن ابن مردويه روى فى تفسيره من طريق عطية عن ابن عباس فى الآية المذكورة، قال: وذلك أن رجلاً يقال له: ثعلبة بن أبى حاطب، من الأنصار، أتى مجلسًا فأشهدهم فقال: لئن آتانى الله من فضله، الآية. فذكر القصة بطولها، فقال: إنه ثعلبة بن أبى حاطب. والبدرىُّ اتفقوا على أنه ثعلبة بن حاطب.

وقد ثبت أنه ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية»... فالظاهر أنه غيره، والله أعلم».

رواه عليُّ بنُ يزيد، عن القاسمِ، عن أبي أُمامةَ، قال: «قال ثَعلبةُ بن حاطب الأنصاري: يا رسول الله، ادعُ اللهَ أن يَرزُقَني مالاً. فقال رسول الله ﷺ: وَيْحَكَ يا ثَعْلَبَة! قليلٌ تطيقُ شُكْرَهُ خيرٌ من كثيرٍ لا تُطيقُهُ. ثم عاودَ ثانيًا، فقال: يا رسولَ الله، ادْعُ اللهَ أن يَرْزُقَني مالاً. فقال له رسولُ الله ﷺ: أمَا تَرْضَى أن تكونَ مثلي، ولو شئتُ أن يُسيِّر ربي عزَّ وجلَّ هذه الجبالَ ذَهبًا معي لسارت. فقال ثَعلبة: والذي بَعثكَ بالحقِّ لئن آتاني اللهُ عزَّ وجلَّ مالاً لأُعطِيَنَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

فَدَعا له رسولُ الله ﷺ، فقال: اللهُمَّ ارزقْه مالاً. فاتَّخذَ غنَمًا، فَنَمَت كما ينمو الدُّودُ، فضاقت عليه المدينة، فَتَنَحَّى عنها، حتَّى جعل يترك صَلوات العَتَمة. ونَمت كما تنمو الدود، فتنحَّى حتى ترك الظهر والعصر. ثم نَمَت كما ينمو الدُّودُ حتى تركَ الجمُعةَ، وطَفِقَ يَلْقَى الرُّكْبانَ يسألُهم عن الأخبارِ.

وسأل رسولُ الله ﷺ عَلَيْه: ما فَعل ثعلبة؟ قالوا: يا رسولَ الله، اتَّخذَ غنَمًا فضاقَت به المدينةُ، وأخبروه بخبرِه. فقال: يا وَيْحَ ثعلبة. وأنزل اللهُ تعالى: ﴿خُذْ من أمْوالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وتُزَكِّيهِمْ بها﴾ الآية [التوبة: ١٠٣]. فبعث رسولُ الله ﷺ علَى الصّدقة رجُلين، ثمّ أمرَهُما أن يأتيا النّاسَ فيأخذا صَدَقاتهم، ويأتيا ثعْلبةَ بن حاطبٍ، وسنَّ رسولُ اللهِ ﷺ لهما أَسْنانَ الإبلِ والغَنَم.

فخرجا حَتَّى مرَّا على ثعلبةَ، فقال: أروني كتابكُما، فأعطوهُ إيّاهُ، فنظرَ فيه فقال: ما هذه إلا جزيةٌ. فانطلقا حتّى تَفْرُغَا ثم عُودا إليَّ. فانطلَقا، فلمّا فرغا رجعا حتى مرَّا بثعلبةَ، فسألاه الصَّدقةَ، فقال: أرُوني كتابكُما، فنظر فيه فقال: ما هذه إلا جزيةٌ. انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا، فأخبرا رسولَ الله ﷺ، فقال: يا وَيْحَ ثعلبةَ بن حاطب. ودعا رسولُ الله ﷺ لمن أخرجَ صدقةَ ماله بالبركة، وأنزل الله عز وجلّ: ﴿ومنهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ لَئنْ آتانَا منْ فَضْله لَنصَّدَّقَنَّ﴾ [التوبة: ٧٥] الآيات كلها. فسمع ذلك رجلٌ من أقاربِ ثَعْلَبَةَ عند رسول الله ﷺ، فخرج حتّى أتاهُ، فقال: وَيْحكَ يا ثعلبةُ، هلَكْتَ، قد نزل فيك كذا وكذا، وتلا عليه، فخرج ثعلبةُ حتى أتَى رسولَ اللهِ ﷺ، فسأله أن يقبلَ صدقتَهُ، فقال: إن الله عزّ وجلّ قد

مَنَعَنى أن آخذ صدقتكَ. فجعل يَحْثى على رأسه التُّراب، ويقول: ويلى. فقال رسولُ الله ﷺ: هذا عملك، قد أمرتُك فلم تُطعْنى.

فقُبض رسولُ الله ﷺ ولم يقبل منه شيئًا. فأتى أبا بكرٍ رضى الله عنه، فقال: يا أبا بكْرٍ، قد عَرَفْتَ منزلَتى من رسول الله ﷺ وموضعى، وإنَّ رسولَ الله كان قد سَخِطَ عَلَىَّ، فاقبل أنت صدَقتى. فقال أبو بكرٍ: لم يقبل منك رسولُ الله، أفأقبلها أنا؟! فلم يقبل منه حتَّى قُبض ميِّتًا. ثُمَّ ولِّى عمر، فأتاه، فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل أنتَ صدَقتى. فقال: لم يقبلها منك رسولُ الله ﷺ، ولا أبو بكرٍ، وأنا لا أقبلها. فقُبض عمر وولِّى عثمان، فهلك ثعلبةُ فى خلافته»[١].

فهذا كما قال اللهُ عزّ وجلّ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ [التوبة: ٥٥]. وكما قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وقد كان من دعاء داوُد عليه السَّلام: «أعوذُ بِكَ مِن مالٍ يكُونُ علىَّ عذابًا، ومِن ولَدٍ يكون علىَّ ربًّا». التعذيبُ بالمال مَرَّةً بجمعه، وتارةً بحفظه، وأوقات كثيرةً بالهَمِّ بهِ، ثمّ التفرُّغُ له بالشُّغْل عن مُمَوِّلِه، ثم الشُّغْلُ به بالفراغ من المستعمل المحسن به (. . .) الولد على الوالد أن يستعبدَهُ بخدمتِه (. . . ـه)[٢] فيصير عليه ربًّا بقَدْرِ ما صارَ الوالدُ له عبدًا.

وكان من دعاءِ نبيِّنا ﷺ: «أعوذ بك من فتنةِ الغِنى والفَقْرِ. وأعوذ بكَ من غِنًى يُطغى، وفقرٍ يُنْسى».

فقد وُتِر ثعلبةُ المسكين بِغناه، فأُهْلكَ بطَغْواهُ، واستُدرجَ بماله، فسقط به عن مقامِهِ وحالِهِ بمالِهِ، فحملَهُ البُخلُ وإيثارُ الكَثْرة والجمعِ على مَنْعِ الصّدقةِ، وظُلْم

---

(١) الحديث بطوله فى الإحياء ٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢ فى باب ذم الغنى ومدح الفقر.

وقال العراقى فى تخريجه: «الحديث بطوله أخرجه الطبرانى بسند ضعيف».

وقال الزبيدى: «قلت: رواه أيضًا البغوى، والباروى، وابن شاهين، وابن السكن، وابن قانع، والديلمى».

(٢) طمس بالأصل فى الموضعين قدر كلمتين فى كل موضع.

أهلها، وتَرْك إخراجِ حقِّ الله منها، فَعَجَزَ عن الفرضِ بعد أن كانَ ادّعى القُوّةَ والنُّهوضَ بالفَضْلِ. وما كان ينقصُ من المالِ لو أخرجَ من كل مائة شاة شاةً، وهو عُشر العُشر إذا كثرت غَنَمُهُ، وأن يُخرج من خَمسين ناقةً حقّةً من الإبلِ، ومن أربعين بنتَ لبون، وذلك خُمس العُشْر إذا كثُرت إبلُهُ، وربعُ العُشر؟! وكان فيه رضا ربِّه وطُهْرةُ نفسه وزكاةُ ماله، ولا يتبين نقصه فى مزيدِ ماله، ولكن حضرَ شحُّ نَفْسه، وغابَ يقينُ آخرته، فأطاعَ الحاضرَ لفقد الغائب، وكان أصلُهُ قلّةَ العنايةِ وعَدَمَ الوِقاية، فَلم يوجَد الفلاحُ، وفُقِدَ الصّلاحُ، ووُجِد البُخلُ، وظهرَ الخُلْفُ، وبانَ الكذبُ، وعَزَبَ الصِّدقُ، ينتظمُ ما ذكرناه قولُه تعالى: ﴿**وأُحْضِرَتِ الأنفسُ الشُّحَّ**﴾ [النساء:١٢٨]، وقولُه: ﴿**ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسه فأُولئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ**﴾ [التغابن:١٦]، وقوله: ﴿**لَنصَّدَّقَنَّ ولَنَكُونَنَّ منَ الصَّالحينَ**﴾ مع قوله: ﴿**بَخلُوا به**﴾ إلى قوله: ﴿**بما أَخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوهُ وبما كانُوا يَكْذِبُون**﴾ [التوبة: ٧٥ـ ٧٧]، فأعقبه ذلك النِّفاقَ إلى يوم التلاقِ، وجعل بابَهُ حُبَّ الدُّنيا، ومفتاحَهُ الطَّلبَ لها، والحِرصَ عليها، فحقَّت عليه الثلاثُ المُهلكاتُ، إذ لم يُرزق المُنْجياتُ، ﴿**أُولئكَ يَنالُهُم نَصيبُهُم منَ الكتابِ**﴾ [الأعراف:٣٧]. فاعتبروا يا أُولى الألباب[١].

وقال الرسول ﷺ: «ثلاثٌ مُهلكاتٌ: شُحٌّ مُطاع، وهوًى متَّبع، وإعجابُ المرء بنفسه» فهذه مجموعةٌ فى حالِ الغِنى، وموجودة فى تحمُّلٍ من الأغنياء. «وثلاثٌ مُنْجياتٌ: خَشْيَةُ الله فى السرِّ والعَلانيةِ، والعَدْلُ فى الغَضَب والرّضا، والقَصدُ فى الفَقْرِ والغِنى».

فهؤلاء الصفاتُ الستُّ نعوتُ أبناء الدُّنيا الرّاغبين، وأبْناء الآخرة الزّاهدينَ فيها، فَتَدبَّروا. لأن فى الدّنيا الشّحَّ والهوى والعُجْبَ، وهُنَّ هُلْكَةٌ للهالكين. وفى الزُّهد الخشيةُ والعَدْلُ والقصدُ، وهُنّ منجاةٌ للنّاجين بفَضْلِ الله وبرحمته.

وأمَّا طريق يحيى بنِ معاذ وبعضِ العارفين فى شأن الدُّنيا: فإنَّ مَن لم يتملَّك المُلكَ لم يضرَّهُ ما مُلكَ بعد أن لا ينظرَ إلى نفسهِ فيه، كما لا يشهَدُهُ له، بل يجدُهُ

---

(١) نقل الزبيدى هذه الفقرة بنصها، وكان فى الأصل طمس شديد أتممته من الإتحاف ٨/ ٢٢٥.

فى خزانة الله التى هى يَدُهُ وتَمْليكه، ويكونُ موقوفًا فيها إلى تَنفيذ حُكمِ الله فيه من وضْعه فى مواضعه، وإخراجه فى أوقاته إلى أهْله. فهذا مُستَودَعٌ يؤدِّى الأمانة فيه، ووكِيلٌ مُستَخْلَفٌ يطيعُ الموكِّل به. فمقامُ هذا من التّوحيدِ، وشهادتُه بعَين اليقينِ، يزيدُ على مقاماتِ الزّاهدينِ. وهذا وصْفُ الصّحابة الأعلينَ.

ومحنةُ هذا المقامِ الذى تَصِحُّ به هذه العَينُ هو استواءُ وُجوده وعدَمه؛ أعنى: المالَ؛ لأنّه كذلك هو فى خِزانة المَلك موجودًا له، ومعدومًا للخلْق، وموجودٌ أيضًا بإيجاده وجَعْله، ومفقودٌ أيضًا بإعدامه وفَقْده. والمتصرِّفُ فيه إنّما هو محكومٌ عليه يجرى بِحُكم حاكمٍ لا يهوَى نفسه. فإذا صَحَّ منه فقدُ (. . .) على عَدَمه وعَدَم الفَرَحِ بوجوده لاستواءِ حَالة الوُجود للمالِ ولعَدَمه من حيثُ استواءَ قلبه لمُبيِّنِه عن التَّقْليب للحيلُولة بينه وبين (. . .)[١] بأن جعلَهُ لهُ سَليمًا ممَّا سواهُ، ليس فيه غيرُ الله الذى يعبد إيّاهُ. وهذا تحقُّقُ الوَصْف بالعُبُودية محْضًا للمعْبُودِ صِرفًا، رجُلاً سَالمًا لِرَجُلٍ ليس فيه شركاءُ مُتَشاكِسينَ. فحالُ هذا العبد فى مَزيد عند الله بحَقيقَة المعرفة، والقيام بشهادة قيُّوميته، أعلى من مقامات الزُّهدِ فى الدُّنيا الدّنيّة، وفوقَ (. . .) الرّاغبين فى الآخرةِ العليّة؛ لأن هذا معنى من لا [يشهد]. . . وغنى وصْفِها، وهو أنّ اللهَ تعالى لا يأسف عَلَى [بُعْد عَبْدٍ] لمعنًى، لأنَّ له أمثالَهُ إذا شا وغِنًى عنه بفوْته، وقد (. . .) على ما شاءَ، كذلك العارفُ بالله فى معنى هذا (. . .) عن شهادته لقيُّوميته على بعد [الموجود لأنه من] القوىِّ عزَّ عنه بمَوْلاهُ الغَنىِّ. ولأنَّه ليس لَه، إنّما هو لمالكه فى خِزانة قَبْضه وعَدَمه، وموجودٌ له، ولأنّه لا يشاءُهُ.

وقد كان يحيى بن معاذ يقول: لا تأمَن مكْرَهُ ولا تَغْتَرَّنَّ، انظر أن لا تكونَ قد تركتَ الزُّهدَ والعبادَةَ ظنًا منك بأنّك قد وصلت إلى دَرَجة الحُبِّ والمعْرفَة، فَتصيرُ فى القيامة عاريًا منها كُلِّها؛ لا فى منازلِ العارفين ظهَرْتَ، ولا فَضْلَ الزُّهْدِ والعبادَةَ أدْرَكْتَ.

هذا مع قَوله: إذا صَحَّ الزُّهدُ خَرجَتْ شَهوةُ النّساءِ من قَلْبه، فلم يُرِدْهُنَّ، فإذا

(١) تلف قدر كلمتين أو أكثر، وكذا فى المواضع التالية، وما بين المعكفات اجتهاد منى.

أُقيمَ مقامَ المعرفةِ رَدُّوها عليه.

وقال مرَّةً: إذا زهدَ تَركَ الشَّهوات، فإذا عَرفَ عاوَدَها، ويكون وَجْدُهُ أفضلَ من تَرْكِه.

وقال: إذا صَحَّ زُهْده لم يلحظْ من الدّنيا شيئًا مُشتَهيًا له، فإذا لَحظَهُ قالوا: خُذْهُ، يَخْلَعُونَهُ عليه؛ لأنّ قلبَهُ قد وقَعَ عليه. قال: وكذلك إذا عَرَفَ لا يلحَظُ من الآخرَةِ شيئًا بقَلْبه، فإن وقَعَ قَلْبُهُ على شيءٍ مِنْها جُعِلَ له.

كأنّه يقول: إذا صَحَّ تَرْكُهُ للدنيا والآخِرَةِ لأجْلِ الله، فإنه يردُّهما عليه، إذ اللهُ تعالى لا يعبأ بهما شيئًا.

وكان يقول: الزُّهدُ يورثُ السَّخاءَ بالنّفسِ عن الآخرةِ، وحُبًا لله تعالى يَشْغَلُ عَن الدَّارَيْن جميعًا.

وقال: تركُ الدّنيا مهرُ الآخرة، ونفسُك خيرٌ من الدُّنيا فلا تَبِعْها بها. ومن علامَةِ المعرفةِ بهذا بيعُ الدّنيا كلِّها فى جَنْبِها.

وقيل له: ما غاية الزُّهد؟ فقال: أن لا يصحب من الدنيا ما يلزمهُ حِفْظُهُ.

وكان يقول: إذا كُنْتَ الطالبَ للدُّنيا تَعِبْتَ ولـم تَنَلْ ما تُريد. وإذا كانت الدّنيا هى الطالبةُ لكَ نِلْتَ مِنها مع الراحةِ كثيرًا مّما تُريد.

والأخبارُ فى فضائل الفقر وفضل الفُقراء، وفى ذمِّ الدّنيا ونَقْص الأغنياء، وفى مدح الزُّهد ووَصْفِ الزّاهدينَ ـ أكثرُ من أن تُذكَر، ولـم نقصد جَمْعَها، ولا كَثْرةَ الاستدلالِ بها، وإنّما اتَّصَلَ الكَلامُ بعضُهُ بِبَعْضٍ فوَصلْناهُ.

ومن الزّهدِ تَركُ فُضولِ البُنيانِ، وأن لا يبنى عاليًا، ولا مُشَيَّدًا، ولا من الطين، إلا ما يحتاج إليه. وقيل: أولُ بدعة حدثَتْ بعدَ رسولِ الله ﷺ: المناخلُ والموائدُ، وأوّلُ شيء ظهر من طول الأمل: التَّدْريزُ والتَّشْييدُ. يعنى: دُرُوز الثِّياب، وإنما كانت تُشَلُّ شَلاً، والبُنيانُ بالجصِّ والآجُرِّ، وهو التشييد، وإنّما كانوا يَبنونَ بالسَّعفِ والجَريد، وأعلاهُ بالطِّينِ الرَّهُوصِ.

وقد جاء فى الأثر: «يأتى عَلَى النّاسِ زمانٌ يُوَشُّونَ بُنْيانَهُم كما تُوشَّى البُرودُ اليَمانية».

ونظر عمرُ رضى الله عنه فى طريقِ الشّامِ إلى صَرْحٍ قد بُنى بجصٍّ وآجُرٍّ، فكَبَّر، وقال: ما كنتُ أظنُّ أنّ فى هذه الأمة مَن يبنى بُنيان هامانَ لفرعونَ. يعنى قولَ فِرعونَ: ﴿فأَوْقِدْ لِى يا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ [القصص:٣٨] يعنى به الآجُرَّ.

يقال: أوّلُ من بَنى بالجِصِّ والآجُرِّ فرعونُ، وأوّل من عمِلَهُ هامان، ثم تَبِعَهُما الجبابرةُ؛ فهذا هو الزخرف.

وذكر بعضُ السّلف جامعًا فى بعضِ الأمصارِ فقال: أدركتُ هذا المسجد مبنيًا من الجريدِ والسَّعَف. ثم رأيتهُ مَبْنيًا من رَهُوصٍ. ثم رأيته الآن مبنيًا باللَّبِن. فكان أصحابُ السعفِ خيرًا من أصحابِ الرّهُوص، وكان أصحابُ الرّهوصِ خيرًا من أصحابِ اللبِن.

وقد كان فى السلفِ من يبنى دارَه مِرارًا فى مُدّةِ عُمره لضَعْفِ بنائه، وقصَرِ أمله، ولزهده فى إتْقان البُنيان. وكان منهم مَن إذا حَجّ أو غَزا نَزعَ بيته، أو وهَبَهُ لجيرانِهِ، فإذا رَجَع أعادَهُ. وكانت بيوتُهُم من الحشيشِ، والثُّمامِ، والجُلود. وعلى ذلك العربُ ببلادِ اليمنِ إلى اليوم.

وأمر رسول الله ﷺ العبَّاسَ رضى الله عنه أن يهدم عُلّيَّةً كان قد عَلا بها.

ومرّ عليه الصلاة والسلام بجُنُبْذَةٍ[1] مُعلاَّة فقال: «لمن هذه؟» قالوا: لفلان. فلما جاءه الرجلُ أعرضَ عنه، فلم يكن يُقبل عليه كما كانَ. فسأل الرجلُ أصحابَهُ عن تغيُّر وجْه رسولِ الله ﷺ، فأخبرُوه، فرجع فَهدَمَها. فمرَّ رسولُ الله ﷺ بالموضعِ فلم يَرَها، فسأل عنها، فأُخبِر أنّه هَدَمها، فَدَعا له بخير.

وكان سُمْكُ بناء السّلف قامةً بَسْطَة. وقال الحسن: كنتُ إذا دَخَلْتُ بيوتَ أصحابِ النبى ﷺ ضربتُ بيدى إلى السَّقْف. وقال عمرُو بن دِينار: إذا أعْلَى العبدُ البناءَ فوقَ سِتّة أذرُعٍ ناداه مَلَكُ الهواءِ: إلى أين يا فاسِقَ الفاسِقين؟

(١) الجنبذة: بناء مرتفع مستدير كالقبة.

وقال رسول الله ﷺ: «من بَنى فوقَ ما يكْفِيه كُلِّف أن يَحْمِلَه يومَ القِيامة».

ومرّ عمرُ رضى الله عنه ببيت عال، فقال: أبت الدّراهمُ إلا أن تُخْرِجَ رُؤوسَها. ومرّ بعاملٍ له فرآه قد علَّى فَوْقَهُ جُنبذَةً وشيَّدَ، فقال: علَى كلِّ خائنٍ أمينان الماءُ والطِّينُ. ثم شاطره ماله، فجعله فى بيت المال(١).

وفى الخبر: كلُّ نفقةٍ يُؤْجَرُ علَيها العبدُ إلا ما أنفقَهُ على الماءِ والطِّين.

وقد روينا عن بعض السلف: إذا مَقَتَ اللهُ تعالى مالَ عبدٍ سلَّطَ عليه الماءَ والطينَ.

وقال يحيى بن يمان رحمه الله: كنتُ أمْشِى مع الثّورى رحمه الله فى طريق، فنظرتُ إلى بابٍ مشيَّد بالجصِّ، فقال: لا تنظر إليه. فقلتُ: يا أبا عبد الله، ما تكره من النظر؟ قال: إذا نظرتَ إليه كنتَ عونًا له على بنائه؛ لأنه إنّما بناهُ لِيُنظَرَ إليه، ولو كان كلُّ من مرَّ به لم يَنظر إليه ما عمله.

وقد قال بعضُ السلف قَبْلَه: ولا تَنْظر إلى بُنيانِهِم، فإنهم إنّما زَخْرَفُوه لأجلِكُم.

وفى قولِ الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخرةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فى الأَرْضِ وَلا فَسَاداً﴾ [القصص:٨٣] قيل: حبُّ الكثرةِ والرياسة، والتطاولُ فى البُنيان.

وكذلكَ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «كلُّ بِناءٍ وَبالٌ على صاحبِهِ يومَ القيامة إلا ما أكَنَّ من حرٍّ أو بَرْدٍ». وفى خبرٍ: «إلا مَسْجِدٌ من بُيوتِ الله».

ولذلك جُعِل من أَشْراط السَّاعة، وقُربِ توقُّع وُقُوعها فى خبرِ الجسَّاسَة، أن الدَّجّال سأل: هل تطاول النّاسُ فى البُنيانِ؟ قالوا: نَعَم. قال: الآن دنا خُروجى، فى أشياء عدّدها.

---

(١) لفظ هذا الخبر من المطبوعة، وفى (خ) ما نصه: «ومرّ عمر رضى الله عنه بعاملٍ له قد علَّى فوقه جُنبذُةً. فقال: لمن هذه؟ فقيل: لفلانٍ؛ عامل من عماله. فقال: أبى المال إلا أنْ يُطلع رأسه لنا. على كل خائنٍ شاهدان الماء والطين. ثم أرسل إليه، فأغرمه ما أنفق على داره، فجعله فى بيت المال».

وقالَ للرَّجُلِ الذى شكَا إليه ضيق منزله: «اتّسع فى السَّماء» أى فى الجَنَّة. وهذا أحد التأويلين. والثانى: اتسع فى المعرفة ولا تطلب اتساع المكان.

واعلم أنَّ الزهدَ لا يَنقُصُ من الرِّزقِ، ولكنّه يَزيدُ فى الصَّبر، ويُديمُ الجُوعَ والفقر، فيكون هذا رزقًا للزّاهد من الآخرة على هذا الوَصْف، من حرمانِ نصيبِهِ من الدُّنيا، وحمايتِه عن التَكَثُّرِ منها، والتوسُّعِ فيها. ويكون الزهدُ سبَبَهُ، فيكون ما صَرَفه عنه ومَنَعه من الغِنى والتّوسُّعِ رِزْقَه مِن الآخرةِ، والدّرجات العُلى، بحُسنِ اختيارِ من اللهِ تعالى، وحَيْطةِ نَظَر.

كما حُدِّثنا عن بعض العلماء: أن بقّالاً جاءَهُ فقال: إنّى كنتُ أبيعَ فى محلّةٍ لا بقّالَ فيها غَيرى، فكنتُ أبيعُ الكثيرَ، ثُمَّ قد فَتحَ عَلَىَّ بقّالٌ آخر، فهل يَنقُصُ ذلك مِن رِزْقى شَيْئًا؟ فقال: لا، ولكن يَزيدُ فى بَطَالتكَ عن البيعِ.

فلعلّ بطّالاً لاعبًا يحتجُّ لتوسُّعِه وهَواهُ ويُموِّهُ على أبناءِ الدنيا ممّن يتولاه، فيقول بأنّ الزُّهدَ فى الدّنيا لمّا لم يَنقُص من رِزقى شيئًا، قد صحَّ مقامًا لى مَع التوسُّعِ والاستكثار، وعلى التنعُّمِ والرَّفاهِيةِ والاستئثار؛ لأنّى إنّما آكلُ رِزقى، وآخذُ قِسْمِى، فلى فى الزُّهد مقامٌ، ومن الرِّضا والتّوكُّل حَالٌ. أو يقول: إنَّ الزُّهدَ قد يُصبِح مع التكاثُرِ والزِّينةِ، يُزَخْرِفُ بقوله عَلَى مَن لا يَعْرِف الزُّهدَ، ويغرُّ بمقالتهِ مَن لا يَعرف طرائقَ الزّاهدين. ولعلّه ممن يأكل الدّنيا بالدّينِ، أو يُزخرف القولَ، ويُشبِّه العلمَ على الغافلين. فمَثَلُه كما قال علىٌّ رضى الله عنه للخَوارجِ، حين قالوا: لا حُكْم إلا لله. فقال: «كَلمةُ حَقٍّ أُريدَ بها باطلٌ». وصدق رِضوانُ اللهِ عليه؛ لأنهم أرادُوا بذلك إسقاطَ حُكْم الأئمةِ، وتَرْكَ الطّاعةِ للإمامِ العادلِ.

كما أراد القائلُ: إنّما آكلُ رزْقى وآخَذُ من الأشياء قِسْمِى، فسمَّى الاحتجاجَ لنفسه بهَواهُ، والاعتذار(١) عند الجاهلينَ زُهْدًا خيفَةَ لَوْمِهم إيّاه. فكانَ ذلك مَعَهُ احْتجازًا عن الزُّهد لزُهده فى الزُّهد، وقوّةِ رغبته فى الرغبةِ، كما احتجز الكُفّارُ عن الإطْعامِ، واحتجُّوا لبُخْلِهم بمَشِيئَةِ الأحكامِ، فقالوا لمّا قيل لهم أنفِقُوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن

---

(١) فى الإتحاف ٩/ ٣٨٣: «والاعتزار».

لَّو يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس:٤٧]، فلم يكن بهم مَشِيئةُ التوحيد، ولا إثباتُ القَدَر، إنّما كان بهم البُخْل، فاعتذرُوا بهذا العُذْر.

ولا يعلمُ المغرورُ بداء الغُرور أنّه وإن كانَ يأكلُ رِزْقه من الدنيا، ويأخذ قسْمه من العَطاء، فبحُكم النَقص والبُعد، وبوَصْف الرّغبة والحِرْص؛ لأن السّارقَ والغاصِبَ أيضًا يأكُل رِزْقَه ويأخذُ قسْمه، ولكن بحُكم المقْت وسُوء الاختيار. إذ كانَ الله سبحانه وتعالى يَرْزُق الحرامَ للظّالمين، كما يرزقُ الحلالَ للمُتّقين، وإنّما بينهما سوءُ القضاء، ودَرْكُ الشّقاء للأعداء، وحسن التّوفيق والاختيار بالسّعادة للأولياء من المولى الكريم، فقد حُرِم المدَّعى لذلك رزقَهُ من الزُّهد، وبُخس نصيبه الأوفرَ من حُبِّ الفقْر، ونُقِصَ حظَّه الأفضلَ من الآخرة، إذ كانت الدّنيا ضدَّها. وجُعِل ما صُرِف فيه وما صُرِفَ إليه سبَبًا لنُقْصان مرْتَبته من طرائِق الزّاهدين، وأنّه قد اختُبِر بالدّنيا، وبِما فُتِح عليه من السَّرّاء؛ ليَظْهر صِدْقُه من كَذِبه، فوقَعَ فى الفتنة، ولم يَفْطن للابتلاء.

وصارَتْ مُشاهدَتُه هذه ـ إذا كانَ صادقًا فيها غيرَ كاذب على وَجْده ـ حجابًا له عن عُلوم العارفين المعصُومين، واستُدْرِجَ بعلْمه هذا لأنّه علْمٌ من عُلومِ الدّنيا، يَفنى بفنائِها، لا ثمرةَ له فى الباقِيَة، مُكِرَ به فيه، وعُدِلَ به إليه عن عُلومِ الخائفينَ، ومُشاهدة الورِعينَ الزاهدين، الذين نظروا من الحلالِ فى الدّقيق، وصدقُوا القولَ فى تَرْكِ الرَّغْبة بالعملِ بالزُّهدِ للتّحقيق.

وإن كان كَاذبًا فى مُشاهدته، ظالمًا لنفسه بما ادّعاه من وَجْده، فهو من أولياء الشّياطِين، قُيِّضَ لِلاّعبينَ، وسِيقَ إلَيهم فتنةً لهم. لَيس إمامًا للمُتَّقين، بل من الأئمة المضلّينَ المحرومين من أبناء الدّنيا الغافلين، رغبةً فى الدّنيا، وزُهْدًا فى طرائقِ السَّلَف؛ لوجُودِ الطَّمعِ، وعدَمِ اليقين. فقد مُكِر بهذا المعدول به عن عُلوم الموقنين، وحقائقِ مُشاهدتِهم على هذا الوَصْف الذى أُريدَ به الذى يُقلَّبُ فيه، وهو لا يَشْعُر بالمكْر، ولا يَعرِفُ الاستدراجَ بالنِّعم، وأنّى له بعِلْم ذلك، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:٥٠]. فهيهات هيهات أن

يفطنَ المَكْورُ لما مُكِر به، أو يعلمَ المستَدْرَج ما دُرِج فيه؛ لأنَّ الماكرَ ألطفُ الماكرينَ، والمدْرِجُ أحكم الحاكمين.

وقال بعضُ العارفين: مَن كتَم ما يجدُه من آفات نفسه عُوقِبَ بادّعاءِ منزلةٍ لم يَبْلُغْها. نعوذُ بالله تعالى من الاغترار بعِلْمِ الإظهارِ، ونسأله الصّلاةَ على نبيّهِ محمّد ﷺ وآله أجمعين، وحُسْنَ التوفيقِ لمشاهدةِ علم التحقيق.

وبمثل ما قُلناه جاءَت الآثار وكثُرت الأخبارُ: إنّ مَثَلَ الدّنيا والآخرةِ كضرَّتين رِضا إحداهما في سُخْطِ الأخرى. وإنَّهُما بمنزلةِ المَشْرِق والمغْرِب مَن استقبلَ أحدهما استدبر الآخر. وإنهما بمنزلةِ كِفَّتى الميزانِ رُجْحانُ إحداهُما بِنُقْصان الأُخْرى.

وكان عمرُ رضى الله عنه يقول إذا ذكر الدنيا والآخرة: «والله إنْ هُما إلا بمنزلةِ قَدَحَيْن لَكَ مُلئ أحدُهما، فما هو إلا أن تُفْرِغ أحَدَهُما فى الآخَرِ». يعنى أنك إن امتلأتَ من الدنيا تفرَّغت مِن الآخرة، وإن امتلأتَ من الآخرة تفرَّغتَ من الدّنيا، وإن كانَ لك ثلثُ قَدَحِ الآخرةِ أدركْتَ ثُلُثَى قَدَحِ الدنيا، وإنْ كانَ لكَ ثُلُثا قَدحِ الآخرةِ يكونُ لك ثُلثُ قَدَحِ الدنيا. وهذا تمثيلٌ حَسَن إلا أن فيه شدّةً وتدقيقًا.

وقال بعض السلف: مَثَلُ مَن زَهدَ فى الدُّنيا مع التنعُّمِ فيها كمَثَلِ مَن يَغْسِلُ يدَيْه من الغُمْر[1] بسَمَكٍ. وقال آخرُ: مَثَلُ مَن زَهِدَ وهو يَطْلُب الدُّنيا مَثَلُ مَن يُطْفِئُ النَّارَ بالحَلْفاء.

وقد كان يحيى بن معاذ يقول: إذا كان التَّعبُّد والاجتهادُ على غيرِ زُهْدٍ، لم يكن للعَمل ميراثٌ. يعنى من حِكْمةٍ ولا مَعْرِفَةٍ.

وكان يقول: كيفَ يكونُ زاهدًا مَن ورَع له، تورَّعْ عن فُضُول ما ليس لكَ، ثم ازْهَد فيما هو لَكَ. وقال: لا يكمل للزّاهد زهده، إلا باستواءِ الحال فى هذه الخصال: الموجودِ والمفقود، والسَّفَر والحَضَرِ، والعزِّ والذُّلِّ، والمَدْحِ والذَّمِّ، والغِنى والفَقْر، ويكون همُّه للطّعام كهمِّه للشّراب.

(١) الغمر: نوع من الطلاء أو الطيب.

وكان يتكلم فى تزويجِ الزّاهِدِ فيقول: الكيِّسُ من الزُّهّادِ مَن إذا أراد التَّزوُّجَ لله أن يلقى المرأة بهذه الخِصَال، فإن هى أجابته وإلا تَرَكَ:

أولها: فى بيان الكِفايةِ من المعَاشِ. يقول لها: لا أقلِّب كفِّى فى طلَب دينا، ولا أسعى لكِ ولا لولدٍ، وإن كان فى كسب دانقَيْنِ.

والثانية: أن يُعْلِمَها أنّه لَيْس عنده مالٌ. ويقول: إن كان عندَكِ مالٌ بعثتُ به لك للآخِرةِ، وأخرجتكِ منه، وكان تدبيرِى فى مالكِ كتَدْبيرى فى مالِ نفسى الذى قد خرجتُ منه.

والثالثة: إن أردتُ الخُروجَ إلى مكةَ أو ثَغْرٍ من الثُّغورِ، أو زيارةِ أخٍ فى بلدةٍ أُخرى، أمْضيتِ ذلك، ولزمْتِ الرِّضا، وكنتِ لى عَوْنًا على إنفاذه.

والرّابعة: إن تزوجتُ عليكِ ثلاثًا كما قد أطْلَقهُ اللهُ لى، لم تكرهى ذلك، ولم تُعرِضِى بوجهك، ولم تَفْقديني من مُواتاتك ما كُنتِ لى عليه قبل حُدوثِ ذلك.

والخامسة: خِفَّةُ الصّداقِ، وغايتُه مِثقالٌ من ذهبٍ، وهو كثيرٌ.

والسادسة: تَرْكُ خُذْ وهات.

والسابعة: سُرعةُ البناءِ بكِ، لا تَلْتاثِينَ علىَّ فيه.

فإن وافق منها هذه الخصال فليتقدم، وإلا توقَّفَ.

وكانت امرأتُه رحمها اللهُ زاهدةً، وكان يحكى عنها زُهْد النساءِ. قال: قالت لى أهْلى: ما زُهدُ النِّساء؟ قلتُ: تركُ الزِّينة والرِّياء. قالت: أعلى من هذا. قلتُ: ما هو؟ قالت: تُطيِّبُ نَفْسَها لزَوْجها بأنْ يَتزوَّج عليها مَن شاءَ من النِّساء، فإنّ الزّوجَ من الدُّنيا، وهو يَشْتَدُّ على النِّساءِ، وتعلُّقُ قَلْبها به من الدُّنيا. قال: فقُلتُ لها: هى بضاعتُكُم، أنتم بها أعرفُ.

قال: وقلتُ لها مَرّةً: قد أذنَ اللهُ فى تَزْويجِ أربعةٍ من النّساء، فقالت: ليس بفرضٍ أن تتزوَّج بأربعةٍ، وقد فَرضَ عليك أن تَعْدِلَ بين اثنتين[١].

(١) الخبر السابق برمته فى الإتحاف ٩/ ٣٦٧.

وكان أبو سُليمان يقول فى الزّهد فى النّساء: أن تختارَ المرأةَ الدّميمةَ والقريبةَ الأمرِ من كِبَرٍ وغير منظرٍ على الشّابّة الحَسْناء.

وكان مالك بن دينار يقول: يتركُ الرّجلُ أن يتزوّجَ اليتيمةَ أو الضّعيفة لله، فإن أطعمها أو كَساهَا أو فَرَّحَها أُجِر فى ذَلِك، وكان له فى ثوابِ الآخرةِ، ويتزوّجَ ابنةَ فلانٍ وفلانٍ.

وبالجملة: الاقتصادُ فى شأنِ النّساء، والتّقلُّل، وأخذُ الحاجَة والكفاية منهُنّ، كالقولِ فى شأنِ الدّنيا من ذلك، لا تُنكحُ المرأةُ لما يَنْكَحُ أبناءُ الدّنيا من المعانى الثلاث، لا لحُسنها ولا لحَسَبها ولا لمالها، فلم يَبْق إلا الدِّينُ والصَّلاحُ، فهذه زوجةٌ أُخرَويّةٌ، لَيْسَت من الدُّنيا[1]، تدبّرناه فى الخبر الذى رُويناهُ: «تُنكَحُ المرأةَ لأربع»، ثم قال: «عليك بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يَداكَ».

وقد جعل رسولُ الله ﷺ فى وصْف الفقراء: «أنّهم لا تُفتح لهم الأبوابُ، ولا يُنكحون المتمتعاتِ أو المنَعّمات». فدلَّ أَنَّهم يَنْكحون المتبذِّلات.

وفى الخبر: «إنّ الله يحبّ المتَبَذِّلَ الذى لا يبالى ما لَبِس». وقال الله فى وصْفِهنَّ: ﴿هُنَّ لِباسٌ لكُم﴾ الآية [البقرة:١٨٧].

وقال عيسى عليه السّلام: «لا تنظروا إلى أموالِ أَهْل الدّنيا، فإنَّ بريقَ أموالهم يَذهبُ بنورِ إيمانكم».

وقال بعض العلماء: تقليبُ المالِ يمصُّ حلاوةَ الإيمان.

وفى الخبر: «إيّاكم وأبوابَ الأمراءِ فإنّ عليها فَتْقًا كمباركِ الإبلِ».

وفى الأثر: «لكُلِّ أمّة فتنةٌ، وإنّ فتنةَ أُمَّتى هذا المال». ورُويناه من طريق: «لكلِّ أمّةٍ عجلٌ، وعجلُ هذهِ الأمة الدِّينار والدّرهم».

وعن المسيح: «لا تجالسوا الموتى فتَقْسُوا قلوبُكم. قيلَ: ومن الموتى؟ قال: طالِبوا الدنيا المحبُّون لها».

---

(١) إلى هنا ينتهى نقل صاحب الإتحاف: ٩/ ٣٦٧.

(٢) الفتق: الموضع لم يُمطر وقد مُطر ما حوله.

ويقال: ما مِن يومٍ ذَرَّ شارِقُهُ إلا وأربعة أملاك يُنادون فى الآفاق بأربعة أصوات، مَلَكان بالمشْرِقِ، ومَلَكان بالمغرب، يقول أحدُهم: يا باغى الشَّرِّ أقصر، ويا باغى الخيرِ هَلُمَّ. ويقول الآخر: اللهُمَّ أعْطِ مُنفقًا خَلفًا، وأعْطِ مُمْسكًا تَلفًا. ويقول اللذان فى المغربِ: لِدُوا للموتِ، وابنوا للخَرابِ. ويقول الآخرُ: كُلوا وتمتَّعُوا لطُولِ الحسابِ.

وقال بعضُ العارفين(١): إن الله تعالى وَسَمَ الدُّنيا بالوحْشَةِ ليجعل أُنس المطيعين به.

وقال: النّاسُ فى باب الزُّهدِ فى الدُّنيا على وجوه:

[أحدها]: رجلٌ قد غَلَبها موجودةً ومفقودةً، ورجلٌ قد غَلبَتْه موجودةً ومفقودةً، ورجلٌ قد غَلَبها مفقودةً وغَلَبَتْهُ موجودةً. تفسيره: فإن من النّاسِ من قَهَر هوَاهُ ومَلَكَ نَفْسَه وشهوتَهُ وهو قادرٌ عَليها، وهى موجودةٌ له، فذلك أحْرَى أن يغلب نَفْسه فيما فَقَد من الدُّنيا وغابَ عنه، وهذا مقامُ الصّدِّيقين.

والثّانى: قد غلبته النّفسُ، وأهواهُ الهوى، وأمالَتْهُ الشَّهوات، موجودةً إذا قدر عليها، ومَفْقُودةً له بالاهتمامِ بها، والفِكَرِ والخَواطِر فيها، والإرادَة لها. فهذا ساقِطٌ لاقِطٌ، لا مَقَامَ له ولا وَصْفَ. وهذا حالُ الجاهِلين، ونعتُ الغافِلين.

والثالث: قد غَلَبَتْهُ نَفْسُه فى الموجودِ من الهَوى، والحاضرِ من الشَّهْوةِ، فإذا غاب ذلك عنه غَلَبَها فى العَدَمِ، ومَلَكَها عند الفَقْدِ. وهذا حالُ المجاهدينَ، وطريقُ السّائرين، ونَعتُ المريدين.

وقد قيل ليحيى بن معاذ: يصلُ العبدُ إلى درجةٍ يَسْلَمُ فيها من الذّنب، ومِنَ الزُّهدِ إلى دَرجةٍ يَسْتَغْنى فيها عن الدُّنيا؟ فقال: هذا لا يكون، لا يستغنى عن الدنيا أحدٌ، وإنّما وَقَعَ التّفاضُلُ بينَ النّاسِ على التَّقليل والتكثير، فأزْهَدُهُم فيها أقلُّهم حظًا منها. كما لا يَسْلَم من الذَّنْبِ أحدٌ، ولكن أفْضَلُهم أقلُّهم ذنبًا.

وكان رحمه اللهُ يَقُول فى العَدْل قَوْلاً فصْلاً، قال: إنّ زهَّادَكُم يأمُرونكم بأن

---

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٨٣.

يكون الدِّرهمُ أوّلَ شيء يتركونَهُ من الدُّنيا. وأنا آمرُكُم أن يكونَ الدِّرهمُ آخرَ شيءٍ تتركونَهُ من الدُّنيا. قيلَ له: لِمَ؟ قال: لأنّ الدّرهمَ مُعَلَّقٌ على شهوةِ النَّفْسِ، والشَّهوةُ مُعَلَّقَةٌ على النَّفسِ، فتركُ الدِّرْهم من قبل إزالة الشّهوة عن النّفس بالسياسة خطأٌ، ودخولٌ فى الطمع لمن عنده الدِّرهمُ، ووقوعٌ فى البلاءِ، حتى إذا زالت بحُسْنِ السِّياسَةِ هذه الشّهوةُ عن نَفْسك، ذهبَ عنكَ حبُّ الدِّرهم، شئتَ أم أبَيْتَ ضَرُورةً، إذ كانَت علَّةُ حُبِّكَ له الشَّهوة، والشهوة قد ذهبَتْ، والدرهم يُتِمُّ أمرَ هذه السياسة. فلهذا قلتُ: اجعل الدِّرهمَ آخرَ شيءٍ تتركه بعد الفراغِ من النَّفْس.

واعلم أنَّ إمساكَ الدِّرْهمِ على هذا التّدبير لا يكون علاقَةً، ولكنه يكونُ سياسةً يُصلِحُ به. واللهُ مطَّلعٌ على ما يريدُ، ومُحبٌّ لما يَصْنعُ. ومن لم يكن على هذا التقدير منه، على هذه الجِهَةِ، لم يبلغ ما يُريد، فكان كمن يُريدُ طَبْخَ قِدْرٍ بلا نارٍ.

وقد كان أبو سليمان قبله يقول فى لُبس الصُّوفِ بمعناه، قال أحمد بنُ أبى الحواريّ: لَبِسْتُ عباءةً، فَنظَرَ إلىَّ، وقال: هذا يكون آخرَ الزُّهد جعلتمُوهُ أوّلَهُ، إنّما إذا لم يبقَ فى قلبه شهوةٌ تدفع عَبادةً، ولزِمَ الطريقَ، أما يَستحى أحَدُهم أن يَلْبَس عَباءةً بدِرْهَمَين، وفى قلبه شهوةٌ بِخَمْسَةِ دَراهِمَ.

وقال: ولو ستَر زُهْدَهُ بثَوْبَين أبيضَيْنِ كان أحبَّ إلىَّ.

وقد كان بعضهم يقول: الزُّهد هو إخفاءُ الزُّهد.

ولكن على كل حالِ الأمرُ كما قيل: الزُّهد فى الدُّنيا يريحُ القلبَ والبَدنَ، والحِرصُ عليها يتعبُ القَلبَ والبَدنَ. وقيل: زيادةٌ فى الهَمِّ والحُزْنِ.

وقد كان ابنُ معاذٍ يقول: راحةُ الأبدانِ فى زُهدِ القُلوبِ، ومَشقَّةُ الأبدانِ فى حِرْصِ القُلوب.

وقال: طلبتُ الدُّنيا فلم استرحْ. وطَلبتُ العُلُوَّ فلم أسترح. وطلبتُ العلم والعبادةَ فلم أسترحْ. ودخَلْتُ فى الزُّهدِ، واستوطنْتُ الثِّقةَ باللهِ فى هذه الكبيرةِ، فاسترحتُ. من الرّاحة.

وكان يقول: ما دامت شهوةُ النَّفس فيك فأنت مطيّةُ الدنيا. فالمطيّةُ تُساقُ حيثُ يريدُ صاحبُها، لا حيث تريد هى. وإذا ذهبت الشّهوةُ فالدنيا مطية يسوقُها حيث يريد.

وقال: من خرَجَ تاجرًا ومعه ثلاث خصالٍ: خوفُ الفَقْرِ، وحبُّ [النساء][1]، وحبُّ العُلُوِّ، عُوقِب بثلاث خصال. أمّا خوفُ الفقر: [فما كان] استكثارُهُ من الجمع إلا خَوفًا من الفقرِ. وأما حبُّ [النساء...][1] على دينه فيُلقيه فى الخيانات والكذبِ والشُّبهاتِ. وأمّا طلبُ الرِّفْعَةِ فلا يزيدُه عند الله إلا إتضاعًا.

وقال: كلُّ ما أخَذْتَهُ مِن الدُّنيا فلله عليك فيه ثَلاثُ فرائض، ولو كان حبَّةً واحدةً. أولُه: ألا تأخذهُ إلا من حلِّه. والثانية: لا تحبسه إلا على طاعةِ الله. والثالثة: لا تضعَهُ إلا فى مَوْضعِهِ لله تعالى.

وقال: لا يسلم التّاجر إلا بحفظِ ثلاثٍ: بحفظِ قلبِهِ مع الله تعالى، ولسانِهِ مع الحَفَظَةِ، وميزانِهِ بالعَدْلِ مع الخَلْقِ.

وبلغَنا أن من دعاء أبى بكْرِ الصّدّيق رضى اللهُ عنه: «اللهُمَّ إنهى أسألُكَ الذُّلَّ عند النَّصَفِ من نَفْسى، والزُّهدَ فيما جاوزَ الكَفَافِ».

وبلغنا أنّه قيل لإبليس لعنَهُ اللهُ: «جُعِلت الدُّنيا لك مَزْرعةً، وأهلها لك أكَّرَةً».

فيكفى الجاهلُ الحريصُ من الرَّغْبةِ فى الدُّنيا على الزُّهد فى الآخرةِ أن يكون أكّارًا لإبليس، حرّاثًا فى مَزْرَعته، بئس للظالمين بَدَلاً من الأولياء العمال على الصّبر (...)[2] المبين الذين بصروا الآية.

وقد قال بعضُ أهلِ المعرفةِ: لا ترغَب فى شىءٍ من الدُّنيا إلا استتبعك وأتعبك بقَدْرِ ما تطلبهُ وترغبُ فيه ليوم الدّنيا وتنشدها. ولا تزهد فى شىء منها إلا تبعكَ ولحِقكَ نَفْعهُ، وطَلَبكَ بقَدْرِ ما تزهد. وقال: إن الله لا يرضى مِمّن عَرَفَهُ أن يُعرف بعبد نُسى دونه، فإن بعد ذلك ذمّه الله (...)[3].

---

(١) كذا قرأتها، إذ رسم الكلمة قريب من هذا.

(٢) طمس قدر كلمتين أو ثلاث.

(٣) طمس فى ستة أسطر آخر الصفحة فلم يبق سوى كلمات مطموسة.

وكان أبو سليمان يقول: ما مِن شىء إلا وهو مَطْروحٌ فى الخزائنِ، إلا الفقْرَ مع المعرفةِ فإنّه مَخْزونٌ، مختومٌ عليه، لا يُعطاه إلا مَن طُبع بطَابع الشهداء.

وقد يحتجّ بعض علماء الدّنيا لأنفسهم بتفضيل الغنى على الفقْرِ، بتأويل الخبر المشهور من قوله ﷺ: «ذَلك فَضْلُ الله يؤتيه من يَشاءُ». وهذا عند أولى الألبابِ فى تدبُّر الخطابِ من غيرِ هوًى يضرُّ ولا ارتياب يعنى به الفقراء؛ لأنّه قيل لهم فى أوّلِ الكلامِ: إنْ فَعَلْتم كذا لم يسبقكم أحدٌ قَبلكم ولم يدركْكُم أحدٌ بَعْدكم. فثبت هذا القولُ من الرسول ﷺ وصَحَّ؛ لأنّه معصوم فى قوله، كما هو مَعْصُومٌ فى فعله. فما جاء بعده يكون محمولاً عليه، مُفَسِّرًا له. ولم يَجُزْ أن يَنْقلبَ الخطابُ؛ لأنّه إخبارٌ عن شىءٍ، فكيف يرجع عنه، أو ينسخ الخبرَ بقولٍ آخرَ؟

فلمَّا فعلَ الأغنياءُ ما أُمِر به الفقراءُ مِنَ الذّكْر، وَقَفَ الفقراءُ فى قولِ رسولِ الله ﷺ لنَظَرِهم إلى مَزيدِ الأغنياءِ عليهم بفَضْلِ القَوْلِ، فرجَعُوا إليه يستفتون منه الخبرَ، ويَسْتَثْبِتُون عنه ما به أَخبرَ. فقال: لا تعجلوا، فإنّ الذى قُلتُ لكم كما قُلتُ هو فَضْلُ الله لكُم يُؤتيهِ من يشاءُ، وأنتم مِمّن شاء أن يؤتيَهُ فَضْلَه. فثَبَّتَهم بالحقِّ للقولِ الأول، ولم يَرْجع هو عن قولِه إلى نَقيضه. فَصحَّ تأويلُنا هذا من مآلِه الذى يؤولُ إليه، باستنباطنا عنه باطِنَ العِلْمِ، وبطَلَ حَمْلُهم الخبرَ على الظاهر، ولمّا يأتهم تأويلُه. ولذلك كَذَّبوا بِعلمه، إذ لم يعطوه حقيقةَ خبرِه وهو حيطَتُهُ، إذ تأويلُ الحقِّ الذى هو مآلُه وحقيقته عند الله تعليمٌ من الله، ليس على ظاهرِ الخطاب يستنبطُهُ أولو الألباب، وقد قال: «فَقِّهْهُ فى الدِّينِ، وعلِّمهُ التّأويلَ». شَهِد لبُطلانِ فهمِهم قولُ الرسول ﷺ فى أول الكلامِ: «لا يسبقكم مَنْ قبلكم ولا يلحقكم مَنْ بعدكم» فكان قولُه الثانى مواطئًا لقوله الأوّل، إذ لم يناقض الأوّلَ بالآخرِ. فهذا من سِحْرِ البيانِ، فى قوله: «إنّ مِن البيانِ لسِحْرًا».

كيف وقد جاءَ دليلُ مَا قُلْنا مكْشوفًا فى الحديثِ المفَسَّر الذى رُويناه عن زَيدِ بنِ أسْلَم عن أنسٍ رضى الله عنه قال: بعث الفقراءُ إلى رسول الله ﷺ رَسولاً فقال: إنّى رسولُ الفقراءِ إليكَ. فقال: «مرحبًا بكَ، وبمَن جئْتَ من عنْدَهُم، من عند قَومٍ أُحِبُّهُم». قال: قالوا: يا رسولَ الله، إنّ الأغنياءَ ذَهبُوا بالجَنّةِ، يَحجُّون ولا

نَقْدِر عليه، ويَعْتَمِرُونَ ولا نَقْدِر عَليه، وإذا مَرِضُوا بَعَثُوا بفَضْلِ أَمْوالِهم ذخيرةً لهم. فقال رسول الله ﷺ: «أبْلِغ عنّى الفُقَراءَ؛ أنّه لِمَنْ صَبر واحْتَسَب منْكُم ثلاثُ خصالٍ ليست للأغنياء. أما خَصْلَةٌ واحدَة: فإنّ فى الجَنَّة غُرُفًا يَنْظرُ إليها أهْلُ الجنةِ كما ينظرُ أهلُ الأرضِ إلى نُجومِ السَّماء، لا يَدْخُلُها إلا نبىٌّ فقيرٌ، أو شَهِيدٌ فقير، أو مؤمنٌ فقيرٌ. والثّانيةُ: يدخلُ الفُقَراءُ الجنةَ قبلَ الأغنياء بنِصْفِ يومٍ، وهو خَمْسمَائة عام. والثّالثةُ: إذا قال الغَنِىّ: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلا اللهُ، واللهُ أكْبر، وقال الفقير مِثْلَ ذَلك، لم يلحق الغَنِىُّ بالفقيرِ، وإن أنفقَ فيها عَشْرةَ آلافِ دِرْهَم. وكذلكَ أعمالُ البرِّ كلُّها». فرجع إليهم فقالوا: رَضِينا رضينا. فهذا يدل على صِحّةِ تَأْويلنا.

وقد رُوينا معنى هذا مجملاً فى الخبر الذى رُويناه عن إسماعيل بن عياش عن عبدِ الله بنِ دينارٍ عن ابنِ عُمَر رضى الله عنهما، أنّ النبى ﷺ قال لأصحابه: «أىُّ النّاسِ خيرٌ؟». قالوا: مُوسِرٌ مِن المال، يُعطى حقَّ الله فى نَفْسه وماله. فقال: «نِعْمَ الرّجلُ هذا، وليس به». قالوا: فَمَن خيرُ الناسِ؟ قال: «مؤمنٌ فَقيرٌ يُعْطِى جُهْدَه».

فذهبَ القومُ إلى علمِ العقْلِ، فردَّهم الرسولُ ﷺ إلى عِلْمِ اليقينِ، فكذلك من فضَّلَ حالَ الغنى على حالِ الفَقْر، فإنّه ينظرُ فى العلمِ بعَيْنِ العَقْلِ، وإنما يَشهدُ الآخرةَ والحقيقةَ بعين اليقين. فذلك قولُ علماء الدّنيا لا يعرفون غيرَه، إذ لم يَشْهَدُوا فَوْقَه، فقد تَعَلَّقُوا به. والثّانى: قولُ علماء الآخرةِ الزّاهدينَ فى الدُّنيا، الأعلين إلى مَقام الشُّهَداء، كما كان السَّلَف يقولون: «عالم الدُّنيا مَشْهورٌ، وعالمُ الآخرةِ مستور، ولله عاقبةُ الأُمور».

وهذا نصٌّ فى تفضيل حالِ الفقرِ، فمن فضَّل الغنى بعدَهُ فقد عانَدَ السُّنَّة. إن كان عالِمًا، فأحسنُ حالِه الجهل بالآثار. وإن كان جاهلاً، فمقامُه فى الجهلِ أضرُّ عليه من نُطْقِه بالعلم بهوًى.

وفى الخبر الآخر: «خيرُ هذهِ الأمةِ فُقراؤها. وأسرعُها تَضجُّعًا فى الجنّةِ ضُعَفاؤها».

وقال ﷺ لبلال: «الْقَ اللهَ تعالى فَقيرًا، ولا تَلْقَه غنيًا». قال: وكيف لى بذلك؟ قال: «إذا سُئِلْتَ فَلا تَمْنَع، وإذا أُعْطيتَ فلا تَخْبأْ». فهذا أمرٌ من الرّسول. أفتراه كان يأمر بلالاً بأدْنَى الحالينِ، فكيفَ وهُو من أعْلى الصحابة؟ فأشْبَهَ الفَقْرُ فى الأحوالِ اليقينَ فى الإيمان. كما قال لابنِ عُمر: «اعْمَلْ لله بالرّضا واليقينِ، فإن لم يكن فإن فى الصَبْرِ على ما تكْره خيرًا كثيرًا». فرفعه إلى اليقينِ لفضلِه، كما رفعَ بِلالاً إلى الفقرِ لشرفِهِ فى الأحوال. فلم يكن ﷺ يرضى لبلالِ إلا ما يرضاه لنفسه.

كذلك رُويناه فى حديث عطاء عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اللهم تَوفَّنى فقيرًا، ولا تَوَفَّنى غنيًا». وهذا نَصٌّ آخر فى تشريف الفقيرِ. فلذلك أمر بلالاً أن يلقى اللهَ فقيرًا ولا يلقاه غنيًا، كما أمر ابنَ عمر بأعلى المقامين وأفضل الحالينِ؛ وهو الرّضا واليقين. وفى الخبرِ فقهٌ آخر يدلُّ على حقيقة الفقير المتحقِّقِ بالفَقْرِ: مَن إذا سُئل لم يمنع، وإذا أُعطِى لم يدَّخر، كما فسّرَهُ النبىّ ﷺ به. وهذا وصْفُ السّخاء، وقِصَرُ الأمل، وهما حقيقةُ الزُّهد، وشاهدُ اليقين. فكان بلال رضى الله عنه بالوصف الذى أمرَهُ رسولُ الله ﷺ، وهو من الطبقة الأولى من الصحابة، ضَمّهُ عمر رضى الله عنه الذى تَنطقُ السّكينةُ على لسانه إلى أبى بكر، وسوَّده على نفسهِ، فى قوله: «أبو بكر سيّدُنا، وأعتق بلالاً سيّدَنا».

فلو كان بلالٌ طالبًا لغير الله من عِلْمٍ أو شخصٍ أو فضلٍ لَزِمَ قدمَ أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وعكفَ فى المسجدِ الذى أُسِّس على التقوى، إذ قد علمَ أن صلاةً واحدةً أفضل فيه من ألف صلاة. فخرج ذاهبًا إلى ربّه، واجدًا له بقلبه حيث أوجده. فكان آخرهُ يُشْبِهُ أوّلَهُ؛ لأنه طلب بالتوحيد، فطلب الوَحدةَ، كقوله فى أوّل إسلامه مع تعذيب الكفار له: «أحدٌ أحدٌ». فرْدٌ بتَوَحُّدِهِ إلى أحَدِه للوَصْف الذى أُفردَ به، فصار الفَقْرُ حالَ المُوقنِ؛ لأنّه يكشف الآخرة. وصارَ الشكرُ فى الغِنى حالَ المؤمنِ؛ لأنّه يشهد الدّنيا، فَفَضْلُ الفقيرِ الزّاهدِ على الغنىِّ الشاكر كفضل الموقنِ المشاهد على المؤمن المجاهد.

ولذلك جاء الخبرُ المشتَهرُ الذى دعا فيه ﷺ لنفسه أن يُحْيِيَهُ اللهُ مسكينًا، ويتوفَّاهُ مسكينًا، ويَحْشُرُهُ فى زمرةِ المساكين. كلّ ذلك تفضيل للفقير، وتشريف للفقراء، مع قوله ﷺ: «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم، خمسمائة عام».

ورُوينا عن عيسى عليه السلام أنّه قال: «إنّى لأُحِبُّ المسْكَنَةَ، وأبغضُ المالَ للغَنِىّ. وإنَّ فى المالِ داءً كثيرًا. قيل: يا رُوحَ اللهِ، وإن كان يكْتسبه من حَلال؟ قال: يشغلُه كَسْبُه عَن ذِكْرِ اللهِ تعالى».

قال وهبُ بن منبِّه لابنِ عباس: إنّا نجدُ فى التوراةِ أنَّ الفقيرَ المصْلِح خيرٌ من الغنىّ المصْلِح. قال ابنُ عباس: أما علِمْتَ أنّه لا شىءَ أحبُّ إلى اللهِ تعالى من الفقيرِ إذا كان صالحًا.

وقيل: كان أحبُّ الأسماءِ إلى عيسى عليه السّلام أنْ يُدْعى به أن يقالَ له: يا مِسْكين. وكان يقول: «من شرِّ الغنَى أن العبدَ يَعْصِى لِيَسْتَغْنى، ولا يَعْصِى لِيَفْتَقِر».

وقد قال بعضُ حُكَمائنا فى كلامٍ منظومٍ:

يا عَائبًا للفَقْرِ تَبْغِى الغِنى   عَيْبُ الغنى أَعْظَمُ لو تَعْتَبِرْ
إنَّك تَعْصِى لِتَنالَ الغنى   ولَسْتَ تَعْصِى اللهَ كى تَفْتَقِرْ

ورُوينا فى حديثِ عطاء عن أبى سعيد الخدرى: «يا أيُّها الناسُ، لا تحملنَّكُم العُسْرَةُ والفَاقةُ على أن تَطْلُبوا الرِّزْقَ من غيْرِ حِلّه، فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: اللّهم تَوَفَّنى فقيرًا، ولا تَوفَّنى غنيًا، واحشرنى فى زُمْرَةِ المساكين».

وقال لقمان لابنه: «يا بُنَى، إنَّ من أعْونِ الأخلاقِ على صَلاحِ الدِّين زُهْدًا فى الدّنيا. مَن يَزْهَدُ فى الدُّنيا يرْغَبُ فيما عندَ الله تعالى، ومن يرغبُ فيما عندَ الله تعالى يَعْمل لله تعالى، ومَن يَعْمل لله تعالى يأْجُره اللهُ تعالى».

وقال الحَوارِيُّونَ: «يا رُوحَ الله، نحن نُصَلِّى كما تُصَلِّى، ونصومُ كما تصومُ، ونذكرُ اللهُ تعالى كما أمرْتَنا، ولا نَقْدِرُ نَمْشى على الماء كما تَمْشى أنت. فقال: أخبِرُونى كيف حبُكم للدنيا؟ قالوا: إنّا لَنحبُّها. فقال: إن حبَّها يُفْسِد الدِّينَ،

لكنها عندى بمنزلة الحَجَر والمدَر». وفى خبر آخر: «أنه رَفَع حَجرًا فقال: أيّهما أحبُّ إلَيكم هذَا أو الدِّينار والدّرهم؟ قالوا: الدينار. قال: فإنّهما عندى سواء».

وكذلك الأمرُ فى الفُقراءِ والأغنياءِ عند العارفِ؛ لأنّها جوهرٌ واحد، من مَعْدنٍ واحد، لا يتغلب عليه منهما، ولا تختلف عنده جوهرها فى وَجْده؛ لأجل افتراقِها، فينظر وقد أفرغ الأحكام بها، ولمواقع الحكمةِ فيها، فهى عَلَى شَهادَتِه (. . .)[1] لا به، ينظر بعين يقينهِ عن نور شهيدهِ، فلما عَرَفها يَقِينًا عن حقيقةِ خبرٍ، لا عن عِلْمِ خبرٍ.

وحقًّا أقول: إنّ مَن حَرَصَ على الدُّنيا، واشْتَدَّ حبُّه لها، فإنه لا يعرِف اللهَ، ولا يعرفُ الآخِرَةَ، ولا يعرفُ الدُّنيا. لأنَّ معرفةَ الله عن مشاهدَة، ومعرفةَ الآخرةِ عن يقينٍ، ومعرفةَ الدُّنيا بعقل رجيحٍ، وبَصرٍ صحيحٍ، يوجبُ ذلَكَ كلُّه الزُّهدَ فى الدُّنيا. فتفكَّروا.

ويقال: إنّ مَن صَحَّ زُهْدُه فى الدُّنيا، حتّى يَستوى عنده ذَهَبُها وحَجَرُها، مَشَى على الماء. وقد اشتهر ذلك فى العامّةِ، حتّى قال الشاعرُ:

لو كانَ زُهْدُك فى الدُّنيا كزُهدِكَ فى وَصْلِى، مَشَيْتَ بلا شكٍّ عَلَى المـاءِ

وروينا أن عيسى عليه السلام مرَّ فى سياحَتِه برجلٍ نائم، مُلتفٌّ فى عباءَة، فأيقظهُ، وقال: قُم يا نائم، فاذكُرِ اللهَ، وصَلِّ. فقال: ما تُريد منّى، قد تركتُ الدُّنيا لأَهْلها، وتخلَّيتُ عنها. فقال له عيسى: نَمْ حبيبى، نَم إذَن.

واعلم أنّه يكْفى من العمل مع الزُّهْدِ أداءُ الفرائضِ، واجتنابُ المحارم. ويُرفع العبدُ بقَدْر زُهدِه إلى منازلِ الأبدال الطبقةِ العليا، وهم الأقلُّ منهم؛ مثل: السبعة، والاثنى عشر، والأربعين، والسَّبْعين، وهؤلاء أفاضلهم. أو إلى مقام الطبقةِ الوسْطى نحو المائة وزيادة إلى دون المائتين. أو إلى الطبقة الدُّنيا ما زاد على المائتين إلى الثلاثمائة.

ولا يكونُ بَدَلٌ رَاغبًا فى الدُّنيا، مُحبًا لها أَصْلاً. فيكْفِى به نَقْصًا حِرمانُه

---

(١) طمس قدر كلمتين.

مَقامات الأبدال، لكنّه من الصدِّيقين والأشهاد، والصالحينَ الأوتاد، ﴿فأُولَئكَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ منَ النَّبيينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداء والصَّالحينَ وحَسُنَ أُولئكَ رَفيقًا * ذلكَ الفَضْلُ منَ الله﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠]، ﴿ويُؤْتِ كُلَّ ذى فَضْلٍ فَضْلَه﴾ [هود: ٣]، ﴿ليَجْزِىَ الَّذينَ آمنُوا وعَملُوا الصَّالحات من فَضْله﴾ [الروم: ٤٥]، هذه الآى للمُقَرَّبينَ، وهم [الذين قال فيهم]: ﴿ليَجْزِىَ الَّذينَ آمنُوا وعَملُوا الصَّالحات بالقِسْط﴾ [يونس: ٤]، ﴿إنَّا لا نُضيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَملاً﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿إنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ المُحسنينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، هذه(١) الآيات [للمحسنين...](٢) وعُمومُ المؤمنين قولاً، لا يقوم ولا يُعنى من الأعمال (...) الرَّغبة فى الدُّنيا، لأنّها بَغيضةُ اللهِ ولَعينتُه. فاعْتبرُوا يا أُولى الأبصار.

وروينا عن موسى عليه السَّلام: [أنه] مَرَّ برجلٍ نائم على التُّراب، تحت رأسه لَبنةٌ، ووجهُهُ ولحيتُه فى الأرضِ، وهُو متزرٌ بشملِ عَباءة. قال: يا ربِّ، هذا عَبدُك المؤمن هو فى الدّنيا ضائع. فأوحى الله إليه: أما علِمتَ أنّى إذا نَظَرْتُ إلى عبدِى بوَجْهى كلّه زويتُ عنه الدّنيا كلَّها.

فهذا عبدٌ أحبَّ ربَّه بكُلِّ قَلْبه، فنظرَ الرَّبُّ إليه بكلِّ وجهه، فزوى عنه كلَّ الدُّنيا. وقد كان من أصحابِ النبىِّ ﷺ مثلُه وخيرٌ منه: سالمٌ مَوْلى أبى حُذيفة. وهو أحدُ السِّتَّة الذين جمعوا كلَّ القرآن على عهد رسول الله ﷺ. كان من خير الصحابةِ؛ لأنّه كان يحبُّ الله تعالى بكلِّ قَلْبه، شهدَ له الصَّادقُ المصدَّقُ ﷺ.

فتدبّر فَهْمَ الخِطابِ: إنّ مَن أحبَّ اللهَ تعالى ببعض قَلْبه، نظر إليه ببعض وَجْهه، فزوى عنه بعض الدُّنيا لا كُلَّها؛ لأنّه جعَل حُبَّ الزُّهدِ فى الدُّنيا دليلاً على حبِّ الله، فصار حبُّ الله معياراً يُعايَر به الزُّهدُ.

وفى الخبر المشهور: «مَن أرادَ أن يحبَّه اللهُ، فلْيَزْهَد فى الدُّنيا»، ففى تدبُّرِه: إنّ

---

(١) فى الأصل: «هؤلاء الآيات».

(٢) كان هناك بعض الطمس فى الآيات القرآنية السابقة، أتممتها من المصحف، وبقى هذا الموضع والذى يليه، كل واحد بمقدار كلمتين أو أكثر.

من أحب الدُّنيا لم يحبّه اللهُ، إذ أَحبَّ ما يبغضُهُ، فلم يوافقْهُ في رضاه، وخالَفَهُ في مَحبَّتِه.

وروينا خبرًا غَريبًا عن إسماعيلِ، مفسِّرًا للخَبر المشهورِ والمجملِ عن موسى عليه السّلام: «إنّ اللهَ عز وجلّ أَوحى إلى إسماعيل عليه السلام: اطْلُبنى عند المنكَسِرةِ قُلوبُهم. قال: يا ربِّ، ومَن هم؟ قال: الفقراء الصّادقونَ». فكأن هذا مُفسّر خبر موسى فى قوله: «أينَ أَجدُكَ؟ قال: عند المنكَسِرة قُلوبُهم».

فَمنْ صدْقِ الفَقْرِ الزُّهدُ، إذ الزُّهدُ حقيقته، والفَقْرُ داخلٌ فيه؛ لأنّ كلَّ زاهدٍ فى الدُّنيا فقيرٌ منها، لا مَحالةَ كانت داخلةً فى حقيقته به بحُكم حاكمٍ، وتوكيل مُوكِّلٍ، وليس كلُّ فَقيرٍ زاهدًا، فصار حَقيقةُ الغنَى هو الزُّهد؛ لأنَّه استَغْنَى بمولاه عن فُضُولِ الدُّنيا، فَقلَّت حَوائجُه فيها، فَقَلَّ بذلكَ فَقْرُهُ إليها. وكان حقيقةُ الفَقْرِ هُو الرَّغبةَ؛ استَغْنى بها، فافتقر إليها، فكُلّمَا مَلَك منها شيئًا أفْقَرهُ إلى شىء، وكُلَّما فَتَح منها بابًا، أو سَلَك منها شعْبًا، أو تعلَّق بشىء، فَتَح عليه، وتَشَعَّبَ به، لاتّساعِ الأماكن به، ويُغْلَق عليه أَضْعَافُ ذلك. فاعتبرُوا لتوسُّعِ الأَسبابِ عليه، فيكثُر لذلك همُّه وشرَدان[1] معه شغلُه. والفقيرُ بِضدِّ ذلك.

وكان ابن معاذٍ يقول: ما تَحمل من الدُّنيا شيئًا إلا أفْقَرَكَ حَمْلُه إلى غَيْرِه، ولو إبْرة تحتاجُ لها إلى موضعٍ. وكان ينوِّع أهلَ الآخِرَة أثلاثًا، فحُدِّثتُ عنه أنه قال: أولياءُ الآخرةِ ثلاثةٌ: قانعٌ، وزاهدٌ، وصدِّيق. فالقانِعُ: المحترفُ، الطّالبُ للحلالِ، المنفق على السبيل والسُّنّة، النّازلُ عن جناحِ الرَّغبةِ فى طلب الفُضول من حُطامِ الدُّنيا. والزَّاهدُ: التّاركُ للدُّنيا ونعيمها، بعد أن أصابَ نعيمَ الدُّنيا مِن غير كُلْفَة، أكل، ونكح، وإن مُنِع صَبَر ورَضى. قال: والصِّدِّيق الذى هو الواحد المفتقر، لا يُريدُهُ لمزايلة المشهود إيّاه.

وقال: كان عامر بن عبد قيس[2] صَدُوقًا فى وصف نَفْسِه. يعنى فى قَولِه:

(١) شردان: أى شرود باله.

(٢) من الطبقة الأولى من التابعين، له ترجمة فى الحلية ٢/ ٨٧، وخبره هنا فى الحلية بلفظ مختلف ومختصر، ففيه «المال» بدلاً من «اللباس».

رأيتُ الدُّنيا أربعة أسماء: النِّساء، واللِّباس، والطعام، والنَّوم. فأما النِّساءُ واللباسُ فلا حاجةَ لى فيهما، ما أدرى [إن أقبلت امرأة أكانت](١) أنثى أم ذَكَرًا. وما أبالى إذا لبستُ (. . .) وأمّا الطعامُ والنَّومُ [فلا بدَّ لى منهما، فوالله لأضرّنَّ بهما جهدى](٢) فيتحول نوم الليل إلى النّهارِ، فجعل طعامه فى النهار بالليل، فكان يظلُّ صائمًا (. . .) قائمًا.

وكذلك قال بعض العُبّاد: إن العبادةَ أَرْبعةٌ: الصَّلاةُ، والصّيامُ، وقِلَّةُ الأَكْلِ، وقلّةُ النّوم، فتُعْرف قِلّة الطعام والمَنَامِ بالصَّلاة والصيام. وجعل [كثرة] الطعام والنَّوم من أبواب الدُّنيا. فقال: أصولُ الشَّرِّ ثلاثةٌ، تفرّع عنه ستَّة أشياء. أُصولُه: الحِرصُ، والحَسَدُ، وحبُّ الدُّنيا. وفروعه: طلبُ الرِّياسةِ، والفخْرُ، والثّناءُ، وحبُّ الرَّاحةِ، والطعامُ، والنومُ.

وقد قيل لبَعْضِهِم: مَن تَرحَمُ مِن النَّاسِ؟ قال: مَن إذا رأى شَيْئًا طيِّبًا اشْتَهَاهُ؛ لأجْلِ هذا تركوا دِينَهُم. وقال أيضًا: ليس بزاهدٍ من اسْتعمل غيرَهُ بما يصلُ هو إلى فعلهِ.

يعنى: أن يخدم هو نفسه، ولا يَسْتَخْدم. فقد شدد هذا فى الزُّهد.

وقد قاله أبو سليمان لأحمد، قال ابنُ أبى الحوارىّ: قلتُ لبعض أصحابنا: اسْقِنى ماء، فناولنى شَرَبةً. فقال لى أبو سليمان: رأيتَ مَن زهِد فى الدُّنيا يَسْتَخْدِم ويقول: اسقِنى ماء؟!

وكان يحيى الرَّازى(٣) يُدخل العِلْم والعبادَةَ فى الزُّهد، ويجعل الثَّلاثَ كالشىء الواحد، لا يتم بعضُهُ إلا ببعضٍ، فقال: الزُّهدُ والعِبادةُ والعِلمُ مثلُ الثَّوْبِ، سُدَاهُ الزُّهد، ولُحْمَتُهُ العِبادة، ونَسَاجُهُ العِلم. لا يلتحم الثوب بغير هذه الثلاث، كذا لا يلتئم أمرُ الآخرةِ إلا بثلاثها. وأجملَهُ فى كلمة، أعنى الزُّهدَ، فقال: الدُّنيا كُلُّها نَفْسُك، فما قَصَرْتَ من نفسك تركتَ من دُنياكَ. وهو كما قال. الدُّنيا صورةُ

(١) تلف بالأصل، وقد وضعت هذا اجتهادًا منى.

(٢) تلف بالأصل، وأتممته من الحلية.

(٣) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٨٤.

النَّفْس باطنةٌ، وهما إخوةٌ مُتَوَاخِيةٌ، فما غَلَبكَ من النَّفْسِ فقد أمالَكَ وغَلَبكَ من الدُّنيا.

وقد كان أحمد بن عطاء، وهو من المتأخرين، يفضِّل حالَ الغِنَى على الفَقْرِ، بشُبْهةٍ دخلَتْ عليه، وهو أن بعضَ الشُّيوخِ سأله عن الوَصْفَيْنِ أيِّهما أفضل؟ فقال: الغِنى؛ لأنّه صِفَةُ الحقِّ. فقال له الشيخُ: فالحقُّ غنىٌّ بالأسبابِ؟ فانقطَع، ولم ينطق بحَرْف.

وهذا كما قال الشيخ؛ لأَنَّ الحقَّ سبحانه غنىٌّ بِوَصْفِه. فالفقيرُ أحقُّ بهذا المعنى؛ لأنّه غَنِىٌّ بوَصْفه بالإيمان لا بالأسبابِ لانْفِرَاده عَنْها، فهو الأفضل وإلى الحقِّ أَقْرَبُ. فأما الغنىُّ فإِنَّهُ مُشْتَّتٌ مجتمعٌ بالأسبابِ، فهُو مَفْضولٌ بالارْتيابِ.

وقد خالَفَهُ الخوّاصُ فَوُفِّقَ للصَّوابِ، وكان فوقه فى المعرفة، فقال فى كتابِهِ (شَرَف الفَقْرِ): والفقرُ صفةُ الحقِّ؛ أى صفة من يصف به الفقراء. فوافقنا فى التأويل، يعنى أنه تعالى متخلٍّ عن الأسباب، منفردٌ عنها.

ووجهٌ آخر من الغلط الفاحش الذى دخل على ابن عطاء من جهة المعنى الذى ذكره؛ لأنّه إن كان فضَّل الغِنى على الفَقْرِ، لأنّه صفَةُ الحقِّ، فينبغى أن يفضِّلَ المتكبِّرَ الجبَّارَ، ومن أحبَّ المدحَ والعزَّ والحمدَ؛ لأنَّ ذلك كلَّه صفةُ الحقِّ، فلما أجمعَ أهلُ القبلةِ على ذمِّ مَنْ كان هذا وَصفُه، كان من وُصِفَ بالغنى فى معناه؛ لأن وَصْفَ الغِنَى صفةُ الحقِّ مقترنٌ بالعزِّ والكِبْر. وينبغى أن نُسلِّمَ صفاتَ الحقِّ للحقِّ، ولا يُنازَع إياها، ولا يُشارَك فيها.

فبطل قولُ ابن عطاء لصحة قولِ الرسول ﷺ: «يقولُ اللهُ تعالى: العزُّ إِزارى، والكبرياءُ ردائى، مَن نازعنى أَحَدَهُما قصمتُه فى النّارِ».

وقد خالَفَهُ أيضًا ووافقنا مَن لا يشكّ الخاصُّ والعامُّ فى فَضْلِ معرفته عليه، أبو محمّد سهل بن عبد الله فقال: مَنْ أحبَّ الغنى والبقاءَ والعزَّ، فقد نازَعَ اللهَ تعالى صفاتَه، وهذه صفاتُ الرُّبوبية، يُخاف عليه الهَلَكة.

فإذا ثبتَ ذلكَ، كان الفقرُ أفضلَ؛ لأنّه وصفُ العُبوديةِ. فمَن جعَلَهُ وَصْفَه فقد تحقَّق بالعُبوديةِ. وأوصافُ العبوديةِ هى أخلاقُ الإيمان، وهى التى أحبّها اللهُ تعالى

من المؤمنين، مثل: الخَوف، والذُّلِّ، والتّواضُع، والفَقْرُ مضافٌ إليها. وأوصافُ الرُّبوبيةِ ابتلى بها قُلوبَ أعدائه الجبَّارِينَ والمتكبِّرينَ، مثل العزِّ، والكبرِ، والبقاءِ، والغِنَى مضمومٌ إليها.

وكان الحسنُ رَحمه الله يقول: ما رأيتُ اللهَ تعالى جعَلَ البقاءَ إلا لأَبْغَضِ خَلْقه إلَيه وهو إبليس. وكذلك كان العلماءُ يقولون: لا تَرْغَبُوا فى البقاءِ فى هذه الدُنيا، فإنَّ شِرارَ الخلْقِ أطْوَلُهم بَقاءً؛ وهُم الشَّياطين.

والغِنى إنّما يُرادُ للبَقَاء، فهو مُواخٍ له، والعزُّ مُقْترنٌ بالغنى؛ لأنّه مقتضاه. فصار الفقرُ مُقْترنًا به الذُّلُّ؛ لأنّه مُوجبُهُ، وهان مَعَه نزولُ الموتِ أو تَمَنِّيه. وقَلَّ أسفُ الفَقِير وحَسرتُهُ عند موته، فصار قِصَرُ الأملِ كأنّه مقتضى الفَقْرِ، لأنّه ضدٌّ طُولِ البقاء، كما الفَقْرُ ضدُّ الغنى.

ولولا أن الفَقْرَ أقربُ الطُّرقاتِ إلى الله لأوليائه، وأَحْسنُها وصولاً به، وأقْومُها صِراطًا، وأَضْيقُها على القاعدين عنده بساطًا، لم يقُل عدوُّ الله وعدُوُّ أوليائه لعباده المُخْلصين: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُم صراطَكَ المُسْتَقيمَ﴾ [الأعراف:١٦] قيل: الفقْرُ. شهد له المفسِّرُ من قَولِه: ﴿الشَّيْطانُ يَعدُكُمُ الفَقْرَ﴾ [البقرة:٢٦٨]، ثم قَرَن به الأمرَ بالسُّوءِ والفَحْشاء، وهو الجمعُ والمنعُ، لوجودِ الهوَى من النّفس الأمّارة بالسُّوء. فصار من خافَ الفَقْر، فجمعَ ليَسْتَغْنى، ومَنَع لئلا يَفْتَقِر، مُصدِّقًا لوَعْد الشَّيطان فيما اتَّبعَ، وذلك فاحِشَةٌ منه؛ إذْ لَهُ ائتَمر، ومنهما وعَدَ الرَّحمنُ بالمغفرة والفَضْلِ، وهو تكْفيرُ السّيئات، والتعويضُ من المال بالحسنات، إذْ يقول: ﴿وإنْ تُخْفُوها وتُؤْتُوها الفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ويُكَفِّرُ عَنْكُمْ﴾ الآية [البقرة:٢٧١]. فإن فى فَهْم الخَطاب أنّ مُخْتارِى الفَقْرِ على الغِنَى أفْضلُ العبَادِ [لأنهم قطعوا](١) على حدّ قُوتهم طَرِيقَهُ الذى أرادَ أن يَقْطَعَهُم به عَن طريق الله، فهم المتَّقُون حقًّا، الذَّاكرونَ الله كثيرًا عنْدَ لِقاءِ العدُوّ صِدْقًا فى قولِه: ﴿إنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائفٌ مِّنَ

(١) طمس قدر كلمتين. وكلمة «حدّ قوتهم» قد تقرأ «حدقهم» وغير ذلك لأنها غير واضحة تمامًا، والله أعلم.

الشَّيْطان﴾ يكون بتخويف الفَقْرِ بالعُدول عن طريقه ﴿تَذكَّرُوا﴾ الله تعالى بوَجْد يقينهم ﴿فإذَا هُمْ مُبْصرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فأبصروا طَريقَهُم إليه، فَغَنَوْا به. كما قال الرسولُ ﷺ: «كفَى باليقين غنًى». فهم أعْلى العباد مقامًا؛ إذ سَلكُوا طريقًا خافَهُ النّاسُ، وإذ أقاموا على المحجَّة القائمة التى قَعَد لهم عدُوُّ الله عليها، فاستقاموا إلى الحقِّ بالحقِّ فيها، ورابَطُوا قلُوبَهُم بالمواصلة، وصَبَروا نُفُوسَهُم بالمشاحَنَة، وصابرُوا بالمعاملة عَدُوَّهُم، فانَهزَمَ العدُوُّ اللعينُ، وثبتُوا تثبيت الحقِّ المبين؛ لحسنِ التوكّلِ عليه، وتفويضِ الأمرِ إليه، وبحُسنِ الظَّنِّ به لمزيد الإيمان منه، إذْ قِيلَ لهم: ﴿قَدْ جمَعُوا لَكُم فاخْشَوْهُمْ فَزادَهُم إيمانًا وقَالُوا حَسْبُنا اللهُ ونعْمَ الوَكيلُ﴾ إلى ﴿إنَّما ذَلكُمُ الشَّيْطانُ يُخوِّفُ أوْلياءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥]. وهؤلاء أولياء الله. فَتَدبَّرُوا.

ويقال: إنَّ الجُنيدَ ـ رحمه الله تعالى ـ بَاهلَ ابنَ عطاء فى هذه المسألة، ودعَا عَلَيه، لأنّه أنكرَ قولهُ أشَدَّ الإنكار. وكان يقول: الفقيرُ الصّابرُ أفضلُ من الغنيِّ الشّاكرِ، وإن تَساويَا فى القيامِ بحكْمِ حَالهما؛ لأنَّ الغنيَّ التَّقيَّ يُمتِّعُ نفسه ويُنعِّمُ صِفتَه، والفقيرُ الصّابرُ قد أدخلَ على صفته الآلامَ والمكارهَ، فقد زَادَ عليه بذلك.

وهذا كما قال. وكذلك كان أحمد بن حنبل يقول: ما أعْدلُ بالفقرِ شيئًا. وكانَ يُفضِّلُ حالَ الفقرِ، ويعظِّم شأنَ الفقيرِ الصّابرِ. وقال المروزى، وذُكرَ بعضُ الفقراءِ، فجعل يمجِّدُه ويُكثِرُ السُّؤالَ عنه. قال: فَقُلتُ له: يحتاجُ إلى عِلْم. فقال: ويحكَ اسْكت؛ صَبْرُه عَلَى الفَقْرِ ومُقاساَتُه للضُّرِّ فيه خَيْرٌ مِن كَثيرٍ مِن العِلْمِ. ثم قال: هؤلاء خَيْرٌ مِنّا بكثير.

وأقول: إنّه من فَضَّل حالَ الغنى على الفَقْرِ، فإنّه لم يذق مَرَارَةَ الفَقْرِ ولا حلاوتَهُ، فهو غرٌّ بشدَّته، فاقدٌ لحَلاوته. لأنّه لو ذاق مرارتَهُ فى مقامِ الصَّبْر من الضُّرِّ والهَمِّ فَضَّلَه، ولو أُذيقَ حَلاوتَهُ من الزُّهدِ فى مقامِ الرِّضا لَمَا فَضَّل عليه.

وتكلَّم مَرّةً يحيى بن معاذ فى آفات الغنى، وأنَّ سلامةَ الدِّين مع فَقْد آفة المال. فقال له رجلٌ: تُريدُ أن تُخرِجَنى من ضَيْعتى. قال له يحيى: لستُ آمرُكَ بالخروجِ

من ضَيْعَتك، ولكنّي سائلُكَ عن الدُّنيا، كيف دُفعت إليكَ أمع الآفات أم بغَير آفات؟ قال: بل مع الآفات. قال له يحيى: فإنّما أمْرُك بحفْظ دينكَ من الآفات. فإن كان في حفظ دينك ذَهابُ دُنياك، فإلى نار الله الحامية مع أهلها لا رَجَعت أبدًا. ثم قال: النّاسُ رجلان، ولكل واحد رأسُ مال لا بدّ منه، فمن كان رأسُ ماله الدّين فتجارتُهُ مع الله، وربحُه الجنَّةُ. ومن كان رأسُ ماله الدُّنيا فتجارتُهُ مع الشيطانِ، وخُسرانُهُ النّارُ. وقال: الشُّكُوك ثلاثة، كلُّها كُفر: شكٌّ في الله، وشكٌّ في الإيمان، وشكٌّ في الرّزقِ من وَعْد الله.

• ذكر ماهية الدنيا وكيفية الزهد فيها وتفاوت الزهاد في مقاماتهم:

ثم إنَّ الدُّنيا هي نصيبُ كلِّ عبد منَ الهوَى، وما دَنا من قَلْبه منَ الشّهوات. فمن زَهدَ في نصيبه ومُلكه من هَواهُ المذموم؛ فهذا هُو الزُّهد المفترَضُ. ومن زَهدَ في نصيبه من المباحِ، وهو فضولُ الحاجةِ من كلِّ شيء؛ فهذا هو الزُّهدُ المفضَّلُ؛ يرجع ذلك إلى حُظوظِ جَوارحِه، التي هي أبوابُ الدنيا منه، وطُرقُها إليه.

فالزُّهد في حرماتها هو زُهدُ المسلمين، به يَحْسُن إسلامُهُم. والزُّهد في شُبُهاتها هو زُهْدُ الوَرعين، به يكْمُل إيمانُهُم. والزُّهد في حَلالِها من فُضُولِ حاجاتِ النّفس هو زُهدُ الزّاهدينَ، به يَصْفُو يَقينُهُم.

ورُوينا في حديث عمرو بن ميمونَ، عن الزُّبير بن العَوّام: أنَّ النبي ﷺ قال له: «يا زبيرُ، اجْهَد نفسَك عندَ نُزولِ الشّهواتِ والشُّبُهاتِ بالوَرَعِ الصّادق عَن مَحارِمِ الله عزّ وجلّ، وادْخُلِ الجَنّةَ بغيرِ حِسابٍ».

وكان سهلٌ يقول في فَضَائل الزُّهد وأعالي مَقاماته: لا يَتِمُّ زُهدُ عبد حتى يزهَدَ في هذه الثلاث: في الدِّرْهم الذي يُريد أن يُنفقَه في أبوابِ البرِّ، يتقرّبُ بذلك إلى الله تعالى. ويَزْهَدُ في الثّيابِ التي تستُرُ بَدَنَهُ في الطّاعات. ويزهَدُ في قُوته الذي يَسْتَعين به على العبادة.

وإنّما قال هذا، لأنّ عندَه أن حقيقةَ الزّهد من أفْضلِ المقامات كلِّها؛ لأنّه كان يقولُ: يُعْطَى الزّاهدُ جميعَ ثَوابِ العُلَماءِ والعُبّادِ، ثم يُقَسَّمُ على المؤمنين ثوابُ أعماله.

وقال: لا يُرى فى القيامةِ أحدٌ أفضلَ من ذى زُهدٍ عالمٍ ورِعٍ. وقال مَرة: لا يُنال الزُّهدُ إلا بالخوفِ؛ لأن من خاف تركَ.

فجعل الزُّهدَ مقامًا فى الخوفِ، رفعه مزيدًا له، وكان عنده رحمه الله (. . .)[1] للعبادة استفراغ قُوّة النَّفْسِ، وإدَخال الضّعف على حَركاتها، ليكْسرَ شرَّها، وتقلَّ آفاتُها؛ مِن فَضْلِ الطّعامِ، والكَلامِ، والمنامِ، وتَركِ مُجالسةِ الأنامِ.

وهذا طريق البَصْريين فى التَقلُّلِ والتَّجوُّعِ، والانقطاعِ عن الخَلْقِ؛ إذ هو مُقتضى الزُّهد عندهم. وروى مسروق عن ابن مسعود، قال: «ركعتانِ من زاهدٍ قلبُه خيرٌ له وأحبُّ إلى اللهِ تعالى من عِبادَةِ المتعبِّدينَ المُجْتَهِدينَ إلى آخرِ الدَّهْرِ.

وكان ابن معاذ يقول فى زُهْد العارفين، ومَقامات المقرَّبينَ من الزُّهادِ: كلُّ مأخوذٍ مِن الدُّنيا لَم يكُن عَونًا لكَ على تَرْكِها، فهو علَيك. وكلُّ مَتروكٍ منها لا يكون عونًا لكَ على الطَّاعة، فليس لك.

وقال: لا زُهدَ إلا بعْدَ الورَعِ. تورَّعْ عنِ الشُّبهاتِ، وعمّا ليس لكَ بحقٍّ، ثم ازْهد فى الحلالِ، وفيما هو حَقٌّ لك.

وقال: عيشُ العارفِ فى الدُّنيا مدافَعةُ الأوقاتِ.

وقال: إذا كان العَملُ لا ميراثَ له، فاعْلم أنه عملٌ بلا زُهْد. ومَن عجز عَن الزُّهدِ فهو عن الحُبِّ أعجزُ.

وقال: المعْرفةُ شَجَرةٌ أغْصانُها الزُّهد.

وكان يقول: ليس فى الدُّنيا من الدُّنيا حَسنٌ كل حسنٍ، وإنّما هو من الآخِرةِ، أُظهِرَ الحُسْنُ فى الشىء يُريكَ متعة الآخِرةِ، فإن اعتَبرتَ به نَظرتَ إلى الآخرةِ.

وقال: بلوى الزّاهِدينَ بالدّنيا، وبَلْوَى العارفين بالآخرة. وحُبُّ الدُّنيا بلوى، وحُبُّكَ الآخرةِ بلاءٌ.

وقال: يأبَى اللهُ أن يفتح رَوْحَ المعْرفةِ لكَ حتى يَستوى عندك الأحوال كُلّها:

---

(١) تلف فى الأصل بمقدار خمسة أسطر.

الفقْرُ والغِنى، والعِزُّ والذُّلُّ، والصِّحةُ والمرض، وما أشبهه.

يعنى بهذا أنّ القَلبَ إذا استقام على مَعْرفة الله تعالى، وصَحَّ فى مَحبّته، لم يَختلف على الله لاختلاف الأحوالِ عليه، واستوى مع الله فى جريان الأحكامِ، إذ المأوى عند الله يُكنُّه، والظِّلُّ من الله يُؤْوِيه، ولَيْس له وَطَنٌ يَحنُّ إليه، إذْ لا سكَن له يأنسُ به فيه؛ لأنّ قَلْبَه معَهُ حيثما كان، وهمُّهُ أمامَهُ أينما تَوَجَّه، فثَمَّ وَجْهُ الله.

وكان يقول: الزّاهدُ يقول بلسانه لا أُريد، وقَلْبُه يريد. والعارفُ يقول بلسانه أريدُ، وقلْبُه لا يُريدُ. وإذا زهد تركَ الشَّهوات، وإذا عَرَفَ عاودَها. وقيل له: ما بالُ العارفِ يعاود الشَّهوات من الدُّنيا بعد تركها؟ فقال: إذا عُتِّق الشّراب واشتَدَّ احْتاج إلى المِزاج بالماء، لكنه يكون اليوْم فى أخْذِها أفْضلَ منه حينئذٍ فى تَرْكِها.

وقال: العالم يقول: كيف آخذ الدّنيا والزَّاهِدُ يقول: كيف أترك الدُّنيا؟ والعارفُ يسكت، لا يقول...[1].

وقيل له: هل مَعَ العارفِ زُهْدٌ؟ قال: معه الزُّهدُ الأكبرُ، انصرافُ القَلْبِ عن كلِّ ما دُونَ الحبيبِ. وقال: إذا تركَ الدُّنيا رَغْبةً فى الآخرَة، انقادَتْ له الدُّنيا بكفاياتها من غَيْر عَملٍ. وإذا أَلْهاك حبُّه عن الآخرة، انقادَتْ لك الجنّةُ، وعَجيبُ مُلْكِها مِن غيرِ عَناء. لأنَّك إذا أُعْطيتَ الكِفايةَ مع الزُّهْد لحُرْمة طلب الآخرة، والرَّغبةِ فيها، فأنتَ أوْلى بأن تُعطَى ذلك من الجنَّة، لحرمةِ مَعرِفةِ الله تعالى وحُبِّه على معانى الأُنسِ والقُربِ.

قال له قائل: ما بالُ القُلوبِ إلى الرَّحمةِ للزُّهاد أَسرعُ منها للعارفين؟ فقال: الزّاهدُ فى دَرجة الصَّبر والفاقَة والذِّلّة، والعارفُ فى دَرجاتِ الرَّوْحِ والرَّاحَة والسَّعَة، وإنَّما يُرحَمُ أهلُ البلاء، ويُغْبَط أهل الرّخاء. ثم قال: إذا أعْجَبَتْهُم نُفُوسُهم فى حُدودِ الزُّهْدِ بما نالوا من التَّنَظُّف والتَّطهيرِ أَلْقَاهُم فى معالى المَعرفة، ومُعاوَدَةِ الشَّهواتِ، حتَّى يَكْسِرَ عليهم الحدود التى [ظفروا][2] بها من الزُّهد،

(١) تلف بمقدار سبعة أسطر. والنقل عن ابن معاذ، ولم أجد هذا الكلام فى الحلية.

(٢) كلمة مطموسة اجتهدت فى قراءتها، والله أعلم.

فيصيرونَ إلى حالِ الفاقَةِ إليه، والانقطاعِ به، فيقطَعُ عنهمُ الطّمع فى النّجاة بأعمالِهم، بل بعفْوِه. وهذا قوّى طلبَهُ منهم، وهو الذى يرفعُهُم لديه، فيُسقطُ عَنهم كلَّ ما دُونَه يصيرُ دُنيا، حتّى لا يكونَ شُغْلُهم إلا إيَّاهُ، ولا يُحبّونَ سواهُ، قد أُولجَ بِهم صوَامِعُ الخَلْوةِ به أبدًا. ثم قال: الزَّاهدُ مشهورٌ، والعارف مستورٌ.

ولا نِهايةَ للزُّهد عند طائفةٍ مِنَ العارفينَ؛ لأنّه يقعُ عَن نهايةِ مَعارفهم بدَقائق أبوابِ الدّنيا، وخفَايا لوائح الهَوى. وقال بَعضُهُم: نهاية الزُّهدِ أن تَزهدَ فى كلِّ شيءٍ، وتتورّعَ عن كلِّ شيءٍ للنفس فيه متعةٌ، وبه راحةٌ، وبوجودِه لها استْراحةٌ.

فهذا كما رُوى عن عيسى عليه السّلام: أنه وضَعَ تحتَ رأسِه حَجَرًا، فكأنه لما ارتفعَ رأسُهُ عن الأرْضِ استراحَ بِذَلك. فعارضَهُ إبليس فقال: يا ابنَ مَرْيَم، أَلَسْتَ تَزْعُم أنّك قد زهدتَ فى الدُّنيا؟ قال: نعم. قال: فهذا الذى وطأتَه تحتَ رأسِكَ مِن أى شىء هو؟ قال: فَرمَى عيسى عليه السلام بالحجر، وقال: هذَا لكَ مَع ما تَرَكْتُ مِن الدُّنيا[1].

وبمعناه رُوينا عن يحيى بن زكريا عليهما السلام: أنه لبِسَ المُسُوحَ حتَّى نَقَب جلْدُه، فسألتهُ أمُّه أَن ينزعَ مِدْرَعَتَهُ الشَّعَر، ويلبس مكانَها جُبَّةً مِن صُوف. ففعل، فأوحى اللهُ تعالى إليه: يا يحيى آثرتَ عليَّ الدّنيا. قال: فبكى، ونَزعَ الصوفَ، وردَّ مِدْرَعتهُ الشَّعَر على جَسَدِه.

وكان الحسنُ يقول: أدركتُ سَبْعينَ من الأخيارِ ما لأحدهِم إلا ثوبَهُ، وما وضع أحدُهُم بينه وبين الأرضِ ثَوبًا قطّ. كان إذا أرادَ النَّومَ باشَرَ الأرضَ بجِسمهِ وجعَلَ ثَوْبَه فَوْقه.

واعلم أنّى رأيتُ جُمَلَ النِّعمِ ثلاثًا، وتمامُها بالزُّهدِ، وذَلك أنَّ أصل النِّعَم كلِّها: الإسلامُ؛ لأنَّ مِن ورَائِه مَقَاماتٍ كثيرةً أخطأوا فيها حقيقةَ التَّوحيد.

ثم النِّعمةُ الثّانية: السُّنَّةُ، إذ مِن وَرَائِها بدعٌ كثيرةٌ، كلُّهم أخطأوا حَقِيقةَ السُّنَّةِ من المحَجَّة.

(١) الفقرة كلها فى الإتحاف: ٩/ ٣٤٧.

النِّعمة الثالثة: العِلْمُ باللهِ، إذ من ورائه عُلومٌ كثيرةٌ شُغِلُوا بها عن اللهِ، وجَهِلُوا صِفاتَه، ومَعانِى أسمائِه.

ثم الزُّهْدُ فى الدُّنيا؛ لأنَّه من وَرائِه حرصٌ كثيرٌ على الشُّبُهات، ورغبةٌ عظيمةٌ فى الشَّهوات، ومهالِكُ شديدةٌ عن طريقِ النّجاة، ومتاوهُ متشعبةٌ عن القَصْد إلى المغَالاة. فَمَن أُعْطى هذه النعمةَ، إلى ما أُعْطيه من النِّعم الثَّلاث، فقد تَمَّت النِّعَمُ عليه، وكمُلَت الفَضائلُ له، وحَسُنَتْ عنايةُ اللهِ تعالى بِهِ، وكان ﴿مَعَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقد كان أبو محمد، رحمه الله، يجعل الزُّهدَ من شَرْطِ السُّنَّة والاتّباعِ؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونى﴾ [آل عمران: ٣١]. ولقول الرّسول ﷺ: «عليكُم بِسُنَّتِى وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرّاشِدِينَ من بَعْدِى». وقال عليه الصلاة والسلام: «من أحَبَّنِى فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِى».

فهذا فيما وصف، وذاك فيما أمَرَ. قال: فمن السُّنَّةِ اتّباعُ الرسولِ ﷺ وأصحابِهِ من بعده، وقد كانوا زاهدين فى الدُّنيا.

ثم تفاوتَ الزّاهِدُونَ، لأىِّ شىءٍ زَهِدُوا، على مَقامات، على نحو علوِّ المشاهداتِ. فمنهم مَن زَهِد إجلالاً لله تعالى. ومنهم مَن زَهِدَ حَياءً من اللهِ تعالى. ومنهم مَن زَهِدَ خَوفًا مِنَ اللهِ تعالى. ومنهم مَن زَهِد رجاءَ موعودِ اللهِ تعالى. ومنهم مَن زهِدَ مسارعةً منه لأمرِ اللهِ تعالى. ومنهم مَن زَهِدَ حُبًّا للهِ تعالى؛ وهو أعلاهم.

وأدْناهُم مَن زَهِدَ مخافةَ طولِ الوُقوفِ ومناقشة الحساب، كما قيل: ذُو الدِّرهمين أشدُّ حسابًا يومَ القيامةِ من ذى الدِّرهم. ولأنَّ طريقَ المتّقينَ لا يسلكُه مَن مَلَك فى الدّنيا زَوْجين من شىء واحدٍ، لاقميصين ولانعلين، ونحو هذا.

وما أحدٌ أُعْطِى مِن الدّنيا إلا نُقِص من درجته فى الآخرة، وإن كان على الله كريمًا. وما أحدٌ يُعطَى من الدّنيا شيئًا إلا قيل: خُذه على ثلاثة أثلاثٍ؛ ثلثٌ هَمٌّ،

وثلثٌ شُغْلٌ، وثلثٌ حسابٌ. وإنَّ الرجلَ من الأغنياء لَيُوقَفُ للحسابِ ما لو وَرَدَ مائةُ بعيرٍ عِطاشٍ على عَرَقِهِ لصَدَرْنَ رِواءً، وإنّه لَيرى منازلَهُ من الجَنَّة.

فلمّا وَقَرَ هذا فى قُلُوبِ الورعين، وحَزَّ فى صُدورِ المتّقين، أشْفَقُوا مِن طُولِ الحِسابِ، فزَهِدُوا فى الجَمْعِ والمنْعِ، وفارَقُوا فَضُولَ الآمالِ، طلبًا لخِفّةِ السُّؤالِ، وخوفًا مِنْ مُعَايَنةِ الأهوالِ.

ومن الزُّهدِ فى الدّنيا حُبُّ الفَقْرِ وأهلِهِ، ومجالسةُ المساكينِ فى أوطانهم، والتذلّلُ لَهم، كما كان مطرّف بن عبد الله، مع فضله وعلمه، يجالسُ المساكينَ فى بَزَّتِهِ، يتقرَّبُ بذلك إلى ربِّهِ.

وكان محمدُ بن يوسف الأصفهانى عالمًا زاهدًا. ومن النّاسِ من كان يُفضِّله على الثّورى رحمهما الله تعالى، إلا أنه لم يُشتهر ذِكرُهُ، وكان يؤثر الخُمولَ والصَّمَت، وطُوِى نَشْرُهُ فلم يكن يعرفه إلا العلماءُ. وكان من حُسنِ رعايته وشدّة يقظتهِ يعمل فى كلِّ وقتٍ أفضلَ ما يَقْدر عَليه فى ذلك الوقت. فلمّا طلبه ابنُ المبارك بالمصيصة[١]، قال له بعض من يَعرفُ حالَه: إنّ ذاك لا يكونُ فى المصْر إلا فى أفْضَلِ موضعٍ فيه. قال: فهو إذًا فى الجامع، فطلبه، فقيل له: إنّه لا يَقْعُد إلا فى أفضلِ مكانٍ. قال: فطلبه عندَ الفُقراءِ، فإذا هو دَسَّ رأسَهُ، وأخْملَ نَفْسَه مع المساكين، فكان عندَه أنّ أفَضْلَ وطنٍ فى المِصْرِ الجامعُ؛ لأنه يقال: إنّ الصلاةَ فيه بخَمْسينَ صلاة. وإنَّ أفضلَ الأماكنِ موضعُ الفقراءِ من الجامعِ، وإنَّ أفضلَ الأحوالِ الخُمولُ. فلذلك أخملَ نفْسَهُ فى فَقْرِه، وفيما بين الفقراءِ فى الجامعِ، لِيَحُوزَ فَوَاضِلَ الأعمالِ.

ومن الزهد أن يكون بفقره مُغْتبطًا، مُشاهدًا لِعَظِيمِ نعمةِ الله تعالى عليه به. يخافُ أن يُسْلَبَ فَقرُه، ويُحوَّلَ عَن زُهْده، كما يكون الغنى مغتبطًا بغناهُ يخافُ الفقرَ. ثم وجودُ حلاوة الزُّهدِ حتى يَعْلمَ اللهُ تعالى من قلبه أنَّ القلّةَ أحبُّ إليه من الكَثْرة، وأن الذلَّ أحَبُّ إليه من العزِّ، وأنَّ الوَحْدَةَ آثرُ عِنْدَهُ مِن الجَماعَةِ، وأن الضَّعَةَ والخُمولَ أَعْجَبُ إليه من الاشتهار. فهذا من إخْلاصِه فى قَصدِهِ، وصِدْقِهِ

(١) المصيصة: بلدة بالشام.

فى زُهْدِه، وهناك تحقَّقَ الإيمانُ وبلغ ذِرْوَتَهُ.

وروينا عن عيسى عليه السلام وعن نبيّنا عليه السلام: «أربعٌ لا يُدْرَكْنَ إلا بعُجْبٍ: الصَّمْتُ؛ وهو أولُ العبادةِ، والتّواضُعُ، وكَثْرةُ الذِّكْرِ، وقِلَّةُ الشَّىء».

وقال الثّورى رحمه الله تعالى: لا يكون الرّجُلُ عَالمًا حتّى يَعُدَّ البلاءَ نعمةً، والرخاءَ عُقُوبةً. وقال بعضُ السَّلَفِ: لا يَفْقَهُ العبدُ كلَّ الفِقْهِ حتى يكونَ الفَقْرُ أحبَّ إليهِ من الغِنَى، والذُّلُّ آثرَ عنده من العزِّ.

وقد روينا خبرًا مقطوعًا: «لا يبلغ العبدُ حقيقةَ الإيمانِ حتى يكونَ أن لا يُعْرَفَ أحبَّ إليهِ من أن يُعْرَف، وحتّى يكونَ قِلّةُ الشّىءِ أحبَّ إليهِ مِنْ كَثْرته».

وكان السّلف الصّالحُ يقولون: نِعمةُ اللهِ عَلينا فيما صَرَفَ عنا من الدّنيا أعظمُ من نِعْمتهِ فيما صَرَفَ إلَينا.

وكان الثّورى رَحِمه اللهُ تعالى يقول: الدنيا دارُ التواءِ لا دارَ استواءِ، ودارُ تَرحٍ لا منزلَ فَرَحٍ. من عَرَفَها لم يَفْرَح برَخاءٍ، ولم يحزن على شَقَاءٍ.

وكان سهْلُ بنُ عبدِ الله رحمه الله يقول: لا يصحُّ التعبُّدُ لأحَد ولا يَخْلُصُ لَهُ عَمَلٌ حتى لا يَجْزَعَ ولا يَفرَّ مِن أربعةِ أشياءَ: الجوع، والعُرى، والفَقْرِ، والذُّل.

كما كان يحيى يقول: (. . .)[1] وقعوا فى فضيحة الآخِرة، وفزعًا من الفضيحةِ عند النّاسِ افتُضِحُوا عند اللهِ.

يقول أبو محمد، رحمه الله: فإذا كان فى تَعَبُّدِه طالبًا للغنى، مُحبًا للجاه والذِّكْرِ، لم يُخلِص فى أعماله، ولم يَصْدُق فى حاله، وكانت الرّغبةُ فى الدُّنيا مِفتاحَ ذلك فصار الزُّهدُ غَلْقَهُ، فَصحَّ له صِدْقُ الحالِ وإخلاصُ الأعمالِ بالزُّهد.

ورُوينا أن إبراهيم التَّيْمى ردَّ خمسينَ ألفًا. فقيل له: لِمَ رددْتَها؟ فقال: أكْرهُ أن أمحوَ اسْمى من ديوان الفقراء لخمسين ألْفًا. فكيف بمن رَضى أن يُمْحَى اسمُهُ مِن الفقراءِ ويُثْبَتُ رسمُهُ فى الأغنياءِ بمائتى دِرْهَم؟ لقد خَسِرَ خُسْرانًا مُبينًا.

واللهُ تعالى يصف الفقراء بالإحسانِ، ويُوقِعُ الحُجَّةَ عليهم، ويمدح الفقراءَ

(١) تلف قدر ثلاث كلمات.

بالرُّجولةِ فى تركِ البيع والتِّجارة، ويضُمُّ الأغنياءَ إلى النِّساءِ فى التَّخلُّفِ والخَسارةِ، فقال فى هذا المعنى: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارةٌ﴾ [النور: ٣٧] أى: لا يشغلُهم عن الذِّكر. والتجارةُ تلهيهم، من: لَهَوتُ ألهى؛ إذا تشاغَلَ، لا من: لَهَوْتُ ألْهُو؛ إذا لَعِب. ثم قال فى ذَمِّ الأغنياء: ﴿رَضُوا بأنْ يكُونُوا مَعَ الخَوالفِ وطُبِعَ على قُلُوبِهِم﴾ [التوبة: ٨٧]. هذا جمع التأنيث على زنة: فَواعِل. وقال فى قوله فى الخطابِ الثّانى للطائفتين أيضًا: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاء ولا عَلَى المرْضَى ولا عَلَى الَّذين لا يَجِدُونَ ما يُنفِقُونَ حَرجٌ﴾ إلى ﴿ما عَلَى المُحْسنينَ مِنْ سَبيل﴾ [التوبة: ٩١]، ثم قال: ﴿إنّما السَّبيلُ على الّذين يَسْتَأذِنُونَكَ﴾ الآية [التوبة: ٩٣]. . . (١).

ومن الزُّهد عند الزّاهدينَ تركُ فُضُولِ العُلُومِ التى مَعْلُوماتُها تَؤُول إلى الدُّنيا، وتدعو إلى الجاهِ والمنزلة عند أبنائها، وفيما لا نَفْعَ فيه فى الآخرةِ، ولا قَرْبَةَ به عند الله تعالى. وقد تَشْغَلُ عن عبادة الله، وتفرِّق الهَمَّ عن اجتماعه بين يدى الله، وتقطع الجوارحَ عن المعاملة للهِ، وتُقَسى القَلْبَ عن ذِكْرِ اللهِ، وتحجبُ عن التفكُّرِ فى عَظَمَةِ اللهِ وآلائِه.

وقد أُحْدِثَتْ علومٌ كثيرة لم تكُن تُعْرَف فيما سلف، اتّخذها الغافلونَ علْمًا، وجعلها البطَّالونَ شُغْلاً، تطرّقُوا بها إلى الدُّنيا، وتألَّفُوا عَلَيْها أبناءَها، وجعلوها سُلَّمًا إلى الشَّهوات، وسببًا إلى المعاشَرات، ومفتاحًا للمجالَسات، فقُطعُوا بها عن الله، وحُجبوا عن مُشاهَدَةِ الآخرةِ، ومُنعُوا من الحقيقة، وبدَّلُوا بالخالقِ الخليقةَ؛ لا نذكُرُها لكَثْرة أَهْلها، إلا أن يُسأل عن شىء منها أَعِلْمٌ هو أم كلامٌ؟ أحقٌّ أم تشبيهٌ؟ أصِدْقٌ وحِكمةٌ أم زُخرفٌ وغُرورٌ؟ أَسُنّةٌ هُوَ أم بِدعةٌ؟ أعتيقٌ أم مُحْدَثٌ وتَشْديقٌ؟ فحينئذٍ نُخبر بصواب ذلك من خطابِهِ، وقديمِهِ من مُبْتدَعِهِ. وعلى اللهِ قصدُ السبيلِ.

ومن أَفضلِ الزُّهد: الزُّهدُ فى الرِّياسَةِ على النَّاسِ، وفى المنزلة والجاه عندهم، والزُّهدُ فى حُبِّ الثَّناءِ والمدحِ منهم؛ لأنَّ هذه المعانى هى مِن أكبرِ أبوابِ الدُّنيا عندَ

---

(١) تلف قدر ثلاث كلمات أو أكثر.

العُلماء. فالزُّهدُ فيها هو زُهْدُ العلماء. كان الثّورى رحمهُ اللهُ تعالى يقول: الزُّهدُ فى الرِّياسةِ ومَدْحِ الخَلْقِ أشدُّ من الزُّهدِ فى الدّينارِ والدِّرْهم. قال: لأن الدّينارَ والدّرهمَ قد يُبذلان فى طَلَبِ ذلك. وكان يقول: هذا بابٌ غامِضٌ لا يُبصرُه إلا سَماسِرَةُ العُلماء.

وقال الفضيلُ رحمه الله تعالى: نَقْلُ الصُخورِ من الجبالِ أيسرُ من إزالةِ رِياسَةٍ قد ثَبَتَتْ فى قَلْبِ جاهِلٍ.

وذهب أُوَيسٌ القَرَنى رحمه الله تعالى إلى أنَّ الزُّهدَ هو تركُ الطَّلَبِ للمَضْمُون. قال هرم بن حيان: لقيته على شاطئ الفرات يغسل كِسَرًا وخِرَقًا قد التقطها من المنبوذِ. وكان ذَلكَ أكْلَهُ ولِبْسَهُ. قال: فسألتُهُ عن الزُّهْد، أىّ شىء هو؟ قال: فى أىِّ شىءٍ خرجْتَ؟ قلتُ: أَطْلبُ المعاشَ. فقال: إذا وقعَ الطَّلبُ ذَهبَ الزُّهْدُ.

وكان أحمدُ بن حَنبل يقول: لا زُهدَ إلا زُهدُ أُوَيس القَرَنى، بلغ به العُرْىُ حتى قَعَد فى قوصرةٍ[1].

وكان أبو سليمان يقول: إذا طَلَبَ المعاشَ، أو تزوَّجَ، أو كتبَ الحديثَ، فقد رَغِبَ فى الدُّنيا.

وقد قيل لابن معاذ: ما بالُ المتعلِّم والطَّالبِ حَريصٌ عَلى كَتْبِ العِلْم وجَمْعِ الحِكْمةِ. فقال: يُريدونَ بذلكَ الاحتجاجَ على النّاسِ، والدَّفْعَ عن نُفُوسِهِم، فهُم مشغولون بهم. فإذا شُغلوا بنُفُوسهم، اقْتَطعُوا عن الخَلْقِ، فَتفرَّغُوا لها، وأقبلُوا على اللهِ، فأخذُوا العِلمَ من اللهِ بأنْفُسِهِم من قُلُوبهم. ذكرته على المعنى، والعبارة لى.

وقد رُوينا عن اللهِ سبحانه: «لا تَقُولُوا العِلْمَ فى السّماء مَنْ يَصعدُ يُنزِلُه، أو فى التُّخوم مَنْ ينزل يُخرجُه. العِلمُ فى قُلوبكم، تأدّبُوا بآداب الرُّوحانِيِّينَ، وتخلَّقوا منّى بأخلاق الصِّدِّيقين، أُظهرُ العِلمَ من قُلُوبكم، حتى تغمرك». فالرُّوحانيُّون لا ترتاحُ قُلوبُهم إلى غير اللهِ، ولا رَوْح لهم إلا إيّاه. والصدّيقون لا

---

(١) القوصرة: وعاء للتمر يتخذ من قصب. وانظر: الإتحاف ٩/ ٣٤٧.

يَنظرونَ إلى ما أعرض عنهم، ولا يحبُّون ما ذَمَّهُ ومَقَتَهُ. فهم أعلام الله فى الأرض [لإرشاد] عباده، والعلمُ ﴿آياتٌ بيِّناتٌ﴾ كما قال: ﴿فِى صُدورِ الَّذِين أُوتُوا العِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وقد قال بعضُ أهلِ المعرفةِ: إذا رأيتَ الرّجلَ يتكلم فى الزُّهدِ، ويدعو إليه، فاعلم أنه فى معرفة (...)[١] ومن ادّعى أنه جَمعَ طلبَ الدُّنيا وحلاوةَ الزّهد فقد كَذَب. وقال: لا يكون بالله مُؤمنًا حتى يكونَ لله مُحبًا، ولا يكون لله مُحبًا حتى يحبَّ ما أحَبَّ، ويُبْغِضَ ما أبْغَض، وَاللهُ يحبُّ الزُّهْدَ، ويُبغض حُبَّ الدُّنيا.

وقال: أَزْهدُ الناسِ أشدُّهم حبًا لله، وأطوعُهُم له. وقال: إنّما يحبُّ الإنسانُ الدُّنيا بالطَّبع؛ لأنّ نفسه منها خُلِقَت. فإذا وقعَ الإيمانُ بالغيب خَمدَ الطبعُ، فطُفِئ حُبُّ الدُّنيا.

هذا معناه لغيرنا، واللفظ لنا.

وكان ابن معاذ يقول: الزُّهْدُ إقامةُ العَدْلِ، واستعمالُ الحقِّ. ولا يمكن حقيقةُ هذا إلا بفقد الرَّغْبةِ، وعَدَمِ الحِرصِ.

وكان يقول: الدنيا امرأة، ولو كانت عفيفةً لأغنَتْ طُلاَّبَها. وقال مرّة: لو كُنتَ عفيفًا ما اتُّهِمْتَ بقُربها، فإذا رأيتَ نَفَسك تميل إلى الدّنيا فاتّهِمْها، وإذا زال الخوف عليها فَرَغِبَتْ فاتَّهِمْها.

وقيل ليحيى بن معاذ: ما بالُ النِّساءِ يأنَسُون بالعارفِ، ولا يستوحشون من قُربه؟ فقال: لانقطاعِ طلبه لهُنَّ، ولَو طلبهنّ لم يأنسوا به. كذلك إذا لم تطلُبِ الدُّنيا أَنِسَتْ بك وطَلَبَتْك، وإذا طَلَبْتَها تباعَدَتْ.

وقال: الدُّنيا مخضَةُ المؤمن يُمخَض فيها كما يُمخَض السِّقاء. فالفَقْرُ خيرٌ له من الغِنى؛ لأنّ المذَلَّةَ وخُضوعَ القَلْب مع الفقْرِ، والكِبْرَ مع الغِنى.

وقال: إذا وَجَدت (...) يُرَغِّبُكَ قُربَهُ، والنَّظر إليه فى الدُّنيا، فاعلم أنّه (...) ولا حكيمَ يتكلّم بالحكمة، إلا مَن يقومُ الغَنِىُّ من كونه فقيرًا والفقيرُ غنيًا.

---

(١) قدر كلمة فى هذا الموضع وكذلك الموضعين بعده.

وقال: النَّظر إلى الأغنياء فتنةٌ (. . .)[١] وفى موتهم غذاء للفقراء.

وقد كان بشرٌ من قبله يقول: حياةُ الأغنياءِ غيظٌ فى قُلوبِ الفُقراءِ.

وكان يقول: لو لم تُعيَّر يومَ القيامةِ إلا بالرُّهبان لكان عظيمًا. يُقال لك: هذا قد زَهِدَ فى الدُّنيا واجتهد فى العِبادةِ، وهو لا يَعْرِفُنى، أنتَ كُنتَ أوْلى بذلك منه، وأنت تعرفُنى.

وكان بعضُ أهلِ المعرفةِ يقول: الزَّاهدُ وإن كانَ جاهلاً أَفْضلُ من العالِم إذَا كان راَغبًا.

وقال يحيى: إذا صَبر عن الكلامِ، وملاقاةِ الإخوانِ، فقد زَهد. وكان يصف زُهّادَ العارفين بأربعٍ: تَرْكِ الأوطانِ، وفَقْدِ الإخوانِ، وطَرْحِ الكُتُبِ، وعَدَمِ المعلوم. وذكر قِصّةَ داوُد الطائى، فقال: لما أرادَ أن يزهدَ، جَرَّبَ نَفسَه سنَةً، فكان يحضُر مَجْلسَ أبى حنيفةَ، وهم يسألون ويتكلمون، وداوُد لا يَسأل ولا يجيب. فلمّا قَوِى على هذا عَمدَ إلى كُتُبِهِ وجعلها فى تابوتٍ، وألْقَاها فى الفُراتِ، ولَزِم الطَّريقَ.

ثم قال يحيى: لم يَخْلَق [اللهُ] الشيءَ فى الأصل إلا للأخذ، ولكن زَهَّدَهُم فِيه امْتحانًا لهم، وقَطْعًا لقُلُوبهم عنه. فإذا زَهِدوا فيه ردَّه عليهم.

وقال: مَن وَصَل إليه بالخلوةِ صَبَر عليها بعد الوُصول، ومَن وَصَل إليه مع الخلق لم يصبر عنهم بعدَ الوُصولِ، ومَن اتَّصَل سَقَط عن قَلْبه كلُّ ما قطعه. ثم قال فى الفرق بين حال الزاهد والعارف (. . .)[٢].

وكان يُقال: فرارُ العارفِ من الزَّاهدِ أشدُّ من فرارِ الزَّاهد من الرّاغب. وقال مرة: صادقٌ يَعِظُ صِدِّيقًا؛ لأنه لا يعرفه ولو عَرَفَهُ لجلَس بينَ يدَيْه يَتَعَلَّمُ منه، فكيف أن ينكر عليه؟

وقال بعضُ أهلِ المعرفةِ فى التوسُّط بين حال الزّاهدِ والرّاغِب قوْلاً عَدْلاً، قال:

(١) قدر كلمة.

(٢) قدر سبعة أسطر.

ما دامت الشَّهواتُ في نَفْسك، فنفسُك مَطيَّتُكَ إلى الدُّنيا، وأنتَ طالبٌ لها، فتَتْعَب بقَدْرِ الطَّلَب، وتُنَغَّصُ فيها بقَدْرِ التَّعَب، ولا تَبلغ ما تُريد لفَقْد التَّسليم، ونَقْصِ الرِّضا. فإذا خرجت الشهواتُ من قلبك، وشُغلْتَ عنها، فالدَّنيا مطيَّتُك إلى الله، وهى تطلبك، وأنت تهربُ منها، فتهنأ بما وَجَدْتَ منها ولا تضرُّكَ، وأنت مطلوبٌ. العبارةُ لنا، والنُّكْتَةُ لغيرنا، ذُكرتُ قائلَه.

ولفظُ يحيى بن معاذ: ما دامت شهوةُ النَّفسِ فيك، فأنت مطيَّةُ الدُّنيا، والمطية تُساق حيث يريدُ صاحبُها، لا حيثُ تريد هى. فإذا ذهبَتْ شهوتُهُ، فالدُّنيا مَطيّتهُ يسوقُها كما يُريد.

وقال أبو محمد رحمه الله: لا يصحُّ الزُّهدُ فى النِّساء؛ لأنه قد حُبِّبَ إلى سيِّد الزّاهدينَ. ووافقه ابن عيينة، فقال: ليس فى كثْرةِ النّساء دنيا؛ لأنّ أزهدَ الصحابة عليُّ بن أبى طالبٍ رضى الله عنه كان له أربعُ نسوة، وبضع عشرة سُرِّيَّة.

وقد قيل ليحيى بن معاذ: ما بالُ العارفِ لا يرتاحُ لشىءٍ من لذّاتِ الدُّنيا ارتياحَهُ للنِّساء (. . .)[1] الشَّهَوات خُلقَت بائنةً منك المأكول وما أشبهَهُ (. . .) خُلقَتْ منك. فجسْمُكَ يستَدلى بجزئه، ويَحِنُّ إلى جزئه، ويطلب شكْلَهُ، وتعرف ذلك فى أجناسِ الطير والبهائم، ولبس شىء من اللَّذّاتِ فيه رُوحُك غيرها، لقولهِ عز وجلَّ: ﴿خَلَقَكُم مِّنْ نَفْسٍ واحدة وخَلَقَ منها زَوْجَها﴾ [النساء: ١].

وقال مرّة: إذَا صَحَّ الزُّهدُ خَرجَتْ شهوةُ النِّساءِ من قَلْبه، وإذا صَحَّت المعرفة ردّتها عليك. ولذلك بدأ الله سبحانه فى أوّلِ ذِكرِ تزيينَ الشّهواتِ بالنّساء والبنين، لأنّهما من الجنس، فهو من المرأة، والابن منه. ثم ذكَر معادنَ الأرضِ؛ الذَّهَبَ والفِضّةَ؛ لأنهما من أصلِ نباتِ الجنس.

وقال أيضًا: شهوةُ النّساء أغلبُ على العارفين من كلِّ شَهوةٍ. فإنَّ كلَّ شَهوة تنالُ منها وهى لا تنالُ منك مثل الطعامِ واللّباسِ والمنزلِ والمرأة، تأخذ منهنَّ ويأخذْنَ منك، وليست شَهوةٌ تُكلِّمك غير المرأةِ، فمِمّا يزيدُ فى حُبِّك لها معرفتُها

(١) قدر كلمة أو أكثر فى هذا الموضع والذى يليه.

بربِّك، وحبُّها له. ثم الشَّهواتُ كُلُّها ليس منها شهوةٌ معها الإيمانُ بمولاكَ غير المرأة.

وقال مرةً: أنعمُ النّاسِ عَيْشًا فى هذه الدّارِ زوجانِ رجلٌ وامرأةٌ عاقلانِ عارفان، كريمةٌ أخلاقُهُما، لم يبق لهذَين سرورٌ من الدُّنيا والآخِرَةِ إلا قد وَصَلا إليه جِسْمًا ورُوحًا، عاجلاً وآجلاً. قال: وهذا عزيزٌ وُجودُهُ.

وقال له قائل: ما بالُ الرّجلِ إذا زَهد فى الدُّنيا استأنَسَتْ به النِّساءُ، وتَقْوى به. فقال: لأنَّ كلَّ شىءٍ من الدُّنيا إنما يَبْعُد عنك بطلبك له، فإذا زَهدتَ فيه تَبعك. قيل له: (. . .)(١) أن يكون ما نَرى من حُبِّ الصّالحاتِ منهنّ له، وأُنسهنَّ به، يدل على شُعُوف الحورِ العينِ؟ فقال: هُنَّ الحور العين (. . .) الصالحات من بَناتِ آدَم يَصِرْنَ حُورًا عِينًا.

وهذا الذى ذكرَهُ من حال العارفِ فى شأنِ النِّساءِ لا يكون للسّالكين فى الطريق، ولا للدّارجين فى الطَّلَب، وليس هو جائزًا لهم، إنّما هذا مَقامُ الأنبياء وعِلْيَةُ الصَّحابة، وفى مقامٍ من مقامات المعْرفة. وإذا كان الأمرُ كذلك، فإنّ خُروجَهُنَّ مِن القَلْب، وعدَمَ تعلُّق القَلْب بِهِنَّ، أعلى لمقامِ الطالب، وأتَمُّ فى حالِ المريدِ، لأجلِ أنّهنَّ يأخُذْنَ مِن القَلْبِ، كما يأخذُ العبدُ منْهُنَّ أو فَوْقَه.

ونَحْنُ نقولُ: مِن علامةِ العارفِ فى القُوّةِ والمكانَة أن يأخُذَ من الأشْياء، ولا تَأْخُذَ مِنه، وتَدْخُلَ عَلَيه، فيَجرى فيها ولا تُجريه، إذ لا تُخرجه من المقامِ؛ لأنّه لا يتعلَّق بالأنامِ. وإذا كان مِن وصفِها أن تأخذَ مِن القَلْب كما يأخذ منها على مَا وصف «يحيى»، فقد صارَتْ جاذبةً ومنازعةً، فلا يُؤمَنُ على مَن عَلَّقَ قلْبَهُ بِهِنَّ أن يتعلَّقنَ عَلَيْه، فيُخرِجْنَهُ مِن مَقامِه.

ولذلك يقول: ما بُلِىَ قَلْبٌ بهوًى عَلق به بَلْواهُ بشَخْصٍ مثْله، ولا أبْعَدَ خُرُوجًا من سرِّه بعد وُلُوجه مِن الإنسانِ؛ لأنه جِنْسُهُ وبه يُوجَدُ أُنسُهُ، ولا يفرقُ ذلكَ حتّى لا يكونَ له بيانٌ إلا فى قَلْبٍ بَحْرٍ مُجَرَّدٍ بالإيمانِ، ولا يحمل الأجناسَ والأُلاَّفَ

(١) قدر كلمة أو أكثر، وكذا فى الموضع الذى يليه.

إلا قَوىٌّ مكينٌ مُطاعٌ مُبينٌ. وليس هذا حالَ مُريد، ولا وَصْفَ طَالبٍ مِسْكينٍ. وسُمِّينَ نساءً؛ لأنهُنَّ يُنَسِّين، فقَدْ تُنْسِى ذِكرَ الآخِرَة، وقد تُنْسِى اللهَ والواجبات الإمر: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه:١١٥]، وكانت النِّساءُ سببَ نسيانِه.

وقد كان أبو سليمان يقول: ما تزوّجَ أَحَدٌ من . . . ـنا[١] فكان على مرتبة إلا نَقَص منها. وقال مرَّةً: إلا تَغيَّر. وقال بعضُ السَّلفِ: مَن كان له فى طلب الحلال (. . .)[٢] يتزوج.

وقد كان الجنيد يقول: أحب للمرُيدِ أن (. . .) وساوس قَلْبِه إلا الله تعالى، لا يذكرُ الجنَّةَ ونَعيمَها وحُسْنَها لضَعفه؛ وإلا طمعَ العَدوُّ فيه؛ فأشْهَدهُ مثال (. . .) عاجلاً فَطَلَبَهُ ورغِبَ فيه؛ لأنّ ذلك غائبٌ آجلٌ. نقلتُهُ على المعنى.

وقال أيضًا: أُحبُّ للمبتدئ ألا يشغل قلبَه بهذه الثلاث، وإلا تغيَّر حالُهُ: التكسُّب، والتّزويجِ، وطلبِ الحديث[٣].

وكان يقول: أحبُّ للصُّوفى ألا يقرأ ولا يكتب لأنّه أجمع لهمِّه.

هذا لأنه كان يقول: جمعُ الهَمِّ بين يدى اللهِ تعالى أَفْضَلُ من جميع أعمال الجوارح كلها. وقال أيضًا: لأَنْ تَرُدَّ همَّتكَ إلى الله تعالى ساعةً تُعلِّقُها به خيرٌ لك ممّا طلَعت علَيه الشَّمس تجعله فى سبيل الله. وكذلك قول جماعةٍ من أهل المعرفة.

وفى المقام الذى ذكره ابنُ معاذ من شأن النِّساءِ والأُنسِ بهنَّ علومٌ غريبةٌ، يَدقُّ على المريدينَ فهمُها، ويَغْمُضُ عليهم رؤيتُها، ويَضيقونَ قَلْبًا ووَجْدًا عن دَرْكِ حَيْطها، فلم يكن بنا حاجةٌ إلى ذكرها، على أن هذا الكتاب ليس موضوعًا لها، ولا قُصد فيه ذِكْرُها، وعلى الله قَصْدُ السّبيل.

(١) صدر هذه الكلمة تالف بالأصل.

(٢) قدر كلمة أو أكثر، وكذا فى الموضعين التاليين.

(٣) ليس هذا صحيحًا، بل طلب الحديث مهم للمبتدئ والمنتهى، حتى يعصمه من مزالق الشيطان. وانظر: إحياء علوم الدين ٣/ ١٩ ـ ٢٠ فقد حررّ هذه المسألة. وهو فى موضع آخر يروى غير هذا.

ومذهب جماعة من العارفين: أن الدُّنيا هو ما شَغَل القَلْبَ، واهتَمَّ به، وقطعَهُ عن تَضرُّعِه لله. فجعلوا الزُّهْدَ تَرْكَ الاهتمامِ، وطَرْحَ النَّفْس تحت تصريفِ الأحكامِ. وهذا هو التوكّل والرِّضا.

واعلم أنّ الشُّغْل بغير الله هو أوّلُ البُعْد، فكُلَّمَا زاد الشُّغْلُ ازْدادَ بُعْدًا من الله، حتّى تكاثَفَ الأشغالُ، وتتناهى البعادُ، فصار التَّفرُّغُ للهِ هو أوّلَ القُربِ من الله تعالى.

ثم يستفرغ الفراغ (. . .)[1] فكما يَجْلو القلبُ من الجلوِّ، ثم يتخلى من خلوٍّ، [كذلك يقترب من القُرْب]، وهذا زهد المقرَّبين. ولذلك صار إفرادُ [الله فى] القلبِ أعزَّ أحوالِ الزَّاهدينَ. وعند هؤلاء لا زُهْدَ إلا بعد التَّفْويضِ، والتَّوكُّلِ، والرِّضا، والمحبّةِ. فَصارَ جُهْدُهم تحقيقَ هذه المقامات. ولا يستقيم فيها إلا مُوقنٌ مع حقيقة [الرّضا]. وهذا زهدُ العارِفين من الشُّهداءِ والصِّدِّيقين أُولى القوةِ والتمكين. والزُّهد حينئذ ضَرورةُ حالهم، وظاهرُ أوصافهم، وأول أعمالهم. وهم مَوْصُوفُونَ بغيره، مزيدُهُم مَدَدُ النَّصيبِ مِن اللهِ لا من غَيْرِه.

وجاء فى الخبر: «إنّما الزَّاهد أن يكُونَ بما فى يد الله تعالى أَوثقَ منك بما فى يَدِك». ويكونُ فى ثوابِ المُصِيبةِ أرْغبَ من أنها لو بَقِيَت لك.

فهذا حالُ المتوكِّل، ومقامٌ فى التَّوكُّلِ.

وذهب قَومٌ إلى أنّ الزُّهدَ تركُ الادّخارِ، فكانت الدُّنيا عندهم هو الجمعُ والإمساكُ.

قال ابن أبى الحوارى: قلتُ لأبى سُليمان: إنّ مالكَ بنَ دينار قال للمغيرة: اذْهَب إلى البيتِ فخذِ الرَّكْوةَ[2] التى كُنتَ أهْدَيْتَها لى، فإنّ العدوَّ يوسوس إليَّ أنَّ اللصَّ قد أَخذَهَا. فقال أبو سليمان: هذا مِن ضَعْفِ قُلوبِ الصّوفِيِّينَ. هو قد زَهِد فى الدُّنيا، ما عليه مَن أخذَها.

---

(١) قدر ثلاث كلمات.

(٢) الركوة: إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء. الجمع: رَكَوات.

أراد أبو سليمان منه حقيقةَ الرِّضا عن حال التّوكُّل بالاستسلام لجريانِ الأحكامِ.
وأراد مالك من نَفْسه حقيقةَ الزُّهد عندَه، بأن يَصْرِفَ عن قَلْبه الاهتمام.

وكانُوا يقولون: لا تزهد حتى لا تُبالى مَنْ أكل الدُّنيا من برٍّ أو فاجرٍ. وقالوا: سَخاءُ النَّفْس عمّا فى أيدى النّاسِ، وأن لا تُحبَّه ولا تَهُمَّ به، أفْضَلُ من سخاء البَذْلِ؛ لأنّه مقامٌ فى الزُّهْدِ. وقد كان يحيى يقول: لا حَسَدَنى الناسُ إلا على ما فى يدى من الدُّنيا.

وقال بعض العلماء: الدُّنيا هو العملُ بالرّأيِ والمعقول. والزُّهْدُ إنّما هو اتّباع العِلْمِ ولُزوم السُّنَّة. وهذه طريقةُ أهلِ الحديث. وقائل هذا يقول: طلبُ العاقلِ الدنيا أفْضَلُ من زُهْد الجاهلِ فيها. ويقولون: يطلبُ الدُّنيا بِعِلْمٍ، فيأخذها من حَقِّها، ويَضعُها فى حَقِّها، أفْضَلُ من التَّرْكِ لها.

وهذا القَوْلُ من الظَّواهر يُشبه قَولَ علماء الظّاهرِ. كما رُوينا عن سُفْيان قال: قِيل للزُّهْرِى: ما الزُّهْدُ؟ قال: ما لا يَغْلِبُ الحرامُ صَبْرَهُ، ولا يمنعُ الحلالُ شُكْرَهُ.

يعنى أن يكونَ العبدُ صَابرًا عن الحرامِ، ويكُونَ شاكرًا فى الحلالِ، حتّى لا يَغلبَهُ الحلالُ فيُنسيهِ الشُّكْرَ. وهكذا كان رأىُ ابنِ عُيَيْنة: إذا شكَر مع النِّعمة، وصَبَر فى البَلِيَّةِ، فهو زاهِدٌ، وإن أمسَكَ المالَ ـ عند هؤلاء ـ ولم يُخْرِجْهُ، سَمَّوْه زَاهِدًا.

فهذا لعَمْرى زُهدُ الرَّاغبين من العُمومِ، وهو الزُّهدُ فى الحَرَامِ، ومجانَبةُ الآثامِ.

فأمّا زُهْدُ الزَّاهِدينَ من الخُصُوصِ؛ فإنَّه يكُونُ فى تَرْكِ الحلالِ، وإيثارِ الفَقْرِ عليه بالاسْتِبْدالِ. ولذلك عَزَّزَ هؤلاء الزُّهْدَ لعزَّة الحَلالِ، فقال يوسفُ بنُ أسباط، ووكيع[1]: لَو زَهدَ أحدٌ فى زماننا هذا حتَّى يَبْلُغَ فى الزُّهْد كأبى ذرٍّ، وأبى الدَّرْداء، ما سمَّيْناهُ زاهدًا؛ لأنَّ الزُّهْدَ عِندنا فى الحلالِ المحْضِ، ولا نَعْلَمهُ اليوم.

وكذلك كان مذهبُ جماعةٍ، منهم إبراهيمُ بن أدهم: إنّ الزُّهدَ هو طلبُ

(١) ترجمته فى: سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٦٠، وللإمام الذهبى تعليق طريف على بعض أخبار الشيخ وكيع، فراجعه ثَمَّ.

الحلالِ وأَكْلُهُ، والتَّنَقُّلُ فى البلادِ لطلبه، وإن ذلك من أفْضلِ الأعمال.

وأمّا الحسنُ، فإنه قال: الزَّاهِدُ الذى إذا رأى أحدًا قال: هذا أفضَلُ منى.

فصار هذا حالَ الذّليلِ فى نفسه، الوَضِيعِ عند نَفْسه، وهو من الزُّهد فى النَّفس. فصارت الدُّنيا هى الكِبرَ، وأبناؤها المتكبِّرين. ولذلك كان صالحو السَّلف يعدُّون الأغنياءَ وأبناءَ الدُّنيا من الجبّارين المتكبِّرينَ، ويَصفونَهم بالكِبْرِ والعزَّة. علموا ذلك ممّن أحبها. ولم هذا؟ لأنّ الغنى يقتضى التعزُّز به، والمتعزِّز حالُه التكبُّر على مَن دُونَه، لعِزّته ورفعَته فى نفسه، لقلَّة أمثاله. فهذا على ضدٍّ حالِ الفقيرِ الذى حالُه يَقْتَضِى الذِّلّةَ والانكسارَ؛ ويَمْنعُ دُخُولَ العِزةِ، وَوَصْفُهُ بين هَذين التَّواضعُ لضعفه.

وكان الفضيل يقول: القناعَةُ هو الزُّهد. وقال أبو سليمان: الوَرَعُ أول الزُّهْد، ولا حَدَّ لآخرِه.

وقال ابنُ أبى الحوارى: قُلتُ لأبى هِشام المغازلى: أىُّ شىءٍ الزُّهد؟ قال: قطعُ الآمالِ، وإعطاءُ المجهودِ، وخلْعُ الرَّاحة.

فهذا مذهبُ جماعةٍ من العُبَّاد؛ فإن مَن زَهِد فى الدُّنيا لراحةِ القَلْب، لا لبَذْلِ المجْهُودِ، واستفراغِ الطّاقة، والاجتهادِ فى العِبادة، فإنّ ذلك عندهم رغبةٌ على صفةٍ؛ وليس هذا حدَّ الزُّهدِ ولا مَعناهُ، وإنما هذا طريقٌ للزَّاهد، وأحوال تجولُ على الزَّاهدين من العبادات بعد حُصولِ مقامِ الزُّهْد، فيكون هذا درجاتٍ لهم.

وقد كان ابن معاذٍ وغيرُهُ يقول: قلَّ ما رأيتُ عارفًا صاحبَ ليلٍ، ولا يُوصف بكثير عملٍ، ولا يُذكر بمجاهدةٍ. وكان يقول: ما دامَ فى الطريقِ يسير، فعملُهُ أكثر من كلامهِ، فإذا وصَل إلى المنزلِ وعَرَفَ صارَ كلامُهُ يَزيد على عمله.

يعنى: أنّه يُنقل من أعمالِ الجوارحِ إلى حكَم العُلوم، وإلى أعمال القُلُوب من مشاهدةِ الغيوب، كما نُقِل من السَّير فى الطُّرُقَاتِ إلى الجلوسِ فى استقرار المنازلِ، وكما حُوِّلَ مِن عِلم الطريقِ إلى علم المقامِ.

وكان يوسفُ بنُ أَسباطٍ يقول: مَن صَبر على الأذَى، وتركَ شَهواتِ النَّفس،

وأكلَ الخُبزَ من حلاله، فقد أخذَ بأصلِ الزُّهد.

وقال أحمدُ: قلتُ لأبى صفوان الرعينىِّ: ما الدّنيا التى ذمَّها اللهُ تعالى فى القرآن، وينبغى للعاقلِ أن يَجْتَنِبَهَا؟ قال: كلُّ ما عملتَ فى الدُّنيا تريدُ به الدّنيا فهو مذموم، وكلُّ ما أصبتَ فيها تريدُ به الآخرةَ فليس منها. فحدَّثْتُ به مَروان فقال: الفقهُ ما قال أبو صفوان.

إنّما قال ذلك؛ لأنَّ الدنيا كلُّ شىءٍ إلا الإخلاصَ. فما وافقَ العلمَ فهو مباحٌ وما خالفَهُ فهوًى؛ والهوى حظُّ النفسِ، والإخلاصُ حظُّ الربِّ عزّ وجلّ. فالمخلصون بيِّنَةُ اللهِ عزّ وجلّ من عبادِهِ على عدوِّهِ، وهم أهلُ الآخرةِ فى الدّنيا.

وكان ابنُ السَّماك يقول: الزّاهدُ قد خرجتِ الأفراحُ والأحزانُ من قلبِهِ، فهو لا يفرحُ بشىءٍ من الدنيا أتاهُ، ولا يحزنُ على شىءٍ منها، فإنّه لا يبالى على عُسْرٍ أصبحَ أم على يُسْرٍ.

وقال أبو سعيد بن الأعرابى عن أشياخه الصُّوفية: إنما الزُّهد عندَهُم خروجُ قَدْرِ الدنيا من القلب، إذْ هى لا شىء، ولا يكونُ فى نفسه زَاهدًا؛ لأنه لم يتركْ شيئًا، إذ كانت لا شىء.

وهذا لَعَمرى هو الزُّهدُ فى الزّهد؛ لأنّه زَهدَ، ثم لم ينظر إلى زُهده فزَهده، إذ لم يرَهُ شيئًا، لأنّه زَهدَ فى لا شىءٍ، وهذا يُشبه ما نقولُ: إنَّ حقيقةَ الزهدِ هو الزُّهد فى النَّفْسِ؛ لأنه قد يَزْهَد فى الدّنيا لنفسه طَلَبًا لِلْعوَض، فيكونُ ذلك رغبةً على صفة. فإذا زهد فى النفْس التى يريد لها العوَضَ على الزّهد، فهو حقيقةُ الزّهد. وهذا يُشبه قَولَ مَن قال: إنّ حقيقة الزهد فى الغنَى هو الزّهدُ فى البقاء؛ لأنَّ العبدَ رُبَّما زَهدَ فى الفَناءِ، فلم يَزْهد فى البقاء لِحُبِّ الحياة الدُّنيا، ، فيكون فيه بقيةٌ من الرَّغبة. فإذا زَهد فى البقاءِ واستشعر الفَنَاءَ، فهو حقيقةُ الزّهدِ فى الفَناء؛ إذْ كان الغنى يُرادُ للبَقَاء.

وقد كان أبو يزيد البَسْطامى، رحمه الله، وهو من أعالى الطوائفِ إشارةً، وأَغْلَفِهم عبارةً، يقول لهارُون: أىْ موسى، فى أىّ شىءٍ يتكلم عبد الرحيم؟ يعنى

الأرموى. قال: فقلتُ: فى الزُّهد. فقال: فى أى شَىء؟ قلتُ: فى الدُّنيا. فَنَفَض يَدَهُ وأعْرضَ. ثم قال: يَتكَلَّم فى الزُّهْدِ فى لا شىء. وأىُّ شىءِ الدُّنيا حتى يُذكَرِ بالزُّهدِ فيها؟ وقال: يأتى علىّ وَقْتٌ لا أمْلكُ شيئًا، ولا يَمْلِكنى شىءٌ، ففى هذا الوَقْتِ يَصِحُّ أن أُسَمَّى زَاهدًا.

وقد كانت رابعة مِن قَبله، إذا ذكَر جُلَساؤُها الزُّهْدَ، تقول: نَوَّهْتُم بالدُّنيا إذ تذكرونها، أىُّ قَدْرٍ لها حتى يُقْصَد بذكرها؟ ولكن مَن أحبَّ شيئًا أكْثر من ذِكْرِه.

وقالت للثَّورى: نِعْم الرّجلُ أنتَ، لولا أنَّك تُحِبُّ الدُّنيا. يعنى الحديثَ والمذاكرةَ به لأصحاب الحديثِ، والتفرُّغَ لهم.

وكان ابنُ أبى سليمان إذَا ذَكَر أصحابُه الشَّهوات، يقول: مَن لم يكن فى قَلْبِه ما يُنسيه الشَّهواتِ حتَّى لا يَذكرها، لم يَصحَّ زُهْدُه فيها.

فعند هؤلاء أنَّ كلَّ ما قَطعَ عن الوَحْدةِ، وشَغَل عن التَّفرُّغ للخَلْوة، وأَنس به، واستروح إليه، وسكَن إليه دون الله تعالى، فهو دعاءُ التّوبةِ منه إلى الله تعالى، والاستغفارُ فيه واجبٌ عليه. وهذا حال الواصِلينَ إذا رُفِعُوا إلى مَقَامِ الاتّصال.

وكان يحيى يقول: إذَا وَصَل فَرِح، فإذا اتَّصل استأْنَس. وكان يقول: إذا طلبتَهُ بك، فما دُمْتَ تَرَى نَفسَكَ فى الطَّلَبِ لا تجدْهُ. يعنى: فإذا طلبَكَ به وجدتَّهُ عندَهُ.

وقيل له: نراكَ تَفْصِل بين الوُصولِ وبين الاتّصال، فتجعل الاتّصالَ أعلى وأقْرب! فقال: أضربُ لكم مَثلاً: رجلٌ سار طريقًا، وقَصد مَلكًا كريمًا بأمله، ثم وصل إليه، حتَّى إذا قَدم عليه فقد وَصَل. ثم يتّصل بأسباب الملك ومُنادَمته، ثم بعدَ شىء يَتقرَّبُ بها إليه، ويَقْرُبُ منه حتَّى يُدْنيَه الملكُ، ويُقَرِّبُهُ، ويُؤْنسَهُ. فالسَّيْرُ والتَّعبُ لِقَطْعِ المنازِل، والفَرَحُ بالوصولِ، والأُنْسُ فى الاتِّصال[1].

والاتِّصالُ كان مَقامَ أبى يزيد، آنسَهُ اللهُ. والوُصُولُ مقامُ يحيى. وما يحكيه من الاتِّصالِ فمن نُورِ البَسْطامى يَستَضىء، ومن زَنْدِه يَقدح ويُورِى. ولكنّ العبارةَ

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٨٤.

لابن معاذ، والتّفصيلَ والإشارةَ للبَسْطامى. والتوحيدُ همُ الجملةُ من أهل المعرفةِ، إلا ما شاءَ ربُّكَ فى نَوادرِ (. . .)[1].

• فصل آخر:

إن الرَّغبةَ فى الهوى هُو حقيقةُ الدُّنيا؛ وإن كان العبدُ زاهدًا فى المال، مِن قَبَلِ أنّه قَدْ يُعطَى الزُّهدَ فى الدُّنيا، ولا يُعطَى الزُّهد فى الهوى؛ لأنّه قد يُعْطَى الزُّهْدَ فى شىءٍ دون شىء، كما يَزهد فى البنيان ولا يَزهدُ فى اللباسِ، ولا يُعطَى الزُّهْدُ فى الأطعمة. وقد يُعطَى الزُّهْدَ فى المال، ولا يَزْهَدُ فى مَعْصيةٍ، ولا يُعطَى الزُّهدَ فى مَنْصبه لغَلَبَةِ الهوى. فإذا أُعطِىَ الزُّهدَ فى الهوى كائنًا ما كان فقد أُعْطِىَ حقيقةَ الزُّهدِ فى كُلِّيَة الدُّنيا. وهذا هو الزُّهْدُ فى النَّفس؛ لأنّ النَّفْسَ أصلُ الرّغبة، ولها يُزْهَدَ، ويُرْغَبُ للجبلَّة على حبِّها، والهَوَى رُوحُ النَّفْسِ، فهذه نَفْسٌ ميِّتةٌ لا رُوحَ لها، وهذا عند دُخُولِ الإيمانِ يُطفئ نَارَ الهوى، فيُخْرِجُ رُوحَ النَّفْسِ، فتموتُ شهواتها، وفى مَوْتها حياةُ القَلْب بروحِه ومَحبَّتِه، وهى الحياةُ العظيمة. وهذا هو مَقامُ الفَناءِ، الذى يُشير إليه الصِّدِّيقُون (. . .). رسمتُ هذا على علمى بمذهب أهله، والإشارةِ بالمعنى لقائله وشاهده (. . .).

ويُروى أن الله أوحى إلى موسى، عليه السّلام: إنّ برخ ـ يعنى [العبد] الأسود الذى كان موسى قد استسقى به لبنى إسرائيل ـ نِعْمَ العبدُ هو، إلا أنّ فيه عَيْبًا. قال: وما هو؟ قال: يُعجبُه نسيمُ السَّحَر فيسكن إليه. ومَن أحبّنى لم يعجبه شىء ولم يسكن إلى شىء.

فعابه باستراحةِ النفس إلى روح الفضاء، ونقصه عن التّمام بسكُونِ قَلْبه إلى نَسيم السَّحَرِ[2]. وهذا يُشبه قِصّةَ الولىّ الذى سأل مولاه المعرفةَ، فأوحى الله إليه: لا تطلب مَعْرفتى واطلب طاعتى تنجُو. فأعادَ المسألةَ. فقيل له: أنتَ تُحِبُّ السَّبَدَ واللَّبَدَ، ومن عرَفنى لم يُحِبَّ سَبَدًا ولا لَبَدًا.

---

(١) قدر كلمة، وكذلك فى الموضعين التاليين.

(٢) الخبر والتعليق عليه فى: الإتحاف ٩/ ٣٤٨، وقد أتممتهما منه لتلفهما بالأصل.

السَّبَدُ: ما يُتَغَشَّى به من الرِّياش. واللَّبَدُ: ما يُسْتَوطئ به من التَّوطئة والأثاث.

وقد كان أبو سليمان يقول بمعناه: إذا دَخَل العبدُ فى لاهُوتِيَّةِ الرَّبِّ، لم تَقع عيناهُ على شىءٍ يأخذُ بِقَلْبِه.

فهذه عبارةٌ عن مقام الاتِّصالِ بشاهدِ قيّومية ذى الجلال.

وكان الشاميُّون من العلماء يقولون، منهم يُونُس بن مَيْسرة الجيلانىُّ: ليس الزَّهادةُ فى الدّنيا تحريمَ الحلالِ ولا إضاعةَ المالِ، ولكن أن يكون ذامُّك ومادحُكَ سواء، وتكونَ حالُك فى المصيبةِ وحالُك إذا لم تُصَبُ بها سواءً، وتكونَ بما فى يدِ الله أوثقَ منك بما فى يَدِكَ. وهذا مقامُ التوكُّلِ، وحالُ الرِّضا.

وقال سلام بنُ أبى مطيع، رحمه الله: الزُّهدُ على ثلاثةِ وجوه: واحدٌ: أن تُخلصَ العملَ لله، والقولَ، فلا يُرادُ بشىءٍ منه الدُّنيا ولا ما عند الخَلْقِ. والثانى: تركُ ما لا يَصلح به القَلْبُ والدِّينُ، والعملُ بما يَصلح. والثالث: الحلالُ، أن تَزهَدَ فى فَضْلِه، وهو تطوُّع.

وكان إمامَنا فى هذا العلم إبراهيمُ بن أدهم، إذ كان البسطامىُّ بدلاً عنه، يقول: الزُّهدُ ثلاثةُ أصنافٍ: زهدُ فرضٍ؛ وهو الزُّهد فى الحرام. وزُهْدُ فَضْلٍ؛ وهو الزُّهد فى الحلال. وزهدٌ هو سلامةٌ؛ وهو تركُ الشُّبهات. وهذا هو أفضل الزُّهد، أو هو التَّوسُّطُ بين زُهْدَيْن: زُهْدِ الفرض، وزهدِ الفضل. وهو زهد خُصُوصٍ وهو نِهاية [الزهد].

وأما أيوب السختيانى رحمه الله فكان يقول: الزُّهدُ أن يقعدَ أحدُكُم فى منزله، فإن كان قعودُهُ لله تعالى رضًا وإلا خَرجَ. ويَخْرجُ فإن كانَ خُروجُه لله تعالى رضًا وإلا رَجَع. فإن كان رجوعُه لله تعالى رضًا وإلا سَاحَ. ويُخرجُ درهمه، فإن كان إخراجُه لله رضًا وإلا حَبَسه. ويحبسه، فإن كان حبسُهُ لله تعالى رِضًا وإلا رَمَى بهِ. ويتكلَّمُ، فإن كان كلامُه لله تعالى رِضًا وإلا سكَتَ. فإن كان سكوتُه لله تعالى رضًا وإلا تكلَّم. فقيل: هذا صعب. فقال: هذا الطريق إلى الله عزّ وجلّ، وإلا فلا تَلْعَبوا.

فهذا حالُ المراقِب المخلصِ، ومقامُ الورَعِ الصادقِ. وكان عنده: أنّ الزُّهدَ هو موافقةُ رضا الله تعالى ومَحبَّته فى كل حَركة وسُكون، مبلغَ علم العَبْد، ووُسْعَ جُهْدِه. فهذا من مقامِ الزُّهدِ فى الهَوَى، ووصْفِ الزَّاهدِ فى نَفْسه لربّه ابتغاءَ مرضاة المولَى.

وسُئل حاتم الأصم صاحب شقيق البلخى رحمهما الله تعالى عن الزهد فقال: أولُه الثِّقَة، وأوسَطُه الصَّبرُ، وآخرُه الإخلاص.

فإذا كانَ الإخلاصُ عِندَهُم هو آخرَ الزهدِ، فكيف يَصِحُّ لعبدٍ آخرُ الزّهدِ قبلَ أوَّلِه؟ أم كيف يُجاوزُ الإخلاصَ إلى مقامات المعرفة؟ فقد صار آخرُ الزهدِ عندَهم أوّلَ المعرفة.

وذهبت طائفةٌ إلى أنَّ الزّهدَ فى الدُّنيا فريضةٌ على المؤمنين؛ لأنَّ حقيقةَ الإخلاصِ هو الزُّهدُ عندَهُم، فأَوْجَبوه من حيثُ أَوْجَبوا الإخْلاصَ على المؤمنين، إذ هو مقترنٌ بالأَمْرِ بالعبادة لله، وإذ جعله رسولُ الله ﷺ فى مقام المسلمين فى قوله: «ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مُسلم: إخلاص العمل لله. . .».

ومالَ إلى هذا القول عبدُ الرحيم بن يحيى الأسودُ.

وقد روينا عن الإمام أحمد بن حنبل لمّا سُئل عن الصِّدْقِ، ما هو؟ فقال: الإخلاص. قيل: وما الإخلاصُ؟ قال: هو الزُّهْد.

فهذا زُهد العموم المفترض؛ كالزُّهدِ فى الحرام، إنما هو زهدُ العامّة، إذ الإخلاصُ فى الأعمالِ مُفتَرَضٌ، وهو خلاصُها من الرِّياء والسُّمْعَة، والعُجْب، وحُبِّ المدحِ به، والحمدِ عليه، وأخذِ العوَض عاجلاً لأجله؛ فهذا هو خلاصُ النِّيَّةِ لأجل الآخرةِ صِرفًا. كذلك اجتنابُ الحرامِ ومُبايَنَةُ النّهى فَرْضٌ على الكافّةِ.

فإن كان هذا الزّهْدُ هو حقيقةَ زُهْد الخاصة، فإنَّ ذاكَ الإخلاصَ هو نهايةُ مقاماتِ الزَّاهِدِ من المُخْلِصن، وليس الأَمرُ كذلك.

فأمّا حقيقةُ الإخلاصِ عند المخلِصين، وهو الذى أُشير إليه أنّه نهايةُ الزُّهْد، فإنّما هُو خَلاصُ العُبُوديَّةِ للمعبُودِ من دُخُولِ الشِّرْكِ الخَفِىِّ بِسوَى المَوْجُود،

وإخلاص مَعَانى صفات الرُّبُوبيَّة من اشْتِراك صفَات النَّفْسِ الضِّدّية. فهذا هو حقيقةُ الزُّهدِ المَفَصَّلِ، إلا أنه زُهْدُ الخُصُوصِ، لا زهدُ العُمومِ المُفْترضِ.

وقال عارفو أهلِ الشّام: الزُّهْدُ إنّما هو طلبُ الحلال، وأنّه واجبٌ مُفْتَرضٌ فى مثل زَمانِنا هَذا؛ لاختلاطِ الأشياء، وغَلَبَة الشَّهَوات. قالوا: فقد تعيَّن فرضُ الزُّهْدِ، ووَجَبَ تفقُّدُ المطاعمِ والسُّؤالُ عنها؛ لِقلَّة المتقين، وفَقْدِ الوَرِعينَ.

وجاء فى الخبر: «لا تأكل إلا طعامَ تَقِىٍّ، ولا يأكل طعامَك إلا تَقِىٌّ». وقيل: «إذا أَطْعمك أَخُوكَ أو سَقَاك فكُلْ ولا تسأله»، وإنما كان لا يُسأل؛ لأنَّ السَّلَفَ الصالحَ كانوا مُتَّقِين فى مطعمهم، فأغنوا السّائلَ السّؤال، وأغْنوا المجْتَهِدَ عن الاجتهادِ (. . .) والمتَّقُون لنُفُوسِهِم، والوَرِعُونَ لدينهم (. . .) وكَثُر الجوعُ والعُرْى للتَّنقيرِ (. . .)[1] فقد جاع، ومَن تغافل فقد شَبِع.

هذه طريقةُ عُبّادٍ منهم: إبراهيم بن أدهم، وسليمانُ الخوّاص، وابنُ أسباط، والمرعشىُّ، وحُذَيفة، وأبو إسحاق الفزَارى، وشُعَيب بنُ قرب. وقاربَهم أبو سليمان الدّارَانى، ووُهَيبُ بنُ الوَرْدِ، والفُضَيل. وهم عَشَرةٌ معروفُونَ بأكلِ الحَلالِ.

وقد كان أبو محمّدٍ يقول: أزهدُ النّاسِ فى الدُّنيا أَصْفَاهُم مَطْعمًا. وقال: أقْصى مَقَامٍ من الوَرَعِ أدنى مَقَامٍ من الزُّهدِ.

لذلك كان الحسن، رحمه الله، إمامُ الأئمة، يقول: لا شىء أفْضَلُ من رَفْضِ الدُّنيا. قال الفضلُ بن ثور: قلتُ للحسَنِ: يا أبا سعيد؛ رجلان، طلبَ أحَدُهُما الدُّنيا بحَلالها فأصابَها، فوصَل بها رَحِمَهُ، وقَدَّمَ فيها لنَفْسه، ورجلٌ رَفَضَ الدنيا. قال: أَحَبُّهُمَا إلىَّ الذى رَفَضَ الدُّنيا. قال: فأعدتُ عليه القَوْلَ بذلكَ، فقال: سُبحانَ اللهِ، ما اعْتَدَل الرّجلان، أَحبُّهُما إلىَّ الذى جَانَبَ الدُّنْيا.

وعلى ذلك قول عيسى ابن مريم فى حال الغنى، وإن كسبه من حلال، وَقَدَّمه لنفسِهِ فى حُقُوقِ اللهِ، فقال: الفَقْر أعجبُ إلَىَّ. قال: «لأنَّ قيامَهُ بإصْلاحِ ذلك

(١) فى هذه المواضع قدر ثلاث كلمات أو أكثر.

ووَضْعَهُ فى حقِّهِ يَشْغَلُه عن ذكر الله» وقال مرَّة: «لا يَنْجُو من الخُيلاءِ والفَخْرِ به».

وقد روينا فى الآخر عن إبليس اللعين: لا ينجو منى صاحبُ المال من إحْدَى ثلاث إذا حَبَّبْتُهُ إليه: إمّا أن يكسبَهُ من غير حقِّهِ، أو يَضَعَهُ فى غيرِ حقِّه، أو يَمْنَعه من حقِّه.

ويُقال: لما ضُرب الدّرهمُ، أخذَهُ إبليسُ فَقَبَّلَهُ ووَضَعَهُ بين عَيْنَيه وقال: هذا حبيبى وصَديقى وحبيبُ صَديقى، وقال: فبكَ [أغْوى][1] وبكَ أُضِلُّ، وبكَ أُهْلِك، وبِكَ أَقتل.

وقال اللهُ، ومَنْ أصْدَق مِنَ الله قِيلاً: ﴿وشَارِكْهُم فِى الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ وعِدْهُم﴾ الآية [الإسراء: ٦٤] فإنّما فَضَّل (. . .)[2] [تارك هذه الأشياء]. [وقال الفَضل] والحسنُ رحمهُ الله، ومَن وافقهما: رَافِضَ الدُّنيا؛ لأن مقامَ الزُّهد يجمع التوكُّلَ والرِّضَا. ألا تسمع الخبرَ الذى رُويناهُ، قيل: «الزُّهد أن تكونَ بما فى يَدِ الله أوثَقَ منك بما فى يَدِكَ» فهذا هو التوكُّل. ثم قال: «وأَن تكونَ بثواب الْمُصِيبة أفرح منك لو أنّها بَقِيَت لكَ» فهذا هو الرِّضا.

ثم إنَّ المعرفةَ والمحبةَ داخلانِ فيه؛ لأنّه لمّا أحبَّ اللهَ أحَبَّ ما يُحبُّ وهو الزُّهد، وأبْغَضَ ما يُبغضُ وهو الدُّنيا، ولأنّه لما عَرَفَ اللهَ زَهد فيما يُبعدُ مِنْهُ.

فأيُّ مقامٍ أعْلى مِن مقامٍ جمعَ هذه الأربعةَ، وهى غايةُ الطالبين؟ وقد رُوينا عن ابن عباسٍ حَديثًا فيه شدَّةٌ، قال: «يُؤتَى بالدُّنيا يومَ القِيامَةِ فى صورةِ عجوزٍ شمطاءَ زرقاءَ، أنيابُها باديةٌ، مُشَوَّهَةٌ خَلْقُها، فَتُشْرِفُ على الخلائق، فيقال: تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه. فيقال: هذه الدُّنيا التى تفاخَرْتُم عَلَيها، بها تَقاطَعْتُم الأرحامَ، وبها تحاسدتُّم وتباغَضْتُم واعتززتُم. ثُمّ تُقْذَفُ فى جَهَنّم، فَتُنادى: أى ربِّ، أتباعى وأَشْياعى. فيقول الله تعالى: أَلْحِقُوا بها أتباعَهَا وأشياعها».

فمقتضى الدُّنيا فى طلب النَّصِيبِ مِثلُ جهَنّم ﴿هَلْ مِن مَزِيد﴾ [ق: ٣٠]، طلبت

(١) تلف بالأصل قدر كلمة، أثبتها اجتهادًا.

(٢) قدر كلمتين أو أكثر.

أهلها؛ لأنّها جُعِلَت لهم وخُلقوا لها (. . .)[١] الدُّنيا محبتها؛ لأنّهم خُلقُوا لها وجُعِلَت لهم، وكذلك (. . .)[٢] إنّها تابعةٌ للأرباب، وكلٌّ من طَلَب شيئًا وأحبه حُشِر معه غدًا، وتَبعه إلى مُحِبى الحقِّ وطالبه (. . .)[٣] لتقريبه، فباطن الدنيا صورة (. . .) وظاهرها ظاهر هوى النفس ونحن (. . .) من الآخر، وليس يمكن كشفُ سرٍّ هذا.

وقد رُوينا عن رسول الله ﷺ حَديثًا أشدَّ من هذا، حُدِّثنا عن عبد الواحد بن زيدٍ عن الحسن عن أنسٍ قال: قال النّبى ﷺ: «ليَجيئَنَّ أقوامٌ يومَ القيامةِ وأعمالُهم كجبَالِ تِهامة، فيُؤمَر بهم إلى النّار. قالوا: يا رسول الله، مُصَلِّين؟ قال: نعم، كانوا يُصَلُّون، ويَصُومُون، ويأخُذونَ هُنَيئةً من الليلِ، فإذا عَرَضَ لهم شىء من الدُّنيا وَثَبُوا عليه».

ورُويناه من طريق آخر: «يُؤتَى بأعمالِهم أمثالِ الجبالِ، فيُوضع فى الميزانِ فلا يزنُ جَناحَ بعوضةٍ»، قال فيه: «كانُوا إذا عَرضَ لهم شىءٌ مِنَ الحرامِ وَثَبُوا عليه، ولم يرتدعُوا عنه».

فلذلك كان الحارث بن أسد يقول: إنّما الزُّهْدُ إسقاطُ قيمةِ الدُّنيا من القَلْب، وأن لا يكون لشىءٍ عاجلٍ فى القَلْب وَزْنٌ. فإذا سَقَطتْ قِيمُ الأشياءِ واسْتَوَتْ فى القلب فهو الزُّهد.

فحقيقةُ الزُّهدِ تركُ طلب الدنيا حتى لحاجته قبل الفاقَةِ إليه، وتَنَاوُلُه بعد الحاجَةِ مُتَقَلِّلاً منه. وهذه المقالةُ يَدْخُلُ فيها قولُ الخاصّة ولا يختصُّ بها رأىُ العامّة من الزَّاهدينَ، ويسلم لذلك ويَشْهَد له [عمومُ][٤] المُتَّسِعِين، ولا ينكرُه ولا يكرهُهُ خصوص [الزاهدين]، فتدبَّروا.

وكان أبو بكر الصِّدِّيق عليه السَّلام يقول: «وأسألك الزُّهْدَ فيما جاوزَ

(١) قد كلمتين.

(٢) قدر ثلاث كلمات.

(٣) فى هذا الموضع والموضعين اللذين بعده بياض قدر نصف سطر فى كل موضع.

(٤) تلف قدر كلمة فى هذا الموضع والذى يليه، وقد وضعت ما بين المعكفات اجتهادًا منى.

الكَفافَ»، فدلَّ [أن الأخذ] عند الحاجة ليس من الدُّنيا، إذ لا (. . .) الخَلْق، فإنّما سأل الزُّهد فى فُضول الكفاف (. . .) قال الرسولُ ﷺ: «اللهم إنى [أسألك الكفاف] قوتَ يومٍ بيَوْمٍ»، ففسَّر الكفاف [هو أخذ الكفاية] من الدنيا، لأنه طريق إلى الآخرةِ (. . .)[١]

وذكر معاويةُ الخُلفاءَ قبله فى مجلسه؛ فقال: أمّا أبو بكر [رضى الله عنه] فلم يُرِدِ الدّنيا ولم تُرِدْهُ. وأمّا عمر رضى الله عنه فأرادته الدُّنيا ولم يُرِدْها. وأمّا عُثمان رضى الله عنه فأرادته ونال منها. وأمّا نحنُ فافترشْناها وتمرَّغنا فيها.

ويشهد لكفاية الحاجاتِ أنه ليس من الدُّنيا الخبرُ السائرُ: «ثلاثٌ ليس من الدُّنيا». وفى لفظ آخر: «لا حقَّ لابن آدمَ فى غير هذه الثلاث». وفى رواية أخرى: «ثلاثٌ لا حساب على المرء فيهنَّ، ولا يُحاسَبُ العبدُ عَليهنَّ: طعامٌ يُقيمُ به صُلْبَه ما سدَّ جَوْعَتَه، وثوبٌ يُوارى عورتَهُ، وبيتٌ يُكِنُّهُ من الحرِّ والبردِّ، وما سوى ذلك ففيه الحسابُ».

وجاء بلفظ بالغٍ موجزٍ: «لا حقَّ لابن آدمَ فى الدُّنيا بعد ثلاثٍ: جِلْفُ الخبزِ[٢]، والماءُ، وعشٌّ كعُشِّ الطير، وما سوى ذلك ففيه حساب».

وكان الدَّارانى يقول: خُلِقَ ابنُ آدمَ والخبزُ معه، وما زادَ على الخُبزِ فهو شهوةٌ.

ورُؤى ابنُ داود وهو يأكل خُبزًا مُكَرَّجًا قد بلَّه بالماء بغير مِلح. فقيل له: لو أضفت إليه الملح كان أطيبَ. فقال: تركتُ المِلْحَ منذ تركتُ الدنيا.

وقال بعضهم: دَخَلْنا على فرقد السَّبخى [وهو يأكل من] خبز شعير، وقال: كلوا ما رزَقَ اللهُ. قال: فقلنا: (. . .)[٣] قد جعلنا فى العجين مِلحًا، فكان يُحاسبُ (. . .)[٤].

---

(١) عدّة مواضع تالفة متفاوتة الطول والقصر، الأول والثانى قدر كلمتين، والثالث نصف سطر، ثم سطر أو أكثر.

(٢) الجلف: الخبز وحده لا أُدْمَ معه. وهو أيضًا الوعاء يوضع فيه الخبز.

(٣) قدر ثلاث كلمات أو أكثر.

(٤) قدر نصف سطر أو أكثر.

كذلك كان داود الطائى: يأكل الخبز [اليابس][(١)] ويشرب الماءَ الحارَّ. فقيل له: لو شربتَ ماءً باردًا و (. . .)[(٢)] فقال: كلُّ هذا لمن فى السِّجْنِ كثيرٌ، إنَّ من (. . .) ـنه أن يموتَ، وإذا لم يحبّ الموتَ لم يحبَّ (. . .). هذه طريقةُ قُرّاءِ المتعبِّدينَ وزُهَّادِ المتقشِّفينَ.

وكان الثَّورى يقول: الزُّهْدُ فى الرياسة أشدُّ من الزُّهد فى الدُّنيا. وقال بعضُ العلماء: ما وجدنا الزُّهْدَ فى شىءٍ أقلَّ منه فى الرِّياسة، رأينا مَن زَهد فى الدُّنيا كثير، وقلَّ مَن رأيناه زَهِدَ فى الرِّياسةِ. ولربّما زَهِد العبدُ فى الدُّنيا رغبةً منه فى الرِّياسةِ بالزُّهدِ والمدحِ بذلك.

وهذا منْ ألطف آفات النفوسِ، وأعظم بلواها، أنشدنى بَعْضُهم:

أرَى مَنْ بهـا قاتلٌ نَفْسَهُ   على أنْ يُقال له إنَّهُ

نعوذُ بالله من قُوّة شاهد النَّفْسِ وغَلَبَة سُلطان الهوى، إذا استولى على القَلْبِ دَهْوَرَ صاحبَهُ فى مهواة، إذ ضَيَّعَهُ الدّليلُ فاستَهْوتْهُ الشياطينُ حيرانَ، فَتاه عن قصد السبيلِ. فإذا كان طائفةٌ قد يَزهدونَ فى الدُّنيا للرِّياسة، فإذا زَهد هذا فى الرِّياسةِ فآثر الخُمولَ والاستذْمَامَ على الاشْتهارِ والتمدّح بَعُدَ عن الأنامِ. فهو زُهد الزُّهد، كما قُلنا آنفًا؛ لأنَّ الرغبات كلها يجمَعُها الهوَى، ثُمَّ تتشعَّبُ الشَّهَواتُ عنه، فمن زهَّدَهُ (. . .)[(٣)] عين الهوى وأصل كلِّ مهوىً، فهذا حقيقةُ الزُّهد الذى هو الزُّهد فى النَّفس؛ لأنّه بالشَّهوة الخفيَّة (. . .)[(٤)] المختفى قد تزهد فى المرغوب لنفسه (. . .)[(٥)].

قيل لبعض العارفين: هل يأسف الولىُّ على [أحدٍ] غير الله فيأسَف عليه.

وقد كان طَيْفور البَسْطامى يقول: ليس الزَّاهدُ من لا يملك شيئًا، إنّما الزَّاهد

(١) موضعه تالف بالأصل.

(٢) هذا الموضع والموضعان بعده قدر نصف سطر.

(٣) قدر كلمة أو أكثر.

(٤) قدر نصف سطر.

(٥) قدر سبعة أسطر.

من لا يملكه شيءٌ. وهذا كذلك؛ لأنّ الزُّهْد كما يصحّ مع وجود الغِنى، إذا لم يتملَّك ولم يتحكَّم ولم يُمسك لعاجلِ حظّ النَّفْسِ ولا للمتعة بالمالِ. كذلك لا يُوجَدُ الزُّهدُ مع فَقْد المالِ، ووَجْد الفقيرِ إذا كانَ الفقيرُ حاسدًا على شيءٍ من الدُّنيا، أو غابطًا لأبنائها، أو مُتَمَنِّيًا لها، أو متبرِّمًا بفَقْده، أو متضرِّرًا بِضُرِّه، فلا زُهْدَ مع هذه الحالِ. وقد يصحّ الزُّهدُ أيضًا مع الفَقيرِ وإن لم يَمْلك شيئًا من الدُّنيا، ولا أخرَجَ شيئًا من يده (...)[1] بذله وزهده؛ بشرط أن يطَّلِعَ اللهُ تعالى على الرِّضا من قلبه وحاله وسُكُونِ نفسه فى عَدَمِه. ويعلم اللهُ تعالى من غَيْبه ... هُ بالدُّنيا لَرَفَضها إيثارًا منه للرَّغْبةِ فى الآخرَةِ (...) الأحكام من الفَقْرِ والغنى والزُّهْدِ والرّغبةِ تختلف لاختلاف (...) أو تتقلبُ لانقلابِ معانيهم، وتعدل بحقائقها عن (...) تكشف سَرائِرُهم عن حقائقه. ولذلك كان الرسول ﷺ يقف على فقراءِ أهلِ الصُّفَّةِ الذين لم يكونُوا يَمْلكُون شَيئًا من مالٍ، ولم يُعلم زُهْدُهم فى الحالِ، ولم يوجد ... ـدلال، وكان ﷺ يكِلُهم إلى ... ـذان يُعْلِمُهُم ما يَجبُ لله عَلَيهم كما قال: «كُلٌّ (...)[2] نفسه. فيقول: يا معشرَ الفقراء أعطُوا اللهَ الرِّضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقْرِكُم، وإلا فلا». فهذا كما قال ﷺ لبعض المهاجرين الذين لم يظهر له هِجرتُهُم: «إنما الأعمالُ بالنِّياتِ، فمن كانت هِجْرتُه لدنيا يصيبُها فهجْرتُه إلى ما هاجر إليه».

فأخبرهم بما عليهم، إذ ليس عليه حسابُهم، ووَكَلَهم إلى مَنْ إليه إيابُهم، وعليه حِسابُهم. كيف وقد قال فى الفَقيرِ الذى مات وتركَ دينارَيْن، فقال: «اكساب من نار». فقد كان ظاهرُ هذا الفقرَ، وباطنُهُ استبطانَ الوَفْر فما يمنعه فَقْرُهُ ولا زُهْدُهُ فى المآلِ ظاهره.

وقد قال لعمرو بن العاص: «وأزغبُ لك زَغْبةً من المال. فقال: وما أصنعُ بالمال؟ فقال: نعمًا بالمالِ الصّالح للمرء الصّالح». فما ضَرَّ عمرًا مالُه إذا استقامَ بِهِ قَلْبُهُ، وصلَحَ عليه حالُه. [يقال:] جاء السَّيلُ يَزْغَبُ زَغْبةً، أى يَدْفَعُ دَفْعًا.

(١) قدر كلمة، وكذلك الموضع الذى يليه.

(٢) المواضع التى مضت قدر ثلاث كلمات أو أكثر.

وأما أبو يزيد البسطامىُّ فكان يقول: حَقيقةُ الزُّهْد لا يكون إلا عند ظُهور القُدْرة. والعاجزُ لا يَصِحُّ زُهْدُه؛ وهُو أن يُعطيَه كُنْ، ويُطْلعَهُ عَلى الاسم، ويُقْدِرَهُ على الأَشياءِ بإظْهارِ الكَوْنِ، فيَزهَدُ فى ذلك حياءً من اللهِ تعالى، ويتركه حبًّا له.

وقال يحيى بن معاذ: نستعيذ بالله من أربعةٍ وعشرين مقامًا من إظهار القدرة والكرامات التى يُسَمِّيها الجهلة معجزات (. . .)[١].

وذهب إلى هذا المعنى أبو محمّد سهل، وأبو الفيض المصرى، وغيرهما من العارفين والمحبِّين، فقال قائلهم: سبعة عشر مقامًا فى المعرفة أدناهُ المشى على الماء وفى الهواءِ، وطىُّ الأرضِ، ونحوه، كلُّ هذا من زخرفِ الدُّنيا.

وقال الآخرُ: وُجودُ هذه الآيات فى طريقٍ بعَينه للمُنْقَعِرين[٢] فى الأمصار مِمَّن لا يأخذُ معلومَهُ بأيدى الخَلْقِ ولا الأسبابِ . . .[٣] ـيَّة. وبعضهم يقول: هو مقامٌ معلومٌ؛ السابع عشر فى مقاماتِ المعرِفة، مَنْ أُقيمَ فيه أو سُلِكَ به طريقَهُ رآها فى ذلك الطريقِ، وهى ثلاثة وسبعون مقامًا أدنى مقامٍ منها فوقَ جميع (. . .)[٤]. وكان بعضهم يقول: هذه الآياتُ بالأبصار مَلكُوتيَّةٌ تثبت [عينَ] اليقين ليثبتُوا على الطَّريقِ. وذرَّةٌ مِن عَينِ اليقينِ [مَلكُوتيَّةٌ] غَيبيَّةٌ فى قُلُوبِ العلماء أفْضَلُ مِنها، وتلك إنّما. . . ـن هذا.

وكان الدارانىُّ يقول: يُرَى [المريدُ أشياء] فى السَّيرِ ليُثَبِّتَ مقامَهُ إذا لم يلتفت انقطعَتْ عنه. وقال غيرهُ: أشياءَ طوينا ذِكْرها لقلَّةِ المرادينَ بها.

وكان ذو النون وابن معاذ يقولان: الزَّاهد قوتُه ما وَجَد، وثوبُه ما ستَر، وبيتُهُ ما آواه، وحالُه وقتُه.

وقال بعض العارفين: الزُّهْدُ إنّما هو تَركُ التّدبيرِ والاختيارِ والرضا والتَّسليم لاختيارِهِ شدّةً كان أو رَخاءً. وهذا طريق: إبراهيم الخوَّاص، والثَّورى، وذى

(١) قدر ثمانية أسطر.

(٢) المنقعرين: المنقطعين.

(٣) جزء من كلمة.

(٤) هذا الموضع والذى يليه قدر كلمة أو كلمتين.

النون، رحمهم الله تعالى.

وقد حُكى لنا معنى هذا عن الجنيد قال: اجتمع أربعةٌ من الأبدالِ فى جامع المنصور ليلةَ العيدِ، فلما أَسْحَرُوا قال أحدهم: أما أنا فقد نويتُ أن أصلِّى العيدَ فى بيت المقدس. وقال الآخرُ: أما أنا فقد نويتُ أن أصلّى العيدَ بطَرْسُوس. وقال الثالث: أما أنا فقد نويتُ أن أصلى العيدَ بمكّة. وسكت الرابعُ وكان أعرفهم، فقيلَ له: أنت أىَّ شىءٍ نويتَ؟ فقال: أما أنا فقد نويتُ اليوم تركَ الشّهواتِ، لا أصلى إلا فى هذا المسجد الذى اعتكفتُ فيه، فقالوا: أنت أعلمنا، فقعدوا معه، وكنّا نَظُنُّ أنّه هو، يَعْنى نفسه، فصار عند هؤلاء كما ذكرناه آنفًا.

إنّ هذه الآياتِ هى من مُدْركى الشّهواتِ، إذ ليست حاجات. والشهوة من الدنيا لا محالة عند الجماعة؛ لأنها من الهوى وليس فيها قُربة إلى الله ولا مزيَّة سنَّة، فيكون من الزاهدين فى الدّنيا. وأيضًا ففيها تدبير واختيارٌ. وعند الزهاد العارفين والمحبين: أن هذا مكرٌ وخِداعٌ يُبتلون به ويُقتطعون لينظر كيف يعملون، إذ ابتلاءُ كلِّ عبدٍ على قَدْرِ مَرتبته وحاله، فيلزمه الزّهدُ فيه. ويقال: هى فى المقامِ السابعِ عشر من المعرفة. فمن سَلَك به الطَّريق رآها فِيه، وفوقها نيف وسبعون مقامًا أفضل من ذلك.

وقد سُئل الجُنيد عن الزُّهد فقال: معنيان: ظاهرٌ، وباطنٌ. فالظاهرُ: بُغْضُ ما فى الأيدى من الأملاك، وتركُ طلبِ المفقود. والباطنُ: زوالُ الرّغبةِ عَن القَلْب، ووجودُ العُزوفِ والانصرافِ عن ذكرِ ذلك. فإذا تحقَّق بذلكَ رزَقه اللهُ تعالى الإشرافَ على الآخرة، والنظرَ إليها بقَلْبه. فحينئذ يَجدُّ فى العملِ بتقصير الأملِ وتقريبِ الأجلِ؛ لأنَّ الأسبابَ عن قلبه مُنْقَطعَةٌ، والقلبُ منفردٌ بالآخرة. وحقيقةُ الزهد قد خَلُصَت إلى قلبه، فامتلأ من الذِّكْرِ الخالصِ لربّه سُبحانه وتعالى. فالزهدُ عن حقيقة الإيمان، وأنَّ المشاهَدَةَ للآخرة تكون بعد الزُّهد، ثم تستوى الأشياءُ عنده، ويَستوى عَدَمُها ووُجودها، وعندهُ يكون استواء المدح والذّم؛ لاستواءِ قَلْبه فى المُشاهَدَة.

كما رُوينا فى حديث الحسن أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لرجل: «هل استويتَ؟

قال: وكيف أستوى؟ قال: يستوى عندك الذَّمُّ والمدحُ». وذلك يكونُ لسُقُوط قَدْرِ النَّفْسِ، وذَهَابِ رؤيةِ الخَلْقِ، فعندها يَسْقُطُ الاستواءُ والرَّغبةُ، فيَثبتُ الإخلاصُ والزَّهادة[١].

وكما فسَّر حذيفةُ حقيقةَ الإيمانِ فابتدأ بالزُّهد، فقال: «عَزَفَتْ نفسى عن الدُّنيا» ثم ذكر الاستواءَ فقال: «فاستوى عندى حَجَرُها ومَدَرُها». وكذلك عينُ اليقينِ ترى تَسْوِيةَ الجواهر بالأحْجارِ فى العَقْل بتفاوتٍ بينها لإيقاع الأحكامِ وبَلْوى. . .[٢] الأجْسَام بها والأَجْرام. ثم ذكر المشاهَدةَ فقال: «وكأنّى بعَرْشِ ربّى بارزًا»، وبالجنّة والنّار.

فجميع ما ذكرناه هو مقامات فى الزُّهد لجميع الزَّاهدينَ، وكأَنَّ كُلَّ مَن جَعَلَ شيئًا من الدُّنيا مبلغ عِلمهِ وعُلوَّ شهادته صيَّر الزُّهدَ ضِدَّه.

وقد نوّعَ أهلُ المعرفةِ الإيمانَ فى القلبِ على مَقامين، فجعل لهما زُهْدين فقال: إذا تعلَّق الإيمانُ بظاهرِ القلبِ أحبَّ العَبدُ الدّنيا، وأحبَّ الآخرةَ، وعمل لهما، فإذا بطَنَ الإيمانُ فى سويداءِ القلْبِ وباشَرهُ أبغَضَ الدّنيا؛ فلم ينظر إليها ولم يعمل لها.

وقد كان أبو سليمان يقول: مَنْ شُغِل بنفسهِ شُغِل عن الناسِ، وهذا مقامُ العامِلين. ومن شُغِل بربِّهِ سبحانه وتعالى شُغِل عن نفسه، وهذا مقام العارفين.

ولهذين المقامين دليلٌ من السنّة أن النبى ﷺ سُئِل: أىّ الناس خير؟ فقال: «مَنْ يَشْنأُ الدنيا ويحبُّ الآخرة». فأوْقَعَ الشنآنَ للدّنيا لوقوع ضدِّه من حبِّ الآخرةِ. فقيل: فإن لم يكن؟ قال: «مؤمنٌ فى خُلُقٍ حَسَنٍ»[٣].

والشاهِدُ الآخرُ: سأل رسولُ الله ﷺ: «مَن خَيْرُ الناسِ؟ قالوا: مُؤمنٌ موسر

(١) فى (ط): «يستوى المدح والذّم لسقوط النفس وذهاب رؤية الخلق. فعندها خلص الإخلاص إلى قلبه لصفاء الزّهد، وثبت الزّهد لسقوط النفس».

(٢) قدر كلمتين.

(٣) لفظ الخبر فى (خ): «من ينسى الدنيا» ثم طمس فى معظم الصفحة، وذكر فيها أكثر من خمسة أحاديث تتعلق بالزهد والفقر، سأثبت منها ما استطعت تبيّنه واستظهاره.

من المال يعطى حقَّ اللهِ فى نفسِهِ وماله. فقال: نِعْمَ الرجل، وليس به. خيرُ النّاسِ فقير يُعطى جُهْدَه».

فهذا كما قال فى الخبر الثالثِ: «لا بأس بالمال [الصالح] لمن اتقى». وكما قال: «خيرُ هذه الأمةِ فُقراؤها».

وقال فى الخبر الآخر الذى قدمناه: «نعمًّا المالُ الصالحُ للرّجل الصّالح». والمال الصالح هو الحلال. والعبد الصالح هو المنفق ماله بالليل والنهار سِرًا وعلانيةً ابتغاء مرضاتهِ، كما وصفه الله ومدحه.

وقال ﷺ: «إنّ الله يعطى الدّنيا من يُحِبُّ ومن لا يُحِبّ، ولا يعطى الإيمان إلا مَن يحبّ». فمن يَجُدْ بالمال فهو ممن يحبه الله، فالذى يُحبّه الله تعالى مِمّن أعطاهُ الدنيا لا يُخالف حبيبَه إلى هَوَاهُ، ولا يُؤثر نفسَه على محبَّةِ مولاهُ، إذ قد تولاّه فيما أعطاهُ.

وفى الخبر الخامس تعديل ومطمع، قال: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بمنزلةَ الصائم الصّابر». والطّاعم الشاكر هو الذى يستعين بِطُعْمته على خِدْمَةِ مولاهُ، ويعبُدهُ شكرًا لما أوْلاهُ.

وقال تعالى: **﴿مَنْ كَان يُريدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فى حَرْثِه ومَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنيا نُؤْتِه منْها﴾** [الشورى: ٢٠]. حرث الدُّنيا هو المال، وحرثُ الآخرةِ العملُ الصالح. وقد جاء فى الخبر: «مَنْ جعل اللهَ همَّهُ جمع اللهُ قَلْبَهُ عليه، وجعل غِناهُ فى قَلْبه، ومَن جعل الدّنيا همَّه شتَّتَ قَلْبه وجعل فقرَهُ فى نفسه».

وقال الرسول ﷺ: «لا مانِعَ لما أَعْطَيْتَ، ولا مُعطى لما مَنَعْتَ». فلا مانع لما يُعطى من زُهد وتَقْوى، ولا مُعطى لما مَنَع من ذَلك. كذلك قال الجليلُ: **﴿وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضرٍّ فلا كاشِفَ له إلاَّ هُو وإن يُرِدْكَ بخَيْرٍ فَلا رَادَّ لفَضْلِه﴾** [يونس: ١٠٧].

وكلُّ من عَلا مقامُهُ انفرَدَ وعَلا فى جَميعها هَمُّه، فوَحَّد، كقوله: «مَن جعل الهَمَّ هَمًا واحدًا كفاهُ الله شرَّ دُنْياهُ وآخِرَتهُ». والهَمُّ الواحدُ بوَجْدٍ واحدٍ هو وصْفُ

عَبْد مُتَوَحِّد لواحد، مُتَأَلِّه إلى أَحَد، كما أَلِهَ المولِّهُ للقُلُوب، وكاشَفَ به من ذخائر الغُيوب، وقد وهَّب له خُلُقًا من أخلاقه، فهو الأَحدُ بوَحْدَانيَّة هي صِفَتُهُ. وعبدٌ متوحِّدٌ بِوَحْدَة هي خُلقُهُ، منفردُ الهمِّ، مجتمعُ القَلْب بجامعٍ مُعْطٍ له غيرِ مانعٍ، ليس بضارٍّ له، إذ هو نافعٌ. وانفرادُ الهمِّ يكونُ بَعْدَ مَحْوِ الهَوى، ومَحْوُهُ بعد امتحان القلب للتقوى، كما قال الحكيم العليمُ: ﴿**أُولئكَ الَّذينَ امْتحَنَ اللهُ قُلُوبَهُم للتَّقوَى**﴾ [الحجرات:٣] قال: (. . .)ـا، ولعَمْرى لمّا أثبتَ المخاوفَ فيها حُمِدَت. وكما قال تعالى: ﴿**يَمْحُو اللهُ ما يَشاءُ ويُثْبِتُ**﴾ [الرَّعد:٣٩]. فتدبَّر.

وأما محادثاتُ (. . .) طبيعة أخلاقها المذْمُومَة، صفات الإيمان (. . .) أخلاق الرُّبوبيَّة الحَسَنة الحَميدة، فصار (. . .) إن كان نَفْسيًا، وجُعِلَ ربّانيًا بعد كَوْنه (. . .)[1]. واجتماعُ القَلْبِ يكونُ مع طيبِ النَّفْسِ وطُمأْنينتها بالإيمانِ بمُؤْمنٍ، وتَخلُّقها بأخلاقِ الرُّوحانيينَ، أو فلاحُها بالتّزكية والرّضا. كما قال الرسول ﷺ: «طِيبُ النَّفْسِ من النَّعيم». وقال الله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها**﴾ [الشمس:٩]. وقال في نعتها: ﴿**يا أيَّتُها النَّفْسُ المطْمئنَّةُ * ارْجعى إلى ربِّكِ رَاضيةً مَرْضيَّةً**﴾ [الفجر:٢٧ ـ ٢٨]. عندها يكُونُ مُواطئةً للرُّوح تُخلِّقُهُ بأخلاقِ الإيمانِ مُطْواةً للقَلْب تُخلِّقُهُ بأخلاقِ الرَّبِّ، مُعاينَةً لليقين تهديه للطّريق المستقيم والصِّراطِ المستبين، مُشاهِدةً للحقِّ المبين.

وقال وهب بن مُنبِّه: وَجدتُ فيما أنزلَ اللهُ على مُوسَى: «مَن أحبَّ الدُّنيا أبْغَضهُ اللهُ، ومَن بَغَضَها أحَبَّهُ اللهُ. ومَنْ أكْرَم الدنيا أهانه اللهُ، ومن أهانها أكْرمَهُ الله».

وأمّا علماءُ الظّاهر[2] فقالوا: الزُّهد في الدُّنيا هو مُوافَقةُ العِلْم، والقيامُ بأحكامِ الشَّرعِ، وأخذُ الشيءِ من وَجْهه، ووضعُه في حقِّه. وما خالفَ العلمَ فهو جهلٌ كلُّه وهوًى.

---

(١) المواضع السابقة قدر كلمتين أو أكثر.

(٢) نقله صاحب الإتحاف: ٩/٣٤٥.

فذكروا فَرْضَ الزُّهْد وظاهِرَهُ، ولم يَعْرِفُوا غَرائبَهُ وباطِنَهُ، ذلك مَبْلَغُهم من العِلْم، ونَصيبُهم من الفَهْم. وهو مَقَامُهم من المقال، وطريقُهم المشوبُ بالاعْتلال، وقد يعتورُهُ الوَهْمُ والظنُّ؛ لأنّهم يَصِفُونَ الشيءَ عن خبرٍ وسَمْعٍ، لا عَن خبرِ ويقينٍ، كما أنشدنا بعضُهم:

تَصِفُ الطُّلولَ عن السَّماعِ لها ليس العِيانُ كأنتَ فى العِلْمِ
وإذا وَصَفْتَ الأمرَ عن خَبَرٍ لم تَخْلُ مِن غَلَطٍ، ومن وَهْمِ(١)

وقد رُوينا(٢) عن الثّورىّ وابنِ عيينة أنهما سُئلا: أيكونُ الرَّجلُ زاهدًا وله مالٌ؟ قالا: نَعَم، إذا كان إذا ابْتُلِىَ فصبر، وإذا أُنعم عليه شكر. قال ابن أبى الحوارى: فقلتُ له: يا أبا محمّد؛ يعنى ابن عيينة: قد أُنعم عليه فَشكَر، وابْتُلِىَ فصبر، وحَبَسَ النِّعْمةَ، كيف يكونُ زاهدًا؟ فضربنى بيدِه وقال: اسكُت، مَن لم تَمْنَعْهُ النعماءُ مِنَ الشُّكر، ولا البَلْوى عن الصَّبر، فذلك الزَّاهدُ.

ووافقهما الزّهرى كذلك. وقد فَصَّل أبو سليمان ذلك فقال ابنُ أبى الحَوارى: قُلتُ له: أكانَ داوُد الطائى رحمه الله تعالى زاهدًا؟ قال: نعم. قلتُ: بَلَغَنى أنه ورثَ من أبيهِ عِشْرينَ دينارًا، فأنفقها فى عشرينَ سَنَةً، فكيف يكونُ زاهدًا وهو يمسكُ الدَّنانير؟ فقال: أردتَ منه أن يبلغ حقيقة الزُّهد.

وقد قالوا فى الزُّهد وَصْفَيْنِ جامعيْن لأحوالِ القُلُوب. قال مُضَاء بن عيسى(٣): قلتُ لسباع المَوْصلى: يا أبا محمّد، إلى أىِّ شىء أفْضَى بهم الزُّهدُ؟ قال: إلى الأُنْسِ باللهِ. فهذا لزوالِ وَحْشَةِ الدُّنيا، وخروجِ ظُلْمةِ النّفس بالهوى، وقَعَ الأنسُ

---

(١) البيتان لأبى نواس، انظر ديوانه، تحقيق إيفالد فاغنر، ٣/ ٢٦٩، ونشره أحمد عبد المجيد، ص٥٨، والرواية فيه: البيت الأول:

* ... أفذو العيانِ ... *

البيت الثانى:

* وإذا وضعت الشىء مُتَّبعًا *

(٢) فى الإتحاف: ٩/ ٣٧٤.

(٣) فى الإتحاف ٩/ ٣٧٣: «مضر بن عيسى».

بالنُّورِ، ولا يَجِدُ الأُنْسَ بالحَبيبِ والوَجْدَ بالقَريبِ غيرُ زاهِدٍ.

وقال عثمان بن عمارة: كان يُقال: الوَرَعُ يَبْلُغ بالعَبْدِ إلى الزُّهْدِ، والزُّهدُ يبلغ به حُبَّ الله تعالى. فعَبْدٌ شاهِدٌ أنَّ من لم يَدَعْ فليس بزاهِدٍ، ومن لم يَدْخُل فى الزُّهد لم يكنْ لحبِّ اللهِ بواجِدٍ، لأنَّ حُبَّ اللهِ العلىِّ الأعلى مِن شأنِه أن يُخْرِجَ حُبَّ الدَّنِىِّ الأدْنَى.

فهذان الحالان غايةُ الطّالبينَ: الحبُّ للجليلِ، والأُنْسُ باللطيفِ. فمن لم يتحقق بالزُّهد لم يَبْلُغ مقامَ الحُبِّ، ولم يُدْرِك حالَ الأُنْسِ وسرائرَ الغيب المَلَكُوتيَّةِ فى مقامِ الحُبِّ والخلّة اليقينيّةِ، وغياباتِ السِّرِّ العزِّيَّةِ الجبروتيّةِ فى حالِ الأُنْسِ والقُرْبَةِ ومَحْوِ الحِشْمَةِ العَقْليّة. ووراء هذا (. . .)[1] يعيدُه ويُبديه.

وكان ابن معاذٍ يقول: (. . .) مخلوقًا إذَا فتح له باب الأُنس والإدْلالِ (. . .) فى ذلك الوقت مَخْلُوق، وفى تلك (. . .) يهربون، فإذا فتح له باب الخَوْف (. . .) ينتفعون به، ويفهمون عنه، وكشفُ هذا المقام يخرج إلى علمِ غَريبٍ لا يُعْرَفُ، وسِرٍّ عَجيب لا يُكْشَف، لطيفٍ ليس عَلَيه يُوقَفُ، ولكل مقامٍ مقالٌ (. . .) فى مقامِ الزُّهد فى الدُّنيا (. . .) على أمرِه، ولله الآخرةُ والأُولى (. . .) وسرائر القُلوبِ أَوْلَى، لِلطيفِ ما فيها مِمّا أعار وأَبْدى إذْ لَدَيْه تَوَلّى.

وفقنا الله وإياكم لما يُحبُّ، وبلّغنا ما نؤمِّلُ بفَضْله ورحمته. ولا حول ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ العلى العظيم. وهذا آخر كتاب الزُّهد[2].

* * *

---

(١) هذا الموضع والمواضع التى تليه قدر أربع كلمات أو تزيد، فى كل موضع.

(٢) إلى هنا ينتهى هذا الجزء من النسخة المباركة (خ) بزياداتها الطويلة المهمة، على ما فيها من طَمسٍ. وفى آخرها ما نصه: «يتلوه إن شاء الله شرح مقام التوكل، ووصف أحوال المتوكّلين. والحمد لله رب العالمين، وصلواتُ الله على نَبيّه محمّد المصطفى، وعلى آله وأصحابه وأصهاره وأنصاره أجمعين».
ولكنى لم أجد بقيتها.

شرح مقام التوكل، ووصف أحوال المتوكلين (١)
وهو المقام السابع من مقامات اليقين

التوكُّلُ من أَعْلى مقاماتِ اليقين، وأشرفِ أحوالِ المقرّبين. قال الله الحقّ المبين: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فجعل المتوكِّل حبيبه، وألقى عليه محبّته. وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، فرفع المتوكلين إليه، وجعل مزيدهم منه. وقال جلت قدرته: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

ورُوينا أنّ النبى ﷺ لما قرأ هذه الآية قال: «يا أبا ذر، لو أنّ الناس أخذوا بهذه الآية لكفتهم».

فمن كان الله حسبه، كان كافيه ممّا سواه، ومَنْ كان الله كافيه فهو شافيه ومعافيه، ولا يسأل عمّا هو فيه.

وقد أمرَ اللهُ بالتوكُّلِ، وقَرَنَهُ بالإيمانِ، يدلُّ بذلك أنّهما شيئان، إذ التوكّلُ على الوكيلِ من الإيمانِ بالمؤمنِ؛ لأنّه عن حقيقةِ الإيمانِ وهو اليقينُ، وبمشاهدة الوكيلِ، وهو الحَسْبُ الحسيب ونِعْم الوكيلُ.

فأمرَ بالتوكُّلِ قَولاً وفعلاً بعد الإخبارِ عن مَحبةِ المتوكّل عليه. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] مع اشتراطِ التوكُّلِ للإيمانِ بعد الأمرِ به فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله: ﴿إِنْ كُنتُم آمَنْتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] فلم يُخرج عُمومَ المُسلمين من شَرْط عُمُومِ التوكُّلِ، كما لم يُخرج خُصوصَ المؤمنينَ من شَرْط وُجودِ الإسلام، وكما كلُّ مؤمنٍ حقًا مُسلمٌ لا بُدَّ عَاملاً، كذلك كلُّ مسلمٍ صِدقًا

(١) من هنا يبدأ الجزء الثانى للمطبوعة الأولى للقوت. وأيضًا تبدأ نسخة (م) وبها أيضًا زيادات كثيرة جدًا، وقد اعتمدت نصها وترتيبها وزياداتها.

يكونُ على الله متوكلاً.

فقد صار المتوكِّلُ على الله تعالى من عبادِ الرّحمنِ الذين أضَافهم إلى وصْف الرّحمةِ؛ ومن عبادِ التّخصيص الذين ضَمِن لهمُ الكفايةَ، وهمُ الذين وصفَهم فى الكتابِ بالسّكينةِ والهوْن، ونعتَهم بالسّلامة والخوْفِ، وذَكَرهم بالسُّجودِ والقيامِ، ومَدَحَهُم بالاقتصادِ والقِوامِ، فى قوله سبحانه: ﴿وعبادُ الرَّحمنِ الَّذين يَمْشُونَ علَى الأرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، إلى آخر أوصافهم. فتدبروا فى هذه الآية المهمة لهم، وهمُ الذين كفاهم فى هذه الدّار المهماتِ، ووقاهم بتَفويضهم أمورهم إليه السيئاتِ بقوله: ﴿أليْسَ اللهُ بكَاف عَبْدَه﴾ [الزمر:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وأُفوِّضُ أمْرِى إلَى اللهِ إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بالعبادِ * فوَقَاهُ اللهُ سيِّئات ما مَكَرُوا﴾ [غافر: ٤٤ ـ ٤٥].

وليس هؤلاء من عبيد العَدَد قطّ، الذين قال الله تعالى: ﴿إنْ كلُّ مَنْ فى السَّموات والأرضِ إلاَّ آتى الرَّحْمنِ عَبْدًا * لَقَدْ أحْصَاهُم وَعدَّهُم عَدًا﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٤].

وقال بعض الصحابةِ وغيره من التابعين أيضًا: التوكُّلُ نظامُ التوحيدِ وجماعُ الأمورِ.

وقد مدحَ اللهُ تعالى المتوكلَ فى كتابه، وذكَرَه مع وَصف الصابرين فى مائة مَوضع، وهو طريقٌ إلى التوكُّلِ، وحَالٌ منه، ولا يُقام مَقامٌ فَوْقَهُ.

حدّثنى بعضُ الأشياخِ عن الجُنيد أنَّه قال: غايةُ الصّبرِ وتصحيحُهُ أن يُورثَ اللهُ للصّابرِ التوكُّلَ، قال الله تعالى: ﴿الَّذينَ صَبرُوا وعلَى ربِّهم يَتوكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢]. فأىُّ مقامٍ أعلى من مقامٍ يكون فيه تقرُّب الروح الغَرَر حالاً منه ووصْفًا دونه؟

وحدثونا عن بعض السلف قال: رأيْتُ بعضَ العُبَّاد من أهل البصرة فى المنام، فقلت: ما فَعَل الله بك؟ قال: غفر لى، وأدخلنى الجنة. قلت: فأىُّ الأعمال وجدتَ هناك أفضلَ؟ قال: التوكّل وقصر الأمل؛ فعليك بهما.

وقال أبو الدّرداء: ذِرْوةُ الإيمانِ الإخلاصُ، والتوكّل، والاستسلام للربّ عزّ وجلّ.

وكان أبو محمد سَهْل ـ رحمه الله ـ يقول: ليس فى المقامات أعزُّ من التوكّل، وقد ذهبَ الأنبياءُ بحقيقته، وبقى منه صُبابة انْتَشَقها(١) الصدّيقون والشهداء، فمَن تعلّق بشىءٍ منه فهو صِدّيق أو شهيد.

وقال بعضُ العارفين، وهو أبو سُليمان الدّارانى: فى كلّ المقامات لى قَدَمٌ، إلا هذا التوكّل المبارك، فما لى منه إلا مشامُّ الرِّيح.

وقال لقمانُ فى وصيته لابنه: ومِن الإيمانِ بالله عزّ وجلّ التوكّلُ على الله؛ فإن التوكلَ على الله يُحبِّبُ العبد إلى الله، وإنّ التفويض إلى الله من هُدى الله، وبهُدَى الله يُوافق العبدُ رضوانَ الله، وبمُوافقة رضوانِ الله يَسْتَوجبُ العبدُ كرامةَ الله.

وقال لقمان أيضًا: ومَنْ يتوكّلْ على الله، ويُسلِّم لقضاء الله، ويُفوِّض إلى الله، ويَرْضَ بقدر الله ـ فقد أقام الدِّينَ، وفَرَّغ يَدَيْه ورِجلَيْه لكسبِ الخيرِ، وأقام الأخلاقَ الصالحةَ التى تُصْلِح للعبدِ أمرَهُ.

وقال بعضُ علماءِ الأبدالِ، وهو أبو محمد سهل: العِلْمُ كلّه بابٌ من التعبّد، والتعبّدُ كلّه بابٌ من الورع، والورعُ كلّه بابٌ من الزهد، والزهدُ كلّه بابٌ من التوكّل. قال: فليس للتوكّل حدٌّ ولا غاية تَنْتهى إليه. وقال أيضًا فى قول الله عزّ وجلّ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: ٧] قال: أَصْدق توكُّلاً.

وقال: التقوى واليقينُ مثل كِفّتى الميزان، والتوكلُ لسانه، به تُعْرَف الزيادة والنقصان.

يعنى أن التوكُّلَ معيارُ التقوى واليقين، فبقدر ما للعبد من حال التوكُّل والتّحقّق به يكون له من مَقامِ التقوى وشهادة اليقين.

وسُئل رحمه الله عن معنى قوله عز وجل: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاته﴾ [آل عمران: ١٠٢] فقال: اعبدوه بالتوكل.

وسئل عن قوله: ﴿فاتّقُوا اللهَ ما استَطَعْتُم﴾ [التغابن: ١٦] قال: بإظهارِ الفقر والفاقة إليه.

---

(١) الصبابة: البقية القليلة من الماء ونحوه. وانتشقها: انتشق الماء وغيره: جذب منه بالنفَس فى أنفه.

ووافقه محمد بن موسى الواسطى فى هذا، فقال: التوكُّلُ هو صدقُ الفاقة والافتقارِ. فضَّل به بذلك التوكُّل، كما فسَّر به أبو محمد: التّقوى. وكان أيضًا يقول: التوكُّلُ هو التَّفويضُ ثُمّ الرِّضا. فجعل التوكُّلَ بابَ الرضا الأعلى، الذى هو الغاية القُصْوى.

وقال أبو يعقوب السّوسى: لا تطعنوا على أهلِ التوكّل؛ فإنهم خاصّة الله، الذين خُصُّوا بالخصوصية؛ فسكَنُوا إلى الله، واكْتَفَوْا به، واستراحوا من هموم الدنيا والآخرة. وقال: من طعَن فى التوكّل فقد طعنَ فى الإيمان؛ لأنه مقرون به، ومن أحبّ أهلَ التوكّلِ فقد أحبَّ اللهَ تعالى.

فأوّلُ التوكّلِ المعرفةُ بالوكيل، وأنه عزيز حكيم، يعطى لِعزّته ويَمْنع لِحكْمته، فيعتزّ العبدُ بعزِّه، ويرضى بحُكْمِه، ويستسلم لحكمته. كذلك أخبرَ عن نفسه، ونبّه المتوكِّلين عليه، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

عزَّ مَنْ أعزَّ بعَطِيّته، ونظر لمن مَنَعَهُ بحكمته. يعزّهُ بعزِّه عن ذُلِّ العبادَة، ويُعلِّمه من حكْمته فيُغنيه عن التَّعلُّم من خَلْقِه، فإذا شَهِد العبدُ الذّليلُ الملكَ الجليلَ قائمًا بالقِسْطِ والتّدْبير والتَّقدير، قيُّومًا بالتصريفِ والمقاديرِ، عنده خزائنُ كلِّ شىءٍ، وكلُّ شىءٍ عندَهُ بمقدارٍ، لا يُنزِّله إلا بقدرٍ مَعْلُومٍ، غابت الثوانى والرّسوم فى نُورِ شهادةِ الواحد القيُّوم.

ثم شهِد الوكيلَ قابضًا على نواصى كلّ الموكلين بالأسباب، ورأى عنده خزائنَ السمواتِ والأرض ارتقى فى الأسبابِ إلى العزيزِ الوهَّابِ، كما عرَّض الكافرين بذلك، والمراد أولياؤُه من ذلك، فقال: ﴿أَمْ عِنْدَهُم خَزائنُ رَحْمة ربِّكَ العَزِيزِ الوَهَّابِ * أَمْ لهم مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ وما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فى الأسْبابِ﴾ [ص: ٩ ـ ١٠].

فقد رقى هؤلاء فى الأسباب إلى مَن عنده مفاتحُ الغيب وربِّ الأَرْباب.

فغابت خزائنُ الأرضِ من الأيدى والقُلوبِ والأسباب المشاهدات فى خزائن

السماء من الأقدار والأحكامِ فالأبواب. وغابت الخزائنُ السَّماوية فى مَلَكُوتِ القَبْضةِ وعزّةِ القُدرةِ من خزائنِ السموات بالحكمة من الأقسامِ والأرزاق، وخزائنِ الأرضِ ما رسمه من الأعلام والأرفاق، ﴿وفى السَّماءِ رزْقُكُم وما تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]. ﴿وفى الأَرْضِ آياتٌ للمُوقنينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]. ﴿ولله خَزَائنُ السَّموات والأرْضِ ولكنَّ المُنَافقينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧] ذلك لقولهم ﴿لا تُنفقُوا عَلَى مَن عند رَسُولِ الله حتَّى يَنْفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧] فَشهِدُوا الخَلْقَ مُنفقين، فمنعوهم من الإعْطاء، فردَّ الحقُّ شهادتَهم، وأضافَ الخزائنَ والعطاءَ إليه، ووصفهم مُعطين النفقةَ عنه، فعلى ذلك إخوانُهم من مُشركى المؤمنين: ﴿وما يُؤْمنُ أَكْثَرُهُم بالله إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] إذ جعلوها أربابًا. ﴿إذا لَهُم مَكْرٌ فى آياتنا﴾ أضافُوا النعم إلى الأسبابِ ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١] أخفى فِعْلاً، وألطف عقوبة، ردّ على أول الكلامِ من قوله تعالى: ﴿وإذَا أَذَقْنا النّاسَ رَحْمةً من بَعد ضَرَّاءَ مَسَّتْهُم﴾ [يونس: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿وإذا مَسَّ النّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُنِيبينَ إليه ثُمَّ إذَا أَذَاقَهُم مِنْهُ رَحْمَةً إذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بربِّهِم يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣] بنظرهم إلى الخَلْقِ، وسكونهم إلى الأسباب، فتدبّروا فَهْمَ الخطاب، وتوصيل الذّكرِ من المحتجب بالأرباب.

فقد أَيقَنَ المتوكلُ أنَّ بيد الوكيلِ ملكوتَ كلِّ شيءٍ، وأنه يملك السّمعَ والأبصارَ، ويقلّبَ القُلُوبَ والأيدى والبصائر بتقليبِ الليل والنهار، وأنه حسنُ التدبيرِ والإحكامِ للموقنينَ، وهو أحكم الحاكمين ، وخيرُ الرّازقين: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. ثم استوى على العرش يدبِّر الأمرَ، ما من شفيعٍ إلا من بعد إذنه، ففتح الفتّاحُ العليم سَمْعَ قَلبه من دُعاءِ قوله: ﴿إنَّ الّذين تَعْبُدونَ من دُونِ الله لا يَمْلِكُونَ لكُم رِزْقًا فابْتَغُوا عندَ الله الرِّزقَ واعْبُدُوه﴾ [العنكبوت: ١٧]، فطلبَ الرِّزقَ من حيث العبادةُ، فكان المعبود هو الرّزاق، فَفَكَّ أسْرَهُ من الوِثاق، فترك دُعاءَ مثله من العِبادِ وذهب إلى ربّه فهداه، وعمّن

سواهُ أغناه، إذ سَمِعَهُ يقول: ﴿إنَّ الذين تَدْعُونَ من دُونِ الله عبادٌ أمْثَالُكُم﴾ [الأعراف: ١٩٤]. ﴿إنِّى ذاهبٌ إلى ربِّى سيَهْدين﴾ [الصافات: ٩٩]. ﴿فَلمَّا اعْتَزلَهُم وما يَعْبُدُونَ منْ دُونِ الله وَهَبْنَا لَه﴾ [مريم: ٤٩]. عندها نظر العبدُ الذليلُ إلى سيّده العزيز، فقَوِىَ بنظرِه إليه، وعزَّ بقُوّته به، وشَرُفَ بِحُضورِه عندهُ، وغَنِى بوجوده له. وكذلك جاء فى الخبر: «كفى باليقين غنًى».

وكان الحسن يقول: الغنى والعِزُّ يجولان فى طلب التوكّلِ، فإذا ظَفِرا به وطَّناهُ.

وأنشدتُ فى معناه:

يَجولُ الغِنى والعِزُّ فى كل مَوْطنٍ ... لِيَستوطنا قَلْبَ امْرِئٍ إن تَوَكَّلا

ومَنْ يتوكّلْ كـان مولاهُ حَسْبُهُ ... وكـانَ له فيما يُحاولُ مَعْقلا

إذا رَضِيَتْ نَفْسى بمقــدور حظِّهـا ... تَعالتْ وكانَت أفْضَلَ الخلقِ مَنْزِلا

وكان من دعاء الصالحين: يا مَنْ جعلَ انقطاعَ المتوكِّلين إليه، فلم يَكِلْهم إلى غيره، ولم يولِّهم سواهُ، ولم يُسْلِمهم فى هَلَكة، ولم يورِّطهم فى نزلة، إذ جعل توكّلَهم عليه، ومنزعهم فى كل الأمور إليه.

حينئذ نظر الولىُّ إلى مولاه الذى به تولاَّه، فرآه فى كل شىءٍ، ووَثِق به، واعتمد عليه دون كل شىء، وقنع منه ورضى بأدنى شىءٍ، وصبر عليه، ورضى به، إذ لا بد له منه، فثَمَّ لا يطمعُ فى سواه، ولا يرجو إلا إيّاه، ولا يشهد فى العطاءِ إلا يَدَه، ولا يرى فى المنع إلا حِكْمته، ولا يعاينُ فى القبض والبَسْط إلا قُدرته. هناك حقَّت عبادتُه، وخَلُصَ توجُّهه، فعرفَ الخَلْقَ من مَعْرِفة خالقه، وطلب الرِّزقَ عند معبودِه ورازقِه، وقام بشهادة ما قال: ﴿إنَّ الَّذين تَدْعُونَ من دُونِ الله عبادٌ أمْثَالُكُم﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿إن الَّذين تَعْبُدونَ من دُونِ الله لا يَمْلكُونَ لَكُم رِزْقًا فابْتَغُوا عندَ الله الرِّزقَ واعْبُدُوه﴾ [العنكبوت: ١٧]. فعندها لا يَحمد خَلْقًا، ولا يَذمُّه؛ لأجل أنّه أعطاهُ أو منعه، إذ كان الله هو الأولَ المعطى، فإن مدحَهُ أو

شكرَهُ؛ فلأن مولاهُ مَدَحَهُ، وأمرهُ بالشُّكرِ له، فتَخلَّقَ بأخْلاقِهِ، واتَّبع سُنَّةَ رسولِهِ ﷺ.

فإن ذَمَّه أو مَقَته؛ فلأجل مخالفتِه مولاه، وإن كان أعطاه لموافقته هواه؛ فلأنَّه تعالى قد مدَحَ المُنْفقين؛ وهو المنفق عليهم، وذَمَّ الباخِلينَ؛ وهو المانع لهم، وشكر المعْطين؛ وهو الفاتحُ لهم، ومقت المانعين؛ وهو الممسك منهم. والفرق بين الحمد والشكر؛ أنّ الحمدَ مفردٌ لا ينبغى إلا لله وحده، وهو الاعتراف بأن النِّعمَ كلَّها من الله، مع حسن المعاملة بها لوجهِ الله لا شريكَ له فيها، ولذلك قال: ﴿الحمدُ لله ربِّ العالَمِين﴾. أى الحمد كلُّه لا يكون قطّ ولا ينبغى إلا لله المحمود على كل حالٍ.

وقال فى التعبُّد الدّينونيّة للدَّيان: ﴿ألاَ لله الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر:٣] أى لا تصلح العبادةُ إلا للمعبود، كما لا يجب الحمد إلا للمحمود.

والشُّكر هو إظهارُ الثناء وإسرارُ الدعاء للأواسطِ الذين جعَلَهُم اللهُ الأزلىُّ تعالى مكانًا للتمكين، ومَعْقلاً لأسبابِ الدّنيا والدِّين. فهذا معنى شَرَكَ فِيه بفضله وكرمهِ الوالدين، ومع ذلك فهو مخصوص، يصلح لخصوصٍ، لمن هُو أهل أن يُشكر من النّاسِ، ممَّن لا ينظر إلى نفسِه فى عطاياه، ولا يَمُنُّ بما أعطى من نعمةِ الله لأوليائه، كما قال سفيان الثورى ليوسف بن أسباط: لا تَشْكُرْ إلا مَن عرف موضع الشكر. قلت: وكيف ذاك؟ قال: إذا أوليْتُك معروفًا فكنتُ به أسرَّ منك، وكنتُ منك أشدَّ استحياء، فاشكر، وإلا فلا. وسأل إبراهيمُ رجلاً من أصحابه درهمين فلم يكن معه، فأخرج فتى فى مجلسه كيسًا فيه مائتا درهمٍ، فعرَضَه عليه، فلم يقبله وقال: أَوَ كُلُّ مَنْ بذل لنا شيئًا قبلناه منه؟ لا نقبل إلا ممن نرى نعمةَ الله عليه فيما أعطى أعظمَ من نعمته علينا فيما نأخذ.

وحدَّثونا عن الحسن فى قصة طويلة أن رجلاً بذل له جملةً من المال فردَّه، فلما انصرف قال له هاشم الأوقص: عجبتُ منكَ يا أبا سعيد!! رددتَ على الرجل كرامتَه؛ فانصرف حزينًا، وأنتَ تأخذ من مالك بن دينار ومحمد بن واسع الشىءَ

بعد الشىء. فقال له الحسن: ويحك إن مالكًا وابنَ واسع ينظران إلى الله فيما نأخذ منهما، فعلينا أن نقبل. وإن هذا المسكين ينظر إلينا فيما يعطى، فردَدْنَا عليه صلته.

فانتظر أن يَتْبَعَه شاهدٌ منه يحكم به، كما قال: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود:١٧]، فإن رأى الشاهدَ قويًا أَخَذ به، وإن لم يَرَ شاهدًا صادقًا ردَّ له. فلم يذهب عن أحكام العلم، فرتَبَهُ فى مواضعه مع مشاهدة اليقين أنّ اللهَ سبحانه هو المعطى، لمعرفته أنه هو المبتلى.

لكنّ المتوكّل لا يَذُمُّ أحدًا، ولا يُبْغضه لأجل أنّه كان سببًا لمنعه؛ إذ كان الله هو المانع الأوّل، وإذْ له فى المنع من الحكمة مثلُ ما له فى العطاء من النعمة، ولكن يَذُمُّه وَيَنْقُصه ويبغضه إن كان استوجب ذلك من مولاه؛ فيكون موافقًا له. واللهُ تعالى يَشْهد يدَه فى العطاء، ويَمْدح الْمُنفِقين نهايةً فى كرمه، وَيشْهد مشيئته فى المنع وقدرته فى المكروه، ويذمّ المسكين والعاصين حكمه من قدرته، وحُكْمًا من تقديره؛ لإظهار الأحكام، وتفصيل الحلال والحرام، وعود الثواب والعقاب على الأنام. فقد أظهر الأمر، واستأثر بسرِّ القَدَر، فعمل المؤمن بما أَمر، وَسلَّم له ما استأثر.

وحَدَّثنى بعضُ أشياخنا أنَّ رجلاً قال لأبى القاسم الجُنيد رحمه الله: إنّ أصحابَك إذَا بَذَرْنَاهم أكرمونا، وإذا خالطناهم أعرضوا عنا. فقال: مَن أصحابى؟ قالوا: فلانًا وفلانًا فسمُّوا له رُفَعاء أصحابه ممَّن يُوثق بمعرفتهم ولا يُتَّهَمون فى صِدْقهم. فقال: قد أحسنوا. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأنّكم إذا بذرتُموهم خالفتم هَواكم، وَوافَقْتم مَولاكم، فوجبَ عليهم أن يُكرموكم. وإذا جَفَوْتُمُوهم وافقتم هواكم، وخالفتم مَولاكم، فوجَب عليهم أن يُعرضوا عنكم.

فانظر إليه كيف سأل من يفعل ذلك من أصحابه؛ ليستطلعَ المراتب، إذ فى أصحابه عمومٌ، وخُصوصٌ؛ وإذِ العللُ تدخل على ضُعفاء القلوب، ممّن فُقد منه الزّهد، ووُجد فيه الهوى. فلمّا رَضِيَهم ووَثق بهم أخبر عن حالِ الصّحة، إذَ كان

كذلك الحكمُ، فصار هذا الفعل مَزيدًا لهم، لمّا صَحَّ عنده مِن زُهْدِهم، ومكينِ مَعْرفتِهم، وبُرءِ ساحتِهم.

وروى بعض العلماء عن الله تعالى: لو أن ابن آدم لم يَخَفْ غيرى ما أخفتُه مِن غيرى، ولو أنّ ابن آدم لم يَرْجُ غيرى ما وَكلْتُه إلى غيرى.

وروى أعظمَ من هذا قال: إذا وُضع العبد فى قبره مُثِّلَ له كلُّ شىء كان يخافه من دون الله عزّ وجلّ، يُفْزِعه فى قبره إلى يوم القيامة.

وقال الفضيل بن عياض: من خاف اللهَ خافَ منهُ كلُّ شىء.

ويقال: إنّ الخوفَ من المخلوقات عقوبةُ نقصانِ الخوف من الخالق، وإنّ ذلك من قلةِ الفقه عن الله تعالى، وضعف التوكل عليه. وقد قال الله أحسن القائلين فى معناه: **﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فى صُدُورِهِمْ مِنَ الله ذلكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾** [الحشر: ١٣]. فكان العبد إذا تمَّ خوفُه من الله تعالى، وصدَق توكُّلُه، وقَوِى يقينه، أزال ذلك الخوفُ خَوفَ المخلوقين عن قَلْبه، ثِقةً منه بربِّه، وتَوكُّلاً عليه فى خلقه ونَفْسه، وحَوَّل ذلك فى قُلوب المخلوقات فصارت هى تخافه، إذ لم يَخَفْها هو. كما إذا كَمُلَت مُشَاهَدَتُه، وقام بحقِّ شهادته، غيَّبت تلك المشاهدة برؤية القيومية وُجودَ الخليقة مع الله، فلم يرَها دُونه، وقام له القيومُ بنصيبه من المُلْك، لمّا تفرّغ قلبُه بمُعاينة المَلِك. وهذا هو من عين اليقين فوق علمه؛ لأنّ الحقَّ المبينَ هو الأول والآخر، كما هو الباطن الظاهر، فلا أَوّلِيةَ لخَلْقٍ فى أوّليّتِه، ولا ظُهورَ لقوىٍّ من العبادِ فى ظاهرِ قَهْرِه.

وروينا عن سُنيد بن داوود عن يحيى بن أبى كثير، قال: مكتوب فى التّوراة: «ملعونٌ مَن ثِقتُهُ إنسانٌ مِثْلُهُ». قال سنيد: يقول: لولا فلان هلكتُ، لولا كذا ما كان كذا.

فمعناه عندى فى قوله «ثقتُهُ»: أن يعتمد عليه، ويسكن إليه، فهو شرك فى التوحيد، ونقص من المزيد. إذ لا ينبغى الثقة ولا السكون إلا إلى الواحد القهار. وذلك هو داخلٌ فى الشركِ الخفىّ. ويُقال إنّ قولَ العبد: لولا كذا، أو لم يكن

كذا، من الشِّرك. وجاء فى الخبر: «إياكم ولو؛ فإنه يفتح عمل الشيطان».

وقال بعض العلماء: «سوف» جندٌ من جنود إبليس.

وقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥] قالوا: كان الملاح فارهًا. ومثله فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦] قيل: قالوا: لولا نباحُ الكلاب وزقاءُ الدِّيكَة لأخذنا السَّرَق(١).

ورُوينا عن عمرَ رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «من اعتزَّ بالعبيد أذلَّه الله».

وقد جاء فى الخبر: «لو توكّلْتُم على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصًا وتَروحُ بطانًا، ولزالت بدُعائِكم الجبالُ».

وقد جاء هذا الوصف فى قوله أيضًا: «لو عَرَفْتُم اللهَ حقَّ معرفته لأُعْطِيتم اليقين». فدلّ ذلك أنّ حقيقةَ التوكّلِ فى حُسنِ المعرفةِ، وصِدْق اليقين.

وقد كان عيسى عليه السلام يقول: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر، والله يرزقُها يومًا بيوم، فإن قلتم: نحن أكبر بطونًا من الطير، فانظروا إلى الأنعام، كيف قيَّض الله لها هذا الخلق.

ويقال: لا يَدَّخرُ من الدواب إلا ثلاثة: النملة والفأرة وابن آدم.

وقال أبو يعقوب السّوسى: المتوكِّلون على الله تَجرِى أرزاقُهم بعلم الله واختياره، على يد خُصوص عباده بلا شُغل ولا تَعب، وغيرهم مكدودون مشغولون. وقال أيضًا: المتوكِّل إذا رأى السبب، أو ذمَّ، أو مدَحَ، فهو مدَّعٍ لا يصحّ له التوكُّل. وأوّلُ التوكّل تركُ الاختيار، والمتوكّلُ على صحّة قد رفعَ أذاهُ عن الخلقِ، لا يشكو ما به إليهم، ولا يَذُمّ أحدًا منهم؛ لأنّه يرى المنعَ والعطاءَ من واحدٍ، فقد شَغَلَه عمّا سواه.

وقال غيرُه: التوكُّلُ هو السّكونُ فى حالِ المنْعِ والعطاء.

(١) السّرق: جمع سارق، وهو اللص.

وزاد النّهر جُورى فى هذا الحال، فقال: التوكّل نسيانُ حُظوظِ النفسِ. فهذا إذا نَسِى حظَّ النّفسِ قطعَهُ النِّسيانُ عن ذِكْرِ منعٍ وعَطاءٍ، فضْلاً أن يشهدَه من خَلْقٍ، أو يشغلَه عن خالقٍ.

وكان الخوّاص رحمه الله يقول فى التوكّل كلمةً فاصلةً. سُئِل عن التوكّل، فقال: هو الاكتفاءُ بعلمِ الله فيك من تعلُّقِ القلبِ بسِواه. فهذا لاحقٌ بمقامِ الأنبياء فى اكتفائهم بعلمِ الله فى صِدْقهم عند تكْذيب الخلق، فقالوا: ﴿**رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنا إلا البلاغُ الْمُبِينُ**﴾ [يس:١٦ ـ ١٧] فقَنِعُوا بعلمِ الله فيهم، وسَلُوا به عمّا سواه، إذ فيه الكَفَاءُ والغِناءُ. فالشّقاءُ لمن أُشهده وأُوقف معه.

وقيل لسهل: ما أدنى التوكّل؟ قال: تركُ الأمانى، وأوسطُه تركُ الاختيار. قيل: فما أعلاه؟ قال: لا يعرفه إلا كلٌّ من تَوسّط التوكّل، وتركَ الاختيار، وأعطى. . . فذكر كلامًا طويلاً.

وقال بعضُ هذه الطائفة: العبيدُ كلُّهم يأكلون أرزاقَهُم من المولى، ثم يَفْترقون فى المشاهدات. فمنهم مَن يأكلُ رزقَه بِذُلٍّ، ومنهم مَن يأكلُ رزقَه بامتهانٍ، ومنهم مَن يأكل رزقه بانتظار، ومنهم مَن يأكل رزقَهُ بعزٍّ بلا مهنةٍ، ولا انتظارٍ، ولا ذلّةٍ. فأمّا الذين يأكلون أرزاقهم بذُلٍّ فالسُّؤّال، يَشْهدون أيدى الخلق فيَذِلُّون لهم. والذين يأكلون بامتهان فالصنّاع؛ يأكل أحدُهم رزقَهُ بمهنةٍ وكُرْه. والذين يأكلون أرزاقهم بانتظار فالتجار؛ يَنْتَظر أحدُهم نفاق سلعته، فهو مَتعوبُ القلبِ، معذَّبٌ بانتظاره. والذين يأكلون أرزاقهم بعزٍّ من غيرِ مهنةٍ، ولا انتظارٍ، ولا ذُلٍّ، فالصوفية؛ يشهدون العزيز، فيأخذون قِسْمهم من يده بعزّةٍ.

ودفعَ رجلٌ إلى يحيى بن حماد شيئًا يَصِلُه به فى مجلسه، فجعل الرجلُ يُخفيه ويَسْتُره من الحاضرين، فبسط يحيى حجرَهُ ليستزيدَهُ، وقال: هاتِ ظاهرًا مكْشوفًا، فإنّ الذى يُخفى أخْذ رِزْقه عن الخلْقِ هو الذى لا يشهد خالقَهُ فى الرِّزْقِ والعطاء.

فهذا وإن كان الأمرُ كذلك، ووافق حالَ يحيى ومشاهدتَهُ ذلك، فإن الإخْفاءَ

على من أخفى عليك أفضلُ؛ لأن أمر الله فى كتابه الكريمِ التعاونُ على البرِّ والتقوى. وفيه أيضًا صلاحٌ لقلبِ بعض الحاضرين؛ لأنّه فى الإخفاءِ يُورِثُ الظَّنَّ أو يَحسُد على ذلك. ولذلك أدَّب رسولُ الله ﷺ أمّته، فأوصاهم بالكِتْمان، فقال: «استْعِينوا على أُمورِكم بالكتمانِ، فإن كلَّ ذى نعمةٍ مَحْسود».

فأمّا الذين يأكلون من أربابِ السّلاطين، فباعوا أرواحَهم؛ فتلك قِسْمةٌ خاسرةٌ؛ وقعوا فى الذلِّ الواضحِ.

وسُئِل بعض العلماء عن معنى الخبر المأثور: «الخلقُ عيالُ الله، فأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله» فقال: هذا مخصوص، وعيالُ الله خاصتّه. قيل: كيف؟ قال: لأنّ الناسَ أربعةُ أقسامٍ: تجّار، [وعمّال]، وصنّاع، وزرّاع، فمن لم يكن منهم فهو من عيال الله. فأحبُّ الخلق إلى الله أنفعهم لهؤلاء.

وهذا كما قال؛ لأنّ اللهَ سبحانه وتعالى أوجبَ الحقوقَ، وفرض الزكاةَ فى الأموالِ لهؤلاء؛ لأنّه جعل من عيالِه مَن لا تجارةَ له، ولا صَنْعةَ؛ فجعل معاشَهم على التجّار والصنّاع.

ألا ترى أنّ الزكاة لا تجوز على تاجر ولا صانع؛ لقول رسول الله ﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغنىٍّ، ولا لقوىٍّ مكتسب»، فأقام الاكتساب مقام الغنى. وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: ٢٠]. فكان من تَدبُّرِ الخطاب أنّ مَن ليسوا له برازقين: هو مَن ليس له فيها معيشة فى الأرض يعيش منها، فهذا من عيالِ الله؛ لأنّه مِن أهلِه، لا مِن أهلِ الدُّنيا؛ إذ منها يكتسبون، فهم يُعيلون.

وقال عامر بن عبد الله: قرأتُ ثلاثَ آيات من كتاب الله عزّ وجلّ استعنْتُ بهنّ على ما أنا فيه، قرأتُ قولَه تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، فقلتُ: إن أراد أن يضرّنى لم يَقْدِرْ أحد أن ينفعنى، وإن أعطانى لم يقدر أحد أن يمنعنى، وقولَه تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] فاشتغلت بذكره عن ذكر من سواه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ

دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، فوالله ما اهتممتُ برزقى منذ قرأتها، فاسترحت.

وقد كان سهل بن عبد الله يقول: المتوكِّل إذا رأى السبب فهو مدّعٍ. وقال: ليس مع الإيمان أسبابٌ، إنّما الأسبابُ فى الإسلام. معناه: ليس فى حقيقة الإيمان رؤيةُ الأسباب والسكون إليها، إنّما رؤيتُها والطمعُ فى الخلقِ يُوجد فى مقامِ الإسلام. ومن ذلك ما قال لقمانُ لابنه: للإيمان أربعة أركان، لا يَصْلُح إلا بهنّ، كما لا يصلح الجسد إلا باليدين والرِّجلين: التوكّلُ على الله، والتسليمُ لقضائه، والتفويضُ إلى اللهِ، والرِّضا بقدرِ الله.

فحالُ المتوكّل سكونُ القلب عن الاستشراف إلى العبيد والتطلّع، وقطعُ الهمِّ عن الفكرة فيما بأيديهم من التطمّع، عاكفُ القلبِ على المقلِّب المدبِّر، مشغولُ الفكر بقدرة المصرِّف المقدِّر، لا يحمله عدمُ الأسبابِ على ما حَظَره العِلْمُ عليه وذمَّه، ولا يمنعه أن يقول الحقَّ وأن يعملَ به، أو يوالىَ فى الله ويعادىَ فيه جريانَ الأسبابِ على أيدى الخلق، فيترك الحقَّ حياءً منهم، أو طمعًا فيهم، أو خشيةَ قطع المنافع المعتادة، ولا تُدْخِله نوازلُ الحاجات وطوارق الفاقات فى الانحطاط فى أهواءِ الناس، والميلِ إلى الباطل، أو الصمت عن حقٍّ لزمه، أو يوالى فى الله عدوًا أو يعادى وليًا، ليَرُبَّ [1] بذلك حاله عندهم، أو يشكر بذلك ما أسدَوْه إليه بالكفِّ عنهم، ولا يَرُبَّ الصنعةَ التى قد عُرِفَ بها لنظره إلى الصانع، ولا يتصنّع لمصنوعٍ دَخيلةً؛ لعلمهِ بسَبْقِ الصُّنع، لدوام مشاهدته، ولا يسكن إلى عادةٍ من خلق، ولا يَثِقُ بمعتاد من مخلوق؛ إذ قد أيقنَ برزقهِ ونفعه وضُرِّه من واحد.

فهذه المعانى من فَرْضِ التوكُّل، فإن وُجِدت فى عبدٍ خرج بها عن حدِّ التوكُّلِ دون فضائلِه، وتُدخِلُه فى ضَعْفِ اليقين.

وقد كان الأقوياء إذا دخل عليهم شىءٌ من هذه الأهواء المفسدة لتوكُّلهم قطعوا تلكَ الأسبابَ، وحسَمُوا أصولَها، واعتقدوا تركَها، وعَمِلُوا فى مفارقةِ الأمصارِ،

---

(١) يربّ: يُصْلح، ورَبَّ الدّهنَ: طيّبهُ.

والتغرّبِ عن الأوطان، وتَرْكِ الألاّف والإيلاف، فأخرجُوا ذلك من حيثُ دخلَ عليهم، ووضعوا عليه دَوَاءَهُ وضدّه من حيث تَطَرَّق إليهم، حتى ربُّما فارقوا ظاهرَ العلمِ، وخالفُوا عِلْمَ أهل الظاهر إلى عُلوم الباطنِ، ومُقتضاء مُشاهَدَتِهم، ومواجيدِ حالهم، ولقيامِهِم بحُكم إلهام قُلُوبهم. إذ ليس أهلُ الظاهر حجةً عليهم فى شىء إلا وهم عليهم حجة فى مثله؛ لأنّ الإيمانَ ظاهرٌ وباطنٌ، والعلمَ مُحكمٌ ومتشابه؛ ولأنّ أهلَ الحقِّ أبْعَدُ من الهوى، وأقربُ إلى التوفيق، وأوفقُ لإصابةِ الحقيقة.

كلُّ ذلك رعايةً لصحةِ توكّلهم، ووفاءً بحسن عهدهم، وعملاً بأحكام حالهم؛ لئلا تسكنَ قلوبُهم لغير الله، ولا تقِفَ هِممُهم مع سوى الله، ولا تطمئنّ نفوسهم إلى غيره، ولا يتخذوا سكنًا سواه، ولا يَسْكُنُوا إلى أهواءِ النفوس، ويَنْخَدعوا بسكونها عن سُكونِ القلب؛ فيُسْبِى ذلك عُقولَهم، ويُوهِن عَزْمَهُم، ويُضْعِف يَقِينَهُم الذى هو الأصل، ويستأسر قلوبهم التى هى المعيارُ بالبيان، وفيها يقع تمكين الشهادةِ للمكان، فيخسروا رأسَ المال، ويفوتهم حقيقةُ الحال. فماذا يربحون؟ وبأىِّ شهادةٍ يقومون؟ وهذا لا يَفْطِن له إلا العاقلون، ولا تشهده العيون.

وقد قال بعض المقرَّبين فى حقيقة التوكّل، لما سُئِل عنه، فقال: هو الفَرارُ من التّوكّل.

يعنى: تركَ السكونِ إلى المقامِ من التوكّل؛ أى يتوكّل ولا ينظر إلى توكّله؛ لأنه لأجله يُكفَى، أو يُعافَى، أو يُوقَى. فجعل نظرَهُ إلى توكُّله علّةً فى توكّله، يلزمه الفرار منها؛ حتى يدوم نظره إلى الوكيل وحده بلا خلَل، ويقوم له بشهادة منه بلا ملَلٍ، فلا يكون بينه وبين الوكيل شىءٌ ينظر إليه، أو يعوِّل عليه، أو يدلُّ به، حتى التوكل أيضًا الذى هو طريقه.

وقد عبّرت طائفةٌ من أهْل المعرفة عن هذا المعنى بعباداتٍ، فقال أبو تُراب: التوكُّل: طرحُ البدن فى العبودية، وتعلُّقُ القلبِ بالربوبية.

وقال الرَّقَّاق: التوكُّل ردُّ العيشِ إلى يومٍ واحدٍ، وإسقاطُ همٍّ غدٍ.

وقال غيرُه: التوكّل هو الخمودُ تحت الموارِد. وكان بعضُ أشياخنا إذا سُئل عن التوكّل أجاب عنه لعينِ الحقيقة، فيقول: هو أن يكون مع الحَقّ كما لم يكن، فإن الحقّ الآن كما لم يزل. وقال الجريرى: التوكّل معاينةُ الاضطرار.

وكذلك قال قبْلَه بعض العارفين فى معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] فقال: المضطرُّ الذى يقف بين يدى مولاه، فيرفعُ إليه يدَيْه بالمسألة، فلا يرى بينه وبين الله حسنةً يستحقّ بها شيئًا، فيقول: هب لى مولاى بلا شىء، فتكون بضاعتُه عند مولاه الإفلاسَ، ويصيرُ حالُه فى كلّ الأعمال الإياسَ. فهذا هو المضطر.

فهؤلاء القوم من الذين وصفهم الله عزّ وجلّ بالتقوى والمخافة، وجعلهم أهْلاً للدّعوة والنّذارة، وأخبر أنّهم لا يَرَوْن بينه وبينهم سببًا يليهم ولا شفاعة؛ فقال تعالى يأمر رسوله ﷺ أن يعقدهم بالنِّذَارة، بعد ما أمره صدقهم بالبِشارة، فجعلهم وجهةً لخلقه، ومَعْدنًا لخلقه، ومكان صدق سبقت لهم بالبشارة لكلمه، ومعقلاً لخبره، كما جعل رسول الله ﷺ وجهةً لهم، وموضعًا لتكليمهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

فهؤلاء ممّن ضاقت عليهم بمَرْحَبِها الأرضُ، فصارت حَلْقَةَ خاتمٍ، فاستوى منها الطولُ والعَرْضُ. وضاقت عليهم النفوسُ، فاستوت حالُهم فى السَّرّاء والبؤس. وأيقنوا أن لا لَجَأ(١) ولا مَلْجأ من الحقِّ إلا بالحقّ، عندها تَظَنّ بعينه بوصفه المكنون إليهم، وعَطَف بحنانه المصُونِ عليهم. ليسوا كمن قال تعالى فى وصف أمثالنا من أهل اللعب، واللهو، والغِرّة، والسهو، متهددًا لنا متوعدًا: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقيل لعبض علمائنا: ما التوكل؟ قال: التبرّى من الحول والقوّة. والحول أشدُّ من القوّة.

(١) اللجا: المعقل والملاذ.

يعنى بالحول: الحركةَ، والقوّة: الثباتَ على الحركة، وهو أوّل الفعل. يعنى بهذا أن لا تنظر إلى حركتك مع المحرّك؛ إذ هو الأول، ولا إلى ثباتك أيضًا بعد الحركة فى تَثبيته؛ إذْ هو المثبِّت الآخر، فتكون الأولية والآخرية حقيقة شهادتك له به أنه الأوّل الآخر بعين اليقين؛ فيخرج خفى الشرك بحقيقة التوحيد، وهذا هو شهادةُ اليقينِ، أى: فعندها صحَّ توكُّلك بشهادةِ الوكيل.

وقال مرة: التوكّلُ تركُ التدبيرِ، وأصلُ كلِّ تدبيرٍ من الرغبة، وأصلُ كلِّ رغبةٍ من طولِ الأمل، وطولُ الأملِ من حبِّ البقاء؛ وهذا هو الشرك. يعنى أنكَ شاركْتَ الرّبوبيةَ فى وصف البقاءِ. وقال: إنّ الله سبحانه خلَق الخلْقَ ولم يحجبهم عن نفسه، وإنّما جعل حجابَهم تدبيرَهم.

وقد كثر قولُه ـ رحمه الله ـ فى ترك التدبير، وينبغى أن يُعرف ما معناه. ليس يعنى بتركِ التدبيرِ تركَ التّصرّفِ فيما وُجِّه العبدُ فيه وأُتيح له، كيف! وهو يقول: من طعَن على التكسُّبِ فقد طعَن على السنّة، ومن طعن فى تركِ التكسّب فقد طعن على التوحيد. وقد كان له أرض يزرعها، وكان يدبّر شأنها، ثم رأى بيعها فى آخره أمره، وفرّق ثمنها.

إنّما يعنى بترك التدبير أى تركُ الأمانى، وقوله: لم كان كذا؟ إذا وقع الأمر، ولِمَ لا يكون كذا؟ أو لو كان كذا فيما لا يقع؛ لأن ذلك اعتراضٌ وجهلٌ بسبقِ العلم، وذهابٌ عن نفاذ القدرةِ وشهادة الحكمة، وغفلةٌ عن رؤيةِ المشيئة وجريانِ الحكم بها.

ويعنى: ترك التدبير فيما بَقَى وما يأتى بعدُ، أى: لأنّ فيه مثل هذا، يقول: لا تشتغل بالفكر فيه، والتدبير له بعقلك وعلمك؛ فيقطعك عن حالك، فى الوقت الذى هو ألزم لك، وأوجبُ عليك؛ حتى يكون فيما يأتى من الأحكام والتصريفِ فى ترك التدبير والتقديرِ لها بالزيادة والنقصان، أو نقلِها من وقتٍ إلى غيرِه أو من عبدٍ إلى آخر، بالتقديمِ والتأخير، نَقصٌ فى ذلك كما كنتَ فيما قد مضى. ألا ترى أن الإنسان لا يدبِّر ما قد مضى؟ قال: فينبغى أن يكون فيما يستقبل تاركًا للتدبير له، تاركًا للأمانى فيه بمعانى ما ذكرنا، كتركهِ إيّاه فيما مضى. فيستوى

عنده الحالان؛ لأنَّ اللهَ أحْكَمُ الحاكمين، وأنَّ العبدَ مسلِّمٌ للأحكام والأفعال، راضٍ عن مولاه فى الأقدار، مع جهلِه بعواقبِ المآل.

وتركُ التدبيرِ بهذه المعانى هو اليقين، واليقينُ هو شهادة المعرفةِ بحقيقةِ الحقِّ المبين، فإذا جعل الله تعالى قلبَ الموقنِ مكانًا لذلك، مكَّن فيه على قدرِ المكان ما يليق به.

فهذا تفسير قولِه الذى كان يقُوله ومقتضاهُ.

وكان يقول: يا مسكين؛ كان ولم تكن، ويكون ولا تكون، فلما كنتَ اليوم قلتَ: أنا وأنا، كُنْ فيما أنت الآن كما لم تكن، فإنّه هو اليوم كما كان.

وكان يقول أيضًا: الزهدُ إنّما هو تركُ التدبير. فهذا يعنى به تركَ الأسباب التى توجبُ التدبيرَ، وإخراجَ السبب الذى يجب تدبيرُه، لا أنّه يكون مسببًا متيقنًا للأسباب، وهو ترك تدبيرها؛ لأنّ التدّبيرَ فى هذا الموضع إنما هو التمييزُ والقيامُ بالأحكامِ، ووضعُ الأشياء مواضعها، فكيف لا يكون العبد كذلك مع وجود الأشياء، وهو عاقل مميِّز متعبِّد بالعلم مطالب بالأحكام مع إمساكه الأسباب؟ وإنّما يقول: اتْرِكِ الأشياءَ المدبَّرة، وازْهَدْ فى الأسبابِ المميَّزة؛ حتى يسقط عنك التّدبير والتّقدير[1]، فيكون بتركها تاركًا للتَّدبيرِ، لسُقوطِ أحكامها عنك، واستراحتِك من القيامِ بها، والنظرِ فيها.

فهذا هو تفصيلُ جملةِ قوله فى تركِ التدبير، وهذا هو حال المتوكلين، فهو مثلُ ما يقولُ لمن أرادَ إخراجَ درهَمه كلّه، ويختار حالَ الفقرِ: أن يبتدئَ بإسقاط الشَّهوات وإخراجِها من القلب قبل ذَلك التى لها يُرادُ إمساك الدّراهم أو كَسْبه. فإذا قَوِى على ذَلك، ولم يبقَ عليه من نفسه بقيّة، ولم يدخر له منها خَبِيَّة، سَهُل عليه بعد ذلك إخراجُ دراهمه، وإلا خشيتَ أن يَطلبَ من عنده ذلك الدّرهم الذى هُو قيمةُ تلك الشهوةِ التى بَقِيَتْ عليه، فبذل له باستخراجِه منه، أو يطمعَ فيه بإغماضٍ فى دينه لضَعف وَجْدِه من يقينِه، فيرجع إلى الرغبةِ فى الدّنيا، ويَدْخُل

---

(١) لابن عطاء الله السكندرى رسالة فى ترك التدبير.

فى الحِرص على طَلبها بصفة من المعانى بمقْدارِ ما بقى فيه من الشّهوات. والمتوكّلُ لا يهتم بما قد كُفى، كما لا يهتمُّ الصحيح بالدواء إذا عُوفى، ولكن قد يحتمى قبل الزَّلل، كما يحتمى المعافَى قبل ورود العلل.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَا منْ دَابَّة فى الأَرْضِ إلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، فالمتوكل قد علم بيقينه أن كل ما يناله من العطاء من ذرة فما فوقها، أن ذلك رزقُه من خالقه، وأنّ رِزقَه هُوَ لَه نصيبًا فَضَل مِن قاسمه، وأنّ ما لَه مِن النّصيب واصلٌ إليه لَا مَحالةَ على أىّ حال كان، وأنّ ما لَهُ لَا يكون لغيره أبدًا، وكذلك ما لغيره من القِسْمِ والعَطاءِ لا يكون لهذا أبدًا، فقد نظر إلى قِسْمه ونصيبه من مولاه بعينِ يقينه الذى به تولاّه، مِن إحدى ثلاث مشاهدات؛ إن دنتْ مشاهدتُه نظَرَ إلى قسمه من العطاء فى الصحيفة التى كُتبتْ له عند تصوير خَلْقه، فكُتب فيها رزقُه، وأجلُه، وأثرُه؛ وشقىٌّ أو سعيد، فكما لا يقدر أحدٌ من الخَلقِ أن يجعله سعيدًا، إن كان قِسمُه شقيًا، فلا يقدر أحدٌ أن يجعلَه شَقِيًا إن كان قِسمه سعيدًا.

كذلك لا يقدر أحدٌ أن يجعل رِزْقَهُ قليلاً، إن كان قسمه واسعًا، ولا يستطيع عبدٌ مِثْلُه أن يجعل قِسمَه واسعًا، إن كان نَصيبُه ضيّقًا. كما لا يقدر أحدٌ أن يمنعه؛ إذ هو اللهُ المعطى، ولا يعطيه ما مَنَعه مولاه؛ إذْ هو المانع، كما قال الرسول ﷺ: «لا مانِعَ لِما أعْطَيْتَ» أى من قسم، «ولا مُعْطِى» من الخَلْقِ «ما مَنَعْتَ» أى من الحكم.

وكما لا يستطيع عبدٌ أن يُبدّل خَلْقَه لأن الله تعالى خَلَقَهُ، كذلك لا يقدر أن يحوِّل رزقه؛ لأنّ الرزّاق هو الخالق، كما المقدّر هو المصوِّر، ولأنّ ذلك كلّه قد كتب كَتْبًا واحدًا، وجعل مُجعَّلاً سرًا.

وإن ارتفعت مُشاهدتُه، نظرَ إلى هذا فى اللوحِ المحفوظ ـ مفروغٌ له منه ـ وهو أمُّ الكتابِ الذى استنسخ منه هذه الصحيفة، فكان يَقينُه كَتْبَ رزقه فى اللوح، وأنه لا يُزاد فيه بَحْولٍ، ولا بحِيلةٍ، ولا يُنْقَص منه لعَجْز ولا سكينة، كيقينه بما أنت

فيه من أنّه من أهل الجنة؛ فهو داخلُها لا محالةَ، وإن عمل أيّ عمل بعد أن يكون قد كُتِب اسمُه فى اللّوح، وجُعل له فيها أثرٌ، فصار من وَرَثتها بالمكان الذى مُهِّدَ له فيها، لقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فقد كُتِبت الآثارُ والأرزاقُ والأخلاقُ من كلِّ شىءٍ كَتْبًا واحدًا فى ثلاثة مواضع؛ توكيدًا للعلم، وتَسكينًا للقلب فى القِسْم، كُتِبَ ذلك: فى الذّكر الأولِ وهو اللّوح المحفوظ، ثم فى الزُّبُر الأُولى وهى الصُّحف، ثم أُنزِل ذلك فى كتابِنا هذا الذى به عَرفْنا ما سلف من ذلك.

وإن عَلَت مشاهدتُهُ إلى العلىِّ الأعلى، لعلوِّ مرتبتِه، ونُفُوذ علمه، وقوّة يقينه، إذ مشاهدةُ كلِّ عبدٍ عن مقامِه من معبودِه، ومن مكانه فى دنوِّه وعُلُوِّه - شَهِد هذا الذى ذكرناه معلومًا فى علمِ اللهِ تعالى قَبل خلقِ اللوحِ، فسكَن قلبُه واطمأنَّ إلى علمِ الله سبحانه وتعالى وما سبق له منه؛ ولهذا جاء فى الأثر أنّ الزهْدَ فى الدنيا: «أن تكونَ بما فى يدِ اللهِ أوثقَ منك بما فى يدك، وأن تكونَ فى ثوابِ المصيبةِ أرغبُ منك فيها لو أنّها بَقيتْ لك»، أى: فيقلُّ حرصُك لنفاذ شهادتك، ويذهب فى الخَلْق طمعُك لوجودِ زهدك؛ فهذا هو الرضا والزهد، فقد جمع التوكُّلُ المقامين معًا.

فما فى يدِ الله سبحانه وتعالى هو رزقُك الواصلُ إليك، لا شكّ فيه على أى حال، وهو الذى لك عند الله، وهو معلوم علمَ اللهِ تعالى الذى لا يَنْقَلب، وذلك فى الكتاب المستطر، ولأجلِ ذلك أعلَم أنَّه بعَيْنِ الخبرِ ليقعَ به تركُ الأسى على ما فات إذ لم يُقسم له، وفَقدُ الفرحِ بما هو آتٍ لأنه قد جُعل له، فكان هذا فى تدبُّرِ الكلامِ من المخبر العلام فى قوله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا**﴾ الهاء كنايةٌ عن ثلاث تقدمت أسماؤها: المصيبة، والأرض، والنفس. أى: قد سبقَ ذلك، وفُرِغ من خَلْقه من قبل أن يُظهرَ المصيبةَ، ثم قال: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ**﴾ لأنّه لم يجعل نصيبًا لكم فَيَشْغَلُكم الحزنُ عليه عن الشُّغْلِ بسيّدكم ﴿**وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣]

لأنّه حاصلٌ لكم، فيقطعكم الفرحُ به عن الانقطاعِ إلى مولاكم. وهذه شَهادةُ التّالِين بحقِّ اليقينِ حقَّ تلاوتِه.

وذلك أحد ثلاثة أشياء: ما أكلْتَ فأفنيْتَ، أو لبسْتَ فأبليْتَ، أو تصدَّقْتَ فأمضيْتَ. فهذا هو الذى لك فى الدنيا والآخرة.

ولذلك قال ﷺ: «يقول ابن آدم: مالى، مالى!!» تعجبًا من جهلِ ابن آدم وغفلته، ثم استثنى هذه الثلاث فقال: «إنّما لكَ من مالكَ» فذكر هذه الثلاث، واشترط مع كلٍّ واحدةٍ آخرَ غايتِها، فقال: «ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدَّقْتَ فأمضيتَ». فاشترط الإفناءَ، والإبلاءَ، والإمضاء، ثم قال بعد ذلك: «وما سِوى ذَلك فهُو مالُ الوارثِ».

فهذه الأسبابُ الثلاثُ على هذه الأوصاف هى رزقُ العبدِ، وهى التى فى يد الله عزّ وجلّ له، الواصلةُ إليه. فأما ما جعلَه فى يد العبد فقد لا يكون له، وإنّما هو مستودَعٌ إيّاه، ومُسْتَخْلَفٌ فيه، وإن تملَّكَهُ وحَازَهُ خمسين سنة. وإنّما للعبد ما فرغَ له منه لما سبق له به، وهو الذى فصّل له من مثال الكتابِ الذى كان يُوَفَّاهُ فيستوفيهِ غير منقوصٍ، ولا مريدٍ بمطالبه ولا اكتسابٍ، ألم تسمع إلى قولِ العزيز الوهّاب: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف:٣٧]، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩]. فإن تملَّكَ سوى هذا وادّعاه؛ لأجل أنّه فى خزانته، أو قَبْضِ يده، فذلك لجهله بالله تعالى، وقلة فقْهِه عن الله سبحانه، وغفلته عن حِكْمة الله تعالى؛ لأنّه لو عرفَ حِكْمةَ الله وقدرتَه، علم أن صندوقَه وخِزانتَه ويدَه من خزائنِ الله تعالى فى أرضه، جعلها اللهُ فى ملكه وقبضه، يودعها من يشاء، إلى الوقت الذى وُقِّتَ له، فيَسْتَقِرُّ عند من هى له كيف شاء، فقد قال تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام:٩٨]. وقال: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام:٦٧]. وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون:٧].

وهكذا رُوِينا عن نبينا ﷺ: «إنّ الرزق لَيطْلُبُ العبدَ كما يطلُبه أجلُه». وقال ﷺ: «وإنّ لكل عبدٍ رزقًا هو آتيه لا محالةَ، فمن قنع به ورضى، بُورِكَ له فيه

ووسعه. ومن لم يَقْنع به ولم يرضَ، لم يُبارَك له فيه، ولم يسعه».

وفى الخبر الغريب: «مَنْ ظَنَّ أن حِرْصَه يزيدُ فى رِزْقه، فليَزد فى طوله وعَرْضِه». فسوَّى بين بسط الرزق وقبضه، وبين طولِ العبد وعَرْضِه.

وفى الخبر المجمل: «أهلُ كلِّ رزقٍ هو آكلُه، وآثِرُه، وواطئُه، وحتف هو قاتلُه». ويقال: لو هربَ العبدُ من رزقِه كما لو هربَ من الموت لأدركه.

وقال فى الرّجلِ الذى كان أضاقَ بنفسه: «إن التمرة إن لم تأتها لأَتتك هى»، ألا ترى أنه قال: لأَتَتْهُ التمرةُ، وهى لا تسعى بنفسها، ولكن نحن نَسعى إليها. وكذلك الرزقُ على تصريفين: رزقٌ طلبتَهُ فتَلْقَاهُ، ورزقٌ يَطلبك فيلقاك، وما لقاك شىء فقد لقيتَهُ. ولذلك جاز أن يُقرأ بالحَرفين سواء: **﴿فتَلَقَّى آدَمَ مِنْ ربِّه كَلماتٌ﴾** و **﴿فتَلَقَّى آدَمُ مِن ربِّه كَلماتٍ﴾** [البقرة:٣٧]؛ لأنّ ما لقيتَهُ فقد لقِيَك، فتدبر. قال: وقلتُ لبعض السّلفِ: لو أنَّ عبدًا دخلَ بيتًا وطُيِّن عليه بابًا، ولم يَعلم بهِ أحدٌ، كان رزقه يأتيه؟! فقال: نعَم. فقلتُ: من أين يأتيه؟ فقال: من حيثُ يأتيهِ مَلَكُ المَوْتِ.

وفى وصية النبى ﷺ لابن عباس: «إذا سألْتَ فاسألِ الله، وإذا استعنْتَ فاستعنْ بالله، واعلم أن الخلائقَ لو جَهدوا أن ينفعوكَ بما لم يكتبه اللهُ لك ما قَدَروا على ذلك، ولو جهدوا أن يضرُّوك بشىء لم يكتبه الله سبحانه عليك لم يقدروا على ذلك، طُوِيَت الصحف وجفَّت الأقلام».

فمن كانت هذه مشاهدتَهُ فى القِسم المعلوم سَقَطَ عنه جملةٌ من الهموم، واستراح من النظرِ إلى الخَلْقِ، واستراح الخَلْقُ من أذاه، وشُغِل عنهم بخدمة مولاه، وكان قد فهم شيئًا من الخطاب، ومِمّن أقبل على اللهِ الكريم بصالح ما دعاهُ إليه واستجاب.

كما رُوى أن رجلاً لزم بابَ عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلَّ غداة، فشَهِد عمرُ منه مجيئَهُ لأجلِ الطّلب، فقال له: يا هذا، هاجرْتَ إلى عمر، أو إلى الله؟! اذهب فتعلّم القرآن؛ فإنه سيغنيك عن باب عمر. فذهب الرجل فغاب زمانًا حتى

افتقده عمر، فسأل عنه، فدُلّ عليه، فأتاه، فإذا هو قد اعتزلَ الناس وأقبلَ على العبادةِ، فقال له عمر رضى الله عنه: إنى قد افتقدتُك؛ حتى اشتقْتُ إليك، فما الذى شغلك عنا؟ فقال: إنّى قد قرأتُ القرآن؛ فأغْنانى عن عمرَ وعن آل عمر. فقال له عمر: رحمك الله، فما الذى وجدتَ فيه؟ فقال: وجدتُ فيه: ﴿وفى السَّماء رِزْقُكُم وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]. فقلتُ: رِزقى فى السَّماءِ، وأنا أطلبه فى الأرضِ؟! فبكى عمر، وكانت موعظةً له منه، فكان عمر بعد ذلك يأتيه فى بعض الأحايين، فيجلس إليه، ويستمعُ منه.

فهذه علامةُ مرادٍ من مَطْلوبٍ. والطالب المردود إذا تعلَّمَ القرآن افتقر إلى الخَلْقِ، وازداد طمعًا فيهم، وطغى بالقُرآن، وتكبَّر عنهم. فالقرآن كشف المرادِين، والمردودين، هو غِنًى للمُوقنين، وهو فقرٌ للطّامِعين.

وجاء رجل إلى بشر بن الحارث فقال: إنّى قد عزمتُ على سفر إلى الشام، وليس عندى زاد، فما ترى؟ فقال: يا هذا، اخرُج فيما قصدْتَ له، فإن لم يُعْطِك ما ليس لك لم يمنعك ما لك.

وشكا رجل إلى فضيلٍ حالَه. فقال: يا هذا، مدبِّرٌ غيرَ الله تريد؟

وكان الحسنُ يقول: التوكّل هو الرّضا. وفى تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] قال: خلق الأرزاقَ قبل الأجسام بألفَى عام، فالمتوكّلُ لا يُطالب مولاهُ برزقِ غدٍ، كما لا يطالبه مولاه بعملِ غدٍ.

فأما المتوكِّلُ فى المضمونِ من الرِّزق، المعلومِ من القسم، فهو توكُّلُ العموم يستحى الخُصوصُ من ذكره، ويتكرمون عن نشره، إذ كان الله تعالى قد أقْسَم بنفسه أن الرزقَ فى السّماء حقٌّ، كما أقسم بنفسه أنّ كلامَه حقٌّ، فجمع بينهما فى الحقيقةِ بالقَسَم بالذات دون سائر الأفعال؛ لتسكنَ بذلك نفوسُ الخليقةِ عن النظر إلى الأدوات؛ ليرتفع الشكُّ فيهما ويحصل اليقينُ بحقيقتهما، فقال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]. كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]. وليس فى القرآن قَسَم بالذّات فيما

سَبَرْناه إلا خمسة: القَسَم الذى فى سورة النساء على تسليم الأحكام: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] الآية، وفى سورة التغابن على بعث الكافرين وأبنائهم: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وفى سورة المعارج من ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ [المعارج: ١] فى تبديل الخلق خلقًا خيرًا منهم: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠ ـ ٤١]، وهذان القسمان المتقدمان، وسائرُ الأقسامِ بالأفعال، ولأنّ العبد قد وَكَّل برزقه مَن يقوم له به من الخلق؛ فإن لم يُرْزَق من كَسْبه وعَن يده رُزِق من كسبِ غيره ويده، ولكنْ شُغِل الخصوصُ بأعمالِ الآخرة، وما يفوتُهم من القربات إلى الله عزّ وجلّ، وبالخدمةِ للمولى الذى وُكِّل إليهم، فإن لم يقوموا به، لم يقم به غيرُهم لهم، ولم يَنُبْ غيرُه من الدنيا منابَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨ ـ ٩]، ولقوله تعالى: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، ولقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠]. ولم يقل هذا فى أرزاقِ الدنيا. ومعنى الزيادة أن لا يحاسبه على ما يعطيه من الدنيا، إذ لا زيادة فى القسم.

وقد قيل: إن اللهَ تعالى يُعْطِى الدنيا على نِيّةِ الآخرةِ، ولا يُعْطِى الآخرةَ على نِيّةِ الدُّنيا. وهذا لعلوِّ الآخرة وفَضْلِها ودناءة الدنيا ونَقصِها. وكان علىٌّ رضى الله عنه يقول: ألا إنَّ حرثَ الدنيا المالُ، وحرثَ الآخرة العملُ الصالحُ، وقد يجمعها الله لأقوام.

وقد قيل: إن الزيادةَ فى الآخرة رفعةُ الدرجات والمنازل لمن كانت نيّته وقصدَه، ولها يعمل، فشُغِل الخصوص بما وُكِّل إليهم، وبما لا يعمله غيرُهم لهم، عمَّا تكفَّل به لهم، فأُقيم غيرُهم فيه مقامَهم، وناب أيضًا عنه مثله من أسباب دنياهم.

كما رُوى فى أخبار داود عليه السلام: «إنى خَلقت محمدًا لأجلى، وخَلقْتُ

آدمَ لأجلِ محمد، وخلقتُ ما خلقتُ لأجل آدم. فمن اشتغل منهم بما خلَقْتُه لأجلِه حجبْتُه عنى، ومن اشتغل منهم بى سُقْتُ إليه ما خَلَقْتُه لأجله».

وَتوكُّلُ الخصوصِ أيضًا فى الصَّبر على الأذى من القول والفعل؛ إذ كان أمَرَ بذلك الرسولَ فى قوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً * وَاصبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٩ ـ ١٠] مع قول الرسل عليهم السلام: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى ما آذَيْتُمُونا وعَلَى الله فَلْيَتَوكَّلِ الْمُتَوكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وكذلك أمَرَ نبيَّه عليه السلام لما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فأمره باتباعهم، وقال: ﴿وَدَعْ أذَاهُمْ وتَوكَّلْ عَلَى الله﴾ [الأحزاب: ٤٨]، وقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال بعض العارفين: لا يثبت لأحد مقامٌ فى التوكُّل حتى يستوىَ عنده المدحُ والذمُّ من الخَلْق فيسقطان، وحتى يُؤْذَى فَيصْبِر على الأذى، يُسْتَخرج بذلك منه رفعُ السكونِ إلى الخلق، والنظرُ إلى علمِ الخالقِ الذى سبق.

ثم التوكّلُ فى الصبر على حسن المعاملة، وتركُ الطلبِ للمعارضة؛ حياءً من الله، وإجلالاً له، وتَخوّفًا منه، وحبًا له. فقد وصفهم بذلك ظاهرًا وباطنًا، فالظاهرُ قولُه تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلينَ * الَّذينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩]. فلما عَمِلوا صبروا على عَمِلهم، ثمّ توكّلوا عليه فى صَبْرِهم، فأنعمَ أجرهم، وأجزل ذُخْرَهم عنده منه فى الإطعام لوجهِ الله تعالى، فيما أخبر عنهم: ﴿إنَّما نُطْعِمُكُم لِوَجْهِ الله لا نُرِيدُ مِنْكُم جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ [الإنسان: ٩] فقطعهم الخوفُ عن الطّلب. ففى قوله: ﴿مِنْكُم﴾ وجهٌ حسن غريب، وهو باطن الآية من اللُّغة، قد يكون بمعنى: لا نريد بَدَلاً منكم عوضًا، المعنى: لا نريد منكم عوضًا بدلاً ممّا فعلنا بِكُم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] ليس أنّه يجعلُ من البشرِ ملائكةً، ولكن المعنى: بدلاً مِنكم. هذا أحد الوجهين فى الآية، وهو أعلاهما.

والوجه الظاهر: أن يكون «الكاف والميم» أسماء المطْعمين، أى لا نريد من عندكم «جزاء» أى مكافأة، ولا «شكورًا» أى حسن ثناء. فلما لم يطلبوا العِوَض من عندِه؛ لأنّهم فعلُوه لوجهِه، ولا أرادُوا التعويضَ مِنْ أجلِهم، ولا المكافأة من عندِهم، وقالوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ [الإنسان: ١٠]، جزاهم أفضلَ الجزاءِ، وأحسنَ لهم غايةَ العطاء، فقال تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١ ـ ٢٢]. إذ لم تطلبوا مِنّا عَليه جزاءً ولا شكورًا، جعل جزاءَهم شَرَابًا طهورًا، وجعل سعيَهم لَديه مشكورًا فى التوكّل عليه فى تسليم الحكم والرضا به. ومنه قول يعقوب عليه السلام حين سلم الحُكْم توكّلاً على الوكيل الحاكم: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلا لله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف: ٦٧]؛ لأنّ العبدَ إذا كان مُريدًا لمرادِ نفسه من الأشياء، وقد لا يوجد فى كلّ شيء إرادته، ثم هو على يقينٍ من إرادةِ مولاهُ لكلِّ شيءٍ، وأنّ كلَّ شيءٍ مرادٌ لوكيله، فينبغى أن يريدَ ما يريد مولاهُ، إذا لم يتّفق له ما يريد، بل ينبغى أن يكونَ مرادُ مولاهُ أحبَّ إليه، وآثرَ عندَه؛ لأنّ ما أرادَهُ مولاهُ ممّا لا عقوبةَ على العبدِ فيه، ولا مَسْخَطَةَ لمولاهُ بهِ، فإنّه محبوبٌ لله تعالى، مختارٌ له. فلتكن محبةُ الله عزّ وجلّ مُقَدَّمةً لَديه على محبتِهِ هُو واختيارِه، إذ لله عاقبةُ الأمورِ. وقد شرّفَ المتقينَ ونزّهَهُمْ عن أمورِ العاجلةِ الدَّنِيَّة، بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وكما روى فى أخبار موسى عليه السلام: «إذا لم يكن ما تُريد فأرِدْ ما يكون، فإن أبيتَ إلا ما تريد أتعبتُكَ فيما تُريد، ولا يكون إلا ما أُريد».

وروى عن الحسن: وددتُ أنّ أهل البَصرةِ فى عيالى، وأنّ حبةً بدينار.

وهذا من نهايةِ التوكّل. وليس ذلك إلا فى تسليمِ الأحكامِ، والرِّضا بها كيف جَرت بهم؛ لأن هذا كلام قد جاوزَ المعقول، فلعلّه يُطعمُهم الموتَ.

وقد كان وُهَيبُ بن الورد المكّى يقول: لو كانت السّماء نحاسًا، والأرضُ رَصاصًا، ثم اهتممتُ برزقى لظننتُ أنّى مشركٌ. ويقال: من اهتمّ برزق غدٍ،

وعنده اليوم قوتُ غدٍ، فهى خطيئةٌ تُكتب عليه. وقال سفيان الثّورى: الصائم إذا اهتمَّ فى أوّلِ النهارِ بعشائه كُتب عليه خطيئة.

وكان سهل يقول: إنّ ذلك يُنقص من صَومِه. وقال: أعرِفُ فى البصرةِ مقبرةً عظيمةً، يُغْدَى على موتاهم برزقهم من الجنة بكرةً وعشية، يرون منازلهم من الجنانِ، وعليهِم من الغُموم والكُروب ما لو قُسِّم على أهل البصرة لماتوا أجمعين. قيل: ولِمَ؟ قال: كانوا إذا تغدَّوْا قالوا: بأىّ شىءٍ نتعشى؟ وإذا تعشّوا قالوا: بأىِّ شىء نتغدى؟ وقال مرة أخرى: لم يكن لهم من التوكّل والرِّضا نصيب.

فهذه المقامات من فضائلِ التوكُّل، وفوقها ما لا يصلح رَسْمُهُ فى كتابٍ، من مكاشفاتِ الصدّيقين، ومشاهدات العارفين؛ منها: أنّه أعطاهم «كُنْ» بإطلاعه إيَّاهم على الاسم، فزهدوا فى كون «كن» لأجل «كان»، توكلاً على كَيْنُونَتِه الكَيْناءِ، وحياءً منه أن يعارضوه فى قدرته أو يُنازعوه فى مُلكه، أو يرغبوا عن تقديرِه، أو يضاهوه فى تكوينه؛ لأنّ تدبيرَهُ عندهم أحكمُ وأيقنُ، وهو بالعواقبِ أعلمُ وأخْبرُ، وهُمْ لَهُ أشدُّ إجلالاً وإعظامًا مما نقدِر نحن ونعلم.

فأما التوكّلُ عليه فى القُوتِ فإنّه عندهم من فرضِ التوكّل، فيستحيون من ذكره مع الوكيل. وكذلك التوكّلُ عليه فى تسليمِ الأقدارِ حُلْوِها ومُرِّهَا، خيرها وشرِّها، من الله حكمةً وعدلاً.

كما قال رسولُ الله ﷺ: «كلُّ شىءٍ بقضاءٍ وقَدَر، حتى العَجْزُ والكَيس». وكما قال: «تعلّم أنّ ما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليُخطئك». وكذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣].

فالعلمُ بهذه الأشياءِ، وطمأنينةُ القلبِ بها، وسكينةُ العقلِ عند ورودها، وأن لا يضطرب بالرّأى والمعقول، ولا ينازع بالتشبيه والتمثيل، فإنّ هذا عندهم من فرائضِ الإيمانِ؛ لا يصحّ إيمانُ عبدٍ حتّى يسلِّم ذلك كلَّه، وليس هذا من التوكّل فى شىء.

ومنه قول ابن عباس: القدرُ نظامُ التوحيدِ، فمن وحَّدَ اللهَ وكذَّب بالقدرِ، كان

تكذيبُه بالقدرِ نقصًا لتوحيده. فجعل الإيمانَ بالأقدار كلّها أنها من الله مشيئةً وحُكمًا؛ بمنزلة الخيط الذى ينتظم عليه الحبُّ، وأنّ التوحيدَ منتظَمٌ فيه. يقول: إذا انقطعَ الخيطُ سقَط الحبُّ. قال: كذلك إذا كذّب بالقدَر ذهبَ الإيمانُ.

فالتوكّلُ فرضٌ وفَضْلٌ؛ ففرضُه منوطٌ بالإيمان، وهو تسليمُ الأقدارِ كلِّها للقادر، واعتقادُ أن جميعَها قضاؤه وقدرُه. ألم ترَ إلى ربك كيف أقسم بنَفْسه فى نَفْى الإيمانِ عمّن لم يحكِّم الرسولَ فيما اختلف عليه من حاله، فقال تعالى: **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [النساء: ٦٥] فكيف لمن لم يُسَلِّم الحُكمَ للحاكم الأوّلِ المرْسِلِ والقاضى الأجلِّ؟

فأما فَضْلُ التوكُّل فإنّه يكون عن مشاهدةِ الوكيلِ، فإنه فى مقام المعرفةِ ينظر عينَ اليقينِ، كما قال العبدُ الصّالح: **﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾** [هود: ٥٥]، فظهرتْ منه قوّةٌ عظيمةٌ بقوىٍّ، وأخبرَ عن عزيزٍ بعزٍّ، فكأنّه قيل: ولِمَ ذاك وأنت بشرٌ مِثلنا ضعيفٌ؟ فقال: **﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾** فكأنه سئل عن تفسيرِ توكُّله كيف سببه! فأخبر بمشاهدة يد الوكيلِ آخذةً بنواصى دوَابِّ الأرضِ، فقال: **﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِها﴾** ثم أخبر عن عدله فى فعله، وتمامِ حكمته، وقيوميَّةِ صنعته، وأنّه وإن كانَ آخذًا بنواصِى العبادِ فى الخيرِ والشرِّ، بحكم المرادِ للنّفع والضُّرِّ، للتَّقريبِ والإبعاد، لأجل باطنِ العلم، وسابقِ القِسْم(١)، فإن ذلك كلَّه قائمٌ بوصفِهِ، مستقيمٌ فى عَدْلِهِ، وصوابٌ من حُكْمِه، فقال: **﴿إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** [هود: ٥٦].

وقال تعالى فى فرض التوكل: **﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾** [المائدة: ٢٣]. وقال فى فرضه: **﴿إِنْ كُنْتُم آمَنْتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُسْلِمِينَ﴾** [يونس: ٨٤]. وقال فى فضله: **﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾** [إبراهيم: ١٢] أى

(١) القسم (بالكسر): الحظ والنصيب من الخير.

يتوكَّلُوا عليه فى توكُّلِهم، كما توكَّلُوا عليه فى الأسباب. وقال فى مثله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

• ذكر إثبات الأسباب والأواسط لمعانى الحكمة، ونفى أنها تحكم، وتجعل لثبوت الحكم والقدرة للحاكم الأول:

اعلم أن الله عزّ وجلّ ذو قدرة وحكمة، فأظهرَ أشياء عن وصف القدرة، وأجرى أشياء عن معانى الحكمة؛ فلا يُسْقِط المتوكِّل ما أثبت من حِكمته؛ لأجل ما شهد هو من قدرته من قِبَل أن الله تعالى حكيم.

فالحكمة صفته، ولا يثبت المتوكّلُ الأشياءَ حاكمةً جاعلةً نافعةً ضارةً؛ فيُشرك فى توحيده، من قِبَل أن الله قادر والقدرة صفته، وأنه حاكم جاعل ضارٌّ نافع، لا شريكَ له فى أسمائه، ولا ظهيرَ له فى أحكامه، كما قال عزّ وجل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لله﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿وَلا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنهُم مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

الشِّرك: الخَلط. والظّهير: المُعين. كما هو الفاعلُ لكلِّ شىءٍ وحدَه؛ لأنَّهُ هو الأولُ، كذلك هو القائمُ به، المتمِّمُ له بعد ظهوره وحْدَه؛ لأنّه هو الآخرُ.

فالدهريَّة: ألْحَدَت فى أسمائه، فقالوا: نحن الأوّل والآخر، لأنّا فاعلين، والأفعالُ تظهر عنّا وتُوجد مِنّا، فنَحنُ شهادةٌ لنفوسنا، ولا نؤمن بالغيب.

والقَدَريّة: ألْحَدَت فى اسمه الأوّل، فقالوا: نحن الأوَّلُ فى الشَّرِّ لأفعالنا، باستطاعتنا واكتسابِنا بنفوسِنا، والله الآخرُ بالعُقوبة.

والموَحِّدون: قالوا: اللهُ الأوَّلُ بالقضاءِ والقَدَر، كما هو الآخرُ بالعِقاب والأجْرِ، فوحَّدَهُ هؤلاء فى الأسماءِ بشهادة التوحيدِ فيها.

وألحدَ الآخرُ فى أسمائه، فكَفَر الدَّهْريون بالتّوحيد، وأشركَ القَدَريُّون فى الاستطاعةِ والقُدرةِ، ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِين كَفَرُوا مِن قَبْلُ قاتَلَهُم اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿ولله الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوه بِهَا وذَرُوا الَّذِين يُلْحِدُونَ فى

أسمائه **﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الأعراف: ١٨٠]، فتدبَّروا.

ثم إنَّ المتوكِّلَ مع مشاهدته قدرةَ الله على الأشياء، وأنّه منفردٌ بالتقدير والتدبير، قائمٌ بالملك والمملوك، هو أيضًا عالمٌ بوجوهِ الحكمةِ فى التصريف والتقليب، بإظهارِ الأسبابِ الأواسط لإظهارِ الأشخاصِ والأشباحِ، لإيقاع الأحكامِ على المحكوم، وعودِ الثوابِ والعقابِ على المرسوم، من حيث كان المتوكّل قائمًا بأحكام الشريعة، ملتزمًا لمطالبات العلم، مع تسليمه الحكمَ الأوّلَ لله، واعترافه أن كلاً بقَدَر الله؛ إذ سمع الله تعالى يقول: **﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾** [الأنبياء: ٢٣]، وأنّ الله تعالى فى جميعِ ما أظهر أخفَى قدرتَه فى حكَمه؛ فظهرتْ حكمتُه فى الأشياء لعود الأحكام على المظهرين لها، وبَطَنت قدرتُه فى الأشياءِ لرجوع الأمرِ كلِّه إليه، ولإتقانِ الصنعةِ الظاهرةِ لصُنع الباطن.

فلذلك قال عزّ وجلّ: **﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾** [النمل: ٨٨]، أى: صنعُه الباطنُ أتقن صنعَه الظاهرَ. ثم قال تعالى: **﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾** من الظاهر والباطن **﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾** [هود: ١٢٣] فى جميع ذلك.

فللعارف المتوكِّل من الصّنع الباطن شهادةٌ، هو قائمٌ بها، وله فى الحكمة الظاهرة عِلْمُ شرعٍ وتسليمُ اسمٍ، ورَسْمٌ هو عامل به، وهذا هو شهادةُ التوحيد فى عبادة التفضيل، وهو مقامُ العلماءِ الربانيين.

وكلُّ مؤمنٍ بالله متوكّلٌ على الله، ولكن توكُّل كلِّ عبدٍ على قدر يقينه. فتوكّلُ الخصوصِ ما قدَّمناه من ذكْرِ المشاهدةِ ومعانى الرضا بانتفاء وجه المضادَّةِ لاعتبار الهوى، وتوكّلُ العمومِ ما عَقَّبناه من الإيمان بالأقدار خيرِها وشرِّها.

وقد أخبر الله تعالى أنه هو الرزاق، كما هو الخالق، كما هو المحيى المميت، فقَرَن بين هذه الأربع فى قرن واحد مع ترتيب الحكمة، يتبعها نظامُ القُدرة. فكيف يختلف معناها؟ أم كيف لا تأتلف حِكَمه بها؟ بل كيف يتبَعَّض وَصْفُها لظهور الأسباب، ولأجل وجود الوسائط والأبواب؟ فقال سبحانه وتعالى: **﴿اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾** [الروم: ٤٠]، فكما ليس فى الثلاث

الأُخَر جاعلٌ ومُظهِرٌ إلا الواحد؛ فكذا ليس فى الرابعةِ من الرزق إلا هو. ألا ترى أنك لا تقول: خلقنى أبى، وإن كان هو سبب خلقك؟ ولا تقول: أحيانى وأماتنى فلانٌ، وإن كان أواسط فى الإحياء والقتل؛ لأنّ هذا شرك ظاهر اشتُهر قبحه فترُك؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩]، وكذلك قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤]. فأضاف الإمناءَ والحرثَ إلينا؛ لأنّها أعمال، ونحن عبيدٌ عمَّال؛ ولأنّها صفاتنا، وأحكامها عائدةٌ علينا؛ وأضافَ الخلْقَ والزّرع إليه؛ لأنها آيات عن قدرته وحكمته، والله هو القادر الحكيم.

فأمّا إنزالُ الماء مِن المُزْن، وإبداعُ الخلقِ، [فهو فعلُ] عمومٍ؛ لأنّه فعلُ الله صِرفًا، بغيرِ يدٍ مخلوقةٍ. وكذلك الأوّلانِ من غيرِ [شبهة]. ولكن دخول الشبهات فى التوحيد هو لضَعفِ شاهد اليقين، كما تدخل فى الإحياء والإماتةِ لمّا حاجَّ الكافرُ بهما، فادّعى وصفَ الرُّبوبية، أنْ آتاهُ اللهُ الملكَ، قال: أنا أُحيى وأميت، أقتلُ رجلاً، وأخلّى آخر قد وجبَ قتلُه، فأكون قد أحييتُه. فما جادلَه إبراهيمُ ﷺ فى حجاجِه، ولا نقَضَ عليه شُبهته باحتجاجِه، [ولكن أتاهُ] من غيرِ فعله، فقال: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] الآية، فأبهته إذ ذكر له شيئًا لا يدَ له فيه؛ لأنّ الذى يأتى بالشمس من مشرقها عندَ الموحِّدين، هو الذى يحيى ويميت نفوسهم (. . .) الكافر عند ذلك لدخولِ الشبهة بفعله. فلما ذكر ما لا بد فيه بهت (. . .) المعاينين للقُدرة، الناظرين بعينِ اليقين إلى اليد القادرةِ (. . .) وجود الشّبهاتِ من الشِّرك الخفى لا يخرجه إلا التوحيد (. . .)[1] النفس دكًا، تلاشى بحضوره، ويجد القلبُ كلَّ مَن عليها فانٍ، ويبقى وَجْهُ ربك ذو الجلال والإكرام.

وكذلك كل ما ذُكر فى الكتابِ من الأعمالِ والاكْتساب أُضيف إلى الجوارحِ المجترحة؛ لتتحقق به أسماؤها، ونُسبت إلى الأداوتِ المكتسبة ليثبت به رُسُومُها، وما كان من القُدرة والإرادةِ ووَصْف نفسِه به؛ لأنّه المريدُ الأولُ، والقادرُ الأعلى،

---

(١) هذه المواضع غير مقروءة فى المخطوط، وهى قدر نصف سطر فى كل موضع.

فافهم عن الله خطابه؛ كيلا يَزِغْ قلبُك فيما تشابه، ذلك تقدير العزيز العليم، وتفصيل اللطيف الحكيم. والسِّرّ غامض فى قعر ذلك، وإفشاؤهُ ليس من البرِّ، والقدرة محيطة بجميع ذلك، وإخفاؤها رحمةً من البَرِّ.

ثم قد يقول العبدُ: أعطانى ومنعنى فلان؛ لأنّ هذا شِرْك خفىٌّ، ولأنّ الأسباب تظهر على أيديهم، والأقدارُ تجرى بلُطفها فيهم، قد جُعلوا أواسطها، وصُيِّروا أبوابها، وعنده مفاتحُ غيبها، وعندهم أقفال شهادتها، واللهُ غَالبٌ على أمْرِه، أن يُظهر على ما أَبْطَنَ من سِرِّه، فقد غَلبَ الخليقةَ به، وقهَر العبادَ أن يَظْهَرُوا عليه، فحُجِبوا بالأسبابِ عن المقدِّر الوهَّاب، ولو ارْتَقَوْا فى الأسبابِ لَعايَنُوا المسبِّبَ التَّوابَ.

فاسْتَتر عنهم المعطى المانعُ بقدرِ ما انكشف من الأماكن والصّنائعِ فهو شِرْكٌ خفى، فقبُح هذا عند المُخْلصين بالتّوحيد، والموقنين بشهادة الشّهيدِ، كقُبْحِ ذاك الشِّرك الظاهر الجلىِّ الذى قدَّمنا ذكره؛ لأنَّ اللهَ تعالى نفى الرِّزق عن سِواه، كما نفَى الخَلْق، فقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ الله يَرْزُقُكُم﴾ [فاطر:٣]؟ فلم يردَّ اللفظَ على اللفظ وإن حَسُن، فيقول: يخلقكم، لأنّه أراد إفادتنا فضْل بيانٍ، ويعلِّمنا اقترانَ الرِّزْقِ بالخِلقة، وأنهما فى العَقْل والقُدْرةِ سيَّان.

فالمتوكِّل قد أيقن أنّه لم يكن على الله أن يخلقَه، فلمّا خَلَقَهُ كان عليه أن يرزُقَه. وهكذا رُوى عن الله تعالى: «أأخْلُق خَلْقًا ولا أَرْزُقُه؟».

كما رُوينا عن رسولِ الله ﷺ: «لو هَربَ أحَدُكم مِن رِزْقه لأدْرَكَهُ رزقُه، كما لو هَربَ من الموتِ لأدْرَكَه»، فسوَّى بين دَرْكِ الرِّزق وإدراكِ الأجَلِ، كما لم يكن على الله أن يحييه أولاً، فلمّا أحياهُ كان على الله تعالى بعد أن أحياه أن يميته ثانيًا؛ لأنّه مميتُ الأحياء بعزِّه وقَهْرِه. كذلك عليه أن يرزقَه ثانيًا، بعد أن خلقه بكرمِه وفضْله أولاً؛ لأنّه أوجبَ على نفسِه أن يرزقَ الأحياءَ، كما أوجبَ لنفسِه أن يحيى الأمواتَ.

وكان سهْلٌ يقول: لو أن العبدَ سأل الله أن لا يرزقه ما استجابَ له أبدًا، ولقال

اسكت يا أحمق، لو لم أُرِدْ أن أرزقك ما خَلَقتُكَ، أنا الذى خلَقْتُك لا بُدَّ أن أَرزقَكَ كما خلقتُك.

وقال الرسول ﷺ: «لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطى لما منعتَ، ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ». ردًا عليهم حين قالوا: جَدِّى فى كذا، وجَدِّى فى كذا، يعنون صنوفَ الأسبابِ. فنفى ذلك بقوله هذا فى صلاته، وأسمعهم إِيَّاهُ؛ خشيةَ دُخُولِ الشِّرْكِ عليهم بآياته التى جعلها مثابًا لأرزاقه أن ينظروا إليها، فيُلحدُوا فى التوحيد بها. أى جدُّ العبدِ لا ينفعه منك شيئًا إن منعته، فهذا كما قال الله تعالى: ﴿وإنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِى مِنَ الحقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

وكان أبو محمد يقول فى تأويل هذا: من جَدَّ فى الطَّلبِ، وحَرَصَ، وجَدَّ منك المنعُ، لم ينفعه جَدُّهُ فى طلبه وحرصه شيئًا. وقال أيضًا فى معنى قولِ الله عزّ وجلّ: ﴿يَمْحُو اللهُ ما يَشاءُ ويُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] قال: يمحو الأسبابَ من قلوب العارفين ويُثبتُ القدرةَ، ويمحو المشاهدة من قلوب الغافلين ويثبت الأسبابَ فى صدُورهم. وقال أيضًا: خلَقَ اللهُ النفسَ متحركةً، ثم أمرَها بالسُّكون؛ وهذا هو الابتلاء. فإن تداركها بالعِصمة سكنَتْ وهذا خُصوص، وإن تَركها تحرّكت بِطَبْعها وجبِلَّتها، وهذا هو الخذلان منه. يشهد لقوله هذا قولُ الله سبحانه: ﴿خُلِقَ الإنْسانُ من عَجَلٍ﴾ فهذا خبرُ الخِلْقةِ، ثم قال فى بلوى الأمرِ: ﴿سأُرِيكُم آياتِى فلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وكان الخوَّاصُ يُرتب بين الخُصوص والعموم بوجود الحركة والسُّكون، فقال: القُلوب على حالين، فمَن دامت حركتُه وسعيُهُ كان موصُوفًا بنفسه لغَلَبَة شاهد النَّفس عليه؛ لقولهِ: ﴿وكَانَ الإنْسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١]، ومن دامَ سكونُهُ كان موصوفًا بالحق لغلبةِ شاهدِ الحقِّ فى سكينته؛ لقوله: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال النّهرجورى فى معناه: قلوبُ الأولياءِ مواضعُ المطالعِ، لا يتحرك ولا يَنْزَعِجِ، بل تطمئن خو(. . .) مناجاة، فطالعَهُ فيجدُهُ مُتَوَسِّمًا بسوء الأدب.

فالمتوكِّلُ (. . .) وحُكمه، ففعلُه ظاهر، ووصفُه باطنٌ. واللهُ هو الظاهرُ الباطن (. . .) والله هو الحاكم الراسم. فتفكَّرُوا.

وقال بعض أهل المعرفة فى تأويل قوله تعالى: ﴿ورِزْقُ ربِّكَ خَيْرٌ وأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]: هو التوكُّل، لأنّه أبقى للعبدِ من (. . .)(١) والتَّعبِ.

وفى وصيّة لقمان لابنه: «يا بنى، اردد رغبتَك إلى الله، إن شاء أعطاك، وإن شاءَ مَنعك، فإنّ حيلتك لن تَزيدَكَ ولن تَنْقُصك من قِسمةِ الله التى قَسَم لك، واعْتَبِرْ رزقَك بخَلْقك، فإن استطعْتَ أن تزيد فى خلقك بحيلتك فإنك إذًا تزيدَ فى رزقك، وإلا فاعْلَمْ أنّ الله هو الذى عَدَل الخلق وقَسَّم الرزق، فلن تستطيعَ أن تَزيد فى أحدٍ منهما، وإنَّ منهم المحتالَ الجلدَ البطوش، ولا يزدادُ إلا فقرًا، ومنهم العَيِىُّ الواهنَ المهين، ولا يزداد مالُه إلا كثرة، ولو كان من الحيلة لَسبق القوىُّ الضعيفَ إلى كل شىء، ولكنَّ اللهَ يخلق ويرزق، ولا يَمْلِك العبادُ من ذلك شيئًا».

فهذا كما كنا ذكرناه آنفًا عن نبينا ﷺ: «من ظَنَّ أن حرصه يزيد فى رزقه فليَزد فى طوله وعرضه».

وهكذا حُكى أن بعضَ الأكاسرة سأل حكيمًا فى زمانه فقال: ما بالى أرى العاقلَ محرومًا والأحمقَ مرزوقًا؟ فقال: أراد الصانعُ أن يدلَّ على نفسه، ولو كان كلُّ عاقلٍ مرزوقًا، وكلُّ أحمق محرومًا، لوقع فى العقول أن العاقلَ يرزق نفسَه، والأحمقَ حَرَم نفسَه، فلما رأوا الأمر بخلاف هذا علموا أن الصانعَ هو الرازق.

ورُوينا عن ابن مسعود: إن فى إعطاء هذا المال فتنةً وفى منعه فتنةً؛ إن أُعْطِيه عبدٌ مدَحَ غير الذى أعطاه، وإن مُنِعَه عبدٌ ذَمَّ غيرَ الذى منعه.

وقد رُوينا معناه فى حديث مطرِّف عن بعض أصحاب النبى ﷺ أنه خطب فقال: «ألا إنّ فى إعطاء هذا المال فتنةً، وفى منعه فتنةً: يغدو الرجل إلى ابن عمه، فيسأله الحاجةَ التى قد كتبها اللهُ له، فلا يملك منعَه؛ فيعطيه ما كُتب له،

(١) فى المواضع السابقة كلمات غير مقروءة، قدر ثلاث كلمات فى كل موضع.

فيظل يشكره، ويثنى عليه بها خيرًا، ثم يعود إليه العامَ المقبلَ، فيسأله الحاجةَ التى لم يَكْتُبها الله له، فلا يملك أن يعطيَه، كما لم يَملك فى العام الأول أن يمنعه، فيمنعه ما لم يُكْتَب له، فيرجع يحتقبها عليه ذنبًا، ويثنى عليه بها شرًا. ألاَ فإنّ فى إعطاء هذا المال فتنةً، وفى منعه فتنةً».

[سقتُ لفظ هذا الخبر على المعنى] ولم آل. ويعنى بالفتنة: الاختبار.

وصدق ﷺ، يختبر بذلك الموقنين للخير والغافلين؛ لينظر كيف يعملون. فأما أهل اليقين فيعتبرون الأسباب، ويُعجبون من التّسبُّب، ويشهدون النعمةَ بذلك من المنعم، فيزدادون بذلك هُدًى وإيمانًا لشُهودهم المعطىَ المانعَ واحدًا فى العطاء والمنع، ولمعرفتهم بجريان الحكمةِ فيما جاءتْ به الشريعة، فيُثْبِتُ لهم مقامات الشّكر له، والصبر عليه.

وأما الغافلون فَيضطربون لذلك، ويَتشتَّتُون لنَظَرِهم إلى الأسباب والأيدى؛ فيمدحون المُعْطين، ويذمُّون المانعين عندهم، فينقصون بذلك. فقد صار المال فتنةً للفريقين معًا، يكشف إيمانهم، ويمتحن للتقوى قلوبَهم.

وكذلك جاء فى الخبر: «إن العبدَ لَيهِمُّ من الليل بالأمر من أمور الدنيا من التجارة وغيرها، الذى لو فعله كان فيه هلكتُه، فينظر الله إليه من فوق عرشه، فيصرفه عنه، فيُصبح كئيبًا حزينًا، يتطيَّر بجاره وبابنِ عمه: من سبقنى؟! من دهانى؟! وما هو إلا رحمةٌ رَحِمَهُ اللهُ بها».

وعن ابن مسعود أنه قال: من الإخلاص أن لا تحبّ أن يحمدَك الناسُ على عبادةِ الله، وأن لا تمدحهم على ما رزقكَ اللهُ.

وقد رُوينا عن عيسى عليه السلام وعن ابن مسعود وغيره: «إنَّ من اليقين أن لا تحمدَ أحدًا على ما أعطاك الله، ولا تذمَّه على ما لم يؤتك اللهُ».

فإنّ الرزقَ لا يجرُّهُ حرصُ حرِيص، ولا يمنعه منعُ مانع. إنّ اللهَ جعلَ الرَّوحَ والراحةَ فى الرِّضا واليقين، وجعل الهمَّ والكربَ فى الشّكّ والسخط.

وقال ابن مسعود: اليقينُ الإيمانُ كلُّه.

وفى حديث الإفك الذى رواه معمر بن أبان، عن حمدان الزهرى، عن عروة، عن عائشة رضى الله عنها أنها قالتْ: فقام إلىّ أبواى، فقبّلانى فى صدورهما، فقلْتُ: بغير حمدكما، ولا حمدِ صاحبكما، أحمد الله تعالى الذى عزّزنى وبرّأنى.

وفى حديث غيره: «فقال لها أبو بكر: قُومى فقبِّلى رأسَ رسولِ الله ﷺ. فقالت: والله لاّ أفعل، ولا أحْمدُ إلا اللهَ. فقال النبى ﷺ: دعها يا أبا بكر».

فهذه المعانى التى قدَّمْنا ذكرها من قوّة رؤية الخلق، وضعف شهادة الحقّ، تكون من ضَعْف اليقين، ونُقْصان المعرفة بالحق المبين. فإذا انطوتْ فى سرّ العبد وخلَده، وكثُرتْ مِن قوله وفعله، أذهَبتْ حقيقةَ الإيمان، وشعَّثَت شُعاعَ أنواره، وولَّدت النفاق، وزرعت الشك. كما قال عبد الله[1]: إنَّ العبد ليخرج من منزله ومعه إيمانُه، فيرجع إلى منزله وليس معه من إيمانِه شىءٌ؛ يلقى الرجلَ لا يملك له ضرًا ولا نفعًا، فيقول: إنّك لذيت وذيت، ويلقى الآخرَ كذلك؛ حتى يرجع إلى منزله ـ ولعله لم يَخْل منهم بشىء ـ وقد أسخط اللهَ عليه.

وسُئِل عالمنا أبو محمد، رحمه الله، عن معنى الخبر المنقول من التّوراة: «مَن تَواضعَ لغنىٍّ ذَهَب ثُلُثا دِينه»، فقال: لأن الإيمانَ عقدٌ، وفِعل، وقَوْل. فإذا تواضع للغنىّ لأجل دنياه بالثناء والحركةِ إليه ذَهَبَ ثُلثا إيمانه، وبقى الثلثُ وهو العَقْد.

فإن جعلْتَ الأواسطَ فى الرزق أوائلَ فى الجَعْل لثبوتها، فإن الله تعالى قد أظهرها أسبابًا، وأثبَتَ نفسَه فيها، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]. ثم رفعه وأظهر نفسه فقال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وكذلك فى التّفصيل: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقال فى التّوحيد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

---

(١) يعنى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

وقال فى المُتشابِه: ﴿وأضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٥]، وقال فى المُحكَم: ﴿إنْ هِيَ إلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَن تَشاءُ﴾ [الأعراف:١٥٥].

وقال فى الوَسِيلةِ: ﴿يا آدمُ أنبِئْهُم بِأسْمَائِهِم﴾ [البقرة:٣٣]، ثم رَدَّهم إلى التّوحيد بعد أن علَّمهم الواسِطَة عنه فقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَكُم إنِّى أعْلَمُ﴾ [البقرة:٣٣] ولم يقل: إنّ آدم، فتَفهَّم.

وكذلك قال: ﴿أفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة:٦٣]، فذكر الأواسط، ثم قال: ﴿أنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صبًا * ثُمَّ شقَقْنَا الأرْضَ شَقًّا﴾ [عبس:٢٥ ـ ٢٦]. وقال فى التفصيل: ﴿فأَرْسَلْنا إلَيْها رُوحَنَا﴾ [مريم:١٧]، ثم قال تعالى فى التوحيد: ﴿فَنَفَخْنَا فيهَا من رُّوحنَا﴾ [الأنبياء:٩١]، وكان النافخَ جبريلُ عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فإذَا قرأنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨].

قال أهل التَّفسير: فإذا قرأهُ عليكَ جِبريلُ عليه السّلام فَخُذْهُ عنه، بعد قوله تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة:١٦].

وكذلك قال جِبريل عليه السلام: ﴿لأَهَبَ لك غُلامًا ذَكِيًّا﴾ [مريم:١٩]. فالله تعالى وهَبَ له أن يَهَب لها، فذكر نفسه، وهو يشهد ربَّه. وقال فى الحرف الآخر: «لِيَهَبَ لَكِ» يعنى: الله تعالى.

ومثله قول موسى ﷺ: ﴿لا أَمْلكُ إلاَّ نَفْسِى وأخِى﴾ [المائدة:٢٥]؛ لأجلِ أنَّ الله تعالى قال: ﴿ووَهَبْنَا له من رَّحْمَتنا أخَاهُ﴾ [مريم:٥٣]، وهو فى الحقيقةِ لا يملكُ نَفْسَه ولا أخاهُ، إذ لا مالِك فى الأصْلِ إلا الله تعالى. وهذا على أحد الوَجْهَين؛ إذَا كان ﴿وأخِى﴾ فى موضع نصب. والوجهُ الآخرُ: أن يكون قوله ﴿وأخِى﴾ موضع رفْعٍ؛ فيكون المعنى: وأخى أيضًا لا يملك إلا نفسه.

وكذلك قال سبحانه وتعالى فى التّفصيل والأمرِ: ﴿فاقْتُلُوا الْمُشْرِكينَ﴾ [التوبة:٥]. وفى مثله من ذِكر الواسِطة لأجْلِ الأمرِ: ﴿قَاتلُوهُم يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بأيديكُمْ﴾ [التوبة:١٤]. ثم قال فى التّوحيد: ﴿فلَمْ تقْتُلُوهُم ولكنَّ اللهَ قَتَلَهُم﴾ [الأنفال:١٧].

وقال في إثبات الأسباب، ورفع حقيقتها: ﴿يا آدمُ أنبئْهم بأسمائِهم﴾ فأثبت رسْمَه مكانًا للعلْمِ، ثم رفع حُكْمَهَ إظهارًا للعالم، فكما قال: ﴿أنبئْهم بأسْمائِهم﴾ قال: ﴿ألَمْ أقُلْ لكُم إنِّى أعْلَمُ﴾. فهذا كما قال للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [البقرة:٣٤] فحقيقته: كان هو قِبلةً، وكان المسْجُودُ له هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

وقال في ذكر الوسائط: ﴿فلا تُعْجبْكَ أمْوالُهُم ولا أوْلادُهُم إنَّما يُريدُ اللهُ ليُعَذِّبَهُم بها﴾ [التوبة:٥٥]. وقال في مثله: ﴿الَّذِى عَلَّمَ بالقَلَمِ﴾ [العلق:٤]. وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرآنَ﴾ [الرحمن:١ ـ ٢]. وقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾ [الرحمن:٤]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا بيانَهُ﴾ [القيامة:١٩].

وكما قال في التَّفْصيل لتَثْبيت الأحكامِ، وتَفْصيلِ الأنامِ... (١) ﴿كتابٌ أنزَلْناهُ إليْكَ لتُخْرِجَ النَّاسَ منَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ﴾ [إبراهيم:١]. وفي مثله: ﴿وإنَّكَ لتَهْدِى إلى صراط مُسْتَقيم﴾ [الشورى:٥٢]. ثم رفَعَهُ في التَّوحيدِ، وأثْبَتَ نفْسَه فقال: ﴿اللهُ وَليُّ الَّذينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم منَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]. وقال في مثله: ﴿إنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، وبمعناها: ﴿وأضَلَّهُمُ السَّامريُّ﴾ [طه:٨٥]، والتوحيد: ﴿تُضلُّ بها مَنْ تشاءُ﴾ [الأعراف:١٥٥]. وقال في نَفْي الأوّلية والآخرية من فِعل الخَلْق للتَّوحيد: ﴿وما رمَيْتَ... ولكنَّ اللهَ رَمَى﴾، وقال في إثبَاتِ المكان للتَّفْصيل: ﴿إذْ رمَيْتَ﴾ [الأنفال:١٧]. فاللهُ الأولُ في الحُكْم، والعبدُ أوسطُ، فلا يعجبك. واللهُ هو الآخرُ في الإعادَة؛ لأنَّهُ يُبْدِئ ويُعيد، والعبدُ ظرفٌ للإبداءِ والتجديد.

وقال في تثبيت الأملاك وبيعها منه بالأعْواضِ؛ كَرمًا منه وفَضْلاً: ﴿إنَّ اللهَ اشْتَرَى منَ الْمُؤْمنينَ أنْفُسَهُمْ وَأمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة:١١١] فجازَ ذلك لما ملَّكَهُم مَالَهُ، كقوله تعالى: ﴿إلاَّ ما مَلَكَتْ أيْمانُكُم﴾ [النساء:٢٤].

(١) بياض وكلام غير مقروء بالأصل.

وعند أهلِ المعرفةِ أَنْ لا فاعِلَ حقيقةً إلا الله عزّ وجلّ؛ لأن حقيقة الفاعل هو الذى لا يَسْتعينُ بغيره بآلةٍ ولا سببٍ، وعندهم أن فِعْلاً لا يتأتى من فاعلَيْن، وإلا كان شركًا؛ لأن الفاعلَ الثانى المُظْهِر الذى فعل بيده وأجْرى الفعلَ بِواسِطتهِ هو ثانٍ، ومُحْدَثٌ، ومفعولٌ، والأوّلُ القديمُ هو الفاعِلُ الأَصْلى.

كما أنَّ عندَهُم أنَّ حَقِيقةَ المالك هو الخَالقُ للشىء، والذى يقلب عينَ الشىءِ إلى غيره، ومَن يَقْدِر على إعادته بعد أن أَبْداهُ، ومَنْ جُعِل فى يده مُمَلَّك؛ لأنه لم يَخلُق ما بيده، كما المُجْرَى على يده الفِعْلُ مفعول؛ لأنّه ثانٍ فيه، وأوسط به، ولا يقدر على تلف عينه، ولا إعدامه، إذ لم يقدر على إيجاده، ولأنَّ اللهَ هو الأوّلُ القَيُّومُ بِنَفْسِهِ لا يَسْتَعِينُ بغيره، كذلك المالكُ للشىء هو مُظهِرُهُ، وخالقُه كَوْنًا، ومَشيئًا عن تكوينه ومشيئته.

وقد جعل اللهُ أيضًا بحكمته وعزته عن مُباشرة الأشياء للخِلْقة والحياةِ واسطةً، وهُو مَلَكُ الأرحام، فى الخبر: «أنّه يَدْخلُ الرحِمَ، فيأخذ النطفةَ فى يده، ثمَّ يُصوِّرها جَسَدًا، فيقول: يا ربّ، أذكرٌ أم أنثى؟ أسوِىٌّ أم مُعَوَّج؟ فيقول الله ما شاء، ويصوِّر المَلك».

وفى لفظ آخر: «يَخْلُق الملكُ، ثم ينفخ فيها الروحَ بالشقاوة أو بالسعادة».

ويقال: إنّ المَلك الذى يقال له: الرّوح، هو الذى يُولِج الأرواحَ فى الأجساد. ويقال: إنه يتنفَّس بوصفه، فيكون كلُّ نفس من أنفاسه روحًا يلج فى جسم؛ ولذلك سُمِّى الروح.

فصار العبدُ يظهر بين أربعة، وهى حدودُ الحكمة: ظاهران: وهما الأبَوان، وباطنان: وهما مَلَك الأرحامِ، ومَلَك الأرواح.

وقد قال الله تعالى فى وصف نفسه: ﴿**الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ**﴾، كما قال: ﴿**الْخالِقُ**﴾ [الحشر:٢٤]، وقال تعالى: ﴿**خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ**﴾ [الملك:٢].

وقد جعل للأحياءِ واسطةً، كما جعل للموت، وهو إسرافيل صاحب الصور، ينفخ فيه النفخةَ الثانية؛ فيحيا كلُّ ميت، ثم يَرْفعُه الله تعالى، فقال: ﴿**وَيَوْمَ يُنْفَخُ**

فِى الصُّورِ﴾ [النمل:٨٧]، ووصف نفسه بأنه المحيى المميت.

وفى بعض الأخبار: «إنّ مَلَكَ الموت ومَلَكَ الحياة تناظرا، فقال مَلَكُ الموتِ: أنا أُميتُ الأحياءَ. وقال مَلَكُ الحياةِ: أنا أُحْيِى كلَّ ميت. فأوْحَى اللهُ إليهما: كونا على عملكما وما سُخِّرتما له من الصنع، فأنا المميت وأنا المحيى، ولا مميت ولا محيى سواى». وكذلك أيضًا قيل عن الله تعالى: «أنا الدليلُ على نفسى، ولا دليلَ علىَّ أدل منى».

ولم يَمْنَع وجودُ هذه الأواسط أن يكون الله سبحانه هو الأوّل فى كل شىء، وهو الفاعلُ لكل شىء، وحدَه لا شريكَ له فى شىء، وأنَّ الكونَ كلَّه مكانٌ لجريان الأفعال؛ الإرادةُ أولُه، والقدرة من ورائه.

ولم يقل أحدٌ من المسلمين: الملَك خلقنى، ولا: عزرائيل أماتنى، ولا: إسرافيل قد أحيانى كذلك. أيضًا لا يصلح أن يقول الموقِن المشاهدُ للتّوحيد: فلانٌ أعطانى أو منعنى، كما لا يقول: فلانٌ رزقنى، ولا: فلان قَدر علىَّ. وإن جُعل واسطةً وسببًا للتقدير، وأُجرى على يديه ذلك؛ لأنّ العطاءَ هو الرِّزْق، والمنْعَ هو القَدَر، وإلا كان عندهم مُشركًا فى أسماء الله غيره، إذ كان اللهُ هو المُعْطِى المانعَ الضّارَّ النّافعَ، كما هو المحيى المميت، لا شريكَ له فى مُلْكه، ولا ظهِيرَ له من عباده فى خلْقِه ورزِقه. وهذا عندهم يقدح فى حقيقة التوحيد للعبد، وهو من الشرك الخفى الذى جاء فى الأثر: «الشِّركُ فى أُمَّتِى أخْفَى من دبيب النَّملِ فى اللّيلةِ الظَّلْماء».

وقال بعضهم فى معنى قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦] قال: مؤمنٌ بالإقرار؛ أنّ الله هو المقدِّر المدبِّر، ومُشرِكٌ فى الاعتمادِ على الأسبابِ، ورَدِّ الأفعال إليها.

ومن الإخلاص عند المُخلِصين بلا إله إلا الله، التى هى أصلُ التّوحيد، أن يشهَدُوا كذلك أنْ لا نافع ولا ضار ولا مُعْطىَ ولا مانع إلا الله، ولا هادىَ ولا مُضلَّ إلا الله، كما أنه لا إله إلا الله. هذا عندهم فى قَرَنٍ واحدٍ، ومُشاهَدَةِ

واحدةٍ، وهو أوّلُ التّوحيدِ، وإن كان قد جعَل هادين ومُضلّين، كما جعَلَ معطين ومانعين، ولكنْ بعد إذنه ومن بعد مَشيئته وحُكمِه. كما قال تعالى: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، ﴿أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، ولا خالق ولا حاكم حقيقةً إلا الأحد الصَّمد؛ لأنه خلَقهم، وخلَق خلْقَهم، ورَزَقهم، ورزق رِزْقَهم. وكذلك هو هدَاهم وهدَى بهم، وأضلَّهم وأضلَّ بهم، فعن هدايته هَدوا به، وعن إضلاله ضَلّوا بعد إرادته، كما عن خلقه خلَقوا، ومن رزقه رزَقوا، وكيف وقد فسر ما ذكرناه بقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، وبقوله تعالى: ﴿لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١]. وقال فى مثله: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات: ٣٢].

وأُحْكِموا بوصفه من فِعْلِه، فقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]. كقوله فى المفصّل: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وقوله فى الموصَّل: ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. فهو زيَّن للشَّيْطان أن يُزيِّنَ، فزَان عنده، بما أزانه عندهم، وزيَّن لهم من أَوْليائِه وحِزبِه، بمعنى ما زيَّن اللهُ له من ضَلالِه وبُعْده.

فبمشاهدة ما ذكرناه يَخْرج العبد من الشِّرك الخَفِىّ، وهو تَحْقيق قوله: «لا إله إلا الله» بعد التصديق، أى: ليس مَن يَألَه القلوب وتَألَه إليه إلا الله. ثم يقول معها: «وحدَه لا شريك له»؛ أى: وحدَه فى قدرته وتوحيده وحكمه، لا شريكَ له فى مُلْكه من خَلْقه. ثم وكّد ذلك بقوله: «له المُلْك»؛ أى: جميعُ ما أظهر، «وله الحمدُ» فى جميع ما أعْطَى ومنَعَ، يستحق الحمدَ كله؛ فهو لا يستحقه غيره، «وهو على كل شىء قديرَ»، أى: من الخلق والأمر.

فالقدرةُ كلُّها له والخلق كلُّه له، يحكم فى خلقه بأمره ما شاء كيف شاء. ومثْل الأواسط مِثْل الآلة بيد الصانع. ألاَ ترى أنه لا يقال: الشَّفرةُ حذَت النعل، ولا: السّوطُ ضربَ العبدَ، إنّما يقال: الحذّاء حذَّ النعل، وفلان ضربَ عبدَه بالسوط. وإن كانت هذه الأواسط مباشرةً للأفعال، إلا أنها آلة بيد صانعها. وكذلك الخليقةُ

يباشرون الأسبابَ فى ظاهر العيان، والله من ورائهم محيطٌ، القادرُ الفاعلُ بلطائف القُدْرة وخَفايا المشيئة. ألم ترَ إلى قولهم: الأميرُ أعطانى كذا، وخلَع علىَّ كذا؟ وإن لم يناولْه بيده، ولا يَصلُح أن يقول: خادمُ الأمير أعطانى؛ لأجل أنّه جرى على يده، وإن كان باشَر العطاءَ بنفسه؛ إذ قد علم أن الخادم لا يَمْلك ولا يتصرف فى ملك الأمير إلا بأمره، إلا أن يسألَ الإنسانُ: بيدِ من أعطاك الأمير؟ أو: على يد مَن وجَّهَ إليكَ بالعطاء؟ لبغيةٍ تكون للسائل فى معرفة أى عبدٍ جاء به. فيجوز أن يقول حينئذ: بيد عبدِه فلان. فَأَمَّا أن يبتدئ المُعْطَى من غَير أن يُسْأل، إذا أراد أن يُظهر العطاء؛ فيقول: الأمير أعطانى على يد عبده فلان، فإنّ هذا لغو لا يُحتاج إلى ذكر العبد مع ذكر الملِك؛ لأنّ البُغْية إظهارُ العطاء من المَلِك المُعْطِى، فلا معنى لذكر العبد الذى جرى العطاء على يده، فافْهَمْ.

ومن ذلك قولُ النبى ﷺ للرجل الذى ناوله التمرة: «خذها، لو لم تأْتِها لأتتك». والتمرة لا تأتى، ولم يَقُلْ: لجاءك بها رجل؛ إذ لا بُغيةَ فى ذكر ذلك. ومن هذا قولُه ﷺ للرجل الذى قال: أتوب إلى الله، ولا أتوب إلى محمد، فقال: «عرَفَ الحقَّ لأهله».

وإنّما ذكر اللهُ تعالى الأسبابَ؛ لأنَّ الأسماءَ متعلقةٌ بها، والأحكامَ عائدةٌ على الأسماءِ بالثّواب والعقاب؛ فلم يصلح أن لا تُذْكَر؛ فتعود الأحكامُ على الحاكِمَ تعالى عن هذا، أنّه هو يبدئ ويعيد، يبدئ الأحكامَ من الحاكم، ويُعيدها على المحكوم، وهذا هو سبب إظهارِ المكانِ من المواتِ والحيوان؛ لئلا يكونَ تعالى محكومًا وهو الجليلُ الحاكم، ولا يكون مأمورًا وهو العزيز الآمرُ، وتوجَّهتِ الإقامةُ منه قِبَل المأمورات.

ومن هذا قولُه تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فجميعًا عنده وفى خزائنه، إلا أنّه أضافَ الدّنيا إلينا؛ لرجوعِ الأحكامِ علينا، وليزهِّدَنا فيها، وأضافَ الآخرةَ إليه تخصيصًا لها وتفضيلاً؛ ليرغِّبنا فيها.

وكما أخبر عن عيسى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾ [المائدة: ١١٠]، ومثله ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النساء: ٥] فسماه خالقًا إذ خلق اللهُ على يده، وسمَّاهم رازقين لما أجرى على

أيديهم رِزْقَ أهليهم، فهو عندى كقوله لمريم: ﴿وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٥]، وقد علِمَتْ أن الرُّطَبَ لم يتساقط بهزِّها، ولا جُعْل ولا فِعْل لهزّها فى الرطب، ولكن أراد أن يُظْهِرَ كرامتَها، ويجعلَ الآلةَ منه بيدها. ومثلُه: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:٤٢]، فنبعت عينان أشدُّ بياضًا من الثلج، وأحلى من العَسَل، فشرب من إحداهما فَغَسل ما فى جوفه وباطنه من البلاء، واغتسل من الأخرى، فأزَالَتْ ما فى جِسْمه وظاهرِه من السَّقَم والأذى، ولا فِعْل لرِجله فى إظهار العينين؛ ولكنَّ اللهَ تعالى خلَق ذَلكَ على يده، وأجراهُ بوَاسطته، تكْرِمةً له، وآيةً وهَبها لَه. ومن ذلك قولُه تعالى لإبراهيم: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ فجعلَ كيفيةَ إحياءِ المَوتى بيدِه سبحانه بدَعْوَته ﷺ، فكان ذلك جوابًا لمسألة: ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى﴾ [البقرة:٢٦٠] ولا مكانَ له فى الإحياء، وكان اللهُ فى الدعوةِ كيفَ شاءَ، وكذلك المُوقن العارفُ يَنْطق عن الله، فيكون اللهُ تعالى هو المُظْهِر لبيانه، والمُجرى على لسانه، كما كلَّم مُوسى ﷺ من الشّجرةِ، فكان هُو لعبده، وصارت الشَّجَرةُ حجابًا لوَجْده، واللهُ غالبٌ على أمْره. وكما ينطق الرُّوحانىّ من الملائكة على ألسنة النَّبيّين، وينطق الجِنانىُّ من الأزْوَاجِ على ألسنةِ المَجانين، واللهُ مِن وَرائِهم مُحيطٌ.

وقد قال الرسول ﷺ: «أَصْدَقُ كلمةٍ قال الشَّاعِرُ: أَلا كُلُّ شىءٍ ما خلا اللهَ باطلُ»، وهو يعلم ﷺ أنّ فى الأشياء أوَاسطَ حقٍّ، وأسبابَ صِدْق، ثم لم يمنعه ذلك أن قال: أَصْدَقُ بيتٍ قالَه الشّاعر كذا، إيثارًا منه للتّوحيد، وتوحيدًا للمُتَوَحِّد، هذا مع قرب عهدهم بتكذيبِ الرُّسلِ، وإبطالِ الكُتُب. ولكن لما كانت الأشياءُ بعدَ أن لم تكن، ولا تكون بعد أن كانت، أشْبهَت الباطلَ الذى لا حقيقةَ له أوَّلية، ولا ثباتَ له آخرية. وكان اللهُ تعالى الأوّلَ الأزلىَّ الآخرَ الأبدىَّ؛ فهو الحق ولا إله سواه.

ومَثَلُ الأسبابِ ـ أيضًا ـ فى ثوانيها وأوَاسِطِها إلى جنبِ الأوّلِ المسبِّب مَثَلُ ما يقول فى القرآن: قال الله كذا. ولك أن تقول: قال نوحٌ وقال يوسفُ كذا، فكلٌّ

صواب. فإذا قلتَ: قال اللهُ سبحانه وتعالى، فهو القائلُ الأوّل قبلَ القائلين، متكلِّمًا بوصفه مُخْبِرًا عن علمه، بغيرِ وقتٍ لموْقتٍ، ولا حدٍّ لمحدودٍ، ولا حدَثان. وإن قلتَ: قال صالحٌ، وقال شعيبٌ، فقد قالوه، بأنّهم ثوانٍ في القول وأواسطُ به. قالوا ذلك عنه، بحدوث أوقاتٍ، وظهورِ أسبابٍ. كذلك الأسبابُ فى أواسطها هى ثوانٍ عن الأوّلِ المبدئ.

ومن ههنا، وفى مثله، دخلت الشُّبْهةُ على المبتدِعين، فقالوا بخَلْقِ القُرآن. فلو لم يدخل عليهم إلا إنّهم جعلوا قول القائلين قبل قولِ الله أحكمِ الحاكمين، فأثبتوا قبل قولهِ قِيلاً، وهو القولُ منهم لنفْيِهم قِدمَ الكلامِ، فوقعوا بجَهْلهم فى أعظمِ مما هرَبوا منه؛ لأنّهم هربوا من إثبات قديم آخَر، بزَعْمِهم؛ فوقعوا فى إثباتِ حَدَثٍ أوّلاً، وإحداثِ قِدَمٍ ثانيًا. تَعالى اللهُ عمّا يقولُ الظّالمون الملحِدُون فى أَسْمائِه وصِفاتِه عُلوًا كبيرًا، وسبحانه بكرةً وأصيلاً.

ولم يعلموا بجَهْلهم أنّهم إنّما قالوه بعد قوله، فصار قولُهم عن قولِه، وكان هو الأوّلَ فى القول، من حيث كان هو الأوّلَ بالقِدَم، والسابقَ بالعلم، وصاروا هم ثوانىَ فى المقالِ، من حيث كانوا حوادثَ من الأفعالِ.

فكذلك أيضًا تَدْخُل الشبهةُ على الغافلين من ضَعْفِ اليقينِ لشُهود المانعين والمُنْفقين أوائلَ فى الفعل، من قِبَلِ أنّ اللهَ تعالى أظهرَ العطاءَ والمنعَ بأيديهم، فشَهِدُوهُم مُعطين مانعين؛ لنقصانِ توحيدهم، فأشركوا فى أسماءِ الله كما أشركَتِ المبتدعةُ فى صفات الله عز وجل أَنْ حُجبوا عن شَهادة سَبْقِ عِلْم الله، كما حُجبَ الزّائغون عن حقيقة توحيد الله تعالى، إلا أنّ شرْكَ الزائغين ضلالٌ يَنقُل عن الملّةِ، وهو شركٌ جَلىٌّ، وشركُ ضُعفاءِ اليقين غَفْلةٌ وجَهْلٌ عن الملّة؛ لأنّه شِرْكٌ خَفِىٌّ.

وحُكِى أنّ بعضَ العلماءِ صلّى خلفَ رجلٍ، فلما انفتل الإمامُ نظر إليه فى زىٍّ غيرِ مُتكسِّب، فقال: يا شَيْخ مِن أين تأكل؟ فقال: اصبر حتى أعيدَ الصَّلاةَ التى صليتُها خلفَك، ثم أجيبك.

وحدثونا فى معناه عن آخرَ: أنّه لزِم العكوفَ فى المسجدِ، ولم يكن ذا مَعْلُوم مِن عيش، فقال له الإمامُ الذى يصلّى بالناس: لو تكسَّبتَ وتعيَّشْتَ كان أفضلَ

لك. فلم يجبه. فأعاد عليه وقتًا آخر نحو ذلك، فقال: يهوديٌّ فى جوار المسجد قد ضَمِن لى كلَّ يوم رغيفين، فقنعتُ بذلك، وتركتُ التكسُّب. فقال الإمام: إن كانَ صادقًا فى ضمانه، فإنّ عكوفَك فى المسجد خَيْرٌ لك، فقال له الرجل: يا هذا، أنت لو لم تكن إمامًا للمسلمين تقوم بينهم وبين الله لنَقْص توحيدك كان خيرًا لك.

وقد كان إبراهيمُ الخَوّاصُ يقول: ليس على العَبْدِ إلا أن يتقى الحرامَ من خشية الله، وعلى الله أن يسوق إليه الحلالَ، قال: ولا يَصلُح تركُ الحرامِ إلا بتركِ الشُّبُهات التى تُخرجه إلى أخْذِ الحرامِ.

قال: وهذا هو التوكُّل اللازمُ المُتعبَّدُ به العمومُ المُوَحّد بفَرْضِ الصَّبْرِ عن الحرام؛ لِئَلا تَغْلِبَ العَجلةُ صبرَ العبدِ فى أخذ الحرام، حتى يُخرجَ اللهُ تَعالى إليه المضمونَ من أماكنهِ؛ إذْ كانوا لا يَسْلَمُون فى الحركةِ فيه، فهؤلاء أعْرفُ بأماكنه وأقدر على استخراجه(١). وفى قوله تَعالى: ﴿وَعَلَى الله فَلْيَتَوكَّل المُتوكِّلُون﴾ [إبراهيم: ١٢] قال سعيد بن جبير: يعنى المصدِّقين للهِ تعالى فيما وَقَع تصديقُهم به من الوَعْد والوعيد.

قال إبراهيم: فهذا النّدبُ من اللهِ بالعُموم، إذْ دعاهم إلى موْضعِ الفضل والشرف باستعمال التوكُّل المخْصُوص لِئَلا يُقيمُوا على حالِهم، ولا يطلبوا الرِّفْعةَ عنها، ولا الانتقالَ منها، يعنى: فيكون وقوفُهُم فى حالهم عِلّةً لسكونهم إلى حالٍ، ورِضاهُم به دُون طلبِ المزيد من النّصيبِ من الله فى درجات القُرْب والانتقالِ، فينظرون إلى المَقامِ، أَو يُقْطَعُون بالحال، أو يَسْكُنون إلى الفضْل.

يقول: فندبهُ تعالى المتوكلين من العموم، وبعد إكمال حقِّ التوكّل، وبعد حُسْنِ القيامِ بحُكْمه إلى توكُّلِ المتوكِّلين من خُصوص المقرَّبين، لئلا يَقِفُوا فى حال، ولا ينظروا إلى مقامٍ، فيَحْجُبَهُم ذلك عن القَيُّومِ، ويُؤدِّ بهم ذلك إلى علةٍ تنقصهم كمالَ العُموم.

(١) بعده فى الأصل: «قال مثل هذا الله تعالى بلُطفه، وحُسن نَظَرِه وتدأبُ العمومِ من التوكل المعمُومِ إلى التوكل المخصُوص. وأما المتحرفُون المغبّون».

فالقولُ فى توكُّلِ الخصوصِ عليه فى النّفوس، وفى شأنِ الآخرة بعد أن جعل لهم التوكُّل فى أمور الدنيا، والمضمونِ من أسبابها، كالقول فى زُهْد الزّاهدين فى أعْراضِ الآخرة، بعد أن رُفعُوا من الزُّهد فى أسباب الدُّنيا، فرُفعُوا من مقام الْمُنيبينَ إلى درجات المقرَّبين، لما رُفعوا من الزُّهد فى الدّنيا إلى طلبِ النَّصَب من اللهِ العلىِّ الأعْلى، لا رغبةً فى نعيمِ الجِنان، ولا فى حُظوظِ الأجسامِ، فصارُوا من أهلِ اللهِ بعد أن كانُوا من أهل الآخرة.

قال الخوّاص: وقد حَرَّض النبىُّ ﷺ على هذا التوكُّلِ، ورغَّب فيه، فذكرَ حديثَ ابنِ مسعودٍ عن النبى ﷺ: «عُرِضَتْ على الأنبياءِ وأُمَمِهم» قال فى آخره: «فقلتُ: ربِّى أمتى. فقيل: انظر عن يمينكَ، فإذا بشر كثيرٌ، فقيل: انظر عن يسارِكَ، فنظرتُ فإذا سَوادٌ عَظيمٌ قد سَدّ الأُفُق. فقيل: هذه أمتك، أرضيتَ؟ قلتُ: ربِّى رضيتُ، قال: فإنّ لك سِوَى هؤلاء سَبعين ألفًا يدخلون الجنةَ بغير حِسابٍ ولا عَذَابٍ. فقام عكَّاشةُ بنُ محْصَن، فقال: يا رسول الله، ادْعُ اللهَ أن يجعلَنى منهم. فقال: اللهم اجْعَلْه منهم. ثم قامَ آخَرُ، فقال: ادع اللهَ أن يَجْعَلَنى منهم. فقال: سَبَقَكَ بِها عُكَّاشَةُ. فقال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: إن استطَعْتُم أن تكُونُوا من هَؤُلاءِ فافعلوا. فتذاكَرْنا السَّبعين ألفًا، فقُلْنا: هُم قومٌ وُلِدُوا فى الإسلام فماتوا عليه، فبلغَ ذلك النبىَّ ﷺ، فقال: بل هُم الذين لا يَسْتَرْقُون، ولا يكْتَوُون، ولا يَتَطَيَّرُونَ، وعلى ربِّهم يتوكَّلُون».

قال: فدلّ قولُ النبىّ ﷺ للرّجلِ «سبقَك بها عُكَّاشَةُ» أنّ هذا التوكُّلَ حالٌ عزيزٌ عَظيمٌ، لا يُعْطاه كلُّ أحد، ولا يَسْتَحقُّه. ودلَّ ما قيل للنبى ﷺ: «وإنّ لك سوى هؤلاء سبعينَ ألفًا» أنّهم لم يكونوا مَع مَنْ وراء النّبى ﷺ عن يمينه، ولا عَن شماله، وأنّهم كانُوا مُغَيَّبين مَحْجُوبين، صفاتُهم موجودةٌ، وأعيانُهم مفقودةٌ، يعنى بهذا أن هؤلاء السبعين ألفًا عارفُونَ، فإنّ العارفين مَحْجُوبُون عن العُمومِ، وهم أهلُ التوكُّلِ المَخْصُوص من الخُصُوصِ، الذين ذكروا أنَّهم توكَّلُوا عليه فى شأنِ الآخرةِ، وفى النُّفوس، فهم أَهْلُ اللهِ المُصْطَفَيْن الأَخْيار، من أهْلِ الآخرةِ، حَجَبَهُم لِعزَّتِهم عَن الأبْصارِ.

وحُدِّثْتُ أنّ اللهَ تعالى أَوْحى إلى بعض الصدِّيقين: «أدرِكْ لى لطفَ الفطْنة، وخفىَّ اللطف؛ فإنى أحبّ ذلك. قال: يا ربِّ، وما لُطف الفطنة؟ قال: إنْ وقعتْ عليك ذبابةٌ، فاْعلَم أنى أوْقَعتُها، فسَلْنى أرفعها. قال: وما خفىُّ اللُّطف؟ قال: إن أَتَتْكَ فُولَةٌ مسوّسة، فاعلم أنى قد ذكرْتُك بها».

وهذا الذى ذكرناه من أنّ الله سبحانه وتعالى هو المعطى المانع، الضارّ النافع حيث كان، هو الخالقُ الرّازق كيف شاء، ومَتى شاء، وبمَن شاء. هو فى عُقود عمومِ المؤمنين وفى علِمهم، إلا أنّ فيهم جَهْلاً بالحِكْمة، وغَفْلَةً عن الحاكم، يحيلون ذلك إلى عاداتهم، ويُريدون أن يكون رزقُهم من حيث مُعتادُهُم، أو من حيث مَعْقُولُهم باختيارهم، ومعقولُهم بالعزِّ، والفَخْر، والتَّطاول، والأَنَفة؛ لا على الذّلِّ، والتّواضعِ، والفقْر، والمسكنة. ولا يَكِلُون أمورَهم إلى الله ويرضَوْن بتدبيرِه وتقديرِه؛ أن يرزقَهم كيف شاء، وبيد مَن شاء، فيُؤْثِرون أخلاقَ الجبابرة على أخلاقِ المؤمنين، لبُعْدِهم من مشاهدة اليقينِ، ولاستيلاء أخلاقِ النّفس عَلَيهم، ثم إنّ نفوسَهم مع عِلمِهم أنّ الخَلْقَ والأَمْرَ كلَّه لله عزَّ وجلّ، وأنّ الحمدَ والملكَ له ـ قد تطمعُ فى غيرِ الله، وترجو سواه، وقد تَضْطَربُ بجبلّتها عند أثقال الحقائق، وقلوبهم لا تطمئن بل تَنزعج عند الابتلاءِ بالمصائب والفاقات، ولا تصبر للخالقِ، وإنّ ألسنتَهُم قد تسبقُ بالمدحِ والفرحِ مع رؤيةِ الأواسط، أو بالذّم والأسَى على فوتِ العَطاء؛ لوجود الغَفْلة، وذهابهم عن مشاهدة ما يعلمون. فهذا دليل نَقْصِ توحيدِهم، وضَعْف يقينِهم، وأنَّ مَعْرفَتَهم معرفةُ سمعٍ وخَبرٍ، لا معرفةَ شهادةٍ وخبر، وقد شرَكهم الموقنون بتسليمِ ذلك لله فى العلم والقُدرة، وإثباتِ الأواسط والأسباب للحُجج والمحَجَّة بمجارى الحكمة وإيقاع الأحكام، وتفصيل الحلال والحرام، وعودِ الثّوابِ والعقابِ على الخليقة، ولكن زادُوا عليهم بحُسْنِ اليَقين، وقُوَّة المشاهدة، وجميلِ الصّبرِ، وحقيقةِ الرِّضا؛ فسكنَت القلوبُ، واطْمأنَّت النُّفُوس عند النَّوازلِ والبؤس، وثَبَتُوا فى الابتلاء؛ لشُهود المُبْلِى، يُدبِّرُ الخَلائِقَ كيف شاء، فحصَل لهم مَقامٌ فى اليقين وحال من التوكل ونصيب من الرضا، وخرج أولئك من حقائقِ هذه المعانى ودخلوا فى عمومها، ودخل عمومُ

المؤمنين مع الموقنين فى فَرْضِ التّوكُّلِ، قد جاوَزَهُم الموقنون؛ فارتفعوا عليهم، وعلوا فى فضْله، ووقف العُمُوم ونكَصُوا عن العُلوِّ لقُعود اليقينِ بهم، واستتار غَيْبه عنهم، وحَجْب الأسباب لهم، وسبَقَ المقرَّبُون إلى الفَضْلَ، ويُؤْت كُلَّ ذى فَضْلٍ فَضْلَهُ؛ لأنَّهم المُفْرَدُونَ بالسَّبْق خفافًا لوَضْعِ الأوْزارِ، لمَا اسْتَهْتَرُوا به من الأذْكارِ، كما رُوينا عن المصْطفى المخْتار ﷺ: «سيروا، سبق المُفْرَدُونَ، قيل: من هُم؟ قال: المُستَهْتَرون بذِكْرِ الله، وَضَعَ عنهم الذِّكْرُ أوْزارَهُم، فَوردُوا القِيامةَ خِفافًا». هُم دَرَجاتٌ عِنْدَ الله، والله بصير بما يَعْمَلُونَ.

وقال بعضُ العلماء: احتَجَب عن العُمُومِ بالأسْبابِ، فهم يَرونَها ولا يَرَوْنَهُ، وحجَبَ الأسبابَ بِنَفْسه عن الخُصوصِ، فهم يَرَوْنَهُ ولا يَرَوْنَها.

وهذا المعنى أحدُ الوُجوهِ الباطنةِ من قوله: ﴿**يَمْحُو اللهُ ما يَشَاءُ ويُثْبِتُ**﴾ [الرعد:٣٩] أى: يمحُو الأسبابَ من قُلوبِ الخُصوص ويُثْبِتُ نَفسَه، ويَمْحُو نَفْسه من قُلوبِ الجاهِلين ويُثبت الأسبابَ.

وقد كان إبراهيُم الخوّاص ـ رحمه الله ـ يقول: مَن رَجَعَ عند الشّدائدِ والنوازلِ إلى سَبَب، أو علاج يَسْتَشْفى به، أو حَرَكَة رَهْبَةِ المخلوقين صفتُه، فقد بَرِئَ من مَخْصُوصِ التوكُّل، وبقى مع عُمومه. ثُمَّ وصفَ الخُصُوص من المتوكّلين، فقال: يَنْتَزِعُ اللهُ منها بالتوكُّل شاهَد منافعِ الأشياءِ، ويجعل شفاءَها فى ترْكِها، وفى ذلك يُقال:

عَلِيـلٌ لَيْـسَ يُبْرِئهُ دَواءٌ   طويلُ الصَّبرِ يُضْنيه الشِّفَاءُ
سرائرُه خَوافٍ ليس تَبْـدُو   خفيّـاتٌ إذا بَرِحَ الخَفـاءُ

ثم قال: كانوا له من حيث أراد بِغنائهم عن كُلِّ ما كان لهم من حَظٍّ ومُرادٍ، استقاموا إليه، ولم يَثْبتُوا لشدَّة الهُجوم، لا يَفرحُون ولا يَرُوغون لَمَّا عرفُوه، لم يُريدُوا به بدلاً، ولا يَبْغُون عنه حِولاً، فخصَّهم منه بالوِلاية، وكان هو القائم بهم، والدليل المعْطى لهم كلَّ جزيل، لم يُملِّك غيرَه حفاظهم، ولم يُولِّ غيره أمورَهم، حتى أقامهم فى الشَّرف الأعلى والغايات من الذُّرى، فأظهر عِلْمَهم ما

به أكرمَهُم، وما أقام من أعلامهم، فأكرمهم بمُلْكه، وشرَّفَهم على جميعِ خَلْقه، وحَمَلَهم فى ذلك بتَوْحيدِهِ إلى تَوْحيده، مُشْرِفٌ على خلْقِه يرى مقامَهُم، وجَعَلَهم فى حِصْنِهِ وراءَ حُجُبِهِ، وخلا بهم فى غَيْبه، ثم أظْهَرهم من حيث لا يُرَوْن، فكانوا مع الخَلْق بحيث لم يكونوا. غابوا عن الأوْهامِ؛ وعُيونِ الناظرين. عظُم خطَرُ ما أوصلهم إليه، وجَلَّ قدرُ ما حَمَلَهم عليه، وعظُمَتْ مَنزلتُهم لَدَيْه. فيا طيب عيشٍ لو عقَل، ويا لَذَّةَ وَصْلٍ لو كَشَفَ، ويا رفعةَ قَدْرٍ لو وَصَفَ. ثم أنشد الخَوّاص يَصِفُهم، وغيرُه أيضًا[1]:

معطَّلَةٌ أجسامُهم لا قلوبُهم ... همومُهم بالله فى السرِّ قد تَسْرِى
نفوسُهم عن كلِّ لهوٍ وزينةٍ ... مُحجبةٌ ما إن تَرِدْ إلى أمرِ
رؤوسُهم مكشوفةٌ فى بلادهِ ... وهم بلطيفِ البِرّ أسبابُهم تجرى
فهم أمناءُ الله فى كلِّ أرضه ... ملوكٌ كرامٌ فى البوادى وفى البحرِ
عُدولٌ ثِقاتٌ فى جميع بلاده ... أصحُّ عباد الله مَعْ دقَّة الفكرِ
فيا حسرةَ المحجوب عن قُرب ربِّه ... بأدناسِه فى نفسه وَهْو لا يَدْرى
هنيئًا لِمحبُوبٍ يُحبُّكَ سيِّدى ... بِشاهدةٍ بالحُبِّ بالقَلْبِ والفِكْرِ

كانت الأبيات مُضطربة، فقوَّمتُ بعضها، وحذفْتُ منها شيئًا.

وحدَّثونا عن سَرى السَّقَطى قال: ثلاثٌ يَسْتَبِين بهِنَّ اليقينُ: القيامُ بالحقِّ فى مواطن الهَلَكَةِ، والتّسليمُ لأمْرِ اللهِ عند نزولِ البلاءِ، والرِّضا بالقَضاءِ عند زَوالِ النّعمة.

وقال يوسفُ بن أسباطِ قبلَهُ: كان يقال: ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه استكمل إيمانَه: من إذا رَضِى لم يُخْرِجْهُ رِضاه إلى باطلٍ، وإذا غَضِب لم يُخْرِجه غضَبُه عَن حَقٍّ، وإذا قَدر لم يتناول ما ليس له. وقد رُويناه مُسْنَدًا.

(١) الأبيات وردت فى الحلية، فى ترجمة إبراهيم الخواص، ١٠/٣٢٨. وهى تختلف فى رواية بعض الألفاظ، وترتيب الأبيات، وزيادة بيت فى الحلية.

فهذه أَوصافُ المتوكِّلِ، لا يَصحّ التوكُّلُ بفَقْدها، وهى علامَةُ حُسْنِ اليَقين، وبها يثبتُ مَقامُ اليقين.

وكذلك رُوينا فى أخبار داوُد عليه السّلام، أنّه قال لابنه سليمان ﷺ: «يا بُنىّ، تُسْتكمل تَقْوى العَبْد بثلاثٍ: حُسن توكُّلِه فيما يأتيه، وحُسن رضاه فيما آتاهُ، وبحُسنِ صَبْرِه فيما فاته».

• ذكر تفصيل التكسب والتصرف فى المعايش والحركة:

ولا يضرُّ التّصرُّف والتّكسُّب لمن صَحَّ توكُّلُه، ولا يَقْدَح فى مقامه، ولا ينقص من حاله، إذا أحْكَمَ معنيين: النظر إلى الوكيلِ فى أوّل الحركة، فيكون مُتحرِّكًا. والرِّضا بالحُكم بعد التَّصرُّف، فيكون مُطْمئنًا إليه.

قال الله سبحانه: **﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾** [النبأ: ١١]. وقال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾** [الأعراف: ١٠].

ورُوى عن النبى ﷺ: «أحل ما أكلَ العبدُ من كَسْب يده، وكلُّ بيع مبرور».

وقد كان الصّانعُ بيده أحبَّ إليهم من التّاجر، والتاجرُ أحبَّ إليهم من البطّال. وقال ابن مسعود: «إنّى لأكره أن يكونَ الرجلُ بَطّالاً، ليس فى عمل دُنيا، ولا فى عمل آخرة».

ولأنّ التوكّلَ من شَرط الإيمان ووَصْفِ الإسلام، قال الله تعالى: **﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾** [يونس: ٨٤]. فاشترط فى الإيمان به، والإسلام له، التوكّلَ عليه. فإن كان حالُ المتوكّل التصرفَ فيما قد وُجِّه فيه، ودخل فى الأسباب، وهو ناظرٌ إلى المسبِّب فى تصريفه، مُعتمدٌ عليه، واثقٌ به فى حركته، متُسبِّب فيما يُقَلِّبُهُ فيه مَولاه، متعيِّشٌ فيما يُسَبِّبُه له ويوجهه فيه مُوَكِّلُه، عالمٌ بأن اللهَ قد أَوْدع الأشياءَ منافعَ خَلْقه، وجعلها خزائن حكْمته، ومفاتيحَ رزْقه، مجتمعُ القَلْب بجامعه، غَيْرُ مشتَّت بتفرُّق هَمِّه. ويكون ـ أيضًا ـ مُتَّبعًا للسُّنَّة والأثر، تاركًا للتَّرفُّه والتَّنعُّم. فهو فى تكسُّبِه وتَصرُّفه أَفْضلُ مِمَّن دَخلت عليه العِلَل فى تَوكّلِه فساكَنها، وسكَن إلى سُكون نفسه فى بَطالَتها وفَراغها من

هَمِّ الآخرةِ؛ طلبًا لراحَتِها.

وقد ذُكِر لنا عن بعض العلماء أنه رؤى يطحن برجله، وكان قد تَرَكَ العملَ أربعين سنة، فقيل له: دخلتَ فى التكسبِ بعد أن كنت قد تركْتَه؟! فقال: يا هذا، إذا عُدِمْنا عزّ التوكل لم نصبر على ذلِّ الاستشراف.

فكذلك الأمرُ فيمن دخلَتْ عليه الآفةُ فى تَرْكِ التكسُّب، فَلْيَخْرج منها إلى الاحتراف، ومن دَخل عليه اليقينُ فاقتطعه، فَلْيَقْعُد عن الاكتساب، ومَن اعْتُلَّ بالتكسُّبِ فليتداوى بتَرْكِه، ومَن صَحَّ فيه وأوجبه الحكمُ عليه فليتكَسَّب.

حُدِّثتُ أنَّ بعضَ أهلِ المعْرِفةِ كان فى بُدوِّ أَمره قَطَّانًا، فلمّا دخَل فى طريقِ الآخرةِ تركَ السُّوقَ، ولزِمَ البيتَ ثلاثين سَنَةً، أو ما شاء اللهُ من ذلك. ثم خَرَجَ إلى السُّوقِ، فأخذَ فى معاملةِ النِّسْوانِ، والأخذ والإعطاء لهُنّ. فقيل له فى ذلك. فقال: لمّا اعتلَلْنَا بِهِنَّ قَعدنا فى البيت، فلمّا صَحَحنا مِنْهُنّ لم نُبالِ بمعاملَتِهِنَّ، قد استوى عندى الرِّجال والنِّساء. أو كما قال، على نحو هذا المعنى رسمتُه حفْظًا.

والتكسُّب خيرٌ من الاستشراف إلى الخَلْقِ، ومن الطَّمع فيهم، أو اعتياد المسألة، وسالك على طريقٍ فهو يصل، وإن كان فى طريقه بُعْدٌ.

والتوكّلُ لمن أُقْعِد به، واقْتُطِع عن أَرَبِه، ناظرًا إلى الوَكيلِ، أفْضَلُ، منتظرًا للواردِ، مُتَفَرِّغًا للفوائد، إذا صَحَّ فى ذلك، وصَدَقَتْ حَالُهُ، واستقام قَلْبُه، لفراغِ قَلْبِهِ من الخَلْقِ، وشُغْلِه بالخالقِ. وهو طريقٌ قريبٌ، وسالكُه مُقَرَّب.

وكان شيخُ المتوكلِّين، رحمه اللهُ، يقول: إلى كم يُدْخِل العبدُ بينه وبين نفسه غيرَ الله الذى هو أملكُ بها منه، وإلى كم يُملِّك المخلوقين رِقَّه، ولو صدَقَ المتوجِّهُ فى توجُّهه إلى الله بالتّقدير له لأقطعه مُلكَهُ يَسرح فيه حيث شاء. والعبد [أينما] كان يخصُّهُ ثوبٌ يحميه، وبُرَيدة[1].

وكان يقول: مَنْ صفا من آثاره، وانمَحَت الأسبابُ من أذْكاره وحَيْث حركاته، تحركت الأسبابُ إليه، وأقبلت عليه، وتحول الملك له لصالحه؛ لأنّما تُمنع الحَرَكَةُ

(١) بريدة: تصغير: بُرْدَة، ثوب مخطط، أو كساء يلتحف به.

بالبَطّالين، لبقايا بقيت عليهم من آثارها، عقوبةً لهم؛ لأنه ليس فى الحركة والسّعى لحَظِّ النّفوس وظيفةٌ، ولا تَنْفَعُه عند اللهِ، ولا للهِ فيه شىء، وإنّما هو حظ لِصفَة المتحرك.

قال: ولا يدوم التحرُّك بأحدٍ إلا من بقايا عَلَيه من نفْسه. وأمّا المُرادون بصفات الحَقِّ، بذهاب آثارِ نفوسهم، وفناء شواهدهم، فإنَّ أحكامَهُم أن تجرى الأسبابُ إليهم طلبًا لهم، بما رَفَعَ اللهُ من أقدارِهم، عما هؤلاء فيه ممّا لا ينفكُّون طُولَ أعمارِهم عن ذِكْر أنفسهم، والسّعْى فى حظوظهم، فى صِفَتهم متحركةً أبدًا، ولا يستحق هؤلاء أن يَحْلفُوا بالمَلك، أو بتَحَرُّك الأسبابِ إليهم، ولا يكون مَن يتحرّك الملكُ له، وتطلُبه الأسبابُ، وتُمَلِّكُهُ أَنْفُسَها، كَمَن سَعَى فى أخْذها وساءَ العُمومَ فى طَلَبِها، ولا يتقاربان. هذا نَقْلُ كلامِ الخوّاص، رحمه الله، ومذهبُه فى التوكُّل.

وكان أيضًا مِن هذا المَعْدن يقول: كلُّ مَن كان مع العِلْم، فإنَّ العلم لا يَحْميه، ولا يُزيل عنه شاهدَ نفْسه وصفتَه، ولا يَتَهيَّأ أن يُغْنى من نفسه مخارجَ المطالَبات بالسَّعى، ولا بدَّ له مِن السَّعْى، ليُعطىَ نَفْسَه حَظَّها من الرفاهة، ليَسْتوى فى دراسةِ العِلم، ويصفو له الكلام فيه.

وقال أيضًا: مَن كان مع العِلْم فإنّه لا يَسْتَوحش من مُساكَنة الدَّناءة والأَدْناسِ، والسَّعى مَعهم فى الأسبابِ؛ لأَنّه ليس له حقيقةٌ يُوحَش مَواضعُها له. ومَوْضعُ الرَّغبةِ فى هؤلاء يُعْطى عليهم مَواضع الوَحْشةِ مِن دناءةِ أفعالِهم، وما يلحقهم من الذِّلَّة فى السّعى لأنفسهم. وهؤلاء لا يَصْفون مِن آثارِهم، ولا يقُومُون بحقيقة التَّوحيد، يَزِيدون فى عِلْمِهم، ويَنْقُصون فى سَرائِرهم، ويَقْوى مع مواضعِ الأسْبابِ والفاقاتِ فيهم وعليهم. ظَهَرت عليهم صِفاتُهم، وتتبين أقدارُ الأشياء فى قُلوبِهم، فَعولّوا على الأسبابِ، ولم يَسْتعملوا فى مَحْوِ شواهد الأشياءِ عنهم، ورَفْعِ آثارِها فيهم، ولا رَفَقَتْ لهولاءِ حقيقةٌ تَمْحُوهم، ولا عزيمةٌ تُفْنيهم، حتّى مَلَكَتْهُمُ الأشياءُ، فذَهَبَتْ أعمارُهم فيما لا يَنْفَعُهُم، وحالٌ لا يَحْمِلُ صاحبُها ما يَنتفع بها.

قال: وليس هذه حالةَ فضْلٍ ولا شرف، وإنّما هُم مع صفاتِ المَلْك، لا مع المَوْصُوفِ؛ لأنّهم يَصِفون نُفُوسَهُم وهم قيامٌ أبدًا، لا يزول قيامهم، ولا تذهب أسْماؤهم، ولا تَنْمَحى أذْكارُهُم، فكيف يستوى هؤلاء مَع مَن يصفه الحقُّ بالحقِ، للحَقِّ فى الحق.

هذه حكايةُ طريقةِ الخوَّاصِ، وكلامُهُ فى التوكُّلِ. وهذا لعَمْرى كان حاله، وهو مقامُ الخصوصِ، ولا يَصْلُح العُمومُ بهذا، ولا يُسلَك بِهم ها هُنا، إذ لكلٍّ طريقٍ زادٌ مِثْلُه، وعدَّةُ قربِه وبُعْده، ولَينه وشدَّته، وليس مع العامّةِ زادُ هذا الطريقِ، ولا عندَهم عِدّتُهُ، فكيف يَحْمِلُهُم عَلَيه، أو يَأمُرُهم بِه.

وأمّا التّاركُ للتكَسُّب طَمَعًا فى الخَلْقِ، وترفيهًا للنَّفْسِ، وإيثارًا للرّاحةِ والبَطالة، أو حُبًا للهَوى، فليس هذا من توكُّل العُمومِ أيضًا فى شىء. والساعى فى هذا على غير طريقٍ، لا قريب ولا بعيد، هو عن المحجَّةِ جائر، ومِن الهوى والقَصْدِ حائر.

كما رُوينا عن النبى ﷺ: «لأن يأخذ أحدُكُم فأسَهُ وحَبْلَه، فيذهب إلى الجَبَل، فَيَحْتطب فيأكل ويتصدّق، خيرٌ له مَن أن يسأل النّاسَ أعْطَوْه أو مَنَعُوهُ».

ولم يقل هذا للمُتَّقين؛ لأنّهم من الأهواء مُصفِّين، ولقَصْدِ السبيل سالكين، ولوجهِ الله عَاملين، وبحُسنِ اختيارِه عالمين، وعن الخليقةِ باللهِ وبرسولهِ مُقْتَطَعِين، وإلى بيتِ اللهِ ومَجْلس نبيِّه مُنْقَطِعين.

وإنّما قال ذلك للشَّحاذ من الخَلْقِ السّائلِ، وللحَائرِ عن قَصْدِ المحجَّةِ المائل، ولمن هو من مقامه مُتَمَسِّك بغيرِ طائل، وللمُغْتَرِّ الطامعِ فى النّعيمِ الزّائلِ.

وقد قال ﷺ فى أوامرِ العُموم: «اسْتَغْنُوا عَن النّاسِ ولو بِشَوْص السِّواك» يعنى بمَضْغِه.

وقال: «مَن يَضمَن لى خَصْلةً واحدةً أضْمَنُ لَه الجنّة: لا يَسأل النّاسَ شيئًا». هذا لمن وَجْدُه الخَلْقُ، وحَشْوُ قَلْبِه العَبيد، بردِّ هِمَمِهِم إلى الله، وتَفرُّغ قلوبهم من الخَلْقِ، وبرفعهم إلى الخالقِ.

وقال بعض علمائنا: من أنكر التكسُّب فقد طعن فى السنّة، ومن أنكر القعودَ عن التكسب فقد طعن فى التوحيد. وقال: بُعث النبىُّ ﷺ إلى الخلق وهم أصناف كما هم اليوم، منهم التّاجر، والصّانع، والقاعد، ومن يسأل الناس، ومن لم يسأل الناس، فما قال للتاجر: اترك تجارتك، ولا قال للقاعِد: اكتسب واصنع، ولا نَهى السَّائلَ على أن يسأل؛ بل جاءهم بالإيمان واليقين فى جميع أحوالهم، وتركَهم مع الله فى التدْبِير، فعمل كلٌّ واحدٍ بعمله فى حاله.

وأخبرنى أَبُو موسى قال: سمعتُ الحسينَ بنَ يحيى يقول: سأل رجلٌ ابنَ سالم: أنحن مُتَعَبِّدُون بالكَسْبِ أو بالتوكُّل؟ فقال: التوكُّل حالُ رسولِ الله ﷺ، والكَسْبُ سُنَّتُهُ. وإنما سَنَّ لهم الكَسْبَ لضَعْفهم، حين سَقَطُوا عن دَرَجةِ التوكُّلِ، وأباح لهمُ طلبَ المعَاشِ بالمكَاسِبِ الذى هو سُنَّتُه، ولولا ذَلك لهلكوا.

وأما ابنُ عطاء فإنَّه كان يقول: ليس التوكُّلُ لزومَ الكسبِ ولا تَرْكَه، إنَّما التوكُّلُ طمأنينةٌ فى القَلْبِ إلى اللهِ.

ولذلك قال أبو عبد الله القرشى فى المتوكّل: إنّما هو اطمأنّ إلى الله سرًا وجَهْرًا، ورضى به كَفيلاً. ونحوه قال دُوَيْم: إنّما التوكُّلُ الثقةُ باللهِ فى كلِّ ما ضُمن على كُلِّ حالٍ.

وقد كان بعضُ المتوكِّلين يقول: مَن لم يصبر على جوع ثلاثة أيام أخافُ أن لا يسَعه تركُ العملِ إذا وجده. وقال أيضًا: مَن فَقد الأسبابَ فضَعُف قلبُه، أو كان وجودُها أسكنَ لقلبه من عدَمها، لم يصحّ له القعودُ عن المكاسب؛ لأنّ فيه انتظارًا لغيرِ الله.

وقال بعض العلماء: مَن طَرقته فاقةٌ تسعةَ أيام، فتصوَّر فى قلبه طَمعًا فى خَلْقٍ، أو استِشرافًا إلى عَبْدٍ، فالسُّوقُ أفضلُ له من المسجد.

وقال أبو سليمان الدارانى: لا خيرَ فى عبدٍ لَزِم القعودَ فى البيت، وقلبُه معلَّق بقَرْعِ البابِ متى يَطْرُق بِسَببٍ.

وقال بعضُ علمائنا: إذا استوى عندَه وجودُ السببِ وعدمُه، وكان قلبُه ساكنًا

مطمئنًا عند العدمِ، لم يشغَلْه ذلك عن الله تعالى، ولم يتفرَّق همُّه، فتَرْكُ التكسُّبِ والقعودُ لهذا أفضلُ؛ لشغْلِه بحالِه، وتزوُّدِه لمعاده، وقد صح له مقامٌ فى التوكل.

وقال سهل ـ رحمه الله ـ وقد سُئِل: متى يصحّ للعبدِ التوكُّل؟ فقال: إذا دخلَ عليه الضرُّ فى جسدِه، والنّقصُ فى ماله، فلم يلتفتْ إليه، ولم يَحزن عليه؛ شُغلاً بحاله، وينظر إلى قيام الله عليه.

وقال إبراهيمُ الخوّاص، وهو إمام المتوكلين من المتأخرين: ثلاثةُ مواطن حَمْلُ الزادِ فيهنّ من آدابِ التوكّل: القعودُ فى المسجد، والركوبُ فى سفينةٍ، وصحبةُ القافلة.

وقال رحمه الله: لا يَنْبَغى للصُّوفى أن يَتعَرَّضَ للقُعود عن الكَسْب، إلا أن يكونَ مَطْلُوبًا، قد أغْنَته الحالُ عن المكاسب. وأما مَن كانت الحاجاتُ صفةً قائمةً؛ كأن يقعُ لَه عُزوفٌ يَحولُ بينه وبين التكلُّف، فالعملُ أوْلى به، والكَسْبُ أَجَلُّ له وأبلغ؛ لأنَّ القُعودَ لا يَصْلُح لمن لم يستغن عن التكلُّف. يعنى أن يكون قد كُفى بالكفاية القاطعة مِن قلبه عن التكلُّف الظاهرِ مِن جوَارِحه، وأن يكُونَ حالُه قوية تَحْمِلُه بالصبّرِ والرِّضا، لا يضعف إلى تَطَلُّعٍ وتَشَرُّف. يقول: فمعلومُ هذا مِن كسبه الذى أُحِلَّ له أَفْضَلُ له مِن طَمعِهِ فى غيرِهِ الذى كُرِه لَهُ.

وقد كان سفيان الثورى يقول: العالمُ إذا لم يكن له معيشةٌ صارَ وَكيلاً للظَّلمَة، والعابدُ إذا لم تكن له معيشةٌ أكل بِدِينه، والجاهلُ إذا لم تكن له معيشةٌ كان سفيرًا للفُسَّاق.

وقال يحيى بن مُعاذ: الناسُ ثلاثةٌ: رجُل شَغَله معادُه عن معاشه، فهذه درجةُ الفائِزين، ورجلٌ شَغَله معاشُه لمعاده، فتلك حال الناجين، وآخرُ شَغَلَه معاشُه عن معاده، فهذه صفة الهالكين.

ورُوينا عن عليٍّ رضى الله عنه: «الرزقُ رزقان: رزقٌ يطلبك، ورزق تطلبه». فسّره بعض العلماء فقال: الرزقُ الذى يَطْلُبك هو رزقُ الغِذاء، والرّزقُ الذى تَطْلُبُه رزقُ التّمليك، وهو طلبُ فُضولِ القوت.

وقال أبو يعقوب السّوسى، وقد كان له مقام مكين فى التوكل: التوكُّلُ على ثلاثة مقامات: عامٌّ، وخاصٌّ عامٍّ، وخاصُّ خاصٍّ، فمَن دخلَ فى الأسباب، واستعملَ العلمَ، وتوكّلَ على الله تعالى، ولم يَتَحقّق باليقين؛ فهو عامٌّ، ومن تَركَ الأسبابَ، وتوكّلَ على الله، وحقّق فى اليقين؛ فهو خاصُّ عامٍّ، ومَن خرجَ مِن الأسباب على حقيقته، لوجود اليقين، ثم دَخَل فى الأسباب، فتصرَّف لغيره؛ فهذا خاصُّ خاصٍّ.

وهذا وصفُ الطّبَقة العُليا مِن أصحابِ رسولِ الله ﷺ العَشَرة، وغيرهم. جَرَّدَهم اليقينُ من الدنيا، فأدخلهم العلمُ فى الأسباب لغيرهم، واتسعوا بالعِلْم على حقيقةِ اليقين.

ولذلك كان الخوّاص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: دُخُولُ الخصوصِ فى الأسبابِ لغيرهم رُدَّتْ عليهم أحوالُ الغير، وجُعِلُوا رازقين لهم، فتصرَّفُوا فيها لأجلِهم، وهم بريئون من التعلُّقِ بها.

وقال: النّاسُ فى التوكُّل على ضربين: طالبٌ له، ومطلوبٌ به. فالمطلوب بالتوكل مُستَعْمَلٌ بحقائقه، مَرفوعٌ إلى أعلى غايته، مُطالَبٌ بالعَمل فى حقِّ نفسه، وذهابِ آثاره بمحوِ رَسْمه وشاهده. والطَّالبُ له توجَّه بالزُّهد، وتركَ الأسبابَ القاطعةَ، وعمِل فى حَذْفِ كلِّ شاغِلٍ يَشْغَلُه، أو يَحُولُ بينه وبين قَصْدِه، فهو مُجْتَهِدٌ فِى الانفرادِ.

وقد كان أبو جعفر الحدّاد ـ شيخُ الجنيد ـ أحدَ المتوكلين، وقال: أخفيتُ التوكُّلَ عشرين سنة، ولا فارقْتُ السوقَ، أكتسبُ فى كل يومٍ دينارًا وعشرة دراهم، لا أُبيّتُ منه دَانقًا، ولا أستريحُ فِيه إلى قيراطٍ أدخلُ به الحمام، بل أُخْرِجه كلَّه قبلَ الليلِ. وكان الجنيد لا يتكلم فى التوكُّل بحَضْرة أبى جعفر، يقول: أستحيى مِن الله أن أتكلم فى مقامه وهو حاضر.

وبلغنى أنّه تركَ العَمل لمّا نظَر إليه الغلامُ الذى كان ينفخُ عَليه الكير، فرآه يُدخِل يدَه فى الكير، وهو يتلَظّى، فيُخرج الحديدَ جَمْرًا، ويردُّه إلى الكير، فغُشى على الغلام، ثم حدَّث به الناس، فكانُوا يتناوبُونه، ينظرون إليه، فتركَ الصَّنْعة.

وبلغنى فى سبب هذا شىء ظريف، أنّه سُئِل: بأىِّ شىءٍ نلْتَ هذه المنزلة أن لا تحرقك النار؟ فقال: بدعوة فاسقٍ. وكان هذا أعجب. قيل: كيف؟ قال: وجدتُ مع أهلى رجُلاً ففزِعَا منِّى فزعًا شَديدًا، فأخذتُ بأيديهما وقلتُ: اخرجا بسلام، فقال لى الرجل: جعل اللهُ عليك النارَ بَرْدًا وسَلامًا. فهذا من إجابة دعوتِهِ بستْرِى على مسلم[١].

وقد شرط النبىُّ ﷺ للعطاء ترْكَ المسألةِ والاستشراف إلى الخَلْقِ، تنزيهًا للفقراء، وردًا لهم إلى الله تعالى؛ لأن فى مسألةِ العبدِ الفقيرِ ذُلاً ذليلاً، وحرصًا على الدّنيا جليلاً، وفى الاستشراف إلى العبيد طَمعٌ فى غَيرِ مَطمع، ونظرٌ إلى غيرِ الله، وإتيانُ البيوت من غيرِ أبوابها. ومنه ما رُوِى عن النبى ﷺ: «مسألةُ الناس من الفواحش، ما أُحلَّ من الفواحش غيرُها». وقال ﷺ: «من استغنى أغناه اللهُ، ومن استعفَّ أعفَّه الله، ومن فَتح على نفسه بابَ مسألة فتح الله عليه بابَ فقر».

فكأنّ الفقراء الصّادِقين جُعل لهم أخْذُ العطاء، بل نُدبوا إلى قبوله عوضًا لهم من المسألةِ والإلحاف، فلما مُنعوا من الاستشرافِ والسؤالِ تنزيهًا لهم وتفضيلاً، جُعل لهمَ هذا العَطاء تَعْويضًا، فَمَثلُهم فى ذلك مَثَلُ أهلِ البيت: جُعِل لهم خمسُ الخُمس مِن الغنائم؛ لما حُرِّمت عليهم الصدقة، تَفْضِيلاً لهم وتشريفًا.

وقد كان أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ أمر أبا بكر المروزى أن يُعطِىَ بعضَ الفقراءِ شيئًا؛ فيه فضل عمّا كان استأجره عليه، فردَّه، فلما ولَّى قال له أحمد: الحقه، فادفعه؛ فإنه يأخذه. قال: فلحقه المروزى فدفعه إليه، فأخذه، فسأل أحمدَ عن ذلك: كيف رد فى الأوّل، وأخذ فى الثانى؟ فقال: إنّه كان قد استَشْرَف لذلك فردَّه، وقد أحسن، فلمّا انصرف أيِسَتْ نفسُه منه؛ فلذلك قَبلَ.

وقد كان الخوّاص إذا نظر إلى عبدٍ فى العطاء، أو خاف اعتيادَ النفسِ له، لم يقبل منه شيئًا.

---

(١) فى هذه القصة نظر، وإن صدقت فهى ليست مطردة، فالأمر مرده إلى الشيخ أبى جعفر لا إلى الفاسق. وهذا التأويل من تواضع الشيخ.

حدّثنى شيخ عن رجلٍ دفَع إليه ديناراً بمكّة، وهو لا يعرفُه، فَقَبِلهُ. فلمّا كان الغد، رأى حوله جماعة من الفقراء، فسأل عنه، فقيل: إبراهيم الخوّاص، فجاءه بالتِّسعةِ الآخرة، وقد كان أعدَّ العَشْرَةَ له، فلم يقبل.

وكان يقول: صُوفى لا يكون محترفًا.

وهذا كلّه يَحْسُن فى حال المنفرد.

فأمّا ذو العيال، فالأمرُ عليه أوسَعُ من ذلك، فلا بأس أن يأخذ لأجل عيالِه، كما يأخذُ لأجل غيرِه من الناس؛ لأنّ عيالَه عيالُ الله عنده، قد وكّله بهم، وأجرى أرزاقهم على يده، فإن طلب لهم، وحَثَّ على استخراج حقِّهم ممّا أوجب الله تعالى لهم، لم يَنقص ذلك من حاله، بل كانَ مَزِيدًا له، وفضْلَ معاملة، بعد أن يكون نيَّتَه فى ذلك الأجرُ والمعاونةُ على البرِّ والتّقوى للفريقين معًا، إذا كان واضعًا للمَعْروفِ فى أهلِه، ومُستَخْرِجًا له مِمّن أوْجَبَهُ اللهُ عليه.

وفى الخبر: «ما مِن عَمَلٍ أفضلُ من أن يَأمر العبدُ بصَدَقة فى ذى رَحمه»، وأقامهم مقامَ عيالِ غيرِه من المسلمين، فهم حينئذٍ أوجبُ؛ لأنّه مفترَضٌ، وكان عند بَعْضِهم نافلة.

وقد كان من سيرة السلف أن يقومَ ذو السَّعةِ منهم بأهلِ بيتٍ من المُسلمين، وأهْلِ بيْتَين وثلاثةٍ إلى العشرة أهل أبياتٍ، فكأنه قد قام بأهلِ بيتٍ من الفقراءِ، فهؤلاء أفضل كفضل الفَرْضِ على النّفل. وقد آخى رسولُ الله ﷺ بين سعد بن الربيع، وبين عبد الرحمن بن عوف، فقال له سعد: أشاطرك مالى وأهلى، فقال عبدُ الرحمن: باركَ اللهُ لك فى أهلِكَ ومالك، دُلُّونى على السُّوق، فعَمِل يومَه ذلك، فراحَ بشىءٍ من سَمن وأقط.

فلو كان التكسُّب فى الأسواقِ يُنْقِص التوكُّلَ، لم يَخْتَر عبد الرحمن ـ وهو إمام الأئمة ـ ما ينقص توكلَه؛ ولكنه أحبَّ إدخالَ المشقة على نفسه، وكَرِهَ التنعُّم، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «إياك والتنعُّم؛ فإنّ عبادَ اللهِ لَيْسُوا بالمتنعِّمين».

ورُؤى فضالة بن عبيد أشعثَ أغبر حافيًا وهو أمير مصر، فقيل له: لِمَ أنت

هكذا؟ فقال: إنّ رسول الله ﷺ نهانا عن الإرفاه، وأمرنا أن نَحْتفى أحيانًا.

ثم اختار عبدُ الرحمن أيضًا إيثارَ أخيه بما آثره به؛ رعايةً لحق أُخُوَّته؛ ولأنّ الله تعالى قد ندبَ إلى الإيثارِ، ووَصَفَ به الأحبابَ.

وأعلى من عبدِ الرحمن مقامًا إمامُ الأئمة أبو بكر الصديق رضى الله عنه، لما بُويع بالخلافة أخذ الأثوابَ تحت إبطه، ودخَلَ السوق ينادى. هذا فى أتم أحواله، حين أُهِّلَ للخلافة وأُقيم مقام النبوّة، حتى اجتمع المسلمون، فكرِهوا له ذلك ومنعُوه منه، فقال: لا تَشْغَلونى عن عيالى، فإنّى إن أضعتُهُم كنتُ لما سواهم أضيعَ، حتى فَرَضوا له قوتَ أهل بيتٍ من المسلمين، لا وَكْسَ ولا شَطَطَ، فلما رضوا جميعًا بذلك، واتَّفقُوا عليه، تَركَ السُّوقَ؛ لشُغْلِه بأمورهم.

أَلا تراه كيف آثَرَ القيامَ بحُكْمِ الله تعالى عليه، وبحقِّه، وما أوجبَ الله عليه لأهله؟ وكان ذلك هو عِلْمَ حَالِه، ومُقْتَضى عِلْمِه، وتواضع لله فى حال رِفْعَته، وأسقطَ الخَلْقَ عن عَيْنِه، ودخَلَ فى تَسبُّبِ المعاشِ، بعد أن كان خرجَ منه، وأخرجَ الأسبابَ عَنه، حتى كَرِه الصحابةُ ذلك، وأجمعوا على تَرْكِه، فانتقل من الحُكْم الأوّلِ إلى الأمْرِ الثّانى بحُكم حاكمٍ أوْجبَه عليه، بتَصْريف الوكيلِ على توْكيله فيه، فكذلك وَصَفَ المتوكّل أنّه ناظرٌ إلى الوَكيلِ فيما يَحْكُم، مُسْتَعْملٌ لعلمه بعَمله فيما يرسم؛ يكونُ مع حُكم الأولِ الذى هو مقتضى حاله، إلى أن يَرِدَ عليه من وَكيلِه حكمٌ ثانٍ، يصيرُ مقتضى وقتٍ آخرَ، فيدخلَ فيه بحُكْم حاكمٍ، وشهادة شاهدٍ، ويتلوه شاهدٌ منه، لا يقعد عن الأحكام لنفْسٍ، ولا يدخل فى الأسباب بِنَفسٍ، ولا يترك التكسُّب لخَلْقٍ، ولا لأجل شَهْوَةٍ خفيَّة، ولا عن رَغْبةٍ سَرِية، كما لا يتكسّب لمتعةِ النَّفْس بالهوَى، ولا حِرصًا على الدُّنيا، وقد كان بعضُ علماء السلف يجمع إليه الناسَ للكلام عليهم، فكان يقول: لو أعلم أنّ أهلى يحتاجون إلى باقة بَقْلٍ ما تكلَّمْتُ عليكم.

ففى هذا بيانٌ وبرهان لمن لم تستهوِه الأهواءُ فى إنكار التكسب على أهل التوكل؛ إن أَوْجَبت ذلك الحال، فينكر عليهم احْتجاجًا لنفسه، واعتذارًا من بطالته، وجَهْلاً بِحكْمة ربِّه، وتَرْكًا للعِلْمِ المتُعَبِّد به. ولا يسع العلماءُ فى الدِّين إلا

البيانَ وكشفَ حقيقةِ العلمِ بالبرهان؛ ليَهْلك مَن هَلَك عَن بَيِّنة، ويَحيى مَن حَيَّ عَن بيِّنة.

والتوكّلُ خُصوصٌ، وعُمومٌ. فخُصوصُه للمقرَّبين موجبٌ للهداية السَّابقة لهم من مقام النَّبيين. وعُمومُه لأصحابِ اليمينِ ميراثُ المجاهدة فى الله من مقام الصالحين. قال الله فى خُصوصِه: ﴿ومَا لَنا ألاَّ نَتوكَّلَ عَلَى الله وقَدْ هَدَانَا سبُلَنَا﴾ [إبراهيم:١٢]، فبنورِ هذه الهدايةِ النبويةِ رأوا الوكيلَ، فعليه توكّلوا، فألحقهم بالرفيقِ الأعلى إلى مقامهم. وقال فى عُمومه: ﴿والَّذين جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُم سبُلَنا﴾ [العنكبوت:٦٩]، فبهدايةِ السبيلِ نجّاهم من كُلِّ تَهلُكةٍ وتَضْليل.

وقد قَرَن اللهُ تعالى الرِّزْق منه بالنُّصرةِ لهم، يُنَبِّه بذلك أنّ التوكُّلَ عليهم فى الرِّزْقِ نُصْرةٌ من الرَّزاقِ، فقال: ﴿أمَّنْ هذا الَّذى هُو جُنْدٌ لَّكُم يَنْصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك:٢٠]، ﴿أمَّنْ يرْزُقُكُمْ إنْ أمْسَكَ رِزْقَه﴾ [الملك:٢١].

فأفضل النّصرة من النّاصر حُسنُ التوكل عليه؛ لأنّه هو الوكيلُ الحاضرُ، وهى نصرةُ الأنبياء: ﴿فكيدُونى جَميعًا ثُمَّ لا تُنْظرُون * إنِّى تَوكَّلْتُ عَلَى الله﴾ [هود:٥٥ـ ٥٦]، ﴿فاتَّخِذْهُ وَكيلاً * وَاصْبِرْ عَلَى ما يَقُولُون﴾ [المزمل: ٩ ـ ١٠]، ﴿إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والَّذين آمَنُوا﴾ بحُسْنِ اليقينِ وصدقِ التوكُّلِ ﴿فى الحَياة الدُّنيا ويَوْمَ يَقُومُ الأشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أن لَّن يَنْصرَهُ اللهُ فى الدُّنيا﴾ بحَقيقة الإيمان وعين الإيقانِ ﴿والآخرَة﴾ بالفوْزِ بالجنان ومنازلِ الرِّضوان ﴿فَلْيَمْدُدْ بسَبب إلى السَّماء﴾ بحبلٍ إلى سَقْفِ البَيْتِ ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ الحَبْلَ، فيقتل نفسه ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ فكرُه وحيلتُه ﴿ما يَغيظُ﴾ [الحج:١٥] قَلْبَه من الخِذْلان له، والتّخلية من النّصرة، ومن الوِلاية، فهذا خبر المُبعَدين المطرودين من خُصوص التوكُّلِ وعُمومه، نعوذ بالله من مَقْته وغَضَبه.

وكان من دعاء الرسول ﷺ: «أسألكَ حُسْنَ اليقينِ بِكَ، وصدقَ التوكُّلِ عليكَ، وحُسْنَ الاختيارِ والتَّوفيقِ لما تُحِبُّ».

وكان إبراهيم بن أحمد الخوّاص رحمه الله يصف خُصوص المتوكلين بهذه الخِصال، ويقول: هى أخلاقُ أهلِ التوكّلِ. وقد ذكرها قبله إمامُنا فى هذا العلم من أبى محمدٍ رحمه الله بَدَل عنه، وهو شقيق بن إبراهيم البَلْخى، فجعلها من صفات الأولياء، ونعتَ بها العارفين، وقد ذكرناها فى غرائبِ الأخبار مسندةً، وفيها مرفوعة نَظَر.

فقالوا فى صفات الأولياءِ والمتوكّلين: كانُوا بوعدِ الله مُطْمئنين، وكانوا من الخلْق آيسين، وكانت عداوتهم الدّنيا والشّياطين، فكانوا بأمرِ الله مستعملين، وكانوا على الخلق مُشفِقين، وكانوا لأذى الناسِ مُحتمِلين، وكانوا فى مواطِن الحقّ متواضعين، وكانوا فى مواضعِ العداوةِ لا يدعُون النّصيحةَ لجميع المسلمين، وكانوا بمعرفةِ الله مستقلّين، وكانوا بالرِّضا فيما قلّ أو كثُر وأحَبُّوا وكرهوا عن الله تعالى سواء، وكان الفقرُ رأسَ مالِهم، وكانوا الدهرَ على طَهارةٍ.

وقال بعضُ العارفين: مِن حقيقة التوكّل أن يتركَ العبدُ مَحابّه لمحابِّ الله، واختيارَه لاختيارِ الله تعالى، وتَدبيرَهُ لتدبيرِ الله؛ بالغناء عن نفسه، والنظرِ إلى مجارى الأحكامِ، ولا يكون الهمُّ داخلاً على أهلِ التوكُّل؛ لأنهم لا يُحرِّكُون بهَمِّه الدّنيا ولا اهتمامَ لنفسٍ. ومقامُ الهمِّ فيهم خرُوجٌ مِن حُدودِ التَّفويضِ والتوكُّل، ورُجوع إلى النّفسِ، ومراد اللهِ من خَلْقِهِ مُساءَلته اختياره والرِّضا به.

ولعَمْرِى إنّا قد رُوينا عن الله سُبحانه: «ما لأوليائى والغَمّ، إنَّ الغمَّ يَمُصُّ حلاوةَ مُناجاتِى من قُلُوبِهم، مُرادِى من أحِبّائى أن يكونُوا رُوحَانيِّين، لا يَهْتَمُّون بقَصْدِى، ولا يَهْتَمُّون للخَيْرِ[1] إذا قَصَدنى».

وقد كان ابنُ معاذ يقول: من قصَدَ إلى الحقِّ، ويهتَمُّ بالخيرِ، فقد اتّهم المقصودَ، وهذه عِلّةٌ فى قَصْدِهِ.

وقال بعضُ المتوكّلين: فى حُدودِ التوكُّل العملُ فى قطعِ الطَّمَعِ، ونَفْىُ الرُّكون إلى الأسبابِ، ويكونُ نظرُ اللهِ له فى المَنْعِ أفضلَ عندَه من نظرِهِ إليه فى العطاء،

(١) فى الأصل (م): «ويهتم للخير، لا يهتمون للخير».

وأن يجدَ للمَنْعِ من الحلاوةِ ما لا يجد للعَطاءِ، ومَن عَلِمَ أنَّ اللهَ تعالى قَصَدهُ بالمَنْعِ فَرِح.

وعلامةُ رُكونه إلى مَن عَوَّده البرَّ من الخَلْق: تَركُ القيامِ عليه بالحَقِّ، وتَرْكُ النَّصيحة لَهُ، والانْبساطُ إليه، وكثرةُ السَّلام عليه دُون غيرِه مِمَّن لا يَبرُّه، ودَوَامُ تطلُّعِ القَلْبِ إلى لقائه ومَحْوِ أسبابه.

وعلامةُ رُكونه إلى الأسباب: خوفُ زوالِها قبل أن تزولَ، فإن زَالَ منها شيءٌ لَحِق قَلْبَه الوَهَنُ، والتّمسكُ بما بَقِي خوفَ الفقرِ.

ورُوينا في عُموم التوكُّل وخُصوصه حَديثين؛ أحَدُهما قَوْلاً، والآخر فِعْلاً، من أفهمه اللهُ القَوْلَ توكَّل عليه تَوكُّلَ العُمومِ، ومَن أَشْهَدَهُ الفعْلَ فتوكُّله خُصوص.

ففي عُمومِه حديثُ أنسٍ عن النبي ﷺ: «الرزق مَقْسُومٌ، وهو آتٍ ابنَ آدمَ على كلِّ سَيْرةٍ سَارها، ليس بَتقوى مُتَّقٍ بزائده، ولا فُجورِ فاجرٍ بناقصه، وبينَ العبدِ وبين الرِّزْق سِتْرٌ، وهو يطلبه، فإذا أجْمَلَ في الطَّلَب أتاه الرِّزقُ من حِلِّه، وإن شَرِهَتْ نَفْسُهُ هَتَكَ السِّتْرَ، ولم يَزْدَدْ فوق ما قُسِمَ له».

ثم قال ﷺ: «إنَّ العبدَ ليُعْرَضُ له بابٌ من الرِّزق مِن الحرامِ، فإن هو عَجِل إليه نَقص مِن رِزْقِهِ الحَلال، وإن هو أمْسَكَ جاءَه الرِّزقُ حين يأتيه من حِلِّه».

الخبر الآخر في وَصْفِ الخُصوص لمجيء الرِّزق إليهم مِن غير مَعلومٍ لهم، حديثُ ابن المنكدر: أنَّ رَجلاً من أصحابِ النبي ﷺ يقال له: جَرير، خرج في سفرٍ، وليس معه زادٌ إلا إداوة، وهو يقول: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلا اللهُ، والله أكبر، وكَفى به زاداً. فرجع الرَّجل فأخبر النبي ﷺ بقول جرير، فقال: هل رأيته حين تكلَّم؟ قال: لا. قال: «أما إنّك لو رأيتَهُ رأيتَ النُّورَ يخرج مِن فيه».

ففيه: سُنّةٌ في الخروجِ بغير زادٍ، إذا عَزَمَ اللهُ له بالتَّوكُّل عليه، إذْ لم يُنكر النبيُّ ﷺ ذلك، وفيه: رُخْصةٌ في رَدِّ الأسبابِ مع الحاجةِ، إذا قَوِي على الصَّبْرِ، واختار حالَ الضُّرِّ، إذ لم يَنْهَهُ النبي ﷺ عن ذلك، وقد قال [الله تعالى]:

﴿والصَّابِرِينَ فِى البَأْساءِ والضَّرَّاءِ﴾ [البقرة:١٧٧] قيل: البأساء: الفَقْر، والضرّاء: المَرَض. ومثله فى تَرْكِ التّداوى لتوكُّل الخُصوص، إذا عزمَ اللهُ له بالقُوَّة والنَّصْر، كما قال فى الحَرْف الآخَر: «فإذَا عَزَمْتُ فتوكَّلْ عَلَى اللهِ»[1] أى عَزَمتُ لك بالصَّبر والنّصر، حينئذٍ صَحَّ توكُّلُك علىَّ فتوكَّلْ.

• بقية الكلام فى التكسب والمعايش للمتوكلين:

فالتكسبُ والأسباب طُرُق أودعها اللهُ العطاءَ والأرزاقَ، لا هى تُعْطِى وترزق، بمنزلة الأواسط من الأشخاص.

فالمتوكِّلُ المتسبب للمعاش موقِنٌ أنّ الله سبحانه هو المعطى والمانع، وأنّه هو المسبِّب الرازق، وأنّه هو الأوّلُ فى التّصريف، والآخِرُ فى التّقليب، فَقَلْبُه ناظرٌ إلى القَسَّام، ونفسُه ساكنةٌ إلى القِسْم؛ وقلبُه قانع راضٍ بالمقسوم، وجسمه مُتحركٌ فى المعلوم للحُدُود والرُّسُوم فيما وُجِّه فيه، وسُبِّب له، وهو عارفٌ بمقامه وبالمراد منه، راضٍ بحاله، وما قد استسعى فيه، وأُلزم إياه. والذى يُنْقِص المتوكِّل ويُخْرِجه من حدِّ التوكل اكتسابُ الشبهات للاستكثار، أو السعىُ بالتكسُّب للجمع والافتخار، أو الحرصُ على طلب ما حَظَره العلمُ عليه، أو لطلب ما يكره المنال منه، أو التسخُّطُ للأقدار إذا لم تؤاته على ما قَدَّر، أو تَرْكُ النُّصحِ لمن عامله بأن يحتال عليه أو يدبر، أو التشرُّف إلى الخَلْق، أو الطمعُ فى سبب، أو الوقوفُ مع معتاد من عبْد، فهذا كله لا يصحُّ معه فَضْلُ التوكُّل، وغير ما يقول، ولا فَرْضُه، إلا ما اتَّصَلَ منه بعقْدِ الإيمانِ من تَسليم الأقدارِ.

وقد قال بعض العلماء: إنّ العبدَ إذا دخل السّوقَ للتّكسُّب، فكان درهَمُه أحبَّ إليه من درهمٍ غيره، لم ينصح للمسلمين فى المبايعة. وهذا عنده يُخْرجه من التوكّل. ودُخولُ الآفاتِ، ومساكنتُها لقُصور علمٍ، أو غَلَبةِ هوًى، يُخْرج العبدَ من التوكل؛ وهو أن يكون متوكِّلاً على النّاس، بأن يطمعَ فيهم، أو يتصدَّى لهم بالتعرُّضِ والتصنُّع؛ أو يكون متوكِّلاً على صحةِ جِسْمِه، ودوامِ عَوافيه، وأنه لا

(١) يقصد الآية ١٥٩ من سورة آل عمران: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾.

يُرْزَق إلا من كَدِّه؛ أو يكون متوكِّلاً على ماله، بأن يثق به، ويطمئنَّ إليه، ويحسَب أنّه إن افتقر انقطَع رِزقه، وعلامةُ ذلك ضِنَّتُهُ به، وإعدادُه له؛ عُدَّةً لكذا وعُدَّةً لكذا، كما ذَمَّ اللهُ تعالى من أوصافِ المنافِقِينَ فى قولِه: ﴿**جَمَعَ مالاً وعَدَّدَهُ**﴾ [الهُمزة: ٢].

أو يكون متوكِّلاً على جاهه ومنزلته عند النّاسِ، أو على سَتْرِه ودَيْنُونِيَّته، وأنّه معروفٌ بالصّلاح. أو على أنه لا يُرزق إلا مِن أجْلِ دينِه وتقواه، ونحوه بأن يتوكّل على عِلْمِه، ومِمّا يَعْرِف النّاسُ من فَضْلِه.

فهذه المعانى كلُّها تُخْرِج من كُلِّ التوكُّل، فقد تَخْفَى دَقائقُها، وتَدقُّ خفاياها، ويقع الوَهْمُ بمن وقَعَتْ به منها أنّه من المتوكلين على الوَكيلِ، أو الناظر إلى القريب الكفيل. وإنّما يَفْطُن لذلك جهابِذَةُ العُلماءِ الرّاسِخُون، وسَماسِرَةُ الصَّادقين، الزَّاهِدُون، المتضلعُون بالعلم، المتوردونَ باليَقين، القائمونَ على الدَّوام بالشَّهادَةِ، النّاكبون عن مألوفِ النَّفس والعادةِ.

فمن نظر إلى هذه المعانى من الأسباب والأشخاصِ، أو سكَن إليها سُكونَ أُنْسٍ، فيقوى قَلْبُه بوجودها، فإنّه يضطرب ويستوحشُ، أو يَضْعف قَلْبُه لفَقْدِها؛ وذلك كُلُّه عِلَّةٌ فى توكُّلِه.

ورُوينا عن بشر بن الحارث قال: إنّ العبد ليقرأ ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥] فيقول الله تعالى: «كَذَبْتَ، ما إيّاى تعبد، ولا بى تستعين؛ لو كنتَ تعبد إيّاى لم تُؤْثِر هواك على رضاى، ولو كنتَ بى تستعين لم تَسْكُن إلى حَولك ولا قُوتك، ولا إلى مالِكَ ونَفْسك».

ومِن ألْطَفِ ما قيل فى السّكُون إلى غيرِ الله، والنّظرِ إلى سواه، قولُ أهلِ المعرفةِ فى معْنى قولِ الخليل: ﴿**واجْنُبْنِى وبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم: ٣٥]، قال: أن أسْكُن إلى الخُلّة التى وهبتها لى، أو يَنظر نَبِىٌّ إلى النُّبوةِ التى جعَلْتَها لَهم، فيَحْتَجِبُون بذلك عَنك.

وسُئل أحمدُ بن حنبل عن التوكُّل، قال: «قطعُ الاستشرافِ بالإياس من الخَلْقِ.

قيل له: فما الحُجَّةُ فيه؟ قال: قال: إبراهيمُ النبى ﷺ: قال له جبريل: أَلَكَ حاجةٌ؟ قال: إليك لا. قال: فَسل مَن لك إليه حاجة. قال: أَحَبُّ الأَمْرَين إِلَىَّ أَحَبُّهُما إليه.

هكذا ذكره أحمدُ، كأنّه جعل التوكّلَ التفويضَ والرِّضا بِجَرَيانِ الأَحكامِ من غيرِ مَسْألة، ولا اعتراض. وهذا التَّهدِّى هو حال المتوكِّلين.

ولذلك كان أبو سليمان يُضيف التوكُّل إلى الزُّهد، ويصفُ المتوكِّلَ بالزّهد، فكان يقول: الزُّهدُ يمنعُ من التَّعب، والتوكُّلُ يمنع من الذُّلِّ، والكَرمُ يمنع من دَنَاءَةِ الأَخْلاقِ، وَمَن يَتوكّل على اللهِ فإنّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ، يَعُزُّه بِهِ.

وقال أبو تراب النخشبى: ليس التوكل أن يتوكَّل لِيُكْفَى، ولو عَرَضَ ذَلك للمُتوكِّلينَ لتابُوا، ولكن حَلَّ بقلبِه الكفايةُ باللهِ، فصدَّق اللهَ فيما ضَمِن، فألْقَى الكَنَفَ بين يديه.

وكان إبراهيمُ الخوّاص يصفُ المتوكِّل، ويذكر حقيقة التوكُّلِ، فقال فى كتابه: هو أن يتركَ العبدُ اختيارَه لاختيار اللهِ، وتدبيرَهُ لتدبيرِ اللهِ، بالغِنَى عن ذلك، وبالنظرِ إلى مجارى الأحكامِ والقَدرِ، ولا يكون الهَمُّ داخلاً على أهْلِ التوكل، ولا قلوبُهُم معلقةً بِهِم؛ لغناهم عنهم، وفناء الأشياءِ عنهم.

قال: وإنّما يُوَلِّد الهمومَ فى القَلْب ما بقى من بَقايا النّفس من محابِّ الدنيا، والطمعِ فى الخَلْقِ، والرُّكُون إلى الأَسْباب.

قال: ومَن بَقِيَتْ عليه البَقايا، لم يَضع قَدَمه فى مقامِ التوكُّلِ.

قال: ودوامُ نظرِه إلى مجارى الأحكامِ فيه، وعلَيْه، مع انتظارِ ما يقَعُ به من اللهِ لِشدَّة الاجتماعِ فى الحراسةِ للسَّرائرِ، يُغْنيه عَن نفسه، ويزيلُ ضَعْفَه، ويصيرُ عَوْنًا على سَدِّ خَلَلِه، والحفظ لضميرِه.

ثم قال: النّاس فى التوكُّل: طالبٌ له، ومَطْلوبٌ به. فالمطلوبون بالتوكل المستعملون بحقائقه فى أعلى ذُراه وغايته. قال: والضَّربُ الآخرُ محرَّكُون لطلبه بالتوجُّهِ مِن حيثُ العِلْمُ، فما وافقه استعملُوه، وما لم يُوافقه كَرِهُوه؛ لوقوفهم مع

الخَلْق بما يكون مِن لَمَّة المَلَك، وأشكال العَدُوّ، وتَسْويل النَّفْسِ.

فدخولُ الهَمِّ خُروجٌ مِن التَّفْويضِ، والتوكُّلُ رجوعٌ إلى النّفْس؛ لأنَّ التوكُّلَ لا يُقيمُ فى المتوكِّل همَّه، ولا يُحرِّكُها عليه، وإنَّما يُقيمُ عليه التّحويلَ إلى الأفعالِ، والتَّنْقيلَ، وأنّه مَنْ لَم يَجد فى قلبهِ بَصيرةً لما يُريد، فليس مِن اللهِ فى مزيدٍ.

قال: ومَن لم يَقطَعْهُ مزيدُ اللهِ فى قَلْبه عن وَصْفِ لسانه، فذلك الذى شغَل نفْسَه بحالِ غيرِه، وكُلّما أخذَه المزيدُ بهواه وضَعَهُ الهوى منه مواضعَ المضَرَّةِ، وكان عَونًا له علَى المعَاصى، وداعِيًا إلى الدّنيا.

وَحدودُ الإرادةِ قطعُ الطمعِ، وخَلْعُ الرّاحات، ونَفىُ الركونِ إلى الأسباب؛ دُون المُسبِّب، أو إلى المخْلوقين دون الخَالِق. وكلُّ مُريدٍ لا تلهيه إرادَتُه عمّا يريد ولا يريد، فليس بمُريدٍ، بذهابِ آثارِهم؛ وهو تركُ الحركَة، والأخذُ للأسبابِ بشهوات النّفس وعاداتها، وباختيارِها، بل بمَحْوِ رُسُومِهم بتَصْفيَةِ الأعمالِ، وتَصْحيح الحركات، والأخْذ والتَّرْك لحُظوظ النّفسِ، حتَّى تكون كلُّها لله، وبالله، بذَهاب رَسْمِ النَّفْسِ منها فى كلِّ معنًى، وذَهاب شَواهِدهم؛ لأنّ المسْتكمِلَ بما وَصَفْنا يقيمُ شاهدَ الحَقِّ فى الأشْياء، بزَوال شاهدِ النَّفْسِ، وحالِ الصّدق، ويَحْبس النَّفْسَ عن مُرادِها، حتّى يملكَ المريدُ قِيادَها.

قال الخوَّاص: وعلامة ركون قلب المريد إلى الله أن يكونَ قَلْبُه قويًا عند زَوالِ الدُّنيا عنه، وفناء الحقِّ، مُتَبرِّمًا بما فى يده من الأسبابِ، راحتُه فى فَقْدِها، ويكون نَظَرُ اللهِ له فى المَنْعِ أفضلَ عنده من نَظَرِه له فى العَطَاء. وأن يجدَ للمَنْعِ من الحَلاوَةِ ما لا يجدُ للعطاءِ، ومن عَلِمَ أنَّ اللهَ قَصدَه بالمَنْعِ، فَمَن مُعْطٍ سِواه؟[1].

وَمَن كان مِن المُريدين شُغْلُه فى عملِ ظاهرِه دُون باطنه وقَلْبه، وتَصْحيح إرادته، فإنما يُفسد أكثر ممّا يُصلح، وتكثُرُ آفاتُه وآفاتُ مَن تأدَّب به. وَمَن كان شُغْلُه فى عَملِ قَلْبِه، وتصحيح إرادتهِ، زكا عملُه، وقَهَر هواه، وقلَّت آفاتُه،

(١) بعده فى المخطوط فقرة مضت بنصها فيما نقل عن الخواص من قبل، فتركتها، وكانت أيضًا مضطربة، كثيرة الأخطاء.

وآفاتُ من تأدَّب به، والنُّسكُ هو العنايةُ بالسّرائر، وإخراجُ ما سِوى الله منها، حتى يتوجّه إلى الله، والعنايةُ تَبعث على التفقُّد. ومزيدُ أعمال المريدين على قَدْر تَفقُّدهم لها، ولم يُؤْتَ المريدون إلا من جهتين: مِن قِلَّة الصِّدْق، وإصابةِ الحَقِّ؛ ومِن رُكون الأدلّة إلى الدنيا، فدلُّوهم على عُلوم أنفسهم، وصدقِ المريد فى إيثار الخمولِ، ولُزُومِ البابِ، وفَراغِ القلبِ، وخَوْفِ فَوْتِ الوُصول.

والتاركُ للتكسُّبِ والتّصرفِ فى الأسواقِ، إذا كان فى أدنى كفاية، وأُعِين بالصّبرِ والقناعةِ، فى مِثْل زماننا هذا، أفضل وأتمُّ حالاً من المتكسِّب؛ إذا خاف أن لا ينال المعيشةَ إلا بمعصيةِ الله، مِن دُخولِه فى شبهةٍ عِيانًا، أو خِيانة لإخوانه المسلِمين، ولأنه قد تَعذَّر القيامُ بشرائط العلم مع مباشرة الأسباب، وكثرةِ دُخول الآفاتِ والفسادِ فى الاكْتساب. فَترْكُ مُلابسةِ أهل الأسواقِ ومخالطتهم على هذا الوصفِ المكروهِ أقربُ إلى السَّلامة؛ لبعده من رُؤيةِ الأشياءِ وفقده مُباشَرَتَها؛ لأنَّ الحكْمَ متعلقٌ بالرؤية. ومَثَلُ الحرامِ مَثَلُ المنْكَر إذا لم تره سقَطَ عنك حُكْمه. وليس الخبرُ كالمعاينة، ولا المجاورةُ كالمباشرة، ولا المعاينُ كالمُخْبَر، ولا الاستتار كالإظهار، وذلك كخبر مَن زَلّ عن حقيقةِ الكَعْبَة على البُعد، إلا أنّه متوجهٌ إلى الشَّطر، فصلاتُه جائزة، ولو زلّ عنها أُنْملة مَعَ المعاينة لها بَطَلت صلاتُه.

والتكسُّب ليس بفَرْضٍ، وقد يُفْتَرض بأحد معنَيْين: بوجودِ العيال؛ وعدمِ كفايتهم مِن وجهٍ مِن الوُجوه المباحة، أو بأن يَقْطَع عَدَمُه عن فرضٍ، ويُضْعِف عنه، مع فَقْدِ ما يقام به الفَرْضُ مما لا بدّ منه.

وقد كان أبو معاذ يقول: ترْكُ المكاسب مع الحاجة إليها كَسَل، والكسب مع الاستغناء عنه كُلفة.

وقد كان بشر بن الحارث ترك التكسُّب، وكان يتكلم فى الحلال، ويُشَدِّد فيه، فقيل له: يا أبا نصر، فأنت من أين تأكل؟ فقال: من حيث تأكلون، ولكن ليس مَنْ يأكل وهو يبكى مثل من يأكل وهو يضحك. وقال مَرّةً: ولكن يدٌ أقصر من يد ولقمة أصغر من لقمة.

وكان سببُ تركه الصنعة أن البقلوى كاتبه [قال]: بلغنى أنك استعنت على

رِزْقك بالمغازل، أرأيت إن أخذ اللهُ سَمْعَك وبَصَرك، الرِّزْقُ على مَن؟ فوقَر ذلك فى قلبه بشاهد منه، وأخرجَ آلة المغازلِ. ويقال: بل تركها لما يُوهب باسمه، وقُصِد لأجلها، وطُلِبتْ لأجله، قُبيل المغازل البشرية، فأىُّ هذين كان فقد أنهج له طريق سلكه بعد الطريق الأول.

وقد كان للثورىّ خمسون دينارًا يُتَّجَرُ له بها، ثم أخذها فى آخر أمرِه، فَفَرَّقَها فى إخوانِه، وتركَ التكسُّب. ويقال: إنّه فَعَل ذلك لمّا مات عياله، وكان قد بقى بعدهم وحيدًا. وقال ابن سليمان: كان لسُفْيان عندى ثلاثمائة درهم بِضاعة، فكنتُ أبْضع له بها، فقال ذات يوم: هاتها، فجعلها صُررًا وقَسَّمها.

ورُوينا عنه، وعن وُهيب بن الوَرد: لو أنّ السماءَ لم تُمطر، والأرضَ لم تنبت، ثم اهتممتُ بشىءٍ من رِزقى، لَظننتُ أنّى كافرٌ. وفى رواية وُهيب: منذ أربعين سنة لو كانت السماءُ رَصَاصًا، والأرضُ نُحاسًا، لم أهتمّ برزقى، ولو اهتممت له لظننت أنى مُشْرِك.

فقال بعض أهلِ المعرفة: قد صدق سفيان، فلو أنَّ الهمَّ دخل عليه فى تصديقه، كان الشّكُّ قد نقَصَ تصديقه، وكان يكون شاكًا؛ لأنّه ليس مِنَ صِحّة التّصديق والصِّدق الاهتمام بالرزق؛ قال: لأنَّ الرّزقَ جزءٌ مِن مائةِ جزء، قد وقع تصديقُ المؤمنِ به، فمن لم يصحَّ تصديقُه فى هذَا الجزءِ الواحدِ لم يصحَّ فى سائرِ الأجزاء. قال: والتّصديقُ يقتضى السُّكونَ، والطمأنينةَ، والنّفسُ تميل إلى الحركةِ طمعًا فى استعجال أحد الأسباب. فمن كان مُحَقِّقًا لتصديقهِ بالسّكون انصرف عن إجابة داعى النفس بالحركة إلى السّكون، الذى يقتضى منه التّصديق، وشغَلَ قلبَهُ بالعمل فى تصحيحِ تصديقِهِ.

وقال أبو السّليل: قال رجلٌ لأُوَيْس القَرَنى: أصْحَبُكَ أستأنسُ بك. فقال: سبحانَ الله، ما ظننتُ أنّ أحدًا يعرف الله يستوحش معه. فقال له الرجل: ما المعيشةُ؟ فقال أوِيس: أَوَ خالطَ القلوبَ الشّكُّ، فما يُنتفع بمَوْعظة؟!

وقال إبراهيم الخواص: تَعرِفُ شَكَّ الرجِل بِكَثْرةِ كَدِّه وحرصِهِ، ويقينَه بدوام

سكونه، ومن لم يُثبت القَدَر في الرزقِ لم يُثبته في الدين.

وكان يقول: الحركةُ للخُصوصِ عقوبةٌ لهم إذا مالوا إلى ما فيه الحَظُّ لأنفسهم؛ لأنّ الأسبابَ إنّما تُبطئ على العارفين، وتمتنع عن الحركة إليهم، لما فيهم من الحَركة إليها، فإذا فنيت آثارُها منهم متحركةً إليهم، أقبل المَلِك بكُلِّيته عليهم.

وقال مرةً: ليس تبطئ الأسبابُ على العبدِ بمجيء الأرزاق، إلا من خَلَل في عقْده، أو فسادٍ في أصْلِه، يصحح ذلك قولُ الله تعالى: ﴿**كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا المِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقًا**﴾ [آل عمران:٣٧] قال: فبدوام إقبال مريم على الله، ولزُومها المحرابَ، أقبل اللهُ عليها بالكفاية، ولم يُخْرجها إلى الحركة؛ لأنَّ اللهَ تعالى رَزَقَها رِزْقًا كريمًا، بلا تَعَب ولا نَصَب، ولا يعطيه أحدًا من أهل الصبر، أو يكون مقبلاً عليه بكليته، وإلا أتعبه بالسّعي فيه. قال: فكانَت مريم بلُزومها المِحراب تُعطَى رِزقَها في المحراب، فلمّا جاءَت إلى جِذْعِ النّخلة كلّفها التّحريك له، وهكذا كلُّ مَن أَوَى إلى مَوْضعِ الأسبابِ، كلّفه اللهُ تعالى الحركةَ فيها. وأهْلُ التوكُّلِ المخْصُوصينِ مَمْنُوعونَ مِن الاستراحة إلى سَببٍ، أو مَخْلوقٍ، أو الميلِ إلى شيءٍ عند وُقوع الشّدائدِ، وهكذا الأشياءُ ممنوعةٌ منهم. قال: فمَنْ مَيَّلَتْه الشّدائدُ إلى سببٍ، فمال إليه، ولم يقف في ظلِّ التوكُّل وكفايتهِ، لِئلا يَخْرُجَ منه، خَرج من حَدِّ هذا التوكل.

قال الخواص: يصحّح ما ذكرناه، أن الحركة عقوبةٌ، ما قال أبو أُمامة الباهلي: أن رجلاً من الأنصارِ زَرَع زرعًا فأَرْبَا، فقيل: يا رسول الله، إنّ فلانًا قد زَرَع زرعًا فأَرْبَا، فقال: «وما ذاك؟ ركعتان خَفيفتان خيرٌ من الدنيا وما فيها»، ثم قال؛ يَمدّ إلى أبي بكر وعمر يدَه: «لو أنّكم تَفْعَلُون ما تُؤمرون لأكلتم غير زُرَّاعٍ ولا أشْقياء».

قال: فهذا يدلُّ على أنه إنّما أتعب اللهُ الخليقة بالكدِّ في طلب الأسبابِ، من تقصيرهم في استعمال ما أُمروا به ونُهُوا عنه، وإنّ آدمَ ﷺ إنّما أُهبط إلى الدّنيا عقوبةً، يُصحِّحُ ذلك قولُ اللهِ عز وجل: ﴿**وأن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقةِ**

لأسْقَيْناهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦] قال: بلغنا فى التفسير أنه لَيقصدهم بالبلاء أبدًا حتى يَرْجعوا إلى الكتابِ الأول، أنه لا يكون إلا ما أراد الله.

قال: ورُوى عن النبى ﷺ أنّه قال لابن مسعود: «لا تكثر همَّك، ما يُقدَّر يكُن، وما تُرزَق يأتيك».

قال: وحديث أبى سعيد الخُدْرى: عن النبى ﷺ: «لو أنَّ أحدَكُم فرَّ من رِزقه لأدْركه كما يُدْرِكهُ الموت». قال: وإنّما حُرِمَ العبدُ مجىء الرزقِ إليه من كَثْرة الذُّنوبِ، أو من حَبْس الفُضول، يُصَحِّح ذلك قولُ أنسٍ عن النبى ﷺ: «إنّ أهلَ البيتِ لَيكون عندهم المُدُّ والمُدَّان من الطعام، يحبسونه، يقولون لغدٍ، فيحبس الله عنهم الرزق حتى ينفقوه، ثم يأتِيهم اللهُ به».

قال: وبلَغنا لما التقى مُوسى والخَضِر عليهما السلام، وكان موسى أشدَّ جوعًا من الخَضِر، فإذا غزالان قد سقَط أَحدُهما مَشْويًا إلى الخَضِر، وسقط الآخر مذبوحًا بجلده ورأسِه إلى موسى، فقال له الخضر: «قم يا موسى فبِقَدْر ما بَقِى فى نفسك من الاهتمامِ برزقكَ فتَعَنَّى». فأعْلَمَهُ: أنّى توكّلْتُ فكُفيتُ، وأنت اهتممتَ فَعَيِيتَ. هكذا رواه الخوّاصُ، ورُويناه من طريقٍ آخر: «قال موسى للخَضِر عليهما السلام: كيف هذا؟ وقَعَ إليكَ نِصفه مَشْوِيًا، ووقع نِصفُه إلىَّ نيئًا! فقال له الخضر: إنه لم يَبْقَ لى فى هذه الدنيا أمل»، وفى رواية: «ليس لى فى هذا الخلق حاجة».

وروينا عن الحَسن عن عمران بن حصين أنّ النبى ﷺ قال: «مَن انقطعَ إلى الله كفاه مؤونةَ رِزْقِه، ورزَقه من حيثُ لا يحتسب، ومَن انقطعِ إلى الدُّنيا وَكَلَهُ إليها».

وقال الحسن: بلغنا عن النبى ﷺ أنه قال: «قاتلَ اللهُ أقوامًا أَقْسَمَ لَهُم ربُّهم بنفسه فلم يُصدِّقُوه».

وفى أخبار وَهْب وكَعْب عن الكُتب السّالفة، يقول اللهُ تعالى: «أُقْسم بعزَّتى لا يعتصم بى عبدٌ دون خَلْقى إلا وَلِيت سياستَهُ وتدبيرَه، ولو كادَتْه السّموات

والأرضُ بمن فيهن لجعلتُ له من ذلك مَخْرَجًا. أُقسم بعزّتى لا يعتصم عبدُ بمخلوقٍ دُونى إلا قطعتُ أسبابَ السّماءِ من يدِه، وخسفتُ به الأرضَ من تحتِ قدمِه، أجعلُهُ فى الهواءِ ثم أَكِلُه إلى نفسه».

وفى الخبر المشهور: «إنّ العبد ليُحرَمُ الرزقَ بالذَّنْب يُصيبه».

وبعض العارفين يُفَضِّلُون من لا معلومَ له على مَن له معلوم. وهؤلاء يرَوْن تركَ التكسب أفضل، والسّكونَ عن التحرك أعلى؛ لأنّ ذلك معلوم. ويعدُّ هؤلاء سكونَ القلبِ مع وُجودِ المعلومِ علّة، ولكن إذا سكَن قلبُه مع غيرِ معلومٍ، واجتمع همُّه، وانقطع طَمَعُه فى حالِ المعدوم، فهذا هو المقام.

ولعَمْرى فى التّحقيق أنّ الحركة فى طلبِ المضمونِ للخُصوص عقوبةُ فَقْد سُكُونِ القلبِ إلى الرَّبِّ، كما أنّ تَرْكَ الحركةِ فى أعمالِ البرِّ والقُرباتِ عقوبةَ سكونِ النّفْسِ إلى حُظوظِ الشّهوات.

وليس للعبد أن يحمل حالَ عياله على حالِه، إلا أن يكون اختيارُهم كاختيارِه، وصبرُهم على فَقْرِهم واحتياطهم بضرِّهم ومعرفتهم بفضله كمعرفته، فجائزٌ حينئذ أن يسير بهم سِيرته، ويسقط عنه التكسّب لأجلهم؛ لأنّهم كهو فى الحال مع سقوط المطالبة منهم له بحقوقهم عليه. وقد فعل ذلك جماعةٌ مِن السلف.

والعدلُ مِن القول فى تَفْصيل تَرْكِ التكسُّب وفعله، وفَقْدِ المعلوم؛ هو أنّ العبدَ لا يَفْضُل بنَفْس عدَم المعْلُوم، ولا بتَرْكِ التّصرفِ فى الموجودِ، كما لا يَفْضُل بفَقْد الغِنى ووَجْدِ الفقْر، ولا يَسْبق بالقُعود عن الحركةِ من غَيْر إقعادٍ، ولا يعلُو بالتحرُّك إلى الأسبابِ بغير إيجاد، وإنّما يُوصف فى ذينك بالفقُراء والإباحة[1]، لكن يَفْضُل بحاله مَن مقامه؛ من زُهدٍ، أو رضا، أو صبر، أو توكُّل، أو اقتطاع لخدمة، أو تألُّه وتولُّه بِشغلٍ متَّصلٍ بصدقِ معاملة. فبهذه المعانى وقعَ التّفضيلُ عن العلماءِ ذَوى التَّحصيل، فإن كان ذُو المعلوم والتّصرُّف أحسنَ مَعرفةً، وأقوى يَقينًا، فَضُل على مَنْ لا معلومَ له مِمَّن نَقَصَت معرفته، ولا يكون سكونُ القَلْب وطُمأنينةُ النَّفْسِ ـ أيضًا ـ مع وجود المعلوم عِلَّةً فى الحالِ إذا ثبتَ المقام، وصَحَّ

(١) كذا هذه الجملة بالمخطوط ولعلها محرّفة، أو تحرّفت بعض كلماتها.

العَقدُ، وحَسُن التَّصرُّف والعَقْد، ولكن لا يكون مقامًا يُرْفَع به ولا حالاً يَفْضُل فيه عند طائفة من العارفين، إلا أنّ الطمع فى الخلق وتَشتُّت[1] القلب مع وجود معلوم الكفاءة نقصانٌ عند الكُلِّ، وعندى. وقَطْعُ الطمعِ فى الخلقِ، وفَقْدُ التَّشرُّف إلى معتادٍ منهم، أو مَألوفٍ بهم، واجتماعُ القلبِ مع العَدَم وفقد المعلوم، أفضلُ وأعلى درجةً عند الجماعة.

فأمّا سكونُ القلبِ، واجتماعُ الهمِّ، وفقدُ الاستشراف إلى الخَلْق مع العيالِ، وثبوتُ الأحكامِ، فهو أفْضَلُ وأشرفُ. وهذا حالُ الأقوياء، وطريقُ الأنبياءِ، اتّفقوا على هذا. وأمّا اضْطرابُ القلبِ وتفرُّق الهَمِّ مع وُجودِ العيالِ، فإن كان لأجْلهم، وللقيام بحُكم اللهِ فيهم، فلا نقْص فيه، وقد يُؤجَر عليه ضِعافُ اليقين.

وأما شَتَاتُ القلبِ، وتَفرُّقُ الهَمِّ، ووَجْدُ الاهتمامِ فى حالِ الوَحدة للمتفرد، فنصيبٌ من الرّغبةِ موفورٌ، وصاحبُه فيه غير مَعذورٍ، وقد يكون مأزورًا.

وفى حديث حيّة وسوار ابنىّ خالد: أنَّ النبى ﷺ قال لهما: «لا تَيأسا من الرِّزقِ ما تَهزَّزتْ رُؤوسكما. فإنّ ابنَ آدمَ تلدُه أُمُّه أحمرَ ليس عليه قِشر، ثم يرزقه اللهُ بعدُ».

وقال أبو محمد: لو أنَّ العبدَ سأل اللهَ أن لا يرزقه لم يستجب له، ويقال له: يا جاهل، أنا خلقتك، ولا بدّ من أن أرزقك. فالرِّزْق لا ينقطع عن العبدِ حتى يَظهر له مَلَك الموت، فحينئذٍ ينقطع عنه رزقُ الدنيا، ويدخل فى رزق الآخرة. فيكون أوّلُ رزقِ الآخرةِ آخرَ رزقِ الدّنيا، ولا آخر لهذا الرزق، لقوله عز وجل: ﴿فَلَهُم أجرٌ غَيْرُ ممنُونٍ﴾ [التين:٦]، يعنى: غيرُ مقطوعٍ، ومثله: ﴿عطاءً غَيْرَ مَجْذُوذ﴾ [هود:١٠٨] أى: مقطوع، وقوله: ﴿لَهُم مَّغْفرةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ:٤]، ﴿أُكُلُهَا دَائمٌ وظلُّها تلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الرّعد:٣٥].

وسُئل سَهْل رَحمه اللهُ عن القُوت، فقال: هو الحىُّ الذى لا يموت. فقيل: إنّما سألناكَ عن القِوام، فقال: القوامُ هو العِلم. قيل: سألناك عن الغِذاء، فقال:

(١) فى المخطوط: «وتشبث».

الغذاء هو الذِّكر. قالوا: سألناك عن طُعْمَة الجَسَد، فقال: ما لَكَ وللجَسد؟ دَعْ مَن تَولاَّه أوّلاً يتولاَّه آخرًا، فإذا دَخَل عليه عِلّةٌ فَرُدَّهُ إلى صانعه، أمَا رأيت الصنعةَ إذا غابَت ردُّوها إلى صانِعها حتى يصلحها؟

وقد كان يحيى يقول: إنّ هذه الكِسْرَةَ فضَحَت الخلقَ، وأخرجت أبانا من الجَنة، فلا تُلِحُّوا فى السؤال عنها، فيفسد عليكم دينُكم، وأنتم لا تَشْعُرون.

وقال أيضًا: إنَّ الله يُلْقى على الخُصوص الفاقةَ، ويُخرجهم إلى الخلق بالطَّمعِ فيهم، ويُلقى فى قُلوبِ الخَلْق المنعَ لهم، يَحْرمهم ما فى أيديهم، ليردَّهُم إليه، فإذا كان هكذا يأتى رِزْقُهم من حيث لا يحتسبون.

وبمعناه ما روينا أنّ إبراهيم عليه السَّلام طرقَتْه فاقة، فذهب إلى خَليلٍ له من النَّاس يستقرضه، فتوارى عنه، فرجع إلى أهله منكسرًا، فأوحى الله إليه: خليلُك أنزلتَ به حاجتَك، ولم تُقْضَ، وذَكَرها.

فانظر كيف ألقى فى قلبه الخروج، ثم ألْقى فى قلبه المنع، ليردَّه إليه ضرورةً؛ لأنّه يجيب المضطر.

ومن علامةِ الأولياءِ: أنّهم إذا تشرَّفُوا إلى شيءٍ حُرموا ذَلك الشىء، وإذا سكَنُوا إلى عبدٍ سُلِّط عليهم، أو فُرِّق بَيْنَهُم وبينه، ليرفع سُكونَ أوليائه إلى غيره، ويقطع طَمعَهُم مِن سِواه، يُؤدِّبهم بذلك، ويُهَذِّبهم له، لِيَنْقَطِعُوا إليه، ويَطمئنُّوا به. وقد كان بعضُهم إذا جاء السَّببُ بعد التَّطُّلعِ إليه ردَّه، ومنهم من كان يُخرجه ولا يتناول منه، عقوبةً لنفسه وتأديبًا لها.

وكان ذو النون المصرى يتكلّم على إخوانه فى علمِ التّوحيد والمعرفة، فسأله غلامٌ شابٌّ عن الخُبز: من أين هو؟ فقال: خُذُوا بيده، واذْهبوا به إلى الصُّوفيةِ حتّى يعلِّموهُ الأدب.

وقد حُكِيَ عن معروف أبى محفوظ الكرخى: أنّه ذُكر له انقباضُ بِشْرٍ عن الأسبابِ التى تُفْتَتَح له، فقال: إنّ أخى بشرًا قَبضَهُ الوَرَعُ، وأنا نشَّطَتْنى المعرفة. إلا أنّ معروفًا كان لا يأخذ السَّببَ إلا عندَ الحاجةِ، ويرفع يدَهُ مع الكِفاية، ويعمل

فى كل وقت بحكم ما يوجبه الوقتُ، ويأخذ منه ممّا لا بدّ له منه فى وقتِه، وكان لا يدّخر شيئًا لغد، وكان قصيرَ الأملِ، لم يكن يأمُل البقاءَ من وَقْت صلاة إلى صلاة أخرى؛ كان إذا صَلَّى الظُّهْرَ يقول للجيران: اطلبوا لكم مَن يُصَلِّى صلاةَ العصرِ، وكان يقول: إنما أنا ضيف فى دار مولاى، إن أطعمنى أكلْتُ متى أطعمنى، وإن أجاعنى صَبْرتُ حتى يطعمنى.

وقد كان أبو محمد سهل يقول: المتوكِّل لا يسأل ولا يردُّ ولا يَحْتكِر.

وفيما حدَّثنى أبو بكر الصّناديقى، رحمه الله، عن الخوّاص فى كتابه «التوكل» قال: إنّ اللهَ تعالى بلُطفهِ وحُسن نَظرِه لِخَلْقِه نَدَب العُمومَ من التوكُّلِ المعمومِ إلى التوكُّل المخصوصِ المخزونِ، بقوله عز وجل: ﴿وعَلَى الله فَلْيَتَوكَّلِ الْمُتَوكِّلُون﴾ [إبراهيم: ١٢]. قال سعيدُ بن جبير: يعنى المصدِّقُون لله فيما وقع به الوعدُ والوعيدُ؛ لأنّه إنّما وقعَ توكُّل المصدِّقين لله على الله فى استخراجِ ما وقعَ تصديقُهُم به من الوَعْدِ فى الأرْزاقِ من وُجوهِها ومَواضِعها، لا نفسَ المضْمون، إذْ كانُوا لا يَسْلَمون فى الحركة فيه، وأنّه هو تعالى أعرفُ بأماكنه، وأقدرُ على استخراجِه. وهذا النَّدْبُ لطيفةٌ من الله بالعُمومِ، وحجةٌ عليهم أن دعاهُم إلى مَواضِعِ الفضلِ والشَّرفِ باستعمالِ التوكُّل المخْصوصِ؛ لئلا يُقيموا على حالِهم، فلا يطالبون بالرِّفعة عنها، والانتقال منها.

وقال رحمه الله: أتعبَ اللهُ سائرَ الخلقِ بما استعملَهم من مَرافق أنفسِهم، وتركَهم مع ذلك مُتَحيِّرين، إذا اختارُوا ما لم يَخْتَر اللهُ لهم، فأقامُوا أنْفُسَهم مقامَ الأربابِ، واهتمُّوا بها، وآثروا صافية الحظِّ، فطلبوا من العِلْمِ ما يُوافِق الهوى ويدعو إلى الانبساط فى أسباب الدنيا، واشتغلوا بتَدْبيرها، وكانت الحجة عليهم أعظمَ وأوْكدَ، إذ كان الله تعالى قَدْ دَعاهم إلى الرّاحة ووُجودِ الكفاية، بقوله: ﴿ومَا لَنا ألاَّ نَتوكَّلَ عَلَى الله وَقَدْ هَدَانا سُبُلَنا﴾ [إبراهيم: ١٢]، ثم وقع الاقتضاء منهم بتَرْكِ الاختيار، بقوله: ﴿وربُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ ويَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الخيرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، وزادَهم تأكيدًا فى الحجةِ عليهم، بقوله عز وجل: ﴿وما كانَ لِمُؤْمِنٍ

ولا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُه أَمْرًا أن يَكُونَ لَهُمُ الخِيرَةُ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وضرَب لهم فى التّنزيل مثلاً بقوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥]، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ﴾ [النحل: ٧٦] لِيَرْجِعوا عمّا قد تملّكُوا عليه من أُمورِهم، وابتدوا فى الاختيار له من أنفسهم، ويلقوا كلَّهُم عليه، لتكون أمورُهم ومصالِحُهم راجعةً إليه، ويعلموا أنهم عبيدٌ مَرْبُوبُون، وأن من صفة العبيد تركَ الاختيار وإلقاءَ الكَنَف بين يَدَى مَن هُمْ له عَبيد، حتى يستعبدهم بما شاء، وما قَسَم لهم من رزق كان قائمًا لهم به، ويُوَطِّنوا أَنْفُسَهم على الاستواءِ فى تلوين أحكامه، والرّضا بجميعِ أَقسامِه، ويُسْقِطوا عن أنفسهم التّدبير، فعلَّقُوها بالواحدِ الكبيرِ.

وقال فى كتابه «التوكل» فيما أخبرنى به عن الصّناديقى: الناسُ اثنان، رجلٌ وعَبْدٌ. فأما الرّجلُ، فإنّه مهمومٌ بتدبير أمرِ نفسه، متعوبٌ بالسعى فى مصلحته. وأمّا العَبْدُ، فإنَّه طرحَ نفسه فى ظِلِّ الرُّبوبيةِ، وكان من حيث العبودية.

وقد كان الفُضيل من قبله يقول: أمُدَبِّر غيرُ الله تريدون؟! نِعْم المدبِّرُ لك لو أطعتَه، إذ كان الله أغلبَ على أمره، وأعلمَ بمصالح عبدِه من عبدِه، فكم مِن عبدٍ قد تخيَّر أمرًا كان هلاكُه فيه.

وقد كان أبو وائل قبل الفضيل يقول: يا أَعْمش، نِعم الربُّ ربنا، لو أطعناه ما عَصَانا.

• بيان قول الخواص، والفضيل، وسهل، وذى النون، رحمهم الله، فى ترك التدبير والاختيار، والرضا بمجارى الأقدار:

ليس يشكّ هؤلاء وجميعُ العارفين، لنظرهم بعينِ اليقينِ، أنّ الأفعالَ والحركاتِ فعلُ الله الواحدِ القهارِ، الغالبِ على أمرِه بأمرِه، إذ هوُ المختارُ. ولكن ما فعلَه صِرْفًا به من غيرِ أن يُدخل أيديهم فيه، ولا أهواءهم، وكان ذلك أبدًا منه به، إذ هو يبدئُ منه ما يشاء، ويعيد عليهم من الرّسُوم والأحكام ما شاء، فإنَّ ذلك مَيْمَنَةٌ ويُمْنٌ، وهو الاختيار وفيه بركةٌ.

وما فَعَله بواسطتِهم وأجْرَاهُ على أيديهم، وداخَلَ فيه نفوسَهم وأهواءَهم، فأعاد ذلك عليهم، وجعلهم أسبابًا، وهذا موضعُ التفضيل فى مكانِ العلم، ومجارى الرسم، فذلك مشامُّه، وهو الاختيار، وفيه هلكة. فتدبّروا.

شاهدُه قوله ﷺ: «لا تسأل الإمارةَ، فإنَّك إن أُعْطِيتها عن غيرِ مَسْأَلة أُعِنْتَ عليها، وإن أُوتيتها عَن مَسْألة وُكلْتَ إليها». ففرّق ﷺ بين البداء بالأولية، وبين المداخلة بيدِ العبد بالأوسطية، بإيجابِ القُدْرةِ من الله، أو أَفعلُ الشىءَ به، وبالتخلى منه، إذًا أفعله بالأواسط.

وكذلك قولُه للرجل الذى سأله أن يستعملَه فى الأعمالِ، فقال: «إنَّا لا نستعملُ على عملنا مَن ظهر عليه»، وكذلك قولُه فى العطاء الذى يدخل العبد من غير مسألة، ولا إشرافِ نَفْسٍ. ولو جعل الغِنى لواحد وأجرى السبب المفرد أوّله به صرْفًا أبدًا، كما ذكرناه[١]. ثم يرده ويمنعه بهم، فيعود حكمته المذموم عليهم، ويصفهم العارفونَ بالاختيارِ منهم، وبالتدبير وبتَرْك الرضا. فإن علموا أنّ ذلك فعْلُه تعالى إلا أنه برَسْمِهم وإظهار شهَادتهم، وفى مكانِ نفوسِهم وأهوائهم. وقد يجرى الأمرُ الواحدُ بِهِم وعلى أيديهم وباختيار أهوائِهم، ثم يَمْنَعُه ويَصْرِفه، ويردُّه به لعَدَمِ اختيارِهم، وفَقْد أهوائِهم، ووُجُودِ مكارههم، فيكون ذلك خيَرةً لهم، وحُسنَ تدبيرِ منه، بفَقْدِ آرائهم وعُقُولِهم، وعَدَمِ محبَّاتهم، فيصفُهم العارفون بالرضاء والتسليمِ، وبالتوكُّل والصبر، أو الشكر والاستسلام، إذا وُجد ذلك منهم، ووَجُدوا حلاوةَ القضاء، وشهدوا حُكْمَ القاضىَ، فيصير هذا الوَجْدُ وشهادةُ هذا الفعلِ مقامًا لهم فى التوكل والرِّضا، إن كان ذلكَ فعْلَ الله تعالى، إلا أنه بإخْراج أهوائِهم، وإزالة حِرْصِهِم. وإن كان ذلك بهِم لإعادةَ الحُكْمِ عليهم. فتفكَّروا.

وقال إبراهيم الخواص، فيما أخبرنى أبو بكر الفقير عنه: الرِّزق ليس فيه توكُّل، ولو كان لا يُنال الرِّزق إلا بالتوكُّل كان الضعيفُ ومَن لا يُحسن أن يتوكَّل

(١) هكذا يمكن أن تقرأ هذه العبارة، وهى غير مفهومة، وأرجح أن فيها خطأ من الناسخ، وهو كثيرًا ما يخطئ فى هذه النسخة (م).

يموتُ. فصَحَّحَ ذلك قولُه تعالى: ﴿**وكأيِّن مِّنْ دابَّةٍ لا تَحْمِلُ رزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُها وإيَّاكُم**﴾ [العنكبوت: ٦٠]. فهذا الخطابُ مِن الله لخَلْقِه، يقتضى من الخَلْقِ تركَ حملِ الأرزاقِ لوقْتٍ لم يأت، أو يَوْمٍ لم يأتِ، لطيفةٌ من اللهِ دَعاهمْ بها إلى مَواضعِ الرّاحةِ من الاشتغال بحَمْلِ ما قد ضَمِنَهُ لهم، وتكفَّل باستخراجِهِ إليهم، وحُجّةٌ منه عليهم ألْزَمَهم إيّاها، وقوله تعالى بالضَّمان لأرزاق الخَلْق: ﴿**اللهُ يَرْزُقَها وإيَّاكُم**﴾ يقتضى السكونَ إليه بالثِّقةِ به فيما ضمِن وتكفَّل باستخراجِهِ، والصَّبْرَ على وعده، حتى يُخرجَ اللهُ المضمونَ من أمارتِه.

قلتُ: ففى هذا دليلٌ على تحريرِ الحركةِ، والتّسبُّب للمتوكِّل، وأن ذلك لا يُنقص توكُّلَه، إذ الدّابةُ المَرْزوقةُ باللهِ مِن اللهِ، قد تَدبُّ وتَتَسَبَّبُ إلى مواضعِ الرزقِ، وقد تدَّخِر النملةُ والفَأْرَةُ، وهما من الدوابِّ، وقد يَجْمَعُ بَعْضُ الطَّيْرِ فى عُشِّه، ويجلب إلى وكْرِه، وفى ضَرْبِ النبى ﷺ مَثَلَ المؤمنِ كالنّملة شاهدٌ لما ذكرناه من قوله: «مَثَلُ المُؤْمِنِ كالنَّمْلَةِ تَجْمعُ فى صَيْفِها لشتائها». ولكن يحتاجُ المتوكِّل أن يكونَ فى دَبيبِهِ وحركتهِ وذُخْرِه بمعناها إلهامًا وتوفيقًا، ونظرًا إلى الوكيلِ، لا لمعقول ولا تَدْبير.

وكذلك القولُ فى تمثيل الرسول ﷺ: «لو توكَّلْتم على اللهِ حقَّ توكُّلِه لرَزَقكم كما يرزقُ الطيرَ تَغدُو خِماصًا، وتَرُوح بِطانًا». فالطير وإن لم يكن من وَصْفها أن تحملَ، ولا من فعلها أن تُدبِّر وتَعْقِل، فإنّها تتحرك وتَقْصِد، لقوله «تغْدُو»؛ فغدُوُّها تسبُّبٌ، وقَصْدُها أماكنَ معاشها تعيُّش، وقد أضافَه الرزّاق إليه، وجمعَ بيننا وبَيْنَها فيه، فقال: ﴿**وجَعَلْنا لَكُم فِيها مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَه برَازِقين**﴾ [الحجر: ٢٠]؛ الهَوامُّ والأنعامُ، فعمَّنا وإيّاها بالتحمُّد إلينا، بأنَّ المعايشَ فى الأَرْضِ منه علينا إنعام.

وقد روينا فى حديث أنس بن مالك وغيره أن النبى ﷺ قال: «الرِّزق مقسومٌ، وهو آتٍ ابن آدم على كل سَيرةٍ سارها، ليس تَقْوى تقيٍّ بزائده، ولا فُجُور فاجرٍ بناقصه، وبين العَبْدِ وَبيْنَ الرزقِ سترٌ، فإذا أجملَ فى الطَّلبِ أتاه الرِّزقُ من حلِّه،

وإن شرِهتْ نفسُه هتك الستر، ولم يزددْ فوق ما قُسم له»، ثم قال ﷺ: «إن العبدَ ليُعْرَض له بابٌ من الرِّزقِ الحرامِ، فإن عَجِل إليه نَقَص مِن رزقهِ الحلالِ، وإن هو أمسك جاءه الرزق الحلال حين يأتيه من حِلّه».

جمعتُ هذه الألفاظَ من ثلاثة أخبار من حديث أنسٍ، وغيره، ففى تدبُّر هذا الخبر أن الرزقَ الحلالَ مستودعٌ فى الطاعةِ والتّقوى، وإن الرزقَ الحرامَ مستقرٌّ فى المعصية والآثام، يستخرج اللطيفُ بلطفه الخبير بعِلْمِه وخَبره لأوليائه الحلالَ بحسن اختياره، حتى يُوَصِّله إليهم، ويَجعلَه طُعْمَتَهُم، لقوله: **﴿كُلُوا مِنْ الطَّيِّباتِ واعْمَلُوا صَالحًا﴾** [المؤمنون:٥١]، فمن أكل طيبًا عَمِل صالحًا، ومن أطْعمه الطَّيبات استعمله بالصَّالحاتِ، لقوله: **﴿الطَّيِّباتُ للطَّيِّبينَ﴾** [النور:٢٦]، أى الطّيبات من الأعمالِ والأرزاقِ للطيبين من العُمّال والمَرْزُوقِين.

ويفعل بأعدائه ضدّ هذا من رزق الحرامِ، والاستعمالِ بالحرام، كقوله: **﴿الخَبيثاتُ للْخَبيثينَ﴾** [النور:٢٦]، أى من الأعمَالِ والأرزاق للخبيثين مثلها. وقال: **﴿إنَّها إنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّن خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِى صَخْرةٍ أَوْ فِى السَّمواتِ أَوْ فِى الأَرضِ يأتِ بِها الله﴾** الآية [لقمان:١٦]، كما ذكرناه أولاً، فتدبَّر.

وسمع عليُّ بن الحسين رجلاً يقول: اللهمّ ارزقنى حلالاً صافيًا، فقال: يا هذا، الحلالُ الصّافى طُعمةُ الأنبياء، سلِ اللهَ أن يرزقك رزقًا لا يعاقبك عليه. فدلَّ أنّ ترتيب الأرزاقِ على مراتبِ الدّرجات.

وقد روينا وسمعنا أن الأنبياء أكَلُوا من أيدى الأمّة، ومن طُعْمة العبادِ، وممّا دَفَعُوه إليهم، فليس ذلك إلا باستخراج اللهِ لهم الحلالَ من حيث يعلمُ، لا مِن حيث يَسْتخرجون.

فرزقٌ حَسَنٌ ينفق منه صاحبُه فى القُربات، ويستعينُ بقوته على الطاعاتِ، ورِزق سَيِّئ فيُمسكه ويجمعه، ومن حقُوقه يمنعه، فإن أنَفق ففى سبيل الإبعادِ والهلكات. فكلُّ عاملٍ يشبه رزقُه عملَه، وطعمتُه أساسَ معاملتهِ: **﴿إنَّ ربِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشاءُ إنَّه هُوَ العَلِيمُ الحَكيمُ﴾** [يوسف:١٠٠].

قال الخواص: فالذى قيَّد العبدَ أن يسرحَ فى الأرض حيث شاء قلّةُ تصديقه بمَجىء الأرزاقِ إليه حيث كان، وضَعْفُ عمله بأنّ اللهَ معه فى كل مكان، وأنّه تعالى يُضيِّق حيث يَشاء، ويُوَسِّع حيث شَاء، ويُؤَمِّنُ حيث يشاء، ويُخيفُ حيث شاء، فمن كان ناظرًا إلى الله فيما يَفْتح له من أسبابِ الرِّزق، معتمدًا عليه فى استخراجه، كان البَرُّ والبحرُ والسَّفَرُ والحَضَرُ عليه سواء؛ لأنَّ من تولَّى اللهُ كفايتَه فى الحَضَرَ تولّى كفايته فى السَّفَر، ومن كان معتمدًا على تكلُّفه وحِيَله لم يتهيَّأ له أن يفارقَ العُمران، ولو أنَّ عبدًا مع مولاه فى السَّفَر لكان قَلْبُه قد سكَن إليه أنّه يطعمه حيث سافَر معه.

وهكذا، مَن عَلِم أنَّ اللهَ سبحانه معه لم يحتج أن يحملَ زادًا ولا إداوةً. يصحِّح ذلك قولُ النبىِّ ﷺ للسائلِ وقد أعطاه تَمْرةً فقال: «لو لم تأتها لأتتك»، دلالةً على تركِ الحَركة توبيخًا له فى حركته، بعد صِحّة الضمانِ بمجىءِ الأرزاقِ لوَقْتها، ونَهيًا له عن السَّعى إلى ما وَقَع التّصديقُ بمجيئه لوقته.

وقال على بن طالب رضى الله عنه: الرزق رزقان؛ فرزق تطلبه ورزق يطلبك. قال: لو لم تأته أتاك. فالرزقُ الذى يطلب العبدَ هو رزقُ الغد، والرزقُ الذى يطلبه العبدُ هو رزق الملك من الفضول(١).

وقال الحسنُ: فضولُ الدُّنيا عقوبةٌ عاقَبَ اللهُ بها أهلَ التوحيدِ، مَحْبوسةً فى أيديهم لغيرِهم، يأكلها غيرك هنيئًا.

هذا الذى ذكره الخواص ـ رحمه الله ـ هو حالُه ووصفُ طريقه، وكان من أكابر الصابرين. إذ لا يقاس الضعيفُ الجزوعُ بالقَوىِّ الصَّبُور، وأن لا يسلك طريق الإيغال(٢)، ولا يتحول إلى حال إلا بعد ظهور شاهده، وهذا طريقُ خصوصِ المتوكِّلين، مثل أبى تراب النخشبى، وذى النون، وحاتم الأصمّ، وعلى الصوفى. كما قال بعضُهم لأبى تراب، وقد عزم على قطع البرِّيَّة، فدفع إليه شيئًا، وقال: يا أبا تراب، انظر إلى ما بين يدَيك من هذا الطريق البعيد، والمسافةِ الشاقّةِ، فاحمل

(١) ورد هذا الخبر من قبل.
(٢) الإيغال: السير السريع والإمعان فيه.

معك هذا الزَّاد. فقال له أبو تراب: هذا الذى تُعطينى لا بد مِن أن يَفْنى. قلت: نعم، لا بدَّ مِن أن يفنى. قال: فاعلم أن ذلك الوقت الذى يفنى فيه هو هذا الوقت، وتركنى ومَضَى.

وحدثنى سفيان بن وكيع: قال لى أبى وكيعُ بن الجرّاح: يا بنى، علىٌّ خيرٌ منّى. يعنى أنّه لم يكن عنده عِلمٌ ولا حَديث، فعرف فضْلَه عليه، وإن كان عنده من العِلْمِ والحديث ما لم يكن عنده. قال: بَيْنا نحنُ عندَ وَكيع بمِنًى، وهو يحدِّث الناسَ، جاءه علىٌّ الرّازى يُوَدِّعه للخُروج، قال سفيان: فقال لى أبى: يا بنىَّ، هات تلك الصُّرَّة، قال: وكان عندنا صُرَّةٌ فيها سبعون دِرهمًا، وقال له وكيع: خذ هذه الصُّرّة. فقال: أنا لا آخذُ مِن مِثلك شيئًا، قال: ولم لا تأخذ من مثلى؟ قال: لأنَّك تقول إنّه يُعْطينى فى الحَضَر ولا يعطينى فى السفر. فقال وكيعٌ: أأقول هذا؟! قال: فلِمَ تعطينى هذه الصُّرّة إذ كان ليس هو عندك هكذا؟ فسكتَ وكيعٌ، وقال: عندنا رِكْوة تأخذها معك؟ فقال: قد اعتقدتُ فيما بينى وبينه أن لا آخذ الشىءَ إلا وقتَ الحاجةِ إليه، فتريد أنت تُعنِّينى بحمْلِها، وتُكلِّفُنى حِفْظَها؟ قال: وودَّعه ومَضَى بغير زادٍ ولا رِكْوة.

وحُدِّثتُ عن بعض الأشياخ قال: كنتُ عند أحمد بن حنبل، فجاءه صُوفىٌّ عليه مِدْرَعَةٌ صُوف، فقال: السّلامُ عليك يا أبا عبد الله، وقد قَصَدَ مكَّةَ بغير زاد. فقال له أحمد: توقَّف علَىَّ قليلاً، ودخلَ بيته، فأخرجَ إليه خِرْقةً صغيرةً، فقال: أحب أن تأخذ هذه تجعلَها على رأسِك؛ لأنّه رآه حاسرًا، فأخذها منه ومَضَى لوجهِهِ. قال: وجاءَه رجلٌ آخر، فقال: يا أبا عبد الله، أردتُ الحَجَّ، فَتَرى أن أمشى؟ فقال له أحمد: عافاكَ الله، الزَّادُ والرّاحلةُ.

فهذا كما رُوى عن بعضهم قال: كنتُ عند بعضِ العلماء، فجاءه رجلٌ من العبَّاد، فقال: إنّى أريدُ الحجَّ، فأخرجُ وأتوكّلَ؟ فقال له العالِم: لو أردتَ أن تَتوكَّلَ لخرجتَ ولم تَسألنى.

وقد كان إبراهيمُ يقول: الاستطاعةُ على ثلاث وُجوه: أعْلاها استطاعةٌ بقُوّة المَعْرفةِ وصِحَّةِ التوكُّل، وهذه الطائفة نفذَتْ بِصِدْق توكُّلها، لم تُعرِّج على سببٍ،

ولا استأذَنَت أحدًا، ولا اعْترضَ على هذه الطائفة أحدٌ من المتقدِّمين؛ لأنَّ الخليقة تَحْتاجُ أن تَهْتَدِىَ بهُداهم، والعارفُ يَحمله اللهُ بمعرفتِه، وسائرُ الناس تَحْمِلُهم الأسبابُ.

قال: ولا يقعُ الاستئذانُ إلا من ضَعْفِ المعرفةِ، وقلّة الهداية، وكلٌّ من استأذَن فالرِّفْق به أَوْلى، قال: قولُ الأعرابى: يا رسولَ الله أأعقِلُها وأتوكَّلُ، أَو أخلِّيها وأتوكَّل؟ فقال: «اعقِلْها وتَوكَّلْ».

وقال ابن عباس: جئتُ أنا والفضلُ على حِمارٍ، والنبى ﷺ بعَرَفةَ، فمررنا على بَعْضِ الصَّفِّ، فنزلنا وتركنا الحمارَ يَرْتَع، ودخَلْنا مع النبىّ ﷺ فى الصلاة. فلم يَقُل شيْئًا.

وفى حديث رافع بن خديج: خرجنا مع النبى ﷺ فى سَفَرٍ، فلمّا نَزَل رسولُ الله ﷺ ووضع كلُّ رجلٍ منّا خِطامُ ناقتِه فى عُنُقِها، ثم أرسلناها فى الشَّجَر. فهذه سنة ماضية، لمن سَيَّبَ راحلةً له على إصابة الجُوعِ، ولا يُغَيَّر عليه، وسُنَّةٌ لمن استأذَن أن يُحْمل على أحْوَطِ الأُمورِ لَهُ.

وقال الله [تعالى]: ﴿لا يَسْتأذِنُكَ الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بالله واليَوْمِ الآخرِ﴾ إلى قوله: ﴿إنّما يَسْتَأذِنُك الَّذين لا يُؤْمِنُونَ بالله واليَوْمِ الآخرِ وارْتَابَتْ قُلُوبُهمْ فَهُم فى رَيْبِهم يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤ ـ ٤٥].

قال: فوجدنا أن ارتيابَ هؤلاء هو الذى بَعثَهم على الاستئذان وأحْوجَهَم إليه، وأنّ هذه الطائفةَ التى تركت الاستئذانَ بقوةِ إيمانها قد رضى اللهُ فعلَها، بما أنزلَه على نبيه ﷺ من عُذْرِها، وقوَّى به قلوبَهُم فيما يَسْتأذنونه من أعمالهم وقلوبَ مَن بعدهم، ونَهْىٌ لِمَن كان بعد النبى ﷺ عن الاعتراضِ على أمثالِ هؤلاء، فإذا كان مَن حركتُه الرغبةُ مِن المؤمنين فى فضلِ الجهاد على أنّه إنّما يستعينُ على الخروجِ فيه بماله، ولا يُؤْمَن على ماله التلفُ والحوائجُ، فيَهْلك بهَلاك ماله، لا يتهيأ لأحدٍ أن يعترضَ عليه، فكيف يُعْتَرَض على مَن كَان اللهُ عز وجل مُتولى تَسْيِيرِه وكلائتِه وتَقْويمِه، وعلى مَن قَوِى قَلْبُه بِصِدْقِ التوكُّلِ على اللهِ، واللهُ حَسْبُهُ.

وهذه الطائفةُ من أهْلِ التوكل لا يُخاف عليها ممّا يخاف على أهلِ الاعتمادِ على الأسبابِ؛ خافُوا من الجوع وخاف هؤلاء من الشّبَع، وخاف أهلُ الأسبابِ من الفَقْرِ وخافَ هؤلاء من الغنَى، وخافَ أَهْلُ الأسْبابِ من القلّة وخاف هؤلاء من الكَثْرَة، فأهلُ التوكُّل بضدٍّ ما فيه الخَلْق؛ يأمنون حيث يخافُ الناسُ، ويسكُنون حيث يَضْطرِبُ النَّاسُ، فما أبعدَ ما بين المعنيين! وكلُّ مَن ركَن إلى مخلوقٍ أو سببٍ، كان خائفًا من زَوالِه وفَنائه، متوقِّعًا لمُفارقته لقاه.

قال: والاستطاعةُ الأخرى: قوةُ البدنِ والصَّبرُ على المشى والضرُّ.

والاستطاعة الثّالثة: بسَعةِ المال.

فالناس فى الحجِّ على ثلاثة أَضرُب: رجلٌ تولَّى اللهُ تَسْيِيرَهُ وتَرْشِيدَهُ، ورجلٌ تعلَّق بصحةِ توكُّله على الله، ورجلٌ تعلَّق بالسَّبَبِ وغَيْرِها، ولا ينبغى له أن يتوقَّفَ عن الحجِّ، فالزّادُ مُباحُ العمومِ، إلا أنّ الله تعالى قد دَلَّ على خير الزّادِ بقوله: ﴿فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة:١٩٧]. فمن تَزَوَّد التَّقوى نجا، ولم يَخَفْ فى طريقه؛ لأنَّ اللهَ مع الَّذين اتَّقوا، ومن التَّقْوى: أن لا يقولَ العبدُ: غدًا من أين؟ أقولُ الحقَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْه مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب﴾ [الطلاق:٢ ـ ٣].

وقال وَهْب بن منبِّه: وجدتُ فى بَعْضِ ما أنزلَ اللهُ من الكُتبِ: يقول الله تعالى لبنى آدم: «اتّقِنى ونَمْ حيث شئْتَ».

قال: فالرزقُ ليس فيه توكُّل، وإنّما فيه صَبْرٌ، وهو أوّلُ درجاتِ الصَّبْرِ على ما وعد اللهُ، حتى يأتيَه فى وَقْته، وإنّما يَقْوَى صبرُ العبدِ على قَدْرِ مَعْرِفَته بما صبر له، ولمن صَبَر، يُصَحِّح ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِه خُبْرًا﴾ [الكهف:٦٨]، فالصبرُ يُنال بالمعرفة، فعلى الصابرِ حملُ مؤونة الصَّبرِ حتى يستحقَّ ثوابَ الصّابرينَ؛ لأن اللهَ تعالى جعلَ الجزاءَ بعْدَ الصبرِ، فقال: ﴿وإذِ ابْتَلى إبراهيمَ ربُّهُ بكَلِماتٍ فأتَمَّهُنَّ قالَ إنّى جَاعِلُكَ للنَّاسِ إمامًا﴾ [البقرة:١٢٤] بعدما أتمَّ حَمْلَ البَلْوى.

فمعنى الصبر: حَبْسُ النَّفْسِ على الوَعْدِ بمَجِيء المَضْمون، ومنعُها من الحركة، أو التطلُّعِ إلى مَجيئه، حتى يسوقَ اللهُ الأقسامَ من أماكنِها. فمتى رجَع الصّابرُ إلى سببٍ يبتدئُ فيه بالحَرَكةِ من نَفْسه، فقد خرجَ من حالَةِ الصَّبر، ضِيقًا من تحمُّلِ مؤُونته، قال الله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨] قال: صبرٌ ليس فيه شكْوى إلى الله؛ لأنَّ الشكْوى واجبٌ لله على خلقه، فاستخرج الشَّكْوى من هؤلاء، وجوَّز الشكوى عليهم لا من ضُرِّ الحالِ والبَلْوى. هذا مقامُ المُوقن القوىّ من المتوكلين. مَثَلُهم مَثَل مَن أنْفَق من الصَّحابةِ قبلَ الفَتْحِ وقاتلَ، لا يستوى هُو ومَن أنْفَق مِن بَعْد الفتح وقَاتَل، وكلاً وعدَ اللهُ الحُسْنى. وقال رسول الله ﷺ فى معناه: «المؤمنُ القوىُّ أحبُّ إلى الله من المؤْمنِ الضَّعيفِ، وفى كلٍّ خَيْر».

فالمؤمنُ القوىّ يمثلُه بالنَخْلة أصلُها ثابتٌ باليقين فى قُلوب المتقين، وفرعُها فى السّماء بشهادَةِ المعرفة وعُلُوِّ البهاء، والمؤمنُ الضعيفُ مَثَلُه كالسُّنْبلة تَفىء[1] أحيانًا وتقوم أحيانًا، فكيفَ تُقاسُ السُّنْبُلةُ التى تُفيِّئها أدْنى ريحٍ إلى النَّخْلَةِ الراسخة؟ وكم تَحت النَّخْلةِ مِن سُنْبُلَة؟ بل كيف تَرى السّنبلةُ من دُنوِّ مكانها ما تراه النَّخْلةُ من عُلوِّ مقامِها. وقال: وأيضًا كمثَل النَّمْلةِ، تجمعُ فى صَيْفِها لشتائِها. فهذا وصفُ المؤمنِ الضّعيفِ بالادّخار.

ومثَلُهما مَثَل مَن أنفقَ مالَه فى سبيلِ الله كمثَلِ حبَّةٍ أنبتَت سَبْعَ سَنابِلَ، ومَثَلُ مَن أنْفَق مالَه ابتغاءَ مَرْضاةِ الله كمثَل جَنَّةٍ بِرَبْوةٍ أصابَها وابِلٌ فآتَتْ أُكُلَها ضِعفَين، فكم فى هذه الجَنَّةِ برَبْوة مِن حَبَّةٍ وسُنْبُلَة؟ فاعتبروا يا أولى الأبصار.

وقال يحيى بنُ معاذ: التوكُّل على ثلاثِ دَرَجات: فأوَّلُه تَرْكُ الشكاية، والثّانى: الرِّضا، والثّالث: المحبّة. فتركُ الشّكايةِ: أن لاَ يشكو ربَّه، والرِّضا: أن يرضى بما قُسِمَ له، والمحبةُ: أن تكون محبّته فى قضاء الله، فأوّلها: للصالحين، والثانية: للأولياء، والثالثة: للأبدال. وكان يحيى يوسِّع فى التوكّل بالأسباب، ويأمن بها من غيرِ مساكَنةٍ لها، ولا وقوفَ معها، وهو أوسعُ طَرِيقًا وأبسطُ حالاً

(١) تفىء: تميل وتتحرك.

من الخوّاص، ولكنّ مسلكَ الخواصِ أعلى، وحاله أسْنى، على ضيقٍ فى طريقه، وقَبْضٍ فى حاله، وتشْديدٍ وعَزيمةٍ فى مقامه من توكُّله.

وكان ابنُ معاذ يقول: أيّها الزّاهدُ الواثقُ بالله فى الرّزق، انظر أن لا يلعبَ الشيطانُ بك فى الأسباب، فإنّ اللهَ قدَّر الأرزاقَ بالأسبابِ للزّاهدين وغيرِهم، فإذا وجدتَ الله قد كفاكَ مَؤُونتَك من الكفاية بوالد، أو ولد، أو أخ، أو امرأة، أو سببٍ من الأسباب، ثم جاءك الشيطانُ يلعب بقَلْبك فيه، فقال: إنّما يُوكلُكَ على هذا السبب الذى أراك تعيش منه، فقل: يا ملعون، فإذا رفعت هذا السبب أخذت الرزقَ بلا سبب، فهل يكون بُدٌّ من حُدوثِ سَببٍ آخر؟

قال: وليس صِدْقُ التوكّلِ فى رفْعِ السَّببِ، ما لم يَقْطَعْك عن زُهْدك، ولم يؤثّر فى دينك وحالك، إنّما تَلْحقك المحبةُ فى دَعْواك إذا رأيتَ السبَّبَ المَقْدُورَ منه رزقُك يجْذبك عما تُريد، ويُلزِمك الآفاتِ به فى الدين، فعند ذلك فارْفَع السَّببَ وارغبْ عنه، فإنّ اللهَ تعالى إنّما هيَّجه على تحريكك فى دينك بما آتى لك من دنياك؛ امتحانًا منه لك، وتعرُّفًا لصدْقك فيما تَدَّعيه، فإذا تركْتَه فى جَنْبِ أحوالِ دينك، عَطَفَ اللهُ به عليكَ، أو جاءَ بغيره إن أخذَ هذَا منك. وإنما عليك فى مُدابرةِ الأشياء وقَبْضِ الأرْزاق، حفظُ أصلك، وصيانةُ دينك، ووقايةُ زُهدك، فإذا سَلِم لك ما تريدُ، فلا تعادى الأسبابَ المتولِّد عنها الأرزاق فإنّ ذلك من الجَهْلِ المُبين. فإن كنتَ أبدًا كلّما رأيتَ اللهَ تعالى قد قيَّض لى رِزقًا مِن سَبَبٍ رَفَعْتَ السّببَ، فليس السّببُ أُريدَ إسقاطُه، إنّما أُريدَ إسقاطُ الرِّزق، إذا استحال وُجودُه إلا بالأسبابِ، وفى ذلك يُدخل عَلَيَّ الجهل بالله؛ لأنّه ليس للعبادِ أن يَمْتحنُوا ربَّهم، إنّما له أن يَمْتَحِنَهُم بعَشٍّ [1]، أيّها الزّاهد، أباح اللهُ لك من الرّزقِ فيما كان مِن سَببٍ ما لم يكن حَرامًا.

وقال له قائل، وقد سَمعه يتكلّم فى الأسباب: إن كنتُ فى هذا المكانِ قد تهيَّأ لى رِزقى، ولستُ كلَّ عُمرى أقْدر أن أكونَ هاهنا؛ لأنّى لعلّى أخرجُ إلى «قَزوين». فقال له يحيى: إن كنتَ تَخرج إلى قَزْوين امْتِحانًا منك لربِّك، فتقول

(١) كذا بالأصل. والعَشُّ هنا: الكسب.

فى نَفْسك أجدُ اللهَ قد كفانى فى الحَضَر، وفى بلادى، وأصبرُ على قَزْوين، لأنظر هل يرزقنى؟! فهذا شكٌّ قد دخل عليك؛ لأنَّ الله تعالى قد ضَمن لك الرزقَ بالرَّىِّ كنتَ أم بِقَزْوين، فإن كنتَ قد خرجتَ إلى قَزْوين بنيّةِ العُدُوِّ والرِّباط، فهذا لك، واللهُ رازقك حيث كنتَ.

قال: وربَّما رأيتُ هَلْكى من مُتَحلى الزّهدِ، ومُعاندة الأسبابِ، ومخالفة اللهِ فى قَبْض الأرزاقِ، كما يريد تعالى، لا كما تريدون، وبالله نعوذُ من الجهل.

وكان إبراهيم الخواص، فيما أخبرنى عنه أبو بكر بن يعقوب الورَّاق، يُشَدِّد فى مقامِ التوكُّل بعزائمِ الأمور، ويصفُ توكُّلَ أُولى العزم من الزّاهدين، وكان حالُه رحمه الله حالَ أقوياء المتوكِّلين، فقال لى عنه: إنه كان يقول: إنْ سَمِعَ المتوكِّلُ خَلْفَهُ بحركة شديدة، فتحرَّك لها قلبُه، خرج من حدِّ هذا التوكُّلِ المخْصُوصِ، التفتَ إليها أو لم يَلْتفت. وهكذا؛ لو طَالَت أيّامُه بالسَّيْر فى البرِّيَّة، فمال إلى سرعة الخرُوجِ منها، خرجَ من حدِّ هذا التوكّل. قال: وهكذا؛ لو انتهى به المسيرُ إلى مَوْضعٍ مُسْبِعٍ، فانقبض فيه، ولم يكن فيه كما كان قبل وقته ذلك فى انبساط القلبِ، خرجَ من حد هذا التوكُّل. وهكذا؛ لو انتهى به التوكُّل إلى أجَمَةٍ أو بَنِيَّة أو أىِّ موضعٍ من المواضعِ المخُوفَة، فلم يكن فيها كما يكون فى العُمران، أو طالعَ فناءَ الأوقات، أو طالتَ لَيْلَتُه عليه، خرجَ من حدِّ هذا التوكل. وهكذا، إن زاد على سَيْرٍ، ليلحقَ المنازلَ والمواضعَ التى يرجِع عليه منها المُرافق، خرج من حَدِّ [هذا] التوكّل. وهكذا؛ [لو انقطع] دون الماء، فوجد فى نفسه نَشاطًا؛ لقرب وصوله إلى الماء، أو مُنع الطعامَ عَشَرَةَ أيّامٍ، ثم أُدْخل عليه بعد ذلك شىءٌ من الطَّعام، وانبسط فى أكْله، وزادَ على ما كانَ يأخذُ إذا أُعْطى فى يومٍ ثلاثَ مرَّات، خرج من حَدِّ هذا التوكُّل.

وهكذا؛ لو زاد فى مقامه فى المنازلِ على مقامه فى البَرِّيَّة، إذا كان فيها، أو استعان فى مَسيرِه بعُكَّازة يتوكَّأ عليها، أو مِنطَقَة يَشدُّ بها وَسَطه، أو نقَص فى نومِهِ مع السّباعِ عمّا كان ينامه مع الأنيس، أو يغيّر عليه عند رُؤية الأعْراب، وقطّاعِ الطّريق، ولم يكونوا عنده كسائرِ الناس، أو وجدَ فى نفسهِ مَيْلاً إلى

الأسفارِ في أوقات عمران الطَّريق. وهكذا؛ إن قَبِل في سَفَره أهلَ الأسباب، وارْتَفق بما مَعَهُم من الفُضُول. وهكذا؛ لو فقدَ الماءَ عَشْرَةَ أيَّامٍ، ثم وَجَده، فانبسط في شدّته، ولم يَشْرَبْه كما كان يَشْربُه على [الظمأ]. وهكذا؛ إن وجد في قلبه الميل إلى الخُلْقَان دون الجُدُد، خَرجَ في جميعِ هذا من حدٍّ هذا التوكّل.

قال: وإنّما خرج هؤلاء بهذه الأخلاق وما شاكَلَها من حُدود التوكّل المَخْصُوص؛ لأنّ التوكُّلَ يستولى على أهْلِه بالقَهْر لَهُم عن التّلْوين بما لا يَليق بصفة التوكل، فمتى تلونَّت صفاتُهم بشيء ممّا لا يليق بها، كان خُرُوجًا منه، وكانوا مَوْصُوفين بأنفسِهم، فإنّما التوكُّل في النَّفْس والهِدَايَةِ، وهو أن يتولَّى اللهُ تَقْويمَ العبدِ بالهِدَايةِ له في إصابةِ الحَقِّ في جميع أحوالِه، بقيامِ صِحَّة الشّواهد والدّلائل على أنّه القائمُ بها، يُصحِّح ذلك ما رواه ابنُ مسعودٍ أنّ النبي ﷺ قال: «الطِّيَرَةُ شِرْك»، وما منّا إلا يَجدُ في نَفْسِه، ولكنّ اللهَ يُذهبه بالتوكُّل. فأخبرَ أن التوكُّلَ يُزيل ما يَلْحق النَّفْسَ من الجَزَع وغيرِه، بقيامه عليها، واشتغالِ الصَّابرِ بحَبْسِ نَفْسه في حُدُود الصَّبر، يغنيه عن مواضع الحاجات فيه، حتى يقتطعه عن وُجُوهِها، فيكون صَبْرُهُ على ما يرضى بلا انقباضٍ ولا خوفٍ ممّا لا يقَع به، ولا يُؤثّر في قَلْبِ الصَّابِرِ ما يَلْحَق صِفَته إذا لم يُوافقْه، لَمِيْلِ القَلْبِ إلى موافقة اللهِ في تَصْحيحِ حالِ الصبّر، لقوله: ﴿واللهُ يحبُّ الصَّابرينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

قال: ومن التوكُّل في الهِداية قولُ إبراهيم ﷺ: ﴿الَّذى خَلَقَنى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وقولُ موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]. ففي مثل هذا وقع توكّلُ المُرْسَلين، ومن لَحقهم من بُدَلاء الصِّدِّيقين، فهو التوكُّل الذي يجمع الأحوالَ كُلَّها. كما قيل: التوكُّلُ جِماعُ الإيمانِ، فاستخراجُ اللهِ عزّ وجل من نبيه ﷺ نسيانَ حركة بعلَّة غيرِه من غيرِ اللسانِ لم يَتكلَّفْهُ كتكلُّف النَّاسِ، جعلَها اللهُ سنةً لمن بَعْدَه من أَهْلِ الضَّعفِ، ولمن عَجزَ عن الصبْرِ، وإباحةً للذَّهاب إلى ثُبوتِ الإخْوان، كذَهابه بأبي بكر وعمر إلى مَنْزِل أبي الهيثم بن التيهان، ومثْل: تسليمه من رَكعتين، لقوله: «إنّى لأُنَسَّى حتَّى أسنَّ السُّنَن».

قال: وإنّما تكلَّم في الصبّرِ بمَجِيء الرِّزْقِ طوائفُ من أهْلِ الضَّعْف، لم يكن

لهم هِمَمٌ عاليةٌ يَنْفُذُ بهم إلى ما وَراءِ هذا من الغايات.

وأما المُحقِّقُون من العارفين، فإنّهم عَبَرُوا هذَا إلى ما وَراءه، واستَحْيَوْا من الله أن يَعْترضَ عليهم ذكرُ ما قد صَدَّقُوه فيه، ورضُوا بقِسْمه لهم، فتوَجَّهُوا إلى الله بنسْيانِ ذكرِ ما شغل مِن الأسبابِ، وكلُّ مُريد يَتَوَجَّهُ إلى الله تعالى وهمومُ الأرزاقِ قائمةٌ فى قلبه، فإنّه لا يُفلحُ أبدًا، ولا يَنْفُذُ فى تَوَجُّهِه.

وقال: أكثرُ الخَلْقِ تعلَّقُوا بالأَسْبَابِ، وركنوا إلى المَخْلوقين هَرَبًا من أَكْلَة بعد أَكْلَة، ومن خرْقَة بَعد خرْقة، خُروجُها[1] مِن غامضِ الغَيْب المُغَيَّب، قد حيَّرت كلَّ ضَعيفٍ، وألْبَسَتْهُ ثَوْبَ الذُّلِّ والمَسْكَنَة.

وإذا صَحَّت المَعرِفَةُ باللهِ فى القَلْبِ، سكَن القَلْبُ إلى ما فى الغَيْبِ أشدَّ من سكونه إلى ما فى اليدِ من الأسبابِ الظَّاهرة؛ لأنَّ ما فى يدِ العبدِ لا يَدْرى ما يُحْدث اللهُ فيه، وفى باله أنَّ ما عند الله هو الباقى، يأتى به على أوقاته، فإذا كان القَلْبُ قويًا عند زَوالِ الدّنيا وإدبارِها، مُتَبَرِّمًا بما فى اليدِ منها، صحَّ التوكُّل.

وإذا ضعُفَت المعرفةُ فى القَلْب، ركن القَلْبُ إلى الأسبابِ من زَوالها قبل أن تزولَ، فإن زالَ منها شىءٌ لَحِقَ القَلْبُ التغيُّرَ والجزعَ من خوْفِ الفَقْر.

ومن صِحّةِ التوكُّلِ ألاَّ يَرْكَن القلبُ إلى سببٍ ولا مَخْلُوقٍ، ولا ينظر إلى ما دُون اللهِ تعالى نظرةً.

هذا الذى ذكره الخواصُ رحمه الله هو توكُّلُ النبيين والصِّدِّيقين، وهو من عزائمِ التوكُّل، فإنّما وَصَف حالَه وذكر مَقامَه هو، وقد كان رحمه الله يحمل نفسه على كل شَدِيدة، ويَسْلُك بها كلَّ عزيمةٍ. بلغنى أنّ حالَه فى التوكُّلِ أوْجَبت عليه قَطْعَ مفازةٍ لا يُعْرَف غوْرُها، ولا يُهتَدى سَبيلُها، فسَلَكَها، فلَمَّا وقعَ فى وسَطِها رأى قافلةً مُقْفلةً مَوتَى قد انقطعوا دون قَطْعِها، فحميت نفسُه، فحمل عليها، وسَلَك المَفَازَةَ حتى قَطَعها.

وحدثنى بعضُ الأشياخِ: أنَّه اطَّلع فى مسيرٍ له إلى بئرٍ عميقةٍ، لا يُرى قعرُها،

(١) خروجها: أى خروج الأسباب.

يقال: طولها أربعون قامةً، ونكَلَت نفسُه عليه، فألقى نَفْسَه فى البئر، ولبث فيها أيامًا، وكان يخرج عليه ثعبان عظيم فى البئر إلى أن أَخْرجَهُ اللهُ منها فى قصة طويلة، كان يخرج عليه فى كل يوم ثعبانٌ مُفَلَّسٌ (١) من رأسِه ويدِه، عظيمةٌ كالجُمجمة، بيضاءُ، وكان النّمل يأتى عليها كلّ يوم، فقال: هؤلاء خَلْق، وأنا خَلْق، لآكَلنَّها، فأكلها، فإذا [هى] شَهْدٌ. وكان يُفْلَس كلَّ يوم مثلها، وهو يأكلها بضع عشر يومًا، ثم [التقمه](٢) فاحتمله، وصَعد به أعْلى البئرِ، فنَبذَه على ظهرِ الأرْضِ. وكان يقصد الغِياضَ المُسْبعة، وجبلَ الحيات، والأودية الغامضة المُوحشة، يبيتُ فيها، يَرُوضُ نفسه بذلك، ويؤدِّبها به حتى يزيل عنها مخافةَ غيرِ الله، إلى أن اطمأنت فسكَنَت، وعالجَ شأنَ جماعةٍ من الجنِّ فى البَوادى والقِفار، وكهوفِ الجِبال، والغِيرَان(٣)، وكلَّمُوه فى قصصٍ كثيرةٍ.

وليس هذا كلُّه من فرْضِ التوكّل، إنّما هو من فَضَائل بَعْضِ مقامات المتوكِّلين، ومُقْتَضى أحوال بَعْض الموقنين. وفرضُ التوكُّلِ: عُقودُ القلْب، والاستسلامُ بحُسنِ التّفْويض للرَّبِّ، ونَفْىُ عوارضِ الآفاتِ الدّاخلة على المتوكِّل من السُّكُون إلى الأسبابِ، والرّكونِ إلى الخَلْقِ فى المُعْتَادِ.

• ذكر الادخار مع التوكل:

ولا يضرّ الادّخارُ مع صِحّةِ التوكُّل إذا كان مدَّخِرًا لله وفيه، وكان مالُه موقوفًا على رضا مولاه، لا مُدَّخرًا لحظوظ نفسهِ وهواه، فهو حينئذ مدَّخرًا لحقوقِ الله التى أوجبها عليه، فإذا رآها بَذَلَ مالَه فِيها. والقيامُ بحقوقِ الله لا يُنْقِص مقاماتِ العبدِ، بل يَزيدها عُلواً.

وحدّثونا عن بعض أصحاب بشر بن الحارث قال: كنْتُ عنده ضحوةً من النهار، فدخل عليه كَهْلٌ أسمرُ خفيفُ العارضين، فقام إليه بشر، قال: وما رأيته قام لأحدٍ غيره، قال: ودفع إلىّ كَفًا من دراهمَ، فقال: اشترِ لنا من أطيبِ ما تقدر

(١) ثعبان مُفَلّس: على جلده لُمَعٌ كالفلوس.

(٢) بياض فى بالأصل قدر كلمة، أثبتها اجتهادًا.

(٣) الغِيران: جمع غار، وهو الكهف.

عليه من الطّعام والطّيب. قال: وما قال لى قطّ مثلَ ذلك. قال: فجئتُ بالطعام، فوضعتُه بين يديه، فأكل معه، وما رأيتُه أكل مع غيره. قال: فأكَلْنا حاجَتنا، وبقى من الطعام شىءٌ كثير، فأخذه الرجل فجمعه فى ثوبه، فجعله تحت يده، وانصرف. قال: فعجبتُ من فعله ذلك، وكرِهتُه له؛ إذ لم يأمره بِشر بذلك، ولا هو استأذنه فيه. فقال لى بشر بعد ذلك: لعلك أنكرتَ فعله ذلك؟! قلتُ: نعم، أخذَ بقيةَ الطعامِ مِن غيرِ إذن، فقال: تعرفه؟! قلت: لا. قال: ذاك أخونا فَتحٌ الموصلى، زَارنا اليومَ من المَوْصل، وإنَّما أرادَ أن يُعْلِمَنا أنّ التوكُّلَ إذا صَحَّ لم يَضُرُّ معه الادّخارُ.

وَتَرْكُ الادّخارِ إنّما هو حالُ مَن مقامُه قِصَرُ الأمل. وقد يصحّ التوكّلُ مع تأميلِ البقاء، فإن كان أملُه للحياة لطاعة مَوْلاه، وخدمته، والجهادِ فى سبيله، وليَسْتَعتِب، ويَستقبل، ويُصلح بالطّاعةِ والعلم ما أفْسَدَ بالهوى والجهلِ، فَضُلَ بذلكِ. وهذا طريق طائفة من الراجين والمستأنسين والمحبين وحَسنى الظنِّ.

وإن كان أملُه للحياة لأجلِ مُتْعة نفسه، وأخْذ حُظوظها مِن دُنياه، نَقَصَ ذلك من زُهده فى الدنيا، فسَرَى النّقْصُ إلى توكُّله، وما نقَص مِن الزُّهد نَقَص من التوكُّلِ بحِسابه؛ وليس ما زاد فى الزّهدِ يَزيدُ فى التوكلِ بحسابه، لأنّ الزّهْدَ من شَرْطِ خُصوصِ التوكّل، وليس التوكّلُ مِن شَرْط عُمومِ الزّهد، فكلُّ متوكِّلٍ ذى مَقَامٍ زَاهِدٌ لا محالةَ، وليس كلُّ زَاهِدٍ فى مقامٍ مُتوكِّلاً؛ لأن التوكّل مقامٌ فى الزُّهْد، والزّهدُ حالٌ، والمقاماتُ للمُقَرَّبين، والأحوالُ فى أصحابِ اليمين، إلا أنّ مَن أُعْطِى حقيقَةَ الزُّهد فإنّه يُعْطَى التوكُّلَ لا مَحالةَ؛ لأنّ حقائقَ الأحوالِ وثُبوتَها، ودوامَ استقامةِ أهلِها فيها، ولُزومَها لقلوبِهم ـ هى مَقَامَاتٌ؛ فإذا جاز للمُتوكِّلِ تأميلُ البقاءِ لشهرٍ أو شهرين جاز له الادّخار لذلك، إلا أنّ طولَ الأملِ يُخرِج من حقيقة التوكل عند أبى محمد والخوّاص، ولا يُخرجه مِن حَدِّه عندى.

وأكرهُ للمتوكِّل الادَّخارَ لأكثرَ من أربعين يومًا، كما يُكْرَه تأميلُ البقاء لأكثر من أربعين. ومَنْ قَوِى يقينُه، وحَسُنَ ظَنُّه وصَبْرُهُ، وصَحَّ زُهْدُه، فتَرْكُ الادّخار له أفضلُ. ومن ادّخر لصلاح قلبه، وتسكين نفسه، وقطعِ تَشرُّفِه إلى النّاس؛ إنْ كان

مقامُهُ السّكونَ مع المعلومِ، فالادّخارُ له أفضلُ، فأمّا مَن ادّخر لعياله لتَسْكُن قلوبُهم، ولوُجودِ رِضَاهم عن اللهِ، ولسُقوط حكمهم عنه؛ ليتفرَّغ لعبادةِ ربِّه، فهو فاضلٌ فى ادّخاره، اتّفقوا عليه؛ ولأنه فى ذلك قائم بحُكْمِ ربّه، راعٍ لرعِيّته التى هو مسئول عنها.

وقد ادّخر سيّدُ المتوكِّلين رسولُ الله ﷺ لعياله قوتَ سنة؛ لِيَسُنَّ ذلك، وقد نهى أمَّ أيمن وغيرَها أن تدَّخر شيئًا لغد. ونهى بلالاً أيضًا عن الادخار لنفسه، ليقتدى به أهلُ المقامات، وقال له: «إذا سُئِلْت فلا تمنع، وإذا أُعطيت فلا تُخبئ». وهو إمامُ المقربين، وذِكْرى للمتوكِّلين. كما روى أنه قُبِض ﷺ وله بُردان فى الحُفّ يُنسجان. وقد كان عليه الصلاة والسلام أقصرَ أملاً من ذاك، كان يبول فيتيمَّم قبل أن يَصِلَ إلى الماء، فيقال له فى ذلك أنّ الماء منك قريب، فقال: «وما يدرينى لعلّى لا أبلغه». ولكن فَعلَه لِئلا يهلك من طال أملُه من أمته، فجعل فعله نجاةً له.

فهذا يدلّك أنّ الادّخارَ يتسع ويضيقُ على قدرِ مُشاهدات العارفين، من قِبَل أنّ الشريعةَ جادت بالرُّخصة والعزيمة؛ فالعزائمُ من الدِّين للأقوياء الحاملين، والرُّخَصُ من الدّنيا للضُّعفاءِ المحمولين.

وقد كان أبو محمد، رحمه الله، يقول فى تأويل الخبر: «إن الله يُحبُّ أن يُؤخذ برُخَصِهِ كما يُحب أن يُؤخذَ بعزائمه»، قال: ما كان من أمرٍ فخذ بالأشدِّ فيه.

وقد كان الخوّاص يدقِّق فى أحوال التوكُّل، ويذكر أنّ الادّخار يُخرج من حدِّ التوكل، ولم يكن يفارقه أربعةُ أشياء، وكان يقول: ادّخارُها من تَمامِ حال المتوكِّل؛ لأنها من أمور الدين: الرِّكوة، والحبل، والإبرة، والخُيوط، والمِقْراض.

وكان سهل رحمه الله يضرب للمدَّخر مَثَلاً فى قِصَر الأمل وطوله، فيقول: مَثَلُ مَنْ يترك الادّخار مَثَل رجلٍ يقول: أُريدُ أن أخرجَ إلى الأيلة، فيقال له: خُذْ رغيفًا، فإن قال: أريد أن أخرج إلى عَبّادان، قيل له: خذ رغيفين، فإن قال: أريد أن أخرج إلى العسكر، قيل له: خذ أربعة أرغفة. قال: فكذلك تركُ الادّخار على قَدْر قِصَرِ الأملِ وطوله.

وعلى ذلك فإنّ الادّخار ينقص من فضائل الزّاهدين بمقدار ما يمنع من حقيقة الزُّهد، إلا للزُّهاد العارفين؛ لأنَّهم على عينِ اليقينِ، قد أقيموا بشهادة عن التوحيدِ، ينظرون بنورِ الأوّليّةِ الآخريّة، فالموجوداتُ عندهم عنده، إذ كانت أيديهم يَدَه، وقَبْضُهم قَبْضَه، فهو وكيلُهم، وهم خُلفاؤه، يُنفقون مما جعَلَهم مُسْتَخْلَفِين فيه، فهو مَزِيدٌ لهم؛ لأنّ هذا مقامٌ فوقَ الزُّهدِ قد جاوزه، فكيف يُعْتبر به. وهؤلاء لا يُوصَفُون برَغْبةٍ، فيكون الزُّهد. . .(١) عليه، كما لا يُوصفون بكَدَر الخَلْق والمراءاة، فكيف يُؤمرون بالتّصفية والإخلاص، إذ لا يَدْخُل عليهم الـ. . .(١) القيومية شهادة التوحيد بهم، فهم بها قائمون.

وقد كان اللّيثُ بنُ سَعْدٍ منهم، وقد كان أحدَ الأسخياء الأجواد، وكانت غلَّتُه بمصر فى كلِّ سنة مائةَ ألفٍ وزيادة من الحِنطة والعُصْفر والوَرْس، ولا وَجَبت عليه زكاةٌ قطّ، كان يُنفق جَميعَه قَبْل الحَوْلِ، وكان له مَنْزلُ ضِيافةٍ فيه مائدةٌ رَاسِيَةٌ لا تُرفَعُ يمدّها بالطّعام، وكلُّ مَن قَدِمَ من الآفاق ينزل إلى طعامه ولا يُحَدِّثه حتى يختلف إلى مائدته شهرًا. وكتب إليه مالكُ بن أنس يستهديه وَرَسًا يصبغ به ثياب ابنته، أراد أن يُزوِّجها، فوجَّه إليه عشرين جرابًا وَرْسًا، فى كلِّ جراب مائة دينار، وقال فى كتابه: احتفظْ بِثِفالةِ الوَرْس، فصبغ منهُ مالكٌ لجميعِ أهلِ بيته، ولجيرانه، وباع ما فَضَلَ منه بمائة دينار. ويقال: ليلة مات سُمِعَ هاتفٌ يهتف من السّماء: مات الليلة خازنُ اللهِ فى أرْضِه؛ اللّيْثُ بنُ سَعْد.

وقد كان ابنُ المبارك فى هذا المقام وزيادةٍ، وكان يتّجر للعُلماءِ، والقُرَّاء، ويقول: لولا الفقراء ما اتَّجرتُ.

فأمّا تاركو المكاسب، وقاطِعُو التّسبُّبِ، ممَّن لا معلومَ له من الأولياءِ، فإنّهم تركوا الادِّخارَ؛ لأنّه مُقْتَضى حالِهم، وفيه استقامةُ مقامِهم، وصفاءُ قُلُوبِهم، لخلوِّ هممهم ولإفْرَادِ سرِّهم.

وقد كان سَرِىٌّ يقول فى قوله [تعالى]: ﴿**واجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إمَامًا**﴾ [الفرقان: ٧٤]:

---

(١) كلمة غير مقروءة فى كل موضع.

إن المتَّقى لا يكون رِزْقُه مِن كَسْبه؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٣]. فكأنّه يقول: اجْعَلْنا للمتوكّلين إمامًا؛ الذين أرْزَاقُهم لا من اكتسابِهم، بل من حيثُ لا يَحْتسبون، وهؤلاء هم أهلُ الصَّفْوةِ والصَّفاء؛ الصُّوفيون، الذين توكّلُوا على الله، ولله، وبالله، لا فى الأرزاق، ولا للعالَم يدٌ عليهم من الإرْقاق، كما كان قائلهم يقول: الدنيا فانيةٌ، والآخرةُ باقيةٌ، والأرزاق مفروغٌ منها، فعلى ماذا أتوكَّل؟ إنّما أتوكّل عليه أن لا يُبْعدنى مِن قُرْبِه.

وكان محمدُ بن موسى الواسطى يقول: من توكَّل على اللهِ لعِلَّةٍ غير الله، فلم يتوكَّل على الله.

وكان بعضُ العارفين يقول: التوكُّلُ هو الكفُّ عن الأغيارِ فى السِّرِّ والعلانيةِ، والسُّكُونُ إلى الحقِّ بلا واسطة. وقال آخر: الاعتمادُ على الخَلْقِ هو الخِذْلان، ومن اعتمد بسوى ربِّه فى توكُّله خاب سَعْيُه. وقال: الموقنُ المتوكِّل أن يكونَ مثلَ الطِّفْلِ لا يَعْرف شيئًا يأوى إليه إلا ثَدى أُمِّه، كذلك المتوكِّلُ لا يرى لنَفْسِه مَأْوًى إلا الله.

وفى حديث شَهْر بن حَوْشَب عن أبى أُمامةَ فى ذكر الفقير الذى أمر رسولُ الله ﷺ عليًا وأسامة فغسَّلاه، وكَفّنه ببُردته، فلما دَفَنه قال لأصحابه: «إنّه يُبعث يومَ القيامةِ ووَجْهُه كالقَمَرِ ليلةَ البَدْر، ولولا خَصْلةٌ كانت فيه لبُعثَ ووجه كالشّمس الضاحية، فقلنا: وما هى يا رسول الله؟ قال: إنه كان صَوَّامًا قوَّامًا كثيرَ الذكر لله، غير أنّه كان إذا جاءه الشتاء ادَّخر حُلَّة الصيف لصيفه، وإذا جاءه الصيفُ ادخر حُلَّة الشتاء لشتائه من قَابل. ثم قال: مِن أقلِّ ما أُوتيتم اليقينُ وعزيمةُ الصبر، ومَنْ أُعطى حظَّه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار».

وأخبر ﷺ أن تَرْكَ الادّخارِ مقتضى اليقينِ، وحالُ أُولى العزْمِ من الصّابرين.

وحدَّثنى بعضُ الصوفيين أن بعض الأشياخ لم يكن يُعَيِّشُ مثلنا لغد، فإذا جاءه شىء بالنّهار أخرجه قبلَ الليل. قال: فدُفع إلىَّ ثلاثةُ دراهم من الليل، فقلتُ: أُخرجها قبلَ الصُّبح، ثم قلت: أنامُ الليل فإذا أصبحتُ أخرجتُها، قال: فجعلتها فى وسطى ونمتُ، فرأيتُ فى المنامِ كأنّ فى وَسَطى ثلاثةَ دنانير [من نار]، قال:

فاغتممتُ، وجعلتُ أحلُّها وأتعجَّبُ من ذلك. فقال لى قائل: هذه الثلاثةُ دَراهم التى ادّخرتها. قال: فانْتَبَهْتُ فَزِعًا، فقمتُ، فدفعتُها للوقْتِ إلى بَعْضِ الفقراء.

وحدثنى بعضُ الأشياخ عن بعضِ الصّوفيين أنّه كان كذلك يُخرج كلما فُتح له إلى إخوانه الفُقراء، ولا يدّخر منه لنفسه شيئًا، قال: ففُتح لى مَرةً بدينار، وكان علىَّ دينار دَينًا، فجعلتُ أؤمِّلُ بين أن أحبسه لقضاء دَيْنى، وبين أن أُخرجَه على ما عُوِّدتُ مِن خَليقتى. قال: فقَوِىَ علىَّ شاهدُ العلمِ، فقُلتُ: أُمْسِكه لدَينى أوْلى؛ لأنّه قد استُحِقَّ علىَّ، قال: فلم أُنْفِقْه على إخواننا، وكان ينتابُهم، يُسْتَضاف، قال: فضرَبَ علىَّ ضِرْسٌ من أَضْراسى تلك الليلة، فلم أنَم، فأُشير عَلَىَّ بقَلْعِه فقَلَعْتُه، قال: ثُمَّ خطَرَ بقَلْبى إخراجُ الدِّينار، ثم قلت: الدَّيْن أَوْجَبُ، فحبستُه، قال: فضَرَبَ علىَّ فى الليلةِ الثّانية ضِرسٌ آخر أَسْهَرنى، قال: فنزعتُه. قال: ثم ذكرتُ شأنَ الدِّينار فقُلْت: لعلّى عُوقِبْت بحبْسِه، قال: فأخرجته قبلَ اللّيل، قال: فهتف لى هاتفٌ: لو لم تُخرجه لقَلَعْنا أَسْنَانَك ضِرْسًا ضِرْسًا، حتى لا يبقى فيك ضِرْسٌ واحد.

فهذه مطالباتُ الخُصوصِ، لعُلُوِّ مقاماتِهِم، مَخْصُوصُون به، مُشَدَّدٌ عليهم فيه دُون غيرهم.

وكذلك بلغنى أن بنان الحمّال لم يكن يدّخر شيئًا لغد، ولا يُبيِّتُه من النهارِ، فحدّثنى بعضُ الأشياخِ ممّن رآه، وقد دُفع إليه بمكّة - وكان قد جاورَ فيها - كيسٌ فيه خَمْسُمائة درهم، قال: فصرَّرَه صُررًا، وجعَلَها فى ركْوَتِه، ثم طافَ بها دَوْرةً حَوْلَ المسجدِ الحَرامِ، فجعل يُلقيها إلى الفُقراء صُرّةً صُرّة، وهو يمشى، حتى أنفدها، قال هذا: فكنتُ أراه من حيث لا يعلم، فقلتُ: لأنظرنَّ من أين فِطرُه هذه الليلة، إذ لم يترك لنفسه شيئًا، قال: فلما كان بين العشائين طاف فى الوادى طَوْفةً، ومدَّ يده، وقال: ثَمَّ شىءٌ للهِ، فجُعل فى كفِّه وُسْعَه، فعدل إلى بابِ الصَّفا فقعد فأكَلَه، وشرب من ماءِ زمزم، ودخل الطوافَ. قال: فسألته عن ذلك من الغد، فقال: ما حدَّثتُ نَفْسى أن أعيش إلى الليل، ولو قَوِىَ فى قلبى ذَلك لحَبَسْتُ منه القُوتَ.

فهذا طريق المُقْتَطِعين، سلكوه بزاده بتَقْوى مثلهم، إذ جُعلت قلوبُهُم أوعيةً لمُراده.

وقد كان أبو موسى الدُّبيلى يقول: التوكُّلُ هو أن يستوى عِنْدك البادية وبابُ الطّاق. فهذا لا يكون إلا واصلاً من الحقيقة، يغيب عن تطلُّع إلى سَبَب. كما قال بعضهم: التوكلُ هو استيلاءُ الوَجْدِ على الإشارَة، وحذفُ التشرُّف إلى الإرْفاق حتى يبدو. يعنى أن يغلبَ وجْدُه إشارتَه ـ يقول: أو همه ـ فيَمثُل القلبُ بالوَجدِ، فيقتطعه عن التعلق بسببٍ، ويشغله عن التفرُّغ إلى غيرِه.

وحدِّثتُ عن بعضِ العارفين قال: رأيتُ فى النومِ كأنّ القيامةَ قد قامت، وكأنّ الناسَ يُساقون زُمْرةً زمرةً إلى الجنة على طبقات. قال: فنظرْتُ إلى طبقة أحسنِ الناس هيئةً، وأعلاهم مُرتقى، وأسرعهم سَبْقًا، فقلتُ: هذه أفضلُهم أكونُ فيهم. قال: فذهبتُ لأخطوَ إليهم، وأدخل معهم فى طريقهم، فإذا بملائكةٍ حولهم قد مَنعونى، وقالوا: قِفْ مكانك؛ حتى يجىءَ أصحابُك، فتدخلَ معهم. فقلتُ: تمنعونى أن أكون مع هؤلاء السابقين؟! فقالوا: هذا طريق لا يسلُكه إلا مَنْ لم يكن له إلا قميص واحد، ومن كلِّ شىء واحدٌ، وأنت لك قميصان، ومن الأشياء زوجان. قال: فانتبهتُ باكيًا حزينًا، فجعلتُ على نفسى أن لا أملكُ من كلِّ شىءٍ إلا واحدًا.

وهشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: «ما رفعتُ للنّبى ﷺ غداءً لعشاءٍ، ولا عشاءً لغداءٍ، ولا اتَّخَذَ شيئًا من زوجين، ولا إزارين، ولا قميصَيْن».

وقد كان حذيفة المرعشى يقول: منذ أربعين سنة لم أملك إلا قميصًا واحدًا.

وأخبرنى بعضُ الأشياخ عن أبى على الرُّوزيادى أنه قال: التوكُّلُ على ثلاث درجات: الأول منها: إذا أُعْطى شكر، وإذا مُنِع صبر. والثانى: المنعُ والعطاءُ عنده واحدٌ. والثالث: المنعُ مع الشكر أحبُّ إليه من اختياره.

وقد كان حذيفةُ المرعشى يقول: منذ أربعين سنة لم أملك إلا قميصًا واحدًا. وكان كثير من السلف إذا استجدَّ ثوبًا أو شيئًا أخرج الأوّل منهما، وكانوا

يستعملون الشىء الواحد فى الأشياءِ الكثيرةِ. وهذا كلُّه داخلٌ فى التحقُّق بالزُّهدِ، وهو من فضائل المتوكِّلين.

والخبر المشهور أنّ رجلاً من أهل الصُّفّة تُوفّى فما وجدوا له كفنًا، فقال النبى ﷺ: «فتِّشوا ثوبه». قال: فوجدنا داخل إزاره دينارين، فقال: «كيَّتان». وقد كان غيره من المسلمين يموت، ويخلِّف عدَّةً، فلا يقول له ذلك؛ لأنّ هذا كان حالَه الزّهدُ، وإظهارُ الفقر، ووَصْفُه التوكُّل، وتَرْكُ الادّخار، فشدَّد عليه وغلَّظ بِكيَّتَىْ نارٍ. فاعْتَبِروا يا أُولى الأبْصار.

• ذكر التداوى وتركه للمتوكل وتفصيل ذلك:

ولا يُنْقِص التداوى أيضًا توكُّلَ العبد؛ لأنّ النبىّ ﷺ أمر به، وأخبر عن حكمة الله تعالى فيه، فقال ﷺ: «ما من داءٍ إلا وله دواء، عَرَفَه من عرفه وجهله من جهله، إلا السّام» يعنى الموت.

وقال عليه الصلاة والسلام: «تداووا عبادَ الله». وسُئِل عن الدواء والرُّقَى: هل يَردُّ مِنْ قَدَر؟ فقال: «هى مِنْ قَدَر الله».

وفى الخبر المشهور: «ما مَررْتُ بملأ من الملائكة إلا قالوا: مُرْ أمتَك بالحجامة».

وفى الحديث: أنّه أمر بها، فقال: «احتجموا لسبع عشرة، وتسع عشرة، وإحدى وعشرين، لا يَتَبيَّغ بكم الدَّمُ فيقتلكم».

وفى ذكر تبيُّغ الدّمِ دليلٌ على توقيت هذا العدد من الأيّام للحجامة، إلا أنّه أُريد به هذه الأيام من الشهر، وفيه وَصْفُ الأسباب التى جُعِلَت حُتُوفًا، وسَبَبًا للموت، وخصَّ هذا القدر من العَدَد، وأحسبه لأهل الحجاز خاصةً، لشدة حرِّ البلد.

كقول عمر رضى الله عنه فى الماء المشمس «أنه يُورِثُ البَرَص». سمعتُ أن ذلك فى أرض الحجاز خاصّة.

وكان من سيرة السلف أن يحتجموا فى كل شهر مرةً، إلى أن يجاوز الرجل الأربعين، وكانوا يستحبون الحِجامة فى آخر الشهر.

وقد يُرْوَى فى خبر منقطع: «من احتجم يومَ الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر، كان له دواء من داء سنة». وقد رُوِينا من طريق أهل البيت أنّ النبىّ ﷺ: «كان يَكْتَحل كل ليلة، ويحتجم كل شهر، ويشرب دواءً كلّ سنة».

روى أبو قُلابة عن كَعْب الأحبار قولَ الله عز وجل: «إنّى أنا أُشَجُّ وأُداوَى، فتَداووْا». فالتداوى رُخصة وَسَعَةٌ، وتركُه ضِيقٌ وعزيمة، واللهُ يحبُّ أن يُؤخذ برُخَصِه كما يُحِبّ أن تؤتى عزائمُه. وقد قال الله سبحانه وتعالى: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾** [الحج:٧٨]؛ أى ضيق.

وربّما كان المتداوى فاضلاً فى ذلك لمعنيَيْن: أحدهما: أن ينوى اتّباعَ السنّةِ، والأخذَ برخصةِ الله، وقَبولِ ما جاءت به الحنيفيةُ السَّمحة.

وقد أمر رسول الله ﷺ غيرَ واحدٍ من الصّحابة بالتّداوى والحميَّة، وقَطَع لسعد ابن مُعَاذ عِرْقًا، أى فَصَدَه، وكوى سعد بن زرارة من اللقْوَة، وقال لعلىّ رضى الله عنه، وكان رَمِدَ العينِ: «لا تأكل من هذا ـ يعنى الرطب ـ وكُل من هذا فإنّه أوْفقُ لك» يعنى: سَلْقًا قد طُبخ بدَقيق أو شعير.

وقد تداوى رسولُ الله ﷺ فى غير حديث من العَقْرب، وغيرها. ورُوِى أنه كان إذا نزل عليه الوحى صدَع رأسُه، فكان يُغلِّفه بالحِنَّاء. وفى الخبر: أنّه كان إذا خرجت به قُرْحة جعل عليها حناء، وهو أعْلَى المتوكلين، وأقوى الأقوياء.

فإن قيل: إنّما تداوى لغيره وليَسُنَّ ذلك. قلنا: فلا نرغب عن سنّته، ولا نَزْهَد فى بُغْيته، إذا كان فعلِ ذلك لنا فلا نردُّه عليه؛ لئلا يكون فِعْلاً لغوًا، وتكون الرَّغبةُ عَن سُنّتهِ إلى تَوَهُّمِ حقيقةِ التوكُّل طَعْنًا فى الشّرع.

وقد كان ﷺ ظاهرُه للخَلْقِ؛ ليقتفوا آثارَه، من ذلك: أنه صامَ فى السَّفر فى شدّة الحرِّ، فكان يَصبُّ على رأسه الماء، ويَسْتَظِلُّ بالشَّجر؛ ليَسُنَّ بذلك الرُّخصة فى التبرُّد بالماء للصائم. فقيل له: إن قومًا صاموا، وقد شَقّ عليهم، فدعا بقدح فيه ماء، فشرب، فأفطر الناسُ، فترك حالَه ﷺ لأجلهم. فقيل له: إنّ قومًا لم يفطروا، فقال: «أُولئك العُصاة».

والمعنى الثانى الذى يَفْضُل به المتداوى: أنّه يحب سُرعةَ البُرء للطّاعة، ولخدْمة مَولاه، والسّعى فى أوامره؛ إذ كانت العللُ قاطعةً عن التصرُّفِ فى العَمَلِ، ومشغلةً للنّفْس عن الشّغل بالآخرة. وذكر بعض علمائنا فى الإسرائيليات أنّ موسى عليه السلام اعتلّ علّة، فدخل عليه بنو إسرائيل فَعَرفوا علّته، فقالوا: لو تداويتَ بكذا لَبَرِأتَ، فقال: لا أتداوى؛ حتى يعافينى هو من غيرِ دَواء. قال: فطالت علِته، فقالوا له: إنّ دواءَ هذه العلّة مَعْروفٌ مجرَّب، وإن تتداوَ به تبرأْ، فقال: لا أتداوى. فدامت عِلّته. فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: وعزّتى لا أبرأتُك حتى تتداوى بما ذكروه لك، فقال لهم: داوونى بما ذكرتم، فداووه، فبَرِأَ، فأوْجَس فى نفسه من ذلك. فأوحى الله إليه: أردْتَ أن تُبطل حكمتى بتوكُّلك عَلَىَّ، مَنْ أوْدَعَ العقاقيرَ مَنافعَ الأشياء غيرى؟!

وفى بعض الأخبار: شكا نبى من الأنبياءِ إلى الله عِلّةً يجدها، فأوحى الله إليه: كُلِ البيضَ. وفى خبر آخر أنّ نبيًا من الأنبياء شكا إلى الله تعالى الضعف، فأوحى الله إليه: كُلِ اللحمَ باللبن؛ فإنّ فيهما القوّةَ. قال الشيخ: أحسبه الضعف عن الجماع.

وذكر وهب بن منبِّه أنّ مَلِكًا من الملوك اعتلّ علّةً، وكان حسنَ السيرة فى أهل مملكته، فأوحى الله تعالى إلى شعياء النبى ﷺ: قُلْ له: اشرب ماءَ التين؛ فإنّه شفاءٌ من عِلّتك.

وقد روينا أعجب من ذلك: أنّ قومًا شكوا إلى نَبيهم قُبحَ أولادهم، فأوحى الله تعالى إليه: «مُرْهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السَّفَرْجَل؛ فإنّه يحسِّن الولد». فقد كانوا يطعمون الحبالى السفرجل والنفساء الرُّطَب، وهذا ـ واللهُ أعلم ـ يكون فى الشهر الثالث والرابع من حَمْلِها؛ لأنّ الولد يُصوَّر فيهما.

وعلى ذلك كلِّه فإنّ تركَ التداوى أفضلُ للأقوياء، وهو من عَزائم الدِّين، وطريقة أولِى العزم من الصدّيقين؛ لأنّ فى الدّين طريقين: طريقَ تَبتُّل وعزيمة، وطريقَ توسُّع ورخصة، فمن قَوِىَ سلك الطريق الأشَدَّ، فهو أقربُ وأعلى، ولكن بعد أن يكون معه زاد ذلك الطريق، وهو للمقرَّبين وهم السابقون. ومن ضَعُف

سلك الطريقَ الأرفه وهو الأوسط، إلا أنه أبعدُ لأنه معه زادُ طريقه، وهو لأصحاب اليمين، وهم المقتصدون. وفي المؤمنين أقوياءُ وضعفاء، وليِّنون وأشدَّاء.

ورُوينا عن النبي ﷺ: «المؤمن القوى أحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير». ورُوى عنه ﷺ: «في المؤمنين مَن هُو أشدُّ في الله عزّ وجلّ من الحجارة، وفيهم مَن هُو أليَنُ من اللبن». وقال في وصف الأقوياء: «مَثَل المؤمن كمثل النَّخْلَة لا يَسْقُط وَرَقُها». وقال الله تعالى في معنى ذلك: ﴿**أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ**﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وقال ﷺ: «مَثل المؤمن كمَثَل السنبلة تُفَيِّئُها الرِّياحُ يَمِينًا وشمالاً».

وقال عليه السلام في صفة المؤمن المُطْعِم: «مَثَلُ المؤمن كَمَثلِ النَّخْلة أكلَتْ طيِّبًا ووضعت طيبًا».

وقال في وَصْف المستطعم: «مَثَلُ المؤمِن كمَثَلَ النَّمْلة تجمع في صيفها لشتائها».

فأوصاف المؤمنين متفاوتة في الضعف والقوّة، واللين والعُنُف، وفي الجُبْن والشجاعة، وفي الصبر والجزَع، فَشتَّان بين من شُبِّهَ في القوّة والعُلُو بالنّخلة؛ قَلْبُه ثابتٌ، وهَمُّه في السّماء، يُطعم جَناهُ، ولا يدَّخِر؛ وبين مَن شُبِّه بالنَّملَةِ في الضَّعْفِ، وهو الذى يستطعم ويحتكر.

وقد فَضّل رسول الله ﷺ قومًا ومدحهم أنهم لا يَسْتَرقُونَ ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون، وذكر أنهم يدخلون الجنة بغير حساب، فعلَّلَ بالتوكل وأخبر أنهم تركوا ذلك توكلاً، ثم سأله عُكَّاشةُ أن يدعو الله أن يجعله منهم، ففعل؛ لأنه رأى ذلك طريقَه ورأى معه زاده، وشهد فيه القوّةَ فأهَّلَه لذلك. فلما قال له الآخر: «ادع اللهَ أن يجعلنى منهم»، احتذاءً له، واقتداءً به، ولم يرَ ذلك فيه، ولا وَجَدَهُ منه، ولم يُؤهِّلْه له، ولم يَعذُرْه به، إذ المقامات لا يُقتدى بها، ولا يُتمثل فيها، كما لا تُدَّعى؛ لأنّها مواجيدُ قُلوب باتحادِ قريب، ومُشاهَداتُ غُيوبٍ بإشهادِ حبيبٍ. فمن سما إليها بغيرِ قوّةٍ، وبِتَسَوُّرٍ، فإنه يَنْكُصُ عنها قبل البلوغ، فيتهوّر؛ لأنها تنهار به، لِمَا يردُ إليه من نفسه وطَبْعِه. فلمّا لم يشهد الرسول ﷺ ذلك

مقامَه، ولم يَرَ معه قُوّتَهُ وأعلامَهُ، أَوْقَفه على حَدِّه، وحكَمَ عليه بِوَجْده، وردَّه إلى ضَعْفه، ومَنَعه من تَسَوُّره وعَسْفه، فردّه ردًا جميلاً؛ لأنه كان حَبِيبًا كريمًا، فقال: «سبقَك بها عُكَّاشة». فهذا كما يقول الحاكم الحكيم: إذا ضَعُفَ أحدُ الشّاهدين زِدنى شاهدًا آخر، ولا يصرِّح بجُرح الشّاهد، ولو عدَّله لَقبلَه، ولم يطلب الزيادة، وإلا فالمقامات لا تَضيق بمن سبقَ إليها، والقائم على كُلِّ نَفْسٍ لَيس ذلك عليه بعزيز، إلا أنّه حاكم حكيم، لم يحكم له بالسَّبق، فلم يجعل فيه مكانًا للَغْو، والرسول غيرُ بخيل، مع قوله تعالى شاهدًا له: ﴿وما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤]. ولكن لم يرَ فيه شاهدَ ذلك من القوّة، وتبين فيه الضَّعْفَ عن الحمل، فلم يخاطر به.

وقد نهى عن الكيِّ فى غير حديث، وقال لرجل أراد أن يداوى أخاه إلا أنّه مات من علته، فقال: «أما لو بَرأَ لقلْتَ: أبرَأْتُه». لعلمه بما يَهْجُس فى بعضِ النُّفُوس: أنّ الشفاءَ والنَّفعَ مِن فعِل الدّواء، وذلك مِن الشِّرك. فكَرِه المحقِّقون بالتّوحيدِ التّداوى خَشْيَةَ دُخولِ ذَلك عليهم. كيف وقد جاء نصًا: «مَن اكتوى أو استَرْقى فلم يتوكّلْ». وفى الخبر الثانى: «الطِّيَرةُ شرْك»، وما منا إلا يجد فى نفسه إلا أن الله يذهبه بالتوكل، فأخبر أنَّ التوكُّل هو دَواءُ الشِّرك الخَفِيِّ، وأنَّ الطِّيرةَ قد تَكْمُن فى النفس فيختفى، ومعناها النّظَرُ إلى الأسبابِ من التشاؤم أو التيمُّن بها، أو شهودُ الضُّرِّ والنّفعِ منها، والله تعالى يقول: ﴿وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بضُرٍّ فَلاَ كاشفَ لهُ إلاَّ هُوَ وإن يُرِدْكَ بخَيْرٍ فلا رادَّ لفَضْلهِ يُصيبُ به مَن يَشَاءُ﴾ [يونس:١٠٧].

فوحَّد نفسَه فى الضّرّ والنّفع، وابتلى خلْقَه بالعطاءِ والمَنْعِ، ونَفى ذلك عنهم من فعْلهم، بقول الرسول ﷺ: «لا مَانعِ لما أعطَيتَ ولا مُعْطى لما منعتَ». ودخل الشِّركُ الخَفىُّ فى قُلوبِ العُمومِ بنَظَرهم الأواسطَ والأسبابَ، لظُهُورِ الحكمة بالتّسبُّبِ والاكتساب. وبمعنى ذلك: الخشيةُ من مضارِّ الأشياء المُستَوْدَعة كالرَّجاء للبُرْء.

ومن منافعِ الأسبابِ المجعُولة حديثُ عثمان بن أبى العاص: ذكرنا الحيات عند

رسولِ الله ﷺ فقال: «مَنْ خشى أَرْبَهُنَّ ـ وفى لفظ آخر: نارهن ـ فليس منا».

وقال الخوّاص: ليسَ العَجَبُ ممَّن خرجَ إليه، ولكنَّ العجبَ ممّن تخلَّف عَنْه، والعَجَبُ كلَّ العَجَبِ ممَّن رَغِب فى صُحْبَةِ المَخْلُوقين، وقد دعاهُ الخالقُ إلى صُحْبته. ثُمَّ وَصَفَ الوَلِىَّ، فقال: مُشْرِفٌ على خَلْقِهِ بغاية الكمالِ، يرى مقاماتهم، ويرى الأحكامَ تشهدُها أفعْالاً.

ورُوينا فى حديث الحسن عن مطرِّف بن عبد الله قال: أتينا عمران بن الحُصين نَعُودُه، وكان قد اكْتَوى فى بَطْنه، فقال: «نَهانا النبىُّ ﷺ عن الكَىِّ فاكْتَوْينا، فما أَفْلَحْنا ولا أَنْجَحْنا».

ورُويناه فى لفظ آخر: «فما أَفْلَحْنَ ولا أَنْجَحْنَ» يعنى: الكَيّات.

وكان عِمران قد سُقِىَ بَطْنُه، فظل صريعًا ثلاثين سنةً على سريرٍ من جريد، قد نُقب له فى أسْفلِه لموضع الغائط؛ لأنّه كان سَطِيحًا، لا يستطيع القيامَ، فأشاروا عليه أن يكتوى، فامتنع، فلم يزالوا به وعزَم عليه الأميرُ حتى اكتوى فى بَطْنه سبع كيَّات، فكان يقول: كنتُ أرى نورًا وأسمعُ صوتًا وتُسَلِّم علىَّ الملائكةُ، فلمّا اكتويتُ انْقَطَع ذلك عنّى.

وفى خبرٍ آخر: كانت الملائكة تزوره فيأنس بها، حتى اكتوى، ثم تاب من ذلك وأناب إلى الله، فردَّ اللهُ عليه ما كان يَجِدُه، وقال لمُطَرِّف: ألم تَرَ أنّ الكرامة التى كان اللهُ أكْرمنى بها قد ردَّها علىَّ، بعد أن كان أخبره بفَقْدِها.

فلولا أنّ ذلك كان عنده ذَنْبًا ما ندم عليه، ولَمَا تاب منه، ولولا أنّه كان نقصًا ما صُرِفَت الملائكةُ عنه.

ومرض أبو بكر الصديق رضى الله عنه، فقيل له: لو دعونا لك طبيبًا، فقال: قد نظر إلىَّ الطبيب، فقال: إنّى فعالٌ لما أريد.

وقيل لأبى الدرداء فى مرضه: ما تشتكى؟ قال: ذنوبى. قيل: فما تشتهى؟ قال: مغفرةَ ربّى. قيل: أفلا ندعو لك طبيبًا؟ قال: الطبيبُ أمرضنى.

وقيل لأبى ذر، وقد رَمِدَت عيناه: لو داويتَهما؟ فقال: إنى عنهما لمشغول.

قيل: فلو سألت الله أن يُعافيَك؟ فقال: أسأله فيما هو أهمُّ إلىَّ منهما.

وقيل لأبى محمد: متى يصحُّ للعبد التوكُّل؟ قال: إذا دخل عليه الضرُّ فى جسمه، والنقصُ فى مالِه، فلم يلتفت إليه شُغُلاً بحاله، وينظر إلى قيامِ اللهِ عليه.

وقد كان أصاب الربيعَ بن خيثم الفالجُ، فقيل له: لو تداويتَ؟ فقال: قد هَممْتُ، ثم ذكرتُ عادًا وثمودًا وقرونًا بين ذلك كثيرًا، كانت فيهم الأوجاع، وكانت فيهم الأطباء، فهلك المداوِى والمداوَى، ولم تُغْنِ الرُّقَى شيئًا.

وقد أصاب عبدَ الواحد بن زيد الفالجُ، فعُطِّل عن القيام، فسأل الله أن يطلقه فى أوقات الصلاة، ثم يردُّه إلى حاله بعد ذلك، فكان إذا جاء وقت الصلاة فكأنما أُنْشط من عقال، فإذا قضى الصلاة رجع إليه الفالج كما كان قبل ذلك.

ومن لم يتداوَ من الصدِّيقين والسَّلَف الصّالح أكثرُ من أن يُذْكَر، إلا أنه مَخْصُوصٌ لخُصوصٍ، وطريقُ الخاصّة الأقوياء، لا يَسْلُكه الشَّوْبُ [(١)] من العُموم والضُّعفاء. وذلك مذهبُ إبراهيم الخوَّاص وطريقُه. وكان يرى أن المتوكِّل إذا تداوى نقص بذلك تحقيقُهُ.

وقد كان أبو محمد سهل يقول: إنَّ تَرْكَ التّداوى ـ وإن أضعف عن الطاعات، وقصَّر عن الفرائض ـ أفْضَلُ من التّداوى لأجل الطاعات. وكانت به علّة عظيمةٌ فلم يكن يتداوى منها، وقد كان يُدَاوِى النّاسَ منها.

وكان إذا رأى العبدَ يصلِّى من قُعود مع تصبُّره ورضاه، أو لا يستطيع أعمالَ البرِّ من الأمراض، فيتداوى للقيام فى الصلاة، والنهوض إلى الطاعةَ ـ يَعْجَب من ذلك، ويقول: صلاتُه من قعودٍ مع رضاه بحاله أفضلُ له من التداوى للقوة ويصلّى من قِيام.

وسئل عن شُرب الدواءِ فقال: كُلُّ مَن دَخل إلى شىءٍ من الدواء، فإنما هو سِعَة من الله لأهل الضَّعف، ومن لم يَدْخُل فى شىء منه، فهو أفضلُ؛ لأنه إن أخذ شيئًا من الدّواء ـ ولو كان الماء البارد ـ سُئل عنه: لِمَ أخذْتَ؟ ومن لم يأخذ

(١) الشّوب: الخلط من الناس. ويمكن أن تضبط: الشُوَّب.

فليس عليه سؤال. وقال مرّة: مَنْ يأخذ الماءَ الباردَ على سبيل الدواء سُئل.

وأصْلُه فى هذا: أنّ عنده من أَفْضلِ الأعمالِ أن يُضْعِف العبدُ قوّتَه حتى لا يكون لنفسه حراك؛ لأجل الله تعالى، وإنّ ذرّةً مِن أعمالِ القلوبِ؛ مِثْلِ التوكل والرّضا والصبرِ، أفضلُ من أعمالِ جبالٍ مِن عملِ الجَوارحِ. وهذا مَذْهب البصريين فى إسقاط القوّةِ بالتَّجوُّع الطّويل، والطىِّ الكثير، لتَضْعُفَ النَّفْسُ؛ لأنّ عندَهم أنّ فى قوةِ النّفس قوةَ الشهوات، وغلبةَ الصفات، وفى ذلك وجودُ المعاصى، وكثرةُ الهوى، وطولُ الرَّغبة، والحرصُ على الدّنيا، وحبُّ البقاء.

يقول: إذا أدخل اللهُ عليها الأمراضَ من حيثُ لا تحتسب، فلا يتعالج لرفْعِ الأمراض عنها، فإنّ المرضَ من نهايةِ الضَعْف، ومن أبْلغِ ما يَنقص به الشّهوة. وقد كان يقول: عللُ الأجسام رحمةٌ، وعلل القلوب عُقُوبةٌ. وقال مَرّةً: أمراضُ الجسمِ للصّدِّيقين، وأمراض القلوب للمنافقين.

وقد كان ابن مسعود يقول: تجد المؤمن أصحَّ شيءٍ قلبًا وأمرضَه جسمًا، وتجد المنافق أصحَّ شيء جسمًا وأمرضَه قلبًا.

وعن رسول الله ﷺ قال: «تحبون أن تكونوا كالحُمُر الضالّة؛ لا تمرضون ولا تسقمون؟». وفى الخبر: «لا تزال الحمَّى والعلل بالعبد حتى يُمسى فى الأرض كالبُردةِ وما عليه خطيئة».

وقد قيل: لا يخلو المؤمن من علّة فى جسمه، أو قِلّةٍ فى مالِه. وقيل: لا يخلو من عَيْلة أو ذِلَّة.

• ذكر الفضائل لمن لم يتداو ويصبر للقضاء:

وللعبد إن لم يتداوَ أعمالٌ حسنة، منها: أن ينوى الصبرَ على بلاء الله تعالى، والرِّضا بقضائه، والتسليمَ لحُكْمه؛ إذ قد حَسُن عنده؛ لأنه موقِن، وإذ قد عرف الحكمةَ فى ذلك، والخيرةَ فى العاقبة؛ لأنه حكيم عليم على أنه فى ذلك كريم رحيم.

ومنها: أنّ مولاه أعلمُ به منه، وأحسنُ نظرًا واختيارًا، وقد حبسه وقيَّده

بالأمراض عن المعاصى. كما رُوى عن الله تعالى: «الفقر سجنى، والمرض قَيْدى، أحبس بذلك مَنْ أحبُّ من خلقى»، فلا يأمَنُ إنْ تَداوى فعُوفى أن تَقْوَى النفسُ، فيفسده هواها؛ لأنّ المعاصى فى العوافى، وعِلَّةُ سَنَةٍ خير من معصية واحدة.

لقى بعضُ الناس بعضَ العارفين، فقال له العارف: كيف كنت بعدى؟ قال: فى عافية. فقال: إن كنتَ لم تَعْصِ الله فأنتَ فى عافية، وإن كنتَ قد عصيتَه فأىُّ داء أَدْوَى من المعصية! ما عُوفى مَن عَصى.

وقال علىٌّ رضى الله عنه لما رأى زِينة النبط بالعراق يوم عيدهم: ما هذا الذى أظهروه؟ قالوا: يا أميرَ المؤمنين، هذا يوم عيدٍ لهم، فقال: كلُّ يوم لا يُعْصَى اللهُ فيه فهو عيد لنا.

وقال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، قيل: العوافى والغنى.

وقال بعضُهم: إنّما حمَل فرعونَ أن قالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] طولُ العوافى، لبِثَ أربعمائة سنة(١) لم يَصْدَعْ له رأس، ولم يُحَمْ له جسم، ولم يَضْرِب عليه عرق، فادَّعى الرُّبوبية، ولو أخذته الشّقيقةُ والمليلةُ فى كلِّ يومٍ لَشغلَه ذلك عن دَعْوى الرُّبوبية.

واعْلم أنّ الإنسانَ قد يَطغى بالعوافى، كما يطغى بالمال؛ لأنّه قد يستغنى بالعافية، كما يستغنى بالمال، وكلٌّ فيه فتنة واختبار، وقد قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

وقال الرسول ﷺ: «نعمتان مَغْبونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ الناس: الصِّحةُ والفراغُ». فصار الصَّحيحُ مغبونًا؛ لأنّ السَّقيمَ معذورٌ.

وقال الله تعالى: «إنّ من عبادى من لا يصلحه إلا السَّقَم، ولو أصْحَحْتُه لأفسدَهُ ذلك». فكان السَّقِيم صالحًا، إذ قد يكون المعافَى مُفْسدًا.

(١) تقدير عمره فيه مبالغة شديدة، حيث كشفت علوم المصريات القديمة غير ذلك.

وكذلك جاء فى الأثر: «أشدُّ النّاسِ حِسابًا غدًا الصحيحُ الفارغُ». فجاء مِن تدبُّرِه أنّ أيسرهم حسابًا السقيمُ المشغولُ بنفسه، فالعصْمة فى حال العافية نعمة ثانية، كالعصمة من المعْصية بالغنى فى حالِ الغِنى نِعمةُ النِّعمة. وقد لا يُعطَى ذلك كلُّ النّاسِ؛ لأنّ الأكثر يُعطَى النعمةَ الأولى من المعافاة، ثم لا تتم النّعمة عليه بالنِّعمة الثانية، وهو المعافاة الأخرى من الذنوب. كما يُعطَى النعمةَ الأولى من الغِنى، ولا يُتَمُّ له بالنعمة الأخرى من العِصمة فيه، بالإنفاق فى الطاعات، ووضع ذلك فى القُربات. فصارَت العِصْمة بالعِلّة؛ لأنّها تمنع من المعصية نِعمةً كالعصْمة بالفَقْر؛ لأنّه يمنع من الشَّهوات رحمةً، فلا يأمن أن يكون فى دوامِ صِحتِه هَلَكتُهُ، كما يكون فى فضلِ غِناه معصيتُه.

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنيا واسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] قيل: الغنى والعوافى؛ لأن بهما تطيب الطّيبات، فصارا أطيبَ الطيبات. فإذا أُسقم وأُفقِر لم يكن مُذْهبًا لطيباته فى حَياتِه، ولا متمتعًا بها لِنَفْسِهِ فى شهواته، فكان ذلك أحمدَ لعاقِبتِه، وخيرًا له فى عاقبتِه. فإذا تداوَى زال عنه جميعٌ ذلك بالدّواء.

فالدّواء وإن كان فى التوحيد لا فعل له، وإنّ الله تعالى هو المعافى الشّافى، فقد فعل ذلك بواسطة العبدِ، وبسبب التّداوى، وإن كان ذلك فعلَه، وإرادتَه، وحُكْمَهُ، كما قلنا فى تَفصِيلِ الأفعال، إذا فَعَل شيئًا أبداه منه بغير مداخلةِ النَّفْسِ، ولا بيدٍ لعَبدٍ، كان العبدُ مأجورًا، ولم يكن به مُطالبًا.

وإذا فعلَهُ تعالى بيد العبدِ وواسطته، أعاد على العبد حُكْمَه؛ لأنه قد أظهر فيه وقسمه.

وروينا عن موسى ﷺ: «يا ربِّ، مِمَّن الدّواءُ والشِّفاءُ؟! قال: مِنّى. قال: فما يصنع الأطباء؟ قال: يأكلون أرزاقهم، ويُطَيِّبون نفوس عبادى، حتى يأتى شفائى أو قَبْضى».

ويقال: إن بين الداء والدّواء حجابَ المشيئةِ، ولا ينفع الدّواء حتى ينكشف الحجاب.

وقد كان أحمد بن حنبل يقول: أُحبُّ لِمَن اعتقد التوكُّل، وسلك هذا الطريقَ، تَرْكَ التداوى؛ مِن شُرْب الدواء وغيرِه. وقد كانت تكون به عِلَلٌ، ولا يُخبِر المُطَبِّبَ إذا سأَلَهُ.

ومن الفضائل أنَّ الأمراضَ مُكفِّرة للسَّيِّئات، فإذا كَرِهَ الأمراضَ بقيت ذنوبه عليه موفورة، وفى الخبر: «حُمّى يَوْمٍ كفارةُ سَنَة». وأحسنُ ما سمعتُ فى تأويله، قال: لأن حمّى يومٍ تهدُّ قُوّةَ سنةٍ. وقيل: فى الإنسان ثلاثمائة وستون مَفْصِلاً فتدخل حمّى يومٍ فى جميع المفاصلِ، فيكون له بكلِّ مَفْصلٍ كفّارةُ يومٍ.

ولمّا ذكر رسولُ الله ﷺ: كفّارةَ الذنوب بالحمَّى، سأل زيدُ بن ثابت ربَّه ـ ويقال أيضًا أُبىُّ بن كعب ـ أن لا يزال مَحمومًا. قال: فلم تكن الحمى تفارقه فى كل يوم حتى مات. وسأل ذلك طائفة من الأنصار.

وكذلك لما ذكر رسولُ الله ﷺ: «من أذْهَب اللهُ كريمَتَيْه لم يرضَ لَه ثوابًا دُون الجنة». قال: فقد رأيتُ الأنصار يتمنَّون العمى.

ولما جاءت الحُمّى رسولَ الله ﷺ تستأذن عليه قال: «اذهبى إلى أهلِ قُباء». وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿فيه رِجَالٌ يُحبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة:١٠٨]، أى من الآثامِ والذّنوب بالحُمّى والأمْراض.

فلو لم يكن فى ذلك إلا مَحبةُ اللهِ، وشهادَتُه بطُهْرةِ العبدِ بالعلّةِ، لكان نصيبًا موفُورًا. قال: فأسْقَمَتْهُم الحُمَّى وأنهكتهم، فجاءوا إلى رسول اللهَ ﷺ يسألونه كشفَها. فقال: «إن أحْبَبْتم دعوتُ اللهَ فرفعها عنكم، وإن أحْبَبْتم تركتُها، فقد كانت لكم طَهُورًا». فقالوا: بل نتركها فشكر اللهُ صَبْرهم، فأخبر بمحبته لهم.

فكان من هذا أنّ تَرْكَ الأمراضِ اختيارٌ للهِ، وإيثارُ محبتِهِ، وأنَّه أفضلُ لحُسْنِ ثناءِ اللهِ عليهم باختيارها.

وروينا عن عيسى ﷺ: «لا يكون عالمًا من لم يفرح بدخول المصائب على جَسدِهِ ومالهِ»، لما يرجو فى ذلك من كفارة خطاياهُ.

والصدِّيقون يُبْتَلون بعللِ الجَوارح، والمنافقون يُبْتَلون بأمراضِ القلوب؛ لأنّ فى

أمراض الأجسام ضَعْفَها عن الآثام والطغيان، وفى أمراضِ القلوب ضَعْفَها عن أعمالِ الآخرة والإيقان. وفى معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ [لقمان: ٢٠]، قيل: ظاهرة العوافى، وباطنة البلاوى؛ لأنّها نِعمُ الآخرة.

ورُوِى أنّ موسى عليه السلام نظرَ إلى عبدٍ عظيمِ البلاء، فقال: يا ربِّ، ارحمه أنت، فإنّى قد رحِمتُه. فأوحى الله عز وجلّ إليه: كيف أرحمه؟ ممّا به أرحمه.

وقد قال الله وهو أصدق القائلين فى تصديق هذا المعنى: ﴿**وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [المؤمنون: ٧٥]، فأخبر أنّ فى ترك الرحمة لهم من الأمراضِ لُطْفًا بهم، ورحمةً باطنةً لهم.

ورُوِينا عن عبد الواحد بن زيد: أنّه خرج فى نَفَر من إخوانه إلى بعض نواحِى البصرة، فآواهم المسيرُ إلى كهفِ جبلٍ، فإذا فيه عَبْدٌ مُقطَّع بالجُذام، يسيل جسدُه قيحًا وصديدًا لا طِياحَ به[1]، فقالوا: يا هذا، لو دخلتَ البصرة، فتعالجتَ من هذا الداء الذى بك! فرفع طرْفَه إلى السّماء، وقال: سيدى، بأىِّ ذَنْبٍ سلَّطْتَ هؤلاء علىَّ يُسَخِّطونى عليك، ويُكرِّهون إلىَّ قضاءَك، سيدى أستغفركَ من ذلك الذّنبِ، لك العُتْبَى، إنّى لا أعودُ فيه أبدًا. ثم قال: اصرِفهم عنى، ارْدُدهم عنى. قال: وكُنّا جماعة، فما مَلَكْنا رؤوس دوابِّنا، ولا قَدِرْنا على ضَبْطِها حتى رَدَّتْنا إلى البَصْرة.

نحو هذا رسمتُه حِفظًا.

فإنما كُرِه للمتوكل التداوى؛ لأن حاله الرِّضا، ومقتضى الرِّضا تَرْكُ الاعتراضِ بحلول اللأْواء. وفى الخبر المشهور: «نحن معاشرَ الأنبياء أشدُّ النّاسِ بلاءً، ثم الأَمْثَلَ فالأمثلَ». يعنى شَبَهًا بنا. يُبتَلى العبدُ على قدر إيمانه، فإن كان فى إيمانه صلابة شُدِّد عليه البلاءُ، وإن كان فى إيمانه ضعف خُفِّف عنه البلاءُ. ولذلك قيل لرسول الله ﷺ: إنَّك تُحَمُّ حُمَّى رجلين، فقال: «لأنّا يُضاعف لنا الأجرُ مرتين».

---

(١) فى المطبوعة: الأطباخ، وهى تصحيف، والتصويب من المخطوط. ولا طياح به: أى لا حركة به.

وقالت عائشةُ: ما رأيتُ أشدَّ حُمّى من رسول الله ﷺ، ما كنا نقدر أن نضع أيدينا نَمَسُّ حُمَّاه من حَرِّها. ويقال: كان يوجد حرُّ حمّاه ﷺ من فوق الثّياب.

وفى الخبر الآخر: «إنّ الله تعالى يجرِّب العبدَ بالبلاءِ، كما يجرِّب أحدُكم ذَهَبَه بالنّار». فمِنهم مَن يَخرجُ كالذّهبِ الإبريز، ومنهم دون ذلك، ومِنهم مَن يخرجُ أسودَ محترقًا.

وقد رُوينا حديثًا من طريق أهل البيت: «إذا أحبَّ اللهُ عَبْدًا ابتلاه؛ فإن صبرَ اجْتَباهُ، وإنْ رَضِىَ اصْطفاه».

ومنها أنّ المَلَكَ يكتُب له مثلَ أعماله الصالحةِ التى كان يعملها فى صِحّته، وأنّه يُجرى له من الحسنات مثلَ ما كان يُجرى له على أعمالهم، فيكتب المَلَك له أعمالاً صالحة خيرًا له من أعمالِه؛ لأنّه قد يَدْخُلها الفسادُ. واختيارُ الله له أن يستعملَه بالأوجاعِ خَيرٌ له من اختياره لنفسه أن يستقلَّ إلى الله بالأعمال الصالحة. وهذا أحد المعنيين فى معنى الخبر: «أفضلُ الأعمالِ ما أُكْرِهَتْ عليه النفوسُ». قيل: هو ما دخَل عليها من المصائبِ فى الأنفس والأموال، فهى تكره ذلك وهو خيرٌ لها.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ**﴾ [البقرة:٢١٦]. قد يكره العبدُ الفَقْرَ، والعِلَّة، والعَيْلَةَ، والضُّرَّ، والخُمولَ، وهو خيرٌ له فى الآخرة وأحمدُ عاقبةً. وقد يحبّ الغِنَى، والعوافى، والشُّهرةَ، وهو شرٌّ له عند الله وأسوأُ عاقبة. وقد قال اللهُ تعالى: ﴿**وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ**﴾ يعنى الأمراض والعلل، هو نقصُها مِن أوصافِها، وقواها، وزيادةَ معانيها، فهو خيرٌ له إذا صبَر، وفضل له إن شكر، ودرجاتٌ إذا رضى وتوكَّل ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة:١٥٥]. والله يحب المتوكِّلين.

وفى الخبر أيضًا يقول الله تعالى لملائكته: «اكتبُوا لعبدِى صالحَ ما كان يعمل، فإنه فى وثاقى؛ إنْ أطلقتُه أبدلْتُه لَحمًا خَيْرًا من لَحْمِهِ، ودَمًا خيرًا من دَمِه» قيل:

لأنّه طُهِّر من المعاصى، وكُفِّر به عنه الخطايا. قال: «وإن تَوَفَّيْتُه توفّيتُه إلى رَحْمتى» ولا ذنب عليه أبدًا.

فإبدالُ صِفَته، لحُسْن اختيارِ الله له، خيرٌ له فى الدنيا والآخرة، من اختيارِه وشَهْوته.

والأصلُ فى التّداوى وتَرْكه أنّ المتوكلَ على اللهِ قد عَلِم فى توكُّله أنّ للعلَّة وقتًا، إذا انتهت إليه برأ العليل بإذنِ الله لا مَحالةَ، ولكن الله عزّ وجلّ قد يَحْكُم أنّه إن تَدَاوى شفَاهُ فى عشرةِ أيام، وإن لم يتداوَ أبرأه فى عِشرين يومًا؛ ليترخَّص العليلُ بما أباحه اللهُ له، فيطمع فى تعجيلِ البُرءِ فى عشرةِ أيام؛ ليكونَ أسرعَ لشفائه، وأقربَ إلى عافيته، على أنه معتقدٌ أنّ الدواء لا يَشْفِى، وأنّ التداوى لا ينفع لعينه؛ لأنّ الله هو الشافى وهو النافع، فالشّفاءُ والنّفعُ فعلُه لعبدِه، وجعلُه فى الدواء من لطائف حكمتهِ لا يَجْعَله سواه، ولا يَفْعَله إلا إياه؛ إذ كانت العقاقيرُ مطبوعةً مجبولةً على خلقها، فجاعلُ الأسبابِ فيها هو جَابلُها؛ لأنّ الجُعْلَ فيها والخاصيةَ منها ليس من عَمَلِ المتطبِّب، وإن كان يعمل بها، ويجمع بينها وبين العليل؛ لأنّه ظهر على يديه سَببًا لرزقه، فالله خالقُ جميعِ ذلك وفاعلُه، وكذلك قال الله تعالى: ﴿واللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وكذلك أيضًا عند العارفين أنّ الخبزَ لا يُشْبِع، وأنّ الماءَ لا يُرْوِى، كما أنّ المالَ لا يُغنِى، والعُدْمَ لا يُفقر؛ لأنّ اللهَ هو المُطْعِم والمُسْقِى، وهو المُشْبِع والمروى، كما هو المغنى والمفقر، بما شاء، كيف شاء، وهو جاعلُ الشِّبَع والرِّيِّ فى المطعوم والمشروب، وفى النّفْس بالغِنَى والفَقر، لحكمته ورحمته، كما أنّ اللهَ تعالى هو المجيعُ المُظْمِئُ، فيُدخل الطّعامَ والشرابَ على الجُوعِ والعطَشِ اللذين جعَلَهما؛ فيُذهبهما بما أدخَل عَلَيهما، كما يُدخلُ الليلَ على النّهارِ، ويُدخل النهارَ على الليل، فيغلب سلطانُ كلِّ واحد على الآخر فيُذْهبه، فسواء هذا عند الموحِّدين من وصْف الليلِ والنهار، ومن العِلَلِ والأدْويةِ، يتسلط الشيءُ على ضدِّه فيُزيله بقَلْبه، فهذه بإذن الله.

فالعلمُ بهذه المعانى عَقْدًا هو الإيمان، والشّهادةُ لها قائمة به، وحقًّا هو اليقين.

والشِّركُ فى هذه الأشياءِ فى العُموم أخفَى من دبيبِ النَّملِ على الصَفا، والموقنون الصَّحِيحو التّوحيدِ مِن جَمِيع ذلك بَرآءُ.

وعلى هذه المعانى أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿**الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [طه: ٥٠]؛ أى: أعطى كلَّ لونٍ وجِنْسٍ خِلْقَتَه وطبعَه، أى صورةَ الشىء ووصفَه للضّرِّ والنفع، الذى ركَّبه فيه، وأظهره به.

فإن تَعجّل العليلُ البُرءَ بالتداوى، فبرأ، كان ذلك بِقضاء الله وقدره على وصف السّرعة من المعافاة. فإن كان ناويًا فى تداويه واستعجاله شفاءَه الطاعةَ لمولاه، والقيامَ بين يديه للخدمة، كان مُثابًا على ذلك، فاضلاً فيه غيرَ منقوص فى مقام توكُّلِه. وإن أراد بذلك صحةَ جسمه لنفسه والنعيم بالعوافى كان ذلك بابًا من أبوابِ الدنيا، ودُخولاً فيما أُبيح له منها، وهو يُخْرجه من فضيلة التوكُّل وحقيقته بمقدار ما نَقَصَه من الزهد فى الحياة والنعيم، وإن أراد باستعجال العوافى قوةَ النفس؛ لأجل الهوى وليسعى فى مخالفة المولى، كان مأزورًا بسُوءِ نيَّته، ووُجُود عزيمتِه، ويخرج من المباح إلى المحظور، وذلك يُخْرِجه من حدّ التوكل وأوّله؛ وهذا من مذموم أبواب الدنيا وممقوتها.

وإن كانت نيتُه فى تعجيلِ العوافى التصرفَ فى المعايش، والتكسُّبَ للإنفاق والجمع، نُظِر فى شأنه؛ فإن كان يسعى فى كَفافٍ وعلى عِيالٍ ضِعافٍ، وعن حاجةٍ وإجحاف، لَحِقَ هذا بالطبقة الأولى، وهذا باب من أبوابِ الآخرة، وهو مأجورٌ عليه، ولا يُخرِجه من التوكل.

وإن كان يسعى فى تكاثرٍ وتفاخرٍ، ولا يبالى من أين كسب، وفيما أنفق، لَحِقَ هذا فى الطبقة الثالثة من العاصين، وهذا من أكبر الدّنيا الْمُبعِدةِ عن الله عزّ وجلّ.

فهذه نيّاتُ الناسِ فى التداوى؛ المحمودةُ، والمذمومةُ.

فإن لم يتداوَ المتوكِّل؛ تسليمًا للوكيل، وسكونًا تحت حكمه، ورضًا باختياره وصُنعه، إذ قد أيقن أنّ للعلّةِ وَقْتًا إذا جاء برئ بإذن الله تعالى إلا أنّها بعد عشرين يومًا، فيصبر وَيرْضَى ويحمل على نفسه ألم عشرة أيام؛ رضًا بقضاء الله، وصبرًا

على بلائه، وحسنَ ظنٍّ باختياره له، ولا يتّهمه فى قضائه عليه ـ فهذا هو أحدُ الوجوه فى حُسن الظّن باختيارِ الله، أن لا يَتَّهمَ اللهَ فى قَضَائه.

وقد رُوى فيه نصٌّ: أنّ رجلاً قال: يا رسولَ اللهِ، أوصنى. فقال: «لا تَتَّهِم اللهَ فى شىءٍ قَضاهُ عَليك».

وهذا أيضًا أحد معانٍ لِمَا ينفع الصبر عليه، ويحقّ حُسْنَ الجزاءِ وتوفية الأجر بغير حساب بعدَهُ، فى قوله تعالى: ﴿وجَزَاهُمْ بمَا صَبَرُوا جَنَّةً وحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، وقوله: ﴿إنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقد رُوى فى معنى هذا خبرٌ فيه شدّة، يقول الله تعالى: «مَنْ لم يَصْبِر على بَلائى، ويَرْضَ بقضائى، ويَشْكر نَعْمائى، فَلْيتَّخذْ ربًا سواى».

وهذا بابٌ من الزّهد فى الدنيا بمقدار ما نقص من الرغبة فى نعيم النّفس؛ لأنّ الجسمَ من المُلْكِ، فما نَقَص منه نقَص مِن الدُّنيا، والقَلْبُ مِن المَلَكُوتِ، فما زاد فيه زاد فى الآخرةِ.

وقد ذكرَ اللهُ تعالى الصَّبرَ على نَقْصِ النّفس، وبشَّرَ الصّابرينَ فى استسلامهم للمُبْلِى بنقصِ الأنفس، وصلّى عليهم، وجعلهم مهتدين، فى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ولَنَبْلُونَّكُمْ بشَىءٍ مِنَ الخَوْفِ والجُوعِ ونَقْصٍ مِنَ الأمْوالِ والأنْفُسِ﴾ [البقرة: ١٥٥] فنقص الأنفس بالأمراضِ والأسقام، ونقص الأموال بالإتلافِ والإعدام؛ ولذلك جعلناه مع الصَّبر زُهدًا؛ لاقتران المال بالنَّفس شَهْوةً ووَجْدًا. وهذا أيضًا داخلٌ فى مُخالفةِ النّفس، إذ تعجُّلُ العوافى من مَوافَقَتِها، فهو بابٌ من خلاف الهوى، ومجاهدة النفس عن الهوى. كيف وصَلاحُهُ لله تعالى فيه، إذ مع الأمراضِ اجتنابُ المعاصِى، وتركُ كثيرٍ من الأغراض، كما قال: «إنّ من عِبادى من لا يُصلحه إلا السَّقَم ولو صححته لأفسده ذلك». ولا يأمن فى استعجال العوافى دخولُ المعاصى. وبعد ذلك فإنّ أيام العلّة معلومة، فإذا انقضت جاءت الصِّحّة المَقْسُومة: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أجَلٌ إذَا جَاءَ أجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأخِرُونَ سَاعةً ولا يَسْتَقْدمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

أيضًا فى الأمراض تجديدُ التوبة، والحزنُ على الذنوب، وكثرةُ الاستغفار،

والاستعتابُ منها، وحسنُ التذكرةِ، وقصرُ الأمل، وكثرةُ ذكر الموت. وفى الخبر: «أكثروا من ذكر هاذم اللّذات».

ومِن أبْلغِ ما يُذْكَر به الموتُ ويُتوقَعُ نزوله: الأمراضُ، فقد قيل: الحُمّى بريد الموت. وفى قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوَ لاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة:١٢٦] الآية، قيل: بالأمراض والأسقام، يُختبرون بها. ويقال: إنّ العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يَتُب قال ملك الموت: يا غافل، جاءك منّى رسولٌ بعد رسولٍ فلم تقبل، الآن آتيك بنفسى، أضربك ضربة أقطع منك الوتين.

وقد كانوا يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يُصابوا فيه بنقص من نفسٍ أو مال. ويقال: لا يخلو المؤمن فى كل أربعين يومًا أن يُرَوَّع بروعة أو يُصاب بنكبة، فكانوا يكرهونَ فَقْدَ ذلك فى ذهاب هذا العدد من غير أن يصابوا فيه بشىء.

ورُوى أن عمارًا تزوَّج امرأة، فلم تكن تمرض، فطلَّقها. وأنّ النبىّ ﷺ عُرِضَتْ عليه امرأةٌ، فذُكر من وَصْفها، حتى همَّ أن يتزوَّجها، فقيل له: إنّها ما مَرضت قط. فقال: لا حاجة لى فيها. وذكَر رسولُ الله ﷺ الأوجاعَ من الصداع وغيره، فقال رجل: وما الصّداع؟ ما أعرفه. فقال النبى ﷺ: «إليكَ عنّى، من أراد أن ينظر إلى رجلٍ من أهل النار فلينظر إلى هذا». لأنّ فى الخبر: «إنّ الحمَّى حظُّ المؤمن من نار جهنم».

وفى حديث أنس وعائشة: يا رسول الله، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرُهم؟ فقال: «نعم، مَنْ ذكر الموتَ فى كلِّ يومٍ عشرين مرة». وفى لفظ الحديث الآخر: «الذى يذكر ذنوبَه فتحزنه».

وإنْ تَرَكَ التداوى، وبرئَ بغير دواء، كان هذا من قضاء الله وقدره على وصْف الإبطاء. وقد اختلف رأىُ الصحابة فى مثل هذا المعنى عامَ خرج عمرُ رضى الله عنه إلى الشّام، فلما بلغوا الجابية، انتهى إليهم خبرُ الشامِ أنّ به وباءً عظيمًا، وموتًا ذريعًا، فوقف الناسُ، وافترقوا فِرقتين: فمنهم من قال: لا ندخل على الوباء، نلقى بأيدينا إلى التهلكة؛ فنكون سببًا لإهلاك أنفسنا. وقالت طائفة

أخرى: بل ندخل، ونتوكّل على الله، ولا نَهْرُب من قَدَرِه، ولا نفرُّ من الموت، فنكون كمَن قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة:٢٤٣]. فرجَع الجميعُ إلى عمر، فسألوه عن رأيه، فوافق عُمرُ الذين قالوا: نرجع ولا ندخل على الوباء، فقال له آخرون: أنفرُّ مِن قَدَر الله؟ فقال عمرُ: نعم، نَفرُّ من قَدَر إلى قدر الله. ثم ضرب لهم مثلاً، فقال: أرأيتم لو كان لأحدكم غنم، وله شُعبتان: إحداهما مُخْصِبةٌ والأخرى مُجْدِبة، أليس إنْ رَعَى المخْصِبةَ رعاها بقدر الله، وإنْ رَعَى المجْدبة رعاها بقدر الله؟ فسكتوا.

ثم دعا عمرُ بعبد الرحمن بن عوف، يسألُه عن رأيه، فقيل: هو غائبٌ، قد تأخَّر فى المنزل الذى نَزَلنا فيه. فَثَبَت عمرُ وأصحابهُ على ذلك الرأى، وعلى أنْ يسألَ عبدَ الرحمن عن رأيه فيه، فلما أصبحوا جاء عَبْدُ الرحمنِ بن عوف، فسأله عمرُ عن ذلك، فقال: عندى فيه ـ يا أمير المؤمنين ـ شىءٌ سمعْتُه من رسول الله ﷺ، فقال عمرُ رضى الله عنه: الله أكبر، يقول: «إذا سمعتُم بالوباءِ فى أرضٍ فلا تَقْدُموا عليه، وإذا وَقَع فى أرض وأنتُمْ بها فلا تخرجوا فرارًا منه». ففرح عمرُ بذلك؛ إذْ وافق رأيَه، فرجع بالناس من الجابيَة، أو من سَرْغ. والحديث أتَمُّ من هذا ذكرتُه على المعنى، وفيه معانٍ من الفقه كثيرة، ذكرتُها فى موضعه.

● بيان آخر من التمثيل فى التداوى وتركه:

وَمَثَلُ التداوى وتَرْكُه ـ فى أنّهما مُباحان، وأنّ أحدَهما طريقُ الأقوياء الصابرين، وهو تركه ـ مَثَلُ التكسُّب وتركه: أنّ التكسُّبَ عندَ الجوع، الذى هو علّة الجسمِ؛ ليستعجلَ العبدُ الدواءَ بالخبز، جائزٌ له، لا يقدح فى تَوكُّله؛ لأنّه مُباحٌ له، مأمور به.

فإنْ نَوَى بالتكسُّب القوّةَ على الطاعة، والسعْىَ فى سبيل اللهِ، والمعاونةَ على البرّ والتقوَى، كان فاضلاً فيه.

وإن نوى بالتكسُّب الأَكْلَ للشهواتِ، والقِيامَ بحظوظ النفسِ من الرَّفاهية، نَقَصَ ذلك من توكُّله، وأخرَجه مِن حقيقته، فكان طريقًا من طُرقات الدنيا، إلا

أنّه مُباح.

وإنْ قصد بتكسّبه التكاثر، والحرْصَ للجمع والمنع، كان عاصيًا بكَسْبه، مُخالفًا لربّه، وهذا مِن أكبر طُرُقِ الهوَى.

ثمّ إنْ لم يتكسَّب، وصبر على الجوع، ورَضِيَ بالقلة والفقر، فإنّ رزقَه يأتيه لا محالةَ لمجيء وقته، وإنْ كان قليلاً دون سَعة، ولكنّه يحتاجُ إلى فضل صبرٍ، وحُسْنِ رضًا، وسكونِ نفسٍ، وطمأنينة قلبٍ، فإن وجد هذه المعانى فهذا هو التوكّل، وكان فاضلاً فى تَرْكِ التكسب؛ بحُسْنِ يقينه، وثقته برازقه، وشُغْله بما هو أفضلُ، وأنفعُ له فى عاقبته.

ولعمرى إن التوكّل إذا أُيِّد بصبر، ونُصِر بيقين، وأُعين برضا، كان ذلك أحبَّ إليه من أرْزاقِ الدُّنيا؛ من الطُّعْمِ وغيره؛ لأنّ هذه أرْزاق الآخرةِ، والآخرةُ خيرٌ وأبْقى؛ ولأنّه قد زهد فى الدّنيا، فهذا عون له، وتقوية على زُهْدِه.

وقد كان أبو سليمان يقول: مَن شُغِل بربِّه شُغِل عن نَفْسه، ومن تشتَّتَ همُّهُ واضطربت نفْسه، وتكرَّه قضاءَ ربّه، فأخرجه ذلك إلى الجَزَعِ، والهلَعِ، والتَّبرُّم، والشكْوَى، فالتكسُّبُ لهذا أفضلُ، والتسبُّبُ له أجودُ، وهو منقوصٌ بتَرْكه لمزيده من ضَعْفِ يقينه وشِرْكه. واضطرابُ الجسمِ مع اضطراب النّفس أعْذَرُ، وسكونُ الحركة مع سُكون القَلْب آجَرُ.

كذلك أيضًا مَن أكْثَر الشَّكْوَى من علَّته، وتَسَخَّط حُكْمَ ربِّه، وتبرَّم وضَجِرَ وسطا على الناس، وساء خُلُقُه بمرضه، فإنّ الأفضلَ لهذا أن يتداوَى، وهو ناقص بتَرْكِه.

ورُوِينا عن عَمروِ بن قيس، عن عطيةَ، عن أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ: «إنّ من ضَعْفِ اليَقين أنْ تُرْضِىَ الناسَ بسَخَطِ الله، وأنْ تَحْمَدَهم على رِزق الله، وأنْ تذمَّهم على ما لم يُؤْتِك الله». إنّ رزقَ الله لا يجرهُ حِرْصُ حريصٍ، ولا يردّه كُرهُ كاره. إنّ اللهَ بحُكمِه وجلالِه جعل الرَّوْحَ والفرحَ فى الرضا واليقينِ، وجعل الغمَّ والحُزْنَ فى الشّكِّ والسُّخْط.

• ذكر استواء شهادة المتوكل مع اختلاف ظهور الأسباب:

ويستوى عند الخُصوص بعينِ يقينِهم ما جاءهم بواسطة أيديهم، وأسبابِ كسبِهم، وما جاءهم بأيدى غَيْرِهم وبغير كسبِهم، إذ كان المُعْطِى عندهم واحدًا، والعطاءُ كلُّه رزقًا، وإذا كانت الأيدى ظروفَ العطاء؛ فتستوى، سواء كان الظَّرفُ يدَك أو يدَ غيْرِك، وسواء كان الكَسْبُ كسبَك أو كسبَ غيْرك لك؛ إذ جميعُه رزقُكَ؛ ولأنّ لكلّ شىء حُكْمًا، وفى كل شىءٍ حكمةً، وبكل شىء نعمةً.

قال الله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٧ - ٨]. فأضافها إليه فى الخَلْق، بعدَ أنْ بنَوْها بأيديهم، وفرَغوا منها.

ومِثْل هذين أيضًا يستوى عندَهم ما ظهر بيد القُدْرة لا خَلْقٌ فيه ولا واسطةٌ به، وما ظهر بأيديهم عنِ الحكمة وترتيب العُرْفِ؛ لأن القُدْرةَ أيضًا بمنزلة ظَرْفٍ للعطاء، ظهر العطاءُ بها، فهى كأيدى العبادِ مِن يد الإنسانِ نفسه، أو يد غيره؛ إذ القدرةُ والحكمةُ خزانتان من خزائن الملكُوتِ والمُلْك، هو الغيبُ والشّهادةُ قائمٌ بقيومية الحىِّ القيُّوم الشاهدِ الدّيموم.

فهذه المعانى الثلاثُ، أعْنى ما ظهر عن يدكَ وتكسُّبك، وما ظهر بيد غيرك وعَنْ كسبه لك[1]، وما أظْهَرَتْه القدرةُ من العَدَم فى الوُجود عن غير معتادٍ ولا عُرفٍ، وبغير واسطةٍ مرّتْ به، هذا كلُّه عند المُوقنين سواء، لا يترجَّح بعضُه على بعضٍ لرُجْحان إيمانِهم، وقوّةِ يقينِهم، ونَفاذِ مشاهدهم؛ إذ كلُّه حِكْمةٌ بالغة، وقُدْرةٌ نافذة، عن حكيم واحد، وقادرٍ واحد.

وممّا يدلك على استواء ما ظهر بيد الأواسط، وما أَظْهرتْه القدرةُ عند العلماء: أن كلَّ مَن جمَع كرامات الأولياء، وإجابات الصّدّيقين، ذَكَر فيها ما ظهر لهم عَنِ القدرة، وما أُظْهِر لهم على أيدى الخَلْقِ، مِن الإنفاق عند وقتِ الفاقات، عن غيرِ مسألة ولا استشراف[2] نفس، فسوُّوا بينهما فى الكرامات، وجعلوهما واحدًا مِن

(١) عبارة المخطوط: «أعنى ما ظهر عن يدكِ وبتصرفك، وما ظهر بتصرف غيرك لك».

(٢) فى المخطوط: «ولا اشتراط».

الإجابات، وحَسِبوا كلَّ ذلك مِن الآيات. وقال ابن معاذ: العالم من الزُّهاد من أثبتَ التوكُّلَ على إطلاق الأسباب.

على أنّ العارفين يشهدون ما يُوصِّل العبيدُ إليهم مِن أقسام رِزْقهم؛ أنّها ودائعُ لهم عندهم، وأنه حقٌ لهم بأيديهم، يؤدّونه إليهم قليلاً قليلاً، ويُوَفُّونَهم إيّاه شيئًا فشيئًا، إلا أنهم لا يسألونهم إياه، ولا يُطالبونهم به، وإنْ كان لهم ذلك عندهم حُسْنُ أدبٍ فيهم، وحسنُ اقتضاءٍ؛ لأنّ مِنْ حُسن الاقْتضاءِ تَرْكَ الطلب، ولِقوّة يقينهم برازقهم أنّه يُوفِّيهم نصيبَهم غيرَ مَنقُوص، فقد سكنوا إلى قديمِ وعدِه، كما نظروا إلى بَسْطِ يدِه.

وكذلك مشاهدة العالِمين من الموصِّلين إليهم قَسَمَهم، الدافعين إليهم حقوقَهم، يشهدون أنّهم قد خرَجوا إليهم مِن حقِّهم، وأدّوا إليهم ودائعَهم؛ فيستريحون إلى إخراج ذلك، ويفرحون بأدائه إلى أرْبابه، ويشكرون اللهَ على حُسْن توفيقه، وإعانتهم على سُقوطِ ذلَك عنهم، كما يَفْرح مَن عليه الدَّيْنُ الثقيل إذا أدّاه؛ فسقط عنه حُكْمُه وقضاؤه. وكما يُسَرُّ الأمينُ بأداء الوديعة التى استُودعها إلى أرْبابها، وخروجِها من يدِه وذمّته، فلذلك يردُّ اللهُ تعالى الخُصوصَ إلى العمومِ، لِيأجُرَهُم عليهم، فيكون ذلك خيرًا للفريقين، وأفضلَ وأسلمَ للطائفتين، إذ فى تسبُّب الخلقِ بعضِهم لبعضٍ، وتناولِ الأقسامِ من أيدى العوامِّ، تخفيفُ أثقالٍ، وإسقاطُ مؤنٍ عن الخُصوص، وفيه من صلاحِ العباد والبلاد، واستقامة التدبيرِ، وعقد نظامِ التقديرِ، ما هو أبلغُ فى الحكمةِ، إذ لا تَعْجَزُ يدُ القدرةِ من إظهارِ الأقسامِ من خزانةِ العدَم إلى الوُجودِ، بغير أيدِى العبادِ، عن غير أسبابٍ وحُدودٍ.

كما حُدِّثت فى قَصَّة تطول، اختصارُها: أنَّ رجُلاً رأى بعضَ الأولياء يطوف بالبيت ليلاً، فشهد فيه الحاجةَ، فدفع إليه سبَبًا، فاكْتَسى منه، واقْتاتَه. قال: فهجس فى نفس الرّجل من ذلك العبدِ سوءُ ظنٍّ به، فأُطْلِع ذلك الولىُّ على ما فى نفسه، فأخذ بيده، وطاف به أُسْبوعًا، كلُّ شوطٍ منه فى جوهرٍ من الجواهر، يَتخشخَشُ تحت أقدامهم إلى الركَبِ، منها جوهرُ الذهب والفضة، والدُّرِّ والياقوت، ثم قال له: نحن مُكاشفون بسر المُلْك، وظاهرٌ لنا كنوز الأرض، ولكن

لا نأخذ منه شيئًا زُهدًا فيه؛ ولأنّ له أثقالاً فتركُه أفضل، ونأخذ أرزاقنا من أيدى الناس، وبالأسباب، لأنّه أحبُّ إلى اللهِ لمنافعِ العباد؛ ولأنَّ الحِكمةَ والأحكامَ فى ذلك أكثر.

وكان قبل هذا وسببه أن الرجل كان قد سمعه يدعو عند المُلْتزم، فأصغى إلى دُعائه، فسمعَهُ يقول: جائعٌ كما ترى، عريانُ كما ترى، فَمَا ترى فيما ترى، يا من يَرى ما لا يُرَى؟، فعند ذلك دفع إليه السبب.

ذكرته اختصارًا على المعنى واللفظ، كما حدثنيه بعض الأشياخ.

وبمعناه حُدِّثت عن رجلٍ تفرَّد فى فلاةٍ من الأرض، وانقطعَ عن الخلقِ، وقال: إن كان لى رزقٌ أتانى، قال: فلبث أيامًا لم يأته شيء، حتى أضرَّ به الضَّعف، فقال: يا ربّ، إن كان لى فى الأرضِ رِزق فأْتِنِى به، وإلا فاقبضنى إليك، قال: فأوحى اللهُ [إليه]: وعزتى وجلالى لا أرزقك حتّى تدخلَ المِصْرَ وتقعدَ بين ظهرَانى الخَلْق، قال: فعدَل إلى أقرب الأمصارِ إليه، ودخل مسجدًا، فأتاه إنسانٌ بطعام، وآتاه آخر بشراب، فأكل وشرب، فأوجس فى نفسه، فأوحى الله إليه: أردتَ أن تُبطلَ حكمتى، وتُسقط حُكمى بتوكُّلك علىَّ أن أرزقك، [فرزقُك] بأيدى الخلق أحبُّ إلَىَّ.

والخبر المأثور أن موسى ﷺ قال: «يا رب، جعلتَ رزقى هكذا بأيدى الخلق، يُغدِّينى هذا يومًا، ويعشِّينى هذا ليلةً، فأوحى الله إليه: هكذا أصنع بأوليائى أجعل أرزاقهم بأيدى العاصين ليُؤْجَرُوا فيهم».

فعلْمُ هذا للمتوكلين، ومعرفةُ هذه الحكمة لمن أَوصَلَ إليهم قسمهم من الموصِّلين، مُقامٌ للجميعِ فى المعْرفةِ واليقين، فهو حالٌ للمُعْطَى المُوصِّلِ، وطريقٌ للآخذِ المتوكِّل.

كما روينا فى حديث أنسٍ: «ما المُعطِى من سَعَةٍ بأعظم أجرًا من الآخذ إذا كان محتاجًا».

فسبحان مُطرِّق الطرقات، ومُسبِّب الوُصُلات إلى الآخرة، بزُلَف القُربات.

ومن كان ذا معلوم من حَرِيف[١]، أو معتاد من أليف، لم يصحَّ توكُّله مع سُكونه إليه، وطمأنينته به؛ لأنّ ذلك عِلّةٌ فى حاله، وخيرةٌ لتوكُّله.

وقد يصحّ التوكّلُ مع ذلك بثلاث معانٍ: أن لا يُعوِّض منه عِوَضًا يقوم مقامَ السبب الواصلِ إليه، وأن يقطع همَّه عنه وعن جميعِ الخَلْقِ، وأن يكون منقطعًا إلى اللهِ تعالى مَشْغولاً بخدمته، لا بَطَّالاً مُرَوِّحًا لنفسه.

• ذكر تشبيه التوكل بالزهد:

اعلم أنّ التوكّل لا يُنْقص من الرِّزق، ولكنه يَزيد فى الزُّهد والصبر واليقين. وكذلك الزهدُ فى الدنيا لا ينقص من الرزق شيئًا، ولكنّه يَزيد فى الفقر، ويزيد فى الجوع والفاقةِ؛ فيكونُ هذا رزقَ المتوكِّل، ورزقَ الزاهد من الآخرة.

على هذا الوصفِ المَخصوص من حِرْمان نصيب الدنيا وحمايته عن التكاثر منها، والتوسُّع فيها؛ فيكون التوكّلُ والزهد سببَ ذلك؛ فيكونُ ما صَرَفه عنه مِن الدنيا زيادةً له فى الآخرة من الدرجات العلى.

وكذلك رُوِى عن رسول الله ﷺ: «نُقْصان الدنيا زيادة الآخرة، وزيادة الدنيا نقصان الآخرة، ومَنْ أُعْطِى من الدنيا شيئًا نَقَص ذلك من منزلته فى الآخرة، وإن كان على الله كريمًا».

وقيل: إن الدنيا والآخرة مثل ضُرّتين؛ مَنْ أرْضَى إحداهما أسخط الأخرى. وقال رجل لبعض العلماء: كنْتُ فى مَحلَّة ليس فيها بقّالٌ غيرى، فَفَتح إلى جَنْبِى بقّال آخر؛ فأخاف أنْ يُنْقِص ذلك من رزقى شيئًا. فقال: ليس يُنْقِص من رزقك شيئًا، ولكن يَزيد فى بطالتك؛ تقعد كثيرًا لا تبيع شيئًا.

وقد غلط فى هذا الطريقِ قومٌ، سلكوا فيه سُبُلَ الهوى، فابتُلوا بشهوات الدّنيا، فادّعُوا التوكُّلَ والزُّهدَ، واتّسَعُوا فى المآكل والملابس، وقالوا: هذه بعلّة غيرنا، وهو مدْخُول علَينا، وليس لنا منه بدٌّ ولا اختيارٌ، وذلك لبقايا بقيت عليهم من نفوسِهم، ولم يُعْنَوْا برياضتهم، ولا مَحَوْا آثارهم، فضلُّوا عن سواء المحجة،

(١) حريف: أى صاحب حِرْفة.

وأقاموا لنفوسهم على ذلك حجَّة، فموَّهوا على مَنْ دونهم ممن لم يسلك طريق الزاهدين، ولا يعرف حال المتوكلين. وقد شرحنا هذا في مقام الزهد فكفى.

● ذكر كتم الأمراض، وجواز إظهارها:

الأفضل لمن لَمْ يتداوَ أنْ يُخْفِيَ عِلَلَه؛ لأنّ ذلك من كنوز البرِّ، ولأنها مُعاملاتٌ بينه وبين خالقه؛ فستْرُها أفضلُ وأسلم له، إلا أنْ يكونَ له نيةٌ في الإظهار، أو يكونَ إمامًا يُستمع إليه، ويُقْتَبس منه الآثارُ، ويكونَ مكينًا في المعرفة يُخْبِر بعلَّته وقلبُه راضٍ عن الله فيما قدَّره، أو يكونَ مِمَّن يشهد البلاءَ نعمةً؛ فيكون إخباره بمثابة التحدُّث بنعمة الله. وإلا فإظهارُ العلل لمن لا يتداوى نَقْصٌ لحاله، وداخلٌ في الشَّكاية لمولاه؛ لأنّ في الشَّكْوى استراحةَ النفسِ من البلوى كالاستراحة بالدواء. وهذا لا يفعلُه عالمٌ؛ لأنّ الاستراحة بالدواء الذى أباحَه له المَوْلى خيرٌ من استراحته إلى العبيدِ بالشَّكوى.

على أنّه لا يأمَن دخولَ الآفات عليه في الإخبارِ من التصنُّع أو التزيُّد في العلّة، وغير ذلك. وقد قيل في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨]، قال: لا شكوى فيه. وقال بعضُهم: مَنْ بثَّ شكواه فلم يصبر. وسُئل الفضيل عن الرجل يذكر علِّته ويظهرها، هل يكون ذلك شكوى؟ قال: نعم، أما سمعتَ قصة يعقوب. يعني أنه قيل ليعقوب عليه السلام: «ما الذى أذْهَبَ بصرك وَحَنا ظهْرَك؟ فقال: مرُّ الزَّمانِ، وطُولُ الأحزان. فأوْحَى اللهُ إليه: تفرّغْتَ تشكونى إلى خَلْقى؟! فقال: يا ربّ، أتوبُ إليك».

وعن طاووس ومجاهد: يُكْتَب على المريضِ أنينُه في مرضه. قال: وكانوا يكرهون أنينَ المريضِ؛ لأنّه إظهارُ معنًى يدلُّ على شكوى. قيل: ما أصابَ إبليسُ من أيوبَ إلا أنينَه في مرضه، فجُعلَ الأنينُ حظَّه منه. وفي الخبر: «إذا مرض العبدُ أوْحَى اللهُ تعالى إلى المَلَكين: انظرا إلى عبدى ما يقول لعُوَّاده، فإنْ حَمِدَ اللهَ وأثْنَى عليه بخيرٍ، ادْعُوا له، وإن شكا وذكَر شرًا، قولا: كذلك تكون».

وإنما كَرِه بعضُ العبَّادِ العيادةَ خشيةَ الشّكاية، وخوفَ الزّيادة في القول، أنْ

يُخبِر عن العلَّة بأكثر منها؛ فيكونُ فى ذلك كُفرًا لنعمةٍ بين بلاءين.

وكان بعضُهم إذا مَرِض أغلقَ بابَه؛ فلم يدخل عليه أحدٌ حتّى يَبْرأ، فيَخْرُجَ إليهم؛ منهم فضيل ووهيب وبشر، كان يقول: أشتهى أن أمرضَ بلا عُوَّاد. وقال فضيل: ما أكره العلّة إلا لأجل العُوَّاد. وقد رأينا من الصالحين مَن فَعَل ذلك ممَّن هو إمامٌ وقدوة.

ولا يُنقص توكّلَ المتوكل إخبارُه بعلَّته على معنى التحدُّث بها مع فَقْد آفاتِ النفوس، إذا كان قلبُه شاكرًا لله راضيًا بقضائه، ويكونُ بذلك مُظْهِرًا للافتقارِ والعَجْزِ بين يدَىْ مولاه، أو راغبًا فى دعاء إخوانِه المؤمنينِ، أو يشهد ذلك نعمةً، فيُحدِّث بها شكرًا.

وقد حُكِى أنّ بشر بن الحارث كان يُخبر عبدَ الرحمن المتطبِّب بأوجاعه، فيصفَ له أشياء. وقيل عن أحمد بن حنبل: إنّه كان يُخْبِر بأمراضه، ويقول: إنما أَصِفُ قدرةَ الله تعالى فىَّ.

ورُوِى عنِ الحسن البصرى: إذا حَمِد المريضُ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ وشكره، ثم ذَكَر عِلّته، لم يكُنْ ذلك شكوى. وقد كان أحمد بن حنبل لا يُخْبِر بأمراضه إذا سئل عنها، ثم رَجَع إلى قول الحسن هذا؛ فكان بعدَ ذلك يَحْمَدُ الله، ويُثْنى عليه، ويقول: أجد كذا، وأجد كذا.

ورُوِى أنه قِيل لعلىٍّ رضى الله عنه فى مَرَضِه: كيف أنت؟ فقال: بشرٍّ. فَنَظر بعضُهم إلى بعض، كأنهم كرهوا ذلك، فقال: أتجلّدُ على الله. كأنّه أحبَّ أن يُظْهِر افتقارَه إلى الله، وأراد أيضًا أنّ يُعلِّمهم أنّه لا بَأْس بذلك؛ لأنّ مَنْ يقول: بخير ـ إذا سُئِل ـ كثيرٌ. كما قال الثورى: إنّما العِلْمُ الرخصةُ من ثقة، فأما التشديدُ فكلُّ أحد يُحْسنه. فكأن عليًا ـ رضى الله عنه ـ أراد أن يتحقَّق بتأديب النبى ﷺ له، ونهيه إيّاه عن إظهار القُوَى؛ لأنه رُوِى أنه مَرِضَ، فسمعه النبىُّ ﷺ يقولَ: اللّهم صبِّرْنى على البلاء. فقال: «لقد سألْتَ اللهَ البلاءَ، ولكن سلِ اللهَ العافيةَ».

ومن ههنا قال مطرِّف: لأنْ أُعافَى فأشكرَ أحبُّ إلىَّ من أنْ أُبْتَلَى فأصبرَ. لأنّ

البلاءَ طريقُ الأقوياء.

وكره أهلُ الإشفاق والخشية إظهارَ الجَلَد والقوّةِ بين يدَى القوىِّ العزيز. وقد حُكِى أنّ الشافعى مَرِض مرضةً شديدةً بمصرَ، فكان يقول: اللّهم إنْ كان فى هذا رضاك فزِدْنى منه. فكتب إليه بعضُ العلماء، وهو إدريس بن يحيى المعافرى: يا أبا عبد الله، لسْتَ مِن رجالِ البلاء؛ فسَلِ اللهَ العافيةَ. فرجع عن قوله هذا، واستغفرَ منه. فبعد هذا ـ والله أعلم ـ لعلّه ما حُكِى عنه أنه كان يقول فى دعائه: اللهمّ اجعلْ خِيرتى فيما أحببْتَ.

• ذكر فضل التارك للتكسب[1]:

قد يَفْضُل التاركُ للتكسُّب شُغْلاً بالعبادة عن المتكسِّب، مِن حيث فَضَّل المتقدِّمون الزاهدَ فى الدنيا على كاسبِ المال حلالاً ومُنْفقه فى سبيل الله. وسُئِل الحسن عن رجلين، أحدهما مُحْتَرِف، والآخر مشغول بالتعبُّد: أيّهما أفضلُ؟ فقال: سبحان الله! ما اعتدل الرجلان، المتفرِّغ للعبادة أفضلهما. وقد رُوِى عن رسول الله ﷺ: «كفى بالموتِ واعظًا، وبالتقوى غنًى، وبالعبادة شغلاً».

وقد علِم التاركُ للتكسُّب توكّلاً على الله، وثقةً بهِ، ورعايةً لمقامه، وصبرًا على فقرِه، وشغلاً بمعاده عن معاشه ومقاساة الفتنة ـ أن مولاه قد تكفَّل له برزقه فى الدنيا، وقد وَكَلَ إليه عملَ الآخرةِ، وأنه إن شُغِلِ بما وكَله إليه مِن عَملِ آخرته أقام له مَنْ يَقُوم بكفايتهِ مِنْ دنياه، فلو لم يتصرّف المتوكّلُ تصرَّفَ له غيرُه، وأنَّ عَمَلَ آخرته الذى وكَله إليه إن لم يَعملْهُ هو لم يَعْمَلْهُ له سواه، من قِبَل أن الله عزَّ وجلَّ وَكَل إليه هذا، فلم يقم غيرُه مقامَه، وأنّ الله تكفَّل له بعمل الدنيا؛ فإنْ لم يعمل أعْمَلَ له سواه كيفَ شاء.

فهذا هو الفَرْقُ بين ما تكفَّلَ له به من عملِ الدنيا، وبين ما وكَله به مِنْ عمل الآخرة. قال الله سبحانه فى رزقِ الدنيا الذى تكفَّلَ به: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ**﴾ [العنكبوت: ٦٠]. مع قوله سبحانه: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ**

(١) من هنا تبدأ نسخة دار الكتب الثانية، ورمزها: (د).

والإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال تعالى فى رزق الآخرة الذى وكَله به: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩].

ثم قد عَلِم المتوكِّلُ بعدَ توحيده أنّ هذه الأربعةَ الأشياءَ مُنْتظمةٌ فى سلك واحد، كشىء واحد يقعُ وقعةً واحدةً: رزقٌ مَقْسوم لا يُزاد فيه فى وقت معلوم، ولا يتقدَّم ولا يتأخَّرُ بسببٍ محكوم، لا ينقلب عندَ أثرٍ مكتوب ولا يتغير؛ فالرزق بفضل الرّازقِ، والوقتُ الذى يَظْهَر فيه فضلُ العطاء لا يقع إلا فى ظرفٍ، والسببُ حِكْمةُ القاسمِ، والأثرُ حدُّ المرزوق.

فلما أيْقن المتوكِّلُ بهذا، كان إنْ تصرَّفَ تصرَّفَ بحُكْم، وإنْ قعد قعد بعِلْم، فاستوى تصرُّفُه وقعودُه؛ لأنّه قائمٌ بحكم ما يُقْتَضَى منه فى علم حاله، عالم بحُكْم مُصرَّفه ومُقْعده، فإنْ شَغَلَه مولاه بخدمته عن خدْمة مَن سواه، فصرَفه فى معاملته دون مُعاملةِ العبيد، ساق إليه رِزْقَه، كيف شاء من الوجوه، وبيدِ مَنْ شاء مِن العبيد، بحفْظِه له عن مجاوزةِ الحدود، كما قال تعالى: ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾ [النساء: ٣٤]، وبتولِّيه له، وعِصْمته إياه عن التورّط فى مَحْظور، كما أخبر عن أوليائه فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وهذا هو التوكّل فى استخراجِ المضمونِ من مظانّه، والصّبرِ له إلى حين أوانه، حتى يوصِّلَه إليه الوكيلُ الرزَّاقُ بِحُسن اختياره، لا بُسوءِ اختياره، إذْ هو أعْلَمُ بأماكنه، بخُبْرِه واقتداره.

وكذلك الله يستخرج الحلالَ لأوليائه، حتى يسوقَهُ إليهم، ويوفقه لهم، ويُسبِّبَه من حيث يحبّ. ويكون العبدُ فاضلاً فى قُعوده لشُغْله عن العبيد بمعبوده، بانقطاعِه إلى معاملةِ المَلك دون ما يَقْطعُه من مُعاملة المملْوك، وبهمَّة الآخرة عن الدنيا، وكان داخلاً فى وصف ما أخْبرَ رسولُ الله ﷺ عن أهْلِ كفايةِ الله، فيما رُوى عنه: «مَنْ جَعل الهمومَ همًا واحدًا، كفاه الله هم آخرته ودنياه»، وخارجًا عن وَصْف مَن قَطَعَه عن الله بهِمَّة غيره، وعَرَّضه للهلكة فى أودية الهموم، فى قوله عليه السلام: «من أصْبَحَ وهمُّه غيرُ الله فليس من الله».

وفى الأخبار: «ما مِن عبدٍ اشتغل بعبادة اللهِ، وفرَّغَ قلبه لله، وتوكَّلَ عليه، إلا ضَمَّنَ اللهُ تعالى السموات والأرضَ رزقَه».

وعن الله تعالى: «ابنَ آدم، فوِّض أمرك إلىَّ حتى لا أسألك عما أعمل، ولا تفوِّض إلى غيرى فأُعْطِك ما تُريد وأسألك عنه». وفى قوله ﷺ: «ومَنْ تشعَّبتْ به الهمومُ لم يبالِ اللهُ فى أى أوديتها هلك».

فإن كان حالُ المتوكِّل أنْ يَجْرى رزقُه على يدِ نفسه، وكسْبِ جارحتِه، فهو خزانةٌ من خَزائن الملِك، وهو عَبْدٌ من عبيد المَلك؛ يُوصِّل إليه عن يد نفسه بما يوصِّلُه إليه عن يدِ غيرِه وسواه، ساقَ إليه الرزقَ أو ساقه إلى الرزق بعد أن يَرْزُقه؛ لأنّ ما لقيتَهُ فقد لَقِيَك. كذلك يستوى فى التوحيدِ، وشهادَة الحقِّ الفريد، أن يرزق عبدَهُ بيد نفسِه، أو بيدِ غيرِه، أو عن إظهار القُدرةِ من العدَم، أو عن [سَوْقِ] يدٍ إليه بِسَعْى قَدَمٍ، لقوله تعالى: ﴿**ويَعْلَمُ ما جَرَحْتُم بالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فيه**﴾ [الأنعام: ٦٠]، فهو الباعث لأوليّته، والوارث بآخريته، والعبدُ مَبْعُوث، والرّزقُ رِسالةٌ وبَعْث.

والمتوكِّلُ نظرُه فى الحالين إلى الوكيل، معتدلٌ يَشْهدهُ بالوصفين، ويجدُهُ فى المعنيَيْن، ولا يفقده من المكانين، وقائم بقيُّوميِّته وبحُكمه فى الوقتين، وفراغٌ لحاله فى الأمرين، عارفٌ بحسن اختيارِ اللهِ له فى الحكمين.

ومَنْ ترك التكسُّبَ لأجلِ الله؛ ثقةً به، وسكونًا إليه، أو لدخول الآثامِ، وتَعذُّر القيام بالأحكام، فحُسنه كحُسْن مَنْ عمِلَ شيئًا لأجل الله؛ لأنّ الترك عملٌ يحتاجَ إلى نية صالحة، وأفضلُ الناس عند الله أتْقاهم له، وأتْقاهم له أعرفُهم به، متصرِّفًا كان أو قاعدًا. هذا هو فَصْلُ الخطاب.

ورُوينا فى حديث عبد الله بن دِينار، عن عَمْرو بن ميمون، عن النبى ﷺ: «أتدرون ما قال ربُّكم؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال حين استوى على عرشه ونظر إلى خلقه: عبادى، أنتُمْ خلقى، وأنا ربُّكم، أرزاقكم بيدى؛ فلا تُتْعبوا أنفسكم فيما تكفَّلْتُ لكم به، واطْلبوا أرزاقكم منِّى، وانْصِبُوا أنفسكم لى،

وارْفعوا حوائجكم إلىّ، أصبُّ عليكم أرزاقكم. أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: عَبْدى أنْفقْ أُنْفق عليك، ووسِّع أُوسِّع عليك، ولا تُضيِّق فأُضيِّق عليك، إنّ أبوابَ الرزق بالعرش لا تُغْلَق ليلاً ولا نهارًا، فأُنْزل الرزقَ منها لكلّ عبد، على قَدْر نيته، وعطيَّته، وصَدَقته، ونفقته، فمَن أَكْثَرْ أُكْثرْ له، ومَن أقْلَلْ أُقْلل له، ومَن أمْسَك أُمْسك عليه. يا زبيرُ، إنّ الله يُحبّ الإنفاقَ، ويُبْغض الإقتارَ، فكُلْ وأطْعم، ولا تُقَتِّرْ فيقتِّرَ اللهُ عليك، ولا تُعَسِّر فيُعَسِّر عليكَ، أطْعم الإخوانَ، ووقِّر الأخيارَ، وصِلِ الجارَ، ولا تُماش الفجَّارَ، تَدْخُل الجنةَ بغير حساب. فهذه وصيّةُ الله لى، ووصيّتى لكَ يا زبير بن العوام».

وقد حفظت فى هذا الحديث زيادةً ذكرتها بعد: «إن الله تعالى يحب السخاء ولو على تمرة، ويحب الشجاعة ولو على قتل حية».

والأسواقُ موائدُ الآباق، يُطْعِم المولى منها مَنْ أبقَ مِن خدمته، وهَرَب من مُجالسته، ووَهَن عن معاملته، وجَبُن فى مُتاجرته. قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ**﴾ وقال بعض أهلُ العربية من القدماء: ما أريد أن يَرْزُقوا خلقى ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ**﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧] أى: لهم، لا يطالبهم أنْ يَرْزُقوا نفوسَهم إذا خدموه.

فذكر اللهُ الوجوهَ الثلاثةَ من تصرُّف العبيد التى أباحها للموالى، واختارَ لنفسه أحدَها وهى الخدمةُ، وعليه الكفايةُ، واختار من العبيد أحدَهم فجعله عابده، وتنزَّه عَنْ أحدهما، وتَعالى عنه، وهو الإطعام مِن العبيد له، وَصرَف عمومَ العبيد فى الوَجْه الثالثِ من الإطعام لأنْفسهم، وهو التكسُّبُ، وضرب هذا مثلاً بينه وبين خَلْقه فى الأرض، وله المَثَل الأعلَى فى السموات والأرض، فبقى العبيدُ مع الله تعالى بحُكْمَين؛ أحدهما: ما اختارَه لنفسه من العبادة، وهى المُعاملة، وعليه الرزقُ، كيف شاءَ، ومتى شاء، وهؤلاء عِبادُ الرحمنِ، لا عبيد الدنيا. والثانى: ما صَرَفَ العبيدَ فيه مِن التكسُّب لأنفسهم، وجعل ذلك رِزقًا منه لهم بجَوارِحِهم، ومدحهم على هذا الوَصْفِ، وهؤلاء عُمومُ العبيد، منهم عبيدُ الدنيا وعبيدُ الهوى، وبَقى المولى مع العبيدِ على الأحكام الثلاثةِ، التى أباحها اللهُ تعالى لَهُمْ،

وضَرَب بها المثلَ بينه وبينهم، أيها اختاره كانَ ذلك لهُمْ.

وتفسير ذلك: أنّ للمولى من الخلق أنْ يقولَ لعبده: اذهب فأطْعمنى؛ لأنك عبدى وملكُ يدى، فأنا أملك كَسْبَك كما أملك نفسك. وهذا هو الوجه الذى ذكرْناه، أنّ اللهَ تنزّه عنه، وتعالى علوًا كبيرًا، فقال تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٧] كما يُريد الموالى من عبيدهم هذا، ثم يقول المَوْلَى منا لعبده: اذهب، فأطعمْ نفسك، واسعَ فى قُوتك، فقد أبحْتُ لكَ ذلك، ووهبْتُ لكَ كسبَكَ، فهو رزقٌ منى لك، وتَفضُّلٌ منى عليك. وبهذا صارَ المُكاتبُ لعبده فى فكاك عَتْقه كالمعتق، بأنْ كانَ له الولاءُ، وقد يكون له الميراثُ فى حالٍ؛ لأنه مُنْعِم عليه بالكتابة له كالمعتق، وإن كان العبدُ هو الذى سَعَى فى فكاكِ رقبة نَفْسه بكسبه، مِن قِبَلِ أنّ المولى يستحق عليه كسبَه، ويملك رقبتَه، فلمّا مَلَّك عبدَه ذلك صار محسنًا إليه. فهذا حالُ عموم العبيد مَعَ الله تعالى؛ لأنه مَوْلاهم الحقُّ، وهُمْ عبيدٌ قِنٌّ، فقال: اذهبوا فتكسَّبوا، وأطعموا أنفسكم، فقد رَزَقْتُكم ذلك، ووَهَبْتُه لكم.

وهذا هو الوجه الثانى الذى نَزَّه الخُصوصَ عنه، تَفْضيلاً لهم فلَمْ يَسْتَسْعِهم، وقطعهم فشغلَهم بخدمته عن خدمة نفوسهم وخليقته، وتوكَّلَ لهم بكفايتهم، ولم يُوكِّلْهم فيها كما وكّلَ غيرَهم، بل وَكَّلَ بأرزاقهم مَنْ يشاءُ مِنْ عباده، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّنْ رِّزْقٍ﴾ [الذاريات:٥٧] لنفوسهم، بِدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات:٥٨]؛ أى: لهم بإقامة غيرهم وبإظهاره فى قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ فكانتْ هذه الياءُ اسمَه مُكَنًّى بها، وهذه إرادةٌ مخصوصة، لا عامةٌ لكلِّ مراد، فهى إرادةُ ابتلاء ومحبة[١]، بمعنى ما أحبّ، ومخصوصةٌ بمخصوصين[٢] مِن عباده، كما كان قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، كانت هذه الآية مخصوصةً لمن عَبدَه منهم،

(١) فى المخطوط: «ومحنة».

(٢) فى المخطوط: «المخصوصين».

من مؤمنى الجن والإنس لا عامةً لجميع خلقه.

والوجه الثالث: أنْ يقولَ المْولَى منا لعبده: اخدمنى، وعلىَّ طُعْمتُك، تقومُ خدمتُك لى مقامَ كَسْبِك لنفسك. وهذا هو الوجه الأَعْلَى الذى اختاره اللهُ تعالى، وأحبَّه لمن يُحبِّه، واختار له مَنْ عَبَدَه مِن العبيد مِنْ خُصوص العاملين له، وهم العالمون به، دون من صرَفَه فى رزق نفسه بنفسه، وهو قوله تعالى: ﴿إلاَّ ليَعْبُدُون * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّنْ رِزْقٍ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧]؛ أى: أن يَرْزُقوا نفوسَهم بكَسْبِهم الذى أبحْتُه لهم، فيكونوا كغيرهم ممن قلْتُ له: اذهب فتكَسَّبْ، فقد أردْتُ منك الرزقَ لنفسك بكَسْبك، وقد وهبْتُه لكَ، أى: أنا أُريد من هؤلاء العبادةَ، ولها خلقتُهم؛ فكلٌّ ميسَّر لما خُلِق له. فمَنْ كانتْ صَنْعتُه العبادةَ، وخُلق لها، يُسِّرتْ له. ومن كانتْ صَنْعتُه الدنيا، وخُلِق لها، يُسِّرتْ له.

وفى الخبر أنّ الله تعالى خَلَق كلَّ صانعٍ وصَنْعَتَه. ويقال: إنّ اللهَ تعالى لما أظْهَرَ الخلْقَ فى العدم أظْهَرَ لهم الصنائعَ كلَّها، ثم خيَّرهم، فاختار كلُّ واحدٍ صنعتَه، فلما أبداهم فى الوجود أجْرَى على كلٍّ واحدٍ ما اختارَ لنفسه. قال: وانفردتْ طائفةٌ، فلم تَختَرْ شيئًا، فقال لها: اختارى. فقالتْ: ما أعجَبنا شيءٌ رأيناه فنختاره. قال: فأظهَر مقامات العبادات. فقالتْ: قد اختَرْنا خدمتَك. فقال: وعِزّتى وجلالى، لأخْدِمَنَّكم إيَّاهم، ولأُسخِّرَنَّهم لكُمْ.

وفى الخبر: «أوْحَى اللهُ تعالى إلى الدنيا: اخدمى من خَدَمَنى، وأتْعبى مَن خدمك». فالعبادة هى الخدمة. ومن ذلك قولهم: إياك نعبد، ولك نُصلّى ونسجد، وإليك نَسْعَى ونَحْفِدُ. أى: إليك نعمل ونخدم، مثل قوله تعالى: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، أى: خدمًا، فى أحد الوجوه، والعبادةُ هى الخدْمة بذلٍ وتواضع. والعربُ تقول: طريقٌ مُعبَّدٌ، إذا كان مُذلَّلاً ممهَّدًا وموطوءًا بالأقدام. ويقولون: بعيرٌ مُعبَّد، إذا كان مُمْتَهنًا بالكدِّ، نِضوًا من السير والحمل عليه. ومنه قول القِبْط: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] يعنون بنى إسرائيل، خَدَمُنا نَستذِلُّهم ونَمْتَهِنُهم بالكدِّ والعمل.

وقال بعضُ العارفين: إنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ اطَّلع على قلوبِ طائفةٍ مِنْ عباده، فلَمْ يرها تَصلُحُ لمعرفته، ولا مَوْضعًا لمشاهدته، فرَحمها؛ فوهبَ لها العباداتِ والأعمالَ الصالحات. ثم اطَّلع على قلوبِ طائفةٍ أخرى من خَلْقه، فلم يرَ جوارِحَهم تصلُحُ لخدمته، ولا موضعًا لمعاملته، فاستعملَهم للدنيا وعبَّدهم لأهلها.

ومن هذا قولُ النبى ﷺ: «تَعسَ عبدُ الدينار والدرهم، تَعسَ عبدُ الزوجة، تَعِسَ عبدُ الخَمِيصة». أى الذين يذلُّون لهذه الأشياء، ويَسْعَوْنَ لها.

وفى أخبار داود عليه السلام: «إنى خَلَقْتُ محمدًا لأجلى، وخلقْتُ آدمَ لأجل محمد، وخلقتُ جميعَ ما خلقتُ لأجل ولد آدم، فمَنْ اشتغل منهم بما خلقتُه لأجله حجَبْتُه عنى، ومَن اشتغل منهم بِى سُقْتُ له ما خلقْتُه لأجله».

وقال ابن معاذ: ليس مَنْ لابَس الأسباب فَصُفِّيَ فيها، كمَنْ زايلها فَصُفِّيَ عنها.

فكيف بمن كُدِّرَ بها فى وقتنا هذا؟!

• ذكر حكم المتوكل إذا كان ذا بيت:

فإن كان المتوكِّلُ ذا بيت، فليُغلقه إذا خرج، إحرازًا له؛ لأجل الأمر بالحذر، ولاتِّباع السنّة والأثر. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]. وقال تعالى: ﴿واحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. ويُروى فى خبرٍ: «اعقِلْها، وتوكَّلْ».

ولا يُنْقِص ذلك توكُّلَه، إذا كان ساكنَ القلب إلى الله لا إلى خَلْقه[١]، ناظرًا إلى حسن تدبيره فى تبقية رَحْله، أو إذهابه لا إلى إحرازه، غيرَ مختارٍ لبقاء ما فى بيته على اختيار الله له؛ لحسن أحكامه عنده[٢]؛ لأن الله تعالى إذا رَفَعَ عبدًا إلى

(١) فى (د): «إلى عقله».

(٢) فى (م): «غيرمختار البقاء... بحسن أحكامه عنده».

مقام التوكّلِ عليه فى شىء، أعطاهُ التوكُّلَ فى كل شىء، ولا يكون العبد متحققًا بالتوكل على التمام حتى يكون متوكّلاً على الله فى كل شىء[١]، كما لا يكون توّابًا يُحبُّه الله حتى يتوبَ من كل شىءٍ ويتوبَ إلى الله بكل شىء، وفى كل شىء، أى: يَرْجِع إليه بالأشياء وفيها. فلذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩]. كما قال: ﴿إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]. مع قوله: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٢]. أى ليتوكل عليه فى كلّ شىء مَنْ توكَّل عليه فى شىء. هذا أحسن وجوهه. والوجه الآخر: وعليه فليتوكَّلْ فى كل توكُّله مَنْ توكَّل عليه فى الأشياء؛ لأنّ الوكيل[٢] فى شىء واحد، فينبغى أن يكون التوكّل عليه واحدًا فى كل شىء.

فالتوكل مقام رفيع مِن مقامات الأنبياء، ومِن أعالى دَرَج الصدِّيقين والشهداء؛ مَن تحقَّق به فقد تحقّق بالتوحيد، وكَمُل إيمانُه، وكان على مزيد، وانتفى عنه دقائق الشرك، وخفايا تولِّى العدو، وانقطع سلطانه عنه، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّما سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يعنى العدو ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩ ـ ١٠٠] يعنى الله سبحانه. فلم يشترط نفى سلطان العدو بالإيمان مجرَّدًا؛ حتى يقيمه فى مقام التوكّل فى اليقين. فلذلك فصَّلنا شرحه وأطلْنا[٣] تفصيله؛ لأنَّ مَنْ أُعطى مقامًا من التوكُّل على حقيقة مشاهدة الوكيل، انْتُظِم له جملُ مقامات اليقين وأحوال المتّقين. كما قال عبد الله بن مسعود: «التوكّل جماعُ الإيمان».

وقد يُبتلى المتوكِّل فى توكُّله بالأسباب والأشخاص والأغراض وضروبِ المعانى؛ كما يُبتلى سائرُ أهلِ المقامات؛ ويبقى عليه من العدوِّ نَزْغٌ وطَيْفٌ لا غير وهو آخرُ تسليطهِ دونَ الاقتران[٤] والاستحواذ، يختبر بذلك صدقَه فى توكُّله،

(١) من قوله: «ولا يكون العبد» من: (ك، م).
(٢) فى (د): «لأن التوكيل».
(٣) فى المطبوعة: «وأطلقنا»، وفى (د): «وأطلنا بفضله».
(٤) فى (د): «دون الاقتراب».

حتى يردَّ في جميع ذلك نظرَهُ إلى وكيله[١]؛ ليُجزَى جزاء الصادقين المعرِّفين[٢]، أو ليُكشَفَ له دعواه، فيعلم كذبَ نفسه، فيكون مردودًا إلى التوبة والاستغفار، وإلى التنصُّل والاعتذار، وقد قال الصادق الوكيل[٣]: ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾، وحَسْبُ جزاءِ المتوكِّلين أن يكون الصادقُ حسبَهُم، وأن يكون خِلْعَةُ[٤] الصِّدقِ شعارَهُم، ثم قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

فأحسنُ أحوالِ المدّعين التوبةُ، بها يخرجون من ظُلَمِهِم.

وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾. ثم أخبر بسنّته التى قد خلت فى عباده فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِين صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣]. ولن تجدَ لسنّة الله تبديلاً.

فليقل المتوكِّل عند خروجه من منزله، معتقدًا لذلك بعد غلق بابه للأمر والسُّنَّة: اللّهُمَّ إنّ جميع ما فى منزلى، إن سلَّطت عليه مَن يأخذه، فهو فى سبيلكَ صدقةٌ منّى على مَن أخذه. فإن أُخِذَ ما فى منزله كان له فى ذلك سبعُ معاملات:

إحداها: قبولُ توكُّله على الله، بتدبير الله أمره كيف شاء، واختيارِ الله له نقصانَ الدنيا، وإذهابِ ما لعلّه يُفتَتَن بتبقيته[٥].

والثانية: اختيارُ الله تعالى لعبده، وابتلاؤه إياه بفقد محبوبه، ليُظهر صدْقَه ومسألته، أو ليستبين للعبد كذبُه، فإن حمدَ اللهَ وشكره على حُسن بلائه، ولم تضطرب نفسه، أُعطى ثوابَ الشاكرين الراضين، كما جاء فى العلم المكنون عن

(١) فى (م): «ليذكره بذلك وكيله، ويبصره به مداخل عدوّه عليه وتضليله».

(٢) فى المطبوعة: «المقربين».

(٣) من قوله: «والاستغفار» من (م).

(٤) فى (م): «خُلُقُه»، وفى (د): «جعله».

(٥) فى (م): «وإذهابها لعله يفتتن بتبقيتها».

بعض أنبيائه قال: «يا ربِّ، مَن أولياؤك؟ قال: الذين إذا أخذتُ منه المحبوب سالمنى».

والثالثة: إن اضطربت نفسُه، وجزعت، جاهدها بالصبر، والصمت، وحسنِ الثناء على الله، وتركِ الشكاية إلى عبيده، **فأُعطى ثوابَ الصابرين المجاهدين.**

والرابعة: إن لم يكن فى هذا المقام ولا فى المقام الأوّل، انكشف له بطلانُ دعواه، وظهر له خفىُّ كذبه فى حياته، فاعترف بذلك، واعتذر إلى الله، واستكان وخضَع، فيكون هذا أيضًا مزيدَ مثلِه على معنى الإعلام والبيان، فيعلم أنّه كذّاب؛ لكراهيته ما قضى الله، وقلّة صبره لحكم الله سبحانه، أو لِسخطه ما حوَّله الله من خزانته التى هى فى يده إلى خزانته الأخرى التى هى فى يد غيره، إذ قد علَم أن يدَه خزانةُ مولاه مِن دنيا العبد، وأنّ ما حوَّله منها لم يكن له، وإنما كان قد استودعه، فحزِن وساءه حين استرجع منه ما أودعه وأعاده إليه[١]، وأودعها غيره، أو دفعها إلى مَن هى رزقهُ، ومَن كانت له، وصار ذلك رزقًا للمتوكل فى آخرته، فآثر لضَعْف يقينه رزق دنياه على رزق آخرته؛ لنقصان زهده، ليس ذلك إلا للطمع فيه[٢]، وفضَّل الرغبةَ والشَّرَه، إذ قد علم أن ما أُخذ منه كان وديعة لغيره عنده، فهذه كلها ذنوب عند المتوكّلين، موجباتٌ للتوبة والاستغفار عند الموقنين، من قِبَل أن المتوكّل قد علم أنّ الله تعالى إذا وهَب شيئًا من المُلْك فى الدنيا للأجسام، أو شيئًا من ملكوت الآخرة فى القلوب، لم يأخذه أبدًا؛ فما كان فى الدنيا بقى لصاحبه إلى آخرِ آثره حتى يُفنيَه ويُبليَه، كما قال الرسول ﷺ، يعجِّب العقلاء من غفلة الجهول: «يقول ابن آدم: مالى، مالى، إنّما لك من مالك ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لَبِسْتَ فأبليتَ، أو تَصدَّقت فأمضيتَ»؛ وما سوى ذلك فهو مال الوارث[٣]. وما وهبه الله من الآخرة الملكوتى من الإيمان والعلم والعمل لم يأخذه أبدًا، بل ينمِّيه ويزيده فيه إلى أبد الأبد فى دار الأبد، ولكن قد يُعير ويستودع من

(١) فى (م): «وردّه إليه». وفى المطبوعة و(ك): «وأعاره».

(٢) عبارة (د): «... آخرته، ليس ذلك إلا للطمع، وقلّة الزهد منه».

(٣) من قوله: «كما قال الرسول» إلى هنا من (م)، وساقط من المطبوعة.

أمور الدنيا وأمور الآخرة، فهذا النوع لا بدّ أنّ يستردّه ويسترجعَه فى الدنيا؛ لأن حكمته أوجبت ردَّه، كما أوجب كرمُه تبقيةَ ما وهبَه.

فلا ينبغى للمتوكّل الموقن ـ بما ذكرناه ـ أن يُحزنه ما حوَّل اللهُ من قبضه وهو خزانته التى فى يده، مما أعاره واستودعه، إلى خزانته الأخرى التى هى يد غيره، ممن لعله يهبه له [فيكون رزقَه][1]، أو يبتليه بأحكامه فيه، فيخرج أيضًا من يده إلى يد غيره؛ لأنه ما خرج من الدار شىء. ولله حكمة وابتلاء فى كل شىء؛ فالحزنُ والأسف على فَوْت مثل هذا عند العارفين جناية، ومن المؤمنين خيانة، يستغفرون الله، ويتوبون إليه كما يتوبون من المعاصى؛ لأنهم قد شهدوا ما بيَّناه؛ ولأنه قد أمرهم بتركِ الأسى على فائت الدنيا، وقلّةِ الفرح بما أُتى منها، إذ لا بدّ من كونهما؛ لأنه قد علمه، وبعد علْمه قد كتبه، وبعد كَتْبه قد أعلم به، فكشف لهم اليقين عن الكتاب المستبين أنَّ **﴿ما أصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فى الأرْضِ ولا فى أنفسِكُمْ إلاَّ فى كِتابٍ مِّن قَبْلِ أن نَّبرَأَهَا﴾** [الحديد:٢٢]. فما ظهر من المصائب فى الأموال والأنفس فقد سبق قبل خلْق الخلق. وقوله تعالى: **﴿مِنْ قَبْلِ أنْ نَبْرَأَهَا﴾**، قيل: من قبل أن نخلق الخليقةَ. وقيل: قبل أن نبرأ الأرض. وقيل: من قبل أن نبرأ الأنفس. وقيل: من قبل أن نبرأَ المصيبة. فجميع ذلك قد سبق فى كتابٍ، قد نطق وجرى به القلمُ فى اللوح، واستُطر وخُتم فى القلم إلى يوم الحشْر[2].

ثم قال تعالى: **﴿لِكَيْلا تَأسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾** [الحديد:٢٣]. فالأسى على فَقْدِ الشىء على قدر الفرح بوجوده. أفلا يستحى العبدُ أن يكون على ضدّ ما أُمر به، أو بخلاف ما يحبّه منه مولاه؟! فيأسى على ما ليس له، ويحزنُ[3] على ما استُودِعه لما منه استَرجعه، أو يفرح بما لم يكن فى علم الله سَبَق له؛ لأنّه لم يكن يعلم هل كان وُهب له فيَبقى عليه، أو أُعِيره وأُودعه

---

(١) ساقطة من المطبوعة.

(٢) من قوله: «فجميع ذلك» إلى هنا ساقطة من المطبوعة.

(٣) من قوله: «ويحزن على» إلى قوله: «ومقام المضطرين» قبل قوله: «والمعاملة الخامسة»، من نسخة (م)، لأن بها زيادة طويلة لا توجد فى غيرها.

فيُرتَجع منه، فلما أُخذ من يده ورُدَّ إلى معطيه ومُودعه، وكانت يدُه مع ذلك خزانَةَ الوكيلِ وقبضتَهُ، أيقن أنّه لم يكن له، وأنه إنما كان وديعةً عنده، فإذا حَزِن وساءَ فقد شكّ لمّا أيقن وجَهِل، إذ عَلِم ورَغِب فيما ينبغى أن يكون زَهِد. فأىّ شِركٍ فى المِلك أظهر من هذا؟! فهو ثمرةُ التملك للاغترار بالتمليك، ولو سمع ما عَلِم من قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكًا فِى الْمُلْكِ﴾ [الإسراء:١١١]، ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢]، لقال تخفيفًا لا تصديقًا: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فأيقن أنّ ما فى يده لمولاه، إذ العبدُ ومالُه لسيِّده، ثم أيقن أنّه إليه راجع، وأن ما خرج من يده فإنّه فى قبضة الله، لم يخرج من خزانته، ولا نُقِل من ملكه وحُوِّل من داره؛ لأنه فى الدار بعدُ لم يخرج، وإنما نقله من تمليك أدنى اليوم إلى ملك أعلى غدًا، وذلك حسنُ اختيار من المختار، وبَلوى اختبارٍ من الجبّار.

فهذه شهادةُ الموقنين بعين اليقين، وهو مقام الشاهدين، فمن لم يشهد ما ذكرناه، ويَجِدْ ما وصفناه، ثم توهَّم التوكُّل على الله، وقدَّر حسن اليقين به، وادّعى منازل المقربين منه، الأغنياءِ بغِناه، الأقوياءِ بنصره وقُواه، المشاهدين لمجارى قدرته، فى تصريف حكمته، فليستغفر اللهَ من توهُّمِه، وليَتُبْ إليه من توبته، وليتوكَّلْ على الله فى توكّله، فما ذكرناه هو حالُ المتوكلين، ووصفُ الواصلين.

فإذا أُعلم العبدُ أنّه كاذب استكانَ استكانة الكذابين، وأناب إنابة المنكسرين، ولم ينطق بكلام الصّادقين، ولا يُدِلُّ إدلالَ المحبِّين، ولا يعتزُّ عزَّة المتوكِّلين، فيكون تعريفُ الله تعالى إيّاه هذا المعاني اليوم قبل اللقاءِ، تأديبًا له، وتنبيهًا ومزيدًا لمثله، (. . .)[١] وهذا مزيدُ الناقصين، وحالُ المعتلّين، ومقام المضطرين[٢].

والمعاملة الخامسة[٣]: أن يكون له بكل درهم تَلفَ له ـ بعقد التوكُّل، وحسن اليقين، وتفويض التّسليم ـ سبعمائة درهم، كأنه قد أنفقه فى سبيل الله، يُحسب له ذلك؛ لأنه قد كان نواه. وكذلك إن لم يُؤخذ رَحْلُه، وسَلِم له ما فى بيته،

(١) كلمة فى (م) مضطربة وغير مقروءة.

(٢) إلى هنا تنتهى زيادة (م).

(٣) هذه المعاملة بها زيادة من (م) قدر سطر.

استنباطًا من قول رسول الله ﷺ فيمن ترك العَزْلَ، فأقرَّ النطفةَ قرارها، توكُّلاً على ممكّنها، أنَّ له أجرَ غلامٍ وُلد له من ذلك الجماع، وعاش فقُتل فى سبيل الله، وإن كان لم يُولد له. فقال: أنت تخلقه؟ أنت ترزقه؟ إليكَ محياه ومماتُه؟ أقِرَّها قرارها ولك ذلك.

والمعاملة السادسة: أن لا يأثم أخوه الذى أخذ رَحْلَه، إن كان قد جعله صدقةً عليه، فيُؤجر أجرًا ثانيًا؛ لإشفاقه على أخيه، وحسن نظره للعصاة من حيث لا يعلمون، تخلُّقًا بأخلاق مولاه، وينال بعفوه عن ظالمه درجةَ المحسنين، ويتحقّق بمقام المتّقين، ويكون ممن وقع أجرُه على الله، فيُخفى له ما لا تعلم نفس من قُرة أعينٍ[1]، لأنّا رُوينا أنه يقال يوم القيامة: «ليَقُم مَن وقَع أجرهُ على اللهِ، فلا يقوم إلاّ مَن عَفَا عن ظالمه».

وفى الخبر: «مَن استغفر لظالمه فَرَّ الشَّيطانُ من ظِلِّهِ، ومَن دعا لمن ظلمه استغفرت له ملائكةُ السموات».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿وبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤]، قيل: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا بلسانٍ ولا يدٍ؛ لأنّه قد علم كيف جرى الأمر، وأنّ الآخذَ مُبتلًى بسوء القضاء، وأنّه قدْ عُوفى إذ لم يكن هو ذلك العبد، فيرحم أهلَ البلاء حينئذ، ويحمد الله على ما عافاه، فيشغله الشكرُ لله عن الدعاء على ظالمه.

قال بعض العارفين لبعض أصحابه: لِمَ أسقطَ أهلُ المعرفة اللائمةَ عن الظالمين لهم؟ فقلتُ: لا أدرى، قال: لعلمهم أنّ الله قصدهم بذلك، وابتلى الظالمين بهم، فرحموهم، وذلك داخلٌ فى نصر أخيهِ الظالمِ لنفسه، وطاعةٌ لأمر رسوله ﷺ فى قوله: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، أى تمنعه عن الظلم، فإذا عفا عنه فقد منعه من الظُّلم؛ لأنّه لو رآه منعه من أخْذِه، أو وهبه له، فيقوم عفوه عنه مقام رؤيته.

---

(١) من قوله: «أعين» إلى «بلسان ولا يد» زيادة من (م).

وهذا(١) أيضًا يدخل فى إشفاق الخائفين من فضل مطالبة الظالمين؛ لأنّا روينا فى الخبر: «إنّ العبدَ ليُظلَم بالمَظْلمة، أو يُسرَق له الشىءُ، فلا يزال يدعو عليه ويسبُّه حتى يستوفى بقدر ظُلامته، ويبقى للظّالم فضلٌ يُؤخذ له من المظلوم غدًا». فصار هذا كخوف المقتصِّ ممن جَرَحه أن لا يكون قد اقتصّ بمثل ما جُرِح، لقوله: ﴿وجَزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مِثْلُها فَمَنْ عفَا وأَصْلَحَ فَأجْرُه علَى الله﴾ [الشورى: ٤٠] لمن لا يحسن الاقتصاص بالمماثلة، فعفوه أسلم، ومن مخالفته الأمر ومُواقعة النهى أبعد، لقوله: ﴿وإنْ عاقَبْتُمْ فعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُم بِهِ ولَئِن صَبرْتُم لَهُوَ خَيرٌ للصَّابِرينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. فإن لم يعاقِب هذا الظالم بمثل إساءته، فزاد على مُمَاثلته، لم يأمن أن يُقتصَّ له منه بالعفو فى السّلامة أقربُ، فلذلك صار أفضلَ؛ لأن ما حاز السّلامة، واستوعب الجدَّ، فهو رِبْحٌ وفَضْلٌ.

والمعاملة السابعة: تَحقُّقه بالزهد فيما ذهب. قال أبو سليمان الدّارانى، لما بلغه عن مالك بن دينار أنه قال للمغيرة: اذهب فخُذ تلك الرّكوة من البيت فلا حاجة لى بها، وكان قد أهداها إليه وقَبلها منه، فقال: ولِمَ؟ قال: يوسوس إلىَّ العدوُّ أنّ اللص قد أخذها؟ وكان مالك لا يغلق بابه، إنما كان يشدُّه بشريط، وكان يقول: لولا الكلابُ ما شَدَدْتُه أيضًا. فقال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفيين(٢)، هو قد زهد فى الدنيا، فما عليه مَنْ أخذَها. وهذا كما قال أبو سليمان؛ لأنّ الزهد إذا صحّ دخل الرضا والتوكل فيه.

ولقول مالك أيضًا وجهٌ، كأنه كَرِه أن يعصى الله به، فيكون هو سبب معصية الله. ولكنّ قولَ أبى سليمان أعلى؛ لأجل مقام التوكُّل والرضا.

وقد كان أبو عيينة يقول: لولا كراهية أن أكون سببًا لمعصية الله، لأحببتُ أن لا أزال مظلومًا(٣).

---

(١) من هنا إلى قوله: «ربح وفضل» آخر الفقرة زيادة من (م).

(٢) فى (د): «قلوب الصّديقين».

(٣) قوله: «وقد كان أبو عيينة... مظلومًا» زيادة من (م).

وهذا الذى ذكرناه من ذهاب ما فى البيت هو لكل من ذهب له مال فى سفر أو حضر، ولكل من أُصيب بمصيبة فى نفس أو أهل. هذه المعاملات كلها إذا اعتقدها بقلبه وكانت فى خَلَده ووَجْده، وإن لم ينطق بها أو يُظهرها، وهو وَجْدُ الراضين، وحالُ المتوكِّلين، وإن لم يتكلموا به، أو يُعلم منهم[(١)]، فأكثرُ الناس إيمانًا، وأحسنُهم يقينًا، أقلُّهم غمًّا، وأيسرُهم أسًى على ما فات من الدنيا، وأحسنُهم رضًا، وأنفذُهم شهادةً، مَنْ رأى أن ذلك نعمةٌ أوجبت عليهم شكرًا. وأقلُّ الناس إيمانًا، وأضعفُهم يقينًا، أشدُّهم أسًى، وأكثرُهم غمًّا على ما فات، وأطولُهم شكوى، وأقلُّهم شكرًا. فالمصائبُ محنة تكشف الزهدَ فى الدنيا والرغبة، ألم تسمع إلى الحديث الذى جاء فيه هذا الدعاء: «وأسألك من اليقين ما تُهَوِّن به علينا مصائب الدنيا»؟ فشدَّة الغمِّ على فوت الدنيا دليلٌ على حبّها، وعلامةُ ضعف اليقين بمحبوبه. وسُهُولةُ الغمِّ على فوتها دليلٌ على الزّهد فيها، وقوة اليقين بربّه. فإن وجد المتوكِّل رَحْلَه بحاله، أو رُدَّ عليه بعد أخْذِه، لم يضرَّه بتبقيته شىء، وكان له أجر ما قد نوى من المعاملات[(٢)].

ولا أعلم هذا القول واعتقاده عند خروج العبد من منزله أو تركه لرحله أو خروجه فى سفر ينقصه[(٣)] شيئًا ولا يضرّه، ولا يقدِّم ضياعَ شىءٍ حكَم اللهُ ببقائه له، ولا يؤخِّر تركُ العقد لهذا تبقيةَ ما حكمَ اللهُ بذهابه. ومع ذلك فيكون له حال من التوكل، ومقام فى الرّضا، وحسن معاملات، إلاّ شيئًا واحدًا من باب نقصان الدنيا من طريق الورع، فإنّه يُنقصه، وهو أنّه إن أخذ ما توكَّل على الله فيه، وفوَّض إليه أمره به، ثُمَّ رُدّ عليه، لم يُستحبَّ له فى الورع أن يتملَّكه، ولا أن يَرجِع فيه فى حسن الأدب؛ لأنه قد كان جعله صدقةً فى سبيل الله، فإن رجَع فيه لم ينقص ذلك توكُّلَه؛ لأنه قد صحّ تفويضه إلى الوكيل فى الحالين معًا، فيكون ردُّه عليه ـ لأنه قد كان وهبه له، وإنما روّعه بِفَقْدِه ـ بمنزلة ابتداء عطاءٍ منه.

---

(١) من قوله: «وهو وجد الراضين» زيادة من (م).

(٢) عبارة (م): «لم يضره بتبقيته شيئًا، وكان له أجور بما ذكرناه من الأعمال الصالحة بالنيّات التى وصْفنا». وعبارة (د): «لم يضره بتبقيته شيئًا، وكان له أجرًا لما نواه».

(٣) فى المطبوعة: «ينفعه».

وقد رُوينا أنّ ابن عمر سُرقت ناقته، فطلبها حتى أعيا. ثم قال: فى سبيل الله. فدخل المسجد وصلّى ركعتين، فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنّ ناقتك فى مكان كذا، فلبس نعله وقام، ثم نزعها، ثم قال: أستغفر الله، وجلس. فقيل له: ألا تذهب فتأخذها؟ فقال: إنى كنتُ قلتُ: فى سبيل الله.

وحُدثت عن بعضهم قال: رأيتُ بعضَ إخوانى فى النوم بعد موته، فقلتُ: ما فعل اللهُ بك؟ فقال: غفر لى، وأدخلنى الجنة، وعُرضت علىَّ منازلى فيها، فرأيتها، قال: وهو فى ذلك كئيبٌ حزين. فقلتُ: قد دخلتَ الجنة وغُفر لك وأنت حزين؟ فتنفّس الصُّعَداء، ثم قال: نعم، إنّى لا أزال حزينًا إلى يوم القيامة. قلت: ولِمَ ذلك؟ قال: إنّى لما رأيتُ منازلى من الجنّة رُفعت لى مقاماتٌ فى علِّيين ما رأيتُ مثلها فيما رأيتُ، ففَرِحت بها، فلما هَمَمْتُ بدُخولها نادى منادٍ من فوقها: اصرفوه عنها، فليست هذه له، إنما هذه لمن أمْضى السبيل. فقلتُ: وما إمضاءُ السبيل؟ قيل لى: قد كنتَ تقول للشىء إذا ذهَب منك: فى سبيل الله، ثم ترجع فيه، فلو كنتَ أمضيتَ السَّبيل لأمضيناها لك.

وقد(١) اختلف أهلُ الرأى وأهلُ المعرفة فيمن ظُلم بمظلمته . فقال بعضهم بما ذكرناه من تحليل الظالم والعفوِ عنه. وقالت طائفة من أهل التوكل: بل إرجاءُ ذلك إلى الله تعالى وتسليمُه إليه وتفويضُه، حتى يحكم فيه بما يحب؛ لأنّه منه وله أوْلى، وأنه أحبُّ إليهم، وعندهم أعلى. من ذلك ما حُدِّثتُ عن أحمد بن أبى الحوارى، قال: قلت لأبى سليمان: إنى قد جعلتُ كُلَّ مَن لى قِبَله تَبِعةٌ فى حلٍّ. فقال: بئس ما صنعتَ، إنّما كان ينبغى أن تهبه لله تعالى، فيؤاخذ من يشاء ويعفو عمن يشاء. قال ابن أبى الحوارى: فلم أُجبه أنا على هذا، وثبتُّ على الأمر الأول.

شرحُ القولين وبيانُهما: قول سليمان رحمه الله أعلى، وهو معنى من التوكُّل على الله فى النفس، وهو أرفع أحوال التوكل؛ لأنّه التوكلُ فى الحكم، وهو من

(١) من قوله: «وقد اختلف أهل الرأى» إلى «وكذلك كان السلف الأول» فى الصفحة التالية: زيادة من (م) فقط.

مقامات الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لله عَلَيْه تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف:٦٧]، ولأنّ فيه التفويضَ والتسليمَ، وتَرْكَ الاعتراضِ، والتحكُّمَ بين يدى المولى، كما قال تعالى: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ الله﴾ [الحجرات:١] يعنى آراءكم وأهواءكم، ففيه الاستسلام للأحكام، حتى يحكم الله ما يريد، ويقضى بين خلقه ما أَحَبَّ. ووافقه ابن سيرين فى هذا المعنى، لحقيقة ورعه، وكان الرجلُ إذا قال له: قد اغتبتُك فاجعلنى فى حِلٍّ، يقول: لا أُحلُّ ما حرَّمَ اللهُ، بل حكمُه إلى الله.

كذلك كان بعض السلف إذا ظُلم بمظلمة أو جُنى عليه بجناية، فسُئل أن يُحلِّل الظالم، يقول: بل أجعل ذلك إلى اللهِ، يحكم فيه ما أحبَّ. ويقول بعضهم: ليس هذا لى، هو لله، فحكمه إليه يقضى فيه ما شاء. وقولُ ابن أبى الحوارى أدْخَلُ فى السُّنَّة، وأشبهُ بطريقة المتقدمين من الأئمة. من ذلك الخبر المشهور: «مَنْ كانت عليه مظلمةٌ لأخيه فى مالٍ أو عِرْضٍ، فَلْيَتَحلَّلَه منها اليوم قبل القصاص غدًا، ليس ثَمَّ دينارٌ ولا درهم، إنما هو بالحسنات والسيئات». ولتجويز الأمة للعفو عن الظالم، وتفضيل العافين عن الناس، فلو لم يكن هذا أفضلَ ما مُدحوا به، ولا فُضِّلوا بفعله. وهذا مذهبُ الأكثرِ، وهو أحبُّ إلىَّ، لأن هذا حقٌّ لنا، أحقَّنا الله به، وجعله بأيدينا وإلينا، لغناه عنه، فلنا أن نتحكَّم فيه بتحكيمه، ونَتخلَّقَ فيه بمحاسن أخلاقه، كما جاء فى الخبر: «إن الله عفوٌّ يحب العَفو» ويستند إلى السّنة فى قوله ﷺ: «تواهبوا مظالمكم اليومَ قبل القَصَاصِ غدًا». مع قوله تعالى: ﴿فاتَّقُوا اللهَ وأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١].

وكذلك كان رأىُ السّلَفِ الأول، كما حدّثونا أن الربيع بن خيثم سُرِق فرسُه، وكان ثمنه عِشرين ألفًا، وكان قائمًا يصلى، فلم يقطع صلاته، ولم ينزعج لطلبه، فجاءه النّاس يعزُّونه. فقال: أمَا إنى قد كنت رأيتُه وهو يَحُلُّه. قيل: وما منعك أن تزجره؟ قال: كنتُ فيما هو أحبُّ إلىَّ من ذاك، يعنى الصلاة. قال: فجعلوا يدعون عليه. فقال: لا تفعلوا، وقولوا خيرًا، فإنّى قد جعلتُها صدقةً عليه. فلولا أنه اعتقد تحليله والعفو عنه لكان من المعاونين له على الإثم والعدوان، وكان قد

خذله وما نصره.

وقيل لبعضهم فى شىءٍ قد كان سُرق له: ألاَ تدعو على ظالمك؟ فقال: ما أحبُّ أن أكون عونًا للشيطان عليه. قيل: أفرأيتَ لو رُدَّت إليك سَرِقَتُك أكنتَ تأخذها؟ قال: ولا كنتُ أنظر إليها، إنى قد كنتُ أحللته منها.

وقيل لآخر: أُدع اللهَ على من ظلمك، قال: ما ظلمنى أحد. ثم قال: إنما ظَلَم نفسه، أفلا يكفيه المسكين ظُلمُه لنفسه حتى أزيده شرًا؟

وذهب لبعض المسلمين مال، فجاء قومٌ يُعزُّونه عليه، فقال: ما تعزُّونى على أمر الدنيا، فوالله ما حزنتُ على ذَهابها فكيف على ذهابِ شىءٍ منها؟! قيل: ولِمَ؟ قال: شغلنى الشُكرُ عليه عن الحزن.

وقد كانوا يقولون، إذا ظُلموا من الغَصْب والسرقة وغير ذلك: هذه نعمةُ الله علينا إذ لم يَجعلنا ظالمين بل مظلومين، وجعلنا أعظم مما فاتنا من الظُّلامة. وقد كان السلف يخافون أن يذكروا الظالم بالسَّبِّ له والدعاء عليه، فيكون ذلك زيادةً على مَظْلَمتهم. وقد روينا: «منَ دَعا على ظالمه فقد انتصر».

وأكثر بعضُهم بشَتْم الحجاج عند بعض السَّلَف، فقال له: لا تُغرق فى شتمه، فإنّ اللهَ ينتصف للحجاج ممن انتهكَ عِرضَه، كما ينتصف منه لمن أخذ مالَهُ.

وفى الخبر: «إن العبدُ ليظلم المظلمة، فلا يزال يَشْتِم ظالمه ويسبُّه حتى يكون بمقدار ما ظلمه، ثم يبقى للظالم عليه مطالبةٌ بما زاد عليه، يُقتَصُّ له من المظلوم».

وقال بعض العلماء لرجل، وقد كان شكا إليه قَطْعَ الطريق، وأخْذَ ماله، فقال له: إن لم يكن غمُّكَ أنّه قد صار فى المسلمين مَنْ يَستحلُّ هذا أكثرَ من غمِّك بمالك، فما نصحتَ للمسلمين.

وسُرقت من على بن الفضيل دنانير، وهو يطوف بالبيت، فرآه أبوه وهو يبكى، فقال: أعلى الدنانير تبكى؟ فقال: لا والله، ولكن على المسْكين، أنه يُسأل يوم القيامة، ولا يكون له حجة. وقيل لبعضهم فى معنى هذا: أُدع على من ظلمك، فقال: إنى مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه. وقد كان أبو سليمان يقول: إنما البغضُ لأهل المعاصى عند النظر إليهم عليها، فإذا تفكَّرت فيما يصيرون إليه من

العقوبة دخلت الرحمةُ لهم القلبَ.

فأمّا القول الآخر الذى اختاره أبو سُليمان وأصحابه من ردِّ ذلك إلى الله تعالى وتركِهِ عليه، حتى يحكُم فيه ما يريد، فيصلح أن يُستَدَلَّ له بأن يقول: ليس إذا وهبَ الله تعالى يلزمه ذلك لنا (. . .)[1] لفضله وملكنا [لتحصيل] عدلِهِ تملكّناه نحن وتحكّمنا فيه دونه، وهذا لمطالعة الأعْواضِ، والجزاء على الأعمال فى توكل [المعوَّض] فيها وتَرْك النظر إليها، ونسيان المطالبةِ والمطالعةِ على التعويض منها، وإن كان حقًا أحقَّهم الله به، ونصيبًا أنصبه إياهمْ بفضله وكرمه، فأبو سليمان والعارفون لا يطالعون الجزاء، وإن الله قد جعله لأعمالهم، ويُوفيهم أجورَهم، وقد قال عز وجل: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٨ ـ ٥٩] فمدحهم بأنهم يَعْملون ويَصْبرون، ووصفهم بأنهم فى أعمالهم يتوكلون. وهذا مزيدٌ فى التوكُّل عليه فى النفس، وطرحِها بين يديه بلا اعتراضٍ ولا حسٍّ، ولا ينظرون إلى علم ولا عمل، فيحتجبون بذلك عن العَلاَّم المستعمل، فذهب أبو سليمان إلى مقام الخُصوص فى التوكلُ، بالنظر إلى الوكيل، وتفويض الأمر إليه، وترك التدبير بين يديه، حتى يكون الوكيل هو الذى يعيد كما أبدى، ويبتلى ويُعافى كما أبلى، ويحكُم فى الآخرية ما يريد كما قدَّر فى الأوليَّة ما أراد.

وذهب الآخرون منهم ابن أبى الحوارى إلى ظاهر العلم من جواز التمليك، وأن العبد إذا ملَّكه سيدُه مَلَك، وإذا ملك [تحكّم فى ذلك]. وإلى عموم الأخبار فى من عفا عن أخيه ومن عفا عمَّن ظلمه، ونحو ذلك. ولأنَّ ذلك أيضًا يَجدُهُ فى الآخرة عند المحاسبة والمطالبة، فيقال له: خُذْ لمظلمتك، ويُعطَى ثوابَ عفوه، ويُعوَّض [بالجنّة] عِوضًا منها، ويستوهبها الله تعالى منهم، لمن أراد أن يغفر ما له، وفى الخبر: «وديوان [لا يُبَتُّ فيه هو] مظالم العبادِ». وأن المظالمَ لا يغفرها اللهُ تعالى حتى يغفرها المظلوم. وهذه كلها أحوال لهذا العموم، وهى أدخلُ فى معالم الرسوم، وأقربُ إلى ظواهر العلوم، ويلزم مع ذلك أصحابها مطابقة الأعواض،

---

(١) كلمة غير مقروءة، وما بين المعكفات وضعته اجتهادًا منى.

لأنها جُعلت لهم أبدالاً من أعمالهم، وتعويضًا على صَبْرِهم، وجزاءً لفعلهم، وهذا طريق السّابلة[١]، والأول طريقٌ لخصوص المتوكِّلة، كما بيَّنَّاه، وكلٌّ يعمل على شاكلته، لكلٍّ وِجْهَةٌ هو مُوَلِّيها.

• بقية الكلام في المتوكل على الله يؤخذ منه الشيء فيجعله في سبيل الله ثم يُرَدُّ عليه:

فإن رُدَّ على المتوكِّل كلُّ ما أُخِذَ منه، فالأفضلُ له أن لا يتملَّكه، إن كان قد جعله في سبيل الله؛ ليُمضي السبيلَ، فإن كان قد جعله صدقةً على الآخذ، نظر في ذلك، فإن كان فقيرًا، حمله فقرُه على السّرقة والخيانة والحاجة، أمضى صدقتَه عليه، وإن كان غير ذلك صرَفها إلى فقير. وهو[٢] مأجور على الصدقة على السارق والبغيِّ، إذا حملتهما على ذلك الحاجة. كما رُوينا في الإسرائيليات أن رجلاً تعبَّد، وكان ذا مال، فعزم على إخراجه، فخرج بشيء منه ليتصدَّق به ليلاً، فصادف امرأةً فقيرة فدفعها إليها، فلما أصبح نظر في أمرها، فإذا هي بَغِيٌّ، فاغتمَّ، فقال: وقعتْ بيد فاجرة، الحمد لله على ما قَضى. ثمّ خرج ليلة أُخرى بصدقته، فدفعها إلى فقير، فلما أصبح تبيَّن فإذا هو لص، فقال: الحمد لله، وقعتْ بيد لص، وبيد بغيٍّ. ثم أخرج صدقةً ليلة أخرى، فدفعها إلى رجل، فلما أصبح نظر فإذا هو غنيٌّ، فحمد الله على قضائه، واغتمَّ في وقوع صدقته في غير أهلها الذين يُحبّ أن تقع فيهم. قال: فأوحى الله تعالى إلى نبيِّهم ﷺ: قل لفلان: إن الله قد قَبِلَ صدقتَك، وشكر لك صدق نيتك، وقد وضعتَها في مواضعها، أما البغيُّ فإنه كان يحملها على الفجور الحاجةُ، فعفَّت عن الفسْق بذلك، وأما اللص فكان يحمله على السرقة الفقرُ، فأغنيتَه بصدقتك، وأما الغنيُّ فكان بخيلاً لا يُخرج زكاة ماله، فاعتبر بذلك واتَّعظ به.

فهذه حِكَمُ الله تعالى في الغيب، وألطافٌ خفية، ومصالح لطيفة، وحسنُ توفيق لأوليائه، من حيث لا يعلمون ومن حيث لا يحتسبون، كما يستخرج لهم رزقَهم

---

(١) في المخطوط (م): «السايلة». والصواب ما أثبت. والسّابلة من الطُّرق: المسلوكة.

(٢) من هنا زيادة من (م)، إلى قوله: «وفضل أثرته لهم».

من الحرام والحلال، وكما يُشهدهم الحقَّ والعدل من الباطل والمحال، وكما يُعلمهم الفهوم ويعهد لهمَ العلوم من الجهال، بحسن عنايته بهم وفضل أثَرته لهم[١].

وقد كان بعضهم إذا أُخذ له الشيء، يشترط فيقول: إن كان فقيرًا فهو صدقة عليه، وإن كان محتاجًا فهو فى حِلٍّ.

وقد أخبرنى بعضُ الأشياخ عن شيخ كان بمكة من العبَّاد أنه اتهمه بعضُ الحجَّاج بسرقة هِمْيَانه[٢]، لأنه كان قائمًا إلى جانبه، فقال له: كم كان فيه، فأخبره، فحمله إلى منزله فوزن له من المال، ثم إن أصحابه أعلموه أنهم مزحوا معه، وحلُّوا هِمْيانه وهو نائم، فجاء هو وأصحابه إليه، فردُّوا عليه ماله. فقال: ما كانت لتعودَ إليَّ بعد إذ خرجت، هى لكم. فقلنا: لا حاجة لنا فيها. فقال: خذوها. قال: فأبينا. فقال: يا بنى، ودعا ابنًا له، وجعل يصرُّها صُررًا، ويبعث بها إلى قومٍ، حتى فرغ منها. وهذا كانت نيتُه إخراجَها لله سبحانه، فلم يَعُدْ فيما أخرجه. كما نقول فيمن أخرج رغيفًا إلى سائل، أو أعدَّ درهمًا لفقيرٍ فلم يصادفه: إنَّا نستحبُّ أن لا يرجع إلى مِلْكه، بل يعزله لسائل آخر، أو فقير غيره. لم يزل هذا من أخلاق المؤمنين. وقد رأينا من كان بهذا الوصف، وهذا طريقٌ قد عفا أثرُه، ودَرَسَ خبرُه، فمن عَمِل به فقد أحياه وأظهره. وقد كان قديمًا طريقًا إلى الله تعالى عليه السَّابِلةُ من الأولياء[٣].

• ذكر بيان آخر من أحكام التوكل وصحة وقوعه:

اعلم أن التوكُّل على الله لا يمنع دخولَ اللصوص، ولا يدفع وقوعَ الأقدار للبَلْوى بمحن الدار وللاختبار للمعرفين الأخيار.

قال أبو اليزيد ـ قدس الله روحه ـ وهو من أعلى المتوكلين: ما سافرتُ فى

---

(١) إلى هنا تنتهى الزيادة من (م).

(٢) الهميان: كيس للنفقة يُشد فى الوسط. الجمع: همماين، وهمايين.

(٣) بعده فى (م): «وقد كان أبو سليمان الداراني يشدِّد فى التوكل، ويقول: لو توكلنا على الله ما بنينا حائطًا، ولا جعلنا لباب الدار غلقًا مخافة اللصوص، ولذلك كان (كلمة غير مقروءة) التوكل. ويقول: فى كل المقامات لى قدم إلا التوكل، فما لى منه إلا مشام الرِّيح».

قافلة قط إلاّ قُطع عليَّ الطّريق. وقال آخر من نظرائه: ما خرجتُ في سَفَرٍ قط ومعي سبب إلاّ سُلِّط عليَّ مَنْ يأخذُه، حتى أبقى مع الله بالله، مُجَرَّدًا بلا سببٍ. فهذه آيات يردُّ الله بها أولياءَهُ إليه، وتسليطاتٌ يدلُّهم بها عليه، وتعريفاتٌ يُنَبِّهُم بها ليَرْجِعُوا إليه.

• بيان آخر من أحكام التوكل[(١)]:

اعلم أنّ التوكُّل على الله في الأسباب لا يوجب بقاءها للعبد، ولا إيثاره بها، ولا حفظها عليه، ولا يقدِّم شيئًا عن شيء، ولا يؤخِّره لصلاح دنيا أو اختيار عبد، بل هو إلى الإذهاب والإتلاف أقربُ؛ لأنّ التوكل قرينُ الزهد وثمرته، فهو يردّ المتوكل إلى أصله، فالإتلافُ والعَدَمُ إلى الزُّهد أقربُ، ومن حظوظ النّفس أبعدُ، وإلى البأساء والضراء أدنى، وذلك وصفُ صادقي المتقين، فتدبر. فلأجل اختيار صدق العبد، وامتحان تحقُّقه بالمقام، يقع التسليط، ليرجع إلى الله تعالى، ويَسْتَغيثَ من خللٍ يدخل في المقام أو تفريط. ولأجل أن ينفي الشيء هو من الدُّنيا، لقوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّنْ شَىْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنيا﴾ [الشورى:٣٦]. فإن ذهب مالُه فصبر أو شكَرَ أو رَضِيَ، كان صادقًا في توكله. وهذه أحوال صادقي المتوكلين. وإن جزع أو سخِط أو كفر لنِعَمِه بذلك لجهله بباطنها وغفلتِه عن حُسن عواقبها، كان من كاذبي المدعين؛ لأن هذه الأحوال وصف المتواكلين، وهو ضدّ المتوكِّلين.

فإن اضطربت نفسه، وتشتَّت همُّه، واختلف عليه في ذلك حالُه، لَزِمهُ من مجاهدة النفس مِثلُ ما يلزمه من مجاهدتها عند دخول الآفات في سائر الأعمال حتى ينفيها، ويصفِّي أعماله من كَدَرِها. فإن حُفظ عليه مالُه، فقد رُفِقَ به في ذلك، وسُتِر عليه عن كشف حقيقة حاله بتلف ذلك، وجُعل ذلك كرامةً له من الدّنيا؛ ليطمئنّ قلبه بها ونِعَمُه عليه من المعيشة لتَسْكُن نفسه معها. وهذا مقامُ الضعفاء، وطريق العُرْج والزّمنى، وليس من التوكل في شيء. وإن تلف ماله، وذهبت دُنياه؛ فقد أُقيم مقام أهل البلاء، الأمثلَ فالأمثلَ بالأنبياء، وهذا مقام

(١) هذا العنوان من نسخة (د).

الأقوياء، وطريق السالمين الأصحاء. ولولا الامتحان لكثُر الصادقون، ولولا الإخراج من المعتاد والمألوف لكثُر الصالحون، فالله تعالى قد قلَّلهم بقوله تعالى: **﴿الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات وقَليلٌ مَّا هُمْ﴾** [ص:٢٤]. وقال: **﴿وَقَليلٌ مِّن عبادِيَ الشَّكُورُ﴾** [سبأ:١٣]. هذا لأنهم مُحسنون، وقد قال: **﴿كانُوا قَبْلَ ذَلكَ مُحْسنينَ * كانُوا قَليلاً﴾** [الذاريات:١٦ ـ ١٧].

ومَنْ توكَّل على الله ليبقى مالُه، أو ليَسْلَم خوفُه فيما توكَّل عليه، فيكون توكله لأجل هذا، وبهذه النِّية كان قَصْدُه ووَجْدُه، فهو جاهلٌ بالله، مغترٌّ بنِعَمِه، غيرُ ذاكر لآلائه، ولا عارفٌ بأفعاله وبلائه، احتاج إلى توبة واستغفار من توكله، إذ أراد أن يمحو بتوكُّله ما ثبت من الأقدار، وأحبَّ أن يُبدِّل اللهُ سُنَّتَهُ مع ساكني الدّار. فنقصانُ توحيده وضَعْفُ إيمانه بهذه الأصول أشدُّ وأخزى عليه من مَزِيده وتقويته بتلك الفروع.

وإذا توكَّل المتوكلون على الله؛ لأن الله يحب المتوكلين، ولأمره بذلك، وجعله التوكلَ عليه من شرط الإيمان به في قوله تعالى: **﴿وَعَلَى الله فَتَوكَّلُوا إنْ كُنتُم مُّؤْمنينَ﴾** [المائدة:٢٣]، فلأنّ المتوكِّل ينظر بعين اليقين، فيشهد يدَ الوكيلِ قابضةً على نواصي الخليقة فى الدّارين، وأن الصَّنعة بيده، فأُخرجت من ملكوته بقلبها ظهرًا لبطنٍ، ونفعًا وضرًا، وخيرًا وشرًا، لقوله تعالى مخبرًا عن التوكُّل: **﴿إنِّي تَوكَّلْتُ عَلَى الله ربِّى وربِّكُم مَّا منْ دَابَّة إلاَّ هُوَ آخذٌ بنَاصيَتِهَا﴾** [هود:٥٦]. وقال فى المجمل: **﴿فَسُبْحانَ الَّذى بيَده مَلَكُوتُ كُلِّ شىء﴾** [يس:٨٣]. فلما شهد بعين يقينه ذلك، اضطرته الشهادةُ إلى التوكل، ولاتَ حينَ مناص؛ لقلَّته عنه بشهادة العلم بالحق، كلاَّ لا وَزَر؛ لعقله منه، لقيُّوميَّة اليقين بالحقيقة، لذلك يقول: **﴿إلاَّ مَن شَهدَ بالحقِّ وهُم يَعْلَمُونَ﴾** [الزخرف:٨٦]. ولذلك قال: **﴿حتَّى يَتبيَّنَ لَهُم أنَّه الحَقُّ أَوَ لَم يَكْف بربِّكَ أنَّه عَلَى كُلِّ شَىء شَهيدٌ * أَلاَ إنَّهُم في مريَة مِّنْ لقَاء رَبِّهم أَلاَ إنَّه بكُلِّ شَىء مُحيطٌ﴾** [فصلت:٥٣ ـ ٥٤]. حينئذٍ توكَّل عليه به، ولَهُ، وعَنْه؛ لا

لأجل سواه، ولا لمعنًى من آخرتهِ ودُنياه، ثم رمى توكله وراء ظهره، فلم ينظر إليه أمامه، فيصير حجابًا بيْنَهُ وبين وكيله، يقطعه عن النَّفَاذ إليه، ويمنعه من المزيد منه، أو يحجبه عن الشهادة له، فسقط عنه الغمُّ اليوم لما وقع، وزال عنه الغمُّ غدًا لما يتوقع عنه، صار رُوحانيًا بروح رَيْحانيًا لريحان، لا ينظرُ إلاّ إليه، ولا يعوّل[1] إلاّ عليه، حتى يحيا به، متروَّحٌ بريحانه، مُقرَّبٌ من صفاته، مكاشَفٌ بسرائر مخبَّآته، هناك تحقّق بقول الوكيل: ﴿وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم:١١]، فأمر العمومَ من المؤمنين بالتوكُّل فى الأشياءِ عليه بالعقود، وخاطب الخُصوصَ من المقرَّبين والشَّاهِدين بالتَّخْصيصِ، ولم يرضَ منهم إلاّ بالوُجود بعد الشُّهودِ، لأنهم سامعون مستجيبون، كما قال: ﴿إنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذينَ يَسْمَعُونَ﴾ فهم الأحياءُ اليوم بعلمهم له ﴿والْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ [الأنعام:٣٦] غدًا إليه. وقال للمقربين، وهم متوكلو المتوكلين: ﴿وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوكَّلِ الْمُتَوكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٢] أى من توكّل عليه فى الأشياء، فقام لشاهدِ توكُّله، فليتوكل عليه فى توكله بشهادة الحَقِّ، بالغيبة عن شاهدِه، كما قال فى وصف شُهداء العلماء بشهادته من شهادَتِه: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّه لا إلهَ إلاَّ هُوَ والملائكةُ وأُولُوا العلْمِ قَائمًا بالقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨]، فهؤلاء الشاهدون على شهادتِهِ، ﴿فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدينَ﴾ [آل عمرن:٥٣] فهؤلاء عمَّاله به، الصابرون له وعليه، ثم توكلوا فى الأعمال والصّبر، ولم يَنظُروا إلى توكلهم، وَوَلَّوه منهم الظَّهر؛ لأن من نظر إلى سواه احتجب عنه بنظره، فضلاً عن منظوره، فهمُ الموصوفون فى قوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ العَامِلينَ * الَّذينَ صَبَرُوا وعَلَى ربِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٨ - ٥٩]، عملوا لمولاهم، وصبروا لوليِّهم، ثم توكلوا عليه فى صبرهم، وإنما حالُ المتوكِّل الرضا بمُرِّ القضا، ووَجْدُ حلاوة الصبر عسلاً شريًّا، له يساقيه لذوق حلاوة محبّته وما يُرضيه، كما قال الحكيم: مرَّر أفعاله، فزاد بها حلاوةً فى القُلُوب إذ مرَّر، وكدَّرَ صفوَ الشَّرابِ سطوتُه، فقد شربنا به الذى كدَّرَ.

---

(١) يمكن أن تقرأ فى الأصل المخطوط: «ولا يحلف».

فإذا كان حالُ المتوكل الرِّضا بجريان القضا، والمحبةَ لمواقع البلا، [فما] بقى ماله، وسلم سببه الذى توكل عليه عنه، أو عَطِبَ، إذ كان محبّةُ وكيلِه فيه، ورضاه به، فما عوّضه من موافقة محبته وحلاوة رضاه أفضلُ من إتلافِ نفسه ودنياه.

ولا تصح له هذه المشاهدة، ولا يحقّ له هذا الوجد، حتى لا يريد من الملكَين سواه، فهذا حينئذٍ أفضل القربات إليه، والمتوكلُ بعدئذ أزلَفُ المقرَّبين لديه، كما قال بعض العارفين، وقد سُئل عن أفضل ما يتقرَّب به العبد إلى الله تعالى: أن يطَّلع على قلبه وهو لا يريد من الدنيا والآخرة غيره. فإذا أُقيم هذا المقام من التوكُّل، ورَّثَه ذلك حسنَ الخلقِ، مع الخالقِ أولاً، ثم مع الخَلْق ثانيًا، فأعقبه الحُكْمَ والسّخاءَ، وقَلَّتْ وساوسُه فى صلاتِه، وصَفَتْ له جميعُ أوقاته.

فإذا كان المتوكل هكذا جاذبًا فى توكيله، دائمَ النظر إلى وكيله، لم يضرَّه غَلْقُ بابه، ولا ما تعلَّق به من أسبابه، للحكمة والصّنْع الذى أتْقن كلَّ شىء، ولقيامه بقيوميّة القائم فى كل شىءٍ، فهذا دُنْيائىٌّ الجسم، آخرىٌّ القلب، مَلَكىٌّ الحواسِّ، ملكوتىّ الأنفاس، يُشبه الناسَ فى الشَّمائل واللِّبس، ويُبَاينُهم فى الجوهريَّة والأُنس، فهو فى نعيم النعيم، وجَنّة الجنّة، ورَوْح الرَّوح، ورَيْحان الريحان. وهذا لا يصفه إلاّ من يعرفه، ولا يعرفُه إلاّ مَن أوجده، ولا يَجدُهُ إلا من أَفْرَدَهُ. والإيمانُ به مزيد هدى المهتدين، ويزيد الله الذين اهْتدوا هدًى.

وكذلك القولُ فى التوكُّل على الله فى ترك التداوى، لا يجلب العَوافى ولا يُعجِّلها[1]، ولا ينقص من الأسقام ولا يُذهبها، بل يُذهب التشبُّث بها والاهتمام، وقد يكون إلى الازدياد من الأمراضِ أقربَ، للتمحيص والبلوى، ولنقص الأنفس بالضرّ واللّأوى، أى: ﴿**وليُمَحِّصَ اللهُ الَّذينَ آمنُوا ويَمْحَقَ الكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤١].

فمن لم يشهد نقصانَ الدنيا من النّفس والمال، نعمةً من الله فى الحالِ وحُسنَ عُقْبى فى المآلِ، يوجب عليه الشكر، ويتعبَّد بالاعترافِ لها أنّها من البرِّ لما يؤول

(١) عبارة الأصل: «لا يجلب ولا يعجل العوافى».

إليه من جزيل الذُّخْر ـ فما فاته من الجَهْل بربِّه، والكُفرِ بنعمته، وإضاعة الشكر المأمور به، أعظمُ ممَّا يُدرك من جميع الدُّنيا لو جُمعت له، وأخافُ عليه بذلك لطيفةً من المَحق، والمحْقُ نقصانُ الشيء إلى ذهابِ جملته عند الكفر بباطن نعمته، لقوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الكَافِرِين﴾ [آل عمران: ١٤١]، واللهُ أعلم أى شيء يمحقه وينقصه بمقدار ما كَفَر شكْرَ نعمته، فظاهرُ الكلمة كفر التوحيد، وباطنه كفر تغطيه عين التفريد، كما ظاهر النعم العوافى والغِنى، وباطنها البلاوى والفَنَى. ﴿وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. ﴿وذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وباطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]. فظاهرُه أعمال الجوارح، وباطنه هِمَمُ القُلوبِ اللوائح، العاديات الرَّوائح.

وقد قال تعالى فى المحكم المفسَّر: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ والجُوعِ ونَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ والأَنْفُسِ والثَّمَرات وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. فهذا النقص من هذه الخمس التى المزيد منها هو جُملةُ الدُّنيا، هو المزيد من الآخرة؛ لأنّها ضد الدُّنيا، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوات﴾ ثم نسَّق السَّبع صفاتٍ، ثم ترجمها بتفسير بها فقال: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاة الدُّنيا واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآب﴾ [آل عمران: ١٤ ـ ١٥]، ثم أخبرنا بخير منه عنده ولنا، فقال: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، وذكر الجنة وما فيها للمتقين، ثُمَّ وصفهم بصفات خمس فقال: ﴿الصَّابِرِينَ والصَّادِقِينَ والقَانِتِينَ والمُنفِقِينَ والمُسْتَغْفِرِينَ بالأَسْحارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، ثم أجمل ذلك وجمعه للمتوكِّلين عليه، وأخبر أن الآخرة التى هى خيرٌ وأبقى للمتوكلين من المؤمنين، وهم الذين لم يُسلَّط عليهم عدوَّه، بل سخره لهم، فانقطع سلطانه عنهم، حين اتَّصل همُّهم به، ودوام نصره لهم، فقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وعَلَى رَبِّهِم يَتوكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]. كذلك قال: ﴿وما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وعَلَى رَبِّهِم يَتَوكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦]، فادبروا!!

فهم الصابرون عن دُنياهم وأهوائهم توكُّلاً على مولاهم، بحُسن ظَنِّهم به،

وصدقوا فى توكُّلهم، فَعَلا إلى الصادق مقامُهُم، وقنتُوا فى صدْقهم، وهو حسن القيام بالشّهادة، ودوام الطاعة وخالص العبادة، وأنفقوا مما يُحبُّونَ؛ وهى نفوسهم النّفيسة، فلم يتنافسوا فى عاجل حَظِّها، فأنفقوها حتى أفْنَوْها، فسقط عنهم بقاءُ الأسباب بعد فناءِ النَّفس، إذ لها يحبّون العاجلةَ ويذرون الآخرة، ثم استَغفروا بالأَسْحار، فذنوبهم حسنات الأبرار، إذ قد كُوشفوا بغيوب الأسرار.

فالصَّبر أولُ مقامٍ فى التوكّل، وهو عند مشاهدة القضاء أفضوا للحُكم؛ لأنّه بالصبر.

والشّكرُ أوسطُ مقامٍ، وهو أعلى عند شُهودِ البلاءِ نعِمةً، فشكر المنعم بها إذ كشف عنه الغطاء.

والرِّضا فوق ذلك، وهو نهاية التوكل عند المحلولى القَدْر، وهذا مقام المحِبِّين من المتوكِّلين.

فأهل العقل عن الله، والمتقون له، هم المتوكلون عليه، وقد زهَّدهم فيما يَفْنَى بترغيبه إيّاهم فيما يبقى، حتى فهموا الخطاب، إذ هم أولو الألباب، لما أضافَ ما عنده إليه؛ ليرغبوا فيه، إذ وصَفَه بوصفه، وأضاف ما عندهم إليهم؛ ليزهدوا فيه، إذ نعتُه نَعْتُهم، فقال تعالى: ﴿**ما عنْدَكُم يَنْفَدُ وَما عنْدَ الله باق**﴾ [النحل:٩٦]. فزهدوا فى نفوسهم، فباعوها منه، وكانوا فيها من الزَّاهِدين، كما قال: ﴿**وشَرَوْهُ بثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَة وكانُوا فيه منَ الزَّاهدينَ**﴾ [يوسف: ٢٠]. ولا زهدَ فيها قبل بَيْعها، فكيف يتملَّكونَ ما عنده، والعَبدُ ومالُه لسَيِّده، والله تعالى قد اشتراها منهم، لرغبتهم فيه، وحُبِّهم له، وعوَّضَهم منها ما يبقى، فقال: ﴿**إنَّ اللهَ اشْتَرى منَ المُؤمنينَ أنْفُسَهُمْ وأمْوالَهُمْ بأنَّ لَهُمُ الجنَّةَ**﴾ [التوبة:١١١] فجعل لهم نَصيبًا منه بدلاً من أَنْفُسهم، وجعل لهم حظًا من داره دار السَّلامِ عند ربِّهم، وهو وَلِيُّهم، عِوَضًا من مالِهِم، ثم وَصَفَهم لنا لنعرفهم فقال: ﴿**التَّائبُونَ العَابدُونَ الحَامدُونَ**﴾ [التوبة: ١١٢] إلى آخر نعتهم. فهذه صفات النفس المشتراة، والبائعة عاجل حَظِّها بآجل رضاه، وبَشِّر المؤمِنين، وبَشِّر المخْبِتين.

• ذكر بيان آخر من فضيلة المتوكل:

اعلم يقينًا أن الله تعالى لو جعل الخلائق كلَّهم من أهل السموات والأرضين على عِلْمِ أعلمهم به، وعَقْلِ أعقلهم عنه، وحكمةِ أحكمهم عنده، ثم زاد كلَّ واحدٍ من الخلائق مثل عدد جميعهم وأضعافه علمًا وحكمة وعقلاً، ثم كشف لهم العواقب، وأطلعهم على السرائر، وأعلمهم بواطن النِّعم، وعرَّفهم دقائق العقوبات والنِّقَم، وأوقفهم على خفايا اللطف فى الدنيا والآخرة، ثم قال لهم: دبِّروا الملكَ بما أعطيتكم من العلوم والعقول عن مشاهدتكم عواقب الأمور واطّلاعكم على سرائر المقدور، ثم أعانهم على ذلك وقوَّاهم له، لَمَا زاد بدبيرهم على ما يراه من تدبير الله تعالى من الخير والشّر والنفع والضرّ جناحَ بعوضة، ولا نقص جناح بعوضة، ولا أوجبت العقولُ المكاشفات ولا العلومُ المشاهدات غيرَ هذا التدبير، ولا قضت بغير هذا التقدير، الذى يعاينه ويُقَلِّب فيه، ولكن لا يبصرون؛ لأنه أجراه على ترتيب العقول، وعلى معانى العُرف والمعتاد من الأمور، بالأسباب المعروفة والأواسط المشهورة، على مِعيار ما طبع العقول فيه، وجبل المعقول عليه، ثم غيّب مع ذلك العواقب، وحجب السرائر، وأخفى المثاوب، فغاب بعينها حسن التدبير وجميل التقدير، فجهل أكثرُ الناس الحكْمَ إلاّ المتوكِّلين، وما يَعْقِلُها إلاّ العالِمون، ﴿إنَّ فى ذَلكَ لآيات للْعَالمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. وهذه شهادةُ المتوكِّلين، وهى مقامات النبيين، وفيها تَجُولُ أرواح الموْتَى من البرزخيين، وسترى ما أقولُ بعد كشْفِ القضاء ومَحْوِ الطُّلولِ، وبعد خروج اليقين من الرُّوح، ودخول رُوحِ التّأبيد على نور الإيمان برُوح اليقين.

يقال: أصغرُ ما خلق الله من الحيوان والموات البعوضَةَ والخردلةَ، ففى كلٍّ واحدة منها ثلاثمائة وستُّون حكمة، ثم تَتزايدُ الحِكَمُ فى المخلوقات على قدر تفاوتها فى العِظَم والمنافع.

• مزيد آخر من الهدى والبيان:

لو تمنى أهلُ النُّهى من أُولى الألبابِ الذين كُشفَ عن قلوبهم الحجابُ نهايةَ الأمانى، فكُوِّنت أمانيهم على ما تَمَنَّوْا، لكان رضاهُم عن اللهِ فى تدبيره،

ومعرفتهم بحُسن تقديره، خيرٌ لهم من كوْن أمانيهم، وأفضلُ لهم عند اللهِ، من قبَل أنّ اللهَ أحكمُ الحاكمين. وقد قال سبحانه مُوبِّخًا للإنسان مُجهِّلاً للتمنى لقلّة الإيقان: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾ [النجم: ٢٤ ـ ٢٥]، أى يحكم فيهما بترك الأمانى؛ لأنه قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]. هذا لسوءِ عملهم بالتدبير، وقوة جهلهم بعواقب المصير، واختلاف أهوائهم فى معانى التقدير.

فالمتوكّلُ محبٌّ لله تعالى، مسرورٌ بربه، فرحٌ له بمُلْكه، مستسلمٌ فى جميع الأمور بأنّ له الآخرة والأولى، يحكم فيهما بما شاء، كيف شاء، إنه على كل شىء قدير، والعبد جاهل عاجز لا يقدر على شىء.

فهذا أول مقامٍ فى المحبة، وأوسط حال فى التوكل، فقد كُفى الخلائقُ هذا كله بحسن تدبير الخالق العليم الخبير البصير، وإنما يحتاجون إلى معرفة بالحكمة، ومشاهدة للحكم والقُدرةِ، وإلى بصيرة ويقين بالرحمة والنعمة يقع بهما فى القلوب تَسْكِينٌ.

ولا يضطرب هذا الذى ذكرناه عند الموقنين اليوم، بعد كشف حجاب العقل، وسقوط سُلطانِ النفس، وسيطّلع العُموم على سرٍّ ما ذكرناه من لطيف التدبير وباطن التقدير، وهو سرّ القدرِ ولطائف المقدّر عند كشف الغطاء فى الآخرة عند المعاينة، وظهور ما تحته ومعاينةِ ما وراءهُ من عجائب الخَبْء فى السموات والأرض. وقد أطلع اللهُ على ذلك العلماءَ به فى الدنيا قبل الآخرة، وهو محمود مشكور، له الحمدُ فى الأولى على ما أظهر، وله الشكر فى الآخرة على ما أخفى وستر. ففى كل واحد منهما نعمةٌ سابغةٌ، ورحمةٌ واسعةٌ، وحكمةٌ بالغةٌ، ولكن قد خلَّق اللهُ العلماء بأخلاقه، فليس يكشفون من سرِّه إلا بقدر ما كشف، وليس يعرفون من وَصْفه إلاّ من حيث عُرِف. وقد فهِمُوا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]. فقد تأدَّبوا بهذا الخطاب، وَوَقَفُوا عنده، وعقَلُوا قول المُبلِّغ الرسولِ ﷺ: «إنّ اللهَ كَرِهَ لكم البيانَ كلَّ

البيان». وحقيقة بيان البيان محرمٌ عند ذوى الإيقان؛ لأنه يرفع حجابَ الإيمان، ويَحلُّ عِقالَ العَقْلِ المعقول بالرسوم للصنع والإيقان. وليس ما ذكرناه شهادة الصالحين، لأنّ مقام الصالحين يُقصِر عن شهادة الشاهدين، وقد سمع النبىُّ ﷺ رجلاً يقول: اللهم أرنى الدنيا كما تراها، فقال: «لا تقل هكذا، فإن اللهَ لا يرى الدنيا كما تراها. ولكن قل: اللهمَّ أرنى الدنيا كما يراها الصالحُ من عبادك». والصالحون فى الغرفات آمنون، والشهداء عن ربهم، والله غالبٌ على أمره، ولا قوة إلا بالله.

وكان أبو سليمان الدارانى يقول: إذا لاحظت الأشياء من فوق وجدتَ لها طعمًا آخر. وقال بعض العارفين: إذا رأيت الأشياء كلها كشىء واحد، من معدن واحد، بعين واحدة، رأيت ما ترى قبل ذلك، وسمعت ما لم تسمع، وفهمت ما لم تفهم الخلق. وقال بعضهم: لا ترى العجب حتى ترى عجبًا، فإن لم تر عجبًا رأيت العجب.

● **ذكر بيان آخر من وصف المتوكلين:**

اعلم أن العلماء بالله سبحانه لم يتوكَّلوا عليه لأجل أن يحفظ لهم دنياهم، ولا لأجل تبليغهم مرادهم، ولا ليشترطوا عليه حسن القضاء بما يحبّون، ولا ليبدِّل لهم جريان أحكامه عمّا يكرهون، ولا ليغيِّر لهم سابق مشيئته إلى ما يعقلون، ولا ليحوِّل عنهم ماضى سنَّته التى قد خلت فى عباده من الابتلاء والاختبار إلى ما يعلمون، بل هو أجلُّ فى قلوبهم من ذلك، وهم أعقل عنه وأعرفُ به من هذا. لو اعتقد عارفٌ بالله أحدَ هذه المعانى من الله فى توكُّله كان كبيرةً توجب عليه التوبة، وكان توكُّله معصيةً، وكان ما فاته من حقيقة التوحيد أشدَّ عليه مما أدرك من توهُّم التوكُّل، وإنما أخذوا نفوسهم بالصبر على أحكامه كيف جرت، وَطالبوا قلوبهم بالرضا عنه بأى معنى أجرى.

وقال رجل لمالك بن أنس: يا أبا عبد الله، إنّى تعلقتُ بأستار الكعبة، فتبت من كلّ ذنب، وحلفتُ أن لا أعصى اللهَ فيما أستقبل. فقال له: ويحك، ومَن أعظمُ معصيةً منك! تتألَّى على الله أن لا ينفِّذ حكمه فيك.

وأنشدنا بعض العلماء لبعض الحكماء:

لما رأيتُ القضَا جـاريًا لا شكَّ فيه ولا مَرِيَّهْ
توكّلتُ حقًا على خالِقى وألقيتُ نفسى مع الجَرِيَّهْ

وكان سهل يقول: تُلقى نفسك فى اللُّجِّ (١)، وتَسكن تحت جريان الحكم. وقال مرّة: تكون بين يديه مثل الميت بين يَدَى الغاسل، يقلِّبه كيف شاء.

وإنما كرهوا ما كره الله، طاعةً لله، فذلك كراهة ما كرِه حبًا له، والتزامًا لحكمه عليهم، لا كراهة ما قضى، إذ ليس لهم أن يقولوا: لِمَ قَضيتَ ما تكره؟! أو كرِهْتَ ما قضيتَ؟ لأنّهم عرَفوا بأنّه يأمر بالشىء ولا يريدهُ؛ للحُجَّة، ويريدُ الشىءَ ولا يأمر به؛ للحكمة، ويفعل الأمر ولا يُحبُّه؛ للاختيار، ويحب الأمر ولا يريده؛ للاختبار. وهذه المعرفةُ معرفته التى حارتْ فيها العقولُ، فارتكبت بالتضليل فيه تجول، فَتَعلَّقت بالضَّلال، فأشركت فى الحال. والله تعالى فى قلوب أوليائه أجلُّ وأعظم، وفى نفوسهم أعزُّ وأَهْيب، أن يواجهُوه بغير ما يُحبّ، أو يعاملوه إلاّ بما يختارُه؛ لأنهم المصطَفوْن الأخيار، ذوو الأيدى والأبصار، أى: القُوَى فى الدِّين، والنّصر باليقين.

فالمتوكلُ لا يتقدم بين يدى الوكيل بقول ولا عَقَده، ولا يختار لنفسه بهواه من مَوْجوده ولا وَجَد، بل قد عرَف حكمتَهُ فَصَبر، ورأى قدرتَه فتدبَّر، وشهد حكمه به فرضى، ووَجَد قُربه منه فَسكن. فتوكَّل أولياؤه عليه؛ لأنه يستحقُّ التَّفويض إليه، ويستوجبُ التسليم له، إذ كان هو الوكيلَ الأولَ، والكفيلَ الأجلَّ، حين سمعوهُ يقول: ﴿**والله عَلَى كُلِّ شَيء وَكيلٌ**﴾ [هود:١٢]. ﴿**ثم اسْتوىَ على العَرْشِ يُدبِّر الأمْرَ ما منْ شَفيعٍ إلاَّ منْ بَعْد إذْنه**﴾ [يونس:٣]. وحين فَقِهُوا عنه: ﴿**وَمَن أحْسَنُ من الله حُكْمًا لقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [المائدة: ٥٠]. ولمَا عَقَلُوا منه خطابه: ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بأحْكَمِ الحَاكمين**﴾ [التين:٨]؛ لأنَّه نَدَب إلى التوكُّل، وحَثَّ عَليه، وحقَّق

(١) اللجة: معظم البحر وتردد أمواجه.

الإيمانَ به، إذ سمعوه يقول: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]. ﴿أمَّن يَمْلكُ السَّمْعَ والأَبْصارَ ومَن يُخرِجُ الحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الحَىِّ ومَن يُدبِّرُ الأمْرَ﴾ [يونس: ٣١].

ومن تدبَّر الأَمْر كلما ذكر الله، كان تحقيقُ الإيمان العملَ بالقول.

وعقَلُوا عنه: ﴿ومَا من دابَّة فى الأَرْضِ إلاَّ عَلَى الله رزْقُها ويَعْلَمُ مُسْتَقرَّها ومُسْتَوْدَعَها﴾ [هود: ٦]. فأحَقَّ على نَفْسه من نَفسه، ورزقها من حيث عَلِم مستقرَّها فى الشَّهادة والوُجود، ومُستودَعَها فى الغَيْب والعَدَمِ، ومستقرَّها على ظَهْرِ الأَرضِ فى الدُّنيا، ومستودعها فى البَرْزخ للعُقبى.

وسمعوا منه: ﴿وفى السَّماء رزْقُكُم ومَا تُوعَدُون﴾ [الذاريات: ٢٢]، فلم يَطْلُبوه فى الأرض. ﴿فَابْتَغُوا عنْدَ الله الرِّزقَ واعْبُدُوه﴾ [العنكبوت: ١٧]، فلم يبتغوه من الخَلْق ولا عَبَدُوهم. تَعِسَ عبد الدِّينار، وعبدُ الزَّوجة.

ثم أقسم بنفسه على فعله بقَسَمِه: ﴿فوَرَبِّ السَّماء والأَرْضِ إنَّه لحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]، فتوكَّلُوا عليه فى القَسَمِ استحياءً منه وثقَةً به، لـمَّا أوجدهم من اليقين الذى كَشَفَ عن الشِّركِ، فخافُوا مِن التُّهمة له، فاعتمدوا علَيه. فمنهم مَن توكَّل عليه لأجل هذه المعانى كلّها، ومنهم من توكل لمشاهدة بعضها. فكل عبد توكُّله عن الوصفِ الذى به عرفه، وكلٌّ عرفَهُ عن التجلِّى الذى به كاشفَه، وكلٌّ يطيعه بقُرب قُربِه، وبتولِّيه له، وكُلٌّ يُقَرَّبُ على قدر علْمه بقرْبه إليه، وكُلٌّ يعلم قُربه بقَدْر ما أشهده من كيفية كينونة وجوده فى مكنون كيانه، وكلٌّ يعرف ذلك بقدْر عنايته به، ومحبّته له، ومن ورائِه سِرُّ القدَرِ الْمُغيث المستأثر.

فشهادةُ كلِّ عبدٍ من مقامه وحاله عن وجدِ شُهوده بقدر قُرْبِ موجوده، وجزاؤهُ نحو معاملته، وجميعُ المعاملات مقيدةٌ بميزان التوحيد، لسانُهُ اليَقِين، وكَفَّتاهُ المَعرِفةُ والمحبّة، فتُوزَن هذه الأربع من الثِّقَل والخفّة، بثقل الأعمال وبخفّتها، ﴿والله يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ﴿هُمْ دَرجَاتٌ عندَ الله﴾ [آل عمران: ١٦٣]. ﴿لَهُم

دَارُ السَّلامِ عندَ ربِّهِمْ وهُو وَليُّهمُ بما كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٧]. دار السَّلام تجمعهم، وهم متفاوتُونَ فى دَرَجاتها عند جَامعهم ، كدار الدُّنيا تكفُّتهم وهم لديه، يَرْفعهم فى مَلكوتها بتخصيص التَّولِّى وحُسن الولايات عن تحسين المعاملات، ﴿اللهُ يَجْتَبى إلَيْه مَن يَشاءُ ويَهْدِى إلَيه مَن يُنيبُ﴾ [الشورى:١٣].

ومن الأولياء من توكَّل عليه تعظيمًا له وإجلالاً. ومنهم من توكلٍّ عليه ثقةً به، وتنزيهًا له؛ لأنّه عن سوءِ الظَّنِّ يَتَعالى. ومنهم من توكَّل عليه يَقينًا بوَعْدِه، لتَحققُ صدقهِ، كأنه أخذ الموعود بيده، إذ يقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ [التوبة:١١١]، ﴿إنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأتِيًّا﴾ [مريم:٦١]. ومنهم من توكَّل عليه حبًا له. ومنهم من توكل عليه استسلامًا لما شهد من قهر عزِّه، وعظيم قدره. ومنهم من توكل عليه خوفًا منه. ومنهم من توكَّل عليه لحسن ظنِّه به، وصِدْقِ رجائه له. ومنهم من توكَّل عليه ليحفظه فيما استَحْفظهُ فيما له عليه. ومنهم من توكل عليه لقيامه بشهادته عن حُسن معرفتهِ. ومنهم من توكل عليه تسليمًا له عن جميل معاملته. ومنهم من توكل عليه استسلامًا لمعاينة قدرته. ومنهم من توكَّل عليه لحُسن تدبيره عنده، ومحكم تقديره. وكُلُّهم توكَّل عليه؛ لأنّ توحيده له، وشهادته قيُّوميِّته، وذلك بقبضته.

فهذه كلها مَواجيدُ أوليائه، ومناهج أحبائه، عن مشاهدة القُرب، ومعرفة القريب. وبعضها أعلى مقامًا من بعضٍ، وبعض هذه المشاهدات أقربُ وأرفع. فأعلاها مَنْ توكَّل عليه للإجلال والتعظيم. وأوسطها من توكَّل عليه للمحبة والخوف. وأدناها من توكَّل عليه تَسليمًا له، وتَحَبُّبًا إليه.

وقد ذكرنا أيضًا من توكُّل العموم ما يستحى العارفون من ذكره، وينزِّهون قلوبَهم عن فكره؛ وهو التوكل عليه فى القُوت؛ لأنه هو المُقيت كما هو المحيى المميت، وكما يحيى ويميت كذلك هو يرزقُ القُوتَ، فيُقيتُكَ.

وقد طوينا ذكر توكل خُصوص الخصوص من صِدِّيقى المقرَّبين؛ لأن ذلك لا يحمله عقل عاقلٍ، ولا يسعُ أن يُستودَع فى كتابِ ناقلٍ، إذ ربما نظر فيه منكر

جاهل؛ لأنه لا يُعقل بمثل هذا العقال، وكلُّ عاقلٍ فقد عُقل بعقال مثله، فعقال الهِرِّ والشّاة، لا يُعقل به السَّبُعُ والفيلُ، فتفكَّروا.

فتوكَّل مَن عرفهُ لأجله، ورغب فيما أحب لوصفه، يطلبون بذلك رضاهُ؛ لينالوا به زُلْفى وحُسنَ مآب من إيّاه.

• ذكر ما لا ينقص المتوكل فى توكله:

ولا ينقص المتوكلَ على الله مسألتُه مولاهُ ما أحبَّ من صالح الدنيا ومزيد الآخرة، إذ لم يقصد غير مطلوب، وكان فى ذلك مفوِّضًا إلى الله الأمور، ولكن يحتاج إلى معرفة الإجابة؛ فقد يكون المنع إجابةً وعطاءً وقُربةً، إذا كان العطاءُ شاغلاً عنه، وقاطعًا للعبد، ومُبعدًا له؛ لأنَّ الخِيَرَةَ فيما لا يعلم العبدُ، وقد يكون الاختيار فى مكاره النَّفس.

فممّا يعلم اللهُ حُسن عاقبته، لا فيما يعقل العبدُ عاجل منفعته، فعليه التّسليم لحكم الحاكم، والرِّضا بقسم القاسم، فإن سأل تكاثرًا من الدُّنيا، وما لا يحتاج إليه، وممّا ليس فيه صلاح قلبه، ولا قُربه من ربِّه، أخرجه من حقيقة التوكل بقدر ما يخرجه من الزهد. وإن اقتطع بالذِّكر عن المسألة، أُعطى فوق عطاء جميع من سأله. وإن سكت حياءً من الوكيل، إذ هو حَسْبُه، فشهد الكفاية، وغَنِىَ بوصْفه، فقد وفَّى بعهده، فهذه ملّةُ أبيه إبراهيم اتبعها: ﴿وإبراهيمَ الّذى وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]؛ أى بقوله: حسبى الله، لما أُلقى فى كفَّة المنجنيق، فعارضه الرُّوحُ الأمين، فقال له: ألك حاجة؟ فقال: لا. فقال الله: ﴿وإبراهيمَ الّذى وَفَّى﴾ قوله: حسبى الله، فشهد الوكيل عنده، فأحسبه من غيره وَجده، وكذلك قال المتوكلون من الصّحابة: ﴿الّذينَ قَالَ لَهمُ الناسُ إنَّ النّاسَ قد جمعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُم فَزَادهُمْ إيمَانًا وقَالُوا حَسْبُنا اللهُ ونعْمَ الوَكيلُ﴾. لما رأوا الوكيل أحسبهم قُربُه، وأنعمهم وَصْفُه: ﴿فانْقَلَبُوا بنعْمَةٍ منَ الله﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤]. وكذلك قال مؤمن آل فرعون: ﴿وأُفَوِّضُ أَمْرِى إلى اللهِ إنَّ اللهَ بَصيرٌ بالعبادِ * فَوَقَاهُ اللهُ﴾ [غافر: ٤٤ ـ ٤٥].

وهذه مقامات فى المواجهة عن مشاهدة القيُّومية، ﴿ولكُلٍّ وِجْهَةٌ هُو مُولِّيها﴾ [البقرة: ١٤٨].

ولا يقدح فى التوكُّل تشرُّف المتوكل إلى رزقه؛ لأنه خُلق ضَعيفًا، ذا فاقة، ورزقُه معلوم لا بُدَّ منه، والمعلوم مقسومٌ، وتشرُّفُه إلى القِسْم تَشَرُّفٌ منه إلى القاسم، ومن تشرَّف إلى مولاه شرّفهُ وتولاَّه. ولو قدح تشرُّفه إلى رزقه فى توكله لم يصحَّ تصرُّفه فى المعايش، وقعوده بالتجارات والصنائع، وفيها انتظار للرِّزق، وتطلُّع إلى القِسْم من القَسَّامِ.

ولكن إن تشرَّف إلى الزيادة، وخرج من القناعة، وطلب العادة، أو أراد الشىء قبل وَقْته، أو كَرِه تأخيرهُ إلى وقتٍ مَقْدُورة، فإن هذا يقدح فى توكُّله، ويُنقص من زُهْدِه.

ولو كان التطَلُّع إلى الرِّزق مُبْهَمًا، والمتطلِّع إلى الرزَّاق مُجملاً، يُنقصُ التوكل، لَعلَّلْنا[1] مَن قعد فى السُّوق ينتظر من الله أن يَسُوقَ إليه رزقه من الباب الذى أدخله فيه، وبالسبب الذى يَسَّره له، وإذًا لجَهَّلْنا من يُعالَج من علله بالدَّواء؛ لأنَّ فى ذلك كلِّه تشرُّفًا إلى الرزق، وتطلُّعًا إلى البُرْءِ. وفَجَا[2] من ذلك تضعيف المبتاعين من السَّلف الأول، وطعن على المتداوين من الخلفاء الأمثل من الصَّحابة والتابعين، وأخرجناهم بذلك من التوكل والزُّهد، وقد أدْخلهم الله فيهما بفضله.

ولكن مَن تَشرَّف إلى شخْصٍ، أو تطلَّع إلى يقين سَبَبٍ اعتاده، أو سكن إلى المألوف، نقص ذلك من توكُّله.

ولا يُخرجه من التوكل مطالعتُه للعِوَض على معاملته من جزاء الآخرة؛ لأنه قد شُوِّق إلى ذلك، ونُدِب إليه، ومن اشتاق إلى ما شُوِّقَ إليه، أو تطلَّع إلى ما وُجِّهَ به، لم ينقصه فى مقامه، وقد يكون مزيدًا على قدر حاله، إلاّ أنه لا يُدخله فى إخلاص المحبِّين، ولا يرفعه إلى درجات المقرَّبين من العارفين.

---

(١) أى جعلناه معلولاً فى توكله، أى ذا علّة.

(٢) فجا: فتح. وفى المطبوعة: «فجاء» وهو تحريف.

ولا يصح التوكل إلا بزهد فى الدنيا، وأوّلُ الزُّهد تركُ الرغبة فى الحرام. وأوّلُ أحوالِ المتوكِّلُ التوكُّلُ عليه فى القُوت، ثم الصَّبرُ على حُكم المُقيت. وأعلى التوكل فى الاستسلام لُمرِّ الأحكام، والرضا عنه فى السّابقةِ من الأقسام، وهو طَرْحُ النفس ونسيانُها، شغلاً عنها بِنَفْسها، وحبًا له.

وحقيقة التوكل بعد مشاهدة الوكيل، فإذا ظهرت يدُه غابت الأيدى منها، فعندها توكلت عليه تأييدًا منه، فقَبِلَ توكُّلك، واستسلمتَ إليه بقوةٍ به فسلَّمك، فإنه يتجلى لك بوصف يَلزمُك حُكمًا، يضطرك الحكم إلى الحاكم، ويوقفك الوصف على الوكيل القائم، كما اضطرك الحاكم إلى الحُكم واجدًا عليك ما شاء من القِسْم. فأصلُ توكلك عليه إشهادُه إيّاك توكله لك بحسن التدبير، فلم يَكِلك إلى سواه، ولم يُولِّك إلاّ إياه، فاضطرك الوجود إلى المشاهدة، كما حكمت الشهادة بالموجود، فيقتضيك تفويضًا إليه، أو رضًا عنه، أو تسليمًا له، أو استراحة من تدبيرك لنفسك، أو يسقط عنك اهتمامك بتقديرك وأمانتك. ﴿**وَمَن يَتوكَّل عَلَى الله فَهُو حَسْبُه**﴾ [الطلاق:٣]. والحَسَب إلى الحسيب، يجعله ما شاء كيف شاء، فقد قيل: ﴿**فَهُو حَسْبُه**﴾ أى الوكيل يكفيه مِمَّا سواه فى الدارين، فيَغْنَى به عن الملكين، والله خيرٌ وأبقى، وقد قيل: التوكل حسبه من كل المقامات، يجمع له مقامُ التوكل وحده ما فُرِّق فى سائر المقامات؛ لأنه أعلاها، فهو ينتظمها.

ثم قال تعالى مُعرِّفًا للكافة، مسليًا للجُملة[١]: ﴿**إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِه**﴾ [الطلاق:٣]؛ أى منفذ حكمه فيمن توكَّل عليه، وفيمن لم يتوكل عليه، إلاّ أنّ من توكل عليه يكون الله حسبه؛ أى: يكفيه أيضًا مُهِمَّ الآخرة والدنيا، ولا يزيد مَن لم يتوكل عليه جناح بعوضة فى قسمه، كما لا ينقص من توكل عليه ذرةً من رزقه، لكن يزيد من توكل عليه هدى إلى هداه، ويرفعه مقامًا فى اليقين على تقواه، ويعزّه بعزِّه، وينقص من لم يتوكل عليه من اليقين، ويزيده من التَّعَب والهمِّ ما يشتت قلبه، ويشغل فكره. والمتوكل عليه يوجب له بذلك تكفير السِّيِّئات، ويلقى عليه

(١) فى المطبوعة: «للجماعة».

رضاه ومحبته فى المقامات. والكفايةُ قد ضمنها تعالى لمن صَدَق فى توكُّله عليه، والوقايةُ[١] قد وَهَبها لمن أحسن تفويضَه إليه. إلا أن الاختيار وعلم الاستئثار إليه فى الكفاية والوقاية يجعل ذلك ما شاء، كيف شاء، وأين شاء، ومتى شاء، من أمور الدنيا وأمور الآخرة، ومن حيث يعلم العبد، ومن حيث لا يعلم؛ لأنّ العبد موجود، تجرى عليه الأحكام فى الدارين، وفقيرٌ محتاجٌ إلى اللطف والرحمة والرفق فى المكانين؛ أعنى فى حال وجود كونه فى مكان الدنيا، ووجوده فى مكان الآخرة. والله هو الغنى الحميد المبدئ المعيد.

وقيل لأبى محمد سهل رحمه الله: متى يصحّ للعبد التوكل؟ فقال: إذا علم أن تدبير مولاه له خيرٌ من تدبيره لنفسه، وأنَّ نظرَ مولاه له أحسنُ من نظره لنفسه، فيترك التفكُّر فيما كان، والتمنى لما يكون، ويترك التدبير، ولله عاقبةُ الأمور، وهو على كل حال محمود شكور.

آخر شرح مقام التوكل، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم[٢].

* * *

(١) فى (م): «والوفا به».

(٢) هذه الخاتمة من نسخة (د).

شرح أحكام مقام الرضا، ووصف الراضين وهو المقام الثامن من مقامات اليقين[١]

الرضا عن الله سبحانه وتعالى من أعلى مقامات اليقين بالله. وقد قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. فمن أحسن الرِّضا عن الله جازاه الله بالرضا عنه، فقابل الرضا بالرضا. وهذا غاية الجزاءِ ونهاية العطاءِ. وهو قوله عز وجلّ: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. وقد رفع الله الرضا على جنات عدن، وهى من أعلى الجنات، كما فضَّل الذكر على الصلاة، فقال تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. والذِّكر عند الذاكرين: المشاهدة، فمشاهدةُ المذكور فى الصلاة أكبرُ من الصلاة، وهذا أحدُ الوجهين من الآية.

والوجه الثانى: ذكرُ الله للعبد أكبرُ من ذكر العبد لله.

وقال أبو عبد الله الساجى: مِن خَلْق الله عبادٌ يستحيون من الصَّبر[٢]، يتلقفون مواقع أقداره بالرِّضا تلقُّفًا.

وقد كان عمر بن عبد العزيز يقول: أصبحتُ وما لى سرور إلا فى مواقع القضاء.

والرضوان عن الله عز وجل هم الذاكرون لله بما يحب ويرضى. فالرضوان الأكبر جزاء أهل الذكر الأكبر. وهذا أحد المعانى فى قوله ﷺ: «يقول الله تعالى: مَن شغَلَه ذكرى عن مَسألتى أعطيتُه أفضلَ ما أُعطى السائلين»؛ أى الرضا عنه؛

---

(١) هذا العنوان من نسخة (د)، وهو فى (م): «ذكر أحكام مقام الرضا، ووصف أهله». وفى المطبوعة: «ذكر أحكام مقام الرضا».

(٢) فى المطبوعة: «الصبى» والصواب من (د، م).

لأن السائلين يسألونه لهم، فأعطاهم العفو، والذاكرين ذكروه له، فأعطاهم الرضا عنه عزّ وجلّ. ويكون أيضًا معناه: أعطيته النظرَ إليَّ؛ لأن الذكر يخرج إلى النَّظر، فقابل النظرَ إليه اليوم بالنظر إليه غدًا، كما واجه الوصفَ بالوصف فى قوله عز وجلّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس:٣٨ ـ ٣٩]. وقال الرسول ﷺ: «يتجلَّى لنا ربنا ضاحكًا».

والرضا هو حال الموقن، واليقين هو حقيقة الإيمان. وإلى هذا ندب النبىُّ ﷺ ابنَ عباس فى وصيته له فقال: «اعمل لله باليقين فى الرضا، فإن لم يكن فإنَّ فى الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا»، فرفعه إلى أعلى المقامات ثم ردّه إلى أوسطها.

كذلك قال لابن عمر: «اعبد اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فندبه إلى المشاهدة وهو الإحسان، لأنه سأل: ما الإحسان؟ قال: «اعبد الله كأنك تراه». ثم رده إلى الصبر والمجاهدة وهو الإيمان. وهذا مكان العلم بأن الله يراه، وليس بعد هذا مكان يوصف.

وقد رفع الله تعالى الرضا منه فوق ما أعطى من النظر. ففى الخبر: «إن اللهَ تعالى يتجلى للمؤمنين، فيقول: سلونى. فيقولون: رضاك». فسؤالهم الرضا بعد النظر تفضيل عظيم للرضا؛ ولأن بالرضا دام لهم النظر، لما كان الرضا يوجب النظر سألوا دوام الرضا، ليدوم القُربُ والنظر، فسألوه تمام النعمة من حيث بدايتها.

ولا يصلح أن يظهر فى معنى قولهم: «رضاك» أكثر من هذا. ولا يُرسم فى كتابٍ حقيقةُ الأمر؛ لأنه على كشف وصف من صفات الذات، يوجب على العبد هيبة الربوبية. وخوف هذا عن القلوب محجوب، وحكمة من سرائر الغيوب. وهذا فى الدنيا ثوابٌ لأهل الخشية عن معرفة خاصية. قال الله سبحانه: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة:٨]. وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] قال: يأتى أهلَ الجنة فى وقت المزيد ثلاثُ تحف من عند رب العالمين: إحداها: هدية من عند الله، ليس عندهم فى الجنان

مثلها، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]. والثانية: السلام عليهم من ربهم، فيزيد ذلك على الهدية، فهو قوله تعالى: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]. والثالثة: يقول الله تعالى: إنى عنكم راض؛ فيكون ذلك أفضل من الهدية ومن التسليم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ الله أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]، أى أكبر من النعيم الذى هم فيه.

وروى أنّ النبى ﷺ قال لطائفة من المؤمنين: «ما أنتم؟ قالوا: مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ قالوا: نصبر عند البلاء، ونشكر عند الرضا، ونرضى بمواقع القضاء. فقال: مؤمنون وربِّ الكعبة». وفى خبر آخر أنه قال: «حلماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء»، فشهد لهم بالإيمان بعد وصف الرضا.

وكذلك جعل لقمان الحكيم الرضا من شرط الإيمان، لا يصلح إلا به، فقال فى وصيته: للإيمان أربعة أركان لا يصلح إلا بهنّ، كما لا يصلح الجسد إلا باليدين والرجلين: ذكر منها الرضا بقدر الله.

وحدثونا فى الإسرائيليات: أن عابدًا عبد الله دهرًا طويلاً، فرأى فى المنام: فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة، فسأل عنها إلى أن وجدها، فاستضافها ثلاثًا لينظر إلى عملها، فكان يبيت قائمًا وتبيت نائمة، ويظل صائمًا وتظل مفطرة. فقال: أمَا لكِ عملٌ غير ما رأيتُ؟ قالت: ما هو والله إلا ما رأيتَ، لا أعرف غيره. فلم يزل يقول: تذكَّرى، حتى قالت: خُصيلة واحدة هى فىَّ: إن كنتُ فى شدة لم أتمنَّ أنّى فى رخاء، وإن كنتُ فى مرضٍ لم أتمنَّ أنى فى صحة، وإن كنتُ فى الشمس لم أتمنَّ أنى فى الظل. قال: فوضع العابدُ يده على رأسه فقال: أهذه خصيلة؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد.

وقد روينا عن ابن مسعود: من رضى بما ينزل من السماء إلى الأرض غُفر له. وقال أبو الدرداء: ذِروةُ الإيمان الصبرُ للحُكم والرضا بالقدر. وعن بعض السَّلف: إنّ الله تعالى إذا قضى من السّماء قضاءً، أحَبَّ من أهل الأرض أن يرضَوا بقضائه.

وروى عن محمد ين حويطب عن النبى ﷺ: «من خيرِ ما أُعطى العبد الرِّضا بما قسم الله له». وفى الخبر المشهور: «طوبى لمن هُدى إلى الإسلام، وكان رزقه كفافًا ورضى به». وفى مثله أيضًا: «من رَضِى من الله عزّ وجلّ بالقليل من الرزق، رضى اللهُ منه بالقليلِ من العمل». وقد روينا عن النبى ﷺ حديثًا، من طريق أهل البيت: «إذا أحبَّ اللهُ عبدًا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضى اصطفاه». فالرضا عن الله عزّ وجلّ، والرحمةُ للخَلق، وسلامةُ القلب، والنصيحةُ للمسلمين، وسخاوةُ النفس ـ مقامُ الأبدال من الصدِّيقين.

وقد روينا فى أخبار موسى عليه السلام أنّ بنى إسرائيل قالوا: «سل لنا ربك أمرًا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا. قال موسى: إلهى قد سمعتَ ما يقولون. فقال: يا موسى، قل لهم: يرضون عنى حتى أرضى عنهم».

ويشهد لهذا الخبر المروى عن نبينا ﷺ: «مَنْ أحبَّ أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده، فإن الله يُنزل العبدَ منه بحيث أنزله من نفسه». قال الشيخ الفقيه، أبو القاسم: وحدَّثنا أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعى بهذا الحديث، فرفعه إلى النبى ﷺ.

وقد روينا حديثًا حسنًا كالمسند عن حماد بن سلمة، عن ثابت البنانى، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أنبت اللهُ لطائفةٍ من أمتى أجنحةً، فيطيرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها، ويتنعَّمون كيفَ شاؤوا. قال: فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حسابًا. فيقولون: هل جُزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا الصراط. فيقال لهم: رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئًا. فتقول الملائكة: مِن أمة مَنْ أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد ﷺ. فيقولون: نشدناكم الله، حدِّثونا ما كانت أعمالكم فى الدنيا. فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلَّغنا الله هذه المنزلة، بفضل رحمته. فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحى أن نعصيه، ونرضى باليسير مما قسم الله لنا. فتقول الملائكة: يحقُّ لكم هذا». هكذا كان فى «كتاب شيخنا» عن أنس، وقال فيه: «لطائفة من أمتى»، ففيه دليل على المسند.

وقال بعض علمائنا: أعرف فى الموتى مقبرةً عظيمة ينظرون إلى منازلهم من الجنان فى قبورهم، يُغدَى عليهم ويُراح برزقهم من الجنة بكرةً وعشيًا، وهم فى هُمومٍ وكروبٍ فى البرزخ لو قُسِّمت على أهل البصرة لماتوا أجمعين. قيل: وما كانت أعمالهم؟ قال: كانوا مسلمين، إلا أنهم لم يكن لهم من التوكُّل ولا من الرضا نصيب.

وقد جاء فى فرض الرضا قولُ النبى ﷺ: «أعطوا اللهَ الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم، وإلاّ فلا».

وقرن لقمانُ الرّضا بالتوحيد فقال فى وصيته لابنه: أوصيك بخصال تقرِّبك إلى الله، وتباعدك من سخطه: الأولى: تعبد الله لا تشرك به شيئًا. والثانية: الرضا بقدر الله فيما أحببت وكرهت. وقال فى وصيته: ومن يتوكّل على الله، ويرضى بقدر الله، فقد أقام الإيمانَ، وفرَّغ يده ورجليه لكَسْب الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التى تُصلح للعبد أمرَه.

فمن الرضا سرورُ القلب بالمقدور فى جميع الأمور، وطيبُ النفس وسكونها فى كل حال، وطمأنينةُ القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا، وقناعةُ العبد بكل شىء، واغتباطه بمقامه من ربه، وفرحُهُ بقيام مولاه عليه، واستسلامُ العقل للمولى فى كل شىء، ورضاه منه بأدنى شىء، وتسليمُه له الأحكام والقضايا باعتقاد حسن التدبير وكمال التقدير فيها، وبتسليم العبد إلى مولاه ما فى يديه رضًا بحكمه عليه، وأن لا يشكو الملك السيد الكريم إلى العبد المملوك، ولا يتبرَّم بفعل الحبيب، ولا يفقد فى كل شىء حسن صنع القريب.

ومن الرضا أن عند أهل الرضا أن لا يقول العبد: هذا يوم شديد الحر، ولا هذا يوم شديد البرد، ولا يقول: الفقر بلاء ومحنة، والعيال همٌّ وتعب، والاحتراف كد ومشقة، ولا يعقد بقلبه من ذلك ما لا يَفُوه به، بل يرضى بالقلب، ويشكر باللسان، ويسلِّم ويسكن بالعقل، ويستسلم بوجود حلاوة التدبير، واستحسان محكم التقدير. كما قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت وما لى سرور إلا فى انتظار مواقع القدر.

وقال ابن مسعود: الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبتُ، إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البدل.

وقال أحمد بن أبى الحوارى: قلت لأبى سليمان: إن فلانًا قال: وددتُ أن الليل أطول مما هو. فقال: قد أحسن، وقد أساء. أحسن حيث تمنى طوله للعبادة، وأساء إذا لم يحب ما لم يحب الله.

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ما أبالى على أى حال أصبحتُ وأمسيتُ من شدة أو رخاء.

وقال ذات يوم لامرأته عاتكة، وقد غضب: والله لأسوءنَّك. فقالت: أتستطيع أن تصرفنى عن الإسلام بعد إذ هدانى الله له؟ قال: لا. قالت: فبأى شىء تسوءنى إذًا؟

وقال جعفر بن سليمان الضبعى: قال سفيان الثورى يومًا عند رابعة: اللهم ارض عنا. فقالت: أما تستحى من الله أن تسأله الرضا وأنك غير راضٍ عنه؟! فقال: أستغفر الله. قال جعفر: فقلت لها: متى يكون العبد راضيًا عن الله تعالى؟ فقالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة.

وقال فضيل بن عياض: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى.

وفى أخبار داود: ما لأوليائى والهمُّ بالدنيا، إن الهمَّ يُذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم. وفى بعضها: يا داود، إياك والاهتمام بالدنيا، محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لا يغتمون. إياك والغمَّ، ولا تهتم للخير وأنت تريدنى.

ويقال: أكثر الناس همًا بالدنيا أكثرهم همًا فى الآخرة، وأقلهم همًا بالدنيا أقلهم همًا فى الآخرة.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «الإيمان بالقدر يُذهب الهمَّ والحزَن».

واعلم أنّ الفرح بالدنيا يُخرج همَّ الآخرة من القلب، والغم على الدنيا يحجب عن الحزن على فوت الآخرة. وذُكر عند رابعة عابدٌ له عند الله منزلة، وكان قر

ما يتقمم من مَزْبلة[١] لبعض ملوكهم. فقال رجل عندها: فما يضر هذا إذا كانت له عند الله منزلة أن يسأله، فيجعل قوته فى غير هذا!! فقالت له: اسكت يا بطال، أما علمت أن أولياء الله هم أرضى عنه أن يتخيروا عليه أن ينقلهم من معيشةٍ، حتى يكون هو الذى يختار لهم.

وقال أحمد بن أبى الحوارى: قال لى أبو سليمان: إن الله تعالى من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم. قلت: وكيف ذلك؟ قال: أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه؟ قلت: نعم. قال: فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه.

وقال الأعمش: قال لى أبو وائل: يا سليمان، نِعْمَ الرّبُّ ربنا، لو أطعناه ما عصانا.

وقال الله عز وجل فى معناه: **﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** [الشورى:٢٦]؛ أى يعطيهم ويستجيب لهم، والاستجابةُ الطاعةُ، كقوله تعالى: **﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى﴾** [البقرة:١٨٦]، فلما استجابوا له استجاب لهم، فأطاعوه فيما أحبَّ فأطاعهم فيما يحبون. وهذا أحد وجهى الآية، كقوله تعالى: **﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾** [البقرة:٤٠]. وهو على تأويل من قرأ: **﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾** [المائدة:١١٢]. قال ابن عباس: كان الحواريون أعلم بالله أن يشكُّوا أن الله يقدر على ذلك، وإنما معناه: هل يستطيع، أى: يطيعك. وروينا أيضًا عن عائشة مثله.

وقال الفضيل: من أطاع الله تعالى أطاعه كل شىء، ومن خاف من الله خاف منه كلُّ شىء.

وفى أخبار موسى عليه السلام: «يا رب دُلَّنى على أمرٍ فيه رضاك حتى أعمله، فأوحى الله تعالى إليه: إن رضاى فى كُرْهِك، وأنت لا تصبر على ما تكره. قال: يا رب دُلنى عليه. قال: فإن رضاى فى رضاك بقضائى». وقد يروى على وجه

(١) فى المطبوعة: «منزلة» وهو تحريف صوابه من (د، م). وهذا التقوت قد أضر بأهله من التصوف، ولو تكسب كان خيرًا له، وأصاب السُّنّة. وتعليق الرّجل حق لأنه يوافق السنة.

آخر: أن بنى إسرائيل سألوا موسى، فقالوا: لو علمنا فى أى شىء رضا ربنا لفعلناه؟ فأوحى الله إليه: قل لهم: رضاى فى رضاهم بقضائى. وفى مناجاة موسى عليه السلام: يا رب، أىُّ خلقك أحبُّ إليك؟ قال: مَن إذا أخذت منه المحبوبَ سالمنى. قال: فأى خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من يستخيرنى فى الأمر، فإذا قضيتُ له سَخِط قضائى.

وقد ورد أشد من هذا كله: أن الله تعالى قال: «أنا الله لا إله إلا أنا، من لم يصبر على بلائى، ويرضَ بقضائى، ويشكر نعمائى، فليتخذ ربًا سواى». وقد رويناه عن النبى ﷺ من طريق. ومثله فى الشدة يقول الله تعالى: «قدَّرتُ المقادير، ودبَّرتُ التدبير، وأحكمتُ الصنعَ، فمن رضى فله الرضا منى حين يلقانى، ومن سخط فله السُّخط منى حين يلقانى». وفى الخبر: «أول ما كتب لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِى أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ [طه:١٤]، من رضى بحكمى، واستسلم لقضائى، وصبر على بلائى، كتبتُه صدِّيقًا، وحشرتُه مع الصدِّيقين يوم القيامة».

وروينا فى الخبر المشهور بمعناه: «يقول الله جل جلاله: قدَّرتُ الخيرَ والشرَّ، وأجريتهما على أيدى عبادى، فطوبى لمن خلقته للخير، وأجريتُ الخير على يديه، وويل لمن خلقته للشر، وأجريتُ الشرَّ على يديه، وويل ثم ويل لمن قال: لم وكيف؟».

وفى الأخبار السالفة: «أن نبيًا من الأنبياء شكا إلى الله الجوع والفقر عشر سنين، كل ذلك لا ينظر فى مسألته، فأوحى الله إليه: لِمَ تشكو؟ هكذا كان بدؤك عندى فى أم الكتاب، قبل أن أخلق السموات والأرض، وهكذا سبق لك منِّى، وهكذا قضيتُ عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أُعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن أبدِّل ما قدَّرتُ عليك، فيكون ما تحب فوق ما أحب ويكون ما تريد فوق ما أريد؟ وعزتى وجلالى، لئن تخالج فى صدرك مرة أخرى لأَمحونَّك من ديوان النبوة».

وروينا أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على جسمه

وينزلون، يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدَّرَج، فيصعد إلى رأسه، ثم ينزل على أضلاعه ـ كذلك قال ـ وهو مُطرق إلى الأرض، ولا ينطق، ولا يرفع رأسه. فقال له بعض ولده: يا أبت، ألاَ ترى ما يصنع هذا بك؟ لو نهيته عن هذا! فقال: يا بنى: إنى رأيت ما لم تروا، وعلمت ما لم تعلموا، إنى تحركت حركة واحدة، فأُهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان، ومن دار النعيم إلى دار الشقاء، فأخاف أن أتحرك حركةً أخرى فيصيبنى ما لا أعلم».

وروينا فى بعض الأخبار أنه قال: «إنّ الله ضمن لى إن حفظتُ لسانى أن يردَّنى إلى الدار التى أخرجنى منها».

وقال أبو محمد سهل: حظُّ الخلق من اليقين على قَدْر حظِّهم من الرضا، وحظُّهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله.

وروى عطية، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ: «إن الله بحكمه وجلاله جعل الرَّوْح والفرح فى الرضا واليقين، وجعل الغمَّ والحزن فى الشك والسُّخط».

ومن الرضا أن لا تذم شيئًا مباحًا، ولا تعيبه، إذ كان بقضاء مولاك العزيز، مشاهدًا للصَّانع فى جميع الصنعة، ناظرًا إلى إتقان الصُّنع والحكمة، وإن لم يخرج ذلك عن معتاد المعقول والعادة. وبعض العارفين يجعل هذه الأشياء فى باب الحياء من الله عز وجل. ومنهم من يقول: هى من حُسن الخُلُق مع الله تعالى. ومنهم من جعله من باب الأدب بين يدى الله. فإذا كان هذا كذلك كان ذمُّ الأشياء التى أُبيحت وعيبُها من سوء الخُلُق مع الله، وكانت من سوء الأدب بين يدى الله. وأعظم من ذلك أنها تدخل فى باب قلة الحياء من الله، ويصلح أن يكون هذا أحد معانى الخبر الذى جاء: «قلة الحياء كفر»؛ يعنى كفر النعمة، بأن يذمَّ ويعيب بعض ما أنعم الله به عليه من الإرفاق والإلطاف، إذ كان فيها تقصير عن تمام مثلها، أو كانت مخالفة لهواه منها، فيكون ذلك كفرًا للنعمة، وقلةَ حياء العبد من المنعم، إذ قد أمره بالشكر على ذلك، فبدَّل الشكر كفرًا؛ لأن أحدًا لو اصطنع لك طعامًا، فعبتَهُ وذَمَمْتَه، كره ذلك منك، فكذلك تعالى يكره ذلك منك. وهذا داخل فى معرفة معانى الصفات، وفى معنى ما قيل: أعرفُكم بربه

أعرفكم بنفسه، لأنك إذا عرفت صفات نفسك فى معاملة الخَلْق، عرفت منها صفات خالقك.

وبعض الراضين يجعل ذمَّ الأشياء وعيبَها بمنزلة الغيبة لصانعها، لأنها صنعته، ونَتاجُ حكمته، ونفاذُ علمه، وحكمُ تدبيره، وتدبيرُ مقاديره؛ لأنه أحكم الحاكمين، وخير الرازقين، وأحسن الخالقين، له فى كل شىء حكمةٌ بالغة، وفى كل صنعةٍ صنع متقن. ولأنك إذا عبت صنعة أحدٍ وذَمَمْتها، سرى ذلك إلى الصانع، لأنه كذلك صنعها، وعن حكمته أظهرها، إذ كانت الصنعةُ مجبولةً لم تصنع نفسها، ولا صُنع لها فى خِلْقتها. وكان الورعون لا يعيبون صنعة عبدٍ كراهة الغيبة له، وذلك أن الراضى عن الله متأدب بين يدى الله، يستحى أن يعارضه فى داره، أو يعترض عليه فى حكمه. فصاحب الدار يصنع فى حكمه ما شاء، والحاكم يحكم بأمره كيف شاء، والعبد راضٍ بصُنع سيده، مسلِّمٌ لحكم حاكمه.

وروى فى الإسرائيليات: «أن عيسى عليه السلام مرَّ مع نفرٍ من أصحابه بجيفة كلب، فغطوا آنافهم، وقالوا: أف أف، ما أنتن ريحه! فلم يخمِّر عيسى عليه السلام أنفه، وقال: ما أشد بياض أسنانه»؛ أراد أن ينهاهم بذلك عن الغيبة، ويعلِّمهم ترك عيب الأشياء، كيف وهو يرى بعين نفسه أنّ الصنعة من صانعها، فهو يقلِّبها ويصرِّفها على معانى نظره.

وروينا عن رسول الله ﷺ أنه ما عاب طعامًا قط؛ إن اشتهاه أكله، وإلا تركه. وقال أنس: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين - ليس كل امرئ كما يريد صاحبى - ما قال لى لشىء فعلته لِمَ فعلته، ولا لشىء لم أفعله ألاَ فعلته، ولا قال فى شىء كان ليته لم يكن، ولا لشىءٍ لم يكن ليته كان». وكان يقول ﷺ: «لو قُضى شىءٌ لكان».

وفى بعض أخباره: «وإن خاصمنى مخاصم، قال: دعوه، لو قُضى شىء كان». هذا لفظ ثلاثة أحاديث، وهذا وصف الراضى الموفَّق القائم بشهادته[1].

---

(١) هذه الفقرة من: (د، م).

وقد رُويت لفظةٌ مجملةٌ[١] فى شيئين متضادين: «ما بعثنى النبى ﷺ فى حاجة قُضِيت أو لم تُقض إلا قال: لو قُضى شىءٌ لكان». فهذا إذا كان اللفظ راجعًا على الوصفين، فالمعنى فيما قُضى أيضًا، أى: لو قُضى ألاَّ يُقضى لم يُقْضَ، فاستوى عنده بالقضاء ما قُضى؛ لأنه قد قضى أن يُقضى وما لم يُقض؛ لأنه لم يسبق فيه القضاء، ولم[٢] يصلح فى هذا الوجه أن لكل حاجة تقديرًا من الوهم، فكأنها وإن قُضيت إلا أنها على غير ما تصوَّر فى وهمه، قال: لو قُضى ذلك لكان.

فإن كان اللفظ عائدًا على ما لم يُقض وحده؛ لأن ما قُضى فقد ظهر، وبان بلا[٣] مسألة، فيكون هذا بمعنى قوله فى قصة ذى اليدين لما قيل له: أَقَصَرْتَ الصلاةَ أم نسيتَ؟ قال: كلُّ ذلك لم يكن. وقد كان أحدهما وهو النسيان.

وهذا أيضًا فيه لطيفة يحتملها التأويل: أن يريد كل ذلك بمجموعيهما لم يكن. فهذا يرجع بمعنى قوله فيما قضى: «لو قضى ألا يُقضى». كما أن ما لم يُقض قد قُضى، أى: يقضى، رجع القضاء عليهما سواء. فكان ﷺ يرضى بما قُضى كيف قضى على ما تصوَّره الوهمُ، أو بخلافه، ويرضى بما لم يقض؛ لأنّ القضاء فيهما سواء، فينبغى أن يكون الرضا بهما سواء[٤].

فبالنظر فى هذه الدقائق، والوقوف عندها، رُفع القوم عند الله إلى مقام المقرَّبين، وبالتهاون بها، والغفلة عنها، نَغِلَت[٥] القلوبُ ففسدت، حتى لم تصلح للمحبة والرضا. وهذه المعانى من الاعتراضات والتخيُّر هو تقدُّم بين يدى الله، وهو التدبير الذى يشير إليه سهل، ويقول: إن تدبير الخلق حجبهم عن الله عز وجل.

(١) فى (د): «لفظه مجمله».

(٢) هكذا فى (م) وفى (د): «وقد يصلح فى هذا الوجه».

(٣) فى (د): «فلا مسألة».

(٤) من أول قوله: «وقد رويت لفظة» إلى هنا اتفقت نسختا (د، م) على زيادتهما مع اختلاف يسير بينهما لم أُشر إليه لعدم تأثيره فى المعنى.

(٥) نغلت: ساءت وفسدت. يقال: نَغِل الجرح: فسد. ونغلت نيته: ساءت. ونغل قلبه على فلان: ضَغِن. فهو نَغِلٌ، وهى نَغِلة.

وحُكى لنا: أن بعضهم صحب بعض العارفين فى طريق، فعبث بشىء فنحَّاه من مكان إلى مكان آخر، فقال له العارف: ماذا صنعتَ؟ أحدثتَ فى المُلك حدثًا عن غير ضرورة ولا سنَّة، فلا تصحبنى أبدًا.

فلو لم يكن لنا من الذنوب إلا هذه الأشياء لقد كان كافيًا، وفوق ذلك تهاوننا بها، وأعظم من ذلك ترك التوبة والاستغفار منها.

وأعمال طلاَّب الرضا من الله مضاعفةٌ على أعمال المجاهدين فى سبيل الله، لأن أعمال المجاهدين تُضاعَف إلى سبعمائة ضعف، وتضعيف طالبى الرضا لا تُحصى. قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]. وقال تعالى: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. قيل: الحسنة إلى ألفى ألف حسنة. وقد قال تقدست أسماؤه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ثم قال وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. فكم فى هذه الجنة من سنبلة وحبة؟! فهؤلاء الذين قال: ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، هم أهل الرضا عنه، وهم الذين أقرضوا الله قرضًا حسنًا لأجله، لمضاعفته لهم أضعافًا كثيرة. فمن عقل عن الله حكمته، كان مع الله تعالى فيما حكم، مسلِّمًا له ما شهد؛ لأنه سبحانه باختياره أنشأ الأشياء، وبمشيئته أبداها، وعنه يتصرف المقدور، وإليه عواقبُ الأمور، لا يكون مع نفسه فيما يهوى، ولا مع معتاده، وعرفه فيما يعقل.

وقال بعض العارفين: قد نِلتُ من كل مقام حالاً إلا الرضا، فما لى منه إلا مَشامُّ الريح، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلنى النار، لكنت بذلك راضيًا.

وقيل لعارفٍ فوقه: نِلتَ غاية الرضا عنه؟ فقال: الغايةُ لا، ولكن مقامٌ من الرضا قد نلتُه، حتى لو جعلنى جسرًا على جهنم عبر الخلائق علىَّ إلى الجنة، ثم ملأ بى جهنم تحلَّةً لقَسَمه، وبدلاً من خليقته، لأحببت ذلك من حكمه، ورضيت

به من قِسْمه.

وحدثونا عن الروزبارى قال: قلت لأبى عبد الله بن الجلاَّء الدمشقى: قول فلان: وددت أن جسدى قُرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه، ما معناه؟ قال: يا هذا، إن كان من طريق الإشفاق على الخلق والنصح فأعرفُ، وإن كان من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف، قال: ثم غُشى عليه.

وقد كان عمران بن الحصين استسقى بطنه، فلبث ملقًى على ظهره ثلاثين سنةً سطيحًا، لا يقوم ولا يقعد، قد نُقب له فى سريرٍ من جريد كان تحته موضعٌ لغائطه وبوله، فدخل عليه مُطرِّف أو أخوه العلاء، فجعل يبكى، لما يرى من حاله، فقال: لم تبكى؟ فقال: لأنى أراك على هذه الحال العظيمة. فقال: لا تبكى فإنَّ أحبَّه إلىَّ أحبُّه إلى الله. ثم قال: أحدِّثك شيئًا، لعل الله أن ينفعك به، واكتُم علىَّ حتى أموت: إن الملائكة تزورنى فآنس بها، وتسلِّم علىَّ فأسمع تسليمها.

أراد عمران رحمه الله بذلك أن يُعلم أن هذا البلاء ليس بعقوبة؛ لأن مثل هذه الآية إنما هى درجة ورحمة، وبلاءُ العقوبات لا يكون معه الآيات، ولا يوجد عنده الحلاوات، ولا مزيد القلوب من نسيم ريحان الغيوب؛ ولأنه كان حزن عليه، فأراد أن يبشِّره: فلا تذكر الحبيب، ولا حب لقاء الطبيب. كما أنشد بعض المحبين:

يا حبيبًا بذِكْره نَتــداوى ... وصفُوُه لكل داءٍ عجيبْ
مَـن أراد الطبيــبَ سُرَّ إذا ... اعتلَّ اشتياقًا إلى لقاءِ الطبيبْ
مَن أراد الحبيبَ سَارَ إليـه ... وجَفا الأهلَ دُونه والقريبْ
ليس داءُ الـمُحـبِّ داءً يُدَاوى ... إنمـــا بُرْؤه لِقــاءُ الحبيبْ

قال: ودخلنا على سويد بن شعبة نعوده، فرأينا ثوبًا ملقًى فما ظننَّا أنَّ تحته شيئًا حتى كُشف، فقالت له امرأته: أهلى فداؤك، ما نطعمك ما نسقيك؟ فقال:

طالت الضجعةُ، ودبرت الحراقيف، وأصبحتُ نضوًا[١]، لا أطعم طعامًا ولا أسيغ شربًا منذ كذا، فذكر أيامًا، ثم قال: وما يسرُّنى أنى نُقصت من هذا قُلامةَ ظُفُر.

واعتل حذيفة علة الموت، فجعل يقول: اخنق خناقك، فوعزتك إنك لتعلم أنى أحبك، فلما حضره الموت، جعل يقول: حبيبٌ جاء على فاقة، لا أفلح من ندم.

وروى أيضًا مثل هذا عن أبى هريرة.

ولما قدم سعد بن أبى وقاص إلى مكة، وكان قد كُفَّ بصره، جاءه الناس يهرعون، كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة، دعا له رسول الله ﷺ بذلك. قال عبد الله بن السائب: فأتيتُه وأنا غلامٌ، فتعرَّفت إليه فعرفنى. وقال: أنت قارىءُ أهل مكة؟ قلتُ: نعم، فذكر قصة، قال فى آخرها: فقلت له: يا عم، أنت تدعو للناس، فلو دعوتَ لنفسك، فردّ الله عليك بصرك؟ فتبسم ثم قال: يا بنى، قضاء الله عندى أحسن من بصرى.

ويقال إنّ بعض هذه الطائفة ضاع ولده ـ وكان صغيرًا ـ ثلاثة أيام، لا يعرف له خبرًا. فقيل له: لو سألت الله أن يرده عليك. فقال: اعتراضى عليه فيما قضى أشدُّ من ذهاب ولدى.

وقد روينا عن بعض العُبَّاد أنه قال: أذنبتُ ذنبًا، فأنا أبكى عليه منذ ثلاثين سنة، وكان قد اجتهد فى العبادة، لأجل التوبة من ذلك الذنب. قيل له: وما هو؟ قال: قلت مرة لشىء كان: ليته لم يكن.

وقال بعض السلف: لو قُرِض جسمى بالمقاريض كان أحبَّ إلىَّ من أن أقول لشىء قضاه الله: ليته لم يقضه.

وحدثونا عن بشر الحافى قال: رأيت بعبّادان رجلاً قد قطعه البلاء، وقد سالت حدقتاه على خديَّه، وهو فى ذلك كثيرُ الذكر، عظيم الشكر لله، قال: وإذا هو قد

(١) الحَرْقَفتان: مجتمع رأس الفخذ ورأس الورك حيث يلتقيان. ويقال للمريض إذا طالت ضجعته: دَبِرَت حَرَاقِفُه. ونضوًا: مهزولاً.

صُرِع من حبه به. قال: فوضعتُ رأسه فى حجرى، وجعلت أسأل الله عز وجل كشْفَ ما به، وأدعو له. فأفاق، فسمع دعائى، فقال: من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى، ويعترض عليه فى نِعَمه علىَّ؟ قال: ونحَّى رأسه. قال بشر: فاعتقدت أن لا أعترض على عبدٍ فى نعمةٍ أراها عليه من البلاء.

وقيل لعبد الواحد بن زيد: ههنا رجل قد تعبَّد خمسين سنة، فقصده فقال: حبيبى أخبرنى عنك، هل قَنِعْتَ به؟ قال: لا. قال: هل أنِسْتَ به؟ قال: لا. قال: فهل رَضِيتَ عنه؟ قال: لا. قال: فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة. قال: نعم. قال: لولا أنى أستحى منك لأخبرتك أن معاملتك خمسين سنة مدخولة.

أراد بذلك أنه لم يقرِّبك، فيجعلك فى مقام المقربين، فيكون مزيدك لديه من أعمال القلوب، وكذلك يصنع بأوليائه، إنما أنت عنده فى طبقة أصحاب اليمين، فمزيدُك منه مزيد العموم من أعمال الجوارح. وقد يكون الرجل مخلصًا فى مقامه وإن كان فوقه فوق.

وقد روينا عن ابن محيريز(١)، وكان من عبَّاد أهل الشام وعلمائهم، كلمةً غريبة المعنى، دقيقةً فى معنى المخالفة لله عز وجل، وإن كان قد فسرها، فإنه لم يكشف معناها لفهم السامعين منه والحاضرين عنده، فيحتاج تفسيرها إلى تفسير. روينا عنه أنه قال: كلُّكم يلقى الله تعالى، ولعله قد كذبه، وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهبٍ ظل يشير بها، ولو كان بها شلل ظل يواريها(٢).

يعنى بذلك أن الذهب من زينة الدنيا، وقد ذم الله تعالى الدنيا، وأن البلاء زينة أهل الآخرة، وقد مدح الله الآخرة، أى: فأنت إذا أعطاك زينة الدنيا أظهرتها وفخرت بها، وإذا أعطاك زينة الآخرة، وهى المصائب والبلاء، كرهتها وأخفيتها؛ لئلا تُعاب بذلك، فحَسب عليه حبَّ الدنيا والتزين بها وكراهة البلاء، تكذيبًا لله، وردًا عليه ما وصفه. وهذا يدخل فى باب الزهد، وفى باب الرضا، ويدخل على

---

(١) هو عبد الله بن محيريز المكى، قال رجاء بن حيوة فى حقه: «إن كنت أعدّ بقاءه أمانًا لأهل الأرض» توفى (٩٩هـ). انظر ترجمته فى الحلية ٥/ ١٣٨، والكاشف ٢/ ١٢٨.

(٢) الخبر فى الحلية ٥/ ١٤٠.

من أخفى الفقر والبلاء حياءً من الناس؛ لئلا يعاب بذلك، فهو من ضعف يقينه وقوة شاهد الخلق. ويدخل فيه من أظهر الغنى من غير نيةٍ. ولا تحدُّثٍ بنعمة الله. فذلك أيضًا من قوة شاهد حب الدنيا.

وكذلك قال أبو سليمان الدارانى: ثلاثُ مقامات لا حدَّ لها: الزهد، والورع، والرضا. وخالفه سليمان ابنه، وكان عارفًا ـ ومن الناس من كان يقدِّمه على أبيه ـ فقال: بلى، مَنْ تورَّع فى كل شىء فقد بلغ حد الورع، ومَنْ زهد فى كل شىء فقد بلغ حد الزهد، ومن رضى عن الله فى كل شىء فقد بلغ حد الرضا.

ولا ينقص الراضى من مقام الرضا مسألةُ مولاه مزيد الآخرة وصلاح الدنيا، تعبّدًا بذلك، وافتقارًا إليه فى كل شىء؛ لأن فى ذلك رضاه، ومقتضى تمدحه بمسألة الخلائق له. فإنْ صرف مسائله إلى طلب النصيب من المولى، وابتغاء القرب منه؛ حبًا له، وآثره على ما سواه، كان فاضلاً فى ذلك؛ لأنه قد ردَّ قلبه إليه، وجمع هَمَّه بذلك. وهذا مقام المقربين، وعلى قدر مشاهدة الراضى عن معرفته، ومقتضى حاله؛ لأنه يسأل عن عمله بعلمه فى وقت من أحواله، كما يسأل عن جملة أعماله بعلومه فى جملة عمره. وهذا أصلٌ فاعرفه؛ فهو طريق الصوفيين، وعليه عملُ العارفين من السلف، فلم يكن يضرهم عندهم خلافُ مَنْ خالف، وإن كان دعاؤه تمجيدًا لسيده، وثناءً عليه، وشغلاً بذكره، ونسيانًا لغيره، وولهًا بحبه؛ لأنه مستوجب لذلك بوصفه؛ ولأنه واجب عليه، فقد استغرقه وجوب ما عليه عماله. فهذا أفضل، وهو مقام المحبين، وهو من القيام بشهادته. وقد دخل فيما ذكرناه من مقتضى حاله بالعمل بعلمه فى وقته.

وللعلماء مسألةٌ قد اختلفوا فيها: فى أهل المقامات ثلاث، أيهم أفضل؟ عبدٌ يحب الموتَ شوقًا إلى لقاء الله. وعبدٌ يحب البقاء للكدِّ والخدمة للمولى. وعبدٌ قال: لا أختارُ شيئًا بل أرضى ما يختار لى مولاى؛ إن شاء أحيانى أبدًا، وإن شاء أماتنى غدًا. قال: فتحاكموا إلى بعض العارفين فقال: صاحب الرضى أفضلهم؛ لأنه أقلهم فضولاً. وهذا كما قال فى الاعتبار بترك الاعتراض والاختيار؛ لأنه دخل فى الدار بغير اختيار. وكذلك يكون خروجه منها على معنى دخوله بلا

اختيار؛ لأن مقام الرضا أعلى من مقام التشوق، ثم الذى يليه فى الفضل؛ الذى يحب الموت شوقًا إلى لقاء الله، وهذا مقام فى المحبة، وفى حقيقة الزهد فى الحياة. وفى الخبر: «من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه». والذى يحب البقاء للخدمة، وكثرة المعاملة، هو فاضل بعد هذين، مقامُه قوةُ الرجاء وحسنُ الظن فى العصمة، وله أيضًا مطالعات من الأنس، وملاحظات فى القُرب، به طاب مقامه، وعنده سكنت نفسُه، وقصرت عليه أيامه. وقد قال رسول الله ﷺ: «أفضلُ المؤمنين إيمانًا ـ أو قال: أكملُ المؤمنين إيمانًا ـ مَنْ طال عمره، وحَسُنَ عملُه». هذا؛ لأنّ الأعمال مقتضى الإيمان، إذ حقيقة الإيمان إنما هو قولٌ وعمل، وليس بعد هؤلاء مقامٌ يُفرَح به، ولا يُغبَط صاحبه عليه، ولا يوصف بمدحٍ، إنما هو حبُّ البقاء؛ لمتعة النفس، وموافقة الهوى. وقد تُشرف النفسُ على الضعفاء من أهل هذا الطريق، وتختفى فيها علة؛ وهو أن يحب البقاء؛ لأجل النفس وللمتعة بروح الدنيا، وما طُبعت عليه من حبِّ الحياة، وتكره الموتَ؛ لمنافرة الطبع، ولطول الأمل، فيتوهم أنه ممن يحبُّ البقاء؛ لأجل الله وطاعته وخدمته. وهذا هو من الشهوة الخفية، التى لا يخرجها إلا حقيقة الزهد فى الدنيا. ولا يفضل فى هذا الطريق الثالث إلا عارفٌ، زاهدٌ، دائمُ المشاهدة باليقين. فأما المعتلُّ بوصفه وهواه، فليس يقع به اعتبارٌ فى طريق ولا مقام.

واجتمع ذات يوم وَهيبُ بن الورد، وسفيان الثورى، ويوسف بن أسباط، فقال الثورى: قد كنتُ أكره موت الفُجأة قبل اليوم، فأما اليوم فوَدِدْتُ أنى مت. فقال له يوسف: ولِمَ؟ قال: لِمَا أتخوَّف من الفتنة. فقال يوسف: لكنى لا أكره طول البقاء. فقال الثورى: ولم تكره الموت؟ قال: لعلى أصادف يومًا أتوب فيه، وأعمل صالحًا. فقيل لوهيب: أى شىء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئًا، أحبُّ ذلك إلىَّ أحبُّه إلى الله. قال: فقبَّل الثورى ما بين عينيه وقال: رُوحانية وربِّ الكعبة. يعنى مقام الروحانيين، وهم المقربون أهل الرَّوْح والريحان، وأولو المحبة والرضوان. كما قال تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩]؛ يعنى: لهم ريح من نسيم القرب، وريحان من طِيب الحُبِّ. وأيضًا أنه تعالى لما ذكر أن لأصحاب

اليمين في كل شدة وهول سلامةً، وكان المقرَّبون هم الأعلين، كان أيضًا فيما دلَّ الفهمُ عليه، أن للمقربين من كل هول رَوْحًا به؛ لشهادتهم القريب، وفي كل كَرْبٍ ريحان منه لقرب الحبيب، فبذلك عَلَوْا، وبذلك فَضُلُوا.

وهكذا قال بعض الصوفية: سر العارف في الأشياء واقف، مثلُ الماء في البئر؛ لا يختار المقام، وإن أُخرج خرج. أي: ومثل لسان الميزان في وقوفه واعتداله بين حُكمين، أيها أُمدَّ به مال به. وقال آخر: قلبي مثلُ الماء، يَسْخُن ثم يَبْرُد. أي: لا يقف على وصف، بمعنى ما قيل في صفة العامل صحة اعتباره وتَقَضِّي أوطاره، فإنْ ذمَّ هذا الراضي ما ذمه الله، أو كره ما كرهه الله، لم ينقص ذلك رضاه، وكان محسنًا في فعله؛ لموافقته مولاه، وإن لم يرض بحاله نقص في الدين والآخرة، أو كره مزيد الدنيا من الكثرة والجمع والادخار لم يقدح ذلك في رضاه؛ لأنه من التحقق بالزهد، وهو في جميع ذلك موافق للعلم.

والله تعالى أعلم بأحكامه من العبد، وأغير على نفسه من الغير، وأعلى مشاهدةً من الخلق، له المثل الأعلى. فهو على ذلك يشهد أحكامه، ويذمُّ المحكوم عليه إذا تعدى حدود أمره، ويُنْفِذُ عِلْمَه بمشيئته، ويمقتُ العاصين له باجتراح نهيه، حكمةً منه وعدلاً. كما أنه يشهد يده في العطاء، ويمدح المنفقين، ويُمضي إرادته بالقضاء بتوفيقه، ويشكر العاملين كرمًا منه وفضلاً ومحبةً وابتلاءً[(١)]. كذلك الراضي عنه موافقٌ له فيما حكَم، ومُتَّبعٌ له فيما رسم، ومُسلِّم له فيما قدَّر، وعالم منه بما حفظه به، وراضٍ بما دبَّر، ومستعمل لما شرَع، ومواطئ لرسوله ﷺ فيما سنَّ، متخلِّق بأخلاق مولاه بما حفظه به وتولاه، سالك منهاج رسوله، يذم ما ذمه المولى والرسول، ويمدح ما مدحه العلم ودلت عليه الأصول، وذلك كله لأجل المولى، ولأنه لرسوله اتَّبع، لا لأجل ما ضرَّ ونفع.

والتحدث بالأوجاع والإخبار عن المصائب لا يُنقص حال الراضي، إذا رآها نعمةً من الله عليه وشكر الله عليها، وكان القلب مسلِّمًا راضيًا، غير متسخط ولا

(١) في الفقرتين السابقتين زيادات متعددة جملة أو أكثر من (د، م) ليست في المطبوعة، ويطول المقام بتتبع مواضعها، وبخاصة أنني أعتمد نص (م).

متبرم بمرِّ القضاء، وأول الرضا الصبر، ثم القناعة، ثم الزهد، ثم المحبة، ثم التوكل. فالرضا حينئذ حال المتوكل، والتوكل هو مقام الرضا، والمحبةُ حال المحب، والمحبة مقام الراضى.

وقال الفضيل بن عياض: إذا استوى العطاء والمنع عند العبد فهو الرضا. وقال غيره: إذا لم يختلف قلبه فى العدم والوجود، وفى الصِّحة والسقم، فقد رضى. وقال الثورى: منعُ الله عطاءٌ[1]؛ لأنه منعٌ من غير بُخلٍ ولا عُدم، فمنعه اختيارٌ وحسنُ نظر، وهذه مشاهدة الراضى. وهذا كما قال؛ لأن حقيقة المنع إنما يكون لمن لك عنده شىء فمنعك، أو تستحق عليه شيئًا فلم يعطك؛ فأما من لا تستحق عليه شيئًا، ولا لك معه شىء؛ لأنه الأول قبل كل شىء، والمظْهِرُ لكل شىء، والمالك لما أظهر، والمختار لما خلق، وليس لأحدٍ من خلقه اختيار، ولا فى حكمه اشتراك، له الخلق والأمر، ولا يشرك فى حكمه أحدًا، والعبد لم يكن شيئًا مذكورًا، فكلٌّ[2] شىء اختاره فهو عطاءٌ منه، على تفاوت مقادير، وضروب أحكام، وتصاريف تدبير؛ حلو ومر، ولطف وعنف، وشدة ورخاء، وموافقةٍ للنفس ومُرافق، ومخالفةٍ لما يهوى مما لطبعها لا يوافق. فالصبر على الأحكام مقام المؤمنين، والرضا بها مقام الموقنين: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. ﴿واصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

واعلم أن الرضا من مقامات اليقين، وأحوال المحبين، ومشاهدة المتوكلين، وهو داخل فى كلِّ أفعال الله سبحانه؛ لأنها عن قضائه، لا يكون فى ملكه إلاّ ما قضاه، فعلى العارفين به الرضا بالقضاء. ثم يُرَدُّ ذلك إلى تَفْصيل العلم، وترتيب الأحكام؛ فما كان من خيرٍ وبرٍّ أَمَر به أو ندب إليه، رضى به العبد وأحبه شرعًا وفعلاً، ووجب عليه الشكر. وما كان من شرٍّ نهى عنه وتهدد عليه، فعلى العبد أن يرضى به عدلاً وقدرًا، ويسلِّمه لمولاه حكمةً وحكمًا، وعليه أن يصبر عنه، ويقرَّ به ذنبًا، ويعترف به لنفسه ظلمًا، ويرضى بعَوْدِ الأحكام عليه بالعقاب، وأنه

(١) فى (د): «العطاء رحمة».

(٢) جواب قوله: «فأما من لا تستحق عليه شيئًا...».

اجترحه بجوارحه اكتسابًا، ويرضى بأن لله الحجةَ البالغة عليه، وأنَّ لا عذر له فيه، ويرضى بأنه فى مشيئة الله عز وجل من عفوٍ عنه برحمته وكرمه إن شاء، أو عقوبة له بعدله وحقه إن شاء.

وفصل الخطاب أنه يرضى بسوء القضاء عقدًا لا من نفسه فعلاً، ويرضى به عن الله، ولا يرضى به من نفسه؛ لأن الموقنين والمحبين لا يُسقطون الأمرَ بالمعروف، والنهيَ عن المنكر، ولا ينكرون إنكار المعاصى وكراهتها بالألسنة والقلوب من قِبَل أن الإيمان فرضها، والشرع وردَ بها؛ ولأن الحبيب كَرِهها، فكانوا معه فيما كره، كما كانوا معه فيما أحب.

ومقام اليقين لا يُسقط فرائض الإيمان، ومشاهدةُ التوحيد لا تبطل شرائع الرسول، ولا تُسقط اتِّباعه. فمن زعم ذلك، فقد افترى على الله ورسوله، وكذب على الموقنين والمحبين. ألم تر أنّ الله تعالى ذم قومًا رضوا بالدنيا، ورضوا بالمعاصى، رضوا بالتخلف عن السوابق؟ فقال سبحانه: ﴿ورَضُوا بالْحَياة الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بهَا﴾ [يونس:٧] فذمهم بذلك. وقال تعالى: ﴿وَلتَصْغَى إِلَيْه أفئدَةُ الَّذينَ لاَ يُؤْمنُونَ بالآخرَة وَليَرْضَوْهُ وَليَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١١٣] فعابهم به. وقال تعالى: ﴿رَضُوا بأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالف﴾ يعنى مع النساء فى القعود عن الجهاد، وهذا جمع التأنيث ﴿وطُبِعَ عَلى قُلُوبهِمْ فَهُم لا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨٧]، فمن رضى بالمعاصى والمناكير منه أو من غيره، وأحبَّ لأجلها، ووالى ونصر عليها، أو ادعى أنّ ذلك فى مقام الرضا الذى يجازى عليه بالرضا، أو أنه حال الراضين الذين وصفهم الله تعالى ومدحهم، فهو مع هؤلاء الذين ذم الله ومقت.

وفى الخبر: «مَنْ شَهد منكرًا فرضى به فكأنه فعله». وفى الحديث: «الدَّالُّ على الشَّرِّ كَفاعله».

وعن ابن مسعود: إن العبد لَيغيب عن المنكر، ويكون عليه مِثْلُ وزر فاعله. قيل: وكيف ذلك؟ قال: يبلغه فيرضى به.

وقد جاء فى الحديث: «لو أن عبدًا قُتل بالمشرق، ورضى بقَتْلِه آخرُ بالمغرب،

كان شريكه فى قتله».

وقد روينا حديثًا حسنًا عن النبى ﷺ من طريق مرسل: «من نظر إلى مَنْ فوقه فى الدِّين، وإلى مَنْ دونه فى الدُّنيا، كتبهُ الله صابرًا شاكرًا. ومَنْ نظر إلى من دونه فى الدين، ومَنْ فوقه فى الدنيا، لم يكتبه الله صابرًا ولا شاكرًا».

ففى[1] هذا الحديث أربعة معانٍ حسان إذا تدبَّرها العبدُ، وتفكر فيها، لم يُعدم أن يرى أهلها؛ لأنه لا يخلو أن يرى بعينه أو بقلبه عن معرفته بسيرة المتقدمين، فيرى من فوقه فى باب الدنيا، فيشكر الله على حاله، ويقنع منه برزقه، فيكون صابرًا شاكرًا بمعرفة ما قنع به ورضى، وباختياره له ما صُرف عنه من الفضول، وزُوى عنه من الحساب الطويل. ولا يخلو أن يرى من فوقه فى أمر الدين من العاملين والعالمين والزاهدين، فيسارع إلى ذلك، ويسابق وينافس فيه، إذ قد نُدب إلى ذلك، فيكون حظًا له[2]، وحثًا على افتعال الخيرات وأعمال الصالحات. وأقلُّ ما يفيده ذلك الإزْرَاءُ على نفسه، والمقتُ لها فى تقصيره.

ثم ينظر فى الأمرين الآخرين من وجهٍ آخر، فلا يخلو أن يرى من هو دونه فى أمر الدنيا من ذوى الفاقات والحاجات، فيحمد الله على تفضيله عليه، وحسن صونه له، ويشكر نعمته لفضل إحسانه، وكفايته له. ويجد أيضًا فى المعنى الآخر من هو دونه فى أمر الدين من الفَجَرة والظالمين وأهل البدع والزائغين، فيفرحُ بفضل الله ورحمته، ويشكر الله على حسن إسلامه، وجميل معافاته مما ابتلى به غيره، فيكون أيضًا صابرًا شاكرًا.

فيكون للعبد فى هذه الطبقات من الناس أربع معاملات بما وهب الله له من التبصرة والاعتبار، ويشهد لما ذكرناه الخبرُ الآخر من قول النبى ﷺ: «لا حَسَدَ إلاّ فى اثْنَتَيْن: رَجلٌ آتاه الله حكمةً فهو يبثُّها فى الناس ويُعلِّمها، أو رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هَلَكته فى الحق». وروينا فى لفظِ حديثٍ آخر: «ورجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ فهو يقومُ به آناء الليل والنهار. فيقول الرجلُ: لو آتانى الله مثل ما آتى هذا

---

(١) من هنا زيادة من (د، م) حتى قوله: «ومحنة المحبين والراضين، فتثبتوا» فى ص ١٠٢٨.

(٢) فى (م): «خصاله»، وأثبت ما فى (د).

لَفعلتُ كما فَعَل». فندب ﷺ إلى الحسد فى أعمال البر، وفضَّل الحاسد على ذلك؛ لأن الله تبارك وتعالى ندب إلى التنافس فى أعمال الخير، فمن حَسَد على هذه الثلاث ونحوها للغِبْطة بها، والطلب لها، لم يُخرجه ذلك من الرِّضا، وكان له مزيد، بعد أن لا يحب زوالها عن أهلها، ولا نقصهم منها، ولا أن لا يُذْكَرُوا بها، ولا يحبَّها هو أيضًا ليُذكَر كما ذُكروا، أو يُمدح كما مُدحوا. فهذه المعانى آفات هذه الفضائل، ولكل شىء آفةٌ مَنْ وقيها حَصَلَت له الفضيلةُ، ومن وقع فيها فحَيْدُها عنه خيرٌ له؛ لأنّه أسلمُ، ولا فضْلَ إلا بعد حَوْزِ السلامة.

وقد غلط فى باب الرِّضا بعض البطَّالين من المتأخرين، مما لا علم له، ولا يقين، فحمل الرضا على جميع ما يكون منه من معصية. وهذا لجهله بالتفضيل، وقلة فقهه بعلم التأويل، ولاتباعه ما تشابه من التنزيل؛ طلبًا للفتنةِ وغُربة الحال، وابتداعًا فى القول والفعال، ولهَواهُ فى العصيان والفسوق، فأراد أن يقيم بذلك عند الجاهلين سوقَ معذرةٍ له، وتطريقًا إليه، ولو عُصم من الهوى لاستراح، ولو زهد فى الدنيا لأراح، ولو كان علمُه للتأويل لله الفتاح العليم لأفلح، ولعَلِم الناسُ من علْمه، فربح وأربح، وأنَّى له بذلك والهوى يقلِّبه، والبلاء المقصود به يغمُره، وإنما يُعلِّم التأويل منزِّلُ التنزيلِ، ألم تسمع إلى قول الرسول ﷺ: «اللهمَّ فَقِّهه فى الدِّين وعلِّمه التأويل». والاشتغال بالبَطَّالِ بَطالَةٌ؛ لأنّ أوقاته قد ذهبت، ويذهب وقتُ غيره بذكرها.

وبطلان قول هذا عند العلماء أظهر من أن يدل على فساده، فكفونا مناظرته بطردهم له وإبعاده.

وإنما الرضا فيما كان لله سبحانه وتعالى به رضًا من غير مخالفةٍ للأمْر، مثل بُغض الدُّنيا، ونقص الأموال والأنْفُس من الأهل والولد، وفيما علَى النَّفسِ فيه مشقة، ولها منه كراهة، وفيما كان مزيدًا فى الآخرة، ومما لا عقوبة فيه من الله عز وجل، ولا وعيد عليه، ولا ذمًا لفاعليه، وفيما يُفرِّد الله[1] بصُنعهِ من غير أن

---

(١) فى (د): «يجرد الله عز وجل».

يدخل صنعته فيه، أو يُوبِّخ النفسَ عليه، فيَدُ الله مباركةٌ إذا خرجت منها نفوس الخلق المشئومة، ثوَّب عباده وأحبَّهم، وإن أدخل نفوسهم فى حُكمه، أو جعل أيديهم فى يده، انقلبت الأحكامُ عليهم، وتحول الشرُّ والضرُّ إليهم، فطالبهم بذلك وعاقبهم، ثم يغفر بعد لمن يشاء منهم، إن هذا لهو البلاء المبين، ومِحْنَةُ المحبين والراضين، فتثبَّتوا.

وقد يحتج أيضًا بطَّالٌ لبخله، وقلَّة مواساته وبذله، أو يعتلُّ لاتساعه فى أمر الدنيا، واستئثاره على الفقر، أن الذى يمنعه من البذل، والإيثار، والزهد فيما فى يديه، والإخراج: رضاهُ بحاله، وقلةُ اعتراضه على مجريه فيه، وأن هذا مقام من مقامات الرضا خُصَّ به عند نفسه. وهذا قول لاعبٍ ذى هوى، وهو من خُدَع النفوس وأمانيها، ومن غرور العدوّ ومكايده؛ لأن الرضا لا يمنع من اختيار الفقر والضيقة؛ لمعرفة الراضى بفضل الزهد وأوصافه كيف يكون، ويحب مولاه للفقر، ولمقته على التكاثر.

فالرِّضا لا يأمر بالاستيثار والاتِّساع لما كُرِه من النِّعمة والاستكثار؛ لأن الرِّضا يأمر بما أمر به الإيمان، إذ كان مقامًا فيه، فهو لا يوقف عما نُدب إليه العبدُ، ولا يُدخل فيما كُره له من فضول الدنيا، إنما يُوقف عن ذلك غَلَبةُ الهوى، ويدخل فيه محبة الدنيا، وهما مذمومان فى العلم، وعند العلماء، وتأمر به النّفسُ الأمَّارةُ بالسوء، ويوسوس به العدوُّ بالهَمِّ والخَطْوِ، وهذه مذمومات، فأحالهما لجهله على الرضا. وهذا اعتذار من النفس لها، وتمويه على الخلق، ليسلم منها، ولا عذر له بهذا عند مالكه، ولا سلامة له فيه من خالقه، ولا مقام له فى الرضا عند العلماء.

ومجمل ما ذكرناه أن الرضا لا يصحّ إلا فيما يحسن الصبر عليه، أو الشكر؛ لأن الرضا مقامٌ من الصبر هو فوقه، وحالٌ من الشكر هو يستوفيه، فهو مزيدٌ للصابرين والشاكرين، إلا أن يكون رضًا للعقود، وهو تسليمُ الأحكام للرّاضى بذلك، فيرضى بالذّم والنقص والشرِّ من حُكمه، ويعرف أنه عدلٌ فى حُكمه، فهذا منوطٌ بعُروة الإيمان، وهو فرضُ السُّنَّةِ، ليس من رضا المحبين ولا المتوكلين فى شيءٍ.

فأما أن يكون العبد على نقصان من الدين، وفى مزيد من الدنيا، ثم رضى بحاله، فرضاه بحاله شرٌّ من أعماله؛ لمخالفة الأمر. قال الله عز وجل: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]. وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]. فندب إلى المسارعة والسباق، وذمَّ التخلف عنها والتثبُّط بالعوائق. فعلى هذا طريقُ المؤمنين، وفيه مقامات الموقنين.

وإنما كان سبب ترك سرى السَّقطى السوقَ، وزهده فى الدنيا قوله: الحمدُ لله، لأنها كلمة رضا ظهرت منه فى موضع الاسترجاع للمصيبة، وذلك أنه بلغه أنَّ الحريق وقع فى سوقه، فأحرق دكانه، فخرج فى قِطْعٍ من الليل، فاستقبله قومٌ فقالوا: يا أبا الحسن، احترقت دكاكينُ الناس إلا دكانك. فقال: الحمد لله. ثم تفكر فى ذلك، فقال: قلتُ الحمدُ لله فى سلامة مالى وهلكة أموال إخوانى المسلمين. فتصدَّق بجميع ما كان فى دكانه من السَّقَط والآلة، كفارةً لكلمته هذه، وخرج من السُّوق، فشكر اللهُ له فعله، فزهَّده فى الدنيا، ورفعه إلى مقام المحبة، فأوصله بذلك الرضا إلى الرضا. وبلغنى عنه أنه كان يقول: قلت كلمةً، فأنا أستغفر الله منها ثلاثين سنة. يعنى قوله: الحمد لله.

وقد جاء فى الخبر: «من لم يهتمّ بأمر المسلمين فليس من المسلمين».

وفى الخبر المشهور: «أوثق عُرى الإيمان الحبُّ فى الله، والبغض فيه». فجعل ذلك من أوثق العرى لأنه منوط بالإيمان، لا يستطيع الشيطانُ حَلَّه، ولا سلطان له عليه، كما لا سبيل له على حل عُقد الإيمان؛ لأنّ الله عز وجل يحول بينه وبينه، وقد تولى تأييد الإيمان بروح منه، بعد كَتْبه فى القلوب برحمته، وفى الحب فى الله: الولاةُ، والنُّصرةُ بالنفس والمال، والفِعْل، والمقال. وفى البغض فى الله: تركُ ذلك، فبُغض المبتدع والفاجر المجاهر، والظالم المعتدى، وترك

موالاتهم ونصرتهم، واجبٌ على المؤمنين. فلأجل ذلك صارت الموالاةُ لأولياء الله والمعاداة لأعدائه من أوثق عرى الإيمان، لأنك قد تعصى وتخالف مولاك لتسليط العدو، وغلبة هواك، إلا أنك تبغض العاصين، ولا تواليهم على المعاصى، ولا تحبهم لأجلها، من قِبَل أن العدو لم يُسَلّط على ذلك منك، كما سُلِّط على فعله من نفسك، كما أنه لم يُسلَّط على حلٍّ عَقْد إيمانك، كما سُلِّط على حلٍّ المراقبة والخوف منك. ولم يُسلَّط أيضًا عليك فى استحلال المحارم، ولا استحسانها، ولا التَّزيُّن بها، ولا فى ترك التوبة منها، ولا بالرضا بها، كما سُلِّط عليك باقترافها. فهذا من كبائر الكبائر، التى تنحلُّ عُقد الإيمان معها، وتُنقض عراه بها، من قِبَل أن الموالاة والمحبة لأعداء الله عز وجل، يعمل فى أصل الدِّين، وتمحو ثَبْتَ اليقين، فلا يبقى منه نور؛ لأنه من عصى إمامه فيما أمره مثل مَنْ قَلَب دولته، وخرج عليه بالسيف، وليس مَنْ وافق هوى نفسه فيما نهى الله عز وجلّ مثل من فرّق ما وفَّق الله تبارك وتعالى فيما كتب وأرسل، فنبذ كتبه ظِهْرِيًا، ورد يده فى أفواه الرسل مُسكتًا. فإن سُلِّط على مثل هذا منك العدو، حتى تُحب الفساق وتواليهم، وتنصرهم على فسقهم، أو تستحِلَّ ما ترتكب من الحرام، أو ترضى به، أو تدين به، فقد انسلخ منك الإيمانُ، كما انسلخ الليل من النهار، فلستَ منه فى قليلٍ ولا كثير؛ لأن هذه العقود منوطة بعُرى الإيمان، وهى وهو فى قرنٍ واحدٍ مقترنان.

فإن تكن مقامات هؤلاء الفاسقين والظالمين توجب عليهم الرضا بأحوالهم، والشكر عليها، فرضوا وشكروا، لزمهم أيضًا أن يصبروا ويثبتوا على ما شكروا عليه، ورضوا به، فيصير ذلك مقامًا لهم فى الشكر والرضا عند القائلِ بهواهم، وجب عليه ـ أيضًا ـ لهم أن يحبهم عليها ويواليهم، فإذا وجب ذلك عليه لزمه أن يعينهم عليها، ويأمرهم بها، وفى هذا تكذيب الكتب كلها، وردُّ الرسل كلهم. نعوذ بالله تبارك وتعالى من رضًا لا ينفع، ومن حُبٍّ لا ينفع، كما نعوذُ به من عملٍ لا ينفع، وعلم لا ينفع، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿**لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِى**

شيء﴾ [آل عمران: ٢٨]؟ أوَ مَا سمعته يقول عز وجل: ﴿لاَ تَتَّخذُوا الْيَهُودَ والنَّصارَى أَوْلياءَ بَعْضُهم أَوْلياءُ بَعْضٍ ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُم فإنَّه مِنْهُم﴾ [المائدة: ٥١]؟

وكذلك قال الله تعالى: ﴿وإِنَّ الظَّالمينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْض واللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقين﴾ [الجاثية: ١٩]. وقال تعالى فى مثله: ﴿وكَذلكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالمينَ بَعْضًا بمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. وقال تعالى: ﴿ويَتَّبِعْ غَيْرَ سَبيلِ الْمُؤْمنينَ نُوَلِّه مَا تَوَلَّى ونُصْلِه جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥].

وقد روينا فى خبر: «إن الله تعالى أخذ على كل مؤمن فى الميثاق أن يبغض كلَّ منافق، وأخذ على كل منافقٍ أن يبغض كل مؤمن». وفى الخبر المشهور: «المرءُ مع من أحب، وله ما احتسب». وفى حديث آخر: «مَنْ أحبَّ قومًا ووالاهم فى الدنيا حُشر معهم يوم القيامة».

وروينا عن عمر بن الخطاب وعن ابنه عبد الله رضى الله عنهما، دخل لفظ أحدهما فى الآخر: «لو أنَّ عَبْدًا صفَّ بين قدميه عند الركن والمقام، يعبد الله عز وجل عمره، يصوم نهاره، ويقوم ليله، ثم لقى الله عز وجل وليس فى قلبه محبةٌ وموالاة لأولياء الله، ولا بغضٌ ولا معاداةٌ لأعدائه، لَمَا نفعه ذلك شيئًا».

وقد جاء نحوه، وبمعناه مسندًا عن عمر وغيره: «إن أحدهم لَيَشيب فى الإسلام، ولم يوال فى الله تعالى، ولم يُعاد فيه عدوًا، فذلك نقصٌ كبيرٌ».

وفى معنى قوله : «أوثق عُرى الإيمان الحبُّ فى الله، والبغضُ فيه» وجهٌ خفيٌّ، هو أن يحبك المؤمنون، ويبغضك المنافقون، فيكون ذلك علامة وثيقة عروة إيمانك؛ لأن قوله: «الحب فى الله» يصلح أن تحب أنت، ويصلح أن يحبك المؤمنون، وكذلك «البغض فى الله» يصلح بأن يبغضك المنافقون، كما تبغضهم أنت، فكأنك تتحبب إلى المؤمنين حتى يحبوك، وتتبغض إلى المنافقين حتى يبغضوك، بإظهار التباعد عنهم، وبترك الموالاة والممالاة لهم، وبنصحك إياهم، فيدل ذلك على قوة إيمانك، لم تأخذك فى الله لومة لائمٍ منهم، كما وصف الله

تعالى بذلك من يحبهم ويحبونه، ويكون ذلك أبعد لك من المداهنة والنفاق، وأقرب إلى الورع والإخلاص. فإذا فعلت ذلك بهم أبغضوك أو مقتوك، فتظفر بما تريد، وتدرك[١] مما تحب داخلاً عليك بوصفهم. فهذا على معنى ما قال الله سبحانه: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]. وقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]. وكما أمر نبيه فى قوله عز وجل: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم:٩]. وكذلك أمر المؤمنين فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣]. فهذا المأمور بخَفْضِ الجناح للأتباعِ، وتَلْيين الجانب للأحبّاء، وبالعَفْو والاستغفار والمشاورة للأصحاب. فكان ﷺ لطيف اللسان غير فَظِّه لهم، رقيقَ القلب غير غليظِه عليهم. فكذلك أمره بالشدة والغلظة للأعداء، فقال: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بيدك، ﴿وَاغْلُظْ﴾ على المنافقين بلسانك وقلبك. فهكذا القول فيمن يصلح جهاده بالسيف ممن شاقّ وحادّ، وكذلك القول فيمن كان على شعبة من حدِّهم، وعلى شُقَّة وجانبٍ إلى شِقِّهم من الفسوق والعصيان، اللذين قرَنَهما الله تعالى بالكفر. وحَدُّ[٢] جهادِه باللسان بالفظاظة، وجهاده بالقلب بالغلظة، كما فعله رسولنا[٣] ﷺ مع المنافقين دون من جاهَدَهُ بالسيف من الكافرين الذين قال فيهم: ﴿يُحَادُّونَ اللهَ﴾ [المجادلة:٢٠] يشاقون، أى: يكونون فى حدٍّ وشقٍّ، والله ورسوله فى شقٍّ آخر وحدٍّ، فهؤلاء قد ساروا فى شقِّهم وحدِّهم؛ أى جنبتهم وناحيتهم. فنحن كذلك على سبيل رسولنا ﷺ وبصيرته، لأنَّا من أتباعه وشيعته. وذلك هو داخلٌ فى حُبّك للأولياء، وبُغضك للأعداء لا محالة؛ لأنك إذا أظهرت للأولياء المحبة، اقتَضَتْهم محبتُك لهم محبتهم لك فى عقودهم؛ لأنَّ ذلك لك عليهم، كما هو عليك لهم، فكيف بهم إذا رأوه مِنك؟!

---

(١) الكلمة غير واضحة، وهكذا قرأتها ولعلها خطأ.

(٢) فى الأصلين: «وحب». وفى (م) ضبطت «جهاده» على الإضافة.

(٣) فى (م، د): «صاحبنا».

وكذلك إذا بغضت الأعداء أَبْغَضُوكَ لا شَك؛ لأن نُفُوسَهُم وأهواءَهُم تقتضيهم ذلك.

ورُوى عن عيسى ﷺ: «إن الله تعالى قال: أحبُّ عبادى إلىَّ الذى يذكرنى بالأسحار، ويُبغِّض إلىَّ الفجَّار». معناه: أن يُظهر لهم البغض وينابذهم العداوة، حتى يبغضوه، فإذا بغضوه أبغضهم الله، فيكون قد بغضهم إليه بهذا المعنى، أى: كان سببَ عقوبة الله لهم بالبغض والمقت.

وقد كان الثورى يقول: إذا رأيت الرجل محبَّبًا إلى جيرانه فاعلم أنه منافق. وقال كعب الأحبار لأبى إدريس الخولانى، وكان من علماء الشام: كيف أنت فى قومك؟ قال: يحبونى ويكرمونى. قال كعب: ما صَدَقَتْنى التوراةُ إذن. قال: وما فى التوراة؟ قال: أجد فى التوراة أن الرجل العالِم العاملَ الآمرَ لا يحبه جيرانه. فقال أبو مسلم: بل صَدَقَتْك التَّوارة، وكذَبَتْنى نَفْسى. لأن العالِم يأمر جيرانه بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وينصح لهم، ولا يحبون الناصحين.

وقال بعض المريدين: قلتُ لبعض أهل المعرفة: إنى كثير الغفلة عن الله، قليل المسارعة إلى مرضاته، أوصنى بشىء أعمله أُدرك به ما يفوتنى من هذا. قال: يا أخى، إن استطعتَ أن تتحبَّب إلى أولياء الله وتتقرَّب من قلوبهم فافعل، لعلهم يحبونك فإن الله عز وجل ينظر إلى قلوب أوليائه فى كل يوم سبعين نظرة، فلعله أن ينظر إليك فى قلوبهم لمحبتهم لك، فيجيرك جيرة الدنيا والآخرة، إذا لم تكن ممن ينظر إليه كِفاحًا.

وكذلك يُقال: إن الله عز وجل ينظر إلى قلوب أوليائه الصدِّيقين والشهداء مُواجهةً، فهؤلاء الذين عرفوه به، لقربه منهم، ولدوام نظره إليهم، فهو وجهتهم. ثم ينظر إلى قلوب قومٍ فى قلوب قومٍ، وإلى قلوب قومٍ من قلوبٍ آخرين. فهؤلاء المجتهدون الذين عَرفُوه بهم، وأحبوه من محبتهم، فهو وجهتهم إليه، وأدلتهم عليه، فيعطيهم نصيبًا من نصيبهم، كما أعطاهم شهادةً من شهادتهم، ووَجْدًا من عِلْمهم.

فهكذا عندى من عزائم الدين، وسبيل الورعين، أن تتبغَّض إلى أعدائه،

وتمقَّت إليهم؛ من المبتدعين والفاسقين والظالمين؛ ليبغضوك ويمقتوك، فيكون لك من القُربة كحب أوليائه لك، وحبك لهم. فهذا من أسباب ولاية الله، ومن وثائق عُرى الدِّين. وقد روينا عن النبى ﷺ: «اللهم لا تجعل لفاجرٍ عندى يدًا فيحبه قلبى».

ووَصَل[1] بعضُ الأمراء أبا هريرة بألف دينار، وعشرة أثواب، فردَّها عليه. وقال: ما كنتُ لأقبل منه، يأخذ المال من غير حِلِّه، ويضعه فى غير حقه.

وقد قال رسول الله ﷺ: «رُدُّوا هديةَ الفاجرِ عليه، لا يَرى أنَّكمُ تَرْضَوْن عَمَلَهُ».

فمن[2] أخلاق الله سبحانه وتعالى أنه يُبغض من أبغض أوليائه، كما يؤذيه من آذاهم، ولا يحب من أحْزنَ أولياءه، كذلك يَسرُّه مَنْ يسرهم. وروينا عن بعض الجبابرة من العُتاة فى فرط كرم الله تعالى، وغاية حلمه، أن جبَّارًا من الملوك قحطتْ رعيتُه، فشكوا إليه، فخرج بهم إلى الصحراء، فرفع رأسه إلى السماء، وقال: يا ساكن السماء، لتَسْقِينا الغيث أو لَنُؤذينَّك. فقال له وزراؤه: كيف تؤذيه، وهو فى السماء وأنت فى الأرض؟ فقال: أقتل أولياءَهُ من أهل الأرض، فيكون ذلك أذًى له. قال: فأرسل الله عليهم السماء بكرمه وجوده.

وروينا فى الحديث: «من أكرم مؤمنًا فإنما يكرم الله. ومن سرَّ مؤمنًا فقد سرَّ الله. ومن أهان لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة».

وكذلك فى تدبُّر الخطاب من تضادِّ الأوصاف: أنّ من أهان عدوًا لله فقد والاه، ومن ضرَّ كافرًا فقد تقرَّب إلى الله، مع قوله: ﴿ولا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغيظُ الكُفَّارَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وأقلُّ ما لك فى هذا الزهدُ، فى بابٍ كبيرٍ من أبواب الدنيا، إذ كانت المداهنة

(١) هذا لفظ المطبوعة، وعبارة (د، م): «وأهدى بعض الأمراء إلى . . . وقال: ما كان الله ليرانى أقبلها منه».

(٢) من هنا إلى قوله: «يغيظ الكفار» زيادة من (د، م).

والممالاة من أكبر أبواب الدنيا؛ لأن بذلك يستوى عيش أهل الدنيا، ويتم سلامتها لهم. فهذا هو الطرفُ الآخرُ من معنى قوله: «الحبُّ فى الله، والبغض فيه»، وهو وجهٌ غامضٌ، ومعناه: إذا كشف جليٌّ ظاهر، وهو موجود عند علماء الآخرة؛ لأنه من زاد طريقهم إليها، ومفقود عند علماء الدنيا؛ لأنهم لا يقدرون عليه، لما عليهم من حبِّها.

وقد جعل الله من أراد أن يحبه الفاسقون، ويأمن فيهم؛ وجعل من يسارع بالإدهان وإظهار المتابعة للظالمين، خشيةَ دَوْر الدوائر عليه، عَلَمَيْن من أعلام النفاق، فقال سبحانه: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩١]. وقال تعالى فى المعنى الثانى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعنى: المنافقين ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ يعنى: يواطئون الكافرين سرًا ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أى: نخاف أن تكون الدولة للكافرين على المؤمنين، ثم قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ [المائدة: ٥٢] الآية. فينبغى لمن آمن فى المؤمنين وأهل السنة وأحبوه، أن يخاف فى المنافقين وأهل البدع أن يبغضوه. وينبغى لمن سارع فى مواطأة المؤمنين أن يَنِى ويُبَطِّئَ فى مداهنة الظالمين ومتابعتهم، حتى يخلص له إيمانه من النفاق، وتستقيم طريقه من الضلال. وقد نفى الله الإيمان عمن أحبَّ مَنْ حادَّه، وأثبت الإيمان والتأييد باليقين لمن أبغض فيه أعداءه، فقال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.

فأمّا من قال من الجاهلين بأن الرضا قد يكون بالمعاصى منه، أو من سواه، كما يكون فى الطاعات، فقد جعل المعاصى والمخالفات من القربات، وسوَّى بينهما. وفى هذا هدم شرائع الأنبياء، وإبطال تفصيل الله ما أحلَّ لنا مما حرَّم علينا، وما أمرنا به مما نهانا عنه، وقد يتقرب إلى الله ببغضه، وبغض مَنْ أحبه.

وقد روى فى خبر: «من شرِّ الناس منزلةً عند الله مَنْ يقتدى بسيئة المؤمن ويترك حسنته».

وقال بعض العلماء: من حمل شاذَّ العلماء فقد حمل شرًا كثيرًا.

ومن حُسن الأدب فى المعاملة، إذا عملت صالحًا، فقل: يا سيدى، أنت استعملتنى، وبحولك وقوتك وحسن توفيقك أطعتُك؛ لأن جوارحى جنودك. وإذا عملتَ شيئًا، فقل: ظلمتُ نفسى، وبهواى وشهوتى اجترحت بجوارحى، وهى صفاتى. ثم يعتقد فى ذلك أنه بقدره ومشيئته كان ما قضاه، فتكون بالمعنيين قد وافقت مرضاة مولاك، وتكون فى الحالين عاملاً بما يرضيه بالقول والعقود، وينتفى عنك العُجب فى أعمال بِرِّك، ويصح منك المقت لنفسك، واعترافك بظلمك.

وقد تُقْلَبُ هذه المشاهدة على الجاهل، فإذا عمل حسنًا، شهد نفسه، ونظر إلى حوله وقوته، فهلك بالكبر، وبطل عمله بالعُجب. وإذا عمل سيِّئًا، لم يعترف بالذنب، ولم يقرَّ على نفسه بالظلم، فلم تصحّ له توبة، ولم يرض له عملاً، نعوذ بالله من مشاهدة الضُّلاَّل.

وقال أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: إذا عمل العبد حسنة فقال: يا رب، أنت استعملتنى، شكر الله له ذلك، فقال: أنت عملت. فإذا نظر إلى نفسه فقال: أنا عملتُ، يقول الله: بل أنا استعملتُ. قال: وإذا عمل سيئةً فقال: أنت قدّرتَ، وأنت أردتَ، يقول الله تعالى: أنت ظلمتَ، وأنت عصيتَ بشهوتك وهواك. فإن قال العبد: ظلمتُ نفسى، وعصيتُ بجهلى، استحيا الله منه، فقال: بل أنا قدَّرتُ وأنا قضيتُ، قد غفرتُ لك باعترافك بالظلم على نفسك.

فهذه آداب العاملين ومشاهدة العالمين، وهذا داخلٌ فى قوله: «أعرفُكُم بربِّه أعرفكم بنفسه». فكذلك يحب ابن آدم ممن عامله الاعتراف والتواضع. وهذا أيضًا أحد المعانى فى قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة:١٠٢]. قيل: هو الاعتراف عقيب العمل السيىء؛ لأنه قد تقدم ذكره فكان الصالح بعده اعترافه.

فأما من قُلبت عليه هذه المعانى، فجهل عواقب الأمور، وغلبت عليه الغفلةُ،

واستحوذت عليه الجهالةُ، فجعل ينظر إلى من فوقه فى الدنيا، فيغبطه على حاله، أو يتمنى مكانه، أو يدخله نظره إليه فى استصغار نعمة الله عليه، ويزدرى يسير ما قَسَمه الله له، ثم ينظر إلى من دونه فى الدين من عموم المسلمين، فيرضى بنقصان مقامه، ويجعل ذلك معذرةً له وحجة وتأسيًا به، ويُثبِّطه عن المسارعة إلى القُربات، ولعله أن يداخله العُجْب والكبر حتى يتفضَّل عليه بحاله، أو ينظر إلى نفسه بأعماله، لتقصير غيره عن مثل فعاله. فهذا إذًا يُكتب جَزُوعًا عن الصبر، كفورًا للنِّعمة بإضاعة الشكر؛ لأنه ليس بصابرٍ ولا شاكرٍ، على ضدِّ الوصف الذى رويناه قُبيل من نَعْتِ الصابر والشاكر. وهذا وصف من أوصاف المنافقين، وهو مقام الهالكين، إذ الصبر والشكر من صفات المؤمنين، وهما حالا المتقين. وفى الخبر المشهور، عن أبى ذرٍّ الغفارىِّ، رحمه الله: «أوصانى رسول الله ﷺ بحُبِّ المساكين، والدُّنوِّ منهم، وأن أنظر إلى من هو دُونى، ولا أنظر إلى من فوقى، فذلك أجدر أن لا أزدرى نعمة الله علىَّ».

وقد وُصف هذا البلد بمثل هذه المعانى، والله المستعانُ. قد حدَّثونا عن عبد الله ابن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: طُفتُ الشَّرق والغرب، فما رأيتُ بلدًا شرًا من بغداد. قيل: وكيف ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هو بلدٌ تُزدرَى فيه النِّعمة، وتُستَصغَرُ فيه المعصيةُ. وحدّثونا عنه أنه قيل له لـمَّا قَدِمَ خراسان: كيف رأيت الناس ببغداد؟ قال: ما رأيتُ بها إلاّ شُرطيًّا غضبان، أو تاجرًا لهفان، أو قارئًا حيران.

وقيل: إنه كان يتصدق كل يوم بدينار؛ لأجل مقامه ببغداد، إلى أن يخرج إلى مكة. فبلغنى أنه كان يقيم معه الحاج ستة عشر يومًا، يتصدق بستة عشر دينارًا؛ كفارة لمقامه.

وقد وصفها الشافعى أنها هى الدنيا. فروينا عنه أنه قال: الدنيا كلها بادية، وبغداد حاضرتها.

وروينا عن يونس بن عبد الأعلى، قال: قال لى الشافعى: يا يونس، رأيتَ بغداد؟ قلتُ: لا. قال: ما رأيتَ الدنيا، ولا رأيتَ الناس.

وقد ذم العراق جماعةٌ، منهم عمرُ بن عبد العزيز، وكعب الأحبار. فروينا عن عمر أنه قال لمولى له: أين تسكن؟ قال: العراق، قال: وما تصنع هناك؟ بلغنى أنه ما من أحد سكن العراق إلا قُيِّض له قرين من البلاء.

وذكر كعب الأحبار العراق يومًا فقال: فيه تسعة أعشار الشر، وفيه الداء العضال. وكان قد قال ذلك لعمر بن الخطاب، فنهاه عن الخروج إلى العراق. وهكذا كان. فقال أيضًا: قُسِم الخير عشرة أجزاء، فجُعل تسعة أعشاره بالشام، وعشرهُ بالعراق. وقُسم الشرُّ عشرة أجزاء، فجُعل تسعة أعشاره بالعراق، وعشره بالشام.

قال: وكنا عند الفضيل بن عياض يومًا، فجاءه بعض الصوفية متدرِّعًا بعباءة، فسلَّم عليه الفضيل، وأجلسه إلى جانبه، وأقبل عليه بوجهه. ثم قال له: أين تسكن اليوم؟ فقال: بغداد. فأعرض عنه الفُضيل، ثم قال: يأتينا أحدكم فى زىِّ الرُّهبان، فإذا سألناه أين تسكن، قال: فى عُشِّ الظَّلَمة.

وقد كان بشر بن الحارث يقول: مَثَلُ المتعبِّد ببغداد مَثَل المتعبِّد فى الحَش[1]. وكان يقول: لا تقتَدُوا بى فى المقام ببغداد، من أراد أن يخرج فليخرج.

وكان أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ يقول: لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا، كان الخروج من هذا البلد آثر فى نفسى. قلنا: أين تختار السكنى؟ قال: بالثُّغور.

فأمّا معروف الكرخى فإنه أفصح بها، كان يقول: أما أنا فقد أُمرتُ أن أموت ببغداد.

وهؤلاء الثلاثة ـ رحمهم الله تبارك وتعالى ـ من خيار أهل هذا البلد، وهم من أبدال الصِّدِّيقين.

ومن سكن بلدًا، كثيرَ المنكر، ظاهر المعاصى، فكان منزعجًا فيه غير مطمئن إليه، يرغب إلى الله عز وجل فى إخراجه منه؛ لحسن اختياره له، وكان مضطرًا فى المقام فيه؛ لعيلة ثقيلة، أو قلة ذات يد حقيقة، لا يستطيع حيلةً فى الخُروج،

(١) الحش: مكان قضاء الحاجة. الجمع: حُشوش، وحِشَّان.

ولا يعرف طريقًا، وهو على يقينٍ من سلامة دينه فيه، فإنه معذور عند الله؛ لحسن تفضُّل من الله، وحسن نيته. وهو أقرب إلى العفو والسلامة ممن اغتبط بمقامه، واطمأنَّ ورضى بحاله، أو كان مقامه على هوًى، أو لاختلاف أسباب الفتنة والدنيا.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. فى التفسير: إذا كنت فى بلد يُعمل فيه بالمعاصى، فتحوَّل منه إلى غيره. وقيل: إذا كان العبد فى بلدٍ مَنْ يعمل فيه بالمنكر والمعاصى أضعف، أو أقل من أهل الدين والمعروف، ثم لم يُنكر ذلك، فقد وجب الخروج منه.

وقال عز وجل فى قوم من المستضعفين عَذَرهم، وأرجى إلى العفو أمرهم: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥]. وقال تعالى فى تمام وصفهم واستثنائهم من غيرهم: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٨ ـ ٩٩].

ألا ترى كيف أخبر بترك رضاهم بالمقام، وبانزعاجهم وطلبهم الخروج، فبذلك عَذَرَهم. وقال بعضهم[(١)]: بلغنى أن أحمد بن الأسود الدينورى ـ رحمة الله ـ دخل بغداد عند عوده من الحج، فلم يقم بها، بل خرج إلى النهروان، وأقام بها إلى أن خرج الحاجُّ، فسار معهم، وكان من الأبدال رحمه الله.

ولا يصحّ الرضا إلا بالعصمة من جميع الهوى، وأول الرضا القناعة. وقال بعض أهل المعرفة: لا يكون العبد قانعًا، حتى لو جاء إلى باب منزله جميعُ ما يرغب فيه أهل الدنيا من الاتساع والنعمة، فعُرِض عليه، لم ينظر إلى ذلك، ولم يفتح بابه قناعةً منه بحاله. والعصمةُ حال الراضى عن الله عز وجل، وهى ظاهرُ الرحمةِ. والرحمة أول الرضا من الله تعالى، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ

(١) هذا الخبر من (د) فقط.

النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوء إلاّ مَا رَحِمَ ربِّى﴾ [يوسف:٥٣]. وقال تعالى: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ الله إلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾ [هود:٤٣]. فالعصمة من الله لعبده دليلٌ على الرحمة منه، ثم تُدخله فى مقام المحبة، وهى رحمةُ المحبوبين، ثم ترفعه المحبةُ إلى الرضا؛ فتكون المحبة مقامه عن شهادة محبوبٍ، ويكون الرضا حالَهُ فى جميع تصريف البعيد[١] والمطلوب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

آخر كتاب الرضا، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبى وعلى آله وصحبه وسلم[٢].

* * *

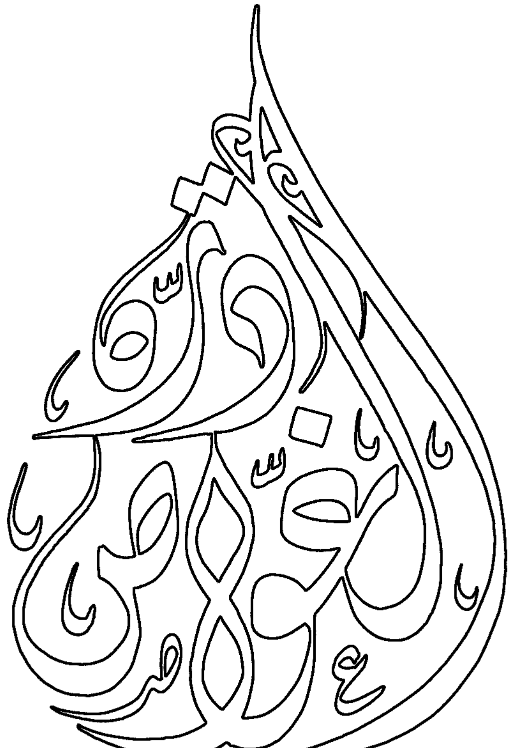

(١) فى المطبوعة: «تصريف البقية» وأثبت ما فى (د، م).

(٢) هذه الخاتمة من (د).

ذكر أحكام المحبة، ووصف أهلها
وهو المقام التاسع من مقامات اليقين

المحبة من أعلى مقامات العارفين، وهى إيثارٌ من الله تعالى لعباده المخلصين، ومعها نهاية الفضل العظيم. قال الله جلت قدرته: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]. ثم قال تعالى: ﴿ذلكَ فَضْلُ الله يُؤْتيهِ مَنْ يَشاءُ﴾ [الحديد: ٢١]. وهذا الخبر متصلٌ بالابتداء فى المعنى؛ لأن الله تعالى وصف المؤمنين المحبين بفضله عليهم، وما اعترض بينهما من الكلام فهو نعتُ المحبوبين.

وروى عن النبى ﷺ: «ما كان اللهُ ليعذِّب حبيبَهُ بالنّارِ». وقال الله عز وجل مصداق قول نبيه عليه السلام، ردًا على مَن ادّعى محبته، واحتجاجًا عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

وقال زيد بن أسلم: «إنّ الله ليُحبُّ العبدَ حتى يبلغَ من حُبه له أن يقول: اصنعْ ما شئتَ فقد غفرتُ لك».

وروينا عن إسماعيل بن أبى زياد عن أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحبَّ اللهُ عبدًا لم يضرّه ذنبٌ، والتّائبُ من الذنب كمن لا ذنب له، ثم تلا: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقد اشترط اللهُ للمحبة غفران الذنوب بقوله تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. فكلُّ مؤمنٍ بالله فهو محبٌّ لله، ولكن محبته على قدر إيمانه، وكشف مشاهدته، وتجلِّى المحبوب له على وصفٍ من أوصافه، دليل ذلك استجابتُهم له بالتوحيد، والتزامُ أمره، وتسليم حكمه. ثم تفاوتُهم فى مشاهدات التوحيد، وفى دوام الالتزام للأوامر، وفى تسليم الأحكام(١)، فليس ذلك يكون إلا عن محبة. وإن تفاوت المحبون على حسب أقسامهم من المحبوب، وليس

(١) فى (د، م): «فى التزام الأمر، وفى تسليم الحكم».

يصغر[١] عن المحبة صغير، كما لا يصغر عن المعرفة من عرف، ولا يكبر عن التوبة كبيرٌ، ولو كان على كلِّ العلوم قد أُوقف؛ لأن الله تعالى وصف المؤمنين بشدَّة الحُبِّ له فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾ [البقرة:١٦٥]. وفى قوله ﴿أشدُّ﴾ دليل على تفاوتهم فى المحبة؛ لأنّ المعنى أشدٌّ فأشدُّ، ولم يقل: شديدُ الحبِّ لله. فأشبه هذا الخطاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]. فدل على تفاوتهم فى الإكرام على قدر تفاضُلهم فى التقوى، ولم يقل: إن الكرام المتقون.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «إنّ اللهَ يُعطى الدنيا من يُحبّ، ومن لا يحب، ولا يُعطى الإيمان إلاّ من يحب».

فالمؤمنون متزايدون فى الحبِّ لله عز وجل عن تزايدهم فى المعرفة به، والمشاهدة له. وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان بالله من غير خبر عنه. وقال أبو رُزَين العقيلى: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليك مما سواهما». وفى حديث: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما». وفى خبرٍ آخر، أشد توكيدًا وأبلغ من هذين قوله: «واللهِ، لا يؤمن العبدُ حتى أكون أحبَّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين». وفى خبر آخر: «ومن نفسك». وقد أمر ﷺ بالمحبة لله فيما شرعه من الأحكام، فقال: «أحبُّوا اللهَ لما أَسْدَى إليكم من نِعَمِه، وأحبونى لحب الله»، فدل ذلك على فَرْض الحبِّ لله، وإن تفاضل المؤمنون فى نهايات فضائله. ومن أفضل ما أسدى إلينا من نعمه المعرفةُ به، فأفضلُ الحبِّ له ما كان عن المشاهدة.

والمحبون لله على مراتب من المحبة؛ بعضها أعلى من بعضٍ، فأشدُّهم حبًا لله أحسنهم تخلُّقًا بأخلاقه، مثلُ العِلم، والحلم، والعفو، وحسن الخلق، والستر على الخلق، وأعرفهم بمعانى صفاته، وأتركهم منازعة له فى معانى الصفات، كى لا يشركوه فيها، مثل: الكبر، والحمد، وحبّ المدح، وحبّ الغنى، والعز، وطلب

(١) فى المطبوعة: «يقصر».

الذكر، ثم أشدهم حبًا لرسوله، إذ كان حبيب الحبيب، وأتبعهم لآثاره، وأشبههم هديًا بشمائله.

وقد روى أن رجلاً قال: يا رسول الله، إنى أحبك، فقال: «استعد للفقر». فقال: إنّى أحب الله، فقال: «استعد للبلاء». والفرق بينهما أن البلاء من أخلاق المبلى، وهو الله تعالى المبتلى. فلما ذكر محبته أخبره بالبلاء؛ ليصبر على أخلاقه، كما قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:٧]، فدل على أحكامه وبلائه. والفقر من أوصاف رسول الله ﷺ. فلما ذكر محبته دله على اتباع أوصافه ليقتفى آثاره؛ لقوله عليه السلام: «أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا واحْشُرنى فى جُملة المساكين».

ومن علامة المحبة كثرة ذكر الحبيب، وهو دليلُ محبة المولى لعبده، وهو من أفضل مِنَنه على خلقه. وفى الخبر: «إن لله فى كل يوم صدقةً يَمُنُّ بها على خلقه، وما تصدَّق على عبدٍ بصدقةٍ أفضل من أن يُلهِمَهُ ذِكرَهُ».

وفى حديث سفيان عن مالك بن معول قيل: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: «اجتنابُ المحارم، ولا يزال فُوك رَطبًا من ذِكْر الله».

وقد أمر النبى ﷺ بكثرة الذكر لله، كما أمر بمحبة الله؛ لأن الذكر مقتضى المحبة، فقال: «أكثرْ من ذكر الله، حتى يقول الناسُ إنّك مجنون». وقد روينا: «أكثروا من ذكر الله، حتى يقول المنافقونُ إنكم مراؤون».

وفى حديث أبى سلمة المدنى عن أبيه عن جده: أتانا رسول الله ﷺ ذات يوم إلى مسجد قباء، فذكر حديثًا فيه طول، قال فى آخره: «مَنْ تواضع لله رفعه، ومن تكبّر وضعه، ومن أكثر ذكر الله أحبه الله».

وقد أخبر أن الذاكرين هم السابقون المفردون، ورفعهم إلى مقام النبوة فى وَضْع الوِزْر ورَفْع الذكر، إذ كان الذكر موجب الحب، فى قوله: «سيروا سبق المفردون. قيل: مَن المفردون؟ قال: المستهترون بذكر الله، وضع الذكر عنهم أوزارهم، يَرِدُون القيامة خفافًا».

ومن أعلام المحبة: حبُّ لقاءِ الحبيب على العيان، والكشف فى دار السلام

ومحل القُرب، وهو الاشتياقُ إلى الموت؛ لأنه مفتاح اللقاء، وباب الدخول إلى المعاينة. وفى الحديث: «من أحب لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقاءه».

وقال حذيفة عند الموت: حبيبٌ جاء على فاقة، لا أفلح من ندم. وقال بعض السلف: ما من خصلة أحب إلى الله تكون فى العبد بعد حبٍّ لقائه من كثرة السجود. فقدم حبَّ لقاء الله.

وقد شرط الله لحقيقة الصدق القتلَ فى سبيله، وأخبر أنه يحب قتل محبوبه فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤]. بعد قوله تقريرًا لهم: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢] حيث قالوا: إنا نحب الله، فجعل القتل محنة محبته وعلامة أخذ مال محبوبه ونفسه، إذ يقول تعالى: ﴿يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة:١١١].

وفى وصية أبى بكرٍ لعمر رضى الله عنهما: «الحقُّ ثقيلٌ؛ وهو مع ثقله مَرِئٌ، والباطلُ خفيفٌ؛ وهو مع خفته وبئ. فإن حفظت وصيتى، لم يكن غائبٌ أحبَّ إليك من الموت، وهو مُدركك، وإن ضيَّعتَ وصيتى، لم يكن غائبٌ أبغض إليك من الموت، ولن تُعْجِزَه».

وكان الثورى وبشر بن الحارث يقولان: لا يكره الموت إلا مريب. وهو كما قالا؛ لأن الحبيب على كل حالٍ لا يكرهُ لقاءَ الحبيب.

وفى الخبر المشهور؛ أنّ إبراهيم قال لملك الموت، إذ جاءه لقبضه: هل رأيت خَليلاً يُميتُ خَليله؟! فأوحى الله إليه: فهل رأيت مُحِبًّا يكره لقاء حبيبه؟! فقال: يا ملك الموت، الآن فاقبض.

وهذا لا يجدُهُ إلا عبدٌ يحب الله بكلِّ قلبه، عندها يشتاق إليه مولاه، فينزعج القلب لشوق الغَيْبِ، فيحبّ لقاءه.

وقال البويطى لبعض الزهاد: أتحبُّ الموتَ؟ فكأنه توقف، فقال: لو كنتَ صادقًا لأحببته، ثم نَزعَ بهذه الآية: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة:٦]. فقال

الرّجل: فقد قال النبى ﷺ: «لا يتمنى أحدُكُم الموت»، فقال: إنما قال: «لضرٍّ نزل به».

وهذا كما قال البويطى؛ لأن التائب إذا صدقت توبته طلب الموتَ، خشية الحَوَلِ عن حاله، فإن كان كذلك، كان هو التائب الذى هو حبيب الله. إلاّ أنّ مقام الرضا أعلى من مقام تمنى الموت، فلذلك قال الرسول: «لا يتمنى الموت للضُّرِّ ينزل به» أى: رضاه بقضائه أفضل من تمنى لقائه، ليُقبض على مقام الرضا.

وروى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، لما زوَّج أخته فاطمة بنت عتبة بن ربيعة من سالم مولاه، عاتبته قريش فى ذلك، وقالوا: أنكحتَ عقيلةً من عقائل قريش بمولى؟! فقال: واللهِ لقد أنكحتُه إياها، وإنى لأعلم أنه خير منها. فكان قولُه أشد عليهم، قالوا: وكيف؟ وهى أختك، وهو مولاك! فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أراد أن ينظر إلى رجلٍ يحبُّ الله بكلٍّ قلبه فلينظر إلى سالم».

ففيه دليله: أن من المؤمنين من يحب الله ببعض قلبه، فيؤثره بعض الإيثار، ويوجد فيه محبةُ الأغيار. ومنهم من يحبه بكل قلبه، فيؤثره على ما سواه، فهذا عابده ومألوهه الذى لا معبود له ولا إله إلا إياه. وفيه دليلٌ على أنهم على مقامات فى المحبة، عن معانى مشاهدات الصفات، ما بين البعض فى القلوب والكلية.

وقد كان نعيمان يُؤتى به رسولَ الله ﷺ، فيجده فى معصية يرتكبها، إلى أن أُتى به يومًا، فحدَّه، فلعنه رجلٌ، وقال: ما أكثر ما يُؤتى به رسول الله ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: «لا تفعل، فإنه يحب الله ورسوله». فلم يخرجه من المحبة مع المخالفة.

وقد قال بعض العارفين: إذا كان الإيمانُ فى ظاهر القلب ـ يعنى على الفؤاد ـ كان المؤمن يحب الله حبًا متوسطًا، فإذا دخل الإيمان باطن القلب، فكان فى سويدائه، أحبه الحبَّ البالغ.

وعلامة ذلك أن ينظر؛ فإن كان يُؤثر الله على جميع هواه، ويغلِّب محبته على هوى العبد، حتى تصير محبة الله هى محبة العبد من كل شىء، فهو محبٌّ لله حقًا، كما أنه مؤمن به حقًا، عن مشاهدة اليقين الذى يغلِّب رؤيته على رؤية الخَلْقِ، فيشهده فى كلِّ شىءٍ، ويكون واجدًا به دون كل شىءٍ، إذ قد تجلّى لمن أيقن بكل شىء.

وإن رأيتَ قلبك دون ذلك، فلك من ذوق محبة سواه بقدر ما لك من شَوْب اليقين مُمتزجًا بشهادة الخلق والوجد بهم، دون الخالق، وذلك أيضًا عن خالص شهادة التوحيد، ومن المحبة بقدر ذلك له فى مقامات الخالصين، أو مشُوبًا بالشرك الخفى بالنظر إلى الأواسط والثوانى فى إخلاص عموم المخلصين.

فأدل علامات المحبة الإيثارُ للمحبوب على ذخائر القلوب؛ ولذلك وصف اللهُ المحبين بالإيثار، ووصفه العارفون بذلك، فقال تعالى فى وصفه المحبين: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فى صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ ، ثم قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩]. وقال فى وصفه: ﴿تالله لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَينا﴾ [يوسف: ٩١].

وقال بعض العلماء: إن ظاهر القلب محلُّ الإسلام، وإن باطنه مكان الإيمان. فمن ههنا تفاوت المحبون فى المحبة؛ لفضل الإيمان على الإسلام، وفضل الباطن على الظاهر. وفرّق بعض علمائنا البصريين بين القلب والفؤاد، فقال: الفؤاد مقدم القلب وما استدق منه، والقلب أصله وما اتسع منه. وقال مرة: فى القلب تجويفان، فالتجويف الظاهر هو الفؤاد وهو مكان العقل، والتجويف الباطن هو القلب وفيه السمع والبصر، وعنه يكون الفهم والمشاهدة، وهو محلُّ الإيمان. وقد قال الله: ﴿كَتَبَ فى قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقال: ﴿إِنَّ فى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كانَ له قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فمحبة الإسلام مفترضة على الخلق، وهى متصلة بأداء الفرائض واجتناب المحارم؛ طاعةً لله ومحبةً له. فأما محبةُ المقربين، فعن مشاهدة معانى الصفات،

وبعد معرفة أخلاق الذات، فعبادةُ أولئك بالعادات واللجاجات، وعبادة المحبين للإجلال والحبّ والتعظيم، وهى مخصوصة لمخصوصين. والأصلُ فى هذا أن المحبة، إذا كانت عن المعرفة، وأنّ المعرفة عمومٌ وخصوصٌ؛ فلخُصوص العارفين خاصيَّة المحبة، ولعُمومهم عمومُ المحبة.

ويروى فى الأخبار السالفة: أن زليخا لما آمنت، وتزوَّج بها يوسفُ عليه السلام، انفردت عنه، وتخلت للعبادة وانقطعت، فكان يدعوها إلى فراشه نهارًا، فتُدافعه إلى الليل، فإذا دعاها ليلاً سوَّفَتْهُ نهارًا. فقالت: يا يوسف، إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه، فأما إذ عرفته، فما أبقت محبته محبةً لسواه، وما أريد به بدلاً. حتى قال لها: فإن الله أمرنى بذلك، وأخبرنى أنّه مخرج منكِ ولدين، وجاعلهما نبيين. فقالت: أما إذا كان اللهُ أمرك بذلك، وجعلنى طريقًا إليه، فطاعةً لأمر الله، فعندها سكنت إليه.

وقال بعض العلماء بالله: إذا تمَّ التوحيدُ تمت المحبة، وإذا جاءت المحبة تمَّ التوكُّل، فتمَّ إيمانه، وخلُص فرضه، وسُمِّى ذلك يقينًا.

وقال الفضيل بنُ عياض فى فرض المحبة: إذا قيل لك: تحب الله؟ فاسكت، فإن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، فليس وصفُك وصف المحبين، فاحذر المقت.

وقال بعض علمائنا: ليس فى الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة، ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة، ولم يتحقق بشىء من ذلك. وقال عالمٌ فوقه: كلُّ أهل المقامات يُرجى أن يُعفى عنهم، ويُسمح لهم، إلا من ادعى المعرفة والمحبة، فإنهم يُطالَبون بكل شعرةٍ مطالبةً، وبكل حركة وسكونٍ، وكلِّ نظرةٍ وخطرة لله، وفى الله، ومع الله.

واعلم أن المحبة من الله لعبده ليست كمحبة الخلق، إذ محبة الخلق تكون حادثة لأحد سبع معانٍ: لطبع، أو لجنس، أو لنفع، أو لوصف، أو لهوًى، أو لرحمٍ ماسَّةٍ، أو لتقرُّب بذلك إلى الله. فهذه حدود الشىء الذى يشبهه الشىء، والله يتعالى عن جميع ذلك، لا يوصف بشىء منه، إذ ليس كمثله شىء فى كل شىء،

ولأن هذه أسباب محدثة فى الخلق، لمعان حادثة ومتولدة من المحبين، لأسباب عليهم داخلة. وقد تتغير لتغيُّر الأوقات، وتنقلب لانقلاب الأوصاف. ومحبة الله سابقة للأسباب عن كلمته الحسنى، قديمةٌ قبل الحادثات عن عنايته العليا، لا تتغير أبدًا، ولا تنقلب لأجل ما بدا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء:١٠١]، يعنى: الكلمة الحسنى، وقيل: المنزلة الحسنى، فلا يجوز أن يسبقها سابق منهم، بل قد سبقت كل سابقةٍ تكون، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥١]. وكذلك قال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨]. وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢]. وقال تعالى فى آخر آياتهم: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥].

ولا يصلح أن يكون قبل قَدَمه الصدق منهم قَدَم، كما لا يصلح أن يكون قبل علمه بهم منهم عملٌ؛ لأنّ علمه سبق المعلومَ، ومحبته لأوليائه سبقت محبتهم إياه، ومعاملتهم له. ثم هى مع ذلك خاصية حكمٍ من أحكامه، ومزيدٌ من فضل أقسامه، وتتمةٌ من سابغِ إنعامه، خالصةٌ لمخلصين، ومؤثرة لمؤثرين، بقَدَم صدق سابق لخالصين، يؤول إلى مقعد صدق عند صادق لسابقين، ليس لذلك سببٌ معقول، ولا لأجل عمل معمول، بل يجرى مجرى سر القدر، ولطف القادر، وإفشاءُ سرِّ القدر كفرٌ، ولا يعلمه إلا نبى، أو صدِّيق، ولا يطلع عليه مَنْ يُظهره، وما ظهر فى الأخبار من الأسباب، فإنما هو طريق الأحباب، ومقامات أهل القُرب من أُولى الألباب، فإنما هى تبصرة وذكرى للمنيبين، وتزودًا وبلاغًا للعابدين. وإنما تستبين المحبةُ وتظهرُ للعبد بحسن توفيقه، وكلاءة عصمته، ولطائف تعليمه من غرائب علمه، وخفايا لطفه، فى سرعة ردهم إليه فى كل شىء، ووقوفهم عنده، ونظرهم إليه دون كل شىء، وقُربه منهم أقرب من كل شىء، وكثرة استعمالهم لحسن مرضاته، وكشف اطلاعهم على معانى صفاته، ولطيف تعريفه لهم مكنونَ أسراره، وفتوحَه لأفكارهم من بواطن إنعامه، واستخراجه منهم

خالص شكره وحقيقة ذكره.

فهذه طرقات المحبين له عن كشوف اطلاعه لهم من عين اليقين. يقال: إذا أحب الله عبدًا استخدمه؛ فإذا استخدمه اقتطعه. وقيل: إذا أحب اللهُ عبدًا نظر إليه، وإذا نظر اللهُ إلى عبدٍ لم يعذبه. وعلامةُ من نظر إليه ألا ينظر إلى سواه، ولا ينظر إلا به عنه، وهذه نظرة خاصة عن محبة مخصوصة. وروى بعض هذا عن رسول الله ﷺ.

وروينا فى الخبر: «إذا أحب الله عبدًا ابتلاه، وإذا أحبه الحبَّ البالغ اقتناه. قيل: وما اقتناؤه؟ قيل: لم يترك له أهلاً ولا مالاً». هذا لئلا يكون أهله عنده فيميل إليهم، وينقلب إليهم مسرورًا، ولئلا يميل قلبه إلى ماله، فينقلب على وجهه محسورًا. فالمحبة مزيد إيثار من المحب الأول ـ وهو الله ـ لعبده، وأحكامٌ تظهر من المحبوب وهو العبد، فى حسن معاملته، أو حقيقة علم يهبه له. كما قال أخوة يوسف حين عرفوا فضل محبة الله ليوسف عليهم: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، ثم قالوا: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف:٩١]، فذكروا سالف خطاياهم وأنه آثره بما لم يؤثرهم به. فقال الله تعالى فى وصفه إياه: ﴿قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥]. وقال فى موهبته له: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢]. فذكر ما سلف من إحسانه لما آثره به.

وقالت الرسل: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم:١١]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

وفى الخبر: «إذا أحب اللهُ عبدًا ابتلاه ـ يعنى اختبره ـ فإن صبر اجتباهُ، وإن رضى اصطفاهُ».

وقال بعض العلماء: إذا رأيتَك تحبّه، ورأيتَهُ يَبْتليك، فاعلم أنه يريد أن يصافيَك. وقال بعض المريدين لأستاذه: قد طُولعتُ بشىءٍ من المحبة. فقال: يا بنى، هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرتَ عليه إياه؟ فقال: لا. فقال: فلا تطمع فى

المحبة، فإنه لا يعطيها عبدًا حتى يبلوَه.

ومن دلائل المحبة: حبُّ كلام الحبيب، وتكريرهُ على الأسماع والقلوب. وحدثونا عن بعض المريدين قال: كنت وجدتُ حلاوة المناجاة فى شرَهِ الإرادة، فأدمنتُ على قراءة القرآن ليلاً ونهارًا، ثم لحقتنى فترةٌ، فانقطعت عن التّلاوة. قال: فسمعت قائلاً يقول لى فى المنام: إن كنتَ تزعم أنك تحبنى، فلِمَ جفوتَ كتابى؟ أمَا ترى ما فيه من لطيف عتابى؟ قال: فانتبهتُ، وقد أُشرب فى قلبى محبةُ القرآن، فعاودت إلى حالى الأول.

وقد قال بعض العارفين: لا يكون العبدُ مريدًا حتى يجد فى القرآن كل ما يريد. وقد كان ابن مسعود يقول: لا على أحدكم أن يسأل على نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله.

ومن علامة حبِّ القرآن حبُّ أهل القرآن، وكثرةُ تلاوته آناء الليل وأطراف النهار. وقال سهل بن عبد الله: علامةُ حب الله حبُّ القرآن، وعلامة حبِّ القرآن وحبِّ الله حبُّ النبى عليه السلام، وعلامة حب النبى عليه السلام حبُّ السنّة، وعلامة حب السنة حبُّ الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادًا وبُلْغةً إلى الآخرة. وقال تعالى وهو أحسن القائلين: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِه فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]؛ أى لا يرتدون؛ لأنهم أبدالٌ من المرتدين، ولا ينبغى أن يكونوا أمثالهم. كما قال: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

ومن علامة محبة المولى تقديم أمور الآخرة فى كُلِّ ما يقرِّب من الحبيب على أمور الدنيا من كل ما تهوى النفس، والمبادرة بأوامر المحبوب ونوادبه قبل عاجل حظوظ النفس، ثم إيثار محبته على هواك، واتباعُ رسوله ﷺ فيما أمرك به ونهاك، والذلُّ لأوليائه من العلماء به والعاملين، ثم التعزز على أبناء الدنيا الموصوفين بها المؤثرين لها. كما قيل لابن المبارك: ما التواضع؟ فقال: التكبُّر على

المتكبرين. وقال الفتح بن شحرف العابد: رأيت عليَّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى النوم، فقلت: أنبئنى بحرف خير، فقال: ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء؛ رجاء ثواب الله، وأحسن من ذلك تيهُ الفقراء على الأغنياء ثقةً بالله.

وإنما وصف اللهُ أحباءه بالذلِّ للأولياء، والعزِّ على الأعداء؛ لأنّه يصف من يحبه بأحسن الأوصاف. فالذلُّ للحبيب حسنٌ، والعزُّ على العدو حسن، ومَثَلُ الذل للحبيب فى حسنه مَثَلُ الذلّ للعزيز، ومَثَلُ العز على العدو فى حسنه مثل العز على الذليل. فلذلك وصف الله محبَّه بالذل للولى وبالعز على العدو. وقُبحُ العزِّ على الحبيب كقبح الذل للعدو. والله لا يصف أولياءه بقبيح.

ومن علامات الحب: المجاهدة فى طريق المحبوب بالمال والنفس؛ ليقرُب منه، ويبلغ مرضاته، ويقطع كل قاطع يقطعه عنه بالمسارعة إلى قُربه. كما قال تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه:٨٤]. وكما أمر حبيبه ﷺ فى قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل:٨]. فيه معنيان، أحدهما: انقطع إليه انقطاعًا عما سواه بالإخلاص له، والأثرة على غيره. والأخرى: اقطع كلَّ ما قطعك عنه إليه، أى اقطع كل قاطع حتى تصل إليه. فهذان من أدل الدليل على المحبة. ثم أن لا يخاف فى حبه لومة لائم من الخلق لامهُ على محبته، أو على السلوك إليه بشق النفس، وهجران الدار، ورفض المال، ولا يرجو فى محبته مَدْحَ مادح، ولا يرغب فى حسن ثناء العباد بإيثارك له على الأهل والمال والدار. فبذلك فَضُلَ المجاهدون والأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان ابتغاء الفضل والرضوان، أولئك لهم عقبى الدار. ثم وجود الأنس فى الوحدة، والرَّوح بالخلوة، ولطف التملق فى المناجاة، والتنعُّم بكلامه، والرضا بمُرِّ أحكامه، ووَجْد حلاوة الخدمة، ورؤية البلاء منه نعمة، كما قال قائلهم:

فلو قطعتنى فى الحب إربًا   لَمَا حَنَّ الفؤادُ إلى سواكا

وكما قال الآخر:

فرَوْحى وريَحانى إذا كُنتَ حاضرًا   وإن غبتَ فالدنيا علىَّ محابسُ

إذا لم أُنافس فى هـــواك ولم أغِر عليك، فَفِيمَنْ ليتَ شِعرى أُنافسُ

وقال آخر منهم:

نحنُ فى مجلس السرور ولكنْ ليس إلاّ بكم يَطيبُ السُّرورُ
عيبٌ مـا نَحْنُ فيهِ يا أهلَ وِدِّى إنَّكم رغبتم وإنَّا حُضـــورُ
مـا نَعيمٌ يغيبُ عنه حبيبٌ بنعيـمٍ ولا يَتِـمُّ حُبـــورُ

وقد أحكم ذلك الحكيمُ منهم بقوله:

يا عَذابى وراَحتى مِن عـذابى أنتَ ما بى فكيفَ أكرهُ ما بى
لك منى الرّضـا مرادُك رائى ليس منّى أرى لحكمـك آبى

وبمعناه قال مثله:

يا مُرتجى بحُسنه من مَـلام سكَنَتْ بك مواعظُ النُّوَّام
يا سَقامى ويا شِفا السِّقام قد حلَتْ بك مرارةُ الأحكام

فهذه آياتٌ بيناتٌ فى قلوب الأحباب، وتبصرةً وذكرى لأولى الألباب.

وقال ثابت البنانى: كابدت القرآن عشرين سنة، وتنعَّمت به عشرين سنة.

ومن المحبة تركُ السكون إلى غير محبوبه، إذ هو السَّكَن. وقال أبو محمد: جنايةُ المحب عند الله أشد من معصية العامة، وهو أن يسكن إلى غير الله، ويستأنس بسواه. وفى قصة برخ العبد الأسود الذى استسقى به موسى عليه السلام: «إنّ الله تعالى قال لموسى: إنّ برخًا نِعْمَ العبدُ هو لى إلاّ أنّ فيه عيبًا. قال: يا رب، وما عيبه؟ قال: يعجبه نسيم السحر فيسكُن إليه، ومن أحبنى لم يسكن إلى شىء». فالسكون فى هذا الموضع الاستراحة إلى الشىء والأنسُ به، والسكونُ فى غير هذا الموضع النظرُ إلى الشىءِ والإدلال به والطمأنينة والقطع به.

ذكرتُ هذه الحكاية لبعض أهل المعرفة فقال: لم يرد بهذا برخًا إنما أراد به موسى، لأنه أقامه مقام المحبة، فاستحى أن يواجهه بذلك ـ أى لأنه عالم ـ

فعرَّضَ له ببرخ، أى وهو قد سمح لبرخ بذلك، إذ لم يوافقه عليه. وكان هذا جوابًا منه. ثُمَّ إنى سألته: لِمَ أخبر موسى بعيبه وهو يحبه دون أن يخبره هو بعيب نفسه؟ فأجاب بهذا: المقربون من المحبين إنما نعيمهم بالله، ورَوْحهم وراحتهم إليه، من حيث كان بلاؤهم منه، فإذا وجدوا ذلك فى سواه، كانت ذنوبًا لهم عن غفلةٍ أُدخلت عليهم، ليتوبوا منها إليه فيغفر لهم.

وروينا أن عابدًا عبد الله فى غيضةٍ دهرًا، فنظر إلى طير قد عشش فى شجرة يأوى إليها ويصفِّر عندها. فقال: لو حَوَّلتُ مسجدى إلى تلك الشجرة فكنتُ آنسُ بصوت هذا الطائر. قال: ففعل. فأوحى الله إلى النبى عليه السلام: «قل لفلانٍ العابد: استأنستَ بمخلوقٍ، لأحطنَّكَ درجةً لا تنالها بشىءٍ من عملك أبدًا».

فمِنْ صدْقِ المحبةِ وخالصِها الانقطاعُ إلى الحبيب بوجود نسيم الأنس به، ومصادفةُ الاستراحة والرَّوحُ عنده بمحادثة فى المجالسة، ومناجاةٌ فى الخلوة، وذوقُ حلاوة النعيم فى ترك المخالفة لغلبة حُبِّ الموافقة. كما أنشدنى بعضهم عن بعض المحبين:

ألذُّ جميلَ الصبرِ عمّا ألذُّهُ وأهوى لما أهواهُ تَركًا فأتركه

وقال نظيره فى مثله:

وأتركُ ما أَهْوَى لِمَنْ قد هَوِيتُه

وأرضى بما يَرضى وإنْ سَخِطتْ نَفْسِى

ثم الطمأنينةُ إلى الحبيب، وعُكوفُ الهمِّ على القريب، ودوامُ النظر إلى الرقيب، فإن كان الرقيب هو الحبيب، تمَّت النّعمة به، فلا يريد بذلك بدلاً، ولا يَبْغى عنه حِوَلاً؛ وقد جُمع لك المقامات، وأُعطيت من اليقين وصفين؛ لأنَّ مَن عرفه أحبّه، ومن أحبّه نظر إليه، ومن نظر إليه عكف عليه. أمَا فهمت هذا من قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧].

ومن فرائض المحبة وفضائلها: موافقةُ الحبيب فيما أحبَّ حبَّ الله. كما قال

عمر رضى الله عنه لصهيب: «رَحِمَ اللهُ صهيبًا، لو لم يخف الله لم يَعْصه». أى أن محبته له تمنعه من مخالفته عن غير خيفة، فهو يطيعه حبًا له. وكان صهيب يقول: إنه يستخرج منى حبى لربى شيئًا لا يستخرجه غيره. يعنى من معانى الصفات المخوفة، والأفعال المرجوَّة.

وقال بعض علمائنا: الإيثارُ يشهد للحب، فعلامةُ حبه إيثاره على نفسك. وقال: ليس كلُّ من عمل بطاعة الله صار حبيبًا لله، ولكن كلُّ من اجتنب ما نهى عنه صار حبيبًا.

وهذا كما قال؛ لأن المحبة تستبين بترك المخالفة، ولا تتبيَّن بكثرة الأعمال. كما قيل: أعمال البرِّ يعملها البر والفاجر، والمعاصى لا يتركها إلا صدِّيق. وقيل: أفضلُ منازل الطاعات الصبرُ على الطاعات، وإن الصبر على الطاعة يُضاعَف إلى سبعين، والصبر عن المعصية يُضاعَف إلى سبعمائة، كأنه أُقيم مقام المجاهد فى سبيل الله؛ لأن نفسه عدو لله تبارك وتعالى وله، فمخالفته هواها هو جهادها فى سبيل الله؛ لأنه يقع اختيارًا من الله، وضرورة من كلية النفس، فإذا ترك هواه فقد ترك نفسه، فأقل ما له فى ذلك الزهدُ فى الدنيا، والجهادُ فى سبيل الله، ومن أجل ذلك ضُوعفت حسناته إلى سبعمائة، ومن أجله ثبتت له المحبة؛ لدخوله فى أهل هذه الآية: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصف:٤]. وأيضًا فقد اندرج الخوف فى حاله، وهو مقام تالٍ، ففَضُلَ بفضل حبِّه ثانيه لترك المخالفة، ولذلك قال الله جلّ ذكره: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، ففضَّله على غيره بحبه.

وأعجب ما سمعتُ فى هذا: «أن موسى عليه السلام سأل الخضر: بأى شيء بلغت هذه المنزلة؟ فقال: بترك المعاصى كلها».

وقد كان أبو محمد يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة:١١١] قال: عيش نفوسهم الفانى، وهو عاجلُ حظوظهم من الشهوات.

ومن المحبة وجودُ الرَّوْح بالشكوى إليه، والاستراحة إلى علمه به وحده، وإخلاصُ المعاملة لوجهه، وحسنُ الأدب فيها، وهو الإخفاءُ لها، وكَتْمُ ما يحكم به من الضيق والشدائد، وإظهارُ ما يُنعَّم به من الإلطاف والفوائد، وكثرةُ التفكُّر فى نعمائه، وخفىِّ ألطافه، وغرائبِ صُنعه، وعجائبِ قدرته، وحسنُ الثناء عليه فى كل حالٍ، ونشرُ الآلاء منه والأفضال، والصبرُ على بلائه؛ لأنه قد صار من أهله وأوليائه. وقد يَعْسِف بأوليائه، ويَعنُف بأحبابه، لتمكُّنه منهم، ومكانتهم عنده، ولعلمه أنهم لا يريدون به بدلاً، ولا يبغون عنه حِولاً، إذ ليست لهم راحةٌ لسواهُ، ولا بُغيةٌ فى سواه، ولا لهم هِمَّة إلا إياه. كما قال بعض المحبين: ويلى منك، وويلى عليك، أفزع منك، وأشتاق إليك، إن طلبتُك أتعبتنى، وإن هربتُ منك طلبتنى، فليس لى معك راحةٌ، ولا لى فى غيرك استراحة.

وأُنشدتُ لقائلهم:

يا بَلائى ويا بَلا البـلاءِ   أنتَ دَائى فكيفَ أكرهُ دائى

وبمعناه قال نظيره:

لا تَطلُبَنَّ شِفًا عنـد غيـرهمُ   فليسَ يُحييك إلاّ من توفَّاكا

وقال المحب فى معناه:

إن شئتِ جُودى وإمّا شِئْتِ فامْتنعى   كلاهمـا مِنـكِ منسـوبٌ إلى الكَرَمِ

فأنتِ عنـدى وإن أورَثْتِنى سَقمًا   أحَـبُّ مِن غيـركم يَشْفى مِن السَّقَمِ

فاعتبروا يا أولى الأبصار، كما قال الخبيرُ البصيرُ منبِّهًا لأوليائه، ومعرِّضًا بمعان لأعدائه: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ إِبْراهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيه وقَوْمه مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنامًا فَنظَلُّ لَها عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُون * أَوْ يَنْفَعُونَكُم أَو يَضُرُّونَ**﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٣]. فالعكوفُ على السَّميع المجيب، الضارّ النافع، أحقّ. وقال فى معناه: ﴿**وانْظُرْ إِلَى إِلَهكَ الذى ظَلْتَ عَلَيْه عَاكِفًا**﴾ [طه: ٩٧]. فالنظر إلى الله البصير الحبيب أوْلى وأصدق.

ثم المسارعة إلى ما نُدب إليه من أنواع البرّ بوجود الحلاوة، وبشرح الصدر، كما جاء فى الأثر: «ولا يزال عبدى يَتَقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أُحبَّه». ثم الرِّضا بقضائه؛ لأنه مُستحسنٌ لأفعاله. ثم اللَّهَجُ بذكره ومحبة من يذكره، ومجالسة من يُذَكِّره، ودوام التشكِّى والحنين إليه، وخلوُّ القلب من الخلق، وسَبْقُ النظر إلى الخالق فى كلِّ شىء، وسرعةُ الرجوع إليه بكلِّ شىء، ووَجْدُ الأُنس به عند كل شىء، وكثرةُ الذكر له والتذكُّر بكل شىء.

ومن علامة المحبة طول التهجد. وروى عن الله سبحانه: «كَذَبَ من ادعى محبتى، إذا جنَّه الليلُ نام عنى». إلا أن بعضهم جعل سهر الليل فى مقامٍ بعينه. ذُكر له هذا الخبر، فقال: ذاك إذا أقامه مقام الشوق، فأما إذا أنزل عليه السكينة، وأواه بالأنس فى القُرب؛ استوى نومه وسهره. ثم قال: رأيت جماعة من المحبين، نومهم بالليل أكثر من سهرهم. وإمام المحبين وسيد المحبوبين رسول الله ﷺ كان ينام مثل ما يقوم، وقد يكون نومُه أكثرَ من قيامه، ولم يكن تأتى عليه ليلة حتى ينام فيها.

ومن المحبة الخروج إلى الحبيب من المال بالزهد فى الدنيا، والخروجُ إليه من النفس بإيثار الحق على جميع الأهواء. وقال الجنيد: علامة المحبة دوام النشاط والدؤوبُ بشهوةٍ، يَفتُر بدنه ولا يَفتُر قلبه. وقد قال بعض السلف: العمل عن المحبة لا يداخله الفتور. وقال بعض العلماء: والله ما استسقى محبٌّ لله من طاعته، ولو حلّ بعظيم الوسائل.

ومن المحبة التناصح بالحق والتواصى به، والصبرُ على ذلك. كما وصف تعالى الرابحين من الصالحين، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر: ٢ ـ ٣]. لأن المحبين له ليسوا كمن وصفه فى قوله تعالى: ﴿**يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ**﴾ [محمد: ٣٦ ـ ٣٧]؛ يعنى: إن يسألكم محبوبكُم من الأموال، ويستقصى عليكم، يخرج أحقادكم عليه. وروينا

فى مقرأ ابن عباس: ﴿ويُخرجْ أضغانَكم﴾ يعنى: الأموال(١).

فهؤلاء المتقون من عموم المؤمنين، تقواهم الشّرك بالصاحبة والولد، وإيمانُهم توحيده بالمُلك عن إله ثانٍ يضاهى الأحد الصّمد، إلاّ أنه أقامهم مقام الأُجَراء، فهم يعملون للأَجْر، فإن منعهم الأجرَ قعدُوا، فهم المسلمون، عِبادَتُهُم بالجوارح بلا قلب ولا وَجْد، فهم مُخلصون لا مُخلَصين، وهم مُخلَصون لا خالصين، أكثر عبادتهم عادةٌ، وأحبُّها حاجةٌ، وشرُّها شهوة، فهم من عبيد العَدَد، اتّخذوا أمْوالَهم دون الله تعالى عددًا. فلو لم يدخل على هؤلاء الضعفاء إلا الشّركُ بالأموال فى مَحبته، والشغلُ بها عن ذكر جلاله وعن معاملته، لخسروا ما ربح المخلصون من الأحباب، وفاتهم ما أدرك الصادقون من طوبى وحسن مآب. كيف وقد ابتُلوا بالداء العضال الذى ليس لهم منه انفصال؟ وهو قيامهم بحق مولاهم عليهم، بوجد طلب الآخرة، ولأجل النّوال، فالله تعالى يسأل أحبابه أموالهم وأنفسهم، حتى لا يبقى لهم محبوبٌ سواه؛ ولئلا يعبدوا إلا إياه، محبةً منه، وكشفًا لمحبتهم، واختبارًا لأخبارهم فى صدقهم وصبرهم؛ لأنه جواد مَلِك لا يسأل إلا كُلّيةَ الشىء وجُملتَه، وهو غيورٌ لا يحب أن يُشركه سواه فى محبته، فلا يصبر عليه إلا مَنْ عرفه، ولا يحبه إلا مَنْ صبر عليه، ولا يَرْضَى بحكمه فيه إلا مَنْ أيقن به. إلا أنه تعالى لا يسأل الجُملةَ كلها إلا من أحبَّه من كلِّ قلبه، لأنه يسرع إلى بَذْل ذلك مسرورًا به، ولا يغار إلا على من أحبَّهُ المحبةَ الخاصَّة، وذلك كلّه من نظام حكمته، وخُصوص رحمته، وغريب حُكمه، فهؤلاء هم المحبوبون من المحبين الذين لا يعملون للأجْر؛ لأنه أقامهم مقام العبيد، فهم المخلصون؛ لأنهم الخالصون، لا يعبدونه عادةً ولا حاجةً، عبادتُهُم للمحبة والتعظيم، بقلبٍ ووَجْدٍ مما سواه سليم، فمن يعلم ما أُخفى لَهم من قرّة العين عند معاينة العين؟

ووصف بعضُ العارفين صفةَ أهل المحبة الواصلين، فقال: جَدَّد لهم الوُدَّ فى كلِّ طرفةٍ بدوام الاتصال، وآواهم فى كنفِهِ بحقائق السّكون إليه، حتى أَنَّت

(١) فى الصفحات القادمة زيادات طويلة جدًا تصل إلى عدّة ورقات، من (م) فقط، ولا ألتزم الإشارة إليها فى كل موضع.

القلوب، وحنَّت الأرواحُ بالأشواق، وكان الحبُّ والشّوق منهم إشارةً من الحقّ إليهم عن حقيقة التّوحيد، وهو الوجودُ بالله تعالى، فذهب مُناهم، وانقطعت آمالهم عندما أبان منه لهم، فلو أن الحقَّ أمرَ جميعَ الأنبياء يسألون لهم؛ ما سألوه بعض ما أعدّ لهم فى قديم وَحدانيته، ودوام أزليَّته، وسابق عِلمه، فكان نصيبهم معرفتهم به، وتوحيدهم له، ثم أيَّد ذلك وحَصَّنه بالسُنَّة، ووهب لهم رَجْحان الرغبةِ والرهبة، وأعطاهم التَّحبُّب إليه والتقرُّب، ثم زادهم بَعْد ذلك إسباغ النعم، وإسبال السّتر، مع دوام حُسن الأمل فيه؛ لتمام ذلك، ومع هذا كله وقوعُ هممهم عليه، واجتماع أهوائهم فيه، فذلك تمامُ نعمته عليهم، ودوامُ كرامتِه لَهُم، وغايةُ الظَّفَر منهم، فصار بجسدهم من عبيده للعموم، وإذ رفع عن قلوبهم جميع الهموم، ورجحان عطائه أن أخفاهم فى الخفاء، وسترهم بأوصافهم عن الأولياء، وقد أُنشدتُ فى معنى ما وُصف:

كانتْ لِعَينِىَ أهواءٌ مفرَّقةٌ
فاستجمَعَتْ إِذْ رأتْك العينُ أهوای
فصار يَحسُدُنى مَن كنتُ أحسُدُه
وصِرتُ مَولى الوَرَى قد صِرتَ مولاى
تركتُ للناس دُنياهم ودِينَهُمُ
شُغُلاً بذِكْرك يا دِينى ودُنْيَای

وذكرَ بعضُ أهل المعرفة أهْلَ القُربِ، فقال: إنى لأجدُ الحُضورَ فأقول يا الله، أو يا رب، فأجد ذلك أثقلَ علىَّ من الجبال. قيل: ولم؟ قال: لأنَّ النداء يكون من وراء حجاب، فهل رأيتَ جليسًا يُنادى جليسَه؟ إنما هى إشاراتٌ وملاحظاتٌ ومُناغاةٌ ومُلاطَفاتٌ، ثم ذكر ما ذكر، إلا أنه مستعبدٌ أن يقول، ومأخوذٌ عليه أن يكون فقيهًا بما يقول، ولا يخرج من مَوضع القُرب، وإن وقع عليه الحكمُ بالقول والفعل.

وَلكلّ مقامٍ مع الله تعالى فقهٌ خفىٌّ، ولكلِ عَالمٍ بالله لطيفُ علمٍ لطيفٌ

غريب، فلو رأيت أيها المستمعُ ما يكون بينه وبينهم في سرِّهم، وما يجالسهم به ويحادثهم في هذه المواطن، لَكنتَ تعذرهم في كلِّ قولٍ وفعْل، فهؤلاءُ قومٌ محكومٌ عليهم في أمورهم، قد حيل بينهم وبين كثيرٍ من العلم المعقول، والرسم المنقول، إنما أوجدُهُم مأخوذٌ بالعلم المجهول، عند ذوى العقول، فمراده ساقطٌ، وعزمه مَفْسوخٌ، ومحبتُه في الأمور منقوصةٌ، لا شبيه النُّسَّاك، ولا عليه حِلْيةُ العُبَّاد، لما نظر فيه مَنْ أُنسهُ الوداد، وعِلْمُه باطنٌ، ومقامه خَفيٌّ، والخليقةُ منه في حَيْرةٍ، حار موسى الكليمُ مع الخَضِر الحبيب، وعطَّل عليه علم الكتب حين نظر إلى سرِّه، وموسى يكلِّمه الله على المشاهدة ويوحى إليه، وكان عِلْمُه بينه وبين الله تعالى في سره المحبةَ والوُدَّ في الفوائد والألطافِ والانبساط والإلهام، والخَضر ونظراؤه من العارفين، إنما هم خزائنُ للحق، ومواضعُ لمجارى الأحكام والقُدْرَةِ فيهم، إذ كانوا وأفعالهم وحركاتهم به ومنه، وهم أهل البلاء.

ولقد قال لى رجل من أهل المعرفة: إذا بلغ أحدهم من هذا العلم الغاية رماهُ الخَلْقُ بالحجارة.

وقال آخر: إذا تناهت معارفُهُم انتهت إلى دَهْشةٍ وحيرة.

وقيل لبعض المحبوبين، وكان قد بذل المجهود في بذل ماله ونفسه، حتى لم يبق عليه منها بقية: ما كان سبب حالك هذا من المحبة؟ فقال: كلمةٌ سمعتُها من خَلْقٍ لخَلْقٍ عَمِلَت بى هذا البلاء. قيل: وما هى؟ قال: سمعتُ محبًا قد خلا بمحبوبه، وهو يقول: أنا والله أحبك بقلبى كله، وأنت معرضٌ عنى بوجهك كله. فقال له المحبوب: إن كنت تُحبنى، فأىّ شىء تنفقُ علىَّ؟ فقال: يا سيدى، أملِّكك ما أمْلكُ، ثم أنفق عليك رُوحى حتى تَهْلك. فقلت: هذا خَلْقٌ لخَلْق، وعبدٌ لعبدٍ، فكيف بخَلْق لخالقٍ، وعبدٍ لمعبودٍ، فكان ذلك سببه.

فقد دخلت الأموالُ في الأنفس تحت الشراء، وقد باعوه نفوسهم فما دُونها لمحبتهم إياه، وقد اشتراها منهم لنفاستها عنده. فعلامةُ محبته لها اشتراؤُها منهم، وعلامةُ شرائها طيُّها عنهم؛ فإذا طواها، فلم يكن عليهم منها بقيةُ هوًى فى سواه، فقد اشتراها.

واعلم أنّ آفات النفوس هى أدواؤها، وطهرةَ النفوس من الأدواء هو داؤها. كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]. فإذا صفَّاها من الآفات فقد صافاها، وإذا امتحنها بالتمحيص من الشهوات للتقوى فقد اشتراها.

فأمّا الأموالُ فإنهم قد بُخسوا بها، فإن أعطاهموها نَقَصُوا، وإن أخذها منهم طهروا وزكوا، كأنك لم تسمع قوله تعالى: ﴿خُذْ من أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. فإنما طهَّرهم وزكَّاهم الأخذُ، كذلك بَخَسهم ونقصهم العطاءُ، فهذا هو العافية من البلاء، فصار الأخذُ داءَ العطاء، ولكل داءٍ من النفس والمال دواءٌ على قدر صغره وعظمه، فضع الدواء على الداء من حيث دخل عليك، بإدخال ضده عليه، وبقطع أصله عنه. فعلامة النفوس المشتراة، وهى المحبوبة المجتباة، التوبةُ إلى الحبيب بالخدمة له، وكثرةُ الحمد له بالسياحة إليه، ودوام الصلاة بحسن الأدب بين يديه، والأمرُ بما يحب، والنهىُ عما يكره، والحفظُ بحدوده التى حدَّها، وترتيبُ العلم على مدارج العقل، بإخفاء علم التوحيد وأسرار قيومية القدرة من المحافظة، لأن العقل حدٌّ، وذلك من كتمان علم المحبة، فهو عند المحبين كحفظ حدوده على الجوارح التى شرعها بألسنة الرسل: ﴿ومَنْ يَتَعدَّ حُدودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه﴾ [الطلاق: ١]. ﴿ومَنْ لَمْ يَتُبْ فأُولئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]. ﴿إنَّ اللهَ يُحبُّ التوَّابِينَ ويُحبُّ الْمُتطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ﴿فإنَّ اللهَ يُحبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أراد أن يحبه الله فليزهد فى الدنيا».

فلا يطمعنَّ طامعٌ فى محبة الله قبل الزهدِ فى الدنيا. فهذه جُملُ أوصاف المحبين.

ووصف بعض العارفين سياحة المحبين، فقال: لو رأيتَ أرواح أهل خالصته إذا حثَّها بالسير إليه للتنعُّم فيما هنالك، لتُشرف على الملك الكبير، والنعيم العظيم، ومطاياها معارفُ ألبابها بلطائف أوهامها. فلو رأيتَ تجلُّلها بستور الإلهية، والحجب العِزّية، وهى تطلب الوصول من مأمولها، إذ هى بالوصال موصولة؛

لكى يُريها من سَنا مُلْكه، ونهايات بَسْطه، ما يزيد فى يقينها، ويُقوِّىَ مَعرفتَها، ويزيدُ فى بَهْجتها وصبابتها ما تَقرُّ به أعينها، ولذلك أسرى بمحمد ﷺ، لتَقرُبَ منزلته عنده، ويُريَه معرفة كرامته عليه، إكرامًا أكرمه به، ووعدًا وعده إياه، لَمَّا تضمَّنَهُ تلك الغيوب، ليزداد به عِلْمًا يسلو به عن كل ما سواه، فلا يكون فيه بقيةٌ لغيره، إلا ما أدخله فيه لحكمةٍ عليه وبحسن تدبيره له، ولطيف إرفاقه بالأسباب وفى الأشياء، وهو فى ذلك محفوظٌ من النقصان، وكذلك صُنْعُهُ بمحبِّيه، ولطفه بهم، ورفقه لهم، فى رَدِّه إياهم إلى الأزواج والأولاد والمأكل واللباس، ليذيقهم طعوم ما به أنعم، ويُوجِد جُسومَهُم نعيم ما به نعم، ولو ترك محمدًا ﷺ وهو الغاية فى الحب والنهاية فى الودِّ، بعد ما أراه من العجائب والآيات فى الأرضين والسموات، لم يقم بدنه لذلك وتهدَّم، ولم تَثبُت صفاته بعد ذلك وتحطم، ولكنه عَلّله، وأرفقه بالنساء، وردّه إلى سياسة الخلق، لِمَا أراده بهم، وأرادهم به.

وكذلك فعل بموسى بعد كلامه له فى المقامات الرفيعة، وما ألبسه من نوره، فكان ينبغى له ـ على القياس ـ أن لا يأوى إلى بيت، ولا يرجع إلى خَلْق، ولا يَبسُط إلى أكل وشرب، ولكن ذلك رحمة من الله تعالى وتسكين. وكذلك على منهاجهم العارفون.

واعلم أنّ الله تعالى غنيٌّ كريمٌ، إنما خلق أولياءه كرمًا، وعرَّفهم نفسه تفضلاً، فأهلُ خالصته إنما خلقهم لكرامته والنعيم فى الدنيا والآخرة، فإذا صاروا فى حدِّ القُوَّة والتّمكُّن، أذاقهم طعم محبته، فكانوا بها ناعمين، كأنهم فى الجنّة، قد غطَّى عورات الدنيا وقُبْحَها عنهم، فليس يرون شيئًا إلا زاده حسنًا بحُسن تحسينه له، فبه أخذوا الأشياء، وعنه وبإكرامه عَجلُوا إلى الكرامة، وعجَّل لهم التنعُّم، أما سمعت قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأَرْضِ كَما استَخْلَفَ الذِينَ مِن قَبْلِهِم**﴾ الآية [النور: ٥٥].

فلو رأيتَ فضولها إليه، ودُنوَّها منه، وإشرافَها على قُربه فى جلال بهائِهِ، فأدركتها منه الهيبةُ، فخرَّت له ساجدةً بالاستكانة له، والحنين إليه، فأذن لها بعد أن قضت من ذلك الخضوع وَطَرًا؛ يرفع رُؤوسها، ثم آنسها وبسطها، فأذِن لها

بالكلام، فتشكَّت له ما تُلاقى من طُول حبْسِها، ثم استعتبته من خفىٍّ ما يَحلُّ بها مما ابتلاها به فى هذه الدار، من الذى يشغلها عنه، ويحكم به عليها من مداراة الناس من غير شكلها، وملاقاة غير نِحْلَتِها، وملاطفة سوى جنْسها، ومعاشرة غير إلْفها، الذى يفهم عنها الأمور، ويجد بوَجْدها المستور الذى يضيق به ذَرْعًا، فعرف لها صدق ما قالت، فأعتبها، وسأله الصبر له والتجمُّل لذلك؛ لأجله ففعلت، فشكر لها صبرها له، فزاد فى قُواها، وزادها فى النعيم به بلُطف مُحادثته، وحُسن محاورَتِه، وعطف قُربه، فقرَّت عينًا، وامتْلأت به سرورًا.

ولو رأيتَ بعد انصرافهم بلا انصرافٍ وعند صدورهم ولا بَراح إلا أنها حالةٌ من حالٍ، ومكانٌ من مكانٍ، وقد رتعت فى تلك الرياض الناضرة، من حظائر قُدسه الزاهرة، فتَنَسَّمت من ذلك روح الأنس الذى روَّح أرواحها بنسيم القُرْب، وشفى قُلُوبَها من كلِّ راحٍ. شربت فعاشت القلوبُ بعيشة راضيةٍ، وارتاحت الأرواحُ برياحين من مشربها ساقيةٌ. وقد أنشد بعضهم فى معناه:

يا نسيمَ القُرب ما أطيبكا ذاق طعمُ الأُنسِ مَن حَلَّ بكا
أىُّ عيشٍ لأناسٍ قُرِّبوا سُقُوا بالقُدْس من مشربكا

فهذه صفة عبدٍ مطلوبٍ لا طالبٍ، ونعتُ شخصٍ محبوبٍ لا مُتَحَبِّب، وحالُ مرادٍ مقرَّبٍ لا مُريد مُتقرِّب، وصفة عبدٍ حاجبٍ لا محجوب، وسيما ولِىٍّ ربانىٍّ لا مَرْبُوبٍ، وعلامةُ مُحبٍّ روحانىٍّ لا مُتنفِّسٍ شهوانىٍّ. فهذه جُمَلُ ما وَصَف العارفُ.

ولو أمكنَ تفصيلُ ما أجمل، وشرحُ ما أُهمل فى كتاب، رَسَمناه، ولكنه مُسْتَنْسخٌ من قلبٍ إلى قلبٍ، ومستودعٌ بعينٍ إلى عينٍ.

ومن المحبة الكتمُ للغَيْرة، والستر لنفيس الذخيرة. قال بعض المحبين ممن يُؤتمُّ به من العارفين: وَرَدَ علىَّ حالٌ من التعظيم أخرسنى عن الكلام والتفهم بما لا أُطيقه، صفةً من الإجلال والعظمة، فحكَم علىَّ فلم أتحكَّم، وملَكَنى فلم أتملَّك ولم أتكلم. فلو شىءٌ من واجب حق الله تعالى كان إلىَّ، وقدرتُ عليه، لم آذن

لأحد من أهل السماوات والأرضين، من مَلَكٍ مقرَّب ولا نبى مرسل أن يقول الله، إذ كل قائلٍ فيما قُوِّل، وكل قريب من حيث قُرِّب، وكل عارف فيما عُرِّف، وكل الكل محجوبٌ عن كُنْه القُرب، وعن حقيقة التوحيد، ومن عظمة التعظيم، فلم يكن أحدٌ يستطيع أن يقول الله. فمكثتُ سنةً لا أتكلم، وسمعتُ رَجَفَان قلبى فى صدرى، وزواله عن مستقره إلى نحرى، ويحك أما سمعتَهُ يقول: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنفال: ٢]. فهذا وجل القلوب من ذكر غافل سمعوه، فكيف بذكر ذاكرٍ ذكروه، فما قال التوحيد إلا الواحد، وما قال الله إلا الله، ثم ذكر الباقى.

فهذا الذى ذكر حالٌ فى مقامٍ بعينه، بمشاهدة عينٍ من عظمة منفرده لمُتَفَرِّد، وقُربٌ عن وصف قريبٍ متَّحدٍ لمُوحِّد، والتوحيدُ والتفريدُ وراء هذا، والإيحادُ والأحَدِيَّة والانفرادُ والوحدانية فوق ذلك، والآحاد والإفراد المفرِّدون بما أُفردوا، والموحِّدون بما وَحَّدَوا، والذاكرون بذكره الذى به ذَكروا، والمسبِّحُون بسُبحاته التى بها سبَّحوا، والمعظِّمُون بعظمته التى بها عَظَّموا، هم حجابُ هذا المقام، وخُزَّان هذا المعنى، كَشْفُهم لهذا السرِّ هو منهم كُفر، ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف: ٢١]. ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [لقمان: ٢٥]. فوقفوا مع الأمر لغلبة القهر، وسكنوا لأجل الحمد، فرسموا له الحَدَّ. وهكذا يُحب الحبيبُ، وهم لا يحبون ما لا يحُب، ﴿**لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٧]. هذا لأنهم عبادٌ مكرَمون، وبالتقوى مُلجَمون. وقد قال قائلهم:

لقد بُطنتَ فلم تَظْهَر لذِى بَصَرٍ ... وكيف يُبصِر مَنْ فى غَيْبِهِ استَتَرا
لكن عُرِفْتَ بما أظهَرتَ مِن خبرٍ ... فكيف يُعرَفُ مَنَ بالخُبْر مُختَبرا
فكنتُ أستُر مـا عاينتُ مُجتهدًا ... لا أنَّنى حـاجـبٌ أستطلعُ الخَبَرا
وصرتُ أسْعى لآثارٍ لنـا رُسِمَتْ ... فلم تَـر العيـنُ لا رَسْمًا ولا أثَرَا

ومن المحبة أن لا يطلب خدمة سواه، وأن يجتمع فى محبته همُّهُ وهواه، ولا يَهْوى إلا ما فيه رضا المولى، ولا يقضى عليه مولاه إلا بما يَهْواه.

ورُوى عن بعض العلماء: إذا رأيتَه يُوحشك من خلقه، فاعلم أنه يريد أن يُؤنسك به.

وفى أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إليه: إن أودَّ الأودَّاءِ إلىَّ مَنْ عبدنى لغير نوالٍ، لكن ليعطى الربوبية حقها.

وفيما نقل وهب بن منبِّه من الزبور: ومن أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار، لو لم أخلق جنة ولا نارًا، لم أكن أهلاً أن أطاع؟ أو كما قال.

وفى أخبار عيسى: إذا رأيتَ التقىَّ مشغوفًا فى طلب الرب، فقد ألهاهُ ذلك عما سواه. وعن عيسى عليه السلام: إذا رأيت التقى مشغوفًا فى طلب الرب، فقد ألهاه ذلك عما سواه. وعن عيسى عليه السلام: المحب لله يحب النَّصَب. وروى عنه: أنه مر على طائفةٍ من العبَّاد قد احترقوا من العبادة، كأنهم الشِّنان البالية، فقال: ما أنتم؟ فقالوا: نحن عبَّاد. قال: لأى شىء تعبَّدتم؟ قالوا: خوَّفنا الله من النار فخفنا منها. فقال: وحقٌّ على الله أن يُؤمِّنكم ما خفتم. ثم جاوزهم فمر بآخرين أشدَّ عبادةً منهم. فقال: لأى شىء تعبَّدتم؟ قالوا: شوَّقنا اللهُ إلى الجنان، وما أعدّ فيها لأوليائه، فنحن نرجو ذلك. فقال: حقٌّ على الله أن يعطيكُم ما رجَوْتم. ثم جاوزهم فمرَّ بآخرين يتعبدون، فقال: ما أنتم؟ قالوا: نحن المحبون لله، لم نعبده خوفًا من ناره، ولا شوقًا إلى جنةٍ، ولكن حبًا له، وتعظيمًا لجلاله. فقال: أنتم أولياءُ الله حقًا، معكم أُمرتُ أن أقيم، فأقام بين أظهرهم. وفى لفظ آخر: أنه قال للأوَّلِيْن: مخلوقًا خفتم، ومخلوقًا أحببتم، وقال لهؤلاء: أنتمُ المقربون.

وممن رُوى عنه هذا القول، وأُقيم فى هذا المقام: جماعةٌ من التابعين بإحسان، منهم: أبو حازم المدنى، كان يقول: إنى لأستحى من ربى أن أعبده خوفًا من العقاب، فأكون مثل العبد السوء، إن لم يُعْطَ أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبةً له.

وقد روينا معنى هذا الكلام عن النبى ﷺ: «لا يكون أحدُكُم كالعَبْدِ السُّوءِ؛ إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء إن لم يُعْطَ أجرًا لم يعمل».

وقال بعض إخوان معروفٍ له: أخبرنى عنك، أى شىءٍ أهاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت. فقلت: ذكر الموت؟ فقال: وأى شىء الموت؟ قلتُ: ذكر القبر والبرزخ؟ فقال: وأى شىءٍ القبر؟ فقلتُ: خوف النار ورجاءُ الجنة؟ فقال: وأى شىء هذا؟ إن واحدًا بيده هذا كله، إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفةٌ كَفَاكَ جميعَ هذا.

وفيما حدثنى بعض الأشياخ عن منصور الحربى وغيره: أنه رأى بِشْرَ بن الحارث، قال: فقلت له: ما فعل أبو نصر التمّار، وعبد الوهاب الورّاق؟ قال: تركتهما الساعةَ بين يدى الله يأكلان ويشربان. قلت: فأنت؟ قال: علم اللهُ قلّة رغبتى فى الأكل والشرب فأعطانى النّظرَ إليه.

وحُدِّثت عن عبد الوهاب الحجىّ، قال: رأيتُ أحمد بن نصرٍ الخُزاعىَّ فى النوم فقلتُ: ما فعل الله بك؟ قال: أدخلنى عليه فى داره، وبسط لى حصيرًا من لؤلؤٍ رطبٍ عن يمينه، وقال: يا أحمد، قُتلتَ فىَّ، وصِرتَ لى! فقلت: نعم يا رب. فقال: ها أنا ذا أنزل إليك حتى تنظرَ إلى وجهى، جل جلال وجهه ذى الجلال.

وحُدِّثت عن على بن الموفَّق قال: رأيتُ فى النّوم كأنى أُدخلت الجنة، فرأيتُ رجلاً قاعدًا على مائدة، وملكان عن يمينه وشماله يُلْقِمانه من جميع الطيبات، وهو يأكل. ورأيتُ رجلاً قائمًا على باب الجنة، يتصفح وجوه قومٍ، فيُدخل بعضًا ويردّ بعضًا. قال: ثم جاوزتُها إلى حظيرة القُدْس، فرأيتُ فى سُرادق العَرْش رجلاً قد شخص ببصره ينظر إلى الله عز وجل لا يَطْرف. فقلت لرضوان: من هذا؟ فقال: معروفٌ الكَرْخى عَبَدَ الله لا خوفًا من ناره، ولا شوْقًا إلى جنته، بل حبًا له، فقد أباحهُ النظرَ إليه إلى يوم القيامة. قلت: فمن الآخران؟ قال: أخواك بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل.

وهذا مقام الأبدال من الصدِّيقين، لا يقامون مقام أبدال الأنبياء، إلا بعد صفاء اليقين، وحسن المعرفة، فأول نصيبهم من الله نظرهم إليه، فيجمع لهم بأول نظرةٍ

من النِّعم والسرور ما لا يُوصَف جميع ما فرَّقه فى الجنان كلها من اللذة والسُّرور والنعيم والحبور. وفى النظرة الثانية فوق ذلك، وفى النظرة الثالثة أعلى من ذلك، وليس من الله حدٌّ، ولا عددٌ. ولهم أنصبة من وراءِ النَّظَر أضعافًا مضاعفة، لا يعرفها سواهم، ولا يسمع ذكرها إلا هم، ولا يطلبها غيرهم، ولا يطلب بها أحدًا دونهم، لا يُسمع ذكرها فى كتاب، ولا يجوز تسميتُها بخطاب إلا لأهلها؛ السائلين عنها، الطالبين لها، الراغبين فيها، هى من سرِّ الجبروت ونهاية الرغبوت.

ولا يبلغون دَرَج الصدِّيقين، ولا يعطون منازل الشّهداء، حتى تغلب محبةُ الله على قلوبهم فى كلِّ حال، فيتألهون إليه، ويذهلون به عن غيره، وينسون فى ذكره مَنْ سواه، هو مذكورهم بذكره ومأواهم بظله، كما ضرب لنا المثل بوصفهم، فقال: «الذين يَكْلَفُون بحبِّى كما يَكْلَفُ الصبىُّ بالشىء، ويأْوُون إلى ذكرى كما يأوى النَّسر إلى وَكره، ويغضبون لمحارمى كما يغضب النَّمِر إذا حَرِدَ، فإنه لا يبالى قلَّ الناس أو كَثُروا».

فتدبر هذه الأمثال، فإن الصبى إذا كَلِفَ بالشىء لم يفارقه، فإن نام فمعه، وإن تحرك فبه، وإن هَبَّ من نومه فعنه، وإن فارقه بكى عليه، وإن وجده ضحك إليه. وأمّا النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب لنفسه، حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يقتل نفسه، وذلك أنه يغيِّب الخلقَ عنه، حتى نفسه، فلا يعقل ما فعل، فلذلك ضرب الله هذا المثل فى قوله: «لا يبالى قلّ الناسُ أو كثروا»؛ لحقيقة الإخلاص بغيبة مداراة الناس، فالمُحبّون لله هم المخلصون نفوسهم لوجهه حقًا، فيعبدونه لأجله صرفًا، وهم المقربون، ونعيمهم فى الجنان صِرفٌ، ويُمزج لأهل المزج، وهم أصحاب اليمين، كما قال تعالى فى وصف نعيمهم: **﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى الأَرائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾** [المطففين: ٢٢ ـ ٢٥]. ثم قال فى نعت شراب المقربين: **﴿وَمِزَاجُهُ﴾** يعنى مزاجُ شراب الأبرار **﴿مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾** [المطففين: ٢٧ ـ ٢٨] أى يشربها المقربون صرفًا. ويُمزج لأصحاب اليمين، فما طاب شرابُ الأبرار إلا

بمزاج شراب المقربين، فعبر عن جُمل نعيم الجنان بالشراب، كما عبر عن العلوم والأعمال بالكتاب. فقال فى نعت الأبرار مثله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]. ثم قال: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢١]، فما حَسُن علمهم، ولا صفت أعمالهم، ولا علا كتابهم، إلا بشهادة المقربين، لما قَرُب منهم وحضروه. كذلك كانوا فى الدنيا تحسن علومهم بعلمهم، وترتفع أعمالهم بمشاهدتهم، ويجدون المزيد فى نفوسهم، بقربهم منهم: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:١٠٤]. وقال تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦]؛ أى وافق أعمالهم. وقال تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أى كوصفهم فى الدنيا ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٣٩]؛ فمَنْ كان فى هذه الدار نعيمُه طيباتُ الملك، فكذلك غدًا يكون الملك نعيمه. ومَنْ كان فيها نعيمه وروحه بالملك الطيب، فهو غدًا فى مقعد صدق عنده.

كما قال أبو سليمان الدارانى: من كان اليوم مشغولاً بنفسه فهو غدًا مشغول بنفسه، ومن كان اليوم مشغولاً بربه فهو غدًا مشغول بربه.

وقد روينا عن رابعة العدوية، وكانت إحدى المحبين، وكان الثورى يقعد بين يديها، ويقول: علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة، وكانت تقول: نِعْمَ الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا. وقد كان رحمه الله زاهدًا فى الدنيا عالمًا، إلا أنها كانت تجعل إيثار كتب الحديث والإقبال على الناس من أبواب الدنيا. وقال لها الثورى يومًا: لكل عبدٍ شريطةٌ، ولكل إيمان حقيقةٌ، فما حقيقةُ إيمانك؟ فقالت: ما عبدتُ الله خوفًا من الله، فأكون كالأَمَة السوء إن خافت عملت، ولا حبًا للجنة، فأكون كأمة السوء إن أُعطيت عملت، ولكنى عبدته حبًا له، وشوقًا إليه.

وروى عنها حمَّاد بن زيد أنها قالت: إنى لأستحى أن أسأل الدنيا مَنْ يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها، وكان هذا جوابًا، لأنه قال لها: اذكرى لى حوائجك حتى أقضيها.

وخطبها عبد الواحد بن زيد، فحجبته أيامًا، حتى سئلت أن يدخل عليها،

فقالت: يا شهوانى، اطلب شهوانية مثلك، أىَّ شىءٍ رأيتَ فىَّ من آلة الشهوة؟ وخطبها محمد بن سليمان أمير البصرة على مائة ألف، وقال: لى غلةُ عشرة آلاف فى كل شهر أدفعها إليك، فكتبت إليه: ما يسرنى أنك لى عبد، وأنّ كل ما تملكه لى، وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين.

وقد قالت فى معنى المحبة أبياتًا تحتاج إلى شرحٍ، حملها عنها أهل البصرة وغيرهم؛ منهم جعفرُ بن سليمان الضبعى، وسفيان الثورى، وحماد بن زيد، وعبد الواحد بن زيد:

أحبُّك حُبين : حبَّ الهوى وحبًا لأنّك أهلٌ لذاكا
فأمَّا الذى هو حبُّ الهوى فشُغلى بذِكْرك عمَّن سِواكا
وأمَّا الذى أنتَ أهلٌ له فكَشْفُك للحُجْب حتى أراكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمدُ فى ذا وذاكا

فأما قولها: حبُّ الهوى. وقولها: حب أنت أهل له، وتفريقها بين الحبين، فإنّه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه، ويَخْبُره من لم يشهده. وفى تسميته ونَعْت وصفه إنكارٌ من ذوى العقول؛ ممن لا ذوق له ولا قدم فيه، ولكنا نحمل ذلك، وندلُّ عليه من عرفه. يعنى حب الهوى: أنى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة عين اليقين، لا عن خبرٍ وسمع تصديق من طريق النّعم والإحسان، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال، لاختلاف ذلك علىَّ، ولكن محبتى من طريق العيان، فقَرُبتُ منك وهربتُ إليك، واشتغلت بك، لما تفرَّغت لك، كما قال المحبُّ:

فرَّغت قلبها اشتغالاً بذكرى وكــذا كلُّ فارغٍ مشغولُ

وعلى هذا المعنى مجازُ قوله [تعالى]: ﴿وأصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارغًا﴾ [القصص: ١٠]. أى لان بذكره حتى فاض، فكادت تُبدى به وتظهره، فتقول: هو ابنى، فعبر عن الملء بالفراغ من ضدِّه، لولا أن أوكَيْنا عليه بربْطنا فكَظَمت، ولو لم تفعل لأظهرت، ولو أظهرته لقُتل.

تقول: وانقطعت عمن سواك، وقد كانت لى قبل ذلك أهواءٌ متفرقة، فلما رأيتُكَ اجتمعت كلها، فصرتَ أنت كلية القلب وجملة المحبة، فأنسيتنى ما سواك، كما قال المحبُّ:

كـانت لقلبى أهـــــواءٌ مفرَّقـةٌ فاستجمعتْ إذْ رأتكَ العينُ أهواى

وأما الحبُّ الثانى، فالذى هو أهلٌ له، أعنى حُبَّ التعظيم والإجلالِ لوجه الله العظيم ذى الجلال. تقول: ثم إنى مع ذلك لا أستحقُّ على هذا الحب، ولا أستأهل أن أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان؛ لأن حبى لك لا يُوجب عليك جزاءً عليه، بل يُوجب على كل شىءٍ لك منى كلَّ شىء مما لا أطيقه، ولا أقوم بحقك فيه أبدًا، إذ كنت قد أحببتك فلزمنى خوفُ التقصير، ووجب علىَّ الحياءُ من قلة الوفاء، والخوفُ لما تعرَّضتُ به من حبك، إذ ليس كمثلك شىءٌ، كما قال المحبُّ:

أصبحتُ صبًّا ، ولا أقولُ بِمَنْ خَوْفًا لِمَنْ لا يخافُ من أَحَدِ

إذا تفكَّـرتُ فى هـــــواى لَهُ لمستُ رأسى هل طار عن جَسَدِى

لولا أن الحب ينطق، والشوق يقلقُ، والوَجْد يحرقُ، فالمحبُّ لا يلام لغيبة النفس عنه والأنام.

تقول: فتفضلتَ علىَّ بفضل كرمك، وما أنت له أهلٌ من تفضلك، فأرَيتنى وجهك عندك آخرًا، كما أريتنيه اليوم عندى أولاً، فلك الحمدُ على ما تفضَّلت به فى ذا عندى فى الدنيا، ولك الحمد على ما تفضلت به فى ذاك عندك فى الآخرة، ولا حمد لى فى ذا ههنا، ولا حمد لى فى ذاك هناك، إذ كنتُ إنما وصلتُ إليهما بك، فأنت المحمود فيهما، لأنك وصَّلتنى بهما.

فهذا الذى فسرناه هو وَجْدُ المحبين المحققين.

وقد كانت تذكر الأنس فى وجدها، وترتفعُ إلى وصف معنًى من الخُلَّة، وشىءٍ من تخلُّل أسرار الغيب فى قولها السائر:

إنى جعلتُـك فى الفـؤاد محـدِّثى وأبحْتُ جِسمى مَنْ أراد جُلوسى

فالجِسْمُ منّى للجليسِ مؤانسٌ وحبيبُ قلبى فى الفؤادِ أنيسى

ومن قولها النادر فى مقام الخُلّة:

وتخلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنّى وبه سُمِّى الخليـلُ خليـلا

فإذا ما نطقتُ كنتَ حَـدِيثى وإذا مـا سكتُّ كنتَ العليلا

وقد أهَّل ذلك لها كلٌّ من نقله عنها من العلماء، فوصفوها به، فوصفنا من نعت المحبين بعض ما يَصْلُحُ من معنى كلامها؛ لأنّا ظننّا بقولها ذلك، إذ كان لها فى المحبة قدمُ صدقٍ، والله أعلم.

ولا يسعنا أن نشرح فى كتابٍ حقيقة كشف ما أجملناه، ولا أن نفصِّل وصف ما ذكرناه. ومن لم يكن من المحبين كذلك، حتى لا يُدِلَّ بمحبته، ولا يقتضى الجزاء عليها من محبوبه، ويوجب على حبيبه شيئًا لأجل محبته، فهو مخدوعٌ بالمحبة، ومحجوبٌ بالنظر إليها، وإنما ذاك مقام الرجاء، الذى ضده الخوف، وليس من المحبة فى شىءٍ، ولا تصح المحبة إلا بخوف المقت فى المحبة. وقال بعض العارفين: ما عرفه مَنْ ظنَّ أنه عرفه، ولا أحبه مَنْ توهَّم أنه أحبه.

• ذكر مخاوف المحبين ومقاماتهم فى الخوف:

وللمحبِّ سبعُ مخاوف، ليست بشىءٍ من أهل المقامات، بعضها أشد من بعض.

أولها: خوفُ الإعراض، وأشدّ منه خوفُ الحجاب، وأعظم من هذا خوف البُعد، وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شيَّب الحبيب ﷺ، إذ سمع المحبوبَ يقول: ﴿أَلاَ بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود:٦٨]، ﴿أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٥] فذِكْرُ البُعْدِ فى البعد يُشيب أهل القُرب فى القُرْب، فكيف يعرف البُعد من لم يقرب؟ أم كيف يحنُّ إلى القُربِ مَن ألِفَ البُعْد؟ بل كيف يبكى فى البُعد من لم يعهد القُرب؟

ثم خوف السَّلْبِ للمزيد، والإيقاف مع التحديد، وهذا يكون للخصوص فى الإظهار والاختيار منهم، فَيُسلبون المزيد من نوعه إن كان من الآيات، وحقيقة

ذلك عقوبةٌ لهم، ويكون للعموم عند إيثار الشهوات على أوامر الطاعات، كما روينا عنه تعالى: «إن أدنى ما أصنع بالعالِم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتى أن أسلُبَه لذيذَ مُنَاجاتى».

وقد يكون عند الدعوى للمحبة، ووصف النفس بحقيقتها، وإنما معه علمها دون الوجد بها، فينقصون معهم، ولا يفطنون لذلك، وهو لطيفة من المكر الخفىّ.

وقد قَرن اللهُ الدّعوى بِفرْيَة الكذب؛ لأنها كذبُ القلب بمنزلة كذب اللسان، فى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام:٩٣]، ونهى عنها كنهيه عن التولّى عنه فى قوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الأنفال: ٢٠]، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

ثم خوف الفوت الذى لا دَرَكَ له. سمع إبراهيم بن أدهم ـ وهو أحد المحبين ـ قائلاً يقول فى سياحته على جبلٍ نظمًا:

كلُّ شيءٍ لك مغفورُ ... سوى الإعراضِ عنّى

قد وهَبنا منكَ ما فا ... تَ، بقى ما فاتَ منّى

فاضطرب وغشى عليه، فلم يفق يومًا وليلة. وهذا فى قصة طويلة كانت له بعد مقامات أقيم فيها، نُقل عنها إلى هذا المكان، حتى قال فى آخر ذلك: فسمعتُ النداء من الجبل: يا إبراهيم كن عبدًا. قال: فكنتُ عبدًا، فاسترحتُ؛ معناه: لا يملكك إلاّ واحد، تكون عبدًا له حرًا مما سواه، ولا تملك شيئًا، فإن الأشياء فى خِزانة مليكها، فلا تتملّكها، فتحجبك عن مالك، وتأسِرُك بمقدار ما ملكتها. وقد ضرب الله مثلاً بينه وبين خلقه: أن رجلين أحدهما فيه شركاء متشاكسون عليه من أهل ومال وشهوات، كل واحد يجذبه إليه، ويريد نصيبه منه، ويشغله به، ويحب فراغه له، وآخر سالمًا من الشركاء، خالصًا من الشرك، متوحدًا لواحد، أنهما لا يستويان، فى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩]. أى الأكثر ليسوا علماء كهذا الواحد للواحد، فتنافسوا فى

واحده، وسلكوا سالكه بوحيده.

وأشدُّ من الفوتِ خوفُ السلوِّ، وهذا أخوفُ ما يخافون؛ لأنَّ حبَّهم له كان به لا بهم، ومنه لا منهم، وهو نعمة عظيمة لا يعرف قدرها، فكيف يشكره عليها ولا يقوم لها شيء؟ فكذلك سُلُوهم عنه يكون به، كما كان حبهم له به، فيدخل عليهم السلوُّ عنه من حيث لا يشعرون، من مكان ما دخل عليهم الحبُّ له من حيث لا يعلمون، فتجد السلوَّ به كما كان يجد الحبَّ له؛ فتكون قد سلوتَ عنه، وأنتَ لا تدرى كيف سلوتَ؛ لأنه يُدَرِّجُك بما خَدَعَك بِهِ من الاستبدال عنه بما تدرى، إلاّ أنّك لا تفطن لذلك؛ لتهوينه الأمر عليك، فتقف مع الرجاء، أو تغتر بحُسن الظّن الذى كنتَ تعهد منه؛ أو لغلبة الهوى والشهوةِ والنسيان، فهو من أقوى جنود الأرض، لأنهن يغلبن أضدادهن من جنود السماء؛ وهو العلم، والعقل، والبيان: ﴿فإنْ زَلَلتُم من بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ البيِّنَاتُ﴾ [البقرة:٢٠٩] الآية، عزيزٌ لا يُوصَل إليه إلا به، حكيم حكَمَ عليكم بالزلل عنه إلا أنه يُدَرِّجُ فى ذلك استدراجًا بلطائف الحكمة، على مَعْهودِ الأسباب ومألوف المعتاد، وكما أنَّك أحببته، وأنت تدرى كيف أحببته؛ لأنه أشهدك وصفه به باطّلاع القدرة عن جنان الرحمة، فاقتضى الحب له، فوجدتَ نفسك محبًا له. كذلك ترجع المحبة كما جاءت تحجبك عنه عن فعل مكروه يبدو أنّك منه ظهر عن وصف الكِبْر والجبرية، فتجد قلبك ساليًا عنه بلا حول ولا قوة منك، ولا اجتلاب ولا حيلة، وهذا لا يصفه إلاّ عارفٌ بدقيق بلائه، ولا يحذره إلا خائفٌ من خفى مكره وابتلائه. فإذا سلوتَ عنه به كان ذلك دليلاً منه أنه قد رفضك واطّرحك، كما أنّك إذا كنت تحبه إنّما أحببته به؛ وهذا هو تحقيقُ المكر السريع بسرعة تقليب القدرة للقلوب، الذى يَحيقُ بالممكور، وهو دَرَكُ الشقاء الذى أدرك المغرور بما لا يدركه الطَّرْفُ لسرعته، ولا يَجُول فى الوهم لخفيته، كقوله تعالى: ﴿إذَا لَهُمْ مَكْرٌ فى آيَاتنا﴾ أى معصية بالنعم ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس:٢١] أى أخفى تقليبًا، قد أظهر لهم نعمًا أحبوها، وكانت عقوبةً ونِقَمًا باطنة فى لبس النعم الظاهرة، يُدَرَّجُون بها درجةً درجةً، من حيث لا يعلمون.

وأشد من هذا كله خوف الاستبدال؛ لأنه لا مشوبة فيه، وهذا حقيقة الاستدراج، يقع عن نهاية المقت من المحبوب، وغاية البغض منه والبعد. والسلوُّ مقدمة هذا المقام، والإعراضُ والحجابُ بدايةُ ذلك كله، والقبضُ عن الذِّكر وضيقُ الصدر بالبرِّ أسبابُ هذه المعانى المُبعِّدَة، والمدارج المُدَرَّجة، إذا قويت وتزايدت أخرجت إلى هذا كله، وإذا تناقصت وبُدِّل بها الصالحات والحسنات، أدخَلت فى مقامات المحبة والقربات، كما جاء فى الأثر: «التّائبُ حبيبُ الله»[1]. كذلك فى تدبر الخطاب أن العاكف على هواه مقيت الله، فوجدَ هذه الأوصاف منك دلائل ما غاب عنك من الاستبدال بك، والإسقاط لك. والخوفُ من هذه المعانى علامةُ المعرفةِ بأخلاقه المكذِّبة المقلِّبة. ولا يصلح شرحُ هذه المقامات فى كتابٍ، ولا تفصيلَها برسم خطاب، إنما يُشرح فى قلبه بيقينه قد شُرِح، ويفصِّل العبد من نفسه قد فُصِل. فأما قلبُ مشترك، وعبدٌ فى هواه مرتبك، فليس لذلك أهلاً، والله المستعان.

وثَمَّ خوفٌ ثامنٌ عن شهادة حبٍّ عالٍ، يَغْرُب اسمه فيلتبس، ويخفى وصفُه لقلة اشتهاره فى الاستماع فيجهل، لم نُسمِّه؛ لأنه خوفٌ عن مقام له اسمٌ من المحبة، يَتَشَنَّعُ[2] على كثير من سامعيه، فينكرونه، ويتشنَّج فى أوهام غير مشاهديه فيمثِّلوه بالخلق؛ لأن أسماء صفات الخلق ملتبسة بمعنى صفات الخالق، وإنّما لهم من ذلك ما يعلمون، وهم بعلومهم محجوبون، فكيف بها يشهدون. فإن ذكرنا خوفه نَمَّ على ذكر مقامه، فظهر بإظهاره، فكان طيُّه أفضل من نشره، إلى أن يُسأل عنه من ابتُلى به ثم صَدَر عنه، بعد أن شَرِبَ منه؛ لأن مقامات المحبة كلها إلى جنب مقامه كنهر أُضِيفَ إلى بحر مثله، كمثل مشاهدات اليقين كلّها إلى جنب شهادة التوحيد بالتوحيد، وهو وصف من المحبة بقُرب القُربِ؛ لأنه من شوقِ الحبيب إلى المحب. وهو من معنى قول رابعة آنفًا: حبّ الهوى. ومن معنى قول عائشة رضى الله عنها للنبى ﷺ: «أرَى ربَّك يُسارع إلى هوَاك». وقال أبو الدرداء لكَعبِ الحَبر: أخبرنى عن أخص آية فى التوراة، قال: يقول الله عز وجل:

---

(١) فى المطبوعة: «الثابت عن حبيب الله» وهو تصحيف فاسد.

(٢) فى المطبوعة: «فيشتبه».

«طال شوقُ أوليائى إلىَّ، وإنا إليهم أشوقُ»، وإلى جانبها مكتوبٌ: «من طلبنى وجَدَنى، ومن طلب غيرى لم يجدنى». فقال أبو الدرداء: أشهد أننى قد سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا.

وفى الخبر: «إن الله عز وجل يدنو من أوليائه فى كل يوم وليلة دُنَوَّة، ولولا ذلك لانْحَطَموا». وروينا ذلك فى أخبار داود عليه السلام من أوصاف المحبين: «يا داود، أبلغ أهل أرضى أنى حبيبٌ لمن أحبنى، وجليسٌ لمن جالسنى، ومؤنسٌ لمن أنس بذكرى، وأنيسٌ لمن أنس بى، وصاحبٌ لمن صاحبنى، ومُختارٌ لمن اختارنى، ومطيعٌ لمن أطاعنى، ما أحبنى عبد ـ أعلم ذلك يقينًا من قلبه ـ إلا قَبِلتُه لنفسى، وأحببته حبًا لا يتقدمه أحدٌ من خلقى، من طلبنى بالحق وجَدَنى، ومن طلبنى بغير حق أو طلب غيرى لم يجدنى، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غُرورها، وهلُمّوا إلى كرامتى، ومُصاحبتى، ومجالستى، وأْنسُوا بى أؤانِسكُم، وأسارع إلى محبتكم، فإنى خلقت طينة أحبائى من طينة إبراهيم خليلى، وموسى نجيِّى ومحمد صَفِيِّى، إنى خلقتُ قلوب المشتاقين من نُورى، ونَعَّمتُها بجلالى».

فهذا فى مقام خُلَّة، وحال مطلوبٍ، وهو من وصف مُقرَّب، ونعت محبوب. ومن صَدَرَ عن مقام محبٍّ بعد وروده، رُفع إلى هذا المقام؛ لأنه فى مقام محبوب لجميل مشاهدات اليقين. وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد هذه الأبيات كثيرًا[1]:

سرتْ بأُناس فى الغيوب قلوبُهم ... فحلُّوا بقُرب الماجـدِ المتفضِّل
عَراصٌ[2] بقُرب اللهِ فى ظلِّ قُدسه ... تجـول بهـا أرواحُهم وتَنَقَّل
مَواردُهم فيهـا على العزِّ والنُّهَى ... ومصدرُهُم عنهـا لِمَـا هُـو أكمل
تـروحُ بعزٍّ مُفـرَدٍ من صفـاته ... وفى حُلَل التوحيـد تَمشى وتَرفُل
ومن بعد هـذا ما تدقُّ صفـاتُه ... ومـا كَتْمُـه أوْلَى لَدَيه وأعْـدل
سأكتمُ مِـن عِلمى به مـا يَصونُه ... وأبذلُ منه مـا أرَى الحقَّ يُبذَل

---

(١) البيت الأول منها فى ترجمة الجنيد بالحلية ١٠/ ٢٨٤.

(٢) عَراصٌ: كذا ضبطت فى الأصل، وهى من: عَرِص البرق: اضطرب، وعَرِص الرجلُ: نرح

وأُعطى عبادَ اللهِ منه حُقوقَهم   وأمنعُ منه ما أرى المنعَ أفضل
ألاَ إنَّ للرحمن سرًا يسره   إلى أهلهِ فى السرِّ والسترُ أجمل

وقد ذكرنا معناه بعض المحبوبين فى كلام منظوم فى بيتين وهما:

فمنك بدَا حبٌّ بِعزٍّ تمازجا   بماءِ وصالٍ كنتَ أنتَ وَصلْتَه
ظهرتَ لمن أبقيتَ بعد فنائه   فكان بلا كونٍ لأنّك كُنتَه

ويقول فى أول الأبيات اختصرته:

تعزَّزتَ بالعزِّ المنيع فكلُّ مَنْ   أشار إلى عزٍّ فأنت خَدَعْتَهُ
وأبدأتَ وصفًا بالعلومِ مُخبِّرًا   فشتَّت قلبًا بالعُلوم جمعتَهُ
وأفردتَ حبًا فيك منك بِمَشْهَدٍ   بلا عِلم فى العَقل حين بَسَطتَهُ

وقال بعض العلماء: مَنْ عرف الله من طريق المحبة بغير خوفٍ هلك بالبسط والإدلال، ومَنْ عرفه من طريق الخوف من غير محبةٍ انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، ومَنْ عرف الله من طريق المحبة والخوف أحبه الله فقرَّبه وعلَّمه ومكَّنه. وليس العجبُ من خوف الخائفين، إذ لا يعرفون إلاَّ الصفات المخوفات، والأفعال القاصمات، وإنما العجبُ من خوف المحبين مع ما عرفوا من أخلاقه وحنانه، وشهدوا من تَعطُّفه وألطافه، ما لم يعرف الخائفون، ثم هم مع حبِّهم يهابونه، وعلى أُنسِهم به يُجلُّونَه، وفى فزعهم منه يشتاقون إليه، وفى بسطه لهم ينقبضون بين يديه، وفى إعزازه لهم يذلُّون له؛ لأن من قُبض فانقبض فليس بعجب، ولكن من بسط فانقبض فهو العجب، ومَنِ امتُهن فذلَّ فلا عجب، ولكن من أُعزّ وأُكرم فتواضع وذَلَّ فهو العجب.

فللمحبين الانقباضُ فى البسط، وللخائفين الانقباضُ فى قبض، وللمحبين الذلُّ مع العزِّ والكرامة، وللخائفين الذلّة مع الهيبة والمهنة؛ فهذا يدل على أن معرفة المحبين به أعظمُ المعارف، إذ كانت أوائل أحوالهم المخاوف، فكلُّ محبٍّ لله خائفٌ منه، وليس كلُّ خائفٍ بمحبٍّ، يعنى محبة المقرَّبين؛ لأن لم يذُق طعم

الحبِّ؛ لأن محبة المسلمين الْمُعْتَرِضة لا يقع بها اعتبار فى مقامات الخصوص؛ لأنه لا يوجد عنها مواجيدُ الأحوال، ولا يُعلى بها فى مشاهدات الانتقال؛ لأنها قوت الإيمان، منوطة بصحته، وموجودة بوجوده، فأشبهت محبتُهم معرفتَهم بالله تعالى التى عنها توحيدهم، فإنّهم عرفُوه بوصفِ الأزل والقِدَم، والسرمدية والأبدية، والدَّهر والأبد، وهذا مندرج فى اسمين من أسمائه: أول آخر، والعارفون عرفوه بصفات الجَبْر والقهر والقدرة والمكر، وهذا قد أحكمه من الاسمين: ظاهرٍ وباطنٍ، وليس هذا من معارف المحبين فى شيءٍ. والمحبون عَرفوه بصفات التَّجلى ومعانى المعانى، ونعوت الأخلاق، وفى هذا سرائر الغيوب ومشاهدات المحبوب. وأنشد بعضهم فى معنًى من المعانى:

أبدى شواهدَه فى قلبِ شاهدِه ... وأين شاهـــدُه فيمــا يُجلِّيــه

هى الصفاتُ التى من أجلِها عَبدُوا ... أهـو تجلَّى بهــا أمْ هى تُجلِّيه

فالحمـــدُ لله لا بَوْنٌ ولا صِلةٌ ... هــذا مكانٌ لنا معنى معــانيـهِ

وأنشد آخر فى معنى التوحيد:

سبحان مَنْ قد جَلَّ فى قَدرِه ... أن يُدرك الأقربُ من وصفِـه

ومن تجلَّى بصنُوف البـلاءِ ... ليُشهد الألطفَ من لُطْفِـهِ

وأنشد بعضهم فى وصف التجلِّى والحجاب:

لقد ظهرتَ فما تَخفَى على أحــدٍ ... إلاَّ على أكمَه لا يعرفُ القَمرا

لكنْ بطَنْــتَ فمــا أظهَرتَ محتجبًا ... فكيـف يُعرَف من بالعُـرف مُستَترا

فصرتُ أحجبُ ما عاينتُ مُجتهدًا ... لأنّنى حــاجبٌ أستطلـعُ الخَبَرا

وأُنشد فى وصفِ من التوحيد والتعزيز بمعناه:

لقـد بَطنْتَ فلم تَظهر لِذى بَصَرِ ... وكيف يُدرَك من بالعَين مُستترا؟

لكن عُرفتَ بمـا عرَّفتَ من خبرِ ... فكيف يُعرَف مَن بالخُبْرِ مُختَبرا؟

فصرتُ أسعى لآثارِ لنـا رُسِمتْ ... وغـابتِ العينُ لا رَسْمًا ولا أثرَا

والكلام فى التجلى والاحتجاب، والجمع والاتصال، لا أرسمه فى كتابٍ، لأنه يؤود العقول فتنفر منه وتطرحه، وتضيق عنه القلوب فيُقبض عليها فتَمجُّه، وإنما أُمِلُّه من قلبٍ إلى قلبٍ، وأُوعيه من عينٍ إلى عين.

وروينا أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم أرنى الدنيا كما تراها، فقال له رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل لا يرى الدنيا كما تراها، ولكن قُل: اللهم أرنى الدنيا كما يراها الصالح من عبادك».

وفى دعاء رسول الله ﷺ: «يا مكوِّن كل شىء، يا مكنون كل شىء».

فهذه مواجيد العارفين، ومشاهدة المحبين، وهى المعرفة الخاصَّة، فأما صفات الأزل والأبد والدهر والسرمدية والديمومية، فهى المعرفة الأصلية مركّبة فى الفطرة، فكأنها العقل مغروزةٌ فيه، وعليها الكافَّة من أهل القبلة من ذوى العقول، ولكنَّ العارف المحبَّ هو المتعرِّف إليه المقرَّبُ منه، فصفاتُ التجلِّى وهو صورة آدم ﷺ، والوصف الذى تجلَّى به لرسُولنا محمد ﷺ، بينهما المعرفة الخاصَّة يختص برحمته من يشاء.

والمحبة لا ترفع الهيبة، فلذلك كلُّ محبٍّ خائفٌ؛ لأن المحبوب مهوبٌ، والخوف قد يقبض عن المحبة؛ لشغل الخائف بوصفهِ السَّالف. وهذا كشف الأبرار، وهو حجاب المقربين، إلاّ أن المحبين لهم من الخوف قوتٌ، ومن المحبة اتساعٌ، والخائفون لهم من الخوف اتّساع، ومن المحبة قوتٌ. وهذا كما نقول فى الرجاء والخوف؛ لأنهما وصفا الإيمان، إلا أن الخائف يتدرج الرجاء فى حالهِ، والرّاجى ينطوى الخوف فى رجائه.

كذلك المحبُّ يصير الخوفُ فى عَقْده، ويظهرُ الحبُّ فى وَجْده، والخائفُ يغيبُ الحبُّ فى عَقْده، ويظهر الخوف فى وجَده، إن ربى لطيفٌ لما يشاء، هذا لظهور الطّرقات ومبانى الدّرجات، إذ كان لا بد من مجموعها فى قلب؛ لأنهما من شرط الإيمان وحقيقته، فتلطَّف سبحانه لحكمته بقدرته.

وفى سبق ترتيب المقامات من الله تعالى حُكمٌ غريبٌ، وحِكمة لطيفةٌ، لا

يعرفها إلا من أُعطى يقين شهادتها، إن سبق إلى العبد بمقام الخوف كان محبًا، حب المقربين العارفين، وإن سبق إليه بمقام المحبة كان محبًا، محبة أصحاب اليمين، ولم يكن له مقامات المحبين المستأنسين ولا المشتاقين فى مقامات المقربين. وكلّ هؤلاء موقنون صالحون، وإن خرجت أحوالهم عن ترتيب علوم أهل الظاهر؛ لأن المنكر لهم أكثر من المقرِّ، والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون، هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون. وربما كانت المحبة ثوابًا للخوف ومزيدًا له، وهذا فى مقام العاملين، وربّما كان الخوف مزيد المحبةِ وثوابها، وهذا فى مقام العالمين. فمن كانت المحبة مزيدَه بعد الخوف فهو من المقربين المحبوبين، ومن كان الخوف مزيدَ محبته فهذا من الأبرار المحبين؛ وهم أصحاب اليمين.

وسئل بعض علمائنا البصريين: الحبُّ أفضل أو الحياء؟ فقال: الحبُّ الذى يُورث من الخوف الحياءُ أفضل منه، والحبُّ الذى يُورث منه الحياءُ أفضلُ من الحياء، وهو الشوق. وقال الجنيد: المحبة نفسها قُرب القلب من الله بالاستنارة والفرح.

فأما حبُّ تجلِّى الصّفات عن الأسماءِ الباطنة: فإنّا لم نذكر منها شيئًا، وإنّما ذكرنا محبة الأخلاق عن الأسماء الظاهرة، ولا أحسبُ أنه يَحِلُّ رَسْمُهُ فى كتابٍ، ولا كشفُهُ لعُموم الناس؛ لأنّه من سرّ المحبة لا يكاشف به إلا من اطلع عليه، ولا يتحدث به إلا من أُعطيه، وما رأيتُ أحدًا رسمه فى كتاب، لأنه لا يؤخذ من كتاب، وإنما يُتلقى من أفواه العلماء.

وقد كان أبو يزيد، وأبو شعيب المقفَّع، وسرى بن مُغلس، وأبو عبد الله بن الجلاّء، والجُنيد بعدهم؛ يذكرون العِشقَ فى مقاماتِ خليل ومحبٍّ، وزاد أبو يزيد ذكر العشق فى مقامات محبوبٍ، وجعله معشوقًا. وقد كان يُشير بذلك ويظهره عن نفسه لنفسه، كأنّهم يريدون وصفًا من الحُبّ مخصوصًا لا عن فعلٍ وسبب، بل لوَصفٍ تَحَلَّى به، فهذا لا يزيد بعمل، ولا ينقص بذنب، بل وصفٌ من وصف الحق بذلك على صفاتِ صفاتٍ، ومعنى معانٍ، إلاّ أن هذا ليس من معارف العامة، ولا تهتدى إليه قلوبهم، ولا يقدحُ فى جوهَرِ عقولهم، وليست

صفاتهم مكانًا لهذا، ولا أخلاقهم مخلّقةً عليه، ولا علومهم نافذةً فيه، فذكرهُ منكرٌ؛ لأن العقول تُنكره، والقلوب تمجُّه، والهِمَمُ لا تسرى فيه، والقلب لا يجدُ به، فلذلك كان طيُّه أحسن من نشره، وإنما يُنتسخُ من قلب إلى قلب، وهو يُشبه ما كتبنا عنه آنفًا من الخوف الثامن الذى لم نصفه لمن لا يعرفه.

وقد روينا لفظًا من هذا المقام فى أخبار داود ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إليه: تزعُم أنك منقطعٌ إلىَّ، تدَّعى عشقى، وتسىء الظن بى، ألق كَنفَك بين يدىَّ، لكى أختار لك، فإن محبتى من عبادى أن يكونوا رُوحانيين، لا يُقيمون مصابيح القُلوبِ. كن فى الدنيا وحدانيًا، تحبِّب العباد إلىَّ، هُنالك أرفع النور لك. شاهد المخلوقين ببدنك وقلبك، فإذا كنت كذلك قضيتَ ما عليك، وبَقِىَ ما علىَّ». وفى كلامٍ نحوه، قال فى آخره: «لا تهتم بالخبز وأنت تريدنى، آثِر هَواىَ على هواك، واغضب لى أشدّ مما تغضبُ لنفسك».

ومما نقل فى الأثر، من وصف من أُذيق منه، ولم يفصح بذكر وصفه، أنَّا رُوينا فى الأخبار: أن بعض الصدّيقين سأله بعضُ الأبدال أن يسأل اللهَ أن يرزقه ذَرَّةً من محبته، ففعل ذلك، فهام فى الجبالِ، وحار عقله، ووَلِهَ قلبه، وبقى شاخصًا سبعة أيام لا ينتفع بشىء، ولا ينتفع به شىء. فسأل له الصدِّيق ربه، فقال: يا رب انقُصه من الذّرة نصفها، فأوحى الله إليه: إنّما أعطيناه جُزءًا من مائةِ ألفِ جُزءٍ من ذَرّة من المعرفة، وذلك أن مائةَ ألفِ عبدٍ سألونى شيئًا من المحبة فى الوقت الذى سألنى هذا، فأخّرتُ إجابتهم إلى أن شفعتَ أنتَ لهذا، فَلمّا أجبتك فيما سألتَ أعطيتهم كما أعطيته، فقَسَمتُ ذَرّة من المحبة بين مائةِ ألفِ عبدٍ، فهذا ما أصابه من ذلك. فقلت: سبحانك أحكمُ الحاكمين انقصه مما أعطيته. قال: فأذهب اللهُ عنه جملة ذلك الجزءِ، وبقى فيه عُشر مِعشاره، وهو جزء من ألف جزء، فاعتدل خوفُه، وحبُّه، وعِلمه، ورجاؤه، وصار كسائر العارفين.

وأنشد الجنيد فى وصف العارف المحبوب(١):

(١) قبل هذه الأبيات كانت ثمت فقرة وأبيات أخرى فى (م) مضت من قبل فتركتها.

قريبُ الوَجدِ ذو مَرمًى بعيدٍ على الأحرار منهم والعبيدِ
غريبُ الوصفِ ذو علمٍ غريب كأنّ فؤاده زُبَر الحديدِ
لقد عزّت معانيه فغابت عن الأبصار إلاّ للشهيدِ
وللأحباب أفراحٌ بعيدٍ ولا يجد السُّرور له بعيدِ
ترى الأعيادَ فى الأوقات تجرى له فى كل يوم ألفُ عيدِ

وهذا النوع من وصف المعرفة وتجلِّى الوصف بمعنى المحبة لا يسع الخلق؛ لأن الله تبارك وتعالى يريد عمارة الدار الدنيا، فمثله فى الأحوال مثل الحلال لا يريد الله عز وجل أن يطعمه الكل لعمارة الأسواق، لأنّ الأمة كلها لو أكلوا حلالاً أربعين يومًا، خَربت الأسواق، لزهدهم فى الدنيا، فليس ذلك من الحكمة، ولو أنَّ العلماء كلّهم أكلوا حلالاً لم تسمع من هذه العلوم التى تسمعها شيئًا، لشُغلهم بنُفوسهم وإعراضهم عن أصحابهم، ففى تركِ ذلك حكمةٌ حسنةٌ، ورحمةٌ واسعةٌ.

ومن علم المحبةِ سهرُ الليل بمناجاةِ الجليل، والحنين إلى الغروب شوقًا إلى الخلوة بالمحبوب، ومناجاة القلب سرائر الوجد، ومطالعة الغيب. والمناجاة عند أهل المصافاة إنّما هى بالقلوب، وهى مطالعاتُها بواطنَ الغيوب، وجولانُها فى سرِّ الملكوت، وعلوُّها فى معانى الجبروت بأنوار أرواحها، يحملها شعاعُ أنوارِه فيوقعها على خزائن أسراره. والمناجاة دليلُ رؤيةِ القُرب، وشاهدُ وجودِ الأنس. وفيما أخبرنا عن الله تعالى أنه قال: «كذب من ادَّعى محبتى، إذا جنَّه الليل نام عنى. أليس كلُّ حبيب يحبّ الخلوةَ بحبيبهِ. فها أنا ذا قريبٌ من أحبابى، أسمع سرَّهم ونجواهم، وأشهدُ حَنِينهم وشكواهم».

وروينا عن بعض العلماء القدماء أن الله عز وجل أوحى إلى بعض الصدِّيقين: «إنّ لى عبادًا من عبادى يحبونى وأحبُّهم، ويشتاقون إلىَّ وأشتاقُ إليهم، يذكرونى وأذكرهم، وينظرون إلىَّ وأنظر إليهم، فإن حذوتَ طريقهم أحببتك، وإن عدلتَ عنهم مقتّك. قال: يا رب، وما علامتهم؟ قال: يراعونَ الظّلال بالنهار، كما يراعى الراعى الشفيق غنمه، ويَحنُّون إلى غروب الشمس كما تحنّ الطير إلى

أوكارها عند الغروب، فإذا جنّهم الليلُ، واختلط الظلام، وفُرشت الفرش، ونُصبت الأسرّة، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، نصبوا إلىَّ أقدامهم، وافترشوا لى وجوههم، وناجونى بكلامى، وتملّقوا لى بأنعامى، فبين صارخٍ وباكٍ، وبين متأوهٍ وشاكٍ، وبين قائمٍ وقاعدٍ، وبين راكعٍ وساجدٍ، بعينى ما يتحملون من أجلى، وبسَمعى ما يشتكون من حبى، فأول ما أُعطيهم ثلاثًا: أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم. والثانية: لو كانت السموات والأرض وما فيهما فى موازينهم لاستقللتها لهم. والثالثة: أقبل بوجهى عليهم فترى مَنْ أقبلتُ بوجهى الكريم عليه لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه».

فهؤلاء الذين أقبل الجبارُ بوجهه عليهم، والذين وصفناهم قُبيل، أنهم أحبّوه بكلٍّ قلوبهم، فكان كما قال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وكما قال: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦]، فنظروا إلى وجهه بنور وجهه، فتجلى بوصفٍ محبوبٍ فأحبوه، كما روينا عنه فى خبر موسى ﷺ: «أمَا علمتَ أنّى إذا نظرتُ إلى عبدى بوجهى كلّه زويتُ عنه الدنيا كلها».

والله تعالى لا ينظر إلى الأجسام والنفوس؛ لأنهما من الدنيا، وهو لا ينظر إليهما بعينه العزيزة المكنونة، إنما ينظرُ إلى القلوب والأعمال؛ لأنهما من الآخرة، وهو ينظر إليها بعينه فتزداد إشراقًا وحُسنًا عن نوره وحُسنه، ثم لا ينظر إلاّ إلى قلوب الموقنين وأعمال المخلصين، فبنُوره رآه، وفى نوره تجلّى.

فأما العموم فقلوبهم كأجسادهم، وأعمالهم تشبه قلوبهم، فالله سبحانه ينظر إليهم كنظره إلى الدنيا بعين التدبير والتقدير، فمعارفهم ظاهر التوحيد عن ظاهر الصفات والأسماء، وهو الذى ذكرناه آنفًا من أنهم عرفوه بالمُلك والحِكمة، وشَهِدُوه بالقدرة والأزلية عن معنى ما نظر به إليهم، فسبحان مَنْ وَسِع كل شىء رحمةً وعلمًا، وسبحان مَنْ نظر إلى من يحبّ بالوصف الذى يحب، فأحبوه عن نظره.

وأما الشوق فإنه مقامٌ رفيعٌ من مقامات المحبة، وليس يُبقى الشوقُ للعبد راحةً

ولا نعيمًا فى غير مشوقه، والمشتاقون مقرَّبون بما أُشهدوا من الشوق إليه، وهم المأمور بطلبهم، الموجود الحبيب عندهم، مثوبةً منه لهم لما شوقهم إليه، فى قوله لموسى عليه السلام: «اطلبنى عند المنكسرة قلوبُهُم من أجلى»، هم المشتاقونَ مِن المحبينَ. والله أعلم وأحكم.

وذلك أنّ الحبيب قَرُب منهم بوصفه تكرّمًا، ففرحوا بقربه، وعاشوا بمُشاهدته، ونعموا بحضورهم عنده، ثم احتجب عنهم غيرةً على نفسه لعزه، فانكسرت قلوبهم لأجله، فاشتاقوا إلى ما عوَّدهم منه، فثبتت لديه حرمتهم، فأمر أولياءه بطلبهم، وأوجد نفسه عندهم لمكانتهم عنده؛ ففَرَحُ هؤلاء من المحبين بقربه لا يُوصف، وانكسارُهم وحزنهم لأجله لا يُعرف، والله سبحانه قد يعرض عن محبيه تعزّزًا، ليزعجهم الشوق إليه، ويُقلقهم الأسفُ عليه، وينظر إليهم فى إعراضه عنهم من حيث لا يعلمون، لينظروا إليه من حيث يعلمون، فيسكنون بالأدب بين يديه.

وحدثونا عن إبراهيم بن أدهم، وكان أحد المشتاقين، وهو من الأبدال هؤلاء الذين نتكلم فى علمهم، ونكشف طريقهم، وكانت له ـ رحمه الله ـ أماكنُ من المحبة رفيعة، ومكاشفاتٌ فى القرب عَلِيَّة. قال: قلتُ ذات يوم: يا ربّ، إن كنتَ أعطيتَ أحدًا من المحبين لك ما تسكن به قلوبهم قبل لقائك، فأعطنى ذلك، فقد أضرّ بى القلق. قال: فرأيتُ فى المنام أنه أوقفنى بين يديه، فقال: يا إبراهيم، أمَا استحيتَ منى أن تسألنى ما يسكن به قلبُك قبل لقائى، وهل يسكن المشتاق قبل لقاءِ حبيبه؟ أم هل يستروح المحبُّ إلى غير مشوقه؟ قال: قلتُ: يا رب، تُهتُ فى حبِّك فلم أدر ما أقول، فاغفر لى، وعلّمنى كيف أقول. فقال: قل: اللهم رضِّنى بقضائك، وصبِّرنى على بلائك، وأوزعنى شكر نعمائك.

فهذا كما قال المحبُّ:

مَنْ أراد الحبيبَ سـار إليـه   وجفا دُونه وصـالُ القريبْ
ليس داءُ المحبِّ داءً يُداوَى   إنّمـا بُرْؤه لقـاءُ الحبيبْ

وكما قال المستهتر(١) المشغوف:

سكنٌ أسكن المحبــة قلبى ليس لى دون قُربهِ من سكونْ
إنْ تذكَّرتُه فكُلِّى قلــوبٌ أو تأمَّلتُــه فكلِّى عُيــونْ

فمقام الشوق فى المحبة يجلُّ عن الوصف، ويجاوز فى العلوم والفضل كُلَّ عُرف، ولا يصلح أن نصفه إلا أنَّا نذكر من ذلك ما سمعناه، نقلاً، فلا تُنكرنَّ لأولياء الله وأحبائه فضلاً، ولا تَمْزُجَنَّ فيه بالتدبير والقياس عقلاً، فقد جاوز مقامهم كلَّ عقلٍ، كما اشتمل حالهم ووجدهم بمحبوبهم كلَّ فضل.

روينا فى أخبار نبى الله داود ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إليه: كم تذكر الجنة ولا تسألنى الشوق إلىَّ؟ قال: يا رب، من المشتاقون إليك؟ فقال: إن المشتاقين إلىَّ من نَقَّيتُهم من كلِّ كَدَرٍ، ونبّهتهم بالحَذَر، وخرقتُ من قلوبهم إلىَّ خرقًا ينظرون إلىَّ، وإنى لأحمل قلوبهم بيدىَّ فأضعها على سمائى، ثم أدعو نجباء ملائكتى فإذا اجتمعوا سجدوا لى، فأقول: إنى لم أدعُكم لتسجدوا لى، ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلىَّ، وأُباهى بكم أهل الشوق إلىَّ، وإن قلوبهم لتُضىء فى سمائى لملائكتى، كما تضىء الشمس لأهل الأرض. يا داود، إنه من ذكرنى ذكرتُه، ومن آنس بى آنستُه، ومن جلس إلىَّ جالسته، لأنى أنا أكرم الكرماء وأحكم الحكماء. يا داود، إنى خلقتُ قلوب المشتاقين من رضوانى، ونعَّمتها بنور وجهى، واتخذتهم لنفسى محدِّثين، وجعلتُ أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض، وخرقتُ من قلوبهم طريقًا ينظرون به إلىَّ، يزدادون فى كل يوم شوقًا.

قال داود: يا رب، أرنى أهل محبتك، فقال: يا داود، ائت جبل لُبنان، فإن فيه أربع عشرة نفسًا، منهم شباب، وفيهم كهول، ومنهم مشايخ، فإذا لقيتهم فأقرئهم منى السلام، وقل لهم: إن ربكم يقرؤكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألونى حاجةً، فإنكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى، أفرح لفرحكم، وأسارع إلى محبتكم.

---

(١) المستهتر: المولع بالشىء.

فأتاهم داود عليه السلام، فوجدهم عند عين من الأمواه يتفكرون فى عظمة الله عز وجل، فلما نظروا إلى داود نهضوا ليتفرقوا عنه، فقال داود: إنى رسول الله إليكم، جئتكم لأبلِّغكم رسالة ربكم، فأقبلوا نحوه وألقوا بأسماعهم نحو قوله، وألقوا أبصارهم إلى الأرض.

فقال داود: إنى رسول الله إليكم، إن ربكم يقرئكم السلام، ويقول لكم: ألاَ تسألونى حاجة؟ ألا تنادونى أسمع أصواتكم وكلامكم؟ فإنكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى، أفرح لفرحكم، وأسارع إلى محبتكم، وأنظر إليكم فى كلِّ ساعة نظرة الوالدة الشفيقة الرقيقة. قال: فجرت دموعهم على خدودهم.

فقال شيخهم: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من عُمرنا.

وقال الآخر: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنُن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك.

وقال الآخر: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، أفنجترئ على الدعاء وقد علمتَ أنه لا حاجة لنا فى شىء من أمورنا، فأدم لنا لزوم الطريق إليك، وأتمم بذلك المنّة علينا.

وقال الآخر: نحن مقصِّرون فى طلب رضاك، فأعنَّا عليه بجودك.

وقال الآخر: من نطفة خلقتنا، ومننتَ علينا بالتفكُّر فى عظمتك، أفيجترئ على الكلام من هو مشتغلٌ بعظمتك، متفكِّر فى جلالك، وطِلبتُنا الدنوُّ من نورك.

وقال الآخر: كلَّت ألسنتنا عن دعائك لعظيم شأنك، وقربك من أوليائك، وكثرة منَّتك على أهل محبتك.

وقال الآخر: أنت هديتَ قلوبنا لذكرك، وفرَّغتنا للاشتغال بك، فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك.

وقال الآخر: قد عرفتَ حاجتنا؛ إنّما هى النظر إلى وجهك.

وقال الآخر: كيف يجترئ العبدُ على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بجودك، فهب لنا نورًا نهتدى به فى الظلمات بين أطباق السماوات.

وقال الآخر: ندعوك أن تُقبل علينا، وتزيده عندنا.

وقال الآخر: نسألك إتمام نعمتك، فيما وهبتَ لنا وتفضَّلتَ به علينا.

وقال الآخر: لا حاجة لنا فى شىءٍ من خلقك، فامنن علينا بالنظر إلى جلال وجمال وجهك.

وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمى عينىَّ عن النظر إلى الدنيا وأهلها، وقلبى عن الاشتغال بالآخرة.

وقال الآخر: قد عرفتُ ـ تباركت وتعاليت ـ أنك تحب أولياءك، فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شىء دونك.

فأوحى الله تعالى إلى داود: قل لهم: قد سمعتُ كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم، فليفارق كلّ واحدٍ منكم صاحبه، وليتخذ لنفسه سَرَبًا، فإنى كاشف الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى نورى وجلالى.

فقال داود: يا رب بم نالوا هذا منك؟ قال: حسن الظن، والكفُّ عن الدنيا وأهلها، والخلواتُ بى ومناجاتهم. وإنّ هذا منزلٌ لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها، ولم يشتغل بشىء من ذكرها، وفرّغ قلبه لى، واختارنى على جميع خَلْقى، فعند ذلك أعطف عليه، وأفرِّغ نفسه، وأكشف الحجاب فيما بينى وبينه حتى ينظر إلىَّ نظرَ الناظر بعينه إلى الشىء، وأريه كرامتى فى كل ساعةٍ، أقرِّبه من نور وجهى، إن مرضٌ مرَّضته كما تمرِّض الوالدة الشفيقة ولدها، وإن عطش أرويته، وأذيقه طعم ذكرى، فإذا فعلتُ ذلك يا داود، عمَّيتُ نفسه عن الدنيا وأهلها، ولم أحببها إليه، لا يفتر من الاشتغال بى، يستعجلنى القدومَ، وأنا أكره أن أُميته، لأنه موضع نظرى من بين خلقى، لا يرى غيرى ولا أرى غيره، فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه، ونَحِلَ وهشمت أعضاؤه، وانخلع قلبه إذا سمع ذكرى، أُباهى به ملائكتى، وأهل سماواتى تزداد خوفًا وعبادةً، وعزّتى وجلالى يا

داود لأقعدنَّه معى فى الفردوس، ولأشفينَّ صدره من النظر إلىّ حتى يرضى وفوق الرضى»(١).

فهذه مقامات المشتاقين فى مراتب الشوق عن درجات الحب ،ومراقى المعارف والوجد، فكلُّ مشتاق منهم نطق بحقيقة وَجْده، وعبَّر عن وجهة حبه، دلَّ بذلك على حاله، وأخبر به عن نفسه وسرِّه، وقد أحببت أن أشرح أحوالهم، وأفصِّل مواجيدهم، وأكشف سرائر مراتبهم، وأبيِّن رفيع مكانهم، وأوسِّع أنصبة تمكينهم، ويعز علىَّ أنى لا أستطيع ذلك، ولا يصلح رَسْمُه فى كتابٍ، لأنّ الكتاب يتداول، والرسم ينتقل، فتعذَّر ذلك علىَّ، وقلّة إمكانه من قِبَلِ السامعين، ولقلّة أنصبة الواجدين، وخيفة إنكار ذوى العقول، لحجبهم بالعقل، إذ هو حجاب اليقين، فإن أخبرناهم بما ليس فى وسعهم، وكاشفناهم بما قد قَصُرت عنه أوهامهم، ولم تفكر فيه قلوب أفهامهم، تفاوت الأمرُ عليهم، فآدهم ضبطُه، وتشتَّتت به قلوبُهم، فلم تجتمع على حفظه، ولكن الطريق القاصد إلى الله سبحانه، الموصِّل أهله إلى رضاه ومحبته اللَّذين هما سبب هذا الفضل العظيم، هو بُغض الدنيا وأبنائها، فهو أصل كلّ مرتبة عليه، كما أن حبَّ الدنيا وحبَّ أبنائها أصلُ كلِّ نفاقٍ وخطيئة.

كما روينا فى أخبار داود عليه السلام: «إن الله تعالى أوحى إليه: تزعم أنك تحبنى، فإن كنت تحبنى فأخرج حُبَّ الدنيا من قلبك، فإن حبى وحب الدنيا لا يجتمعان فى قلب واحد. يا داود، خالص حُبِّى مخالصة، وخالط أهل الدنيا مخالطة، ودينك فقلِّدنيه، ولا تقلِّد دينك الرجال، أمَّا ما استبان لك بما وافق محبتى فتمسك به، وأمّا ما أشكل عليك فقلدنيه حقًا على أنه إلىَّ سياستك أو تقويمك، وأكون قائدك ودليلك، أعطيك من غير أن تسألنى، فأعينك على الشدائد، فإنى قد حلفت على نفسى أن لا أثيب عبدًا، إلا عبدًا قد عرفتُ مَنْ طُلْبَتُه وإرادتُه، ألقى كنفه بين يدىَّ، وأنه لا غنى به عنِّى، فإذا كنتَ كذلك نزعتُ الذّلَّ والوحشة عنك، وأُسكن الغنى قلبك، فإنى قد حلفت على نفسى أنه لا يطمئن عبدٌ لى إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلاّ وَكَلْتُه إليها. أضف الأشياء إلىَّ لا

(١) هذا الخبر بطوله فى (م) فقط.

تضادّ عملَكَ فتكون مُتغيبًا، ولا ينتفع بك مَنْ يصحبك، ولا تجدَّ لمعرفتى حدًا، فليس لها غاية، ومتى طلبتَ منى الزيادة أعطيك، ولا تحد لزيادتى منى حدًا. ثم أعلم بنى إسرائيل أنه ليس بينى وبين أحدٍ من خلقى سببٌ، فَلْتَعْظُم رغبتهم وإرادتهم عندى، أبيحُ لهم ما لا عينٌ رأيت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب امرئ. ضعنى بين عينيك، وانظر إلىَّ بعين قلبك، ولا تنظر بعينيك فى رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عنى، فأمْزَجوها وسَخَت بانقطاع ثوابى عنها، فإنى حلفتُ بعزتى وجلالى لا أفتح ثوابى لعبد دخل فى طاعتى للتجرب وللتسويف. تواضع لِمَن تعلِّمه ولا تطاول على المريدين، فلو علم أهل محبتى منزلةَ المريدين عندى لكانوا لهم أرضًا يمشون عليها.

يا داود، لأن تُخرج مريدًا من سكْرةٍ هو فيها تستنقذه فأكتبك عندى جهبذًا، ومن كتبته جهبذًا لا يكون عليه وحشة ولا فاقةٌ إلى المخلوقين. يا داود، تمسَّك بكلامى، وخذ من نفسك لنفسك، لا تؤتَيَنَّ منها، لا أحجب محبتى عنك، ولاتؤيسنَّ عبادى من رحمتى أقطع شهوتك علىَّ، فإنما أبحتُ الشهوات لضَعَفَة خلقى، ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات، فإنها تنقص حلاوة مناجاتى، فإنما عقوبة الأقوياء عندى فى موضع التناول، أدنى ما يصل إليهم أن أحجب[1] عقولهم عنى، فإنى لم أرضَ الدنيا لحبيبى ونزَّهته عنها.

يا داود، لا تجعل بينى وبينك عالِمًا يحجبُك سُكره عن محبتى، أولئك قطّاع الطريق على عبادى المريدين، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصّوم، وإيّاك والتجربة فى الإفطار، فإن محبتى فى الصوم وإدمانه.

يا داود، تحبَّب إلىَّ بمعاداة نفسك، امنعها الشهوات أنظرْ إليك، وترى الحجُبَ بينى وبينك مرفوعةً إنما أواريك مواراةً، لتَقْوى على ثوابى إذا مننتُ به عليك، وإنى أحبسه عنك وأنت ممسكٌ بطاعتى.

واعلم: أن كلَّ محبٍّ لله عز وجل فعن محبة الله سبحانه؛ لأن وجود العبد بمحبته لله تعالى علامةُ غيب محبته الله تعالى له بين ذلك الغيب من الله تعالى فى

(١) فى الأصل (م): «أتحبب»، ولعل الصواب ما أثبت.

الشهادة من عنده. ثم أنَّ كُلَّ عبد أحبّ الله سبحانه فمن حيث أحبه الله تعالى، كما أنه عرَفَه من حيث واجههُ، وكل من خدمه وتأدَّب بين يديه، وعبده وتعبَّد له بمعنى من معانى العبادات، فذلك هو عن معنى ما أحبَّه وواجهه من معانى الصفات، لا يمكننا شرح ذلك، إلاّ أنه كما نقول فى الدعاء إلى الله عز وجل، والأدلة عليه والمطرّقين للعباد إليه: أن كل داعٍ ودليل دعا إلى الله تعالى فمن حيث دعاه الله تعالى إليه، ودلّ على الله فمن حيث دله عليه، وطرّق إليه سبيل العبادات، وسهَّل منهاج القُربات، فمن حيث طرّقه الله تعالى، وسهّل له السبيل إليه. ومن المحبة كتمانُ بلاء الحبيب بعد الرضا به؛ لأن ذلك من السر عنده وحُسن الأدب لديه.

وعوتب أبو محمد رحمه الله فى العلّة التى كانت به، وكان يداوى الناس منها، ولا يداوى نفسه، فقيل له فى ذلك، فقال: ضربُ الحبيب لا يُوجع.

وكان الجنيد يقول: من علامة المحُب فى المكاره والأسقام هيجانُ المحبة، وذكرها عند نزول البلاء، إذ هو لطفٌ من مولاه، وفيه القربة إلى محبوبه، وقلّة التأذّى بكل داءٍ وبلاءٍ يصيبه؛ لغلبة الحب على قلبه.

وقد كان بعض المحبين يقول: أصفى ما أكون ذكرًا إذا كنتُ محمومًا. وذكر بعض من ينتمى إلى المحبة مقامه فى المحبة عند بعض المحبين، فقال له: أرأيت هذا الذى تذكر محبته، اهتممتَ بسواه؟ قال: نعم. قال: فهل رأيته فى ليلةٍ مرتين وثلاثًا؟ قال: لا. قال: لولا أنى أستحى لأخبرتك أن محبتك معلولة، تهتم بسوى حبيبك، ولا تراه فى نومك. ثم قال: لكنى أعرف من لا يدَّعى محبته، وعلى ذلك ما اهتمَّ بسواه منذ عرفه، وربما رآه فى ليلةٍ سبع مرات.

وإنما لم يهتم المحبُّ بسواه من قِبَل أنه لا ينساه، فكيف يذكره من ليس ينساه؟ بل هومذكورٌ بذاكرٍ، لا ذاكرٌ بتذكير أو تَذَكُّرٍ، وهاهنا افتضح المدَّعون، وانكشف المستورون، أن أهتم بغيره فقد نسيه، والحبيب لا يُنسى؛ لأنه لازم للهمِّ، مُستَشْعَر بالقلب، لاحظٌ فى العين، هو الناظر والمنظور، وهو السامع والمسموع، وهو الشاهد والمشهود، وهو الواجد والموجود. كما قال بعض المحبين: ليس فى القلب

والعيال جميعًا موضعٌ نافعٌ لغير الحبيب، هو سُقمى وصِحتى وشفائى، وبه العيش ما حييت يَطيب.

فمَن كان هذا وصفه من العين والقلب والروح والعقل، فمحال أن يُنسى، ومن استحال أن يُنسى، فكيف يحول ذكرهُ عن القلب، أم كيف تحول بغيره الهمّ كيف؟!

وقد روينا فى الخبر: «المنافق لا يَذكر حتى يُذكَّر،وإذا تُرك نَسى. ولا تكونوا كاليهود إذا قرئت عليهم التوراة مادُوا لها، فإذا رُفعت لم يكن وراء ذلك شىء».

وفى الخبر المجمل: «من كان له من قلبه واعِظٌ كان عليه من الله حافظٌ».

وفى أخبار داود عليه السلام: «قل لعبادى المتوجهين إلى محبتى: ما ضرَّكم إذا احتجبتم عن خلقى، ورفعتُ الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلىَّ بعيون قلوبكم، وما ضرَّكم ما زويتُ عنكم من الدنيا إذا بسطتُ دينى لكم، وما ضرَّكم مسخطة الخلقِ إذا التمستم رضاى».

• ذكر تفصيل علم السماع للقول، ووصف الصحيح من ذلك والمعلول، ووصف الواجدين بحق، وذمّ المتواجدين بهوى(١):

وقد حدثونا بمعنى ذلك عن أحمد بن عيسى الخراز، أنّه كان مشتهرًا بالسّماع، كثير الحركة والصعق عنده. فذكر بعض أصحاب سهل قال: رأيته فى المنام بعد موته، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفنى بين يديه، فقال لى: يا أحمد، حملتَ وصفى على ليلى وسُعدى، لولا أنى نظرت إليك فى مقام واحدٍ أردتنى به خالصًا لعذّبتك. قال: وأقامنى من وراء حجاب الخوف فأُرعدت وفزعت ما شاء الله، ثم أقامنى من وراء حجاب الرضا، فقلت: يا سيدى لم أجد من يحملنى غيرك، فطرحت نفسى، فقال: صدقْتَ، من أين تجدُ من يحملك غيرى. قال:

---

(١) هذا العنوان ساقط من المطبوعة، وهو فى (د، م). وقد ألف ابن القيم كتابًا فى إبطال السّماع، وعقد مناظرة بين صاحب الغناء وحججه، وصاحب القرآن وحججه، وأشار إلى بعض من كلام أبى طالب هنا، والكتاب عنوانه: «الكلام على مسألة السماع»، تحقيق راشد بن عبد العزيز، دار العاصمة ـ الرياض، ١٤٠٩هـ.

وأمر بى إلى الجنة. وكان هذا الحال فى بداية أبى سعيد، وفى أول إرادته، ثم نُقل من ذلك إلى مقامات فى التعريف، فنفذ نظره، وصحَّ سمعه؛ لعُلوِّ وَجْده، وقوَّة عِلمِه، وحُسن يقينه.

وفى هذا تخويف للسامعين على التشبيه، الحائدين عن سمع أهل الفهم والتنبيه؛ لأن السماع علمٌ لا يصلحُ إلا لأهل الصفاء. فمن سمعه على كَدَر فذاك له محنةٌ وضرر، ويدخل من الآفات على نقصان المشاهدات إذا سمع من قِبَل النغمة والصوت ما يدخل على من نظر إلى الأيدى فى العطاء؛ لأن الصوتَ ظرفٌ للمعانى، بمنزلة اليد ظرفٌ للأرزاق، فالناظرُ الموقنُ يأخذ رزقه من اليد ويترك النظر، والسامعُ المحقُّ يأخذ المعانى من الصّوت، ولا يلتفت إلى التنغيم بها، ثم يعتلان معًا من قِبَل الوَجْد المعلول، والعلل تدخل المواجيد، كما يدخل الإلحاد فى معانى التوحيد، فيعتل الواحد بالخلق فى السماع من قِبَل الهوى ، كما يعتل الآخذ للعطاء من أيدى الخلق بالرياء.

فمن سمع على التشبيه والتمثيل ألحد، ومن سمع على الهوى والشهوة فهو لَعِبٌ، ومن سمع باستخراج الفهم، ومشاهدة العلم على معانى صفات حقٍّ ونظرٍ، وتطرُّقًا ودليلاً على آيات صدقٍ، كان سامعًا على مزيدٍ. وهذه طرائق أهل التوحيد.

وفى السماع: حرام، وحلال، وشُبهة. فمن سمعه بنفسٍ، بمشاهدة هوى وشهوة، فهو حرام.

ومن سمعه بمعقوله على صفة مباحٍ من جارية وزوجةٍ، كان شبهة لدخول اللهو فيه. وفعل هذا بعض السلف من الصحابة والتابعين.

ومن سمعه بقلب بمشاهدة معانٍ تدله على الدليل، وتُشهده طرقات الجليل، فهذا مباح، ولا يصح إلا لأهله ممن كان له نصيبٌ منه، ووجد فى قلبه مكانًا له لعبدٍ أُقيم مقام حزنٍ، أو شوقٍ، أو فى مقام خوفٍ، أو محبةٍ، فيحركه السمعُ، ويخرجه إلى الشهادة؛ فيكون ذلك له مزيدًا من المسمع الشهيد.

وقد كان أبو سليمان الدارانى، وهو من العارفين، يقول: السَّماعُ لا يجعل فى القلب ما ليس فيه، إنما يحرك منه ما فيه.

وكان بعضهم يقول: كنا نعرف مواجيد أصحابنا فى ثلاثة أشياء: عند المسائل، وعند الغضب، وعند السماع.

وحدثنا محمد بن عيسى بن خاقان المقَّرى، عن بعض أشياخنا، عن أبى القاسم الجنيد، قال: تنزل الرحمة على هذه الطائفة فى ثلاثة مواطن: عند الأكل؛ فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة. وعند المذاكرة؛ لأنهم يتحاورون فى مقام الصديقين وأحوال النبيين. وعند السماع؛ لأنهم يسمعون بوَجْدٍ، ويشهدون حقًا.

وقد كان بعض الواجدين يقتات السماع، فيجعله قوته يتقوَّى به على زيادة طيِّه. كان أحدهم يطوى اليومين والثلاث، فإذا تاقتْ نفسه إلى القوت عَدَل بها إلى السماع، فأثار مواجيده، وأهاج أشواقه، فحماه ذلك عن الطعام، وأغناه عن الأنام.

ومنهم من كان يجعله أذكاره، فيذكر به أوطاره، ويرتاح به قلبه إلى الحق استطارةً. وكان مزيدًا لأكثرهم، وتقوية لحاله. وهو جندٌ من جنود الله يقوِّى به قلوب الواجدين، ويروِّح به أرواح الصادقين، ويفرِّج به كُربَ الخاشعين، ويُكرِّب به نفوس المرتاجين، ويطرِّب به المحزونين، ويحزِّن به الطَّرْبيين، ويشوِّق به المحبين، ويحبِّب به المريدين. إلا أنه لا يصلح إلا لقلبٍ صافٍ من الأكدار، نقيٍّ نظيف من الآثار. من شهد فيه خَلْقًا فذاك علامة كدر قلبه وبُعده، ومن أدخل فيه لعبًا ولهوًا فهو دليل نقص لُبِّهُ وفَقْدِه، ومن وقف فيه مع نَغْمةٍ، فهو عليه محنة ونقمة، ومن أصغى به إلى صوتٍ، تصوّر به فى وَهْمه المنغِّمَ المصوِّت به، كان عليه فتنةً.

ومن ألقى سمعه، وأشهد قلبه، وأحضر فهمه، فذكر به الذاكر، وتعلَّم به المذكِّر ، فسمع إلى السميع، وعلم من الفتاح العليم، ونطق بوالى الناطق، ونظر به إلى الناظر، فهذا هو المستمع الذاكر.

فلمثل هذا يصح السماع، وبِسَمْعِهِ يُرجى له الانتفاع، وما يعقلها إلا العالمون(١).

وحدّثنى بعض الشيوخ، عن شيخٍ له، قال: رأيت أبا العباس الخَضِر، فقلت: ما تقول فى هذا السّماع الذى يختلف فيه أصحابنا؟ فقال: هو الصَّفا الزلال الذى لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء. يقول: إنه محنة وكشف للسامعين، فهو للصادق المحب قُربة وعبادة، وهو للمدعى اللاهى فتنةٌ وشهوة، فهو الصفا المزلق للأقدام، لما فيه من تشبيه الأنام. وهو تثبيت للعلماء لشهادتهم به صفات العالِم.

وحدثونا عن أبى ممشاذ الدِّينورى(٢)، قال: رأيت النبى ﷺ فى النوم، فقلت: يا رسول الله، هل تُنكر من هذا السماع شيئًا؟ ما أُنكر منه شيئًا، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن، ويختمون بالقرآن. قال: قلت: يا رسول الله، إنهم يؤذوننى وينبسطون علىَّ. فقال: احتملهم يا أبا على، هم أصحابك، فكان ممشاذ يفتخر بها، ويقول: كنّانى رسول الله ﷺ.

وحدثنى طاهر بن محمد بن بلبل الهمذانى الورّاق، وكان من أهل العلم، قالت: كنت معتكفًا فى جامع جَدّه(٣)، فرأيت ذات يوم طائفة يقولون فى جانب منه قولاً ويسمعون، فأنكرتُ ذلك بقلبى، وقلت: فى بيتٍ من بيوت الله يقولون القول والشعر؟ قال: فرأيت النبى ﷺ تلك الليلة وهو جالسٌ فى تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر الصديق، وإذا أبو بكر يقول شيئًا من القول، والنبى ﷺ يسمع إليه، ويضع يده على صدره كالواجد بذلك، فقلت فى نفسى: ما كان ينبغى لى أن أنكر على أولئك الذين كانوا يسمعون، وهذا رسول الله ﷺ يسمع. فالتفت إلىَّ النبى ﷺ فقال: هذا حقٌ بحق، أو حقٌ من حقٍ. أنا أشك.

---

(١) يتضح جيدًا من هذا الكلام الرأى الدقيق لأبى طالب تجاه السماع، فهو لا يبيحه إلا بشروط، ولطائفة معينة، وكذا رأى المحققين من الصوفية. انظر «اللمع» للطوسى، ص ٣٣٨.

(٢) ترجمته فى طبقات الصوفية، ص ٣١٦، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٥٣. كان «عظيم المرمى فى هذه العلوم، أحد فتيان الجبال، كبير الحال، ظاهر الفتوة. ذكر أبو زُرعة أنه مات سنة تسعٍ وتسعين ومائة».

(٣) كذا بالأصل.

فهذا يدلك أن السماع على نوعين: ما كان منه عن وَجْد بحق وشهادة صدقٍ، مثل شوق أو حزن أو خوف أو محبة، فهو طريقٌ إلى الله ودليلٌ منه، وما كان عن وَجْد ولهو وشهادة خلق، فهو لعب وهوًى، فمقامه مقام الشبهات؛ لاختلاف أحوال السامعين، والتباس الآيات، فالصادق والمحقُّ يسمعه من صادقٍ محقٍّ، والمتواجد المُبطِل يسمعه بنغمةٍ من خَلْق، وقد تكون النغمة به من الشهوة الخفية فيه، لأنا روينا عن نبينا ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتى الشهوة الخفية، والنغمة الملهيَّة». وروينا عن حماد عن إبراهيم قال: «الغناء ينبت النفاق فى القلب». ورفعه ابن الزبير عن جابر إلى رسول الله ﷺ، وزاد فيه: «كما ينبت الماء الزرع». والمشهور أنه عن ابن مسعود.

وليثٌ عن مجاهد، فى قوله عز وجل: ﴿**ومِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ الله**﴾ [لقمان:٦] قال: الغناء. وهذا كما قالاه؛ لأن استماع الغناء حرامٌ وأجور المغنيَّات وأثمانهنَّ حرامٌ، وذلك من عمل الشيطان؛ لأن روينا فى تفسير قوله: ﴿**واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنهُمْ بِصَوْتِكَ**﴾ [الإسراء:٦٤] قيل: الغناء والمزامير.

والفرق بين الأغانى والقصائد: أن الأغانى ما شُبِّب به النساء، وذُكر فيه الغزل والهوى، وشوَّق إلى الشهوة واللعب، فمن سمع من حيث قال القائلون من هذه المعانى، فالسماعُ عليه حرام. والقصائد هو ما ذكَّر بالله، ودلَّ عليه، وشوَّق إليه، وأهاجَ مواجيدَ المؤمنين، وأثار مشاهدة العارفين، وذُكر به طرقات الآخرةِ، وعُرِف منه أحوال الصادقين، فمن سمع من حيث شهد بهذه الشهادة، فهو من أهلهِ، إذ له نصيب منه.

وقد روى عن رسول الله ﷺ: «إنّ من الشعر لحكمة»، ولم يقل: كل الشعر. وروى أن رجلاً دخل على النبى ﷺ، وعنده قومٌ يقرأون القرآن، وقومٌ يُنشدون الشعر، فقال: يا رسول الله، قُرآنٌ وشعر، فقال: من هذا مرةً ومن هذا مرة.

وقد دخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه على عائشة وعندها قينتان تقولان،

فأنكر ذلك، وكان رسول الله ﷺ مُسَجًّى بثوبه، فكشف الثوب عن وجهه، ثم قال: «دعها يا أبا بكر». فلو لم يكن شبهة ما أنكره أبو بكر، حتى أبان عنها رسول الله ﷺ.

وقد حدثنى بعض الأشياخ عن الجنيد فقال: رأيتُ إبليس فى النوم، فقلت له: هل تظفر من أصحابنا بشىء، أو تنال منهم نصيبًا؟ فقال: إنه ليَعسُرُ علىَّ شأنهم، ويعظُم علىَّ أن أصيب منهم شيئًا، إلاّ فى وقتين، قلت: أىُّ وقت؟ قال: وقت السماع، وعند النظر، فإنى أسترق منهم فيه، وأدخل عليهم به.

قال الجنيد: فحدَّثت بهذا بعض أشياخنا فقال: لو رأيتُه أنا لقلت له: يا أحمق من سمع منه إذا سمع، ونظر إليه إذا نظر، لم تربح أنت عليه شيئًا، ولم تظفر منه بشىء. فقال له الجنيد: صدقت.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩]، فالكلام زوجان: منثور ومنظوم، فالمنثور كلام العامة، والمنظوم كلام الشعراء. فما ذُكر الله به، وذكر منه، فهو طريق إليه.

ولم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة، وهى الأيام المعدودات، التى أمر الله عباده فيها بذكره، أيام التشريق، فى قوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة:٢٠٣].

وكان لعطاء جاريتان تُلَحِّنان، فكان إخوانه يستمعون إليهما. ولم يزل أهل المدينة مواطئين لأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا. فأدركنا أبا مروان القاضى له جَوارٍ يُسمعن التَّلحين، قد أعدهنَّ للمتصوّفين، فكان يجمعهم لَهُنَّ، ويأمُرُهُنَّ بالإنشاد، وكان فاضلاً.

وسئل شيخنا أبو الحسن بن سالم رحمه الله، حدثنى بعض أصحابنا عنه بذلك؛ أنه قيل له: بلغنا أنك تُنكر السَّماع، وقد كان الجنيد وسرى السّقطى وذو النون يسمعون، فقال: كيف أنكر السماع وقد سمعه عبد الله بن جعفر الطيّار، وإنما أنكر اللهو واللعب فى السَّماع.

وهذا كما قال؛ لأنَّ القرآن الذى هو الغاية فى الفضل، ثم العلم ومعانى الحق، إذا دخل ذلك لَهْوُ النفس بالهوى فيه، ولَعِبُ الطبع بالطربِ والمزحِ، صار مُنكرًا، ودخلته الكراهةُ بخروج الآخرة منه والعلم. وكذلك القول فى النَّظر والكلام، كالسماع سواءً، كما قال عيسى عليه السلام: « فمن لم يكن نظره عبرًا فهو لهوٌ، ومن لم يكن كلامه ذكرًا فهو لغو». فأما من نظر ليَعتَبِر، أو تكلم ليأتمر، أو سمع ليَذَّكَّر، فذاك لهؤلاء عِبادةٌ. ومن نظر بشهوةٍ، أو تكلم بجهل، أو سمع بهوًى، فهو لعبٌ ولهو من زخرف الدنيا.

ولعمرى إنّ هؤلاء الأشياخ الذين ذُكروا من سُلاّك هذا الطريق قد كانوا يسمعون، ولكن كان منهم من يسمع فى السِّرِّ دون العلانية، ومنهم من كان يسمع مع إخوانه ونظرائه دون الأتباع والمريدين، وكانوا يقولون: لا يصحّ السماع إلا لعارفٍ مكين، ولا يصلح لمريد مبتدئ.

وقد كان الجنيد حسنَ الهيئة فى السماع، حدثنى بعض هذه الطائفة عن وقاره وحُسن استماعه. وقال لى آخر: كانت دموعه تفيض، وربّما نكّس رأسه. وقيل له: يا أبا القاسم، لا نراك تتحرك عند السماع، فقرأ هذه الآية: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]. وبلغنى أنه ترك السَّماع فى آخر أمره. فقيل له: قد كنت تسمع! فقال: مع من؟ فقيل له: تسمع أنت لنفسك. فقال: ممّن؟

لأنهم كانوا لا يسمعون إلاّ مع أهله، أو من أهله، فإن الشىء لا يطيب إلا مع أهله، كما لا يحسن إلا بأهله، وإنما ترك لفقد إخوانه، وعدم شركائه ونظرائه.

وحدثونا عن يحيى بن معاذ، قال: فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها، ولا أراها تزداد إلا عزًا: حُسْنُ الوجه مع الصيانة، وحُسْنُ القول مع الدِّيانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

وحدثنى بعض المحدثين قال: اجتمعنا فى دعوةٍ معنا أبو القاسم ابن بنت منيع، وأبو بكر بن أبى داود، وابن مجاهد، فحضر سماعٌ، فجعل ابن مجاهد يُحرِّض

ابن بنت منيع على ابن أبى داود فى أن يسمع، فقال ابن أبى داود: حدثنى أبى عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع، وكان أبى يكرهه، وأنا على مذهب أبى. فقال أبو القاسم ابن بنت منيع: أما جَدِّى أحمد بن منيع، فحدثنى عن صالح بن أحمد، أنّ أباه كان يسمع قول ابن الخبَّازة، قال: ودعوته ليلةً، وكان أبى فى غُرفةٍ بينه وبينه بابٌ، فجعل يتردَّدُ فى الممرِّ، يذهب ويجىء، ويسمَع من وراء الباب. فقال ابن مجاهد لابن أبى داود: دعنى من أبيك أنت، وقال لابن بنت منيع: ودعنى من جدِّك، أيش تقول يا أبا بكر فيمن أنشد بيت شعر، حرامٌ عليه؟ قال ابن أبى داود: لا. قال: فإن كان حسن الصوت به حَرُم عليه إنشاده؟ قال: لا. قال: فإن أنشده فطوّله وقصَّر منه ، فمدّ المقصورَ وقَصَرَ الممدود، يَحرُمُ عليه؟ قال: يقول ابن أبى داود: أنا لم أقْوَ بشيطان واحدٍ، أأقوى بشيطانين؟

قال: وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوةً إلاّ أن يكون فيها سماعٌ، فكان من أراد أن يدعوه أعدّ له سماعًا. وكان ابن بنت منيع يسمع القول.

وقد كان من أشياخنا أبو بكر بن الجلاء، فلا ينكر السماع ويسلمه لأهله، إلاّ أنه كان يقول: ليس له به وَجْد. وكان أبو محمد بن الراشِنى يحضر مع أصحابه، فينفرد ناحية يصلى، وهم يسمعون. وكان أبو عبد الله بن خاقان الهمذانى، وأبو بكر الطرسوسى، لا ينكران على أصحابهما، فإذا حضر سمعوا، وكان أبو محمد القزوينى من الأولياء يسمع ويدركه وُجودٌ وصَعْقٌ. وكان أبو سعيد بن الأعرابى يسمع، ويذكر عن جملة أشياخه ـ أصغرهم الجُنيد، وطبقة أستاذه الجُنيد وشيوخه ـ السماعَ والحركة عنه. وكان أبو عبد الله المغربى، وإبراهيم بن شيبان، وأبو على ممشاد، لا ينكرون السماع ويحضرون فيه، وربما سمعوا فى الأوقات إذا وَجدُوا به. وكان أبو الخير العسقلانى الأسود المقرئ من الأولياء يسمع ويَجدُ ويُولِّه عند السماع. وصنف فى علم السماع كتابًا رد به على منكريه، قد روى أبو هلال الدينورى عنه ذلك. وكذلك أبو على الرُّوذبادى، وابن أخيه أبو عبد الله، صنفوا فى السماع كتبًا، وحكوه عن أسلافهم.

وحدثنى بعض الأشياخ عن كثير من الصوفية، قال: رأينا جماعة ممن يمشى

على الماء، وفى الهواء، يسمعون السماع، ويجدون به ويُولَّهون عنده. قال: ولقد كنا على الساحل فسمع بعض إخواننا فجعل يتقلَّب على الماء يذهب ويجىء، كما يتقلَّب على الأرض، حتى رجع إلى مكانه.

وحدثنى بعضهم أنه شهد من يتقلَّب فى النار عند السماع ولا يحسّ بها. وقال: وحدثنى بعض الأشياخ أن بعضَ الصوفية ظهر منه وُجودٌ عند السماع، فأخذ شمعة مضيئة فجعلها فى عينه، قال: فقرُبت من عينه أنظر، فرأيت نارًا ـ أو قال نورًا ـ يخرج من عينه، يردّ نار الشَّمعة.

وذكر لى شيخٌ من أهل الفضل قال: رأيت بعضهم إذا وُجد عند السماع ارتفع عن الأرض فى الهواء أذرعًا يمرّ ويجىء فيه.

وقد سمع من الصحابة: عبد الله بن جعفر، وابن الزُّبير، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية، وغيرهم.

قال محمد بن على الدينورى: السماع مسلَّم لأهله، ولكن قد وجب تحريمهُ وإنكارُهُ، إذ قد أخذت الروايات عن المحققين للسّماع رخصة، وجعلوه طريقًا إلى اللهو واللعب.

ومجملُ القول فى السماع(١): أنَّ من سمع، فظهرت عليه صفات نفسه، وذكر به حُظوظ دنياه، فالسماع عليه حرام.

ومن سمع فظهر له ذِكْرُ ربه، وتذكّر آخرته ممّا شُوِّق إليه، أو حُذِّر منه، وخُوِّف من الوعد والوعيد، فهو له ذكرٌ من الأذكار.

وقد قال الثورى وغيره: إن وُضِعت التكأةُ، ودارت الأقداح، فالنبيذ حرام.

وقال بعضهم: إذا تجالسوا على لهوٍ بعد الطعامِ، واختلفوا إلى المبال، حَرُم النبيذ، وهو عند هؤلاء حلال على غير هذه الصفات، وهو مذهب علماء الكوفة.

وقد قال ابن عباس وغيره من الصحابة، وقد سُئل عن القُبلة، قال: أكرهها

---

(١) فصّل الغزالى رحمه الله القول فى السّماع وبيّن مراتبه وحججه، وناقش منكريه، انظر: الإحياء ٢/ ٢٦٨ ـ ٣٠٦.

للشبان، ولا أرى بها بأسًا للشيخ. ثم قال ابن عباس: لأنّ الشيخ إذا قبَّل قنع، والشابّ إذا قبَّل طمع.

وسأل شاب بعض الأكابر من الصحابة عن القُبلة، فقال: لا تقبِّل. وسأله شيخ، فقال: لا بأس عليك فيها. قال: فقلتُ: أمرٌ واحدٌ رخَّصتَ فيه لواحد، ونهيتَ عنه آخر؟! فقال: إن الشيخ يملك إربْه، وإنى خفت على الشاب أن لا يملك نفسه[1].

فهذه المعانى تختلف لاختلاف أحوال أصحابها، والأشياء تتفاوت لتفاوت معانى العاملين لها، ولا قوّة إلا بالله.

وانما ذكرنا هذا الباب فى ذكر أوصاف الأحباب؛ لأنه كان طريقًا لبعض المحبين، وحالاً لبعض المشتاقين، فإن أنكرناه مجملاً غير مفصّل، فقد أنكرنا على سبعين صِدِّيقًا[2]، ومَحَونا رسمًا كان لطائفة طريقًا. وإن كنا نعلم أن ذلك أقرب لقلوب الفقراء، ومحبَّبٌ إلى قلوب المريدين والمتعبِّدين، إلاّ أنَّا لا نسلِّم فى ذلك بيننا وبين الله تعالى؛ لأنَّا نعلم ما لا يعلمون.

وقد سمعنا عن السّلف من الأصحاب والتابعين ما لم يسمعوا، ولكن قد دخَل فى هذا الطريق غير أهله، فأحالوه عن جهته، وعدلوا به عن قصده، لما أدخلوا فيه من الهوى، فمثلهم كما قال الله تعالى: ﴿اتَّخذُوا دِينَهُم لَعبًا ولَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠].

كان هذا السّماع يتدين به قومٌ، ويتطرقون به إلى الله سبحانه، وكان لهم ذِكرًا، وفيه وَجْدٌ وعِلْم، تنقطع عليه قلوب الخاشعين، وتزهق عنده نفوس الصادقين، وتُولَّه به قلوب الذاكرين، وتتيه فيه عقول المشتاقين، وتبكى عنده عيون المحزونين.

---

(١) المقصود بالقُبلة هو قبلة الرجل لزوجته فى نهار رمضان لا غير، ﴿فمَنِ ابتَغى وراءَ ذَلِكَ فأُولئكَ هُمُ العَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧].

(٢) نقل ابن القيم هذه المقولة باختلاف يسير ونسبها إلى أبى طالب، وناقشها. انظر كتابه: الكلام على مسألة السماع، ص ٣٢٦. وواضح أن ابن القيم ينظر إلى السّماع من وجهة غير التى ينظر بها أبو طالب.

فهو الآن اسمٌ لا معنًى، وجسمٌ بلا روح، ورسم بلا حقيقة. فمثل الواجدين به من غير وَجْدٍ، والسّامعين له بغير علمٍ، والمُتَشَبِّهين بأهلهِ بغير صدق، والمحاكين لأهل الحقائق بغير حق، كما قال الله عز وجل: ﴿**فأصْبَحُوا لا يُرَى إلاَّ مَسَاكِنُهُمْ**﴾ [الأحقاف: ٢٥]. قال الشاعر:

أمّا الخيامُ فإنها كخيامهم ... وأرى نساءَ الحيِّ غير نسائها

وكما قال لى بعض الأشياخ مرَّةً: ما أرخصَ الصوفية فى وقتنا هذا!(١) صوفى بدرهمين. قلت: وكيف؟ قال: مرقعةٌ بِدرهم، وتاسومة وركوة بدرهم.

وأنشدنى بعض إخوانى:

أهلُ التصوُّف قد مضَوْا ... صار التّصوفُ مَخْرَقهْ

صار التّصـــوفُ صيحةً ... وتواجـــدًا ومطبقــهْ

وأنشدنى بعض أشياخ الصوفية فى مثله:

لا يغرنّك من المرءِ قميصٌ رَقَعـهْ

وإزارٌ فوق عظم الساق منه رَفَعهْ

وحنينٌ لاح فيـه . . . .(٢)

ولدى الدرهم فانظر حِرصَـه أو وَرَعهْ

فقد حرّم السماعَ مع أكثرهم بعضُ الحضور، لقسوة القلب عند النظر إليهم، وكثرة الغيظ منهم، لدخولهم فى الشَّرَه، وخروجهم من الأدب والعلم، والمجالسة لا تطيبُ إلاّ بالآداب والمعاشرة، ولا تحسنُ إلا بعلم، والمؤاخاة لا تخلو إلاّ للآخرةِ، والمصافاةُ والأُلفة لا تَجْمُلُ إلا للجميل المجمل، جلّ جلاله، وحَسُن وصفه وكماله.

وقد قال بعض أشياخنا: ذهب أهل الحقائق، ولم يبق إلاّ من مجالسته غيظ.

(١) فكيف لو رأى زماننا هذا وما وصلت إليه الصوفية؟!

(٢) بياض بالأصل لسوء التصوير.

وقال آخر: ذهب العلماء المتأدِّب بهم، فما بقى إلاّ من يُستحى من ذكره.

فأمّا الزَّفْن[١] والاضطراب عند السماع، فلا يُعجبنى؛ لأن أكثره تواجدًا بلا وُجود، وقد يدخله التكلف والتصنع، إلاّ من غلبه أمرٌ، وملكه قهرٌ، والمغلوب مقهور، والمجنون معذور.

فأما الصادق إن طرب لشوق، وارتاح لفرحٍ بغلبةِ وَجْدٍ حتى يهلك أو يتلف، فلا حرج؛ لأثرٍ فى ذلك عن النبى ﷺ: «أنه ذكر غلامًا فى بنى إسرائيل كان على جبلٍ، فقال لأمّه: من خلق السماء؟ قال: الله تعالى. قال: من خلق الأرض؟ قالت: الله تعالى. قال: من خلق الجبل؟ قالت: الله تعالى. قالت: من خلق هذا الغيم؟ قالت: الله عز وجل. فقال: إنى أسمع لله تعالى شأنًا، ثم رمى بنفسه من الجبل فتقطَّع».

فهذا كأنه وجد الفرح لله تعالى، والشوق إليه، والطرب لأجله.

وفى الزَّفْن أثر مأثور فى خبر ابنة حمزة، لما اختصم فيها على بن أبى طالب، وأخوه جعفر، وزيد بن حارثة، وكانوا أخرجوها من مكة، وتشاجروا فى تربيتها، فقال رسول ﷺ لعلىٍّ: أنت منِّى وأنا منك، فحَجَل. وقال لجعفر: أشبهت خَلقِى وخُلقى، فحَجَلَ وراء حَجَل علىٍّ. وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا، فحَجَل وراء حَجَلِ جعفر. ثمْ قال ﷺ: هى لجعفر، لأن خالتها تحته، والخالة والدة».

والحَجَل هو الزَّفْن بالرِّجل، فهذا كأنّه وجد الفرح والارتياح للصدق وقول الحقّ.

وفى الخبر المشهور: «أن الحبشة كانوا يَزْفِنُون بين يدى رسول الله ﷺ، وهو ينظر إليهم. وقال لعائشة: أتُحبِّين أن تنظرى إلى زَفْن الحبشة». فوقفت إليهم من وراء أُذن رسول الله ﷺ وعاتقه، وهو قائم أمامها، وهى مستترة به. وكانوا يذكرون الله كثيرًا بنعمة الإسلام، ويصفون رسول الله، ويُثنون عليه بزَفْنِهم وحركاتهم.

---

(١) الزفن: الرقص، زَفَنَ يَزْفِن زَفْنًا. وأصل الزفن: اللعب واللهو.

واعلم أن الصدقَ لعينه حَسَنٌ، فالصّادقُ بوصفه فى كل شىءٍ حَسَن، والتكُّلف بعينه قبيح، فالتكلف بنفسه مقيت.

وروينا فى خبر: «إن الصدِّيقين إذا سمعوا الذكر طربت قلوبهم إلى الآخرة».

وروينا عن السلف: أن فى بعض كتب الله عز وجل المنزَّلة: غَنَّينا لكم فلم تطربوا، وزَمَرنا لكم فلم ترقصوا.

فهذا على ضرب المثل: ذكرنا لكم فلم تجدوا للذكر طربًا، وشوَّقناكم فلم تزدادوا اشتياقًا، فهذا داخل فى أحوال المشتاقين.

● ذكر الشوق، ووصف المشتاقين، والغيرة:

روينا فى أخبار وهب بن منبه: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «إنك تُكثر مسألتى، ولا تسألنى أن أهبَ لكَ الشوقَ. قال: يا رب وما الشوقُ؟ قال: إنى خلقت قلوب المشتاقين مِن رضوانى، وأتممتها بنور وجهى، فجعلتُ أسرارهم موضعَ نظرى إلى الأرض، وقطعتُ من قلوبهم طريقًا ينظرون به إلى عجائب قدرتى، فيزدادون فى كلِّ يومٍ شوقًا إلىَّ، ثم أدعو نُجباءَ ملائكتى فإذا أتونى خرُّوا لى سجَّدًا فأقول: إنى لم أدعكم لعبادتى، ارفعوا رؤوسكم أُرِيكُمْ قلوب المشتاقين إلىَّ، فوعزتى وجلالى إن سمواتى لتضىء من نور قلوبهم، كما تضىء الشمس لأهل الدنيا».

معنى قوله لداود عليه السلام: «ولا تسألنى الشوق» ليس أنه قد يعطى الأولياء ما لا يعطى الأنبياء، كما غلط فى هذا بعض الناس، ففضَّل العارف على النبى، ولكنه ذكر ذلك لداود عليه السلام ليسأله إياه فيعطيه، فلما أخبره به أعطاه مقام الشوق إليه، فجاوز مقامات المشتاقين من العارفين، فكان ذلك له مزيدًا، وإنما أراد أن يجعل ذلك على لسانه، ليريه فضل مكانه، ويظهر له ذلك عن مسألته، ليُفضِّله ويُشرِّفه بسرعة إجابته.

وقد كان لداود ﷺ فى مقامِ النبوة مقاماتٌ وتخلِّى مشاهدات فى الأُنس والقُرب، يندرج فيها مقام الشّوق، فكان الشوق زيادةً على الحُسنى وتمامًا على

الذى أحسن. كما أن قول داود عليه السلام: وما الشّوق؟ ليس أنه لم يعرف الشوق، وقد آتاه الله الحكمة والنبوة، ولكن سكت بين يديه استحياء منه، واعترف لديه بالجهل؛ لأنه عند علام الغيوب، وأراد أن لا يسبقه بالقول، فيقدمه بين يديه، كرمًا منه وحلمًا، وليزداد بأدبه وصمته عِلمًا. وأراد أن يسمع منه حقيقة وصفِهِ؛ لأنه أصدق القائلين، وأمدح الواصفين.

وأما الغيرة فحالٌ سَنِيَّة من أحوال المحبين؛ لأنه قد أظهرهم على معانى نفيسة، فضنُّوا بها، لما امتلأت بها قلوبهم، وحارت فيها عقولهم، إلاّ أن هؤلاء خصوصُ أصحاب اليمين؛ وهم عموم المحبين، إلا أنه إذا رفعهم إلى مقام التوحيد، فأشهدهم الإيجاد بالوحدانية، والانفراد بالفردانية، نظروا، فإذا هو لم يُعط منه لسواه شيئًا، ولا أظهر من معانيه وصفًا، فانطوت الغيرة فى توحيدهم، لما عرفوا بيقين التوحيد، أنه ما نظر إليه سواه، ولا عرفه إلاّ إياه، فتسقط هِممُهُم بالغيرة عليه، وعَرَفُوا حِكمته بتعريفه أنواع ما يظهر، وأقسام ما ينشر، وأنه فى غيب غيبه، لا يظهر عليه سواه، وفى سرٍّ سرِّه لا يشهده إلا إياه، فقام لهم مقام المعرفة بالتوحيد له مقام الغيرة عليه، فهذا إذا طُولعوا به مقام الموحِّدين من الصدِّيقين.

وقد كان إمامنا أبو محمد يقول فى معنى قوله من باب علم الحروف ﴿**كلَّ يَوْمٍ هُو فى شَأنٍ**﴾: هو الله سبحانه فى شأن شعاعه وآلائه ونوره، كأنه يجعل الوقف فى الكلام على قوله: ﴿**يَسْأَلُه مَن فِى السَّماوَاتِ والأَرْضِ كُلَّ يومٍ**﴾ ثم يستأنف فيقول: ﴿**هُو فى شَأنٍ**﴾ [الرحمن: ٢٩].

وقد روينا فى دلائل المحب وأوصافِهِ أبياتًا عن يحيى بن معاذ، وأبى تُراب النخشبى، وعن أبى سعيد الخرّاز أيضًا، على قافية واحدة، فى معانٍ متقاربة، وهى جامعة مختصرة فى نعت المحبين من المريدين، وفى وصف السائحين المُرادين، وفى وصف التائبين الزَّاهدين، والمنقطعين المنفَرِدين. فالذى رُويناه عن أبى تراب هذه الأبيات:

لا تخدعنَّ فلِلمُحبِّ دلائلُ ... ولَدَيه مِن تُحَفِ الحبيبِ وَسائِلُ

منهـــا تنعمُّـــهُ بمُرِّ بلائـه ... وسروره فى كلِّ مـا هـو فاعـلُ
فالمنع منـــه عَطِيّـــةٌ مَقْبولَةٌ ... والفَقرُ إكرامٌ ولُطفٌ عـاجلُ
ومن الدلائل أنْ يُرَى من عزمـه ... طوعَ الحبيب، وإن ألحَّ العـاذلُ
ومـن الدلائـل أن يُـرَى متبسِّمًا ... والقلبُ فيـه من الحبيب بلابلُ
ومـن الدلائـل أن يُـرَى متفهِّمًا ... لكـلام من يحظى لديه السّـائلُ
ومـن الدلائـل أن يُـرَى مُتقشفًا ... مُتحفظًا من كلِّ مـا هـو قائلُ

والذى رويناه عن يحيى بن معاذ:

ومـن الدلائل أن تـراه مُشمِّرًا ... فى خِرقتين على شُطوطِ الساحلِ
ومـن الدلائل حـزنُه ونحيبُـهُ ... جوفَ الظلام فمـا له من عـادلِ
ومـن الدلائل أن تراه مُسـافرًا ... نحوَ الجهـادِ وكلِّ فعلٍ فاضلِ
ومن الدلائل زهدُه فيمـا يَرى ... مـن دارِ ذُلٍّ والنعيـم الزائـلِ
ومـن الدلائـل أن تـراه باكـيًا ... أن قـد رآهُ على قبيحٍ فاعلِ
ومـن الدلائـل أن تـراه مُسلِّمًا ... كلَّ الأمورِ إلى المليكِ العادلِ
ومـن الدلائـل أن تـراه راضيًا ... بمليكـهِ فى كـلِّ حُكـمٍ نازلِ
ومن الدلائـل ضحكُـه بين الوَرَى ... والقلبُ محزونٌ كقَلب الثّاكلِ

والذى رويناه عن أبى سعيد الخراز دخل فيما ذكرناه عنهما، وأحسب أنه أخذه منهما؛ لأنهما أقدم منه، إلا أن قوله كان أحد عشر بيتًا فقط.

وجميع ما قدمنا ذكره من العلامات والدلالات هى أوصاف المحبين، وكلُّ محبٍّ لله فعن محبة الله؛ لأن وجود العبدِ لمحبته لله علامةُ غيبِ محبةِ الله له، يبين ذلك الغيب من الله فى الشهادة من عنده، ثم إن كل عبد أحبَّ الله من حيث أحبَّه الله كما أنه عرفه من حيث واجهه، وكلُّ من خدمه وتاب له بمعنًى من العبادات، فعن معنى ما أحبَّه وواجهه به من معانى الصفات، وهذا كما نقول فى

الدُّعاء إليه والأدلة عليه أن كل داعٍ ودليل فمن حيث دعاه ودلَّه عليه ، وكلُّ مطرِّقٍ إليه سُبُل العبادات، فمن حيث سهَّل الله له منهاج السبيل إليه أنهج، إلاّ أن فى المحبة مقامين، على ترتيب هذه الجمل، أحدهما أعلى من الآخر، فى كل مقامُ جملةٌ من الأحباب؛ لأنّ فى المعرفة مقامين: مقام تعريف، ومقام تعرُّف.

فمقام التعريف: هو معرفة العموم، وهذا قبل المحبة الخاصة(١).

ومقام التعرُّف: معرفة الخصوص، وهذا بعد محبة العموم، وهو مزيدُ الحبِّ الأول، وهذه محبة خصوص. وكذلك فى المحبة مقامان: مقام محبٍّ، وأعلى منه مقام محبوبٍ، وهذا كما عبّروا عن قولهم: مُريد ومُراد.

وعلى الحقيقة كلُّ مريدٍ لله فهو مُراد بذلك، إلاّ أنّهم جعلوا اسم مرادٍ بوصف مخصوص، يُعرَف به، فيمتاز معه المبتدئُ من الْمُبادِئ، والمنيبُ من المجتبى، والطالبُ من المطلوب، والرّاغبُ من المرغوب، والحافظ من المحفوظ. فكذلك لعمرى ليس الحامل مثل المحمول، ولا الزائر كالمزور، ولا الاشتياق كالحضور، ولا المحب مثل المحبوب، ولا المُتوَجِّه كالمواجَه،ولا المُستكشِف كالمكاشَف، وهذا أيضًا كما عبَّروا بقوله: عارفٌ، والمعرفة، يريدون: عالم وعِلمٌ، إذ العالمُ عارفٌ بما عَلِم، والمعرفةُ عِلمٌ بالله تعالى، إلاّ أنهم لما خصّوا عِلمًا فوق علم، إذ كان الله سبحانه أعلى المعلومات، صار العالمُ بها أعلى العلماء فَرَقًا، فخصُّوه باسمٍ يُعرَف به فضلُه دون غيره، فقالوا: عارفٌ، فكانت المعرفة وصفه، إذ كان عارفٌ اسمه، فقالوا عن هذا عارفٌ، فأغنى سامعَه ومُخبِرَه عن استكشاف علمه، وكفاه تنبيه السُّؤَّالِ أن يقول: عالم بذى علم.

قال أبو موسى الدُّبيلى: عرضتُ على أبى يزيد البسطامى كتابَ صاحبنا عبد الرحيم فى الإخلاص، فما أعجبه منه إلا حكاية أبى عاصم الشامى فى الشوق، يعنى أن عبد الرحيم ذكرَ الإخلاص فى كتابه، فقال: قيل لأبى عاصم وافدِ أهل الشام: تشتاق إلى الله؟ فقال: لا. قيل: ولِمَ؟ قال: إنّما يُشتاق إلى غائب، فإذا كان الغائبُ حاضرًا فإلى من يشتاق؟ قلت: سقَط الشوقُ. وهذا مقام

(١) فى المخطوط: «الخاصية»، وهذه تكررت كثيرًا.

محبوب عن وَجْدِ أُنْسٍ، ومقام قُربٍ.

وفى المشاهدة مقامان: مقام شوقٍ، ومقام أُنسٍ. فالشّوق حالٌ من القلق والانزعاج عن مطالعة العِزة، ومعاينة الأوصاف الغيبية من وراء حجاب الغيب بخفايا الألطاف. وفى هذا المقام الحزنُ والانكسارُ، إلاّ أنه مزيد الخائف. والأنسُ حالٌ من القُرب عن مكاشفة الحضور بلطائف القُدرة. ففى هذا المقام السرورُ والاستبشار، وهذا مزيد المحبّ العارف.

وقال ضيغمُ البصرى: عجبتُ للخليقةِ كيف أرادت بك بدلاً، وعجبتُ لها كيف أنست بسواك.

وقال الجنيد: علامةُ كمالِ الحبِّ دوامُ ذكره فى القلب، بالفرح، والسرور، والشوق إليه، والأنسِ به، وأثرة محبّةِ الله على محبة نفسه، والرضا بكل ما يصنع. وعلامة أُنسه بالله استلذاذ الخلوة، وحلاوة المناجاة، واستفراغُ العقل كله حتى لا يكاد يعقل الدّنيا وما فيها، ولا يحمل هذا على الأنس بالخلق، فيرتب على مدارج المعقول، كما لا يحمل المحبةَ على محبةِ الخلقِ، فيكون بمعانى العقول، لأنه حال منها، أو إنّما هو طمأنينة وسكونٌ إليه، ووجد حلاوة منه، واستراحة وروح بما أوجدهم.

فمن حمله على الأنس بالجنس أنكره، ومن أنكره جحَد مقامًا من مقامات اليقين، وأنكر طريقًا من طُرقات العارفين، فأحسنُ حاله ضعف اليقين، وأسوأه كفرٌ بوصف الإيمان، فأدنى عقوبته حرمانُ وَجْدِه وفَقْدُ شهادته، وأعظمها حُبوط فضائل عمله.

ولا بدّ لمن تكلّم فى المعرفة على ترتيب العقل بشهادة المَلِك أن يذكر الأنس، والشوق، والسَّكَن، والولَه، والغيبة، والحُضور، وعلم الفناء والبقاء؛ لأن معرفته معرفةُ الأفعال الحُكمية لا معرفة الصفات القاهرة، وذلك يُؤدى إلى قوله بخلق الإيمان واليقين أيضًا، وخلقِ أنوارِ القلوب، ومشاهدات الغيوب. وقد تكلّم السّلَف من أهل العلم الباطن ومن العارفين فى هذه المقامات؛ فأغنانا عن الاحتجاج لها، وقد ولّى المنكرُ لها على جهله بها، فسقطت مخاطبته.

وقد أنكر الأنس أيضًا من المتكلمين من لا مقام له فيه، كما أنكر المحبة من لا ذوق له منها؛ لأنه تخيّل فيها محبة المخلوق، وتمثل معها صفاتهم، فشَهِد بها أجناسهم، فقال: لا نعرف إلا الخوف.

ومّمن ذهب إلى هذا القول أحمد بن غالب المعروف بغلام الخليل، أنكر على الجنيد، وأبى سعيد الخرَّاز، وأبى الحسين النورى ـ كلامهم فى المحبة، فلم يُساو إنكاره عند العارفين حُبَّه. وقد بلغ بقومٍ بعض هذا المعنى حتى أنكروا الرِّضا، وقالوا: ليس إلاّ الصبر، ما أمر الله تعالى إلاّ به، ولا وصف نهاية الجزاءِ إلاّ معه. فجحدوا مقامًا من مقامات اليقين، وقطعوا طريقًا من طُرقات العارفين، وأبطلوا حالاً من أحوال المحبين والمتوكِّلين. والجهلُ بالله تعالى وضَعفُ اليقين يعملان أكثر من هذا، وما كُنّا لنهتدى لولا أن هَدَانا الله.

وليس هذا مذهبُ السّلف، ولا طريقة العارفين من الخلف. كتب عـامر بن عبد الله إلى بعض إخوانه: آنسك اللهُ بنفسه.

وقيل لإبراهيم بن أدهم، وقد نزل من الجبل: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله.

وقد روينا فى التفسير عن سعيد بن أبى عَروبة، عن قتادة، فى قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾ [الرعد:٢٨]، قال: هشّت إليه واستأنست به.

وجهلُ هؤلاء أظهرُ من أن يدُلَّ عليه، وعلمُ المتقدمين بما رسموه فى كتبهم ورويناه عنهم أكثرُ من أن يُحتَجَّ به، والاشتغال بالبطَّال بطالةٌ ثانية، وقد صنّف العلماء كُتبًا فى الأُنس، وذكروا مقامات المستأنسين وأحوالهم.

ولكن قد أُنشدنا لبعض العارفين:

الأنسُ باللهِ لا يحـويه بطَّـالٌ — وليس يدركه بالحَوْلِ مُحتـالُ
والآنسون رجالٌ كلهم نُجبٌ — وكلُّهم صفــوةٌ للهِ عُمَّـالُ

وقال بعض العارفين: الأنس بالله عز وجل علامةُ وجود الطريق.

وقال آخر: إذا رأيته يُوحِشُك من خَلقِه، فاعلم أنه يريد أن يؤنسك به.

وقد يكون فى الأنس مقامٌ آخر، وهو الأنس بالأولياء والإخوان من العلماء بالله تعالى والأصفياء. حَوَّل عابدٌ مسجده إلى وكر طير يستأنس بصوته، فأوحى الله تعالى إليه: استأنست بمخلوقٍ، لأحُطنَّك درجةً لا تنالها بشيٍ من عملك[١].

وفى مقام الأنس يكون التملق والمناجاة، ومعه تكون المحادثة فى المجالسة، وعنده يوجد معنى من البسط فى الحضور والقُرب. ولا يحب الله تعالى هذا النوع من الإدلال إلا ممّن أقامه مقام الأنس، ولا يحسُن ذلك إلا منهم، ولا يليق إلا بهم، كنحوِ قول موسى عليه السلام فى مقام الأنس: «يا رب لى ما ليس لك. قال: وما هو؟ قال: لى مثلُك وليس لك مثلُ نفسك. قال: صدقت». معنى قوله: «مثلك»، أى: لى أنتَ، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، معناه: ليس كهو شيء؛ لأنه لا مثل له، فيكون كمثله مثل، أو لا يكون مثله مثل. والعربُ تعبر بالمثل عن نفس الشيء. وفوق هذا من البسط ما أخبر الله تعالى عنه، أنه قال مواجهًا للجليل العظيم: ﴿إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:٣٣]. وأعظم من هذا قوله: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ [طه:٢٤]، فقال مجيبًا له: ﴿فأرسل إلى هَارُون * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ [الشعراء:١٣ ـ ١٤]. ومثله قوله: ﴿إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ [الشعراء:١٢ ـ ١٣] فحسُن هذا منه، لأنه أقامه مقام البسط بين يديه والأنس به، وأوجده حال الأنس منه، ولأن مكانه لديه مكان محبوبٍ، يلاطفه بلطيف الكلامِ، ويواجهه بجميل الوَجد والإنعام، وينظر إليه بعين المحبة، ويقرِّبه لديه قربةَ قربِهِ، ويوجده منه إليه، فأدلّ به عليه فحمل له ذلك.

وهذا من غير موسى فى غير هذا المقام من سوء الأدب بين يدى المرسِل، ولم يحتمل ليونس عليه السلام خاطرًا من هذا القول، لما أقيم مقام القبض والخوف، حتى عُوقب بالسجن فى بطن الحوت فى البحر، فى ظلمات ثلاث، ونُودى عليه

---

(١) بعده خبر من أخبار داود ذكره من قبل، فتركته اقتداء بنسخة (د) التى لم تذكره، وكذا المطبوعة.

إلى يوم الحشر: ﴿لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّه لَنُبِذَ بالعَراءِ وهو مَذمُومٌ﴾ [القلم:٤٩] وقيل: عراء القيامة.

ونهى الله تعالى حبيبه ﷺ أن يقتدى به فى القول والفعل، فقال تعالى: ﴿فَاصْبِر لِحُكمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إِذْ نَادى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم:٤٨] إلا أن هذا الفعل به، وتنقيله[1] فى هذه الأحوال مزيدٌ له، وتعريفٌ وفضل مرتبةٍ وتخويف، وفيها طرقات للعارفين، وأحوالٌ تحول على المقرَّبين.

وقد قال سبحانه: ﴿ولَقَد فَضَّلنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ علَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥]. وقال: ﴿مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللهُ﴾ فرفعه إلى المكلَّمين. وقال: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُم دَرَجات﴾ [البقرة:٢٥٣] يعنى فى القُرب، وكان من المفضَّلين المكلَّمين عيسى ابن مريم عليه السلام، إذ يقول مادحًا لنفسه بالسلام مع مواجهته للسلام: ﴿والسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ ويَومَ أَمُوتُ ويَوْمَ أُبعَثُ حيًا﴾ [مريم:٣٣]، فسلّم على نفسه فى الحال والمآل، مخبرًا بذلك عن القِدَم والأزل، وهذا بوَجدٍ من الأنس فى مقامٍ لطيف، ولم يكن هذا لأخيه يحيى بن زكريا عليه السلام، بل سكت لا ينطقُ، ومن الخيفة والحياء مُطرق، حتى أثنى عليه خالقه، وكشف عنه سوابقَه، فقال تعالى مادحًا له: ﴿وسَلامٌ عَلَيه يَومَ وُلِدَ ويَوم يَمُوتُ ويَومَ يُبْعَثُ حيًا﴾ [مريم:١٥].

واحتمل عزّ وجلّ لأخوة يوسف ما عزموا عليه واعتقدوه، وما فعلوه وباشروه من قولهم: ﴿اقتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطرَحُوهُ أَرْضًا يَخلُ لَكُم وَجْهُ أَبِيكُم﴾ [يوسف:٩] ونحو ذلك من الكلام والفعال. وقد عددتُ من أول قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينا مِنَّا﴾ [يوسف:٨] إلى رأس العشرين من أخباره عنهم فى قوله: ﴿وكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف:٢٠] نيفًا وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض، قد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاثة والأربعة والخمسة من الخطايا، ودون ذلك وفوقه، بدقائق الاستخراج، ومعرفةِ خفايا الذنوب، فغفرَ لهم ذلك إذ كانوا

---

(١) هكذا يمكن قراءة هذا الكلمة.

فى مقام محبوبين، ولم يحتمل لعزيزٍ مسألةً واحدةً سأل عنها فى القدر، حتى قيل: مُحى من ديوان النبوة.

وقد قال الله تعالى فوق ذلك كله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتهُمُ البيِّناتُ فَعَفَونا عَن ذَلِكَ﴾ [النساء:١٥٣]، فإن شاء أن يعفو عفا عن العظائم، فلم يعظم عليه شىء، فصغُر فى فضل كل شىء، وإن شاء طالب وناقش على الصغائر، ولا تصغر الذرة والخردلة عن مطالبته، وكيف يصغر ذنبُ ممَّن واجه به الملك الجبّار؟! فقد كبُر لكبريائه، وحَسُن استخراجه لتحقيق عدله، ألا ترى أن من كشف عورته بين يدى نبى كفر، لانتهاك حرمة النبوة، فكيف بالعظيم الأكبر منبئ الأنبياء؟ فسبحان ستَّارِ العورات بفضل فضله وسَعَة رحمته، لذلك إن أعطى أعطى من العلم والإيمان بغير حساب لا بعددٍ ولا حدٍّ، وإن منع منع قوت الإيمان الذى لا يصحّ إلا به، وقِوامُ العلم الذى لا يقوم الدين إلا به، فذلك تحقيقُ اسميه مُعطى ومانع، وكذلك غفَّار وطالب.

وفى قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ ويُعَذِّبُ مَن يَشاءُ﴾ [آل عمران:١٢٩] قيل: يغفر لمن يشاء الذنب العظيم، ويعذب من يشاء على الذنب اليسير، لا يُسأل عما يفعل؛ لأنه عزيز جبار، وهم يسألون؛ لأنهم أذلَّة مجبورون، قد يشترك الجماعة فى المعصية، فيغفرها لبعضهم ويبدّلها حسناتٍ، فلا تضره، بل تكون عاقبتها تسُرُّهُ، ويعذب البعض بذنبه ولا يغفره له، وقد لا ينفعه معه عمل، ولا تكفِّرُهُ توبة، ولا تغنى عنه شفاعة، له الخَلْق والأمر، يحكم بأمره فى خلقه ما يشاء كيف شاء. فمن آمن بما ذكرناه لزمه الخوف، ووجب عليه الحذر، ومن كفر به لزِمه الكفر، وكان أشدَّ شىء عليه ضرراً.

واحتمل لآصف بن برخيا فوق ذلك كله، يقال: إنه كان أحد المسرفين، ولا يصلح أن تُذكرَ ذنوبُهُ لمكان علمه، ولحُسن عطف الله عليه بحكمه، ثم تداركه مولاه، واجتباه، وأعطاه العَلمَ والفضل، وأيّد به نبيَّهُ، وخليفته، وجعله وزيره وكاتبه، وأطلعه على الاسم الأعظم، بعد ما كان منه ما يتعاظم؛ لئلا ييأس محبٌّ من عطفه، ولكيلا يقنطُ مُتحبِّب من لطفه. ولم يسمح لبلعم بن باعوراء بذنب

واحد من ذنوب آصف بن برخيا، إلا أن بلعم أكل دنياه بدينه، وأدخل الهوى على العلم، فضلَّ بذلك وهلَك، واشتدّ مقتُ الله له، وآصف كانت معاصيه فى جوارحه بينه وبين خالقه، فكان آصف مستبدلاً به من بلعم لما أُرى تلك الآيات، فانسلخ منها بعد العبادات، إذ لم يرد بحقائقها والثبات فيها. ويقال: إنى أوتى الاسم الأعظم المتصل بكُن. وقد قيل: أُوتى فوق ذلك مما لا أذكره، ثم انسلخ من الآيات، فسكن فى الدنيا وهوَى فى الهلكات، ولم ينفعه ما كان منه من العبادة والزهادة، كى لا يأمن عاملٌ من عماله مكْرَه، ولئلا يُدِلَّ عالمٌ عليه بما أظهره له، فإنه قد يأخذه فى ساعة ما أُعطى فى مائة سنة، ويعزل بجناية حادثةٍ عن مائة سنة ولاية سالفة، وذاك من سر المكر ولطيف الخُبْر[1]. وقد يُظهره ليمنع وينشر الأعلام بالذكر والمدح عند الأنام، ويُخفى فى العافية أليم الانتقام، وهذا بابٌ من الاستدراج بالنِّعم المؤدية إلى عظيم النِّقم، فعن هذه المعرفة فَزِع العارفون، وبهذا الوصف المدرَّج المكَّار عرفه الشاهدون.

وكان آصف فى كبائر المخالفات، فاستُنقذ منها، ثم أُوتى بعدها الآيات؛ لأنه بوصف مرادٍ، وفى مقام محبوب، فلم ينقصه فى مخالفته التردّد، ولم تضره الذنوب. هذا بحضرة نبى الله، وخليفته فى أرضه، سليمان ﷺ. فذاك من لطف الحنّان، وسرٍّ ما سبق من الرضوان.

فأمّا قصة بلعام، فهى أشهرُ من أن نذكرها، ولها مقدمات فيها قصصٌ وإطالةٌ لا نشتغل بذكره، ولكن نذكر بعض ما انتهى إلينا من قصة آصف آخر أمره، وما يَحْسُن نشره، وليس كل أحد على قصته يقف.

حدثونا: «إنَّ الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام: يا ابنَ رأس العابدين، ويا ابن محجةِ الزاهدين، إلى كم يعصينى ابن خالتك آصفُ، وأنا أحلُم عنه مرةً بعد مرة؟! فوعزّتى وجلالى، لئن أخذته عطفةٌ من عطفاتى عليه لأتركنَّه مُثلةً لمن معه ونكالاً لمن بعده. قال: فلما دخل آصف على سليمان أخبره بما أوحى الله إليه، فخرج حتى علا كثيبًا من رمل، ثم رفع يديه ورأسه نحو السماء وهو يقول:

(١) فى (د): «ولطائف الجبر».

إلهى وسيدى، أنت أنت وأنا أنا، فكيف أتوب إن لم تتب علىَّ، وكيف أستعصم، إن لم تعصمنى لأعودنَّ، فأوحى الله إليه: صدقتَ، أنت أنت وأنا أنا، استقبل التوبة إلىّ، فقد تبتُ عليك، وأنا التواب الرحيم».

وهذا كلام مدلٌّ به عليه، وهاربٌ منه إليه، ومتملِّق له منه، وناظر إليه به، ومُفردٌ له عنه، ومعترفٌ له مُستَرحِمٌ، مُلتجىءٌ إليه مستعصم، فلما بلغ حقيقة الاضطرار فى نفى جميع الاختيار عن حقيقة المعرفة باليقين؛ أنه هو كان لم يزل، وأنه هو إن كان لم يكن ، بما شهد من نفاذ القُدرة بِكُنْ، رضى الله منه ذلك، فنظر إليه فكشف ضُرَّه، وأغنى فقره، وجبر كسره، كما فعل بنبيِّه أيوب قبله فى كشف الضر حين تحقق بحال مُضطر.

وروينا بمعناه: «إن الله تعالى أوحى إلى عبدٍ تداركه بعد أن كان أشفى على الهَلَكة: كم من ذنبٍ واجهتنى به غفرتُه لكَ قد أهلكتُ فى دونه أمةً من الأمم؟!».

واعلم أن المسامحة من الله تعالى لأوليائه فى ثلاثة مقامات:

المقام الأول: أن يقيمه مقام حبيبٍ صديق بما سبق له من قَدَم صدقٍ ولا تنقصه الذنوب؛ لأنه حبيبٌ.

المقام الثانى: أن يقيمه مقامَ الحياء منه بإجلالٍ وتعظيم، فيسمح له ويُصغّر دونه للإجلال والمنزلة، ولا يمكن كشفُ هذا المقام، إلاّ أنا روينا عن رسول الله ﷺ أنه ذكر طائفة قال: «يدفعُ عنهم مساوئ أعمالهم لمحاسن أعمالهم».

المقام الثالث: أن يقيمه مقامَ الخوف والانكسار، والاعتراف بالذنب والإكبار، فإذا نظر حَزَنه وهمَّه، ورأى اعترافه وغَمَّه، غفر له حبًا ورحمةً.

فإن فاتك المقام الأول، فلا يفوتنك المقام الثالث، وما بينهما مكتومٌ؛ لأنه من سرائر العلوم.

ومن إدلال المحبوبين من المستأنسين مناجاةُ بَرْخٍ الأسود، الذى أمر الله كليمه أن يسأله أن يستسقى لبنى إسرائيل، بعد أن قحطوا سبعَ سنين، واستسقى لهم موسى

فى سبعين ألفًا، فأوحى الله إلى موسى: كيف أستجيبُ لهم، وقد أظلمت عليهم ذنُوبهم، وسرائرهم خبيثة، يدعوننى على غير يقين، ويأمنون مكرى؟! ارجع، فإنّ عبدًا من عبادى يقال له: بَرْخ، قل له يخرج حتى أستجيب له. فسأل عنه موسى فلم يُعرف. فبينا موسى عليه السلام ذات يوم يمشى فى طريق، فإذا بعبد أسود قد استقبله، بين عينيه تراب من أثر السجود، فى شملةٍ قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى بنور الله، فسلَّم عليه وقال: ما اسمك؟ فقال: اسمى برخ. قال: فأنت طِلبتنا منذ حين، اخرج فاستسق لنا. قال: فخرج، فقال فى كلامه:

ما هذا من فَعالك، وما هذا من حلمك. ما الذى بدا لك؟ أنقَصَت عليك غُيوثُك، أم عاندت عن طاعتك الرياح، أم نَفدَ ما عندك، أم اشتدّ غضبُك على المذنبين؟! ألستَ كنتَ غفَّارًا قبل خلق الخاطئين، خلقت الرحمة، وأمرتَ بالعطفة، فتكون لما تأمر من المخالفين، أم تُرينا أنّك ممتنع؟ أم تخشى الفَوتْ، فتعجِّل بالعقوبة؟

قال: فما برح حتى اخضلَّت بنو إسرائيل بالقَطْر، وأنبت الله العشب فى نصف يومٍ حتى بلغ الرُّكب. قال: فرجع بَرخ، واستقبله موسى، فقال: كيف رأيتَ حين خاصمتُ ربى كيف أنصفنى؟ فهمَّ به موسى، فأوحى الله عز وجل إليه: إن بَرْخ يُضحكنى كل يوم ثلاث مرات.

ففى هذا ذكرى للرّاجين، وأنس للمشتاقين، وطمع للعالمين، وتحبُّب إلى المطيعين. هذا كما قال بعض العارفين: الحبيب لا يُحاسَب، والعدو لا يُحْسَب له.

وقد قال الجنيد: أهل الأنس يقولون فى تملُّقهم ومناجاتهم وفى خلَواتهم أشياءَ هى كُفر عند العامة.

وقال أيضًا: لو سمعها العموم كفَّروهم بها، وهم يجدون المزيد بذلك فى حالهم.

وذلك يليق بهم ويحسن [illegible] بهم، ويرضى به منهم فى كلام أكثر من

هذا، حدثنى بذلك أبو الحسن بن حبش المُقرئ رضى الله عنه فى «كتاب المعرفة»، فلا عَتبَ على مَن أنكر، ولا عجب منه.

وقد أنشدنى بعضهم فى وصف المؤانسين من المحبوبين:

قومٌ تَخَالَجَهُم زَهْوٌ بسيِّدهم ... والعبدُ يَزْهو على مقدار مولاه

تاهوا برُؤيته عمَّا سِواه لهم ... يا حُسن رُؤيتهم فى عزٍّ ما تاهُوا

أى بقدر ما يُظهر لهم، وعن نحو ما يَظهرُ به.

وقد اشترك عبدان فى اسم المعصية، ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة: آدم عليه السّلام، وإبليس لعنة الله عليه، ثم اجتبى آدم؛ وهذا لما سبق له من الاصطفاء والكلمة الحسنى، وإبليس أُبلس من رحمته وأُغوى، لما سبق له من الشّقوة والكلمة السوء.

وقد عاتب اللهُ تعالى نبيه على الإعراض عن عبد، وكره له الإقبال على عبدٍ، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: ٨ ـ ١٠]، وقال تعالى فى الآخر: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ [عبس: ٥ ـ ٧]، وربهما واحد.

وبمثله أمره بالإقبال والسلام على طائفة، وأمره بالإعراض وترك القعود مع طائفة، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بآيَاتنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيكُم كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفْسه الرَّحمةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿وَاصبْرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغَدَاة والعَشىِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال عز وجل: ﴿وإذا رأيتَ الذين يَخُوضُونَ فى آياتنا فأَعْرِض عَنهُم حَتَّى يَخُوضُوا فى حَديث غيره وإمّا يُنسيَنَّكَ الشَّيطانُ فلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالمينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وكلهم عبيد لواحد.

ومثل المحبوب من المحب مثل مقام المصطفى ﷺ من مقام موسى عليه السلام. قال موسى: ﴿ربِّ اشْرَح لى صَدْرِى﴾ [طه: ٢٥] وقال لمحمد: ﴿أَلَمْ نَشرَح لَكَ

صَدرَكَ﴾ [الانشراح:١]، وقال موسى: ﴿واجْعَل لى وَزِيرًا من أهلى * هَارُونَ أخى﴾ [طه:٢٩ ـ ٣٠] وقال لمحمد: ﴿ورفَعنا لكَ ذكْرَكَ﴾ [الانشراح:٤] أى: تُقرَن بى فى الشهادة والأذان لا أوازرك بغيرى؛ لأنّك من أهلى، والوزير: القرين والظهير، أى: فأنت من أهلى فقد وزّرتك وقَرَنتك بذكرى، فأنا ظهيرك ومعينُك، لا أشد أزرك بغيرى ولا أعضدكَ بسواى.

فأشبه هذا ما رويناه عن ليث، عن مجاهد، فى قوله عزّ وجل: ﴿عَسَى أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩] قال: يقعده على العرش(١).

---

(١) هذا أحد قولين رواهما الطبرى فى تفسيره عن مجاهد:

الأول: عن ابن نجيح عن مجاهد: أن المقام المحمود هو شفاعة سيدنا محمد ﷺ يوم القيامة.

الثانى: عن ليث عن مجاهد: المقام المحمود يجلسه معه على عرشه يوم القيامة.

واختار الطبرى القول الأول، وضعف الثانى.

[راجع: تفسير الطبرى، مصطفى الحلبى، الطبعة الثالثة ـ ١٩٦٨ جـ ١٥ ص ١٤٤ ـ ١٤٥].

ونقل القرطبى فى تفسير المقام المحمود أربعة أقوال، هى بإيجاز:

الأول، وهو أصحها: الشفاعة للناس يوم القيامة.

أخرج البخارى فى صحيحه، فى كتاب التفسير، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «إن الناس يصيرون يوم القيامة جثًا، كلّ أمّة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود».

وفى سنن الترمذى، عن أبى هريرة: سئل النبى ﷺ عن الآية، فقال: «هى الشفاعة».

[انظر: صحيح الترمذى، للألبانى، ٣/٦٨ ـ ٦٩ رقم ٢٥٠٨].

القول الثانى: هو لواء الحمد يوم القيامة.

الثالث: إخراجه من النار بشفاعته من يخرج.

الرابع: ما حكاه الطبرى عن فرقة منها مجاهد هو: «أن يُجلس الله تعالى محمدًا ﷺ معه على كرسيه».

قال القرطبى بعد هذا الرأى ما نصه:

«وعضد الطبرى جواز ذلك بشَطَطٍ من القول، وهو لا يخرج إلا على تلطف فى المعنى، وفيه بُعدٌ، ولا يُنكَر مع ذلك أن يروى، والعلم يتأوله. وذكر النقاش عن أبى داود السجستانى أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا. قال أبو عمر: ومجاهد وإن كان أحد الأئمة يتأوّل القرآن، فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم، أحدهما هذا».

=

فكان العرش مكان الربوبية بمشيئته فى الدنيا واختياره، وهو مستغنٍ عنه بقيُّوميَّته واقتداره، فوهبه لحبيبه فى الآخرة، فجعله مكانه تفضُّلاً له وتشريفًا، ليكون هناك فوق المرسلين فى الجلالة، كما كان هاهنا خاتمهم فى الرسالة.

وضمُّ مخلوقٍ إلى خالقٍ فى الاسم والمكان أعظم تشريفًا وأشرف تعظيمًا من ضمه إلى مخلوقٍ مثله وهو العرش، فلا عجب؛ لأنه رفع ذكره إلى اسمه، وجعل رسمه بدلاً من مكانه فى قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾** [الفتح: ١٠]، فهذا عجبٌ من الكون والمكان.

وإنه ليهجس فى سرِّى، ويتخالج فى صدرى، أنَّ الوسيلة التى قال ﷺ: «سَلُوا الله تعالى لى الوسيلة، فإنها منزلةٌ عند الله لا ينبغى أن تكون إلا لرجلٍ

= ثم قال القرطبى: «قلت: ذكر هذا ابن شهاب فى حديث التنزيل، وروى عن مجاهد أيضًا فى هذه الآية قال: يجلسه على العرش.

وهذا تأويل غير مستحيل، لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلَّها والعرش قائمًا بذاته، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها، بل إظهارًا لقدرته وحكمته، وليُعرف وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحكمة، وخلق لنفسه عرشًا استوى عليه كيف شاء من غير أن صار له مماسًا، أو كان العرش له مكانًا. قيل: هو الآن على الصفة التى كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان.

فعلى هذا القول سواء فى الجواز، أقعد محمد على العرش، أو على الأرض؛ لأن استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التى تشغل العرش، بل هو مستوٍ على عرشه كما أخبر عن نفسه بلا كيف.

وليس إقعاده محمدًا على العرش موجبًا له صفة الربوبية، أو مخرجًا له عن صفة العبودية، بل هو رفع لمحلّه، وتشريفٌ له على خلقه.

وأما قوله فى الأخبار: «معه»، فهو بمنزلة قوله: ﴿إِنَّ الَّذِين عند ربِّك﴾، و﴿ربِّ ابْن لى عندك بيتًا فى الجنَّة﴾، ﴿وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحسنين﴾، ونحو ذلك. كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحُظوة والدرجة الرفيعة لا إلى المكان». اهـ كلام القرطبى.

* أقول والله أعلى وأعلم: الأمر فى الغيبيات مردُّه إلى النقل الصحيح لا إلى العقل، فما ثبت فى السنة وإجماع أهل العلم فهو قولنا وحجتنا، وهو أيضًا قول أبى طالب المكى ورأيه، كما صرح بذلك فى أكثر من موضع. وأطلت فى هذه النقول، لأن القول يتعلق بالعقيدة.

انظر فى ذلك: تفسير القرطبى ١٠/ ٣٠٩ ـ ٣١٣. والشفا، للقاضى عياض، تحقيق محمد البجاوى ١/ ٢٨٩ ـ ٣٠٣. وفتح البارى ٨/ ٢٥١ ـ ٢٥٢.

واحد، وأرجو أن أكون أنا هو» أن ذلك هو القعودُ على العرش، ولكنى لا أُصرِّح بذلك، إذ لم يصرِّح به الرسول، لكنى أرمز به لمن عرفه.

وقال لموسى عليه السلام بعد المقام: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَى * ولقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه:٣٦ ـ ٣٧] ففى هذا تحديده. وقال لمحمد ﷺ: ﴿وقُل رَّبِّ زِدْنى عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] فلم يحدَّ له حدًا، فهذا غاية المزيد.

وقال موسى عليه السلام: ﴿ربِّ أَرِنى أَنظُر إلَيك﴾ [الأعراف:١٤٣] أى فى محل العبودية، وقال لمحمد عليه السلام: ﴿ما زَاغَ البَصَرُ وما طَغَى﴾ [النجم:١٧]، ﴿فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنَى﴾ [النجم:٩]؛ أى فى مكان الربوبية منه.

فبين المحب والمحبوب فى التقليب كما بين موسى ومحمد عليهما الصَّلاة والسلام فى التقريب، وبين من رأى ما رأى عند نفسه فى مكانه وبين من رأى ربه فى علوه شأنه كما بين من عَجِل إليه شوقًا منه ليرضى عنه وبين من عُجِّل به شوقًا إليه؛ لرضاه به، وكما بين من رأى ما رأى فلم يثبت، ففاضت عليه الأنوار لضيقه فقتل الضعفاء، وبين من رأى ما رأى فثبت له وغاضت فيه الأنوار لسعته فحمل الأقوياء، فقد جاوز المحبوب مقام المحبِّ فى التمكين، كما جاوز محمدٌ ﷺ مقام موسى عليه السلام فى المكان.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «إن الله اتخذ موسى صفيًا واتخذنى حبيبًا».

أدخل بينه وبين موسى لام الملك، وأقام محمد ﷺ مقامه فى الملك فقال تعالى لموسى: ﴿وَاصطَنَعتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه:٤١]، وقال لمحمد: ﴿إنَّ الَّذين يُبَايِعُونَكَ إنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح:١٠]، فكم بين مَن صنعه لنفسه وبين مَنْ جعله بدلاً من نفسه تفضُّلاً وتعظيمًا؟ وكم مَن فَصَل مدحَه من وصفه وبين مَنْ وَصَل مدحه بوصفه، فقال تعالى فى الفصل: ﴿وأَلْقَيْتُ عَلَيكَ مَحَبَّةً منِّى ولِتُصْنَعَ عَلى عَيْنى﴾ [طه:٣٩]، وقال فى الوصل: ﴿لِتُؤْمِنُوا بالله وَرَسُوله وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩]، وقال فى مثله: ﴿والله وَرَسُولُه أَحَقُّ أن يُرْضُوه﴾ [التوبة:٦٢]. وقد قيل فى قوله تعالى:

﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أى: خذ ما آتيتك من الكلام قبلاً واصطفيتك به على الناس، فاشكر عليه، والنظرُ فقد خصصتُ به محمدًا[(١)].

وعن ابن عباس وكعب: «إن الله تعالى قَسَم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد، فأعطى موسى الكلام، وخصّ محمد بالرؤية». ومما يؤيد هذا القول: أن الذى آتاه الكلام هو الذى ثبت له، فدل أنه هو الذى أريد به؛ لأن الله تعالى إذا أراد عبدًا بشىء ثبَّته فيه، وقوَّاه عليه، وقد ثبَّت محمدًا لما آتاه من الرؤية، وقوَّاه لها، ومكَّنه فيها؛ لأنه أراده بها، ولأن موسى كان مقامه مقام سائلٍ طالبٍ، وساعٍ حامل، وكان مقام محمدٍ ﷺ مقام مطلوب محمول، منادًى مستسعًى.

ومن وَصْفِ مقام المحبوب ما قيل لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه: صِف لنا أصحابك. فقال: عن أيّهم تسألون؟ قالوا: عن سلمان. قال: أدركَ عِلْمَ الأوّلِ والآخر. قالوا: فعمّار. قال: مؤمن ملىءٌ إيمانًا إلى مشاشه. قالوا أبو ذر. قال: جُمع له العلم والزهد، لا يخاف فى الله لومة لائم، ما أظلَّت الخضراء أصدق لهجة منه. قالوا: حذيفة. قال: صاحب السّرِّ، أُعطى علم المنافقين. قالوا: فأخبرنا عن نفسك. فقال: إياى أردتم؟ كنتُ إذا سألتُ أُعطيتُ، وإذا سكتُّ أُبديتُ.

فهذا مقام محبوبٍ؛ لأنه إذا سأل سُمِعَ منه، واستجيب له. وإذا سكت نُظِر إليه، فابتُدئ فعُطف عليه وأُعطى، فهذا مقامٌ جمع فيه ما فوقه على سواه من الأحوال، فأشبه ذلك ما وصفه به رسول الله ﷺ من النهاية التى أعطى أصحابه بداياتها، فقال: «أقواكم فى دين الله عُمَر، وأصدقكم حياءً عثمان، وأفرضكم زيد، وأقرؤكم أُبىٌّ، وأعلمكم بالحلال والحرام مُعاذ. ثم قال: وأقضاكُم علىٌّ». فالقاضى جامعٌ هذه الصفات، والقضاء هو الغاية، وكذلك كان عنده من البيان

---

(١) رحم الله أبا طالب رحمة واسعة، فقد أجاد فى بيان خصوصية الحبيب ﷺ من خلال القرآن الكريم، وهو استنباط ألهمه الله إيّاه قلّما تجده فى كتاب.

وكشف الشبهات ما لم يكن عند أصحابه، فقال: «ما شككتُ فى قضاء بين اثنين منذ استقضانى رسولُ الله ﷺ». وقضى فى شبهة فى الثمن، فسئل عنها رسول الله ﷺ، فتبسم وقال: ما أعلم فيها إلا ماقاله علىٌّ.

وقال عدى بن حاتم فى رجل رآه مقتولاً يوم الجمل: ويحَ هذا، كان بالأمس مؤمنًا وهو اليوم كافرٌ، فزجره علىٌّ وقال: بل كان أمس مؤمنًا، وهو اليوم مؤمن. وقال له عمّار: اقسم بيننا الذرية كما قسمت الأثاث والمال. فقال: حتى ننظر فى سهم من تصير عائشة. فقال: أوَ عائشة تُقَسّم. فقال: وكيف نصنع بها وهم جاءوا معها. فقال: صدقت. وخطب الناس بعد الجمل فذكر طلحة وغيره، فقال: قد كان إخوة يوسف على المحجّة يوم عقّوا أباهم، وباعوا أخاهم، فإنما بَغَضَهُم بعد التوبة والإقرار. ثم قال فى آخر كلامه: ما شككتُ فى الحق مذ عرفته.

فهذا كله مقام مُرادٍ محبوب، مكاشفٍ بالسر مطلوب.

وقد روينا عنه: «مَن أحبَّ مَن لا يَعرِف فإنما يمازح نفسه» أى: من لا يعرف صفات حبيبه وأخلاقهِ وأفعالهِ وأحكامه، فيحبه بعد خُبْرِهِ، فيسارع إلى مرضاته، ويجانب مكارهه، ويعامله بأخلاقه، ويجالسه بمعانى صفاته، فإنما يمازح نفسه؛ أى يلهو بها ويلعب، ليس فيه شىء من حدّ المحبين، ولا حقيقة العارفين، إذ لا يأمن انقلابَ محبتهِ، لتقليب أفعال محبوبه، ولا يأمن تغييرَ حبهِ لابتلاء حبيبه، واختلاف أحكامه، فكأنه كان مازحًا بحبه لا مُحقًا به، وفى مثل هذا المقام من جهلِ المحبينَ بأفعال المحبوب اغترارٌ عظيم.

ومن المحبة كتمانُ المحبة؛ إجلالاً للحبيب وهيبةً له، وتعزيزًا وتعظيمًا له، وحياءً منه. وهذا وصف المخصوصين من عقلاء المحبين، وهو من الوفاء عند أهل الصفاء، إذ كانت المحبةُ سرَّ المحبوب فى غيابة القلوب؛ فإظهارها وابتذالها من الخيانة فيها، وليس من الأدب ولا الحياء النسبةُ إليها، ولا الإشارةُ بها؛ لأن فى ذلك اشتهارًا، فتدخل عليه دقائقُ الدعوى والاستكبار.

وقال آخر فى تعزيز الحبيب مع قربه:

وقالوا قريبٌ قلتُ ما أنا صانعٌ
بضوءِ شعاع الشمس لو كان فى حِجْرى

فما لى منه غيرُ ذِكرٍ بخاطرٍ
يهيجُ نارَ الحُبِّ والشوقِ فى صَدرى

إلا أن يُغلب فيُعذر، أو يُقهر فلا يُلام؛ لأنّ للحب لوعةً تلدغ القلب، وسكْرةً تغمر العقل، وقبضًا يُقبض فيه القلب، ولا يُمكن كتمه، وزَفْرةً تغلب الوجد لا يُستطاع دفعُها، ونارًا تقدح فى اللُّبِّ تسطو بوصفها، فذاك حينئذ معذورٌ؛ لأنه هناك مقهور، وهو ثَمَّ مجبورٌ، إذ صار فى وثاق الحبيب مأسورٌ، كما أنشد بعض المحبين:

ولمَّا رأيتُ لِقَهرِ الهوى
أميرًا تَعزَّز أن يُعزَلا

وبثَّ عساكرَهُ فى النفوسِ
ففَصَّلَها مَفْصِلاً مَفْصلا

دفعتُ إلى الحبِّ حبلَ القيادِ
وقلتُ أسيرُكَ مُستقبِلا

فشدُّوا وَثاقى بحبلِ الصُّدودِ
فها أنا فى أسْرِه مُبتلَى

وأنشد فى الظهور عن غلبة الكتم والإسرار(١):

مَن كان يَزعُمُ أن سَيكْتُم حُبَّه
حتى يُشكِّك فيه فَهْوَ كذوبُ

الحبُّ أغلبُ للفؤادِ بقَهْرِه
مِن أن يُرى لِلبرِّ فيه نصيبُ

وإذا بدا سرُّ اللبيب فإنه
لم يُبْدَ إلاَّ والفتى مَغْلوبُ

وأنشد غيره:

يبدو فأجهَدُ أن أُكاتم حُبَّه
فتَبين فىَّ علامةُ الكتمانِ

وأنشد آخر فى الإظهار عن غلبة:

دلّ عليه نفسٌ مختلَس
ودمعةٌ تحت سِجال الفَلَس

---

(١) هذه الأبيات الثلاثة والبيت الذى يليها من (د) فقط.

يُخفى ويُبدى الدمعُ أسرارَهُ ويُظهر الوَجدَ عليه النفس

لو سُتر الحُبُّ ببعضٍ إذًا دلَّ عليه نظرٌ مختَلَس

أو موَّه الوَجدَ بفقدٍ لما أخفاهُ فيه عِلمُه المقتبَس

وأنشد فى معنًى جامعٍ للجملة:

ومَن قلبُه مع غيره كيف حالُه ومَن سِرُّه فى جَفْنه كيف يَكتمُ

وقال الجنيد وغيره ممن فوقه: يُقال: إذا تناهت معارفهم انتهت إلى حيرَة. وقالوا: أعرفهم به أشدُّهم تحيُّرًا فيه.

وقد رُوينا عن الله سبحانه: «إنما تضلُّ عقولُ الرجال عند طلب محبَّتى، يستبطئنى أحدهم، ولو صبر لأبحته شيئًا بعد شىء، ولا يكون ذلك شيئًا حتى أبلوه، وأعلم عقدة عقله، وهل هو أهلٌ لفوائدى، فإن كان كذلك، فأدنى ما يصِلُ إليه منى أن تخافه الخليقةُ، ويتنافس أهلُ الحيلة فى سعة نوره، وأحبوه بالنظر إلىَّ بلا كلام. يا داود، قل لمعاشر المتوجهين إلى محبَّتى: ما ضرُّكم ما فاتكم من الدنيا إذا كنتُ لكم حظًا؟ وما ضرُّكم من عاداكم إذا كنتُ لكم سلْمًا؟ وما ضركم مذمَّة الخلق وعداوتهم إذا كنتُ لكم حبيبًا؟ وما ضركم إذا جُعتُم من الدنيا وشبعتم بذكرِ عظَمتى؟ وما ضرُّكم الانقطاع من خلقى إذا انقطعتم إلىَّ؟».

فهذه نعوتُ الصادقين من المحبين، وهذا عِوَضهم وجزاؤهم من محبة الدنيا ومحبة الخلق. وقال بعد هذا فى وصف المبعدين من القرب والكاذبين المدعين: «يا داود، قل للتاركين ما وصفتُ، وللراغبين فى دار الذلّ والهوان: حَلُمتُ عنكم فلم تزدادوا إلا تماديًا، وسمحت لكم فى الإيثاق وكلأتكم بالليل والنهار من غير حاجة منى لكم، وكيف لا أفعل ذلك بكم، وما خلقت خلقًا هو أكرمُ علىَّ من أبيكم آدم، صِفوتى من خلقى، ورغَّبتكم فى جوارى، مَنْ تمسَّك بالمعاصى ألبسته ثيابَ الذلة، وأصرفُ عنه وجهى الكريمَ. القلوب المعلقةُ بشهوات الدنيا عقولها محجوبةٌ عنّى».

وقد قال بعض العارفين: أبعدُ الناس من اللهِ أكثرهم إشارة به، وهو الذى يُكثر

التعريض به فى كل شىء، ويُظهر التزيُّن والتصنُّع بذكره عند كل أحد، هذا ممقوت عند المحبين لله والعلماء به.

دخل ذو النون المصرى على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة، فرآه مبتلًى ببلاء يجلُّ عن الوصف، فقال ذو النون: لا يحبُّه مَنْ وَجدَ ألم ضربه. فقال الرجل: لكنِّى أقول: لا يحبه مَنْ لم يتنعَّم بضربه. فقال ذو النون: لكنى أقول: لا يحبّه من شَهَر نفسه بحبه. فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه.

وهذا ـ كما قال ذو النون ـ هو من علامة الإخلاص فى المحبة، إذ كانت من أعمال القلوب، فوجودُ الإشفاق والحذر من إظهارها ـ خشية السلب والاستبدال، وخوفَ المكرِ والاستدراج ـ علامة التحقق بها، ودفعها عن النفس، وسترها عن أبناء الجنس، وترك التظاهر بها علامة الظفر بها؛ لأن المحبوب غيورٌ، وغيرته على نفسه وعلى ظهور محبته أشدُّ من غيرته على إظهار محبته، وغيرته على إظهارهم لغير أبناء جنسهم أشدُّ من غيرةِ جميع محبيه عليه.

وقد أنشد بعضهم فى الفرق بين الواجد الصادق، والمتواجدِ الناطق عن وُجُودِ البُكاء:

إذا غرقت دموعٌ فى عيونٍ ... تبيَّن مَنْ بَكَى مِمَّن تباكى
فأمَّا من بكى فيَذوبُ وَجْدًا ... وينطق بالهوى مَن قد تَباكى

وأُنشدت فى وصف بعض الأقوياء من المحبين الذين هم للوجد كاتمون:

. . .[1] من الحسِّ لا يُبدى وجودًا ... كأنَّ فؤاده زُبَرَ الحديد

ومن ألطف ما سمعت فى غيرة المُحبّ على حبيبه حتى من نفسه، ثم حتى من حبيبه على حبيبه، لشدة غيرة المحبة، وعِظَم شأنها وجلالة مكانها فى قلب محبها، أنشدنى بعضهم:

غِرتُ منهم عليه مِن شدَّة الوَجْدِ ... به ثُمَّ غِرتُ منِّى عليه
ثم فكَّرتُ بعد ذاك، وهذا ... فى عيانى من ناظريه إليه

(١) كلمة فى أول البيت غير مقروءة.

همَّتى عــــزةٌ، وإنْ دام ذُلِّى إذ حيــاتى وميتَتى فى يديـه

ففى هذا آية للمحبين، وعبرة للعارفين، فلا تنكروا هذا، فإنَّ أعجب منه ما رُوينا عنه سبحانه فى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:١٥] قيل: من نفسى. وكان هذا على ضرب المثل فى شدّة الإخفاء.

كما نقل لنا الإسلاميون عن الكتابيين(١): إن فى الإنجيل مكتوبًا: إذا تصدقتَ فلا تعلم شمالُك ما صنعت يمينك، فإن الذى يرى الخفيَّات يُجزئك به علانية. وإذا صليتم فقولوا: يا أبانا الذى اسمُكَ فى السماء القُدسُ. فإذا صُمتَ فاغسل وجهَك وادَّهن رأسَك، لئلا يعلم بذلك غيرُ ربِّك.

فهذا كلّه على ضرب المثل والاعتبار فى المبالغة فى وصف الرّأفة والحنان من الخالق اللطيف الحنَّان، يتحبب به إلى أوليائه، ويتقرب بذلك إلى قلوب أحبائه، ويستخرج منهم أن يكونوا له كما هو لهم. وهذا كلامُ عالم صاحٍ فى مقام صحوٍ مكين، وهى محبة العقلاء الربانيين أئمة المتقين. فأما السكران بحاله، والولهان بوَجْده، والحيران فى توحيده، فمغلوبٌ بشكره، مقهور بأسره، مأسور بوَجْده، مجبورٌ بغنائه، محجوبٌ عن بقائه، ليس يقع به اعتبار؛ لأنه ليس بمعيار؛ إذ لم يجعل إمامًا للمتقين، ولا منهاجًا للعابدين، والله عز وجل غالبٌ على أمره. وقال رجلٌ لأبى محفوظ معروف، وقد رأى بعض المحبين شيئًا استجهله منه من مقال وفعال، فأخبر بذلك معروفًا، فتبسَّم، ثم قال: يا أخى، له مُحبُّون صغار وكبار، وعقلاء ومجانين، فهذا الذى رأيته من مجانينهم.

وقد قال صاحب الأمر(٢): «فإذا أحببتُه، كنتُ سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، وقلبه الذى يعقل به، ويده الذى يبطش بها، ورجله الذى يمشى بها، وكنتُ له يدًا ومُؤيِّدًا». فلذلك كان ﷺ يسأل من هذا المزيد، ويحب به دوام التأييد، فى قوله: «اجعل فى عينى نورًا، واجعل فى سمعى نورًا، وعن يمينى

---

(١) فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما هو خير من هذا ويغنى عنه، ورحم الله أبا طالب إذ أكثر من النقل عن أهل الكتاب وهو فى غنى عن ذلك.

(٢) يقصد الحديث القدسى.

نورًا، وعن شمالى نورًا» أى: أدِمْ لى الوَجْدَ بك، والنظر إليك، والقُرب منك، حتى لا أفقدك فىّ، ولا أشهد نفسى ولا غيرك فى وجدى، وأيِّدنى بذلك بروح التأييد ونور التوحيد، واعصمنى مع جميع ذلك عصمة المرحومين من المنيبين. وقد أنشد منشدٌ فى بعض هذا المعنى:

سَهرُ العيونِ لغير وجهك باطلٌ ... وبكاؤهن لغير حبِّك ضائعُ

بصرى وسمعى لم يُحِبْك لأننى ... أنا مبصرٌ بك فى الحياء وسامعُ

وفيما ذكرناه من وصف المحبِّ كفايةٌ، وغُنيةٌ لمن وُفِّق لفهمه، ورُزِق نصيبًا من علمه، يجزى عن وصف المحبوب، وليس يمكننا وصف محبوبٍ كما نعلم ونحب، إذ حاله يَجلُّ عن الوصف؛ لأنه فى غيابة الغيب محجوبٌ به، ومقامُه يعلو عن الكشف، وكيف يُوصف من يسمع ويُبصر من مُحبِّه، ويبطش ويقتل عن محبوبه، بل هو كائن له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيدًا وقلبًا، كما رويناه فى الخبر آنفًا: «لئن سألنى لأعطينَّه، وإن سكت ادّخرتُ له، لو قسم نوره على أهل الأرض لوسعهم».

فهذا كله فى مقام محبوبٍ. ويقال: إنّ هذه الآيات، والقُدَر المبهمات، من سرائر الغيوب وخفايا الملكوت، التى تسميها العامة المعجزات والآيات، وتسميها العلماء الكرامات والإجابات؛ وهى آياتُ الله فى أرضه مُودَعة، وقدرته فى عباده جارية، وعنايات له فى ملكه مستقرة، ليس للعباد منها إلا كشفها، ونظرهم إليها، إذا أقيموا مقام الأنس من مقام محبوب، ورُفعوا إلى وصف خُلَّة فى حال مطلوبٍ، رُفعت عنهم الأسبابُ والغيوبُ، وظهرت لهم الأسرار، وسِرُّ سرِّها هو المحجوب، وبعضهم يقول: إن الآيات توجدُ فى المقام السابع عشر من مقامات المعرفة؛ إذا أُقيم العبد هذا المقام نُودى بها، فظهرت له، فكانت هى كشوفه من الغيب؛ لأنها على طريقه، فلا يمتنع من رؤيتها، وهى كشفه إن عبرها، وحجبه إن نظر إليها. وفوقها ثلاثة وثمانون مقامًا من مقامات العارفين أفضل من ذلك؛ لأنها طرقات أبدال المرسلين من النبيين، وذلك فى قول بعضهم: تكون لأبدال النبيين من الصالحين، وأبدال المرسلين فضلُهم على أبدال النبيين كفضل المرسلين

على النبيين، وكفضل الصدِّيقين على الشاهدين؛ لأن كل بدلٍ يكون على معنى مبدله، وأبدال الصديقين أيضًا فوق أبدال الشهداء، وأبدال الشهداء فوق أبدال الصالحين. كذلك كل طبقة عن معنى مبدلها.

كيف وقد قال بعض العلماء: ما رأيت هذه الكرامات أُظهرت إلا على أيدى البُلْه من الصادقين. وقد قال رسول الله ﷺ: «أكثر من يدخل الجنة من أمتى البُلْه، وعِليُّون لَذوى الألباب».

فأولو الألباب هم المواجَهون بالخطاب، الشهداء عليه، المستحفظون للكتاب، كما قال تعالى: ﴿بِمَا اسْتُحفِظُوا مِنْ كِتَابِ الله وَكَانُوا عَلَيه شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]. والعامة يحسبون أنها من أعلى مقامات المعرفة؛ لأنها أبهرُ للعقول، وأغربُ فى العلم والمعقول، وتجلّى صفات محبوب فى أنوار اليقين بالقلوب، وقُرب ملاحظات المحبِّ للطائف معانى الحبيب، هو سرُّ السِّرِّ، وغُربة الغُربة، وعَجَب العَجَب، والذَّرُّ مِن ذلك عند العارفين والمحبين أعلى وأفضل من أمثال الكون والمكان؛ لأن العارف المكين ذا القوة الأمين ينظر إلى الكون ظاهره وباطنه ـ أعنى مُلكه وملكوته ـ بعين مليكه، فهو لا يملكه لقوته، ولا يتملكه لزهده وتوكُّله، فليس يشهد إلا فعله وهو ما ظهر؛ ومعناه الحكمة، ووصفه وهو ما غلب، ومعناه القدرة، فله فى كلِّ حركةٍ وسكون كشفٌ ومزيدٌ، يأخذ من الأشياء قبل أن يُؤخذ منه، ويأسرها قبل أن تأسره، فهى تأخذ نصيبها منه، وهو يأخذ منها نصيبه من مالكها، وهى ترتفع به وتزيد، وهو يعلو بِمُعْلِيه أبدًا إلى مزيده. وجميعُ الأسرار من الغيوب التى تكنُّها الحُجُب والأستار، لا يظهر عليها إلا مطلوبٌ، والمطلوب لا يكون محجوبًا وهو عن نفسه مسلوب. فمن بقيت عليه من نفسه بقية، أو نظر إلى حركته وسكونه بعينه نظرة خفية، فسترها عليه رحمة له، لأنه لو كوشف بها هلك فى حيرة الهوى، وغرق فى بحر الدنيا، ونفسُ حبِّه لها، وعين طلبِه إياها، هو حجبها عنه، واستتارها منه، حتى يكون كارهًا لظهورها كراهته لظهورِ الخلق عليه فى معصيته، وخائفًا منها خيفته من نفسه فى تظاهرها عليه بهلكته، فهناك حين يُبتلى بها ويختبر، لينظر كيف يعمل، فإذا بقى بباق، وحىَّ بحياة حى صرفًا

منه صِفرًا عنه، بلا طلبٍ، ولا نظرٍ، ولا سببٍ، ولا فكرٍ، بُودِئ بعجائبِه، وفُتِحَ له كنوز غرائبه، ويفعل الله ما يشاء. كما أنشد العارف:

ظهرتَ لمن أفنيت بعد فنائه   فصار بلا كونٍ لأنك كنتَه

وكما قال الواجد:

فإن نأى عذَّبنى، وإن دنا قرَّبنى   إذا تغيَّبتُ بدا ، وإن بدا غَيَّبنى

وقال بعضُ العارفين، ممن يكشف عن مشاهدته: عبدتُ الله ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود، واستفراغ الطاقة، حتى ظننتُ أنّ لى عند الله شيئًا، فذكر أشياءَ من مكاشفاتِ آيات السموات فى قصة طويلة، قال فى آخرها: فبلغتُ صفًا من الملائكة بعَدَدِ جميعِ ما خلقَ اللهُ مِن شىء، فقلت: ما أنتم؟ قالوا: نحن المحبون لله، نعبده ههنا منذ ثلاثمائة ألف سنة ما خطَر على قلوبنا قط طلبٌ لسِواه، ولا ذكرنا غيره. قال: فاستحييت من أعمالى، فوهبتها لمن حقَّ عليه الوعيد، تخفيفًا عنهم فى جهنم.

وقال بعض العلماء: كل مقام أُعبِّر عنه إلا مقام المحبة. قيل: ولم؟ قال: لأنّ الشىء يُعبَّر عنه بألطف منه، ولا شىء ألطف من المحبة.

وقيل لمعروف: أخبْرنا عن المحبة أى شىء هى؟ قال: يا أخى، ليس المحبة من تعليم الناس، المحبة من تعليم الحبيب.

يعنى إذا تجلى بوصفٍ محبوب بعد أن يحبك، ويحب لك أن تُحبَّه، كما تحبُّ على معنى الوصف الذى به تجلَّى، لم تمتنع من محبته لا محالة، فإمّا أن تخبر عنه، أو تستدل عليه بعلم أو عقلٍ. فهيهات، إنّ المحبة لا تجىء بخبرٍ، ولا تكون باستدلالٍ، إنما هو جَعْلُ اللهِ فى القلوب بسرائر الغيوب، لا يوليه غيره ولا يعلمه سواه، ولا يظهر عليه روح المحب ولا عقله، وكيف يعبِّره وجملة ما أعبِّر عنه من المحبة أنها سرٌّ عن وصف إله، فهى تآله القلبِ بما ألهَ اللهُ، فاستكان هذا النور فى قلب المتألِّه بالله إلى ما ألِهَ هى مكان المحبة، ثم يقع التجلِّى من الحبيب بحُسنٍ وجمالٍ ليس كمثله وصف، ويذوق حلاوة لا تُشبهها حلاوة، فتُحدث سرورًا

وارتياحًا ولذةً ونعيمًا يَجدُ القلب ذلك، ويحار العقل فيه، ويعرف الهمَّ فيه، ويتردد الفكرُ به، فهذا ما يُمكِن لِمَنْ عرف، وما يصلح لمن أُوقف، وما وراء هذا فإنما هو رؤية كيفية، وكيفية قُربٍ، والعقولُ والعلومُ تعجز عن درك هذا، لا يحيطه من الله عن مشيئة، فانتظمت محبة القرب، فكان سِرًا، وغابا فى جبروت العز، فالذى يُوجِد القُرب، ويظهر على كيفيته من الأرواح والقلوب، والهمم والعقول والعلوم ـ التى هى حجبهُ ـ هو الذى يُذيق القلوب والعقول وَجْدَ المحبةِ له، إذا كشف حُجبَ الغيوبِ عنها، وذلك أن الكل محجوب بحجابين إلا الموقنين، فالعقلاء محجوبون بحجاب العقل؛ لأنه من معناهم، والجهلاء محجوبون بحجاب الهوى، إذ هو من معناهم، فهذا حجابان باطنان، فإذا رُفعا انكشفت عينُ اليقين، فأبصرت الغيب بالغيب، فصار شهادة، ورأت النور بالنّور، وكان على الحسنى زيادة، فمثل ذلك ما حجب العموم فى الدنيا؛ لأنهم محجوبون فيها بحجابين ظاهرين: حجاب لطيف وهو العقل؛ لأنه من معنى اللطف، وحجاب كثيف وهو الجسم؛ لأنه من معناه. فإذا أُسقط الحجابان الباطنان ـ العقل والهوى ـ عن العارف المُجتبى، فهو كشف الغطا، ﴿**فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ [ق:٢٢]. وهذا هو اللقاء للكافة، كذلك إذا كُشف الحجابان الباطنان ـ العقل والهوى ـ عن العارف المجتبى كان حيز اللقاء، فهو فى الدنيا بجسمه أعرف من الحق من الأرواح برسمها فى مكان البرزخ، لا نقدر أن نخبرَ بأكثر من هذا.

وقال بعض العارفين: كل المقامات عن أنوار الأفعال والصّفات إلاّ المحبة، فإنها عن نور الذّات. فلذلك عزَّ وصفُها، وغرَّب وَجْدُها، وقلَّ من المؤمنين المتحققين بها.

قوله: «عن نور الذات»، إنما يريد وصفًا مخصوصًا من الذَّات، ووجه المحبين، وعنه معرفة العارفين. وإلاّ فالصفات كلّها متصلة بالذات.

ومن أدرك مقام المحبة لله تعالى لم يضرّهُ فوتُ شىءٍ من المقامات، ومن فاته مقام المحبة لم يغبط بِدَرْك شىء، ومثلها فى جلالة القدر مثل العلم بالله، أىُّ علم أعلى من علم يكون معلومه اللّهُ؛ فلذلك أىُّ قلب أجلُّ من قلبِ محبوبُه اللهُ عز

وجلّ؟ وقد قيل فى قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يتوكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أن الهاء عائدة على التوكل، أى: فالتوكل حسبه من جميع المقامات.

والتوكل حالٌ من مقام المحبة، فمن كان الوكيل حُبَّه، فهو من التوكل حسبه، وقد قال الله عز وجل: ﴿ورِضْوانٌ مِنَ الله أكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

والرِّضا مقام فى المحبة، فإذا كان الراضى الأكبر محبوبه، فأى شيءٍ يكون معه مطلوبه، فقد جلَّت المحبة أن توصف، وعزَّت فى المقامات أن تُعرف، ودقَّت عن العقول أن عليها حقيقتها تُوقف، فهذا كما قال:

لقد عزَّت معانيه فغابت عن الأفكارِ إلاّ للشّهيدِ

ولا شهيدَ إلا بشهادة، ولا شهادة إلا بشاهد، وقد قال الشهيد: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧]، فلأن يُعطَى المؤمن عُشر ذرَّةٍ من المحبة خيرٌ له من أن يُعطَى أمثال الجبال من العبادات؛ الجزاء عليها من معانى الصفات المتصلة بالذات. وهذا غاية الطالبين من المقربين. وعن أوّل بادٍ يبدو من الوصف، يستغرق كلَّ البدوات والنهايات، والمزيد من كل الجنان، ويجمع من اللّذة والسرور والنعيم والحبور كل ما فرَّقه فى جنات النعيم. فليس يعدل هذا عطاء؛ لأنه عن الرضا الأكبر(١)، فكيف بالبادى الثانى، والبادى الثالث عن الوصف الثانى والوصف الثالث؟

فلا يعلم هذا إلا من شهد به، ولا يطلبه إلاّ من عرفه، والخلائق عنه محجبون، إلا الشهداء والصِّديقين. وسائر العبادات وأعمال الصالحات يُثَوَّبُ الجزاء من معانى الجنة، وصفاتها الخَلْقيَّات، فشتان بين ذلك وبين المعانى الخالقيَّات. ولا يصلح له إلا من طلبه، ولا يصفه إلا من شهده، ولا حول ولا قوة إلا بالله المبدئ المعيد.

وقيل: إن للقلب حبةٌ، هى باطنه، عليها تتعلق المحبة، ومنه سُمِّيت محبة؛

---

(١) هذه عبارة (م)، وعبارة (د): «والمزيد والمظهرات من كل الجنان، فليس يعدل هذا عطاء لأنّه من الرِّضوان. والعبادات ثبوت منها الجزاء من معانى الجنة، والصفات الخَلقيات، فشتان بينهما»، فهى مختصرة لما فصلته (م).

كأنّ اشتقاقه من حبّة القلب، وهى التى يقال لها سويداؤه، والميم فى الأسماء قد تزاد للمبالغة فى الوصف. ومن هذا قول الله عز وجل: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] لما وصفها بنهاية الوصف فى الحبّ؛ أى قد خرق حبُّه شَغافَ قلبها، فوصل إلى حبَّة القلب، وخرق الشَّغاف وهو حجابُ القلب، و«حبًّا» منصوب على التفسير، كأنه قيل: قد شغفها، أى خرق شغافها، فقيل: ماذا؟ فقيل: حبًّا.

وقال بعضهم: قلت لعكرمة: ما معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾؟ فقال: يعنى بطنها. قُلتُ: كيف ذاك؟ فقال: بلغ سواد القلب. قيل: ما معنى سَوَاده؟ قال: مثل سواد العسكر إذا بلغ الحربُ إليه انكشف العسكر فيُهتك.

فالحبُّ إذا وصل إلى هذا الموضع من العبد، لم يملك المحب نفسه، فرَّغ قلبه له، وامتلأ به، ولم يجر على ترتيب ما رسمناه، وربما خرجَ إلى الولَه والاستهتار، وجاوز معيارَ العقل فى التصريف والأذكار. والعربُ تقول: قد دمَغه، ورأَسه، وفادَهُ، وركَبْتَه، إذا خَرَقَ دماغه، وضَرَبَ رأسه، وأصابَ فؤاده وركُبَته. فكذلك قولهم: قد شغفه؛ إذا أصاب شَغاف قلبه، فهتَكَ حجابه.

وأنشد بعضهم:

قالتْ وقــد شَغَفتْ قلبى فبُحتُ: قــد كُنــتَ عنــدى تحــبّ السِّرَّ فاستَتِرِ

ألستَ تُبصرُ مَنْ حـولى؟ فقلتُ لهـا: غَطَّى هــواكِ ومــا ألقَى على بَصَـرى

وعلى هذا المعنى مجاز قوله: «حبُّك الشىء يُعمى ويُصِمُّ»، أى يُعمى ويصمّ عن سواه، ويعمى ويصم به عن كل شىء، ولا يُبصر إلاّ به، ولا يسمع إلا منه، ويُعمى ويصم عن مساوئه والبلاوى التى فيه، فلا يخاف فيه لومة لائم، ولا يقبل عليه قول قائلٍ، ولا يصدق عنه عيبَ عائبٍ.

وقد قرئ بالعين: (قد شَعَفَها)، معناها: بلغ أعلى القلب ونهايته؛ لأن الشعَف

أعلى كلِّ شيء وأبعده، وشَعَفُ الجبال: غاياتها، فالمعنى: ذهب به الحبُّ أقصى المذاهب وغايته. فيحنئذ يملكه الحبُّ فيكون أسيره، ويغلب عليه الحبيب فيصير مأسوره، فيحكم عليه ولا يجاوز ما حكَمه، ويفرِّغ له قلبه من كل شيء رسمه، ويمتلئ به فلا يبقى فيه شيء رسمه، ولا يقدر على الكذب، لظهور سلطان قهر الحبّ. فيحنئذ يكشف قناعه، ويرسل عذاره فيه، ويصفه الحب بالحب وهو صامت، ويبدو عليه الوجد وهو خافت، ويُخفيه الحبيب إلا لمن يحب وهو ظاهرُ، وليس يكون هذا إلا فى مقام شكرٍ، وحال غَلَبةٍ وقهرٍ، فمن لم يعرف هذا المقام أنكرَ هذا الكلام، إلا أن يربط قلبه بتأبيده، ويحفظ سرَّه بتمكينه، كما قال تعالى: ﴿وَأَصبحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إنْ كَادَتْ لَتُبْدِى به لَوْلاَ أن رَبَطْنَا عَلى قَلْبِهَا لِتَكُونَ منَ المُؤْمنينَ﴾ [القصص: ١٠] أى: من المصدِّقين أنَّا نرده إليها، ولا تُظهر أنه ابنها، فيُقتل.

وكما لطف للفتية الذين آمنوا، وهم أصحاب الكهف، لما غلب حبُّ الإيمان على قلوبهم فملكها، خرجوا من المصر، وفارقوا الأهل، فقال فى وصفهم: ﴿وَرَبطْنَا عَلَى قُلُوبِهِم إذْ قَامُوا فَقَالُوا ربُّنا ربُّ السَّموات والأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤] لئلا يظهروا إيمانهم لما غلب حبُّه عليهم، فيُقتلوا.

فهذه لطائف الحكيم، وخفيُّ صنع العليم، فالمحبون له حافظون للغيب بما حفظ.

وقال سمنون لبعض الفقراء فى قصة ذكرها: يفرح بحبه، ويذكر المحبة.

وقال بعض الناس فى وصف المحبين: أقامهم مقام المحبة، فلم يزن الملك فى قلوبهم حبة.

فمحبة غير الله فى محبة الله شرك عند المحبين؛ وهى جناية عند الصادقين، وهو من نقض العهد وقلّة الوفاء بالعقد عند المخلصين.

وكان سهل يقول: من أحبّ الدرهم لم يحب الآخرة، ومن أحب الخبز لم يحب الله عز وجل.

ولا يخرج حبُّ الوالدِ والولدِ المحبين من المحبة؛ لأن ذلك جعل الله فى القلوب نصيبًا لهم، ولا يخرجه أيضًا حبُّ الزوجة؛ بمعنى الرفق بها والرحمة لها، ولا يُخرجه أيضًا حبُّ مصالح الدنيا ومرافق الأسباب من حاجات الأجسام والقلوب، مما لا بد منه من عَوَز الزاد على الطريق، وليس ذلك كله يكون فى مكان محبة الله؛ لأن محبة الله فى أنوار الإيمان، ومحبةُ هذه الأشياء فى مكان العقل والطبع، ما لم تأخذ هذه الأشياء منه، بمعنى الانحطاط فى الهوى ومجاوزة العلم. كما يقول فى صفة المقربين من الموقنين: «إنهم يأخذون من الأشياء قبل أن تأخذ منهم».

هكذا هو عندى فى الفرق بين محبة الخالق ومحبة المخلوق.

ويخرجه جميع ذلك عند ـ الخوَّاص والنُّورى، وطائفةٍ من المحبين ـ من حقيقة المحبة.

فأما الإيثار لهذه الأسباب، والانحطاط فى أهوائها، والسكون إليها، والفرحُ بها، والطمأنينة معها. والحزن على فقدها؛ فإن ذلك يُخرجه من حقيقة المحبة؛ لأنها قد أخذت منه فجذبته، وتحكّمت فيه فتسخَّر لها، كذلك هو عندى وعند الكلّ.

وقد توجد بعض المحبة مع وجود بعض هذه الأشياء عندى، وإن كانت عِلّةً موجودة، ولا توجد حقيقتها عند الجماعة وعندى.

وأما بعض الحكماء فإنه يزعم أن محبة العشق ـ خاصة المتعلقة بالوصف ـ متصلة بالروح، منتشية منه، وإن كان سلطانها موجودًا فى القلب، وحاكمًا على الجسم، إذ كان القلب مَلكَ الجسد، ومكانًا للحواس كلها. وهو الفرق عندهم بين حب العشق، والحبِّ لأجل المعانى والأسباب من المنافع والمرافق، إذ ذاك متعلقٌ بالأوصاف. وذكر: أن حكيمًا كان عند بعض الملوك، فنظر وزيره إلى جاريةٍ للملك كان يهواها، وقد أشرفت عليه، ولم يعلم الملك بذلك، فلما نظر إليها ارتعدت فرائصه، وغُشى عليه، فعجب الملكُ من ذلك، فسأله عن حاله، فاعتذر

بوجعٍ يعارضه فى الأوقات. فلما خرج سأل الملك الحكيمَ: هل تعرف دواء هذه العلة؟ فقال: نعم أعرف دواءها، إن أمرتنى أخبرتك. فقال: قد أحببتُ ذلك. قال: إنه نظر إلى من يحبه، فلحقه هذا الاضطراب؛ لأنه انفرج قلبه، فتحرك الجسم لانفراج القلب. قال له الملك: فإنَّا نُحبُّ أهلينا وأموالنا، ولا يصيبنا هذا. فقال: ليست هذه تلك المحبة، هذه محبة الروح، وتلك محبة العقل.

ومن أعجب ما سمعتُ فى هذا الباب، ما حدّثنى بعض إخوانى، عن أبى القاسم الجنيد، قال: مرض أستاذنا السَّرِىُّ ـ رحمه الله ـ فلم نعرف لعلته دواء، ولا علمنا لها سببًا. فقال: فوُصف لنا طبيبٌ حاذق، فأخذنا بوله، فمضينا به فى قارورة، فنظر إليه الطبيب، فقال: لقد أعيانى وصف هذه العلة، ولكن سأفكر فى هذا الماء. قال: وجعل ينظر مليًا، ثم قال لى: أراه بول عاشقٍ.

قال الجنيد: فصُعقت وغشى علىَّ، ووقعت القارورة، ثم رجعت إلى سَرِىٍّ، فأخبرته، فتبسَّم، ثم قال: قاتله الله ما أبصره! وقلتُ: يا أستاذ، وتتبين المحبة فى الماء؟ قال: نعم.

وقد قال سرىٌّ مرّة: لو شئتُ أن أقول: ما أيبس جلدى على عظمى ولا سَلَّ جسمى إلا حُبه لَقلتُ. قال: ثم غُشى عليه. وكان يُفصح فى بعض الأوقات بهذه المعانى.

• ذكر وصف بعض المحبين من المكاشفين وأبدال الصديقين من المقربين:

قيل لبعض العارفين من الأبدال، ممّن يتكلم فى عِلْمه، ويكشف عن طريقه ووجده: الناس يقولون: إنك محب. فقال: لستُ محبًا، المحبُّ متعوب، ولكنى محبوبٌ.

وقيل له أيضًا: الناس يقولون إنّك واحدٌ من السبعة. فقال: أنا كلُّ السبعة. وقال: هذا إذا رأيتمونى فقد رأيتم أربعين بَدَلاً. قيل: كيفَ وأنت شخصٌ واحد؟ قال: لأنى قد رأيتُ أربعين بدلاً، فأخذت من كلِّ بدل خُلقًا من أخلاقه. وقيل له: بلغنا أنك ترى الخضر، فتبسم، ثم قال: ليس العجب ممن يرى الخضر، ولكن

العجب ممن يريد الخضر أن يراه، فيُحجَب عنه فلا يَقْدِرُ عليه، ولعمرى أن من كان عند الله لم يره بَشَرٌ ولا مَلَكٌ.

كما حدثونا أن الحسن اختفى عند حبيب العجمى، وكان من أصحابه، وعلى يده تاب، وزهد فى الدنيا وخرج من أمواله كلها، وكان حَسَن الشأن كثير التجارات، وكان له ثلاثون مملوكًا، لكل واحدٍ منهم تجارة، فأعتق جميعهم، وفرَّق جميع ماله. وكان الحسن مستترًا عنده من الحجاج، فسعى به فدخل عليه الشُّرَط، ففزع الحسن، وذهب ليتسوَّر الحائط ويهرب. فقال له حبيب الفارسى: اقعد ورائى فإنهم لا يرونك. فقال: ويحك، ما يغنى عنى وراؤك؟ فقال: اقْعُدْ حتى تُبصر. فقال: فدخل عليه الشُّرَط فقالوا: أين الحسن؟ قيل لنا إنه عندك. فقال: هل ترون شيئًا؟ ففتَّشوا الدَّار كلّها، وخرجوا وهم لا يرونه. فقال له الحسن: كيف لم ينظروا إلىَّ؟ قال: لأنك كنت عند الله فلم يروك، ولو كنت عندى لأبصروك. قال له الحسن: إنى قد رأيتك لما دخلوا هَمَسْتَ بشىء، فهل ذكرتَ اسم الله الأعظم؟ قال: أما الاسم الأعظم فلا أحسنه، ولكن قلتُ: اللهم اجعله عندك حتى لا يبصروه.

وكان حبيب أبو محمد هذا من البُلْه، وأهل السلامة والغفلة، وله إجابات، وإظهار كثير من الآيات. والحسنُ إمام الأئمة من العلماء، وهو فوقه درجات، وأحبُّ إلينا منه، فلم يُعط ذلك، وأُحْوِجَ إليه[1].

وقد حُدِّثتُ عن الخضر عليه السلام أنه قال: ما حدَّثتُ نفسى يومًا قط أنه لم يبق ولىٌّ لله تعالى إلا عرفته، إلا ورأيت ذلك اليوم وليًا لم أعرفه. قال: ولقد كنتُ يومًا بصنعاء فى مجلس عبد الرزاق، فنظرت إلى شابٍّ مُفرَد فى ناحية، فقمت إليه فقلت له: لِمَ لا تحضر مجلس عبد الرزاق فتسمعُ منه، فقال لى: وأى شىء أسمعُ منه؟ فقلت: تسمعُ حديث مَعْمَرٍ عن الزُّهرى، فقال: قد سمعتُ من الله عز وجل فأغنانى عن عبد الرزاق، فقلت له: أنت مِمَّن تُحسن أن تسمع من

(١) هذا هو الصواب ألاّ يغتر المسلم بالكرامات ولا بالمظهر.

الله تعالى؟ قال: نعم. قلت له: فمَنْ أنا؟ قال: أنت الخَضِر، ثم غاب عنى، فلم أقْدِر أن أراه.

وقيل لأبى يزيد البسطامى: بلغتَ جبل قاف؟ فقال: جبل قاف أمره قريب الشأن من جبل كاف، وجبل عين، وجبل صاد[1]. قال: وما هذا؟ قال: هذه جبال محيطة بالأرضين السُّفلى، حول كل أرض ثانية وثالثة جبل بمنزلة جبل قاف، محيط بهذه الأرض الدنيا، وهو أصغرها، وهذه أصغر الأرضين. وهو جبل من زمردة خضراء. فيقال: إن سماء الدنيا متقبِّبة عليه. ويقال: ليس بينه وبين السماء إلا أربعون فرسخًا. وإن خُضرة السماء من خُضرته، وإلا فهى بيضاء كالفضة، ولكن لشدّة صفائها وتلألؤها، واخضرار الجبل وقربه منها، عَلَت بها خُضرته، فتلألأت واخضرَّت.

وقد كان أبو محمد ـ إمامنا فى هذا العلم ـ يخبر: أنه صعد جبل قاف، ورأى سفينة نوحٍ مطروحةً فوقه، وكان يصفه ويصفها، وقال: لله عبدٌ بالبصرة يرفع رجله وهو قاعد فيضعها على جبل قاف. وقد قيل: الدنيا كلها خطوةٌ للولىِّ، وإنّ وليًا لله خطا خطوةً واحدة خمسمائة عام، ووضع رجله على جبل قاف، والأخرى على جانب الجبل الآخر، فعبر الأرض كلها. ويقال: إن بعض الأولياء احتاج إلى مصباحٍ، فرفع يده إلى القمر فاستصبح منه نورًا اقتبسه فى جذوةٍ معه. وبعضهم كُوشف بالهلال فى أول ليلته، فرآه مستديرًا كما يُرى ليلة أربع عشرة، كأنه رُفع عنه الفضاء المحجوب به. وبعضهم كُوشف بالشمس فرآها نصف الليل فى عرض الفلك؛ لأنها تقطعه ليلاً عرضًا، كما تقطعه طولاً نهارًا، وفوق ذلك ما لا يستطيع ذكره؛ خيفة الإنكار، فسبحان الواحد القهار.

وقيل لبعض المحبين من الأوتاد، وهم خصوص الأبدال: دخلتَ إرم ذات العماد؟ فقال: قد دخلتُ ألفَ مدينة لله فى مُلكه، أدناها ذات العماد. ثم عددها: البيت، وتأويل، والمنسك، وتاريس، وجايلق، وجابرس. ولعلّ قائلاً يقول: فقد

---

(١) جبل قاف وغيره من الجبال التى ذكرها حقيقتها غامضة، كما أن حقيقة الأرضين السبع غير معروفة لنا.

قال الله فى وصفها: ﴿الَّتِى لَم يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البِلادِ﴾ [الفجر:٨]. قيل: فإن معناه فى بلاد اليمن؛ لأنهم خُوطبوا بما فى بلادهم. كما قال تعالى: ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ [المائدة:٣٣]، يعنى أرض بلادهم. فذاتُ العماد مدينة عاد فى اليمن بين أبين والشّحر[١]، يقال: لها سورٌ له ثلاثمائة باب، ما بين كل بابين فرسخ، مركبة على أعمدة الذهب والفضةِ والياقوتِ والزبرجد، فيها مائة ألفِ عمود من ذلك[٢]، كانت الجن اصطنعتها لعاد بن شدَّاد بن سام بن نوح. استخرجت الجن هذه العمد من قعور البحار والفيافى والقفار، وكانت سُخِّرت الجن له قبل سليمان بن داود بأربعة آلاف عام[٣]. بناها فى ثلاثمائة سنة، وكان عمره خمسمائة سنة.

ويقال: تجتمع فى هذه المدينة طائفة من الأبدال ليالى الجمع وفى الأعياد. يقال: فيها صناديقُ من حجارة، طولُ كلّ صندوق عشرة أذرع، فيها قبور الأنبياء؛ أجسادهم صحيحةٌ باقية إلى يومنا هذا، وهى محجوبة عن أبصار العباد. وقد كان سهل رحمه الله يزورها فى كلِّ جمعة، وهذا واحد من المحبوبين.

والله أعلم بحقيقة ما ذكرناه، ما عندنا من ذلك إلا تصديق وتسليم. آمنا بحقائقه عند الله عز وجل، وهذه آيات يسيرة من قدرة الله الكبيرة، ومن عجائب الملك، والملكُ كُلُّه مندرجٌ فى الملكوت، وهو سر المُلك وخزانة المَلك، وإنما أظهرَ الله تعالى منه بمقدار ذَرَّة بقدر عين العقل، وهو قوت العقل، والملكوت بأسره منطوٍ فى الجبروت، وإنما أظهر الله تعالى من الملكوت بقدر ذرة، وهو قوتُ الإيمان، والجبّارُ بَقَهْرِهِ قابضٌ لجميع ذلك فى يده.

وقيل لأبى يزيد البسطامى مرة: حدِّثنا عن مشاهدتك من الله. فصاح ثم قال:

(١) إنما هى فى الربع الخالى بين جبال عمان والسعودية.

(٢) هذه أوصاف من نسج الخيال والأساطير أُخذت من الإسرائيليات، لكن الحفريات الحديثة أثبتت غير هذا تمامًا، إذ كشفت الأشعة فوق الحمراء عن وجود أطلال مدينة بالربع الخالى مندثرة تحت الرمال بعمق ٢٠٠ مترًا.

(٣) هذا التاريخ وهذا والتحديد بعيد جدًا عن التاريخ الزمنى الحقيقى، وهو مأخوذ أيضًا عن الإسرائيليات، وتاريخ الحضارات القديمة تكشَّف أمره حديثًا بما يبطل كل هذه الأقاويل.

ويلكم، لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك. وقيل: فحدِّثنا بأشدّ مجاهدتك لنفسك في الله. فقال: وهذا أيضًا لا يجوز أن أطلعكم عليه. قيل: فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتها. قال: نعم، دعوتُ نفسي إلى الله في بعض الأمور فتلكعت عليَّ، فعزمتُ عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق الغَمْض سنة، فوفَّت لي بذلك(١).

وحكى عنه يحيى بن معاذ، في بعض مشاهداته: أنه رآه من بعد صلاة العشاء إلى صلاة الفجر، مستوفزًا على صدور قدميه، رافعًا أخمصها وعقبيه عن الأرض، ضاربًا بذقنه على صَدْرِه، شاخصًا بعينيه لا يطرف. قال: ثم سجد عند السَّحَر فأطال، ثم قعد، فقال: اللهم إنّ قومًا طلبوك فأعطيتهم طيَّ الأرض، فرضوا بذلك، وإني أعوذ بك من ذلك. وإن قومًا طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والهواء، فرضوا بذلك، وإني أعوذ بك من ذلك. وإن قومًا طلبوك فأعطيتهم كنوزَ الأرض فانقلبت لهم الأعيان، فرضوا بذلك، وإني أعوذ بك من ذلك، حتى عدَّ نيِّفًا وعشرين مقامًا من كرامات الأولياء. قال: ثم التفت فرآني. فقال: يحيى؟ قلت: نعم يا سيدي. قال: منذ متى أنت ههنا؟ قلتُ: منذ حين. فسكت. فقلت: يا سيدي، حدِّثني بشيء. فقال: أُخبرك بما يصلُح لك، أَدْخَلَني في الفلك الأسفل، فدَوَّرني في الملكوت السفلي، فأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلوي، فطوَّف بي في السموات، وأراني ما فيها من الجِنان إلى العرش، ثم أوقفني بين يديه، فقال لي: سلني أي شيءٍ رأيتَ حتى أهبه لك. فقلت: يا سيدي، ما رأيت شيئًا استحسنته فأسألك إياه. فقال: أنت عبدي حقًّا، تعبدني لأجلي صدقًا، لأفعلن ولأفعلن بك، فذكر أشياء. قال يحيى بن معاذ: فهالني ذلك وامتلأتُ به وعجبتُ منه. فقلت: يا سيدي، لِمَ لَمْ تسألْه المعرفة به، وقد قال ملك الملوك: سلني؟ قال: فصاح بي صيحة، وقال: اسكت، ويلك، غِرْتُ عليه مِنِّي، لا أحب أن يعرفه سواه.

فهذا حال عبدٍ عن نفسه مأخوذٌ، إذ كان ربه له موجودًا، طال مقامُه المقامات،

(١) لعلّ هذا من شطحات أبي اليزيد، والله أعلم.

فقصرت عن وصفه الصفات، وحقّ له إذ نظر إلى الحسن الذى حَسُنت المحاسن كلها عن حُسنه، وشانت الزينات جميعًا بعد النظر إلى زينته، وشهد الجميل الذى تجمَّل الجمال والمتجمِّلون بجماله لمن لا يستحسن سواه، فكيف يحب غير ما استحسن؟ وأن لا يزين فى عينه إلا إياه؟ فكيف ينظر غير إياه، أم كيف يطلب غير ما أحبّ، أو يقفو غير ما طلب؟ بل كيف يهتم بغير ما طلب؟ فهذا نعتُ عبدٍ مطلوب بمعنى ما طلب، ووصفُ شخصٍ محبوبٍ بغير ما أحب، والله تعالى يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس.

وقد كان أبو تراب النخشبى رحمه الله معجبًا ببعض المريدين، فكان يؤويه ويقوم بمصالحه، والمريد مشغول بعبادته ومواجيده. فقال له أبو تراب يومًا: لو رأيتَ أبا يزيد. فقال المريد: إنى عنه مشغول: فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله: لو رأيتَ أبا يزيد، هاجَ وَجْدُ المريد، فقال: ويحكَ ما أصنع بأبى يزيد، قد رأيتُ الله فأغنانى عن أبى يزيد. قال أبو تراب: فهاج طبعى، ولم أملك نفسى، فقلت له: ويلك لو رأيت أبا يزيد مرةً واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله عز وجل سبعين مرة. فبُهت المريد من قولى وأنكره، وقال: وكيف ذلك؟ فقلتُ له: ويلك، إنما ترى الله عندك فيظهر لك على مقدارك، وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره. قال: فعرَف ما أقول، فقال: احملنى إليه. فذكر قصة، قال فى آخرها: فوقفنا على تل ننتظره يخرج إلينا من الغيضة. قال: فمرّ بنا، وقد قلب فروةً على ظهره، فقلتُ للفتى: هذا أبو يزيد، فانظر إليه، قال: فنظر إليه الفتى فصعق، فحركّناه فإذا هو ميِّت. قال: فتعاونَّا على دفنه. فقلت لأبى يزيد: يا سيدى، نظره إليك قتله؟ قال: لا، ولكن كان صاحبُك صادقًا فاستكنَّ فى قلبه سرٌّ لم يكن ينكشف له بوصفه، فلما رآنا كُشِف له سرُّ قلبه، فضاق عن حمله؛ لأنه فى مقام الضعفاء المريدين، فقتله ذلك.

فهذه جمل من أوصافِ المحبوب المراد، وسَعةٌ من رزق بغير حساب من المحب الجواد، بتيسير من الطالب للمطلوب، وعناية من المحبّ للمحبوب. ومقامُ الحبيب أعزُّ من أن يظهر، وأخفى من أن يُعرف؛ غيرةً منه عليهم، سترهم بأفعالهم،

ضنًّا[١] منه بهم، وحجبهم بأوصافهم. أهل المقامات يشتاقون إليه، وهو يشتاق إليهم، وأهل القربِ ينظرون إليه، وهو ينظر إليهم، وأهلُ المحبة يحبّون أن يسمعوا كلامه، وهو يحب أن يسمع كلامهم، وأهل الأحوال يسألونه، وهو حسبهم، ويحب أن يسألوه، وأهل المشاهدات يزورونه، وهو فى قلوبهم يزورهم، وأهل الآخرة ينظرون إليه فى الآخرة، وهو ينظر إليهم فى الدنيا.

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، كما ذكرنا فى قصة داود الملك الرسول؛ إذ أرسله الملكُ الجليلُ إلى أحبائه الأربعة عشر وليًا، أن يسألهم أن يسألوه حاجة، فلمّا رأوه نفروا منه؛ لئلا يشغلهم عنه، فذكرناها قبل هذا، فلا تنكرنّ من هذا شيئًا. فإنه يعطى المحبوب فى الدّنيا أول عطاء أهل الجنة فى الآخرة؛ وهو «كُنْ»، فيزهدون فى ذلك لأجل بقائه، ويكرهون ذلك لحبه، قد جاوزوا معارفَ من سواهم. فإذا أعطاهم «كُن» أمرهم أن لا يقولوا: كُن فى أمر الساعة، ولا يقولوا: كُن فى كشف الغطاء عن النيران والجنان، وما وراءها من الكَون والمكانِ للعيان قبل اللقاء. وإن كان مظهرة لباطنه إلاّ أنها مستورة بالصنع للإتقان، مقطوع عنها الوهم، راجعٌ عنها الفِكر والهمّ. وسألهم أن لا يظهروا ما فى الحِكمة والعَقل إخفاؤه؛ لأن إظهاره لا يصلح للخلائق، ولا يستقيم عليه أمرُ المملكة، ولا ينتظم به التدبير، لما سبق من التقدير. وفيه سقوط الأحكام ووقوع الهلكة لكثير الأنام. فإذا رأَوا ذلك منه وما قد استثناه عليهم منها، استجابوا له أحسنَ استجابة، وردوها إليه أسرعَ مردٍّ وأبْلَغَهُ فى مرضاته، وهو أن يتركوا إظهار شيءٍ لإظهاره، ويزهدوا فى كلّ معنى منها لوجهه، ورضوا بتصريف قدرته فى مجارى حكمته. وهذا غاية الجهد، ونهاية الزهد والحب. فيشكر لهم ذلك أحسنَ شكر، ويدّخر لهم عنده أفضل ذُخر.

ولما دخل الزنجُ البصرةَ فقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، اجتمع إلى سهل إخوانُه فقالوا: لو سألتَ الله عز وجل فى هذا الأمر، ولو دعوتَ. فسكت، ثم قال: لله تعالى عبادٌ فى هذه البلدةِ، لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه

(١) من هنا يبدأ الخط القديم فى نسخة (هـ)، وفيها زيادات مهمة، راجع وصفها بالمقدمة.

الأرض ظالمٌ إلاّ ماتَ فى ليلة، ولكن لا يفعلون. قيل: ولم؟ قال: لأنهم لا يحبون ما لا يحبّ.

ثم ذكر من إجابة الله تعالى لهم أشياء لا نستطيعُ ذِكرها. حتى قال: لو سألوه أن لا يقيمُ الساعة لم يقمها.

واعلم أنَّ العبد إذا بلغ من الله تعالى هذا المكانة، حتى يعطيه «كن»، اقتضته الحالُ أن يقول: وفِّقنى لما تحبّ، واعصمنى مما تكره، فإنّى بشرٌ جاهل لا أحسنُ التدبير، ولا أعرف المقادير، ولا علم لى بعواقب الأمور، وأخاف أن يكون فى قولى تفاوتٌ، وفى إرادتى اضطرابٌ، فإذا أجابه تعالى إلى ذلك، سكت فلم ينطق، وسلَّم، ورضى بالتدبير فأطرق؛ لأن الذى يحب الله تعالى يحب أن تكونَ الأمور على ما هى عليه الآن، والذى يكره يحب أن لا تكون على ما هى عليه؛ لأنها عن تدبيره، يظهر بمعانى الخير والشر؛ لأنه تولى التدبير بنفسه، كما استوى على العرش بوصفه، ولم يجعل على العباد تدبير المُلْك، إنما جعل عليهم الصبرَ والرِّضا للمَلكِ، فرجع العبدُ إلى الصمت والأدب فى نفوذ المراد كما كان، وترك العبدُ الفضول والاعتراض، وحصل له مقام التوكل والرضا.

ولذلك كان أبو محمد رحمه الله تعالى إذا قيل له: ما مرادُ الله تعالى من الخلق؟ يقول: ما هم عليه.

فكيف تريد ما لا يريد، وهو محبٌّ لصفاته التى عنها تظهر المرادات، ومنها تبدو الأحكام؟ ولا بدّ مما يكون، كما لا بد مما كان. و«كُن» منطوٍ تحتَ «كان»، ولولا «كان» لم يكن «كُن»، فكان أحبَّ إليهم من «كُن»؛ لأن له ولهم مثل «كُن» أمثال، وليس لهم ولا لَه مثلُ «كان» مِثل. فهؤلاء همُ الذين لا تعلم نفس ما أُخفى لهم من قُرَّةِ أعينٍ، وهم المحبون لله من عباده، الزاهدون فى ملكوته لوداده.

وكذلك صنعوا مثلَ هذا فيما استخلَفهم فيه من الأموال، لما سمعوه يقول: ﴿وأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فيه﴾ [الحديد:٧]، فأخرجوا الكلَّ لأجله، فكان هو خلفًا لهم من كل مالٍ، بعد أن كانوا مستخلفيه لما زهدوا فيما سواه، وصار هو

سبحانه وكيلاً لهم، بعد أن كانوا وكلاءه؛ فإذا قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللهُ ونعْمَ الوَكيلُ﴾ يقول الله تعالى لهم: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُم سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤]، رضى الله عنهم ورضوا عنه؛ لأنهم عملوا بما قالوا، فتحققوا بالإيمان. وقيل: إن الإيمانَ قولٌ وعمل، ولا ينوب القولُ عن العمل. وإذا قالوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قال الله تعالى: صدقتم؛ لأنهم لا يخدمون ولا يذلُّون لسواه، ولا يعدون للنّوائب إلا إياه، ولا يستعينون بغيره. ولذلك صاروا صدِّيقين لتصديق الصادق لهم. كما بلغنا: « أن العبد ليقرأ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُد وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيقول الله تعالى: كذبتَ، لو كنتَ إياى تعبد لم تخف، ولم ترجُ سواى، ولو كنتَ بى تستعين لم تسكن إلى مالك وأَهْلك». وكذلك بلغنا: «أن العبدَ ليقرأ السورة من القرآن فتصلى عليه حتى يفرغ منها، إذا عمل بها، فهذا صِدِّيق. وإن العبد ليقرأ السورة من القرآن فتعلنه إلى أن يختمها، إذا لم يعمل بما يقول، فهذا كذاب».

فأين الإيمان؟ ولا إيمان إلاّ بعمل، فليس هذا مؤمنًا حقًا. فالأولياء حقّقوا القول بالعمل، وشهدوا الإيمان باليقين. فإذا قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، توكلوا عليه ورَضُوا عنه، وتألهوا إليه. ولم يكن فى صدورهم غيره، فيقول الله تعالى: صدقتم. فيكونون صِدّيقين، كما يقول للشىء كن فيكون. فتدبروا. فإذا قالوا: ونِعْمَ الوكيل، قاموا مقامَ التوكل، فصار لهم فى الصدق مقامات. يقول الصادق: صَدَقتم، فيكونون صدِّيقين. فيقول: عبادى، أنتم خيرتى من ذوى ودِادى، وأنا وكيلُكُم، رضيتم بى، وأنا حسبكم، فهؤلاء الذى انقبلوا بنعمة من الله وفضل لم يَمْسسهم سوء، واتّبعوا رضوان الله، فأعطاهم من الجزاء أربعة معان: النعمة والفضل، والتوكُّل عليه، وصرفُ السوء، واتباعُ الرِّضا برضاهم عنه رضى الله عنهم. فالحبيبُ يعتذر له، والعدوُّ لا يقبَل عُذره، والمحبوبُ لا يُحاسب، والمبغضُ لا يُحسب له. وقد قال بعض الأدباء فى معناه:

من لم يكن للوصالِ أهلاً فكــلُّ إحســانِهِ ذنــوبُ

وقال آخر فى وصف آخر:

فى وجهه شافعٌ يَمْحُو إساءتَه من القلوبِ ويأتى بالمعاذيرِ

وأنشدت لبعض المريدين المتحققين:

إنّى جعلتُ مَنظرى فى مُهْجتى وجعلتُ وِدّك لى إليكَ شَفاعهْ

ولو أنّ وقتًا منك بالدهرِ كلّه لكانَ قليلاً ألفَ عامٍ بِساعهْ

وبلغنى عن أحمد بن أبى الحوارى قال: دخلتُ على أبى سليمان الدّارانى وهو يبكى، فقلتُ: ما يبكيك؟ قال: يا أحمد، إنّه إذا جنَّ الليل، وهدأت العيون، وخلا كلُّ خليلٍ بخليله، افترش أهلُ المحبة وجوهَهم، وجرَتْ دموعُهم على خدودهم، أشرفَ عليهم الجليلُ فناداهم: بعينى مَن تلذَّذَ بكلامى، واستراح إلى خدمتى، وإنّى مُطّلعٌ عليهم فى خَلَواتهم، أسمعُ أنينهم، وأرى بكاءهم، هل خبَّركم عنّى مخبِّر أنّ حبيبًا يعذّبُ أحباءه؟! أم كيف يمكن أن أؤنِّبَ قومًا وقفوا لى جوفَ الليل؟! أم كيف يجمل بى أن أعذِّبَ قومًا إذا جنَّهم الليلُ تملَّقونى؟! فبى حَلَفْتُ أنهم إذا قَدِمُوا علىَّ هديتى إليهم أن أكشف لهم عن وجهى الكريم حتى ينظروا إلىَّ[(١)].

فليتق الله تعالى عبدٌ لم يطلعه الله عز وجل على ما ذكرناه، فيزهد فيه، ويعلو همُّه عنه، بمشاهدة قُدْرةٍ عظيمة، ومعاينة آيات كثيرة[(٢)] ظاهرًا وباطنًا، أن يدّعى المعرفة، أو يتوهم المحبة، فما عنده منهما إلا أمانى، وغرور وظنون وزور. والله تعالى يعطى قومًا الظنون، كما يعطى أولياءه اليقين، ويعطى قومًا المزوِّرات لعلَلِ القلوبِ، كما يعطى أحباءه المحققات فى مقام محبوب، بآياتٍ بينات، وشواهدَ من اليقين، بإثبات كآياتِ القرآن وآياتِ الرسول. ولا يظهرهمً على «كُنْ» حتى ينكشف الكونُ عن قلوبهم. وفى الكونِ ما فيه من نفيس الملكوت، وعظيم الرغبوت، مما لا يصلح ذكره.

واعلم أن آفاتِ النفوس وزينة الملك حجبُ قلوبِ العموم، وحظوظَ العقل

(١) هذه الفقرة من (د) فقط.

(٢) فى (م): «آية كبيرة».

وشهواتِ الأرواح من مرغوب الملكوت حجبُ قلوبِ الخصوص، وسموٌّ القلب إلى معانى الدرجات التى يشاهدها ووقوفَها مع خصائص الرحموت والرغبوت التى يطالع بها حجبُ قلوب المحبوبين؛ لأنهم إذا جاوَزُوا شهواتِ النفوس ورُفعت بحبّهم عنه حجبُ العقول، وقفوا فى شهوات الأرواح، فلا يواجهون بالوجه، ولا ينظرون إلى الوصف، حتى يجاوزوا أيضًا شهوات الأرواح، وتَنكشف عنهم حجبُ الأنوار، فيخلفوا الرّسم ويغيِّروا الوَسْم، فإذا انكشفت المقامات، وانقطعت الفضائل، وحققت المطالع، وسقطت المنازل والدرجات، اصطلم الطالبُ، وغُلب المطلوب، وفنى الراغب، وبقى المرغوب، أظهر لهم التعلّق بالاسم، وهو آخر الحُجُب، وأولُ القُرْب، يبتليهم به لينظرَ كيف يعملون فى الوَسْم، فعندها حقّت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فَانٍ * ويَبْقَى وَجْهُ ربِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧] الآية. وهناك صَحّ له هذا المقام. وفى معناه:

ظَهَرْتَ لِمَنْ أَفْنَيتَ بعدَ بقائِه فصـارَ بِلا كَوْنٍ لأنّك كُنْتَه

فهذا مكان وَجْده بموجوده، وقيامه بقَيّوميَّته، بعد أن كان واجدًا بكونه، وقائمًا بقيامه.

وقد كان أبو يزيد يقول: إن أعطاك مناجاة موسى، ورُوحانية عيسى، وخُلَّة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فاطلب ما وراء ذلك، فإن عنده فوق ذلك أضعافًا مضاعفة، فإن سكنتَ إلى ذلك حجبك به. وهذا بلاء مثلهم فى مثل حالهم؛ لأنهم الأمثل فالأمثل بالأنبياء. فإذا لم ينظر العبد إلى جميع المطلوب، ولم يقف على كون مرغوبٍ، أقامه حينئذ مقام محبوبٍ، فأواه فى ظله، وعطف عليه بحنانه، ونظر إليه بعينه، وواجهه بوجهه، فتوجَّه إليه ولم يَنْثَنِ، وسارع إلى قُربه ولم يَنِ، فلم يشهد فى وجهه وجهًا، ولا رأى فى يده يدًا، وقام بشهادته لقيوميته مشاهدًا. فهذا غاية الطالبين من العارفين.

وقد قال بعض العارفين المحبين: كُوشفتُ بأربعين حُوراء، رأيتهنّ يتساعين فى الهواء، عليهن ثياب من فضة وذهب وجوهر يتخشخشن ويتثنى معهنّ، فنظرتُ إليهنّ نظرةً فعُوقبت أربعين يومًا. قال: ثم كُوشفت بعد ذلك بثمانين حُوراء؛

فوقهن فى الحسن والجمال، وقيل: انظر إليهن، قال: فسجدتُ وغَمَّضت عينى فى سجودى؛ لئلا أنظر، وقلتُ: أعوذ بك مما سواك، لا حاجة لى بهذا؛ فلم أزل أتضرّع حتى صُرفن عنّى.

ولله عز وجل مثلُ هذا العبد فى كل قَرنٍ وزمان ما يكثر عدده، متفرِّقين فى أرضه، ومنتشرين فى بلاده، ومخمولين مختبئين تحت ستره فى عباده، لا تستطيع العقولُ حملَ وصفهم لضعفها، ولا يثبت فى القلوب حقّ نعتهم لوصفها، أقلُّ ما يوصفون به الإخلاصُ فى الحركة والسكون، وهو أجلُّ ما عندنا.

والإخلاص عند المخلصين إخراج الخلق من معاملة الخالق، فإذا لم يدخلوا كيف يخرجون؟ وأولُ الخَلْقِ النفسُ، فإذا لم يتكدر القلبُ بها كيف يُصفَّى منها؟

والإخلاص عند المحبين أن لا يعمل عَملاً لأجل نفسٍ، ولا دخل عليه مطالعة العرض، والتشرف إلى حظّ طبعٍ، بل للتعظيم. ولا يشرك محبوبًا فى حبّ ذى الجلال والإكرام، ولا يعلِّق قلبه بما يَرُوق نظره من جمالٍ لما ملآه من نهايةِ الحسن وغاية الجمال، ولا سبيل إلى هذا إلاّ بعد معرفته، ولا معرفةَ قبل معاينته، إذ ليس الخبر كالمعاينة، ولا معاينة إلا بنور اليقين، ولا حقَّ يقينٍ بوجود هوى نفسٍ. فإذا انكشف الحجابُ، وهوى الهوى، طلعت عينُ اليقين. فأنوار الصفاتِ من الحُسن والجمال والبهاء والكمال فى عين اليقين عينًا بعد عينٍ، كنور فوق نور، إلى نور النور.

والإخلاص عند الموحِّدين خروج الخلق من النظر إليهم فى الأفعال، وتركُ السكونِ والاستراحة بهم فى الأحوال.

ومن الإخلاص فى الصدق عند الصدِّيقين سؤال الحجبة فى قلوب الناس. كما قال بشر، وقد سئل: بأى شيءٍ بلغتَ هذه المنزلة؟ فقال: كنتُ أكاتم الله تعالى حالى. معناه: أسأله أن يكتمَ علىّ، ويُخفى أمرى. وحُدِّثت أنه رأى الخَضِر عليه السلام، فقال: ادع الله تعالى لى. فقال: يسَّر الله تعالى عليك طاعته. قال: قلت: زدنى. فقال: وستَرَها عليك. فقيل: فى تأويل ذلك معنيان؛ منهم من قال: وسترها عليك: أى يسترك حتى لا تُعرف بها، كما ذكرنا آنفًا. وقال

بعضهم: أرادَ سترها منكَ، حتى لا تنظر أنت إليها.

وقال بعضهم: قَلقَنى الشوقُ إلى الخضرِ، فسألت الله تعالى مرةً أن يرينى إيّاه، ليعلمنى شيئًا كان أهمَّ الأشياء علىَّ. قال: فرأيته، فما غلب على قلبى ولا هَمّنى إلاّ أن قلتُ له: يا أبا العباس، علِّمنى شيئًا إذا قلتُه حُجبت عن قلوبِ الخليقة، فلم يكن لى فيها قدر، ولم يعرفنى أحدٌ بصلاح ولا ديانة. فقال: قل: اللهم أسبل علىّ كثيف سترك، وحُطَّ علىّ سُرادقات حُجُبِك، واجْعلنى فى مكنون غيبك، واحجبنى عن قلوب خليقتك. قال: ثم غاب فلم أَرَهُ، ولم أشتق إليه بعد ذلك. قال: فما تركت أن أقول هذه الكلمات فى كلِّ يوم.

فحُدِّثت أن هذا كان يُستذَل ويُمتَهن، حتى كان أهلُ الذمة يُسَخّرونه فى الطريق، يحوِّل الأشياء لهم؛ لسقوطه عندهم، وكان الصبيان يُولعون به. وكانت راحتُه فى ذلك، ووجودُ قلبه به، واستقامة حاله عليه.

وهذا طريق جماعة من السلف، وحالُ طبقةٍ من صادقى الخلفِ، أخفوا أنفسهم، وأسقطوا منازلهم، فسُمُّوا عقلاء المجانين، وهذا من الزُّهد فى النّفس، وحقيقة التواضع، إلاّ أنه زهد مجانين الأولياء، وتواضع موقنى الضعفاء[1].

فالتكبُّرُ يكون بثلاثة معان: تكبر على الناس عُجبًا بالنفس. وتكبُّر فى قلوب الناس عزةً من النفس، أى يحب أن يكبُر فى قلوبهم، فيكون ذلك تكبرًا منه. وتكبّر فى القلب عن نَظَرِه إلى صَلاحِه ودينِه، فيكبُر ذلك عنده ، فيُدِلَّ به. ولذلك رآه من نفسه لقصور علم اليقين منه. وهذا أدقُّ معانى التكبُّر، ولا يتخلص منه إلا صحيحو التوحيد، صادِقُو اليقين، مخلصو الصالحين.

وأما التكبر الظاهر الذى هو التطاول والفخرُ والتَّظاهرُ، فذاك جَلِىٌّ، وهو من أكثف حُجبِ القلبِ، وأقوى صفاتِ النفس. فلذلك فَزِع العلماء من دقائقه لما عَرفوا، فطلبوا القِلَّةَ والذِّلَّة للنفس، ليمتهنوها بخفايا التّواضع، لينتفى عنهم دقائق الكِبْر، لتخلُص لهم الأعمال.

(١) فى (د): «وتواضع ضِعاف الصادقين».

وليس التواضع عند المتواضعين هو حقيقة الذّلة، ولا التذلل هو حقيقة الضِّعة، ولكن حقيقة ذلك أن يكون العبد ذليلاً صفةً، لا مُتذللاً متعمدًا للذلة، وأن يكون عند نفسه فى نفسه وضيعًا، وحيدًا، حقيرًا، معتقدًا لصغره وحَقارته فى نفسه، لا متواضعًا متكلّفًا. وعلامة ذلك أن لا يغضب إذا عابَهُ ونقصه عائب، ولا يكره أن يذمَّه ويَقْذِفه بالكبائر ذامٌّ.

وبيان ذلك فى وَجْدِه: أن لا يجد طعمَ الذل فى ذِلة، ولا يشهد الضِّعة فى تواضعِه، إذ قد صار ذلك له صفة وطبعًا، فمن ذل، ووجد ذوقَ ذُلِّه، فهو متعمل للتواضع، ومن تواضع وشهد تواضعه وضعته، فهو متعزِّزٌ؛ وهى علامةُ بقية الأَنَفَة فى نفسه لنفسه. ومتى غضب أو كره ذمَّه من غيره، فهو يفرح ويرضى بمدحه، فإذا كانت فيه هذه العلامات فهو محجوبٌ عن جميع ما ذكرناه من المقامات. ومتى ذَلّ نفسَهُ، واتضع عند نفسِه، فلم يجد لذلك ذوقًا ولا لضعته حسًا، فقد صار الذّل والتواضع كونه، فهذا لا يكره الذّمَّ من الخَلْق لوَجْدِ النقصِ فى نفسه، ولا يحبُّ المدحَ منهم لفقدِ القدرِ والمنزلة مِن نفسه. فصارت الذلة والضِّعة صِفته لا تُفارقه، لازمةً له لزومَ الزِّبالة للزبَّال، والكُساحة للكَسَّاح؛ هما صنعتان لهما كسائر الصنائع، وربما فَخَروا بهما لعدَم النظرِ إلى نقصهما. فهذه ولايةٌ عظيمة له مِن نفسه، قد ولاّه على نفسه، وملّكه عليها فقهَرها بعزّه.

وهذا مقام محبوبٍ، وبعده المكاشفاتُ بسرائر الغيوب. أول ذلك دخول نور الحكمة فى القلب، وينبوع الحكم من قلبه، كما روينا أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قال: «يا بنى إسرائيل، أين ينبت الزرع؟ قالوا: فى التراب. فقال: بحقٍّ أقول لكم: لا تنبع الحكمة إلا فى قلب مثل التراب». ومن كان حاله مع الله تعالى الذّل طلبه واستَحلاه، كما طلب المتكبِّرُ العزَّ ويستحليه إذا وَجَدَه، فإن فارق ذلك الذّل ساعةً تغير قلبُهُ لِفراق حاله، كما أن المتعززَ إن فارقه العزُّ ساعةً تكدَّر عليه عَيشه؛ لأن ذلك عيش نفسه.

وممن رُوينا عنه اختيارُ الذل، وإسقاطُ المنزلة والقدر عند الناس، ومحو جاهه وموضعه من قلوبهم، وأظهر على نفسه ألوان معانى الذم، أكثرُ من أن يحصى،

وذكرهم يطول، وذاك أن حالهم الصدق يقتضيهم القيام بحكمها، فلا بد من قيامهم بمقتضى حالهم.

حدثنى بعض الأشياخ عن أبى الحسن الكرينى أستاذ الجنيد، أن رجلاً دعاهُ ثلاثَ مرات إلى طعامه ثم يرده، فرجع إليه بعد ذلك حتّى أدخلَه المنزلَ فى المرةِ الرابعة، فسأله عن ذلك، فقال: قد رُضتُ نفسى على الذّلّ عِشرين سنةً حتى صارت بمنزلة الكلب، يُطرد فينطرد، ثم يُدعَى فيُرمَى له عظم فيجىء. وزاد غيره، وقال: لو ردَدْتَنى خمسينَ مرة، ثم دعوتنى بعد ذلك لأجبتُ.

وحدثنى شيخٌ آخرُ عن أستاذه قال: نزلتُ فى محلّة فعُرفتُ فيها بالصلاح، فتشتَّت قلبى، فدخلتُ حمَّامًا فى الجِوارِ، وعيَّنت على ثياب فاخرة، فسرقتها ولبستها، ثم لبستُ مرقعتى فوقها، وخرجت أمشى قليلاً قليلاً، ليُفْطَن بى، فلحقونى، فنزعوا مرقعتى، واستخرجوا الثياب، وصفعونى، وأوجعونى ضربًا. فصرتُ أُعرف فى الناحية بلِصِّ الحمَّام، فسكنتْ نفسى.

وحُدِّثت عن بعض الصوفية: أنه وقف على رجل يأكل، فمدّ يده إليه، فقال: إن كان ثَمَّ شىء لله. فقال له: اجلس فكُلْ. فقال: أعطنى فى كفى، فأعطاه فى كفه، فقعد فى مكانه يأكله. فسأله عن امتناعه من الجلوس معه. فقال: إن حالى مع الله عز وجل الذّل، فكرهتُ أن أفارق حالى. وكان هذا ربما مدَّ يدَه إلى الهرَّاس فيضع فيها هريسة، والعربُ تأنف أن يُوضع الشىءُ فى أكفُّها لعزةِ نفوسها. حتى روينا عن بعض الصحابة من المهاجرين الأول فى أول النبوةِ أنه قال: جعت ثلاثًا لم أطعم شيئًا، فبلغنى أن إنسانًا يتصدَّق بزبيب، فسألته، فقال: هات كفَّك. فقلت: إنى رجلٌ من العرب، ولا آخذ فى كفى، فاجعله لى فى شىء، قال فجعله فى مكيل، ثم ناولنيه، فلما فرغته رددته إليه. فكانت فيه عزة نفس. لا جرمَ أنّ رسولَ الله ﷺ قال له: «أنت امرؤ فيك جاهلية. فقال: على ما أنا عليه من كِبَر السن؟ قال: نعَم». وكان قد خاصمَ رجلاً، فأرى عليه تعزُّزًا.

وإنما نبَّهنا ببعضِ ما ذكرناه العقولَ المستيقظة، وحرَّكنا بما بيَّنا القلوب الحية، ليحيا من حىّ عن بينة، بذكر أوصاف الصادقين، وطُرقات المخلصين، ليستدل

على الكثير باليسير.

وقد كان شاهدٌ من شهود بَسطام عظيمَ القدر فيهم، لا يفارق مجلسَ أبى يزيد، فقال له يومًا: يا أبا يزيد، أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر، وأقوم الليل لا أنام، ولا أجد فى قلبى شيئًا من هذا العلم الذى تذكر، وأنا أصدق به وأحبه. فقال له أبو يزيد: لو صمت ثلاثمائة سنة، وقمتَ ليلها، ما وجدتَ من هذا ذرة. قال: ولم؟ قال: لأنّك محجوب بنفسك. قال: أفلهذا دواء؟ قال: نعم. قال: قل لى حتى أعمله. قال: لا تقبل. قال: فاذكره لى. قال: اذهب الساعةَ إلى المزين، واحلق رأسك ولحيتك، وانزع هذا اللباس، واتَّزر بعباءة، وعلق فى عنقك مخلاة مملوءة جوزًا، واجمع الصبيان حولك، وقل: كلُّ من صَفَعنى صفعةً أعطيته جَوْزة، وادخل الأسواقَ كلها عند الشهود، وعند من يعرفك، وأنت على ذلك. فقال الرجل: سبحان الله تقول لى مثل هذا؟ فقال أبو يزيد: قولك سبحان الله شِرك. قال: كيف؟ قال: لأنّك عظمتَ نَفْسك فسبَّحتها. قال: هذا لا أفعله، ولكن دُلَّنى على غيره. قال: ابتدىء بهذا قبل كل شىء. فقال: لا أُطيقه. فقال: قد قلتُ لك إنّك لا تقبل.

فهذا لما قال سبحان الله كان مشركًا عنده؛ لأنه سبّحه برَسْمٍ لنَفْسٍ. وقد كان أبو يزيد يقول: سُبْحانى ما أعظمَ شأنى، وهو موحِّد، لأنه وحَّد بأوليةٍ بَدَتْ.

وهذا الذى ذكره دواء مَن اعتلَّ بنظره إلى نفسه، ثم سقم بنَظرِ الناس إليه، ولزمه الشَّكُّ بنظرِه[١] إلى نظرهم، ليس لها من دون الله كاشفة. إلاّ أن هذا من طبِّ المجانين، يصلح لضعفاء اليقين. ولو أدخل الطبيب الأعلى ذرَّة من عين القُدرَة[٢] أخرج بها من قلبه كلّ نظرةٍ، فاستراح من كلِّ دواء. ولكن ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً، ليَهْلكَ مَن هَلَك عن بينة بشواهد الخلق[٣]، ويحيا من حى عن بينة بشاهد الحق. ويتلوه شاهدٌ منه.

(١) فى المطبوعة: «سد نظره».

(٢) فى المطبوعة: «اليقين».

(٣) فى المطبوعة: «الحق» وهو تحريف، والتصويب من الأصول.

فلا تنكرن من جميع ما ذكرناه شيئًا، فتخسر أقلَّ أنصبة المؤمنين من عِلم القدرة واليقين، لأنّ للمؤمنين أنصبةً من هذا العلم؛ منها المشاهدة لما وصفناه، والإدراكُ لما رمزناه، ومنها الوجدُ والحالُ، ومنها المعاملة والمنازلة، ومنها الذوق والشم منه، وآخرها التصديقُ والقبول. فأقل النصيب من علم المعرفة إن لم يشهد فلا يجحد، وإن لم يعرف فليتعرَّف، ولكن معقلُه التسليمُ [لأهله، فهو معقل المسلمين، وفيه يسلمون من عدوهم، ويأمنون البدع فى دينهم][1]، وليس وراء هذا مكان.

وهذه المقامات التى شرحناها وهى مقامات اليقين؛ أوّلها التوبة إلى هذا المقام من المحبة منوطٌ بعضها ببعض. إن أُعطى العبدُ حقيقةً من أحدها أُعطى من كل مقام حالاً، ومع كلٍّ حال مشاهدةً، ولكلٍّ مشاهدة علمٌ، إلاّ من شهد بالحق، وهم يعلمون. وكلّها مجموعة فى حقيقة الإيمان، إن أُعطى العبد حقيقةً من إيمان بيقينٍ، حتى يكون مؤمنًا حقًا، غير مرتدّ عنه، ولا مستبدل به فى علم الله تعالى، وكانَ إيمانه مِنَّةً وهِبةً لا عاريةً ولا وَديعةً، فيسترد ويرتد على إظهار لبس أو إدراج مكرٍ؛ محنةً من الله تعالى وخبرةً. ويكون مُستبدلاً لا بَدَلاً، فإذا لم يكن كذلك، وكانَ بدلاً من مُستبدل به، أُعطى من جميعها حالاً حالاً، وشهادةً شهادةً، وإن تفاوتوا فى العلوم، وتعالوا فى القُرب، وذاك هو كمال الإيمان.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ فى وصف كمال الإيمان ثلاثةُ أحاديث هُنَّ أصول هذه الأحوال، وأساس هذه الأفعال، منها: أنه قال: «لا يستكمل العبدُ إيمانَه حتى يكون قِلَّةُ الشىء أحبَّ إليه من كثرة الشىء، وحتى لا يُعرف أحبَّ إليه من أن يُعرف». فهذان حالا الصادق الزاهد، وهما أوّل الطريق المؤدى إلى التحقيق، وأس البنيان الرافع.

والحديث الثانى: قوله ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه استكمل إيمانه: لا يخاف فى الله لومة لائم؛ ولا يرائى بشىء من عمله. وإذا عُرِض له أمران؛ أحدهما للدنيا، والآخرة للآخرة، آثر أمرَ الآخرةِ على أمر الدنيا». فهذه أحوال المحبّ لله تعالى، المخلص بمعاملة الله عز وجل، الراغب فيما عند الله تبارك وتعالى.

---

(١) ما بين المعكفتين من الأصول (د، م، هـ).

والحديث الثالث: قوله ﷺ: «لا يكْمُل إيمان أحدكم حتى يكون فيه ثلاث خصال؛ من إذا غضب لم يُخرجه غضبه عن حقٍّ، وإذا رَضِي لم يدخله رضاه في باطلٍ، وإذا قَدِر لم يتناول ما ليس له». فهذه تجمع أحوال العدلِ، والفضلِ، والمراقبة، والزهدِ، وهي أصول المقامات.

ويشبه هذا الحديث قوله ﷺ في الحديث الرابع: «ثلاث مَن أُوتيهنَّ فقد أُوتي مثل ما أُوتي آل داود: العدلُ في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وخشية الله تعالى في السر والعلانية».

وتفسير ما ذكرناه قبيلُ مِن أنّ هذه المقامات مرتبطة بعضها ببعض، وأن من أُعطي حقيقة من أحدها أُعطي من جميعها أن يجمع حالاً، إذ يجمع ذلك كله الإيمان بالله تعالى، فيتوب العبد إلى من آمنَ به، وإلى ما آمنَ به من الوَعْد، وما آمن به من الوعيد، ليحق إيمانهُ ويصحَّ يقينه، وليستقيم توحيده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢]. وقال: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]. فذهب إليه لما آمن به، وهو الرجوع، وهي التوبة.

ثم يزهد فيما تاب منه مِن هواه، لتصح توبته، وتخلُص نيته، فيكون نصوحًا، كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. وقال: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]. وقال: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] لما أخرجوه من أيديهم وتركوه، وتابوا إلى أبيهم، وزهدوا فيه.

ثم يصبر عمّا زهد فيه ليحقّ زهده، كما قال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]. وقال عزّ وجل: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧].

ثم يشكر على ما صبر عنه ليكمل صبره، كما قال: ﴿لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣١].

ثم يرجو من شكر له ليزيده من فضله فيعطيه فوق سؤله بحسن ظنه به، كما قال تعالى: ﴿وَيَرجُو رَحمةَ رَبِّه﴾ [الزمر: ٩].

وقد ذم من أيس من رحمته بقوله: ﴿ولَئِن أَذَقْنا الإنسانَ مِنَّا رَحمةً ثُمَّ نَزَعْناهَا منهُ إنَّه لَيؤُسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

ثم يخاف فوتَ ما رجا، ويخاف من تقصيرِه فى الشكر لما أُولى، لتَحِقَّ غبطته برجائه، ويتم إشفاقه من تبديل الآية، ويخاف نقصانَ المزيد، كما قال سبحانه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوفًا وطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]. وقال مخبرًا عن أوليائه: ﴿إنَّا كُنَّا قَبْلُ فى أَهْلِنا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللهُ عَلَينا﴾ [الطور: ٢٦ ـ ٢٧]. وقد عاب اللهُ مَن فَرِحَ بما أُظهر له، وفخر بما أُوتى، وأَمِنَ عودَ البلاء، ونسى أنه كان مبتلًى، فى قوله تعالى: ﴿ولَئِن أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّته لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّى إنَّه لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

ثم يتوكَّل على من خافه، فيسلم نفسه إليه، ويستسلم بين يديه، أن يحكم فيه ما أحب، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الله فَتَوَكَّلُوا إن كُنْتُمْ مُؤمنينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وقوله: ﴿نِعْمَ أجرُ العَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِم يَتَوكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩].

ثم يرضى بمن توكَّل عليه، وعمَّن توكل له، لعلمه بحكمته البالغة، وتدبيره الحسن، لقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]. ولقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابتِغَاءَ مَرضَاتِ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ثم يحب من رضى به ورضى عنه، إذ كان قد اختاره على ما سواه، وإذ صار حسبه لما رآه، فصارت هذه المقامات التسع كمقامٍ واحدٍ؛ إذ بعضها منوط ببعض. ودليلها كتابُ الله تبارك وتعالى الحق اليقين النور المبين، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه من طرق الهوى، ولا من خلفه من خَيَل الأعداء. فأشبهت دعائم الإسلام الخمس فى مقام العموم من طريق الإسلام، إذ بعضها مرتبط ببعض، كهذه فى مقام الخصوص من طريق المقرّبين.

ثم يرجع بعد مقام المحبة إلى حال الرضا قوةً فقوةً، ثم يتردد فى مقام المحبة رُتبةً رتبةً، وليس فوق حال الرضا مقام يعرف، ولا فوق مقام المحبة حالٌ يوصف. وهما موجب المعرفة، ومنتهاها المعروف، وقرارها المألوف. وإن إلى ربك المنتهى، وإلى ربك يومئذ المستقر. فليس للرضا نهاية، إذ ليس للمحبوب غاية، وإن الرضا مزيد أهل الجنة فى الجنة، وليس للحب نهاية؛ لأنه عن الوصف؛ ولا غاية للصفات. وليس لطلب المحبِّ حد لأنه عن القُرب، ولا غاية للقرب لأنه عن وصف قريبٍ، ولا حدّ لقُربٍ، فيترافع المؤمنون فى الحب مقامات على نحو تجلِّى الحبيب بمعانى التقليب، وبتزايد الرضوان فى الرضا درجات حسب تعاليهم فى علو المشاهدات، وبتعالى أهل علِّيين فى السُّموِّ غايات، على قدر أنصبتهم من قوة الإيمان وصفاء اليقين. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]. فأعطاهم من معانى وصفه العلوَّ، ثم وصف نصيبهم بوصفهم فقال: ﴿إِنَّ كتابَ الأبرارِ لَفِى علِّيِّين * وَمَا أَدراكَ ما علِّيُّونَ﴾ [المطففين: ١٨ ـ ١٩]، فعليُّون لا نهاية له فى العلو، إذ هو من أسماء المبالغة فى الوصف. وقيل: إنه اسم لا واحد له من جنسه، فهو عُلاً فى علوِّهم، يعلو بهم أبدًا، فى علوِّ علوِّهم فى دار الأبد. وهم أعلُونَ؛ لأن الأعلى معهم، فهم يعلون به، وعليّون يعلو بهم، هذا كله لأنه معهم، كما قال: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ واللهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد:٣٥].

فالرضا الأول ـ الذى هو قبلُ المحبة ـ مقامُ التوكل، وحال المحب المحبوب.

والرضا الثانى ـ الذى يكون بعد المحبة ـ مقام المعرفة، وحال المحبوب التوكل حاله.

والمحبة من أشرفِ المقامات ليس فوقها إلى فوقها إلا مقامُ الخِلّة، وهومقام فى المعرفةِ الخاصة، وهى تخلُّل أسرار الغيب، فيطلع على مشاهدة المحبوب، بأن يعطى حيطة بشىء من علمه، بمشيئته على مشيئته التى لا تنقلب، وعلمه القديم الذى لا يتغير. وفى هذا المقام الإشراف على بحار الغيوب وسرائر ما كان فى القديم، وعواقب ما يؤوب. ومنه مكاشفة العبد بحاله، وإشهاده من المحبة مقامه،

والإشرافُ على مقامات العباد فى المآل، والاطلاع عليهم فى تقلبهم فى الأبد حالاً فحالاً.

وقد ذكر أبو يزيد البسطامى، وأبو محمد سهل، أنهما أقيما فى هذا المقام، ووَصفا حاليهما منه، وقد كان لشقيق وابن أدهم البلخيين مطالعات فى هذه المعانى. وقد سُلك بأبى الفيض فى هذا الطريق، فظهر على ما فيه مما يبهر من رأى انقلاب الأعيان، وتبصرة بعظيم العيان. وهذا محجوبٌ عن أوهام القلوب بعقولها، ومستورٌ فى جُب غيابة الغيوب(١) بأرواحها. فإذا خرجت النفس من الروح، فكان روحانيًا خروج الليل من النهار، تنفَّس المكروب، وإذا خلا العقل عن القلب، وكان ربّانيًا، انفرجت الكروب. كما قال العارف:

بحيـاتى يا حيـاتى لا تُبعـــد قُرُباتى
أخرِج النفسَ من الرُّو ح وروِّح كُرُبـانـى

وقد قال أحسن القائلين: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَىءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. والاستثناء واقع على إعطاء الحيطة بشىءٍ من شهادة علمه، بنورٍ ثاقبٍ من وصفه، وشعاعٍ لائح من سُبحته إذا شاء.

وهذا معنى من سر التوحيد لا يكشفه إلاّ عينُ اليقين، ولا يُظهره حتى يظهر لنا منه عارف ما عليه قد أُوقف، وما منه به قد كُوشف، فحينئذ يقع العينُ على العين، ويضىء الكوكب الدرى فى جوهر مشكاة القلب.

وقد كان للشيخ أبى الحسن بن سالم رحمه الله تعالى من هذا الطريق مشاهداتٌ ومطالعاتٌ وسياحاتٌ فى الغيوب، وجريانٌ فى الآخريات، وانقلبت له الأعيان، وظهر له العيان، وطُوى له المكان، ورأى ألفَ ولىٍّ لله تعالى، وحمل عن كل واحد علمًا، ثم انقطع الطريق بعد فَقده، وعفا الأثر ودرس الخبر. ثم الله تعالى أعلم بما هو صانع بهذا الطريق وأهله، هل ينشىء(٢) له أهلاً، وينهج له

(١) فى المطبوعة: «غاية القلوب»، وهو خطأ.
(٢) فى (هـ): «ينشر».

طريقًا؟ أم يطويهم فى طى طريقهم، ويخفى طريقهم فى خفايا الموج الغامض فى غامضات العلم السابق؟

نقول فى ذلك، كما قال إمام الأئمة على بن أبى طالب كرم الله وجهه، بعد إذ ذكر فى خطبته قيام الساعة، واستقرار أهل الدّارين فيهما، قال: ثم الله أعلم فيما هو صانع بالدنيا بعد ذلك. فهذا من سرِّ السرِّ الذى أودعه صاحب الأمر.

وليس فوق مقامِ الخُلَّة مقام إلاّ درجة النبوة. وهو محجوبٌ عن القلوب، كحجاب هذا المقام من الخُلَّة عن قلوب العموم. فهذا لا قُوَّةَ فيه[1]؛ لأنه درك منه، ولا حُزن عليه؛ لأنه لا يُصِيبُ عنه. ولكن مقام الخلّةِ لا يكون إلاّ فى مقامٍ محبوبٍ على كل حال. وما سمعت من أحدٍ من أهل العلم الباطن والمعرفة الثاقبة رَسَمَ من عِلمِ الخُلَّة ولا من وصف محبوب نفسًا فى كتاب، ولا قرأته إلا نكتًا فى الأخبار، ولُمَعًا مِن الآثار.

واعلم أنه كلامٌ محبوب عن مقام خلّة، ولكنه مستودعٌ فى كتاب الله تعالى المكنون، وغامض من خطابِهِ المصون، ومخبوٌّ بقدرته فى سرّ آياته عن القلوب والعيون، يُكاشفُ به الساجدين، ويُظهر عليه أهل السرِّ من العارفين: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لله الَّذِى يُخْرِجُ الخَبْءَ فى السَّموات والأرضِ﴾ [النمل: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فى السَّموات والأرضِ﴾ [الفرقان: ٦].

وقد كان الحسن رحمه الله تعالى يروى فى الخُلَّة أخبارًا؛ منها: «إن الله عزّ وجل أوحى إلى بعض أنبيائه: إنّما أتّخذ لخُلتى مَن لا يَفْتُر عن ذِكرى، ولا يكون له غيرى، ولا يؤثر علىَّ شيئًا من خلقى، وإن حُرق بالنار لم يجد لحرق النار وَجعًا، وإن قُطع بالمناشير لم يجد لِمَسِّ الحديد ألمًا».

وقد روينا عن الخليل الحبيب ﷺ أنه قال: «تحابُّوا فى الله، وتصافُّوا، وتباذلوا، وتخاللوا فيها، وليس مِن كرم الله تعالى أن أتّخذ عبدًا من عباده خليلاً».

فنبَّه أنا الخُلّة من الله تعالى كانت لأوليائه عن فرط كرمه وفضل آلائه، ألحقهم

(١) فى المطبوعة و(هـ): «لا فوت فيه».

بكرامته بها، وأهَّلَهُم بفضله لها، وعظَّمهم عن نصيب تعظيمه فيها. والله الواسعُ الكريم ذو الفضل العظيم، إذا رَفَع عبدًا جاوز به الحدودَ، وإذا خَفَضه وضعه تحت المحدود.

وقد تكلم الجنيد رحمه الله تعالى فى مقام من هذا، وقد سئل عنه فقال: هو غاية الحب، وهو مقام عزيز يستغرق العقول، وينسى النفوس، وهو من أعلى علم المعرفة بالله تعالى. وقال: فى هذا المقام يعلم العبدُ أن الله عز وجل يحبّه، ويقول العبد: بحقّى عليك وبجاهى عندك. ويقول: بحبّك لى. قال: وهؤلاء همُ المدِلُّون على الله تبارك وتعالى، والمستأنسون بالله تعالى، وهمُ جلساء الله تعالى، قد رفع الحِشمة بينه وبينهم، وزالت الوحشة بينهم وبينه، فهم يتكلمون بأشياء هى عند العامة كفرٌ بالله تعالى، لما قد علموا أن الله تعالى يحبهم، وأن لهم عند الله جاهًا ومَنزلة، ثم قال عن بعض العلماء: أما أهلُ الأنس بالله تعالى فليس إلى معرفتهم سبيل.

هذا نقل من كلام الجنيد، ونحو معناه حدثنى به الخاقانى المقرئ، ولولا أنَّا روينا عنه ما ذكرناه، لأنّا لا نشرح حال هؤلاء فى كتاب إشفاقًا على الألباب، كما قال المجلّ:

* غيرَ أنّى أُجِلُّكم عن عتابٍ فى كتابِ *

وقد كان شيخنا أبو بكر بن الجلاء رحمه الله، كتب إلى شيخنا أبى الحسن بن سالم رحمه الله تعالى، يسأله عن مسائل من معانى السرائر فى كتابٍ، فحدثنى من رآه: رمى بالكتاب، وقال: أين صاحبُ هذه المسائل؟ فقيل: هو غائبٌ بمكة، فقال: أنا لا أجيب عن هذا فى كتاب، قولوا له: يحضر إن أراده.

وقد حدثنى ابنُ الجلاء بهذا؛ لأنّ مقام الخُلّة هو الذى أخفيناه وعظّمناه، لا يُعطاه العبد إلا فى مقامٍ مع مقامٍ. فالمقام الأول: هو المعرفة الخاصية بظهورٍ يعرف كشفًا عن وصف الباطن، ثم يدخل عليه المحبة المخصوصة وهو مقام محبوب، ثم يرفع من هذا المقام إلى مقام الخُلة وهو الإشراف على سرائر غيوب من شُرفات العرش، وسرادقات القدس، وغير ذلك. والأصل فيما ذكرناه أنه سبحانه يعطى

مقامات المعرفة فى مقام عارف، ولا يعطى فيه مقام محبوب. وقد يعطى مقامات من المحبة فى مقام محبٍّ، ولا يعطى شهادة خُلّة لغير خليل عارف. فإذا جمع مقام معرفةٍ، تعرّف إلى مقام محبة محبوب، أُعطى معه مقامًا من الخلة الذى وصفناه، وهذا من أعز ما أُظهر فى الكون لمظهر مكنون.

وروينا عن رسول الله ﷺ أنه خطب الناس قبل موته بثلاث فقال: «إن الله تعالى قد اتخذ صاحبكم خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً». فرُفع ﷺ فى مقام محبوب إلى درجة خليل، كما نُقل من مقام محبٍّ إلى حال محبوب، كما زِيد بالمحبة فى مقام الصفوة.

وقال أيضًا فى المقام الأول: «إن الله عز وجل اتّخذ موسى صَفِيًا، واتخذنى حبيبًا».

فأول العطاء هو الصفاءَ من الهوى، ثم المحبة بعد الصفاء، ثم الزيادة بوصف محبوب فوق المحبة. ثم ارتفع فعلا بعد القوة والاستواء إلى العلى الأعلى، فدَنا لما علا فتدلَّى، حتى دنا فكان قاب قوسين أو أدنى، وكانت اليد[١] من ورائه، والوجه مواجهًا لوجههِ.

وكان ما كـانَ مِمَّا لستُ أَذْكُرُهُ فَظُنَّ خَيرًا ولا تَسأل عن الخَبَرِ

إذ من العلوم علم لا ينبغى أن يسأل عنه، حتى يبدى العالم ذِكره، فهذا منها، فلا يُبدى إلا بقدر معلوم، بمقدار ما أبدى المبدئ، ويعيد منه بقدر ما أعاد المعيد، وكان لديه خليلاً، كما كان عنده قريبًا، فصارت الخُلّة مقامًا فى محبوبٍ، وهو نهاية المزيد، كما كان مقامُ محبوب زيادةً على مقام محبٍّ، كما رفعه إلى المحبة بعد الصفوة من كَدَر الهوى. وكذلك أنت أيها السامع الشاهد، يجعل لك بعد الصفاء نصيبًا من نصيب، وشهادةً على شهادة، ووَجدًا من وَجد، وفَقدًا للنفس من فَقد. فلا يُذهب كثير النبوة منه صغيرَ العطية لك؛ لأنه تعالى رفع الطائعين له ولرسوله ﷺ مقامًا إلى مقام النبيين والصدِّيقين، والصدِّيقون باقون إلى نزول

(١) فى المطبوعة: «البلد».

الروح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وهم الأبدال، عددهم فى كل الدنيا ثلاثمائة وما شاء الله، منهم: الشهداء والصالحون. فهم ثلاث طبقات، وكلهم مقرَّبون سابقون. إيمانُ صدِّيق منهم كإيمان جميع الشهداء، وإيمان شهيدٍ كإيمان كل الصالحين، وإيمان كلِّ صالح بمقدار إيمان ألف مؤمن من عموم المسلمين.

وليس فى الخُلّة شريكٌ لغير الخليل على خَليله؛ ولأنها حال مفردةٌ لفردٍ، موحدة لواحد. ولو كان يصلح لها نظير، ويوزَّر بها وزير، كان أحق الأمة بذلك الصِّدِّيق [أبو بكر رضى الله عنه]، فقد أعطاه تعالى ثلاثًا لم يُعطها غيره، منها: إنَّا روينا أن النبى ﷺ قال له: «إن الله عز وجل أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى، وأعطانى مثل إيمان كلِّ من آمن به من ولد آدم».

والحديث الثانى: «إن لله تعالى ثلاثمائة خُلقُ، من لَقِيَه بخُلُق منها مع التوحيد دخل الجنة». فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، هل فىَّ منها خُلُق واحد؟ فقال: «كلّها فيك يا أبا بكر، وأحبها إلى الله عز وجل السخاء».

والحديث الثالث هو المستفيض: «رأيت ميزانًا دُلِّى من السماء، فوُضعت فى كفة ووُضعت أمتى فى كفة، فرجحتُ بهم. ووُضع أبو بكر فى كِفة، وجىء بأمتى فوُضعت فى كفة، فرجَح بهم». وليس بين الصديق وبين الرسول إلا درجة النبوة.

والقطب اليوم الذى هو إمام الأثافى الثلاثة، والأوتاد السبعة، والأبدال الأربعين والسبعين إلى ثلاثمائة، كلهم فى ميزانه، وإيمانُ جميعهم كإيمانه، إنما هو بدلٌ من أبى بكر رضى الله تعالى عنه، والأثافى الثلاثة بعده إنما هم أبدالُ الثلاثة الخلفاء بعده، والسبعة هم أبدال السبعة إلى العشرة. ثم الأبدال الثلاثمائة وثلاثة عشر، إنّما هم أبدال البدريين من الأنصار والمهاجرين أهل الرحمة والرضوان.

فمع هذا الفضل العظيم لأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، لم يصلح أن يشرك الحبيب الرسول المقرَّب الخليل فى مقام الخلة، كما صلح أن يشرك فى مقام الأخوة، وهو المقام الذى شرَكَ فيه عليًا كرّم الله وجهه، فقال: «علىٌّ منى بمنزلة

هارون من موسى». فهذا مقام أخوة.

كذلك فى التفرُّد بمقام الخلة: «لو كنتُ متخذًا من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله» تبارك وتعالى، يعنى نفسه صلوات الله عليه، لأنه واحدٌ لواحد، مفردٌ لفرد، فاعتبروا يا أولى الأبصار والألباب، بتدبُّر فَهم الخطاب؛ فمن أُعطى من الصفاء نصيبًا أعطى من الحب نصيبًا، وكان له من المعرفة بقوة محبته، ومن المعرفة بقدر معرفته. فأما المعرفة الأصلية التى هى أصل المقامات ومكان المشاهدات، فهى عندهم واحدةٌ؛ لأن المعروف بها واحد، والمتعرّف عنها واحد، إلا أن لها أعلى. وأوّلُ مخصوص المؤمنين فى أعلاها، وهى مقامات المقرَّبين، وعمومهم فى أولها، وهى مقامات الأبرار، وهم أصحاب اليمين. ولكلّ منهم وجهةٌ من الصفات المخوفة عنها كانوا خائفين، أو الأخلاق المرجوَّة منها كانوا راجين، أو الأفعال والأملاك عندها كانوا صابرين شاكرين، أو معانى أوصاف ذات منها كانوا محبين متوكِّلين. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾ [البقرة:١٤٨]. ويقال: «من أحبَّ شيئًا حُشِر معه». وفى الخبر: «المرء مع مَن أحب وله ما احتسب». وفى الخبر: «من مات على مرتبة من المراتب بُعث عليها يوم القيامة».

فأما جملُ مقامات المحبين فمذكورة فى الكتاب العزيز من الحبيب اثنى عشر مقامًا: خمسٌ فى دليل الخطاب وتدبر الألباب، وسبعةٌ فى صريح الكلام بظاهر الأفهام.

فأما السبع المصرحة: فقوله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٦]. ﴿**وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ٧٦]. ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٤]. ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأما الخمسة المتدبَّرة فهم: الموحِّدون، لقوله: ﴿**لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٣٢]. والعادلون، لقوله: ﴿**لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [آل عمران: ٥٧]. والمستقيمون، لقوله:

﴿والله لا يَهدِى القَوْمَ الفَاسقِينَ﴾ [المائدة:١٠٨]. والمتواضعون، لقوله: ﴿لا يُحبُّ المُسْتَكبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣]. والموفون، لقوله: ﴿لا يُحبُّ الخَائِنينَ﴾ [الأنفال:٥٨].

وهؤلاء طبقات المحبوبين تعريضًا وتصريحًا.

وشرح هذه الأوصاف هى مقامات اليقين، وفى كل مقام من هذه أحوال يكثر عددها. كل حال منها طريق إلى الله عز وجل. فى كل طريقٍ طائفة من المحبين، محبتهم على قدر معرفتهم، ومعرفتهم على زنة تعرُّف المعروف إليهم، وعن نحو تعريف المعروف لهم. وذلك معنًى من معارفهم، فهُمْ على زنة يقينهم، ويقينهم على حسب صفاء إيمانهم، وإيمانهم على نحو عناية الله بهم وتفضُّله عليهم وإيثاره لهم. ومن وراء ذلك سر القدر المختزن المستأثر. وليس فوق المحبة مقام مشهور، ولا دون التوبة حالٌ مذكور.

فأول المقامات: التوبة، يخرج بها من الظلم، والظلم حال من الشرك. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَم يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الأَمنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] فى الدنيا. وهذا فصل الخطاب لأضدادهم. فأى الفريقين أحق بالأمن؟ الذى آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، أولئك هم أحق بالأمن غدًا فى المقام الأمين. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَم يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

فآخرُ الظلمِ أولُ التوبةِ، وآخر التوبة أولُ المحبة، وآخر المحبة أول المعرفة، وهى معرفة متعرِّف، وهى الخاصية مزيد المحبة الأولى، وآخر نصيب العبد من المعرفة، وأولُ التوحيدِ، وهى توحيد الشاهدين ولا آخر له.

وأوسط المقامات: الزهدُ، وأول الزهد آخر الهوى، وآخرُ الزهد أولُ العلم، وآخرُ العلمِ أولُ الخوف، وآخر الخوف أول الحب. وهذا حب محبوب.

والظالمُ لا مقام له، ومن لا مقام له فلا جاه، ومن لا جاه له فلا شفاعة، ومن لا شفاعة له فلا شهادة، ومن لا شهادة له فلا يقين. فلو أعطى مثقالاً من الإيمان لم يُنْجِه من دخول النار؛ لأنه ﷺ قال فى وصف الداخلين: «أخرجوا مِن النار

مَن فى قلبه مثقال ذرة من إيمان». ثم قال فى الخبر الآخر: «السّخاءُ من اليقين، ولا يدخل النّارَ مُوقن». وقال سبحانه وتعالى فى تفصيل ما وصلناه مما عنه شهدناه: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]. ثم قال فى البيان الثانى من الخطاب: ﴿لاَّ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٨٧]. وقال فى البيان الثالث: ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]. وقال فى وجد اليقين بعد شهادة العين فى الرؤية بعد المكاشفة: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥]. ثم قال: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ﴾ [النمل:٢٢ ـ ٢٣]. وكما أن اليقينَ بعد المشاهدة كذلك الوجدُ بعد اليقين، واليقينُ هو حقيقةُ الإيمان وكماله. كما جاء فى الأثر: «الصّبْرُ نصفُ الإيمان، والشّكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله».

وقد روينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾ قيل: الجاه. وقيل: الشفاعة. وقيل: الولاية. وقيل: الإمامة. لا يكون الظالمُ إمامًا للمتقين؛ لأن من تبعه أمّةٌ من المؤمنين، فهو إمام للمتقين. والظالم متهدَّد بالنار متوعَّدٌ بسوء المنقلب، مشفوعٌ فيه، فكيف يكون شفيعًا؟ محجوب عنه، فكيف يكون شهيدًا؟ ألم تسمع إلى قول الشاهد: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢]، وإلى قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧]، مع قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٢٩]، ثم أجمل ذلك بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

فصغير التوبة لصغير الظّلم عن صغائر المظالم، وكبير التوبة لكبير الظلم عن كبائر المظالم. والظلمة ظلمةٌ اليوم فى القلب، وظلمةٌ غدًا يوم القيامة. فالتوبة تُخرج العبدَ من الظُّلم، وبخروجه من الظلم يدخل فى منازل العهد، وبرعاية

العهد يعمل فى الإصلاح. والله لا يضيع أجر المصلحين، كما لا يصلح عمل المفسدين. فإذا كان مصلحًا بالتوبة ما أفسد بالهوى، استعمل بالصالحات؛ لأنه قد صلُح، فإذا عمل بالصالحات أُدخل فى الصالحين؛ لأنه قد فَضُل. قال الله تعالى: ﴿وَيُؤتِ كُلَّ ذى فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود:٣]. وقال فى البيان الأول: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت:٩]. فمن صلح له تولاه، ومن تولاه علّمه، وحباه، وكاشفه، ومن نفسه عافاه، وأحبه، فكان هو حسبه، وكفاه وجعله تحت كنفه وآواه، فيكون ظاهرُ حاله العصمةَ من الهوى، وأعلاه مشاهدة عين اليقين بالمولى. ومن اكتسب من المظالم ظَلَم، ومن ظَلَم ولاَّه مثله، ومن ولاَّه مثله تولى عنه، ومن تولى عنه أفسد، ومن أفسد قطع ما أمر الله به أن يوصل، ومن قطع بَعُد فانقطع، ومن انقطع فبَعُد لُعِن وطُرِد، ومن طُرد عَمِىَ وصُمَّ تحت الهوى المعمى المصمّ، ومَن عَمِىَ لم يشهد البصير، ومن صُمَّ لم يسمع من السميع، فكيف يتدبر الخطاب وقلبُهُ مقفل، وهمه على هواه مقبل، والفتاح العليم عنه معرض؟ فهذا من توصيل القول بمطلع المقول من قوله تعالى: ﴿نُوَلِّى بَعضَ الظَّالمِينَ بعضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٩]. ومن قوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فى الأَرضِ﴾ [محمد:٢٢] الآية. فتبيَّنوا.

وللتائب حالٌ من أول المحبة، وللتوَّاب مقام من حقيقة الحب، وللناس فى التوبة مقامات حسب كونهم فى الهوى طبقات، وهم فى الحب درجاتٌ نحو مشاهدتهم لمحاسن الصفات. فيتجلى لكل وجهٍ بمعنى حسن وجهه، هذا فى القلوب عن محاسن الإيمان، وفى الآخرة على معانى محاسن الوجوه فى العيان. فتحكم عليهم المشيئة منه لهم، بما يوجدهم به منه، على معانى ما أوجدهم منه به اليوم. فسبحان من هذه قدرته عن إرادته، وسع كلَّ شىء رحمة وعلمًا.

ويلزم كلَّ عبدٍ من المجاهدة على قدر ما ابتُلى به من الهوى، ويثبت له من المحبة بقدر ما صحّ له من التوبة، ويسقط عنه من المجاهدة بقوه ما يُكشف له من المشاهدة، فيحمل الإشهاد عنه آلام الجهاد، فيكون العبد فى البلاء محمولاً،

ويكون يقينه بالشهادة واليقين موصولاً. وهذا من سوابغ العوافى، وتمامٍ من النعماء. وهؤلاء الذين أنعمَ الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، وهم الذين جاء الخبر فيهم: «إن لله عبادًا ضنائنَ من خلقه، يَغْذُوهم برحمته ويجعلهم فى ظل عافيته». يضنّ بهم عن القتل والبلاء، ويحييهم فى عافية، ويميتهم فى عافية. ويدخلهم الجنة فى عافية، أولئك الذين تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم، وهم منها فى عافية.

فالأفضل بعد هذا لكلّ عبد معرفته بعلم حاله، ووقوفه على حدِّه، ولزوم الصدق فى مقامه، وترك التكلف والدعوى فى جميع سكونِه وحركاته، فإن هذا أبلغ له فيما يريد، وأوصل فى طلب ما يرجو. فإنَّ علِمَ العلماء لا يغنى عنه من علمه بنفسه شيئًا؛ لأنه لا يُسأل عن علومهم، كما لا يُسألون عن علمه.

وهذا طريقٌ رأسُ ماله الصدق، وزاده الصبر، وقُوتُه التقوى. فمن عَدِم الصدقَ لم يربح، ومن لم يتزوَّد الصبر انقطع، ومن لم يَقتَت التقوى هَلَك. فذرةٌ من صدقٍ أنفع من مثقال عمل، وذرة من صبر خيرٌ من مثقال علم، وذرة من تقوى أنفع من مثقال إيمان. فإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا. ويعطى الله تعالى بأداء الفرائض واجتنابِ المحارم مقامًا من مقامات اليقين، يرفع به إلى عليين، وربما أعطاه بهما مثل ثواب الأبدال بعد أن يريد بالفعل والترك وجهَ الله تعالى وحدَه، وإن لم يسلك به طريق الأبدال قط، ولم يعرف منهم أحدًا أبدًا.

ومن نقله مولاه باليقين الذى به تولاه، لم يَخفَّ عليه التنقيل؛ لأن النقل يضطره إلى التنقل فى الأحوال، والمشاهدة تحكم عليه بالأفعال. وربّما بلَّغ الله تعالى العبدَ بحسن الظّنِّ به، وقوة الأمل والطمع فيه، جميعَ ما ذكرناه، بعد أن يكون حَسَنَ اليقين. وقد يعطيه مقام الصديقين بخُلُق من أخلاقه إذا خلّقه به. وربما بلَّغه منازل الشهداء بشىء واحد يتركه له، أو شىءٍ يؤثره به؛ لأنه غفور شكور.

وأضرُّ شىء على العبد قلة معرفته به. فلربما كان العبد على تسع كبائر، فيترك

العاشرة لوجه الله تعالى، فتكون تلك الخصلة ذرّة إلى جنب تسعة أجبل، فينظر الله تعالى إليه بوجهه لوجهه الذى ترك له نظرةً، فتمحو تلك النظرةُ الجبالَ التِّسعة، فتصير هباءً منثوراً، وربما حسَّن الله تعالى وصفًا واحدًا من العبد يصفه به، فيحبط عنه مائة وَصْفٍ قبيحٍ يصفه الناس به، فتدبروا.

فلا ييأس عبدٌ من فضل مولاه، ولا يقطعن من حبله رجاه بعد إذ عرفه، فإن السيدَ كريمٌ رحيم. ولا ينقطعن عبدٌ عن بابه، وأن يقطع بخلافه، ولا يَبْعُدنَّ عن فنائه وإن بَعُد بأوصافه، ولا يستوحشنَّ من التقرُّب إليه بما يحب بعد ما توحَّش وتفحَّش لديه بما يكره. فهكذا يحبُّ الله تعالى من عباده، فتبينوا.

ونحو هذا يحب الله تعالى منهم أن يعرفوا، فيفعلوا بعد المعرفة. فإن المعروفَ مفرط الكرم واسع الرحمة فاضل الفضل، فإن أُعطى المعرفة لم يُمنع شيئًا ولا يضر ما منع، وإن مُنع المعرفة لم يُعط شيئًا، ولم ينفع منه ما أعطى.

وقد تلتبس المحابُّ فتدخل محبة النعم فى محبة المنعم، وتدخل محبة النفس على محبة الخالق، ويشتبه ذلك عند عموم المحبين ممن لم يكشف له عين اليقين. فيكون العبد محبًا للنعم، وهو يظن بوهمه أنه محبٌّ للمنعم. ويكون محبًا لنفسه ويحسب أنه محبٌّ لمولاه. وعلامة ذلك سكونه إلى الأشياء وفرحهُ بالموجودات، ووجودُ راحته ولذّته فى هواه. فربما اختار الله تعالى أن يكشف له حاله قبل موته، وربما ستر عليه حاله ولم يفضحه حتى يلقاه، فيثيبه ثواب مثله وجزاءه. وليس يظهر فرقان هذا إلاّ فى قلبِ موقنٍ مرادٍ بنور ثاقب، وعلم نافذ، ويقين صاف من عين التوحيد وشاهد القيومية؛ لأنه من باب مشاهدة الصفات الغيبية ومشاهدة الأفعال الملكوتية، وهو الفرقان الذى وعده الله تعالى المتقين من المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. قيل: نوراً تفرقون به بين الشُّبهات، وهو المخرَجُ الذى ضمنه الله تعالى لأهل التقوى، والمنهج فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]. قيل: من كل أمرِ ضاقَ على الناس به.

فتفصيل معانى التوحيد وشواهد الناظرين أضيق الضيق، وشهادة الجمع فى التفرقة والبقاء فى الفناء أخفى الخفاء، وشرح يطول، ويخرج إلى غير هذا العلم الذى رسمناه، ويدخل فى علم مجهولٍ، غريبٍ عن الأسماع، ينكر أكثره من لا يعرفه، غير أن مَن له نصيب منه يشهد ما رمزناه، فيكشف له به ما غطيناه. إلاّ أنه استولى على القلب أحدُ وجهين:

فالخصوص أحبوه من طريق مشاهدة الصفات، فحبُّ هؤلاء بقلبٍ ووَجدٍ لا يتغير أبدًا، وهم مثبَّتون فيه إلى لقاء الحبيب، وهؤلاء عبدوه على التعظيم والمحبة والإجلال والكبرياء. وفى هؤلاء: المقربون، والمحبوبون، والخائفون، والعاملون، والمتوكلون، والراضون، وهو المقام الأعلى، وهم الأعلون عنده فى المنتهى.

والعمومُ أحبوه من طريق مواجيد الأفعال، وهى النعمُ والإحسان والأيادى والأفضال، وعما أظهر من العوافى، ومما أخبر عنه بما أسرُّوهم الذين خدموه شهوةً وعادةً وحاجةً، أحبوه لمنافعه ومرافقه؛ ولأجل ما فى يده من مُلكه. وحب هؤلاء يتغير لانقلاب الأحكام، وهؤلاء لم يتحققوا بالإخلاص ولا الزهد، وقد بقى عليهم من نفوسهم هوًى، وردَّ حجبهم ذلك عن مخالصته وبعَّدهم عن مُصافاته، وهذه هى أوصافهم عائدة لهم وعليهم. فحبُّ هؤلاء حُوَّلٌ قُلَّبٌ؛ لأن الأفعال التى أحبوه لأجلها تَحُول فيحولون، وتختلف عليهم بالمكاره والمرائر فيختلفون. وفى هؤلاء: المريدون، والعاملون، والراجون، والطامعون، والتائبون، وأصحاب اليمين من هؤلاء.

وقد قال بعض العارفين: كل محبةٍ كانت عن عِوض إذا زال العِوض زالت المحبة. فمنهم من عرف حاله فى مقامه، فاعترف بنقصان محبته، وتقصير شهادته، واستغفر منها وأناب. ومنهم من لُبِّس عليه ذلك لنقصان مزيده، وضعف يقينه، وكانت محبته محبة الأفعال ومحبة النفس فى المآل، وهو يتوهم أنها محبة الجلال والجمال عن صفات متصلة بذات. ويخاف على مثل هذا الانقلاب عند كشف الغطاء؛ لأنه فى اغترار وفتنةٍ والتباسٍ ومحنةٍ، وفى طريق مكرٍ وهَلَكة إلاّ

أن تداركه رحمةٌ من ربه، فيوقفه فى حدِّه من مقامِه، ويرده إلى حاله من مكانه، فيتوب من محبته، ويستغفر من شهادته. فحينئذ يرحمه الله تعالى، فيدخله فى أهل العفو، ويستر عليه فى الآخرة، كما ستر عليه فى الدنيا، فيُلْقِيه تحت الستر فى الدارين.

وهذه بعض مخاوف الصادقين من المحبين؛ لأنها محبة إظهار لا ظهور، فصاحبها فى تقلب وغرور، إلا أن أهل محبة الأفعال ينقسمون قسمين: منهم من أحبه لأجل أفعاله، إلا أنّه يشهدها منه، فيراه فيها، فهو يتصبَّر له، ويتعمَّل فى المجاهدة، ويجتهد فى تنقية محابِّه لبقاء حاله، فهذا أعلاهما، وهذه محبة عموم لأهل الآخرة الذين لا يشهدون سواها، ولا يطلبون إلاّ إياها. ومنهم: من تتغير عليه الأفعال وتخرجه من الاعتياد، وتتابع عليه البلاء، وينقصه من العوافى فى المال والنفس، فيخرج صفته، ويظهر منه تسخطه وتبرُّمه به. فهذا قد افتضح بدَعوى المحبة، وقد كشفه بعد ستره، فلم يزن فى المحبين حبة، وهذه محبة أهل الدنيا، الذين هم لها يكدحون، وإياها يطلبون.

وقد سئل الجنيد رحمه الله تعالى عن المحبة، فقال: الناس فى محبة الله خاصٌّ وعامٌّ. فالعوامُّ نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام إحسانه وكثرة نعمه، فلم يتمالكوا أن أرضوه، إلاّ أنهم تقلّ محبتهم وتكثر على قدر النِّعم والإحسان. فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة، والعلم والحكمة، والتفرد بالملك، فلما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبّوه، إذ استحق عندهم المحبة بذلك؛ لأنه أهل لها، ولو أزال عنهم جميع النعم.

ومن الناس من يكون محبًا لهواه، أو لعدو الله إبليس، وهو يدعى ـ لعظيم جهله وطول غرته ـ المحبةَ لله تعالى.

قال بعض علمائنا: عوتب أبو محمد فى قوله لكل أحد: يا دُوست. قال: فقلتُ له: قد لا يكون حبيبًا كما تقول. فقال فى أذنى سرًا: لا يخلو، إما أن يكون مؤمنًا أو منافقًا؛ فإن كان مؤمنًا فهو حبيب الله عز وجل، وإن كان منافقًا

فهو حبيب إبليس.

ومن محبة الهوى إيثارُ عاجل حظّ النفس على آجل ما وُعدت به، ويقدم محبتها على محبة الله عز وجل، وهى مطبوعة على محبة الهوى وكراهة الحق، وأمَّارةٌ بالسوء فيما تُسِرُّ، كذَّابةٌ فيما تُظهر من الخير. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعسَى أَنْ تَكرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُم﴾ [البقرة:٢١٦]، فقرَن محبتها بالشرِّ وقَرَن كراهتها بالخير، والعرب تسمى النفس كَذبة، أى التى يكثر منها الكذب، يصفونها بالمبالغة فيه، على معنى قوله: ﴿وَيلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزة﴾ [الهمزة:١] أى الذى يُكثر همزَ الناس ولَمزَهم. وكذلك وصفها الله تعالى بالمبالغة بالأمر بالسوء فقال: ﴿لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ﴾ [يوسف:٥٣] أى فعاله التى يكثر منها الأمر، ويتكرر مرة بعد مرة، من وصفها الفعل، ومن محبة العدو طاعته وموافقته؛ لأن فيها كراهة الله تعالى ومخالفته، وهو مجبولٌ على ضدّ ما يحب الله تعالى، والله تعالى يحب ضدًّ ما جعله عليه، وذلك ابتلاء من الله تعالى له، وابتلاءٌ منه به لنا.

واعلم أن قليل ما أعطاك الله عز وجل من الإيمان به، وصحةِ التوحيد له، ويسير ما قسم الله تعالى لك من الإخلاص والصّدق وحسن المعاملة ـ خيرٌ لك وأنفع من كثير ما أظهر لك وعرّفك. وإنّما لك بما رأيته وأطَلْتَه ونلته بيدك، وما مُلّكته وسُلِّطت عليه من منازلتك. فأما ما لم تُطِلْهُ ولم تنله فهو لغيرك، لأنك قد ترى السماء ولا تنالها، فهى أرضٌ لمن سُخِّرت له، وترى ما جُعل لغيرك فلا ينفعك، ولا يغنى عنك، وهو نافع مغنٍ لمن سُلِّط عليه فَمَلَكَهُ. ومن الناس من يتوهَّم أن الإظهار هبةٌ له، وأن ما رآه وعرفه مَلَكه وحازه وتحقّق به.

واعلم أن ألفَ خاطرٍ لا يجىء منها حال، وألف حال لا يكون منها مقام، والمقام إنما هو ما ثبت ودام. فمثل الخواطر فى ممرها كالسحاب فى سيرها، وقيل فى المثل: «سحابة صيف عن قليل تقشع». ومثل الأحوال فى حَيلُولَتِها كمثل

الأزمنة فى أحوالها، فى كل سنة أربعة: مشتًا، ومصيف، ومربع، وخريف. وإنما الهبة من الله تعالى ما وقر فى القلوب من المشاهدات، وما حققته الأعمال من المنازلات، فيُورث ذلك علمًا خاصيًا، أو خلقًا مرضيًا، أو حالاً سنيًا، أو وصفًا زكيًا من أخلاق الصالحين، وسيما المتقين، وعلوم العارفين، وملاحظات المقربين.

ولا يصلح الكلام بهذا العلم إلاّ لمن له مشاهدةٌ منه إن كان من علوم القدرة والتوحيد، أو منازلة إن كان من مواريث الأعمال، وعن تنقيل الأحوال أو عن زُهد فى الدنيا، وسعى فى طلب الأخرى إن كان من علم الوعظ والنّدب إلى الفضل، فذلك كلّه بعد التوبة ومع حال الاستقامة، وعن كمال علم السنَّة والجماعة، بعد معرفةٍ بعلم الأصول والسُّنن من آثار الرسول. وإلاّ كان متكلِّفًا، وفى الدعوى داخلاً، إلا أن يحكى شيئًا سمعه، فيكون به لقائله محاكيًا، أو يُضيف حالاً إلى صاحبه، فيكون عنه راويًا.

فأما التحلى وهو اللباس الظاهر، والتصنع المفتعل بالإشارات الفارغة، فهو من حلية الدنيا وزينة الهوى. وكذلك التمنى، وهو ما يظنه العقلُ أو توهَّمته النفس وقدَّره الوهم، أو مِن وسوسة العدو الخنّاس، لعنه الله تعالى، فليس هذا كله من الإيمان، ولا من علم اليقين فى شيء، بل هو من هَمَزات الشياطين وخطراتهم وقُرب محضرهم؛ لأن هذا العلم دواء القلوب من أدواء الذنوب، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَن تطبَّب ولم يعلم منه طبٌّ فقَتل، فهو ضامن»، فالمتكلم للناس بقتلهم يكون قاتلاً، والإظهار الذى يقع به الاغترار أكثر من أن يحصى، والظهور الذى يحق به الحقيقة أعزُّ من أن يُرى، والله تعالى يظهر من خزانة مُلكه ما شاء على الألسنة والجوارح، فهى كخزائنِ الأرض، فيها من التدبير والحكمة كما فى تلك، وعلوم هذه الخزائن هى العلوم الظاهرة، وهى حجج الله تعالى فى أرضه وعلى عباده، ويُظهر من خزائن ملكوته ما يحب، وهى القلوب والبصائر والكنوز والذخائر، فهذه كخزائن الملكوت وهى من خزائن السماء، وفيها من القُدَر والآيات كما فى السموات، وعلوم هذه الخزائن من علم اليقين، وهو العلم

الباطن النافع، يخص به من يحب، وهم أولياؤه المقربون، إن الحكم إلا لله، ولا يشرك فى حكمه أحدًا، يختص برحمته من يشاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وهذا آخر شرح مقام المحبة، وهو آخر شرح مقامات اليقين التسعة.

* * *

فهرس موضوعات الجزء الثانى

الموضــــــــوع الصفحة

الفصل الثانى والثلاثون: فيه شرح مقامات اليقين وأحوال الموقنين ٤٩٩
المقام الأول: ذكر فروض التوبة، وشرح فضائلها، ووصف التوابين ٤٩٩
المقام الثانى: شرح مقام الصبر، ووصف الصابرين ٥٣٨
* بيان آخر من تفضيل الصبر ٥٥٤
* بيان آخر من فضل الصبر ٥٥٤
* وجه آخر من بيان التفضيل ٥٥٥
* نوع آخر من الاستدلال على فضل الصابر وتفضيل الصبر جملة ٥٥٦
المقام الثالث: شرح مقام الشكر، ووصف الشاكرين ٥٦٣
المقام الرابع: شرح مقام الرجاء، ووصف الراجين ٥٨٦
المقام الخامس: شرح مقام الخوف، ووصف الخائفين ٦١٦
* بيان آخر فى معنى الخوف ٦٥٥
* ذكر تفصيل هذه المخاوف ٦٥٦
المقام السادس: شرح مقام الزهد، ووصف أحوال الزاهدين ٦٨٠
* ذكر ماهية الزهد، أى شىء هو؟ ٧٠٢
* بيان آخر من الزهد، أى شىء هو؟ ٧١٠
* وصف آخر من البيان والتفصيل ٧١٢
* ذكر بيان حقيقة الزهد وتفصيل أحكامه ووصف الزاهد ٧١٣
* بيان آخر مستنبط من الكتاب ٧١٥
* بيان آخر مستنبط من السنة فى ماهية الزهد ٧١٧
* ذكر وصف الزاهد، وفضل الزهد ٧١٨
* ذكر ماهية الدنيا وكيفية الزهد فيها وتفاوت الزهاد فى مقاماتهم ٨١٦
* فصل آخر ٨٣٥
المقام السابع: شرح مقام التوكل، ووصف أحوال المتوكلين ٨٥١
* ذكر إثبات الأسباب والأواسط لمعانى الحكمة، ونفى أنها تحكم، وتجعل لثبوت الحكم والقدرة للحاكم الأول ٨٧٨

الموضـــــــــــوع الصفحة

* ذكر تفصيل التكسب والتصرف فى المعايش والحركة ٨٩٩
* بقية الكلام فى التكسب والمعايش للمتوكلين ٩١٢
* بيان قول الخواص، والفضيل، وسهل، وذى النون، رحمهم الله، فى ترك التدبير والاختيار، والرضا بمجارى الأقدار ٩٢٤
* ذكر الادخار مع التوكل ٩٣٧
* ذكر التداوى وتركه للمتوكل وتفصيل ذلك ٩٤٤
* ذكر الفضائل لمن لم يتداو ويصبر للقضاء ٩٥١
* بيان آخر من التمثيل فى التداوى وتركه ٩٦١
* ذكر استواء شهادة المتوكل مع اختلاف ظهور الأسباب ٩٦٣
* ذكر تشبيه التوكل بالزهد ٩٦٦
* ذكر كتم الأمراض، وجواز إظهارها ٩٦٧
* ذكر فضل التارك للتكسب ٩٦٩
* ذكر حكم المتوكل إذا كان ذا بيت ٩٧٥
* بقية الكلام فى المتوكل على الله يُؤخذ منه الشىء فيجعله فى سبيل الله ثم يُرَدُّ عليه ٩٨٨
* ذكر بيان آخر من أحكام التوكل وصحة وقوعه ٩٨٩
* ذكر بيان آخر من فضيلة المتوكل ٩٩٦
* مزيد آخر من الهدى والبيان ٩٩٦
* ذكر بيان آخر من وصف المتوكلين ٩٩٨
* ذكر ما لا ينقص المتوكل فى توكله ١٠٠٢
المقام الثامن: شرح أحكام مقام الرضا، ووصف الراضين ١٠٠٦
المقام التاسع: ذكر أحكام المحبة، ووصف أهلها ١٠٤١
* ذكر مخاوف المحبين ومقاماتهم فى الخوف ١٠٧٠
* ذكر تفصيل علم السماع للقول، ووصف الصحيح من ذلك والمعلول، ووصف الواجدين بحقٍّ، وذمّ المتواجدين بهوًى ١٠٨٩
* ذكر الشوق، ووصف المشتاقين، والغيرة ١١٠١
* ذكر وصف بعض المحبين من المكاشفين وأبدال الصديقين من المقربين ١١٣١
فهرس الموضوعات ١١٦٧